

تأليف

الدكتور السيد الباز العريني



الدولة البيزنطية

٣٢٣ - ١٠٨١ م

تأليف

الدكتور السيد الباز العريني

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ٧٤٩ - ١١

الناشر


دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

الادارة : بيروت - شارع مدحت باشا - بناية كريدية
تلفون : 743166- 743167 - 736093
برقيا : دانهضة - ص .ب 749-11
فاكس : 735295 - 1 - 00961

المكتبة : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون : 316202 - 818703

المستودع : بئر حسن - خلف تلفزيون المشرق - سابقا
بناية كريدية - تلفون : 833180

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الصفحة

تصدير

يقع تاريخ الدولة البيزنطية فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى ، وتمتد منذ عصر دقلديانوس ، أواخر القرن الثالث الميلادى ، وتنتهى بظهور هرقل فى مستهل القرن السابع الميلادى ، وتعتبر العصر المبكر لتاريخ الدولة البيزنطية أو العصر المتأخر للدولة الرومانية .

وتمتد المرحلة الثانية ، التى تعتبر العصر المتوسط للدولة البيزنطية ، إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهى أزهى عصور الدولة البيزنطية .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة ، فتنتهى بسقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ .

وهذا الكتاب ، عالج المرحلتين الأولى والثانيـــة من تاريخ الدولة البيزنطية ، ذلك أن المرحلة الأولى ، تعتبر مرحلة انتقال من التاريخ الرومانى إلى التاريخ البيزنطى ، وفيها انصهرت ما كان من مؤثرات رومانية وما استجد من عوامل فى هذه الفترة ، حتى إذا استهل القرن السابع ظهرت الخصائص البيزنطية جلية واضحة .

فما حدث فى هذه المرحلة من الصراع بين الوثنية والمسيحية ، وما كان من انتصار المسيحية ، ومن ظهور المذاهب المسيحية المختلفة ، وما كان لها من أهمية فى انفصال أقاليم عن الدولة ، وما حدث من النزاع بين الكراسى الرسولية ، كل ذلك كان له أهميته فيما وقع من النزاع بين البابوية فى روما وبطريركية القسطنطينية ، وما كان من العلاقة بين السلطة الزمنية (سلطة الإمبراطور) ، والسلطة الروحية (سلطة البطريرك) .

يضاف إلى ذلك ما حازه الأباطرة فى تلك المرحلة من صفات جعلتهم يتمسكون بالاستبداد الإمبراطورى البابوى ، فى العصر البيزنطى ، وأفادوا من

ذلك ، فيما أسبغوه على حروبهم وأعمالهم من صفة دينية ، كان لها أثر كبير فيما أحرزوه من انتصارات .

وما حدث من انحسار الحكم البيزنطى ، بعد حروب جستنيان ، عن جهات كثيرة ، جعل الدولة البيزنطية ، تنتهج فى الدفاع عن أملاكها والمحافظة عليها خططاً جديدة ، مما ابتدعته من نظم حربية ، تعتبر نواة لما كان معروفاً فى العصر التالى بنظام الثغور ، وما كان لهذا النظام من أهمية سياسية واقتصادية .

فإذا استهلت المرحلة الثانية من التاريخ البيزنطى ، استطعنا أن نلمس ما استقر من نظم إدارية ومالية وعسكرية واقتصادية ودينية ، وما تعرضت له الدولة من أخطار خارجية ، من الشرق والشمال والغرب .

ولهذه المرحلة أهمية خاصـــة ، نظراً لأن العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، استهلت ببداية هذه المرحلة ، واستمرت حتى سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين . والواضح أن هذه العلاقات اتخذت مراحل عديدة ، ارتبطت بما قام من الدولة الإسلامية ، وما كان بين هذه الدولة وبيزنطة من علاقات .

ولا شك أن بيزنطة لجأت إلى أن تعدل فى سياستها الداخلية والخارجية بما يكفل لها المحافظة على أملاكها ، فاستعدت الأمم المسيحية واستثارتها ضد المسلمين ؛ وبذا نشبت الحروب الصليبية .

ومن أهم مظاهر السياسة البيزنطية فى هذه المرحلة ، ما حدث من تطور العلاقات بين بيزنطة والعالم الغربى ، وما كان من تنازع القوى المسيحية فى إيطاليا ، وقدوم النرمان ، وإفادتهم من هذه المنازعات ، بإقامة ملكهم فى جنوب إيطاليا وصقلية ، وتطلعهم إلى غزو القسطنطينية .

والواضح أن بيزنطة أفادت من الدروس التى تعلمتها فى المرحلة الأولى ، فى معاملة الشعوب والقبائل التى هبطت إلى أملاكها ، بما استخدمته من وسائل مختلفة فى إخضاع هذه الشعوب لسلطانها ، كأن تبذل لهم الأموال ،

وتؤدى لهم الإتاوات والجزيات ، أو ترتبط بأمرائهم بصلات النسب والمصاهرة ، أو تغمرهم بالمنح والتشاريف ، فضلا عن حرصها على نشرها مذهبها المسيحى بينهم ؛ فدانت هذه الشعوب آخر الأمر ، لسلطان البيزنطيين .

والواقع أنه حدث فى نهاية هذه المرحلة من العوامل ما أدى إلى ضعف الدولة البيزنطية ، الذى اتسم به العصر المتأخر من تاريخها . ومن هذه العوامل ما كان من موقف الحروب الصليبية والدولة الغربية من بيزنطة ، وتعرض بيزنطة للأخطار من قبل المسلمين والمغول ، فضلا عما جرى من المنازعات الداخلية .

كل ذلك يجعل لهذا العصر الثالث صفة تختلف عما كان لبيزنطة من الخصائص فى المرحلة المتوسطة .

وأرجو أن تتهيأ لى الفرصة للقيام بدراسة مستقلة عن هذه المرحلة .

وقد أضفنا إلى هذه الطبعة عدداً من الملاحق عن بطاركة القسطنطينية وبابوات رومة ، والأكاسرة الساسانيين ، والخلفاء والأمراء المسلمين ، حتى تتضح أمام الدارس صورة العصر الوسيط بجهاته المتعددة : البيزنطية والمسيحية الغربية والإسلامية الشرقية .

وينبغى أن يكون مفهوماً ، أن عالم العصور الوسطى ، بجهاته الثلاث ، كان على نحو ما كلاًّ واحداً ، بين أجزائه من التفاعل والعلاقات ، ما يجعل دراسة أى منها على حدة ، ودون التعرض للأجزاء الأخرى ، أمراً عسيراً ، إن لم يكن خاطئاً تماماً .

والله ولى التوفيق .

القاهرة : { أكتوبر سنة ١٩٦٥ / جمادى الآخرة سنة ١٣٨٥ }

السيد الباز العرينى

الفصل الاول

تطور دراسة التاريخ البيزنطى

لم تحفل النهضة الإيطالية إلا بما يتعلق باليونانيين والرومان من دراسات ، فلم تهتم إيطاليا مطلقاً بالدراسات البيزنطية . على أن هذا الاتجاه نحو إهمال المصادر اليونانية للعصور الوسطى ، أخذ يتغير ، بفضل ما جرى من زيارات للشرق ، للبحث عن المخطوطات اليونانية ، والعكوف على دراسة اللغة اليونانية . غير أن الاهتمام بالمصادر البيزنطية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لم يكن إلا اهتماماً طارئا ، وذلك بسبب الانصراف إلى دراسة العالم القديم .

وفى القرن السادس عشر ازداد الاهتمام بدراسة التاريخ البيزنطى والمصادر البيزنطية . إذ جرى وقتذاك فى جهات عديدة بأوربا ، لاسيما ألمانيا وهولندا وإيطاليا ، نشر مؤلفات كثيرة لمؤلفين فى التاريخ البيزنطى ، على الرغم من أن المؤلفات لم تكن بالغة الأهمية ، إذ وقع الاختيار عليها عفواً واعتباطا[١] .

ولم تبدأ الدراسة الخالصة فى فرنسا للتاريخ البيزنطى إلا أثناء القرن السابع عشر . ففى زمن لويس الرابع عشر ، أضحى للدراسة البيزنطية مكانة ملحوظة ، بفضل ما كان لفرنسا وسياستها من أهمية فى أنحاء أوربا . ففى أوائل هذا القرن ظهرت ترجمة فرنسية للنصائح التى بذلها الشماس أجابيتوس Agapetus للإمبراطور جستنيان[٢] . وحوت مكتبة الكاردينال مازاران Mazarin ، مؤلفات يونانية عديدة ، وانتقلت هذه المجموعة بعد وفاته إلى مكتبة باريس (المكتبة الأهلية الحالية) وهى المكتبة التى أنشأها الملك فرانسوا الأول فى القرن السادس عشر ، وأضيف إلى المكتبة الملكية أيضا ما كان لدى الوزير كولبير Colbert من مجموعة كتب قيمة ، ومن بينها عدد كبير من

---

(١) Ostrogorowski : History of the Byzantine State, p. 3.

(٢) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 3.

المخطوطات اليونانية ، وأخذت مطبعة اللوفر تنشر سلسلة كبيرة للمؤرخين البيزنطيين . وأول كتاب تم نشره من هذه السلسلة كان كتاب John Cantacuzenus الذى صدر سنة ١٦٤٥ . وفى سنة ١٧١١ تم نشر ٢٤ مجلداً من هذه المجموعة للمؤرخين البيزنطيين (١) .

ومن أشهر الأساتذة الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، دى كانج Du Cange (١٦١٠ — ١٦٨٨) ، ولا زالت مؤلفاته عظيمة الأهمية حتى الوقت الحاضر . اشتهر دى كانج بأنه مؤرخ ولغوى وعالم آثار ودارس نقود ، وشغوف بالفن ، فضلا عن عكوفه على العمل والدراسة ، ومن أشهر مؤلفاته فى التاريخ البيزنطى كتابه المعروف بتاريخ إمبراطورية القسطنطينية (٢) . وكتابه عن الأسرات البيزنطية (٣) ، يتضمن تفاصيل وفيرة عن أنساب الأسرات البيزنطية ؛ وكتابه عن القسطنطينية المسيحية (٤) ، يشتمل على تفاصيل دقيقة عن خطط القسطنطينية حتى سنة ١٤٥٣ . وأصدر دى كانج قبيل وفاته قاموسين أحدهما عن اللغة اليونانية ، والآخر عن اللاتينية ، فى العصور الوسطى ولهذين المؤلفين أهمية كبيرة ، لاسيما لما ورد فيهما من تعليقات قيمة . ومات دى كانج سنة ١٦٨٨ ، بعد أن بلغ من العمر ٧٨ سنة (٥) .

لم يكن دى كانج وحده من المهتمين بالدراسات البيزنطية فى فرنسا ، ففى نفس الفترة ألف مابيلون Mabillon (١٦٣٢ — ١٧٠٧) كتابه القيم عن علم الوثائق (٦) الذى أسهم فى ظهور علم جديد عن الوثائق والبراءات (٧) .

وفى القرن الثامن عشر أصدر مونتفوسون Montfaucon (١٦٥٥ —

(١) Vasiliev : op. cit. p. 3. Ostrogorowski p. 4.

(٢) Histoire de l'Empire de Constantinople sous les empereurs français.

(٣) De families byzantinis.

(٤) Constantinopolis Christiana.

(٥) Vasiliev : op. cit. p. 5.

(٦) De re diplomatica

(٧) Vasiliev. p. 5.

١٧٤١) كتابا عن علم الخط اليونانى القديم (١) ، لا زال حافظا لقيمته حتى الوقت الحاضر . وحوالى هذا الوقت أيضا — سنة ١٧١١ — أصدر الراهب البندكتى باندورى Banduri (١٦٧٠ — ١٧٤٣) الذى عاش ودرس فى باريس ، وهو أصلا من راجوزا Ragusa ، كتابه المشهور عن الإمبراطورية الشرقية (٢) ، ويشتمل على مادة وفيرة عن تاريخ بيزنطة وجغرافيتها ، وجغرافيتها التاريخية . وظهر وقتذاك أيضاً كتاب الشرق المسيحى Oreins Christianus الذى ألفه الراهب Le Quien (١٦٦١ — ١٧٣٣) وأولى اهتماما خاصا بالكنيسة فى الشرق المسيحى (٣) .

وظلت فرنسا حتى منتصف القرن الثامن عشر موطن الدراسة البيزنطية . غير أن الأحوال لم تلبث أن تغيرت فى هذا العصر بفرنسا ، إذ أن الحركة العقلية التى امتاز بها القرن الثامن عشر ، اشتهرت بالحرص على إغفال الماضى وإنكاره ، والتشكك فى الدين ، وتوجيه النقد المر إلى السلطة الروحية (الكنيسة) ، والملكية الاستبدادية ؛ فمن الطبيعى ألا تحفل بدراسة الإمبراطورية البيزنطية . فالتاريخ الوسيط لم يكن فى نظر مؤلفى هذا الزمن سوى تاريخ القوط والمتبربرين ، ويعتبر مصدراً للجهالة . فتعرض التاريخ البيزنطى نتيجة لذلك ، للنقد المرير . ومن هؤلاء النقاد طائفة من كبار المفكرين فى القرن الثامن عشر ، على الرغم من أنهم لم يقوموا بدراسة هذه المرحلة من التاريخ . فبعد أن وجه ڤولتير النقد إلى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، أشار إلى أن التاريخ البيزنطى لم يتناول إلا ذكر المعجزات ، واعتبر ذلك وصمة عار للعقل البشرى . أما مونتسكيو Montesquieu المعروف بأنه مؤرخ جاد متزن ، فإنه رأى أن تاريخ الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) ، لم يكن منذ القرن السابع الميلادى إلا سجلا حافلا بالثورات والمؤامرات (٤) . ولم تخل كتابات المؤرخ الانجليزى

(١) Palaeographia graeca.

(٢) Imperium Orientale.

(٣) Vasiliev p. 5, Ostrogorowski p. 5.

(٤) Montesquieu : Considerations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur decadence, trans. J. Baker ch. XXI. p. 437.

جيبون Gibbon من الأفكار السائدة وقتذاك . واستمر هذا الاتجاه السلبى نحو التاريخ البيزنطى حتى أوائل القرن التاسع عشر . فالفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) يشير فى كتابه[١] ، الذى ضمنه محاضراته عن فلسفة التاريخ ، إلى أن تاريخ الدولة البيزنطية لم يتناول إلا ما جرى فى داخل البلاد من تغلب الشهوات والنزعات ، وما تعرضت اه الدولة ، من الخارج ، من اعتداء المتبربرين ، الذين لم يجدوا إلا مقاومة ضئيلة من قبل الأباطرة البيزنطيين . فالدولة كانت فى حالة اضطراب وقلق دائم . وتبعا لذلك لم يكن تاريخها إلا صورة لما سادها من النزعات والأهواء الوضيعة ، التى تعمل على التخلص من كل ما هو نبيل من الأفكار والأعمال والأشخاص . وما حدث من ثورات القادة العسكريين ، وخلع الأباطرة على أيدى قادة الجيش ، أو بسبب المؤامرات التى جرى تدبيرها فى البلاط ، وما قام به نساء القصر ، وأبناؤهن ، من اغتيال الأباطرة ، فضلا عن مظاهر الترف والانحلال الشائعة فى دوائر القصر ، ليست إلا ما يعرضه التاريخ البيزنطى من المناظر والصور ، حتى إذا كان منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٣ م) لم يلبث بناء الإمبراطورية الشرقية أن انهار أمام قوات الترك الفتية ، فأضحت بيزنطة ، عند رجال السياسة ، مضرب المثل فى الفساد . فى الخطاب الذى ألقاه نابليون الأول فى يونية سنة ١٨١٥ ، فى عهد المائة يوم ، فى مجلس الأمة ، قال : فلتعاونونى على إنقاذ وطننا ، ولا تجعلونا ننهج طريق الإمبراطورية البيزنطية ، التى غدت سخرية الأجيال ، بسبب انصراف ساستها إلى الجدل والمناقشة ، بينما كان العدو يضيق عليها الخناق من كل جانب ، وأخذت أسوارها تنهار تحت وابل قذائفهم[٢] .

على أن معايير العلماء الأوربيين عن العصور الوسطى لم تختلف إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، فصار الأوربيون ينظرون إلى العصور الوسطى

(١) Vorlesungen uber die Philosophie der Gesehichte III. part 3.
(Lectures on the Philosophy of History, trans. J. Sibree)

(٢) Vasiliev. op. cit. p. 7.

نظرة مخالفة لما كان يجرى قبل الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، فأضحى التاريخ البيزنطى مجالا للدراسة الجديدة والبحث العلمى[١] . فكتاب مونتسكيو عن الرومان[٢] ، الذى ألفه سنة ١٧٣٤ ، أى فى ظل الأفكار السائدة فى القرن الثامن عشر ، إنما يمثل وجهة نظر مؤلفى هذا العصر . فاعتبر مونتسكيو التاريخ البيزنطى صلة للتاريخ الرومانى ، وأخذ على حد تعبيره « منذ النصف الثانى من القرن السادس ، يطلق على الإمبراطورية الرومانية ، عبارة الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) » . وقسا مونتسكيو فى حكمه على هذه الإمبراطورية ، وأشار إلى أن الإمبراطورية البيزنطية ، بلغ من فداحة عيوبها ونقائصها ، وسوء الأحوال الاجتماعية والدينية بها ، وضعف قوتها الحربية ، ما جعل من العسير إدراك سر بقاء هذه الدولة حتى منتصف القرن الخامس عشر . وترتب على أهمية هذا التساؤل عنده ، أنه جعل الفصل الأخير من كتابه ، شرحا للعوامل التى أدت إلى إطالة عمر هذه الإمبراطورية . فأرجع هذه الأسباب إلى ما وقع بين المسلمين من الاضطراب والنزاع ، وإلى اكتشاف النيران الإغريقية ، وإلى ازدهار تجارة القسطنطينية ، وإلى استقرار المتبربرين فى إقليم الدانوب ، فدرأوا عن الدولة ما تعرضت له من الاعتداء والهجوم[٣] .

أما المؤرخ الإنجليزى إدوارد جيبون Gibbon (١٧٤٧–١٧٩٤) ، مؤلف كتاب تداعى الإمبراطورية الرومانية وسقوطها[٤] . فإنه ولد فى ٢٧ إبريل سنة ١٧٣٧ ، وتلقى جانبا من تعليمه فى وستمنستر ، ثم على يد مؤدبين . وحصل فى كلية مدلين Magdalen بأكسفورد سنة ١٧٥٢ على شهادة إتمام الدراسة الثانوية التى تؤهله للالتحاق بالجامعة . ثم ارتحل إلى لوزان بسويسرا ، فعكف على دراسة اللغة الفرنسية ، والآداب اليونانية واللاتينية ، وكتب التاريخ والفلسفة .

(١) ibid. p. 7.

(٢) Considerations sur les Causes de la grandeur des Romains et de leur decadence.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 7.

(٤) The Decline and Fall of the Roman Empire.

وبلغ تأثير إقامة جيبون فى سويسرة مدة طويلة ، أنه اعتبرها وطنه الثانى . أشار إلى ذلك فيما بعد حين كتب « لم أعد إنجليزيا ، ففى مستهل الشباب ، منذ السادسة عشرة من عمرى حتى الحادية والعشرين ، غلب على آرائى ، وعاداتى ، وعواطفى ، طابع أجنبى ، إذ كاد ينطمس كل ما يعلق بذهنى عن انجلترا ، وتضاءل استخدامى للغتى القومية ، ولو أنه عُرض على مقدار معتدل من الثروة مقابل النفى المؤبد ، لقبلت ذلك بكل ارتياح » . وفى لوزان التقى بأشهر رجال العصر ، ڤولتير الشاعر ، المؤرخ ، الفيلسوف .

وحينما عاد جيبون إلى لندن ، أصدر سنة ١٧٦١ أول مؤلف له ، كتبه باللغة الفرنسية(١) . الذى لم يلق من الإنجليز إلا الاستخفاف ، على حين أنه حظى بقبول رائع فى فرنسا وهولندا . ثم اشترك فى حرب السنين السبع ، التى وقعت بين انجلترا وفرنسا . وفى سنة ١٧٦٣ عاد إلى لوزان ، وزار خلال هذه السنة فلورنسه وروما ونابولى والبندقية وغيرها من المدن الإيطالية . وفى أثناء إقامته بروما فكر فى كتابة تاريخ لها ، ويشير إلى ذلك بقوله « ففى روما ، وفى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وبينما كنت أجلس ساهما متأملا بين أطلال الكابيتول ، وبينما كان الرهبان يرتلون أدعيتهم وصلواتهم فى معبد جوبيتر (المشترى) ، دار بخلدى لأول مرة فكرة كتابة تاريخ تداعى روما وسقوطها(٢) . غير أن هذه الفكرة لم تلبث أن نمت وتطورت إلى كتابة تاريخ للإمبراطورية الرومانية كلها ، فى الشرق والغرب ، حتى سنة ١٤٥٣ .

ولما عاد جيبون للمرة الثانية إلى لندن ، نشط فى البحث عن المادة التاريخية اللازمة لكتابه الذى أزمع تأليفه . فظهر الجزء الأول منه ، الذى يبدأ بعصر أغسطس ، فى سنة ١٧٧٦ ، فحظى بنجاح كبير ، فلم تكد تمضى أيام قليلة على صدوره حتى نفدت الطبعة . أما الأجزاء الستة الباقية . فإنها سببت عاصفة من الاحتجاج لاسيما من قبل الإيطاليين الكاثوليك ، وذلك لأن آراء جيبون الدينية

(١) Essai sur l'étude de la litterature.

(٢) The Autobiographies of Edward Gibbon, ed J. Murray, p. 148, 152.

إنما تتفق مع روح القرن الثامن عشر(١) . وأكمل جيبون مؤلفه فى لوزان . غير أن حوادث الثورة الفرنسية أرغمته على الرجوع إلى انجلترا ، حيث قضى نحبه بها فى يناير سنة ١٧٩٤ . اعتبر جيبون أن التطور التاريخى للمجتمع منذ القرن الثانى الميلادى ليس إلا حركة انحطاط وتدهور . والمعروف أن الفصول التى كتبها جيبون عن المسيحية ليس لها الآن إلا أهمية تاريخية ضئيلة .

والواقع أن عوامل عديدة أثرت فى الوقت الحاضر فى الحكم على مؤلفات جيبون ، إذ توافرت المادة التاريخية وتغيرت المشاكل التاريخية . وازداد فحص المصادر ونقدها ، وجرى الاهتمام بدراسة المصادر وما بينها من الروابط ، واستحدث من العلوم ما له صلة قوية بدراسة التاريخ ، مثل علم النميات والخطوط ، والنقوش ، والأختام ، والبردى . يضاف إلى ذلك أن جيبون لم يتعمق فى دراسة اللغة اليونانية . وما ورد من المادة التاريخية فى كتابه حتى سنة ٥١٨ ، أى إلى زمن وفاة الإمبراطور أنستاسيوس الأول ، يدين بها إلى سلفه العالم الفرنسى المعروف ، تيلمون Tillemont(٢) ، ولذا ما جاء من التفاصيل عن هذه الفترة لأكثر أسهابا ودقة عن كل ماجاء فى تاريخه عن سائر الفترات(٣) .

لم يظفر جيبون بنجاح كبير فيما أفرده فى كتابه للدولة البيزنطية ؛ لأنه لم يتيسر له الإفادة من المصادر الأصلية ، ولم يستطع أن يتخلص من أفكار عصره (القرن الثامن عشر) ، التى لا تتقبل التاريخ البيزنطى ، وما أورده من شرح للأحداث الداخلية فى التاريخ البيزنطى بعد هرقل ، لم يكن فحسب ظاهريا وسطحيا ، بل لم يعط فكرة صادقة عن الحقائق التاريخية . فلم يحفل ببعض النواحى الهامة فى التاريخ البيزنطى مثل عصر مناهضى عبادة الصور المقدسة ، والتاريخ الاجتماعى فى القرنين العاشر والحادى عشر(٤) .

(١) Vasiliev : op. cit. p. 9.

(٢) مؤلف كتاب : Histtoire des Empereurs.
الذى صدر فى سنة ١٦٩٢ فى بروكسل .

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 10.

(٤) Vasiliev : p. 11.

وظهرت أول طبعة لكتاب جيبون فى لندن فى السنوات ١٧٧٦ — ١٧٨٨ فى ستة مجلدات . ومنذ ذلك التاريخ صدرت له طبعات عديدة . وفى نهاية القرن التاسع عشر قام العالم الإنجليزى بيورى (G. B. Bury)، الذى اختص بالدراسات البيزنطية ، على إعداد طبعة جديدة من هذا الكتاب ، فأضاف إليه شروحا وتعليقات بالغة القيمة ، وألحق به فهرسا حافلا . واشتملت إضافات بيورى على ما وصل إليه منذ زمن جيبون من نتائج البحث التاريخى . وجرت ترجمة كتاب جيبون إلى جميع اللغات الأوربية . وتولى المؤرخ المعروف والسياسى المشهور جيزو (Guizot)، ترجمة كتاب جيبون إلى اللغة الفرنسية ، قبل أن ينشر بيورى طبعته الجديدة ، وأصدره فى باريس سنة ١٨٢٨ فى ١٣ مجلدا . وترجع أهمية هذه الطبعة إلى ما أضافه إليها جيزو من حواشى وتعليقات تاريخية قيمة(١) .

على أن الدراسات الجدية عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية لم تظهر إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر . ومن أشهر المؤرخين الذين أسهموا بقسط كبير فى تقدم الدراسات البيزنطية ، فنلاى Finlay . وتناول كتابه تاريخ بلاد اليونان منذ الفتح الرومانى حتى سنة ١٨٦٤(٢) . وخلف فنلاى ترجمة ذاتية(٣) ألقت ضوءا كبيرا على العوامل التى تأثر بها فى كتابه . ولد فنلاى فى انجلترا فى سنة ١٧٩٩ ، وتلقى بها التعليم الابتدائى . ونظرا لأنه اختار المحاماة مهنة له فى المستقبل ، ارتحل إلى مدينة جوتنجن بألمانيا ليستكمل دراسته فى القانون الرومانى . وحين ذهب لوداع عمه ، نصحه عمه بأن يكد ويجتهد فى دراسة القانون الرومانى ، غير أنه أشار بأنه إنما يتوقع أن يزور ابن أخيه بلاد اليونان قبل عودته إلى انجلترا . وكأنما تنبأ العم بما قام به فنلاى فيما بعد من دراسة تاريخ بلاد اليونان .

شبت الثورة اليونانية وقتذاك ، ولفتت إليها أنظار أوربا بأسرها . وبدلا من أن ينصرف فنلاى إلى دراسة القانون الرومانى ، عكف على دراسة تاريخ

---

(١) Vassiliev : op. cit. p. 11.

(٢) A History of Greece from the Conquest by the Romans to the Present Time (B. C. 146 - A. D. 1864).

(٣) أنظر هذه الترجمة فى الجزء الأول من كتابه History of Greece, ed. H. F. Tozer. I.XXXIX - XLVI.

بلاد اليونان ، فدرس اللغة اليونانية ؛ وفى سنة ١٨٢٣ عزم على أن يزور بلاد اليونان حتى يتعرف إلى حياة أهلها . واجتمع باللورد بيرون أثناء إقامته فى بلاد اليونان ١٨٢٣ ، ١٨٢٤ . ثم عاد فنلاى إلى إنجلترا ، غير أنه لم يمكث بها إلا فترة قصيرة ، إذ ارتحل من جديد إلى بلاد اليونان ، واشترك فى حملة غوردون التى توجهت لرفع الحصار عن أثينا(١) .

وبلغ به حبه لليونانيين ، أنه عزم على أن يتخذ من بلادهم موطنا له . فاشترى له ضيعة ، أنفق كل ما لديه من مال فى سبيل إصلاحها . وأخذ يفكر وقتذاك فى أن يكتب تاريخا للثورة اليونانية . ومهد لذلك بدراسة كل ما يتعلق بماضى بلاد اليونان . ونتج عن هذه الدراسة ، ما أصدره من المؤلفات عن التاريخ اليونانى . فتناول كتابه عن بلاد اليونان زمن الرومان ، ما وقع من الحوادث فى الفترة بين ١٤٦ قبل الميلاد ، وبين ٧١٧ م وصدر سنة ١٨٤٤ . وفى سنة ١٨٥٤ صدر مؤلفه عن الإمبراطوريتين البيزنطية واليونانية(٢) . ثم تلى ذلك ظهور مؤلفين عن تاريخ بلاد اليونان فى الأزمنة الحديثة والمعاصرة . وعزم فنلاى على أن يعدل كل الكتاب لطبعة جديدة ، غير أنه مات سنة ١٨٧٥ ، فتولى القيام بذلك توزر H.F. Tozer ، فنشر الكتاب فى سنة ١٨٧٧ فى سبعة أجزاء بعنـــوان A History of Greece from the Conquest by the Roman to the Present time. (B.C. 146. — A.D. 1864).

ويرى فنلاى أن تاريخ اليونان ، تحت السيطرة الأجنبية ، إنما ينطوى على ما أصاب الأمة اليونانية من انحلال وكوارث ، بعد أن بلغت أقصى درجات المدنية والحضارة فى العالم القديم . ومع ذلك لم تقض هذه الكوارث على طابعها القومى ، ولم تستأصل طموحها الوطنى . وينبغى ألا يغفل المؤرخون تاريخ الشعب اليونانى الذى لا زال ، برغم ما أحاط به من كوارث ، يدخر من النشاط والقوة ما يمكنه من إقامة دولة مستقلة . ويشير فنلاى إلى أن ماحدث

---

(١) Vassiliev : op. cit. p. 13.

(٢) History of the Byzantine and Greek Empires from 716 to 1453.

فى أملاك الأباطرة الرومان ، والسلاطين العثمانيين ، من تغييرات وثورات عديدة ، لم يكن لها تأثير مباشر فى بلاد اليونان ، وترتب على ذلك أنه اعتبر التاريخ الرومانى أو التاريخ العثمانى ، ليس إلا جانبا من التاريخ اليونانى . على أن الموقف يختلف زمن الأباطرة البيزنطيين . ذلك أن اليونانيين أنفسهم تولوا زمام الإدارة والحكم . والتاريخ البيزنطى عند فنلاى يمتد من سنة ٧١٦ (حكم ليو الأيسورى) ، حتى فتح القسطنطينية على يد الصليبيين سنة ١٢٠٤ . ويعتبر فنلاى أول من وجه الأنظار إلى الاهتمام بدراسة الأحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية ، والتعرف إلى النظم القضائية والاجتماعية والاقتصادية ، غير أنه لم يحاول الاعتماد على المصادر الأصلية . وبفضل ما اشتهر به من دقة الملاحظة ، وشدة التمحيص ، ودراسته للقانون والاقتصاد ، وجه اهتمامه إلى دراسة البلاد التى عاش بها (بلاد اليونان) ، وعمل على ربط ما يقع تحت نظره من الأمور ، وما مارسه من التجارب ، بأصول الحضارة اليونانية[١] .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، لفت نظر المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطى ، مؤلفات بابا ريجوپولو Paparrigopoulo الأستاذ بجامعة أثينا ، إذ ألف كتابا بالفرنسية عن الحضارة اليونانية[٢] . وامتاز هذا المؤرخ بأنه نظر إلى التاريخ من زاوية القومية البحتة ، فرد كل ظواهر التاريخ الهامة إلى أصل يونانى . ولم تكن السيطرة الرومانية على اليونانيين ، فى نظره إلا أمراً طارئاً . ووجه باباريجوپولو اهتمامه إلى دراسة عصر الأباطرة اللايقونيين فى القرن الثامن الميلادى . ولم ينظر المؤلف إلى حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة من ناحية مظهرها الدينى ، بل باعتبارها محاولة ترتب عليها إصلاح اجتماعى أصيل ، صدر من صميم أعماق الروح الهلينية ، ويعتبر هذا الإصلاح بالغ الأثر فى المجتمع البيزنطى . ولذا أعقب عصر اللايقونيين مرحلة من التاريخ ، تعتبر رد فعل لما سبق . فالتزم أباطرة البيت المقدونى

(١) Vasiliev. op. cit. pp. 14 - 15. Ostrogorowski p. 7.

(٢) Histoire de la Civilisation Hellenique. Paris 1878.

باتباع سياسة مخالفة لسياسة اللايقونيين ، ترمى إلى المحافظة على الأوضاع القديمة[١] .

ومن أشهر العلماء الألمان المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطى كارل هوپف C. Hopf (١٨٣٢ — ١٨٧٣) ، ومن أهم كتبه المتعلقة بالتاريخ البيزنطى ، كتابه عن تاريخ بلاد اليونان ، منذ بداية العصور الوسطى حتى العصر الحديث[٢] . جعل هوپف الجانب الأكبر من هذا الكتاب لمعالجة فترة حكم الفرنج فى الشرق ، فهو أول من أورد دراسة مستفيضة لتاريخ هذه السيطرة ، لا فحسب فى المواطن الهامة ببلاد اليونان ، بل أيضاً فى جزائر بحر إيجه . واعتمد فى دراسته على مخطوطات لم تكن وقتذاك قد نشرت ، ومن ثم يعتبر ما كتبه عن هذه المرحلة من التاريخ من المصادر الأصلية .

وألف هوپف عن هذه الحقبة من التاريخ ، مقالات وكتباً ، صارت بعد وفاته مصدراً كبير الفائدة للمؤرخين .

ويعتبر بيورى (١٨٦١ — ١٩٢٧) من أعظم المشتغلين بالدراسات البيزنطية . كان أستاذاً بجامعة كمبردج : ألف ثلاثة مجلدات فى التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية ، تتناول التاريخ البيزنطى من سنة ٣٦٥ حتى سنة ٨٦٧ ، نشر المجلدين الأولين سنة ١٨٨٩ بعنوان :

History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene

وانتهى فى هذين المجلدين إلى سنة ٨٠٠ ، أى إلى زمن تتويج شارلمان إمبراطورا ، روما ، على يد البابا ليو الثالث .

أما الكتاب الثالث ، فإن بيورى نشره سنة ١٩١٢ بعنوان :

History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil

وتناول فيه الحوادث من سنة ٨٠٢ حتى سنة ٨٦٧ ، وأعاد بيورى

(١) Vasiliev : op. cit. p. 18:

(٢) Geschichte Grieschland von Beginne des Mittelallers bisani die neuere Zeit ظهر ١٨٦٧ ، ١٨٦٨

سنة ١٩٢٣ نشر المجلدين الأولين ؛ غير أنه وقف فيهما عند نهاية حكم جستنيان (سنة ٥٦٥) بعد أن أضاف إليهما زيادات ومادة جديدة .

ويرمى بيورى فى كتبه إلى تأييد فكرة أن الإمبراطورية الرومانية ، ظلت قائمة منذ القرن الأول الميلادى إلى القرن الخامس عشر . والدليل على استمرار الإمبراطورية ، أن سلسلة الأباطرة لم تنقطع ، منذ أغسطس قيصر ، حتى قنسطنطين باليوغوس آخر أباطرة الرومان . على أن هذه الحقيقة أحاط بها الغموض والاضطراب بما لجأ إليه بيورى ، من إطلاق لفظة « بيزنطى » أو « يونانى » على الإمبراطورية فى مراحلها التاريخية المتأخرة . على أن المؤرخين الذين استخدموا عبارة « الإمبراطورية البيزنطية » ، يختلفون فى التاريخ الذى ينبغى أن ينتهى عنده استعمال عبارة « الإمبراطورية الرومانية » ، ويبدأ فيه استخدام عبارة « الإمبراطورية البيزنطية » . فهم تارة يجعلون الحد الفاصل ، تأسيس القسطنطينية على يد قنسطنطين الكبير ، وتارة يتخذون سنة ٣٩٥ ، أى السنة التى توفى فيها تيودوسيوس الكبير ، بداية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، وتارة يعتبرون عصر جستنيان الحد الفاصل بين المرحلتين الرومانية والبيزنطية ؛ وتارة يجعلون عصر ليو الايسورى بداية التاريخ البيزنطى . ولكل مؤرخ مذهبه فى ذلك ، ولا يستطيع أن يتهم الآخرين بالخطأ ، لأن كل هذه التقسيمات ليست إلا تقسيمات تحكمية .

فالإمبراطورية الرومانية ، عند بيورى ، لم تنته إلا سنة ١٤٥٣ ، ولا يؤثر فى هذه الحقيقة عبارات الإمبراطورية البيزنطية ، أو اليونانية ، أو الرومانية ، أو الرومانية اليونانية ، ومع ذلك فإن بيورى يشير إلى أنه كيفما كان الأمر ، فإن مرحلة جديدة من التاريخ ، يصح أن يطلق عليها التاريخ البيزنطى ، قد بدأت منذ زمن قنسطنطين الكبير ، ويرى أن فى التاريخ من المراحل البارزة يؤدى ما تجمع فيها من اتجاهات وآثار الماضى إلى تغيير محسوس فيتحول العالم إلى مرحلة جديدة . وفى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ظهرت هذه المرحلة البارزة ، أوائل القرن الرابع الميلادى ، إذ أن عهد

قنسطنطين الكبير ، يعتبر بداية عصر يفوق فى الخبرة والتجارب عصر أغسطس قيصر ، مؤسس الإمبراطورية الرومانية[١] .

ولهذه الأسباب ، جعل بيورى للطبعة الأولى من الكتابين اللذين يعالجان الفترة السابقة على سنة ٨٠٠م، عنوان The later Roman Empire . إذ حدث سنة ٨٠٠ أن توج شارلمان فى روما إمبراطورا . ومنذ هذا التاريخ ، نستطيع أن نميز بين إمبراطوريتين : الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية ، ويترتب على ذلك أن عبارة « الإمبراطورية الرومانية الشرقية » لم تعد تتفق مع التقسيم الذى سبق الإشارة إليه . وما يتردد من الإشارات إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، والإمبراطورية الرومانية الغربية ، فى القرن الخامس الميلادى ، وإلى سقوط الإمبراطورية الغربية سنة ٤٧٦ ، إنما يؤدى إلى الخلط والاضطراب ، وليست هذه العبارات دقيقة المعنى . لأن الإمبراطورية الرومانية كانت فى القرن الخامس الميلادى ، إمبراطورية متحدة غير مجزأة ، على الرغم من وجود أكثر من إمبراطور . فإذا جرى الحديث عن إمبراطوريتين فى القرن الخامس ، فإن ذلك يخالف الدستور الإمبراطورى ، الذى يعتبر الإمبراطورية موحدة[٢] .

ولا يجوز أيضاً الحديث عن إمبراطوريتين زمن الأخوين قنسطنطيوس وقنسطانز ، اللذين خلفا أباهما قنسطنطين الكبير على الحكم ، فتولى أحدهما الحكم فى القسطنطينية ، بينما تولى الآخر الحكم فى الغرب . ولم تختلف العلاقات بين أركاديوس (فى الشرق) وهونوريوس (فى الغرب) عما كان بين ولدى قنسطنطين من علاقات سياسية .

لم تسقط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، بل إن هذه السنة تعتبر بداية مرحلة جديدة فى عملية التفكك التى كانت تجرى طوال هذا القرن . وما حدث من تخلى الإمبراطور روميلوس أوغسطلوس Romulus Augustlus

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 21 - 22.

(٢) Ibid. p. 22.

عن الحكم ، لم يهز كيان الإمبراطورية الرومانية ، ولم يؤد تبعا لذلك إلى سقوطها ، على الرغم من العنوان الذى اختاره جيبون لمؤلفه عن الإمبراطورية الرومانية ، ومن موافقة كثير من مؤرخى العصر الحديث له فى الرأى[١] .

ويرى بيورى أن الإمبراطورية الرومانية مستمرة منذ القرن الأول إلى القرن الخامس عشر ، غير أنه يصح أن يطلق عليها ، منذ سنة ٨٠٠ ، الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وذلك لأن إمبراطورية رومانية قامت منذ ذلك الحين فى الغرب . ولذا أطلق بيورى على كتابه الثالث : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، تمييزا له عن الكتابين السابقين . ويرجع بيورى عوامل قيام المدن ونموها فى غرب أوربا ، إلى تأثير الإمبراطورية الرومانية فى عصرها المتأخر ، وإلى روما الجديدة (القسطنطينية) ؛ وعلى الرغم من أن مونتسكيو سبق بيورى إلى فكرة استمرار الإمبراطورية الرومانية ، فإن ما أورده بيورى فى هذا الشأن من الاعتبارات ، جعل لهذه الفكرة وزنها وقيمتها[٢] .

وتاريخ بيورى يستوجب الاهتمام ، إذ حرص على معالجة تاريخ الشطر الشرقى من الإمبراطورية حتى سنة ٨٠٠ ، ولم يغفل ما جرى فى الشطر الغربى من الحوادث ، وهذا يتفق بطبيعة الحال مع فكرة وحدة الإمبراطورية الرومانية . ولم يقتصر بيورى على معالجة التاريخ السياسى ، بل أفرد فصولا لمعالجة موضوعات الإدارة والأدب والحياة الاجتماعية والجغرافيا والفنون . فالفصلان الأول والثانى من الطبعة الثانية لكتابه History of the Later Roman Empire جعلهما لدراسة الدستور والملكية والنظام الإدارى . واعتمد بيورى على ما كتب فى التاريخ البيزنطى من مصادر ومراجع روسية وبلغارية ، بفضل درايته وإتقانه للغـــة الروسية واللغات السلافية (الصقلبية)[٣] .

(١) Vasiliev : op. cit. p. 22.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 23.

(٣) Baynes : A Bibliography of the Works of J. B. Bury. Cambridge, 1929.

وفى مجموعة كمبردج للعصور الوسطى Cambridge Mediaeval History تاريخ شامل للدولة البيزنطية ، فضلا عن المصادر والمراجع الوافية فى هذا الموضوع واشترك فى كتابة هذه المجموعة أعلام المؤرخين من سائر بلاد العالم ، تولى كل منهم كتابة الفصول المرتبطة بدراسته واختصاصه العلمى . وفى الجزء الأول من هذه المجموعة فصول عن التاريخ البيزنطى منذ زمن قسطنطين الكبير حتى وفاة الإمبراطور أنستاسيوس سنة ٥١٨ . وتناول الجزء الثانى دراسة الدولة منذ زمن جستنيان حتى عصر مناهضى عبادة الصور المقدسة . أما الجزء الرابع فعالج التاريخ البيزنطى منذ سنة ٧١٧ حتى سنة ١٤٥٣ . وتناول أيضاً دراسة ما يرتبط بالدولة البيزنطية من الدول والشعوب المجاورة أمثال الصقالبة ، والأرمن ، والمسلمين والمغول ، والشعوب البلقانية . وهذه المجموعة جرى إصدارها باشراف بيورى . وتقوم الأستاذة Hussey الآن بإعادة نشر الجزء الرابع من هذه المجموعة .

ويعتبر ڤازيلييف من أشهر المؤرخين المشتغلين بالدراسات البيزنطية[١] وكتابه عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، جرت ترجمته إلى لغات عديدة . والطبعة الإنجليزية الأخيرة ظهرت سنة ١٩٥٢ فى أمريكا — فى ماديسون (ويسكنسن) . ويتناول هذا الكتاب دراسة تاريخ الدولة البيزنطية منذ القرن الرابع الميلادى حتى سقوطها سنة ١٤٥٣ . ولڤازيلييف كتاب يقع فى ثلاثة مجلدات عن علاقة العرب بالروم Byzance et les Arabes ترجمه إلى الفرنسية الأستاذان جريجوار وكانار ، ونقل الدكتور محمد عبد الهادى شعيره الجزء الأول إلى اللغة العربية بعنوان العرب والروم . ولڤازيلييف مقالات عديدة فى التاريخ البيزنطى ، نشرها فى مجلات عديدة ولا سيما مجلة Byzantion التى تختص بالدراسات البيزنطية .

أما كتاب الحضارة البيزنطية الذى ألفه رونسيمان وصدر سنة ١٩٣٣ فاشتمل الفصل الأول منه على إنشاء مدينة القسطنطينية . وفى الفصول التالية مجمل

(١) History of the Byzantine Empire.

للتاريخ السياسى والنظم الرومانية : الدستور ، والإدارة ، والديانة ، والجيش ، والأسطول ، والدبلوماسية البيزنطية ، والتجارة ، وحياة المدن ، والتعليم والأدب والفن . ثم جعل رونسيمان فصلا عن علاقة بيزنطة بالعالم الخارجى .

ومن الكتب الهامة فى التاريخ البيزنطى كتاب Le monde Orientale الذى ألفه ديل ومارسيه Diehl & Marçais وظهر سنة ١٩٣٦ فى مجموعة التاريخ العام الذى يشرف على نشرها جلوتز Glotz وتناول الكتاب دراسة العالم الإسلامى وعلاقته بالدولة البيزنطية (٢٩٥ — ١٠٨١ م) ، وعالج أيضا التاريخ البيزنطى من النواحى السياسية والاقتصادية والتشريعية والحضارية . واشتمل هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع القيمة .

واشترك ديل مع جروسيه وآخرين فى تأليف كتاب بعنوان شرق أوربا L. Europe Oirentale ، صدر سنة ١٩٤٥ ، تناول دراسة التاريخ البيزنطى من ١٠٨١ إلى ١٤٥٣ م واهتم بتاريخ البلغار والصرب والأتراك العثمانيين والبنادقة الجنوبيين ، ومملكة قبرص ، وأرمينيا ، والممتلكات اللاتينية فى بحر الأرخبيل ، ويعتبر من أهم الكتب وأعظمها قيمة .

ومنذ سنة ١٩٤٠ استقر العالم الروسى أوستروجوروسكى Ostrogorowski فى بلغراد ، فأصدر بالألمانية كتابه المعروف بتاريخ الدولة البيزنطية[١] . ويعتبر الكتاب من الطراز الأول فى الدراسات البيزنطية . عالج دراسة تاريخ الدولة البيزنطية حتى سقوطها ١٤٥٣ م . أشار باختصار إلى تاريخ الإمبراطورية فى الفترة بين ٣٢٤ حتى ٦١٠ ، وما يلى ذلك ، راعى فيه التفصيل ، واهتم بالمصادر والمراجع ، واعتنى بما أورده من الحواشى ، وأولى أوستروجورسكى اهتماما خاصا بالناحية السياسية ، وما تأثرت به الدولة البيزنطية من التغيرات السياسية التى حدثت فى داخل البلاد وخارجها . وتكتمل هذه الدراسة بما نشره

(١) History of the Byzantine State
ترجمه بهذا العنوان الأستاذة Hussey ، جرى نشره سنة ١٩٥٦ .

أرستروجوروسكى فى تاريخ كمبردج الاقتصادى ، الجزء الأول ، عن الأحوال الزراعية فى الدولة البيزنطية[١] .

وظهر فى ١٩٤٧ — ١٩٥٠ مؤلف بريير Loris Bréhier عن العالم البيزنطى فى ثلاثة أجزاء . Le monde Byzantin

I— Vie et mort de Byzance
II— Les Institutions de l'Empire Byzantin
III— La Civilisation Byzantine

وهذه الكتب الثلاثة امتازت بدقة الدراسة ، وللكتاب الأخير منها أهمية خاصة ، لما انفرد به فى معالجة الحضارة البيزنطية ، إذ عرض صورة جلية لحياة المجتمع البيزنطى على اختلاف طبقاته .

أما المرجع الذى لاغنى عنه فى دراسة مصادر التاريخ البيزنطى فهو الكتاب الذى صنفه كارل كرمباخر[٣] Karle Krumbacher الأستاذ السابق بجامعة ميونخ ، وصدرت منه الطبعة الثانية سنة ١٨٩٧ . اشتمل هذا الكتاب على مادة وفيرة تدل على سعة علم المؤلف وصبره ومثابرته . ولما اشتهر به كرمباخر من الإلمام باللغات الصقلبية والروسية ، واستخدام ما ورد بهذه اللغات من المصادر الأصلية . على أن هذا الكتاب بالغ الأهمية للمتخصص فى الدراسات البيزنطية .

وتعتبر مجلة الدراسات البيزنطية Byzantinisсbe zeischrift أول مجلة اهتمت بالدراسات البيزنطية ، ظهرت لأول مرة فى ألمانيا سنة ١٨٩٢ واشتملت على مقالات عديدة فى التاريخ البيزنطى ، فضلا عما ورد بها من نقد وعرض كل الكتب المتعلقة بهذا التاريخ ، وما ظهر من المؤلفات التى تتناول الدراسة البيزنطية . وأنشأ هذه المجلة كرمباخر ، وصدر منها حتى سنة ١٩١٤ نحو ١٢ مجلدا . وظهر فى سنة ١٩٠٩ فهرس لما فى المجلدات الاثنى عشرة

(١) Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages, (Cambridge Economic History of Europe from the Decline of the Roman Empire Vol. I.).

(٢) Geschichte der byzantinischen Literature von Justinien bis Zum Ende des Oströmischen Reiches.

الأولى من موضوعات ومقالات . ثم توقف صدور هذه المجلة أثناء الحرب العالمية الأولى ،حتى إذا انتهت الحرب عادت إلى الظهور . ويشرف على تحريرها فرانزدوبلجر Dolger .

وتقرر فى المؤتمر الدولى الخامس للعلوم التاريخية المنعقد فى بروكسل ١٩٢٣ ، إصدار مجلة للدراسات البيزنطية . وفى أول مؤتمر دولى للمهتمين بالدراسات البيزنطية ، الذى انعقد فى بوخارست ١٩٢٤ ، ثم وضع الخطط المؤدية لإصدار هذه المجلة . وفى سنة ١٩٢٥ ظهر أول عدد من هذه المجلة التى اتخذت اسم Byzantion ، بإشراف جراندور وجريجوار ولازالت هذه المجلة تصدر فى بروكسل (بلچيكا) .

وازداد الاهتمام بدراسة ما يتعلق بالتاريخ البيزنطى من البرديات ومن أشهر المهتمين بهذه الناحية أيدريس بل[١] ، وباتاى Bataille .

(١) Bell : The Decay of Civilization. Journal of Egyptian Archaeology, X. (1924).

الفصل الثانى

الإمبراطورية الرومانية منذ زمن قنسطنطين
حتى زمن جستنيان

تعتبر مفاهيم الرومان السياسية ، والحضارة اليونانية ، والديانة المسيحية ، العوامل الأساسية التى حددت نمو الصفة البيزنطية وتطورها . فلا نستطيع إدراك ما غلب على الحياة من الصفة البيزنطية ، إلا إذا عرفنا هذه العوامل الثلاثة . فاقتران الحضارة الهلنستية بالديانة المسيحية ، فى نطاق الإمبراطورية الرومانية ، أدى كل ذلك إلى ما هو معروف بالإمبراطورية البيزنطية[١] . ونجم كل هذا عن ازدياد اهتمام الإمبراطورية الرومانية بالاتجاه نحو الشرق ، بسبب الأزمة التى حدثت فى القرن الثالث ، ومن مظاهر هذا الاهتمام اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية ، وإنشاء عاصمة جديدة (القسطنطينية) على البسفور . فهذان الحادثان : انتصار المسيحية ، وانتقال العاصمة السياسية للإمبراطورية الرومانية إلى الشرق الهلنستى ، يعتبران بداية العصر البيزنطى [٢] .

والواقع أن التاريخ البيزنطى ليس إلا مرحلة جديدة من التاريخ الرومانى ، كما أن الدولة البيزنطية ليست إلا امتداد للإمبراطورية الرومانية ، ولم تكن لفظة « بيزنطى » إلا تعبيرا أو مصطلحا جرى إطلاقه حديثا ، ولم يكن معروفا عند الذين نسميهم بيزنطيين . إذ أن هؤلاء كانوا ينعتون أنفسهم بأنهم « رومان » ، واعتبر الإمبراطور نفسه حاكما رومانيا ، وخليفة القياصرة الرومان وورثتهم فى ملكهم ، وظل البيزنطيون يحرصون على الاحتفاظ باسم روما ، طالما عاشت إمبراطوريتهم . يضاف إلى ذلك أن

(١) Baynes : Byzantine Studies, p. 1.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 43. Ostrogorowski, p. 25.

تقاليد الحكومة الرومانية ظلت تسيطر على أفكارهم وأغراضهم السياسية حتى نهاية عمرها . فاشتملت الإمبراطورية على شعوب وقبائل مختلفة ، ارتبطت فيما بينها بالفكرة الرومانية عن الدولة . أما علاقة الإمبراطورية بالعالم الخارجى إنما حددها ما كان معروفا عند الرومان من فكرة العالمية التى ترمى إلى فرض السيطرة الرومانية على العالم المعروف وقتذاك(١) .

ونظراً لأن الدولة البيزنطية اعتبرت نفسها وارثة الإمبراطورية الرومانية ، فإنها كانت تأمل فى أن تكون الإمبراطورية الوحيدة ، فزعمت لنفسها السيطرة على جميع ما كان يخضع للإمبراطورية الرومانية من أملاك ، وأضحت تؤلف شطرا من العالم المسيحى . وعلى الرغم من أن هذا الزعم لا يتفق مع الواقع ، فإن ما أقامه المتبربرون من ممالك على أنقاض الإمبراطورية الغربية ، لا تعتبر مساوية فى المكانة للإمبراطورية البيزنطية . وترتب على ذلك ؛ أن أضحى حاكم بيزنطة ، إمبراطورا رومانيا ، وزعيما للعالم المسيحى . وفى أوائل العصر البيزنطى ، تركزت السياسة الإمبراطورية ، فى محاولة المحافظة على السيادة المباشرة على أملاك الدولة الرومانية ، ثم تطورت هذه السياسة فى الفترتين المتوسطة والمتأخرة من العصر البيزنطى ، فأضحى اهتمامها موجها إلى الاحتفاظ بالسيادة الاسمية(٢) .

ومهما حرصت الدولة البيزنطية على صلتها بروما القديمة ، وازداد تعلقها بالتراث الرومانى ، فيما يتعلق بالشئون السياسية من الناحيتين النظرية والعملية ، فالواقع أن الدولة البيزنطية أخذت تبتعد بالتدريج ، وبمضى الزمن ، عما كان للعالم الرومانى من خصائص ومميزات . إذ تغلب فى الدولة البيزنطية الحضارة واللغة اليونانية ، وازداد تأثير الكنيسة اليونانية فى الحياة البيزنطية . وما حدث من تطور اقتصادى واجتماعى وسياسى ، أدى إلى ظهور بناء اقتصادى اجتماعى جديد . وفى فجر العصور الوسطى ، ظهر

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 26.
(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 16.

أيضا ما يعتبر فى جوهره وحدة سياسية جديدة ، ونظاما إداريا جديدا . على أن ما حدث من نمو وتطور للدولة البيزنطية بلغ من السرعة والانطلاق أنه حينما بلغت الإمبراطورية البيزنطية نهاية تطورها التاريخى ، لم يعد يربطها بالإمبراطورية الرومانية من الصلات إلا اسمها وما ورثته من المزاعم التى لم يعد لها أهمية من الناحية العملية .

على أنه لا بد أن ندرك أن الإمبراطورية البيزنطية ، ظلت أوائل زمنها (القرن الرابع) إمبراطورية رومانيــة ، تأثرت الحياة فيها بالمؤثرات الرومانية . وهذه الفترة من التاريخ ، يصح أن نطلق عليها عصرا رومانيا متأخرا ، أو عصراً بيزنطيا متقدما . فالقرون الثلاثة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية ، أو القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية البيزنطية ، تعتبر فترة انتقال من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية . وهذه المرحلة تمتد من القرن الرابع إلى القرن السابع ، وفى أثنائها أخذت الحياة الرومانية تتأثر بالعوامل البيزنطية الجديدة(١) .

وترجع بداية التاريخ البيزنطى إلى الزمن الذى خرجت فيه الإمبراطورية الرومانية من أزمة القرن الثالث . وما حدث فى هذه الفترة من مشاكل اقتصادية ، كانت لها آثار بالغة الخطورة فى الشطر الغربى من الإمبراطورية الرومانية . أما الشطر الشرقى من الإمبراطورية ، فتوافرت لديه من قوة المقاومة ما لم يكن لها مثيل فى الغرب ، وهذه القوى كان لها أكبر الأثر فى فى صبغ الإمبراطورية الرومانية بالصبغة البيزنطية(٢) . وعلى الرغم من أن الشرق لم يعان ما عاناه الغرب من نقص ملحوظ فى عدد السكان ، والانحطاط فى الحياة الاقتصادية للمدن ؛ فإنه شارك سائر أجزاء الإمبراطورية ، فيما تعرضت له من أحوال اقتصادية سيئة ، وما لحق تجارتها وصناعتها من خسائر جسيمة(٣) .

(١) Ostogorowski : op. cit. p. 27.
(٢) Ibid. p. 27.
(٣) Ibid. p. 27.

والواقع أن أزمة القرن الثالث الميلادى أودت بحياة المدن فى العصر القديم(١) ، إذ تقرر على كل حرفة من الحرف أن تدفع ضرائب معينة ، وخضع نواب البلديات لأعباء باهظة ، وكانوا يدفعون ضرائب معينة ، كلما جرى الاحتفال بتتويج الإمبراطور ، وهـذا الاحتفال يجرى كل خمس سنوات . . وتعهدت النقابات التجارية بإمداد المدن بالمؤونة(٢) .

وثمت ظاهرة أخرى أكثر شمولا ، تتمثل فى إزدياد نمو الإقطاعات والأبعاديات والضياع الكبيرة Latifundia فى أنحاء الإمبراطورية ، إذ ازداد إنتشار الضياع الخاصة على حساب صغار المزارعين ، وعلى حساب الضياع الإمبراطورية . وترتب على انهيار صغار الملاك أن ازداد ارتباط الفلاح بالأرض ، وعجل بذلك اشتداد الحاجة إلى العمل ، فأضحى الفلاح قنا .

ولم يختلف هذا الإجراء عما حدث من ارتباط الناس بحرفهم وأعمالهم فى فى القرن الثالث الميلادى ، فالالتزام والسخرة فى الحياة الاقتصادية ، أدى إلى الالتزام فى الأمور السياسية(٣) . فما حدث فى القرن الرابع الميلادى من صرامة النظام الطبقى . جعل من العسير أن يفرّ الشخص من المكانة الاجتماعية التى نشأ عليها . والواقع أن النظام المالى كان مسئولا إلى حد كبير عن هذه النتيجة . فحينما أضحت مجالس السناتو المحلية أو زعماؤها ، مسئولة عن أن تستخلص للحكومة ما هو مقرر من الضرائب على أقاليمها ، صار من المحتم منع أعضاء السناتو (Curiales) من التهرب من التزاماتهم ، وتغيير وضعهم ، وتقرر إلزام الأبناء بأن يسيروا على نهج آبائهم . فكل ما فى المدن بالإمبراطورية من وظائف ، ارتبطت بالطوائف ، سواء كانت طوائف رجال الدين ، أو أرباب الحرف ، تتكفل بسد نفقات أهل المدينة(٤) .

ويلتزم سائر أفراد النقابات المهنية بتأدية ما تفرضه عليهم الحكومة من

(١) Jones, A. H. M., The Greek city from Alexander to Justinian, p. 58.

(٢) Cambridge Medieval History, vol. I. p. 43.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 27.

(٤) Cambridge Medieval History, vol. I. pp. 51.—52.

واجبات ، وينتقل هذا العبء من الأب إلى الابن . مثال ذلك أن ضريبة القمح يقوم بهـا نقابات عديدة ، كما نستدل على ذلك من أسمائها

navricularil, frumentarii, mercaratores porcinarii, olearii, pecuarii, pistoras boarii.

وتكفلت طوائف أخرى بالمنشآت العامة ، وبأعمال الشرطة ، مثل إطفاء الحرائق ، وبأعمال حكومية مختلفة ، كالعمل فى دار الضرب ، والمناجم ، ومصانع المنسوجات ، والأسلحة . ومنذ القرن الرابع الميلادى ، ازدادت وطأة القيود المفروضة على النقابات أو الطوائف ، فأضحى الخروج من النقابة أمرا متعذرا(١) .

سلطة الإمبراطور :

ما حدث فى القرن الثالث الميلادى من الفوضى والاضطرب ، أدى إلى ما اتخذه دقلديانوس من نظام استبدادى فى الحكم ؛ إذ أن فرق الجيش ظلت نحو ثلاثة قرون ، خطرا يهدد الحضارة اليونانية الرومانية ، فصار الجند يولون الأباطرة ويعزلونهم وطغى سلطانهم على سلطان الحكومة ، وانتزعوا بحد السيف كل ما يبغون من الثراء والمال . وكان كل ما يأمله دقلديانوس ، أن يعمل على حماية السلطة المدنية من خطر العساكر . فاتخذ من مظاهر الحكم فى الشرق ما يجعل للإمبراطور الهيبة ، ويثير الخوف والرعب فى صدور أعدائه . فاتخذ التاج ، وصار الناس يتطلعون إليه على أنه يمثل الإله على الأرض ، واستخدم الطواشية فى الوظائف الكبيرة ، ووجد العرش التأييد ، فيما تضمنه الدستور من نظريات الحكم الاستبدادى .

والمعروف أن الحكومة منذ زمن أغسطس حتى دقلديانوس ، جنحت نحو المركزية ، وازدادت المركزية قوة وشدة زمن دقلديانوس . وتطلبت المركزية استخدام عدد كبير من الموظفين(٢) . ففى سنة ٢٨٦ أصدر دقلديانوس

(١) Cambridge Medieval History, vol. I. p. 52.

(٢) Cambridge Medieval History, vol. I. p. 26.
Vasiliev : op. cit. p. 64.

أمراً ، يقضى بأن تكون السلطة العليا فى يد إمبراطورين . يتخذ كل منها لقب أغسطس ، يتولى أحدهما حكم الشطر الشرقى من الإمبراطورية ، ويقوم الآخر بإدارة الشطر الغربى منها . والواقع أن حضارة كل من الشطرين تختلف اختلافا بينا عن الحضارة فى الشطر الآخر ، وأدى إنشاء القسطنطينية إلى الفصل التام بين الجانبين(١) . وقرر دقلديانوس أيضاً ، فى سنة ٢٩٣ ، أن يساعد كل من الإمبراطور نائب اتخذ لقب قيصر ، ويحل مكان الإمبراطور عند وفاته أو إستعفائه من الحكم . والغرض من ذلك ، هو أن يتجنب نشوب الثورات العنيفة ، الناجمة عن مزاعم فرق الجند فى أن لها الحق فى تنصيب الأباطرة . غير أن الإمبراطورية ظلت تسير على النهج التى درجت عليه منذ أول الأمر ، إذ أن نظام الأسرات لم يلبث أن عاد من جديد(٢) .

أضحى الحكم أتوقراطيا . وأذاع رجال القانون أن الشعب الرومانى تنازل طوعا على كل ما له من سلطة إلى الملك : ولم يعد للأفراد أو الطبقات أية حقوق قبل الإمبراطور . فتعتبر موارد الدولة ملكا خاصا له . وما يجرى صرفه من الخزانة إنما يتم بموافقة الإمبراطور . ولم يعد ثمت فاصل بين خزانة الإمبراطور وخزانة الحكومة . وما يرد من خراج من الأملاك المصادرة ، يعتبر ملكا للإمبراطور ، مصدر القانون والسلطة(٣) . ومنه يستمد الموظفون سلطاتهم . وبذلك تركزت كل إدارة الدولة فى يد الإمبراطور والموظفين الإداريين ، وغدت هذه الإدارة المدينة ، بعد اتساعها وامتدادها ، العمود الفقرى للأوتوقراطية البيزنطية . وما كان معروفا فى نظام الحكم الرومانى من وجود موظفين يقومون على تنفيذ القانون ، ما لبث أن تحول إلى البيروقراطية البيزنطية ، ولم يعد الإمبراطور كبير القضاة ، بل صار حاكما مستبدا ، ولم يعد يستمد سلطته من قوة على سطح الأرض ، بل صار يستمدها من إرادة الله(٤) .

(١) Camoridge Medieval History. vol. I. p. 27.

(٢) Ibid. p. 28.

(٣) Ibid. p. 18.

(٤) Ostrogorowrski : op. cit. p. 28.

ومع ذلك فإن فكرة السيادة والملك المتأصلة فى إرادة الناس لم تختف نهائيا . فالسناتو ، وأهل المدينة ، والجيش ، لا زالت تعتبر القوى السياسية التى تحد من سلطة الإمبراطور ، لاسيما أوائل العصر البيزنطى ، غير أن هذه القوى أخذت تضعف وتتضاءل كلما أقبل الناس على الاعتراف بسلطة الإمبراطور والانقياد والخضوع له(١) .

الكنيسة :

أما الكنيسة فإن سلطانها أخذ يزداد ويقوى بمضى الزمن ، وذلك لما لها من السلطة الروحية فى دولة مسيحية . ففى أوائل العصر البيزنطى ، ظل الإمبراطور محتفظا بسلطان لا حد له على الكنيسة . ووفقا للقانون الرومانى ، صار الإمبراطور يعالج ديانة رعاياه ويتناولها ، على أنها من الحقوق العامة **Jus Publicum** . غير أن الكنيسة فى بيزنطة العصور الوسطى ، غدت قوة لها اعتبارها ووزنها . وطالما شهدت بيزنطة ما جرى من المصادمات بين السلطتين الدنيوية والروحية ، ولم يكن الإمبراطور فى كل الأحوال هو الفائز أو المنتصر. ومع ذلك لم يكن من خصائص العصر البيزنطى ، استحكام العداء بين الإمبراطورية والكنيسة ، بل حدث فى معظم الأحوال التعاون الوثيق بين السلطتين على إقامة وحدة سياسية كنسية(٢) ، وجرت العادة بأن تتحد هاتان القوتان دائماً لتحقيق غرض واحد ، ولدرء كل خطر يهدد الدولة ، سواء كان هذا الخطر ، مصدره أعداء الإمبراطور فى داخل البلاد وخارجها ، أو عوامل مدمرة نشأت عن النحل والمذاهب المخالفة للمذهب الرسمى للدولة . على أن هذا النوع من الصلة بين الكنيسة والإمبراطورية ، يجعل الكنيسة تخضع مباشرة لحماية الإمبراطور . ومن ثم تعتبر سيطرة السلطة الإمبراطورية على السلطة الكنسية من خصائص الدولة البيزنطية . فلم يكن الإمبراطور فحسب القائد الأعلى للجيش

(١) Ibid, p. 28.

(٢) Ostogorowski : op. cit. p. 28.

وكبير القضاة ، والمشرع الأول ؛ بل يعتبر كذلك حامى الكنيسة ، والمدافع عن العقيدة الصحيحة ، وقد اختاره الله لهذا المنصب ولم يكن أيضاً سيداً وحاكما ، بل كان رمزا حيا للإمبراطورية المسيحية التى تولى حكمها من قبل الله . فلم يلبث الإمبراطور ، أن أضحى موطن تبجيل وتقديس من رعاياه ، فى أمور السياسة والدين . ومن الدليل على ذلك ، ما كان يجرى كل يوم بالبلاط الإمبراطورى ، من مراسيم وطقوس مؤثرة ، تشترك فيها الكنيسة وجميع رجال البلاط ، فإذا تهيأت الفرصة لأن يشاهدوا طلعة الإمبراطور ، بادروا إلى تحيته بالركوع إلى الأرض ، ولم يخرج على هذا التقليد ذوو المكانة العليا .

الحضارة الهلنستية :

على أن هذه الأبهة والعظمة التى اشتهرت بها مراسيم البلاط والاستبداد الإمبراطورى امتدت جذورها إلى العالمين الهلنستى والرومانى . وما اشتهر به البلاط البيزنطى من أبهة ، إنما جاءت من مؤثرات شرقية عديدة من الساسانيين وغيرهم[١] .

ولم تكن الحضارة البيزنطية مستمدة فحسب من العصور القديمة ، بل كان لها أيضاً أوثق الصلات بأسلوب الحياة فى بيزنطة . إذ أن المؤثرات المختلفة فى بيزنطة ارتبطت معا برباط حضارى مشترك ، مثلما جرى فى العالم الهلنستى القديم فكلا العالمين الهلنستى والبيزنطى يتشابهان فى أنهما استمدا حضارتهما من مصادر عديدة ؛ وعاشا على ما ورثاه من الأعمال الكبيرة المبتكرة . ولم يكن لإنتاجهما من الأصالة إلا ما يتعلق منها بصفة التركيب والتأليف . وعلى الرغم من أن الميل إلى التأليف والتصنيف إنما يدل على الجدب فى التفكير ، وأن التقليد إنما يغفل جوهر الشيء ، فإن بيزنطة يرجع إليها الفضل فى المحافظة

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 29.
Vasiliev : op. cit. p. 61.
Baynes : The Byzantine Empire. p. 63.

على روائع الآداب القديمة ، وفى الاهتمام الشديد بالقانون الرومانى والحضارة اليونانية . فقطبا العالم القديم بلاد اليونان وروما ، شبا سويا على أرض بيزنطة ، وترتب على اتحاد الحكومة الرومانية بالحضارة اليونانية ، أن ظهر نهج جديد فى الحياة ، اشتد لارتباطه بالديانة المسيحية ، التى تنكرت لها من قبل الإمبراطورية الرومانية والحضارة القديمة[١] . فلم تنكر بيزنطة المسيحية الفن الوثنى أو العلم الوثنى ، إذ ظل القانون الرومانى أساس نظامها القضائى ومذهبها الفقهى ، وبقى التفكير اليونانى أساس حياتها العقلية . وظل المؤرخون والشعراء اليونانيون المثل والنماذج التى يتعلق بها البيزنطيون . بل أن تعاليم الكنيسة انطوت على قدر كبير من تفكير الفلاسفة الوثنيين ، واستخدمت الكنيسة وسائلهم وأسلحتهم العقلية فى شرح العقيدة المسيحية[٢] .

على أن تقدير أعمال القدماء وإدراك أهميتها ، إنما يدل على أنها مصدر من مصادر قوة الإمبراطورية البيزنطية . وترتب على رسوخ الدولة البيزنطية فى التقاليد اليونانية ، أن عاشت ألف سنة ، ظلت أثناءها معقلا للحضارة والعلم ، ونجم عن تشبع الدولة البيزنطية بالأفكار الرومانية عن الحكومة ، أن أضحى لها مكانة ملحوظة فى عالم العصور الوسطى ، وتهيأ للدولة البيزنطية أداة إدارية فريدة فى نوعها ، امتازت بإدارة مدنية بالغة التنوع ، وعظيمة التدريب . أما نهجها العسكرى فقد بلغ غايته ، وامتازت أيضاً بنظام قضائى رائع . واشتهرت الدولة البيزنطية أيضاً بسلامة اقتصادها ، ووفرة ثروتها ، وثبات نقدها الذهبى ، وفى هذه الناحية تختلف اختلافا جوهريا عن سائر الدول أواخر العصر القديم وأوائل العصور الوسطى ، التى لم تشتهر إلا بالاقتصاد الطبيعى القائم على الاكتفاء الذاتى بمنتجاتها . على أن ما بلغته الدولة البيزنطية من الثروة ، وما وصلت إليه من مستوى رفيع فى الحضارة ، لم تصل إليه إلا على حساب سائر السكان الذين عاشوا فى فاقة ، ولم يكن ثمت سبيل إلى خلاصهم[٣] .

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 30.
(٢) Ibid. p. 30.
(٣) Ibid p. 31.

أهمية إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين :

وما قام به دقلديانوس من إصلاحات ، إنما كان الغرض منها مواجهة الموقف الجديد ، الذى ترتب على ما حدث فى القرن الثالث من فوضى واضطرابات . فاستخدم كل ما كان قيما فى النظام الإمبراطورى القديم ، وأضاف إليه من التعديلات ما جعله نظاماً جديداً للإدارة الإمبراطورية بأكملها . وأتم قنسطنطين أعمال دقلديانوس ، وبذلك أصبح التنظيم الجديد ، أساس الإدارة البيزنطية . إذ أن كل تنظيمات دقلديانوس وقنسطنطين بقيت فى جلها قائمة أوائل العصر البيزنطى . ومن خصائص هذه التنظيمات : الأوتوقراطية الإمبراطورية ، والمركزية السياسية ، والنظام الإدارى ، والحكومة البيروقراطية[١] .

واستمرت هذه التنظيمات حتى نهاية الحكم البيزنطى . فانفصل النظام الإدارى عن النظام الحربى ، وانفصلت الحكومة المركزية عن حكومة الأقاليم ، وخضعت كل إدارة لإشراف الإمبراطور مباشرة ، فأضحى الإمبراطور بذلك فى قمة سلم الوظائف الحكومية . وصارت كل الأداة الحكومية تتحرك من مركز الحكومة أو الدولة . على أن هذا التقسيم أدى إلى وقوع النزاع بين سائر الإدارات الحكومية[٢] .

أما النظام الحربى ، فإنه على الرغم من أن دقلديانوس عمل على تقوية أسباب الدفاع عن الإمبراطورية ، فإن ثمة من الأسباب السياسية والعسكرية ما يدعو إلى إنشاء جيش قوى دائم ، يسهل انتقاله من جهة إلى أخرى ، ومهمة هذا

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 64—65.

(٢) Ostogorowski : p. 31.
Enselin : The Reforms of Diocletian. Cambridge Ancient History. vol. XII. p. 210.

الجيش لا تقتصر فحسب على درء الأخطار الخارجية ، بل تشمل أيضاً حماية سلطة الإمبراطور من أخطار الطغاة والمغتصبين . وما أنشأه دقلديانوس وقنسطنطين من جيش إنما كان يخدم هذا الغرض المزدوج ، وهذا الجيش هو المعروف باسم **Comitatenses** . وأعد جيشاً آخر مهمته حماية الحدود **limitanaei** ، وحصل جند الحدود مقابل خدمتهم الحربية على أراضى يزرعونها ، فتألفت بذلك طبقة من الجند المزارعين ، وأصبحت الأرض مصدراً لمعاشهم ، ووسيلة للدفاع عن الحدود . ولهذا التنظيم أهمية زمن الإمبراطورية البيزنطية[١] .

واشتهر الجيش ، زمن العصر الرومانى والعصر البيزنطى ، بتغلب العناصر المتبربرة لاسيما الجرمان . ومنذ القرن الرابع ارتقى عدد كبير منهم فى وظائف الجيش ، حتى أصبحوا من كبار القادة . ومن الملحوظ أيضاً أن صار للفرسان أهمية كبيرة ، إذ لا بد من أن تتخذ من الخطط الحربية ما يستطيع بها الفرسان البيزنطيون مواجهة الفرسان الساسانيين وخططهم الحربية[٢] .

أما انتقال مركز جاذبية الإمبراطورية نحو الشرق ، فيرجع أساساً إلى ما اشتهر به الشطر الشرقى من الإمبراطورية ، من وفرة السكان ، وكثرة الموارد[٣] ، ويرجع أيضاً إلى ما واجه الإمبراطورية فى هذه الجهات من أخطار ، لاسيما فى الحوض الأدنى للدانوب حيث ازداد عدد المتبربرين المتدفقين فى جهة الشمال ، وفى الشرق الأدنى حيث أضحت الدولة الساسانية تهدد أملاك البيزنطيين . فإذا كان الأباطرة البيزنطيون يعتبرون أنفسهم خلفاء القياصرة الرومان ، وقد ورثوهم فى أملاكهم ، فإن الملوك الساسانيين اعتبروا أنفسهم أيضاً ورثة لما كان للإمبراطورية الفارسية القديمة من أملاك . ومنذ القرن الثالث الميلادى ، بات الخطر الفارسى ملموساً ، وظل مصدر حيرة وارتباك للإمبراطورية البيزنطية .

(١) Ostrogorowski : p. 40.

(٢) Ostrogorowski : p. 40.

(٣) Lot : Fin du Monde Antique.

فالنضال ضد ملوك فارس يعتبر أهم ما واجه الدولة البيزنطية من مشاكل حربية وسياسية[١] ، وظلت هذه المشاكل قائمة بعد أن استولى المسلمون على أملاك الدولة الساسانية .

إنشاء القسطنطينية :

ولمواجهة كل ما قد يحدث من تغيير واضطراب على الحدود الفارسية الرومانية ، اتخذ دقلديانوس مقر حكمه فى نيقوميديا فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية . أما قسطنطين فهو الذى جعل للإمبراطورية عاصمة فى الشرق . فأقام على أنقاض بيزنطة القديمة الواقعة على البوسفور مدينة جديدة . وشرع فى البناء فى نوفمبر سنة ٣٢٤ ، بعد انتصاره على خصمه ليسينوس Licinius ، وما أعقب ذلك من امتداد سلطانه إلى الشرق ، حتى إذا كان يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠ ، احتفل بافتتاح العاصمة الجديدة التى لم يضارعها فى الأهمية فى تاريخ العالم ، سوى مدن قليلة . إذ احتلت القسطنطينية موقعاً عظيم الأهمية ، وذلك بوقوعها عند التقاء القارتين أوربا وآسيا ، يحدها البوسفور من جهة الشرق ، والقرن الذهبى من جهة الشمال ، وبحر مرمرة فى الجنوب ، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة . يضاف إلى ذلك أن العاصمة احتلت مركزاً استراتيجياً بالغ الأهمية ، إذ أنها تحكمت فى المواصلات بين أوربا وآسيا ، وفى الطريق البحرى بين بحر الأرخبيل والبحر الأسود ، ولم تلبث أن أصبحت أهم مركز للتجارة العالمية . وظلت القسطنطينية ألف سنة ، عاصمة للإمبراطورية البيزنطية من النواحى السياسية والاقتصادية والحربية ، وكانت أيضاً موطن حياتها العقلية والكنسية ، فضلا عن أنها كانت عاملا عظيم الأهمية فى السياسة العالمية ، والتطور الحضارى[٢] ، وذلك لوقوعها قرب أهم مراكز الحضارة الهلنستية ، والتى

(١) Cambridge Ancient History, vol. XII. p. 109.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 41. Vasiliev : op. cit. pp. 59—60.
Maurice, J., : Les Origines de Constantinople, pp. 282—292.

أسهمت بعد تأثرها بالمسيحية ، فى الحضارة البيزنطية[١] .

وأخذت العاصمة الجديدة تأخذ بأسباب الرقى والتقدم ، على حين أن روما أخذت تفقد أهميتها ، إذ أن عدد سكانها صار يتناقص . ولم يمض على إنشاء القسطنطينية قرن من الزمان . حتى زاد عدد سكانها على عدد سكان روما . وفى القرن السادس الميلادى كان عدد سكانها يربو على نصف مليون[٢] . وجرت الأقدار بأن تتخذ روما الجديدة (القسطنطينية) مكانة روما القديمة ، وتحل مكانها ، فتصبح العاصمة الإدارية للإمبراطورية[٣] . على أن المدينة الجديدة ، جرى تخطيطها على نسق روما ونموذجها . وكل ما ارتبطت به روما من تقاليد قديمة ، انتقلت إلى المدينة الجديدة[٤] . فصار لسكان القسطنطينية الحق فى الحصول مجاناً على الخبز والنبيذ والزيت ومشاهدة الملاهى . ولم يدخر قسطنطين جهداً فى أن يوفر للعاصمة الجديدة كل ما يستطيع من ثروة وجاه ، فقامت عمائر عديدة اشتهرت بضخامتها وجمالها . ونقل إليها كل ما استطاع أن يحصل عليه من التحف من سائر أنحاء الإمبراطورية . واشتهر قسطنطين بكثرة ما شيده من الكنائس بالقسطنطينية ، فغلب عليها منذ قيامها الطابع المسيحى .

وعلى الرغم من أن قسطنطين شجع عدداً كبيراً من سادة روما وإيطاليا . على الانتقال إلى القسطنطينية ، وأقبل الناس من جهات كثيرة على الإقامة بها ، فإن الجانب الأكبر من سكانها كان من العناصر التى تتحدث اللغة اليونانية . وباعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وبإنشاء عاصمة جديدة على البوسفور ، تأكد انتصار أثر الشرق فى الحضارة البيزنطية[٥] .

(١) Vasiliev : op. cit. p. 60.

(٢) Baynes — Moss : Byzantion, p. 53.
Bréhier : Le Civilisation Byzantine. p. 81.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 42.

(٤) Janin. R : Constantinople byzantine, p. 30.
Vasiliev : op. cit. p. 60.

(٥) Ostrogorowski : op. cit. p. 42.

قسطنطين والمسيحية :

ومهما قيل من أن قسطنطين اعتنق المسيحية لأسباب سياسية أو دينية ، فالمعروف أن المسيحية كان لها تأثير كبير فى الإمبراطورية الرومانية زمن قسطنطين . ومن الدليل على ذلك ما حدث من دعوة الإمبراطور قسطنطين إلى عقد المجمع المسكونى فى نيقية سنة ٣٢٥ ، وهو أول المجامع المسكونية التى تتولى تقرير ما تجرى عليه الكنيسة المسيحية من عقيدة ونظام[١] .

فلم يقم الإمبراطور فحسب بدعوة المجمع والوقوف على أعماله ، بل كان له أثر بارز ، ودور كبير ، فى القرارات التى اتخذها المجمع . وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يكن وقتذاك من رجال الكنيسة لأنه لم يتنصر إلا أثناء المرض الذى مات فيه ، فإنه تصرف على أنه زعيم الكنيسة . وبهذا الإجراء ، أوجد سابقة سار عليها من جاء بعده من الأباطرة البيزنطيين[٢] . وأهم المسائل التى ناقشها المجمع ، مذهب أريوس الإسكندرى[٣] ، الذى أنكر فيه صفة الشبه بين الأب والإبن ، واعتبر أن ابن الله ليس إلا مخلوقاً ، وبذلك أنكر ألوهية المسيح . وأعلن مجمع نيقية بطلان مذهب أريوس ، وقرر أن الإبن من نفس جوهر الأب ، ومن ثم أخذت العقيدة الدينية تتخذ صورتها وشكلها . وأيد هذا القرار مجمع القسطنطينية الذى انعقد فى سنة ٣٨١ . وما وضعه قسطنطين من سياسة التعاون بين الكنيسة والدولة ، أفاد منها الجانبان ، ومن ناحية أخرى أدت إلى خلق مشاكل بينهما ، إذ أن الديانة المسيحية وهبت الدولة البيزنطية وحدة روحية قوية ، وأمدت الاستبداد الإمبراطورى بتأييد أدبى قوى .

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 44.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 54.

(٣) كان أريوس أحد قساوسة مصر ، وراعى كنيسة بوكاليس بالإسكندرية ، ولم نعلم عنه إلا شيئاً يسيرا ، فلا نعرف شيئاً عن محل ولادته وتاريخها ، كما نجهل تفاصيل فلسفته الدينية ، إذ ضاعت رسائله ، ولم يبق منها إلا مقتطفات جاءت فى بعض الردود عليه ، لاسيا ما كتبه القديس أثناسيوس . انظر : أسد رستم : الروم ، جـ ١ ص ٥١ .

Vasiliev : op. cit. p. 55.

أما الكنيسة فازدادت ثروتها المادية بما حصلت عليه من الدولة من الأملاك والأموال والحبوب فضلا عن إعفائها من الضرائب والواجبات[١] . وأسهمت الدولة فى مساعدة الكنيسة على القيام بالأعمال التبشيرية ، وفى مهاجمة أعدائها . على أن هذا التأييد يدل على أن الكنيسة اعتمدت اعتماداً كبيرا على الدولة . كما أن الدولة تدخلت فيما وقع بين الأحزاب الكنسية من مجادلات دينية ، فالجدل حول العقيدة لم يعد أمرا خاصا بالكنيسة وحدها ، بل تأثر بالأمور السياسية ، وأضحى عاملا مهما فى الحياة السياسية والكنسية . على أن المصالح الدنيوية والكنسية لم تكن فى كل الأحوال فى وفاق ووئام ، وترتب على ذلك أن التعاون بين السلطتين الدينية والسياسية ، تحول فى كثير من الأحوال إلى نضال ونزاع شديد . ولم يكن هذا الأمر خافيا فى زمن قسطنطين ، الذى شهد تدخل الدولة فى منازعات الكنيسة ، وتصادم الأطماع الدنيوية والكنسية ، والعداء بين الكنيسة والدولة . فالأريوسية لم تقض عليها ما أصدره مجمع نيقية من قرار ببطلانها . إذ أن الإمبراطور قسطنطين أدرك قوة خصومه ، وتبين له انتشار الأريوسية فى الشرق ، بل إنها تسربت إلى دوائر القصر ودان بها عدد كبير من رجال الحكومة ، فتغير اتجاه الإمبراطور نحو الأريوسية ، وألزم الكنيسة بأن تعفو عن أريوس وتقره فى كنيسته ، وأدى هذا القرار إلى وقوع نضال ضد رجال الدين الأرثوذكس لا سيما أثناسيوس أسقف الإسكندرية منذ سنة ٣٢٨ . واشتهر هذا الأسقف العظيم ، بتفانيه ، فى نصرة الأرثوذكسية ، على الرغم مما ناله من النفى والتشريد زمنا طويلا ، إذ ظل يناضل فى سبيل عقيدته حتى مات سنة ٣٧٣[٢] .

ويعتبر النزاع المذهبى مسئولا أيضا عن ازدياد الخلاف بين أبناء قسطنطين ،

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 52—53.

Vasiliev : op. cit. p. 57.

(٢) Gwatkin : Essays on Arianism p. 57.

Ostrogorowski : op. cit. p. 45.

فضلا عن تأكيده الفرقة والانشقاق بين شطرى الإمبراطورية . إذ اختص ابنه قنسطنطيوس بحكم الجزء الشرقى ، ودافع عن الأريوسية ، بينما تولى قنسطانز حكم الجزء الغربى ، وأخذ بمذهب مجمع نيقية المسكونى ، وفى خريف سنة ٣٤٣ انعقد مجمع دينى فى (Sardica) على حدود شطرى الإمبراطورية غير أنه لم يستطع التوفيق بين وجهتى النظر المختلفتين . على أن الإمبراطور قنسطانز بلغ من القوة أنه أرغم أخاه قنسطنطيوس ، على أن يفرج عن الأساقفة الأرثوذكس ، الذين أمر بنفيهم ، وطلب إليه أن يعيدهم إلى كراسيهم . وهذه الحركة شطوت الأريوسية شطرين : فريق معتدل يقول إن الأب والإبن من مادة متماثلة وإن لم تكن نفس المادة ، أما الفريق الآخر وهو يمثل الأريوسية الخالصة ، فأنكر كل نوع من أنواع التشبيه والمماثلة[1] . غير أن الوضع لم يلبث أن تغير ، بعد أن لقى قنسطانز مصرعه سنة ٣٥٠ ، أثناء القتال الذى جرى بينه وبين المغتصب ماجنيتيوس Magnetius ، ثم انفرد قنسطنطيوس بالحكم ، بعد أن أنزل الهزيمة الساحقة سنة ٣٥١ بالمغتصب ماجنيتيوس[2] .

وما أحرزه إمبراطور الشرق من النصر ، كفل السيادة للشطر الشرقى من الإمبراطورية . وباعتباره من أشد الناس تعلقاً بالأريوسية ، قام بحملة شعواء على الوثنية فأمر بإغلاق المعابد الوثنية ، ومنع الناس من التردد إليها ، وحرم تقديم القرابين فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، وهدد المخالفين بمصادرة أملاكهم ، والحكم بإعدامهم[3] . ولما قام قنسطنطيوس بزيارة روما ، أمر بإزالة تمثال إله النصر من قاعة مجلس السناتو الرومانى ، فقضى بذلك على آخر مظهر يمثل العالم القديم[4] . وترتب على ذلك أن إرادة الإمبراطور أضحى لها السيادة فى

---

(١) Ostrogorowski ; op. cit. p. 45.
Vasiliev : op. cit. p. 67

(٢) Ibid. p. 67.

(٣) Ibid. p. 67.

(٤) Ostrogorowski. p. 45 Vasiliev p. 68.

الكنيسة والدولة[1] ، على أن ما اتبعه قنسطنطيوس من سياسة أريوسية ، أدت إلى احتكاكه بأنصار مذهب مجمع نيقية ، لاسيما أثناسيوس ، أسقف الإسكندرية ، ومع ذلك فإن مجمعى سرميوم وريمينى Sirmium & Rimini اللذين انعقدا سنة ٣٥٩ ، اعترفا بالأريوسية ديانة رسمية للدولة[2] . غير أنه حدث انشقاق بين صفوف الأريوسيين ، إذ أخذ المعتدلون منهم يقتربون من مذهب نيقية ، على حين أن المتطرفين منهم صاروا تحت لواء الإمبراطور وأضحت لهم الكلمة النافذة ، والسلطان المطلق . وفى هذه الأثناء ، أخذ القوط يتحولون إلى المسيحية ، ويعتبر هذا الحادث أكبر انتصار أحرزه الأريوسيون حتى ذلك الحين ، ذلك أن أولفيلا Ulfila ، الذى ترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية ، رسمه أسقفا سنة ٣٤١ يوسيبيوس Eusebius الأريوسى ، أسقف نيقوميديا . وتلى ذلك أن اعتنق المسيحية على المذهب الأريوسى ، قبائل جرمانية عديدة ، وظلت محافظة على هذا المذهب زمنا طويلا ، على الرغم من تداعى الإمبراطورية الرومانية وانهيارها[3] . مات قنسطنطيوس سنة ٣٦١ فى قليقية ، أثناء قيامه على رأس حملة لمهاجمة الدولة الفارسية ، وجرى نقل جثمانه إلى القسطنطينية حيث تم دفنه بها باحتفال كبير[4] .

على أن فترة القلق الدينى زمن قنسطنطيوس ، أعقبها رد فعل وثنى ، يعتبر الإمبراطور يوليان (٣٦١ — ٣٦٣) مسئولا عنه . ومن أهم المشاكل التى واجهت بيزنطة وقتذاك : إلى أى حد تتفق الحضارة الوثنية القديمة مع المسيحية الأريوسية ؟ والواقع أن يوليان ، الذى يعتبر آخر إمبراطور من بيت قنسطنطين ، وقع تحت تأثير العالم الوثنى ، وتعلق بفنونه وحضارته وعلومه ، وكان يعتبر عدواً لدوداً للدين الجديد[5]. كان يوليان من أشد الناس تعلقاً

---

(١) Ostrogorowski. p. 46.

(٢) Ostrogorowski. p. 45.

(٣) Ibid. p. 45.

(٤) Vasiliev. p. 68.

(٥) Ostrogorowski p. 46.

بالوثنية ، غير أنه أخفى هذه الحقيقة إلى أن مات قنسطنطيوس ، فما كاد يتولى الحكم حتى شرع فى تحقيق أمله ، بإعادة الوثنية . وإذ رأى يوليان أنه من المستحيل ، أن تعود الوثنية فى صورتها الأولى ، وأنه لا بد من أن يجرى بها من الإصلاح ما يجعل منها نظاماً ، يستطيع مناهضة الكنيسة المسيحية ، أجرى تنظيم المعابد الوثنية على نسق الكنائس المسيحية ، فصار يتلى بها أسرار الحكمة اليونانية (ويقابل ذلك المواعظ عند المسيحيين) ، وأدخل يوليان الأنغام فى الشعائر الوثنية[١] . وظن أن ما وقع من منازعات بين الأحزاب المختلفة فى الكنيسة المسيحية سوف يفيده . فأصدر قراراً بالعفو عن جميع الأساقفة الذين أمر الإمبراطور قنسطنطيوس بنفيهم ، وأعاد إليهم ، على اختلاف مذاهبهم ، أملاكهم المصادرة . ورأى يوليان أن الشقاق بين رجال الدين سوف لا يجعل منهم مصدر خطر على الوثنية . يضاف إلى ذلك أنه منح إمتيازات وفيرة لكل من يتخلى عن المسيحية ، وأنه عزل عدداً كبيراً من المسيحيين من المناصب العسكرية والمدنية ، وأقام مكانهم وثنيين . غير أن أشد ضربة تعرضت لها المسيحية ، إنما نجمت عن إصلاح المدارس . فالمعروف أن المدرسين كان يتولى انتخابهم ، المدن ، فقرر يوليان ألا يتم تعيين هؤلاء المدرسين إلا بعد موافقته ، وجاء فى رسائله « إنه ينبغى على كل من يتصدى للتدريس ، أن يكون طيب الخلق ، حسن السيرة ، وألا تكون آراؤه مخالفة للحكومة »[٢] وترتب على ذلك أنه صار لزاماً على المسيحيين أن يرسلوا أبناءهم إلى مدارس البيان ، التى يجرى بها التعليم الوثنى . غير أن معظم المسيحيين امتنعوا عن تنفيذ ذلك ، لأنهم خشوا أن يتحول هؤلاء المسيحيون الصغار إلى الوثنية . غير أن المسيحيين إذا لم يقبلوا على التعليم العام ، أضحوا من الناحية الفكرية ، دون الوثنيين . ولهذا الإجراء أهمية كبيرة عند المسيحيين لأنه يهدد مستقبل المسيحية ، وأشار المؤرخ جيبون إلى ذلك فقال « ما لم يلتحق المسيحيون بالمدارس الوثنية ،

(١) Vasiliev. op. cit. p. 72.

(٢) Gibbon : History of the Decline and Fall of the Roman Empire. ed. Bury, ch. 23.

جرى منعهم من التدريس ، وتقرر حرمانهم من التعلم » ، وترتب على ذلك أن عدداً كبيراً من المدرسين المسيحيين ، تخلوا عن مهنتهم[١] ، ومع ذلك فإن الوثنيين لا زالوا من الوجهة العددية قوة لها حسابها ، لا سيا فى الشطر الغربى من الإمبراطورية وعلى الأخص فى روما كما أن جانباً كبيراً من المتبربرين لم يعتنق المسيحية . على أن يوليان لم ينجح فى مقاومة المسيحيين وتحطمت جهوده ، ففى رسالة من رسائله يشير إلى أنه فى « حاجة إلى من يساعده على أن يقيم ما تعرض للسقوط فى أزمنة الشر[٢] » : والواقع أن الوثنية لم تكن لتنهض من جديد ، لأنها قد أودت وهلكت ؛ بينما ظفرت المسيحية بانتصار ساحق وفوز كبير[٣] .

هجرات المتبربرين :

وما حدث من الفتن الداخلية والمناظرات الدينية ، كان له أثر بالغ الخطورة فى علاقة الإمبراطورية الرومانية بالعالم الخارجى . فالمعروف أن العداء كان مستحكماً من قديم الزمن بين الدولتين الفارسية والرومانية ، بسبب التنازع على الحدود وأهمية أرمينية لكلتا الدولتين . ثم حدث فى القرن الرابع أن انتشرت المسيحية بين الفرس ، فى بابل ، واكتسيفون ، وجنديسابور ، وأشور وغيرها من المدن ، وتم التحالف بين ملك أرمينيا إرشاك الثالث (٣٥١ — ٣٦٧) وبين قنسطنطيوس ، فأثار ذلك سابور الثانى ملك الفرس ، فاستولى على آمد (دياربكر) ، واحتل سنجار ، وجزيرة ابن عمر[٤] وصار للفرس اليد العليا والنفوذ الأقوى فى إقليم الجزيرة[٥] ، على أن الإمبراطور يوليان

(١) Vasiliev, p. 76.

(٢) Vasiliev, p. 77.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 46.

(٤) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٧٦ .

(٥) Ostrogorowski, op. cit. p. 47.

نهض فى سنة ٣٦٣ بجيش ضخم ، وعبر الفرات ، ثم اتجه شرقاً نحو دجلة ، فاستولى على ساوقية ، بعد أن أنزل بخصمه هزيمة ساحقة ، ثم زحف على عاصمة الفرس ، غير أنه تعرض لمقاومة شديدة من قبل الفرس ، وأصابه سهم فى ذراعه ، أدى إلى وفاته (٣٦٣ م)(١) .

ترتب على مصرع يوليان أثناء حروبه ضد الفرس ، أن اضطر خليفته يوفيان Jovian (٣٦٣ — ٣٦٤) ، أن يعقد صلحاً مع فارس ، حصلت فارس بمقتضاه على أقاليم عديدة على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، وتخلى يوفيان عن مزاعمه فى امتلاك(٢) أرمينيا وتنازل أيضا عن نصيبين وسنجار(٣) .

وكان لزاما على الإمبراطورية أن توقف تدفق القبائل المتبربرة ، وما صحب ذلك من مشاكل . فالأطراف الشمالية من الشطر الشرقى للإمبراطورية ، غدت ساحة لقتال طويل مرير ، فكان على بيزنطة أن تحارب باستمرار ، منذ ذلك الحين ، فى جبهتين ، فى الجبهة الشرقية ضد دولة فارس . وفى جبهة الشمال والغرب ضد المتبربرين ، وظل هذا النضال مستمراً طوال زمن الإمبراطورية(٤) البيزنطية .

تولى الإمبراطورية بعد وفاة يوفيان ، أخواه فالنتنيان (٣٦٤ — ٣٧٥) ، وفالنز (٣٦٤ — ٣٧٨) ، فاقتسما حكم الإمبراطورية ، فصار الشطر الغربى للإمبراطورية من نصيب فالنتيان ، من أنصار مذهب مجمع نيقية ، على حين أن فالنز من المتعصبين للأريوسية ، وترتب على ذلك الاختلاف الدينى اتساع الشقة بين شطرى(٥) الإمبراطورية .

أما الأخطار التى تعرضت لها الإمبراطورية ، فإنها نجمت عن إغارات القبائل الجرمانية على أطراف الإمبراطورية . وأهم هذه الغارات ، ما قام بها

(١) أسد رستم : الروم ، ج ١ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) Vasiliev, p. 67.

(٣) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٨٦ .

(٤) Ostrogorowski, p. 47.

(٥) Ibid, p. 47. Vasiliov : p. 78.

القوط الغربيون ومن انحاز إليهم من القوط الشرقيين والهون ، فانثالوا وتوغلوا فى تراقيا ، فأسرع فالنز بالعودة من الجبهة الفارسية إلى القسطنطينية ، ثم توجه فوراً إلى أدرنه لمواجهة العدو ، وفى ٩ أغسطس سنة ٣٧٨ ، دارت المعركة التاريخية على أرض أدرنة ، ولقى الجيش الإمبراطورى هزيمة ساحقة ، وخر الإمبراطور صريعا على أرض المعركة(١) .

ولمعركة أدرنة نتائج بالغة الأهمية : إذ أن هجرات الجرمان أضحت ، منذ هذا الحين ، مشكلة خطيرة تهدد كيان الدولة ، وتحتم على الشطر الشرقى للإمبراطورية ، أن يناضل فى سبيل الدفاع عن كيانه مدة تقرب من قرن من الزمان . أما الشطر الغربى فإنه استسلم للمغيرين وهوى تحت ضرباتهم . يضاف إلى ذلك ، أنه أصبح من المستحيل هزيمة القوط بقوة السلاح وحده ، ولم يكن للدولة من وسيلة أخرى ، سوى أن تعرض عليهم النزول فى أراضيها والاستقرار بها ، وهذه هى الخطة التى اتبعها تيودوسيوس الكبير الذى لم يلبث أن تولى الحكم سنة ٣٧٩ ؛ إذ عقد مع القوط اتفاقاً (foedus) ، يقضى بأن ينزل القوط الشرقيون فى بانونيا ، ويستقر القوط الغربيون فى الأطراف الشمالية من تراقيا ، واعترف لهم بكامل الاستقلال الذاتى ، وأعفاهم من دفع الضرائب ، ورتب لهم عطاء مجزياً مقابل الخدمة العسكرية . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً أدخلهم فى الجيش على أنهم معاهدون foederatii . غير أن عدداً كبيراً منهم اختار أن يدخل مباشرة فى خدمة الإمبراطور ، دون أن يرتبط باتفاق ، وبذلك تجنبت الإمبراطورية وقتذاك تغلغل الجرمان فى أراضيها ، وترتب على دخول الغزاة الجرمان فى خدمة الإمبراطورية ، أن أصبحوا أداة نافعة فى الجيش الرومانى . فما حدث فى هذا الجيش من نقص فى عدد جنده ، وضعف فى قوته ، عوضه ما انضم إليه من إمدادات جديدة من المعاهدين ، فكأن الغزو الجرمانى المبنى على الغارة والحرب ، تحول إلى غزو سلمى ، إذ بلغ من تفوق العناصر الجرمانية فى الجيش ، ما جعل الجرمان المصدر الأساسى

(١) Ostrogorowski, op. cit. p. 48.

لتكوين الجيش الرومانى ، كما أن كبار القادة فى الجيش أصبحوا من الجرمان ، وصارت وظائف رئيسية هامة فى يد الجرمان . غير أن سياسة تيودوسيوس كان لها أثر سيئ من ناحية أخرى ، إذ ترتب عليها استنزاف أموال الدولة ، وازدياد الأعباء المالية ، فتدهورت الأحوال الاقتصادية ، وازداد بؤس الناس وشقاؤهم ، فضلا عن شيوع نظام الحماية أو الإلجاء **patrocinium** ، الذى يقضى بتنازل صغار الملاك عن أراضيهم لكبار الملاك ، مقابل حمايتهم من جباة الضرائب وعمال الحكومة . وساءت أحوال الفلاحين الاقتصادية ، ولم يستطيعوا تحمل ما وقع عليهم من أعباء ثقيلة . ولم ينته القرن الرابع الميلادى ، حتى أصبح القن (الفلاح) **Colonus adscirpticius** من المظاهر السائدة فى سائر الإمبراطورية(١) .

وترتب على مصرع فالنز أيضاً ، أن انهارت الأريوسية : إذ أن تيودوسيوس أعلن عند دخوله القسطنطينية ، أنه ينكر الأريوسية ، وأنه اتخذ مذهب نيقية له دينا ولم يلبث أن ناضل الوثنيين والمتهرطقين . واشتد فى انزال العقوبات بهم ، فأعلن فى القرار الذى أصدره سنة ٣٨٠ : « أنه لا يعتبر من المسيحيين الكاثوليك ، إلا من آمن بالثالوث المقدس : الأبَ والإبن والروح القدس ، وفقا لما ورد فى كتابات الرسل والأناجيل ، ومن سوى هؤلاء يعتبرون هراطقة موسومين بالعار والجنون ، ولا يجوز اعتبار الأمكنة التى يجتمعون بها كنائس . ويجب انزال العقاب بهم . وفى قرار آخر ، حرّم على الهراطقة أن يعقدوا الاجتماعات ، سواء كانت عامة أو خاصة ، بينما أجاز ذلك لأنصار مذهب نيقية(٢) .

---

(١) **Vasiliev, p. 87.**

Ostrogorowski : op. cit. d. 49.

Vinogradoff : Social and Econoic Conditions of the Roman Empire in the Fourtg Century. Cambndge Medival History. vol. I p. 542,

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ٩٢ . **Vasiliev p. 80**

على أن تيودوسيوس حرص على أن يسود السلام والوفاق فى الكنيسة المسيحية ، فدعا إلى عقد مجمع دينى سنة ٣٨١ ، فى القسطنطينية ، وهذا هو المجمع المسكونى الثانى ، على حدما ذهب إليه أكثر المؤرخين(١) ، ولم يشترك فى هذا المجمع إلا رجال الكنيسة الشرقية . أقرّ المجمع ماجاء فى قرار مجمع نيقية عن الأب والابن ، غير أنه أضاف إليه : أن الروح القدس منبثق من الأب . وأخذ بما جرى من أن الروح القدس مساو فى الجوهر للأب والابن(٢) . وتقرر فى هذا المجمع أيضاً أن يلى بطريرك القسطنطينية أسقف روما فى المكانة ، لأن القسطنطينية ليست إلا روما الجديدة ، ولما لهذه المدينة من السيادة

---

(١) **Vasiliev p. 80.**

(٢) **Vasiliev op. cit. p. 81.**

أورد الأستاذ أسد رستم فى كتابه الروم ج ١ ص ٩٤ — ٩٥ ، تفاصيل ما جرى إضافته إلى قرار مجمع نيقية — ووردت هذه الإضافة فى اثنى عشر بابا ، ولا تزال دستور المسيحيين حتى اليوم ، وهى كما يلى :

١ — أومن بإله واحد آب ضابط الكل ، صانع السماء والأرض ، كل ما يرى ولا يرى

٢ — وبرب واحد يسوع المسيح ، ابن الله ، الوحيد المولود من الآب ، قبل كل الدهور نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء .

٣ — الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السموات . وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس .

٤ — وصلب عنا فى عهد بيلاطس النبطى وتألم وقبر .

٥ — وقام فى اليوم الثالث على ما فى الكتب .

٦ — وصعد إلى السموات ، وجلس عن يمين الأب .

٧ — وأيضاً يأتى بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، الذى لا فناء لملكه (وفى نص نيقية : نزل من السماء وتجسد ، وصار إنسانا ، وتألم وقام فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السموات وسيأتى ليدين الأحياء والأموات) .

٨ — وبالروح القدس : الرب المحيى ، المنبثق من الأب ، الذى هو مع الأب والإبن ، مسجود له وممجد ، الناطق بالأنبياء .

٩ — وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية .

١٠ — واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .

١١ — واترجى قيامة الموتى .

١٢ — والحياة فى الدهر العتيد . آمين .

السياسية ، باعتبارها عاصمة الإمبراطورية . ولقى هذا القرار معارضة شديدة من سائر بطاركة الكراسى الرسولية فى الشرق ، لأن هذه الكراسى أقدم عهدا من بطريركية القسطنطينية(١) . وكان تيودوسيوس كريما فى معاملة رجال الدين ، فأقر كل ما حصلوا عليه من امتيازات وحقوق ، غير أنه حرص على ألا تكون هذه الامتيازات وسيلة للتدخل فى مصالح الحكومة . فأصدر مرسوما قرر فيه ما للحكومة على الكنيسة من واجبات والتزامات . فما كان للكنيسة من الحق فى إيواء المذنبين ، الذين يفرون من قضاء الحكومة ، صار بالغ التحديد والضيق ، لما ترتب عليه من مساوئ ، إذ جرى ، على الأخص ، منع المدينين للحكومة ، من أن يلتمسوا الحماية فى الكنائس من جباة الضرائب ، وتقرر منع رجال الدين من إخفائهم . وعمل تيودوسيوس على أن يكون المتحكم الوحيد فى شئون الكنيسة بالإمبراطورية ، ونجح إلى حد كبير فى تحقيق ذلك(٢) .

وما أصدره تيودوسيوس فى المرسوم الأخير ضد الوثنيين سنة ٣٩٢ م ، حرم فيه تقديم القرابين ، وإحراق البخور ، ووضع الأكاليل ، وإراقة الخمور ، وممارسة الكهانة ومعرفة الغيب ، وما إلى ذلك من المراسيم الوثنية . وأعلن أن كل من يخالف هذه الأوامر يعتبر مذنبا ومجرما . فى حق الإمبراطور والديانة ، وينبغى أن تنزل به عقوبة صارمة(٣) .

والخلاصة أن العقيدة المسيحية ، اتخذت زمن تيودوسيوس ، صورتها النهائية ، التى تتمثل فى مذهب نيقية ، وأضحت الديانة الرسمية للدولة ، ولم يعد للديانات والمذاهب الأخرى ما تستند إليه فى وجودها وكيانها(٤) .

---

(١) Vasiliev : op. cit. p. 81.

(٢) Vasiliev. p. 82.

(٣) Ibid, p. 83

(٤) Ostrogorowski, p. 49.

فكرة الإمبراطورية

استطاع تيودوسيوس قبيل وفاته أن يعيد إلى الإمبراطورية الرومانية وحدتها . غير أن ما حرص عليه من إقامة الوحدة ، لم يلبث أن تعرضت ، وهو على فراش الموت ، للتمزق . فعلى الرغم من أنه ينتمى إلى أسرة فى أقصى الغرب (أسبانيا) ، فإنه أدرك أهمية الشرق ، ولذا جعل ابنه الأكبر أركاديوس إمبراطورا فى الشرق ، بينما صار الغرب من نصيب الإبن الأصغر ، هونوريوس ، وفى زمنهما تعين الحد الفاصل بين الشرق البيزنطى ، والغرب الرومانى ، بعد أن انضمت داسيا ومقدونيا إلى الشطر الشرقى(١) .

وعلى الرغم من أن تقسيم تيودوسيوس للإمبراطورية ، لم يدل على تطور جديد ، فإن أهميته ترجع إلى أن الإمبراطورية ظلت منذ هذا التاريخ (سنة ٣٩٥ م) على هذا التقسيم ، على الرغم من استمرار فكرة وحدة الإمبراطورية . إذ ليس ثمت إمبراطوريتان بل إمبراطورية واحدة ، انقسمت شطرين تولى حكمهما إمبراطوران . وجرت العادة بأن تصدر القوانين والمرسومات باسم الإمبراطورين ، وأن ما يصدره أحدهما من مرسومات ، يسرى مفعولها فى سائر الإمبراطورية . وإذا مات أحد الإمبراطورين ، أو خلا العرش من إمبراطور ، فللإمبراطور الآخر الحق فى أن يعين إمبراطورا يخلفه . ومع ذلك لم يكن بين شطرى الإمبراطور من أسباب الصلة ما يجمع بينهما ، وذلك راجع إلى سبب واحد ، هو أن ما جرى من الحوادث فى الغرب والشرق ، سار فى طريقين واتجاهين مختلفين ، كما أنه لم يكن بين الحكومتين ، الشرقية والغربية ، من عوامل الود ما يجمع بينهما . ففى أثناء حكم ولدى تيودوسيوس ، نلحظ كثرة من تعاقب على الوصاية على أركاديوس الضعيف الذى يحكم فى الشرق ،

---

(١) Ostrogorowski, p. 50.

على حين أن استليخو الجرمانى القوى ، حكم باسم هونوريوس ، فى الغرب ما يزيد على عشر سنوات (١) .

الجرمان

أما السياسة التى وضعها تيودوسيوس لمعاملة الجرمان ، فإنها تعرضت بعد وفاته لأزمة بالغة الخطورة . إذ نهض القوط الغربيون بزعامة ألريك ، وعاثوا فسادا بشبه جزيرة البلقان ، وامتد تخريبهم وغاراتهم حتى أسوار القسطنطينية ، والأطراف الجنوبية من بلاد اليونان . وترتب على المنازعات التى نشبت بين الحكومتين فى القسطنطينية وروما ، أن مقاومة العدو لم تكن مجدية ، ولم يتوقف التخريب والغارة إلا بعد أن تقاضى ألريك ثمنا لذلك ، فعينته الدولة الشرقية قائداً للجند فى إيلليريا ، وشغل جايناس Gainas القوطى ، منصب القائد العام للجيش ، فدخل القسطنطينية على رأس عساكره (٢) وأضحى الجرمان يتحكمون فى مصير الإمبراطورية . وأدرك أركاديوس وأهل المدينة ما يتعرض له الموقف من خطر ، غير أنه على الرغم من كل ذلك ، لم يكن فى وسع جايناس أن يحتفظ بسيطرته على المدينة . وشجع أركاريوس الحزب المناهض للجرمان فى القسطنطينية ، ولم يستهل القرن الخامس حتى استطاع هذا الحزب أن يسيطر على الموقف وأن يتخلص من جايناس ، وأن يطرد الجرمان من الجيش ، ويعمل على إعادة تنظيم الجيش . غير أن الأحوال تطلبت أن يظل بالجيش ، جند من الجرمان ، حتى القرن السابع الميلادى ، وكانوا أقوى عنصر فى الجيش الإمبراطورى . غير أنهم لم يؤلفوا وحدات جرمانية (قوطية) مستقلة ، يتولى قيادتها رجال منهم ، كما تقضى بذلك سياسة تيودوسيوس ، التى تجعلهم حلفاء ومعاهدين ، بل دخلوا فى الجيش على أنهم مأجورون ، يتولى أمرهم قادة من قبل الإمبراطور . ولم يحدث هذا التعديل فى الغرب ، بل بقى النظام القديم الذى وضعه

(١) Ostrogorowski, p. 50. Vasiliev p. 92.
(٢) Ostrogorowski, p. 50.

تيودوسيوس ، وترتب على ذلك ، أن الغرب ماج بالجيوش الجرمانية . فما ظفر به الشرق من نجاح فى مناهضة الجرمان ، وما جرى من فشل محاولات الغرب ، فى وقف نفوذ الجرمان ، كشف عن اختلاف الأحوال فى شطرى الإمبراطورية ، وأنذر بما سوف يجرى مستقبلا من التطورات . فالشطر الشرقى ، لم يلبث أن تخلص من ألريك ، الذى انسحب بجيشه إلى إيطاليا ، فاستولى على روما سنة ٤١٠ ، وتدهورت الأمور فى الغرب ، بينما تمتع الشرق منذ أوائل القرن الخامس ، بقسط كبير من الهدوء والسلام (١) .

تيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) :

لم يكن تيودوسيوس من رجال السياسة الموهوبين ، ولم يهتم بشئون الحكم ، إنما انصرف إلى حياة العزلة ، فقد نشأ دينا تقيا محبا للعلم ، يجيد الخط والصيد (٢) . على أنه أحاط بتيودوسيوس جماعة ، بلغ من شدة تأثيرهم فيما جرى فى داخل الإمبراطورية من الحوادث الهامة ، أنه لم يسع المؤرخ إلا أن يعتبر تيودوسيوس إمبراطورا ضعيفا سيئ الحظ (٣) . ومن أقوى الأشخاص نفوذا زمن تيودوسيوس ، أخته بولكيريا Pulcheria ، فهى التى رتبت أمر زواجه من أتنايس Attenais (التى اتخذت بعد تنصيرها اسم ايدوسيا Eudocia ابنة أحد أساتذة البيان بجامعة أثينا) ، وشخصية الإمبراطورة ايدوسيا لها أهميتها ، إذ أنها تعتبر مثلا حيا للوسيلة التى عاشت بها المسيحية ، جنبا إلى جنب مع العلم الوثنى فى بيزنطة . إذ اشتهرت الإمبراطورة بحرصها الشديد على الحضارة اليونانية ، وإخلاصها المتين للمسيحية ، فضلا عن ميلها إلى نظم الشعر ، وتأليف التراتيل الكنسية . وبفضل تأثيرها ، جرى سنة ٤٢٥ إعادة تنظيم الجامعة التى أنشأها قنسطنطين الكبير فى القسطنطينية (٤) وتولى التدريس بها واحد وثلاثون

(١) Ostrogorowski, p. 51.
(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢١٦ — Vasiliev, p. 97.
(٣) Vasiliev, p. 97.
(٤) Ostrogorowski, p. 51.

أستاذا، قاموا بتدريس النحو والبيان (الخطابة)، والقانون ، والفلسفة . ومن هؤلاء صاريدرس باللغة اللاتينية ثلاثة أساتذة فى الخطابة ، وعشرة فى النحو ، بينما صاريدرس باللغة اليونانية خمسة أساتذة فى الفلسفة والخطابة ، وعشرة فى النحو[١] . يضاف إلى ذلك أن المرسوم الإمبراطورى تضمن جعل كرسى للفلسفة ، وكرسيين للقانون . وعلى الرغم من أن اللاتينية لا زالت اللغة الرسمية ، فإن إنشاء كراسى يونانية بالجامعة إنما يدل على أن الإمبراطور أخذ يدرك أهمية اللغة اليونانية ، لشيوعها فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية[٢] . ومن الدليل على ذلك أن زاد عدد الأساتذة اليونانيين على الأساتذة اللاتين ، وصار للجامعة الجديدة مبنى مستقل مجهز بقاعات المحاضرات والمدرجات . وتحتم على الأساتذة ألا يعطوا دروسا خاصة للطلاب فى منازلهم ، وصار لزاما عليهم أن يكرسوا وقتهم وجهدهم للتدريس بالجامعة . وتقررت لهم مرتبات ثابتة ، يتقاضونها من الخزانة العام، وانفتح أمامهم سبيل الترقى فى الوظائف ،وأضحت هذه الجامعة منافسا خطيرا لجامعة أثينا ، التى أخذت فى التداعى ، بسبب انتصار المسيحية من جهة ، ولما تعرضت له بلاد البلقان واليونان من غارات المتبربرين وما ترتب عليها من التخريب والتدمير من جهة أخرى . وبذلك قطعت الإمبراطورية شوطا كبيراً فى سبيل الأخذ بالصبغة اليونانية . إذ صارت هذه الجامعة ، هى النـــواة التى تركز حولها كل عوامل الثقافة والحضارة البيزنطية[٣] .

قانون تيودوسيوس :

وفى زمن تيودوسيوس صدر القانون المعروف باسم **Code Theodosianus** ، ويعتبر أقدم مجموعة لما بقى من مرسومات الأباطرة الرومان . والواقع أن الدولة كانت فى حاجة ماسة ، منذ زمن طويل لمثل هذه المجموعة ، لما تعرضت له المرسومات المتفرقة من النسيان أو الضياع ، وما ترتب على ذلك من حدوث

---

(١) Vasiliev, p. 100.

(٢) bid, p. 100.

(٣) Vasiliev, p. 101. Ostrogorowski, p. 51.

أسد رستم : ج ١ ص ١١٩ .

الاضطراب فى الإجراءات القضائية ، وما صادف رجال القانون من المشاكل[١] . إذ لم يكن معروفاً قبل قانون تيودوسيوس إلا مجموعتان ، ترجع المجموعة الأولى إلى زمن دقلديانوس ، وتشمل المرسومات الصادرة فى الفترة الواقعة منذ حكم هادريان إلى زمن دقلديانوس، بينما ترجع المجموعة الثانية إلى زمن خلفاء دقلديانوس فى القرن الرابع الميلادى ، وتشمل المرسومات الصادرة منذ أواخر القرن الثالث إلى الستينات من القرن الرابع الميلادى ، ولم يبق من هاتين المجموعتين إلا شذرات ونتف صغيرة[٢] .

رأى تيودوسيوس أن يصدر مجموعة من القوانين على مثال المجموعتين المتقدمتين ، وتشتمل على المرسومات التى أصدرها الأباطرة المسيحيون منذ قنسطنطين الكبير إلى زمنه ، ويدخل فيها ما أصدره من القوانين . واستطاعت اللجنة التى تألفت لهذا الغرض ، أن تصدر باللغة اللاتينية بعد مجهود استغرق ثمانى سنوات ، ما هو معروف بقانون تيودوسيوس . فصدر سنة ٤٣٨ فى الشطر الشرقى ، ولم يلبث أن صار معروفاً فى غرب الإمبراطورية . وقانون تيودوسيوس يقع فى ١٦ كتاباً ، كل منها يعالج ناحية من نواحى الحكومة ، كالدواوين ، والشئون الحربية ، والحياة الدينية . وكل كتاب يشمل موضوعات معينة . وجرى ترتيب القوانين ترتيباً زمنياً ، وما صدر من قوانين بعد صـــدور قانون تيودوسيوس ، اشترت باسم المتجددات **leges novellase**[٣] .

وترجع الأهمية التاريخية لقانون تيودوسيوس ، إلى أنه تضمن ما حققته المسيحية ، بعد أن أصبحت الديانة الرسمية ، فى مجال القانون ، وما جاءت به من تغيرات فى الإجراءات القانونية . ولهذا القانون أهميته أيضاً فى أنه صار أساساً لما حدث زمن جستنيان من الاهتمام بالقوانين ، وفيما كان له من أثر فى تشريعات الجرمان فى غرب أوربا[٤] .

---

(١) Vasiliev, p. 101.

(٢) Ibid, p. 101.

(٣) Vasiliev, op. cit. p. 101.

(٤) Coulange : Histoire des institutions politiques, 2 nd ed. 1904, p. 513.

والمعروف أن قانون تيودوسيوس ، تقرر إذاعته باسم الإمبراطورين تيودوسيوس الثانى ، وفالنتينيان الثالث ، فى شرق الإمبراطورية وغربها ، وبذلك يعتبر مظهراً من مظاهر وحدة الإمبراطورية . غير أن هذه الفكرة لم تنعكس على ما يجرى فعلا من الإجراءات السائدة ، نظراً لاختلاف التطور التشريعى فى كل من شطرى الإمبراطورية[١] . فالملحوظ أن إمبراطور الشرق لم يكترث بعد صدور قانون تيودوسيوس ، بأن يبعث إلى الغرب ، ما يصدر من القوانين ، وجرى إمبراطور الغرب على هذه القاعدة ، مما يدل على أن الهوة بين الشطرين أخذت تتسع . يضاف إلى ذلك أن كلا الشطرين سلكا فى سياستهما وحضارتهما طرائق مختلفة . ومن الأدلة على ذلك اختلافهما الشديد فى اللغة[٢] .

الاتجاه نحو الشرق

وحدث وقتذاك اختلافات ثقافية وحضارية فى أرمينيا التى اتخذت من المسيحية وسيلة للتعبير عن نفسها ، فظهرت الأبجدية الأرمنية ، وجرت ترجمة الإنجيل إلى اللغة الأرمنية . وخضع جزء من أرمينية لبيزنطة ، منذ زمن تيودوسيوس الكبير ، بينما كان معظمها تابعاً لفارس . ودأبت بيزنطية على تشجيع الوعى القومى ، فأقامت كنيسة مسيحية بأرمينية . على أن مشكلة أرمينية ، وما اقترنت به من تدخل الحكومة البيزنطية ، بمساعدة المسيحيين المضطهدين فى فارس ، أدت إلى تجدد العداء والحرب بين الدولتين الفارسية والبيزنطية . ولم تؤد هذه الحروب إلى تغييرات إقليمية ، بل تقرر عقد الصلح سنة ٤٢٢ ، على أن يستمر مائة عام ، غير أنه لم يطل أمده على عشرين سنة[٣] . وتعهد بهرام الخامس ملك الفرس برفع الأذى عن المسيحيين فى بلاده ، وأن

(١) Ostrogorowski, p. 51.

(٢) Ostrogorowski, p. 52.

(٣) Ibid, p. 52.

يطلق لهم حرية العقيدة والعبادة ، على أن يفعل ذلك أيضاً تيودوسيوس ، واتفق الطرفان ألا يحرض أحد منهما من فى أرضه من العرب على مهاجمة أرض الآخر ، والإشارة هنا إلى المناذرة (فى الحيرة) ، والغساسنة (فى الشام)[١] .

المتبربرون والإمبراطورية الشرقية :

تعرضت الإمبراطورية الشرقية ، أوائل القرن الخامس ، إلى أزمة خطيرة فى سياستها الخارجية ، بسبب ما قام به الهون بزعامة أتيلا من غارات مخربة ، امتدت فى أراضى الدولة حتى بلغت أسوار القسطنطينية . ولم يتحرك أتيلا نحو الغرب ، إلا بعد أن عاث فساداً فى البلقان ، واستنزف أموال الدولة الرومانية الشرقية ، بكثرة ما طلبه من إتاوات ومنح ، وبعد أن جرى التنازل له عن الأراضى الواقعة جنوب الدانوب[٢] .

ولم يكن لوفاة أتيلا سنة ٤٥٤ ، أثر فى الإبقاء على الشطر الغربى من الإمبراطورية ، إذ أن الموقف ازداد تدهوراً ، فانتشرت الفوضى وعم الاضطراب بإيطاليا ، بعد مصرع فالنتينيان الثالث سنة ٤٥٥ ، وأقامت القبائل الجرمانية ممالك لها فى أهم أقاليم الإمبراطورية الرومانية ، فاستقر الوندال بشمال أفريقية ، وقام للقوط الغربيين ممالك فى غاله وأسبانيا[٣] .

المنازعات الدينية :

وعلى الرغم من الأخطار التى حاقت بروما وإيطاليا ، من قبل الهون والوندال ، وما ساد من الفوضى ، وما جرى من التفكك السياسى ، بقيت كنيسة روما المركز الروحى للعالم بأسره . وأخذ البابا ليو الأول (٤٤٠—٤٦١)

(١) أسد رستم الروم ج ١ ص ٨١١ :
Christensen A. S. : Iran sous les Sassanides, pp. 280 - 281.

(٢) Vasiliev p. 98. Ostrogororowski pp. 52-53.

(٣) Ostrogorowski, p. 53.

يعمل جاهداً ليجعل لكنيسة روما من الصدارة والزعامة ما لم يكن لها من قبل. ولعبت روما دوراً خطيراً فيما وقع فى القرن الخامس ، من منازعات دينية ، لم تكن فى الواقع إلا اختلافاً بين الكراسى الرسولية الكبرى على الزعامة والصدارة(١) .

ولهذه المنازعات الدينية من التأثير فى مجرى الحوادث فى بيزنطة ، ما لم يكن للجدل حول مذهب أريوس . فللرد على الأريوسية عمدت الكنيسة إلى صياغة مذهبها الدينى ، بتقرير الصفة الإلهية للإبن ، وأنه من نفس جوهر الأب . وترتب على ذلك ، أن جرت المناظرة والمناقشة حول العلاقة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية فى المسيح . على أنه ظهر فى أنطاكية فى أواخر القرن الرابع الميلادى مذهب يشير إلى أن الطبيعتين الإلهية والبشرية لم تتحد اتحاداً كاملا فى المسيح ، وتطور هذا المذهب إلى محاولة أربابه البرهنة على أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة ، ونهى هذا المذهب عن تسمية العذراء بوالدة الإله ، واستبدل بها اسم « والدة المسيح » ، لأنها لم تلد إلهاً بل إنساناً(٢) . على أن هذا المذهب لم يؤد أول الأمر إلى الاضطراب فى الكنيسة ، نظراً لأنه لم يكن سائداً إلا فى دائرة صغيرة من الناس . غير أنه ما كاد يتولى بطريركية القسطنطينية نسطوريوس ، وكان سورى الموطن ، متعصباً لمذهب أنطاكية ، حتى تغيرت الأحوال ، لأنه فرض مذهبه على الكنيسة . واشتهر نسطوريوس بالفصاحة ، والجرأة ، فخاطب الإمبراطور طالباً منه أن يطهّر الأرض من المتهرطقين ، وهو كفيل بإنزال الهزيمة بأعدائه من الفرس . والمقصود بالمتهرطقين كل من يخالف مذهب أنطاكية ، فهاج الناس بالقسطنطينية ، وتظاهروا ضده فى الشوارع والكنائس ، وقابل نسطوريوس هذا التظاهر بالشدة(٣) .

على أن المعارضة لهذا المذهب ، إنما صدرت من قبل كيرلس بطريرك

---

(١) Ostrogorowski, p. 52.

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ١٢٣ .

(٣) أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ١٢٣ . Vasiliev, p. 98.

الإسكندرية ، واعتبر مذهب الإسكندرية المسيح إنسانا ، اتحدت فيه الطبيعتان البشرية والإلهية(١) واستطاع كيرلس أن يتغلب على نسطوريوس دينيا وسياسيا ، بفضل ما لقيه من مساعدة الرهبان ، وتأييد بابا روما . وعلى الرغم من أن الإمبراطور كان يؤيد نسطوريوس ، فإن ذلك لم يمنع المجمع المسكونى الثالث الذى انعقد سنة ٤٣١ فى إفيسوس Ephesus ، من الحكم عليه بالزندقة والإلحاد ، ونفيه إلى مصر حيث أمضى بها ما تبقى من حياته(٢) . فأحرز كيرلس بذلك نصراً حاسما ، وذاع صيته على أنه عالم دينى ومن ساسة الكنيسة ، إذ انتصر على بطريرك القسطنطينية ، وعلى حكومة الإمبراطور التى تظاهره وتؤيده ، فتطلع إلى زعامة الكنيسة الشرقية . ولم يكتف بذلك ، بل فرض على موظفى الإمبراطور (بمصر) ما له من سلطة ونفوذ فى الأمور الدنيوية . والمعروف أن بطريركية الإسكندرية أخذت منذ زمن أثناسيوس الكبير . تعمل على توطيد مركزها ، وتدعيم مكانتها ، وبلغت أوج قوتها زمن البطريرك كيرلس الذى مات سنة ٤٤٤ ، وحافظ خليفته على البطريركية ، ديوسقوروس ، على ما بلغته البطريركية من مكانة ونفوذ ، فأذعنت الحكومة الإمبراطورية ، آخر الأمر ، للهزيمة ، واضطرت إلى مسايرة كنيسة الإسكندرية(٣) . على أن أوتيخا أحد آباء الكنيسة فى القسطنطينية كان من أشد أنصار كنيسة الإسكندرية ، واشتهر بقوة نفوذه وسلطانه فى البلاط الإمبراطورى . غير أن كنيستى روما والقسطنطينية لم تلبث أن تحالفتا لمناهضة كنيسة الإسكندرية ، ولم يكن ديوسقوروس وأوتيخا فحسب من أخلص أتباع كيرلس فيما يتعلق بالكنيسة من الناحية السياسية ، بل تجاوزا فى التعاليم المذهبية ما نادى به كيرلس ، إذ قررا بأن طبيعتى المسيح ، الإلهية والبشرية ، أصبحتا عند التجسد طبيعة واحدة ، إذ ذابت الطبيعة البشرية فى الطبيعة الإلهية(٣) . والواضح أن

---

(١) Ostrogorowski, p. 54.

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ١٢٥ Vasiliev, p. 98

Ostrogorowski, p. 54.

(٣) Ostrogorow ski, p. 54 Vasiliev p. 99.

نسطوريوس أنكر الطبيعة الإلهية فى المسيح ، وأن رجال كنيسة الإسكندرية أغفلوا الطبيعة البشرية فى المسيح . وترتب على ذلك ظهور المذهب المونوفيزتى ؛ الذى يجعل للمسيح طبيعة واحدة ، هى الطبيعة الإلهية . على أن هذا المذهب الجديد (المونوفيزتى) ، لقى معارضة شديدة من بطريرك القسطنطينية والبابا ليو الأول[1] ، على الرغم من أن الإمبراطور كان يساند ديوسقوروس ، ويعتبره المدافع عن آراء كيرلس الإسكندرى . وحث ديوسقوروس الإمبراطور ، على أن يعقد مجمعا فى إفسوس سنة ٤٤٩ ، وهو المعروف بمجمع اللصوص ، وتولى ديوسقوروس رآسة المجمع ، وتقرر فى هذا المجمع اعتبار مذهب أوتيخا صحيحا ، وأقر الإمبراطور ذلك . على أن هذا المجمع لم يستطع حمل الكنيسة على الأخذ بقراراته ، فتلى ذلك فترة سادت فيها الفوضى والاضطرابات ، ومات أثناءها الإمبراطور تيودوسيوس ، وصار أمر المونوفيزتية متروكا لمن يخلفه فى الحكم[2] .

مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ :

تولى عرش الإمبراطورية جندى كفء ، وهو مارقيان (٤٥٠ — ٤٥٧) ، الذى تزوج من أخت سلفه ، المعروفة باسم بولكيريا ، والتى اشتهرت بنشاطها السياسى .

دعا الإمبراطور الجديد سنة ٤٥١ إلى عقد مجمع مسكونى بخلقدونية بآسيا الصغرى تقرر فيه تحديد العقيدة الدينية المتعلقة بطبيعتى المسيح ، فاعتبر كلا من الطبيعتين ، كاملة مستقلة غير قابلة للانقسام ، وكل من الطبيعتين مستقلة عن

---

(١) وفى الرسالة التى وجهها البابا ليو الأول فى ١٣ يونيه سنة ٤٤٩ إلى فلافيان بطريرك القسطنطينية ، وهى المعروفة برسالة العقيدة (Tome) ، أشار إلى أن المسيح ليس إلا شخصاً واحداً ، وهو كلمة الله ، اتحدت فيه الطبيعتان الإلهية والبشرية ، على الرغم من أن كلا منهما كاملة ، غير مختلطة بالأخرى ، وتؤدى وظائفها الخاصة ، فى نطاق وحدة الشخص . انظر Cross : Dictionary of Christian Church.

(٢) Vasiliev, p. 99

الأخرى . وأنكر نحلة المونوفيزتيين والنسطوريين . ويعتبر مذهب خلقدونية ، وسطاً بين المونوفيزتية ، والنسطورية ، فالخلاص فى مذهب خلقدونية ، إنما جاء على يد المخلص أو المنقذ الذى يعتبر إلهاً كاملا وإنساناً كاملا[1] .

وخرجت القسطنطينية بذلك منتصرة ، لا فحسب فى تقرير العقيدة وصياغتها ، بل كذلك فى الأمور المرتبطة بسياسة الكنيسة ، إذ استطاعت أن تنتزع اعترافاً بدعاويها ومطالبها وصدارتها للكنيسة ، وفقاً لما جاء فى قرارات المجمع المسكونى المنعقد سنة ٣٨١ ، والذى تقرر فيه أن أسقف القسطنطينية يلى فى المكانة بابا روما فى الكنيسة المسيحية . وما أحرزته القسطنطينية من انتصار على كنيسة الإسكندرية ، بفضل مساعدة روما ، إنما يدل على أن دعوى القسطنطينية لم تكن مجرد دعوى نظرية . على أن ما ورد فى قرارات مجمع خلقدونية من جعل الصدارة لأسقف روما ، إنما يقصد بذلك الصدارة الشرفية ، وعندئذ تكون القسطنطينية على قدم المساواة مع روما ، وسوف يترتب على ذلك ما وقع فيما بعد من العداء بين الكنيستين الشرقية والغربية ، بسبب التنافس على الصدارة[2] .

---

(١) Ostrogorowski, p. 55. Vasiliev, p. 105.

وأورد أسد رستم ، الروم ج ١ ص ١٢٧ — ١٢٨ نص المذهب :

« إننا نعلم جميعنا تعليماً واحداً ، تابعين الآباء القديسين ، ونعترف بابن واحد ، وهو هو نفسه ، ربنا يسوع المسيح ، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت ، إله حقيقى وإنسان حقيقى ، وهو نفسه من نفس واحدة ، وجسد مساو للأب فى جوهر اللاهوت ، وهو نفسه مساو لنا فى جوهر الناسوت ، مماثل لنا فى كل شىء ما عدا الخطيئة ، مولود من الأب قبل الدهور بحسب اللاهوت ، وهو نفسه فى آخر الأيام مولود من مريم العذراء ، والدة الإله ، بحسب الناسوت ، لأجلنا ولأجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحاً وابنا ورباً ، ووحيداً واحداً ، بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ، ولا انقسام ولا انفصال ، من غير أن يبقى فرق الطبائع بسبب الاتحاد ، بل إن خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة ، تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً وأقنوماً واحداً ، لا مقسوماً ولا مجزءاً إلى شخصين ، بل هو ابن ووحيد وواحد ، هو نفسه الله ، الكلمة الرب ، يسوع المسيح ، كما تنبأ عنه أنبياء منذ البدء ، وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا دستور الآباء » .

(٢) Ostrogorowski, p. 55.

وترتب أيضا على قرارات مجمع خلقدونية ، ازدياد الخلاف بين كنيسة القسطنطينية والكنائس الواقعة فى الجهات الشرقية من الدولة البيزنطية ، فالنزاع بين كنيسة القسطنطينية والكنائس المونوفيزتية فى الشرق المسيحى ، أصبح المشكلة التى أقلقت بال الدول البيزنطية أوائل عهدها ، إذ أن المونوفيزتية ليست إلا تعبيراً عما كان بمصر والشام من ميول سياسية انفعالية ، وكانت الأداة ، التى اتخذها المسيحيون فى هذه الجهات ، لمناهضة الحكم البيزنطى[1] فألغت كنيسة الإسكندرية استخدام اللغة اليونانية فى طقوسها وشعائرها ، واستخدمت بدلا منها اللغة المصرية (القبطية) ، وما حدث من القلاقل الدينية فى بيت المقدس والإسكندرية وأنطاكية ، بسبب ما جرى من محاولة تنفيذ قرارات مجمع خلقدونية ، قوة واقتداراً ، إنما اتخذت صفة الثورات الوطنية العنيفة ، ولم تقمعها السلطات المدنية والعسكرية إلا بعد أن راقت دماء كثيرة . على أن هذه الاضطرابات الدينية ، وما لقيته من تأييد ومساعدة من سائر السكان ، كان لها أثر فى سهولة استيلاء الفرس ثم العرب فى القرن السابع الميلادى على هذه البلاد الخصيبة الغنية[2] ، يضاف إلى ذلك ما جرى فى القسطنطينية من ازدياد النفوذ الجرمانى ، فالإمبراطوران مارقيان وليو الأول ، مدينان بعرشهما فى منتصف القرن الخامس ، للقائد الأعلى للجيش ، وهو أسبار الجرمانى الأريوسى ، على أن ليو يعتبر أول إمبراطور تلقى العرش من بطريرك القسطنطينية ، لا من الجيش والسناتو والشعب كما جرت بذلك العادة قديما . وهذه السنة الجديدة تدل على ما نالته بطريركية القسطنطينية من مكانة عالية ، وسلطان قوى ، فصار من المحتم أن يتولى بطريرك القسطنطينية تتويج الأباطرة . واتخذ التتويج مظهر التكريس الدينى ، بالإضافة إلى ما كان معروفا من الصفة المدنية العسكرية . ولم يلبث الاحتفال الدينى أن حل مكان الموكب

(١) Vasiliev, p. 105.

(٢) Vasiliev, p. 106.

المدنى العسكرى ، فصار بذلك أهم إجراء فى خطة تتويج الإمبراطور البيزنطى فى العصور الوسطى[1] .

وعزم ليو الأول على أن يتخلص من سيطرة أسپار Aspar والقوط الشرقيين ، وحاول تحقيق ذلك بالاستعانة بالأيزوريين Isaurians ، وهم أصلا فى سكان مرتفعات أيزوريا بآسيا الصغرى ، واشتهروا بالمغامرة والميل للحروب ، وكان زعيمهم قد أقام بالقسطنطينية مع جانب من القوات الأيزورية ، واتخذ لنفسه اسماً يونانياً هو زينون Zenon ، وتزوج من كبرى بنات الإمبراطور ، وهى أريادن Ariadene سنة ٤٦٦[2] . وأدى هذا الانصراف عن أسبار ، إلى اتخاذ سياسة مختلفة — إذا كانت سياسة أسبار تدعو إلى منع الإمبراطورية الشرقية من تخليص شمال أفريقية وإيطاليا ، من المتبربرين . لما يربطه بهم من صلة العنصر ، إذ أنهم مثله من العنصر الجرمانى[3] . وترتب على ذلك أن صار الشطر الشرقى للإمبراطورية يهتم بما يجرى فى الغرب من أحداث ، فتقرر إرسال قوة بالغة الضخامة ضد الوندال فى أفريقيا ، غير أن هذه الحملة لقيت الفشل الذريع . وحاول أسبار استعادة نفوذه ، غير أن ما حدث من الثورة فى القسطنطينية ، وازدياد الكراهية للجرمان ، أدى كل ذلك إلى مصرع أسبار والتخلص من معظم أسرته[4] . وصار لزينون والأيزوريين السيطرة فى القسطنطينية . ولم يلبث زيو ، أن قضى نحبه ، فلما مات ليو الأول سنة ٤٧٤ ، ومات بعد بقليل ابنه ، تولى العرش زينون .

(١) Ostrogorowski, p. 56.

Brooks : The Emperor Zenon and the Isaurians, English Historical Review, (1893) pp. 212—216.

(٣) Bury : Later Roman Empire, I. p. 318.

(٣) Vasiliev : p. 104.

Ostrogorowski, p. 57. Vasiliev, pp. 104.

(٤) Ostrogorowski, p. 57.

Vasiliev, p. 106.

زينون (٤٧٤ — ٤٩١) :

وقعت فى زمن زينون أحداث خطيرة فى إيطاليا ، وذلك لأنه حدث فى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، أن أضحى للقادة الجرمان والقوات الجرمان من السلطات ومن النفوذ ما جعلهم يولون الأباطرة فى الغرب ويعزلونهم كيفما شاءوا . وفى سنة ٤٧٦ استطاع أدواكر ، وهو واحد من هؤلاء الزعماء المتبربرين ، أن يخلع روميلوس أغسطلوس ، آخر الأباطرة فى الغرب ، وأن يتولى مكانه حكم إيطاليا . وللاطمئنان على حكمه فى إيطاليا ، أرسل إلى زينون مبعوثين من قبل سناتو روما ، فأكدوا لزينون ، أن إيطاليا لم تعد فى حاجة إلى أن يتولاها إمبراطور مستقل ، وأنهم يعتبرون زينون إمبراطوراً على الشطرين الشرقى والغربى ، وفى الوقت ذاته ، التمس أدواكر من زينون أن يمنحه رتبة البطرقية وأن يعهد إليه بإدارة شئون إيطاليا ، فاستجاب زينون لذلك ، واعترف بأدواكر حاكماً على إيطاليا ، فصار بذلك حكمه مشروعا(١) .

على أن فازيليف لا يتفق مع المؤرخين الذين يعتبرون سنة ٤٧٦ ، هى السنة التى سقطت فيها الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، لأنه لم يعتبر الشطر الغربى من الإمبراطورية منفصلا ومستقلا عن الشرق . فالمعروف أنه لم يكن قبل ذلك التاريخ إلا إمبراطورية واحدة ، يحكمها إمبراطوران ، أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب . وما حدث فى سنة ٤٧٦ ، أنه لم يعد ثمة سوى إمبراطور واحد للإمبراطورية ، هو زينون ، يحكم فى الشطر الشرقى منها(٢) .

والواقع أن الإمبراطورية فقدت إيطاليا ، وأن معظم غرب أوربا صار تحت حكم الجرمان . على أن العنصر الجرمانى فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية لم يلبث أن خضع لسلطة حكومة القسطنطينية . فالمعروف أنه كان للقوط الشرقيين قوات كبيرة فى شبه جزيرة البلقان وفى إيلليريا ، وأن عددا كبيرا من قادة الجيش الرومانى ، كانوا من زعماء الجرمان ، واحتل الوظائف الكبيرة فى

(١) Vasiliev, p. 107.

الدولة كثير منهم ، وتعرضت ممتلكات الدولة لما قام به الجند الجرمان من النهب ، واشترك هؤلاء الزعماء وجندهم فى الانقلابات الحكومية ، وفيما حدث من الحروب الداخلية ، والمنازعات الحزبية . ولما تبين للحكومة البيزنطية أن أدواكر إنما يتصرف فى أمور إيطاليا على أنه حاكم مستقل ، وأنه ليس فى استطاعتها التغلب عليه ، دبرت سنة ٤٨٨ خطة للتخلص من أدواكر ، ومن شرور القوط الشرقيين بزعامة تيودوريك . فعرض الإمبراطور زينون على تيودوريك أن يتولى نيابة عنه حكم إيطاليا ، فرحب بذلك العرض ، وارتحل بقومه نحو الغرب ، حيث وقع صدام شديد بينه وبين أدواكر ، انتصر فيه تيودوريك ، ولقى أدواكر مصرعه سنة ٤٩٣ ، فقامت بذلك فى إيطاليا مملكة للقوط الشرقيين بزعامة تيودوريك الكبير(١) . ومن الملحوظ أنه فى الوقت الذى تخلصت فيه بيزنطة من القوط الشرقيين ، هوى الغرب بأسره فى يد المتبربرين(٢) .

على أن التخلص من الجرمان لم يؤد إلى حل المشكلة العنصرية ، لأن الإيزوريين لازالوا يسيطرون على الأمر فى القسطنطينية ، وأحس الإيزوريون أنهم يؤلفون دولة داخل الدولة ، وأضحت الإمبراطورية مسرحا لما وقع بين الزعماء الإيزوريين من الحروب الداخلية ، من أجل الوصول إلى الحكم ، فإذا نجح أحدهم ، وهو زينون ، فى الوصول إلى الحكم ، حاول الزعماء الآخرون أن ينتزعوا منه السلطان ، وأن ينحوه عن العرش(٣) .

المنازعات الدينية :

تعتبر المشكلة الدينية من أهم المشاكل التى واجهتها البلاد زمن زينون ، لما ترتب عليها من اضطربات كثيرة . فما زال سكان مصر والشام وآسيا الصغرى ، متمسكين بالمونوفيزتية ، ولم يرتضوا بما جرى عليه الإمبراطوران السابقان

(١) Vasiliev p. 107.
Ostrogorowski p. 58.
(٢) ibid. p. 58.
(٣) ibid. p. 58.

على زينون من سياسة دينية . فحاول الإمبراطور زينون سنة ٤٨٢ ، أن يوفق بين المذهب الرسمى (الخلقدونى) ، والمذهب المونوفيزتى بما أصدره من قانون اشتهر باسم قانون الاتحاد Henoticon تقرر فيـــه الاعتراف بما صدر من القرارات فى المجامع المسكونية الثلاث الأولى ، غير أنه تجنب فيه الإشارة إلى عبارة « طبيعتين » أو طبيعة واحدة ، ولم يذكر ما ورد فى قرار مجمع خلقدونية عن « اتحاد الطبيعتين فى المسيح »[١] .

غير أن قانون الاتحاد لم يرض أنصار المذهب الخلقدونى أو المونوفيزتيين ، وانقسم الناس ، من الناحية المذهبية ، ثلاثة أقسام : فمنهم فريق يقرّ هـذا القانون ويوافق عليه ، بينما أصرّ المتطرفون من المذهبين الخلقدونى والمونوفيزتى على مقاومته وعدم الاعتراف به[٢] . أما البابا فإنه لم يعترف بهذا القانون ، وقطع من الكنيسة بطريرك القسطنطينية ، ورد البطريرك على ذلك بإسقاط اسم البابا من صلوات وأدعية الكنيسة . وبذلك وقع الشقاق بين كنيستى روما والقسطنطينية ، الذى استمر أكثر من ثلاثين سنة[٣] .

على أن المشكلتين العنصرية والدينية لم يتم حلهما حتى وفاة زينون سنة ٤٩١ ، وكره الناس أن يتولى أمرهم ، أحد الأجانب ، أو أحد المتهرطقين ، فوقع الاختيار على أحد كبار موظفى البلاط ، وهو أنستاسيوس .

أنستاسيوس الأول (٤٩١ — ٥١٨) :

اشتهر بكفاءته الإدارية وإصلاحاته المالية . وأول ما واجهه من المشاكل : موقف الإيزوريين الذين أضحى لهم من السيطرة فى زمن زينون ما أثار سكان

(١) Vaailiev, p. 108. Ostrogorowski, p. 59.

(٢) Vasiliev, p. 108.

(٣) Ostrogorowski, p. 59. Vasiliav, p. 109.
أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٣٣ .
Bury : Later Roman Empire, I. p. 402.

العاصمة . وما لجأوا إليه من التآمر على أنستاسيوس ، جعل هذا الإمبراطور يتخذ إجراء حاسماً ، فطردهم من الوظائف الرئيسية ، وصادر ممتلكاتهم ، وأخرجهم من القسطنطينية . غير أن شوكتهم لم تنكسر إلا سنة ٤٩٨ بعد قتال استمر ست سنوات ، إذ تم نقل عدد كبير منهم من مواطنهم بآسية الصغرى إلى تراقيا ، حيث استقروا بها ، فانتهت بذلك الأزمة العنصرية[١] .

أما المشكلة الدينية فازدادت شدة ، فعلى الرغم من أن أنستاسيوس ، حين تولى العرش ، أعلن بناء على طلب بطريرك القسطنطينية تمسكه بالأرثوذكسية (قانون الاتحاد) فإنه اتخذ جانب المونوفيزتيين ، وأظهر عطفه عليهم ، ولقيت هذه السياسة ترحيباً كبيراً من قبل المصريين والسوريين ، بينما صادفت كراهية شديدة واستياء عظيما عند البيزنطيين ، وأدت إلى ما حفل به عهد أنستاسيوس من الثورات والاضطرابات الداخلية . وازداد السخط والتذمر بسبب ما اشتهر به الموظفون من الظلم والاستبداد ، وما وقع بين الأحزاب المختلفة من النضال[٢] .

فالأحزاب البيزنطية ، وأشهرها الحزبان المعروفان بحزب الزرق وحزب الخضر ، لم تكن فحسب أحزاباً رياضية ، بل كانت أيضاً منظمات سياسية . فعلى الرغم من أنها ارتبطت بفريقى اللاعبين فى السرك القديم (Circus) ، ومنهما اتخذت أسماءها وشاراتها ، فالمعروف أن ملعب القسطنطينية يعتبر أيضاً موضعاً يهرع إليه الناس للإعراب عن آرائهم السياسية . ولحزبى الخضر والزرق أهمية فى مجرى الحوادث السياسية ، فالحكومة هى التى تعين زعماء هذين الحزبين ، ويؤدى الحزبان أعمالا هامة ، فكان منهما حرس المدينة ، ومن واجبهم إصلاح أسوار المدينة ، والخلاصة أنهم فئة من سكان المدينة ، انتظمت لتقوم بعمل الشرطة بها[٣] . وانقسم سائر سكان المدينة بين هذين الحزبين ، ينصرون أحدهما على الآخر . وامتد هذا النشاط الحزبى إلى سائر مدن الإمبراطورية ،

(١) Ostrogorowski, p. 60. Vasiliev p. 109.

(٢) Osfrogorowski, p. 61.

(٣) Bury : Imperial administration System p. 105.

وعن طريق هذين الحزبين جرى التعرف على آراء الناس السياسية . وليس صحيحاً ما يروى من أن الزرق يمثلون الحزب الأرستقراطى ، بينما يتلقى الخضر التأييد من جانب الطبقات الدنيا ، إذ أن فى كلا الحزبين ممثلين لسائر الطبقات ، غير أن زعماء الزرق إنما جاءوا من طبقة كبار الملاك ، ومن الأرستقراطية اليونانية الرومانية ، بينما كان زعماء الخضر من أرباب الحرف والصنائع ، ومن موظفى البلاط أو الإدارة المالية الذين ينتمون إلى الجهات الشرقية من الإمبراطورية[١] . ولذا قام الزرق بتأييد الأرثوذكسية اليونانية ، على حين أن الخضر نصروا المونوفيزتية والنحل الشرقية . وما بين الحزبين من عداء ، انكشف فيما جرى دائماً من المصادمات العنيفة ، فمنذ منتصف القرن الخامس ، تأثرت الحياة السياسية بالإمبراطورية ، بالنضال الدائم بين الحزبين . ولذا أدخلت الحكومة فى اعتبارها أهمية هذين الحزبين ، فإذا انتصر أحد الحزبين للحكومة ، اتخذ الحزب الآخر موقف المعارضة . وجرى أحياناً أن يأتلف الحزبان سوياً للدفاع عن حرياتهما ، ولمقاومة استبداد الإدارة المركزية . ولذا يعتبر تنظيم الأحزاب من العوامل التى حفظت ما كان للمدن القديمة من الحرية التقليدية[٢] .

واشتهر عهد أنستاسيوس بما جرى من إصلاح للنقد ، ففى سنة ٤٩٨ أمر أنستاسيوس باتخاذ النقد النحاسى المعروف بالفلس follis ، بعد أن ثبت قيمته بربطه بالنقد الذهبى ، وظل هذا النقد سارياً منذ النصف الثانى من القرن السابع[٣] . وأصلح نظام جباية الضرائب ، فرفع عن كاهل نواب البلدية Curiales ، عبء جمع الضرائب بعد أن حاق بهم بسبب ذلك الفقر والعجز ، وعهد بتأدية هذا الواجب إلى موظفين vindices خاضعين للولاة مباشرة —

(١) Ostrogorowski, p. 61.

(٢) Ostrogorowski, p. 62.
H. Gregoire : Le peuple de Constantinople ou les Bleus et les Verts. Comptes rendus de l'Academie de Inscriptions et Belles Lettres, 1946, p. 119.

(٣) Vasiliev, p. 114.

يضاف إلى ذلك ، أنه رفع عن الصناع والتجار ما كان مفروضاً عليهم من ضريبة الحرف auri lustralis collatio[١] . وبذلك أراح أهل المدن من عبء ثقيل الوطأة ، وأسهم فى نهوض التجارة والصناعة . على أن ذلك اقتضى من الريف أن يؤدى مطالب إضافية ، لأنه حينما تم إلغاء الضريبة السالفة الذكر ، جرت تسوية العجز ، بأن تقرر دفع ضريبة الميرة (القمح) annona ذهباً لا نوعاً . وما جرى من تغيير لضريبة الأرض ، إنما يدل على عودة الأراضى الزراعية إلى الاقتصاد النقدى ، غير أنه فى الوقت ذاته ظهرت حاجة الدولة إلى المنتجات الزراعية بما جرى من استخدام الإجراء المعروف coemptio ، أى البيع الإجبارى للمواد الغذائية بسعر منخفض ، تقرره الحكومة . فإذا كان أنستاسيوس قد نجح فى تخفيف الضغط عن التجارة والصناعة ، فإنه تحتم على الطبقات الزراعية ، أن تواجه من الطلبات الباهظة ما يؤدى إلى اضطراب الناس وقلقهم . ومع ذلك فإن ما اتبعه الإمبراطور أنستاسيوس من سياسة مالية رشيدة ، جعلت الخزانة عند وفاته عامرة بالأموال ، حتى أنه ترك بها نحو ٣٢٠ ألف قطعة ذهبية (أى ما يتراوح بين ٥ و ٧ مليون دولار)[٢] .

على أن ملاك الأراضى الزراعية صاروا مسئولين عن دفع كل ما للحكومة من الضرائب . إذ تقررت عليهم زيادة إضافية فى الضرائب epibole ، وقرر أنستاسيوس أيضاً بأن كل فلاح حر يقيم فى موضع من المواضع ثلاثين سنة ، صار قناً (قراراً) ، أى مرتبطاً بالأرض ، غير أنه لم يفقد حريته الشخصية ، وحقه فى الملكية الخاصة[٣] .

(١) هذه الضريبة اسمها الكامل Lustralis auri argentive collatio ويرجع تاريخها إلى أوائل القرن الرابع الميلادى ، وتقررت على سائر أرباب الحرف والصنائع فى أنحاء الإمبراطورية ، حتى شملت الحدامين والشحاذين والعاهرات ، وعلى أدوات الفلاحين ولوازمهم مثل الخيول والبغال والحمير والكلاب . وعانت الطبقات الفقيرة وطأة هذه الضريبة . والمعروف أن هذه الضريبة كانت أصلا تجبى مرة واحدة ، كل خمس سنوات ، غير أن ما لجأت إليه الإدارة عن تقرير جبايتها جزافاً ودون نظام ثابت ، زاد من يأس الناس . (Vasiliev, p. 112).

(٢) Ostrogorowski, p. 60 Vasiliev, p. 114.

(٣) Vasiliev, p. 113.

السياسة الخارجية :

أما من ناحية السياسة الخارجية ، فإن الأطراف الشمالية للبلقان تعرضت زمن أنستاسيوس ، لغارات البلغار ، الذين يرجعون إلى أصل تركى ، والصقالبة . وما جرى من توغل جماعاتهم فى داخل شبه جزيرة البلقان ، لم يكن الغرض منه سوى النهب والتخريب ، حتى إذا انتهوا من الإغارة عادوا إلى مواطنهم . غير أن هذه الغارات ، ليست إلا تمهيداً لغارات الصقالبة الضخمة ، التى حدثت فيما بعد زمن الإمبراطور جستنيان(١) .

وفى زمن أنستاسيوس قامت دولتان فى أملاك الرومان ، إحداهما مملكة القوط الشرقيين بزعامة تيودوريك فى إيطاليا ، والأخرى مملكة الفرنجة بزعامة كلوفيس فى غالة . وعلى الرغم من استقلال كل من الملكين ، فإن كليهما حرص على أن يحظى من الإمبراطور البيزنطى بما يدل على رضاه عنه ، كى يرتفع شأنه فى أعين أهل البلاد الأصليين ، فاعترف أنستاسيوس بتيودوريك حاكماً على إيطاليا ، فأصبح بذلك ملكاً شرعياً فى نظر السكان الوطنيين ، ومع ذلك فإن اختلاف المعتقدات الأريوسية التى يدين بها القوط عن معتقدات السكان الوطنيين ، جعل من العسير قيام الود والصداقة بين الفريقين .

أما كلوفيس فحصل من أنستاسيوس على رتبة قنصل الشرفية ، وعلى الرغم من أن هذه الرتبة لم ترتبط بمنصب الملك ، فإن أهل غالة اعتقدوا بأن للإمبراطور البيزنطى السلطة العليا ، ومنه يستمد السلطان ، ويعتبر مصدر السلطات ، وبذلك يصير حكم كلوفيس فى نظر السكان الوطنيين مشروعاً ، وكأن كلوفيس نائب للإمبراطور فى إقليم لا زال يعتبر من الناحية النظرية جزءاً من الإمبراطورية الرومانية(٢) .

---

(١) Vasiliev, pp. 109--110.

(٢) Vasiliev, p. 111.

على أن ما اتبعه أنستاسيوس من سياسة ممالأة المونوفيزتية ، ومن سياسة إرضاء أرباب الحرف والصنائع ، واصطناع حزب الخضر ، أدى كل ذلك إلى تذمر الناس وسخطهم وإلى قيام الاضطرابات ؛ فجرى إشعال الحرائق فى المبانى العامة . وتحطيم تمثال الإمبراطور ، والتظاهر ضد الإمبراطور فى ميدان السباق ، وتعرض الإمبراطور نفسه للشتائم والقذف بالحجارة . وبلغت الفتنة أشدها سنة ٥١٣ ، حين تقدم فيتاليان Vitalian قائد جيش تراقيا ، نحو القسطنطينية ، يسانده الجيش والأسطول . على أن الإمبراطور أظهر الاستعداد للوصول إلى الاتفاق حينما اشتد الخطر ، حتى إذا خفت حدة التوتر تغيرت سياسته ؛ فلم تكن أمور الدولة وأحوالها مستقرة ، نتيجة هذا التردد والتخبط . وعلى الرغم من أن حركة فيتاليان ، لم يكن باعثها الأصلى دينيا ، فإنها لقيت تأييداً كبيراً ، إذ اعتبره الناس حاميا للأرثوذكسية ضد الإمبراطور المونوفيزتى(١) .

وما ظفر به أنستاسيوس من النجاح فى توطيد السلام فى مصر والشام بسبب سياسته المونوفيزتية ، إنما كان على حساب ما ساد قلب الإمبراطورية من القلق والاضطراب(٢) .

---

(١) Ostrogorowski, p. 62.

(٢) Charanis : Church and State in the later Roman Empire, p. 50.

الفصل الثالث

عهد جستنيان

٥٢٧ — ٥٦٥

حينما هوت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، سنة ٤٧٦ ، فى أيدى المتبربرين ، ظل باقياً الجزء الشرقى من الإمبراطورية ، الذى اشتهر بوفرة موارده الاقتصادية ، وكثرة عدد سكانه . ومع ذلك لم يخرج الشرق من هذه التجربة سليما ، إذ عانى أهوال غزوات المتبربرين ، وظل أكثر من قرن يصارع خطر تفوق العناصر الأجنبية فى الإدارة والجيش . وفى الوقت الذى غمرت فيه الغرب موجات الغزوات المتبربرة المتعاقبة ، أصاب بيزنطة من تقطيع الأوصال ما جعلها تبدو عاجزة عن مدافعة الأخطار .

غير أنه لم يحل القرن السادس الميلادى ، حتى استطاع الشرق أن يحل مشاكله العنصرية ، وأصبح فى مركز يستطيع منه أن يتخذ سياسة أشد عزماً وأكثر صلابة ، وأن يحاول استعادة ما فقده من أملاك فى الغرب . وعلى الرغم من أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد انقسمت فعلا إلى شطرين مستقلين لأغراض إدارية ، فإن فكرة الإمبراطورية الموحدة ظلت قائمة ، فالحكومة الرومانية العالمية قد استقرت فى الشرق ، وتعتبر مستمرة تتحدى ما جرى فى الغرب من فتوح الجرمان ، ولازال الإمبراطور الرومانى يعتبر زعيم العالم الرومانى oikoumeeni orbis romanus ، ولازالت الأقاليم التى كانت أصلا تابعة للإمبراطورية الرومانية ، تعتبر ملكا لها ، وتابعة لها تبعية كاملة دائمة ، على الرغم من أنها صارت فعلا تحت سيادة الملوك الجرمان[1] .

والواقع أن هؤلاء الملوك الجرمان ، اعترفوا فعلا بما للإمبراطور الرومانى (بالقسطنطينية) عليهم من سيادة ، وصاروا يمارسون سلطانهم باعتبارهم مندوبين عنه . وصار فرضا طبيعيا على الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية أن يستعيد هذا

(١) Ostrogorowski : History of the Byzantine State, p. 63.

الإرث الرومانى من يد المتبربرين ، وأكثر من ذلك ، أصبحت رسالته المقدسة ، هى أن يخلص الأراضى الرومانية من نير الغزاة المتبربرين ، والهراطقة الأريوسيين ، وأن يستعيد الحدود القديمة التى كانت للإمبراطورية الرومانية المتحدة ، والإمبراطورية المسيحية الأرثوذكسية[1] .

هذا الغرض هو الذى سعى إلى تحقيقه الإمبراطور جستنيان . حكم جستنيان وحده من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ ، غير أنه فى الواقع كان مسئولا عن جانب كبير من سياسة عمه جستين (٥١٨ — ٥٢٧) . كان جستين فلاحا مقدونيا ، ثم التحق بخدمة الجيش وظل يرقى فى سلك الجيش حتى صار قائداً لإحدى فرقه ، ولم يلبث أن وقع الاختيار عليه ليكون إمبراطورا عند وفاة أنستاسيوس . على أن جستنيان يعتبر مسئولا عما حدث من اتخاذ سياسة تتعارض مع سياسة أنستاسيوس المونوفيزتية ، وإعادة العلاقات مع كنيسة روما ، وذلك يعتبر تمهيداً أساسيا لتحقيق أطماعه السياسية فى الغرب .

وجستنيان ، وهو ابن فلاح مقدونى ، يعتبر من أعظم رجال عصره ثقافة ، ويعتبر ذلك شهادة ناصعة لما للعاصمة البيزنطية من قوة حضارية . وتتجلى عظمة هذا الرجل فى اتساع أغراضه السياسية ، وتعدد ميوله ونزعاته . وما اشتهر به طبعه من الضعف ، إنما يتوارى أمام ما اتصف به من القوة الفكرية . وما حدث فى عصر جستنيان من أعمال فائقة إنما منبعها ومصدرها الإمبراطور ذاته ، وما كانت بيزنطة تحلم به من استعادة الإمبراطورية الرومانية ، عمل جستنيان على تحقيقه ، ويعتبر عمله مثلا رائعاً لمن جاء بعده من الأباطرة ، على الرغم من أن هذا النهوض لم يستمر طويلا ، كما أن تداعيه وانهياره أدى إلى نتائج خطيرة على الإمبراطورية[2] .

وارتبط اسم جستنيان ارتباطا وثيقا بزوجته تيودورا ، التى تعتبر من أشهر نساء بيزنطة وأكثرهن حصافة وذكاء . على أن ما أورده بروكوبيوس فى كتابه

(١) Vasiliev : p. 64.

(٢) انظر Ostrogorowski : op. cit. p. 61.

المعروف بالتاريخ السرى ، عن تيودورا ، إنما يدل على المبالغة فى الصورة التى عرضها لها فى مستهل حياتها ، حين عاشت ، وهى ابنة أحد مروضى الدببة فى الملعب ، فى جو المسرح الطافح بالفساد والانحلال ، فوقعت فى غرام عدد كبير من الرجال . واشتهرت تيودورا بالجمال والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر ، وكانت على حد تعبير أحد المؤرخين ، مصدر التسلية بالقسطنطينية ، ومصدر العار لها أيضاً . ويذكر بروكوبيوس أيضاً ، أن كل من صادف تيودورا فى الطريق ، كان يأنف من الاقتراب منها ، حتى لا تتسخ ملابسه إذا مستها . على أنه ينبغى أن نحتاط عند الأخذ بآراء بروكوبيوس ، لما اشتهر به من الحرص على أن يسىء إلى سمعة جستنيان وتيودورا[1] . على أن تيودورا لم تلبث أن اختفت من القسطنطينية بعد هذه السنوات العاصفة التى غشيت حياتها الأولى ، فغادرت القسطنطينية إلى إفريقية حيث أمضت بضع سنوات . فلما عادت إلى العاصمة لم تعد الممثلة التى اشتهرت بالمجون والفجور ، إذ هجرت المسرح ، واعتزلت الناس ، وأمضت شطرا من وقتها فى غزل الصوف . وأبدت اهتماما كبيراً بالمسائل الدينية[2] . وفى هذه الصورة رآها جستنيان لأول مرة ، فبهره جمالها ، ولم يلبث أن نقلها إلى القصر الإمبراطورى ، وأنعم عليها بلقب شريفة ، ثم تزوجها . وأثبتت تيودورا جدارتها بالمكانة الرفيعة التى وصلت إليها ، إذ أصبحت إمبراطورة للدولة البيزنطية . وظلت زوجة وفية ، وازداد اهتمامها بشئون الإدارة والحكم . واشتهرت ببصيرتها النافذة وشدة تأثيرها على جستنيان فى كل أموره . ففى الثورة (ثورة نيقا) التى نشبت سنة ٥٣٢ قامت بعمل يعتبر من أهم الأعمال بعد أن فكر زوجها فى الهروب[3] . والراجح أن ما قامت به

(١) Vasiliev : The Byzantine Empire. p. 132.

(٢) Ibid. p. 132.

(٣) فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ج ١ ، ص ٤٦ — حيث قالت تيودورا مخاطبة جستنيان : « أيها الإمبراطور ! ! إذا أردت أن يمد فى عمرك ، فعليك بالهرب ، وأمره يسير ، فهاك سفنك ، وهذا البحر ، ولكننى أرجوك أن تذكر ، إذا فزت بالهرب ، ولذت بالمنفى ، أن سوف تقول طوال حياتك الطويلة : ياليتنى مت قبل هذا ! أما أنا فلن أحيد عن المثل القديم الذى يقول بأن العباءة الإمبراطورية خير الأكفان » .

تيودورا من الأعمال لإقرار الأمن والسلام ، وما بذلته تيودورا من جهد فائق فى قمع الفتنة ، أنقذ الإمبراطورية من شرور أخرى .

والمعروف أن تيودورا تعطف على المونوفيزتيين ، وهى فى ذلك تعارض زوجها الذى اشتهر بالتذبذب فى سياسته الدينية . فعلى الرغم من تمسكه بالأرثوذكسية طوال حكمه ، فإنه جعل للمونوفيزتية بعض الامتيازات[1] .

وفاقت تيودورا زوجها فى إدراك أهمية الأقاليم الشرقية عن الإمبراطورية ، والتى سادت بها المونوفيزتية ، وتعتبر فى الواقع من أشد أجزاء الإمبراطورية أهمية ، فحرصت تيودورا على أن توطد العلاقات السلمية مع هذه الجهات . وماتت تيودورا سنة ٥٤٨ نتيجة إصابتها بالسرطان . وفى فسيفساء كنيسة القديس فيتالى St. Vitale براقنا ، التى ترجع إلى القرن السادس الميلادى ، جرى رسم تيودورا فى ردائها الإمبراطورى ، وقد أحاط بها رجال البلاط .

سياسة جستنيان الخارجية :

تنقسم حروب جستنيان قسمين ، يصح أن يعتبر جانب منها حروباً هجومية ، والجانب الآخر ، حروباً دفاعية . فالحروب الهجومية ، هى التى شنها على الممالك الجرمانية فى غرب أوربا ، أما الحروب الدفاعية ، التى يقصد بها الدفاع عن أطراف الإمبراطورية ، فهى التى جرى توجيهها ضد فارس فى الشرق ، وضد الصقالبة فى الشمال .

وجه جستنيان الجانب الرئيسى من جيوشه إلى الغرب ، حيث أحرزت انتصارات باهرة ، إذ أرغمت الوندال والقوط الشرقيين ، وإلى حد ما القوط الغربيين ، على الخضوع للإمبراطور البيزنطى ، وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة بيزنطية ، وصار اسم جستنيان يرد فى مرسوماته ، على أنه إمبراطور الإيمان والفرنجة والجرمان ، والانتيين ، واللان والإفريقيين . غير أن هذا

(١) Vasitiev : op. cit. p. 132.

المجد الظاهرى كان له وجه آخر مختلف . فما أحرزه جستنيان من انتصار ، إنما كلف الدولة ثمناً باهظاً ، لما ترتب عليه من استنزاف اقتصاد الدولة البيزنطية ، كما أنه ترتب على نقل الجيش إلى الغرب ، أن تعرض شرق الدولة وشمالها لهجمات الفرس والصقالبة والهون .

رأى جستنيان أن الجرمان عدوّه الأساسى . ولذا ظهرت من جديد ، فى الإمبراطورية البيزنطية المشكلة الجرمانية أثناء القرن السادس مع فارق وحيد ، وهو أن الجرمان فى القرن الخامس هاجموا الإمبراطورية ، بينما قامت الإمبراطورية فى القرن السادس بمهاجمة الجرمان .

وسبق أن أشرنا إلى ما كان للإمبراطور البيزنطى من أهمية مزدوجة ، باعتباره خليفة الأباطرة الرومان ، وباعتباره حاكماً مسيحياً ، فى استعادة أملاك الدولة من المتبربرين ، وتخليص السكان الوطنيين من ظلم الجرمان الأريوسيين ، ومن الدليل على ذلك ما كتبه جستنيان « إن القوط لما استولوا على إيطاليا التابعة لنا ، عنوة واقتداراً ، رفضوا أن يردوها لنا » . وأحس جستنيان بأنه لا زال السيد الطبيعى للأمراء الذين يحكمون فى نطاق حدود الإمبراطورية الرومانية . واعتقد أن من واجبه أن يعيد بناء إمبراطورية رومانية متحدة ، التى بلغت من قبل ، على ما جاء فى إحدى متجدداته ، شواطئ محيطين ، والتى أضاعها الرومان بفضل إهمالهم . ومن هذه النظرية القديمة نبت الاعتقاد عند جستنيان بأن من واجبه أن يدخل فى الإمبراطورية ، بعد إحيائها ، عقيدة مسيحية واحدة ، بين المنشقين والوثنيين على السواء . هذه كانت نظرية جستنيان ، التى جعلت هذا السياسى والصليبى ، يحلم بفتح جميع العالم المعروف .

على أنه ينبغى أن نذكر أن ما للإمبراطور من دعاوى فيما كان للإمبراطورية الرومانية من ممتلكات ، لم يكن القصد منها تحقيق أغراض شخصية ، بل كانت تعتبر أمراً طبيعياً عند سكان الأقاليم التى يحتلها المتبربرون . فسكان الأقاليم التى سقطت فى أيدى الأريوسيين ، إنما نظروا إلى جستنيان على أنه المدافع الوحيد

عنهم . فالأحوال بشمال إفريقية زمن الوندال ، بلغت حداً كبيراً من السوء ، لأن هؤلاء الوندال استهلوا حكمهم ، بما أجروه من اضطهاد شديد للسكان الوطنيين الأرثوذكس ، وألقوا فى السجن بعدد كبير من السكان المدنيين ، وممثلى رجال الدين ، وصادروا جانباً كبيراً من ممتلكاتهم . ومن قدم إلى القسطنطينية من اللاجئين والمهاجرين ، ومن بينهم عدد كبير من الأساقفة الأرثوذكس ، توسلوا إلى الإمبراطور بأن يوجه حملة ضد الوندال ، بعد أن أكدوا له أن السكان الوطنيين بشمال أفريقية ، سوف يقومون بثورة عامة عندقدوم الحماة .
وسادت مثل هذه الأحوال فى إيطاليا ، حيث لا زال السكان يخفون سخطهم ، ولا زالوا يتطلعون إلى القسطنطينية ، ينتظرون منها المساعدة ، لتخلص إقليمهم من الحكام الجدد ولإعادة العقيدة الصحيحة ، وذلك على الرغم مما ساد إيطاليا من التسامح فترة طويلة زمن تيودريك ، وما اشتهر به هذا الملك من التقدير للحضارة الرومانية(١) .

يضاف إلى ذلك أن الملوك المتبربرين أنفسهم ، شجعوا مالدى الإمبراطور من مشروعات لتحقيق أطماعه . إذ دأبوا على أن يظهروا مايكنونه للإمبراطورية من الاحترام ، بأن سعوا بكل الوسائل للحصول على ألقاب رومانية سامية ، ونقشوا على نقدهم صورة الإمبراطور . ويقول الأستاذ ديل ، إن المتبربرين صاروا يرددون عن طيب خاطر ، أقوال زعيم القوط الغربيين ، التى منها : لا شك أن الإمبراطور يعتبر إلهاً على الأرض ، فكل من يرفع يده ضد الإمبراطور يعتبر مجرماً ، ولا يستحق إلا القتل(٢) .

وعلى الرغم من أن الأحوال فى إفريقيا وإيطاليا كانت ملائمة لجستنيان ، فإن ما شنه من الحملات ضد الوندال والقوط الشرقيين ، لقيت عقبات شديدة واستغرقت زمناً طويلاً(٣) .

---

(١) **Vasiliev : op. cit. p. 134.**

(٢) **Diehl : Justinien et la civilization byzantine au VIe. siècle. p. 137.**

(٣) **Vasiliev : op. cit. p. 135.**

حروب جستنيان :

لم تكن الحرب ضد الوندال مسألة سهلة هينة . إذ تطلبت نقل جيش ضخم عن طريق البحر ، إلى إفريقية . وكان لزاماً على هذا الجيش أن يقاتل قوماً يملكون أسطولا قوياً . فضلا عما اشتهروا به من قوة حربية خطيرة ، كما أنه ترتب على نقل القوات الحربية الرئيسية إلى الغرب ، أن تعرضت القسطنطينية لمهاجمة الفرس من الشرق ، وهم أخطر أعداء الإمبراطورية البيزنطية . ويورد بروكوبيوس وصفاً شائقاً للإجتماع الذى جرت فيه مناقشة الحملة الإفريقية ، وكيف أعلن موظفو البلاط المقربون للإمبراطور شكوكهم فى نجاح الحملة ، واعتبروها مخاطرة ، بل إن جستنيان ذاته أظهر التردد ، غير أنه لم يلبث ، آخر الأمر ، أن تغلب على ضعفه ، وأصر على القيام بحملته[١] . وفى هذه الأثناء ، حدث تغيير فى البيت المالك فى فارس ، فى سنة ٥٣٢ ، عقد جستنيان معاهدة صلح إلى أجل غير مسمى مع الملك الجديد كسرى أنوشروان ، وتضمنت هذه المعاهدة شرطاً مهيناً ، وهو أن تتعهد الإمبراطورية البيزنطية بأن تدفع جزية سنوية ضخمة لملك فارس . على أن هذه المعاهدة أطلقت يدى جستنيان للتصرف فى الجنوب والغرب . جعل جستنيان على رأس الجيش والأسطول ، قائده الموهوب : بليزاريوس ؛ الذى يعتبر أعظم سند للإمبراطور فى حملاته الحربية . والذى نجح قبيل تعيينه فى هذا المنصب ، فى قمع ثورة نيقا[٢] .

على أن الوندال والقوط الشرقيين لم يكونوا وقتذاك أعداء خطيرين مثلما كانوا فى الأيام السالفة ، لأنهم فقدوا ما اشتهروا به من قبل من النشاط والقوة، بسبب عدم احتمالهم لمناخ الجنوب المثير للأعصاب ، فضلا عن تأثرهم بالحضارة الرومانية . غير أن ما اعتنقه هؤلاء الجرمان من المذهب الأريوسى ، أدّى إلى العداء بينهم وبين السكان الوطنيين . يضاف إلى ذلك أن ما قام به البربر من

(١) Procopius : De bello vandalico. English Trans. by H. B. Dewing II, pp. 90—101.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 135.

الثورات المستمرة أسهمت إلى حد كبير فى ضعف الوندال . وبفضل ما اشتهر به جستنيان من البصيرة النافذة فى إدراك الأحوال القائمة ، استطاع بدبلوماسيته الماهرة ، أن يزيد الشقاق الداخلى بين الوندال ، كما أنه اعتقد فى الوقت ذاته ، بأن الممالك الجرمانية سوف لا تتحد مطلقاً ، وتجتمع لمقاومته ؛ لأن القوط الشرقيين لم تكن علاقتهم طيبة مع الوندال ، ولأن الفرنجة الأرثوذكس دأبوا على حرب القوط الشرقيين ، ولم يكن فى استطاعة القوط الغربيين فى أسبانيا أن يكون لهم دور جدى فى الحرب ، نظراً لبعدهم عن مواقع القتال[١] . كل هذه العوامل شجعت جستنيان ، على أن ينزل الهزيمة بكل عدو على حدة .

استمرت الحرب مع الوندال من سنة ٥٣٣ إلى سنة ٥٤٨ ، مع ما تخللها من فترات هدوء وسلام[٢] .

ففى سنة ٥٣٣ ، أبحر بليزاريوس إلى إفريقية ، على رأس حملة صغيرة . لايتجاوز عددها ١٨ ألف مقاتل . واستطاع بليزاريوس أن يخضع مملكة الوندال بأكملها بما أحرزه من انتصارات ، بلغت من الروعة أن جعلت جستنيان ، يعلن زهو المنتصر : إن الله جلّت قدرته تداركنا برحمته ، فلم يرجع إلينا فحسب إفريقية وأقاليمها بل أعاد إلينا أيضاً عباءتنا الإمبراطورية ، التى أخذها الوندال ، حينما استولوا على روما[٣] . وقدم بليزاريوس إلى القسطنطينية ، فدخلها سنة ٤٢٠ مظفراً منتصراً وقد صحب معه ملك الوندال على أن الاستيلاء على مملكة الوندال ، أعقبه حروب عصابات قام بها البربر ، وتحتم على من بقى من العساكر البيزنطية شمال إفريقية ، أن يشتبكوا فى نضال مرير مع قبائل البربر ، وحلت

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 135—136.

(٢) عن هذه الحرب انظر Charles Diehl : L'Afrique byzantine. pp. 3—33, 333—381.
Justinien pp. 173—180.
Holmes. W : The Age of Justinian and Theodora 2nd ed. II. pp. 489—526.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 136.

الهزيمة الساحقة بسلومون Solomon الذى خلف بليزاريوس فى قيادة العسكر ، وما لبث أن لقى مصرعه ، وظلت هذه الحرب مستمرة حتى سنة ٥٤٨ ، حين استطاع John Triglite ، وهو قائد موهوب وسياسى محنك ، أن يوطد سلطة الإمبراطور ، بما أحرزه من انتصار حاسم ، وأن يكفل للبلاد الأمن والسلام مدة أربعة عشر عاماً(١) .

غير أن هذه الفتوح لم تحقق آمال جستنيان ، لأن الجزء الغربى من شمال إفريقية والممتد حتى ساحل المحيط الأطلنطى ، لم يخضع منه للإمبراطورية سوى معقل سبتم Septem المعروف الآن بالاسبانية بحصن سبته Cebta ، قرب بوغاز جبل طارق . ومع ذلك ، فإن الجانب الأكبر من شمال إفريقية ، وجزيرتى قورسيقه وسردينيا ، وجزائر البليار ، دانت للإمبراطورية ، وبذل جستنيان جهداً كبيراً فى توطيد الأمن بهذه الجهات التى تم فتحها . وما تبقى حتى اليوم ، من خرائب الحصون والاستحكامات البيزنطية العديدة ، يعتبر دليلا على ما بذله جستنيان من جهود شديدة فى سبيل الدفاع عن بلاده .

أما الحملة التى وجهها جستنيان ضد القوط الشرقيين ، بإيطاليا ، والتى استمرت من سنة ٥٣٥ حتى سنة ٥٥٤ ، بما تخللها من فترات السلام ، فإنها كانت أكثر عنفا وشدة . فى أثناء الثلاث عشرة سنة الأولى من هذه الحملة ، وهى الفترة التى تعاصر الحروب الوندالية ، استهل جستنيان أعماله الحربية ، بأن تدخل فى النزاع الداخلى بين القوط الشرقيين ، فأرسل جيشاً إلى دالماشيا ، التى تعتبر وقتذاك من أملاك القوط الشرقيين ، وأنفذ جيشاً آخر جرى نقله بحراً ، وتولى قيادته بليزاريوس ، فاستولى على صقلية ، دون أن تصادفه أية مقاومة . ولما انتقل هذا الجيش إلى إيطاليا استولى على نابولى وروما ، غير أن المقاومة لم تلبث أن اشتدت ، وتعرض بليزاريوس فى روما إلى حصار استمر زمناً طويلا ، ووجد صعوبة شديدة فى اختراق الحصار ، والزحف شمالا ، حيث استولى على

(١) Bury : Later Roman Empire II, p. 147.
Ostrogorowski : op. cit. p. 64.

رافنا عاصمة القوط الشرقيين سنة ٥٤٠ (١) ، فأعلن ملكهم Vitiges الإذعان والخضوع ، فأرسله بليزاريوس إلى القسطنطينية ، وأضاف جستنيان إلى ألقابه بعد عبارة الإفريقيين والوندال Africanus, Vandalus لفظة Gothicus (القوط) ، وتراءى وقتذاك كأن إيطاليا خضعت للإمبراطورية البيزنطية(٢) .

غير أن القوط الشرقيين ثاروا من جديد بزعامة ملكهم القوى ، توتيلا Totila وهو آخر مدافع عن استقلالهم ، وفى سرعة وعزم استطاع توتيلا أن يقلب الأمور رأسا على عقب ، فما أحرزه من الانتصارات بلغت من الخطورة ، أنه تقرر استدعاء بليزاريوس ، الذى توجه للقتال فى فارس ، فتولى القيادة العليا لمواجهة القوط الشرقيين . غير أن بليزاريوس لم يستطع معالجة الموقف ، فما استولى عليه الجيش البيزنطى ، فى إيطاليا وجزر البحر المتوسط ، من ممتلكات بما أحرزه من انتصارات متتالية ، لم تلبث أن زعم القوط الشرقيون أنها من ممتلكاتهم . وترتب على تبادل الفريقين من البيزنطيين والقوط ، الاستيلاء على روما أن تحولت روما إلى تل من الخرائب . وما حاق ببليزاريوس من الهزائم ، أدت إلى استدعائه إلى القسطنطينية ، واستطاع نارسيس ، القائد الذى خلفه فى قيادة الحملة الإيطالية ، بفضل ما اشتهر به من المهارة والذكاء ، أن يقهر القوط ، فأنزل بجيش توتيلا فى سنة ٥٥٢ هزيمة ساحقة فى معركة Busta Gallorum فى امبريا Umbria ، فركن توتيلا إلى الهروب . وفى سنة ٥٥٤ ، أى بعد عشرين سنة ، من حروب مخربة ، انضمت من جديد للإمبراطورية ، إيطاليا ودالماشيا وصقلية ، وفى نفس السنة (سنة ٥٥٤) ، قرر جستنيان أن يعيد إلى كبار الملاك بإيطاليا . وإلى الكنيسة ، كل ما نزعه منهم القوط الشرقيون من ممتلكات ، وأعاد إليهم أيضاً حقوقهم وامتيازاتهم القديمة ، وعمل على أن يخفف عن السكان وطأة ما أصابهم من الخراب ، غير أن الحروب القوطية ظلت زمنا طويلا عاملا كبيراً فى وقف نمو الصناعة والتجارة فى إيطاليا ، فتعرضت الحقول

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 65.
(٢) Vasiliev : op. cit. pp. 136—137.

الزراعية للإهمال بسبب قلة العمال ، وفقدت روما أهميتها السياسية مدة طويلة ، ومع ذلك استمرت مقراً للبابا(١) .

وأنفذ جستنيان آخر حملاته الحربية فى الغرب ، إلى مهاجمة القوط الغربيين . وإذ استغل ما نشب من الحروب الداخلية ، بين المتنازعين على عرش القوط الغربيين ، أرسل أسطولا بحرياً إلى أسبانيا سنة ٥٥٠ ، فأحرز انتصاراً باهراً ، واستولت قواته على مدن وحصون بحرية عديدة ، وخضع لجستنيان آخر الأمر ، الجزء الجنوبى الشرقى من أسبانيا ، بما فى ذلك قرطاجنة ، ومالقة وقرطبة ، فامتدت بذلك أملاكه من سان فنسنت St. Vincent غرباً إلى قرطاجنة شرقاً . وبقى هذا الإقليم الأسبانى على خضوعه للإمبراطورية البيزنطية نحو سبعين سنة(٢) .

وترتب على هذه الحروب ، أن تضاعفت مساحة إمبراطورية جستنيان ، فدخل فى نطاقها دالماشيا ، وإيطاليا والجزء الشرقى من شمال إفريقية (جانب من تونس والجزائر الحالية) ، وجنوب شرقى أسبانيا ، وصقلية وسردينية ، وقورسيقة ، وجزائر البليار . وأضحى البحر المتوسط مرة أخرى ، بحيرة رومانية ، وامتدت حدود الإمبراطورية من بوغاز قادس (جبل طارق) ، إلى نهر الفرات . وعلى الرغم من هذه الإنتصارات ، فإنها لم تحقق لجستنيان كل ما يصبو إليه . فلم يستطع جستنيان أن يستعيد كل أملاك الإمبراطورية فى الغرب ، فما زال خارج سلطانه الجزء الغربى من شمال إفريقية ، ومعظم شبه جزيرة ايبريا ، والأجزاء الشمالية من مملكة القوط الشرقيين ، ولم يستطع أن يستولى على غالة ، بل إنه تنازل مرغماً إلى ملك الفرنجة عن بروفانس . يضاف إلى ذلك أن سلطة الإمبراطور لم تكن بالغة الرسوخ فى

---

(١) Bury : Later Roman Empire II. pp. 261—269,288—291.
Vasiliev : op. cit. p. 137.

(٢) Diehl : Justinien. pp. 204—206
Bury : op. cit. II. pp. 287.
Cambridge Medieval History II. pp. 163—164.

الأقاليم التى استولى عليها حديثاً ، فلم يكن لدى الحكومة البيزنطية من الوسائل ما يوطد سلطانها فى هذه الجهات ، فالمعروف أن نفوذها لن يستقر إلا فى ظل القوة ، وهذا هو السر فى أن ما أحرزه جستنيان من انتصارات ظاهرية إنما ترتب عليها مستقبلا مشاكل خطيرة من الناحيتين السياسية والاقتصادية(١) .

أما الحروب التى شنها جستنيان من أجل حماية الإمبراطورية والدفاع عنها ، فلم تبلغ من النجاح ما بلغته حروبه الهجومية ، بل إنها كانت فى بعض الأحوال مهينة . وهذه الحروب هى التى نشبت فى الشرق ، ضد فارس ، وفى الشمال ضد الصقالبة والهون .

والمعروف أن الدولتين الكبيرتين فى القرن السادس الميلادى ، وهما الإمبراطورية البيزنطية وفارس ، التحمتا منذ قرون عديدة فى حروب دامية على الحدود الشرقية ، وبمقتضى الصلح الدائم الذى تم بين جستنيان وكسرى أنوشروان ، أدرك ملك فارس ، الذى اشتهر بالذكاء والمهارة ، ما لجستنيان من أطماع فى الغرب . فاستغل هذا الموقف ، ولإدراكه أهمية مصالحه على الحدود الشرقية ، انتهز فرصة استنجاد القوط الشرقيين به ، فنقض هذا الصلح الدائم ، وبدأ العداء السافر مع الإمبراطورية البيزنطية . وتلى ذلك نشوب حرب مريرة ، انتصر فيها الفرس ، وجرى استدعاء بليزاريوس من إيطاليا ، غير أنه لم يستطع أن يوقف تقدم كسرى ، الذى زحف على سوريا ، فنهب وخرب أنطاكية ، التى تعتبر من أقدم مدن العالم وأعظمها أهمية . بل كانت أهم المدن الرومانية فى الشرق . لما اشتهرت به من الضخامة ، ووفرة الثروة وكثرة عدد السكان ، وما امتازت به من الرخاء الاقتصادى ، وبلغ كسرى فى تقدمه ساحل البحر المتوسط(٢) وحاول الفرس أن يشقوا طريقهم شمالا ، إلى

---

(١) Vasiliev : op. cit. p. 138.
Ostrogorowski : op. cit. 65.

(٢) Diehl : Justinien. pp. 208—217.
Bury : Later Roman Empire II pp. 79—123.

البحر الأسود ، غير أنه اعترض سبيلهم اللازيون Lazi (بإقليم لازيقا بالقوقاز) ، الذين يدينون بالطاعة للدولة البيزنطية ، ولم يلبث الفرس أن استولوا على بلادهم .

ولم يتيسر لجستنيان أن يفوز بعقد هدنة لمدة خمس سنوات ، إلا بعد أن تعهد بدفع مبلغ كبير من المال[١] .

على أن كسرى سئم كثرة الحروب والاشتباكات ، وفى سنة ٥٦١ أو ٥٦٢ ، تم الاتفاق بين الدولتين الفارسية والبيزنطية ، على عقد الصلح لمدة خمسين سنة . فتعهد الإمبراطور البيزنطى بأن يدفع سنوياً مبلغاً كبيراً من المال ، ووعد ملك فارس بالمضى فى سياسة التسامح الدينى مع المسيحيين ، بشرط أن يمتنعوا عن تحويل الناس عن عقائدهم إلى المسيحية ، وتحتم على التجار من الفرس والبيزنطيين ، ألا يباشروا تبادل تجاراتهم إلا فى مواضع معينة ، حيث يجرى تحصيل الرسوم (المكوس) . ومن أهم نصوص هذه المعاهدة ، ما جرى الاتفاق عليه من تخلى الفرس للبيزنطيين عن لازيقا ، وهو الإقليم الواقع جنوب شرقى البحر الأسود . فلم يعد للفرس موضع على ساحل البحر الأسود . ولهذه الحقيقة أهميتها من الناحيتين السياسية والاقتصادية . ومع ذلك فإن قوة الدولة الفارسية ازداد شأنها فى الشرق الأدنى ، على حين أخذ نجم بيزنطة فى الأفول هذه الجهات[٢] .

أما حروب جستنيان فى شبه جزيرة البلقان ، فتختلف تمام الاختلاف عن حروبه فى الشرق . إذ أن برابرة الشمال ، من البلغاريين والصقالبة ، خربوا أقاليم البلقان ، منذ زمن الإمبراطور أنستاسيوس . وفى زمن جستنيان ظهر الصقالبة لأول مرة ، باسمهم الحقيقى ، الصقالبة Sclavenes كما ورد فى بروكوبيوس . ذلك أن جموعاً كثيرة من الصقالبة والبلغار الذين أطلق عليهم

(١) Vasiliev : op. cit. p. 139.

(٢) انظر : Vasiliev : op. cit p. 139.
Ostrogorowski : op. cit. p. 66.
Bury : Later Roman Empire II pp. 120—123.

بروكوبيوس . الهون ، دأبت كل سنة تقريباً ، على أن تعبر الدانوب ، وتتغلغل فى أعماق الأقاليم البيزنطية ، فأتت على كل ما يصادفها ، حرقاً وتقتيلا ، وبلغت فى تقدمها من جهة ، أرباض القسطنطينية ، واستمرت فى المسير حتى بلغت الدردنيل ، ومن جهة أخرى نفذت إلى داخل بلاد اليونان ، حتى وصلت إلى برزخ كورنث وسواحل بحر الأدرياتى غرباً . وحدث أيضاً زمن جستنيان ، أن تحرك الصقالبة نحو بحر إيجه ، فهددوا فى طريقهم مدينة سالونيك التى تعتبر من أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية ، والتى صارت هى وما يجاورها من الجهات ، من أهم مواطن الصقالبة فى شبه جزيرة البلقان . وعلى الرغم مما بذله جند الإمبراطور من جهود لرد الصقالبة على أعقابهم ، وطردهم إلى ما وراء نهر الدانوب ، فإن فريقاً منهم استقر فى هذه الجهات[١] .

على أنه أغار على شمال البلقان قبائل أخرى ، غير الصقالبة ، مثل الجبيد من الجرمان والكورتريجيون من الهون ، وأنزلوا الخراب بتراقيا ، ومضوا فى طريقهم إلى القسطنطينية فانتشر الذعر فى العاصمة ، وقامت الكنائس ، بالأقاليم التى تعرضت لغاراتهم ، بنقل تحفها إلى العاصمة (القسطنطينية) ، أو إلى الشاطئ الأسيوى من البوسفور . وعلى الرغم من رد المغيرين ، فإن تراقيا ومقدونيا وتساليا ، تأثرت إلى حد كبير من الناحية الإقتصادية بسبب هذه الغارات[٢] . وعلى الرغم من الاستحكامات المنيعة التى شيدها جستنيان وراء خط الدفاع عن الدانوب ، فإنها لم توقف هذه الغارات ، نظراً لضغط هذه القبائل المغيرة من جهة ، ولنقل عدد كبير من الجند لمباشرة القتال فى جهات أخرى[٣] .

على أن خطر الهون لم تتعرض له فحسب شبه جزيرة البلقان ، بل تأثر به أيضاً شبه جزيرة القرم ، حيث تعرضت لهذا الخطر مدينتا خرسون وبوسفور ،

(١) Vasiliev : op. cit. p. 140.
Ostrogorowski : op. cit. p. 66.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 140.

(٣) Ostrogorowski : op. cit p. 66.

التى ظلتا من مواطن الحضارة اليونانية فى هذه الجهات المتبربرة قروناً عديدة ، وقامتا أيضاً بدور كبير فى التجارة بين الإمبراطورية البيزنطية وما يعرف اليوم بروسيا . ففى أواخر القرن الخامس ، احتل الهون سهول شبه الجزيرة ، وصاروا يهددون ما للإمبراطورية البيزنطية بها من أملاك ، وشيد جستنيان ، تحت ضغط الهون . حصوناً عديدة وسوراً طويلا لحماية هذه الجهات[١] .

تقدير سياسة جستنيان الخارجية :

ما شنه جستنيان من حروب عديدة شاقة ، لم تحقق كل ما يصبو إليه من آمال ، وما وضعه من خطط . كان لها أثر خطير فى كيان الإمبراطورية . ذلك أن هذه الحروب والمشروعات تطلبت نفقات ضخمة ، ومهما اختلف المؤرخون فى تقدير ما خلفه أنستاسيوس من ثروة ضخمة ، فإنها لم تكن كافية لسد مشروعات جستنيان . فاستجد من الضرائب ما لم يكن فى طاقة السكان دفعها وتسديدها . وما حاوله الإمبراطور من أجل تخفيض النفقات ، بأن لجأ إلى الاقتصاد فى الإنفاق على الجيش ، لم يؤد إلا إلى إنقاص عدد الجند ، وترتب على ذلك أن الأقاليم التى فتحها فى الغرب ، لم تكن بنجوة من الخطر .

وتعتبر الحملات التى جرى توجيهها إلى الغرب ، من وجهة نظر الإمبراطور والرومان ، من الأمور الطبيعية التى لا بد منها ، على أنها تعتبر ترفاً وضرراً إذا نظرنا إليها من ناحية اقتصاد الإمبراطورية ورخائها . فالفجوة بين الشرق والغرب فى القرن السادس بلغت من شدة الاتساع ، أن مجرد التفكير فى توحيدهما يعتبر من الأخطاء التاريخية ، وما جرى الاستيلاء عليه من الأقاليم لا يحفظها إلا القوة ، غير أن الإمبراطورية لم يكن لديها من القوة أو الوسائل ما تحفظ بها هذه الأقاليم . وإذ انساق جستنيان وراء أحلامه ، لم يدرك أهمية الطرف الشرقى للإمبراطورية وكذا الأقاليم الشرقية ، التى تنطوى فعلا على المصالح

(١) Vasiliev : op. cit. p. 141.
Bury : Later Roman Empire II pp. 310—312.

الجوهرية للإمبراطورية البيزنطية . وعلى الرغم من أن حملاته فى الغرب إنما كشفت عن إرادة الإمبراطور ، فإنها لم تؤد إلى نتائج دائمة ، وما جرى وضعه من خطة لإعادة الإمبراطورية الرومانية ، متحدة ، زالت بوفاة جستنيان . غير أنها سوف تعود بعد زمن غير قصير . وأدت سياسة جستنيان الخارجية أيضاً إلى حدوث أزمة اقتصادية خطيرة فى داخل الإمبراطورية[١] .

سياسة جستنيان الداخلية :

اقترنت الأخطار الخارجية ، بما تعرضت له البلاد من اضطرابات داخلية عنيفة . ذلك أنه حينما تولى جستنيان العرش ، كان الاضطراب وعدم الأمن قد ساد أحوال البلاد الداخلية ، فانتشر الفقر ، ولم ينتظم دفع الضرائب ، وتعقد الموقف وازداد اضطراباً بسبب تدخل أحزاب الملعب ، وكبار الملاك ، وحقد أقارب أنستاسيوس الذين جرى سلب حقوقهم فى الحكم ، فضلا عن الأحزاب الدينية المتنازعة .

وأدرك جستنيان ما بلغته الأحوال من السوء ، ورأى أنه لا بد من القيام بإصلاحات شاملة .

على أن جستنيان واجه عند اعتلائه العرش ثورة عنيفة كادت تحرمه من عرشه . فالمعروف أن الملعب بالقسطنطينية يقع فى وسط المدينة ، ويعتبر الموضع الذى يهرع إليه سكان العاصمة لمشاهدة سباق العجلات ، وجرت العادة بأن كل إمبراطور جديد ، حينما يتم تتويجه ، يذهب إلى الملعب ، ليتلقى تهنئة وهتافات العامة ، والمعروف أن المتسابقين كانوا يرتدون أثواباً اتخذت ألواناً مختلفة : الأخضر ، والأزرق ، والأبيض ، والأحمر[٢] . وتألفت الأحزاب المؤيدة ،

(١) Vasiliev : op. cit. p. 142.

(٢) تشير مصادر القرن السادس الميلادى — حيث كان حكم جستنيان — إلى أن هذه الأسماء تقابل العناصر الأربعة المعروفة : التراب (الأخضر) ، الماء (الأزرق) ، الهواء (الأبيض) ، النار (الأحمر) . انظر : Vasiliev : op. cit. p. 155.

التى ترعى هؤلاء المتسابقين . ولهذه الأحزاب من الموارد الماليـة ما يكفى للإنفاق على المتسابقين ، وأفراسهم وعرباتهم . ولم تلبث أن اتخذت أسماء الألوان التى اختص بها المتسابقون . واشتهرت أحزاب الملعب فى العصر البيزنطى باسم الطوائف (demes) ، ثم تحولت إلى أحزاب سياسية اشتهرت بنزعاتها السياسية والاجتماعية والدينية ، وتحتم على الأباطرة أحياناً أن يظهروا فى الملعب ، ليشرحوا أعمالهم وسياستهم[1] .

ومن أقوى الأحزاب فى القرن السادس وأشدها نفوذها ، حزب الزرق ، الذى يؤيد المذهب الخلقدونى ، وحزب الخضر الذى ينتصر للمذهب المونوفيزتى . وباعتلاء جستين ثم جستنيان العرش ، انتصر حزب الزرق ، على حين أن تيودورا انتصرت لحزب الخضر[2] .

على أن هذه الأحزاب لم تمثل فحسب النزعات السياسية والدينية : إنما ارتبطت أيضاً بمصالح الطبقات المختلفة ، ومن ثم يعتبر حزب الزرق حزب الطبقات العالية ، بينما يمثل حزب الخضر الطبقات الدنيا ، ولذا صار للأحزاب البيزنطية أهمية خاصة باعتبارها عاملا اجتماعياً فى توجيه السياسة البيزنطية[3] .

وترجع ثورة نيقا سنة ٥٣٢ بالعاصمة إلى أسباب مختلفة ، منها أسباب من قبل العامة وأسباب أسرية وأسباب دينية . إذ أن أبناء أخ أنستاسيوس اعتبروا جستين وجستنيان مغتصبين لحقوقهم ، وأيدهم فى ذلك حزب الخضر ، وعملوا على عزل جستنيان . أما مقاومة العامة فجاءت مما يكنه العامة من السخط ضد كبار الموظفين لا سيما ضد المشرع المعروف تريبونيان ، والوالى حنا القبادونى ، اللذين أثارا سخط الناس ، بما أقدما عليه من انتهاك القوانين وما اشتهرا به من ابتزاز الأموال والقسوة ، وجاءت المعارضة الدينية من قبل المونوفيزتيين الذين

(١) Vasil ev : op. cit. p. 155.

(٢) المعروف أن تيودورا تميل إلى المذهب المونوفيزتى .

(٣) Vasi iev : op. cit p. 156.

عانوا ما فرضه جستنيان عند ولايته الحكم من القيود الشديدة . كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى نشوب الثورة فى العاصمة . ورأى الحزبان الزرق والخضر أن يتحالفا سوياً ، وأن يطرحا جانباً ما بينهما من اختلافات ، لمناهضة الحكومة . ولم يستجب الثوار لدعوة الإمبراطور لهم بالإخلاد إلى السكينة ، بل إن الثورة انتشرت ، وتعرضت أجمل العمائر وأروع التماثيل للتدمير والحريق ، واشتعلت النيران أيضاً فى كنيسة أياصوفيا . وما أطلقه الثائرون من صيحة « النصر » أو « الهزيمة » ، أدت إلى أن تتخذ هذه الثورة اسم نيقا . ولم تجد وعود جستنيان بعزل تريبوتيان وحنا القبادونى نفعاً ، بل إن الثوار نادوا بابن أخ أنستاسيوس إمبراطوراً ، واستعد جستنيان للهروب ، ولم يمنعه من ذلك إلا شجاعة تيودورا وعزم بليزاريوس ومهارة نارسيس الحربية — وأورد بروكوبيوس نص عبارة تيودورا :

« من المستحيل على الفرد ، وقد جاء إلى الحياة الدنيا ، أن يبقى حيا أبد الدهر ، فلا بد أنه سوف يموت ، أما الذى يتولى الحكم ، فلا يجوز أن يقبل النفى ، فإذا شئت أيها الإمبراطور أن تنجو ، فليس ثمة ما يمنعك من ذلك ، فهاك المال ، وهاك البحر ، وهاك السفن ! إنما ينبغى أن تفكر ، وقد أمنت إلى مأواك ، فيما إذا لم تكن تؤثر الموت على الحياة ، أما أنا فلا زلت أتمسك بالمثل القديم بأن الثوب الإمبراطورى هو خير الأكفان »[1] .

واستطاع نارسيس بما أجراه من التفاهم مع الزرق ، أن يقضى على وحدة الثوار ، بينما باغت بليزاريوس ميدان السباق ، فأوقع على غرة بالساخطين ، وجرت مذبحة ذهب ضحيتها آلاف من الناس ، فخمدت بذلك الثورة ، وانتصرت الأوتوقراطية البيزنطية على الأحزاب المحلية ، التى تعتبر البقية الباقية من الحرية المدنية القديمة[2] ، كما جرى إعدام أقارب أنستاسيوس ، ورسخت أقدام جستنيان فى الحكم[3] .

(١) Procopins : De Bello Persico I, 24,35—37.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 67.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 157.
Ostrogorowski : op. cit. p. 67.

الضرائب والمشاكل المالية :

ولما انتهت الثورة ، عاد المستشارون الذين خرجوا من الخدمة تحت ضغط الشعب وسخطه . وأعاد جستنيان بناء كنيسة القديسة صوفيا ، التى اشتهرت بقبتها التى تعتبر مرحلة جديدة فى تطور العمارة البيزنطية . على أن القضاء على الثورة لم يؤد إلى شىء من الراحة والاطمئنان . فما اتبعه الإمبراطور من سياسة ، وما ترتب عليها من أعمال حربية ، فرضت عبئا ثقيلا على الشعب . واشتدت وطأة هذا العبء بما تكلفته الأعمال الإنشائية من نفقات ، وما دفعه من ثمن باهظ فى إحراز انتصاراته[1] .

رأت الحكومة أن أخطر أعدائها ومنافسيها ، إنما يتمثلون فى طبقة كبار الملاك الذين انصرفوا إلى مباشرة ما يتعلق بضياعهم الشاسعة من أعمال ، وأغفلوا شأن الحكومة المركزية . وورد فى أحد قوانين جستنيان ما يشير إلى سوء أحوال أملاك الحكومة والأملاك الخاصة فى قبادوقيا بآسيا الصغرى ، وما درج عليه الأعيان من الابتذال وسوء السلوك ، فصار كبار الملاك لا يسيرون إلا وقد أحاط بهم حرس خاص ، وتبعهم عدد كبير من الرعاع والغوغاء ، الذين لم يتورعوا عن اختلاس ما تصل إليه أيديهم . واغتصب كبار الملاك أراضى الدولة ، وما تحويه من قطعان الخيول ، ولم يحتج أحد عليهم ، إذ أخرسوا كل من يلومهم بما بذلوه من المال[1] . والمعروف أن هذا المرسوم صدر بعد أن مضى على ثورة نيقا أربع سنوات ، وحدث أيضاً فى مصر زمن جستنيان أن أسرة مصرية معروفة بكثرة أملاكها وهى أسرة أبيون Apion ، حازت قرى بأسرها فى جهات مختلفة بمصر ، وعاش رب الأسرة معيشة الملوك ، ففى خدمته عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع ، وحشود الفلاحين ، ومن يقومون بتقدير الضرائب وجبايتها ، ومتولى الخزانة ، وله شرطته الخاصة وكذا البريد . وجعل هؤلاء الملاك لأنفسهم جيوشا خاصة ،

(١) Vasiliev : op. cit. p. 158.

وشيدوا سجونا ، يلقون بها من يجترئ على سلطانهم[1] . يضاف إلى ذلك أن ضياعها كبيرة صارت فى أيدى الكنائس والأديرة .

ولعلاج هذه الأحوال السيئة ، تدخل جستنيان لتعديل نظم الوراثة . وجرت هبات زائفة باسم الإمبراطور ، وحدثت مصادرات لبعض الممتلكات على أساس أدلة غير سليمة ، وجرت محاكمات دينية ترمى إلى حرمان الكنيسة من ممتلكاتها . وعلى الرغم من كثرة المصادرات التى وقعت عقب ثورة نيقا ، لم يستطع جستنيان أن يقضى تماما على الملكيات الكبيرة ، التى ظلت من مظاهر حياة الدولة البيزنطية فى العصور المتأخرة[2] .

أدرك جستنيان عيوب النظام الإدارى ، التى سببت من الفساد والسرقة وابتزاز الأموال ، ما أدى إلى الفقر والخراب ، وأثار الاضطرابات الداخلية . وأيقن أيضاً أن هذه الأحوال السيئة كان لها أثر سيئ فى استقرار المجتمع ، وفى مالية البلاد ، وفى الأحوال الزراعية ، وأن الاضطراب المالى سوف يؤدى إلى تغلغل الفوضى فى حياة الإمبراطورية . ورأى أن من واجب الإمبراطور أن يقوم بإصلاحات ضخمة ، باعتبارها من واجبات الإمبراطور من جهة ، وللتقرب من الله الذى حباه بفضله وعطفه من جهة أخرى . غير أنه باعتباره ممثلا لسلطة الإمبراطور المطلقة ، رأى أنه لا يصلح الأحوال فى الإمبراطورية إلا قيام نظام إدارى مركزى ، يشتهر موظفوه بالطاعة والنزعة الاصلاحية[3] .

والتفت جستنيان منذ البداية إلى الموقف المالى فى الإمبراطورية وما ينطوى عليه من المخاوف . فعلى الرغم مما يتطلبه الجيش من نفقات طائلة ، فلم ترد الأموال إلى الخزانة العامة إلا بصعوبة شديدة . ولذا جاء فى قوانين جستنيان ، أنه ينبغى على رعاياه أن يدفعوا عن طيب خاطر كل ما للحكومة من ضرائب . فيتضح

(١) Bell : The Byzantine Servile State in Egypt. Journal of Egyptian Archaeology, III. (1917) 101—102.
Boak : Byzantine Imperialism in Egypt. Amercan Historical Revriew, XXXIV. (1928) p. 6.

(٢) Vasitiev : op. cit. p. 159.

(٣) Ibid p. 159.

من ذلك أن جستنيان يعتبر من جهة حاميا لحقوق الخزانة ، بينما أعلن من جهة أخرى أنه المدافع عن دافع الضرائب من ظلم الموظفين وابتزازهم أمواله .

وماصدر فى سنة ٥٣٥ من مرسومين يعتبران على جانب كبير من الأهمية فى إصلاحات جستنيان . إذ تضمنا القواعد الأساسية للإصلاحات الإدارية ، وتحديد واجبات موظفى الحكومة . ففى المرسوم الأول أمر جستنيان الموظفين بأن يحسنوا معاملة الرعايا ، وأن يحموهم مما يقع من الظلم ، وأن يرفضوا كل الرشاوى ، وأن يراعوا العدالة فيما يصدرونه من أحكام قضائية وإدارية . وأن يحاربوا الجريمة ، وأن يقوموا بحماية البرىء ، وأن يعاقبوا المجرم بمقتضى القانون . والخلاصة ، أن يكونوا فى معاملة الرعية مثلما يكون الوالد فى معاملة أبنائه . غير أنه فى الوقت الذى طلب فيه إلى الموظفين أن تعف أيديهم عن تناول الرشوة ، ألزمهم بمراعاة دخل الحكومة والعمل على زيادة ما يدخل إلى الخزانة من أموال ، وبذل كل ما فى استطاعتهم من جهد لفائدتها . وحتم ضرورة دفع الضرائب كاملة وفى مواعيدها المحددة(١) .

وإذ تحتم على الموظفين أن يحلفوا بأن يراعوا الأمانة فى تأدية واجباتهم . جرى اعتبارهم مسئولين عن تأدية ما هومقرر على أقاليمهم من الضرائب ، والمفروض أن الأساقفة هم الذين يلاحظون سلوك الموظفين ، وكل من يرتكب من الموظفين من الذنوب أو الجرائم ، تعرض للعقاب الصارم ، ومن يؤد واجباته بأمانة ، استحق الترقية . والخلاصة أن واجب الموظفين ودافعى الضرائب ليس إلا أمراً سهلا عند جستنيان . يتمثل فى أنه ينبغى أن يكون الموظفون أمناء ، وأن يقوم دافعو الضرائب بتأدية ما هومقرر عليهم من الضرائب كاملة ، عن طيب خاطر ، وبانتظام . وحرص جستنيان على أن يضمن ما أصدره من المرسومات هذه المبادئ الأساسية التى قامت عليها إصلاحاته الإدارية .

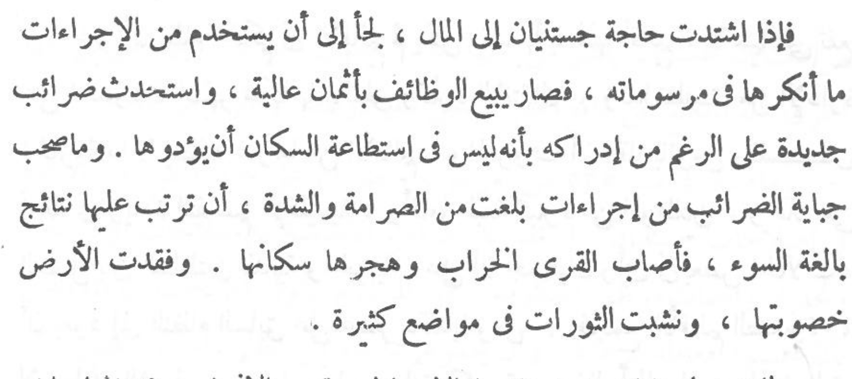
(١) Vasiliev : op. cit p. 129.

غير أن نظام الحكم فى الأقاليم لم يكن متشابهاً ، فمنها أقاليم ، لا سيما التى تقع على الحدود ، اشتهر سكانها بالقلق وكثرة الانتقال ، ولذا تطلبت من الإدارة الحازمة ما لا يتطلبه غيرها من الأقاليم . والمعروف أن دقلديانوس وقنسطنطين أمعنا فى زيادة التقاسيم الإقليمية ، وأقاما طبقة كبيرة من الموظفين ، وعملا على الفصل بين السلطتين المدنية والحربية . على أن جستنيان رأى فى بعض الحالات ، أن يعود إلى النظام السابق على عصر دقلديانوس . فجمع الأقاليم الصغيرة ، لا سيما فى الشرق ، وجعل منها وحدات كبيرة . ونظراً لما ساد من المنازعات بين السلطتين فى يد موظف واحد ، اتخذ لقب praetor . وجه جستنيان اهتماماً خاصاً إلى مصر ، لا سيما الإسكندرية التى تمد القسطنطينية بالقمح . وما ورد فى أحد المرسومات من الإشارة إلى ما أصاب التجارة فى مصر ، ونقل القمح إلى العاصمة من اضطراب ، عهد جستنيان للولى المدنى Augusta lis بسلطة حربية ، يمارسها فى الأقاليم التى تنقسم إليها مصر من الناحية الإدارية . غير أن ما بذله جستنيان من محاولات لجمع الأقاليم وتركيز السلطة فى الولايات لم يكن هو السائد أثناء حكمه(١) . إذ أبقى جستنيان على الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية فى الغرب . لا سيما فى الأقاليم التى فتحها حديثاً فى شمال أفريقيا وإيطاليا .

وما أصدره جستنيان من مرسومات ارتجالية عديدة إنما كان يأمل من ورائها إصلاح عيوب الإدارة . وأن تهيئ للإمبراطورية عصراً زاهراً . غير أنه كان فى ذلك مخطئاً . فكل ما أصدره من قوانين ومرسومات لم تستطع أن تغير الطبيعة البشرية . إذ يتضح من المرسومات المتأخرة أن الثورات والفتن . وابتزاز الأموال والخراب ظل مستمرا . وتحتم عليه أن يستمر فى أن يصدر من المرسومات ما يذكر سكان الأقاليم بأن هذه المرسومات لا تزال قائمة . وفى بعض الأقاليم اقتضت الأحوال أن يفرض الأحكام العرفية(٢) .

(١) Vasiliev : op. cit. p. 160.

(٢) Ibid. p. 161.



فإذا اشتدت حاجة جستنيان إلى المال ، لجأ إلى أن يستخدم من الإجراءات ما أنكرها فى مرسوماته ، فصار يبيع الوظائف بأثمان عالية ، واستحدث ضرائب جديدة على الرغم من إدراكه بأنه ليس فى استطاعة السكان أن يؤدوها . وصاحب جباية الضرائب من إجراءات بلغت من الصرامة والشدة ، أن ترتب عليها نتائج بالغة السوء ، فأصاب القرى الخراب وهجرها سكانها . وفقدت الأرض خصوبتها ، ونشبت الثورات فى مواضع كثيرة .

ولما تبين لجستنيان ما حل باقتصاد الإمبراطورية من الانهيار ، عمد إلى إصلاح ذلك باتخاذ وسائل بالغة الخطورة ، فأمر بتخفيض عدد الجيش . وتوقف أحيانا عن دفع المرتبات . غير أن هذا الإجراء لم يؤد إلى ثورات الجند ؛ ومعظمهم من المأجورين . فضلا عن كشف أطراف الإمبراطورية ، وتعرضها لإغارات المتبربرين الذين صاروا يعيثون فى أملاكها فسادا . وما شيده جستنيان من حصون ، لم يستطع المحافظة عليها أو صيانتها . ولما لم يكن فى استطاعته أن يواجه المتبربرين لجأ إلى استمالتهم بالأموال ، وترتب على ذلك كثرة النفقات . فكان هذا الإجراء — على حد قول المؤرخ الفرنسى — ليس إلا حلقة فاسدة ، فحاجته إلى المال ألزمته بإنقاص عدد الجيش . وتعرضه للخطر نتيجة ذلك ، أدى إلى دفع الجزية لأعدائه[١] .

فإذا أضفنا إلى كل هذا ما وقع من المجاعات والأوبئة والزلازل التى حاقت بالسكان ، وإلى ما تطلبت الزيادة من مساعدة الحكومة . تبين ما انتهت إليه الإمبراطورية فى نهاية حكم جستنيان من حالة بالغة السوء[٢] .

التجارة زمن جستنيان .

ترك عصر جستنيان أثاراً واضحة فى تاريخ تجارة الإمبراطورية البيزنطية . فالمعروف أن معظم التجارة ، منذ عصر الإمبراطورية الرومانية ، كان يجرى مع

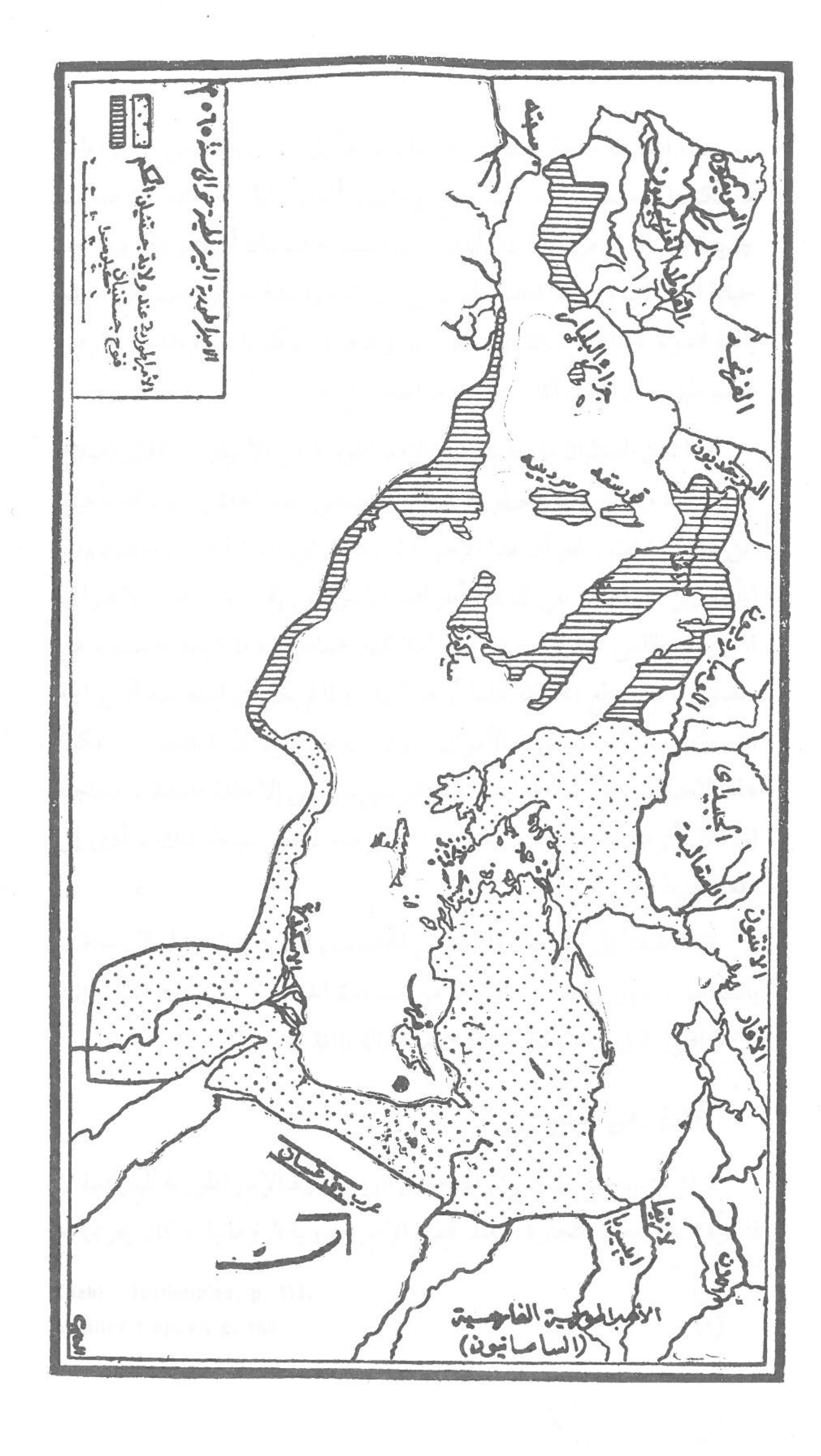
---

(١) Diehl : Justintinien, p. 311.

(٢) Vasiliev : op. cit p. 162.

الشرق . إذ يرد من الأماكن النائية ، من الصين والهند ، أغلى السلع التجارية وأندرها ، وما طرأ على غرب أوربا أوائل العصور الوسطى من تغييرات بسبب قيام الممالك الجرمانية ، جعلت أحواله غير ملائمة لنمو نشاطه الاقتصادى . أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فإنها بفضل ما امتازت به عاصمتها القسطنطينية من موقع جيد ، أضحت تحت ضغط الظروف . وسيطاً بين الشرق والغرب ، واحتفظت بهذه المكانة حتى زمن الحروب الصليبية .

غير أن ما كان للإمبراطورية من علاقات تجارية مع سكان الشرق الأقصى لم تكن علاقات مباشرة ، وذلك أن الدولة الفارسية زمن الساسانيين قامت بدور الوسيط ، وأحرزت أرباحا طائلة على ما يعقده التجار البيزنطيون من صفقات تجارية . وفى ذلك الحين اتخذت التجارة طريقين ، أحدهما طريق برى ، والآخر طريق بحرى . فطريق القوافل يبدأ من الأطراف الغربية للصين ، ويجتاز بلاد الصغد (بخارى الحالية) إلى الحدود الفارسية ، حيث يتولى التجار الصينيون نقل المتاجر إلى الفرس ، الذين ينقلونها بدورهم إلى مواضع المكوس على الحدود البيزنطية . أما الطريق البحرى فجرى استخدامه على النحو الآتى : ينقل التجار الصينيون سلعهم على السفن حتى جزيرة Taprobane (سيلان الحالية) ، ومن سيلان تحمل السلع الصينية على سفن فارسية إلى مصب دجلة والفرات ، ومن ثم تنقل على الفرات إلى مواضع المكوس البيزنطية على هذا النهر . ومن الواضح أن التجارة البيزنطية مع الشرق تتوقف أساساً على العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة الفارسية ، وإذ أن الحروب بين الدولة الفارسية والدولة البيزنطية تكاد لا تنقطع ، فإن العلاقات التجارية مع الشرق تعرضت باستمرار للتوقف ولخسائر كبيرة . وأهم سلعة تجارية ، كانت ما تستورده بيزنطة من حرير الصين ، الذى حرصت الصين على أن تجعل إنتاجه سراً من الأسرار العميقة . ونظراً لما انطوى عليه إنتاجه من المصاعب ، ولشدة حاجة الأسواق البيزنطة للمنسوجات الحريرية ، ارتفعت أثمانها فى أحوال كثيرة إلى أسعار فاحشة . على أن الصين والهند ، عمدتا أيضاً إلى أن تصدرا إلى الغرب — إلى جانب الحرير — العطور ، والتوابل ، والقطن ،



والأحجار الكريمة وسائر السلع التى اشتد الطلب عليها من قبل الإمبراطورية البيزنطية . وإذا لم يرتض جستنيان الإمبراطورية البيزنطية أن تعتمد فى اقتصادها على فارس ، وطّن عزمه على أن يلتمس إلى الصين والهند طريقاً تجاريا لا يخضع للنفوذ الفارسى [1] .

رأى جستنيان أن يتخذ من البحر الأحمر طريقاً للاتصال المباشر بين الدولة البيزنطية والهند ، فأقام حامية عسكرية بالعقبة (إيلة) ، ومن إيلة يجرى نقل المتاجر براً إلى البحر المتوسط عن طريق فلسطين وسوريا . أما الميناء الآخر ، القلزم (قرب السويس الحالية) فإنها تقع فى أقصى الشمال الغربى من شاطئ البحر الأحمر ، ومنها يجرى الاتصال مباشرة بالبحر المتوسط . وفى زمن جستنيان تم تشييد نقطة للمكوس ، فى جزيرة تقع فى مدخل خليج العقبة ، وهى جزيرة Lotabe (جزيرة تيران الحالية) ، حيث يجرى جباية المكوس عن السفن التى تجتازها [2] . غير أنه لم يكن للدولة البيزنطية فى البحر الأحمر من السفن ما يكفى لمباشرة تجارة منظمة . وترتب على ذلك أن تحتم على جستنيان أن يقيم علاقات وثيقة مع الأحباش المسيحيين فى مملكة أكسوم ، بأن حثهم أن يشتروا الحرير من الهند ثم يبيعونه للدولة البيزنطية . ومن الواضح أنه أراد أن يجعل منهم وسطاء بين الإمبراطورية البيزنطية والهند ، وهو نفس الدور الذى قام به الفرس حتى ذلك الحين . غير أن ما قام به الإمبراطور من محاولات لم تحظ بنجاح محسوس ، وذلك لأن تجار الأحباش لم يكن فى استطاعتهم أن ينافسوا نفوذ الفرس فى الهند ، فظال احتكار شراء الحرير فى أيدى التجار من الفرس . والخلاصة أن جستنيان لم ينجح فى اتخاذ طرق جديدة للتجارة مباشرة مع الشرق ، بينما بقى الفرس الوسطاء فى أهم سلعة تجارية بالشرق ، وظلوا يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة [3] .

(١) Vasiliev : op. cit. p. 163.
Ostrogorowski : op. cit. p. 68.

(٢) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au moyen age, vol. 1. p. 10.
Dihel : Justinien. p. 390. sbel : "d'Isle de Jotable" Revue biblique XLVII (1938) pp. 520 - 524.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 198. Ostrogowski, p. 198.

وما حاوله جستنيان ، وخلفاؤه من بعده ، من توطيد علاقتهم بالترك الذين أقاموا إمبراطورية امتدت من حدود الصين إلى شمال القوقاز ، واتخاذ الطريق الذى يجتاز أراضى الموالين له فى خرسون والبوسفور فى القرم إلى بلاد القوقاز إنما كان الغرض من ذلك تجنب الفرس ، غير أن هذا الطريق كان شاقاً ، ومحفوفاً بالأخطار [1]

ثم تهيأت الفرصة لجستنيان لأن يحل مشكلة تجارة الحرير . إذ استطاع بعض الأفراد أن يكتشفوا سر صناعة الحرير ، وأن يهربوا إلى بيزنطية دودة القز من سيريندا Serinda ، فأقاموا بذلك أساساً لصناعة بيزنطية جديدة فجرى التوسع فى زراعة شجر التوت ، التى تعيش عليها دودة القز ، وقامت المصانع لنسج الحرير ، وأهم هذه المصانع كانت بالقسطنطينية ، ونشأت مصانع أخرى فى بيروت وأنطاكية ثم فى بعض جهات اليونان لا سيما طيبة ، وكذلك قام مصنع بالإسكندرية . ثم أصبحت صناعة الحرير احتكاراً حكوميا يدر على الدولة ربحا طائلا ، ومع ذلك لم يكن كافيا لتحسين الحالة المالية السيئة التى تعرضت لها الإمبراطورية البيزنطية . وما حدث من قيام صناعة الحرير بالدولة البيزنطية ، كان له أثر كبير فيما جرى من تغيرات فى التجارة زمن جستنيان [2] .

تشريعات جستنيان :

وما أحرزه جستنيان من شهرة عالمية ، إنما ترجع أساساً إلى أعماله التشريعية وما امتازت به من طابع بارز ، ومن رأى جستنيان أنه ينبغى على الإمبراطور ألا يلتمس فحسب المجد بالسلاح ، بل ينبغى أيضاً أن يتسلح بالقوانين ، فيرعى بذلك أوقات السلام وأوقات الحرب ، وينبغى أن يكون للمدافع على القانون من القوة مثلما يكون له من العتاد فى إحراز النصر على أعدائه [3] ، وأن يحرز النصر الحاسم

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 168.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 168.
Ostrogorowski : op. cit. p. 169.

(٣) Justinian : Institutions, Trans. by J. T. Abdy and B. Walker, Introduction, XXI.

على خصومه . يضاف إلى ذلك أنه اعتقد أن الله هو الذى جعل للأباطرة الحق فى أن يسنوا القوانين وأن يشرحوها ، وأن الإمبراطور هو الذى يضع القوانين بفضل ما وهبه الله من الحقوق .

ومن الطبيعى أن الإمبراطور إنما اهتدى — إلى جانب هذه الأسس النظرية — باعتبارات عملية ، إذ أدرك ما حاق بالقانون الرومانى فى عصره من الاضطراب والفوضى .

ففى أثناء العصر الوثنى للإمبراطورية الرومانية ، وحينما تركزت السلطة التشريعية فى يد الإمبراطور ، لم يكن التشريع سوى ما أصدره الإمبراطور من الدساتير المعروفة بالقوانين (leges) . وما جرى إصداره من تشريعات فى زمن متقدم ، ونماها مشرعو العصر الكلاسيكى ، اتخذت اسم القانون القديم jus vetus أو jus antigum . ومنذ منتصف القرن الثالث الميلادى ، أخذ التشريع يتداعى . وما صدر من مؤلفات تشريعية (قانونية) ، لم تكن إلا مجرد تصانيف ، المقصود منها مساعدة القضاة الذين لم يكن فى استطاعتهم أن يلموا بجميع مصادر التشريع ، بأن أمدتهم بمجموعات من النصوص الواردة فى القوانين الإمبراطورية ، ومصنفات أعلام المشرعين القدامى . على أن هذه المجموعات لم تكن لها صفة رسمية ، ولذا تحتم على القاضى أن يرجع إلى كل القوانين الإمبراطورية ، وإلى جميع المصادر القديمة وهو عمل ليس فى وسع الشخص العادى أن يقوم به . وما حدث من ازدياد القوانين الإمبراطورية سنوياً ، ومن بعثرتها فى محفوظات عديدة ، جعل من العسير الإفادة منها عملياً ، لاسيما أن القوانين الجديدة درجت على أن تنسخ القوانين القديمة أو تعدلها . كل ذلك يوضح الحاجة الملحة لتصنيف مجموعة واحدة من القوانين الإمبراطورية ، تكون فى متناول أولئك الذين يرجعون إليها . وجرت جهود قبل جستنيان لتحقيق هذا الغرض . إذ أفاد جستنيان كثيراً من التشريعات السابقة أمثال Codex Gregorianus [4] و Codex Germogenionus

(١) يرجع إلى زمن تيودوسيوس الثانى :

و Codex Theodosianus . ولتيسير الإفادة من المصادر القديمة (القانون القديم) ، صدر زمن تيودوسيوس الثانى ومعاصره فى الشطر الغربى للإمبراطورية الرومانية ، فالنتينيان الثالث ، مرسوم لم يعترف إلا بمصنفات خمسة فقهاء يعتبرون أشهر الفقهاء . ومن الانتقادات التى يصح توجيهها إلى هذه المصنفات ، أنه قد لا نجد فى هذه المصنفات من القرارات ما يصح الأخذ به فى قضية معينة ، لأنه طالما وقع التناقض والتضارب بين هؤلاء المشرعين ، ولأن أحكام هؤلاء الفقهاء القدامى ، تعتبر قديمة العهد ولا تساير ما حدث من تغير ظروف الحياة . ولذا اشتدت الحاجة إلى إجراء مراجعة رسمية لكل النظام القضاء ، واستخلاص ما تعرض له من تطورات فى العصور المختلفة[1] .

ولم تحتو المجموعات القانونية المتقدمة إلا على القوانين الإمبراطورية فى فترة معينة ، ولم تتعرض للمؤلفات الفقهية . تولى جستنيان مهمة تصنيف القوانين الإمبراطورية وجمعها حتى عصره ، وتعهد أيضاً بمراجعة جميع المؤلفات الفقهية السابقة . وكان تريبونيان أكبر مساعد له فى الاضطلاع بهذه المهمة والقيام بتحقيقها .

جرى العمل بخطوات سريعة . ففى فبراير سنة ٥٢٨ ، ألف الإمبراطور لجنة مؤلفة من عشرة من الإخصائيين ، من بينهم تريبونيان ، الذى يعتبر الساعد الأيمن للإمبراطور فى كل أعماله التشريعية ، ومصدر الإلهام لأعضاء اللجنة ، ومنهم ثيوفيلوس Theophilus أستاذ القانون بجامعة القسطنطينية[2] . كان على اللجنة أن تراجع المجموعات القانونية الثلاثة السابقة ، وأن تستبعد منها كل ما يعتبر غير مقبول ، وأن تقوم بتنظيم القوانين التى صدرت بعد مجموعة تيودوسيوس . وكان لزاماً أن تجتمع كل نتائج هذه الأعمال فى مجموعة واحدة . وفى أوائل أبريل سنة ٥٢٩ صدرت مجموعة جستنيان (Codex Justinianus) . وتألفت من عشرة كتب ، اشتملت على كل ما صدر من القوانين منذ زمن الإمبراطور هادريان إلى زمن جستنيان ، فأضحت المجموعة الرسمية الوحيدة للقوانين

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 69, Vasiliev : op. cit. p. 143.

(٢) Bury : op. cit. II. p. 396.

بالإمبراطورية ، وبذلك نسخت المجموعات الثلاثة السابقة . وعلى الرغم من المساعدة الكبيرة التى استمدها جستنيان من المجموعات القانونية السابقة ، فى تصنيف مجموعته ، فإن ما بذله الإمبراطور من محاولة لمراجعة القانون القديم ، يعتبر عملا أصيلا مبتكراً . ففى سنة ٥٣٠ ، تلقى تريبونيان من التعليمات ما يقضى بتأليف لجنة تتولى مراجعة كل مؤلفات الفقهاء القدامى وأن تستخلص منها بعض النصوص ، وأن تستبعد كل ماليس مقبولا من المادة القانونية ، وأن تحذف كل ما يجده من المواد المتناقضة ، ثم تقوم بترتيب ما جرى جمعه من المادة القانونية وفقاً لنظام معين . وتحتم على اللجنة ، فى سبيل تحقيق ذلك ، أن تقرأ وتدرس نحو ألفى كتاب اشتملت على ما يزيد على ثلاثة ملايين من السطور . هذا العمل الضخم الذى لم يتوقع أن يقوم به أحد ، والذى خلص القانون القديم من كل الشوائب ، تم فى ثلاث سنوات . وهذه المجموعة الجديدة من القوانين ، التى صدرت فى سنة ٥٣٣ ، انقسمت إلى خمسين كتاباً ، واتخذت اسم المختار (Pandectae، Digestum) وجرى استخدامها فى الاجراءات القانونية بالإمبراطورية .

وبرغم ما لهذه المجموعة (المختار) من أهمية عظيمة ، فإن ما اقترن به تصنيفها من السرعة ، لا بد أن ترتب عليها عيوب فى بعض النواحى . إذا اشتملت على كثير من التكرار والمتناقضات وبعض الأحكام السقيمة . يضاف إلى ذلك أن ما حصلت عليه اللجنة من تفويض كامل باختصار النصوص وتفسيرها ، واستخلاص نص واحد من نصوص عديدة ، أدى أحياناً إلى بتر النصوص القديمة ، فلم يكن فى هذا العمل شىء من الوحدة والترابط . وهذا هو السر فى أن علماء القانون فى القرن التاسع عشر ، الذين اهتموا بدراسة القانون الرومانى ، اشتدوا فى الحكم على مجموعة جستنيان المعروفة بالمختار . ومع ذلك فإن للمختار أهمية عظيمة القيمة ، إذ حفظ للأجيال اللاحقة ، من المواد المستمدة من كتابات القانون الرومانى السابقة ، ما لم يكن معروفاً[1] .

(١) Vasiliev : op. cit. 144.

وفى أثناء تصنيف المختار ، تولى تريبونيان ومساعداه ، تيوفيلوس (الأستاذ بجامعة القسطنطينية) ودوروثيوس الأستاذ بجامعة بيروت ، معالجة مشكلة أخرى . ذلك أنه ليس فى استطاعة كل الناس أن يهضموا هذه المادة الضخمة من المعرفة التى يمثلها القانون والمختار على حد قول جستنيان . فليس فى وسع الشبان المبتدئين فى القانون . والحريصين على أن يدرسوا أسراره ، أن يلموا بكل محتويات هذين المصنفين الضخمين ، فصار من المحتم إعداد موجز يسهل الاستعانة به . وهذا الموجز فى القانون المدنى ، هو الذى جرى إعداده للطلبة ، وصدر فى سنة ٥٣٣ ، وهو ينقسم أربعة كتب ، معروفة كلها باسم الشرائع Iustitutiones أو Institutes . وهذه الشرائع إنما يقصد منها ، وفقاً لقول جستنيان ، أن تدفع ما فى القانون القديم Jus Vetu من مصادر عكرة إلى بحيرة صافية ، وما أصدره جستنيان من مرسوم بشأن الشرائع ، خاطب فيه الشبان الذين يحبون أن يدرسوا القوانين[1] .

على أن التشريع السائر لم يتوقف أثناء تصنيف المختار والشرائع . إذ صدرت مرسومات جديدة عديدة . وتطلبت مواد كثيرة ، المراجعة . على أن مجموعة قوانين جستنيان ، التى صدرت فى سنة ٥٢٩ ، تعتبر فى بعض أجزائها قديمة العهد وغير صالحة ، فتقرر فى سنة ٥٣٤ مراجعتها واستكمالها . وفى نوفمبر سنة ٥٣٤ صدرت نسخة جديدة منقحة ومزيدة ، وتقع فى اثنى عشر كتاباً ، واتخذت اسم Codex repetitae praelectionis . وهذه المجموعة ألغت المجموعة السابقة الصادرة فى سنة ٥٢٦ ، واشتملت على المرسوماب التى ترتبط بالفترة الممتدة من زمن هادريان حتى سنة ٥٣٤ . ويعتبر هذا العمل خاتمة تصنيف مجموعة القوانين . وجرى الاستغناء عن المجموعة السابقة التى صدرت سنة ٥٢٩ .

وما صدر من المرسومات بعد سنة ٥٣٤ صارت تعرف بالمتجددات

(١) Vasiliev : op. cit. p. 145.

Novellae Leges . ومعظم هذه القوانين الجديدة صدرت باللغة اليونانية ، على حين أن القانون ، والمختار ، والشرائع ، صدرت كلها باللاتينية . ولهذه الحقيقة أهميتها ، لأنها تعبر عن استجابة إمبراطور متشبع بالتقاليد الرومانية ، لمطالب الحياة الواقعية حيث تسود اللغة اليونانية . إذ كتب جستنيان فى قانون من هذه القوانين الجديدة ، « إننا لم نصدر هذا المرسوم بلغتنا الأصلية ، إنما باللغة اليونانيـــة التى درج الناس على التحدث بها ، حتى يذيع أمره ، بعد أن يفهمه الناس » .

وتعتبر القوانين المستحدثة (المتجددات) آخر ما وضعه جستنيان من عمل تشريعى ، وتعتبر من أهم المصادر لدراسة تاريخ هـــذا العصر : من الناحية الداخلية .

وأدرك جستنيان أن هذه الأقسام الأربعة : القانون ، المختار ، الشرائع ، والمتجددات ، ينبغى أن يتألف منها مجموعة قوانين ، غير أنه لم يتم ذلك أثناء زمنه . إنما حدث فى العصور الوسطى المتأخرة منذ القرن الثانى عشر ، وأثناء إحياء دراسة القانون الرومانى بأوربا ، أن صارت جميع أعمال جستنيان التشريعية تعرف باسم مجموعة القانون المدنى « **Corpus juris civilis** » ولازالت تعرف بهذا الإسم حتى اليوم .

على أن ضخامة تشريعات جستنيان ، وصدورها باللغة اللاتينية التى لم يعرفها إلا أقلية من السكان ، أدت إلى ظهور عدد من الشروح والملخصات اليونانية عن القانون والمختار والشرائع . على أن هذه المجموعات القانونية الصغيرة التى صدرت باللغة اليونانية ، والتى اقتضتها الاعتبارات العملية والزمنية ، حفلت بأخطاء كثيرة ولم تتقيد فى كثير من المواضع بالنص اللاتينى [١] .

وترتب على التشريعات الجديدة ، أن تطورت أيضاً الدراسات القانونية واستحدثت مقررات جديدة فى القانون . على أن التدريس إنما اقتصر على إتقان

(١) **Vasiliev : op. cit. p. 146.**

مايدرس من المواد ، وعلى شرح هذه المواد . أما تحقيق المتن أو النص ومراجعة شرحه ، بالاستئناس بما للمشرعين القدامى من مؤلفات ، فلم يكن جائزاً . فليس للطلاب إلا أن يقوموا بترجمات حرفية ، وأن يؤلفوا شروحاً مقتضبة .

ولقانون جستنيان أهمية كبيرة ، إذ حفظ القانون الرومانى ، الذى تضمن القواعد الأساسية للقوانين التى يسير عليها معظم المجتمع الحاضر . وحينما بدأت دراسة القانون الرومانى فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر ، صارت مجموعة القانون المدنى التى ترجع إلى جستنيان ، القانون الفعلى فى كثير من المواضع [١] .

إنما إلى أى حد حقق تشريع جستنيان حاجات عصره ؟ الواقع أن ما حدث فى القانون القديم من تغييرات ، إنما ترجع إلى الرغبة فى تطويع القانون الرومانى وجعله ملائماً لأحوال الإمبراطورية الشرقية فى القرن السادس الميلادى . ولابد أن أعمال المصنفين ومؤلفاتهم قد تأثرت بالصفة اليونانية والمسيحية ، ولابد أن العادات المتأصلة فى الشرق انعكست عند مراجعة القانون الرومانى القديم . ويشير بعض الباحثين إلى ما غلب على تشريع جستنيان من طابع شرقى . والمعروف أن القوانين المستحدثة (المتجددات) إنما تصور أحوال الحياة المعاصرة وحاجاتها .

وقانون جستنيان قد يجيز الحرية والمساواة لجميع الناس ، غير أنه لم يتوسع فى هذه القاعدة ، وبفضل هذا المثل الأعلى وبتأثير المسيحية جرى تحسين أحوال الرقيق ، وصار تحريرهم فى زمن جستنيان أكثر سهولة ويسراً .

وأهم من ذلك أن تسخير الرقيق لم يكن له إلا دور ثانوى فى الحياة الاقتصادية فى القرن السادس الميلادى ، لاسيما فى الريف . فالأقنان كانوا من قديم الزمان يعتبرون عصب الإنتاج وقوامه ، ولم يفعل قانون جستنيان شيئاً لتحسين مكانتهم ، بل حدث عكس ذلك ، إذ أنه أكد ضرورة ارتباط الفلاح بالأرض ، وترتب على ذلك أن صار استرقاق معظم سكان الريف معترفا به .

وأهم ما امتاز به تشريع جستنيان ، هو إصراره على ما للإمبراطور من سلطات ، إذ صارت مجموعة القوانين المدنية سنداً شرعيا لسلطة الإمبراطور ،

(١) **Diehl : Iustinien, p. 248.**

وكان لهـا تأثير دائم على تطور الفكر السياسي فى الغرب وفى بيزنطية . وفى الإمبراطورية البيزنطية ظل القـانون الرومانى أساس التطور التشريعى طوال تاريخها ، وأضحى قانون جستنيان أساس ما حدث مستقبلا من إجراء فى هذه الناحية[١] .

وفى زمن جستنيان ازدهرت ثلاث مدارس للقانون . منها مدرسة بالقسطنطينية وأخرى فى روما ، والثالثة فى بيروت . وجرى إغلاق المدارس الأخرى ، حتى لا تتخذ قواعد للوثنية . ثم انتقلت مدرسة بيروت سنة ٥٥١ إلى صيدا بسبب ما أصابها من التدمير نتيجة حدوث زلزال ، غير أنها فقدت ما لها من أهمية[٢] .

سياسة جستنيان الدينية :

رأى جستنيان أن من واجبه ، باعتباره من أخلاف القياصرة الرومان ، أن يعيد الإمبراطورية الرومانية سيرتها الأولى ، وأراد فى الوقت ذاته أن يجعل للإمبراطورية قانوناً واحداً ، وعقيدة واحدة .وتتمثل حياة جستنيان السياسية فى هذه العبارة الموجزة « دولة واحدة ، قانون واحد ، كنيسة واحدة » . وإذ بنى آراءه وأفكاره على مبدأ السلطة الاستبدادية ، افترض أن كل شىء فى الدولة المنظمة يخضع لسلطة الإمبراطور . ولإدراكه بأنه يصح للحكومة أن تستخدم الكنيسة وتتخذ منها سلاحاً قوياً ، بذل كل ما فى وسعه من جهد لإخضاع الكنيسة لسلطانه . وحاول المؤرخون أن يحللوا الحوافز التى وجهت سياسة جستنيان الدينية ، فرأى فريق أن جستنيان جعل للسياسة المكان الأول من اهتمامه ، ولم تكن الديانة عنده إلا أداة طيعة للدولة أو الحكومة[٣] ؛ بينما رأى فريق آخر أن جستنيان الذى اعتبره قسطنطيناً آخر ، كان مستعداً لأن

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 70.
(٢) Vasiliev ; op. cit. p. 147.
(٣) Bury : op. cit. II. pp. 360 - 394.

يتجاهل من واجباته الإدارية المباشرة ما يتعارض مع الشئون الدينية[١] . ولحرص جستنيان على أن يكون له السيطرة التامة على الكنيسة لم يسع فحسب لأن يجعل فى يده التنظيم الداخلى لرجال الدين ، مهما علت مكانتهم ، بل رأى أيضاً أن من حقه أن يحدد لرعاياه نوعاً معيناً من العقيدة . فما يتبعه الإمبراطور من مذهب دينى ، ينبغى أن يسير عليه رعاياه . فللإمبراطور البيزنطى الحق فى أن ينظم حياة رجال الدين ، وأن يظهر على أنه وسيط وحكم فى شئون الكنيسة ورجال الدين ومن مظاهر عطفه على الكنيسة أنه تولى حماية رجال الدين وشجع إقامة وتشييد الكنائس والأديرة ، وغمرها بالامتيازات والحقوق . وحاول أيضاً أن يقيم وحدة دينية بين رعاياه . ففى أحوال كثيرة اشترك فيما جرى من المناقشات الدينية . وأصدر القرارات النهائية فى المشاكل الدينية التى تعرضت للجدل والمناقشة . وما حدث من سياسة تدخل السلطة الزمنية فى الأمور الدينية والكنسية التى تغلغلت فى أعماق المعتقدات الدينية للأفراد ، اشتهرت فى التاريخ باسم الاستبداد القيصرى البابوى . إذ رأى أن حاكم الدولة ينبغى أن يكون إمبراطوراً وباباً فى آن واحد ، وينبغى أن يجمع فى شخصه السلطتين الروحية والزمنية . فالمؤرخون الذين غلبوا فى جستنيان الجانب السياسى ، زعموا أن الغرض الأساسى من الاستبداد القيصرى البابوى ، لم يكن إلا توطيد سلطانه السياسى ، وازدياد قوة الحكومة ، وأنه يجد فيه ، أداة دينية لتأييد عرشه الذى ارتقاه بمحض الصدفة .

والمعروف أن جستنيان حصل على قدر طيب من التعليم الدينى ، إذ درس الأناجيل دراسة وافية ، وولع بالمشاركة فى المجادلات الدينية ، وألف عدداً من ترانيم الكنيسة . واعتبر المنازعات الدينية من الأمور الخطيرة التى تهدد وحدة الإمبراطورية .

وعلى الرغم مما جرى عليه أسلاف جستنيان أمثال زينون وأنستاسيوس ، من إقامة علاقات سلمية مع الكنيسة المونوفيزتية فى الشرق ، فانشقوا بذلك عن

(١) Vasiliev : op. cit. p: 148.

كنيسة روما ، فإن جستين وجستنيان ، حرصاً على إرضاء كنيسة روما ، جددا العلاقات الودية معها . على أن جرى الحوادث لا بد أن يؤدى إلى انفصال الأقاليم الشرقية ، وهو أمر لا يتفق مع خطة جستنيان ، الذى حرص على أن يحقق لإمبراطوريته الشاسعة ديانة موحدة . غير أن تحقيق وحدة الكنيسة بين الشرق والغرب ، بين الإسكندرية وأنطاكية وروما ، يعتبر أمراً مستحيلا . اعتبر أحد المؤرخين أن لحكومة جستنيان وجهين يطل أحدهما على الغرب يلتمس التوجيه من روما ، بينما سعى الوجه الآخر إلى التماس الحقيقة من رهبان مصر والشام(١) .

ومنذ البداية ، كان هدف سياسة جستنيان الدينية ، هو أن يوطد الصلة بروما ، ولذا كان عليه أن يظهر فى مجمع خلقيدونية على أنه المدافع عن المجمع ، الذى اشتدت الأقاليم الشرقية فى مقاومته . وفى زمن جستنيان صار للكرسى الرسولى بروما سلطة عليا . ففى الرسائل التى وجهها جستنيان لأسقف روما ، خاطبه جستنيان على أنه « البابا » « وبابا رومه » . والأب الرسولى . « والبابا البطريرك » . وصار لقب البابا قاصراً على أسقف روما .

وفى رسالة من الرسائل ، خاطب الإمبراطور البابا على أنه « رأس جميع الكنائس المقدسة ، وفى أحد متجدداته أشار إلى أن كرسى رئيس أساقفة القسطنطينية ، روما الجديدة ، المباركة ، إنما يلى فى المكانة أقدس الكراسى الرسولية ، كرسى روما القديمة » .

اصطدم جستنيان باليهود والوثنيين والهراطقة ، والمعروف أن الهراطقة يشملون اتباع مانى ، والنساطرة ، والمونوفيزتيين ، والأريوسيين ، واتباع عقائد دينية أخرى تقل أهمية عن السابقة . فالأريوسية انتشرت فى الغرب بين القبائل الجرمانية ، على حين أن بقايا الوثنية لا زالت قائمة فى بعض جهات الإمبراطورية ، ولا زال الوثنيون يتطلعون إلى جامعة أثينا ، على أنها معقلهم الرئيسى . أما اليهود وأتباع النحل المتهرطقة الأخرى ، فمواطنهم الأساسية

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 148 - 149.

بالأقاليم الشرقية . وأكثر هذه النحل ذيوعاً المونوفيزتية . وإذ ارتبطت الأريوسية بالجرمان ، فإنها زالت من الممالك الجرمانية التى خضعت لجستنيان . ولحرص جستنيان على توحيد العقيدة الدينية بالإمبراطورية ، لم يتسامح مع زعماء الأديان الأخرى ، فتعرضوا زمن حكمه لاضطهاد عنيف اشترك فيه السلطات العسكرية والمدنية(١) .

وللتخلص نهائياً من بقايا الوثنية ، أمر جستنيان فى سنة ٥٢٩ بإغلاق جامعة أثينا المعروفة بدراساتها الفلسفية ، والتى تعتبر آخر معقل للوثنية . وعجل بانهيار هذه الجامعة ، ما حدث فى القرن الخامس ، زمن تيودوسيوس الثانى ، من إنشاء جامعة القسطنطينية . فأمر جستنيان بنفى عدد كبير من أساتذة جامعة أثينا ومصادرة ممتلكاتهم . ومنذ ذلك الحين فقدت أثينا أهميتها الثقافية ، وغدت مدينة ضئيلة الأهمية . وارتحل فريق من فلاسفتها إلى فارس ، حيث سمعوا باهتمام كسرى بالفلسفة ، فتلقاهم كسرى بالترحاب . غير أن هؤلاء اليونانيين لم يتحملوا الحياة فى بلاد أجنبية ، وحرص كسرى على أن يعودوا إلى بلادهم ، وقبل جستنيان ، بمقتضى معاهدة أبرمها مع كسرى ، أن يرجع هؤلاء الفلاسفة إلى وطنهم ، ووعد بأنه سوف لا يرغمهم على اعتناق المسيحية ، فعاد الفلاسفة وأمضوا ما تبقى لهم من أعمارهم فى هدوء وسلام . غير أن الوثنية ظلت باقية فى بعض الجهات النائية يمارسها أربابها فى سرية مطلقة .

أما اليهود وأمثالهم من السامرة فى فلسطين ، فإنهم قاموا بثورات ضد الحكومة ، غير أنها لم تلبث أن خمدت بما اتخذته الحكومة من إجراءات صارمة . وتعرضت معابد كثيرة للدمار ، وما بقى منها تحتم ألا يتلى فيها إلا الترجمة اليونانية للتوراة ، وجرى أيضاً الانتقاص من حقوق اليهود ، وتعرض النساطرة كذلك للاضطهاد الشديد .

وأهم من هذا كله ما جرى عليه جستنيان من سياسة نحو المونوفيزتيين . فالواقع أن علاقاته بهم إنما ترجع أساساً إلى أهميتهم السياسية ؛ وإلى ما تنطوى

(١) Vasiliev : op. cit. p. 160.

عليه المونوفيزتية من مشاكل فى الأقاليم الشرقية ؛ مصر والشام وفلسطين. يضاف إلى ذلك أن المونوفيزتيين حظوا بتأييد تيودورا زوجة جستنيان ، المعروفة بسيطرتها عليه .

وبمقتضى نصيحتها ، حاول جستنيان فى مستهل حكمه أن يقيم علاقات سلمية مع المونوفيزتيين ، فسمح للرهبان الذين جرى نفيهم زمن جستين وفى مستهل حكمه ، بالعودة إلى وطنهم . ودعا عدداً كبيراً من المونوفيزتيين للقدوم إلى القسطنطينية ، وطلب إليهم أن يناقشوا خصومهم فى جميع المسائل التى تنازعوا عليها . وأن يسلكوا فى نقاشهم ما يليق بأقوام أتقياء من اللطف والصبر . وتنازل عن بعض المواضع فى قصر من قصوره بالعاصمة لجماعة من الرهبان المونوفيزتيين . وفى سنة ٥٣٣ قدم إلى العاصمة سفيروس ، زعيم المونوفيزتية ومشرعها ، حيث أقام مدة سنة . وولى بطريركية القسطنطينية أنثيموس أسقف طرابزون المعروف بتأييده سياسة التراضى والتوفيق مع المونوفيزتيين . وبدا كأن المونوفيزتيين حازوا انتصاراً باهراً .

غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت . فما كاد يصل إلى القسطنطينية البابا أجابيتوس Agapétus وطائفة من الأرثوذكس المتطرفين ، حتى اشتد الاحتجاج على سياسة أنثيموس ، وترتب على ذلك أن تغيرت سياسة جستنيان . فجرى عزل أنثيموس ، وتعيين أحد الأرثوذكس المتشددين مكانه — وهو ميناس . ولعل السبب فى استجابة جستنيان لرغبة البابا ، يرجع إلى أن القتال بدأ فى ذلك الحين ضد القوط الشرقيين فى إيطاليا ، وأن الإمبراطور فى حاجة ماسة إلى تأييد البابا والغرب .

ومع ذلك فإن جستنيان لم يأل جهداً فى استرضاء المونوفيزتيين . إذ أقر ما ذهب إليه المونوفيزتيون من بطلان كتابات تيودور أسقف المصيصة Mopsuesta ، وتيودوريت أسقف Cyrrhus بالشام ، وإيباس أسقف الرها ، وأصدر قراراً بتحريمها . وهدد بأنه سوف يطبق ذلك على كل من يدافع عنها . على أن قرار جستنيان لم يلق قبولا إجماعياً من الكنائس الشرقية والغربية لمخالفته

قرار مجمع خلقيدونية(١) . ومع ذلك استطاع جستنيان أن يحصل من البابا فيجيلوس Vigilus فى سنة ٥٤٨ على إقرار بموافقته على قرار الإمبراطور . ويعتبر ذلك آخر ما أحرزته تيودورا من انتصارات ، إذ أنها ماتت فى نفس السنة ، وقد اعتقدت بأن المونوفيزتية سوف يكون لها النصر النهائى .

على أن محاولات جستنيان للتوفيق بين الأرثوذكس والمونوفيزتيين أصابها الفشل الذريع . فلم يقنع المونوفيزتيون بما حصلوا عليه من امتيازات ، وبذلك لم يحقق الإمبراطور هدفه ، فلم يقم كنيسة موحدة ، وظلت النحل المختلفة من المانوية واليهودية والوثنية قائمة ، ولم تتحقق الوحدة الدينية .

على أنه ينبغى ألا نغفل نشاط البعثات التبشيرية التى تجاوزت حدود الإمبراطورية البيزنطية . إذ أن جستنيان رأى أن من واجبه باعتباره إمبراطورا مسيحيا أن ينشر المسيحية فى خارج حدود الإمبراطورية . فحدث فى عهده نشر المسيحية بين قبائل الهرولى Heruli على الدانوب ، وبين بعض القبائل فى القوقاز ، وبين قبائل بشمال أفريقية ، وفى حوض النيل(٢) . إذ اعتنق سلكو ملك النوباد المسيحية على المذهب المونوفيزتى ، واشترك مع القائد البيزنطى فى جعل البليميين يعتنقون الدين المسيحى(٣) .

وما حدث من محاولات جستنيان من ممالأة المونوفيزتيين والأرثوذكس على حد سواء ، إنما أدى إلى تشجيع النزعات الانفصالية فى الشرق ، وإلى قطع الصلة بالغرب ، فضلا عن انهيار الأقاليم التى فى جوف الدولة البيزنطية . ومع ذلك ظلت الإمبراطورية زمن جستنيان تباشر كافة سلطانها ، وأحست بما ترتب على إحيائها من نتائج سياسيه وثقافية ، فامتدت حدودها حتى أصبحت تشمل عالم البحر المتوسط . أما آدابها وفنونها فإنها بدت كأنما تعمل على أن تجعل تراثها القديم يتخذ صورة مسيحية ، غير أنه لم يلبث أن تلى جستنيان عصر انحطت فيه الثقافة(٤) .

(١) Vasiliev : op. cit. p. 152.
(٢) Maspers : Patrinaches d'Alexandrie. pp. 102-165.
(٣) Vasiliev : op. cit. p. 141.
(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 72

وإذا كان جستنيان يرمى إلى أن يجعل عصره بداية عصر جديد ، فالواقع أن عصره يعتبر نهاية عصر مجيد . لم ينجح جستنيان فى إعادة بناء الإمبراطورية . حاول مد أطرافها ، غير أن ذلك لم يستمر إلا مدة قصيرة ، ولم يكن فى وسعه أن يعيد الحياة إلى جسم دولة منهارة ، وما فتحه من بلاد لم يقم على أساس سليم ، وما حدث من الانهيار الفجائى لعمله أدى إلى نتائج بالغة الخطورة . فعلى الرغم من الانتصارات الباهرة ، خلف جستنيان لمن جاء بعده من الأباطرة دولة متداعية فى الداخل ، قد تطرق إليها الخراب من الناحيتين الإقتصادية والمالية ، وكان عليهم أن يصلحوا ما وقع فيه هذا الرجل العظيم من أخطاء جسيمة ، كيما يستطيعوا بذلك أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه[١] .

خلفاء جستنيان

وما كادت شخصية جستنيان تختفى بوفاته ، حتى تداعى ما أقامه من نظام للحكومة ، واستطاع به أن يحقق التوازن فى الإمبراطورية . ويشير بيورى إلى نشاط العوامل المؤدية إلى التفكك ، وإلى انهيار النظام الشكلى الذى أنشأه جستنيان ، وإلى ما طرأ من التغيير فى طابع الإمبراطورية ، منذ زمن طويل ، ولم يشعر به أحد فى غمرة الحوادث التى شغلت زمن جستنيان ، ولم يلبث أن ظهر واضحا ، وصار يجرى فى سرعة وعمق[٢] . والفترة الواقعة بين سنة ٥٦٥ ، وسنة ٦١٠ ، تعتبر من أسوأ فترات التاريخ البيزنطى ، لما اجتاح الإمبراطورية أثناءها من الفوضى والفقر والأوبئة .

وخلف جستنيان على حكم الإمبراطورية : جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) ، وتيباريوس الثانى (٥٧٨ — ٥٨٢) ، وموريس (٥٨٢ — ٦٠٢) ، وفوكاس (٦٠٢ — ٦١٠) . ويعتبر موريس أشهر هؤلاء الأباطرة . لما اتصف به من الخبرة الحربية والزعامة السياسية . وما اشتهرت به صوفيا زوجة جستين الثانى من

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 72.

(٢) Bury : op. cit. II p. 67.

قوة الإرادة وسيطرتها على زوجها وتدخلها فى شئون الحكم ، يجعلها شبيهة بتيودورا زوجة جستنيان .

وأهم ماجرى من الحوادث فى هذه الفترة من الناحية الخارجية ، يتضمن الحرب ضد فارس ، والنضال ضد الصقالبة والآفار فى شبه جزيرة البلقان ، وما حدث من استيلاء اللومبارديين على إيطاليا . وما يتعلق بالأمور الداخلية يتمثل فى سياسة الأباطرة ، وإنشاء أرخونيتين .

نقض جستين الثانى الهدنة التى عقدها جستنيان مع كسرى الأول سنة ٥٦١ ، وجعل أجلها ستين سنة ، بأن رفض أن يدفع ما هو مقرر من الجزية السنوية على الدولة البيزنطية ، وترتب على العداء المشترك الذى يكنه البيزنطيون والترك لفارس ، أن قامت بينهم علاقات ودية ، والمعروف أن الترك لم يظهروا إلا قبيل هذه الفترة فى غرب آسيا ، وعلى سواحل بحر قزوين . فاحتلوا الأراضى الواقعة بين الصين وفارس ، واعتبروا الفرس عدوهم الأساسى . فقدم إلى القسطنطينية مبعوثون من قبل الترك عبر القوقاز ، ولقوا استقبالا حافلا من البيزنطيين . وتقررت الخطط لإقامة تحالف تركى بيزنطى ضد فارس . وهذه المعاهدة تضمنت إجراء التحالف فى حالتى الهجوم والدفاع ، واقترحت السفارة التركية على الحكومة البيزنطية ، أن يقوم الترك بدور الوسيط فى تجارة الحرير ، بين بيزنطة والصين ، وبذلك يمتنع تدخل الفرس . وهذا ما سعى جستنيان إلى تحقيقه ، إنما الاختلاف الوحيد بين الجانبين هو أن جستنيان كان يرجو تحقيق ذلك باستخدام الطريق البحرى فى الجنوب ، وبفضل مساعدة الأحباش ، على حين أن الترك اقترحوا استخدام الطريق البرى الشمالى . على أن المفاوضات لم تؤد إلى إقامة تحالف حقيقى ضد الفرس ، لأنه حدث فى أواخر الستينات من القرن السادس أن انصرفت الإمبراطورية البيزنطية إلى ما حدث من تطورات فى الغرب ، لا سيما فى إيطاليا ، حيث هاجمها اللومبارديون . يضاف إلى ذلك أن جستين الثانى رأى أن ما لدى الترك من قوة حربية لا يكفى لتحقيق الغرض[١] .

(١) Vasiliev : op. cit. 170.

على أن الصداقة القصيرة الأمد بين البيزنطيين والترك لم تؤد إلا إلى ازدياد التوتر بين بيزنطة وفارس[1]. ونشبت الحرب بين الدولتين فى عهود جستين، وتيباريوس، وموريس، ووقعت الحرب بسبب النزاع على أرمينيا لما لها من أهمية استراتيجية واقتصادية، وقد ظلت أرمينيا قرونا عديدة موضعاً للنزاع بين الإمبراطوريتين، على أن حاجة بيزنطة للسيطرة على أرمينيا بلغت وقتذاك من الشدة ما لم تبلغه فى أى زمن مضى. إذ أن اشتداد ضغط الشعوب الجرمانية على الإمبراطورية أول الأمر، خلق أزمة حادة، غير أن ارتحالهم إلى جهات أخرى أثار أزمة من نوع آخر. إذ أن ارتحالهم أدى إلى نضوب المصدر الذى يمد الإمبراطورية بالجند المأجورة. فصار لزاماً على بيزنطة أن يزداد اعتمادها على شعوبها فى الحصول على ما تحتاج إليه جيوشها من الجند، وأرادت بصفة خاصة أن تعتمد فى ذلك على الأرمن، الذين اشتهروا بأنهم من خيرة الجنود وأمهرهم[2]. ولم يحرز البيزنطيون النصر زمن جستين الثانى، إذ لم يلبث أن رفع الحصار على نصيبين. وما جرى من إغارة الآفار على أملاك البيزنطيين فى شبه جزيرة البلقان، أدى إلى انتقال دارا، وهى من أهم المواقع الحصينة على الحدود الفارسية البيزنطية، إلى أيدى الفرس بعد أن استمر حصارها ستة شهور، وكان لسقوط دارا من شدة الوقع على جستين أن أصابه الجنون. ولم تستطع الإمبراطورة صوفيا أن تحصل على هدنة لمدة سنة (٥٧٤) إلا بعد أن دفعت ٤٥ ألف قطعة ذهبية[3].

ولقيت بيزنطة من التوفيق فى الحرب ضد فارس زمن تيباريوس وموريس، ما لم تلقه من قبل، وذلك بفضل ما اشتهر به موريس من المهارة والقيادة الحربية، ولما جرى من النزاع الداخلى حول ولاية الحكم فى فارس. واستغل موريس هذا الظرف للحصول على مكاسب للإمبراطورية البيزنطية، فبفضل مساعدة موريس وتأييده، تولى عرش فارس كسرى الثانى (برويز) حفيد كسرى الأول، فبادر

---

(١) Bury : op. cit. II 97. — Vailhé : Projet d'alliance turco byzantine au VIe siecle. Echs d'Orient XII (1909) pp. 206 - 214.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 73.

(٣) Bury : op. cit. II pp. 95 - 101

إلى إبرام معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية (٥٩١). ولهذه المعاهدة أهمية كبيرة إذ تنازلت فارس بمقتضاها للدولة البيزنطية عن أرمينيا الفارسية، والجزء الشرقى من إقليم الجزيرة، بما فى ذلك مدينة دارا، ولم تنطو المعاهدة على شرط الجزية السنوية الذى كان يعتبر مهينا للدولة البيزنطية. يضاف إلى ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن أمنت جانب فارس صار فى مقدورها أن تركز اهتمامها فى أمور الغرب، لا سيما بعد أن تعرضت شبه جزيرة البلقان للهجمات المتكررة من الآفار والصقالبة[1]. وما حدث من الحرب ضد فارس زمن فوكاس لم تنته إلا زمن هرقل.

الحرب ضد الصقالبة والآفار

وقع فى شبه جزيرة البلقان عقب وفاة جستنيان حوادث بالغة الأهمية. فالمعروف أن الصقالبة درجوا زمن جستنيان على مهاجمة الأقاليم البيزنطية بالبلقان، وتوغلوا فى الجنوب، وتعرضت مدينة سالونيك إلى تهديدهم مرات عديدة. استمرت هذه الإغارات بعد وفاة جستنيان، فاستقرت أعداد كبيرة من الصقالبة فى الأملاك البيزنطية بالبلقان، وعملوا بالتدريج على احتلالها. وساعدهم الآفار، وهم قوم ينتمون إلى أصل تركى، استقروا وقتذاك فى بانونيا، وهدد الصقالبة والآفار القسطنطينية وسواحل بحر مرمره وبحر إيجه، وازداد تغلغلهم فى بلاد اليونان حتى وصلوا إلى البيلوبونيز[2]. وترتب على استقرار الصقالبة فى شبه جزيرة البلقان، ما حدث بعدئذ من قيام ممالك صقلبية مستقلة فى أرض كانت من أملاك بيزنطه[3]، والواقع أن الدولة البيزنطية لم تقم بعمل إيجابى ضد الصقالبة إلا بعد أن فرغت زمن موريس من مشكلة فارس، وذلك سنة ٥٩١. غير أن ما أحرز البيزنطيون من انتصارات عديدة على الصقالبة لم يكن لها تأثير قوى على جموع الصقالبة، فصارت الحرب

---

(١) Goubert : Byzance avant l'islam pp. 80 - 217.

(٢) Vasiliev : op. cit. 171.

(٣) Ostrogorowski : op cit. p. 75.

سجالا ، فمن العسير السيطرة على العمليات الحربية فى هذه الجهات النائية ، فضلا عن تسرب الملل والفتور إلى الجيش[١] .

اللومبارديون :

لم يكن لدى إيطاليا بعد وفاة جستنيان من الوسائل ما يكفى لحمايتها من هجمات الأعداء ، وهذا يفسر مدى السهولة والسرعة التى استولى بها اللومبارديون على إيطاليا ، إذ أنهم لم يظهروا بهذه الجهات إلا بعد أن مضى بضع سنوات على تدمير القوط الشرقيين على يد جستنيان فى منتصف القرن السادس تحالف اللومبارديون مع الآفار واشتركوا معاً فى القضاء على مملكة أقامها الجبيد فى الحوض الأوسط لنهر الدانوب . ثم زحفوا من بانونيا ، ولعل ذلك راجع إلى خوفهم من حلفائهم من الآفار ، وجاءوا إلى إيطاليا تحت زعامة ملكهم البوئين ، وصحبوا معهم زوجاتهم وأطفالهم . واشتمل اللومبارديون على قبائل كثيرة ، ومن أكثر القبائل عدداً السكسون[٢] .

وفى سنة ٥٦٨ وصل اللومبارديون إلى شمال إيطاليا ، وأنزلت جموعهم الأريوسية المتبربرة الخراب بكل ما اجتازته من المواضع . ولم يلبثوا أن استولوا على شمال إيطاليا الذى أضحى معروفاً باسم لومبارديا . وإذ لم يكن لدى الحاكم البيزنطى من القوات ما يكفى لمقاومتهم تحصن فى داخل راڤنا ، التى اجتازها المتبربرون أثناء سيرهم نحو الجنوب . وانتشرت جموعهم الكثيرة فى سائر أنحاء شبه جزيرة إيطاليا ، فاحتلت فى سهولة ويسر كل المدن المجردة من الدفاع . وبلغوا فى زحفهم جنوب إيطاليا ، فاحتلوا بنيفنتو . وعلى الرغم من أنهم لم يستولوا على روما فأنهم أحاطوا بإقليم روما من ثلاث جهات ، من الشمال والشرق والجنوب ، وقطعوا كل اتصال بين روما وراڤنا ، حتى لا تنتظر روما مساعدة من راڤنا أو من القسطنطينية ، إذ كان أباطرة القسطنطينية يجتازون فترة من أعنف فترات التاريخ فى الشرق .

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 75.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 172.

لم يلبث أن أقام اللومبارديون فى إيطاليا مملكة جرمانية شاسعة . وحاول كل من تيباريوس وموريس أن يتحالف مع ملك الفرنجة شلدبرت الثانى (٥٧٠ — ٥٩٥) ، عسى أن تقع العداوة بينه وبين اللومبارديين فى إيطاليا ، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل . وما حدث من تبادل السفارات العديدة ، ومن توجيه شلدبرت حملات إلى إيطاليا لم يكن يقصد شلدبرت منها سوى استعادة أملاك الفرنجة لا مساعدة موريس . على أن ملوك الفرنجة لم يدمروا السيادة اللومباردية فى إيطاليا إلا بعد أن مضى على احتلالها أكثر من ١٥٠ سنة ، وجرى ذلك بناء على دعوة البابا لا الإمبراطور[١] . أما روما ، التى صمدت لما ألقاه عليها اللومبارديون من الحصار أكثر من مرة ، فإنها وجدت مدافعاً عنها وحامياً لها ، فى شخص البابا ، الذى لم يلتزم فحسب بالمحافظة على الحياة الروحية لرعاياه الرومان ، بل تحتم عليه أيضا أن ينظم أمر الدفاع عن المدينة ضد اللومبارديين . وحدث وقتذاك فى آخر القرن السادس ، أن ولى أمر كنيسة روما ، واحد من أشهر البابوات ، وهو جريجورى الأول ، أو الكبير . كان أول الأمر مندوباً بابويا فى القسطنطينية . وبقى بها نحو ست سنوات ، غير أنه لم ينجح فى أن يتعلم شيئا من مبادىء اللغة اليونانية[٢] . غير أنه على الرغم من قصوره فى هذه الناحية اللغوية ، فإنه وقف على ما يجرى بالقسطنطينية من الأحوال والسياسة .

وكشف فتح اللومبارديين لإيطاليا عن عجز سياسة جستنيان الخارجية فى الغرب حيث لم يتوافر للإمبراطورية من القوات ما يكفى للإبقاء على مملكة القوط الشرقيين التى استولى عليها . ووضع هذا الفتح أيضاً الأساس الذى ترتب عليه بالتدريج انفصال إيطاليا عن الإمبراطورية البيزنطية ، وإضعاف ما للإمبراطور من سلطة سياسية بإيطاليا[٣] .

(١) Bury : op. cit. II pp. 160 - 166.
Reverly, G : Les Relation de Childebert II et de Byzance. Revue Historique CXIV (1913) pp. 61 - 85.

(٢) Dudden : Gregory the Great. I pp. 123-157.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 174.

المشاكل الدينية :

اهتم خلفاء جستنيان بتأييد الأرثوذكسية ، ولذا تعرض المونوفيزتيون ، فى بعض الأوقات ، لاسيما زمن جستين الثانى ، إلى اضطهاد شديد العنف . وينبغى أن نعالج ما كان من العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وكنيسة روما . ذلك أن البابا جريجورى احتج على ما اتخذه بطريرك القسطنطينية من لقب « مسكونى » . وفى رسالة وجهها البابا جريجورى الكبير إلى الإمبراطور موريس ، اتهم فيها البطريرك حنا الصائم بالكبرياء ، وجاء فى هذه الرسالة ما يلى :

« إنى لمضطر أن أرفع الصوت عالياً وأقول : يا للدنيوية ! يا للأخلاق ! فبينما استسلمت كل أوربا لسلطة المتبربرين ، وحل بالمدن الخراب والدمار ، وتحطمت وانهارت المعسكرات ، وخلت الأقاليم من سكانها ، ولم يعد الفلاح يفلح أرضه ، وبينما اشتد غضب الوثنيين وسخطهم ، وحرصوا على القضاء على المؤمنين وقتلهم ، فإن رجال الدين الذين كان ينبغى أن يتمرغوا فى التراب ويذرفون الدمع على ما أصاب البلاد ، يسعون إلى أن يحوروا ماشاءوا من أسماء الغرور والمجد ، بما اتخذوه من ألقاب جديدة كاذبة . فيالله ، هل ما أفعله فى هذه الأحوال يعتبر دفاعاً عن مصلحتى الشخصية ؟ فهل أنكر ما جرى من الأخطاء والشرور ؟ لا . إنما أنا أدافع عن قضية الله العظيم ، وقضية الكنيسة العالمية ، فلتحل اللعنة ، بكل من يسىء إلى الكنيسة العالمية المقدسة ، وبكل من يتعالى ؛ وبكل من يلتمس لقباً يزيده غنواً ، وبكل من يتعالى على إمبراطوريتكم بما اتخذه من لقب يعتبر غريباً عليه[١] » .

على أن البابا لم يحصل على ما يبتغيه من حقوق ، وظل فترة من الزمن لا يرسل مندوباً عنه إلى القسطنطينية . ولما نشبت الثورة سنة ٦٠٢ فى القسطنطينية . ضد موريس ، وجه البابا جريجورى رسالة إلى الإمبراطور الجديد فوكاس ، وتضمنت عبارات لا تليق بهذا الطاغية الأحمق الذى تربع على عرش بيزنطة :

(١) Epistulea V. English Translation Nicene and Post. ene Fathers XII p. 170 - 171.

« الحمد لله فى الأعالى . . . فلتفرح السموات ، ولتزدد الأرض حبوراً . ولتنشرح صدور الناس لما قمت به من أعمال مجيدة . . . ولتعد آخر الأمر حرية كل إنسان إلى صاحبها فى كنف الإمبراطورية النقية الصالحة : إذ لم يكن ثمت فرق بين ملوك سائر الأمم وبين أباطرة الرومان . فالملوك ليسوا إلا سادة العبيد ، أما أباطرة الدولة الرومانية فإنهم سادة الأحرار[١] » .

ولا شك أن فوكاس سره هذا الإطراء والثناء ، لأنه لم يلبث أن منع بطريرك القسطنطينية من اتخاذ اللقب « المسكونى » ، إذ أعلن أن الكرسى الرسولى الذى أقامه الرسول بطرس ، يعتبر رأس مال كل الكراسى[٢] .

ومن ثم يتبين أنه على الرغم من أن فوكاس تعرض للهزيمة والخسارة الداخلية والخارجية ، وأثار سخط رعاياه ، فإن علاقته بروما التى قامت على أساس ما منحه البابا من امتيازات ، ظلت ودية طوال حكمه . ولتخليد هذه العلاقات ، شيدت أرخونية روما فى السوق الرومانى (الميدان) بها نصباً يحمل نقوشاً فى تمجيد فوكاس . وما زال هذا النصب قائماً[٣] .

إنشاء ارخونيتى رافنا وأفريقية :

ويتعلق بالفتوح اللومباردية ، ما جرى من تغيير هام فى حكومة إيطاليا الذى ترتب عليه ، وعلى ما حدث من تغيير فى حكومة شمال افريقية ، قيام نظام جديد فى اقاليم الإمبراطورية ، وهذا النظام هو المعروف بالأجناد Themes .

لم يكن فى استطاعة السلطات البيزنطية فى إيطاليا أن تقاوم اللومبارديين ، الذين استولوا فى سهولة ويسر على نحو ثلثى شبه جزيرة إيطاليا . ولمواجهة هذا الخطر الشديد ، حرصت الحكومة البيزنطية على أن تقوى سلطانها فى

(١) Epistolae XIII. 31 Nicene and Post Nicene Father XIII. 99.
(٢) Vasiliev : op. cit. p. 174.
(٣) Vasiliev : op cit. p. 74.

إيطاليا ، بأن جعلت الإدارة المدنية فى يد الحكام[1] العسكريين . فالإدارة البيزنطية فى إيطاليا خضعت لسلطة حاكم عسكرى عام ، وهو الأرخون . الذى صار يدير من مقره فى راڤنا كل نواحى نشاط الموظفين المدنيين . ويرجع إنشاء أرخونية راڤنا إلى أواخر القرن السادس الميلادى ، إلى عهد الإمبراطور موريس . على أن الجمع بين الوظائف الإدارية والقضائية والسلطة العسكرية لم يترتب عليه الإستغناء عن الموظفين المدنيين دفعة واحدة . إذ ظلوا فى وظائفهم إلى جانب الحكام العسكريين ، غير أنهم كانوا يخضعون لإشراف وتوجيه الأرخون العسكرى . على أنه حدث فيما بعد أن حلت السلطات العسكرية مكان الموظفين المدنيين . وجرى الأرخون فى إدارته باعتباره ممثلا للإمبراطور ، على أصول وقواعد الاستبداد الإمبراطورى البابوى ، الذى يحظى بتأييد الأباطرة . وظهرت هذه السياسة فى أعمال كثيرة كالتدخل ، لما له من السلطة العليا ، فى الأمور الدينية بأرخونيته . ولما لم يكن لسلطة الأرخون حدود أو قيود ، حظى بالألقاب والتشاريف الإمبراطورية . فقصره فى راڤنا صار يعتبر مقدساً Sacrum Palatium ، على النحو المعروف فى القصر الإمبراطورى . وكلما قدم الأرخون إلى روما ، لقى من الحفاوة والاستقبال مثلما يلقى الأباطرة ، إذ خف رجال السناتو ورجال الدين وأهل المدينة فى موكب حافل إلى استقباله خارج المدينة . فأصبح الأرخون مطلق التصرف فى كل الشئون العسكرية ، والإدارية والقضائية والمالية[2] .

وحدث فى شمال إفريقيا ، مثلما حدث فى راڤنا ، أن قامت أرخونية مكان مملكة الوندال التى دمرها جستنيان ، وذلك لما تعرضت له هذه الجهات من التهديد من قبل السكان الوطنيين (البربر) الذين دأبوا على الثورة

(1) Ostrogorowski : op. cit. p. 74.

(2) Diehl : Etude sur l'administration byzantine dans l'exarchat de Revenne. (568.751). pp. 3-31.

ضد القوات البيزنطية ، التى احتلت بلادهم . ويرجع أيضاً إلى زمن موريس ، بداية إنشاء أرخونية أفريقية أو قرطاجنة ولم تختلف أرخونية إفريقية عن أرخونية راڤنا ، إذ قامت على نفس القواعد ، وصار لأرخونها سلطة مطلقة[1] .

ولا شك فى أن الحاجة الماسة هى التى دفعت الإمبراطور لأن ينشئ منصبا اشتهر صاحبه ، الأرخون ، بسلطة مطلقة ، وقد يصبح متوليه منافساً خطيراً للإمبراطور ذاته إذا شاء ذلك أو تهيأت له الأحوال . وحدث فعلا أن رفع أرخون إفريقية راية العصيان ضد فوكاس ، وأصبح إبنه إمبراطوراً بالقسطنطينية سنة ٦١٠ أما أراخنة راڤنا فلم يستطيعوا أن يتغلبوا على تهديد اللومبارديين[2] .

على أن المؤرخ الفرنسى ديل[3] اعتبر الأرخونيتين بداية نظام الأجناد ، وهو النظام الإقليمى الذى نشأ بالإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع ، وأخذ ينتشر فى سائر ممتلكات الإمبراطورية . ومن أظهر معالمه سيطرة السلطة العسكرية على السلطة المدنية . وإذ ترتب على هجمات اللومبارديين والبربر حدوث تغييرات هامة فى أواخر القرن السادس الميلادى فى الغرب والجنوب ، ترتب أيضاً على هجمات العرب والفرس فيما بعد ، اتخاذ إجراء مماثل فى الشرق ، كما أن هجمات الصقالبة والبلغار أدت إلى إصلاح مماثل فى شبه جزيرة البلقان[4] .

وترتب على انهيار أعمال جستنيان ، أن أخذ يتداعى ما كان للحكومة من هيبة وكرامة . ومن الطبيعى أن يحدث رد فعل لاستبداد جستنيان . إذ استعاد السناتو جانبا من أهميته السياسية ، وأخذ الناس من جديد يجهرون بآرائهم . وشهدت السنوات الحرجة فى أواخر القرن السادس ، وأوائل القرن السابع الميلادى ، ثورة جديدة من النشاط ، مصدرها الأحزاب الوطنية . فما تغلغل فى البلاد

(1) Diehl : L'Afrique byzantine. pp. 458-502.

(2) Vasiliev : op. cit. p. 175.

(3) Diehl : Etudes byzantines. p. 277.

(4) Vasiliev : op. cit. p. 176.

من نزاع دينى واجتماعى ، انعكس فيما حدث من المصادمات الداخلية العنيفة ، ومن الحروب المستمرة بين الخضر والزرق فى المدن الكبيرة . وأصاب الجيش انهيار خطير فى نظامه وتدريبه ، ترتب عليه تذمر الجند وسخطهم ، وزاد فى ذلك ماحدث من خفض أجورهم بسبب سوء الأحوال المالية(١) . وما أصاب الإمبراطورية من قلق واضطراب ، انتقل إلى الجيش ، الذى أخذت قوته تنهار ، وساءت روحه المعنوية ، وضعف أمله فى حرب لم يعرف متى تنتهى فلما صدرت الأوامر سنة ٦٠٢ إلى الجند : باتخاذ أماكنهم على الضفة الأخرى من الدانوب ، وأن يقضوا بها الشتاء ، أعلن الجند الثورة والعصيان ، ونهض فوكاس ، وهو قائد صغير تجرى فى عروقه بعض آثار من دماء المتبربرين ، وتولى زعامة المتمردين ، وزحف بهم على القسطنطينية : وتصادف أن قام بالعاصمة وقتذاك ثورة ضد الحكومة ، مصدرها الزرق والخضر ؛ فجرى عزل موريس عن العرش ، وأقر السناتو تعيين فوكاس إمبراطوراً(٢) .

على أن ما حدث على الدانوب من نضال طويل ، استمر عشر سنوات ، لم يؤد إلى نتيجة حاسمة . وهذا الفشل هو الذى قرر مصير البلقان ، التى سقطت غنيمة باردة فى يد الصقالبة ، وأسهم فى انفجار ما كان مكبوتاً من أزمة داخلية حادة .

وفى أثناء حكم فوكاس (٦٠٢ — ٦١٠) أخذت الإمبراطورية فى الانهيار . فما اشتهر به عهد فوكاس من الإرهاب ، إنما حدد الإطار الخارجى ، الذى جرى فى نطاقه من العوامل ما أدى إلى التفكك البطىء فى الحكومة والمجتمع أواخر العصور الرومانية .

أعقب اغتيال موريس وتقطيع أوصاله ، أن امتد هذا الإغتيال إلى أفراد البيوت العريقة ، حتى يتخلص فوكاس من معارضتهم ومقاومتهم . على أن

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 75.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 67.

الأرستقراطية ردت على هذه المذابح ، بما دبره أفرادها من سلسلة مؤامرات أدت إلى مذابح جديدة . ولم تجد أعمال فوكاس القبول والرضى إلا من قبل بابا روما ، الذى اعترف له فوكاس بالصدارة الدينية على سائر الأساقفة غير أن هذا العمل لم يؤد إلا إلى ازدياد السخط والكراهية له فى بيزنطة . واشتدت الكراهية لفوكاس فى الشرق الأدنى لما لجأ إليه من اضطهاد المونوفيزتيين واليهود . وأخذ النضال الداخلى يشتد يوماً بعد يوم ، فالخضر الذين استند فوكاس إلى تأييدهم ، لم يلبثوا أن تحولوا عنه ، وبلغ من شدة عدائهم له ، أن تقرر حرمان أنصارهم من تولى الوظائف ، بينما أخذ الزرق يؤيدون سياسة الإرهاب . وبلغ النضال والصدام بين الأحزاب الذروة ، واندلعت الحروب الأهلية فى سائر أنحاء الإمبراطورية(١) .

وفى هذه الأثناء حلت بالإمبراطورية كارثة خطيرة ، إذ تعرضت لهزيمة عسكرية ساحقة فى البلقان وآسيا . ذلك أن كسرى الثانى نهض للانتقام لمقتل موريس ، وساق جيوشه إلى مهاجمة الأراضى البيزنطية . وما أصاب الإمبراطورية — نتيجة الحروب الداخلية — من الانهيار بلغ من الشدة أنه لم يتوافر للإمبراطورية من الموارد أو العزيمة ما تستطيع بها الدفاع عن نفسها . فتوالت هزائمها ، واخترق الجيش الفارسى خطوط دفاع الإمبراطورية ، فاستولى فى سنة ٦٠٥ على دارا ، ثم نفذ إلى آسيا الصغرى واستولى على قيصرية ، وفى هذه الأثناء غمر البلقان موجة من الصقالبة والآفار . ولم يجد نفعاً ما حاوله فوكاس من زيادة ما هو مقرر لهم من الجزية . ولم تلبث شبه جزيرة البلقان أن انغمرت كلها فى حروب ، وبدا وقتذاك وكأن الإمبراطورية البيزنطية على حافة الانهيار والتفكك(٢) .

ولم ينقذ الموقف إلاعمل قوى تولته العناية الإلهية برعايتها . إذ أن أرخون أفريقية ، هرقل ، أعلن خروجه على حكم فوكاس . وبعد أن انحازت إليه

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 77.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 78.

مصر ، بعث بأسطول إلى القسطنطينية تحت قيادة ابنه المعروف باسم هرقل أيضاً . وتوقفت السفن أثناء سيرها ببعض الجزائر والموانى ، فلقّى هرقل الترحيب من جميع الناس لا سيما من حزب الخضر . وفى ٣ أكتوبر سنة ٦١٠ ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية ، فتعالى الهتاف له ، على أنه مخلص البلاد ومنقذها ؛ فعمل هرقل على التعجيل بإنهاء حكم فوكاس . وفى ٥ أكتوبر سنة ٦١٠ ، تلقى هرقل التاج من يد البطريرك . ثم أمر بإعدام فوكاس وتحطيم تمثاله المقام فى ميدان السباق وإحراق شارات حزب الزرق[١] .

ويعتبر عهد فوكاس ، الطافح بالفوضى والإرهاب ، المرحلة الأخيرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية المتأخر . وفى خلال هذه الفترة هوت الفكرة القديمة للإمبراطورية imperium ، وبذلك انتهت حقبة العصر الرومانى المتأخر ، أو العصر البيزنطى المتقدم ، وكان على بيزنطة أن تخرج من الأزمة فى صورة بالغة الاختلاف ، وأن تدخر من القوة ما تستطيع بها أن تتخلص من كبرياء الحياة السياسية المنهارة ، وأن تلتمس مصادر فعالة جديدة للقوة . فالتاريخ البيزنطى بمعناه الصحيح هو تاريخ الإمبراطورية اليونانية فى العصور الوسطى ، وهذه هى بدايته[٢] .

(١) Ibid. p. 78.
Janssens. Y. "Les Bleus et les Verts sous Maurice, Phocas et Heraclius. Byzantion II (1936) p. 449.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 78.

الفصل الرابع

بيت هرقل (٦١٠ — ٧١٧)

ألف هرقل ومن جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة ترجع ترجيحاً إلى أصل أرمنى . وحكم هرقل من سنة ٦١٠ حتى سنة ٦٤١ . وأنجب من زوجته الأولى أيدوسيا Eudocla ابنه قنسطنطين الذى خلفه على حكم الإمبراطورية ، غير أنه لم يحكم سوى بضعة شهور ، ولم يلبث أن مات سنة ٦٤١ ، واشتهر باسم قنسطنطين الثالث . وولى العرش بعد وفاة قنسطنطين الثالث ، ابن هرقل من زوجته الثانية مارتينا . ولم يمكث إلا شهوراً إذ جرى عزله فى خريف سنة ٦٤١ ، ثم ولى الحكم قنسطانز الثانى ابن قنسطنطين الثالث ، وحكم من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ ، ثم تلاه ابنه قنسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) الملقب بالملتحى Pogonatus . وبوفاة قنسطنطين الرابع انتهت خير فترات تاريخ بيت هرقل ، على الرغم من أن جستنيان الثانى ابن قنسطنطين ، والمعروف بالأجدع ، ولى الحكم مرتين (٦٨٥ — ٦٩٥ ، ٧٠٥ — ٧١١) .

وما ساد الإمبراطورية من الفوضى منذ سنة ٦٩٥ ، انتهت فى سنة ٧١٧ حين تولى العرش ليو الثالث ، الذى استهل عصراً جديداً فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية[١] .

الحروب ضد الفرس والآفار

حينما تسلم هرقل (٦١٠ — ٦٤١) زمام الحكم ، كانت الإمبراطورية قد حل بها الخراب والدمار . ويعتبر هرقل من أعظم الأباطرة فى التاريخ البيزنطى ، فهو على حد قول أحد المؤرخين ، الذى خلق بيزنطة العصور

(١) Vasiliev : op. cit. p. 194.

الوسطى والذى اتخذ روما مثالا له فى الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية ديناً ومذهباً(١) .

تولى هرقل الحكم ، وقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية والمالية ، وأصاب الشلل الأداة الحكومية . أما النظام الحربى القائم على الاعتماد على المأجورين أضحى عديم الفائدة . إذ خوت الخزانة من الأموال ، ولم يعد فى استطاعة الدولة أن تتخذ جنودها من مصادرها القديمة ، فالأقاليم الكبيرة الواقعة فى وسط الإمبراطورية ، تعرضت لغارات العدو . إذ أخذ الصقالبة والآفار يستقرون فى شبه جزيرة البلقان ، بينما صار الفرس يوطدون مراكزهم فى قلب آسيا الصغرى . ولم يكن ثمت من وسيلة لإنقاذ الإمبراطورية ، إلا إذا جرى فى داخلها حركة تجديدية ناشطة(٢) .

على أن بيزنطة ادخرت فى ذاتها من المواهب والموارد ما أسهمت بها فى خلق نهضة اجتماعية سياسية ثقافية . ذلك أن الدولة البيزنطية بلغت من الضعف وشدة الفقر ، ما جعلها تقف عاجزة إزاء ضربات الأعداء ، بل إن هرقل فكر فى وقت من الأوقات أن ينقل مركز قيادته إلى قرطاجنة ، وأن يتخذ منها قاعدة لإعداد هجوم مضاد ، مثلما فعل من قبل حين هاجم فوكاس ، غير أنه منعه من تنفيذ ذلك ، ما أثاره هذا الاقتراح من الحماس فى نفوس أهل القسطنطينية ، وما أبداه البطريرك سرجيوس ، من مقاومة شديدة لهذه الخطة . ومع ذلك فإن هذا الاقتراح إنما يدل على خطورة الموقف فى الشرق ، وعلى أهمية الأقاليم الغربية للدولة البيزنطية(٣) .

فلم ينته القرن السادس الميلادى ، حتى أخذ يستقر فى البلقان جماعات متفرقة من الصقالبة ، واتسع نطاق الاحتلال الصقلبى بعد فشل حملة الإمبراطور موريس على الدانوب أوائل القرن السابع . إذ تدفقت جموع كبيرة من الصقالبة والآفار

(١) Vasiliev : op. cit. p. 194.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 84.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. pp. 83—84.

وانسابت فى أنحاء شبه جزيرة البلقان ، من سواحل بحر الادرياتى غربا إلى بحر إيجة جنوبا وشرقا . وبعد أن تعرضت هذه الجهات إلى النهب والتخريب ، انسحب الآفار إلى الجهات الواقعة شمال الدانوب . على أن الصقالبة أخذوا يستقرون فى البلقان ، ويسيطرون عليه ، وينازعون بيزنطة السلطان فيه . وبلغت الموجة الجديدة من الصقالبة من القوة أنهم استطاعوا أن يحتلوا كل مقدونيا ، وأنزلوا بتراقيا من الخراب ما أمتد أثره إلى أسوار القسطنطينية ، واشتركوا مع الآفار فى مهاجمة سالونيك مرات عديدة ، وعلى الرغم من شدة مقاومة المدينة وصمودها لحصار الصقالبة والآفار ، فإن ما يحيط بها من الأراضى وقع فى أيديهم ، وتدفقت موجة من الآفار والصقالبة فى تساليا ، وانسابت إلى وسط بلاد اليونان والبيلوبونيز . ومن البيلوبونيز ارتحل البحارة من الصقالبة إلى الجزائر اليونانية ، فنزلوا بجزيرة كريت . ولم تكن إغارتهم على دالماشيا بأقل خطورة ، إذ دمروا عاصمتها الإدارية سالونا Salona فى سنة ٦١٤ ، وهذا الحادث يدل على الانهيار الذى أصاب سلطان بيزنطة ونفوذها فى الأقاليم الغربية من البلقان . وسقط فى أيديهم أيضا ، إلى جانب سالونا وغيرها من مدن دالماشيا ، معظم المدن الداخلية مثل بلغراد ، ونيش ، وسرديكا . وما بقى فى يد البيزنطين من المدن ، شمل سالونيك وبعض المدن الواقعة على ساحل بحر الأدرياتى . وترتب على هجرات الصقالبة ، تغييرات عنصرية هامة فى إقليم البلقان . وامتد أثر الصقالبة إلى الأطراف الجنوبية من شبه جزيرة البلقان . غير أنه على الرغم من خضوع البيلوبونيز لسيطرة الصقالبة ما يزيد على مائتى سنة ، لم تصطبغ الأقاليم اليونانية بالصبغة الصقلبية(١) . إذ حرصت السلطات البيزنطية فى بلاد اليونان والأقاليم الساحلية على أن تحافظ على الطابع اليونانى بهذه الجهات . ذلك أن السكان الأصليين فى كل مكان ، انسحبوا تحت ضغط الصقالبة نحو المناطق المتاخمة

(١) Bon. A. Le Plopenèse byzantin jusqu'en 1204. Paris. 1951.
Lemerle. p : Invasions et emigrations dans les Balkans depuis le fin de l'époque romaine jusqu'eau VIIIa siecle Rev. Hist. 211 (1954) p. 303 ff.

للبحر ، وإلى الجزر المواجهة له ، وأدى هذا فيما بعد إلى ازدياد العنصر اليونانى وتفوقه على السواحل الجنوبية والشرقية ، على حين أن العنصر الرومانى عمد إلى الاستقرار فى السواحل الغربية . ومع ذلك كله فإن هذه الجهات غمرها الصقالبة ، وأصبح الجانب الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، لاسيما داخلها ، إقليما صقلبيا خالصا ، وصارت المصادر البيزنطية تشير إليه على أنه إقليم الصقالبة Sclavinia[(١)] .

أما الفرس فإنهم أخذوا يتوغلون فى الشرق الأدنى منذ سنة ٦١١ ، فاستولوا على أنطاكية التى تعتبر من أكبر المدن فى الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق ، وشقوا طريقهم شمالا إلى قليقية ، فاستولوا على حصن طرسوس ، فطردوا البيزنطيين من ارمينيا . وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت روحهم المعنوية ، حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاث أسابيع فجعلوا المدينة نهبا للحريق والمذابح ثلاثة أيام ، ودمر الحريق كنيسة القيامة (القبر المقدس) التى شيدها قنسطنطين الكبير . وكان لهذا العمل رد فعل خطير فى بيزنطة ، لاسيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبون) الذى يعتبر أثمن المقدسات الدينية عند المسيحيين ، استولى عليه الفرس ونقلوه إلى عاصمتهم اكتسيفون (المدائن) Ctesiphon ، واشترك اليهود مع الفرس فيما جرى من المذابح والنهب والسلب ، ومن بين الأسرى الذين حملوا إلى فارس زكريا بطريرك بيت المقدس[(٢)] .

وما ترتب على فتح الفرس لفلسطين من التخريب ، واستباحة ونهب بيت المقدس ، يعتبر نقطة تحول فى تاريخ هذا الإقليم ، إذ قضت هذه الغارة على معالم المدنية اليونانية الرومانية فى فلسطين ، وأفسدت الزراعة ، وخربت المدن ، ودمرت عدداً كبيراً من الأديرة والمناسك ، وشلت الحركة التجارية ؛ يضاف

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 85.
Vasiliev : op. cit. pp. 196. Baynes : The Date of the Avar Surprise. Byzantinische Zcitschrift XXI (1912) pp. 110—128.

(٢) Ostrogorowski : p. 85. Vasiliev p. 195.

إلى ذلك زوال ماكان لبيزنطة من الهيبة فى نفوس العرب ، فتهيأت الفرصة لقيام الوحدة بينهم ، ثم مهاجمة الممتلكات البيزنطية فيما بعد[(١)] .

ويشير بعض المؤرخين إلى أن ما ساد الشام وفلسطين من الأحوال الدينية يسّر على الفرس فتح البلاد . فالمعروف أن معظم السكان ، لاسيما بالشام لم يدينوا بالمذهب الأرثوذكسى الذى يجد التأييد من قبل الحكومة المركزية . وتعرض النساطرة ثم المونوفيزتيون فى الشام وفلسطين للاضطهاد من قبل الحكومة البيزنطية . فمن الطبيعى أن يؤثروا الخضوع للفرس الذين يعبدون النيران ، والذين اشتهروا بالتسامح الدينى فى بلادهم مع النساطرة[(٢)] .

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين ، بل امتدت سنة ٦١٢ إلى آسيا الصغرى حتى بلغت البوسفور ، فعسكر الفرس فى كريسوبوليس Chrysopolis (سكودرى الحالية) تجاه القسطنطينية ، وبذلك تعرضت العاصمة لزحف العدو من جهتين : إذ أغار عليها الفرس من الشرق ، وزحف عليها من الشمال الصقالبة والآفار . وكاد الإمبراطور هرقل يقع فريسة فى يد الآفار بسبب خيانة حدثت أثناء اجتماعه بخاقان الآفار فى هرقلة (ضاحية القسطنطينية) فى يونية سنة ٦١٧[(٣)] . وشرع الفرس فى غزو مصر ، فسقطت فى أيديهم الإسكندرية سنة ٦١٩ ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت فى يد الفرس . وترتب على ذلك انقطاع القمح عن العاصمة البيزنطية فأسهم ذلك فى سوء الأحوال الإقتصادية بالعاصمة[(٤)] .

أصبح الفرس يسيطرون على معظم أرجاء الشرق الأدنى ، فكأنما جرى إحياء إمبراطورية الآخامانشيين Acha emenids ، مثلما تراءى إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية على يد جستنيان . غير أن ما أصاب الفرس من الهزيمة فاق فى السرعة والشدة ما حدث من انهيار بيزنطة[(٥)] .

(١) Vasiliev. p. 195.

(٢) ibid. p. 196.

(٣) Ostrogorowski p. 86. Baynes : The Date of the Avar Surprise p. 116. (Byzantinishe Zeitschieft XXI (1912) pp. 100-128.

(٤) Ostrogorowski p. 86. Vasiliev. p. 196.

(٥) Ostrogorowski : p. 86.

نظام الثغور :

وفى أثناء السنوات التى تدفق فيها الآفار والصقالبة فى البلقان ، وتوغل فيها الفرس فى الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية ، انصرف الإمبراطور هرقل إلى القيام بإصلاحات بالغة الأهمية ، وهبت الإمبراطورية قوة جديدة . جعل هرقل أساس عمله إعادة تنظيم أقاليم الدولة ، بما أدخله من نظام الأجناد[1] . وترتب على ذلك التخلص من أسس النظام الإدارى الذى وضعه دقلديانوس وقنسطنطين ، والذى لم يعد ملائماً لسد حاجات العصر . فما اتخذه الإمبراطور موريس من إجراءات قضت بإنشاء أرخونيتين فى راڤنا وشمال إفريقية لدرء أخطار اللومبارديين والبربر ، يعتبر سابقة لما اتخذه هرقل من إجراء لحماية الإمبراطورية من الأخطار الخارجية[2] ، فالأقاليم التى لم يمسها العدو بأى سوء أو ضرر جرى تقسيمها إلى أقاليم عسكرية كبيرة وهى المعروفة بالأجناد (Themes) ، يتولى كل منها قائد عسكرى (استراتيجوس) يقابل ما كان معروفاً فى النظام القديم بالأرخون Exarch . على أن التقسيم ليس معناه استبعاد ما كان قائماً من تنظيمات وأقسام إقليمية . إذ ظلت هذه الأقسام قائمة فى نطاق الأجناد . غير أن رئيس الإدارة المدنية فى الإقليم العسكرى (الثغر) وهو المعروف باسم Proconsul كان يلى الاستراتيجوس فى المكانة . ومن الواضح أن الاستراتيجوس هو القائد الأعلى ، لا سيا أن كل ثغر من الثغور (الأجناد) يضم عدداً غير قليل من الأقاليم المعروفة من قبل ، وبذلك اتخذت التنظيمات الإدارية الجديدة طابعاً عسكرياً خالصاً[3] .

---

(١) العرينى . اجناد الروم ص ٦ .

Brooks, E. W : Arabic Lists of the Byzantine Themes. Journal of Hellenic Studies XXI (1910) pp. 67-77.

Diehl : Régime des thèmes (Etudes Byzantines. Paris. 1905).

(٢) انظر ما سبق ص ٩٨ .

(٣) Ostrogorowski p. 86. Vasiliev. p. 227.

وجوهر هـذا النظام يتمثل فى استقرار الجند بأقاليم آسيا الصغرى . ولذا جرى إطلاق لفظة أجناد (Themes) على الأقاليم الحربية التى نشأت حديثاً ، وترتب على ذلك ، أن اللفظ الذى كان يطلق على لواء من الجند Theme صار يطلق على الأرض التى تحتلها القوات الحربية . وتقرر منح الجند مساحات من الأرض بشرط أن تكون الخدمة الحربية — مقابل ذلك — وراثية — والواقع أن التنظيم الجديد لم يكن فى جوهره سوى إدماج النظام الحربى القديم المعروف باسم Limitanei (جيش الأطراف) فى نظام الأرخونية ، إذ استقر الجند بالأراضى ، مثلما جرى من قبل فى جيش الأطراف ، وتغلب العامل العسكرى فى الإدارة مثلما كان شائعاً فى الأرخونيتين[1] ، وإذ صارت الإمبراطورية فى حاجة ماسة إلى الدفاع عن نفسها ، أفادت من هذه المبادئ التى تكفل تطبيقها بالنجاح فى أقاليم الحدود والأقاليم الغربية التى انفصلت عن قلب الإمبراطورية البيزنطية . وترتب على تنظيم هرقل ؛ أن صارت أملاك الإمبراطورية فى آسيا الصغرى والبلاد المجاورة ، تؤلف ثغور الأرمنياك والناطليق والإبسيق والكاراباسينى (الثغر البحرى)[2] أما الأقاليم الواقعة إلى الشرق من هذه

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 87.

(٢) ثغر الأرمنياك Armeniakoi يقع إلى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ويتاخم أرمينيا — لفظ Anatolikoi ، مشتق من اللفظة اليونانية Anatoli ومعناها الشرق . أما ثغر الأبسيق Opsikion وهو الذى يتألف منه الحرس الإمبراطورى ، فموقعه قرب بحر مرمرة ، وثغر الكاراباسينى thema Caravisîonorum وهو الذى اشتهر فيما بعد باسم Cibyrrhaeot أو Cibyraiot يقع على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ويدخل فيه الجزر المجاورة (انظر Vasiliev. op. cit. p. 228) .

ويشير فاسيلييف إلى أنه ثمت وجه شبه قوى بين ما أنشأه هرقل من نظام الثغور ، وبين ما جرى فى الامبراطورية الفارسية زمن قباذ وكسرى انوشروان فى القرن السادس الميلادى ، من تقسيم البلاد إلى أربعة أقسام كبيرة ، تخضع لسلطان أربعة من القادة العسكريين ، وأن التشابه بين النظامين بلغ من القوة والاكتمال ، ما يرجح أن الإمبراطور البيزنطى إنما استعان بالنظام الفارسى فيما أقامه من الثغور . والواقع أن ماورد فى المتن من النظم السابقة على هذا النظام فى الدولة البيزنطية إنما يدعو إلى أن النظام الذى اتخذه هرقل ليس إلا مظهراً من مظاهر التطور لما كان معروفا من قبل من النظم . وأن هذا لم يستمر على حاله إنما أصابه بعد هرقل من التعديل والتطوير ما تطلبته الظروف والأحوال .

الجهات ، فكانت فى أيدى الفرس ، ثم لم تلبث أن وقعت فى أيدى العرب ، فبات مستحيلا إدخال نظام الثغور فى هذه الجهات. وحال دون تطبيقها فى شبه جزيرة البلقان صعوبات تختلف عن الصعوبات السابقة ، وتبين مدى ما أصاب الإمبراطورية البيزنطية من كوارث بهذا الإقليم . على أن الإدارة البيزنطية (بما فيها نظام الأجناد) لم يؤخذ بها من جديد فى بعض جهات البلقان ، لاسيما المناطق الساحلية ، إلا بالتدريج وبعد مضى فترة من الزمن ، وفى القرن التالى ، انقسمت المناطق الأصلية الضخمة إلى أجزاء ، وترتب على هذا الإنقسام أن نشأت أجناد (ثغور جديدة)(١) .

ويعتبر نظام الإقطاع الحربى الأساس الذى قام عليه جيش وطنى قوى ، وهو الذى حرر الإمبراطورية مما تفتقر إليه من الجند الأجنبية المأجورة ، الذين يكلفون الدولة أموالا طائلة . فلم يكن العرض متكافئاً مع الطلب . فإلى جانب ماكان معروفاً بالجيش البيزنطى من فرق عسكرية مستمدة من عناصر آسيا الصغرى ، ومن جهات القوقاز ، المشهورين بالميل إلى القتال ، استجد عدد كبير من الفلاحين البيزنطيين الذين غدوا جنوداً فلاحين ، أحرزوا من الإقطاعات الصغيرة ما يقابل الالتزام بالخدمة العسكرية ، ونقلت الحكومة عدداً كبيراً من الصقالبة إلى آسيا الصغرى ، وأنزلتهم بالثغور ، على أنهم جند ثغريون Stratiotai . وبهذه الطريقة استطاعت الحكومة أن تلتمس وسيلة لجمع الجند. وعلى الرغم من المشاكل الكبيرة التى تعرضت لها الحكومة ، وبفضل الدماء الجديدة بالجيش ، حدث تطور كبير فى النظام الحربى الإدارى .

فالجند الفلاحون النازلون بالثغور أصبحوا عنصراً ثابتا فى قوات الجيش البيزنطى ، وأمدتهم إقطاعاتهم بالوسائل الاقتصادية التى تكفل لهم سبل العيش ، وتعدهم حربيا ، فضلا عن أنهم كانوا يتقاضون راتباً منتظما ، برغم قلة مقداره . وتشير المصادر المتأخرة إلى أنهم ، إذا جرت دعوتهم للقتال ، خرج كل منهم بسلاحه وفرسه(٢) . وهذا النظام الجديد خلص الخزانة من عبء ثقيل ، كما أنه ساعد على تدعيم مكانة الملاك الأحرار .

(١) Ostrogorowski : p. 88.

(٢) ابن خرداذبه – المسالك والممالك ص ٨٤ ، ٨٥ .

وصاحب إصلاح هرقل لإدارة الأقاليم ، ما أجراه من تغييرات فى الإدارة المركزية . وهذه التغييرات تماثل نظام الثغور فيما لها من أهمية كبيرة للدولة البيزنطية ، وتعتبر خروجا على ما كان مألوفا من النظم السابقة . فنظام حكومة الأقاليم Pretorien Prefectures ، الذى كان يعتبر من أهم مظاهر الإدارة فى أوائل العصر البيزنطى ، لم يلبث أن فقد أهميته ، وحل مكانه نظام الأجناد . أما الأقاليم التى لم يدخل بها نظام الأجناد ، فإن الغارات قضت على ما كان بها من القانون والأمن . ولما استردت الدولة البيزنطية هذه الأقاليم ، جرى تنظيمها على أنها ثغور وأجناد ، ولم يعد للنظام القديم لحكومة الأقاليم من وجود فعلى ، وما اشتهرت به حكومة الأقاليم من نظام مالى متين ، قد تفكك وحل مكانه إدارات مالية مستقلة ، يتولى كل منها موظف معروف باسم اللغتيت Logothethe . والخلاصة أن ذلك يعتبر بداية عملية رجعية فى نظام الإدارة المركزية . والواقع أن نظام الأجناد فى الإدارة الإقليمية ، ونظام اللغتيت فى الإدارة المركزية يعتبران من أهم خصائص الحكومة البيزنطية .

أما نتائج هذه الإصلاحات الشاملة فكانت واضحة ملموسة . إذ أن تغلب الصفة العسكرية على إدارة الإمبراطورية ، وإعادة تنظيم القوات المسلحة ، يفسران ما جرى من تغيير فى مصير الحرب ضد فارس فى أوائل القرن السابع . فما تكبده الجيش البيزنطى من خسائر ، لم يلبث أن عوضها بما أحرزه فى ظل هذا التغيير من انتصارات باهرة . ولم تلبث الإمبراطورية المتداعية أن نهضت من جديد ، أما العدو الذى مضى قدما فى انتصاراته وزحفه ، فلم يلبث أن لقى الهزيمة الساحقة(١) .

على أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الإمبراطورية من الفوز والنجاح . إذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة التى خوت خزائنها من المال . فما فى كنائس العاصمة والأقاليم من التحف المصنوعة

(١) Ostrogorowski, p. 90.

من الذهب والفضة جرى صهرها وسكها نقودا[1] . قرر الإمبراطور هرقل أن يبدأ بقتال الفرس الذين احتلو شطرا كبيرا من أراضيه وأحدقوا بالعاصمة (القسطنطينية) وطغى على الحرب فى مستهلها جو من الحماس الدينى لم يكن معروفا فى العصور السابقة . ويعتبر بداية لما اختصت به الحروب فى العصور الوسطى من مظاهر ، وتعتبر حربا صليبية سابقة على الحروب الصليبية المعروفة . تولى الإمبراطور هرقل قيادة الجيش ، وجعل البطريرك سرجيوس والبطريق بونس Bonus وصيين على ولده الصغير ، أثناء تغيبه عن العاصمة . وفى هذه الناحية ، أى بتوليه قيادة الجيش ، جرى على نهج الإمبراطور موريس ، الذى قاد الحملة الموجهة لقتال الآفار . ولم يكن ذلك الأمر مألوفا من قبل . ومن أوجه التشابه بينه وبين موريس أيضاً ، أن كل منهما لقى مقاومة عنيفة من مستشاريه ، حين قرر قيادة الجند ، إذ أنه لم يحدث منذ زمن تيودوسيوس الأول ، أن باشر — إمبراطور قبل موريس — القتال بنفسه[2] .

وأبرم هرقل ، قبل مضيه إلى القتال ضد فارس ، معاهدة مع الآفار ، وبمقتضاها قبل أن يدفع إليهم مقـــدارا كبيرا من المال ، وأن يبعث إليهم برهائن ، كيما يتمكن من نقل قواته من أوربا إلى آسيا دون أن يعوقها[3] عائق ، ثم غادر العاصمة يوم الإثنين ٣ إبريل سنة ٦٢٢ بعد أن أدى القداس ، وعبر البوسفور إلى آسيا الصغرى حيث لجأ إلى جهات الثغور ، فاجتمع له عدد كبير من العساكر ، وأمضى شهور الصيف فى تدريب طائفة جديدة من الجند ، وعكف على دراسة الخطط الحربية ، فابتكر أساليب جديدة منها ، فازدادت أهمية استخدام الفرسان فى القتال ، وأبدى هرقل اهتماما كبيرا بالرماة من الفرسان . على أن الحملة لم تبدأ فعلا إلا فى الخريف ، حين شق هرقل طريقه إلى أرمينيا ، بعد مناورة بارعة قام بها جيشه لإرغام الفرس على التخلى عن

---

(١) Vasiliev : p. 197.

(٢) Ostrogorowski p. 90.

(٣) Vasiliev. p. 197.

مراكزهم فى الدروب بجبال آسيا الصغرى ، واقتفاء أثر الجيش البيزنطى ، فتقابل الجيشان البيزنطى والفارسى على أرض أرمينية ، ونشبت بينهما معركة ، أحرز فيها الجيش البيزنطى نصرا حاسما على الجيش الفارسى بقيادة شهرا باراز ، وبذلك تحقق أول هدف من أهداف هرقل ، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو[1] .

على أن خاقان الآفار نقض المعاهدة التى أبرمها مع الإمبراطور ، وهدد بالهجوم على القسطنطينية ، فتحتم على هرقل أن يعود إلى العاصمة ، وأن يزيد مقدار الجزية المقررة للآفار ، وأن يرسل جماعة من أقاربه رهائن تكون عند خاقانهم ، وذلك كيما يستطيع المضى فى الحرب ضد فارس ، وذلك سنة ٦٢٣ . فعلى الرغم من الهزيمة التى حلت بالفرس فى العام الماضى ، رفض كسرى الثانى أن يقر الهدنة التى عقدها معه هرقل قبيل رحيله إلى القسطنطينية ، وأرسل للامبراطور هرقل كتابا طفح بالشتائم والإهانات التى وجهها للمسيحية[2] . سار هرقل مجتازاً قبادوقيا حتى بلغ أرمينيا ، فاستولى على دوين عنوة ثم خربها ، ولقيت مدنا أخرى نفس المصير ، ثم توجه الإمبراطور نحو الجنوب ، فزحف على جانزاك ganzak ، التى كانت عاصمة لأردشير أول ملوك الساسانيين ، وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسية فى فارس ، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة ، التى لم تلبث أن سقطت فى يد البيزنطيين .

وأشعل البيزنطيون الحرائق فى معبد زرادشت انتقاماً لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من النهب والتخريب ، ووقع فى يدى هرقل عدد لا حصر له من الأسرى عاد بهم ليمضى فصل الشتاء وراء نهر الراس Ares

---

(١) Ostrogorowski p. 91.

(٢) أشار أوستروجروسكى إلى ترجمة فرنسية لهذا الخطاب ، نصها :

"Chosrov, cheri des dieux, maitre et roi de toute le terre, fils du grand Armazd. à notre serviteur, imbécile et infame, Hreaclius".

انظر Ostrogorowski p. 91. note 5.

حيث اتصل بالقبائل المسيحية بالقوقاز ، وأمد جيشه بالعساكر من اللازيين والأبخاس والايبريين . غير أن الموقف لم يلبث أن تحرج ، وأمضى هرقل السنة التالية سنة ٦٢٤ فى أراضى أرمينية حيث أخذ يناضل الفرس نضالا عنيفاً ، ولم يستطع أن يشق طريقه إلى فارس . وفى سنة ٦٢٥ حاول هرقل أن ينفذ إلى الأراضى الفارسية ، بأن يتخذ طريقاً دائرياً عبر قليقية ، غير أنه لم يتيسر له ذلك ، برغم ما أحرزه من بعض الانتصارات ، فانسحب إلى إقليم بونتوس Pontus بعد أن اجتاز سيواس وذلك لاقتراب حلول فصل الشتاء[١] .

أضحى فى استطاعة الفرس أن يقوموا من جديد بمهاجمة البيزنطيين ، ففى سنة ٦٢٦ تعرضت القسطنطينية لهجوم مزدوج من قبل الفرس والآفار ، وهذا ما كان يخشاه الإمبراطور هرقل ، ويحاول أن يتجنبه بما لجأ إليه من مسالمة الآفار بقبول عقد معاهدات مهينة له . إذ نقض خاقان الآفار الاتفاق المعقود بينه وبين هرقل ، وعقد معاهدة مع الفرس ، فانطلق شهرابارازعلى رأس جيش ضخم من الفرس مجتازاً آسيا الصغرى ، حتى احتل خلقيدونية فأقام معسكرا على شاطئ البوسفور . وما كاد يمضى على ذلك زمن قصير ، حتى نهض خاقان الآفار على رأس جحافل من الآفار والصقالبة والبلغار والجبيد ، فزحف على القسطنطينية وحاصرها براً وبحراً . أما البطريرك سرجيوس فإنه أثار الحماس الدينى فى نفوس أهل القسطنطينية بما ألقاه من عظات ، وبالتهجد ليلا ، وبتنظيم المواكب الدينية ، بينما كانت حامية المدينة ترد الأعداء على أعقابهم وتكبدهم خسائر فادحة ، وترغمهم على الانسحاب فى غير نظام[٢] ، وما كاد الفرس يسمعون بخبر هذه الهزيمة ، حتى انسحب شهراباراز بجنده من خلقيدونية ، وارتد إلى الشام ، بينما لقى مساعده شاهين

(١) Ostrogorowski p. 92.

(٢) Ostrogorowski p. 92. Vasiliev p. 197.

هزيمة ساحقة على يد تيودور أخى هرقل . ويعتبر انتصار البيزنطيين على الآفار أمام القسطنطينية من أهم العوامل التى أضعفت مملكة الآفار[١] .

وبهذا الانتصار انقضت الساعة الحرجة ، وحان الوقت لكى يقوم البيزنطيون بهجومهم المضاد . وفى الوقت الذى حاقت فيه الأخطار بالعاصمة ، كان الإمبراطور هرقل يرابط بجيشه فى لازيقا ، بعيداً عن مسرح القتال ، فأجرى مفاوضات للتحالف مع الخزر ، مثلما فعل من قبل مع أهل القوقاز . ومنذ ذلك الحين أضحى التفاهم بين البيزنطيين والخزر من أهم خصائص الدبلوماسية البيزنطية فى الشرق ، ذلك أن الخزر باعتبارهم حلفاء الإمبراطور البيزنطى ، حاربوا الفرس على أرض القوقاز وأرمينيا . وفى خريف سنة ٦٢٧ شرع الإمبراطور هرقل فى القيام بزحفه الكبير نحو الجنوب متجها إلى قلب بلاد عدوه . وكان لزاما عليه أن يرتكن على موارده الخاصة ، لأن الخزر لم يكن فى مقدورهم أن يصبروا على مشقة الحملة وقسوتها ، فعادوا أدراجهم ، ورجعوا إلى بلادهم . ومع ذلك كان هرقل على رأس جنده فى أوائل ديسمبر سنة ٦٢٧ أمام نينوى (قرب الموصل الحالية على نهر دجلة) ، وفى هذا الموضع نشبت المعركة الحاسمة ، التى قررت مصير النزاع بين الفرس والبيزنطيين . إذ أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً ، وحلت بالجيش الفارسى هزيمة ساحقة ، وخسارة فادحة . ثم واصل هرقل زحفه المظفر ، وفى أول سنة ٦٢٨ ، استولى على داستاجرد ، مقر ملك فارس فأسرع الملك بالخروج منها . على أنه وقع فارس فى ربيع سنة ٦٢٨ من الحوادث ، ما جعل المضى فى الحرب والقتال ، أمراً لا داعى له . إذ جرى عزل كسرى وقتله ، فتولى الحكم من بعده ابنه قباد شيرويه ، فلم يلبث أن عقد الصلح مع الإمبراطور البيزنطى . وبمقتضى هذا الصلح ، استردت بيزنطة كل ما كان لها من ممتلكات فضلا عن أرمينيا ، وما كان للبيزنطيين من أملاك بالجزيرة ، وسوريا وفلسطين ومصر . وأعلن شيرويه أثناء مرضه الذى مات فيه ، بأن يكون الإمبراطور البيزنطى (هرقل) وصيا على ابنه . فكسرى الثانى أعلن ذات مرة أن

(١) Vasiliev p. 197.

الإمبراطور البيزنطى ليس إلا عبدا له ، غير أن الزمن تغير ، وانعكس الوضع ، وأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه فى الحكم عبد للإمبراطور البيزنطى(١) .

وعاد هرقل إلى عاصمته ؛ بعد أن غاب عنها ست سنوات ، فاستقبله على شواطئ آسيا الصغرى ، ابنه قنسطنطين والبطريرك سرجيوس ، ورجال الدين ، ورجال السناتو ، وجموع الشعب يحملون أغصان الزيتون والشموع الموقدة ، يرتلون المزامير ، ويهتفون باسمه فرحا وسرورا . ولما تحررت الأقاليم البيزنطية من الفرس ، ارتحل هرقل ، وبصحبته زوجته مارتينا ، سنة ٦٣٠ . قاصدا بيت المقدس حيث أعاد فى ٢١ مارس سنة ٦٣٠ . وفى وسط مظاهر الفرح والسرور ، إقامة الصليب المقدس فى موضعه ، كما أعاد إلى مواضعها كل ما جرى سلبه من الكنيسة من الأشياء ، ووزع المنح والعطايا على كل الكنائس وأهل بيت المقدس ، كما تبرع بالأموال اللازمة لشراء البخور ، واعتبر المؤرخون أن هذه الحرب تعتبر أول حرب مقدسة قام بها العالم المسيحى(٢) . وأشار القرآن الكريم إلى هذا الحوادث فى سورة الروم(٣) .

تعتبر الحرب الفارسية مرحلة هامة من مراحل التاريخ البيزنطى . فالعدوان اللذان كانت بيزنطة ترتعد مهما لم يلبثا أن خرا راكعين . إذ أن وقعة نينوى حطمت قوة الفرس ، ولم يعد لفارس ما كان لها من أهمية ، وفقدت أهميتها السياسية بعد أن تعرضت لغزو المسلمين . أما الآفار فإن كبرياءهم هوى إلى الحضيض بفضل ما أحرزه البيزنطيون عليهم من الانتصار فى معركة القسطنطينية . وبلغت بيزنطة بما أحرزته من النصر ، ذروة القوة والمجد ، فذاع اسمها فيما وراء الحدود ، وأرسل ملك الهند إلى هرقل يهنئه بالنصر ، وبعث له بهدية حافلة من الأحجار الكريمة . وأنفذ داجوبرت ملك الفرنجة السفراء لعقد صلح دائم مع

---

(١) Ostrogorowski p. 93.

(٢) Ostrogorowski p. 93.
Vasiliev p 198.

(٣) « الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

الأمبراطورية البيزنطية . وأرسلت بوران ملكة الفرس مبعوثا خاصا إلى هرقل ليبرم معاهدة الصلح(١) .

وترتب على هزيمة الآفار ، أن خرج على طاعتهم الصقالبة الذين اشتهروا بكثرة عددهم : فأقاموا لأنفسهم وقتذاك أول امبراطورية صقلبية تحت زعامة سامو Samo ولم تمض سنوات قليلة حتى خرج على طاعة الآفار أيضاً ، قبائل البلغار النازلة شمال البحر الأسود وبحر قزوين . والتمس زعيمهم كورات Kurrat المساعدة من البيزنطيين للمضى فى النضال ضد الآفار ، ولم يلبث كورات أن تحالف مع الإمبراطور هرقل ، واتخذ لقب بطريق ، وجرى تعميده بالقسطنطينية(٢) .

ومن التغيرات التى حدثت وقتذاك ، هجرات الصرب والكروات ، التى أسهب فى وصفهم قنسطنطين بورفيروجنيتس(٣) ، وتم التفاهم بينهم وبين البيزنطيين ، فتحرروا بذلك من سلطان الآفار الذى أصابه الانهيار والتداعى ، فتركوا منازلهم الأولى الواقعة خلف جبال الكربات ، وتحركوا بموافقة الإمبراطور هرقل إلى شبه جزيرة البلقان ، ثم استقر الكروات ، بعد أن أنزلوا بالآفار هزيمة ساحقة ، فى الأقاليم التى تقع شرق شبه جزيرة البلقان ، واعترفوا بالسيادة البيزنطية ، أما الجهات المجاورة والتى تقع إلى الجنوب الغربى من البلقان ، فاحتلها الصربيون الذين اعترفوا أيضاً بالسيادة البيزنطية . وبذلك ازدادت شوكة العنصر البيزنطى فى شبه جزيرة البلقان . على أنه ليس ثمة أهمية كبيرة لما تدعيه بيزنطة من السيادة على القبائل الصقلبية التى وطدت مراكزها فى البلقان . إذ ليس ثمت ما يدعو الإمبراطورية البيزنطية لاستعادة سلطانها فى هذه الجهات .

---

(١) Vasiliev p 199. Chronique de Michel Le Syrien. Trans. J. B. Chabot II. 420.

(٢) Ostrogorowski p. 93.

(٣) Constantine Porphyrogenitus : De Administrando Imperic ed. G. Moravesike & Jenkins Budapest. 1949. pp. 122-164.

غير أنه من المحقق أن بيزنطة نعمت بقدر كبير من الراحة والهدوء نتيجة انقطاع غارات الآفار[١] .

على أنه لم تمض إلا سنوات قليلة حتى استولى المسلمون على كل فتوح هرقل فى الشرق ، فضلا عن استيلائهم على بلاد الشام ومصر . ففى سنة ٦٣٤ استولوا على حصن بصرى الواقع خلف نهر الأردن ، ثم سقطت دمشق فى أيديهم سنة ٦٣٥ ، وحدثت وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ ، وترتب عليها سقوط الشام . أما بيت المقدس فإنها استسلمت سنة ٦٣٨ بعد حصار استمر سنتين ، وتم الاتفاق بين الخليفة عمر بن الخطاب والبطريرك صفرونيوس على تسليم المدينة إلى عمر . وتضمن الاتفاق ضمانات دينية واجتماعية لسكان المدينة ، ونقل المسيحيون الصليب المقدس إلى القسطنطينية . وما تم من استيلاء المسلمين على فارس والجزيرة فى نفس الوقت الذى استولوا فيه على الأملاك البيزنطية أنهى أول مرحلة من مراحل الفتوح الإسلامية فى آسيا[٢] .

وما تبقى من أعمال هرقل يتمثل فى تنظيماته الإدارية والحربية . فما وضعه هرقل من الأسس والقواعد ، ارتكزت عليها قوة الدولة البيزنطية فى القرون التالية ، ولم تأخذ الدولة فى التفكك إلا حين انهار النظام الذى وضعه هرقل ، وهو المعروف بنظام الأجناد ، الذى كان يعتبر العمود الفقرى للدولة البيزنطية فى العصور الوسطى .

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحول فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية من الناحيتين الحضارية والسياسية ، إذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ أما يصح اعتباره التاريخ البيزنطى . ذلك أن ازدياد ظهور العنصر اليونانى وقوة المؤثر الكنسى اتحدا سوياً فوهبا الإمبراطورية مظهراً جديداً . فباستيلاء المسلمين على الأقاليم الشرقية والجنوبية من أملاك الدولة البيزنطية ، صار العنصر اليونانى هو السائد فيما تبقى من أملاك الدولة بآسيا الصغرى وجزر بحر الأرخبيل

(١) Ostrogorowski p. 94.

(٢) Vasiliev p. 211.

والقسطنطينية وما يجاورها من الجهات[١] . وإذا كانت الدولة البيزنطية تمسكت فى أول عهدها باللغة اللاتينية على أنها لغة رسمية ، فإن اللاتينية لم تلبث أن تخلت عن مكانتها لليونانية ، دون أن يترتب على ذلك تغيير حاسم . فقد كان من خصائص بداية العصر البيزنطى وجود لغة رسمية (اللاتينية) يجرى استخدامها فى الإدارة والدواوين ، بينما استخدم الناس فيما بينهم اللغة الدارجة (اليونانية) . ففى كل دوائر القصر والجيش ، كانت اللاتينية هى اللغة الرسمية والتى لم يفهمها الغالبية الساحقة من سكان الأقاليم الشرقية[٢] . فأنهى هرقل هذه الأحوال فصارت اليونانية ، وهى وسيلة التفاهم عند الشعب والكنيسة هى اللغة الرسمية فى الإمبراطورية البيزنطية ، وغدا الإلمام باللغة اللاتينية فى الجيل التالى أمرا نادر الحدوث ، حتى فى دوائر المتعلمين ، وذلك بسبب نمو الصفة اليونانية وتطورها السريع .

وبتأثير هذه الصفة اليونانية ، حدث تغيير عظيم الأهمية فى اللقب الإمبراطورى بالدولة البيزنطية ، إذ تخلى هرقل عن كل الألقاب اللاتينية المعقدة ، واتخذ لنفسه ، وفقا لما جرى عليه عرف اليونانيين القدماء . لقب باسيليوس Basileus . فاللقب الملكى المعروف عند ملوك اليونان قديما ، والذى لم يتخذه الإمبراطور البيزنطى حتى ذلك الحين إلا بصفة غير رسمية ، لم يلبث أن حل مكان الألقاب الرومانية المعروفة . الإمبراطور ، قيصر ، أغسطس . فأضحى الإمبراطور البيزنطى يتخذ رسميا لقب باسيليوس وتم الاعتراف به على أنه اللقب الإمبراطورى[٣] . وهذا اللقب هو الذى منحه هرقل لابنه وقسيمه فى الملك ،

(١) Vasiliev : p. 218.

(٢) Ostrogorowski. p. 94.

(٣) ظهر لقب باسيليوس لأول مرة فى مرسوم سنة ٦٢٩ . واستخدم هرقل فى السنوات الأولى من حكمه اللقب الرومانى القديم ، الذى درج على استخدامه أسلافه . فحل بذلك لقب باسيليوس مكان الألقاب . إمبراطور ، قيصر ، أغسطس .

انظر : Breiher : L. Origine des titres imperiaux à Byzauce. Byzantinische Zeitsehrift 15 (1906) p. 161.

قسطنطين ، ثم لإبنه الآخر هرقلوناس Heraclonas . ومنذ هذا العصر ، وحتى سقوط الإمبراطورية ، صار الأباطرة وقسماؤهم فى الحكم يتخذون هذا اللقب ، ولم يعد للقب قيصر أهمية مطلقا[1]. وما قام فى بيزنطة من نظام الاشتراك فى الحكم ، له أهمية خاصة فى نظام الوراثة ، إذ أن نظام وراثة الحكم لم يكن يجرى وفق قانون معين ، ولذا لجأ الأباطرة البيزنطيين إلى أن يتخذوا من الإجراء ، ما يكفل لهم تعيين من يرغبون فى أن يتولى الحكم من بعدهم ، بأن يجعلوا هذا المرشح ، قسيما لهم فى الحكم أثناء حياتهم . ولهذا القسيم من شارات الملك ماللامبراطور ، فله أن يتخذ التاج واللقب ، وأن ينقش اسمه على العملة ، وأن يرد اسمه فى المرسومات ، فإذا مات الإمبراطور ، تولى العرش . وبهذه الوسيلة جرى حفظ وراثة الحكم فى الأسرة الإمبراطورية ، وتأكد استمرار الأسرة فى الحكم . على أن نظام الوراثة لم يرسخ إلا بعد زمن . يضاف إلى ذلك ما حدث زمن هرقل نفسه ، من التعقيد فى هذا النظام ، بما لجأ إليه هرقل من جعل كل من ابنه الثانى والأول قسيما فى الحكم ووريثا له فى العرش[2] .

السياسة الدينية :

ترتب على استرداد الأقاليم الشرقية ، أن واجهت الدولة البيزنطية مشكلة المونوفيزتية . وأدرك البطريرك سرجيوس خطورة الموقف ، فلم يأل جهداً فى أن يعيد إلى الكنيسة الهدوء والسكينة . ذلك أنه أفاد من عقيدة الإرادة الواحدة فى المسيح التى ظهرت فى الأقاليم الشرقية التابعة للإمبراطورية البيزنطية ، على أساس أن ما للمسيح من طبيعتين إلهية وبشرية ، تتسمان بإرادة واحدة ، قد يؤدى إلى التوفيق بين المذهب الخلقدونى والمونوفيزتية . وهذا المذهب هو المعروف بمذهب الإرادة الواحدة أو المونوثلستية Monotheletism[3]. وأيد

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 96.

(٢) Ostogorowoski : op. cit. p. 96.

(٣) انظر : Le Dictionnaire de theologie catholique.

البطريرك سرجيوس الدعوة للإرادة الواحدة ، وأخذ يتفاوض فى هذا الشأن مع رؤساء الكنائس الشرقية . وربما كان لأعمال البطريرك سرجيوس أغراض سياسية ، فلاشك أنه أدرك أن ما حدث من الاختلافات المذهبية بين القسطنطينية والشرق المونوفيزتى ، والتى استمرت زمناً طويلا كان لها أثر كبير فى انتصارات الفرس . وانتصر هرقل نفسه لهذه العقيدة ، ففى أثناء حملاته بالشرق ، جرت مناقشة فى أمر الاتحاد بينه وبين رؤساء الكنائس الشرقية ، لاسيما أرمينيا ، وظلت المفاوضات مستمرة ، بعد أن استرد الأقاليم التى ساد فيها المذهب المونوفيزتى ، وذلك لأن الحاجة إلى الوصول إلى اتفاق ازدادت عن ذى قبل . ودلت البوادر على احتمال نجاح التفاهم وتوكيد الاتحاد ، لا فى أرمينيا فحسب ، بل فى الشام ومصر أيضاً ، حيث ازداد الحماس لتأييد المشروع من قبل كيرس ، الذى تولى البطريركية بالإسكندرية منذ سنة ٦٣١ ، وكذا من قبل بطريرك أنطاكية . وأقر البابا هونوريوس سياسة سرجيوس وكيرس[1] . على أن المعارضة لهذه الحملة إنما جاءت من قبل الراهب صفرونيوس ، الذى أقام زمناً بالإسكندرية ؛ ثم صار بطريركاً لبيت المقدس فى سنة ٦٣٤ ، واشتهر بقوة بيانه وفصاحته ، وهيأ له منصبه من المكانة والفرصة ما يزيد فى نفوذه وسلطانه . فأرسل إلى بطريرك القسطنطينية رسالة يشير فيها إلى عدم سلامة المذهب الجديد ، واعتبره صورة ممسوخة غير مقبولة من المونوفيزتية ، وصورة فاسدة من أرثوذكسية المذهب الخلقدونى ، وأنه يتوقع ما سوف يجره من الاضطرابات الخطيرة للكنيسة . وترتب على الضغط الناجم عن هذه المعارضة ، وما صرح به البابا هونوريوس من آراء تدور حول تشككه فى مذهب الإرادة الواحدة فى المسيح ، أن عدّل سرجيوس موقفه ، فتخلى عن فكرة وجود نشاط واحد ، على حين أنه أقر فكرة الإرادة الواحدة فى المسيح . وهذه الصيغة الجديدة للإرادة الواحدة ، جرى إذاعتها فى مرسوم أعده سرجيوس ؛ وأذاعه

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 97.
Vasiliev : op. cit. p. 222.

الإمبراطور سنة ٦٣٨ ، باسم Ecthesis[1] . ولقى مذهب الإرادة الواحدة التأييد من زعماء الكنيسة والدولة .

على أن هذه العقيدة لم تلبث أن فقدت أهميتها بوفاة سرجيوس ، فأنكرها الأرثوذكس والمونوفيزتيون ، وتنكر لها خلفاء البابا هونوريوس فى روما . وبذلك فشلت المونوثلستية ، مثلما حبطت جهود الكنيسة والدولة فى إيجاد نوع من التوفيق بين المذاهب المختلفة فى الأزمنة الماضية . ولم يؤد ذلك إلا إلى اشتداد العداوة والاضطراب . وازداد الموقف تعقيداً بما جرى من استيلاء المسلمين على سوريا وفلسطين منذ سنة ٦٣٨ ، وتعرضت مصر لخطرهم ، وفشلت المونوثلستية فى تحقيق غرضها السياسى ، وهو إيجاد الوحـــدة بين شعوب الإمبراطورية المسيحية . فالاختلاف الدينى الذى هيأ للفرس الانتصار فى الأقاليم الشرقية ، لا زال قائماً ، وكان له أثر فيما ناله المسلمون من النصر والنجاح[2] .

الفتوح الإسلامية

والسنة التى استهلت فيها الإمبراطورية البيزنطية ٦٢٢ م ، انتصاراتها على الفرس ، تعتبر بدء التاريخ الهجرى عند المسلمين . وفى الوقت الذى أنزل فيه هرقل الهزيمة بالفرس ، أقام النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، قواعد وأسس الوحدة السياسية للمسلمين ، فلم تكد تمضى على وفاته سنوات قليلة ،

---

(١) المقصود بهذا اللفظ فى اليونانية « تقرير العقيدة أو الإيمان » . إذ أن الإمبراطور هرقل أصدر فى سنة ٦٣٨ قرارا بتحريم الإشارة إلى أن شخصية المسيح تنطوى على قوى ، سواء كانت قوة واحدة أو قوتين ، وذلك لأن ما تنطوى عليه شخصية المسيح من طبيعتين اتحدتا معا ، وأندمجتا فيما هو معروف بالإرادة الواحدة . وهذا القرار أعده من قبل البطريرك سرجيوس والبابا هو نوريوس ، وأقره المجمعان المنعقدان فى القسطنطينية فى سنتى ٦٣٨ ، ٦٣٩ . غير أن هذا القرار لم يلبث أن أنكره هرقل نفسه والبابوان اللذان خلفا هو نوريوس على الكرسى الرسولى بروما .

انظر : (Oxford Dictionary of the Christian Church).

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 98.

Vasiliev : op. cit. pp. 222—223.

حتى بدأت حركة الفتوح العربية الكبيرة ، ولا شك أن أسبابا عديدة أسهمت فى هذه الحركة ، منها ما اشتهر به المسلمون من الحماس الدينى لنشر العقيدة الإسلامية ، وما غلب عليهم من روح البذل والتضحية فى سبيل هذا الدين الجديد ، ومنها ما تم للعرب من وحدة سياسية ودينية ، وإفادة الخلفاء من هذه الوحدة توجيههم للغزو الخارجى ، يضاف إلى ذلك ما تعرضت له الدولتان الفارسية والبيزنطية من عوامل الانهيار السياسية والحربية والاقتصادية[1] .

ولا شك أن العامل الاقتصادى كان له أهمية فى اندفاع العرب نحو الأقاليم الخصيبة المجاورة . ويشير بعض المؤرخين إلى أن ما يربط سكان الشام بالسكان فى بلاد العرب من روابط القرابة والنسب ، وما تعرض له سكان البلاد المفتوحة من اضطهاد من قبل البيزنطيين وما نمى إليهم من تسامح المسلمين ، كل ذلك كان من العوامل التى حققت للمسلمين النصر على البيزنطيين[2] . ولم تلبث الدولة الفارسية أن هوت تحت ضربات المسلمين ، بينما فقدت بيزنطة أقاليمها الشرقية ، ولم يمض على وفاة النبى أكثر من عشر سنوات . ولا شك أن ما نشب من القتال بين الفرس والروم أضعف كلتا الدولتين ، وهيأ الطريق للمسلمين ، إذ أعقب انتصارات هرقل على الفرس انتشار الفوضى فى فارس ، ووقوع النزاع بين أفراد الأسرة المالكة على الحكم[3] .

اندفع المسلمون سنة ٦٣٤ إلى أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، فزحفوا على بلاد الشام ، فأنزلوا بالجيش البيزنطى هزيمة ساحقة فى وقعة اليرموك فى أغسطس سنة ٦٣٦ ، وبذلك انهارت المقاومة البيزنطية وتحدد مصير الشام . فأذعنت

---

(١) Becker : The Expansion of the Saracens- The East. Cambridge Medieval History II p. 246.

Vasiliev . op. cit. p. 509.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 145.

Ostrogorowski : op. cit. p. 98.

(٣) Manandean : Les Invasions arabes en Armenie. Byzantion. 18. p. 163 (1948).

أنطاكية (عاصمة سوريا) ومعظم المدن . على أن المقاومة اشتدت فى فلسطين ، إذ أن البطريرك صفرونيوس (بيت المقدس) ، ظل يقاوم المسلمين زمنا غير قصير ، غير أن المدينة المقدسة لم تلبث أن استسلمت ، تحت وطأة الحصار ، فقدم الخليفة عمر بن الخطاب لتسلمها . وفى تلك الأثناء خضعت الإمبراطورية الفارسية للعرب ، ودان لهم إقليم الجزيرة ٦٣٩ — ٦٤٠ . وتلى ذلك زحف العرب على أرمينيا واستيلاؤهم على أمنع حصونها دوين[1] (أكتوبر سنة ٦٤٠) ، وشرع المسلمون وقتذاك فى فتح البلاد . فعلى الرغم من كثرة ووفرة الجند بها ، فإن النظام العام للجيش البيزنطى كان سيئا ، إذ انقسم إلى خمسة أقسام ، تولى قيادتها خمسة دوقات ، كل منهم مساو للآخر فى المكانة والسلطان . لم يكن بين هؤلاء الأمراء أو الحكام نوع من الاتحاد فى العمل . وما حدث من الاستخفاف بالمشاكل العامة للإقليم ، وما وقع من المنازعات بين الأمراء (الدوقات) . وانعدام الاتفاق على غاية واحدة . وعدم كفايتهم الحربية ، كل ذلك أضعف مقاومتهم ضد المسلمين ، ولم يكن الجند بأحسن حالا من قادتهم ، فشهد هرقل انهيار ما قام به من أعمال ، وما استرده من الساسانيين من الأراضى بعد حروب طاحنة ، لم تلبث أن هوت فى يد المسلمين ، وما حل بجنده من الهزائم أضعف هرقل جثمانيا ونفسيا ، فلما عاد من سوريا بعد أن تبين له عدم الجدوى فى الاحتفاظ بها غلب عليه الأسى والحزن .

نهاية عهد هرقل

لم تخل حياة هرقل الخاصة من النكد والنحس ، فى اليوم الذى توج فيه هرقل تزوج من فابيا إيدوسيا Fabia - Eudocia ، التى أنجبت له إبنة وولدا ، غير أنها ماتت أثناء وضعها إبنها قنسطنطين سنة ٦١٢ ، على أنه لم تمض سنة على

(١) Vasiliev : op. cit. p. 144.

وفاتها حتى تزوج هرقل من ابنة أخته ، مارتينا . وأثار هذا الزواج حنق الشعب والكنيسة ، إذ أن هذا النوع من الزواج يخالف القانون الكنسى وقانون الدولة فاشتدت كراهية أهل القسطنطينية لمارتينا ، غير أن هرقل لم يحفل برأى الناس فى هذا الزواج ، وغمر مارتينا بكل مظاهر الحب ، فشاركته فى كل ما أصابه من سعادة وشقاء ، وصحبته فى حملاته الحربية . ومع ذلك فقد كان هذا الزواج اختبارا له . فاعتبره الناس علامة من علامات سخط الله ، فمن الأطفال التسعة الذين أنجبتهم مارتينا ، مات أربعة أثناء الولادة ، وعاش إثنان يحملان عاهات جسمية . وازدادت كراهية الناس لمارتينا ، حين حاولت جعل وراثة الحكم فى سلالتها ، لا فى ابن هرقل من ايدوسيا ، وترتب على ذلك أن ساد فى الأسرة من العداوة والكراهية ما ترك أثراً سيئا عند هرقل فى أواخر حياته . ومات هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ .

خلفاء هرقل (٦٤١ — ٧١٧) :

لما عمد هرقل إلى أن يعيد الحكم إلى ولديه الكبيرين ؛ حاول أن يجعل لذرية مارتينا نصيباً فى الحكم ، دون أن ينتزع من قنسطنطين ، أكبر أبنائه ، حقه فى الحكم . فعلى الرغم من الفارق الكبير فى السن بين قنسطنطين ، الذى كان وقتذاك فى الثامنة والعشرين من عمره ، وبين هرقلوناس ابن مارتينا الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، أشار هرقل فى وصيته إلى أنه ينبغى أن يشترك الأخوان معا فى الحكم ، وأن يتساويا فى المكانة والحقوق ، وهذا أول مثال واضح لما وقع فى التاريخ الرومانى والبيزنطى من اشتراك الأباطرة فى الحكم . ولحرص هرقل على أن يجعل لمارتينا قدراً من النفوذ المباشر فى أموال الدولة ، أعلن فى وصيته بأنه ينبغى أن يشترك فى الحكم « الإمبراطورة[1] الأم » . وحينما أعلنت مارتينا وصية زوجها ، لقيت الوصية معارضة شديدة ، وترتب على ذلك ، وعلى كراهية الشعب لشخص الإمبراطورة ، أن ثارت

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 100.

مسائل تتعلق بالوضع الدستورى العام . إذ أقر الناس تولية الأخوين العرش ، غير أنهم لم يقروا اشتراك مارتينا فى إدارة شئون البلاد ، وأعلنوا أنها باعتبارها امرأة لا تمثل الإمبراطورية الرومانية ، وليس لها أن تستقبل السفراء ، وزعمت مارتينا انفسها هذا الحق. ووقع الشقاق بين شطرى الأسرة الحاكمة ، وصار لكل فريق حزب يؤيده ضد الفريق الآخر ، وساد هذا الصراع والنضال الحياة العامة فى العاصمة البيزنطية ، فى وقت تعرضت فيه لخطر سياسى بالغ الشدة ، من الخارج .

وكان قنسطنطين الثالث أكثر أتباعاً وأنصارا ، غير أنه عانى مرضاً خطيراً ، ربما كان مرض السل (١) ، فمات فى ٢٥ مايو سنة ٦٤١ ، فلم يدم حكمه أكثر من ثلاثة شهور . أضحى هرقلوناس الطفل منفرداً بالحكم ، والواقع أن مارتينا هى التى سيرت شئون الدولة ، فأرسلت إلى المنفى أخلص المناصرين لقنسطنطين . ولما أضحت السلطة فى يد مارتينا ، ارتفع شأن البطريرك بروس Pyrrhus ، وأعقب ذلك أن نهضت السياسة المونوثلستية ، بعد أن تخلى عنها قنسطنطين ، فتولى بطريركية الإسكندرية كيرس المونوثوليستى ، وتقلد مثل سابقيه السلطتان الدينية والمدنية فى مصر . وبناء على ماورد من تعليمات الحكومة الجديدة التى رأت أنه لا جدوى من مقاومة العرب ، دخل كيرس فى مفاوضات مع العرب الفاتحين ،ووقع معاهدة ، تقضى بتسليم مصر للمسلمين ،وانطوت هذه المعاهدة أيضا على استئناف المفاوضات ، غير أن هذه المعاهدة لم يجر تنفيذها إلا فى نوفمبر سنة ٦٤١ ، بعد سقوط مارتينا وهرقلوناس (٢) .

وساءت أحوال مارتينا وهرقلوناس . إذ انقلب على حكومتها أصحاب السلطة والنفوذ فى الإمبراطورية ، أمثال أعضاء السناتو ، والقادة العسكريون ، ورجال الدين الأرثوذكس ، وظل الناس على كراهيتهم للإمبراطورة وللبطريرك المونوثولستى ، وجرى تصويرهما على أنهما تآمرا ضد قنسطنطين ،

(١) John of Nikiu trans. Zatenbeg p. 565.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 101.

فدسا له السم ، وطالب الناس بأن يكون العرش لابن قنسطنطين ، ونهض أحد القادة الموالين لقنسطنطين . واسمه فالنتينوس ارساكيدس الأرمنى (Valentinus Arsacidus) ، فأثار القوات المرابطة فى آسيا الصغرى ضد مارتيناو هرقلوناس ، وقاد هذه القوات حتى بلغت خلقدونية ، وعندئذ أذعن هرقلوناس للثائرين ، وتوج ابن قنسطنطين الثالث قسيما له فى الحكم ، غير أن هذا الإجراء لم يمنع سقوطه فى آخر سبتمبر سنة ٦٤١ . وبناء على قرار السناتو ، تقرر عزل مارتينا وهرقلوناس ، وجرى تنفيذ هذا بقطع لسان مارتينا وجدع أنف هرقلوناس (١) . وهذه هى أول مرة يجرى فى بيزنطة اتخاذ ماهو معروف فى الشرق من عادة إحداث عاهة أو تشويه بالجسم مثل قطع الأنف ، والمقصود بذلك أن الشخص الذى تعرض لهذا الإجراء ، لم يعد كفئاً لأن يتولى هذا المنصب . وتقرر أيضا نفى الأم والابن إلى جزيرة رودس ، وشاركهما مصيرهما البطريرك ، فولى كرسى البطريركية بولس .

وجعل السناتو السلطة والسيادة لابن قنسطنطين الثالث (٦٤١ — ٦٦٨) . ولم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، واتخذ اسم هرقل عند تعميده ، وهو اسم أبيه ، غير أنه عند تتويجه اتخذ اسم قنسطنطين ، وأطلق الناس عليه اسم قنسطانز وهو مصغر قنسطنطين ، ثم سار يعرف فيما بعد بالملتحى Pogonatus لاهتمامه ، كلما كبر فى السن . بإرسال لحيته .

تجلت قوة السناتو فى عزل مارتينا وهرقلوناس ، وازدادت وضوحا حينما صارت له القوامة أو الوصاية على الإمبراطور الصغير قنسطانز الثانى ، ففى الخطاب الذى ألقاه قنسطانز حينما تولى العرش ، أمام السناتو ، صرح بأن مارتينا وهرقلوناس ، تم عزلهما بمقتضى قرار السناتو الذى صدر بتأييد من الله « لأن الشيوخ الذين اشتهروا بالصلاح والتقوى ، لم يستطيعوا أن يتغاضوا عما يجرى فى إمبراطورية الرومان من الظلم والاستبداد » . يضاف إلى ذلك

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 102.

أنه طلب إلى الشيوخ أن يكونوا له من الناصحين ، ومن العاملين على تحقيق مصالح الشعب . وعلى الرغم من أن هذه العبارات إنما لقنها الشيوخ للإمبراطور الطفل ، فلا شك أنها تشير إلى ما بلغه السناتو وقتذاك من مكانة وسلطان(١) .

والمعروف أن سلطة السناتو اختفت أثناء حكم الإمبراطور جستنيان ، لما اشتهر به هذا الإمبراطور من الاستبداد بالحكم . فلما مات جستنيان عمل السناتو على استرداد سلطته ، حتى إذا جاء القرن السابع الميلادى ، تجلت هذه السلطة ، فأصبح فى زمن أسرة هرقل يمارس وظائف عظيمة الأهمية ، باعتباره مستشارا للإمبراطور ، ومحكمة عليا(٢) للقضاء . ومن الطبيعى أن تظهر أهمية السناتو كلما انتقل الحكم إلى إمبراطور جديد ، فلا عجب إذا استهل قنسطانز أعماله بالالتجاء إلى السناتو يلتمس منه الحماية والتوجيه . غير أن قنسطانز لم يختلف عن سائر أفراد بيت هرقل فيما اشتهروا به من النزوع إلى الاستبداد ، فكلما تقدم فى السن ازداد تمسكا برأيه وإصرارا على إراته .

السياسة الخارجية :

على أن سياسة قنسطانز الخارجية ارتبطت بما جرى من الفتوح الإسلامية ، واضطراد تقدمهم . فوفقا للمعاهدة التى عقدها كيرس بطريرك الإسكندرية مع عمرو بن العاص بموافقة مارتينا ، تم الاتفاق على منح البيزنطيين مهلة يجلون أثناءها عن البلاد ، فغادرت قواتهم الإسكندرية فى ١٢ سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وتوجهت إلى رودس ، وأعقب ذلك دخول عمرو إلى المدينة فى ٢٩ سبتمبر سنة ٦٤٢(٣) . ومنها انبسط سلطان المسلمين على الساحل الشمالى لإفريقية ،

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 102.

(٢) Diehl : Le Senat et le peuple byzantin aut VII et VIIIe Siècles. Byzantion 1 (1954) p. 201.
Butler : The Conquest of Egypt p. 194.
ury : History of the Later Roman Empire Vol. II p. 804, 319, 320.
Ostrogorowski : op. cit. p. 103.

(٣) إبراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦١ .

فخضعت بنتابوليس . وفى سنة ٦٤٣ ، تم الاستيلاء على طرابلس . ولما مات عمر بن الخطاب ، وتولى الخلافة عثمان بن عفان ، استدعى عمرا إلى المدينة ، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فقاموا بهجوم . فتوجه سنة ٦٤٥ أسطول بيزنطى ضخم مؤلف من ثلثمائة سفينة تحمل العدة والعتاد لاسترداد مصر ، وتولى قيادة الأسطول مانويل ، الذى سبق أن دافع عن الإسكندرية حينما حاصرها المسلمون ، وجاءت الحملة مفاجأة للمسلمين فى مصر ، فاستسلمت الإسكندرية واتخذها مانويل قاعدة للتوغل فى داخل البلاد(١) . وتقدمت الجيوش البيزنطية فعلا حتى كادت تقترب من حصن بابليون ، غير أن الخليفة عثمان أعاد عمراً إلى قيادة الجيش العربى بمصر ، فأنزل الهزيمة بجيش مانويل عند نقيوس ؛ فارتد مانويل إلى الإسكندرية . واعتصم بها ، غير أن عمراً واصل المسير إلى الإسكندرية ، واستطاع بمهارته ودهائه أن ينفذ إلى داخل المدينة فى صيف سنة ٦٤٦ فأعمل القتل فى الحامية البيزنطية ، وعمد عمرو إلى تخريب أسوار المدينة(٢) ، وهرب مانويل إلى القسطنطينية ، بينما قاد البطريرك المونوفيزتى بنيامين الشعب الإسكندرى فى مظاهرة ، وأعلن الإذعان والخضوع لحكم المسلمين ، وهذا دليل على أن المصريين آثروا الحكم العربى على الحكم البيزنطى ، فلم تخرج مصر بعد استيلاء العرب على الإسكندرية ، على الحكم الإسلامى ، وبذلك فقدت بيزنطة أغنى ولاياتها وأعظمها قيمة من الناحية الاقتصادية(٣) .

واجتمع حكم الشام كله لمعاوية بن أبى سفيان ، وفى زمنه رسخت أقدام المسلمين فى الشام والجزيرة ، وتطلعوا إلى الاستيلاء على أرمينيا وآسيا الصغرى .

---

(١) ابراهيم العدوى : نفس المصدر ص ٦١ : Ostrogorowski p. 103.
ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٧

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٥٥ . ابراهيم العدوى : نفس المصدر ص ٦٢ .
المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٥٨ .

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 103.
Ibid : p. 104.

وفى سنتى ٦٤٢ ، ٦٤٣ م شنوا الغارات على الأراضى الأرمنية . وفى سنة ٦٤٧ ، غزا معاوية قبادوقيا واستولى على قيصرية ، ومن ثم تحول إلى فريجيا ، وعلى الرغم من أنه لم ينجح فى الاستيلاء على عمورية لمناعتها ، فإنه توغل فى هذه الجهات الغنية ، وعاد إلى دمشق محملا بالغنائم والأسرى(١) .

على أن اتصال المسلمين بالبحر المتوسط ، وتعرضهم لأخطار البيزنطيين من البر والبحر ، تطلب من المسلمين أن ينشئوا لهم قوة بحرية . ويعتبر معاوية ابن أبى سفيان أول سياسى عربى أدرك ما للأسطول من القيمة فى مناوءة البيزنطيين . فلم يمض إلا زمن قصير على وفاة عمر بن الخطاب ، حتى شرع معاوية ، زمن خلافة عثمان بن عفان ، فى إنشاء أسطول بحرى . واستهل المسلمون نشاطهم البحرى سنة ٦٤٩ م (٢٨ هـ) ، بأن أبحر الأسطول الإسلامى تحت قيادة معاوية إلى جزيرة قبرص ، التى تعتبر من أعظم القواعد الاستراتيجية للأسطول البيزنطى فى الشرق ؛ فاستولى على قسطنطينا عاصمة الجزيرة ، ولم تحصل بيزنطة على الهدنة لمدة ثلاث سنوات إلا بعد أن تعهدت بدفع مبالغ طائلة . وما كاد ينقضى أجل الهدنة ، حتى تجددت العمليات البحرية فى عنف أشد مما جرى من قبل . ففى سنة ٦٥٤ تعرضت رودس للنهب والغارة من قبل المسلمين ، ثم سقطت فى أيديهم جزيرة كوس ، وشن المسلمون غارات مخربة على جزيرة كريت . ولا شك أن معاوية كان يهدف من وراء ذلك إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، يدل على ذلك حرصه على تأمين الطريق المؤدى إليها ، بالاستيلاء على قبرص ورودس وكوس . على أن قوة بحرية هائلة قام بها قنسطانز سنة ٦٥٥ ، وجرت معركة حربية عنيفة تجاه ساحل ليكيا بآسيا الصغرى ، وهذه أول مرة تنشب فيها معركة بحرية بين القوتين الإسلامية والبيزنطية . وأسفر القتال عن إحراز المسلمين انتصارا ساحقا . وحلت الهزيمة بالدولة البيزنطية ، وكاد الإمبراطور قنسطانز يقع أسيراً فى يد المسلمين(٢) ،

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٦ .

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 104.

وهذه المعركة هى التى وردت فى المصادر العربية على أنها غزوة ذات الصوارى(١) . وترتب على هذه المعركة أن تداعت سيادة بيزنطة فى البحر . غير أن ما أحرزه المسلمون من انتصارات لم يترتب عليه نتائج مباشرة ، بسبب ما وقع بين المسلمين من الفتن الداخلية . ففى السنوات الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان ، وقع فى الدولة الإسلامية فتن واضطرابات كثيرة ، لم تلبث أن ازدادت عنفا بعد مصرع عثمان سنة ٦٥٦ ، فنشبت الحرب الداخلية بين معاوية الذى نادى بنفسه خليفة فى دمشق ، وبين على الذى ولى الخلافة بالمدينة ثم الكوفة ، وانتهى النزاع بمقتل على بن أبى طالب سنة ٦٦١ . وهذا النزاع أدى إلى أن يتفاهم معاوية مع البيزنطيين ، فعقد معهم صلحا سنة ٦٥٩ ، التزم بمقتضاه أن يدفع لهم إتاوة أو جزية ، وتأثرت سياسة أرمينيا بهذه الأحداث ، فاستأنفت الأسرات الأرمنية الكبرى علاقاتها ببيزنطة .

ولما اطمأن قنسطانز لما حدث فى الشرق ، وجه اهتمامه إلى أملاكه بأوربا . ففى سنة ٦٥٨ ، جهز حملة لقتال الصقالبة بالبلقان ، فأحرز انتصارا باهرا ، ووقع فى يده عدد كبير من الأسرى ، وانبسط سلطانه ونفوذه بهذه الجهات . وهذا هو أول هجوم بيزنطى عنيف على الصقالبة منذ زمن الإمبراطور موريس . وأعقب هذه الحملة ، أن أمر قنسطانز بنقل عدد كبير من الصقالبة إلى آسيا الصغرى ، فأخذ منذ ذلك الحين يتكاثر عددهم فى آسيا الصغرى ، وفى الجيش البيزنطى . ففى سنة ٦٦٥ ، انحازت فرقة من الصقالبة يبلغ عددها نحو ٥ آلاف مقاتل ، إلى المسلمين ، فأقامت بينهم فى بلاد الشام(٢) .

والتفت قنسطانز ، بعد انتصاراته فى البلقان ، إلى الاهتمام بأملاكه فى الغرب ، حيث تعقدت الأمور بسبب ما ثار من الجدل حول نحلة المونوثلستيه ، وهذا الاختلاف الدينى أدى إلى نتائج خطيرة فى شمال أفريقية الذى غلبت عليه الصفة اللاتينية ، إذ تعرض هذا الإقليم ، بعد استيلاء المسلمين على مصر ، للخطر الشديد من قبل المسلمين فى مصر ، والمعروف أن ما اشتهر به المونوفيزتيون

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٦ .
ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 104.

فى الشام ومصر من العداء والكراهية لبيزنطة كان له أثر فى أن يسر للمسلمين فتح الأقاليم الشرقية . كان شمال أفريقية حتى ذلك الحين موئل الأرثوذكسية ضد المونوثلستية ، فصار من العسير على الدولة البيزنطية ، التى تنصر المذهب المونوثلستى ، أن تحافظ على مكانتها فى شمال أفريقية ، وهذه المعارضة من قبل أهل شمال أفريقية ضد الحكومة البيزنطية ، كان لها أهمية سياسية تاريخية . ذلك أن أرخون أفريقية ، وهو المعروف باسم جريجورى أعلن نفسه امبراطوراً ، فأيده سكان شمال أفريقية وقبائل البربر المجاورة . وللعرب فضل كبير فى إنقاذ الحكومة المركزية فى بيزنطة مما قد يترتب على هذا الموقف من أخطار . ذلك أن العرب بعد تدعيم ملكهم فى مصر ، أعدوا هجوماً كبيراً على شمال أفريقية وذلك سنة ٦٤٧ ، فلقى جريجورى مصرعه أثناء القتال ، وأعمل المسلمون فى العاصمة Sufetula النهب ، وقرروا على السكان إتاوة كبيرة ثم انسحبوا إلى قواعدهم بمصر(١) .

المشكلة الدينية :

وبقى شمال إفريقية فى يد البيزنطيين . على أن هذه الحوادث تردد صداها فى روما ، إذ أدرك قنسطانز حاجته إلى مصالحة الكنيسة ، فحاول أن يجد صيغة للتوفيق ، فأصدر فى سنة ٦٤٨ الصيغة التى انتهى إليها والمعروفة باسم Typos ، وبمقتضاها تقرر عدم الأخذ بمرسوم الإيمان Ecthesis ، على أنه حرم إثارة النقاش فى مسألة الإرادة الإلهية ، ومسألة قدرة الله ، ولم يرض هذا الحل المونوثلستيين أو الأرثوذكس بل صار جليا أنه لا أمل فى فض النزاع حول العقيدة ، بما جرى اتخاذه من التدابير التى تقضى بإغفال جوهر المسألة وقمع حرية الفكر .

فالبابا مارتن الأول ، الذى تولى البابوية فى ٥ يوليه سنة ٦٤٩ ، عقد مجمعاً حضره معظم الأساقفة ، وأعلن فى هذا المجمع بطلان كل من قرار الصورة ، وقرار الإيمان(٢) ، وحمّل كلا من سرجيوس وبولص بطريرك القسطنطينية

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 105.

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٥٧ .

مسئولية إصدار هذه المرسومات الذهبية ، وبعث برسالة تتضمن هذه القرارات ، إلى رجال الدين وإلى الإمبراطور البيزنطى .

على أن الطريقة التى اعتلى بها مارتن كرسى البابوية ، لم تكن كافية لأن تجعل قنسطانز يسرع إلى التدخل ، وإلى أن يتخذ خطة استبدادية حاسمة ، فأرسل أوليمبيوس Olympius ، أرخون راڤنا إلى روما للقبض على البابا الذى لم يعترف به الإمبراطور ، ولينتزع من الأساقفة الإيطاليين موافقتهم على المرسوم الدينى المعروف باسم Typos . غير أن أرخون راڤنا رأى أن يستغل كراهية أهل روما لبيزنطة ، ليفصل إيطاليا عن الإمبراطورية ، ويستقل هو بها ، فعبر بجيشه إلى صقلية ، ولم تحاول الحكومة البيزنطية مقاومته ، وذلك لانصرافها وقتذاك إلى الاهتمام بالشرق ، حيث قام معاوية ، كما أشرنا إلى ذلك ، بأول غزوة بحرية ضد البيزنطيين ، ومات أوليمبيوس سنة ٦٥٢ .

على أن أرخون راڤنا الجديد قام على رأس جيش فى يونيه سنة ٦٥٣ ، وألقى القبض على البابا مارتن ، ونقله ليلا من مدينة روما المشهورة بولائها للبابا ، وأرسله إلى القسطنطينية ، حيث مثل أمام السناتو سنة ٦٥٣ ، واتخذت المحاكمة صفة سياسية ، إذ جرى اتهامه بالتمرد على الإمبراطور ، وتدبير فتنة فى الأقاليم الغربية ، فتقرر حبسه ، ثم جرى إرساله فيما بعد إلى خرسون ، وهى مدينة نائية تقع على الساحل الجنوبى لشبه جزيرة القرم ، وتعتبر منفى للمغضوب عليهم زمن البيزنطيين على أنه لم يلبث أن مات عقب وصوله(١) ، وذلك فى أبريل سنة ٦٥٦ . وتضمنت الرسائل التى بعث بها من خرسون الشكوى من سوء أحوال المعيشة بها ، وطلب إلى أصدقائه أن يرسلوا له طعاما ، لاسيما الخبز « لأنه يسمع الحديث عنه ولا يراه(٢) » .

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 106.
Vasilieve : op. cit. p. 224.

(٢) Mann : The Lives of the Popes in the Early Middle Ages. Vol. I part I p. 400.

وبعد مفاوضات بين الإمبراطور البيزنطى وبطريرك القسطنطينية ، وبين البابوين الذين خلفا مارتن على الكرسى الرسولى ، تم الصلح مع البابا فيتاليان ، فزال الشقاق بين كنيستى روما والقسطنطينية . ولهذا الوفاق الدينى مع روما أهمية سياسية عند الإمبراطورية البيزنطية . إذ ترتب عليه أن قوى مركز الإمبراطور البيزنطى[1] فى إيطاليا .

أما مكسيموس، عدو المونوثلستية العنيد ، والذى اتخذ شمال أفريقية مكانا لدعوته ، فإنه تم القبض عليه ، وجرى إرساله إلى القسطنطينية ، حيث تقررت محاكمته ، وثبتت إدانته ، وبعد تعذيب شديد تقرر نفيه إلى لازيقا على البحر الأسود حيث مات سنة ٦٦٢ م[2] .

وللنزاع الدينى أهمية كبيرة فى السياسة الكنسية ، لا سيما ما يتعلق بنضال الكنيسة فى سبيل التخلص من الخضوع للسلطة الإمبراطورية . إذ أن ماكسيموس أعلن المبدأ الذى يقضى بأن الإمبراطور ، باعتباره من العلمانيين ، لا يجوز له أن يتدخل فى أمر العقيدة ، التى هى من اختصاص الكنيسة وحدها . لم تكن هذه الفكرة جديدة ، إذ نادى بها آباء الكنيسة فى بداية العصر البيزنطى ، غير أنه لم يتحمس أحد للدفاع عن حرية الكنيسة مثلما تحمس ماكسيموس ، فيعتبر ماكسيموس أول آباء الكنيسة البيزنطية فى العصور الوسطى ، فهو الذى أقر استخدام تعاليم ديونيسيوس فى الكنيسة ، وأدمج الأفكار الكنسية فى العصور الوسطى فيما تبقى من مفاهيم العالم القديم . والواقع أن الإمبراطور قنسطانز والراهب ماكسيموس يمثلان عالمين متناقضين . فعلى الرغم من إذعان ماكسيموس للسلطة الإمبراطورية ، فإن الفكرة التى حارب من أجلها ، عاشت من بعده ، وجرى بسببها فى القرون التالية منازعات دينية خطيرة[3] .

وبعد أن مضى على حكم قنسطانز عشرين عاما فى القسطنطينية . قرر هذا

(١) Vasiliev : op. cit. p. 224.

(٢) Ibid. p. 224.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 108.

الإمبراطور أن يتخذ له عاصمة فى الغرب ؛ وليس معنى ذلك أنه تخلى نهائياً عن أملاكه فى الشرق واعتبرها ضائعة ، إذ أنه ظل محتفظا بمركزه فى الشرق ، طالما كانت الحرب ناشبة فى هذه الجهات . فلما توقفت الحروب بينه وبين المسلمين فى الشرق ، انتقل إلى الغرب . والواقع أن لهذا القرار أهمية كبيرة ، ذلك أنه يدل على ما تعلقه الإمبراطورية البيزنطية من أهمية ، على الاحتفاظ بأملاكها فى الغرب ، وأن للغرب من المكانة عند الإمبراطور ما للشرق . وإذا جرت مقارنة حركة انتقال قنسطانز إلى الغرب ، واتخاذ سيراكوز عاصمة له ، بما أعده كل من الإمبراطورين موريس وهرقل من خطط ، بات واضحا ما هو معروف من استمرار فكرة وجود إمبراطورية موحدة . إذ أن البيزنطيين لم يكونوا وقتذاك يفكرون فى الاكتفاء بالشرق مثلما حدث فى القرن التالى من تركيز جهودهم واهتمامهم بالشرق ، الذى يعتبر عندهم موطن القوة والثروة[1] .

على أن ثمة من الدواعى ما جعل قنسطانز يقدم على هذا الاتجاه ، فما حدث من مهاجمة دوق بنيفنتو اللومباردى لأملاك الإمبراطورية البيزنطية فى جنوب إيطاليا ، وفشل القوات البيزنطية التى أنزلها الأسطول فى وقف اعتدائه كان من الأسباب التى دعت قنسطانز إلى أن ينقل عاصمته إلى سيراكوز فى صقلية وأن ينقل إليها نحو ٢٠ ألف من جنوده الذين جاء بهم من آسيا[2] .

وظل قنسطانز عشر سنوات يعمل على إعادة بسط سلطان بيزنطة فى الغرب . وعلى الرغم من أنه لم يحسم النزاع الدينى بين الأرثوذكسية والمونوثلستية ، فإنه أحرز بعض النجاح ، فاستعاد أفريقية ، وساد السلام فى صقلية ، وسائر الجزائر التابعة لبيزنطة لا سيما سردينية ، وتوقف الاعتداء اللومباردى . وعلى الرغم من أنه لم يتم استرداد كل الأراضى التى فقدتها بيزنطة ، فإن الإيطاليين أدركوا مرة أخرى فى سنة ٦٦٣ ما لبيزنطة من قوة حربية وبحرية .

(١) **Ostrogorowski : op. cit. p. 108.**

(٢) **Lewis, A. Naval Power and Trade in the Mediterranean. p. 59.**

ومن الأسباب التى دعت أيضاً قنسطانز إلى مغادرة القسطنطينية ، ما تعرض له من سخط أهل العاصمة بسبب سياسته الدينية ، وما جرى من سوء معاملة البابا مارتن ، والراهب مكسيموس ، واغتيال أخيه تيودوسيوس حتى يطمئن إلى انتقال الحكم إلى ولديه من بعده ، وبلغ من شدة كراهية الناس لهذا العمل ، أنهم أطلقوا عليه اسم قابيل [١] .

وامتاز موقع سيراكوز بأنه يحتل مركزا متوسطا بين الأملاك الإيطالية المهددة من قبل اللومبارديين ، وبين شمال أفريقية الذى تعرض لغزو العرب [٢] . على أننا لم نعرف إلا النزر اليسير عن أحوال قنسطانز فى سيراكوز . ومن الواضح أن ما تكلفه البلاط الإمبراطورى والجيش من نفقات ، يعتبر عبئا ثقيلا على الممتلكات الإمبراطورية فى الغرب ، يضاف إلى ذلك نفور الناس من الإمبراطور وتصرفاته . وهذا هو السر فيما حدث من تدبير مؤامرة ، اشترك فيها أفراد من النبلاء البيزنطيين وبعض الأرمن ، وانتهى الأمر باغتياله ، ثم جرى نقل الجثة إلى القسطنطينية ، وذلك سنة ٦٦٨ [٣] .

قنسطنطين والعرب :

وبعد وفاة قنسطانز الثانى تولى العرش ابنه قنسطنطين الرابع (٦٦٨—٦٨٥) ويعتبر عهده بداية مرحلة هامة من مراحل تاريخ العالم ، فضلا عن التاريخ البيزنطى ، إذ حدث أثناء حكمه الدور الحاسم فى النضال بين العرب والبيزنطيين .

وتفصيل ذلك أنه بينما كان قنسطانز الثانى منصرفا إلى الاهتمام بالغرب ، تطورت الأمور فى العالم الإسلامى ، إذ صار معاوية خليفة ، واتخذ دمشق مقراً له وذلك سنة ٦٦١ م ، فاستأنف حركة الفتوح الإسلامية . فى سنة ٦٦٣ ، توغل المسلمون فى آسيا الصغرى ، وفى الخمس عشرة سنة التالية ، صاروا

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 109.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 224.

(٣) Ibid. p. 224.

يغيرون بانتظام على آسيا الصغرى ، فأصاب البلاد الخراب ، وجرى على سكانها الذل والاسترقاق ، وبلغ المغيرون أحيانا خلقدونية ، وفى أحوال كثيرة أمضوا فصل الشتاء فى أملاك الدولة البيزنطية . وما جرى من إغارات المردة (المردانيين) على الشام ، أقنع معاوية بأهمية البحر المتوسط وضرورة السيطرة على شواطئه [١] . فتعرضت صقلية سنة ٦٦٩ لغارة من قبل المسلمين . وفى السنة التالية ، سيطر المسلمون على الساحل الأفريقى وأقاموا لهم قاعدة منيعة فى القيروان ، ومنها واصلوا الإغارة إلى داخل البلاد [٢] . على أن المجهود الأساسى للمسلمين إنما انصرف نحو مهاجمة القسطنطينية ذاتها ، موطن قوة الدولة البيزنطية . فما حدث سنة ٦٦٩ من غارة على خلقدونية لم يكن المقصـود منها إلا اختبار مراكز الدفاع فى الجهات المحيطة بالعاصمة [٣] . والمعروف أن المسلمين استولوا على جزائر قبرص ورودس وكوس ، وأكمل معاوية هذه السلسلة من الجزائر بالاستيلاء على خيوس . وفى سنة ٦٧٠ ، استولى أحد قادته على شبه جزيرة Cyzicus التى لا تبعد إلا قليلا عن القسطنطينية ، فأصبحت بذلك قاعدة بالغة الأهمية فى مهاجمة القسطنطينية . وفى هذه الأثناء ، وقبل أن تصوب الضربة القاضية إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية ، استولى جانب من الأسطول الإسلامى على أزمير سنة ٦٧٢ ، بينما احتل الجانب الآخر ليكيا وقليقية [٤] ، وتعرضت كريت للهجوم فى نفس السنة . وما قام به البيزنطيون من الهجوم على الدلتا بمصر فى سنة ٦٧٣ ، كان ضئيل الأهمية [٥] ، لأنه حدث فى نفس السنة أن انطلق أسطول ضخم مؤلف من سفن مصرية وسورية إلى بحر مرمرة وبدأ فى فرض الحصار على

(١) Lewis : op. 60.

(٢) Ibid p. 60.

(٣) Lewis : op. cit. p. 60.

(٤) Ostrogorowski op. cit. p. 111.

(٥) Lewis : op. cit. p. 61. Wiet : L'Egypte Arabe p. 38.
الكندى . الولاة والقضاة ص ٣٨ .

القسطنطينية ، الذى استمر سبع سنوات (٦٧٣ — ٦٧٩) . فتعرضت القسطنطينية كل صيف للحصار من قبل الأسطول الإسلامى ، وأضحت فى مركز شديد الخطورة . وعلى الرغم من أن الطرق البرية وطريق البحر الأسود لا تزال مفتوحة ، تصل منها إلى العاصمة المؤن والإمدادات ، فإن نجاة القسطنطينية وخلاصها إنما جاءت نتيجة استخدام ما هو معروف بالنيران الإغريقية ، هذا السلاح جرى استخدامه ضد الأسطول الإسلامى الذى يحاصر المدينة[١] . وهذه النيران عبارة عن مخلوط كيماوى قابل للإنفجار ، ويجرى قذفه بأنابيب خاصة ، فإذا احتك بسفينة للعدو اشتعل واحترق . ومن خصائص هذه النيران أيضاً أنها تشتعل فى الماء . وظل سر تركيب هذه النيران مكتوما مدة طويلة ، لما حققته من فائدة ، وما أحرزته من انتصارات بحرية عديدة[٢] . وهذه النيران اخترعها مهندس اسمه كالينيكوس Callinicus وهو يونانى سورى فر من بلاده بعد فتح المسلمين للشام . فتعرضت سفن المسلمين للحرائق . ووقع الاضطراب بينها ، وانطلقت فى شىء من الفوضى إلى بحر الأرخبيل ، فارتحلت سنة ٦٧٩ راجعة إلى مواطنها ، غير أنها تعرضت لعواصف شديدة فى أثناء سيرها نحو الجنوب تجاه ساحل بامفيليا . ولم يصل من هذا الأسطول الضخم إلى قواعده بالشام ومصر سوى سفن قليلة العدد[٣] .

---

(١) Lewis : op. cit. p. 61. Ostrogorowski op. cit. p. 111.
أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 214.
عن النيران الاغريقية انظر : Berthelot : La Chimice au moyen age 1 : 100-135.
Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages. II 206, 209 - 210.
Zenghelis, C : Le Fen Oregeois. Byzantion VII (1932) pp. 265 - 286.
Nicholas D. Cheronis : Chemical warfare in the Middle Ages Journal of Chemical Education XIV. 8 (1938) pp. 365-366.

(٣) انظر : Lewis : op. cit. p. 61.
Vasiliev : op. cit. p. 214.
Ostrogorowski op. cit. p. III.

ولم يحرز العرب انتصارات حاسمة فى آسيا الصغرى وقتذاك . فجرت مفاوضات بين معاوية والإمبراطور البيزنطى ، انتهت باتفاق على أن يدفع معاوية جزية سنوية للدولة البيزنطية ، قدرها ٣ آلاف قطعة ذهبية ، وأن يرسل إليه كل سنة خمسين عبداً وخمسين حصاناً ، وتستمر الهدنة بين المسلمين والبيزنطيين مدة ثلاثين سنة[١] . وفى زمن يزيد بن معاوية جلت الحامية العربية التى رابطت بجزيرة قبرص منذ ثلاثين سنة[٢] .

وترتب على فشل هجوم المسلمين على القسطنطينية آثار بعيدة المدى فيما وراء حدود الإمبراطورية البيزنطية . إذ أن خاقان الآفار ورؤساء القبائل الصقلبية الضاربة فى شبه جزيرة البلقان ، أرسلوا إلى القسطنطينية السفراء ، وأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم للإمبراطور البيزنطى ، والتمسوا إقامة علاقات سلام ومودة معهم ، واعترفوا بالسيادة البيزنطية ، وهكذا ساد السلام ، على حد قول تيوفان — فى الشرق والغرب[٣] .

على أن ما حدث سنة ٦٧٩ من رد المسلمين عن الاستيلاء على القسطنطينية يعتبر أمراً بالغ الأهمية ، بل لا يقل أهمية عن رد هجوم العرب على القسطنطينية سنة ٧١٨ ، أو هزيمتهم فى تور — بواتييه ٧٤٢ م فيما بعد ، إذ ترتب على صمود القسطنطينية إزاء الهجوم الإسلامى ، أن توقف زحف المسلمين إلى أوربا من جهة الشرق[٤] .

وفى أثناء الهجوم الكبير على القسطنطينية (٦٧٣ — ٦٧٩) ، أخذ العرب ، الذين استقروا فى القيروان ، يوجهون جهودهم للتوغل فى الداخل ، وينشرون

---

(١) Cananrd : Les expeditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la legende. Journal Asiatique ccVIII (1926) pp. 36-80.
Vasiliev : op. cit. p. 215. الكندى . الولاة والقضاة ص ٣٩ .

(٢) Lewis : op. cit. p. 61.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 112 : Vasiliev : op. cit. p. 215.
Theophanes ; Chronographia ed. de Boor p. 356.

(٤) Ostrogorowski : op; cit. 112.

الإسلام بين قبائل البربر. على أنهم أغفلوا مهاجمة ما يقع على الساحل من الحصون والمؤن التي بيد البيزنطيين، ومع ذلك فإن عقبة بن نافع انطلق بجيوشه نحو الغرب إلى طنجة والمحيط الأطلنطي. غير أن قبائل البربر اتحدت تحت زعامة كسيلة، وخرجت على طاعة المسلمين، وأخذت تهاجم مؤخرة جيوشهم، وأمد البيزنطيون البربر بالمؤن والجند وتعرضوا لعقبة في موضع يقال له تهوذه في الجزائر في سنة ٦٨٣، ولقي عقبة وجنده هزيمة ساحقة، ترتب عليها مصرع عقبة وكثير من عسكره، واستولى كسيلة على القيروان سنة ٦٨٣، فأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان(١).

البلقان:

وفي شبه جزيرة البلقان، تعرضت الإمبراطورية البيزنطية لمشاكل جديدة، بسبب قدوم البلغار إلى هذه الجهات. والبلغار يرجعون إلى أصل تركي، أقاموا لهم إمبراطورية اشتهرت باسم أونوجور بلغار. وكانت على علاقات ودية مع بيزنطة زمن هرقل. غير أنها تفككت في منتصف القرن السابع الميلادي، بسبب ما وقع عليهم من الضغط نتيجة تحرك الخزر نحو الغرب، فخضع جانب من البلغار للخزر، غير أن قبائل عديدة منهم، غادرت مواطنها الأولى، في حوض نهر الفلجا. ومن أكبر الجموع التي ارتحلت غربا ما كان بزعامة أسباروخ **Asparuch**. وفي السبعينات من القرن السابع ظهرت هذه الجموع عند مصب نهر الدانوب. وأدرك الإمبراطور قنسطنطين الرابع، أن ظهور هؤلاء الأقوام المشهورين بحب القتال على الأطراف الشمالية للإمبراطورية(٢)، يعتبر خطراً يهدد كيان الدولة البيزنطية. فما كاد ينتهي من إبرام الصلح

(١) Lewis : op. cit. p. 62.
ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١.
أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٦٣.

(٢) Vasiliev op. cit. p. 219. Ostrogorowski p. 113.

مع المسلمين سنة ٦٧٩، حتى بادر قنسطنطين إلى إعداد حملة لمواجهة البلغار، ولم تلبث الحرب أن نشبت سنة ٦٨٠. إذ أن أسطولا ضخما من السفن بقيادة الإمبراطور ذاته، اجتاز البحر الأسود، وألقى مراسيه إلى الشمال من مصب نهر الدانوب. وفي الوقت ذاته قدمت العساكر من آسيا الصغرى، واجتازت تراقيا حتى بلغت الضفة الشمالية لنهر الدانوب. غير أن ما اشتهرت به هذه الجهات من المستنقعات جعل من العسير على البيزنطيين القيام بعمليات حربية، على حين أن البلغار حرصوا على أن يتجنبوا لقاء عدوهم الذي يفوقهم في العدد، فأضاع الجند البيزنطي جهدهم في غير طائل، وتحتم عليهم آخر الأمر، أن ينسحبوا، بعد أن تخلى الإمبراطور عن القيادة بسبب مرضه وحين عبر الجند الدانوب، هاجمهم البلغار فكبدوهم خسائر فادحة، وتعقبوا المرتدين منهم على امتداد النهر، واندفعوا نحو ورنه. وبذلك فشلت حملة قنسطنطين الرابع، ولم تستطع أن تدفع عن الإمبراطورية ما يهددها من الخطر، بل إنها هيأت للعدو الفرصة للتوغل في داخل أملاك الإمبراطورية(١). وبمقتضى المعاهدة التي عقدت بين الإمبراطور البيزنطي والبلغار، تعهد الإمبراطور بدفع جزية سنوية للبلغار، وتنازل لهم عن البلاد الواقعة بين نهر الدانوب وجبال البلقان، وهي المعروفة قديماً باسم مؤيسيا وسيزيا الصغرى (ديبروجه الحالية)، وأضحى في يد البلغار مصب الدانوب وجانب من ساحل البحر الأسود(٢)، وأضحت المملكة الجديدة التي قامت واعترف بها الإمبراطور البيزنطي، خطراً كبيراً على الدولة البيزنطية.

وحين أخذ البلغار يوسعون ممتلكاتهم، اصطدموا بسكان الأقاليم المجاورة التي يسود فيها الصقالبة؛ فخضع هؤلاء للبلغار، واتحدوا سويا ضد البيزنطيين، وبذلك نشأت دولة صربية بلغارية في الأراضي الواقعة بين الدانوب

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 113.

(٢) Vasiliev : op. cit. 219.

والبلقان(١) ، على أن الأباطرة البيزنطيين صاروا يوجهون الحملات ضد البلغار والصقالبة ، غير أن العنصر الصقلبي بفضل تفوقه فى العدد على البلغار ، صارله السيطرة والنفوذ ، وخضع البلغار لتغييرات عنصرية هامة ، ولم يلبثوا أن فقدوا ماكان لهم أصلا من قومية تركية ، وغلبت عليهم الصفة الصقلبية(٢) .

السياسة الدينية :

ما حدث فى الشرق من تغيير وتطور ، اقتضى إعادة النظر فى السياسة الدينية للدولة البيزنطية . فما أصاب بيزنطة على يد المسلمين من اهزائم فى الشرق ، نجم عنها أن الأقاليم التى صارت فى يد المسلمين ، لم تعد تدخل فى حساب السياسة البيزنطية ، كما أن التمسك بالمونوثلستية أضحى عديم الأهمية . فالسياسة الدينية التى جرى اتخاذها لاستمالة المسيحيين فى الشرق ، قد تبين فشلها ، ولم تؤد إلا إلى مضاعفات ومنازعات خطيرة بين بيزنطة ذاتها وبين الغرب المسيحى . فقرر الإمبراطور قنسطنطين الرابع ، بعد استشارة البابا ، الدعوة إلى عقد مجمع مسكونى بالقسطنطينية للتخلى عن المونوثلستية . وهذا هو المجمع المسكونى السادس الذى عقد ١٨ جلسة استمرت من ٧ نوفمبر سنة ٦٨٠ إلى ١٦ ديسمبر سنة ٦٨١ ، فما كانت تدعو إليه المذاهب السابقة من دعوى أن للمسيح إرادتين وفعلين ، والتى جرى طرحها جانباً ، تقرر إعادتها واعتبارها التعاليم القويمة (الأرثوذكسية) للكنيسة ، وتقرر بطلان المونوثلستية ، وإنكار المونوفيزتية .
وعلى الرغم من أن بطريركيات الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية ، أضحت خاضعة للمسلمين ، فإن بطاركتها اشتركوا فى هذا المجمع . على أن قرارات هذا المجمع أثبتت أن بيزنطة تخلت نهائياً عن رغبتها فى تسوية النزاع الدينى فى أقاليم لم تعد خاضعة لها . وكان لذلك أثر كبير فى توطيد سلطان المسلمين بهذه الأقاليم

(١) Ibid p. 220.
(٢) Vasiliev : p. 520. Ostrogorowski : p. 114.

(سوريا ، فلسطين ، مصر) ؛ يضاف إلى ذلك ما تم من التفاهم بين روما والقسطنطينية .

وكان للإمبراطور دور هام فى المجمع ، إذ شهد الإحدى عشرة جلسة الأولى ، التى تعتبر أهم الجلسات ، كما حضر الجلسة الختامية ، فتولى رياسة المجمع وأدار المناقشة . وفى نهاية الجاسة ، وبعد أن تم توقيع قرارات المجمع ، هتف أعضاء المجمع من الكنسيين بحياة الإمبراطور ، واعتبروه حامياً للكنيسة وشارحاً للعقيدة الصحيحة ، ومحطماً للهراطقة(١) .

نهاية حكم قنسطنطين الرابع :

ماكاد المجمع المسكونى السادس ينفض ، حتى نشب صراع خطير بين أفراد الأسرة الإمبراطورية ، لم يكن إلا تكراراً للنزاع المرير الذى وقع بين قنسطانز الثانى وبين أخيه تيودوسيوس . ذلك أن قنسطنطين الرابع لم يختلف عن قنسطانز الثانى فى الحرص على أن تكون له السيادة كاملة غير منقوصة ، ولذا عزم على أن يحرم أخويه الصغيرين ، هرقل وتيباريوس ، من حقوقهما الإمبراطورية ، على الرغم من تتويجهما أثناء حياة أبيهما . ولقى قنسطنطين معارضة شديدة من السناتو ، ومن الجيش الذى أيد النظام الراهن ، وجعل له صفة مسيحية روحية . وتشير بعض الروايات إلى أن الاحتجاج على تصرف الإمبراطور ، إنما جاء من قبل عساكر ثغر الأناتوليك (الناطليق) ، إذ قالوا إننا نؤمن بالتثليث ولذا فنحن نرغب فى أن يشمل التثليث أيضاً الحكام(٢) ، غير أن هذه المعارضة لم تثن الإمبراطور عن عزمه ، فشرع فى حرمان أخويه من ألقابهما الإمبراطورية ، وفى نهاية سنة ٦٨١ ، أمر بجدع أنف كل من الأميرين

(١) Ostrogorowski ; op. cit. pp. 114 - 115.
Vasiliev : op. cit. pp. 224 - 225.
(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٥٨ – ٢٦٠ .
Theophanes 532.

التعسين[١] ، وقرر إعدام زعماء ثغر الأناتوليك ، الذين حاولوا حمل الإمبراطور على تغيير رأيه . وهذا الانقلاب الذى قام به قنسطنطين الرابع ، كان له آثار بعيدة المدى فيما جرى مستقبلا من تطور دستورى ، فبعد أن انقضت أجيال عديدة ، استقر مبدأ جعل السيادة لأمير واحد[٢] — وترتب على قصر ولاية العرش على أكبر أبناء الإمبراطور ، أن ازداد الميل إلى قبول مبدأ الوراثة فى الحكم . وعلى الرغم من أن قاعدة الاشتراك فى الحكم ظلت قائمة باعتبارها الوسيلة المؤدية لولاية العرش ، فإنه لم يعد للأباطرة المشتركين فى الحكم نصيب فعلى فى ممارسة السلطة ، طالما كان للإمبراطور الأكبر من القدرة ما يمكنه من الاضطلاع بأعباء الحكم . وبذلك أضحت السلطة التامة فى يد الإمبراطور الأكبر[٣] الطاغية .

على أن حكم قنسطنطين الرابع ترك طابعاً لا يمحى أثره ، فيما للدولة البيزنطية من سياسة داخلية وخارجية ، فضلا عن شئون الكنيسة والحكومة .

جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ ، ٧٠٥ — ٧١١) :

مات قنسطنطين الرابع فى سبتمبر سنة ٦٨٥ ، وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . وبعد أن حكم سبع عشرة سنة . فخلفه على الحكم ابنه جستنيان الثانى ، الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . كان جستنيان الثانى مجرداً مما يتصف به السياسى الماهر ، من سداد الرأى والرزانة ، إذ ورث عن جده هرقل شدة العاطفة وسرعة التأثر ، واتصف أيضاً بما اشتهر به آل هرقل من النزعة الأوتوقراطية ، واتخذت هذه الصفة فى جستنيان الثانى ، صورة الاستبداد العنيف الذى لا يحفل بالمعارضة[٤] . كان جستنيان طموحاً محباً للعظمة والمجد ،

( ) Brooks : The Brothers of the Emperor Constantine IV. English Historical Review 30 (1915) p. 42.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 115.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 115.

(٤) أسد رستم الروم : ج ١ ص ٢٦٤ .

مثله فى ذلك مثل سميه جستنيان الأول . على أن هذا الطموح الشديد للشهرة ، جعله يضل سواء السبيل ، إذ دفعه استبداده وطيشه إلى أن يقدم على القيام بأعمال ، لطخت سمعته فى نظر معاصريه ، وجعلت المؤرخين المحدثين يغفلون عهده . إنما على الرغم من الأخطاء التى ارتكبها جستنيان الثانى ، فإنه يعتبر خير ممثل لأسرة هرقل ، فهو حاكم موهوب يدرك حاجات الدولة ، ويحرص على تحقيقها ، فضلا عما اشتهر به من الشجاعة والنشاط[١] .

السياسة التجارية :

وبفضل ما أحرزه قنسطنطين الرابع من الانتصارات ، صارت الدولة فى مركز متين فى الشرق ، إذ وقعت الفتن الداخلية فى الدولة الإسلامية بعد وفاة معاوية . وانتهز جستنيان الثانى هذه الفرصة ، فنقض المعاهدة التى سبق إبرامها مع المسلمين سنة ٦٨٥ ، وساق جيوشه لقتالهم . على أن عبد الملك بن مروان الذى ولى الخلافة فى السنة التى تولى فيها جستنيان الثانى الحكم ، حاول تدعيم مركزه ، بأن عقد معاهدة جديدة سنة ٦٨٩ مع البيزنطيين . وأفادت الإمبراطورية من هذا الاتفاق فائدة كبيرة ، إذ تعهد عبد الملك بأن يدفع للإمبراطور البيزنطى كل سنة من المال ما يزيد على ما دفعه معاوية ، إذ بلغ مقداره ثلثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية ، وثلثمائة وستين عبداً ، وثلثمائة جواداً كريماً ، وجرى الاتفاق بأن تقتسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية ما يرد من الخراج من أرمينيا وقبرص وايبريا . وظلت قبرص قروناً عديدة خاضعة لنوع من الحكم الثنائى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، دون أن تكون تابعة لإحداهما[٢] .

على أنه جرى على الطرف الشرقى للإمبراطورية البيزنطية المتاخم لأملاك

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 116.
أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 116.
أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٦٤ .

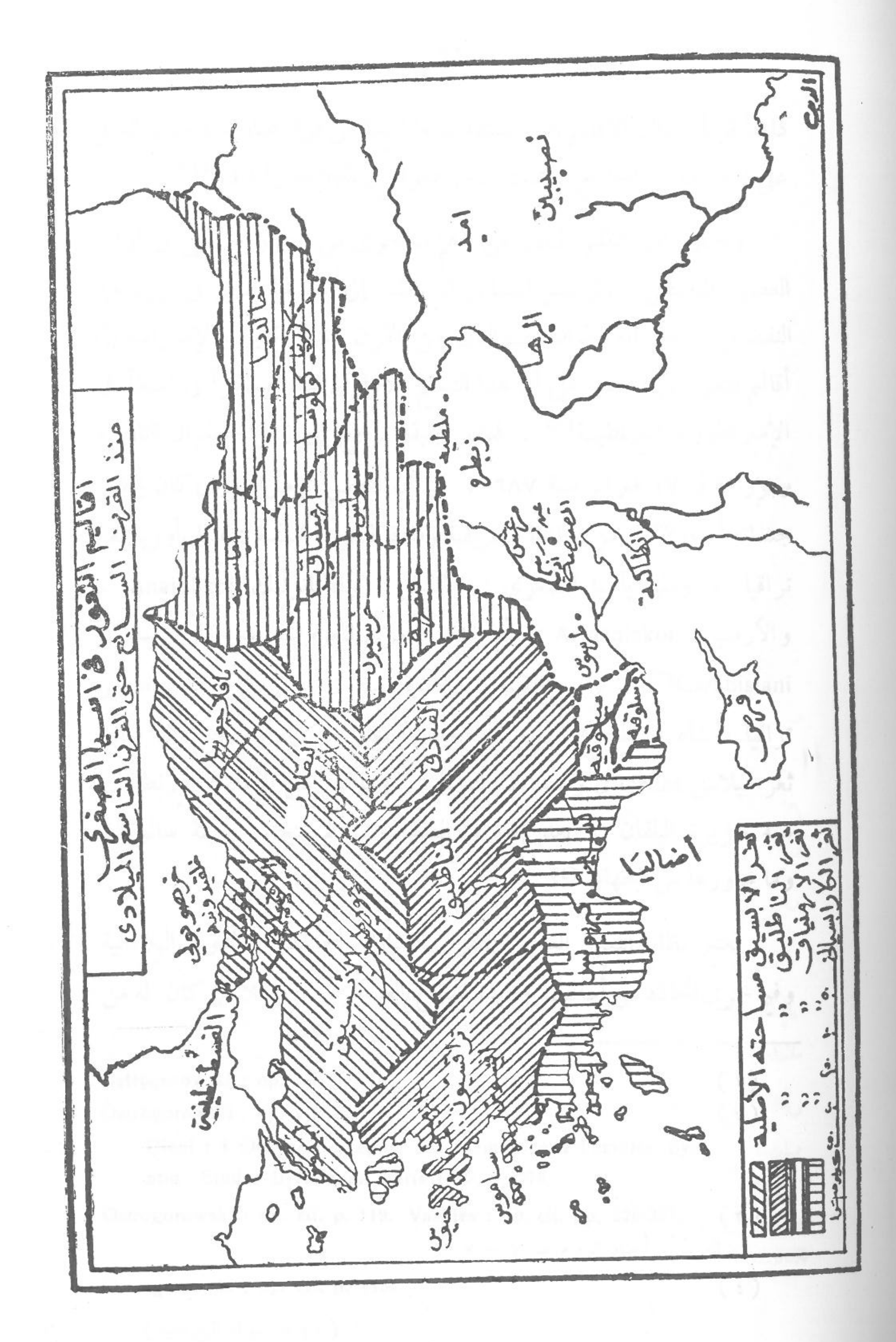
المسلمين ، حادث بالغ الأهمية فى تصور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين .
فالمعروف أن ما يقع من جبال لبنان بسوريا ، استوطنه منذ زمن طويل ، قوم اشتهروا باسم المردة Mardaites ، ويصح تفسير هذا اللفظ على أن المقصود به « المتمردون » « أو المرتدون » أو « قطاع الطرق » فألفوا جيشاً ، وصاروا سياجاً للسلطات البيزنطية فى هذه المنطقة . على أن المردة ، انسحبوا إلى الشمال ، إلى الحدود الإسلامية البيزنطية ، وذلك بعد أن استولى المسلمون على سوريا ، وألحقوا بالمسلمين ضرراً بليغاً بما شنوه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة . وورد فى بعض التواريخ أن المردة تألف « منهم سور نحاسى » قام على حماية آسيا الصغرى من غارات العرب(١) . وبمقتضى المعاهدة التى تم الاتفاق عليها ، وافق الإمبراطور البيزنطى على أن يلزم المردة بالنزول فى الأقاليم الداخلية بالإمبراطورية ، وفى مقابل هـذا تعهد الخليفة بدفع مال معين للإمبراطور البيزنطى . على أن هذه الخطوة التى أقدم عليها الإمبراطور دمرت « السور النحاسى »(٢) الذى يحمى آسيا الصغرى من غارات المسلمين . ثم جرى فيما بعد استخدامهم بحارة فى البيلوبونيز . وبامفيليا (بجنوب آسيا الصغرى) ، وبجزيرة كيفالونيا ، وميناء نيكوبوليس فى ابيروس ، وجهات أخرى(٣) .
على أن نقلهم من الحدود البيزنطية الإسلامية ، كان من العوامل التى وطدت مركز المسلمين فى الأقاليم التى فتحوها حديثاً ، وما تلى ذلك من مهاجمتهم للبيزنطيين فى داخل آسيا الصغرى . وما قام به الإمبراطور من نقل هؤلاء المردة إنما يستند إلى غرض سياسى ، ولم يكن الدافع له دينياً ، كما زعم بعض المؤرخين ، بأن الإمبراطور إنما نقل هؤلاء المسيحيين حتى لا يخضعوا لسلطان المسلمين(٤) .

(١) Lewis : op. cit. pp. 59-60, 62-63.
Theophanes : op. cit. p. 554. البلاذرى : فتوح البلدان ١٥٩ .
(٢) Vasiliev : op. cit. p. 215.
(٣) Ibid. p. 215. Ostrogorowski. op. cit. p. 117.
(٤) Vasiliev. op. cit. p. 215.

وترتب على استتباب السلام فى الشرق ، أن تهيأت الفرصة للإمبراطور جستنيان الثانى ، لأن يوجه اهتمامه نحو البلقان ، لاسيما الجهات التى ينزل بها الصقالبة Sclavinia ، ففى سنة ٦٨٨ ، ٦٨٩ قاد جستنيان الثانى حملة كبيرة ، أحرزت نجاحاً باهراً بعد أن توغلت فى أراضى الصقالبة حتى سالونيك ، فدخل إلى المدينة ، وترتب على انتصار الإمبراطور ، أن قوى مركز بيزنطة فى جنوب شرق البلقان ، واعترفت القبائل الصقلبية المجاورة بسيادته(١) . ونزحت بعض القبائل الصقلبية الموالية للإمبراطور ، عن مواطنها ، وسارت تحت لوائه ، فأنزلهم الإمبراطور على أنهم جنود مزارعون (مقطعون) Stratiotai ، فيما تعرض من إقليم بثينيا لغارات المسلمين وتخريبهم ، وأنزلهم أيضاً بثغر الأبسيق Opsikion ، ليعوضوا ما ترتب على الحروب من نقص فى القوة المحاربة ، وليشدوا أيضاً أزر القوات البيزنطية(٢) المجاورة . فكأن جستنيان الثانى اتبع سياسة قنسطانز الثانى ، غير أن سياسة الاستيطان والاستعمار التى انتهجها جستنيان ، إنما جرت على نطاق واسع ، فتشير المصادر إلى أن الصقالبة المستوطنين ألفوا قوة تبلغ ٣٠ ألف رجل(٣) .

وعمد جستنيان الثانى أيضاً إلى نقل أعداد كبيرة من سكان جزيرة قبرص إلى إقليم Cyzicus الذى اشتدت معاناته للأضرار الناجمة عن حصار القسطنطينية ، وكان فى أشد الحاجة إلى ملاحين مهرة . على أن نقل القبارصة أثار استياء الخليفة ، ولما لم يأبه الإمبراطور لاحتجاجات عبد الملك بن مروان ، وقعت الحرب بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٦٩١ — ٦٩٢ . وفى أثناء القتال

(١) Vasiliev : An Edict of the Emperor Justinian September 688. Specnlum 8 (1943).
Gregoire. H. Un Edit de l'Empereur Jeustinien II daté de September 688. Byzantion 17 (1944/1945), p. 119.
(٢) Charanis, P : The Slavic Element in Byzantine Asia Minor Byzantion 18 (1948). p. 70.
(٣) Theophanes : op. cit. p. 366.



انحازت القوات الصقلبية إلى المسلمين ، وترتب على ذلك أن حل بالبيزنطيين هزيمة ساحقة فى Sebastopolis (سولوسيراى الحالية)[١] بأرمينيا ، فعادت أرمينيا من جديد إلى الحكم الإسلامى[٢] . فأنزل المسلمون من انحاز إليهم من الصقالبة فى بلاد الشام ، وجروا فى ذلك على ما اتخذه البيزنطيون من سياسة ، فاستخدموهم جنداً فيما تلى ذلك من الحروب ضد البيزنطيين[٣] . وعلى الرغم مما ذهب إليه المؤرخ تيوفانس من أن جستنيان الثانى انتقم من الصقالبة ، بأن أمر بقتل من كان منهم فى بثينيا ، وما لجأ إليه الإمبراطور من نقل « المردة » أدى إلى كشف الحد الشرقى للدولة البيزنطية ، وما حاوله جستنيان من إعادة توطين القبارصة لم يلق إلا الفشل الذريع ، لهلاك عدد كبير منهم أثناء الطريق ، ومع ذلك ، فإن القبارصة عادوا إلى بلادهم فيما بعد ، وما زال الصقالبة فى القرن العاشر ينزلون بثغر الأبسيق ، بينما استقر المردة فى ثغر كيبريوت (الثغر البحرى) ، حيث صار زعيمهم يلى قائد الثغر فى المكانة ؛ وكذا فى ثغر هيلاس Hellas ، حيث صارت لهم قوة بالغة الأهمية تبلغ نحو ٥٠٨٧ ، والواقع أن سياسة جستنيان المتعلقة بتوطين العناصر المختلفة كانت سياسة عملية ، إذ سدت حاجة جوهرية للدولة .

تطور نظام الثغور

وما شرع فيه هرقل من إنزال الجند المقطعين بالثغور ، وهب الإمبراطورية حياة جديدة . وإذا سار خلفاؤه على نهج سياسته ، هيأ لعملية تجديد الإمبراطورية

---

(١) Marisq A. Notes sur les Slaves dans le Péloponnèse et en Bithynie. Byzantion (1952) p. 350.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٠٩ .
أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٦٧ .
Vasiliev : op. cit. p. 218.
Ostrogorowski : op. cit. p. 118.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 118.

دافعاً قوياً . فتلك الأقاليم التى استنفدت ما لديها من قوة ضاربة ، جرى العمل على تعميرها من الخارج ، بمستوطنين جمعوا بين الفلاحة والجندية(١) .

ويعتبر أمر تنظيم الثغور من أهم ما جرى من تطور بيزنطى فى أوائل العصور الوسطى . ولم تشر المصادر البيزنطية إلى هـذا الأمر فى شىء من التفصيل . غير أنه منذ النصف الثانى من القرن السابع كثرت الإشارات إلى أقاليم الثغور ، مما يدل على أن هذا التنظيم الإدارى صار مستقراً وراسخاً فى الإمبراطورية البيزنطيـة(٢) . فتشير وثيقة ترجع إلى زمن جستنيان الثانى ، ومؤرخة فى ١٧ فبراير سنة ٦٨٧ ، إلى أن المجلس الإمبراطورى كان يحضر جلساته أرخون كل من إيطاليا وإفريقية وقادة الثغور الخمسة : منها بأوربا ثغر تراقيا ، ومنها بآسيا الصغرى : الأبسيق ، والأناتوليك **Anatolikoi** ، والأرمنياق **Armeniakoi** ، ثم الثغر البحرى المعروف باسم كارابيسـيان **Carabisiani**(٣) . ويرجع قيام ثغور آسيا الصغرى إلى زمن هرقل . أما ثغر تراقيا فأنشأه قنسطنطين الرابع لمنع أخطار البلغار ، بينما أقام جستنيان الثانى ثغر هيلاس **Hellas** فى وسط بلاد اليونان . وما تبقى من الأملاك البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان ، بعد إغارات الصقالبة ، لم يتجاوز مدينة سالونيك وما يجاورها من الجهات(٤) .

يعتبر نظام الثغور العمود الفقرى الإدارى الجديد فى الدولة البيزنطية وفيما جرى اتخاذه من أساليب جديدة للدفاع العسكرى ، فضلا عما كان له من

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 118.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 118.

Diehl : L'Origine du régine des themes dans l'empire byzantin—Etudes Byzantines, Paris 1905, p. 276.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 119. Vasiliev : op. cit. pp. 226-227.

العرينى ، أجناد الروم ص ٦ — ٧ .

(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 119.

أثر كبير فى التطور الاجتماعى بالإمبراطورية . فالواضح أن ثمت علاقة وثيقة بين ظهور طبقة الجند الفلاحين الذين ملكوا الأراضى Stratiotai ، وبين العمل على تقوية صغار الملاك من الفلاحين الأحرار . فالمعروف أن الدولة قامت بتقسيم الأراضى التى نزل بها الجيش إلى حقول Stratioka klemate ووزعتها على العساكر ، يفى الحقل الواحد بحاجات أسرة بأكملها . وتتوارث الأسرة الحقل بشرط أن يقوم المقطع بتأدية الخدمة العسكرية . وللجندى الفلاح أن يحوز من الأرض ما يكفى لمعيشته ، بشرط أن يكون فى استطاعته هو وأسرته ، القيام على زراعتها . وينبغى ألا يتصرف فيها بالبيع والشراء ، وإذا زادت مساحة الأرض على الحد المتعارف عليه ، جاز له أن يبيع هذه الزيادة . وجرت العادة بأن يرث الابن الأكبر أرض أبيه ، على أن يقوم بتأدية الواجبات العسكرية ، ويعمل سائر الأبناء فلاحين فى زراعة الأرض ، ويدفعون ما هو مقرر عليها من ضرائب ، دون أن ترتبط أرضهم بالواجبات العسكرية . وغدت لفظة Stratiotes يقصد بها الفلاح الذى يستقر بالإقليم ، ويجوز أن يمتلك من الأرض ما يضارع فى المساحة إقطاع الفارس الغربى ، وعند استدعائه للخدمة الحربية ، عليه أن يتقدم لأدائها مزوداً بكامل الأسلحة وبفرس جيد ، وعليه أن يدفع بعض الضرائب عن ضيعته الصغيرة . وفى أثناء خدمته الحربية يتقاضى راتباً صغيراً ، فيأخذ فى السنة الأولى نوميزما واحدة ، ويتدرج هذا الراتب فى الزيادة حتى يبلغ ما يتقاضاه ثمانى عشرة نوميزما[1] .

ومن النتائج التى ترتبت كذلك على قيام نظام الثغور ، أن أصبح من اليسير تجنيد جيش من داخل الإمبراطورية البيزنطية ، بعد أن جرى استخدام الجند المرتزقة من المتبربرين فى الجيش زمناً طويلا ، كما أن ما تنفقه الحكومة على الجيش والدفاع عن الإمبراطورية من أموال ، قد انخفض مقدارها ، بسبب

---

(١) Kantarowicy : Feudalism in Byzantine Empire, pp. 126-127.
Runciman : The Bezantine Civilisation, pp. 145—146.
العرينى : أجناد الروم ص ١٨ .

توزيع الأراضى على الجند . يضاف إلى ذلك أنه تألفت طبقة من الجند الفلاحين ، لا من الأرستقراطية كما هو الحال فى الغرب ، اشتهرت بالحرص الشديد والغيرة القوية ، على الدفاع عن أملاكها التى تعتمد عليها فى معيشتها ، وفى شراء الأسلحة ، فضلا عما تدفعه من ضرائب للدولة[1] .

الأحوال الاقتصادية :

على أن الفلاحة الحرة ازدادت نشاطاً أيضاً ، بوفرة عدد المستوطنين الجدد ، لا سيما الصقالبة ، إذ استقرت جموع كثيرة منهم فى الثغور البيزنطية فى البلقان وآسيا الصغرى . ففى أثناء القرن السابع الميلادى . ظهر فى الدولة البيزنطية طبقة كبيرة من الفلاحين الأحرار أضحت من خصائص الجهات التى سادت بها ، بعد أن غلب على هذه الجهات فى مستهل هذا القرن طبقة كبار الملاك وأتباعهم . ومن الدليل على ذلك القانون المعروف بقانون الفلاح Farmer's Law الذى اشتمل على أحكام عديدة تقضى بحماية ما للفلاح من ملك خاص ، وفرض العقوبات على كل من يعيث فساداً فى المزرعة (الحقل) . وترجع الأهمية التاريخية لهذا القانون إلى أن ما ورد به من أحكام ، يرتبط بالفلاحة الحرة . وهذا ليس معناه أنه لم يكن ثمت فلاحون يعتمدون على غيرهم ، أو يعيشون فى كنف سادتهم ، إنما المقصود به هنا أن الفلاحة المستقلة كانت معروفة وقتذاك فى الأقاليم الرومانية . ويدل قانون الفلاح على أن الأرض التى يزرعها الفلاح تعتبر من أملاكه الخاصة ، يضاف إلى ذلك أن سكان القرية يرتبطون فيما بينهم بروابط الجماعة . فإلى جانب ما لهم من أملاك خاصة مثل الحقول الزراعية ، والبساتين ، وحدائق الخضروات ، يوجد من المراعى والغابات والأراضى غير المزروعة ، ما يعتبر ملكاً عاماً لأهل القرية . فالحكومة تعتبر القرية وحدة إدارية ؛ وذلك لأسباب مالية ، إذ تقرر فرض

---

(١) Kantarowicy : op. cit. p. 157.

الضرائب على القرية بأسرها ، فيعتبر سكانها متضامنين فى تحمل مسئولية دفعها .
فالنظام المعروف أواخر الدولة الرومانية باسم Ἐπιβολή (epibole) ، قضى
بضرورة نقل الأرض البور إلى مالك الأراضى المنزرعة ، فتخضع بذلك لما
يفرض عليها من ضرائب تتناسب مع ما جرى من الزيادة . وما حدث من
التغيير فى هذا القانون (النظام) ، هو أن أهل القرية تعهدوا بالقيام بدفع ما هو
مقرر عليها من الضرائب[1] .

والراجح أن نهاية القرن السابع الميـلادى شهدت تغييرات مالية بالغة
الأهمية ، فى التمييز بين النظم المالية فى مستهل العصر البيزنطى والعصر المتوسط
للدولة البيزنطية ، فالنظام الذى أقامه دقلديانوس ،والمعروف باسم **Capitatio**
Jugatio ، والذى يربط بين ضريبة الرءوس وضريبة الأرض ، ظل مستمراً
حتى بداية زمن الإمبراطور جستنيان الثانى ، غير أنه لم يلبث أن اختفى ، إذ
انفصلت ضريبة الرءوس عن ضريبة الأراضى ، وتقررت على جميع دافعى
الضرائب ، ولم تعد مرتبطة بالخراج المقرر على الأرض . وماكان معروفاً فى
أوائل العصر البيزنطى من أن دافعى الضرائب ارتبطوا بالأرض ضماناً لدفع
الضريبة فى وقت كان العمل فيه نادراً ، لم يعد ثمت ما يدعو إلى الإبقاء على
ذلك ، فأدى إصلاح طرق تقدير الضرائب إلى ازدياد عـدد الفلاحين
الأحرار[2] .

وازداد أيضاً ما للكنائس والأديرة من ضياع ، أخذت تنمو وتتسع بفضل
ما جاءها من منح وهبات من البيزنطيين الأتقياء من مختلف الطبقات ، من
الإمبراطور إلى الفلاح . وهذه العملية بالإضافة إلى انتشار الديرية فى شرق
الإمبراطورية ، إنما يدل على ما للكنيسة من قوة ناهضة . فانتشرت حياة
الرهبانية فى الدولة البيزنطية ، وانقسم سكان بزنطة ، قبيل نشوب حركة

(١) Ostrogorowski : op. cit. pp. 120—121.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 121.

Ibid. p. 122.

مناهضة عبادة الصور المقدسة ، إلى طائفتين متوازيتين : الرهبان والعلمانيين .
فازدياد أملاك الأديرة إنما يدل على زيادة عدد الرهبان والأديرة .

الأحوال الدينية :

اشتهر جستنيان الثانى بشدة التقوى ، فمن النقوش التى كان يحملها نقده عبارة
عبد المسيح Servus Christi وهو أول إمبراطور بيزنطى رسم على وجه نقده
صورة المسيح . وفى عهده انعقد فى سنة ٦٩١ — ٦٩٢ المجمع الكنسى المعروف
بالخامس السادس Quinisextum أو البنثكتى Penthektos ، لأن ما أصدره
من قرارات إنما تكمل ما صدر عن المجمعين الخامس (سنة ٥٥٥) والسادس
(٦٨٠ — ٦٨١ م) من قرارات تمس العقيدة ، ويطلق عليه أحياناً مجمع تريللو
Trullo ، نسبة إلى القاعة التى انعقد بها المجمع والتى امتازت بما يعلوها من قبة
فى القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية[1]. واشترك فى أعمال المجمع ٢٢٧ أو ٢٤٠
أسقفاً[2] . وأصدر المجمع قانوناً كنسياً لتنظيم الكنيسة ، وما يتعلق بالطقوس
والشعائر . وأشار المجمع إلى الحاجة الماسة إلى رفع الروح المعنوية وتقويتها عند
الناس ورجال الدين . وقرر إبطال بعض العادات والتقاليد ، لأن منها ما يرجع
إلى أصل وثنى ، ومنها ما يخالف الأخلاق ، على الرغم من دلالاتها على ما ساد
هذا العصر من التقاليد الشعبية ، مثل الأعياد والمواسم التى ترجع إلى الوثنية .
ومن هذه القرارات ، قرار يقضى بمنع اشتراك طلبة جامعة القسطنطينية فى
الاستعراضات المسرحية . على أن أهم ما يعنينا من الناحية التاريخية من قرارات
مجمع ترولو ، تلك القرارات التى تكشف عن أوجه الاختلاف فى أمور
التهذيب فى الكنيستين الشرقية والغربية . ومن الأمثلة على ذلك ، السماح للقسس
بالزواج ، وإنكار ما جرى عليه الرومان من الصوم أيام السبت . ولم يكد

(١) Vasiliev : op. cit. p. 225.

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٦٨ .

يمضى عشر سنوات على الاتفاق على المسائل المذهبية فى المجمع السادس ، حتى نشبت منازعات جديدة بين روما وبيزنطة ، حول مسائل كشفت عن الاختلاف فيما جرى من تطور فى الكنيستين الشرقية والغربية[1] .

فلا عجب أن يرفض البابا سرجيوس الموافقة على قرارات مجمع تروللو ، وظن الإمبراطور جستنيان الثانى ، أن فى استطاعته أن يسير على نهج جده قنسطانز الثانى ، وأن ينهى هذا النزاع فى سرعة ، فأرسل إلى ممثله فى روما يطلب إليه القبض على البابا وإرساله إلى القسطنطينية حيث تجرى محاكمته ، مثلما حدث للبابا مارتن زمن قنسطانز الثانى[2] . غير أن الزمان قد تغير ، فلم يعد للإمبراطور ما كان له من السلطان فى إيطاليا ، بينما ازداد مركز البابا قوة ورسوخاً . فالقوات الحربية البيزنطية فى كل من روما ورافنا ، بلغ من مناهضتها لمطالب ممثل الإمبراطور ، ومعارضتها له أن حرص ممثل الإمبراطور فى روما على أن يلتمس العفو من البابا ، ويطلب الصفح عنه . والواقع أن هذا السلوك المهين من قبل ممثل الإمبراطور ، ليس إلا انتقاماً لما أصاب البابوية على يد قنسطانز الثانى منذ أربعين سنة من المهانة والذلة ، على أن الإمبراطور البيزنطى لم يلبث أن عزل عن العرش[3] .

عزل جستنيان الثانى :

وما جرى عليه بيت هرقل من سياسة استخدام الجند الفلاحين ، وتشجيع الفلاحة الحرة ، لم تلق القبول عند النبلاء البيزنطيين . ففى زمن جستنيان الثانى ، أخذت الحكومة تعمل على مناهضة الطبقة الأرستقراطية . وما اشتهر به جستنيان من سرعة الإثارة ، والميل الشديد إلى استخدام العنف ، لم يؤد إلا إلى ازدياد مقاومة المعارضة . فما اتخذه من إجراءات إنما كانت تهدد الطبقة الأرستقراطية

(١) Ostrogorowski : op. cit. pp. 122-123.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 225.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 123.

بالفناء والزوال ، يضاف إلى ذلك أن هذه الإجراءات لم تجد تأييداً من قبل الشعب . فما جرى عليه جستنيان الثانى من سياسة الاستيطان والاستعمار ، ربما كانت جوهرية تسد حاجات الدولة ، غير أنها فى الوقت ذاته ، كانت شديدة الوطأة على أولئك الذين مستهم هذه السياسة ، كالصقالبة الذين نزعهم من مواطنهم الأولى ، وأنزلهم فى أقاليم لم يألفوها ولم تكن لهم بها سابق معرفة . يضاف إلى ذلك أن حكم جستنيان ورط السكان فى تحمل أعباء مالية باهظة ، لا سيما أن الإمبراطور جستنيان الثانى اشتهر بميله الشديد إلى الإكثار من البناء والعمارة ، مثله فى ذلك مثل جستنيان الأول . وترتب على ابتزاز أموال الناس لسد نفقات الإمبراطور ، أن اشتدت الكراهية للموظفين الذين تولوا المناصب المالية ، أمثال ستيفن وثيودوتوس اللذين اشتهرا بالقسوة والصرامة وعدم الاكتراث بمصالح السكان . وحوالى نهاية سنة ٦٩٥ نشبت ثورة ضد حكم جستنيان الثانى ، فنصب حزب الزرق قائد ثغر هيلاس إمبراطوراً ، وذهب كل من ستيفن وثيودوتوس ، ضحية لغضب الناس وسخطهم . أما جستنيان فقد جدع أنفه ، وتقرر نفيه إلى خرسون فى شبه جزيرة القرم ، التى سبق أن نفى إليها مارتن[1] .

سقوط أسرة هرقل :

وما حدث سنة ٦٩٥ من تغيرات كانت بداية لاضطرابات وفوضى استمرت أكثر من عشرين سنة ، تعرضت أثناءها الإمبراطورية لأخطار جديدة ، وحاقت بها خسائر ضخمة . فأول ما تلقته الإمبراطورية من الصدمات ، إنما نجم عن فشل الدولة البيزنطية فى الاحتفاظ بممتلكاتها فى شمال أفريقية . إذ أن سقوط قرطاجنة فى يد المسلمين بات أمراً محتوماً ، لا سيما بعد أن فشل الإمبراطور قنسطانز فى اتخاذ وسيلة فعالة لحماية أملاك بيزنطة فى الغرب .

(١) Ostrogorowski : op. cit. pp. 123—124.

أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

فما جرى بالقسطنطينية من الفوضى والاضطراب ، هيأ للأمويين الفرصة لإحراز انتصار كبير فى شمال أفريقية . ففى سنة ٦٩٣ أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان حملة ضخمة مؤلفة من ٤٩ ألف مقاتل بقيادة حسان بن النعمان ، الذى وجه كل اهتمامه لمهاجمة المعاقل البيزنطية ، واستطاع بفضل مساعدة وحدات بحرية أن يستولى على هذه الحصون ، الواحد بعد الآخر ، حتى إذا حلت سنة ٦٩٥ سقطت قرطاجنة عاصمة شمال أفريقية فى يد المسلمين . غير أن البربر قاموا بقيادة الكاهنة ضد العرب ، واستعاد قرطاجنة أسطول بيزنطى بقيادة حنا بطريق صقلية[1] . غير أن كل تلك الجهود ذهبت سدى ، إذ استولى المسلمون من جديد على قرطاجنة سنة ٦٩٨ ، وضاعت أفريقية نهائياً من يد البيزنطيين[2] .

وترتب على ما لحق البيزنطيين من هزيمة ، أن ثار الأسطول على الإمبراطور ليونتيوس Leontius (٦٩٥ — ٦٩٨) ، وجرت المناداة بقائد الثغر البحرى كبريوت Cibyrraeot وهو المعروف باسم اسپمار ، إمبراطوراً . وبفضل ما لقيه اسپمار من تأييد حرس القسطنطينية الذى ينتمى لحزب الخضر ، استطاع أن يستولى على العاصمة ، وأن يتولى العرش باسم تيباريوس الثالث (٦٩٨ — ٧٠٥) . وما ظفر به تيباريوس من ولاية العرش إنما يرجع الفضل فيه إلى حزب الخضر ، كما يرجع الفضل فى ولاية سلفه (جستنيان الثانى) للعرش إلى حزب الزرق . وتقرر نقل ليونتيوس إلى الدير بعد جدع أنفه ، وهو نفس العقاب الذى تعرض له جستنيان الثانى ، الذى لم يمض على عزله ثلاث سنوات[3] .

لم يحاول تيباريوس الثالث ، أثناء حكمه ، أن يسترد أرخونية قرطاجنة ، ولم يحاول وقف زحف المسلمين فى أفريقيا . بينما أدرك عبد الملك بن مروان

(١) Lewis : op. cit. pp. 64—65.
Diehl : L'Afrique Byzantine, pp. 385—386.
Theophanes : op. cit. pp. 366—367.

(٢) Lewis : op. cit. p. 65. Ostrogorowski. p. 124.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 124.

أهمية القوة البحرية فى فتح أفريقية . فطلب إلى والى أفريقية موسى بن نصير ، بأن يقيم بها قاعدة بحرية وبعث إليه من مصر ألفاً من صناع السفن ، بأسراتهم ، ليسهموا فى عمارة البحرية[1] . يضاف إلى ذلك أنه أخضع جزيرة بنتيلاريا التى تقع تجاه شاطئ أفريقيا ، وسيطر على المضايق التى تفصل بين جزيرة صقلية وساحل أفريقية[2] . على أن موسى لم يشيد دار الصناعة والقاعدة البحرية فى قرطاجنة ، بل اتخذ لذلك موضعاً يقع إلى الداخل ، على بحيرة ، وأمر بحفر قناة تصل بين البحيرة والخليج ، وبذلك أهمل قرطاجنة ، ونهضت مدينة تونس[3] ، وأضحت تونس مرفأ مأموناً للسفن الإسلامية ، بفضل موقعها فى الداخل ، وبعدها عن خطر الغارة البحرية المفاجئة ، وبادر موسى إلى تشييد سفنه فى دار الصناعة التى أنشأها حديثاً[4] . وفى سنة ٧٠٤ انحاز الأسطول الإسلامى الجديد إلى ما كان للأمويين من أساطيل ناشطة فى البحر المتوسط ، وأصبحت القوى البحرية الإسلامية موزعة بين ثلاثة مراكز : شمال أفريقية ، ومصر ، والشام[5] ، وظهرت أهمية القاعدة البحرية الجديدة حينما لجأ إليها الأسطول المصرى سنة ٧٠٣ بعد أن أغار على صقلية . وتعرض لعاصفة شديدة كادت تقضى عليه . وأهم من ذلك ما قام به الأسطول الجديد من غارات ، ففى سنة ٧٠٤ ، أغار على صقلية وسردينية ، وفى سنة ٧٠٨ هاجم جزائر البليار ، ووقع حاكم جزيرة ميورقة البيزنطى فى أيدى المسلمين ، وفى سنة ٧١٠ تعرضت سردينية لهجوم البحرية الإسلامية[6] .

(١) At - Tigani in Journal Asiatique ser. IV. (1852) XX. pp. 65 — 71. Al — Kairawani : Histoire de l'Afrique Explorations Scientifiques de l'Afrique, Paris, 1845, VII p. 120.

(٢) Lewis : op. cit. p. 64.

(٣) Lewis : op. cit. p. 64.

(٤) At - Tigani, p. 69.

(٥) Lewis : op. cit. p. 64.

(٦) Ibid, p. 65.

على أن هذه الغارات إنما جرت وفقاً لخطة موضوعة . ذلك أن موسى ابن نصير كان منصرفاً إلى فتح شمال أفريقية إلى المحيط الأطلنطى ، فاستخدم الأسطول من قاعدته فى تونس لمنع ما تتعرض له مؤخرة الجيش الإسلامى من تهديد من قبل الأساطيل البيزنطية ، من قواعدها فى صقلية وسردينية وجزائر البليار . وبفضل هذا الأسطول الإسلامى ، أحرز موسى من الانتصارات ما أدى إلى أن يخضع له الشاطئ الأفريقى من تونس إلى سبته[1] سنة ٧١١ . وكان للأسطول الإسلامى أهمية فى حماية مواصلات الجيش ، وملاحظة الأساطيل البيزنطية فى سردينيا وصقلية ، وأعد موسى بن نصير على الساحل الأفريقى سفناً انتقل عليها مع سائر القوات إلى أسبانيا ، بعد أن بلغته أنباء انتصارات طارق[2] . وفى سنة ٧١٧ لم يكتف المسلمون بالاستيلاء فحسب على كل أسبانيا ، بل تجاوزوا جبال البرانس ، وأضافوا إلى ممتلكاتهم ناربون من أملاك غالة[3] . وبذلك صار للمسلمين السيطرة على الطريق الممتد على البحر المتوسط من نهر الرون إلى أرمينيا[4] .

عودة جستنيان الثانى إلى الحكم :

ما اشتهر به جستنيان الثانى من نفس قلقة ، لم يفد فى ترويضها ما حل به من جدع أنفه ، أو نفيه إلى خرسون ، فلم يذعن لما جرى عليه من العزل ، إنما عكف على أن يلتمس من الوسائل ما يكفل له العودة إلى الحكم والانتقام لنفسه . وشجعه على ذلك ما جرى من طرد الإمبراطور ليونتيوس سنة ٦٩٨ ، وما ساوره من الشكوك من أن السلطات المحلية بخرسون ، عزمت على أن تسلمه إلى حكومة القسطنطينية ، وعلم بكل ذلك فى الوقت المناسب ، فقرر أن يهرب

(١) Lewis : op. cit. p. 65.

(٢) Dozy : Reserches sur la Litterature d'Espagne au Moyen Age, 3rd ed. Leiden, 1881, Vol. I. pp. 42—57.

(٣) Lewis : op. cit. p: 65.

(٤) Ibid, p. 66.

إلى إمبراطورية الخزر ، حيث استقبله الخاقان (الملك) بمظاهر الترحيب والتشريف ، فزوجه أخته التى اعتنقت المسيحية ، واتخذت لنفسها اسم تيودورا ، وهو اسم زوجة جستنيان الأول . وأثارت أعمال جستنيان القلق الشديد فى القسطنطينية ، فأرسل الإمبراطور تيباريوس الثالث سفارة إلى ملك الخزر ، يطلب منه إبعاد الملك المعزول[1] ، بل إنه وعده بجائزة سنية ، إذا سلم إليه جستنيان الثانى حياً أوميتاً . وأعد ملك الخزر خطة لتحقيق رغبة الإمبراطور تيباريوس ، وفى الوقت ذاته تظاهر بأنه يعمل على مساعدة جستنيان لاستعادة ملكه ، فأرسل قوات إلى فاناجوريا Phanagoria (طامان الحالية Taman) ، على الشاطئ الشرقى لبوغاز كيرتش Kertch ، حيث يقيم جستنيان ، وأصدر إلى نائبه فى هذه الجهة ، وإلى حاكم البوسفور ، الأوامر لمنع جستنيان من الهروب ، غير أن تيودورا لم تلبث أن وقفت على خبر هذه الخطة ، وأعلمت زوجها بذلك[2] . فأرسل جستنيان زوجته إلى أخيها ، بينما اتخذ طريقه إلى خرسون فى قارب من قوارب صيد السمك ، وانحاز إليه فى خرسون عدد كبير من أصدقائه[3] ، واستطاع بعد مغامرات عديدة أن يبلغ الساحل الغربى للبحر الأسود ، وأن ينشئ فى هذه الجهات علاقات ودية مع تريفل Trevel خاقان البلغار كيما يساعده فى استعادة ملكه . وفى خريف سنة ٧٠٥ ، ظهر جستنيان وتريفل أمام أسوار القسطنطينية ، على رأس جيش ضخم يتألف من البلغار والصقالبة . وعلى الرغم من ضخامة هذا الجيش لم يكن فى وسعه أن يستولى على أسوار العاصمة ، وعندئذ قام جستنيان بمغامرة خطيرة ابتغاء الوصول إلى داخل المدينة ، فسار خلال سقاية تؤدى إلى داخل القسطنطينية ، وسار فى إثره بعض أتباعه الشجعان ، فأثار هذا العمل المباغت فى العاصمة ، من الفزع والرعب ما جعل تيباريوس يفر من وجه هذا المنافس الجرىء ، ووجد جستنيان من

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 125.

(٢) Dunlop : The History of the Jewish Khazars, p. 172.

(٣) Dunlop : op. cit. p. 172.

مساعدة أتباعه فى المدينة ، ما يسّر له الاستيلاء على كل ما يحويه قصر بلاشيرن Blacherne من النفائس ، وبذلك عاد جستنيان إلى عرشه من جديد[1] . بعد أن أمضى عشر سنوات فى المنفى ، واستمر هذا الإمبراطور المجدوع الأنف Rhinotmetus ، والذى لم يكترث بما أصابه من التشويه والتشهير ، يحكم الدولة البيزنطية ست سنوات (٧٠٥ — ٧١١ م) . والواقع أن قوة إرادته دلت على أن هذا النوع من العقوبة ، التى جرى اتخاذها فى القرن السابع ، لم تعد لها أهمية ولم يجر تنفيذها مستقبلا على الملوك المغتصبين أو المخلوعين[2] .

ولما استقر جستنيان فى الحكم ، أرسل أسطولا إلى ملك الخزر ، ليحمل إليه زوجته ، وحاول ملك الخزر أن يسترضيه ، فطلب إليه أن ينسى ما حدث ، وهنأه بالغلام الذى أنجبته تيودورا ، وأرسل أخته إلى زوجها مكرمة ، فأشركها جستنيان معه فى الحكم ، كما جعل ابنه الذى أسماه تيباريوس ، قسيما له فى الملك[3] .

وأسرف جستنيان الثانى فيما أغدقه من المنح والهبات على أعوانه وأصحابه ، واشتد فى الانتقام من أعدائه ، فحصل البلغار من جديد على ما كان يدفعه لهم قنسطنطين الرابع من الجزية ، واتخذ تربفل ملك البلغار ، لقب قيصر ، تشريفاً له وتقديرا لخدماته . وعلى الرغم من أن هذا اللقب لم يكن له من الأهمية ما كان له من قبل ، فإنه لا زال يحتل المكانة التالية للقب الإمبراطور . وهذه هى المرة الأولى التى ظفر فيها أمير أجنبى بهذا النوع من الامتياز . وعلى الرغم من أنه لا يضفى على صاحبه سلطة إمبراطورية ، فإنه يحمل معه المشاركة فى التشاريف الإمبراطورية . وقبل أن يعود تربفل إلى بلاده بما ظفر به من الهدايا الثمينة ، تلقى باعتباره قيصراً ولاء الشعب البيزنطى عند جلوسه إلى جانب الإمبراطور على العرش . أما الإمبراطوران السابقان تيباريوس — أسبهار —

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 125—126.
(٢) Ostrogorowski : ep. cit. p. 126.
(٣) Dunlop : op. cit. 175.

الذى تم القبض عليه أثناء فراره ، وليونتيوس الذى جرى عزله منذ سبع سنوات ، فتقرر إعدامهما بعد تجريسهما والتشهير بهما ، وتقرر شنق عدد كبير من زعماء القادة العسكريين وتعليقهم على أسوار القسطنطينية ، ولقى البطريرك كالينيكوس Callinicus الذى قام بتتويج ليونتيوس ، جزاءه بسمل عينيه . هؤلاء هم باكورة الضحايا فى عهد إرهاب شديد الخطورة ، يرمى إلى استئصال شأفة أعداء الإمبراطور . وأطلق المعاصرون وأعقابهم لقب السفاح المستبد على جستنيان أثناء الفترة الثانية من حكمه . وإذ غلبت عليه نزعة الانتقام ، أغفل كل ما كانت الدولة فى أشد الحاجة إليه ، بأن تهاون فى حماية أملاك الإمبراطورية ، وركز كل اهتمامه وجهده فى الصراع العنيف ضد خصومه الشخصيين[1] .

أفاد المسلمون من كل ما حدث ، ففى سنة ٧٠٩ ، حاصروا طوانة Tyana التى تعتبر من أمنع الحصون بأطراف قبادوقيا[2] ، ولم يكن الجيش البيزنطى من الكفاية الحربية ، بسبب سوء أحواله من جهة ، وبسبب تخلص جستنيان من خيرة جنوده من جهة أخرى ، فضلا عن شدة المسلمين ، ما يجعله يصمد لضغط المسلمين ، فلقى هزيمة منكرة ، وأذعنت طوانه للمسلمين بعد أن أعياها الحصار الطويل ، وفقدت الأمل فى الحصول على إمداد . وفى سنتى ٧١٠ ، ٧١١ اشتدت غارات المسلمين على قليقيه ، فاحتلوا مواقع عديدة ، واستطاعت قوة إسلامية أن تتوغل فى غاراتها حتى بلغت Chrysopolis (سكودرى) ، فألحقت بها خسائر فادحة .

ولم يكتف الإمبراطور بما أجراه بالعاصمة من مذابح جماعية ، بل أرسل حملة تأديبية إلى راڤنا ، لتنتقم له من أهلها الذين أظهروا له الكراهية والعداوة أثناء حكمه للمرة الأولى ، فتعرضت المدينة للتخريب والتدمير والنهب ، وتقرر

(١) Ostrogorowski, op. cit. pp, 126—127.
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ، ص ٦٤ .

إرسال أعيانها مكبلين بالأغلال إلى القسطنطينية ، حيث تم إعدامهم ، وجرى سمل عينى أسقفهم . على أن ما حدث بين كنيستى روما والقسطنطينية من نزاع على قرارات مجمع تروللو تمت تسويته فى هدوء وسكينة ، وفى أواخر سنة ٧١٠ قام البابا قنسطنطين الأول بزيارة القسطنطينية بناء على دعوة الإمبراطور جستنيان ، فاستقبله بمظاهر الترحيب والتكريم ، فلما عاد البابا إلى روما تلقاه أهلها ببالغ الفرح والسرور وعاد السلام والهدوء للعقيدة فى نطاق الإمبراطورية بعد أن انحسرت حدودها وأطرافها[1] .

وأعقب الحملة التأديبية التى وجهها جستنيان إلى راڤنا ، نشوب ثورة فى أواخر سنة ٧١٠ . ومع ذلك فإنه لم يحفل بها . ووجه الإمبراطور حملة مماثلة ضد خرسون ، الموضع الذى نفى إليه من قبل ، وصدرت الأوامر بأن يضع عساكره سيوفهم فى أهل خرسون[2] والبوسفور ، ومن بين قادة الحملة باردانس Bardanes . على أن انتقامه فى هذه الجهات بلغ من الشدة والصرامة ما لم يبلغه فى راڤنا ، وكلفه ذلك التضحية بنفسه . ذلك أن سكان خرسون كانوا أول من أعلنوا الثورة ، وتلاهم الجيش والأسطول خوفاً من انتقام الإمبراطور بعد أن فشلوا فى قمع الثورة ، ولقيت الثورة التأييد من الخزر الذين بسطوا سلطانهم حتى شمل شبه جزيرة القوم ، فتقرر إعلان باردانس الأرمنى إمبراطورا ، واتخذ لقب فيليبيكوس Philippicus . وحين ظهر بأسطوله فى مياه القسطنطينية ، فتحت له المدينة أبوابها . إذ لم يكن بها من يؤيد جستنيان ، واغتال الإمبراطور المخلوع جستنيان ، أحد قادته المقربين إليه ، وأرسلوا برأسه إلى روما ثم راڤنا ليشهدها الناس ، ولقى ابنه الصغير تيباريوس مصرعه ، وبذلك انتهت أسرة هرقل فى وسط القتل والإرهاب[3] .

---

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 225—226.

(٢) كانت خرسون والبوسفور من أملاك الدولة البيزنطية ، وبعد أن غادر جستنيان منفاه ، استولى الخزر على تلك الجهات ، فأرسل جستنيان تلك الحملة لاستعادة سلطان بيزنطة . انظر (Dunlap, op. cit. p. 174)

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 127.

تعتبر أسرة هرقل أول أسرة بيزنطية بالمعنى الصحيح ، تعاقب أفرادها على الحكم خلال قرن من الزمان . وأنجبت هذه الأسرة طائفة من الرجال ، اتصفوا بالكفاية فى الأمور السياسية ، غير أن هذه الكفاية امتزجت بما اشتهر به أباطرة هذه الأسرة من القلق وعدم الاتزان ، فمؤسس هذه الأسرة ، وهو هرقل ، وهب الإمبراطورية حياة جديدة ، وقاد جيشه فى حرب صليبية ضد الفرس ، واحتفل بما أحرزه عليهم من الانتصارات الباهرة ، غير أن قواه لم تلبث أن انهارت ، وتبلد شعوره ، ووقف جامداً ينظر إلى مضى المسلمين فى زحفهم ، وانتهت حياته بما أصابه من الجنون . أما قنسطانز الثانى ، فإنه تولى العرش طفلا ، امتلأ ذهنه بما شاع فى أسرته من الكراهية والفتن ، فحاول أن يظهر بمظهر القوى الإرادة الجرىء ، غير أنه لم يلبث أن هوى صريع غاية بعيدة التحقيق . وأحرز قنسطنطين الرابع انتصارات عديدة ، وادعى لنفسه لقب مخلص الإمبراطورية ، واشتهر بأنه قائد حربى عظيم وسياسى محنك ، ومات وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . وعلى الرغم مما اشتهر به جستنيان الثانى من المواهب النادرة ، ومن أنه فاق غيره فى إقامة نظام إدارى قوى ، فإن ما جنح إليه من الاستبداد . وما اشتهر به من القسوة والعنف والقلق ، أدى به إلى أن يلقى أسوأ ما أصاب إمبراطور من كارثة ، وتسبب فى سقوط بيته وأسرته .

والواقع أن ما اشتهر به بيت هرقل من الابتكار ، انتهى فى آخر عصر جستنيان الثانى فى ولايته الأولى للحكم . ففى هذه الفترة خاضت الإمبراطورية البيزنطية فى سبيل بقائها حروباً لم تشهد لها مثيلا من قبل ، وأقامت أهم تنظيم داخلى ، واستطاعت بعد نضال شديد أن تحافظ على أملاكها الداخلية ، التى تعتبر بالغة الأهمية لها . وعلى الرغم من أن مساحة الإمبراطورية قد جرى انتقاصها ، فإن بيزنطة استطاعت فى نطاق الحدود الجديدة ، أن تبقى أشد تماسكاً وأقوى صلابة عما كانت عليه من قبل . فما حدث من إصلاحات داخلية أساسية ، وما جرى من الاستعانة بمصادر جديدة من القوة والنشاط مستمدة من الخارج ، أثار فى الدولة المتداعية حياة جديدة . إذ صار نظامها الحربى

أشد متانة وصلابة ، ونال حظاً كبيراً من الاتساق والوحدة ، فجرت إعادة تنظيم الجيش بالاستعانة بالجند الفلاحين ، وظهرت فلاحة حرة يسَّرت زراعة الأرض ، فصارت من مصادر بيت المال بما يدفعه أربابها من الضرائب . هذه المبادىء الأساسية ظهرت فى القرن السابع ، وقام عليها قوة الدولة البيزنطية . وبفضل إصلاحات أسرة هرقل ، استطاعت الدولة البيزنطية أن تحافظ على كيانها ، وتدرأ خطر المسلمين والبلغار(١) .

ومن الناحية الحضارية جرت فى بيزنطة تغييرات كبيرة الأهمية ، إذ أن عملية الاصطباغ بالصبغة اليونانية قطعت شوطاً كبيراً ، فأصبحت الإمبراطورية البيزنطية يونانية فى لغتها وثقافتها ، وبذلك حلت الإمبراطورية البيزنطية محل الإمبراطورية الرومانية المتأخرة(٢) .

وظل الإمبراطور يحتفظ بألقابه اللاتينية القديمة حتى أوائل القرن السابع ، ومن هذه الألقاب « التقى السعيد ، الخالد ، العظيم » ، غير أن انتصار هرقل على الفرس جعله يضيف إلى ألقابه ، اللقب اليونانى « باسيليوس » . والأسرات التى أعقبت جستنيان الأول على حكم بيزنطة كانت أسيوية ، كأسرة تيباريوس وموريس وهرقل ، شاع بينها استخدام اللغة اليونانية ، ولذا صار البابا جريجورى الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤) يتذمر لأنه لم يجد مترجمين أكفاء فى العاصمة البيزنطية(٣) .

وجرى استخدام اليونانية فيما صدر من التشريعات فى القرن السابع . واتخذت الوظائف صفة يونانية . وأصبحت اللغة اليونانية لغة الإدارة والجيش(٤) .

وغلب أيضاً على الحياة البيزنطية طابع قوى من التصوف والزهد ، فصار الأباطرة متصوفة ، صار هرقل يعرف بأنه « مخلص الأرض المقدسة » ، وأطلق

(١) Ostrogorowski op. cit. p. 128.

(٢) Ibid. p. 129.

(٣) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ص ٢٨٠ .

(٤) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ص ٢٨١ .

على قنسطنطين لقب « مصباح الأرثوذكسية » ، وتلقب جستنيان الثانى « بخادم المسيح » . وازدادت قوة الكنيسة ، وعظمت هيبتها(١) .

وترتب على الفتوح الإسلامية ، أن انفصل عن جسم الدولة البيزنطية كل من قال بالطبيعة الواحدة ، فأصبحت الدولة أرثوذكسية كاثوليكية موحدة ، تتفق حدودها مع سلطان بطريركية القسطنطينية ، وأصبح الإمبراطور (الباسيليوس) حراً ، يقول بعقيدة يجمع عليها رعاياه ، فيقسم عند تقبله التاج من يد بطريرك القسطنطينية « أنه سيكون ابن الكنيسة البار وخادمها الأمين » ، وأنه سيرعاها بعنايته ويدافع عنها بكل جهده ، ويحترم امتيازاتها وتقاليدها ، فيحرم كل ما تحرمه ، ويؤيد كل ما أقرته مجامعها(٢) .

وتزايد نفوذ الكنيسة بين العامة وسائر الناس ، فبهرت عظمة طقوسها العيون ، وحرك وعظها الأفئدة والصدور ، وتعلق الشعب بالرهبان ، وعقد على صلواتهم وتضرعاتهم الآمال . فأقبل الناس على الديرية . وتعددت الأديرة ، فصار منها بالعاصمة عدد كبير . وبسقوط الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس فى يد المسلمين ، أصبح لبطريرك القسطنطينية الصدارة فى الشرق . وتقرر سنة ٥٨٢ أن يكون بطريرك القسطنطينية بطريركا مسكونيا . وترتب على هذا القرار جدل عنيف بين حامل هذا اللقب ، وبين بابا روما . وتلقى البطريرك التأييد من الأمبراطور البيزنطى ، وبذلك بذرت البذور التى تؤدى إلى الانفصال بين كنيستى روما والقسطنطينية . وما اتبعه الأباطرة البيزنطيون من بيت هرقل من مناوءة البابوية ، كالذى جرى من فصل كنيسة راڤنا عن كنيسة روما سنة ٦٥٩ ، والقبض على البابا مارتن وإرساله إلى القسطنطينية ، كان لذلك أثر سىء فى نفوس أبناء روما ، وزاد من التباعد بين الكنيستين الشرقية والغربية ، الاختلاف فى اللغة ، إذ ساد استعمال اللغة اليونانية فى كنيسة القسطنطينية بينما جرى استخدام اللغة اللاتينية فى كنيسة روما ويتبعها من الكنائس ، يضاف إلى

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 129.

(٢) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ص ١٨٢ .

Runciman : Byzantine Civilisation p. 110.

ذلك ما أصابته كنيسة القسطنطينية من نجاح فى المجمع المسكونى الذى انعقد سنة ٦٩٢ ، والذى تقرر فيه أن يكون لكنيسة القسطنطينية من الصدارة ما لكنيسة روما[1] .

وأدى انتشار الرهبانية فى الدولة البيزنطية إلى ازدياد عدد الرهبان ، وترتب على ذلك أن نقص دخل الخزانة ، نظراً لإعفاء الرهبان من دفع الضرائب ، فتوفر للأديرة من الثروة ، ما جعل الرهبان عنصراً سياسيا هاما ، يتدخل فى الأمور السياسية ويعمل على مناهضة الأمبراطور ؛ يضاف إلى ذلك ما كان لهؤلاء الرهبان من أثر كبير على جموع الناس . والواقع أن الإقطاعات الحربية والرهبانية صبغت الدولة البيزنطية بما كان لها من طابع خاص ، إذ أصبحت إمبراطورية الجند والرهبان[2] .

---

(١) Baynes : The Byzantine Empire. p. 94.
أسد رستم : الروم . ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 133.

الفصل الخامس

عصر مناهضة عبادة الصور المقدسة

(٧١١ — ٨٤٣)

الأسرة الإيسورية

يقع تاريخ حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة Iconoclasm[1] فى مرحلتين . تمتد المرحلة الأولى من سنة ٧٢٦ إلى سنة ٧٨٠ ، وتنتهى من الناحية الرسمية بانعقاد المجمع المسكونى السابع . أما المرحلة الثانية ، فتمتد من سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٤٣ ، وتنتهى بما هو معروف باسم العودة إلى الأرثوذكسية .

على أن دراسة عصر مناهضة عبادة الصور المقدسة لم تكن يسيرة سهلة ، لأن أعمال محطمى الصور المقدسة ، كالرسومات أو القرارات الإمبراطورية ، وأعمال المجامع اللايقونية التى انعقدت فى ٧٥٣ — ٧٥٤ و ٨١٥ ، وما أصدره محطمو الصور المقدسة من رسائل ، دمرها عباد الصور بعد أن أحرزوا انتصارهم . وما وصل إلينا من مؤلفات اللايقونيين لم تكن إلا شذرات متفرقة فى مؤلفات عباد الصور ، أوردوها ، ليقيموا الدليل على بطلانها وفسادها[2] .

ومن الدليل على ذلك أن ما أصدره المجمع اللايقونى المنعقد ٧٥٣ — ٧٥٤ من قرارات ، إنما تضمنها أعمال (قرارات) المجمع المسكونى السابع ، والراجح أنها لم تكن فى صورتها الأصلية ، أما قرار المجمع المنعقد سنة ٨١٥ ، فإنه ورد فى

---

(١) هذه اللفظة مصدر الفعل اليونانى القديم (Eiko) بمعنى أنا أشبه أو أماثل ، والاسم Eikon ، ومعناه صورة أو صورة مقدسة . ومن المشتقات المعروفة فى التاريخ البيزنطى Iconoclater, Icondule بمعنى عابد الصور ، Iconoclast بمعنى محطم الصور (طرخان : الحركة اللأيقونية ص ٦) .

(٢) Vasiliev, p. 25. Note. 63.
Vassiliev : op. cit. p. 251.

ذلك ما أصابته كنيسة القسطنطينية من نجاح فى المجمع المسكونى الذى انعقد سنة سنة ٦٩٢ ، والذى تقرر فيه أن يكون لكنيسة القسطنطينية من الصدارة ما لكنيسة روما[١] .

وأدى انتشار الرهبانية فى الدولة البيزنطية إلى ازدياد عدد الرهبان ، وترتب على ذلك أن نقص دخل الخزانة ، نظراً لإعفاء الرهبان من دفع الضرائب ، فتوفر للأديرة من الثروة ، ما جعل الرهبان عنصراً سياسيا هاما ، يتدخل فى الأمور السياسية ويعمل على مناهضة الأمبراطورة يضاف إلى ذلك ماكان لهؤلاء الرهبان من أثر كبير على جموع الناس . والواقع أن الإقطاعات الحربية والرهبانية صبغت الدولة البيزنطية بما كان لها من طابع خاص ، إذ أصبحت إمبراطورية الجند والرهبان[٢] .

(١) Baynes : The Byzantine Empire. p. 94.

أسد رستم : الروم . ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 133.

الفصل الخامس

عصر مناهضة عبادة الصور المقدسة

(٧١١ — ٨٤٣)

الأسرة الإيسورية

يقع تاريخ حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة Iconoclasm[١] فى مرحلتين . تمتد المرحلة الأولى من سنة ٧٢٦ إلى سنة ٧٨٠ ، وتنتهى من الناحية الرسمية بانعقاد المجمع المسكونى السابع . أما المرحلة الثانية ، فتمتد من سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٤٣ ، وتنتهى بما هو معروف باسم العودة إلى الأرثوذكسية .

على أن دراسة عصر مناهضة عبادة الصور المقدسة لم تكن يسيرة سهلة ، لأن أعمال محطمى الصور المقدسة ، كالرسومات أو القرارات الإمبراطورية ، وأعمال المجامع اللايقونية التى انعقدت فى ٧٥٣ — ٧٥٤ و ٨١٥ ، وما أصدره محطمو الصور المقدسة من رسائل ، دمرها عباد الصور بعد أن أحرزوا انتصارهم . وما وصل إلينا من مؤلفات اللايقونيين لم تكن إلا شذرات متفرقة فى مؤلفات عباد الصور ، أوردوها ، ليقيموا الدليل على بطلانها وفسادها[٢] .

ومن الدليل على ذلك أن ما أصدره المجمع اللايقونى المنعقد ٧٥٣ — ٧٥٤ من قرارات ، إنما تضمنها أعمال (قرارات) المجمع المسكونى السابع ، والراجح أنها لم تكن فى صورتها الأصلية ، أما قرار المجمع المنعقد سنة ٨١٥ ، فإنه ورد فى

(١) هذه اللفظة مصدر الفعل اليونانى القديم (Eiko) بمعنى أنا أشبه أو أماثل ، والاسم Eikon ، ومعناه صورة أو صورة مقدسة . ومن المشتقات المعروفة فى التاريخ البيزنطى Iconoclater, Icondule بمعنى عابد الصور ، Iconoclast بمعنى محطم الصور (طرخان : الحركة اللاأيقونية ص ٦) .

(٢) Vasiliev, p. 25. Note. 63.
Vassiliev : op. cit. p. 251.

رسالة البطريرك نقفور ، بينما أنطوت ما أصدره خصوم الحركة اللاأيقونية ، ومن أشهرها الرسائل المعروفة باسم .

Treatises Against Those Who Depreciate the Holy Images.

التى أصدرها العالم الدينى حنا الدمشقى ، الذى عاصر أول أمبراطور من المناهضين لعبادة الصور المقدسة ، على أن مناهضى عبادة الصور المقدسة لجأوا أحيانا إلى أن يؤلفوا رسائل وكتبا لنشر أفكارهم ودعاويهم ، غير أن هذه الرسائل اتخذت وجهة نظر معادية لحركة عبادة الصور ، ولذا اختلف العلماء فى الأزمنة المتأخرة فى تقديرهم لعهد مناهضى عبادة الصور المقدسة(١) .

وأول ما اهتم به الباحثون من مسألة عبادة الصور المقدسة ، أنهم حرصوا على التعرف إلى أسباب حركة مناهضة الصور ، التى استمرت نحو مائة سنة ، وما ترتب عليها من نتائج وخيمة على الإمبراطورية . فرأى فريق من الباحثين أن لما اتخذه الأباطرة اللاأيقونيون من سياسة ، أسباباً دينية ، بينما اعتقد الفريق الآخر أن الأسباب السياسية هى التى دفعت هؤلاء الأباطرة إلى أن يتبعوا مارسموه لأنفسهم من سياسة(٢) .

غلب على الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية ، الروح الدينى المشبع بالأوهام والخرافات ، فضلا عن الاعتقاد فى المعجزات والنبوءات وذيوع الأناشيد الدينية ، فغمر الطابع الدينى جميع مظاهر الحياة ، بل إن كافة النوازل والمحن جرى تفسيرها تفسيراً دينياً . فليس فى وسع الإنسان أن يدفعها ، إذ أنها ليست إلا أمراً سماوياً يتحتم التسليم بها والإذعان إليها(٣) . وازدادت تبعاً لذلك مكانة رجال الدين ، الأحياء منهم والأموات ، منهم تلتمس البركات ، وإلى مشاهدهم يحج أصحاب الحاجات ، ثم يعودون بأثر من

(١) Vasiliev : op. cit. p. 251.
Baynes : op. cit. p. 89.
(٢) Vasiliev : op. cit. p. 252.
(٣) طرخان : الحركة اللاايقونية ص ٤ . Baynes : op. cit. p. 23

آثارهم أورسم من رسومهم . ليكون هذا الرسم أو ذلك الأثر الملاك الحارس لهم ، والأب الروحى لهم ولأطفالهم وذويهم . وعلى هذا النحو ارتفع شأن القديس ديمتريوس فى سالونيك والقديس أندروفى باتراس ، فحاط بصور هذين القديسين هالة من التقديس والإجلال ، بل خلع عليها طلابهما ومريدوهما صفات لبست من صفات البشر ، كالتنزيه والعصمة . ومن الطبيعى أن تحتل صور المسيح والعذراء المكانة المرموقة فى القسطنطينية وسائر المدن البيزنطية ، أمامها سجد الناس يستلهمون النصرة ودفع المكروه ، ومنها التمسوا البركة والشفاء وقضاء الحاجات واعتقدوا أنها تخفر المنازل ، وتحمى سلعة التاجر ، وتزود مريديها بقوة وحيوية لاحد لها . وذهبوا إلى أبعد من ذلك ، ففسروا الحوادث التاريخية على ضوء هذا المعتقد الشائع . فاعتبروا أن انتصار هرقل على فارس إنما يرجع إلى أنه كان يحمل صورة العذراء ، دون نظر إلى ما أبداه من مهارة وشجاعة وقوة الجيش البيزنطى ونحو ذلك من الأسباب التاريخية(١) .

امتلأت الكنائس والأديرة بهذه الصور المقدسة ، وجرى تعليقها بالدور والحوانيت ، وطرزت على الملابس ، ونقشت على الكتب والأثاث وسائر الأدوات ، ونحتوا لهذه الصور تماثيل أقاموها فى الميادين العامة وعلى أسوار القصور الإمبراطورية(٢) .

اعتبر أنصار عبادة الصور المقدسة ، أن هذه الصور ليست إلا إنجيل أولئك الذين لم يكن لهم حظ من التعليم ، فالصورة عند الجاهل لها من التأثير الروحى ما لما يستمع إليه من آيات الكتاب المقدس ، فتجعله قريبا لإدراكه . ولم يكن من أمر الأيقونات فحسب أنها وسيلة للتعليم وبعث الحمية والشجاعة فى نفوسهم(٣) ، بل انطوى دفاع عباد هذه الصور على ما هو أعمق

(١) طرخان : الحركة اللاايقونية ص ٥ .
(٢) Oman : The Byzantine Empire p. 191.
(٣) Baynes : op. cit. p. 90.

من ذلك . فالمعروف أن العقل البشرى يحاول أن يتجنب أن يحصل على المساعدة من كل ما يتعلق بالجسد والبدن . على أن هذه المحاولة أصابها الفشل منذ بداية الأمر . فما يتعلق بالله من أمور خفية غير ظاهرة منذ خلق العالم ، إنما تظهر من خلال الصور . فلكل شىء ناحيتان : ناحية جسدية مادية وناحية روحية . فالروح إنما تستتر وراء حجاب الجسد . وفى استطاعتنا أن نصغى للعبادات عن طريق الأذن . ومن ثم ندرك الحقائق الروحية . فالتعميد لا يتم إلا بعملية مزدوجة بالماء والروح . وعلى هذا النحو يجرى التناول والصلاة والترتيل . ومن أجل هذا اجتمع فى المسيح الجسد والروح . أما المناهضون لعبادة الصور المقدسة ، فمصدر كراهيتهم يرجع إلى وجهة نظرهم للمادة ، إذ أنهم يعتبرون المادة شر . غير أن هذه الفكرة إنما تنطوى على ما هو معروف عند المانوية من الثنائية المستحيلة . فالمسيح باستحالته إلى جسد جعل المادة مقدسة . وإذا جرى إنكار ما للمسيح من صفة مادية ، فمعنى ذلك إنكار التجسد ، وبذلك نكون قد طعنا صميم المعتقد المسيحى . فلم تكن المادة هى التى يجرى عبادتها ، بل تجرى عبادة السيد الذى استحال مادة من أجلنا . فاتخذها موطناً له ومن خلالها صار يعمل لخلاصنا . فلم تكن المادة فى ذاتها موضع احتقار ، بل إن ما يصدر عن الإنسان من خطيئة ، يعتبر محتقراً ، فما يجرى من صلاة لكل الرسوم والصور ، إنما يهب المادة قوة إلهية . فالمادة ذاتها لا قيمة لها ، غير أن كل من يجرى تصويره ورسمه ، إذا كان على جانب من الجلال والورع ، فإن المؤمنين يشاركونه ورعه على قدر إيمانهم . ويشير القديس باسيل إلى « أن تبجيل الصور إنما يوصلنا إلى أصحابها » . والخلاصة أن عباد الصور يؤكدون أنك إذا لم تعبد الصورة ، فأنت لا تعبد ابن الله ، الذى يعتبر الصورة الحية للاله الذى لا تبصره[1] .

(١) Baynes : op. cit. pp. 90—91.

وما حل بالإمبراطورية البيزنطية من أزمة خطيرة زمن حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة ، إنما جرى توقعها زمن فيليبيكوس باردانس ، وإليها يرجع ما كان لعصره من أهمية تاريخية . إذ أن فيليبيكوس بعث المنازعات الدينية من جديد ، وأثار النزاع على الأيقونات ، وهو النزاع الذى يعوزه الطابع الدينى الخالص ، على الرغم من استخدام ما للأيقونة من صفة رمزية فى الجدل والنقاش . وبذلك سبق فى الزمن ما حدث فيما بعد من نضال شديد حول عبادة الصور المقدسة[1] .

والمعروف أن قلب الدولة البيزنطية صار فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى يتمثل فى آسيا الصغرى وأرمينيا ، حيث لا زالت المؤثرات التطهرية (التقشفية) شديدة قوية إذ أن هذه الجهات تعتبر موطن البيالصة الذين يمقتون الديرية ، وينكرون كل ما للكنيسة من طقوس وشعائر حافلة بالأساطير . ومن هذه الجهات جاء الأباطرة اللاأيقونيون ، وساندهم الجيش الذى جاء معظمه من آسيا الصغرى وأرمينيا . وتعتبر هذه الجهات أيضاً موطن جانب كبير من الموظفين والأساقفة ، بينما حارب فى سبيل الأيقونات بلاد اليونان والأديرة فى أوربا[2] .

وباردانس أرمنى أكثر اتصالا وارتباطاً بوطنه أرمينيا ، من أفراد بيت هرقل . واشتهر أيضاً بميوله المونوفيزتية ، ولما لم يستطع إحياء المونوفيزتية ، حرص على أن يكون نصير المونوثلستية التى أعلن المجمع المسكونى السادس منذ ثلاثين سنة بطلانها . أصدر باردانس قراراً يقضى بإلغاء قرارات ذلك المجمع ، واعتبر المونوثلستية العقيدة الوحيدة الصحيحة ، وأمر بإزالة ما يتعلق بهذا المجمع من الكتابات المنقوشة على باب مليون Milion فى واجهة القصر الإمبراطورى ، وأحلّ مكانها صورتين للإمبراطور والبطريرك سرجيوس . وعلى هذا النحو لجأ الأباطرة اللاأيقونيون فيما بعد إلى إزالة الأيقونات التى لها صفة دينية ، وعملوا

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 134—135.

(٢) Baynes : op. cit, pp. 88—89.

على نشر صورة الإمبراطور وذيوعها . وعلى الرغم من أن مونوثلستة فيليبيكوس (باردانس) لم تنتشر وأن سياسته الكنسية لم تؤد إلا إلى إثارة المعارضة ، والتعجيل بسقوطه ، فإنه وجد أنصاراً بين كبار رجال الدين البيزنطيين ، ومنهم البطريرك جرمانوس . يضاف إلى ذلك أن ما ظهر فى زمنه من الميول المونوفيزتية يدل على أن النحلة المونوثلستية المونوفيزتية لم تُستأصل نهائياً من بيزنطة[١] .

ومن الطبيعى أن يترتب على اعتناق الإمبراطور لنحلة قضى المجمع المسكونى ببطلانها ، إزدياد السخط فى روما . فحينما تولى فيليبيكوس العرش ، أرسل إلى البابا قنسطنطين الأول صورته ، وأعلن اعترافه بالإيمان (الدين) غير أن هذا الاعتراف كان مشبعاً بالروح المونوثلستية ، فلم تحز صورة الإمبراطور الملحد القبول فى روما ، وجرى عدم التصريح بنقشها على النقود ، وتقرر إبطال إسم الإمبراطور من الصلوات المقررة فى الطقوس الكنسية ، وتقرر أيضاً إسقاط اسمه من الوثائق والقوانين . وما حدث من إزالة كل ما يتعلق بالمجمع المسكونى السادس من الرسوم بالقصر الإمبراطورى بالقسطنطينية ، زاد فى حنق البابا الذى أمر بوضع جميع صور ذلك المجمع المسكونى فى كنيسة القديس بطرس بروما . ومن ذلك يتبين أنه حدث قبيل نشوب حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة ، نوع من الشقاق بين الإمبراطور الملحد ، والبابا باعتباره زعيم المسيحية الصحيحة ، وتعتبر الأيقونة (الصورة) ، أساس هذا النزاع . وأظهر كل من الجانبين حججه بقبول الصور أو رفضها .

وزاد من الفوضى القائمة ، ما حدث من اضطرابات خطيرة فى مجال الشئون الخارجية ، إذ أن المسلمين أفادوا من القلق الناجم عن الانقلاب الحكومى الذى حدث أخيراً فى بيزنطة ، وأخذوا يغيرون من جديد على أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، وانتهز تريفل ملك البلغار الفرصة ليثأر لمقتل حليفه القديم ، جستنيان

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 135.

الثانى ، بأن أعلن الحرب على فيليبيكوس الإمبراطور البيزنطى الجديد ، فزحف بجيشه حتى بلغ أسوار القسطنطينية ، وخرب ما يجاورها من الأراضى ، وتعرضت ضواحى المدينة للنهب ، مما يدل على ضعف القوات البيزنطية المرابطة فى الأجزاء الأوربية من الإمبراطورية[١] . ولإنقاذ الموقف ، تحتم نقل الجند من ثغر الأبسيق (بآسيا الصغرى) عبر البوسفور ، غير أن هذه القوات لم تلبث أن أعلنت الثورة على الإمبراطور فيليبيكوس ، وفى ٣ يونية سنة ٧١٣ تقرر عزله عن العرش وسمل عينيه[٢] .

وعلى الرغم من أن هذه الثورة نشبت فى الجيش ، فإن الذى تولى العرش ، رجل من السلك المدنى ، وهو أرثيميوس **Arthemius** ، الذى اتخذ اسم أنستاسيوس . واشتهر أنستاسيوس بخبرته الفائقة فى الشئون المالية . وأول عمل قام به الإمبراطور الجديد أنه تخلص من المونوثلستية ، واعترف بقرارات المجمع المسكونى السادس وأعاد كل ما يتعلق بهذا المجمع من الرسوم التى أزالها فيليبيكوس ، وأمر بتحطيم صور فيليبيكوس وسرجيوس .

أما إغارات العرب فلم يكن المقصود منها ، فيما يبدو ، سوى التمهيد للقيام بهجوم كبير على القسطنطينية . فبذل أنستاسيوس كل ما فى وسعه من جهد ، لإصلاح القوى الحربية ، فعمل على توفير أسباب الدفاع عن القسطنطينية ، وتزويدها بالمئونة ، وعين خيرة رجالة قادة ، وعزم على أن يسبق خصومه ، بأن يشن هجوماً مفاجئاً على الأسطول الإسلامى ، قبل أن يستكمل أهبته وعدته . فوقع اختيار أنستاسيوس على جزيرة رودس لتكون قاعدة للقوات البيزنطية . غير أنه ما كاد جند ثغر الأبسيق يطأون أرض رودس حتى أعلنوا الثورة ، وأبحروا إلى مواطنهم بآسيا الصغرى ، واختاروا أحد مواطنهم ، تيودوسيوس ، إمبراطوراً . وكان تيودوسيوس من جباة الضرائب ، وحاول أن يقيل نفسه من هذا الشرف الخطير ، غير أنه جرى القبض عليه ، فاضطر إلى قبول التاج

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 136.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 137.

الإمبراطورى . وأعقب اختياره نشوب فتنة داخلية استمرت ستة شهور ، ولم تخمد إلا بعد أن استطاع جند ثغر الأبسيق ، بمساعدة القوط اليونانيين ، الذين استقروا منذ زمن بعيد فى الأقاليم التى يتألف منها ثغر الأبسيق ، أن يولوا مرشحهم عرش القسطنطينية فى نهاية سنة ٧١٥ ، أما أنستاسيوس فلجأ إلى الدير(١) .

ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) :

لم يحكم الإمبراطور الجديد ، تيودوسيوس الثالث ، إلا فترة قصيرة . وما حدث فيما بعد من التطورات إنما ترتبط بالإمبراطور ليو الثالث . كان ليو قائد ثغر الأناتوليك هو المسئول عن كل ذلك . نبت ليو من أسرة فقيرة كانت تنزل بشمال الشام(٢) . ثم انتقل مع والديه ، فى الفترة الأولى من حكم جستنيان الثانى إلى تراقيا ، وفقاً لما جرى عليه جستنيان الثانى من سياسة الاستيطان والاستغلال . ثم واتاه الحظ حين دخل فى خدمة جستنيان الثانى ، أثناء زحفه على تراقيا سنة ٧٠٥ ، بعد هروبه من منفاه لاستعادة ملكه ، فكافأه جستنيان بأن جعله فى وظيفة Spartharius ، ومنذ ذلك الحين ذاع صيته ، فخدم جستنيان والأباطرة الذين خلفوه على الحكم ، وسنحت الفرصة لأن تظهر مواهبه العسكرية والدبلوماسية ، فاشترك فى الحملة الموجهة إلى القوقاز ، ثم عينه أنستاسيوس الثانى قائداً على ثغر الأناتوليك ، فصار بذلك على رأس أكبر الأقاليم البيزنطية وأكثرها أهمية ، فاستغل ليو مركزه للوثوب منه إلى العرش ،

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 137.

(٢) اختلف المؤرخون فى الموطن الأصلى لأسرة ليو ، فجعله بعضهم فى اسوريا Isauria ، بجنوب شرق آسيا الصغرى ، واعتبره آخرون فى مرعش Germanicea التى تقع فى داخل الحدود الشمالية للشام ، شرق قليقية . ويشير مصدر عربى إلى أن ليو مسيحى ، من نصارى مرعش اشتهر بطلاقته فى التحدث باللسانين العربى والرومانى . أنظر :

Vasiliev : op. cit. p. 234.

Brouks: "The Campaign of 716 — 718 from Arabic Sources" Journal of Hellenic Studies. XIX. (1899), pp. 21—22.

ولم يلبث أن أعلن الثورة على تيودوسيوس بعد سقوط أنستاسيوس ، وتحالف مع أرتاباسدوس Artabasdus ، قائد ثغر الأرمنياك ، ووعده بأن يزوجه ابنته وأن ينعم عليه باللقب الرفيع الشأن المعروف Curopalates ، ثم دخل فى مفاوضات مع العرب وعقد معهم اتفاقاً ، اعترفوا فيه بأن يكون إمبراطوراً . ولما اطمأن ليو إلى حماية مؤخرة جيشه ، أعلن تحديه لحكومة القسطنطينية .

والواقع أن النضال بين ليو وبين الإمبراطور تيودوسيوس ، ليس إلا نضالا بين ثغرى الأناتوليك والأرمنياك من جهة ، وبين ثغر الأبسيق الذى يساند تيودوسيوس الثالث ، من جهة أخرى . سار ليو إلى إقليم ثغر الأبسيق وألقى القبض على الإمبراطور تيودوسيوس وحاشيته فى نيقوميديا ، وواصل مسيره حتى بلغ أبواب Chrysopolis (سكودرى) ، ثم جرت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بأن تنازل تيودوسيوس عن العرش ، بعد أن حصل على كل ما يلزمه هو وابنــه من الضمانات ، وأمضى ما تبقى من حياته راهباً فى أفسوس .

وفى ٢٥ مارس سنة ٧١٧ ، دخل ليو العاصمة (القسطنطينية) ، وتم تتويجه إمبراطوراً فى كنيسة القديسة صوفيا ، وبذلك انتهت مرحلة من النضال فى سبيل الوصول إلى العرش ، ووجدت الإمبراطورية ، بعد عشرين سنة سادت فيها الفوضى ، فى ليو الثالث حاكماً ، لم يكن عليه فحسب أن يقيم حكومة راسخة مستقرة ، بل تحتم عليه أيضاً أن يؤسس أسرة جديدة(١) .

وأول ما قام به الإمبراطور الجديد من الأعمال ، أن يسهر على حماية الإمبراطورية من الأخطار التى تتعرض لها من قبل العرب . فمنذ أن حبطت جهود الإمبراطور أنستاسيوس الثانى للقيام بهجوم مضاد للعرب ، بسبب ما نشب من الحروب الداخلية ، صار القتال يجرى تحت أسوار المدينة . فالقوات الإسلامية أوغلت فى آسيا الصغرى فى زمن الإمبراطورين السابقين على ليو ، فاحتلت سرديس وبرجاموس ، الواقعتين قرب شواطئ بحر إيجة . وتولى

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. pp. 137-138.

قيادة الجيش الإسلامى مسلمة بن عبد الملك ، الذى يعتبر من خيرة القادة المسلمين ، وما كاد يمضى ستة شهور على دخول ليو إلى القسطنطينية سبتمبر سنة ٧١٧ م حتى تحرك المسلمون من برجاموس نحو الشمال ، فبلغوا أبيدوس الواقعة على بوغاز الدردنيل ، فلما عبروا الشاطئ الأوربى ، ألفوا أنفسهم عند أسوار القسطنطينية ، وفى الوقت ذاته كان أسطول إسلامى ضخم مؤلف من ١٨٠٠ سفينة ، يجتاز الدردنيل وبحر مرمرة ، ويحصر المدينة من جهة البحر ، فتعرضت القسطنطينية بذلك لحصار شديد براً وبحراً . وظهرت مواهب ليو الحربية فيما قام به من الدفاع عن المدينة(١) . إذ أغلق مدخل البوسفور بسلسلة ضخمة من الحديد ، وشحن أسوار العاصمة بالعساكر الذين بذلوا كل الجهود لمنع المسلمين من اقتحام الأسوار . وطال الحصار ، وعمل مسلمة بن عبد الملك من الخشب بيوتاً أمضى بها الشتاء(٢) ، غير أن برد الشتاء بلغ من القسوة والشدة ما عانى منه المسلمون كثيراً . يضاف إلى ذلك أن ليو دخل فى مفاوضات مع البلغار ، فهاجموا المسلمين الذين أحدقوا بالمدينة من الجانب الأوربى ، وردوهم عنها(٣) ، وأعقب ذلك ما سببته النيران الإغريقية من خسائر فادحة للأسطول الإسلامى(٤) ، وزاد الأمر سوءاً ما جرى من تواطؤ البحارة المسيحيين ، الذين يعملون بالأسطول الإسلامى مع البيزنطيين ، فترتب على كل هذه العوامل أن أخذ الأسطول الإسلامى يتراجع نحو الجنوب ، وفى أثناء تراجعه صادفته عواصف شديدة ، مثلما حدث سنة ٦٧٩ ، تحطمت بسببها سفن عديدة(٥) .

وما جرى من نفاذ الأقوات ، وطول أمد الحصار الذى استمر ما يزيد على سنة ٧١٧ ـ ٧١٨ وشدة البرد ، وطول خط الإمدادات ، وما كان من تدابير

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 138.
Vasiliev : op. cit. p. 236. Lewis : op. cit. p. 66.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ، ص ١١٧ .

(٣) Lewis : op. cit. p. 236.

(٤) Vasiliev : op. cit. p. 236.

(٥) Lewis : op. cit. p. 67.

ليو الثالث الحربية والبحرية كل ذلك أسهم فى اضطرار المسلمين إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعودة إلى الشام فى أغسطس سنة ٧١٨(١) .

يعتبر هذا الهجوم آخر هجوم قام به العرب على القسطنطينية ، ولذا جعل المؤرخون الأوربيون له أهمية تاريخية كبيرة . على أن حملة مسلمة على القسطنطينية خلفت آثاراً كبيرة فى الآداب العربية ، كما أن اسم مسلمة ارتبط بالمسجد الذى تنسبه إليه الروايات ، والذى قام بالقسطنطينية(٢) .

على أن النضال بين الدولة البيزنطية والمسلمين اتخذ صفة الحرب المقدسة . غير أن الجانبين لم يحرزا ما يبتغيان من النتائج ، فلم يستول البيزنطيون على بيت المقدس ، ولم يفز المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية ، وخشى كل من الفريقين أن تحل الساعة وينتهى العالم ، قبل أن يحقق غرضه(٣) .

غير أن المسلمين لم يلبثوا أن واصلوا حروبهم فى آسيا الصغرى ، فمنذ سنة ٧٢٦ درجوا على أن يغيروا سنوياً على آسيا الصغرى ، فدمروا قيصرية وحاصروا نيقية(٤) . وفى سنة ٧٣٧ أمعنوا فى غاراتهم حتى بلغت طوانة فى جنوب قبادوقيا فحاصروها سنة ٧٣٩ ، غير أنهم لم يحرزوا نجاحاً يذكر ، بل تعرضوا للهزيمة سنة ٧٤٠ (١٢٢ هـ) فى معركة أكروينون **Akroinon** (أفيون قره حصار) ، على مسافة غير بعيدة من عمورية(٥) .

وترتب على هذه المعركة أن جلا العرب عن الجزء الغربى من آسيا

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 404 - 405.

(٢) Bury : op. cit. II. pp. 404-405.
Canard : "Les expeditions des Arabes contre Constantinople." Journal Asiatique, CCVIII. (1926). pp. 80—102.
Constantine Parphyrogemtus : De Adminstrando Imperio ed Morosvcisk - Jenkins, (1949). p. 92.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 237.

(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 139

(٥) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٩٣ — وهذه المعركة هى المعرفة فى المصادر العربية « ريض اقرن » — انظر الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٧٩

الصغرى ، وتراجعوا نحو الشرق . وارتبط بمعركة أقرن (أكروينون) أسطورة البطل التركى المعروف بالسيد البطال الغازى ، الذى لا يزال قبره قائماً فى قرية بجنوب اسكى شهر الحالية (دوريليوم) . لم يكن هذا البطل سوى عبد الله البطال الذى لقى مصرعه فى معركة أقرن[1] . على أن ما حدث فى داخل الدولة الأموية من الفتن والحروب ، وما تقدم به ملك الخزر من مساعدة للبيزنطيين أثر فى العلاقات بين العرب والبيزنطيين . فالمعروف أن قنسطنطين ابن الإمبراطور ليو الثالث تزوج من أميرة من الخزر سنة ٧٣٣ ، وهى المعروفة باسم إيرين ، وذلك بعد أن أغار ملك الخزر على أملاك المسلمين فى القوقاز وأرمينيا[2] .

وما جرى من تخليص القسطنطينية من هجوم العرب ، وارتداد العرب عن آسيا الصغرى ، يعتبر خاتمة مرحلة من مراحل النضال بين المسلمين والبيزنطيين . وما حدث بعدئذ من الهجمات المتواصلة على أملاك الإمبراطورية ، أثارت اهتماماً كبيراً فى الإمبراطورية ، غير أنها لم تهدد كيانها . فلم يحاصر المسلمون مرة أخرى مدينة القسطنطينية . أما آسيا الصغرى فإنها بفضل نظام الثغور ، ظلت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية ، برغم ما حل بالقوات البيزنطية من هزائم متكررة[3] .

(١) انظر Vasiliev : op. cit. p. 238.
En. Is. art. Battal.
D.B. Macdonald.' "The Earlier History of the Arabian Nights." Journal of the Royal Asiatic Society, (1924). p. 281.
Canard : op. cit. pp. 11 - 118.
W. M. Romsay : "The Attempts of the Arabs to conquer Asia Minor (641 - 964 A. D)" Bulletin de la Section Historique de l'Acaddemie Roumaine. XI. (1924).

(٢) Ostrogorowski : op cit. p. 139. Vasiliev, p. 238.
Dunlop. : op. cit. pp. 177 - 187.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 139.

الثغور :

ما حدث من تطور جديد فى نظام الثغور ؛ الذى أقامه هرقل وخلفاؤه ، يرجع إلى ما أوجده ليو الثالث من تغييرات . إذ قرر شطر ثغر الأناتوليك بسبب ضخامة مساحته . والواقع أن الغرض الأساسى من هذا الإجراء ، هو إحباط كل محاولة لاغتصاب العرش كالتى حدثت أخيراً . فما من أحد أدرى من ليو بما يتعرض له الإمبراطور من الأخطار ، طالما سيطر على هذا الإقليم الكبير قائد واحد ، ولذا جعل الشطر الغربى من إقليم الأناتوليك ثغراً مستقلا ، وهذا الثغر هو المعروف باسم تراقيسيون Thracesion ، نسبة إلى القوات الأوربية التى جاءت من تراقيا ، وألفت جانباً من قوات ثغر الأناتوليك . على أن ثغر الأبسيق لم يجر تقسيمه ، على الرغم من أنه يضارع فى المساحة ثغر الأناتوليك ، بل ربما زاد عليه ، ولعل ليو اكتفى بأن عين صهره ارتاباسدوس Artabasdus قائداً على هذا الثغر . غير أن ابنه قنسطنطين الذى خلفه على الحكم ، اكتشف فداحة هذه الغلطة ، بعد أن تعرض لأخطار جديدة ، فلجأ إلى شطر هذا الإقليم الشاسع ، ورفع الشطر الشرقى منه إلى مرتبة ثغر مستقل اشتهر باسم البقلار Bucellari[1] نسبة إلى من كان ينزل بهذا الإقليم من الجند المعروفين قديماً بهذا الإسم ، ولم يكونوا أول الأمر إلا جنداً مأجورة ، كانوا من الفرسان المشهورين بالمهارة فى الرماية ، ويتولى القائد تجنيد رجاله والإنفاق عليهم ، فكانت كل فئة تنتمى إلى قائدها وتتسمى باسمه[2] . أما الثغر البحرى المعروف باسم كرابيسيان Carabisian ، الذى اشتمل أصلا على كل ما فى الأقاليم الإمبراطورية من قوة بحرية ، فانقسم قسمين بين سنتى ٧١٠ ، ٧٣٢ ، إما زمن الإمبراطور أنستاسيوس الثانى ، وإما زمن الإمبراطور ليو الثالث . وكل من

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 140. Vasiliev : p. 250.

(٢) Runciman : The Byzantine Civilisation, p. 138.
العرينى : أجناد الروم ص ٤ .
Diehl : L'Origine du regimes des thems dans l'Empire byzantin p. 279.

هذين الشطرين ، الذى كان يتولاه من قبل ، نائب (طرنجار drungarius) عن قائد الثغر ، أضحى وحدة مستقلة . فالساحل الجنوبى من آسيا الصغرى وما يجاوره من الجزر صـــار معروفاً من ذلك الحين باسم ثغر كيبريوت Cibyrraeot [١] ، بينما تألف من جزائر بحر إيجة طرنجارية (قسم) لم تلبث أن ارتقت إلى مكانة ثغر مستقل ، انشطر فيما بعد إلى قسمين [٢] ، فمنذ منتصف القرن الثامن الميلادى ،أصبحت جزيرة كريت ثغراً . فلم يكن فى آسيا الصغرى زمن الأسرة الأيسورية سوى خمسة ثغور ، وهى على الترتيب فى الأهمية : الأناتوليك، والأرمنياق ، وتراقيسيان، والأبسيق ، والبقلار [٣]. والراجح أنه جرى قبل مهاجمة المسلمين لأقاليم الأطراف ، أن انفصل من ثغرى الأناتوليك والأرمنياق جهات تكونت فيها حــكومات الأطراف Kleiourachies (كيلرجيات) ، اتخذ قادتها من الإجراءات والتدابير ما يستطيعون بها الدفاع عنها مستقلين عن قائدى الثغرين الكبيرين ، وعلى هذا النحو قام ثغر سيلوقية غرب قليقية بعد انفصاله عن ثغر الأناتوليك ، ونشأ ثغر خرسيانون من بعض جهات منتزعة من ثغر الأرمنياق [٤] . ولما ازدادت حدة الإغارات الإسلامية فى القرن الثامن الميلادى ، دعموا تلك الجهات بحاميات اتخذت اسم حراس الحدود Akritoi ، ومهمتها مساعدة قادة الثغور [٥] .

---

(١) Vasiliev : op. cit. p. 228, 250.

(٢) Ostrogorowski : op. cit p. 140.

يشير أوستروجورسكى إلى أن كريت أصبحت زمن ليو الثالث ثغراً قائماً بذاته — على أن المؤرخ Baynes يرى أن الثغر البحرى الثالث إنما نشأ بعد ليو الثالث . وهذا الثغر يشمل جزيرة ساموس وما يجاورها من الجزر ، وقاعدة الثغر كانت أزمير . انظر :

Baynes : The Byantine Empire pp. 146 - 147.

العرينى أجناد الروم ص ٧ .

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 250.

(٤) Bury : The Eastern Roman Empire, p. 322.

(٥) ابراهيم العدوى : الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ص ٩ .

Baynes & Moss : Byzantium, p. 299.

وما حدث من تجزئة هذه الثغور الضخمة ، كان له أهمية من الناحية الإدارية . إذ وهبت الجهاز الإدارى قدراً من المرونة ، فأسهمت بذلك فى اكتمال هذا النظام . وبهذه الوسيلة أكمل أباطرة القرن الثامن ما بدأه أسلافهم من عمل مجيد ، أما التطور الكبير الذى أصاب الثغور فحدث فى القرن التالى [١].

القوانين :

وما أصدره فى سنة ٧٢٦ الإمبراطور ليو الثالث باسمه واسم ابنه ، من القوانين ، يعتبر من معالم تاريخ جمع القانون البيزنطى وتصنيفه . فلم يكن ليو الثالث فحسب قائداً موهوباً نشطاً ، استطاع أن يدافع عن إمبراطوريته ، بل اشتهر أيضاً بأنه مشرع كفء حصيف . والمعروف أن ما أصدره الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى ، من القوانين ، لم يستطع معظم أقاليم الدولة البيزنطية أن تدرك قيمتها وأن تفهمها ، نظراً لأنها صدرت باللغة اللاتينية . وفى كثير من الجهات ، لاسيما التى تقع بالشرق ، جرى استخدام ما هو سائد فى هذه الجهات من العادات والعرف ، كما يتضح ذلك من شيوع استخدام القانون السورى الذى يرجع إلى القرن الخامس الميلادى . وما أصدره جستنيان من الملاحق (المتجددات) Novels باللغة اليونانية ، لم تعالج إلا القانون العام . على أنه حدث فى القرن السابع أن الدولة البيزنطية أخذت تفقد ممتلكاتها ، ففقدت الشام وفلسطين ومصر فى الشرق، وخرج من حوزتها شمال إفريقية فى الجنوب ، والأجزاء الشمالية من شبه جزيرة البلقان ، فأضحت اللغة اليونانية بذلك هى اللغة السائدة . وصار من اللازم تصنيف كتاب فى القانون باللغة اليونانية ، يكون مرآة لما حدث من التغيرات منذ زمن جستنيان الكبير .

وإذ أدرك ليو شدة الحاجة إلى هذا القانون ، عهد بوضعه إلى لجنة اختار بنفسه أعضاءها . وأسفرت جهود هذه الهيئة عن إصدار قانون اشتهر باسم

---

(١) Ostrogorowsk, op. cit. p. 140.

الإكلوجا Ecloga ، صـدر باسم « الإمبراطورين التقيين الحكيمين ليو وقنسطنطين »[1] .

والإكلوجا معناها المختار ، وهذا المعنى يدل على المصادر التى جاءت منها هذه المختارات — ونص العنوان هو « المختار الموجز من القوانين ، التى قام ليو وقنسطنطين ، الملكان الصالحان الحكيمان ، على إعدادها من قوانين جستنيان الكبير : الشرائع والمختار والقانون ، وعملا على أن يجربا بها من الإصلاح ما يتفق مع الإصلاح والتقدم » . وجاء فى مقدمة القانون ما يدل على أن القرارات التى أصدرها الأباطرة السابقون ، وردت فى كتب عديدة ، وأن مضمون هذه القرارات وجد فريق من الناس عناءا فى فهمه ، بينما تعذر إدراكه على آخرين ، لاسيما أولئك الذين لا يقيمون بالعاصمة[2] . أما الكتب المختلفة التى جرت الإشارة إليها ، فالمقصود بها ما جرى استخدامه من الترجمات والشروح اليونانية لقوانين جستنيان ، التى حلت مكان الأصول اللاتينية لهذه القوانين . غير أنه لم يفهم هذه الترجمات والشروح اليونانية إلا عدد قليل من الناس . وترتب على وفرة كتب القانون وما حفلت به من الاختلافات والمتناقضات ، أن وقع خلط واضطراب كبير فى القانون المدنى فى الدولة البيزنطية . ووقف ليو الثالث على كل هذه الأمور ، فعزم على أن يقوم بعلاجها . وما ورد فى مقدمة القانون من المبادىء ، إنما تشبعت بالعدالة والانصاف وتضمنت هذه المبادىء أنه يتحتم على القضاة أن يتجردوا عن الهوى ، وأن يصدروا أحكامهم ، وفقا لما تبين لهم من الأدلة . وينبغى ألا يسخروا من الفقير المحتاج ، وألا يهملوا محاكمة شخص على ما ارتكبه من الجرائم ، لماله من مكانة وقوة . . . وينبغى ألا يقبلوا من أحد هدايا . وينبغى أن يتقاضى سائر الذين يمارسون القضاء

(١) Vasiliev : op. cit. p. 314.
Ostrogorowski : op. cit. p. 140.

(٢) Callinet : Byzantine Legislation from Justiaian (565) to 1451. Cambridge Medieval History Vol. IV. p. 708.
Vasiliev : op. cit p. 241.

مرتباتهم من خزانة الدولة . حتى لا يقبلوا شيئا ممن يخضع لقضائهم ، وحتى لا تتحقق نبوءة عاموس « لأنهم باعوا البار بالفضة ، والبائس لأجل نعلين ، فتسلط علينا غضب الرب ، بتجاوز وصاياه »[1] .

ومحتويات الإكلوجا التى تقع فى ثمانى عشر موضوعاً ، إنما ترتبط فى مجموعها بالقانون المدنى ، ولا تمت إلا بصلة ضئيلة للقانون الجنائى . تناولت الزواج ، والخطبة ، والمهر ، والوصايا ، وحالة من لا يتركون وصايا قبل وفاتهم ، والأوصياء ، وعتق الرقيق ، والشهود ، والبيع والشرائع ، والقرض والرهن ، والضمان أو التأمين ، والأحكار ، والاقطاعات ، ونقض العقود ، وأمتعة الجند ، وتقسيم غنائم الحرب ، وما يتعلق بالقانون الجنائى لا يتعدى ما جاء عن العقوبات[2] .

وتختلف الإكلوجا فى كثير من الوجوه عن قانون جستنيان ، بل إنها تخالفه تماما فى بعض الأحوال ، بما تقبله من أحكام قانون العرف والإجراءات القضائية التى يجرى استخدامها إلى جانب قوانين جستنيان . وإذا جرت مقارنتها بقوانين جستنيان ، تعتبر الإكلوجا خطوة نحو التقدم . فانطوت قوانين الزواج مثلا على مفاهيم مسيحية رفيعة ، وجرى تقييد سلطة الوالد ، بينما امتدت حقوق الزوجة والأولاد ، فللزوجة أن تقتسم مع زوجها المتاع والملكية ، وصار لها ما للزوج من حق القوامة على الأطفال . وتولت الكنيسة الإشراف على رعاية اليتامى .

وازداد احترام عقد الزواج والمحافظة عليه[3] . وحدثت تغييرات ملحوظة فى القانون الجنائى ، الذى لم يراع عند وضعه روح المحبة المسيحية . فاشتمل قانون الإكلوجا على طائفة من العقوبات المتعلقة بالنفس وأعضاء جسم الإنسان ،

(١) العهد القديم : سفر عاموس : إصحاح ٢ آية ٧ .

(٢) Freshfield, E.D., : Roman Law in the Later Roman Empire, The Ecloga, Cambridge, 1932. p. 37

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 242. Ostrogorowski : p. 141.
Ruuciman : The Byzantine Civilisation p. 77.

لم تكن معروفة فى قانون جستنيان ، مثل جدع الأنف ، وقطع اللسان ، وبتر الأيدى ، وسمل العيون ، وقطع الرأس ، وقص الشعر . وهذه العقوبات جرى الاستعاضة بهافى بعض الأحوال عن عقوبة الإعدام ، وفى بعض الأحوال ، حلت مكان ما هو وارد فى جستنيان من عقوبة الغرامات(١) . ومن ثم جاز للأباطرة الإيزوريين أن يزعموا بأن تشريعاتهم تفوق فى الروح الإنسانية تشريعات من سبقهم من الأباطرة . يضاف إلى ذلك أن الإكلوجا ساوت فى العقوبة بين سائر الطبقات ، وبين الفقراء والأغنياء ، على حين أن قانون جستنيان تضمن عقوبات مختلفة ، دون أن يكون ثمة ما يدعو إلى التفرقة . وحفل قانون الإكلوجا بالإشارات إلى الكتب المقدسة ، عند الإشارة إلى تأكيد المبادىء القانونية المختلفة . فانتقلت روح القانون الرومانى إلى الجو الدينى للمسيحية(٢) .

وظل قانون الإكلوجا فى القرنين الثامن والتاسع ، حتى قيام الأسرة المقدونية سنة ٨٦٧ ، مرجعا لتدريس القانون ، حل مكان كتاب الشرائع Institutes الذى صدر زمن جستنيان ، وتعرض للمراجعة والتنقيح أكثر من مرة(٣) ، يعتبر الإكلوجا سجلا لما جرى من تطور العرف أثناء القرن السابع ، إذ يبين ماطرأ من تغييرات على القانون البيزنطى والاجتهاد الفقهى منذ زمن جستنيان ، وهذه التغييرات ترجع إلى تأصل الروح المسيحية وإلى أثر الطباع الشرقية فى سلوك وآداب(٤) البيزنطيين وللإكلوجا شهرة سيئة فى العصور التى تلت عصر ليو وابنه ، لما اشتهرا به من مناهضة عبادة الصور المقدسة ؛ ومع ذلك كان عظيمة الأهمية فى التشريعات البيزنطية التى تلتها ، وكان له أثر كبير فى تطور القانون فى البلاد الصقلبية خارج حدود الإمبراطورية البيزنطية(٥) .

وارتبط بالأسرة الأيسورية ، لا سيما اسم ليو الثالث ، الإشارة إلى ثلاثة

---

(١) Ostrogowski : op. cit. p. 141.

(٢) Bury : Constitntion of the Later Roman Empire II p. 414.

(٣) Vasiliev op. cit. p. 243.

(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 141

(٥) Ibid p. 142.

تشريعات . قانون الفلاح ، وقانون الجندى ، وقانون الملاّح . وهذه القوانين ظهرت فى صور مختلفة فى مخطوطات ترجع فى تاريخها إلى ما بعد الإكلوجا ، وبعد كتب قانونية أخرى ، دون أن يرد بها ما يشير إلى حقيقة مصنفها أو تاريخ تصنيفها . ويتوقف تحديد زمنها على أدلة داخلية تتمثل فى عرض وتقويم محتوياتها ولغتها ، ومقارنتها مع ما يماثلها من القوانين(١) .

أما قانون الفلاح فكان له أكبر نصيب فى اجتذاب اهتمام الباحثين . إذ أن العالم الألمانى الذى يعتبر أكبر ثقة فى دراسة القانون البيزنطى ، وهو زكريافون لينجنتال Zacaharria von Lingenthal ، رأى أول الأمر ، أن هذا القانون من تصنيف أحد الأفراد ، وأنه يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الميلادى ، وأنه جرى تصنيفه من تشريعات جستنيان من جهة ، ومن العرف المحلى من جهة أخرى ثم نزع أخيراً إلى الاعتقاد بأن قانون الفلاح إنما يرجع إلى الإمبراطورين ليو وقنسطنطين ، وأنه إما أن يكون قد صدر فى وقت واحد مع الإكلوجا ، أو جاء بعده مباشرة(٢) . وتناول قانون الفلاح ما يقع بين المشتغلين بالزراعة من الجرائم ، فأشار بصفة خاصة إلى ما يحدث من أنواع السرقات ، مثل سرقة الأخشاب ، والحقول ، والبساتين ، ومخالفة رعاة الماشية للوائح ، وما تتعرض له الحيوانات من الأذى أو ما تجلبه من الضرر(٣) . لم يرد ذكر للتاريخ الذى صدر فيه القانون ، فبعض الباحثين يرجعه إلى زمن ليو الثالث ، غير أن بعضهم يرجعه إلى زمن جستنيان الثانى ، أى قبل زمن ليو الثالث ، ولم ينته المؤرخون إلى رأى حاسم فى تاريخ هذا القانون(٤) .

ومن أسباب اهتمام الباحثين بهذا القانون أيضا ، أنه لم ترد به إشارة إلى القنية أو الفلاحة ، التى سادت فى العصر المتأخر للأمبراطورية الرومانية . على

---

(١) Vasiliev, op. cit. p. 244.

(٢) Vasiliev, p. 244.

(٣) Vasiliev, op. cit. p. 244.

(٤) Ibid. p. 245.

أنه اشتمل على ظواهر تعتبر جديدة : مثل ما كان للفلاح من ملكية خاصة ، والملكية المشتركة العامة وإلغاء السخرة ، وحرية التنقل . وبالغ المؤرخ Th. I. Uspensky فى تقدير أهمية هذا القانون ، حين زعم بأنه يعتبر نقطة تحول فيما جرى بالشرق من تطور اقتصادى ، فيما يتعلق بوجود طبقة من الفلاحين الأحرار ، وطبقة من صغار الملاك[1] وهذا الرأى قد يؤدى إلى الاعتقاد بأن القنية تم إلغاؤها فى القرن السابع أو الثامن الميلادى ، وهو ما لم يحدث . وذهب المؤرخ ديل Diehl ، الذى اعتبر هذا القانون من أعمال ليو وقنسطنطين ، إلا أن هذا القانون لم يكن المقصود به سوى وقف نمو الضياع الكبيرة ، ومنع اختفاء الملكيات الحرة الصغيرة ، وأن يكفل للفلاحين حياة أفضل[2] . وما يصح استخلاصه من قانون الفلاح ، أنه حدث فى الدولة البيزنطية أن قام إلى جانب القنية نوع من الفلاحة الحرة ، ومجتمع قروى حر . ولقانون الفلاح أهمية كبيرة فى الدراسات الصقلبية . إذ أن ترجمة لهذا القانون جرت باللغة الروسية القديمة ، صارت تعتبر جانباً من كتاب بالغ القيمة فى المحتويات والأهمية التاريخية ، وهذا الكتاب يحمل عنوان « القانون الذى بمقتضاه يقوم جميع الأمراء على تنظيم أمورهم »[3] .

ويعتبر قانون الملاح وقانون الجندى من ملاحق الإكلوجا ، على الرغم من أنه لم يرد بهما ما يدل على تاريخ صدورهما . غير أن بعض المؤرخين يرجعونهما إلى زمن الأسرة الإيسورية . أما قانون الملاحة ، وهو المعروف فى بعض المخطوطات باسم قانون بحر رودس Rhodsian Sea Law ، فهو عبارة عن قانون يقوم على تنظيم الملاحة التجارية . ويرى بعض المؤرخين أن هذا القانون مستمد من الفصل الثانى من الكتاب الرابع عشر من قانون جستنيان المعروف

(١) أسد رستم : الروم ج ١ ص ٣٠٠ Ibid p 245

(٢) Diehl : Histoire de l'Empire Byzantin, p. 69.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 247.

بالمجمل (المختار) Digest ، الذى لم يكن ذاته إلا اقتباساً كاملا عن القانون اليونانى المعروف باسم Lez Rhodia de Jactu ، الذى يقضى بأن يشترك مالك السفينة وأصحاب السلع التى تحملها السفينة فى تحمل الخسائر الناجمة عن قذف جانب من حمولة السفينة إلى البحر ، لإنقاذها من الغرق . على أن الدراسات التاريخية الحديثة تنكر علاقة قانون الملاحة بقانون جستنيان أو الإكلوجا . وذلك لأن مادة هذا القانون إنما جاء معظمها من التقاليد المحلية ، فلم يكن الغرض منه سوى التماس نوع من الأمان ، وذلك لما ساد البحر المتوسط منذ زمن هرقل من القرصنة وتعرض السفن لأخطار القرصان . وظل قانون الملاحة البيزنطية معمولا به حتى القرن الثانى عشر الميلادى ، فلما تداعت التجارة البيزنطية ، لم يعد لهذا القانون ما يدعو لبقائه ، لذا لم تشر إليه الوثائق التى ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر[1] .

ولم يكن قانون الجند إلا اقتباساً عن قوانين جستنيان والإكلوجا ، ومصادر أخرى . ويتناول هذا القانون الإشارة إلى ما يفرض من العقوبات على الجند الذين جرى اتهامهم بالعصيان ، والتمرد ، ومخالفة الأوامر ، والهروب ، وارتكاب الزنا . وإذا صحت نسبة هذا القانون إلى ليو الثالث ، فإنه يعتبر مثالا رائعاً لما امتاز به النظام الحربى زمن ليو الثالث من الضبط والصرامة[2] . على أنه لم يتحقق حتى الآن أن هذه القوانين الثلاثة جرى صدورها زمن الأسرة الأيسورية[3] .

النزاع حول عبادة الصور المقدسة :

يعتبر الصراع حول عبادة الأيقونات (الصور المقدسة) ، مرحلة جديدة من مراحل التاريخ البيزنطى . وما قام به ليو الثالث من معارضة لعبادة

(١) أسد رستم : الروم ج ١ : ص ٣٠١. Vasiliev : op. cti. p. 248.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 249.

(٣) Ibid. P. 249.

الأيقونات ، خلق هذه المشكلة التى تعتبر من خصائص هذه الحقبة من التاريخ ، وجعل الإمبراطورية مسرحاً لما حدث من حروب داخلية خطيرة لمدة تزيد على قرن من الزمان . على أن العاصفة أخذت تتجمع بالتدريج وفى شىء من البطء ، فاتخذت أول الأمر صورة نزاع على الصور ، بسبب ما يرتبط بالصورة (الأيقونة) من دلالة رمزية خاصة ، وفقاً لإدراك البيزنطيين وتفكيرهم . ففى الكنيسة انتشرت عبادة الصور المقدسة منذ زمن قريب ، وأضحت من المظاهر الأساسية لما اشتهر به البيزنطيون من التقوى[١] .

على أنه من جهة أخرى كثر المعارضون لهذا الرأى ، وتمسكوا بأن المسيحية ، باعتبارها ديانة روحية خالصة ، ينبغى أن تنبذ عبادة الأيقونات[٢] . ظهرت هذه المعارضة بوضوح فى الجهات الشرقية من الإمبراطورية ، التى تعتبر منذ القدم مهد الإثارة الدينية ، حيث لا زال باقياً بها بعض آثار المونوفيزتية ، وحيث رسخت أقدام البيالصة[٣] ، الذى يعتبرون نحلة معادية لكل عبادة

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 142.

(٢) Baynes : The Iocns before Iconoclasm - Byzantime Studies, p. 228.

Ostrogorowski : Les dábuts de la querelle des images. Melanges Charles Diehl I. 235 - 255.

(٣) ترتب على الفتوح الإسلامية ، أن أدرك كثير من المسيحيين ، أن الكنيسة تتطلب الإصلاح ، وغلبت عليهم نزعة تطهير الكنيسة ، والرجوع إلى ما اشتهرت به فى مستهل أمرها من البساطة . وانعكست الحركة التطهرية **Puritanism** فى سياسة الكنيسة المسيحية . ومذهب البيالصة قائم على التفرقة بين إله الخير خالق السماوات والأرواح ، وبين إله الشر الذى يسيطر على العالم المادى . ولاعتقادهم بأن المادة شر ، أنكروا ما للمسيح من جسم مادى ، وما يرتبط به من فكرة الخلاص والفداء ، واعتبروا أن أهم رسالة للمسيح تنطوى على تعاليمه . وترتب على هذا الاعتقاد أنهم أنكروا الصليب وكل الصور (الايقونات) ، وأولوا الأناجيل مكانة عالية . وأصل مذهبهم لازال يكتنفه الغموض . ويعتبر قنسطين المابالى مؤسس هذه النحلة . وهو من أهل **Mananali** ، قرية تقع قرب سميوساط ، ويدين أهلها بالمانوية . وأقام أتباعه فى **Kibossa** بأرمينيا زمن قنسطنطين ثم تعرضوا للاضطهاد زمن قنسطنطين ، ولقى زعيمهم حتفه رجما بالحجارة حوالى سنة ٦٨٤ . ولجأ فريق منهم إلى حماية المسلمين . أنظر :

Runciman: The Medieval Manichee, pp. 36 - 37.

Cross : Dictionary of Christian Church.

كنسية . على أن الاتصال بالمسلمين والعالم الإسلامى ، يعتبر أكبر عامل فى تأجيج نار الكراهية ضد الأيقونات وما اشتهر به ليو الثالث من العداوة للأيقونات ، أرجعها خصومه إلى مؤثرات يهودية وإسلامية . فعلى الرغم من أن ليو اضطهد اليهود وحملهم على التنصير[١] ، فإن ذلك لم يمنع أنه تأثر بالديانة الموسوية ، التى تحرم بتاتاً عبادة الصور المقدسة . وما حدث من القتال بين ليو الأيسورى والمسلمين ، لم يمنعه من الأخذ بالحضارة الإسلامية . ومن الدليل على ما كان من المودة بين ليو والمسلمين ، ما أطلقه المعاصرون عليه من اسم « ليوى ذى العقلية الإسلامية » ، ولم يحمل العرب معهم فى إغاراتهم على آسيا الصغرى ، فكرة الغزو والجهاد فحسب . بل نقلوا معهم إلى هذه الجهات ، ما اشتهروا به من الحضارة ، والكراهية لتصوير الإنسان[٢] .

ومن ثم نشأت حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة فى الأقاليم الشرقية للامبراطورية من تفاعل نحلة مسيحية (البيالصة) ، تحاول الرجوع إلى الروحانية الخالصة ، وعقائد المعارضين لعبادة الصور ، ونزعات النحل المسيحية السابقة ، ومؤثرات ديانات غير مسيحية مثل اليهودية والإسلام[٣] . فالمعروف أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر فى سنة ٧٢٣ قرارا ، أى قبل ثلاث سنوات من صدور قرار ليو ، يقضى بإزالة الأيقونات من الكنائس المسيحية بالدولة الإسلامية[٤] . وظهر وقتذاك فى بيرنطة حزب قوى لمناهضة

---

(١) Starr : The Jews in the Byzautine Empre. Ostrogorowski P. 142.

(٢) Marcais : La Question des images dans l'art musulman. Byantion, 7 (1932) p. 161.

جاء فى القرآن الكريم (سورة المائدة ، آية ٩٠) .

« يأيها الذين آمنو ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون » .

Vasiliev, : p. 255.

(٣) Ostrogorowski : p. 143.

(٤) Theophanes : p. 401

سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٠١ .

الكندى . الولاة والقضاة ص ٧١ .

Vasiliev : p. 255.

عبادة الصور المقدسة(١) . على أن أهم مواطن هذه الحركة إنما كانت فى آسيا الصغرى لا سيما فريجيا Phrygia . وتزعم هذه الحركة اللاأيقونية بآسيا الصغرى ، رجال الكنيسة أمثال المطران توماس رئيس كنيسة Caudiopolis (بولى) ، وقنسطنطين رئيس كنيسة Oacolea ، الذى يعتبر المحرض الروحى لمناوأة الأيقونية البيزنطية ، وأطلق عليه البيزنطيون الأرثوذكس ، زعيم الهراطقة(٢) .

والمعروف أن الأباطرة اللاأيقونيين ينتمون إلى الأقاليم الشرقية من الأمبراطورية البيزنطية ، فوقفوا على ما ساد فى هذه الجهات من الآراء المختلفة المتعلقة بمقاومة عبادة الصور المقدسة ، فلما أضحوا أباطرة ، نقلوا معهم إلى القسطنطينية هذه الأفكار ، واتخذوها أساساً لسياستهم الكنسية(٣) . ولم يكن هؤلاء الأباطرة ملحدين كما يظن بعض المؤرخين ، بل يعتبرون من أخلص الناس للديانة المسيحية ومن أشدهم تمسكا بها . وكل ما أرادوه ، هو أن يطهروا العقيدة من الأخطاء التى تسربت إليها ، وجعلتها تنحرف عن طريقها الطبيعى(٤) . ومن هذه الناحية لم تكن عبادة الصور ، وتقديس المخلفات الدينية عند هؤلاء الأباطرة ، سوى بقايا متخلفة عن الوثنية ، فينبغى إزالتها والتخلص منها ، كيما يعود للدين المسيحى ما اشتهر به من النقاء والصفاء . كتب الإمبراطور ليو الثالث ، إلى البابا جريجورى الثانى ، بأنه « إمبراطور وقس » ، وكأنه بذلك رأى أن من حقه الشرعى ، أن يفرض على رعاياه ما يعتنق من آراء دينية . على أن هذه النزعة لم تكن جديدة ، إذ ليست إلا فكرة الاستبداد السياسى الدينى caesarpapism التى اعتنقها الأباطرة البيزنطيون ، لا سيما جستنيان الأول ، الذى اعتبر نفسه ، السلطة النهائية فى كل الأمور الروحية والزمنية . ومن ثم يعتبر الثالث من الذين أخذوا

(١) Ostrogorowski : 143.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 143.

(٣) Vasiliev : p. 257.

(٤) Ibid p. 257.

بهذا المبدأ(١) . إذ كان يرمى إلى أن تكون له سلطة مطلقة على رعاياه ، الذين ينبغى أن يتحدوا من الناحية الدينية . ولذا تحتم أن تخضع الحياة الدينية بالأمبراطورية لتوجيه سياسة الأباطرة ، المناهضة لعبادة الصور المقدسة ، والتى ترمى إلى أن تحقق لهؤلاء الأباطرة أغراضهم السياسية(٢) . ويرى بعض المؤرخين أن ما اتخذه ليو الثالث من إجراءات إدارية ، إنما وجهها منذ البداية ضد الأديرة التى صار لها فى القرن الثامن الميلادى مكانة ممتازة ، لما صار لها من أملاك شاسعة ، وترتب على ذلك أن الرهبان رأوا أن من صالحهم أن ينقلوا ما وقع من النزاع بينهم وبين الإمبراطور ، على ما يمتلكون من ثروة وأراضى ، إلى نزاع دينى خالص ، حتى يتمكنوا بذلك من اعتبار الأباطرة ملحدين وهراطقة ، فيحطون بذلك من شأن حركتهم ، ويدمرون ما للعامة من الثقة فى إمبراطورهم(٣) .

والمعروف أن ليو الثالث نفسه من أصل أسيوى ، وعاش سنوات عديدة فى الجهات الشرقية من الإمبراطورية ، وباعتباره قائد ثغر الأناطوليك (الناطليق) ، قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية ، ازداد اتصاله بالمسلمين من جهة ، وبالحركة اللاأيقونية من جهة أخرى(٤) . وأمضى ليو السنوات التسع الأولى من حكمه ، فى رد هجمات أعداء الدولة البيزنطية . وفى توطيد حكمه ، وفى إلزام اليهود والمونتانيين(٥) ، باعتناق المسيحية(٦)

(١) Vasiliev : p. 258. Ostrogorowski op. cit. p. 144.

(٢) Ibid. pp. 252 - 253.

(٣) Vasiliev : p. 253.

(٤) Ostrogorowski : p. 143.
Cross : Dictionary of Christian Church.

(٥) المونتانيون Montanist أنصار مونتانيوس Montanus الفرنجى . ويرجع تاريخ الحركة المونتانية إلى القرن الثانى للميلاد ، وتقوم على أن الروح القدس سوف يتجلى على الكنيسة . وشهدت بوادر هذا التجلى فى أنبيائها ونبياتها ، وأعلن مونتانوس نفسه : بأن مملكة بيت المقدس السماوية سوف تتنزل فى موضع قرب فريجيا . ولم تلبث الحركة أن صار لها صفات تنسكية . وتعرضت الحركة لمهاجمات الأرثوذكس انظر :
Cross : Dictionary of Christian Church.

(٦) Vasiliev : p. 258.

ولم يشرع الإمبراطور ليو فى الدعوة إلى تدمير الصور المقدسة إلا سنة ٧٢٦ . ففى هذه السنة أصدر أول قرار ضد عبادة الصور[١] ، بناء على طلب المناهضين لعبادة هذه الصور ، من أساقفة آسيا الصغرى ، الذين أقاموا بالقسطنطينية قبيل صدور هذا القرار ، وشجعه على ذلك ما حدث وقتذاك من زلزال شديد ، اعتبره دليلا على سخط الله على الذين يستخدمون الصور ويعبدونها . وعندئذ صار الإمبراطور يلقى العظات التى يشرح فيها ما فى هذه العبادة من الحماقة . وفى هذا دليل على اعتباره أن سلطته مستمدة من الله[٢] . ولم يلبث ليو أن اتخذ خطوة إيجابية ، فأمر بتدمير تمثال المسيح المنصوب بأعلى أفخم مداخل القصر الأمبراطورى ، وهذا المدخل هو المعروف باسم خالكى Chalcoprateia ، وكان هذا التمثال موضع تبجيل وتقديس من قبل الجماهير[٣] . على أن هذا الإجراء أدى إلى ثورة عنيفة ، كان أكثر المشتركين فيها من النساء ، فاشتد سخط الجماهير ، فاعتدوا على مندوب الإمبراطور الذى حطم هذا التمثال ، فلقى حتفه على أيديهم . وما لجأ إليه الإمبراطور من الإنتقام من هؤلاء المتظاهرين ، وقتل عدد منهم ، صاروا يعتبرون شهداء ، إنما يدل على شدة الكراهية لسياسة الأمبراطور[٤] . وأكثر أهمية من ثورة الرعاع فى القسطنطينية ، ما حدث فى بلاد اليونان من التمرد ، الذى أثاره ما ورد من الأنباء من كراهية الإمبراطور للأيقونات ، وترتب على ذلك أن عساكر ثغر هيلاس نصبوا من قبلهم إمبراطوراً ، وأرسلوا أسطولا لمهاجمة القسطنطينية[٥] . والواقع أن ممتلكات الإمبراطورية فى أوربا ، أظهرت منذ البداية ميولها نحو عبادة الصور المقدسة ، وهذا الميل استمر

(١) Diehl : Les III and the Isaurian Dynasty. Cambridge Medieval History Vol IV. p. 9.

(٢) Ostrogorowski : p. 144.

(٣) Vasiliev p. 258.

(٤) Ibid p. 258. Ostroowski p. 144.

(٥) Vasiliev : 258 Ostrogrowski p. 144.

زمن الحركة اللاأيقونية . وعلى الرغم من أن الأمبراطور لم يجد صعوبة فى قمع الثورة ، فإن نهوض السكان ضد الإمبراطور يعتبر نذيراً لا يمكن تجاهله[١] .

سار الإمبراطور فى سياسته بمنتهى الحذر ، بعد أن تبين شدة مقاومة الناس ، فلم يقرر صراحة مناهضة عبادة الصور إلا فى السنة العاشرة من حكمه ، ولم يتخذ قرارا نهائيا إلا بعد مضى سنوات عديدة ، لجأ أثناءها إلى مفاوضة السلطات الكنسية الرئيسية ، فحاول أن يظفر بتأييد البابا وبطريرك القسطنطينية ، غير أن ما عرضه ليو على البطريرك جرمانوس من الاقتراحات ، لم تلق إلا الرفض ، ولم تؤد رسائله مع البابا جريجورى الثانى إلا إلى نتائج سلبية[٢] . فعلى الرغم من أن البابا جريجورى الثانى لم يستجب لرأى الإمبراطور ، فإنه حرص على أن يتجنب الشقاق مع بيزنطة[٣] . بل إنه حاول أن يخمد ما ساد فى إيطاليا من روح الكراهية للإمبراطور ، وأن يحتفظ بالولاء للإمبراطور البيزنطى ، ولعل السر فى ذلك ، أن البابا كان فى أشد الحاجة إلى حماية الإمبراطور للبابوية ضد الخطر اللومباردى[٤] .

ومن أخطر أعداء الإمبراطور ، بعد البطريرك جرمانوس والبابا جريجورى الثانى ، حنا الدمشقى ، وهو يونانى الأصل ، شغل وظيفة كبير فى دار الخلافة الأموية بدمشق ، ثم صار من رهبان دير القديس سابا ، قرب بيت المقدس . ويعتبر حنا الدمشقى من أشهر علماء عصره فى أمور الدين . فاكتبه من الرسائل ، وهى ثلاث ، دفاعا عن الأيقونات تعتبر من أهم مؤلفاته وأكثرها ابتكارا[٥] . ولتفنيد الاتهام الذى يجعل عبادة الصور ليست إلا إحياء لما كان معروفا فى الوثنية من عبادة الأصنام . أعلن حنا الدمشقى آراءه فى الأيقونات . فأشار إلى أن الأيقونة ليست إلا رمزاً أو وسيلة ، بمقتضاها يقف عامة الناس على ماينبغى

(١) Ibid p. 228.

(٢) Ostrogorowski p. 144. Vasiliev p. 258.

(٣) Ostrogorowski p. 144.

(٤) Ostrogorowski : p. 145.

(٥) Vasiliev : p. 259.

أن يقدسوه ويبجلوه(١) ، وبذلك برر استخدام صورة المسيح ، اعتماداً على عقيدة الحلول . فما أورده حنا الدمشقى من رأى إنما حدّد ما جرى فيما بعد من تطور تعاليم عبادة الصور المقدسة(٢) .

لم يسع ليو الثالث ، بعد أن حبطت مساعيه فى الوصول إلى اتفاق مع رؤساء رجال الدين ، إلا أن يلجأ إلى القوة لتحقيق أغراضه . فأصدر قراراً يقضى بتدمير كل الأيقونات المقدسة ، وفى الوقت ذاته حرص على أن يجعل عمله مشروعاً . ففى ١٧ يناير سنة ٧٣٠ ، عقد الإمبراطور مجلساً ، شهده كبار الموظفين من المدنيين والكنسيين ، وطلب إلى الحاضرين ، أن يوافقوا على القرار الذى اتخذه ، غير أن البطريرك جرمانوس ، رفض إجابة هذا الطلب ، فتقرر عزله ، فأمضى ما تبقى من أيام حياته فى مزرعته ، وتولى البطريركية ، فى ٢٢ يناير سنة ٧٣٠ ، أنستاسيوس ، الذى أعلن استعداده للموافقة على قرار الإمبراطور ، وترتب على ذلك أن هذا القرار لم يصدر باسم الإمبراطور فحسب ، بل أيضاً بموافقة الكنيسة ، وهذا ما كان يحرص عليه ليو الثالث ، فأصبح القرار بذلك واجب التنفيذ ، حيث جرى تدمير الأيقونات وتعرض عبادها للاضطهاد(٣) .

وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يستطع تنفيذ هذه السياسة فى إيطاليا لبعدها عن مقر الحكم البيزنطى ، فإن النزاع على عبادة الأيقونات فى القسطنطينية كان له أثر بالغ الخطورة ، فى العلاقات بين بيزنطة وروما . فالمرسوم الذى صدر ، إنما اعتبر مذهب تحريم عبادة الصور المقدسة ، من التعاليم الرسمية ، من قبل الدولة والكنيسة ، ولذا فسوف لا يمضى زمن طويل ، حتى يقع الشقاق بين روما وبيزنطة ؛ ذلك أن البابا جريجورى الثالث ، الذى خلف جريجورى الثانى ، على البابوية ؛ عقد فى روما مجمعاً ، أنكر فيه سياسة بيزنطة

(١) Vasiliev p. 255. Nicene and Post Nicene Fathers XIII p. 54.

(٢) Ostrogorowski : p. 145

(٣) Ostrogowski : p. 154 Vasiliev p, 258.

اللاأيقونية ، واعتبر اللاأيقونيين خارجين على الكنيسة ، بينما أمر الإمبراطور ليو الثالث باعتقال الممثل البابوى فى القسطنطينية وبذلك فشل كل من الإمبراطور والبابا حمل الآخر على التحول عن مذهبه ورأيه ، ولم يلبث الشقاق السياسى أن تلى الاختلاف الدينى . فأول ما ترتب على هذا الاختلاف ، من النتائج السياسية ، أن اتسعت الهوة بين القسطنطينية وروما ، بما حدث من انهيار مكانة الدولة البيزنطية فى إيطاليا ، إذ انفصل عنها وسط إيطاليا ، وصار خاضعاً لسلطة البابا ، وازداد ارتباطه بغرب أوربا(١) . على أن الإمبراطور ليو الثالث لجأ إلى اتخاذ تدابير على جانب من الأهمية ، إذ أن الأقاليم المصبوغة بالصبغة اليونانية ، أمثال جنوب إيطاليا (كالابريا) وصقلية ، وإيلليريا ، والتى كانت تابعة حتى ذلك الحين لدوقية روما ، انفصلت عن روما ، وصارت خاضعة لسلطان بطريركية القسطنطينية(٢) . يضاف إلى ذلك ، أن ليو أصر على تنفيذ سياسته الكنسية فى الجهات ، بما اتخذه من إجراءات مالية ، إذا فرض الجزية على سكان صقلية وكالابريا ، وما كان يحصل عليه البابا من أملاكه البابوية فى جنوب إيطاليا ، من خراج سنوى صار من حق الدولة البيزنطية(٣) . ولم تجد نفعاً الاحتجاجات المتكررة من قبل البابا ، ضد ما اتخذه الإمبراطور من إجراءات تعسفية ، فأصبحت الحدود الجديدة بين سلطة كل من كنيستى القسطنطينية وروما ، تطابق الحدود التاريخيه بين الشرق والغرب ، فدخل فى ولاية بطريركية القسطنطينية شبه جزيرة البلقان وجنوب إيطاليا ، حيث سادت الصفة اليونانية ، وازدادت هذه البطريركية مكانة وثروة على حساب بطريركية إنطاكية ، التى أصابها الوهن والضعف ، بعد استيلاء المسلمين على ما يتبعها

(١) أنظر كتاب وثائق العصور الوسطى ص ١٣٠ — ١٣٤ Vasiliev : p. 259.

(٢) Grumel, L'annexation de l'Illyricum oriental, de la Sicile et de la Calabrie au Patriarcat de Constantinople (Recherches des Sciences Religieuces) pp. 39 — 40 (1951 — 1952) p. 191.
Vasiliev : p. 259.

(٣) Theophanes, p. 410.

من الجهات . وبذلك صار لبطريركية القسطنطينية الولاية والسلطان على كل ماتخضع لسلطان الدولة البيزنطية من الأقاليم . وبهذه الوسيلة ، وضع ليو الثالث أساساً متينا للهدف الذى يرمى إلى تحقيقه ، وهو إخضاع الكنيسة لسلطة الدولة ، فإنه لأيسر للإمبراطور أن يفرض إرادته على بطريرك القسطنطينية ، من أن يفرضها على بابا روما . وذلك لأن البابا ، على الرغم من خضوعه ، من الناحية النظرية ، للإمبراطور البيزنطى ، أخذ يعمل على الخروج والانسحاب من دائرة النفوذ والسلطان الإمبراطورى . على أن بطريركية القسطنطينية ، لا الإمبراطور البيزنطى هى التى حصلت آخر الأمر على أكبر فائدة ، بفضل ماجرى من امتداد دائرة نفوذها . إذ ماكادت تخرج البطريركية سليمة من أزمة مناهضة عبادة الصور المقدسة ، حتى قطعت شوطاً كبيراً فى النهوض ، الذى وضع قواعده ، هذا الإمبراطور اللاأيقونى . أما النتيجة السياسية الهامة ، التى ترتبت على النضال اللاأيقونى ، فهى أن روما انسحبت من الشرق اليونانى ، بينما خرجت بيزنطة من الغرب اللاتينى ، وبذلك انهارت فكرة الوحدة التى تمسكت بها كل من الإمبراطورية البيزنطية والبابوية .

قسطنطين الخامس كوبرونيموس (٧٤١ - ٧٧٥) :

ما حازه ليو الثالث من الشهرة الفائقة للدفاع عن القسطنطينية ، لم تلبث أن تبددت بسبب ما اتبعه من سوء المعاملة مع عبادة الصور المقدسة . تولى العرش من بعد ليو ، ابنه قسطنطين الخامس . ومنذ أن كان قسطنطين فى الثانية من عمره (سنة ٧٢٠) ، جرى تتويجه قسيما لأبيه فى الحكم ، فلما مات ليو ، لم يجد قسطنطين من ينازعه السلطان . غير أنه لم يكد يمضى على توليته العرش سنة ، حتى ظهر منافس قوى اغتصب العرش بضعة شهور [١] ، وهذا المنافس لم يكن إلا أرتاباسدوس Artabasdus قائد ثغر الأرمنياق

(١) Ostrogorowski : p. 147.

الذى ساعد ليو على الوصول إلى العرش ، وعرف له ليو فضله فزوجه من ابنته ومنحه لقب curopalates فارتقى بذلك إلى رتبة كونت ثغر الأبسيق . ولما أضحى قائداً على جميع القوات المرابطة فى هذا الثغر الحربى الشاسع ، الذى يعتبر من أهم ثغور الإمبراطورية ، جرؤ على التمرد على صهره قسطنطين . ومن العوامل التى كفلت له المساعدة والتأييد فى تمرده ، مااشتهر به من معارضة للحركة اللاايقونية وما قام به من النضال ضد الإمبراطور الشرعى ، تأثر إلى حد كبير بهذه الحركة اللاايقونية . فحينما توجه قسطنطين سنة ٧٤٢ على رأس حملة لقتال المسلمين ، تعرض جيشه أثناء اجتياز ثغر الأبسيق ، لمهاجمة ارتاباسدوس ، فحلت بقسطنطين الهزيمة ، وأعلن ارتاباسدوس ، نفسه إمبراطوراً ، ولم يلبث أن أخذ يفاوض تيوفانس مونوتس Theophanes Monutes ، الذى جعله قسطنطين وصياً على العرش أثناء غيابه عن العاصمة . غير أن تيوفانس وكثيراً من كبار الموظفين ، انحازوا إلى ارتاباسدوس ، وهذا دليل واضح على أن أشد الناس اتصالا بالإمبراطور لم يتحدوا معاً فى تأييد السياسة اللاايقونية . زحف ارتاباسدوس بجيشه إلى القسطنطينية ، حيث توجه البطريرك انستاسيوس ، الذى تخلى عن سياسة اللاايقونية . أما ارتاباسدوس فجعل ابنه الأكبر نقفورا قسيما له فى الملك ، بينما نصب ابنه الأصغر نكيتاس قائداً عاماً على الجيش ، وأرسله إلى ثغر الأرمنياق [١] .

وأعاد ارتاباسدوس عبادة الصور فى الفترة التى لم تتجاوز ستة عشر شهراً ، وحكم فيها الإمبراطورية ، وتراءى للناس كأن النضال حول منع عبادة الصور ، قد انتهى [٢] .

وفى هذه الأثناء هرب قسطنطين الخامس ، ولجأ إلى عمورية التى كانت

(١) Ostrogorowski : p. 147. Vasiliev : p. 260.

(٢) Vasiliev : p. 260.

مركز قيادة أبيه فى ثغر الأناتوليك ، فلقى حفاوة كبيرة ، وحظى باستقبال باهر ، وانتصر له ثغر الأناتوليك ، وتراقيسيون ، الذى انفصل حديثاً عن ثغر الأناتوليك الشاسع ، على حين أن ارتاباسدوس تلقى المساعدة من ثغرى الأبسيق والأرمنياق ، اللذين سبق أن تولى قيادتهما وله بهما اتصال وثيق . غير أن دعوته لعبادة الصور لم تظفر بنجاح كبير ، فالمعروف أن آسيا الصغرى تعتبر موطن الحركة اللاايقونية ، ولهذا السبب ، ولما اشتهر به قنسطنطين من القيادة الموفقة ، كان له أثر كبير فى انتصار قنسطنطين ، وإنزال الهزيمة بخصومه فى سرديس فى مايو سنة ٧٤٣، ولم يلبث أن زحف على القسطنطينية فدخلها فى ٢ نوفمبر سنة ٧٤٣، فاستقبله الناس استقبالا حافلا ، وأنزل بخصومه أشد أنواع العقاب ، فشهر بأرتاباسدوس وابنيه . ثم أمر بسمل عيونهم ، وأمر بإعدام فريق من أنصار أرتاباسدوس ، وتقطيع أوصال فريق آخر ، حيث جرى بتر أيديهم وأرجلهم وسمل عيونهم . وأمر أيضاً بالتشهير بالبطريرك أنستاسيوس حيث طاف بميدان السباق راكباً حماراً ، ولم يكن يرمى من وراء ذلك سوى الحط من كرامة منصب البطريركية . وعلى هذا النحو انتهى حكم ارتاباسدوس ، وجرى الاعتراف بقنسطنطين إمبراطوراً(١) .

وامتاز قنسطنطين على أبيه فى أنه يفوقه فى القيادة الحربية ، وفى مناهضة عبادة الصور المقدسة . غير أنه لم يبلغ ما بلغه أبوه من التفكير أو القوة البدنية . ولما اشتهر به قنسطنطين من اضطراب الأعصاب ، واعتلال الصحة ، والانقياد ، كل ذلك جعله ذا شخصية معقدة ، منقسمة على نفسها(٢) . وكان لهذه الصفات أكبر الأثر فى توجيه سياسته وما اتبعه قنسطنطين من وحشية فى اضطهاد خصومه فى الدين وتعذيبهم ، إنما ترجع إلى ما اشتهر به من شدة الحساسية واضطراب أعصابه ، وما أحرزه من انتصارات باهرة على العرب

(١) Ostrogorowski : p. 148.

(٢) Ibid p. 148.

والبلغار ، جعلت العساكر يتعلقون به ، إنما ترجع إلى كفايته الحربية وحنكته وعبقريته وشجاعته النادرة(١) .

الحروب ضد المسلمين :

أفادت الدولة البيزنطية من الفتن الداخلية التى وقعت أواخر عهد الدولة الأموية والتى أدت فى سنة ٧٥٠ إلى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وترتب على هذا الانقلاب ، أن انتقلت حاضرة الخلافة العباسية من دمشق إلى بغداد ، وبذلك خفت شدة المسلمين وضغطهم على الدولة البيزنطية ، نظراً لبعد العاصمة العباسية . ففى سنة ٧٤٦ ، أى أواخر عهد الأمويين ، أغار قنسطنطين على شمال الشام ، واستولى على مرعش ، موطن آبائه وأجداده ، ونقل الأسرى الذين وقعوا فى يده إلى إقليم تراقيا ، فى أملاك الدولة بأوربا ، إذ جرت الإشارة إلى وجود جماعة من السوريين المونوفيزتيين بهذه الجهات فى القرن التاسع الميلادى(٢) .

أما فى البحر ، فإن قائد ثغر كبريوتس ، الذى يعتبر قائد البحرية البيزنطية ، أنزل الهزيمة بأسطول إسلامى ، قدم سنة ٧٤٧ من الإسكندرية(٣) .

وما قام به قنسطنطين من توجيه حملة إلى أرمينيا والجزيرة ، ظفرت بنجاح باهر ، إذ جرى الاستيلاء على معقلين هامين من معاقل الحدود ، وهما تيودوسيوبولس (أرضروم) وملطية ، ونزل الأسرى فى تراقيا على الحدود البلغارية ، التى أمر الإمبراطور بتحصينها(٤) . غير أنه لم يترتب على كل هذه الانتصارات مكاسب إقليمية للإمبراطورية البيزنطية ، إذ أن المسلمين لم يلبثوا أن استردوا ما استولى عليه البيزنطيون من مواضع . على أنه يصح القول إن

(١) Ibid p. 149.

(٢) Theophanes. p. 422.

(٣) Ostrogorowski : p. 149.

(٤) Theophanes : p. 439, Nicephorus 66

ما وقع منذ ذلك الحين من القتال بين المسلمين والبيزنطيين ، اتخذ صورة حرب الحدود ، التى تنشب من حين إلى آخر بين الفريقين [1] .

البلغار

وبينما أخذ الخطر الإسلامى تخف حدته . إزدادت مشكلة بلغاريا تعقيدا . فما اتخذه قنسطنطين الخامس من التدابير لحماية تراقيا ، إنما يدل على أن الحكومة البيزنطية لم يعد يهمها استمرار الهدوء على الحدود البلغارية . إذ أن ما قام به البيزنطيون من تشييد استحكامات على الحدود البلغارية ، فسره البلغار على أن ذلك ليس إلا تهديداً موجها لهم ، فقابلوا ذلك الإجراء بغزو الأراضى البيزنطية سنة ٧٥٦ . وبذلك بدأت مرحلة خطيرة من مرحلة القتال بين البيزنطيين والبلغار .

ذلك أنه تبين لقنسطنطين الخامس ، أن البلغار يعتبرون أخطر عدو للإمبراطورية البيزنطية ، فوجه لقتالهم معظم حملاته الحربية ، إذ أرسل مالا يقل عن تسع حملات ، أنشبت القتال فى أرض بلغاريا . وبلغت الأزمة بين بيزنطة وبلغاريا شدتها سنة ٧٥٢ ، حين تولى مقاليد الأمور فى بلغاريا الملك (الخاقان) تيلتز Teletz ، الذى يعتبر من أشد أعداء بيزنطة ومن الداعين لمهاجمتها . فما كاد يتولى الحكم حتى هاجر إلى بيزنطة عدد كبير من الصقالبة ، الذين يكنون الكراهية للبلغار ، فأنزلهم الإمبراطور قنسطنطين فى بثينيا (بآسيا الصغرى) ، حيث أقام بهذه الجهات من قبل ، جماعات من الصقالبة ، فازداد بذلك قوة العنصر الصقلبى فى آسيا الصغرى [2] .

والتقى قنسطنطين الخامس بملك البلغار ، فى تراقيا ، وأرسل أسطولا يقل امداداً كبيرة من الفرسان البيزنطيين ، إلى مصب نهر الدانوب ، بينما اجتاز بجيشه القوى ، تراقيا ، إلى أرض العدو ، واجتمع الفرسان بسائر الجيش عند

(١) Ostrogorowski : p. 194 : Vasiliev : p. 238.

(٢) Ostrogorowski : p. 150 : Vasiliev : p. 239 .

Anchialus على شواطئ البحر الأسود . وفى ٣٠ يونية سنة ٧٦٣ ، وقعت بين البيزنطيين والبلغار ، معركة عنيفة ، استمرت من الفجر حتى الغروب ، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للبلغار بينما احتفل قنسطنطين بأكبر نصر أحرزه أثناء حكمه ، فدخل القسطنطينية فى موكب كبير ، وجرت الاحتفالات بالعاصمة احتفالا به [1] . أما تليتز فإنه خر صريعا فى ثورة من الثورات التى اجتاحت بلغاريا ، واستمرت سنوات عديدة ، وترتب عليها انقلابات حكومية كثيرة ، جعلت للدولة البيزنطية من النفوذ والقوة ، ما أدى إلى تدخلها فى شئون بلغاريا الداخلية . ولم تنهض بلغاريا من هذه الأزمة ، إلا حين تولى أمرها سنة ٧٧٠ ، تالبريج Telerig ، فاستعاد ما كان لبلغاريا من قوة مادية . وعلى الرغم من محاولات قنسطنطين لفرض الصلح على بلغاريا ، فإنه لم ينجح ، برغم حملاته البحرية والبرية ، فى تسوية مشكلة بلغاريا نهائيا ، حتى وفاته سنة [2] ٧٧٥ .

على أن هذه الحروب أضعفت بلغاريا ، إذ تبددت قوتها الحربية ، وأصاب الشلل جهازها الادارى ، ولجأ تلبريج نفسه إلى بلاط القسطنطينية ، فراراً من الفوضى الناشبة فى بلاده . ومع ذلك فإن بلغاريا لا زالت عدوا عنيدا لبيزنطة ، وصار لزاما على الإمبراطورية البيزنطية أن تواجه الأخطار على الحدود الشمالية ، والشرقية على السواء [3] .

قنسطنطين والغرب

وما أحرزه قنسطنطين من انتصار على الأطراف الشرقية والشمالية ، إنما جاء نتيجة تركيز السياسة الخارجية فى الاهتمام بالجهات الشرقية . فلم يحفل قنسطنطين ، دون غيره من الأباطرة البيزنطيين ، بالمحافظة على السلطان

(١) Lombard : Constantin V empereur des Romains p. 47 : Vasiliev : p. 239.
Runciman : The Bulgarian Empire p. 36.

(٢) Ostrogorowski : p. 151.

(٣) Ostrogorowski : p. 151.

البيزنطى فى إيطاليا ، وانهار معه ما يرتبط بالإمبراطورية الرومانية من فكرة العالمية (أى إمبراطورية متحدة) . فازداد التوتر بين روما ، وعاصمة اللاايقونيين (القسطنطينية) . فالمعروف أن البابوية كانت تدرك أهمية مساعدة الدولة البيزنطية لها ، فى مقاومة ضغط اللومبارديين ، إذ لم يكن ثمة من الدول ما ينهض لمساعدتها ، ولذا رأت أن من السياسة السليمة ، أن تغفل ما يقع بين بيزنطة وروما ، من اختلافات دينية . وأن تحافظ على ولائها وطاعتها للإمبراطور البيزنطى [1] .

غير أنه حدث سنة ٧٥١ ، أن سقطت راڤنا فى يد اللومبارديين ، وبذلك اختفت ارخونية راڤنا التى أقامها البيزنطيون ، فانتهى بذلك حكم بيزنطة فى شمال إيطاليا ووسطها ، ولم يعد فى استطاعة البابا أن يحصل على مساعدة بيزنطة . وفى هذه الأثناء ، دخل عامل جديد فى السياسة البابوية ، وذلك بازدياد قوة الفرنجة ، فرأى البابا ستيفن الثانى ، أن ما يبذله الفرنجة من الحماية للبابوية ضد اللومبارد ، لأقوى أثرا ، وأكثر قبولا ، من حماية البيزنطيين الملحدين . ولذا قام البابا ستيفن الثانى باجتياز جبال الألب ، ثم التقى فى بونتيون Ponthion ، بالملك بيبن ملك الفرنجة ، فى ٦ يناير سنة ٧٥٤ . وهذا الاجتماع على جانب كبير من الأهمية ، لأنه تقررت به القواعد ، التى بمقتضاها ، صار للبابوية سلطة زمنية . فانصرفت البابوية عن تأييد الإمبراطور البيزنطى ، وتحالفت مع ملك الفرنجة ، ولم يمض على هذا الحادث نصف قرن . حتى قامت من جديد الإمبراطورية الغربية [2] .

لم يكن من قبيل الصدفة ، أن توافق هذه الأحداث ، الزمن الذى طغت فيه اللاايقونية فى بيزنطة . إذ أن النضال اللاايقونى بلغ الذروة زمن قسطنطين الخامس .

---

(١) Ibid p. 151. Vasiliev p. 265.

(٢) دايفز : شارلمان ص ٤٧ – ٤٨

Vasiliev p. 265.

قسطنطين واللاايقونية : مجمع سنة ٧٥٤

تكشفت ثورة ارتابا سدوس ، عن أنه من اليسير أن تعود عبادة الصور المقدسة فلابد إذن من اتخاذ اجراءات حاسمة للمحافظة على ما وضعه ليو من سياسة اللاايقونية . غير أن قسطنطين ، بما اشتهر به من الروية والحذر ، لم يمض فى تحقيق خطته إلا فى الخمسينات من القرن الثامن . فدعا إلى عقد مجمع فى سنة ٧٥٤ ، لتقرير اللاايقونية . ولكى يضمن الإمبراطور قسطنطين قيام جبهة متحدة داخل المجمع لنصرته وتأييده ، لجأ إلى تعيين أتباعه وأنصاره فى المراكز الرسولية ، وأنشأ أبروشيات جديدة ؛ تولاها طائفة من اللاايقونيين ، ونقل إلى تراقية جماعات من السوريين والأرمن المعادين للايقونية ، وجعل معظم سكان القسطنطينية بعد الوباء الذى عصف بها ، من اللاايقونيين ، فضلا عن شغور كرسى البطريركية [1] . وصحب هذه الإجراءات العملية ، نشاط أدبى خصب ، ودعاية قوية . إذ تقرر عقد اجتماعات فى مواضع مختلفة ، وتولى زعماء الحزب اللاايقونى الخطابة فى الجماهير ، وجرت مناظرات عنيفة بين الحزبين المتنازعين . على أن هذه الاجتماعات لم تكد تنفض ، حتى يتم اعتقال أولئك الذين جرءوا على الاحتجاج . وبذلك ضمن قسطنطين سكوتهم أثناء انعقاد المجمع . وقام الإمبراطور نفسه بدور كبير فى النشاط الأدبى ، إذ ألف ما لا يقل عن ثلاثة عشرة رسالة دينية . لم يبق منها إلا رسالتان [2] . والواقع أن كتابات قسطنطين لم يكن المقصود منها ، سوى توجيه المجمع إلى إصدار قرارات معينة ، وكان لها أثر كبير فى ازدياد شرح الآراء اللاايقونية ، إذ اختلف قسطنطين عن دعاة عباد الصور ، فى أن هؤلاء الأيقونيين ، يفرقون بين الأيقونة (الصورة) ، والحقيقة التى تمثلها ، فيعتبرون الصورة مجرد رمز . أما قسطنطين الذى تأثر بالآراء الشرقية ، فإنه أصر على الاتحاد الكامل ، بين الصورة والحقيقة التى

---

(١) Cambridge Medieval History lv. p. 14.

(٢) Ostrogorowski : p. 152.

تمثلها ، وبذلك أدخل فى مناقشاته ، ما هو معروف من الجدل حول المسيح ، وعارض بشدة فى أمر تشبيه المسيح ، فكأنه تجاوز ما ذهب إليه اللاايقونيون السابقون ، من أنهم أنكروا عبادة الأيقونات لأنها تعتبر إحياء لعبادة الأصنام(١) . وأنكر قنسطنطين جواز رسم المسيح على أساس ماله من صفة إلهية ، على حين أن أنصار عبادة الصور ، أمثال البطريرك جرمانوس ، وحنا الدمشقى، أجازوا تصوير المسيح على أساس التجسيد ، فاعتبروا المنقذ (المسيح) فى صورة إنسان تأكيداً لحقيقة تجسيده(٢) . والواقع أن الحركة اللاايقونية ، فى صورها الأولى لم تكن إلا مونوفيزتية متطرفة، وتكشفت كتابات قنسطنطين الخامس ، عن ميوله للمونوفيزتية . ولا غرابة فى ذلك ، إذا أدركنا ما للمونوفيزتية من قوة على أطراف الدولة البيزنطية من جهة سوريا وأرمينيا واستمرار أثرها فى داخل الإمبراطورية ، كما يدل على ذلك ماحدث من انقلاب دينى زمن فيليبيكوس(٣) .

وبعد أن تأكد قنسطنطين من إخلاص الجيش . ومن رضى جانب كبير من رجال الدين ، ومن كراهية سكان العاصمة للرهبان ، عقد فى سنة ٧٥٣ مجمعا للنظر فى مسألة عبادة الصور المقدسة . وفى ١٠ فبراير سنة ٧٥٣ ، انعقد بالمجمع فى قصر هيريا Hieria على الشاطئ الأسيوى للبوسفور ، وشهده ٣٣٨ أسقفا(٤) .

وتوافر للمجمع من الأعمال ما أدى إلى أن يطول أمد انعقاده حتى نهاية أغسطس سنة ٧٥٤ . ولم يتعرض الحاضرون ، فيما يبدو ، لأى ضغط من قبل الإمبراطور . ومع ذلك فإنهم أقروا كل ما صرح به الإمبراطور من آراء . إذ قرر المجمع أنه لا يجوز رسم المسيح ، وكل من يجرؤ مستقبلا ، على أن يقوم بهذا العمل ، أو يقوم بتقديسه ، أو يتخذ صورته فى كنيسة أو فى بيته ،

(١) Ostrogorowski : p. 152.
(٢) Ibid p. 153.
(٣) Ibid p. 153.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 14.

أو اقتنى هذه الصورة ، تقرر عزله ، إذا كان أسقفا ، أو قسا ، أو شماسا . أما إذا كان راهبا أو من العلمانيين ، فإنه تقررت محاكمته وفقا للقوانين المدنية باعتباره عدوا لله ، ولما جاء به آباء الكنيسة من المذاهب(١) . فكأنه جعل عباد الصور خاضعين للسلطة الزمنية(٢) ، وأشار إلى أن عباد الصور متهمون باعتناق المونوفيزتية أو النسطورية ، فإذا صوروا المسيح فى طبيعته البشرية ، فكأنهم فصلوا ، وفقاً لرأى النسطوريين ، ما فى المسيح من طبيعتين غير قابلتين للانفصـــال ، وإذا صوروا المسيح على أنه إله ، فكأنهم أدمجوا ، متفقين فى ذلك مع المونوفيزتين ، طبيعتين ، لا بد أن تكونا مستقلتين فى شخص واحد . وجرى اقتباس فقرات لاحصر لها من الانجيل ، وكتابات آباء الكنيسة . للائتناس بها فى المناقشات ، التى انتهت بإنكار جميع أيقونات المسيح والعذراء وسائر القديسين(٣) . وفى الجلسة الختامية ، قدم الإمبراطور أسقف سيلايون Sylaion ، وهو قنسطنطين ، على أنه البطريرك الجديد ، فلقى هذا التعيين الرضى والقبول من الحاضرين . ثم جرى فى ٢٩ أغسطس إذاعة قرارات المجمع فى ميدان السباق بالقسطنطينية . وتقرر تحطيم كل الأيقونات التى تنطوى على مغزى دينى ، وقطع الفريق الأرثوذكسى ومن يشايعه ، أمثال البطريرك جرمانوس وحنا الدمشقى من الكنيسة ، وبذلك ارتقى الإمبراطور إلى مكانة الرسل(٤) أما عباد الصور فلم يتعرضوا فحسب للعزل للقول والإهانة ، بل تقرر طردهم أيضاً من الوظائف المدنية(٥) . ولقى كثير من عباد الصور العذاب والتنكيل ، والتشريد والسجن ، وتقررت مصادرة ممتلكاتهم ، وجرى نفى عدد منهم إلى الأقاليم النائية(٦) .

(١) Vasiliev : p. 260.
(٢) Ibid. p. 261 : Camb. Med. Hist. IV. p. 14.
(٣) Ostrogorowski : p.153.
(٤) Vasiliev : p. 261.
(٥) Ostrogorowski : p. 154.
(٦) Vasiliev : p. 261.

وأضحى لزاماً على الإمبراطور المبادرة إلى تنفيذ توصيات المجمع ، فأمر بتحطيم الصور المقدسة ، ووضع صور ورسوم دنيويه مكانها . فجرى تزيين الكنائس بالزخارف ، والصور التى تمثل فيها الحيوانات والطيور والنباتات ، وصور الأباطرة ، ومناظر المعارك والصيد ، والمناظر المسرحية وسباق العربات ، وصارلهذا الرسم أهمية لم تكن معروفة من قبل[1] وتقرر تشجيع الرسم المدنى الذى يمجد الإمبراطور والإمبراطورية التى يعتبر رمزها . ولم يكن الإمبراطور قنسطنطين يكره الرسم لذاته ، بل كان يكره الرسم الدينى والباعث عليه . فجعل هدفه تدمير الناحيتين . وسنحت الفرصة ، بما صارله من سلطة لتنفيذ قرارات مجمع دينى أعتبر أن له صفة مسكونية ، فلم يتردد فى تحقيق ذلك بكل الوسائل القهرية أو السلمية[2] .

على أن هذه النزعة للتخريب والتدمير ، لم تلبث أن اصطدمت بمعارضة ومقاومة عنيفة ، من قبل الرهبان ، وبلغ النضال ذروته فى الستينات من القرن الثامن الميلادى . وتجمعت المقاومة الأيقونية حول استيفن ، رئيس دير Auxementius بآسيا الصغرى الذى حظى بتأييد كبير من السكان على اختلاف طبقاتهم . وحرص الإمبراطور أول الأمر أن يستميل خصومه باللين والمفاوضة ، وذلك حقنا للدماء من جهة ، ولأن الحرب البلغارية استغرقت كل تفكيره[3] من جهة أخرى . فما كاد يتم عقد الصلح مع البلغار سنة ٧٦٥ وتبين له أنه لا أمل فى اجتذاب استيفن إلى جانبه ، حتى قرر الالتجاء إلى العنف فى سحق معارضيه[4] . ففى نوفمبر سنة ٧٦٥ ، لقى استيفن مصرعه فى شوارع القسطنطينية فقام رعاع المدينة بتمزيق جسمه إرباً . وعلى الرغم من أن السخط على حكم الإمبراطور بلغ من الازدياد ، ماجعل الإمبراطور يصدر

(١) Ostrogorowski : p. 154.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 15 : Ostrogorowski p. 154.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 15.

(٤) Ibid. p. 15.
Ostrogorowski: p. 155.

فى أغسطس سنة ٧٦٦ ، قراراً بإعدام جماعة من كبار موظفى الدولة ، وقادتها العسكريين ، فإن أشد مقاومة للامبراطور وسياسته ، إنما جاءت من قبل الرهبان ، فشن عليهم حربا صليبية ، استشهد فيها عدد كبير منهم[1] .

يشير تيوفانس إلى أنه حدث فى تلك السنة (سبتمبر سنة ٧٦٤ إلى سبتمبر سنة ٧٦٥) ، أن أعلن الإمبراطور غضبه وسخطه على كل من يخشى الله . إذ أخذ على الرعية الأيمان بالتخلى عن الصور . وكان قنسطنطين أول من أقسم بالتخلى عن عبادة « الأصنام » . ولم يلبث الاضطهاد أن شاع فى أنحاء الإمبراطورية . وجرى هدم ما بقى فى الكنائس من الصور بالقسطنطينية ، وتم أيضاً إزالة صور القديسين سواء كانت فى الفسيفساء أو على الزجاج . وكل الكتابات التى تشيد بالصور ، جرى إزالتها . وتقرر استخدام بعض المبانى لأغراض دنيوية فتحولت الأديرة إلى دور لصناعة السفن وإلى ثكنات[2]

أما الرهبان فتعرضوا لإجراءات بالغة العنف ، وقد اختصهم قنسطنطين بالكراهية الشديدة ، فليس رداءهم ، فى نظره ، إلا رداء الظلام ، وأنه لايجوز ذكر من يرتدونه . ووطن قنسطنطين نفسه على أن يدمر طائفة الرهبان فإلى جانب ما تعرض له الرهبان من التنكيل ، وسمل العيون ، والنفى والضرب ، وكى جباههم بالقضبان الحديدية المحماة ، وجدع الانف وقطع اللسان ، ومنع الرعايا من أن يتناولوا القربان من الرهبان . وحرص على أن يتخلى رجال الدين عن ثيابهم ، وأن يعودوا إلى الحياة المدنية وأمر بمصادرة أملاك الأديرة ، وتوزيعها إقطاعات على المقربين إليه ، وتحولت بعض الأديرة إلى ثكنات ومرافق عامة[3] .

(١) camb. Med. Hist. IV. p. 15 : Vasiliev p. 262.
Ostrogorowski. p. 155.

(٢) Vasiliev : p. 263.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 15. Vasiliev p. 262.
Ostrogorowski : p. 155.

ومن الدليل على ما اشتهر به قسطنطين من التعصب والشدة ما اتخذه من إجراء ، ميخائيل لاخانودراكون Lachanodracon ، قائد ثغر تراقيسيون الذى يعتبر من أكبر أنصار الإمبراطور ، إذ خير الرهبان فى ثغره ، بين التخلى عن الرهبنة بالزواج وبين سمل عيونهم ونفيهم إلى قبرص[١] . على أن هذه التدابير أدت إلى ما قام به الرهبان من هجرات ضخمة ، إلى مواضع لا يصل إليها اضطهاد الإمبراطور ، فلجأوا بصفة خاصة إلى جنوب إيطاليا ، حيث أنشأوا أديرة ومدارس ، وصارت تعتبر مراكز للحضارة اليونانية ويشير بعض المؤرخين إلى أن إيطاليا وحدها ، استقبلت زمن ليو وقسطنطين نحو ٥٠ ألف من هؤلاء اللاجئين[٢] .

وزخرت بيزنطة بالحركة اللاايقونية ، وتجاوز الإمبراطور حدود المرسومات التى صدرت عن مجمع سنة ٧٥٤ ، بل أنه خالفها صراحة . فأعلن بطلان الأيقونات والمخلفات المقدسة ، ومنع عبادة القديسين ، وعبادة العذراء أم المسيح ، فكل هذه الأمور لم ترد فى قرارات المجمع . ولو لم ينهار عمل قسطنطين الخامس عند وفاته ، لأصاب الحياة الدينية فى بيزنطة تغيير شامل[٣] .

واعتبرت الأجيال التالية ، عهد قسطنطين الخامس عهد إرهاب ، لما طفح به من ألوان الشدة والعنف ، وارتبط اسمه أيضاً بالكراهية الشديدة ، حتى إذ عادت الأرثوذكسية ، جرى إخراج جثته من مثواها بكنيسة الرسل بالقسطنطينية . ومع ذلك فإن ما أحرزه قسطنطين من انتصارات حربية ، وما قام به من أعمال مجيدة ، ظل معروفا ومشهوراً ، ومن الدليل على ذلك ، أنه حينما أشتد ضغط البلغار على الدولة البيزنطية ، أوائل القرن العاشر الميلادى ، واستبد اليأس بالناس ، اجتمع أهل القسطنطينية عند قبر قسطنطين الخامس ، وتوسلوا بأن يعود إليهم هذا الإمبراطور الميت ، ليخلصهم من محنتهم[٤] .

(١) Vasiliev : p. 262. Ostrogorowski : p. 155.

(٢) Vasiliev : p. 262.

(٣) Ostrogorowski : p. 155.

(٤) Ostrogorowski : p. 156.

ليو الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) .

يعتبر عهد ليو الرابع الخزرى (لأن أمه من الخزر) ، مرحلة انتقال بين ذروة الحركة اللاايقونية زمن قسطنطين الخامس ، وبين العودة إلى عبادة الصور المقدسة زمن إيرين . اشتهر ليو بالميل إلى الاعتدال ، فتوقف الهجوم على عبادة العذراء أم المسيح ، وتقرر إغفال ما اتبعه قسطنطين الخامس ، أواخر حكمه ، من سياسة مناهضة الديرية ، بل إن ليو الرابع أعاد إلى الرهبان أهم أسقفياتهم ، فاستعادوا بذلك بعض ما فقدوه من النفوذ[١] ، غير أنه لم يستطع المضى فى هذه السياسة طويلا ، إذ عاد إلى إتباع السياسة التقليدية ، التى ترمى إلى مناهضة عبادة الصور ، فأمر فى سنة ٧٨٠ بجلد وحبس طائفة من كبار الموظفين ، أصروا على عبادة الصور وتمجيدها ، على أن هذه العقوبة لم تكن فى شدة وعنف ما اشتهر به قسطنطين فى معاقبة خصومه . يضاف إلى ذلك ، أن هذه كانت الحالة الوحيدة المعروفة عن اضطهاد عباد الصور زمن ليو الرابع[٢] . والواقع أن ما حدث من فتور حدة اللاايقونية زمن ليو الرابع ليس إلا رد فعل طبيعى ، لما جرى من طغيانها زمن قسطنطين الخامس ، ولا بد أيضاً من إدراك أثر الإمبراطورة إيرين ، زوجة ليو الرابع . التى اشتهرت بالحزم ومضاء العزيمة ، والتى تنتمى إلى مدينة أثينا المشهورة بعبادة الصور ، فضلا عن تعلق إيرين بتمجيد الصور وعبادتها[٣] .

ومن التغييرات التى جرت فى نظام الحكم زمن ليو الرابع ، أنه لم يكترث ، بما حصل عليه إخوته من لقب قيصر ، فلم يجعل أحداً منهم قسيما له فى الحكم ، حتى إذا توفى ، خلفه على العرش ، بل جعل ذلك من نصيب إبنه الصغير قسطنطين ، ولم يفعل ذلك إلا بموافقة الجيش ، فى ٢٤ ابريل سنة

(١) Vasiliev p. 263.

(٢) Theophanes. p. 453.

(٣) Vasiliev : p. 263.

٧٧٦ ، جرى تتويج قنسطنطين ، وطلب ليو إلى الشيوخ ، وممثلي جيوش العاصمة والأقاليم ، والشعب ، إعلان الولاء للإمبراطور الذى جرى تتويجه حديثاً ، والذى سوف يكون وريثاً له فى الحكم[١] ويعتبر هذا الميل نحو الاعتماد على الشعب ، من خصائص هذا العصر ، ويعتبر أيضاً رد فعل لما اشتهر به عهد ليو الثالث وقنسطنطين الخامس من الاستبداد . فاشترك الشعب فى اختيار الامبراطور الجديد أو الإمبراطور القسيم ، جرت العادة بالتعبير عنه بما يقوم به الشعب والجيش من التهليل والهتاف للامبراطور الجديد عقب تتويجه[٢] ، ومن الملحوظ أن أرباب الحرف والصناعات بالقسطنطينية شاركوا أيضاً فى تنصيب الامبراطور . وعلى الرغم من أن الجيش لم يقترح تتويج ابن الإمبراطور إلا بناء على إشارة من الامبراطور ، فالواقع أن أفكار الجيش عن طبيعة الحكم قد تغيرت ، فهذا الجيش ذاته ، الذى احتج منذ خمسين سنة على الإمبراطور قنسطنطين الرابع (من أسرة هرقل) حين استبعد اخوته من حق ولاية الحكم[٣] ، هو الذى طلب إلى الامبراطور أن يتوج ابنه قسيما ثم وريثا له فى الملك ، وبذلك وضع أساس مبدأ جعل الحكم لأكبر أبناء الامبراطوار برغم ما لقى من معارضة إخوته[٤] .

قنسطنطين السادس وايرين :

تولى قنسطنطين السادس ، وهو فى العاشرة من عمره ، عرش الامبراطورية عقب وفاة أبيه (٨ سبتمبر سنة ٧٨٠) ، بوصاية أمه إيرين ، التى أضحت قسيما له فى الحكم . وعلى الرغم من أن عودة عبادة الصور المقدسة صار أمراً محققاً ، بعد أن صارت مقاليد الحكم إلى إيرين ، فإنها التزمت سبيل الحذر والروّية ، لأنه من العسير أن تبادر

(١) Ostrogorowski : p. 156.
(٢) Ostrogorowski : p. 156.
(٣) انظر ما سبق ص ١٣٧ .
(٤) Ostrogorowski : p. 157.

ايرين إلى تغيير السياسة الكنسية فجأة ، بعد أن رسخت قواعد الحركة اللاايقونية ، إذ صار يؤمن بها عدد كبير من رجال الكنيسة وموظفى الحكومة ، سواء كان ذلك عن اقتناع بها ، أو لاتخاذ اللاايقونية وسيلة لتحقيق أغراضهم ، يضاف إلى ذلك أن جانباً كبيراً من رجال الجيش اشتد تعلقهم بهذا المذهب ، بفضل إخلاصهم ووفائهم للإمبراطور قنسطنطين الخامس[١] .

المجمع المسكونى السادس :

على أن خطط الحكومة لم تلبث أن انكشفت فى سنة ٧٨٤ م ، حين تقرر تنحية البطريرك بولص عن كرسيه ، (أغسطس ٧٨٤) ، ثم وقع الاختيار على تاراسيوس Tarasius ، الذى لم يكن وقتذاك إلا الأمين الخاص للإمبراطورة . وهو من العلمانيين المثقفين ، نال قدرا طيباً من التعليم الدينى ، واشتهر بأحكامه السياسية الصائبة[٢] .

وتقرر عقد مجمع مسكونى لإعادة عبادة الصور ، وإعلان بطلان المرسومات التى أصدرها المجمع اللاايقونى ، الذى انعقد فى سنة ٧٥٤ ، واتصلت الحكومة البيزنطية بالبابوية فى روما ، والبطريركيات الشرقية ، وأعلنت ترحيبها باشتراكها فى هذا المجمع[٣]

انعقد المجمع فى كنيسة الرسل بالقسطنطينية فى ٣١ يولية سنة ٧٨٦ . غير أنه ما كاد المجمع يبدأ أعماله ، حتى وقع حادث لم يكن متوقعاً ، إذ أن طائفة من جند الحرس بالعاصمة ، الموالين لقنسطنطين الخامس والمعادين لعبادة الصور اندفعوا إلى داخل الكنيسة ، شاهرين سيوفهم ، وأرغموا الحاضرين على الإنصراف ، ولم يخف فريق من الأساقفة الحاضرين سرورهم لما حدث ، غير أن الإمبراطورة لم تكترث بذلك ، وأصدرت الأوامر بنقل الجند

(١) Ostrogorowski : 157 : Vasiliev p. 263.
(٢) Vasiliev : p. 263.
(٣) Vasiliev : p. 264.

اللايقونيين إلى آسيا الصغرى ، بدعوى الحاجة إليهم لقتال المسلمين ، بينما استقدمت إلى العاصمة الجند الأيقونيين من تراقيا(١) ، وعهدت إليهم بالدفاع عن العاصمة . وفى مايو سنة ٧٨٧ ، انعقد المجمع من جديد فى نيقيه ، وحضر الاجتماع ٣٥٠ أسقفا ، وعدد كبير من الرهبان . وعقد المجمع سبع جلسات متتالية ، برآسة البطريرك تاراسيوس ، بين ٢٤ سبتمبر ، و ٣١ أكتوبر ، وكان لزاما على المجمع أن ينظر فى مسألة السياسة الكنسية ، وأن يصدر قرارا فى أمر الأساقفة اللايقونيين ، وقد أعلن أحد الأساقفة ، « بأنهم ولدوا وشبوا ونشأوا على الهرطقة » . ومع ذلك فإن المجمع ، بما اشتهر به من بعد النظر ، قرر قبول عودة اللايقونيين إلى الكنيسة ، بعد إعلان تحللهم من الهرطقة(٢) .

قرر هذا المجمع العودة إلى عبادة الصور المقدسة ، وكل من يخالف ذلك ، تقرر قطعه من الكنيسة ، وكذلك تقرر قطع أولئك « الذين اعتبروا الأيقونات المقدسة أصناما ، والذين رأوا أن المسيحيين إنما اتخذوا الأيقونات آلهة ، أو ادعوا بأن الكنيسة الكاثوليكية ، قبلت عبادة الأصنام » . وتقرر أيضاً إعادة المخلفات المقدسة إلى مواضعها بالكنائس التى جرى انتزاعها منها . وتقرر أيضاً إنكار ما وقع من تحويل الأديرة إلى دور ومساكن ، وصدرت الأوامر بإعادة كل ماأقدم عليه اللايقونيون من تحويل الأديرة إلى أغراض دنيوية ، إلى سيرتها الأولى . وحرص المجمع على رفع المستوى الخلقى لرجال الدين ، بأن أنكر بيع وظائف الكنيسة ، وهو ما يعرف بالسيمونية ، ومنع قيام أديرة تضم الراهبات والرهبان معاً(٣) .

وفى أمر العقيدة ، كاد الاتفاق أن يكون تاما بين الأرثوذكس . إذ جرى الاستئناس بطائفة من آيات الانجيل ، وآثار آباء الكنيسة ، فى تأييد عبادة

(١) Ostrogorowski : p. 158.

(٢) Ostrogorowski : p. 159.

(٣) Vasiliev : p. 264.

الصور المقدسة . وتقرر بطلان ما أصدره المجمع اللاأيقونى المنعقد فى سنة ٧٥٤ ، وتولى البطريرك تاراسيوس وضع تفاصيل أسباب الرفض . ثم استنكر المجلس اعتبار الأيقونات هرطقة وأمر بإزالة الكتابات اللاأيقونية . وإعادة عبادة الصور المقدسة(١) . وأقر المجمع ما ذهب إليه القديس حنا الدمشقى ، من ربط مسألة الأيقونات بعقيدة الخلاص ، ورأى أن العبادة ليست موجهة إلى الأيقونات ، بل إلى الأشخاص الذين جرى رسمهم عليها ، وينبغى الحرص على التمييز بينها وبين العبادة الموجهة إلى الله وحده(٢) .

على أن أهمية مجمع نيقية لم ترجع فحسب ، إلى إعادة عبادة الصور المقدسة ، بل إلى أنه هيأ لأنصار هذه العبادة ما افتقروا إليه من نظام فى نضالهم ضد خصومهم أول الأمر . إذ جمع كل ما حدث من المناقشات الدينية المؤيدة لعبادة الصور ، التى استخدمها أنصار هذه العقيدة فيما بعد ضد خصومهم(٣) .

وفى الجلسة الختامية المنعقدة فى ٢٣ أكتوبر سنة ٧٨٦ ، فى قصر ماجنورا بالقسطنطينية ، تم التصديق على قرارات المجمع ، فوقعتها الإمبراطورة ، وكذا الإمبراطور الصغير(٤) .

غير أن آثار اللاأيقونية وجذورها لازالت قائمة ، وظهر أثر ذلك حين وقع النضال بين الإمبراطورة إيرين وابنها قسطنطين السادس ، بسبب تمسكها بالوصاية والاحتفاظ بالسلطة ، برغم بلوغ ابنها سن الرشد ، وحرصه على مباشرة سلطته(٥) . فانحاز إليه المعارضون لسياسة إيرين الأيقونية ، ومن أشهرهم ميخائيل لاخانودراكون . ومع ذلك ، فإن إيرين استطاعت أن تقمع سنة ٧٩٠ ، مؤامرة جرى تدبيرها ضدها وترتب على ذلك أنها طلبت إلى الجيش أن يقسم لها يمين الولاء ، باعتبارها صاحبة السلطة الكاملة ، وبذلك يتقدم اسمها

(١) Ostrogorowski : 159. Vasiliev : p. 264.

(٢) أسد رستم : الروم ج ١ ، ص ٣١٢ Ostrogorowski : p. 159.

(٣) Vasiliev : p. 264.

(٤) Vasiliev : p. 264.

(٥) Ostrogorowski : p. 159.

على اسم ابنها وقسيمها قنسطنطين السادس . ولم تتردد القوات المرابطة فى القسطنطينية ، ومعظمها من الأملاك البيزنطية فى أوربا ، فى الاستجابة لطلب إيرين(١) .

غير أن المعارضة الشديدة لحكم إيرين إنما جاءت من قبل عساكر ثغر الأرمنياق الذين لا يميلون إلى الأيقونية التى تمثلها إيرين ، فلم تلبث حركة المقاومة ضد إيرين أن انتشرت فى سائر ثغور آسيا الصغرى . وأصر الجيش آخر الأمر على المحافظة على حقوق الأسر الحاكمة ، فلم يستجب لمطالب إيرين ، وأعلن أنه لا بد من أن ينفرد قنسطنطين السادس بالحكم (أكتوبر سنة ٧٩٠)(٢) .

غير أن ما اشتهر به قنسطنطين من الضعف ، وما تعرض له من الهزيمة فى حرب البلغار سنة ٧٩٢ ، وازدياد نفوذ أنصار إيرين ، أرغمه على قبول إيرين قسيمة له فى الحكم ، لا سيما بعد أن تطلع أنصاره إلى تنصيب عمه نقفور فى الحكم(٣) .

وبادر قنسطنطين السادس بالعمل على المحافظة على سلطانه ، فأمر بسمل عينى عمه نقفور ، وقطع ألسنة أعمامه الآخرين ، وقضى أيضا بسمل عينى الكسيوس ، قائد ثغر الأرمنياق الذى قاد الهجوم على إيرين انتصارا لقنسطنطين ، فوقع الاضطراب والتمرد بين صفوف جيش الأرمنياق ، ونشب سنة ٧٩٣ نضال بين قنسطنطين وبين أنصاره السابقين ، ولم يؤد هذا النضال إلا إلى ازدياد كراهية الجند له(٤) .

وتعرض قنسطنطين أيضاً لسخط الحزب الأرثوذكسى ، لما أقدم عليه من طلاق زوجته ماريا ، وهى سيدة جميلة من بافلاجونيا ، تزوجها بناء

(١) Ostrogorowski : p. 160

(٢) Ibid. p. 160.

(٣) Ibid. p. 160.

(٤) Ostrogorowski : p. 160.

على نصيحة أمه ؛ غير أنه تزوج من تيودورا ، من وصيفات القصر ، وتوجها إمبراطورة ، وأسرف فى حفلات الزواج ، حتى تطغى على شعور الناس ضده . ومع ذلك فإنه تعرض لهجوم عنيف من الرهبان ، واتهموه بالزنا ومخالفة القوانين الكنسية ، وأعلنوا أيضاً سخطهم على البطريرك تاراسيوس لتغاضيه عن سلوك الإمبراطور(١) . فاضحى الرهبان البيزنطيون بذلك يؤلفون معارضة قوية ضد زعماء الكنيسة والدولة(٢) .

وفقد قنسطنطين ، لما اشتهر به من الطيش والعناد والقسوة ، تأييد كل من الحزب الأرثوذكسى الذى يتولى الحكم ، وحزب المعارضة اللاأيقونية ، وصار من السهل عزله من الحكم ، دون أن ينهض أحد للدفاع عنه(٣) .

وفى ١٥ أغسطس سنة ٧٩٧ ، وبناء على أوامر إيرين ، تم سمل عينى قنسطنطين فى الحجرة الأرجوانية ، وهى التى شهدت مولده منذ ٢٧ سنة ، وبذلك حققت إيرين غرضها ، وأضحت الحاكم الوحيد على الإمبراطورية(٤) البيزنطية .

وتعتبر إيرين أول امرأة انفردت بحكم الإمبراطورية ، فلم تتول الحكم على أنها وصية على إمبراطور صغير السن ، أو أقعدته علة عن توليه العرش ؛ غير أن الجديد فى هذا الموضوع ، هو أن حق المرأة فى أن تتولى حكم إمبراطورية ، صار مثار مناقشة فى زمن ، اشتد فيه ، وفقاً للتقاليد الرومانية ، ارتباط منصب الإمبراطور بوظيفة القائد الأعلى للجيش . ومن الملحوظ أن إيرين نعتت نفسها فيما أصدرته من القوانين بأنها إمبراطور Basilieus لا إمبراطورة Basilissa(٥) . غير أن ما التمسته إيرين من الوسائل لتوطيد

(١) Ostrogorowski : p. 160.

(٢) Ibid, p. 160.

(٣) Ostrogorowski : p. 161

(٤) دايفز : شارلمان ، ص ١٧٣

(٥) Bury : Constitution of Later Roman Empire, p. 23.

سلطانها لم يحظ إلا بنجاح ضئيل(١) . فخيم على البلاط جو التآمر والاستبداد ، وأخذ كل من المستشارين الكبيرين لإيرين ، وهما الطواشي ستورياكوس Stauriacus والطواشي أئتيوس ، يتنافس على السلطة والنفوذ(٢) .

الأحوال الاقتصادية :

وللمحافظة على ما تبقى للحكومة عند السكان من مكانة ، لم تحفل الحكومة البيزنطية بما تقتضيه الميزانية من قيود والتزامات ، فتجاوزت عن كثير من الضرائب المقررة على السكان ، وأمعنت فى منح امتيازات للأديرة ، لما للرهبان من أهمية فى تأييد ومساعدة إيرين ، وما يترتب على ذلك من رضى الناس عن حكمها ، وبذلت الحكومة أيضاً الهبات والمنح لسكان العاصمة ، الذين يتوقف على رضاهم ، إلى حد كبير ، مصير حكومة قلقة غير مستقرة . أما ضريبة البلدية ، التى يدفعها سكان العاصمة ، والتى تعتبر عبئاً ثقيلا عليهم ، فإنه تقرر إلغاؤها . وازداد تخفيض ضرائب التصدير والاستيراد ، المقررة على الموانى الواقعة خارج القسطنطينية ، مثل ابيدوس وهيروس Hierus ، والتى تعتبر من أهم موارد الحكومة البيزنطية . وأظهر أهل العاصمة فرحهم وسرورهم بما حصلوا عليه من الامتيازات ، وامتدح تيودور رئيس دير ستوديون سخاء الإمبراطورة(٣) . على أن هذا السخاء أدى إلى تدمير الموارد المالية للدولة البيزنطية ، فلم تلبث البلاد أن وقعت فى فوضى عنيفة(٤) .

السياسة الخارجية — الحروب ضد المسلمين

أخذت السياسة الخارجية للإمبراطورية فى التدهور فى العشرين

(١) Ostrogorowski : p. 161.
(٢) Ostrogorowski : p. 161.
(٣) Bury : Eastern Roman Empire, p. 3, 212
(٤) Ostrogorowski : pp. 161 — 162.

سنة الأخيرة ، ويرجع هذا التدهور من جهة إلى الخلافة العباسية ، التى بلغت ذروة قوتها . إذ حدث فى زمن الخليفة المهدى العباسى ، أن قام المسلمون سنة ٧٨١ بهجوم عنيف فى جوف أملاك الدولة البيزنطية ، وأحرزوا انتصارا حاسما فى ثغر تراقيسيون ، وتحتم على الإمبراطورة أن تعقد الصلح مع المسلمين . وبمقتضاها التزمت بأن تدفع للخليفة العباسى جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار وأن تستمر الهدنة ثلاث سنين(١) . غير أن السلام لم يستمر طويلا ، فنشب القتال من جديد بين الفريقين ، وذلك لأن البيزنطيين لم يحترموا الهدنة التى عقدوها مع المسلمين(٢) .

الحروب ضد البلغار :

أما الحروب التى نشبت على الحدود البلغارية منذ سنة ٧٨٩ بتوجيه وإرشاد الإمبراطور قنسطنطين السادس ، فلم تحرز نجاحا ملموساً . وفى صيف سنة ٧٩٢ حل بالبيزنطيين عند حصن ماركيلاى Marcallae الواقع على الحدود ، هزيمة منكرة بلغ من شدتها أن هرب الإمبراطور البيزنطى ، ووقع فى أسر البلغار عدد من كبار القادة العسكريين . والتزمت الحكومة البيزنطية مرة أخرى بدفع الجزية للبلغار ، غير أن الصلح لم يستمر طويلا ، وذلك بسبب إصرار البلغار على زيادة ما تدفعه بيزنطة من الجزية . فلم يسعها إلا أن تدفع ما طلبه البلغار صاغرة ، وذلك يدل على ما بلغته الدولة من الذلة والمهانة بعد أن كانت لها مكانة مرموقة زمن قنسطنطين الخامس(٣) .

الدولة البيزنطية وشارلمان :

على أن ما فقدته بيزنطة من مكانة فى الغرب بسبب ما حدث به من تطورات ،

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ص ٣٧٩
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ص ٣٩١ . Vasiliev : p. 238.
(٣) Runciman : The Bulgarian Empire, p. 49.
Bury : The Eastern Roman Empire, p. 339.

لأهم من الناحية التاريخية مما حاق بها من الفشل فى آسيا والبلقان . ففى الوقت الذى تولى فيه حكم مملكة الفرنجة ، ملك من أعظم الملوك (شارلمان) ، كان النساء والطواشية يتحكمون فى تاريخ بيزنطة . إذ استطاع شارلمان أن يجعل دولته أعظم دولة مسيحية فى زمنه . بفضل ما حدث من اتساع ممتلكاته ، بالاستيلاء على باڤاريا وسكسونيا ، والتوسع شرقا على حساب الصقالبة ، والقضاء على مملكة الآفار ، وتدمير المملكة اللومباردية وإضافتها إلى دولة الفرنجة[1] . وبذلك فقدت بيزنطة ما لها من سلطان فى روما ، واشتد التحالف بين كنيسة روما والفرنجة ، وأعرضت روما عن القسطنطينية . ولم يتأثر الموقف بما جرى فى مجمع نيقيه ، من عودة بيزنطة إلى الأرثوذكسية ، وما يتبع ذلك من حماسها لتأييد عبادة الصور . وما قد يؤدى ذلك إلى تسوية النزاع بين كنيستى روما والقسطنطينية . والواقع أن مجمع نيقية لم يكن له أثر كبير فى التوفيق بين هاتين الكنيستين ، إذ أن روما توقعت أن ماجرى اتخاذه ضدها من إجراءات أثناء فترة النضال حول الأيقونات ، سوف تتوقف سواء كان ذلك فى المجال الدينى أو السياسة الكنيسة ، ولذا صارت تتوقع أن تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه ، فتعود إلى البابوية أملاكها التى اغتصبها البيزنطيون ، ويرجع لسلطان البابا ما كان له من السلطة فى جنوب إيطاليا وايلليريا . غير أن القسطنطينية رفضت أن تستجيب لهذه الطلبات ، ولم يجر فى مجمع نيقيه إثارة هذا الموضوع . إذ أن رسالة البابا هادريان إلى ملوك بيزنطة ، والتى تضمنت هذه الحقوق ، جرى فيها استبعاد العبارات التى أشارت إلى حقوق البابا فى انتقاد ما حدث من مخالفة قوانين الكنيسة ، برسامة تاراسيوس بطريركا ، وإلى اتخاذه لقب « مسكونى » ، والتى أشارت إلى مالكنيسة روما من الصدارة . وبذلك فقد البابا ما له من نفوذ فى الشرق ، مثلما فقد الإمبراطور البيزنطى سلطانه فى الغرب[2] .

ومهما يكن الأمر ، فإن تحالف روما مع القسطنطينية سوف لا تجنى منه روما

(١) Ostrogorowski : p. 162.

(٢) Ostrogorowski : p. 163.

ميزات كبيرة ، على حين أن التحالف مع شارلمان الذى قهر اللومبارديين أعداء البابوية ، سوف يؤدى إلى نتائج عظيمة الأهمية للكنيسة ، على الرغم من صعوبة التفاهم مع شارلمان على مسألة عبادة الصور ، لأن شارلمان اعتبر فى رسالته أن عبادة الصور ليست إلا عبادة خالصة للأوثان ، على حين أن العودة إلى عبادة الصور يتفق مع رغبة البابوية[1] .

تمسك البابا هادريان بسياسة سلفه البابا ستيفن الثانى ، التى قامت على التحالف مع ملك الفرنجة ، بعد أن ثبت لديه نجاحها ، فلم يتردد هادريان فى السير على نهج هذه السياسة ، التى لم تلبث أن سارت قدما بما اتخذه البابا ليو الثالث من قرار ثورى خطير كشف فيه عن سياسة كنيسة روما فى القرن الثامن الميلادى ، وذلك حين توج شارلمان إمبراطورا فى روما بكنيسة القديس بطرس ، فى ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠[2] .

وكان لقيام إمبراطورية شارل الكبير (شارلمان) ، أثر خطير فى توجيه سياسة أوربا . فلم يكن تتويج شارلمان أهم حدث فحسب فى العصور الوسطى ، بل يعتبر أيضاً من الأحداث القليلة ، التى إذا لم تقع ، لتغير تاريخ العالم تغييرا شاملا[3] .

فالمعروف حتى ذلك الحين ، أنه لم يكن ثمت إلا إمبراطورة واحدة ، وأنه إذا تولى الحكم إمبراطوران أو أكثر ، فإنهم إنما يحكمون دولة واحدة . ومن الخطأ اعتبار أن الإمبراطورية الرومانية الغربية سقطت فى سنة ٤٧٦ . وما قام به جستنيان من سياسة حربية ، إنما كانت تخفى وراءها فكرة وجود إمبراطورية واحدة ، وظلت هذه الفكرة قائمة إلى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ فى روما[4] . وبذلك قضى تتويج شارلمان على جميع الأفكار التقليدية ،

(١) دايفز : شارلمان ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) دايفز : شارلمان ص ١٧٨ — ١٧٩ .

Kleinclauz : Charlmagne pp. 304 — 305.

(٣) Bryce : The Roman Empire, p. 50.

(٤) Vasiliev : p. 265.

وصوّب ضربة قاصمة للمصالح البيزنطية ، إذ أن بيزنطة ، روما الجديد ، ظلت تعتبر حتى ذلك الحين الإمبراطورية الوحيدة ، التى انتقل إليها تراث الإمبراطورية الرومانية القديمة . وعلى أساس هذه الفكرة لم تعتبر بيزنطة تولية شارلمان عرش الإمبراطورية ، إلا عملا من أعمال الاغتصاب . أما البابوية فإنها تؤمن أيضاً بفكرة قيام إمبراطورية واحدة ، ولم يكن فى نيتها إقامة إمبراطورية جديدة ، وإنما أرادت أن تجعل الإمبراطورية التى نشأت حديثاً ، تحل مكان الإمبراطورية البيزنطية . إذ أصبح من المسلم به فى الغرب ، أن عرش القسطنطينية يعتبر شاغرا ، بعد عزل الإمبراطور الشرعى ، قسطنطين السادس سنة ٧٩٧[1] .

وأشار الكوين ، مستشار شارلمان ، إلى ذلك فى الرسالة التى وجهها إليه فى يونيه ٧٩٩ : ليس فى العالم المعروف وقتذاك إلا ثلاثة أشخاص كبار مشهورون : الشخص الأول ، هو الذى يتولى الكرسى الرسولى فى روما ، والشخص الآخر ، هو الذى يتولى المنصب الإمبراطورى والسلطة الدنيوية فى روما الثانية (القسطنطينية) ، غير أن ما حدث من إرغام هذا الإمبراطور عن العرش ، وما تعرض له من سوء المعاملة على يد مواطنيه ، ذاع وشاع فى كل مكان . أما الشخص الثالث ، الذى حاز بما أنعم به السيد المسيح عليه من السلطة الملكية ما جعله حاكما على سائر المسيحيين ، فهو أقوى من الآخرين نفوذا وسلطانا ، وأرجحهم عقلا . وأرفعهم مكانة وشأناً . فأنت الذى يثأر لما يرتكب من الجرائم ، والذى يهدى من يضل السبيل ، والذى يواسى الناس فى شدتهم وضيقهم ، والذى يقوم بعمل الخير[2] .

وإذ جرى اعتبار ولاية امرأة ، أيرين ، الحكم ، مخالفا للتقاليد الرومانية ، رأى البابا ليو الثالث ، وشارل ، أن العرش فى القسطنطينية[3]

---

(١) Ostrogorowski : p. 156.

(٢) Vasiliev : p. 266.

(٣) دايفز : شارلمان ص ١٧٣ .

يعتبر شاغرا . ويترتب على تتويج شارلمان ، أن يرتقى عرش الإمبراطورية الرومانية المتحدة . ولم يكن شارلمان بذلك خليفة لروميلوس أو جسطلوس ، بل خليفة لليو الرابع وهرقل وجستنيان . . ومن سبقهم حتى قنسطنطين الكبير ، من أباطرة الشطر الشرقى للإمبراطورية . على حين أن الحكومة البيزنطية اعتبرت هذا الحادث إنما يمثل ثورة بعض الأقاليم الغربية ضد الحاكم الشرعى بالقسطنطينية[1] .

على أن ما حدث فعلا ، أنه صار منذ سنة ٨٠٠ ، إمبراطوريتان ، الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية . وما جرى من الانفصال بين الشرق والغرب ، والذى مهد لحدوثه ، ما وقع من تطورات ، خلال قرن من الزمان ، وازداد هذا الانفصال ظهورا أثناء النضال اللاإيقونى ، صار الآن حقيقة ثابتة من الناحية السياسية ؛ فانشطر العالم شطرين مختلفين فى اللغة والحضارة والجنس[2] .

وعلى الرغم من أن تتويج شارلمان كان من عمل البابوية ، لا من عمل ملك الفرنجة ، فإنه صار لزاما على شارلمان أن يواجه ما ترتب على هذه الخطوة من النتائج الخطيرة . إذ تحتم عليه أن يحصل على اعتراف الدولة البيزنطية ، إذ أن لقب إمبراطور الذى يحمله ، سوف يكون من الناحية القانونية عديم القيمة ، ما لم تعترف به بيزنطة . ومن الواضح أنه لا أهمية لما تردد من أن عرش الإمبراطورية بالقسطنطينية ، كان شاغرا ، على حين أن إيرين تشغله فعلا ، ولا أهمية أيضاً لما ورد فى الرسائل الشرلمانية Libri Carolinis من أن بيزنطة قد غوت وأمعنت فى الهرطقة[3] . وأشار أحد المؤرخين إلى أن شارلمان لم يتخذ لنفسه اللقب الذى اشتهر به الأباطرة البزنطيون وهو لقب « إمبراطور الرومان » ، إنما اتخذ لقب

---

(١) Vasiliev : p. 267.

(٢) Ostrogorowski : p. 165.

(٣) Ostrogorowski : p. 165.

Imperium Romanus Gubernaus[1] . وأدرك شارلمان ، أنه سوف يجرى ، بعد إيرين ، انتخاب إمبراطور جديد ، لن يعترض أحد على حقة فى اللقب الإمبراطورى . ولذا أرسل شارلمان والبابا سنة ٨٠٢ ، إلى القسطنطينية السفراء ، ليعرضوا على إيرين أمر زواجها من شارل . حتى يتم بذلك توحيد الشطرين الشرقى والغربى من جديد[2] . وليس لهذه السفارة من معنى سوى أن شارلمان أدرك أن لقبه ليس له أهمية ما لم تعترف به الدولة البيزنطية . على أن ما حدث عقب وصول هذه السفارة من نشوب ثورة بالقصر أطاحت بأيرين من العرش (٣١ أكتوبر سنة ٨٠٢) أوقف هذا المشروع ، ولم يتم حل المشكلة[3] .

هذه الثورة التى دبرها كبار الموظفين والقادة العسكريون ، أدت إلى اختيار نقفور ، متولى الخزانة (بيت المال) ، إمبراطوراً ، وتقرر نفى إيرين إلى جزائر الأمراء ، ثم انتقلت منها إلى جزيرة لسبوس ، حيث قضت نحبها بعد فترة قصيرة[4] .

(١) Vasiliev : p. 268.

(٢) Vasiliev : p. 268. Ostrogorowski : p. 165.

دايفز : شارلمان ص ، ١٨٦ .

(٣) دايفز : شارلمان ص ، ١٨٦ . Vasiliev : p. 268.

على أنه جرت مفاوضات بين شارلمان ونقفور ، حول الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطورى ، غير أنها لم تنته إلى شىء . ولم يعترف الإمبراطور البيزنطى بشارلمان إمبراطورا إلا زمن الإمبراطور ميخائيل الأول (رانجابيه) ، حين قدم سنة ٨١٢ سفراء ميخائيل إلى بلاط شارل فى آخن ، وحيوه على أنه إمبراطور ، وبذلك صار اللقب الذى حصل عليه شارل سنة ٨٠٠ ، مشروعا . وترتب على ذلك أنه منذ سنة ٨١٢ صار ثمة إمبراطوريتان ، على الرغم من أنه لم تكن إلا إمبراطورية واحدة من الناحية النظرية . على أن بيورى Bury ، اعتبر أن الإمبراطورية الرومانية الموحدة ، جرى إحياؤها بمقتضى ما تم سنة ٨١٢ ، وصار يحكمها إمبراطوران ، أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب . ومن الواضح أن هذه الوحدة ليست إلا وحدة من الناحية النظرية ، ولم تلبث فكرة الإمبراطورية الموحدة أن اختفت .

انظر Vasiliev : p. 269.
Bury : Eastern Roman Empire, p. 325.

دايفز : شارلمان ، ص ١٨٧ .

(٤) Ostrogorowski : p. 165.

نقفور (٨٠٢ — ٨١١) :

تشير المصادر الشرقية إلى أن نقفور ينتمى إلى أصل عربى ، وأن جده هاجر إلى بسيديا Psidia ، بآسيا الصغرى ، التى تعتبر مسقط رأس نقفور . وتعتبر ثورة سنة ٨٠٢ من الثورات النادرة فى تواريخ بيزنطة ، فالمعروف أن معظم الثورات السياسية تولى تنظيمها قادة عسكريون ، أما ثورة سنة ٨٠٢ . فتولى تنظيمها رجل ، نقفور ، لا يمت للجيش بصلة من الصلات ، إذ أنه شغل وظيفة وزير الخزانة[1] . ولم يكن من دعائم الكنيسة ، وعلى الرغم من شهرته بالاستقامة وبتأييد عبادة الصور ، فإنه طلب إلى رجال الدين أن يظهروا الولاء للإمبراطور ، ويعلنوا خضوعهم له . إذ حرص على أن يخضع لسلطاته الإمبراطورية بأسرها ، حكومة وكنيسة[2] . ولم تلبث العلاقات أن توترت بين حزب الرهبان وبين السلطتين الكنسية والحكومية ، لا سيما بعد أن عين الإمبراطور فى كرسى البطريركية العالم المؤرخ نقفور ، عقب وفاة تاراسيوس (٢٥ فبراير سنة ٨٠٦)[3] .

اشتهر البطريرك نقفور بما اشتهر به تاراسيوس من التعمق فى العلوم الدينية والدنيوية . بل إنه فاق تاراسيوس فى كونه مؤرخا ومؤلفا ، إذ ألف طائفة من الكتابات التى دافع فيها عن الصور المقدسة . ويتفق نقفور مع تاراسيوس ، فى أن كلا منهما كان من كبار موظفى الحكومة قبل أن يتولى كرسى البطريركية ، والتزم كل منهما فى سياسته سبيل الاعتدال . على أن تعيين أحد العلمانيين فى كرسى البطريركية ، ولد المرارة والسخط عند رجال الدين المتعصبين ، إذ رأوا أن زعيمهم تيودور أحق بهذا المنصب من الآخرين . وإذ حرص الإمبراطور على عدم التقيد بالقوانين المكتسبة ، أمر بعقد مجمع اشترك فيه

(١) Vasiliev : p. 271. Bury : Eastern Roman Empire, pp. 8 - 9

(٢) Bury : Eastern Roman Empire, p. 9.

(٣) Ostrogorowski : p. 166.

رجال الدين والعلمانيون ، تقرر فيه الاعتراف بصحة زواج قنسطنطين السادس من تيودوت Theodote ، ورفع الحرمان عن القس يوسف الذى بارك هذا الزواج ، فازداد سخط رهبان ستوديون ، الذين قطعوا كل ما لهم من صلة بالسلطات الكنسية الرسمية ، وتهيأوا لاستقبال الاضطهاد من قبل الحكومة(٤) .

سياسة نقفور الاقتصادية :

وجه الإمبراطور ، منذ بداية حكمه ، الاهتمام إلى تدعيم اقتصاد البلاد ، وإلى معالجة ما تعانيه الخزانة من الإفلاس ، الذى نشأ عن إهمال الحكومة السابقة . والمعروف أن نقفور ، اشتهر قبل أن يتولى الحكم بمهارته فى الشئون المالية ، فألغى الأوامر التى أصدرتها إيرين بالتجاوز عن الضرائب المتأخرة . ثم رأى ضرورة إعادة تقدير الضرائب على السكان ، وتبين بمقارنة هذا العمل بما كان معروفا من قبل ، أن الضرائب ازدادت بنحو ٨½ ٪ وخضع الفلاح المستأجر (peroikoi) لأراضى الأديرة والكنائس وسائر المؤسسات الخيرية فى بيزنطة للضريبة المعروفة باسم Hearth tax . وهذه أول إشارة لهذا النوع من الضرائب ببيزنطة . والواقع أنها لم تكن إلا ضريبة على الرءوس ، تجرى جبايتها حسب الأسرات(١) . وتعتبر ضريبة الرءوس وضريبة الأرض أهم مصادر الدخل ، فى العصر الأوسط للدولة البيزنطية ، فلم يكن نقفور أول من أدخلها ، لأنها كانت معروفة فى زمنه . غير أن وجه الأهمية فيها ، هو أنه جرى تطبيقها على فئة من الفلاحين ، كانت معفاة حتى زمنه ، من دفع الضرائب ، وهذا الإعفاء يرجع إلى زمن إيرين . فالمعروف أن أملاك الكنيسة والأديرة فى الدولة البيزنطية ، تؤدى ، من حيث المبدأ ، ما هو مقرر عليها من الضرائب . لذا لا يعتبر نقفور مبتدعا لهذه الضريبة ، بل إن كل ما فعله هو أنه نفذ قواعد اللائحة القديمة(٢) . وبلغ مقدار ضريبة الرءوس فى العشرين سنة

(١) Ostrogorowski : p. 1667.
(٢) Bury : Eastern Roman Empire p. 212.
(٣) Ostrogorowski : p. 167.

الأولى من القرن التاسع نحو ملياريزين (أى شلنين)(١) عن كل فرد . قام بدفعها كل سكان القرى التى تقرر عليهم دفع هذه الضريبة . وحرص نقفور على أموال الدولة ، فجعل دافعى الضرائب مشتركين فى المسئولية عن دفع الضريبة ، إذ يتعاهد الجميع بدفع الضريبة المقررة على الأرض التى يزرعونها ، فإذا عجزوا عن أدائها ، قام السكان المجاورون بدفع ما قصر عن دفعه الفلاحون . وهذه القاعدة لم تكن أيضاً جديدة ، بل كانت معروفة فى قانون الفلاح (٢) .

واستولى الإمبراطور نقفور على بعض أملاك الكنيسة وأضافها إلى الضياع الإمبراطورية . غير أنه لم يخفض ما هو مقرر عليها من الضرائب . ولم يقصد من وراء ذلك إلا أن يستعيد ما بذلته إيرين من الامتيازات والمنح للكنيسة والأديرة . واشتد نقفور فى تنفيذ قانون التركات ، وقانون الضرائب المفروضة على الركاز (المعدن فى باطن الأرض) ، وقرر نقفور ضرائب باهظة على بعض الأفراد ، الذين كانوا معدمين ثم أصبحوا أغنياء(٣) ، دون أن يكون لديهم من الموارد أو المواهب ، ما يبرر ذلك الانتقال الفجائى(٤) .

ومن يجرى شراؤه من الرقيق من خارج الدائرة الجمركية بابيدوس ، لاسيما من منطقة جزائر الدوديكانيز ، تقرر أن يدفع عن كل منهم نوميزمتان (تقرر إضافة ٢ ٪ إلى الثمن الأصلى(٥)) . يضاف إلى ذلك أنه أصدر قراراً ، حرم فيه على رعاياه أن يتقاضوا ربحا أو فائدة على ما يبذلونه من القروض . ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى أن تتوقف المشروعات التجارية التى تحتاج إلى رءوس أموال ، ويتحتم على نقفور حينئذ أن ينهض لمساعدتهم ، فاتخذ من الوسائل ما يكفل لبيت المال الكسب والربح ، فأجاز للحكومة أن تقرض

(١) Bury : Eastern Roman Empire, p. 213.
(٢) Ostrogorowski : p. 167.
(٣) Ostrogorowski : p. 168.
(٤) Bury : Eastern Roman Empire, p. 217.
(٥) ibid. p. 217.

الطالبين ما يبتغون من الأموال ، على أن يدفع الطالب منهم ربحا قدره ١٦⅔٪ عن كل ما يعادل ٥١٨ جنيها إنجليزيا ، وترتب على ذلك أن تحتم على بناة السفن بالقسطنطينية أن يحصلوا على قروض حكومية وفقا لهذه الشروط . ومهما يكن هذا الإجراء مخالفا للمبادئ الأخلاقية ، فإن نقفور جعل القروض احتكاراً للحكومة ، وجعل للقرض سعرا مرتفعا ، صار ما يتحصل منه مورداً جديداً من موارد الدخل(١) .

واتخذ الإمبراطور نقفور خطوات بالغة الأهمية ، لإصلاح نظام الدفاع ، الذى اعتمد منذ القرن السابع على صغار المقطعين مقابل الخدمة العسكرية ، ووفقا للروايات التى ترجع إلى القرن العاشر ، لم تقل قيمة ما يملكه الجندى من الأرض عن أربع ليرات من الذهب ، مقابل أن يبرز عند الطلب بفرس وأداة حربية كاملة(٢) . فإذا لم يتوافر من الجند من يملكون هذا النصاب من الأرض ، فرض نقفور الخدمة العسكرية على فلاحين فقراء ، وذلك بأن ألزم أهل القرية بأن يتكفلوا بتجهيز هؤلاء الفلاحين بالعدة الحربية ، بأن يدفعوا ضريبة سنوية ، قدرها ١٨½ نوميزما . على أنه ليس من المحتم أن يكون هذا النصاب من الأرض ملكا خاصا لفرد واحد ، بل قد يكون مجموعة أملاك لفلاحين عديدين ، يقوم أحدهم بتأدية الخدمة العسكرية ، على حين يتكفل الباقون بتجهيزه حربيا . وبذلك سدت الحكومة العجز فى قوتها الحربية(٣) . وللبحارة ما للجند من الأراضى التى تكفل لهم معاشهم . ولم يكن غرض نقفور من هذه الإجراءات سوى أن يوجد هذا النوع من الإقطاع . ويشير المؤرخ ثيوفان إلى أن الإمبراطور نقفور ، أرغم البحارة المقيمين على السواحل ، لاسيما فى آسيا الصغرى ، والذين لم يمارسوا الزراعة مطلقا ، على أن يشتروا مساحات من الأرض ،

(١) Ostrogorowski p. 168. Bury : Eastern Empire, p. 217.

(٢) Bury : Eastern Roman Empire, p. 217.
Ostrogorowski : p. 169.

(٣) Bury : Eastern Roman Empire, p. 215.

لم تجر زراعتها من قبل ، وذلك بالثمن الذى حدده(١) . وهذا أول مثال فيما يبدو ، لامتلاك البحارة للأراضى ، ويعتبر إجراءاً بالغ الأهمية للبحرية البيزنطية ، وقد بدأ أول الأمر فى الثغر البحرى ، المعروف بثغر كيبريوت(٢) .

يضاف إلى ذلك ، أن نقفور عمد إلى سياسة الاستيطان والاستغلال ، وذلك لغرض سياسى ، وهو الدفاع عن الأراضى المعرضة للاعتداء الخارجي . فأرغم سكان ثغور آسيا الصغرى . على بيع ممتلكاتهم ، والانتقال إلى بلاد الصقالبة بالبلقان ، حيث حازوا أراضى جديدة ، على أن يؤدوا الخدمة العسكرية(٣) .

سياسة بيزنطة نحو الصقالبة

وما اتبعه الإمبراطور نقفور من سياسة الاستيطان ، له أهمية خاصة لارتباط هذه السياسة بأرض الصقالبة بشبه جزيرة البلقان ، إذ أن الصقالبة منذ النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، لم يواصلوا فحسب الإغارة على شبه جزيرة البلقان ونهبها ، بل إن غاراتهم امتدت حتى بلغت شواطئ الدردنيل ، وسالونيك ، وجنوب بلاد اليونان وسواحل البحر الأدرياتى ، واستقروا فى هذه الجهات فى أعداد كبيرة . وفى زمن أسرة هرقل اشتد تغلغل الصقالبة فى البلقان ، وتكاثر عدد المستوطنين منهم . وأحاطت القبائل الصقلبية بمدينة سالونيك ، وأضحى من العسير عليها أن تقاوم ما تعرضت له من هجماتهم(٤) .

ولم يكتف الصقالبة بغاراتهم البرية ، بل إنهم لم يلبثوا أن نزلوا فى سفنهم إلى بحر إيجه ، وهاجموا الأسطول البيزنطى ، وعمدوا فى أحوال كثيرة إلى

(١) Ibid. p. 169.

(٢) Ostrogorowski : p. 169.

(٣) الواقع أن هذا الإجراء كان معروفا فى القرنين السابقين ، وكل ماعمله نقفور أنه أعاد تنفيذه ، بعد أن أهمله من سبقه من الأباطرة ، فكأنه بذلك التزم سياسة بيزنطة التقليدية . (Ostrogorowski p. 170)

(٤) Vasiliev : p. 218.

قطع المئونة عن القسطنطينية . ونزحت جموع ضخمة من الصقالبة إلى آسيا الصغرى والشام[١] .

وأشار قنسطين بورفيروجنيتوس ، إلى أن البيلوبونيز ، غلبت عليها فى منتصف القرن الثامن الصفة الصقلبية وطغت عليها الهمجية[٢] . غير أن البيزنطيين أخذوا منذ منتصف القرن الثامن وبداية القرن التاسع ، يوطدون مراكزهم بها . ففى زمن إيرين قامت الدولة البيزنطية بهجوم واسع النطاق على الصقالبة ببلاد اليونان ، إذ حدث فى سنة ٧٨٣ أن غزا الوزير ستوراكيوس إقليم سالونيك ، وزحف بجيش كبير حتى بلغ وسط بلاد اليونان والبيلوبونيز ، وأرغم القبائل الصقلبية بها على الاعتراف بالسيادة البيزنطية والتعهد بدفع الجزية[٣] ، غير أنه حدث فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن ، أن دبر الصقالبة فى بلاد اليونان بزعامة رئيس قبيلة Velziti ، مؤامرة ، ضد إيرين ، ولصالح ابنها قنسطنطين السادس الذى أمرت بحبسه . وفى أوائل القرن التاسع ، قام الصقالبة فى البيلوبونيز الثورة ، فنهبوا أملاك اليونانيين ، ثم قاموا بهجوم شامل على ماتراس سنة ٨٠٥ ، غير أن الصقالبة لم يلبثوا أن انهزموا ، وفرض عليهم الإمبراطور البيزنطى الاسترقاق ، وفقدوا بذلك حريتهم واستقلالهم ، بينما احتفظ صقالبة البيلوبونيز بقوميتهم حتى زمن العثمانيين . والواقع أن هزيمة الصقالبة فى باتراس ، تعتبر مرحلة هامة فى إعادة النفوذ اليونانى بجنوب بلاد اليونان ، وتعتبر عند البيزنطيين بداية استرداد البيزنطيين ما لهم من السلطة فى البيلوبونيز ، بعد أن مضى على سيطرة الصقالبة عليها ما تزيد على قرنين[٤] .

ومن الدليل على استعادة بيزنطة هذه المكانة ، ما حدث من امتداد نظام الثغور وإنشاء ثغور جديدة . فالمعروف أنه لم يكن لبيزنطة فى شبه جزيرة

(١) Ibid p. 218.

(٢) Ostrogorowski : p. 170.

(٣) Vasiliev : pp 238 — 239.

(٤) Ostrogorowski : p. 171.

البلقان من الثغور حتى نهاية القرن السابع إلا ثغرا تراقيا وهيلاس ، وظل الحال على هذا الوضع زمنا طويلا . غير أنه منذ نهاية القرن الثامن الميلادى ، نشأ ثغر جديد ، وهو ثغر مقدونيا ، الذى لم يشمل من إقليم مقدونيا إلا الجزء الواقع غرب تراقيا . وحوالى هذا الوقت أيضا نشأ ثغر بيلونونيز ، وفى أوائل القرن التاسع الميلادى ، ظهر ثغر كيفالونيا الذى شمل جزائر الأيونيان . وفى النصف الأول من القرن التاسع صارت سالونيك ودورازو ، وما يليهما من الجهات الداخلية ، ثغرين مستقلين ، ويعتبران أهم قواعد البحرية البيزنطية ، على سواحل بحر إيجة والبحر الأدرياتى . ويتضح من ذلك أن جانباً كبيرا من شبه جزيرة البلقان ، خضع مباشرة للإدارة البيزنطية ، كما أن مركز بيزنطة فى الجهات الساحلية ازداد قوة ، ومع ذلك فإن العنصر الصقلبى لا زال أثره باقياً فى تلك الأقاليم[١] .

العلاقات مع المسلمين :

خفت حدة الحرب بين المسلمين والبيزنطيين ، فى السنوات الخمس الأخيرة من حكم إيرين ، والمعروف أنها قبلت أن تدفع جزية سنوية للخليفة العباسى . وما كاد يتولى نقفور العرش ، حتى امتنع عن دفع الجزية ، بل إنه طالب ، حسبما ورد فى المصادر العربية[٢] ، بإعاة ما دفعته إيرين من الجزية ، لأنها لم تدفع ما دفعته إلا « لضعف النساء[٣] » . على أن هذه الرسالة التى وجهها نقفور إلى هرون الرشيد جرى اعتبارها إعلانا للحرب ، ويتضح ذلك من الرد الذى بعث به الرشيد[٤] وأعقب ذلك بالمبادرة إلى المسير

(١) Charanis : On the Slavonic Settlement in the Peloponnesus. Byzantinishe Zeitschieft 46 (1953) p. 91.
K. M. Setton : The Bulgars in the Balkans and the Occupation of Corinth in the Seventh Centry. Spεculum, 25 (1950).

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ، ص ٥٠٠ .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ، ص ٥٠٠ .
Bury : Eastern Roman Empire, 249.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ، ص ٥٠٠ . =

لإنزال العقاب بالإمبراطور البيزنطى . على أن ما حدث من ثورة باردانس توركس Bardanes Turcus ، الذى دان لزعامته جميع ثغور آسيا الصغرى سنة ٨٠٣ ، شغل جانباً كبيرا من الجيش البيزنطى ، فأرسل نقفور إلى الرشيد ، يعرض عليه أن يدفع الجزية ، إذا انسحب جيشه ، بعد أن اجتاز درب قليقية . واتخذ طريقه إلى هرقلة[١] . غير أن الرشيد لم يكد يتراجع ، بعد أن حصل على غنائم كثيرة ، حتى جاءته الأنباء ، بأن الإمبراطور نقض عهده . فلم يسع الرشيد إلا أن يعود أدراجه ، ويغير من جديد على الأراضى البيزنطية ففى سنة ٨٠٦ زحف هرون الرشيد بجيش ضخم يبلغ عدده نحو ١٣٥ ألف من المرتزقة (النظامية) ، فضلا عن عدد كبير من المتطوعة ، فاستولى على حصون منيعة تقع بأطراف الإمبراطورية ، واحتل هرقلة ، وغنم ما بها من مستودعات الحبوب . ثم استولى على طوانة ، الواقعة إلى الشمال من لؤلؤة ، على الطريق المؤدى إلى قيصرية ، واتخذ منها قاعدة يرسل منها السرايا والجند إلى سائر الجهات ، فأرسل قوة كبيرة إلى إقليم أنقره ، ولما تبين الإمبراطور أنه لم يستطع مقاومة الرشيد ، عرض أن يدفع خمسين ألف دينار مقابل انسحاب القوات الإسلامية[٢] . فتقررت الهدنة

Bury : op. cit. p. 205.
=

كتب نقفور ملك الروم ، إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ، ما كنت خليقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك ضعف النساء ، فاذا قرأت كتابى ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

فلما قرأ الرشيد الكتاب ، استفزه الغضب حتى لم يكن أحد ينظر إليه دون أن يخاطبه . ثم دعا الرشيد بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمن ؛ إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، يابن الكافرة ، والجواب ما تراه ، دون أن تسمعه والسلام » — الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ، ص ٥٠٠ .

(١) Bury : op. cit. p. 250.

(٢) Bury : Eastern Roman Empire p. 250.

اتفق الطبرى وتيوفان على أن هذه الجزية لم تكن إلا فدية عن نقفور وابنه وبطارقته وسائر الرومان . ويشير الطبرى إلى أن ما تقرر من الفدية عن نقفور أربعة دنانير . وعن ابنه ثلاثة دنانير .

(انظر Bury : op. cit. p. 250 note 2)

بين الفريقين . ولما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ، ونشبت الحروب الداخلية بسبب التنازع على الحكم ، تهيأ لبيزنطة من الهدوء على الجبهة الشرقية ، ما جعلها تحول اتجاه سياستها الخارجية نحو البلقان[١] .

البلغار :

ما وقع من الحروب ضد البلغار ، زمن ايرين وقنسطنطين السادس ، انتهت بانتصار البلغار ، والتزمت ايرين بدفع جزية سنوية لملك البلغار ، قردام Kardam . ثم أعقب ذلك فترة من الهدوء والسلام ، استمرت عشر سنوات (٧٩٧ — ٨٠٧) . والراجح أن ملك البلغار وجه اهتمامه أثناء هذه الفترة إلى الوضع السياسى فى الحوض الأوسط للدانوب ، الذى نجم عن تقدم الفرنجة وسحق الأفار[٢] ؛ إذ ترتب على انتصار شارلمان على الأفار ، وتدمير قوتهم ، أن خرج البلغار فى بانونيا ، على طاعتهم ؛ وأخذوا يوسعون ممتلكاتهم حتى أضحت تلاصق نهر ثيس Theiss ، أى أنها أصبحت تجاور إمبراطورية شارلمان[٣] .

تولى عرش بلغاريا ، بعد وفاة قردام ، ملك اشتهر بالصلابة والشجاعة والقوة والطموح ، والمكر والدهاء ، وهو كروم Krum[٤] . أقامت بيزنطة خطا قويا من الاستحكامات الحربية ، لتكون سداً منيعا ، يحول دون زحف البلغار ، ومن أهم مراكز هذا الخط ديفلتوس Develtus ، وأدرنه ، وفليبوبوليس ، وسرديكا ، والواقع أن البيزنطيين هم الذين بدأوا بمهاجمة البلغار . فى سنة ٨٠٧ ، قام نقفور على رأس جيش ضخم لمهاجمة بلغاريا ، غير أنه ما كاد يصل إلى أدرنه حتى نشبت فتنة فى الجيش ، أرغمته على أن يتخلى عن هذه الحملة . وفى نهاية السنة التالية ظهر جيش بلغارى فى

(١) Ostrogorowski p. 173.

(٢) Bury : Eastern Roman Empire p. 340.

(٣) Ostrogorowski p. 173.

(٤) Bury : op. cit. 340.

جهات ستريمون Strymon فى مقدونيا ، ثم هاجم كروم سرديكا ، فدمر الحصن وأمر بذبح رجال الحامية[١] فنهض الإمبراطور البيزنطى ، لمواجهة العدو ، واتخذ طريقه نحو بليسكا (عاصمة بلغاريا) ، ثم توجه نحو سرديكا ليعيد بناء الاستحكامات[٢] .

على أن نقفور استبد به القلق على مقدونيا وتساليا ، وذلك لأن الصقالبة كانت لهم السيادة فى هذين الإقليمين ، ولم يكن نقفور ليثق فى ولاء وإخلاص الصقالبة . لما لمسه من حرص البلغار على أن يخضعوا لنفوذهم الصقالبة . ولمواجهة هذه الأخطار ، عزم نقفور على أن ينقل إلى هذه الجهات أعدادا كبيرة من الجند الفلاحين من آسيا الصغرى ، ليوقفوا نشاط الصقالبة ، وليمنعوا أعتداء البلغار ، واستمرت هذه العملية نحو سنتين[٣] . على أن هذا الإجراء لم يكن مقبولا عند هؤلاء الجند الفلاحين ، إذ لم يكن ليرضيهم أن يتركوا مواطنهم التى تعلقوا بها ، وأن يبيعوا أملاكهم ، وأن يخلفوا وراءهم آثارهم وذكرياتهم[٤] . ومع ذلك فإن نقفور أدرك أن هذا الإجراء لا بد منه لمنع أخطار الصقالبة[٥] .

وفى هذه الأثناء ، أعد نقفور حملة ضخمة لتأديب كروم على ما ارتكبه من الفظائع . ولما تمت الاستعدادات فى مايو سنة ٨١١ ، سار نقفور على رأس جيشه ، فاجتاز تراقيا . وتألف معظم الجيش من قوات الثغور الأسيوية ، واجتمعت كل القوات البيزنطية فى ماركيلاى Marcellae فى سفح الجبال ، وقدمت رسل كروم تطلب الصلح والمسالمة ، غير أن نقفور رفض كل توسلاتهم ، ورأى أنه لا يكفيه فى الانتقام لما جرى من المذابح فى ستريمون وسرديكا ، إلا إذلال البلغار . وفى ٢٠ يوليه سنة ٨١١ ، أضحى الجيش

(١) Bury : op. cit. p. 340 Ostrogorowski : p. 173.

(٢) Ostrogorowski p. 137.

(٣) Ostrogorowski : p. 173.

(٤) Bury : op. cit. p. 342.

(٥) Ibid. p. 342.

البيزنطى على مقربة من العاصمة البلغارية . لم يصادف الغزاة مقاومة . وما كاد نقفور يصل إلى بليسكا ، حتى اكتشف أن الملك قد ولّى هاربا ، فأمر نقفور بالاحتياط على ما فى خزائن الملك من أموال ، وأشعل النيران بالقصور الملكية . ورفض الإمبراطور البيزنطى أن يستجيب لتوسل كروم لعقد الصلح ، إذ حرص على أن يدمر نهائياً مملكة البلغار . غير أن ملك البلغار وأتباعه لجأوا إلى الجبال ، وحاول نقفور وجنده أن يتعقبوهم فى مسالك الجبال ودروبها ، غير أن كروم باغت الجيش البيزنطى ، ومزّقه شر ممزق فى ٢٦ يوليه سنة ٨١١ ، ولقى نقفور نفسه مصرعه ، وشاركه فى هذا المصير كل قادته ، ومنهم قائد تراقيا وقائد الأناتوليك . واتخذ كروم من جمجمة نقفور كاسا لشرابه فى الحفلات والمآدب[١] .

وفى المعركة التى هلك فيها نقفور ، أصاب ابنه ووريثه فى الحكم ، ستوراكيوس جراح شديدة ، غير أنه استطاع أن يهرب مع بعض أتباعه إلى أدرنه . وهنا جرت المناداة به إمبراطورا ، لما له من أحقية فى الحكم ، ولهذا الإجراء أهميته الرسمية والدستورية ، على الرغم من أنه لم يكن ثمت أمل فى شفاء ستوراكيوس . وأما التسوية النهائية فإنها تمت بالقسطنطينية ، حيث جرى نقل ستوراكيوس إليها ، ليقوم ، برغم إصابته الخطيرة ، بتتويج من يخلفه على الحكم . ولما لم يكن لأوستراكيوس ابن يرثه فى الحكم ، فمن الطبيعى أن يتولى العرش أقرب الناس إليه ، وهو صهره ميخائيل رانجابى Rangabé ، الذى كان يتخذ لقب Curopalates[٢] ، وأيد ترشيحه أتباع الإمبراطور والبطريرك نقفور . غير أن تيوفانو الأثينية زوجة الإمبراطور المائت ،

(١) Bury : op. cit. pp. 344 — 345.

(٢) تقع الألقاب البيزنطية فى ثمانى عشرة مرتبة ، وأعلا هذه الألقاب رتبة ، ثلاثة (قيصر ، النبيل ، والشريف) .
ولا يحظى بها إلا أفراد من الأسرة الإمبراطورية .

(caesar, nobilissimus. curopalates).
Ostrogorowski : p. 220.

ستوراكيوس ، اعترضت على هذا الحل ، لأنها كانت تأمل أن تتولى ، شأن ليرين ، مقاليد الأمور(١) .

وترتب على تأثير تيوفانو على زوجها ستوراكيوس ، أن أظهر ستوراكيوس سخطه على الوزيرين ستيفانوس وتيوكتستوس Stephanos ، Theoktistos وعلى صهره ميخائيل ، وأظهر كراهيته لأخته بروكوبيا Procopia زوجة ميخائيل ، إذ توهم أنها تتآمر ضده(٢) . وبينما أرجأ ستوراكيوس قراره النهائى خوفا من حدوث نتائج سيئة ، شاعت فى العاصمة الأهواء والنزعات الشخصية . إذ ذاع أن ستوراكيوس أراد أن يجعل الحكم لزوجته، وشاع أنه أراد أن يرجع إلى دستور روما القديم Lexde imperio ، فيعيد للرومان ما تنازلوا عنه منذ سبعمائة سنة من السلطان للإمبراطور ، وحرص نقفور بطريرك القسطنطينية على أن يقنع ستوراكيوس بأن يصلح ما اشتهر به أبوه من سياسة مالية ، أضرت بفئات كثيرة من السكان ، بأن يتنازل عن الحكم إلى إمبراطور جديد ، يرتاح إليه الناس ، ويرضون عن حكمه . ولم يستمع ستوراكيوس لهذه النصائح ، ودبر مؤامرة لإقصاء ميخائيل عن الحكم ، بأن أمر بسمل عينيه ، غير أنه قبل أن تتم هذه المؤامرة ، جرت استعدادات للمناداة بميخائيل إمبراطورا فى ميدان السباق ، حيث احتشد الجند وأعضاء السناتو فى ٣ أكتوبر سنة ٨١١ ، فأعلنوا ميخائيل إمبراطورا على الرومان(٣) . ولم يسع ستوراكيوس إلا أن يعلن تنحيه عن الحكم ويلجأ إلى الدير ، حيث قضى نحبه بعد ثلاثة شهور(٤) .

ميخائيل الأول رانجابيه (٨١١ — ٨١٣)

يعتبر أول إمبراطور بيزنطى اتخذ اسم أسرته (رانجابيه) ، وهذا الاتجاه

(١) Bury : Eastern Roman Empire p. 17
(٢) Bury : op. cit. 17.
(٣) Bury : op. cit. pp. 19 — 20.
(٤) Ostrogorowski : p. 175 Bury : 21.

يدل على ازدياد نفوذ الأسرات الكبيرة(١) ، ومنذ القرن التاسع الميلادى صار مألوفا أن يشتهر الفرد باسم أسرته(٢) .

تولى ميخائيل العرش وهو يناهز الأربعين من عمره ، اشتهر بدماثة الخلق ، ولين الجانب ، وسرعة الخاطر . غير أنه لم يكن يصلح للمنصب الذى ارتقى إليه ، إذ ظل خاضعاً أثناء حكمه لسيطرة زوجته من جهة ، ولتسلط البطريرك من جهة(٣) أخرى . لم يكن لدى ميخائيل من الشجاعة ، ما يجعله يتخذ إجراءات عنيفة كالتى اشتهر بها نقفور . فأغفل سياسة الاقتصاد ، وصار يوزع فى كل مناسبة من المناسبات : العلاوات والعطايا والمنح ، على رجال الجيش والبلاط ورجال الدين(٤) .

اشتهر ميخائيل الأول بحماسه لعبادة الصور ، وأنه خادم أمين للكنيسة ، فنشطت فى زمنه الأرثوذكسية ، على الرغم من ظهور حركة ترمى من جديد لمناهضة عبادة الصور . وتقرر العفو عن رهبان ديرستوديون ، الذين كانوا بالمنفى ، وتم التوفيق بينهم وبين السلطات الكنيسة . وزالت الجفوة التى نجمت عن الخلاف حول موقف القس يوسف الذى أقر زواج الإمبراطور قنسطنطين السادس من تيودوت(٥) ، إذ تقرر إعادة قطعه من الكنيسة . وأضحى لتيودور ، رئيس دير ستوديون ، من السلطة والنفوذ ما لم يكن لأحد من قبله ، فما اشتهر به تيودور من النشاط الوافر ، استهوى الإمبراطور ، فصار لتيودور الكلمة الأخيرة فى كل أمور الدولة ، حتى ما يتعلق منها بالحرب والسلام(٦) ، وما ادخره نقفور من الأموال ، أنفقها

(١) Ostrogorowski : p. 175 note. I.
(٢) Bury : op. cit. p. 22 note. I.
(٣) Bury : op. cit. p. 22.
(٤) Ostrogorowski : p. 175. Bury : op. cit. p. 23.
(٥) انظر ما سبق ص ٢٢٧ .
(٦) Ostrogorowski : 175.

ميخائيل فى أعمال الخير والإحسان ، وصار للكنائس والأديرة نصيب موفور منها[1] .

العلاقة مع الإمبراطورية الغربية :

أعادت الحكومة البيزنطية النظر فى سياستها مع الإمبراطورية الغربية ، إذ أن الإمبراطور نقفور الأول أغفل دعوى شارلمان فى اتخاذ اللقب الإمبراطورى ، بل إنه منع البطريرك نقفور من أن يرسل للبابا قرارات المجمع ، على ما جرت به العادة ، وأظهر العداء الصريح لشارلمان ، وللبابوية التى تشد أزره [2] .

وفى هذه الأثناء ، ازدادت قوة شارلمان ، وامتد سلطانه ونفوذه إلى أملاك الدولة البيزنطية . إذ أن شارلمان استولى زمن إيرين على استريا وبعض المدن الواقعة على ساحل دالماشيا[3] ، وفى سنة ٨١٠ ، استطاع بيبين ابن شارلمان أن يحتل البندقية على الرغم من أنه تعرض لهجوم شديد من قبل الأسطول[4] البيزنطى . وبذلك توافر لدى شارلمان من الوسائل ما يستطيع بها أن يحصل من الدولة البيزنطية ، على ما يريد من الامتيازات . إذ أن حكومة ميخائيل الأول ، لما اشتهرت به من الضعف والتداعى ، كانت على أتم استعداد للاعتراف بلقب إمبراطور الذى اتخذه شارلمان ، مقابل استعادة جانب من أملاكها التى فقدتها[5] . وفى سنة ٨١٢ ، قدم إلى آخن سفراء من قبل الإمبراطور البيزنطى ، ميخائيل الأول ، فاعترفوا به إمبراطورا (Basileus) . ومنذ هذا التاريخ ، صار يوجد إمبراطوريتان ، من الناحيتين النظرية والواقعية . إذ لم يكن شارلمان ، حتى ذلك التاريخ معترفا

(١) Bury : op. cit. p. 24.

(٢) دايفز : شارلمان ص ١٨٧ .

(٣) دايفز : شارلمان ص ١٨٦ .

(٤) Bury : op. cit. p. 323. Ibid. p. 324.

(٥) Ostrogorowski : p. 176.

به ، إلا على أنه مجرد إمبراطور ، لا إمبراطور الرومان ، والواقع أن شارل نفسه كان يتجنب دائماً اتخاذ لقب إمبراطور الرومان ، ويرى الأباطرة البيزنطيون أنهم وحدهم أصحاب الحق فى هذا اللقب ، وأشاروا فى وضوح إلى الفرق بين إمبراطور الغرب ، وبين إمبراطور الرومان فى القسطنطينية . على أن الصلة والارتباط بروما ، يعتبر من أهم مقومات فكرة الإمبراطورية فى العصور الوسطى . واعتبرت الدولة البيزنطية نفسها دائماً ، الإمبراطورية الرومانية . على الرغم من أن اللقب الإمبراطورى لم يفصح عن ذلك قبل القرن التاسع الميلادى[1]

أما الإمبراطورية فارتبطت بروما عن طريق البابوية ، على الرغم من أن لقب الإمبراطور فى الغرب ، لم يقترن بروما إلا فى زمن الأوتونيين Ottos[2] . على أن قيام إمبراطورية أخرى ، والاعتراف بها ، يعتبر تحديا لما للإمبراطورية البيزنطية من الحق فى التراث الرومانى ، وما أصاب الإمبراطورية الكارولنجية من التفكك والانقسام ، وما حدث من نهوض بيزنطة وانتعاشها ، هيأ لأباطرة الدولة البيزنطية الفرصة ، لأن يغفلوا ما جرى فى سنة ٨١٢ ، من الاعتراف بالإمبراطورية الغربية[3] .

البلغار :

غير أن ما حدث من رفض نقفور الاعتراف بشارلمان ، وما أصاب هذه السياسية من تغيير ، زمن ميخائيل الأول ، لم يرجع فحسب إلى الاختلاف بين الشخصيتين ، بل إلى ما جرى من تغيير الأحوال التى نجمت عن كارثة سنة ٨١١ ، وهزيمة البيزنطيين على يد البلغار ، إذ أن التهديد المستمر من قبل

(١) دايفز : شارلمان ١٨٦ .
Barraclough : The Medieval Empire p. 10.

(٢) Barraclough : op. cit. pp. II.

(٣) Ostrogorowski : d. 176 Bury : op. cit. p. 325.

البلغار ، منع البيزنطيين من أن ينهضوا للنضال ضد الغرب . ففى ربيع سنة ٨١٢ ، استولى كروم على ديفلتوس ، على البحر الأسود ، وخرب الحصن ، ونقل من به من العساكر إلى بلاده[1] .

لم تكن مقاومة البيزنطيين ضعيفة فحسب ، بل إن عدداً كبيراً من سكان مدن عديدة واقعة على الأطراف ، ولوا الأدبار . وعرض كروم على الحكومة البيزنطية الصلح للذى اتخذ صفة الإنذار ، إذ طلب أن يجعل تلال ميليونا Meleona هى الحدود الفاصلة بين البلغار والبيزنطيين ، وأن يبذل الإمبراطور البيزنطى لملك البلغار من الهدايا ، من الثياب والجلود المصبوغة ، ما يبلغ قيمتها نحو ١٣٥٠ جنيها إنجليزيا ، وأن يعيد إليه من فر من البلغاريين إلى الأراضى البيزنطية ، واشترط ألا ينتقل التجار بين الدولتين إلا بمقتضى ما يحملونه من وثائق من الدولتين ، وكل من لم يحمل من التجار ، جوازاً يكفل له الانتقال بين الدولتين ، تقرر مصادرة أمتعته وسلعه[2] .

ولما لم يقبل البيزنطيون أن يستجيبوا لهذه الطلبات ، بادر كروم إلى توجيه قواته لمهاجمة مزيمبريا Mesembria ، فحاصرها حوالى منتصف أكتوبر سنة ٨١٢ ، وتقع هذه المدينة الهامة على ساحل البحر الأسود ، قرب خليج إنشيالوس Anchialus ، واشتهرت باستحكاماتها الضخمة . واستعان كروم بخبرة مهندس عربى ، كان أول الأمر فى خدمة نقفور ، ثم لجأ إلى بلغاريا ، لما عاناه من شدة نقفور[3] . ولم ينهض البيزنطيون لإنقاذ مزيمبريا ، فلم تلبث أن سقطت ، بعد ثلاثة أسابيع مضت على حصارها ، فى يد كروم ، وذلك فى نوفمبر سنة ٨١٢ . ووقع فى يده كميات كبيرة من الفضة والذهب ، ومن النيران اليونانية وقاذفاتها . غير أن كروم ، لم يحتل المدينة ، جريا

(١) Ostrogorowski : p. 177.
(٢) Bury · op. cit. p. 348.
(٣) Ibid. p. 348.

على عادته ، بل دمر استحكاماتها وخرب عمائرها[1] . على أن طائفة من مستشارى الإمبراطور بتزعمهم البطريرك نقفور ، ألحوا على الإمبراطور فى أن يقبل ماعرضه كروم من الشروط ، بينما رأت طائفة أخرى بزعامة تيودور رئيس دير ستوديون ، ضرورة مواصلة القتال . غير أن أنصار الحرب تغلبوا آخر الأمر ، وأخذ الإمبراطور يجهز حملة لقتال بلغاريا . وفى فبراير سنة ٨١٣ ، قدم شخصان مسيحيان ، وأعلنا بأن كروم يتجهز لمهاجمة تراقيا . وفى مايو سنة ٨١٣ ، اكتملت الاستعدادات الحربية من قبل الإمبراطور البيزنطى ، واجتمعت فى تراقيا القوات القادمة من الثغور الأسيوية[2] .

ولم يكن الإمبراطور ميخائيل قائداً كفئاً ، فلم يستمع إلا إلى نصائح وزرائه ، ولم يحفل برأى قائدين من خيرة رجال الجيش ، وهما ليو قائد ثغر الناطليق وحنا أبلاكيس Aplakes قائد ثغر مقدونيا . وفى أوائل يونيه ، نفذت القوات البلغارية إلى الممتلكات البيزنطية ، وتوقف الجيشان البيزنطى والبلغارى عند فرسينيكيا Versinicia ، وهو موضع لا يبعد كثيراً عن أدرنه . وظل الجيشان ، يواجه أحدهما الآخر ، مدة أسبوعين ، دون أن يجرى الالتحام بينهما . على أن حنا أبلاكيس الذى تولى قيادة الجناح المؤلف من المقدونيين والتراقيين ، لم يلبث أن نفد صبره ، فأرسل إلى الإمبراطور « إلى متى يطول بنا الوقوف فى هذا الموضع ، فنهلك ؟ سأبادر باسم الله ، بالطعن ، فلتمض على نهجى ، وليحقق الله لنا النصر ، فلدينا من العسكر أضعاف ما لديهم[1] » . وما كاد أبلاكيس يبادر إلى القتال ،

(١) Bury : op. cit. p. 349.
(٢) Ibid. p. 349.
(٣) Bury : op. cit. p. 349.
تولى ميخائيل قيادة الجيش ، وقاد أبلاكيس وليو الجناحين . وتألف جناح ليو من جند الناطليق ، وقبادوقيا . والراجح أن قلب الجيش تألف من جند الأبسيق والأرمنياق انظر :
(Bury. 349 Note I.

حتى تخلى عن مساندته القوات الأخرى ، إذ لاذ العسكر ، لا سيما جند الناطليق ، بالفرار دون مبرر . أما أبلاكيس فإنه خر صريعا ، نظراً لأن من كان معه من عساكر ، كانوا من القلة ، ما جعل من المستحيل الصمود طويلا . ولم يلبث العدو أن اكتشف ضعف خصومه ، فأخذ البلغاريون فى مطاردتهم ، وألقى البيزنطيون ما معهم من الأسلحة ، ولم يكفوا عن الهرب حتى وصلوا أبواب القسطنطينية[1] والمعروف أن البلغاريين مهما اشتهروا بمهارتهم الحربية فى القتال فى دروب الجبال ، لم يكن فى وسعهم أن يواجهوا الجند البيزنطيين فى السهول ، مهما زاد عددهم على عدد البيزنطيين . وهذه الحقيقة أدركها البلغاريون أنفسهم . وما اشتهر به جند الناطليق من الخبرة الحربية ، التى اكتسبوها من خوض معارك كثيرة ضد المسلمين ، الذين يفوقون البلغار فى الشجاعة والصبر على القتال ، وما سبق للبيزنطيين من إنزال الهزائم الساحقة بالبلغار فى تراقيا ، كل ذلك يدعو إلى أن نلتمس سبباً آخر لفرار جند الناطليق . وهذا السبب لم يكن فى نظر بعض المؤرخين[2] سوى الخيانة ، ذلك أن جند الناطليق تظاهروا بالجبن والخوف ، وركنوا إلى الفرار ، وأثار ذلك الخوف والرعب فى نفوس الآخرين ، فولوا الأدبار . وعلى الرغم من أنه يجوز أن شارك جند الناطليق ، جند آخرون . فمن المحقق أن جند ليو الأرمنى (من الناطليق) كانوا أول من لجأ إلى الهروب . وما ترتب على المعركة من نتائج سياسية ، يدل على أن القوات الأسيوية مسئولة عن هذه الهزيمة . إذ أن ما أصاب الإمبراطور التقى ميخائيل رانجابى من هزيمة منكرة ، زعزع ما له من هيبة وكرامة ، ومهد السبيل إلى تغيير فى السياسة ، والعودة إلى مناهضة عبادة الصور المقدسة . فالمعروف أن ميخائيل نفسه من أتباع عبادة الصور المقدسة ، وأنه ينتمى أصلا إلى تراقيا أو مقدونيا ، وأن ما يعتنقه من مذهب الأيقونية ، جعله مكروها فى فريجيا ومناطق جبال

(١) Bury : op. cit. p. 346.

(٢) Bury : op. cit. p. 352.

طوروس . والراجح أن ما حدث فيما بعد من التنافس بين الأرستقراطية الأوربية ، أخذت وقتذاك بوادره فى الظهور . ومن الملحوظ أنه لم يفر من المعركة جند تراقيا ومقدونيا الذين كانوا تحت قيادة أبلاكيس . وكل هذه الاعتبارات تدعو إلى أن قوات ليو ، بل ليو نفسه ، هى المسئولة عن تدبير هذه الحركة ، لتنحية ميخائيل عن الحكم ، وتنصيب ليو إمبراطورا ، وتحقق لها ما كانت ترجوه من الأهداف[1] .

وفى ١١ يوليه ، تم خلع ميخائيل الأول عن العرش ، وتولى مكانه ليو الأرمنى .

(١) Bury : op. cit. p. 352.

الفصل السادس

العودة إلى سياسة اللايقونية

خلفاء الأباطرة الأيزوريين

ليو الأرمنى (٨١٣ – ٨٢٠) :

ينتمى ليو الخامس الأرمنى ، إلى تلك الدوائر ، بآسيا الصغرى ، التى اشتهرت بمن خرج منها من القادة العسكريين الذين اشتهروا بالكفاية الحربية ؛ وبالتعصب ضد عبادة الصور المقدسة . وليو الأرمنى يشبه ليو الثالث ، فى أن كلا منهما ينتمى إلى أصول شرقية ، وأن كلا منهما كان ، قبل أن يتولى العرش ، قائداً لثغر الناطليق . يضاف إلى ذلك ، أن سياسته قامت ، مثلما حدث زمن ليو الثالث وقنسطنطين الخامس على ، أكتاف كبار القادة العسكريين ، وخصوم عبادة الصور المقدسة[1] .

السياسة الخارجية :

واجه ليو مشاكل حربية عاجلة ، إذ أن كروم ملك البلغار ما كاد يحرز الانتصار فى فرسينيكيا ، حتى اتخذ خطة الهجوم ، فبادر فى قوة دافقة إلى إلقاء الحصار على أدرنه . ولم تمض إلا أيام قليلة على اعتلاء ليو العرش ، حتى ظهر كروم بالجانب الأكبر من جيشه ، أمام أبواب القسطنطينية . غير أنه وقف عاجزاً عن اقتحام المدينة التى صمدت لهجمات المسلمين من قبل ، فعرض شروطاً للصلح ، منها أن يتقاضى من الإمبراطور مقابل الجلاء عن مواقعه ، مقادير كبيرة من الذهب ، والملابس الحريرية وعدداً من

(١) Ostrogorowski : p. 178.

الفتيات العذارى . ورأى الإمبراطور ليو فى محادثات البلغاريين ، فرصة ليحقق بها خطة تعتبر وقتذاك مقبولة ومشروعة[1] . ذلك أن الإمبراطور أرسل إلى كروم يطلب إليه القدوم فى فئة قليلة من جنده مجردين من السلاح ، ليجتمع به وبمن معه الجند المجردين أيضاً من السلاح ، ليتشاوروا فى شروط الصلح . وتقرر عقد الاجتماع فى موضع يقع على القرن الذهبى ، إلى الشمال من سور القسطنطينية الذى يطل على البحر . واختفى ثلاثة رجال مسلحون ليلا فى دار ، تقع خارج باب بلاشيرن (من أبواب القسطنطينية) ، واستعدوا للانقضاض على كروم واغتياله ، حينما تصلهم إشارة من أتباع ليو[2] .

وفى اليوم التالى ، قدم إلى الساحل ملك بلغاريا ، وبصحبته ثلاثة من رفقائه ، ولم يلبث أن جاء ليو وأصحابه فى الزورق الإمبراطورى إلى الموضع الذى جرى الاتفاق على الاجتماع فيه . وما كاد يبدأ الحديث مع كروم ، حتى فاجأ الملك البلغارى ، أحد رفاق ليو ، بأن انقض عليه ، غير أن كروم أسرع إلى امتطاء فرسه ولاذ بالفرار[3] .

واشتد حنق كروم ، وزداد سخطه ، فعمد إلى تخريب الأراضى المجاورة للقسطنطينية وأشعل الحرائق فيما صادفه بهذه الجهات ، من الكنائس والأديرة والقصور . وبعد أن أنزل ما شاء من التخريب والتدمير بساحل البوسفور ، توجه إلى أدرنه ، حيث ضيّق عليها الحصار ومنع دخول المؤن إليها ، وإذ يئست أدرنه من قدوم أمداد لتخليصها ، أعلنت إذ أعانها واستسلامها للبلغار . وتقرر نقل جميع سكان أدرنه ، ورئيس أساقفتها إلى البلاد البلغارية ، وراء الدانوب ، حيث استقروا فى هذه الجهات التى صارت تعرف باسم « مقدونيا » ، وتولى حكمهم واحد منهم[4] .

وعلى الرغم من أن ليو أحرز انتصارا باهرا على البلغار فى ميزيمبريا .

(١) Bury : op. cit. p. 354.
(٢) Bury : p. 324.
(٣) Bury : pp. 354 — 355. Ostrogorowski p. 178.
(٤) Bury : p. 356.

فى خريف سنة ٨١٣ (١) ، فإن كروم لم يلبث أن زحف فى الربيع التالى على القسطنطينية ، بجيش ضخم اشترك فيه ، مع البلغار ، الصقالبة والآفار ، ولم ينقذ القسطنطينية من الخطر البلغارى ، إلا ما حدث فجأة من موت كروم ، فى ١٤ أبريل سنة ٨١٤ ، وبموته ، انطوت خطته(٢) .

ولى حكم بلغاريا ، بعد كروم ، ماكان لم يمكثا فى الحكم طويلا ، ثم ولى العرش من بعدهما زعيم فذ ، هو أومرتاج Omurtag ، ابن كروم . وأهم ما كان يرمى إليه أومورتاج ، هو نمو النفوذ البلغارى فى الشمال الغربى ، والعمل على توطيد ملكه . ولتحقيق ذلك ، حرص على عقد معاهدة مع الدولة البيزنطية ، تقضى بجعل الصلح لمدة ثلاثين سنة قابلة للتجديد . وتقرر فيها تقسيم تراقيا بين بلغاريا وبيزنطة ، فامتدت الحدود على طول ماهو معروف بالسور الكبير ، من ديفلتوس إلى ماكروليفادا Makrolivada ، وهو حصن يقع بين أدرنه وفيليبوبوليس ، ومن ثم اتجهت الحدود نحو الشمال إلى جبال هايموس Haemus (بالبلقان)(٣) .

أتاح هذا الصلح لبلغاريا من الهدوء والسلام ، ما جعل أومرتاج يلتفت إلى حماية ممتلكاته الغربية من خطر الإمبراطورية الجرمانية ، التى أخذت تهدد سلطانه فى الجهات الواقعة جنوبى نهر الدانوب(٤) . وما حدث من امتداد النفوذ والسلطان الألمانى إلى كرواتيا . شجع الشعوب الصقلبية ، الخاضعة لسلطان البلغار ، على أن تلتمس من الإمبراطور لويس التقى الحماية(٥) .

وما حدث فى زمن المأمون العباسى من الفتن والثورات الداخلية ، تطلب حشد كل العساكر والجند لقمعها ، فتطلع ولاة مصر إلى الاستقلال ، واشتعلت ثورة بابك الخرمى ، فى أذربيجان وأرمينيا ، وأنزل بابك هزيمة ساحقة بجيش

(١) Ibid. p. 357 — 358.

(٢) Bury : p. 359 Ostrogorowski p. 178.

(٣) Bury : p. 360 RRunciman : Bulgarian Empire. p. 12.

(٤) Bury : p. 363.

(٥) Bury : p. 363.

الخليفة فى ٨٢٩ — ٨٣٠ م . هذه الأحوال تفسر ما ساد الحدود الإسلامية البيزنطية من الهدوء والسلام ، نحو ستة عشر عاما (٨١٤ — ٨٢٩ م) ، على الرغم من أنه لم تقم هدنة بين الجانبين الإسلامى والبيزنطى (١) .

عودة الحركة اللاأيقونية

وفى هذه الفترة من الهدوء ، حاول ليو الخامس تنفيذ خطته اللاأيقونية . فلم يكد الموقف يتحسن ، بعد وفاة كروم ، حتى عهد إلى العالم الدينى المعروف باسم حنا النحوى John Grammaticius ، الذى يعتبر مثير اللاأيقونية فى مرحلتها الجديدة ، بأن يجمع الذخيرة الدينية اللازمة للمجمع ، الذى أزمع عقده لمناهضة عبادة الصور المقدسة(٢) . فجعل له الإمبراطور السلطة المطلقة ، فى أن يتردد على ما يشاء من المكتبات للاطلاع على ما بها من المؤلفات . واستطاع حنا النحوى وزملاؤه الذين شاركوه هذا العمل ، أن يجمعوا عدداً كبيرا من الكتب ، وأن يقوموا بدراسات مستفيضة . ومن الطبيعى أن يرميهم خصومهم بتهمة ، أنهم جعلوا كل اهتمامهم موجها للحصول على ما يؤيد سياسة اللاأيقونية من الدراسات ، ومن المراجع الهامة التى اعتمدوا عليها فى هذه الناحية ، أعمال المجمع الذى انعقد سنة ٧٥٤(٣) .

على أن سياسة الإمبراطور اللاأيقونية ، أدت إلى أن يتحد سائر العناصر المتنافرة المتناحرة فى داخل صفوف الحزب الأرثوذكسى . فالمعروف أن ليو الخامس وعد البطريرك نقفور ، قبل أن يتولى ليو الحكم ، بأنه سوف لا يقدم على إجراء أى تغيير فى الوضع الدينى القائم(٤) . على أن نقفور لم يلبث أن اشترك مع تيودور ، رئيس دير ستوديون ، فى النضال ضد الحركة اللاأيقونية

(١) Ibid. p. 251.

(٢) Ostrogorowski p. 179.

(٣) Bury : p. 61.

(٤) Ostrogorowski : p. 179.

الجديدة ، وما أصدراه من الرسائل انطوت على حماسهما الشديد ، للإبقاء على استخدام الصور (الأيقونات) ، وتضمنت الاحتجاج على تدخل الإمبراطور فى شئون العقيدة(١) . وفى هذه المرحلة من الحركة اللاأيقونية ازداد تشابك الأمور الكنسية والسياسية عما كان فى القرن الثامن الميلادى . إذ حرص الإمبراطور على أن يبسط سلطانه على الحياة الدينية ، غير أنه كان لزاما عليه أن يواجه مقاومة عنيفة من قبل الكنيسة . واجتمع بالإمبراطوار عدد كبير من الأساقفة بزعامة البطريرك نقفور ، وتيودور رئيس دير ستوديون . وأشار الإمبراطور إلى أن الله ، ما جعله فى هذا المنصب إلا ليرعى مصالح الرعية ، رأنه ينبغى أن يتهيأ للكنيسة الطريق المستقيم ، وأن عبادة الصور إنما تعترض ما يبتغيه من وحدة الكنيسة ، وطلب إليهم أن يسووا الأمور(٢) . ولقى البطريرك وتيودور ، تأييدا من معظم الأساقفة الحاضرين ، وأنكر تيودور على الإمبراطور تدخله فى الشئون الكنسية ، وأعلن « أنه ينبغى عليك (الإمبراطور) أن تترك الكنيسة لرجالها ، وأن تنصرف إلى ما يخصك من شئون الدولة والجيش . فإذا لم ترغب فى ذلك ، وحرصت على تدمير العقيدة ، فإننا سوف لا نطيع من يتدخل فى أمرنا ، ولو كان ملاكا قدم من السماء »(٣) .

والمعروف عن تيودور ، أنه من أشد خصوم ما يجمعه الإمبراطور من الاستبداد الدينى والسياسى Caesarpapism . وازداد الإمبراطور غيظا ، فأعلن انفضاض الاجتماع(٤) . وأعقب ذلك بأن أصدر مرسوما ، يقضى بمنع حزب البطريرك من عقد اجتماعات فى الدور الخاصة . وبذلك خضع عباد الصور المقدسة لمراقبة وإشراف والى المدينة ، كما أن البطريرك نقفور صار سجينا فى قصره، تحت ملاحظة ورقابة البطرق توماس(٥) . وتوافر للإمبراطور

(١) Ibid p. 179.
(٢) Bury : op. cit. p. 56.
(٣) Bury : op. cit. p. 65.
(٤) Ibid p. 66.
(٥) Bury : p. 66.

ليو ، من الوسائل ما يستطيع بها ، بسط سلطانه ونفوذه ، فرأى أنه من اللازم إبعاد تيودور وطائفة من أصحابه إلى المنفى ، حيث لا يلقون إلا المعاملة السيئة . أما نقفور ، فتقرر عزله من كرسى البطريركية ، فتولى مكانه ، يوم عيد القيامة أول إبريل سنة ٨١٥ ، تيودوتوس مليسينوس **Theodotus Melissenus** ، وهو من رجال البلاط ، ويمت بصلة القرابة للإمبراطور قنسطنطين الخامس(١) .

وأول عمل مارسه تيودوتوس ، بعد تنصيبه بطريركا ، ما حدث من توليه رئاسة المجمع الذى انعقد فى كنيسة القديسة صوفيا ، لتقرير الحركة اللاأيقونية . ونقض هذا المجمع كل ما أصدره مجمع نيقية المسكونى ، المنعقد فى سنة ٧٨٧ ، من قرارات ، وأقر أعمال مجمع سنة ٧٥٤ ، التى تقضى بتحريم عبادة الصور المقدسة ، ومنع إشعال الشموع والبخور لها(٢) .

وحينما جرى تنفيذ قرارات المجمع ، بإزالة وتدمير ما فى المدينة من الصور ، نشبت الثورات بالشوارع ، وتعرض المتظاهرون للعقوبات الصارمة(٣) .

وعلى الرغم من أنه توافر لدى ليو الخامس ، من الوسائل ما يستطيع بها تحقيق إرادته ، وقهر خصومه ، فإنه لم يحظ من التأييد ، بمثل ما حظى به الأباطرة اللاأيقونيون فى القرن الثامن ، أمثال ليو الثالث وقنسطنطين الخامس . ولذا كان يخشى باستمرار ، أن يفقد عرشه ، واشتد هذا الخوف فى السنوات الأخيرة من حياته . وعلى الرغم من الاحتياطات والتدابير التى اتخذها ، فإنه لم يفلت مما هو مقدر له . ففى يوم عيد الميلاد سنة ٨٢٠ ، وبينما كان يؤدى ليو الطقوس الدينية فى كنيسة القديسة صوفيا ، اغتاله أمام المذبح ، أحد أتباع زميله القديم ، ميخائيل العمورى(٤) .

(١) Ibid. p. 66.
(٢) Ibid. pp. 70 — 71.
(٣) Ibid. p. 76.
(٤) Ostrogorowski : p. 180.

الأسرة العمورية (٨٢٠ – ٨٦٧ م)

ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩) :

يعتبر مؤسس الأسرة العمورية . كان جنديا قظا غليظ القلب ، جاف الطبع ، خلوا من التعليم ، ولعل ما اشتهر به من الجهل كان من العوامل التى جعلت البيزنطيين يكنون له الكراهية . غير أن ما اشتهر به من النشاط الوفير والمثابرة ، والطموح ، والتسامح ، جعله يشق طريقه فى الجيش . وهو ينتمى إلى أسرة متواضعة بعمورية ، التى تعتبر حاضرة ثغر الناطليق[١] .

وفى عصره خمدت الفتن الدينية ، وتوقف اضطهاد عباد الصور المقدسة ، وعاد المنفيون ، من أنصارها ، وعلى رأسهم البطريرك نقفور ، والراهب تيودور[٢] غير أن الأرثوذكس ، تبدد أملهم فى عودة عبادة الصور المقدسة . ذلك أن ميخائيل الثانى اتخذ اتجاها مختلفا ، فلم يعترف بالمجلس المسكونى الثانى الذى انعقد فى نيقية سنة ٧٨٧ ، ولا بالمجمع اللاأيقونى ، ومنع كل ما يجرى من المناقشات حول موضوع الأيقونات (الصور المقدسة) .

والمعروف أن الإمبراطور نفسه ، ينتمى إلى فريجيا ، التى كانت فيما مضى معقل اللاأيقونية . ولا شك أن عقائده الشخصية ، لا تتفق مع استخدام الصور . ومن الدليل على ذلك ما ردده فى خطابه إلى الإمبراطور لويس التقى من المساوئ التى تنطوى عليها عبادة الصور المقدسة ، وما أقدم عليه من جعل تربية ابنه ووريثه فى الحكم ثيوفيل Theophiuls ، إلى حنا النحوى المعروف بمناهضة عبادة الصور ، يضاف إلى ذلك أنه لم يُرْجع إلى كرسى البطريركية ، نقفور[٣] ، بعد وفاة تيودوتوس مليسينوس ، بل عين فى هذا المنصب أنطون أسقف سيلايون Sylaion . ويعتبر أنطون وحنا النحوى ، المسئولين عن وضع قرارات المجمع اللاأيقونى سنة ٨١٥[٤] . ومما اشتهر به

(١) Bury : p. 79.

(٢) Ostrogorowski : p. 180.

(٣) Bury : op. cit. p. 112 — 114.

(٤) Ostogorowoskip. 181.

الإمبراطور ميخائيل من الاحتياط والاحتراز ، لم يرجع إلى عدم الاكتراث ، بل إلى إدراكه أن الحركة اللاأيقونية استنفدت قوتها . وما اتخذه ميخائيل من إجراء إزاء عبادة الصور المقدسة ، لم يتجاوز ما جاء بفتوى البابا بسكال الأول ، والتى جاء بها ميتوديوس Methodius[١] ، وتجيز عبادة الصور . على أن ميخائيل اشتد حنقه على ميتوديوس ، إذ أعلن أنه لا يقبل مطلقا أن يتلقى الأوامر من البابا ، ويعتبر ميتوديوس ، وهو لم يزد على أن يكون واحداً من رعاياه ، قد ارتكب جرما كبيرا ، لقبوله أن يكون متحدثا باسم البابا ، وساوره الشك فى أن ما جرى من التفاهم بين عباد الصور من البيزنطيين وبين البابا ، إنما يرجع إلى أسباب سياسية[٢] .

توماس الصقلبى :

أما الحادث الأساسى فى السياسة الداخلية زمن ميخائيل الثانى فيتمثل فى الحرب الداخلية الطاحنة التى أثارها توماس . وهو من صقالبة آسيا الصغرى ، وجندى قديم من زملاء الإمبراطور ميخائيل الثانى . فالمعروف أنه كان من أعوان باردانس ثلاثة رفاق فى السلاح ، وهم ليو الأرمنى ، وميخائيل ، وتوماس ، وظل توماس متعلقا بسيده باردانس بعد أن تخلى عنه ميخائيل وليو سنة ٨٠٣ . ولما فشلت حركة باردانس ، لجأ توماس إلى الشام ، حيث أقام بين المسلمين[٣] نحو عشر سنوات (٨٠٣ – ٨١٣)[٤] .

(١) وهو الذى صار بطريركا فيما بعد ويعتبر من أشد أنصار عبادة الصور المقدسة . أقام فى روما زمن ليو الخامس الذى اشتهر بعداوته لعبادة الصور . (Bury : p. 115)

(٢) Bury p. 116. Ostrogorowski p. 181.

(٣) نشير بعض الروايات إلى أن توماس أقام ، قبل هذا التاريخ ، بين المسلمين فى الشام ، وذلك زمن الإمبراطورة إيرين ، فراراً من غضب سيده عليه ، لما ارتكبه من الأعمال المشينة فى حق سيده . وأنه اعتنق الإسلام كيما يحظى بمساندة المسلمين له .

Bury op. cit. p. 48 note I.

(٤) ڤازيلييف : العرب والروم ص ٣٥ .

Bury p. 86.

بدأ توماس أعماله العدوانية منذ أواخر عهد ليو الخامس ، بأن استولى على خالديا ، فى بونطس الشرقية ، واستطاع أن يخضع له بعض المواضع المنيعة فى ثغر الأرمنياق ، حيث تقع بلدة جازيورا Gaziura موطنه الأصلى . وتألف جيشه من عناصر مختلفة ، فالتف حول جموع من العرب والفرس والأرمن والأيبريين (الكرج) ومن سائر شعوب القوقاز[1] ، والمعروف أن آسيا الصغرى كانت تربة خصبية لهذه الحركة لما اشتهرت به من اختلاط عناصرها ، ووجود عدد كبير من الصقالبة بين سكانها . وشد من أزر هذه الحركة تلك العناصر التى أحست بأنه ليس فى استطاعتها أن تقدم إلى القسطنطينية لأسباب دينية ، وذلك لأن توماس أعلن بأنه زعيم عباد الصور المقدسة ، بل إنه أذاع بأنه الإمبراطور قنسطنطين السادس ، الذى جرى عزله عن العرش دون مسوغ قانونى[2] .

وهذه الحركة أهمية خاصة ، لما اتخذته من مظهر ثورة اجتماعية ، إذ زعم توماس بأنه المدافع عن الفقراء ، ووعد بأنه سوف يرفع عن كاهلهم ما وقع من الظلم ، وبهذه الوسيلة اجتذبت حركته جموعا ، زاد من كراهتهم وحنقهم على الحكومة البيزنطية ، ما حل بهم من سوء الأحوال الاقتصادية ، وما خضعوا له من ضرائب باهظة ، وما درج عليه موظفو الحكومة من ابتزاز أموالهم . ولذا حدث ، على حد قول المؤرخ البيزنطى . أن (رفع العبد يده فى وجه سيده ، وخرج الجندى على طاعة قائده) . وهذه الثورة التى قامت على أساس الكراهية العنصرية والدينية والاجتماعية ، لم تلبث أن سرت فى معظم أنحاء آسيا الصغرى . فامتد نشاطها من أطراف أرمينيا إلى سواحل[3] بحر إيجه ، ولم يبق على الولاء للإمبراطور ميخائيل الثانى ، إلا ثغرا الأبسيق والأرمنياق ، وذلك من بين الثغور الستة التى تشتمل عليها

(١) Bury p. 86 Ostrogorowski : p. 181.

(٢) Ostrogorowski : p. 182 Bury p. 68

(٣) Bury p. 86 Ostrogorowski : p. 182.

آسيا الصغرى ، وذلك لأن قائد ثغر الأبسيق لم يكن سوى ابن أخت الإمبراطور ميخائيل ، فظل على الولاء لخاله ، وكذا بقى قائد ثغر الأرمنياق على ولائه للإمبراطور[1] .

على أن ما حدث من الفتن الداخلية ، هيأ للخليفة وللمسلمين الفرصة ، لأن يشنوا غاراتهم على الأراضى البيزنطية ، التى لم تجد من يدافع عنها بعد أن انحاز إلى جيش توماس ، عساكر الثغور[2] . وتحركت قوات توماس صوب بلاد الشام لغزوها . على أنه لم يلبث أن ارتد عنها ، بعد أن عقد معاهدة مع الخليفة المأمون ، تقضى بتحالفهما ضد الإمبراطور ميخائيل ، والاشتراك فى طرده من الحكم ، وأن يعترف به المأمون إمبراطورا على الرومان ، وذلك مقابل أن يتنازل للمأمون عن بعض مواضع على الحدود المشتركة بين المسلمين والبيزنطيين ، وأن يكون مواليا للخليفة[3] . ولتأكيد هذا التحالف ، تم تتويج توماس فى أنطاكية إمبراطوراً على يد البطريرك أيوب ، ومن الواضح أن هذا لم يحدث إلا بموافقة ورضى الخليفة[4] .

ولما لم يتعرض توماس لأية مقاومة فى آسيا الصغرى ، عزم على أن يهاجم القسطنطينية ذاتها ، غير أنه لا بد له من أسطول ينقل قواته إلى الشاطئ الأوربى . على أن مساندة ثغر كبريوتس البحرى له ، كفلت له السيطرة على الأسطول ، فتهيأت له بذلك الوسيلة لنقل قواته إلى أوروبا ، والاتصال بعباد الصور لمناصرته والالتفاف حوله[5] . وانحاز إليه عدد كبير من صقالبة مقدونيا[6] .

(١) ڤازيلييف : العرب والروم ، ص ٣٦ . Ibid p. 87.

(٢) Bury p. 87.

(٣) Bury. p. 88.

(٤) Ibid. p. 88 Ostrogorowski p. 182.

ڤازيلييف : العرب والروم ص ٣٧ .

(٥) Ostrogorowski : p. 182

(٦) Bury p. 92.

بدأ حصار القسطنطينية فى ديسمبر سنة ٨٢١ ، واستمر أكثر من سنة ، وانتهى بانهيار قوة توماس . فما اشتهر به الإمبراطور ميخائيل من القيادة الحربية الرشيدة ، مكنته من التغلب على جموع غير منتظمة . على أن ميخائيل الثانى ، يدين بخلاصه ونجاته إلى ملك البلغار . ذلك أن البلغار ظلوا محافظين على معاهدة الصلح التى تم عقدها بين ليو الخامس وأومرتاج . فنهض أومرتاج لنصرة ميخائيل الثانى ، فهبط بجيشه من جبال هايموس (البلقان) ، واتخذ طريقه نحو القسطنطينية ، لتخليصها من الحصار الذى فرضه عليها توماس . وعندئذ أدرك توماس أنه ليس فى استطاعته أن يقاوم الجيش البلغارى ، الزاحف ضده ، فقرر رفع الحصار عن المدينة ، والتفرغ لمواجهة العدو ، غير أن البلغاريين أنزلوا بتوماس وقواته هزيمة ساحقة ، وهلك جانب كبير من جيشه على ساحة Kêduktos ، وانسحب البلغار بعد أن ملأوا أيديهم بالغنائم(١) . ولم يلبث أن تخلى عن توماس عدد كبير من أتباعه ، فلجأ إلى أركاديوبوليس (لولى بورجاس الحالية) ، فحصره بها ميخائيل ، واستمر الحصار من مايو حتى منتصف أكتوبر سنة ٨٢٣ . وإذ نفدت الأقوات من المدينة ، ساءت أحوال توماس وأنصاره ، واستطاع ميخائيل آخر الأمر أن يقبض على توماس ، بعد أن وعد أنصاره بالعفو عنهم ، إذا قاموا بتسليمه ، فنكل به ، وعذبه ، حتى قضى نحبه(٢) .

وبذلك فشلت ثورة توماس ، فلم تحقق لمن انحاز إليه من الناس أغراضهم ، فلم تتحسن أحوالهم الاقتصادية ، ولم تتحقق مطالب الحزب الأرثوذكسى المناهض للأيقونية(٣) . ومن نتائج ثورة توماس أيضاً ، أن ظهر من جديد الملكيات الكبيرة ، لاسيما فى آسيا الصغرى ، وذلك لما أصاب صغار الملاك من الخراب ولعجزهم عن تأدية ما فرضته عليهم الحكومة من الضرائب الباهظة ،

---

(١) Bury pp. 101 — 102.

(٢) ڤازيلييف : العرب والروم ، ص ٤٨ . Ibid. p. 106.

(٣) ڤازيلييف : العرب والروم ص ٥١ .

فتنازلوا لجيرانهم الأغنياء عن أملاكهم . وكيفما كان الأمر ، فإن ظهور هذه الملكيات الكبيرة سوف يكون مصدر خطر على سلطة الإمبراطور(١) . وتحولت حركة توماس إلى حركة لتحقيق أغراض شخصية ، وإحراز الغنيمة ، ولما أدرك الثوار ذلك ، تخلوا عنه ، بل سلموه إلى الإمبراطور ميخائيل(٢) .

استيلاء المسلمين على جزيرة كريت :

ومن الواضح أن بيزنطة ، خرجت من هذه الحروب ، شديدة الضعف ، وسادها قلق اجتماعى خطير بسبب الفتن الدينية . وعلى الرغم من أن الخليفة العباسى لم يقم بهجوم عنيف على بيزنطة ، أثناء فتنة توماس ، وذلك بسبب ماوقع فى بلاده من الفتن الداخلية ، فإن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت لتهديد خطير من قبل جهات أخرى من العالم الإسلامى(٣) .

ذلك أنه ترتب على ما أجراه الحكم الأموى بأسبانيا ، من قمع فتنة بقرطبة سنة ٨٠٥ ، وبطليطلة سنة ٨٠٧ ، وما اتخذه من أساليب البطش والشدة فى معاملة السكان ، أدى إلى انبعاث الثورة من جديد ، ووقوع الصدام بين الجند وسكان قرطبة سنة ٨١٤ . وقرر الخليفة أن يدمر الحى الثائر ، فطلب إلى سكانه أن يخرجوا من أسبانيا ، فى مهلة قدرها ثلاثة أيام ، وقرر أن يصلب من يبقى بعد انتهاء المهلة . فجمع السكان ما استطاعوا أخذه من أموالهم ، وحملوا أطفالهم ونساءهم ، وقصدوا شاطئ البحر ، فركبوا منه السفن إلى الشواطئ الإفريقية أو إلى مصر(٤) .

وكان الذين قصدوا مصر ، خمسة عشر ألفا ، ما عدا النساء والأطفال(٥) ،

---

(١) **Vasiliev : op. cit. p. 279.**

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٥١ .

(٣) **Ostrogorowski : p. 182.**

(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ٥٢ — ٥٣ . **Bury. p. 287.**

(٥) الكندى : تاريخ الولاة والقضاة ص ١٩٣ .

فاستقروا فى ضواحى الإسكندرية سنة ٨١٥/٨١٤ (١٩٩ هـ) ، ولم يلقوا معارضة عند نزولهم بمصر ، لانصراف واليها إلى قتال العباسيين ، ومحاولته الإستقلال بها[1] ، لا سيما أن الخليفة المأمون كان يعمل على توطيد الأمن فى الجهات الشرقية من ممتلكاته . ولم يلبث هؤلاء المهاجرون أن استولوا على المدينة ٨١٩/٨١٨ ، ونصبوا عليهم واحداً منهم ، وهو المعروف باسم أبى حفص عمر بن شعيب ، وفى هذا الوقت أعلن عبد الله بن السرى استقلاله بمصر[2] .

ولما استتب الأمر للمأمون فى الأقاليم الشرقية من الدولة العباسية ، أرسل قائده عبد الله بن طاهر سنة ٨٢٥ إلى مصر ، فأخمد ما شب بها من الفتن ، ثم توجه إلى الإسكندرية ، فطلب من الأندلسيين أن يغادروا المدينة ، على أن ينزلوا من الأقاليم البيزنطية ما ليس خاضعاً لحروب المسلمين مع البيزنطيين ، فأجابوه إلى طلبه . واستقر رأيهم على أن يتخذوا كريت مقاماً لهم ، إذ أنهم أرسلوا فى سنة ٨٢٦ أسطولا مؤلفا من عشرين سفينة إلى كريت ، عادت بكثير من الغنائم والأسرى ، بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة[3] . وما اشتهرت به الجزيرة من الخصوبة والثراء ، أغرى المسلمين . ولما تم الاتفاق بين الأندلسيين وعبد الله بن طاهر ، قادهم أبو حفص فى أربعين سفينة ، فنزلوا فى سنة ٨٢٧ بخليج سودا فى كريت ، وما كادوا يطأون أرض الجزيرة ، حتى أعملوا فيها النهب والسلب ، مدة اثنى عشر يوما[4] . ومن الواضح أن هؤلاء المغيرين لم يجدوا مقاومة من قبل سكان الجزيرة ،

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٥٣ . Bury p. 288.
إبراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠٧ .
(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٥٣ — المقريزى . الخطط . نشر فييت جـ ٣ ص ١٨١
(٣) إبرهيم العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠٧ .
فازيلييف : العرب والروم ص ٥٥ . Bury p. 88.
Brooks : The Arab Occupation of Crete English Historical Review XXVIII (1913) p. 423.
(٤) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٥٦ . Bury p. 288.

ولعل ذلك راجع ، إلى ما يكنه هؤلاء السكان من الكراهية للبيزنطيين بسبب سوء سيرة عمالهم وظلمهم ، ولما اشتهروا به من الهرطقة[1] .

واستقر الأندلسيون على أن يقيموا بالجزيرة ، فاختار زعيمهم أبو حفص ، موضعاً على الشاطئ الشمالى للجزيرة ، ليقيم فيه حاضرة ملكه . وتقع المدينة الجديدة فى مركز متوسط ، إذ تطل على جزر الأرخبيل ، التى تطلع إليها غزاة كريت ، على أنها كانت تفتقر إلى مرفأ طبيعى للسفن ، وأحاط أبو حفص المدينة بخندق عميق ، ومنه اتخذت المدينة اسمها Chandax أو كنديا Candia[2] . ولم يلبث هؤلاء الأندلسيون أن فرضوا سيطرتهم على ٢٩ مدينة ، وأخضعوا أهلها[3] .

على أن الإمبراطور ميخائيل وأخلافه ، أدركوا ما يتهدد الإمبراطورية من الخطر الإسلامى الجاثم بجزيرة كريت ، فعين ميخائيل ، قائد ثغر الناطليق ، وهو Photeinos ، قائداً لثغر كريت ، فوصل إلى الجزيرة بعد بضعة شهور من استيلاء العرب على الجزيرة ، غير أنه تبين له أن ما لديه من القوات ، لا يكفى للقيام بالمحافظة على ممتلكاته بالجزيرة فجاء دميانوس بأمداد جديدة ، غير أن دميانوس أصابته الجراح ، وهرب فوتينوس إلى جزيرة ديوس Dios الصغيرة التى تواجه قنديا[4] .

ثم وجه الإمبراطور ميخائيل حملة بحرية مؤلفة من سبعين سفينة ، بقيادة قائد الثغر البحرى كيبريوتس ، جنوب آسيا الصغرى . وهذا القائد هو المعروف باسم كراتيروس Krateros ، استطاع بعد قتال عنيف ، أن ينزل عساكره إلى البر ، غير أن المسلمين لم يلبثوا أن أجلوهم عن الجزيرة ، وقتلوا منهم عدداً كبيرا . ولم يسلم قائدهم من القتل[5] .

(١) Ibid p. 288.
(٢) Ibid. p. 288.
(٣) Ibid p. 289.
(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ٦٠ Burp p. 299.
(٥) فازيلييف : العوب والروم ص ٦١ Bury p. 290.

ولم يكن اهتمام الإمبراطور موجها فحسب إلى استعادة جزيرة كريت من المسلمين ، بل أيضاً إلى حماية سائر جزر بحر الأرخبيل ، إذ أن المسلمين لم يكتفوا بمهاجمة الجزر القريبة من كريت ، بل امتد نشاطهم وهجماتهم ، حتى شملت شاطئ بحر الأرخبيل ، فتعرضت جزر عديدة لمهاجماتهم ، فأنزلوا بها الخراب وأمعنوا فى نهبها . وتوجهت من كريت حملة ، عقب وفاة الإمبراطور ميخائيل مباشرة ، خربت ونهبت شوطئ كاريا Caria ، وإيونيا Ionia ، ونهبت دير جبل لاتروس Latros[1] وترتب على مهاجماتهم لدير جبل لاتروس ، أن هجر الرهبان قلاياتهم[2]. ولم تجد نفعا كل محاولات ميخائيل الثانى وخلفائه لاستعادة جزيرة كريت ، التى ظل يحكمها المسلمون نحو قرن ونصف قرن من الزمان[3] .

فتح المسلمين لجزيرة صقلية

بينما كان ميخائيل يحاول يائسا استخلاص جزيرة كريت من يد المسلمين ، إذ جاءه من الأنباء ، ما جعله يوجه اهتمامه إلى جريرة صقلية ، التى أخذ المسلمون فى غزوها لفرض سيطرتهم على البحر المتوسط . ومن الواضح أنه لم يكن لدى بيزنطة من القوى البحرية ما يكفى لإنقاذ صقلية ، واستعادة جزيرة كريت ، وحماية الجزائر فى بحر إيجه والسواحل التى تعرضت للغارات المستمرة من قبل المسلمين[4] .

والمعروف أن الأسطول الإسلامى فى شرق البحر المتوسط ، ظل يغير على الجزائر الواقعة فى هذه الجهات أمثال قبرص ورودس ، واقترن ذلك بما قام به الرشيد من حملات فى آسيا الصغرى سنة ٨٠٦ ، ولم تجد القسطنطينية سبيلا إلى الخلاص إلا بدفع الجزية[5] .

(١) Bury p. 290.
(٢) Ibid p. 291.
(٣) Ostrogorowski p. 183.
(٤) Bury. p. 291.
(٥) Lewis : op. cit. p. 401.

وحدث وقتذاك سنة ٨٠٥ أن قام الأغالبة بشمال إفريقية ، بغارة بحرية على البيلوبونيز فى بلاد اليونان ، وأمدوا الصقالبة بالمساعدة فى حصار مدينة باتراس ، ولعل ما قام به الأغالبة من هذه الجهود ، ليس إلا جانبا من الخطة التى وضعها الخلفاء العباسيون ، للتضييق على القسطنطينية برا وبحرا[1] .

وما حدث من غارات الأساطيل الإسلامية (السورية والمصرية) على صقلية حتى النصف الأول من القرن الثامن ، لم يؤد إلا إلى الحصول على بعض الغنائم ، فلم يستقر المسلمون بهذه الجزيرة نهائياً . ثم فكر عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى والى إفريقية ، وأخوه عبد الله فى القيام بهجوم شامل على صقلية وسردينية ، وذلك سنة ٧٥٢ ، غير أنه أحبط جهودهما ما وقع من فتن داخلية فى بلادهما[2] وتهيأ للبيزنطيين الفرصة لتحصين الجزيرة وإعداد أسطول لحمايتها ، فلم تتعرض الجزيرة لمهاجمات المسلمين ، فترة تزيد على خمسين سنة[3] .

ثم حدث فى سنة ٨٠٥ ، أن عقد إبراهيم بن الأغلب ، مؤسس دولة الأغالبة ، هدنة لمدة عشر سنوات ، مع بطريق (حاكم) صقلية ، قسطنطين . على أن ما جرى من خروج تونس وطرابلس على إبراهيم بن الأغلب ، وقيام دولة الأدارسة ، وما ترتب على ذلك من انقسام إفريقية بين الأغالبة والأدارسة ، جعل من العسير تركيز القوى الإسلامية بإفريقية وحشدها للاستيلاء على صقلية[4] . على أن التجارة لم تنقطع بين الجزيرة وإفريقية . ففى سنة ٨١٣ ، تم عقد معاهدة بين أبى العباس عبد الله بن الأغلب الذى خلف أباه إبراهيم على الحكم ، وبين جريجورى بطريق

(١) Lewis : p. 105.
(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٦٤ . Bury p. 295.
(٣) فازيلييف : العرب والروم ص ٦٤ .
(٤) Bury p. 295

صقلية ، تقرر بمقتضاها قيام هدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات ، وتأمين التجار من كلا الجانبين[1] والمعروف أن طائفة من التجار المسلمين كانت تقيم فى مستهل القرن التاسع بجزيرة صقلية[2] .

على أن المسلمين استأنفوا إغاراتهم على صقلية ، بعد انقضاء أجل الهدنة ، وشجعهم على ذلك ما وقع من الأحداث بالجزيرة . ذلك أنه حدث أن تزعم ايفيميوس **Euphemios** حركة الثورة فى صقلية . وما اشتهر به ايفيميوس من البسالة والجرأة ، لا سيما فى الحروب البحرية ، رفعته إلى منصب قائد بحرى (طرنجار) ، غير أن ما أقدم عليه من اغتصاب راهبة والزواج منها ، والتجاء إخوتها إلى الإمبراطور ميخائيل ، أدى إلى أن طلب الإمبراطور إلى قائد ثغر صقلية فوتينوس **Photeinos** ، الذى سبق الإشارة إليه أثناء الحروب بين البيزنطيين والمسلمين فى كريت ، أن يقوم بإجراء تحقيق مع ايفيميوس ، وذلك سنة ٨٢٦ . وما كاد ايفيميوس يعلم بهذا الخبر ، حتى عزم على أن يتحدى فوتينوس . فعند قدوم (ايفيميوس) من غارة على طرابلس ، أصاب فيها غنائم كثيرة ، توجه نحو سيراكوز واحتلها ، وأعلن رجال الأسطولى ولاءهم له ، كما انحاز إليه عدد من القادة الحربيين أمثاله . ولم يستطع فوتينوس طرد هذا الثائر من سيراكوز[3] ، بل إن فوتينوس لقى حتفه بسبب تفوق ايفيميوس وحلفائه من الناحية الحربية[4] .

ثم أعلن ايفيميوس نفسه إمبراطوراً ، وصار يعين أنصاره ولاة على أقاليم صقلية وسائر مدنها ، غير أن أحد ولاته ، وهو المشهور فى المصادر العربية باسم بلاطه لم يلبث أن خرج على طاعته ، وانحاز إليه ابن عمه حاكم بلرمو ، وأعلنا تأييدهما للإمبراطور البيزنطى ، وحشدا جيشا لقتال

---

(١) **Bury p. 295.**

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٦٤ .

(٣) فازيليف : العرب والروم ص ٦٨ — ٩٩ **Bury : p. 296 — 297**

(٤) **Ibid p. 297**

ايفيميوس ، فانتصرت جيوشهما واستولت على سيراكوز[1] . ولم يسع ايفيميوس إلا أن يطلب المساعدة من أمراء إفريقيا[2] .

وقدم ايفيميوس إلى إفريقية ، حيث جرت مفاوضات مع زيادة الله ابن الأغلب ، طلب فيها إلى زيادة الله أن يرسل جيشاً إلى صقلية ، كيما يوطد ملكه بالجزيرة ، على أن يدفع ايفيميوس مقابل ذلك جزية للأغالبة[3] .

وتقرر عرض الاقتراح على أهل الشورى بالقيروان ، فاحتدمت المناقشة ، ورأى معظم الحاضرين أنه لا يجوز نقض الصلح المعقود مع صقلية فى سنة ٨١٣ ، لمدة عشر سنوات[4] ، بينما رأى قلة من الحاضرين ، أن البيزنطيين سبقوا إلى نقض المعاهدة ؛ وأن الأسرى لا زالوا فى سجون صقلية حسبما أشار إيفيميوس .

وحينما جرى عرض هذا الأمر على القاضى أسد بن الفرات ، أيد فكرة الغزو ، وحث على الجهاد ، مستشهدا فى ذلك بآيات من القرآن ، ووافق الحاضرون على ما رآه ابن الفرات واستجاب زيادة الله لرغبة الجماعة . فجعل على رأس الجيش القاضى أسد ابن الفرات ، وبذلك جمع أسد بين القضاء ورئاسة الأسطول المجتمع فى خليج سوسه[5] ، حيث كان إيفيميوس بسفنه ينتظر الرد على طلبه . وتألف جيش أسد من ١٠ آلاف راجل وسبعمائة فارس ، من العرب والبربر وأهل الأندلس ومن الخراسانيين ، وكان من بينهم فقهاء . وبلغت عدة السفن نحو مائة سفينة . وأبحر الأسطولان فى

---

(١) **Ibid p. 297.**

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٦٩ **Ibid p. 297**

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ، ص ٢٣٦ . **Bury p. 297**

وفى رواية أخرى ما يشير إلى أن إيفيميوس وعد بتسليم صقلية لأمير أفريقية ، وأن يدفع له جزية كبيرة ، إذا اعترف به إمبراطوراً ، وأمده بالمساعدة — انظر فازيلييف : العرب والروم ص ٧١ حاشية ١ .

(٤) المفروض أن هذه المعاهدة ينقضى أجلها فى سنة ٨٢٣ م ، وما جرى فى المناقشة يدل على أن المعاهدة تجددت (انظر **Bury p. 297 note I**)

(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٢ **Bury p. 297.**

٤ يونيه سنة ٨٢٧ ، وفى ١٧ يونيه بلغ الغزاة مازارا Mazara ، حيث كان بها أنصار لايفيميوس . ونشب القتال بين قوات أسد بن الفرات ، وبين قوات بلاطه ، فأحرز المسلمون انتصاراً باهراً ، واندحر بلاطه مع قواته ، فهرب إلى كالابريا ، حيث قضى نحبه(١) .

على أن إيفيميوس لم يلبث أن تنكر لأسد بن الفرات ، وأدرك أن مصلحته لا تتفق مع مصلحة المسلمين ، الذين لا يرون أن تكون صقلية خالصة لهم ، فجرت بينه وبين البيزنطيين مفاوضات ، وحثهم على ضرورة المبادرة بقتال المسلمين(٢) .

غير أن أسد بن الفرات استأنف السير قاصدا سيراكوز عاصمة الجزيرة وقتذاك(٣) ، وجاءته الأمداد من إفريقية وكريت والأندلس(٤) . وما حدث من سقوط كريت فى يد المسلمين ، وتحرج الأحوال فى صقلية ، إنما يدل على أهمية الأسطول البحرى للدولة البيزنطية ، ولذا جعل أخلاف ميخائيل الثانى نصب أعينهم ، إعادة بناء الأسطول وتدعيمه(٥) .

أرسل الإمبراطور ميخائيل من قبله مدداً إلى صقلية ، لبرد المسلمين عن سيراكوز ، وطلب إلى دوق البندقية أن يرسل قوة بحرية لتسهم فى إنقاذ سيراكوز ، وعلى الرغم من أن جستنيانوس دوق البندقية أرسل سفناً حربية ، غير أنها لم تفد فى إنقاذ سيراكوز(٦) . وما حدث من قيام قوة بحرية كارولنجية ، من تسكانيا ، لمهاجمة ميناء بونه على ساحل أفريقيا ، إنما يدل على تحالف الكارولنجيين(٧) مع البيزنطيين .

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٣ — ٧٤ Bury p. 299.

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٦ Ibid p. 300.

(٣) Lewis p. 231.

(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٧ Bury p. 303

(٥) Bury p. 301.

(٦) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٨ Ibid. 301

(٧) Lewis p. 133.

على أن المسلمين اتخذوا من التدابير ما يحمون به أنفسهم من القوات المتحالفة ، فحفروا حول معسكرهم خندقا وحفروا أمامه جحورا ، ليتردى فيها الفرسان(١) وضيق المسلمون الحصار على المدينة ، فطلب أهلها المفاوضة ، غير أن ما تقدموا به من مقترحات . لم تجد قبولا عند المسلمين . ولم يلبث الطاعون أن اندلع فى معسكر المسلمين سنة ٨٢٨ ، فهلك فيه عدد كبير من العساكر ، ومنهم ابن الفرات نفسه(٢) . على أن الوباء لم يلبث أن عصف بالجيش الإسلامى ، بينما جاءت الأمداد من القسطنطينية والبندقية(٣) ، أما إيفيميوس فإنه لقى مصرعه ، بيد بعض أهل جزيرة صقلية من أنصار الإمبراطور ، بعد أن أمن لهم ، واتفق معهم على أن يعترفوا به إمبراطوراً . ومن ثم صار القتال يجرى بين المسلمين والمسيحيين على امتلاك صقلية ، وانتهت مساعدة إيفيميوس للمسلمين(٤) . وتوالت الأمداد الإسلامية من الأندلس وأفريقية على صقلية ، ومات وقتذاك الإمبراطور ميخائيل ، وخلفه على الحكم ثيوفيلوس ، واستولى المسلمون سنة ٨٣١ على مدينة Panarmos (بالرمو) ، بعد أن حاصروها سنة(٥) ، ثم أخذوا يستولون على سائر جزيرة صقلية(٦) ، بعد أن أضحت القاعدة ، التى تخرج منها الأساطيل الإسلامية ، لمهاجمة سواحل إيطاليا ، والتعرض لتجارتها ، فضلا عن مهاجمة ما بقى للبيزنطيين من موانى بالجزيرة . وبذلك انهارت سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط ، وعلى الأخص فى بحر الأدرياتى .

تيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢) :

على الرغم من أن ميخائيل الثانى ، لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ،

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٧٨ Bury p. 301

(٢) Ibid p. 301

(٣) Ibid p. 301 — 302

(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ٨٠ Bury p. 302.

(٥) Bury p. 304

(٦) Vasiliev p. 279. Lewis p. 133

فإن ابنه تيوفيلوس ، اشتهر بما تلقاه من تعليم ، وبشدة اهتمامه بالعلوم والفنون ، التى اشتهرت بها وقتذاك القسطنطينية . ولم يكن تيوفيلوس متأثراً فى ثقافته بمدينة القسطنطينية فحسب . بل وقف أيضاً على ما اشتهر به بلاط الخليفة العباسى من تأثيرات ثقافية(١) .

وما اشتهر به ثيوفيلوس من التعلق بالفن الإسلامى(٢) ، ومن الحماس لمناهضة عبادة الصور المقدسة ، الذى جعل منه عدواً عنيفاً لعبادة الصور المقدسة ، إنما استمده من مؤدبه حنا النحوى . والواقع أن عهد ثيوفيلوس شهد الموجة الأخيرة للحركة اللاأيقونية ، ويعتبر أيضاً الفترة التى بلغ فيها الذروة ، التأثير الإسلامى على العالم البيزنطى(٣) .

وعلى الرغم من أن ثيوفيلوس لم يكن من الأباطرة البارزين ، فإنه امتاز بشخصية بالغة الأهمية . ومن الدليل على ما اشتهر به من شدة العاطفة ، تعلقه القوى باللاأيقونية ، التى كانت وقتذاك تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكذا حماسه لفنون العالم العربى وثقافته . وعلى الرغم من أن تعصبه الدينى ، دفعه إلى الإمعان فى العنف والقسوة ، فإن ما ارتبط باسمه من الأمور المثيرة ، جعله محور قصص وأساطير كثيرة . إذ أراد أن يكون حاكماً مثاليا ، فحرص على أن ينشر العدل فى أرجاء مملكته ، فأخذ يقلد هرون الرشيد فيما اشتهر به من العدالة ، إذ صار يطوف بأنحاء المدينة ، يتحدث إلى الفقراء والمساكين ، ويستمع إلى شكواهم ، وينزل العقاب بمن أنزل بهم الظلم من الموظفين ، مهما ارتقت مكانتهم(٤) .

نظام الثغور :

أولى تيوفيلوس ما كان قائماً فى شبه جزيرة البلقان من الثغور ، أوائل

(١) Ostrogorowski p. 183.
Lewis p. 133 Ostrogorowski p. 183.

(٢) Bury pp. 132 — 133.

(٣) Ostrogorowski p. 183.

(٤) Ostrogorowski : p. 184 Bury pp. 121 — 122.

القرن التاسع الميلادى اهتماما خاصا ، فعمل على امتدادها من جهة الشرق ، وفى أقصى الشمال(١) . فأنشأ ثغرى بافلاجونيا وخالديا ، لتوطيد مركز الدولة البيزنطية على البحر الأسود . وتألف ثغر بافلاجونيا من الطرف الشمالى الشرقى من ثغر البقلار(٢) ، بينما اشتمل ثغر خالديا على الشطر الشمالى الشرقى من ثغر الأرمنياق . يضاف إلى ذلك أنه تألف من بعض أجزاء ثغرى الأرمنياق والناطليق ثلاث وجدات عسكرية إدارية فى المناطق الجبلية الواقعة على الحدود المتاخمة للمسلمين . وهذه الوحدات اشتهرت باسم الدروب(٣) (كيلرج) Kleisurai ، وهى التى تألفت منها المناطق العسكرية المعروفة بأسماء ، خرسيانون Charsianon ، وقبادوقيا ،وسيلوقيه ، والتى أضحت فيما بعد ثغوراً(٤) .

وأكبر من هذا أهمية ، ما جرى من النظام المعروف باسم Klmata ، أى الممتلكات البيزنطية الواقعة على ساحل البحر الأسود ، والتى تعتبر خرسيانون مركزاً لها . وهذه الممتلكات لم تلبث أن أصبحت ثغراً ، يتولى قيادته إستراتيجوس ، وذلك زمن ثيوفيل(٥) .

وما حدث من الاضطرابات فى السهول الواقعة إلى الشمال الشرقى من أوربا ، لم ترغم بيزنطة فحسب ، بل أجبرت أيضاً حليفتها إمبراطورية الخزر ، على أن تتخذ تدابير دفاعية بإدخال الثغور فى إقليم خرسون . فقام

(١) Ostrogoroski : p. 184.

(٢) لعل قيام ثغر بافلاجونيا، يرجع إلى ما كان لثيوفيل من سياسة فى البحر الأسود . فالمعروف أن أسطول بافلاجونيا قام بنشاط كبير فى الحملة التى وجهها ثيوفيل إلى خرسون . ويرتبط أيضاً بهذه السياسة ما أنشأه ثيوفيل من ثغرة Klimata شمال البحر الأسود (Bury p. 223

(٣) اشتهر عند المؤلفين العرب باسم كيلرج . . العدوى : ص ٨٩
Moss : Byzantium p. 299

(٤) Ostrogorowski : p. 148 Bury p. 222—223.
ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٨

(٥) Ostrogorowski p. 184 Bury p. 223

المهندسون البيزنطيون ، بناء على طلب ملك الخزر ، بتشييد حصن سرقل Sarkel ، على مصب نهر الدون(١) .

الحروب ضد المسلمين فى الشرق

وعلى الرغم مما اشتهر به الإمبراطور ثيوفيل من الحماس لفنون العرب وثقافتهم ، فإن القتال نشب بينه وبين المسلمين طوال حكمه . وسبق الإشارة إلى ما حدث من انصراف الخليفة المأمون فى مستهل حكمه إلى القضاء على الفتن الداخلية لا سيما حركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى الفارسى ، فإن ما أحرزه من نجاح فى القضاء على هذه الفتن ، جعله منذ سنة ٨٣٠ يستأنف القتال ضد بيزنطة ، بعد أن توقف سنوات(٢) .

وعلى الرغم من توقف القتال بين الجانبين ، فإن ما حدث من الفتن الداخلية فى كل الدولتين البيزنطية والإسلامية ، حيث قامت ثورة توماس الصقلبى ضد بيزنطة ، ونشبت فتنة بابك فى الدولة العباسية ، جعل كلا من الخليفة المأمون ، والإمبراطور ثيوفيل ، يستغلان هذه الفتن لمواصلة العداوة . إذ تجددت غارات المسلمين فى آسيا الصغرى ، ولجأ الإمبراطور ثيوفيل إلى الاتصال ببابك . فما كاد ثيوفيل يتولى عرش الإمبراطورية حتى نزح إلى أراضى الدولة البيزنطية عدد كبير من الخرمية ، ودخلوا فى خدمة الإمبراطور . والراجح أنه ما جرى من المفاوضات بين ثيوفيل وبابك ، إنما رتبها قائد معروف من أصل فارسى ، نشأ وتربى بالقسطنطينية ، واشتهر باسمه اليونانى Theophobos ، فجعله الإمبراطور على رأس هؤلاء اللاجئين ، لما يربط بينه وبينهم من صلة النسب واللغة(٣) . على أن هؤلاء الخرمية أرادوا أن ينصبوا ثيوفوبوس إمبراطوراً ، فلم يستجب لهم ، لما اشتهر به

(١) Ostrogorowski : p. 185.

(٢) Bury p. 251.

(٣) Bury p. 231.

ثيوفوبوس من الولاء والإخلاص للإمبراطور البيزنطى ، بسبب ما يربطه به من صلة المصاهرة ، لأنه تزوج من أميرة تمت للإمبراطور بصلة القرابة ، ولما حظى به من المكانة عنده ، فمنحه رتبة البطرقية ، وهى من الرتب الرفيعة فى الدولة البيزنطية(١) . وترتب على ذلك أن أمر ثيوفيل بتوزيع هؤلاء الخرمية ، الذين بلغ عددهم ، على حد بعض الروايات التاريخية ، خمسة عشر ألف رجل ، على ثغور الإمبراطورية فجعلهم فى فرق ، يبلغ عدد كل منها ألفين من الرجال(٢) .

ووقعت الحروب فجأة على الحدود البيزنطية فى سنة ٨٣٠ ، ولم تكن ثورة مصر قد خمدت ، كما أن الخليفة المأمون تعرض لتهديد الخرمية فى شرق فارس . والمعروف أن المسلمين اهتموا بتحصين الحدود الواقعة بينهم وبين البيزنطيين ، لما تجرى بينهم من حروب متصلة . إذ تألفت الحدود الفاصلة بينهم من سلسلتى جبال طوروس ، وطوروس الداخلة (جبل اللكام) ، ويقوم على حماية هذه الحدود خط طويل من القلاع ، المعروفة بالثغور ، يمتد من ملطية على الفرات الأعلى ، إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط . وهذه الثغور تقع فى مجموعتين ، إحداهما تحمى إقليم الجزيرة وتسمى ثغور الجزيرة ، وهى الشمالية الشرقية ، والثانية ، وهى الجنوبية الغربية ، وهى المعروفة بالثغور الشامية . ومن ثغور الجزيرة ، ملطية ، وحصن منصور وبهسنا ، والحدث ، ومرعش ، والهارونية ، والكنيسة وعين زربى . ومن ثغور الشام وهى التى تقترب من ساحل البحر المتوسط ، المصيصة وأدنة وطرسوس(٣) .

وأهم ممرات جبال طوروس ، التى اجتازها كل من المسلمين والبيزنطيين

(١) Bury p. 253.

(٢) bid p. 254.

(٣) Bury p. 244.

العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٩٠

ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٠ — ١٦١

فى أثناء غاراتهم ، الدرب المعروف من قديم الزمن ، باسم أبواب قليقية ، والذى سلكه المسلمون عند نهوضهم للغزو فى آسيا الصغرى ، ويبلغ طوله سبعين ميلا ، ويبدأ من سفح هضبة آسيا الصغرى ، جنوبى طوانة ، وينتهى عند السفح الجنوبى لجبال طوروس(١) . وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا الدرب ، تقع قمة يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم ، تشرف على السهول الجنوبية فى قبادوقيا ، والمنحدرات الشمالية لجبال طوروس ؛ وعلى هــذه القمة قامت قلعة اللؤلؤة ، التى ظلت مضرب المثل فى المناعة . وتبادل البيزنطيون والمسلمون امتلاك هذه القلعة ، لأنها مفتاح ممر قليقية ، فإذا كانت فى يد المسلمين ، لم يجروٴ البيزنطيون على المخاطرة باجتياز ذلك الدرب ، وإذا صارت إلى يد البيزنطيين تعذر على المسلمين غزو قبادوقيا . يضاف إلى ذلك أن هذه القلعة تتحكم فى الطريقين اللذين يلتقيان بالقرب منها ، وهما الطريق الشمالى المؤدى إلى طوانة ، والطريق الغربى الذى ينتهى عند هرقلة(٢) .

أما الدرب الثانى فهو الذى يصل مرعش بالبستان ، وكان يحمى هذا الدرب حصن الحدث ، الذى يقع على ضفاف نهر آق صو الحالى . قرب أنكلى(٣) واستخدم المسلمون فى حملاتهم واتصالاتهم بآسيا الصغرى هذين الدربين اللذين عرفهما البيزنطيون . على أن درب السلامة أو أبواب قليقية ، هو الذى سلكه رجال البريد ورسل الخليفة وقيصر ، وهو الذى سلكه الغزاة عند توجههم إلى آسيا الصغرى(٤) .

(١) العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٠ — ٦١ .Bury p. 245

(٢) .Ibid p. 246

(٣) ليسترانج . بلدان الخلافة الشرقية ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .
وكانت حملات البيزنطيين على العراق ، تتبع عادة طريق البستان — مرعش ، حيث تجتمع قوات الثغور الأسيوية الشرقية مع قوات الثغور الغربية ، عند قيصرية ، ومن ثم تخترق جبال طوروس إلى البستان (العدوى . الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٩٣) .
Bury p.248.

(٤) ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦٦ .

وماكان يجمع من ثغور الشام من خراج ، صار ينفق فى مصالحها وسائر وجوه شأنها ، وهى المراقب والحرس والموكلين بالدروب والمخائض والحصون ، وما شابه ذلك من الأمور التى يحتاج إليها الجند ، وبلغ ما ينفق على مغازيها من الصوائف والشواتى فى البر والبحر ، مائتى ألف دينار فى السنة (أى أربعة ملايين ونصف مليون من الفرنكات الذهبية(١)) .

ووصف قدامة الغزوات الإسلامية : تقع الغزوات الربعية لعشرة أيام تخلو من آيار (مايو) بعد أن يكون الناس أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما ، وهى بقية آيار وعشرة من حزيران (يونيه) ، فإنهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكنا ، وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا . ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوما ، وهى بقية حزيران وخمسة من تموز (يوليه) ، حتى يقوى ويسمن الظهر ، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون لوقت قفولهم ستين يوما . أما الشواتى ، فإن كان لابد منها ، فليكن مما لا يبعد فيه المحارب ولا يوغل ، وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره ، وأن يكون ذلك فى آخر شباط (فبراير) ، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضى من آذار (مارس) ، فإنهم يجدون مواشيهم كثيرة ، ثم يرجعون ويربعون دوابهم(٢) » .

وفى ربيع سنة ٨٣٠ ، اجتاز ثيوفيل ، وبصحبته تيوفوبوس والخرمية ، الجبال فاستولى على مدينة زبطرة ، وأنزل بها الخراب والدمار ، وقتل عدداً كبيراً من سكانها . على أن المأمون ماكاد يعلم بنبأ هذا الهجوم ، حتى بادر بالسير فى نفس السنة فاتخذ طريقه على الموصل ، ومنبج وأنطاكية إلى طرسوس ، حيث اجتاز درب قليقية ، بينما عبر الحدود الشرقية ابنه العباس بجنوده ، وصارت قبادوقيا مسرحا للقتال بين القوات الإسلامية والبيزنطية ، فاستولى

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٩٠
قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ، ص ٢٥٣ .

(٢) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٢٥ .
فازيلييف : العرب والروم ص ٨٩ — ٩١ .

المسلمون على حصون عديدة ، وتعرض ثيوفيل لهزيمة ساحقة ، ولم ينج بحياته إلا بصعوبة[1].

وما أحرزه ثيوفيل فى السنة التالية (٨٣١) من الانتصار والاستيلاء على بعض الحصون الواقعة على الأطراف ، شجعه على أن ينهى الأعمال الحربية ضد المسلمين . فأرسل من قبله رسولا إلى المأمون فى أدنه ، يعرض على الخليفة إطلاق سراح خمسمائة أسير ، وإعادة ما استولى عليه من الحصون مقابل عقد هدنة لمدة خمس سنوات[2]. غير أن الخليفة أصر على القتال . واستسلمت هرقلة للمسلمين من غير قتال ، بينما جرت معركة حامية بين القوات البيزنطية بقيادة ثيوفيل وبين جيش العباس ابن المأمون ، أحرز فيها العباس انتصاراً باهراً واستولى على مواقع عديدة[3] .

ثم توجه المأمون إلى مصر ، للقضاء على فتنة نشبت بها ، وظل بمصر من فبراير إلى إبريل سنة ٨٣٢ ، ثم عاد إلى استئناف القتال فى آسيا الصغرى ، وأخذ يحصر قلعة لؤلؤة[4]، والمعروف أنها تشرف على درب قليقية وتتحكم فيه . استمر الحصار مائة يوم ، غير أن الحصن صمد لهذا الحصار الطويل ، على أن المأمون منع الأقوات من الدخول إلى القلعة ، وعهد إلى أحد قادته بالمضى فى حصار القلعة ، فاستسلم الحصن للمسلمين ، بعد أن يئس جند الحامية من كل مساعدة خارجية[5].

وعلى الرغم من العروض التى بذلها ثيوفيل لوقف القتال ، فإن المأمون لم يثق فيما جاء برسائل الإمبراطور[6] ، وعزم على المضى فى القتال ، فجهز

(١) Bury pp. 472 — 473.

(٢) Bury p. 254, 473.
ڤازيلييف : العرب والروم ص ١٠١

(٣) ڤازيلييف : العرب والروم ص ١٠٤ . Bury p. 474.

(٤) Bury p. 474

(٥) ڤازيلييف . العرب والروم ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٦) ڤازيلييف : العرب والروم ص ١١١ .

حملة ، دخل بها أرض آسيا الصغرى ، واستولى على مواضع حصينة ، ثم رجع إلى البدندون ، فحلت به حمى شديدة ، أدت إلى وفاته فى ٧ أغسطس سنة ٨٣٢ ، وتم دفنه فى طرسوس[1].

ولى الخلافة بعد المأمون أخوه المعتصم ، وتوقف القتال بين البيزنطيين والمسلمين فى السنوات الأولى من خلافة المعتصم ، لانصراف الخليفة إلى القضاء على فتنة بابك الخرمى . وما حدث من جنوح ثيوفيل إلى السلام ووقف القتال زمن المأمون ، إنما يرجع إلى رغبة ثيوفيل فى أن يوجه كل موارده وقواه لاسترداد صقلية من يد المسلمين. غير أنه ماكاد يمضى على خلافة المعتصم أربع سنوات ، حتى رأى ثيوفيل أن يعود إلى قتال المسلمين فى الشرق . وشجعه على ذلك موقف بابك ، الذى بلغ مركزه من السوء والحرج ، أنه أدرك ألا سبيل لنجاته وسلامته ، إلا بتشتيت قوات الخليفة ، ففاوض ثيوفيل ووعده بأن يعتنق المسيحية[2] . وإذا كانت أرمينيا وآذربيجان من معاقل الخرمية ، فقد أغار ثيوفيل بجيشه على أعالى الفرات ، كيما يسهل الاتصال بأنصار بابك فاستولى ، فى طريقه ، على زبطرة وأمر بقتل الذكور من سكانها ، وسبى نساءها وأطفالها[3] . أما ملطية فإنها استسلمت وأطلقت سراح من بها من أسرى البيزنطيين[4] .

على أن ما أصاب زبطرة من التخريب والحريق بلغت أنباؤه المعتصم فى عاصمته سامرا ، فعزم على أن يثأر لها ، وماكاد ينتهى من فتنة بابك التى انتهت بمصرعه سنة ٨٣٧ ، حتى أعد عدته بأن يصوب ضربة قاصمة تذل الإمبراطور وتقضى على هيبته . فالمعروف أن عمورية هى مسقط رأس أسرة ثيوفيل الإمبراطورية ، فعزم المعتصم على إزالتها من الوجود[5] . على أن لعمورية أهمية أخرى ، إذ أن

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١١١ . Bury p. 256.

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٢ . Ibid p. 259.

(٣) Ibid p. 250.

(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ١٢٧ .

(٥) Bury p. 262.

الاستيلاء عليها ، يعتبر خطوة فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية[1] . فلم تكن حملة المعتصم كالحملات السابقة موجهة إلى الحصون الواقعة على الأطراف ، بل توجهت إلى أهم موقع فى جوف آسيا الصغرى[2] ، إذ اعتبرها الطبرى « عين النصرانية » ، واعتـــبرها مؤرخ يونانى معاصر أنها لا يفوقها إلا القسطنطينية[3] .

غادر المعتصم سامرا فى ابريل سنة ٨٣٨ ، وقد كتب على ألوية الجيش وتروسه « عمورية »[4] . واشتهر المعتصم بالفروسية والبسالة ، وجعل على مقدمة الجيش أشناس التركى ، وشارك فى هذه الحملة الأفشين ، الذى اشتهر بأنه قضى على الفتنة التى حدثت بمصر ، واشترك فى قتال بابك[5] .

جعل المعتصم أنقرة أول هدف للحملة ، فزحف جيش الشرق ، بقيادة الأفشين وقد سلك طريق مرعش ، فعبر الحدود عن طريق درب الحدث ، فى وقت جرى الاتفاق عليه ، حتى يتهيأ له الالتقاء بالجيش القادم من الغرب ، فى سهل أنقرة[6] وانحاز إلى هذا الجيش ، فيما يبدو ، جند من الأرمن وأمير ملطية[7] . أما الخليفة (المعتصم) ، فتهيأ فى نفس الوقت إلى المسير إلى أنقرة ، حتى إذا أخذها توجه إلى عمورية[8] .

لم يخف على الإمبراطور البيزنطى ما وضعه الخليفة من خطط عن أنقرة وعمورية . خرج ثيوفيل من القسطنطينية فى مايو سنة ٨٣٨ ، وفى دوروليه ، على مسيرة ثلاثة أيام من عمورية ، وتقع على الطريق المؤدى إلى الحدود

(١) Ibid p. 262.

(٢) Ostrogorowski : p. 185.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٧ ، ص ٢٦٣ . Bury p. 263.

(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣١ .

(٥) Bury p. 263.

(٦) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣٣ Bury p. 263.

(٧) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣٣ .

(٨) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣٣ .

الإسلامية ، أخذ يجمع من المؤن والعتاد ما يقوى به أسوار عمورية وحاميتها . ومن الطبيعى أن يقوم أثيتوس قائد ثغر الناطليق بالدفاع عن عمورية ، التى تعتبر قاعدة الثغر[1] .

وأعد الإمبراطور خطته ، على أن يقوم بمهاجمة قوات المسلمين ، أثناء سيرها صوب الشمال إلى أنقرة . ولما لم يكن يعلم شيئاً عن الجيش الشرقى الذى يقوده الأفشين ، عبر نهر هاليس Halys ، وعسكر بجيشه بموضع يقع فى أقصى خرسيون ، ولا يبعد كثيراً عن النهر ، وذلك لأنه ظن أن الجيش الإسلامى ، سوف يجتاز درب قليقية ، فى طريقه إلى أنقره ، فيستطيع بذلك أن يهاجم جناحه[2] .

على أن جيش الخليفة القادم من جهة الغرب ، إنما زحف من طوانه صوب الشمال . غير أن الخليفة أصدر أوامره بالتوقف ، ريثما يقف على مواقع العدو . وحدث فى الوقت ذاته أن علم ثيوفيل بزحف الجيش القادم من الشرق ، فاضطرب بذلك ما وضعه من الخطط . إذ تحتم عليه أن يقسم قواته ، فجعل الجانب الأكبر من الجيش تحت قيادته ، وتوجه لمواجهة الأفشين ، بينما ترك بقية الجيش لمنع تقدم الخليفة[3] . وما كاد الأفشين يجتاز سيواس ، وأضحى فى إقليم دازيمون Dazimon (توكات) ، حتى تحتم أن تنشب معركة بينه وبين الإمبراطور[4] .

وابتدأت المعركة أول ساعات الصباح من يوم الخميس ٢٥ شعبان سنة ٢٢٣ (٢٢ يوليه) ، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا النصر أول الأمر ، فإن المسلمين سيطروا على الموقف ، ووقع الاضطراب فى صفوف البيزنطيين ، حين شاع الخبر بأن الإمبراطور لقى مصرعه[5] ، غير أن الإمبراطور عاد إلى

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣٢ . Bury p. 263.

(٢) Bury p. 264.

(٣) Bury p. 264.

(٤) Ibid p. 264.

(٥) Ibid p. 265.

معسكره ، وأنزل العقاب بمن هرب من الجنود(١) . وأرسل من قبله طواشيا إلى أنقرة للدفاع عنها . غير أن الأمر جاء متأخراً ، إذ احتل المدينة الجيش الإسلامى القادم من الغرب دون أن يجد مقاومة ، ذلك أن هل المدينة أفزعهم ما بلغهم من نبأ انتصار الأفشين ، فغادروا المدينة ، ولجأوا إلى الجبال ، ولم يلبث اشناس أن اكتشف مواضعهم فأنزل بهم هزيمة ساحقة(٢) . ولم يلبث أن انضم الأفشين بقواته إلى المعتصم وأشناس وقواتهما بأنقرة ، فأنزلوا بها الخراب والدمار(٣). ولم يسع الإمبراطور إلا أن يلتمس من الخليفة الصفح عنه وإجراء الصلح ، فأرسل إليه مبعوثين ، يطلبون عقد هدنة ، ويعرضون تعهد الإمبراطور بإعادة بناء زبطرة ، وإعادة السكان إليها ، وأن يطلق سراح من عنده من أسرى المسلمين(٤) وأن يسلم إلى الخليفة كل من ارتكب فى زبطرة شيئا من أعمال العنف والقوة(٥) . غير أن الخليفة لم يستجب لتوسلات الإمبراطور ، وشيع رسله بالاحتقار والسخرية(٦) .

أما الإمبراطور ثيوفيل فإنه توجه إلى دوريليه ، منتظرا ما سوف يحل بمدينة عمورية من المصير المحتوم ، على الرغم من أنه بذل كل ما فى وسعه للمحافظة عليها(٧) .

وقصد الخليفة عمورية بعد تدمير أنقرة ، فجعل جيشه ثلاثة أقسام ، على أن يفصل بين كل قسم وقسم فرسخان ، فكان أشناس على المقدمة ، واتخذ الخليفة موضعه فى القلب ، بينما كان الأفشين فى المؤخرة ، وأنزلوا أثناء سيرهم الخراب والدمار بكل ما يجتازونه من الجهات ، حتى وصلوا إلى عمورية

(١) Ibid p. 266.
(٢) Bury p. 266.
(٣) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٣ .
(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٣ .
(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٣ . Bury p. 266.
(٦) Ibid p. 266.
(٧) Ibid. p. 267.

بعد سبعة أيام من سيرهم . وشرع المعتصم فى حصار عمورية فى أول أغسطس . واشتهرت المدينة بشدة مناعتها وحصانتها ، يحيط بها سور مرتفع يزيد من مناعته ما يقع عليه من أبراج بلغ عددها أربعا وأربعين برجا ، وأحاط بها خندق واسع . وتولى الدفاع عنها اثيتيوس قائد ثغر الناطليق وساعده قادة آخرون(١) .

وبعد حصار استمر أسبوعين ، أعلنت المدينة التسليم فى ١٣ أغسطس ٨٣٨ ، فوقع فى أيدى الخليفة عدد وفير من الأسرى من النساء والأطفال فضلا عن الغنائم الوفيرة ، ونقل المعتصم معه إلى سامرا اثنين وأربعين أسيراً من ذوى المكانة ، حيث ظلوا فى الحبس سبع سنوات(٢) .

وأرسل ثيوفيل إلى المعتصم قائد خرسيون ، وهو باسيل ، بالهدايا ، وبرسالة تتضمن أسفه لما حل بزبطرة من الدمار ، ويطلب إلى الخليفة أن يطلق سراح اثيتيوس ، مقابل أن يطلق سراح من عنده من الأسرى المسلمين . غير أن الخليفة رفض أيضا ذلك الطلب(٣) .

وما ترتب على غزو المعتصم من كوارث بآسيا الصغرى ، وما جرى من توغل مسلمى أفريقية فى جزيرة صقلية ، وما أنزله العرب جزيرة كريت بالإمبراطورية البيزنطية من هزائم ، كل ذلك جعل الإمبراطور يعتقد أنه لا قبل له بقوة المسلمين المتزايدة فى البحر المتوسط ، فعزم على أن يلتمس المساعدة من الدول الأخرى . فأرسل إلى لويس التقى ، إمبراطور غرب أوربا ، سفارة ، تضم أسقفا وبطريقا ، فطلبت إلى الإمبراطور أن يبعث بجيش قوى لمهاجمة مصر أو الشام ، حتى يضعف من قوة الخليفة وتشتيتها . ولقيت السفارة الترحيب فى إنجلهيم (فى ١٧ يونيه سنة ٨٣٩) ، غير أنه لم يترتب عليها نتيجة من النتائج(٤) .

(١) Bury p. 269.
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ، ص ٢٦٣ . Bury p. 271.
(٣) فازيلييف : العرب والروم ص ١٥٥ . Bury p. 273.
(٤) Bury p. 273.

وما سعى إليه من حث أمير أسبانيا ، عبد الرحمن الثانى ، على التعاون معه ضد الخليفة العباسى ، لم يلق إلا الفشل الذريع . إذ أن أحوال أسبانيا وقتذاك بلغت من السوء ما جعل من المستحيل أن توجه حملة لمساندة الإمبراطور ، غير أنه (عبد الرحمن الثانى) أظهر من النية الحسنة ما جعله يرسل مع السفارة صديقه الشاعر يحيى الغزال ، وطلب إليه أن يذكر للإمبراطور بأنه سوف يرسل إليه أسطولا إذا هدأت الأمور فى بلاده ، غير أنه لم يتم شىء من هذا القبيل[1] .

ثم حدث أن عرض ثيوفيل من جديد على الخليفة المعتصم تبادل الأسرى ، فرد عليه المعتصم ، أنه إذا أردت أن ترد علينا من كان لديك من المسلمين ، دون أن تطلب مقابلا لذلك ، فإننا نرد عليك أضعاف من تطلق سراحه ، وبذلك نبزّك فى كل شىء على أنه لم يطلق سراح ائيتيوس ، وتقرر عقد الهدنة سنة ٨٤١[2] .

على أن المعتصم تجهز لمهاجمة القسطنطينية ، وأعد لذلك أسطولا مؤلفا من ٤٠٠ سفينة ، أبحرت من موانى الشام سنة ٨٤٢ ، غير أن المعتصم مات فى نفس الشهر الذى مات فيه ثيوفيل غير أن السفن تحطمت على صخور جزائر شيلدونيا Childonian اتجاه رأس الشاطىء الجنوبى الشرقى ، فلم ينج منها إلا سبع سفن[3] .

وتولى الخلافة من بعد المعتصم ، الخليفة الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧) ، الذى جرى فى زمنه من الفتن الدينية ، والثورات فى بلاد العرب ودمشق ، والسخط والكراهية فى بغداد ، ما جعله عاجزا عن مواصلة الجهاد الدينى . وعلى الرغم من أنه لم تعقد بين البيزنطيين والمسلمين هدنة ، فإنه تم تبادل الأسرى ، وتوقفت الأعمال الحربية عدة سنوات[4] .

---

(١) Ibid. p. 273.

(٢) Bury p. 274.

(٣) Ibid. p. 274.

(٤) Ibid pp. 274 — 275.

صقلية وجنوب إيطاليا :

سبق أن أشرنا إلى أن المسلمين استولوا على بالرمو سنة ٨٣١ ، واتخذوها قاعدة لأعمالهم الحربية . وهذه القاعدة البحرية الأمامية لم تلبث أن ازدادت قوة بفضل ما حدث من تطورات جديدة ، منها أن أسطول الأغالبة استولى فى سنة ٨٣٥ على جزيرة بانتيلاريا Pantellaria وكانت بيد بيزنطة ، وترتب على الاستيلاء عليها أن زال الخطر على المواصلات بين صقلية وأفريقية ، وصار من اليسير قدوم الأمداد من أفريقية . ومنها أيضاً أن تحالفت بالرمو فى سنة ٨٣٦ مع مدن ساحل إيطاليا الغربى ، لاسيما نابولى ؛ وهذا التحالف نجم عما قام به أسطول بالرمو من مساعدة لأهل نابولى ، فى نضالهم ضد عدوهم فى داخل إيطاليا ، وهو أمير بنيفنتو اللمباردى[١] . والراجح أيضاً أنه نشأ نتيجة ماجرى منذ سنوات عديدة من اتصال تجارى بين هذه المدن الإيطالية والمسلمين بشمال أفريقية ، برغم معارضة الدولة البيزنطية[٢] . ومهما يكن الأمر ، فلا شك فيما للصداقة بين نابولى ومسلمى صقلية من أهمية . إذ أنها تسببت فى ضعف ماللدولة البيزنطية من قوة بحرية فى البحر التيرانى ، فى وقت كانت فى أشد الحاجة إلى هذه القوة . وما حدث من عجز القوى البحرية البيزنطية عن اعتراض طريق الأسطول الأفريقى ، الذى كان يحمل فى سنة ٨٢٥ واليا جديداً ، على بالرمو[٣] ، إنما يرجع إلى ما حدث من تخلى نابولى عن بيزنطة ، وانحيازها إلى المسلمين فى صقلية[٤] ومن الملحوظ أن الأسطول الأفريقى اشتمل على حراقات ، لمكافحة ما لدى البيزنطيين من النيران الإغريقية ، ولعل هذه هى أول إشارة لاستخدام المسلمين لهذا النوع من السفن ، التى تعتبر سلاحا سريا جديداً[٥] .

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١٦٠ . Lewis : op. cit. p. 133.

(٢) Ibid. p. 342.

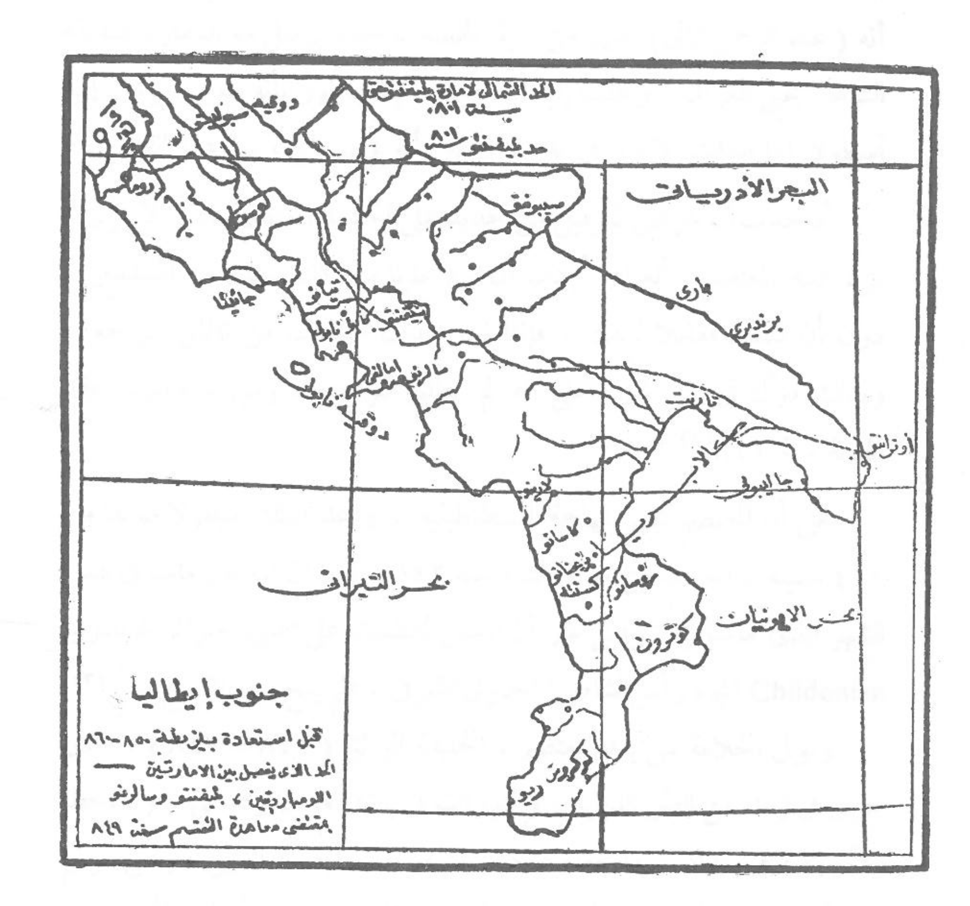
(٣) ابن الأثير . الكامل ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٤) Lewis p. 134.

(٥) Lewisp. 124.

يشير لويس إلى ما حدث من انحياز ايفيميوس إلى مسلمى شمال أفريقية ؛ الذين غزوا صقلية ؛ ربما أدى إلى انكشاف سر النيران الإغريقية .

انظر Lewis p. 134 Note 13



على أن أمير بالرمو استشعر أن ما لديه من القوة لا يكفى للقيام بهجوم على حصن كيفالو Cefalu البحرى ، الذى يقع على الساحل الشمالى لجزيرة صقلية . إذ أن هذا الهجوم باء بالفشل ، بسبب ما أرسلته الدولة البيزنطية من أسطول ، أرغم المسلمين على الانسحاب(١) . غير أن ذلك لم يمنع المسلمين من التقدم والنشاط . ففى سنة ٨٤٣ ، استولت القوات الإسلامية ، بمساعدة سفن من نابولى ، على مدينة مسينا ، التى تتحكم فى المضايق التى تفصل بين كالابريا وجزيرة صقلية(٢) . ومن الواضح أنه لم يكن للدولة البيزنطية فى مياه صقلية من القوى البحرية ، ما تحمى بها هذا الموضع الهام(٣) .

وتعرض بحر الأيونيان والبحر الأدرياتى أيضاً ، لهجمات المسلمين ، إذ أن أسطولا إسلاميا ، من كريت أو إفريقية ، أو من كليهما استولى فى سنة ٨٣٨ على برنديزى ، وحينما نهض أسطول بندقى مؤلف من ستين سفينة حربية لحماية هذه المنطقة ، حلت به كارثة مريعة ، تجاه كروتون Crotone فى خليج تورنتو ، وأنزل به المسلمون خسارة كبيرة(٤) إذ تحطم كل الأسطول تقريبا ، وهلك معظم من كان به من البنادقة(٥) . وما حدث من النضال بين المتنازعين على حكم الإمارة اللومباردية ، بنيفنتو فى جنوب إيطاليا ، هيأ للمسلمين الفرصة للتدخل . ففى سنة ٨٤١ استخدم أحد المتنازعين واسمه رادلكيس Radelchis ، جنوداً مأجورة من مسلمى صقلية وشمال افريقية ، بينما استعان منافسه سكينولف Sikenolf بمغامرين من الأندلس . واستطاع هؤلاء الجند الذين كانوا فى خدمة رادلكيس أن يستولوا على بارى ، وأن يؤسسوا فيها وفيما يجاورها من الجهات إمارة ، ظلت قائمة نحو ثلاثين سنة(٦) ، وتولى

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ٦ ص ٢٤٠ . Lewis p. 134.
(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٧ ، ص ٣ .
(٣) Lewis p. 134.
(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ١٦١ . Lewis p. 135.
(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ١٦٢ .
(٦) Lewis p. 136.

حكمها أمير مستقل ، طلب إلى الخليفة ببغداد أن يعترف به أميراً على هذه الجهات(١) .

وما حدث من إنزال الهزيمة بالبندقية ، وإنشاء إمارة إسلامية فى بارى ، والاستيلاء على أوترنت ، هيأ للأساطيل العربية أن تنفذ إلى البحر الأدرياتى . ففى سنة ٨٤١ أنزلت السفن العربية الخسائر والتخريب بأنكونا وأوزيرو ، الواقعتين بجزيرة خيرسو Cherso ، ووقع فى أسرها جماعة من تجار البنادقة أثناء عودتهم من صقلية . وفى السنة التالية هاجموا من جديد شمال البحر الأدرياتى ، وأنزلوا الهزيمة الساحقة بأسطول بندقى فى خليج كوارنيرو Quarnero(٢) .

ثم مضت سنوات ، لم يهاجم فيها المسلمون من يجاورهم من المسيحيين على البحر التيرانى أو البحر الأدرياتى ، ولعل ذلك راجع إلى ما وقع من النضال البحرى بين مسلمى كريت ، والأغالبة . غير أن المسلمين لم يلبثوا أن هاجموا فى سنة ٨٥٨ كيفالو (Cefalu) برا وبحرا ، فسقطت فى يد أمير بالرمو ، وحاق بالأسطول البيزنطى الهزيمة تجاه ساحل أبوليا . وهذه الخسائر حركت الدولة البيزنطية لأن تقوم بهجوم جديد بالبحر فأرسلت إلى سيراكوز أسطولا ضخما مؤلفا من ٣٠٠ سفينة ، اجتازت مضيق مسينا لتسترد كيفالو . فالتقى هذا الأسطول البيزنطى بالأسطول الإسلامى تجاه الساحل الشمالى . وجرت معركة حاسمة ، أحرز فيها المسلمون انتصاراً باهرا ، وخسرت بيزنطة مائة سفينة ، وتعتبر هذه أكبر هزيمة لحقت ببيزنطة بعد هزيمة سنة ٨٤٠ . وترتب على هذه الهزيمة ، أن انهارت مكانة الدولة البيزنطية فى صقلية فلم يبق بيدها إلا ما يجاور سيراكوز من الساحل الشرقى ، وجانب صغير من الجزيرة ، بينما أضحى فى يد العرب نحو ثلثى الجزيرة(٣) .

(١) Ibid p. 136. Bury p. 313.
(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٦٢ . Lewis p. 135.
(٣) = Lewis pp. 136 — 137 Bury pp. 307 — 308.

العلاقة مع الروس

ينتمى الروس إلى الأسكنديناويين النازلين فى شرق السويد ، اتخذوا طريقهم إلى بحيرة ايلمن Ilmen ، بعد أن اجتازوا البحر البلطى وخليج فنلندا ، وأنشأوا مدينة نوفجورود ، عند الموضع الذى خرج منه نهر فولخوف Volkhov من بحيرة ايلمن . اشتهروا بنشاطهم التجارى ، فاحتكروا ما يجرى من التجارة بين شمال شرقى أوربا ، وبين العواصم الكبيرة فى الجنوب ، أمثال القسطنطينية وبغداد وإيتل . ومن أهم السلع التجارية التى يعملون فيها ، الفراء والأسلحة والرقيق . وتعرض الصقالبة لغاراتهم ، إذ درج الروس على استباحة منازلهم وأسر من يقع فى أيديهم من الرجال وبيعهم فى أسواق الرقيق . ولم يمارس الروس الفلاحة ، بل كانوا مجتمعاً من تجار مقاتلين ويبلغ عددهم نحو ١٠٠ ألف ، عاشوا على النهب والتجارة ، وللروس زعيم يتقاضى العشور من التجار[1] .

وجرى الروس على أن يحملوا تجارتهم إلى الجنوب عل نهرى الدنبير والفولجا . واعترض طريقهم أثناء اجتيازهم نهر الدنبير شلالات عديدة ، فإذا وصلوا إلى البحر الأسود ، اتخذوا طريقهم إلى خرسون ، فيؤدون إلى التجار اليونانيين ما يحتاجونه من السلع ، ويبيعون ما تبقى لديهم إلى التجار اليهود من الخزر ، الذين يتولون نقل هذه المتاجر إلى إيتل (على نهر الفولجا) وبغداد . على أن الروس حملوا متاجرهم أيضاً على نهر الفولجا إلى إيتل ، واجتازوا بحر قزوين ، ومارسوا تجارتهم مع المسلمين بموانى بحر

= استولى الأغالبة على مالطة سنة ٨٧٠ ، فسيطروا بذلك على المضايق التى تفصل صقلية عن أفريقية . وفى سنة ٨٧٨ ، وجه المسلمون هجوماً كبيراً إلى سيراكوز ، مقر الحكم البيزنطى بصقلية ، فاستولوا عليها ، ولم يبق فى يد بيزنطة إلا مواضع قليلة .

انظر : (Lewis p. 137.

(١) Bury pp. 412 -- 413.

قزوين الخاضعة للدولة الإسلامية ، وأحياناً اتخذوا طريق القوافل من جرجان إلى بغداد[1] .

ولتجارة الروس أهمية بالغة عند كل من الإمبراطور البيزنطى وخاقان الخزر ، إذ تقاضى كل منهما العشر على جميع ما يجتاز بلاده من متاجرهم[2] .

والمعروف أن أملاك البيزنطيين تلاصق أملاك الخزر فى شبه جزيرة القرم . وسبق أن أشرنا إلى امتداد سلطان الخزر ونفوذهم على القوط النازلين بشبه جزيرة القرم ، وعلى مدينتى بوسفور وكرش ، وحرصوا على أن يبسطوا سلطانهم على جميع شبه جزيرة القرم ، وأن يستولوا على خرسون . غير أن سقوط خرسون ، التى تعتبر مركزاً وسوقا تجارية هامة فى الشمال الشرقى للدولة البيزنطية ، يعتبر ضربة خطيرة موجهة إلى الإمبراطورية . وكان للإمبراطورية بشبه جزيرة القرم ، معاقل أخرى اشتهرت باسم أقاليم Klimata[3] وجرى البيزنطيون على أن يستميلوا إلى جانبهم اللان ليوقفوا زحف الخزر ، فإذا فكر الخزر فى الهجوم على أملاك الدولة البيزنطية لجأ اللان إلى تخريب أراضى الخزر الخصيبة . على أنه لم يجر من الحوادث ، حتى زمن ثيوفيل ، ما يدعو إلى الاهتمام[4] . غير أنه حدث فى سنة ٨٣٣ ، أن استقبل الإمبراطور ثيوفيل سفارة من قبل خاقان (ملك) الخزر ، ورئيس وزرائه ، تطلب إليه تشييد حصن قرب مصب نهر الدون ، فتقرر إنشاء حصن ساركل (البيت الأبيض)[5] . غير أن مبعوث الإمبراطور ، واسمه بتروناس كاماثيروس Petronas Kamateros أشار على الإمبراطور ،

(١) Bury p. 414.

(٢) Bury p. 414.

(٣) Bury p. 415.

(٤) Ibid p. 416.

(٥) Ibid. p. 416.

أن يجعل من خرسون ثغرا ، وأن يعين عليها استراتجوس ، فوافقه الإمبراطور على ذلك ، وصار بتروناس أول قائد لثغر خرسون[١] .

ومن الواضح أن الدافع الذى حفز الخزر لإقامة حصن ساركل ، هو درء ما يتعرضون له من خطر الروس ، ولعله نفس الدافع هو الذى جعل الإمبراطور يرفع خرسون إلى ثغر[٢] . وذلك لما قام به الروس من غارات على أملاك الخزر بالبحر الأسود ، وأملاك أهل خرسون[٣] .

وما كاد يمضى على إنشاء ثغر خرسون سنوات قليلة ، حتى قدم إلى بلاط ثيوفيل فى سنة ٨٣٨ ، ٨٣٩ سفراء روسيون . وعلى الرغم من أنه لم يرد فى المصادر ما يشير إلى مهمتهم ، فلعلهم قدموا ليعتذروا عما قاموا به من الغارات على أملاك الإمبراطورية أو لعلهم جاءوا يلتمسون منه تأمين طريقهم أثناء عودتهم إلى بلادهم . فالمعروف أن الإمبراطور البيزنطى أرسل وقتذاك سفارة إلى لويس التقى ، فجعل المندوبين الروس فى رعاية مبعوثى الإمبراطور البيزنطى ، وطلب إلى لويس ، أن ييسر لهم طريق العودة إلى بلادهم . بأن يجتازوا ألمانيا أثناء مسيرهم[٤] .

ثيوفيل وسياسة اللاأيقونية

جرت المرحلة الأخيرة من اللاأيقونية ، زمن ثيوفيل . فى سنة ٨٣٧ ، جعل زعيم اللاأيقونيين ، حنا النحوى ، بطريركا ، فنكل بعباد الصور المقدسة ، وسار على نهج ما حدث زمن الإمبراطور قنسطنطين الخامس ، بأن ركز هجومه على الأديرة[٥] .

---

(١) Ibid. p. 416.

(٢) Bury p. 417.

(٣) Bury p. 418.

(٤) Bury p. 418.

(٥) Ostrogorowski : p. 186.

حاول ثيوفيل أن يبطل الدعوة إلى عبادة الصور ، بأن لجأ إلى أن ينزل العقاب ، بكل من بشّر بها من الرهبان ، ولمنع انتشار الصور الدينية بالقسطنطينية ، أمر بتحريم[١] تصويرها ، ومن الأمثلة على شدة وقسوة ما أنزله بالرهبان من عذاب وتنكيل ، ماحل بالأخوين تيودور وتيوفانس ، الفلسطينيين ، من اضطهاد وتنكيل[٢] إذ تعرض هذان الأخوان زمن ليو الخامس إلى الاضطهاد ، بسبب حماسهما لعبادة الصور ، فعمل تيودور على رواجها ونشرها بما أصدره من الكتب ، بينما أسهم الثانى فى إذاعتها بألحانه وترانيمه . وفى زمن ثيوفيل ، جرى عليهما الجلد والحبس ، ثم تقرر نفيهما ، فى جزيرة Aphusia . وظن الإمبراطور، أن ما تعرض له الأخوان من العذاب والتهديد والنفى الطويل ، قد يفتنهما عن مذهبهما ، لا سيما أن معارضتهما ومقاومتهما تعتبر ، فيما بدا له ، العقبة الرئيسية فى توحيد الكنيسة . ولذا أمر الإمبراطور باستدعائهما إلى القسطنطينية ، وحاول أن يردهما عن مذهبهما ، غير أنهما ازدادا إصراراً وتمسكاً به . فأمر بأن تكوى جباههما بأشعار لا أيقونية ، وإلقائهما بالسجن ، حيث مات تيودور[٣] . أما تيوفانس الذى اشتهر بأشعاره فى مدح الأيقونات المقدسة ، فإنه عاش وأصبح أسقف نيقية بعد العودة إلى عبادة الصور المقدسة[٤] .

وعلى الرغم من أن الإمبراطور ثيوفيل ، والبطريرك حنا النحوى ، لم يدخرا وسعا فى سبيل إحياء الحركة اللاأيقونية ، فإن سياستهما لم تلق إلا الفشل الذريع . بل إن آسيا الصغرى ذاتها ، التى تعتبر موطن اللاأيقونية ، صارت تنكر السياسية اللاأيقونية . فلم تتجاوز هذه السياسة اللاأيقونية حدود العاصمة ، ولم يلق نفوذها وسلطانها من التأييد إلا من قبل الإمبراطور وأتباعه ، وهم قلة

---

(١) Bury p. 138.

(٢) Ibid. p. 138.

(٣) Ibid p. 138.

(٤) Ostrogorowski · p. 186.

قليلة ، فلما مات الإمبراطور (سنة ٨٤٢) ، لم تعش بعده اللاأيقونية ، وزال ما اقترنت به من أزمة روحية ، ولم تلبث بيزنطة أن نهضت من هذه الأزمة ، وبدأ عصر جديد فى التاريخ البيزنطى (١) .

نهاية الأسرة العمورية

ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧) :

حينما توفى ثيوفيل ، لم يكن ابنه ووريثه فى الحكم ميخائيل الثالث ، قد تجاوز السادسة من عمره ، فتولت أمه تيودورا الوصاية عليه ، وتألف مجلس لمساعدتها من أخويها بارداس وبتروناس ، وخالها سرجيوس نكبتياتس (Nicetiates) ومن أقرب الناس إليها ، صديقها تيوكتستوس Theoktistos (٢) .
وعلى الرغم من أن هؤلاء الحكام الجدد ، يرجعون إلى أصل شرقى ، لأن أسرة تيودورا تنتمى إلى أصل أرمنى ، من بافلاجونيا ، فإنهم قرروا وجوب إعادة عبادة الصور المقدسة . فما كاد يتم عزل حنا النحوى عن البطريركية ، وتنصيب مثوديوس Methodius بطريركا ، حتى انعقد المجمع الدينى سنة ٨٤٣ ، تقرر فيه إعادة عبادة الصور (٣) ، وجرى الاحتفال بذلك ، بإقامة قداس بكنيسة القديسة صوفية فى أول أحد من الصيام الكبير (١١ مارس سنة ٨٤٣) ، فهرع إلى القسطنطينية الرهبان من الأديرة المجاورة ، بل إن النساك جاءوا من قلاياتهم بدير آتوس Athos ، وتقرر إرجاع الأيقونات إلى المواضع التى انتزعت منها بالكنائس فى العاصمة ، وفى صبيحة ذلك اليوم قدم إلى كنيسة القديسة صوفية ، الإمبراطورة ، والإمبراطور الطفل ، والبطريرك ورجال الدين ، والوزراء وأعضاء السناتو ، يحملون فى أيديهم الصلبان والأيقونات والشموع (٤) . وتقرر

---

(١) Ostrogorowski : p. 186.

(٢) ڤازيلييف : العرب والروم ص ١٦٩ .
Bury p. 154.

(٣) Ostrogorowski : p. 195. Bury pp. 148 — 149.

(٤) Bury p. 150.

منذ ذلك الحين أن يجرى الاحتفال فى نفس الموعد بهذه الذكرى الجليلة ، التى تعتبر « عيد الأرثوذكسية » فى الكنيسة اليونانية (١) . والواقع أن القضاء على اللاأيقونية . يعتبر خاتمة لعصر بيزنطى حفل بالفتن الدينية . وكان لهزيمة اللاأيقونية أيضاً أهمية كبيرة فى علاقة الكنيسة بالدولة ، إذ ترتب على هذه الهزيمة ، فشل المحاولة التى جرت لإخضاع الكنيسة لسلطة الدولة . وبفضل الانتصار على اللاأيقونية ازدادت مكانة الكنيسة وارتفع شأنها . ومع ذلك فإن الكنيسة لم تحرز من الحرية ، فى وقت من الأوقات، ما يصبو إليه رجالها ، وعلى رأسهم تيودور رئيس ديرستوديون . إذ ظل التعاون بين الكنيسة والدولة من خصائص السياسة البيزنطية ، واتخذ هذا التعاون عادة صورة تبعية الكنيسة لسلطة الدولة (٢) .

لم يلبث ثيوكتستوس Theoktistos أن قبض على مقاليد الأمور ، وتولى توجيه سياسة الإمبراطورية ، بعد أن أبعد منافسه بارداس ، فأصبح بذلك المستشار الوحيد للامبراطورة (٣) . وما اشتهر به ثيوكتستوس من الثقافة والتعليم، جعله يوجه اهتمامه إلى نشر التعليم فى الدولة البيزنطية ، فمهد بذلك لإحياء الثقافة الجديدة . يضاف إلى ذلك ما توافر للدولة من فائض كبير من الذهب بفضل سياسته المالية النشيطة . ولم يحدث فى زمن ثيوكتستوس ، ما جرى زمن إيرين ، من الالتجاء إلى العنف ، إذ أن ما حدث من تغيير فى السياسة الكنسية ، إنما تم دون أن يحدث شىء من الصدام ، وذلك لأن الحركة اللاأيقونية قد تداعت ، ولم يكن فى بيزنطة حزب قوى يعارض السياسة الدينية الجديدة . ومع ذلك فإن تيودورا ، وثيوكتستوس ، ويؤيدهما البطريرك ميتوديوس ، اتخذا سبيل الحيطة والحذر ، عند قيامهما بإزالة الحركة اللاأيقونية ، بعد أن أخذت فى النهوض زمن ثيوفيل ، وأظهرا قدراً كبيراً من الاعتدال والتسامح نحو أولئك

---

(١) Ibid p. 151.

(٢) Ostrogorowski : p. 195.

(٣) Bury p. 155.

الذين شايعوا اللاأيقونية . غير أن سياسة الاعتدال لقيت مقاومة شديدة من المتحمسين لعبادة الأيقونات ، ومن الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية ، التى انشقت على نفسها بسبب القتال مع اللاأيقونيين[١] .

واشتد رهبان ستوديون فى مهاجمة البطريرك مثوديوس ، وبلغ من شدة النضال ، أن تقرر قطع هؤلاء الرهبان من الكنيسة ، ومات البطريرك مثوديوس فى يونية سنة ٨٤٧ . وخلفه على البطريركية إجناتيوس ، الذى لم يكن سوى ابن الإمبراطور ميخائيل الأول رانجابى ، والذى سلك طريق الرهبنة ، وتقرر اختياره بطريركا[٢] . أمضى إجناتيوس حياته فى التقوى والصلاح ، والتعلق بالديرية ، ويختلف عن مثوديوس فى أنه لم يكن من العلمانيين . وما نشأ عليه فى الدير من الأفكار الصلبة المتزمتة ، أوقعته ، حينما تولى البطريركية ، فى مشاكل عديدة ، فلم يستطع التوفيق بين الأحزاب الكنسية المتنازعة[٣] بل تعرض لمناوأة كبار رجال الكنيسة من أمثال فوتيوس[٤] . ، ولم يلبث أن انزلق فى نضال شديد العنف[٥] .

السياسة الخارجية :

ما كادت تعود عبادة الصور ، حتى جرى استئناف الحرب ضد المسلمين . إذ أن الوزير ثيوكتستوس قاد حملة بحرية ضخمة لمهاجمة جزيرة كريت فى مارس سنة ٨٤٣ ، وبلغت هذه الحملة من القوة والاستعداد ، ما لم تبلغه سائر الحملات التى وجهها من قبل ميخائيل الثانى ، ولم يلق ثيوكتستوس صعوبة فى الوصول إلى كريت ، والنزول بعساكره بها ، غير أن المسلمين بكريت استطاعوا أن يثيروا مخاوف القائد على مركزه ومكانته عند تيودورا ،

(١) Ostrogorowski : p. 196.

(٢) Ostrogorowski : p. 196.

(٣) Bury p. 184.

(٤) Ibid p. 187.

(٥) Ostrogorowski : p. 196.

فشاع الخبر بأن الإمبراطورة جعلت أحد منافسيه قسيما فى الحكم ، فلم يسع القائد إلا أن يعجل بالعودة إلى القسطنطينية ، وأن يترك جانباً كبيرا من جيشه بكريت ، فتعرض للهزيمة الساحقة التى أنزلها به المسلمون[١] .

وعلى الرغم من أن أمراء كريت كانوا مستقلين فعلا ، فإنهم اعترفوا بسيادة الخليفة فى مؤونتها على ما تمدها به الإسكندرية ، وإنها أضحت كأنها تابعة لإقليم مصر . والراجح أن تيودورا ، حينما أدركت هذه الصلة أرسلت إلى مصر سنة ٨٥٣ حملة فاقت فى الضخامة كل ما كان معروفا وقتذاك من القوى الحربية . وتألفت هذه الحملة البحرية من ثلاثة أساطيل تشتمل على ثلثمائة سفينة . منها أسطولان لم يعرفا الجهة التى يقصدانها ، والراجح أنه جرى تكليفهما بأعمال حربية فى بحر الأرخبيل ، أو على ساحل الشام[٢] . أما الأسطول الثالث الذى تألف من ٨٥ سفينة ، وخمسة آلاف رجل وتولى قيادته ، على حد ما ورد فى المصادر العربية ، ابن قطونا[٣] ، الذى لم يكن عند فازيلييف سوى نكتياتس[٤] ، فقدم إلى دمياط[٥] ، فى ٢٢ مايو سنة ٨٥٣ . ولما وصل الأسطول البيزنطى ، ولم يكن بالمدينة حامية عسكرية ، إذ أن عنبسة بن إسحاق آخر الولاة من العرب على مصر ، استدعى الجند للاشتراك فى الاحتفال بعيد الأضحى بالفسطاط[٦] ، وبادر أهل المدينة بمغادرتها ، بينما أنزل البيزنطيون بها النهب

(١) Bury p. 292.
فازيلييف . العرب والروم ص ١٧٢ . أسد رستم . الروم ج ١ ٣٣٤ .

(٢) Bury p. 292.
فازيلييف . العرب والروم ص ١٨٩ .

(٣) Bury p. 292.

(٤) فازيلييف . العرب والروم ص ١٨٩ حاشية ١ .

(٥) كانت دمياط وقتذاك أقرب إلى البحر من المدينة التى أنشأها فى القرن الثالث عشر السلطان بيبرس ، إذ أن ما يفصلها عن البحر لم يتجاوز سبعة أميال . (Bury p. 292)

(٦) أسد رستم . الروم ج ١ ص ٣٣٥ . Bury p. 292.
فازيلييف . العرب والروم . ص ١٨٩ .

والحريق ، وأسروا من سكانها نحو ٦٠٠ من المسلمين والقبط ، وعثروا على مقادير كبيرة من الذخائر ، جرى إعدادها لإرسالها إلى والى كريت ، وبعد أن استمر البيزنطيون فى مهاجمة دمياط يومين ، أقلعوا بسفنهم إلى جزيرة تنيس ، غير أنهم لم يلبثوا أن تحولوا بعد أن أدركوا ما تتعرض له سفنهم من الخطر بسبب ما يكتنف الجزيرة من كثبان رملية ، إلى حصن أشتوم ، المشهور بمناعة أسواره وأبوابه المصنوعة من الحديد . وبعد أن دمر البيزنطيون ما عثروا عليه من أدوات الحرب ، عادوا إلى مواطنهم(١) .

وفى السنوات الأخيرة من حكم ميخائيل الثالث ، واصل المسلمون بكريت ، غاراتهم على جزر بحر الأرخبيل ، فتعرضت جزيرة لسبوس للنهب والتخريب ، وجرى نقل رهبان دير اثوس من مواضعهم . وقام الإمبراطور ميخائيل الثالث وبارداس بمحاولة أخيرة لاسترداد جزيرة كريت ، بأن أعدا حملة بحرية كبيرة ، أقلعت من شواطئ ثغر تراقسيون ، حيث اجتمعت سائر الأساطيل ، والعساكر القادمة من ثغور آسيا الصغرى للاشتراك فى الحملة ضد كريت ، على أن هذه الحملة قضى عليها أعداء الإمبراطور ، وظلت كريت فى أيدى العرب نحو ثلاثين سنة أخرى(٢) .

وعهدت تيودورا إلى ثيوكتستوس بقتال المسلمين فى الشرق ، غير أنه حلت به الهزيمة أيضاً برا عند ماوروبوتامون Mauropotamon ، عند مدخل البوسفور(٣) ولما عاد ثيوكتستوس إلى العاصمة ، أذاع بأن بارداس هو

---

(١) فازيلييف . العرب والروم ص ١٩١ . Bury pp. 292 — 293.

أدرك البيزنطيون أهمية البحرية فيما قاموا به من أعمال . أما المصريون فازداد اهتمامهم بالبحرية . فأولوا الأسطول من الأهميه ما للجيش ، واشتد حماس الناس للجهاد فى سبيل الله ، وأقبلوا على الالتحاق بخدمة الأسطول . فصار لمصر أسطول قوى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى زمن الفاطميين . انظر فازيلييف . العرب والروم ص ١٩٢ .

(Bury p. 293)

(٢) Bury p. 294.

(٣) فازيليف . العرب والروم ص ١٧٢ . Ostrogorowski : p. 196.

المسئول عما حل بالجيش البيزنطى من الهزائم ، وأن ما ارتكبه من الأخطاء أدت إلى هروب البيزنطيين ، ولقى التأييد من تيودورا ، فاضطر بارداس إلى أن يغادر العاصمة(١) .

على أن ما حدث زمن الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧) الذى تولى الخلافة بعد المعتصم من الفتن الداخلية فى أنحاء الخلافة العباسية ، كالثورة التى شبت فى دمشق بتأييد الأمويين ، وما وقع فى بلاد العرب من تمرد القبائل ، وثورة الكرد فى أعالى العراق ، وفتن الخوارج ، وما حدث من ازدياد السخط والكراهية للخليفة فى بغداد بسبب سوء الإدارة وفسادها ، وبسبب الفتنة الدينية حول القول بخلق القرآن ، وقدمه ،وحول رؤية الله فى الحياة الآخرة ، كل ذلك جعل الخليفة يجنح إلى عقد هدنة مع البيزنطيين ، ولم تكن أحوال بيزنطة وقتذاك تدعو إلى المضى فى قتال المسلمين بعد أن أصابتها الكوارث والهزائم الخطيرة فى صقلية سنة ٨٤٤(٢) .

ولذا تقرر إجراء تبادل الأسرى بين الدولتين (٨٤٥ — ٨٤٦) ، على نهر اللامس بآسيا الصغرى الذى يعتبر حدا فاصلا بين الممتلكات الإسلامية والبيزنطية(٣) . واستمر الفداء أربعة أيام ، جرى فى أثنائها افتداء نحو ٤ آلاف من الأسرى المسلمين ، منهم نساء وأطفال وذميون من رعايا الخليفة(٤) .

ويرتبط بالقتال بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق ، ما جرى من اضطهاد البيالصة ، فالمعروف أن مذهب البيالصة ذاع وانتشر فى سائر آسيا الصغرى من فريجيا وليكاءونيا Lycaonia إلى أرمينيا ، وأن أرباب هذا المذهب عاشوا فى هدوء وسلام زمن الأباطرة اللاأيقونيين فى القرن الثامن

---

(١) فازيلييف . العرب والروم ص ١٧٤ .

(٢) فازيلييف . العرب والروم ص ١٧٥ . Bury pp. 274 — 275.

(٣) Ibid p. 276.

(٤) Ibid p. 276.

الميلادى[١]، ولما اشتهروا به من تحريم عبادة الصور والرسوم والصلبان ، واعتبار الذين يقومون بذلك ، عباد أصنام ، صار لهم سلطان كبير على الحركة اللاأيقونية . غير أنه أصابهم ما أصاب اللاأيقونيين من الاضطهاد زمن ثيوفيل وابنة ميخائيل الثالث ؛ وترتب على هذا الاضطهاد أن لجأ إلى حماية أمير ملطية العربى عمر بن عبد الله ؛ أحد القادة البيزنطيين (بثغر الناطليق) Karbeas بمن معه من الجند الذين يبلغون نحو ٥ آلاف[٢] رجل . والراجح أنه كان للبيالصة مناطق فى شمال ملطية وغربها ، وأشهر مدنهم تفريق ؛ التى اتخذها البيالصة حاضرة لهم[٣] ، وأقام بها زعيمهم قربياص[٤] .

وإذ أدرك البيالصة ؛ أن تيودورا سوف تمضى فى سياسة زوجها ؛ التى تقضى باضطهاد المذاهب المخالفة للأرثوذكسية ، وأنها هددت البيالصة بالإبادة إذا لم يرجعوا إلى الدين القويم . وأعقبت ذلك بإرسال حملة ضخمة لتنفيذ رغبتها ، فجرت المذابح وهلك عدد كبير من البيالصة قتلا أو حرقا ، ومن نجا منهم هرب إلى الحدود ، واستولت الدولة على ممتلكاتهم[٥] .

وما كادت تيودورا تعزل من الحكم سنة ٨٥٦ حتى نشط البيالصة فى التعاون مع المسلمين فى قتال البيزنطيين[٦] . إذ أن أخاها بتروناس ، الذى شغل وقتذاك وظيفة قائد ثغر تراقيسيون تولى قيادة الجيش ، وفى صيف سنة ٨٥٦ ؛ قام بغارات على سموساط وآمد ؛ ثم تقدم لمهاجمة تفريق ، مقر قربياص ؛ الذى انحاز إلى أمير ملطية ووالى طرطوس فى الإغارة على أملاك البيزنطيين[٧] . وما حدث فى هذه السنة (٨٥٦) من غارات أمير

---

(١) Ibid p. 276.

(٢) فازيلييف . العرب والروم ص ٢٠٣ . Bury p. 277.

(٣) ڤازيلييف : العرب والروم ص ٢٠٣ .

(٤) قدامة بن جعفر . كتاب الخراج ص ٢٥٣ — ٢٥٤ . Bury p. 278.

(٥) Bury p. 278.

(٦) Ostrogorowski : p. 197.

(٧) ڤازيلييف : العرب والروم ص ٥٠٢ . Bury p. 279.

ملطية وأمير طرسوس وانحياز زعيم البيالصة لها ، إنما يقابله ما قام به الإمبراطور ميخائيل الثالث ، الذى بلغ وقتذاك ، سن الرشد ، وبصحبته خالاه بارداس وبتروناس ، من الاستعداد لقتال المسلمين . فتوجهت الحملة الأولى لمهاجمة سموساط ، وتولى قيادتها بارداس ، غير أن المسلمين دهموا البيزنطيين ولم ينجح الإمبراطور ميخائيل إلا بصعوبة بالغة[١] .

ثم جرى تبادل الأسرى فى شتاء هذا العام (٨٥٩) ، والراجح أن الإمبراطور البيزنطى ، هو الذى اقترح ذلك ، بعد أن حاقت به الكوارث فى الشرق ، وفى صقلية[٢] . على أنه ما كادت أسابيع قليلة تمضى على هذا الفداء ، حتى خرج الإمبراطور ميخائيل لمهاجمة أملاك المسلمين ، غير أن ما ورد من أخبار مهاجمة الروس للقسطنطينية[٣] (فى يونيه) جعله يعود لمعالجة الموقف ، فلما زال الخطر ، ارتحل الإمبراطور من جديد إلى الشرق ، لقتال عمر أمير ملطية ، الذى استعد للأمر وخرج للحرب . اتخذ الإمبراطور الطريق الإمبراطورى المعهود الذى يؤدى إلى أعالى الفرات ، عن طريق أنقرة وسيواس ، وأقام معسكره فى سهل دازيمان (توقات) ، حيث أنزل الأفشين بأبيه من قبل هزيمة ساحقة ؛ وصار يرقب قدوم الأمير من سيواس ، من الطريق المعهود ، غير أن عمر اتخذ طريقاً مختلفا ، وأخذ البيزنطيين على غرة ، وذلك بأن قاد جيوشه صوب الشمال عبر التلال (آكداغ) ، ولما هبط إلى سهل دازيمون ، اتخذ له ولجيوشه موضعاً ملائما فى خوناريون Chonarion ، قرب المعسكر البيزنطى ، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة ، انتهت بالهزيمة الساحقة التى حلت بالبيزنطيين ، وفر الإمبراطور ميخائيل إلى قمة التلال ، فحصره الجيش الإسلامى فترة من الزمن ، غير أن المسلمين لم يلبثوا أن انسحبوا بسبب قلة المؤونة ونفاذ الماء[٤] .

---

(١) Bury p. 279.

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٠٦ .

(٣) فازيلييف : العرب والروم ص ٢١٢ . Bury p. 381.

(٤) Bury p. 282.

والراجح أن عمر أمير ملطية تقدم بعد الانتصارات التى أحرزها ، حتى بلغ سينوب ثم عاد بعد ثلاثة سنوات (٨٦٣) ، فخرب ثغر الأرمنياك ، واستمر فى سيره حتى ساحل البحر الأسود ، فاستولى على سمسون Amisus ، والمعروف أن سمسون تعتبر وقتذاك من أكبر موانى قبادوقيا ، على ساحل البحر الأسود ، وترتبط بقبادوقيا بطريق ممهد سهل(١) .

ولما علم الإمبراطور ميخائيل بما أحرزه عمر أمير ملطية من الانتصارات ، أعد جيشاً كبيرا . جعل على رأسه بتروناس ، الذى لا زال قائد ثغر تراقيسيون ، وجعل أيضاً تحت تصرفه الجيوش البيزنطية المرابطة فى تراقيا ومقدونيا(٢) . اتخذ عمر طريقه الممتد على شاطئ نهر هاليس إلى طوانه والبدندون . وجعل بتروناس خطته على أساس أن يعترض طريقه ، ويوقف تقدمه ، وأن يطوق عدوه فى الموضع بين بحيرة تطا Tatta ونهر هاليس . فاجتمع إلى الشمال منه جيوش ثغور الأرمنياق ، والبقلار ، وبافلاجونيا ، وكلونيا ، بينما احتشد فى الجنوب والجنوب الشرقى جيوش ثغور الناطليق ، والأبسيق وقبادوقيا ، يعززها عساكر سلوقية وخرسيانون . بينما اتخذ بتروناس ومن معه من عساكر ثغور تراقيسيون وتراقيا ومقدونيا ، مكانه إلى الغرب من طريق الجيش الإسلامى ، ولم يكن يفصل بينه وبين معسكر المسلمين إلا تل ، استطاع بتروناس أن يحتل قمته . وعلى الرغم من أنه جرى تطويق قوات عمر فى هذا الموضع (بوزون Posson)، غير أنه شن هجوما خاطفا ، كان يرمى من ورائه إلى أن يشق له طريقا وسط الجيوش البيزنطية ، التى قدرها المؤرخون المسلمون بنحو ٥٠ ألفا ، ليسير نحو الشمال أو الجنوب ، غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، فلقى مصرعه وهو يقاتل عدوه الذى يفوقه فى العدد(٣) . وآخر ما حدث من الحروب فى الشرق زمن ميخائيل الثالث ،

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٢١٩ .
(٢) Bury p. 283.
(٣) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٢٢ — ٢٢٣ . Bury pp. 283 — 284.

كان فى سنة ٨٦٤ ، حيث لقى على بن يحيى مصرعه فى وقعة مارتيربوليس Martyropolis (ميافارقين) فى أعلى الفرات(١) .

ولم تتعرض الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى آسيا الصغرى لتغيير كبير . غير أن المسلمين أضافوا إلى أملاكهم حصونا عديدة ، وما هو أهم من ذلك أن رسخت أقدامهم فى قبادوقيا شرق نهر هاليس(٢) .

وفى أواخر عهد ميخائيل وقعت فتن داخلية فى بغداد وبلاد الخلافة العباسية بسبب تسلط الترك وإرغامهم الخليفة المستعين على التخلى عن الخلافة سنة ٨٦٦ . فولى الخلافة من بعده المعتز ، ومنذئذ دخلت الدولة العباسية فى دور التداعى والتفكك ، على حين أن الدولة البيزنطية استهلت عصرا جديداً من القوة والتوسع(٣) .

أما سياسة ميخائيل الثالث فى البحر المتوسط(٤) ، فالمعروف أن المسلمين بجزيرة كريت ، أخذوا يذرعون بحر الأرخبيل كيفما شاءوا ، وحصلوا على ما كانوا يبتغون من الغنائم ، وتعرضت جزيرة لسبوس للتخريب والنهب ، وتقرر أن يعد ميخائيل الثالث وبارداس حملة ضخمة لمهاجمة كريت ، وأن تقلع هذه الحملة من شواطئ ثغر تراقيسيون التى تجتمع بها سائر أساطيل الأقاليم والقوات العسكرية القادمة من الثغور الآسيوية(٥) ، وذلك سنة ٨٦٦ ، غير أن ما حدث من نجاح المؤامرات التى دبرها باسيل (الذى صار فيما بعد الإمبراطور باسيل المقدونى) ، لاغتيال بارداس ، أوقف سير الحملة إلى كريت(٦) . أما فى صقيلة ، فإن محاولة الأسرة العمورية لاسترداد ما استولى

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٢٤ . Bury p. 284.
(٢) Ibid p. 285.
(٣) Ibid p. 286.
(٤) انظر ما سبق ص ٢٦٠ .
(٥) Bury p. 294.
(٦) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٢٧ — ٢٢٨ . Ibid pp. 170 — 172.

عليه المسلمون من المواقع باءت بالفشل ، بل إن أقدام المسلمين رسخت فى الجنوب الشرقى للجزيرة باستيلائهم على نوتو Noto وسيكلى Sceicli ، وكذا فى الشمال الشرقى ، باستيلائهم على مرتفعات تورومنيوم Tauromenium ، غير أن سراكوز عاصمة الجزيرة لم تسقط فى أيدى المسلمين إلا زمن المقدونيين[١] .

وما وقع من النزاع بين الأمراء اللومبارديين فى جنوب إيطاليا ، وما تعرضت له روما من غارات المسلمين ، وما حدث من المصادمات بين نابولى والأمراء اللومبارديين ، كل ذلك دعا أباطرة الإمبراطورية الغربية أمثال لويس التقى ، ولوثير إلى التدخل فى شئون إيطاليا[٢] . وحرص لويس الثانى على أن يوطد سلطانه فى إيطاليا ، ويعمل على استرداد ما استولى عليه المسلمون من البلاد . والمعروف أن المسلمين استولوا على بارى وأقاموا لهم بها إمارة ، وصاروا يسيطرون على أبوليا ، حيث خضع لسلطانهم ٢٤ حصنا ، ومن هذه الحصون صاروا يشنون الغارات على الجهات المجاورة . واشتهرت بارى باستحكاماتها المنيعة[٣] . ولما لم يكن لديه أسطول قوى ، لم يستطع لويس أن ينتزع من المسلمين معاقلهم الساحلية ، وتعرض لهزيمة ساحقة حينما حاول الاستيلاء على بارى ، على الرغم من طول مدة حصره لها ، وذلك سنة ٨٦٧[٤] . وترتب على ذلك أن استعان لويس الثانى بكل من البندقية والدولة البيزنطية سنة ٨٦٧[٥] ، فأحرزت القوات المتحالفة نصراً بحريا فى تارنت[٦] Tarentum .

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٣٠ — ٢٣١ . Bury p. 308.
(٢) Ibid p. 315.
(٣) Bury p. 315.
(٤) Lewis p. 137. Bury p. 315.
فازيلييف : العرب والروم ص ٢٣١ .
(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٣١ . Lewis p. 137.
(٦) Lewis p. 137.

الروس :

على أن الدولة البيزنطية واجهت مشاكل خطيرة من قبل الصقالبة . وهذه المشاكل أحاطت بالإمبراطورية من جهات عديدة . من روسيا ومورافيا ومن إقليم صقالبة الجنوب . فالمعروف أن الروس ظهروا سنة ٨٦٠ لأول مرة أمام القسطنطينية ، وأنهم أحاطوا ، بعد نزولهم إلى البر ، بالمدينة ، ونهبوا الجهات المجاورة ولم يكن الإمبراطور ميخائيل الثالث وقتذاك بالعاصمة . بل كان على رأس جيوشه فى الطريق إلى قتال المسلمين ، فما كاد يسمع بأنباء الروس حتى عاد سريعاً إلى القسطنطينية ، إذ أن الروس اجتازوا البحر الأسود فى مائتى سفينة ونفذوا إلى البوسفور ، ونهبوا كل ما على شاطئيه من الأديرة وخربوا جزائر الأمراء[١] . واستولى على سكان القسطنطينية الذعر والخوف الشديد ، وساءت حالتهم المعنوية بسبب ما تعرضوا له من هذا الخطر المفاجئ ، وما أدركوه من ضعفهم وعجزهم عن مقاومته . إذ أن القوات التى درجت على أن ترابط فى الجهات المجاورة للمدينة ، خرجت مع الإمبراطور وخاله لقتال المسلمين ، كما أن الأسطول كان بعيداً عن مياه العاصمة[٢] . وما أنزله المغيرون بأرياض المدينة من التخريب والنهب ، شجعهم على أن يهاجموا المدينة . وعلى الرغم من أن والى المدينة والوزراء هم المسئولون عن حماية المدينة والمحافظة عليها أثناء غياب الإمبراطور ، فإن البطريرك فوتيوس ، هو الذى نهض لمعالجة الموقف . فبث فى نفوس مواطنيه روح الطمأنينة وأثار فيهم الشجاعة . بما ألقاه من المواعظ فى كنيسة القديسة صوفيا . وبما رتبه من موكب طاف حول أسوار المدينة ، رفعوا فيه رداء السيدة الأم العذراء ، بعد أن بللوه بمياه البحر لاعتقادهم بأنه سوف يثير عاصفة شديدة ترد الروس على أعقابهم[٣] .

---

(١) Bury p. 419. Ostrogorowski : p. 202.
(٢) Bury p. 419.
(٣) Ibid p. 420.

على أن الروس ارتدوا فعلا عن العاصمة ، بعد أن أحسوا باقتراب الإمبراطور بجيوشه منهم ، ورأوا أنه لن ينجيهم إلا الفرار ، غير أنهم تعرضوا أثناء ارتدادهم إلى هجوم شديد من البيزنطيين ، الذين أحرزوا عليهم نصراً باهراً ، وظفروا بغنائم وفيرة ، والراجح أن العواصف أسهمت فيما حل بالروس من الهزيمة[1] .

وعلى الرغم من الهجوم العنيف الذى قام به البيزنطيون ضد الروس ؛ فإن أهل المدينة (القسطنطينية) لم يرجعوا خلاصهم إلا إلى تدخل العذراء[2] ، ومنذ هذه اللحظة بدأت تنمو العلاقات بين الدولة البيزنطية ، ومملكة روسيا التى أخذت فى الظهور[3] . إذ أرسل هؤلاء الشماليون (الروس) مبعوثين من قبلهم إلى القسطنطينية ، يلتمسون من الإمبراطور أن يجرى تنصيرهم[4] . فبدأ التبشير بين هؤلاء الناس الذين لم يكن لهم مطلقا سابق معرفة بالبيزنطيين ، وسوف يكون لهذا التبشير نتائج بالغة الأهمية . ومن المحقق أن فريقا من هؤلاء الروس اتفقوا على أن يعتنقوا المسيحية ، ومن الدليل على ذلك ، ما صرح به البطريرك فوتيوس ، على سبيل التفاخر سنة ٨٩٦ ، بأنه جرى إرسال أسقف ليفقه فى الدين قوما فاقوا غيرهم فى التأخر والانحطاط بسبب ما اشتهروا به من العنف وسفك الدماء[5] . وأدرك البطريرك العظيم ، أنه بتحويل هذه الأمة الفتية إلى المسيحية ، وإدخالها فى نطاق النفوذ البيزنطى ، إنما يدرأ عن الإمبراطورية البيزنطية ما يهددها من خطر من هذه الناحية[6] . وظهرت بوادر نتائج هذا العمل التبشيرى بعد سنوات قليلة[7] .

غير أن ما جرى عقده من معاهدة بين الروس والبيزنطيين ، بين سنتى

(١) Bury p. 421.
(٢) Ostrogorowski : p. 202.
(٣) Ostrogorowski : p. 202.
(٤) Ibid p. 203.
(٥) Bury p. 422.
(٦) Ostrogorowski : p. 203.
(٧) Vasiliev : The Russian Attack on Constantinople p. 169.

٨٦٠ ، ٨٦٦ أدى إلى نتائج أخرى إذ دخل فى خدمة الأسطول البيزنطى ملاحون مأجورون من الروس ، ويعتبر ذلك بدء خدمات الورنك Varangians ، فى القسطنطينية ، إذ بادر إلى خدمة البيزنطيين شماليون من سكنديناوه ، ومن روسيا ، بل ومن الإنجليز أيضاً[1] .

الخزر :

ومن نتائج الهجوم الروسى أيضاً ، أن عمدت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد علاقاتها مع الخزر . إذ قدم إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث ، حوالى سنة ٨٦٠ ، سفارة من قبل خاقان (ملك) الخزر ، طلبت إلى الإمبراطور أن يبعث من قبله أشخاصا يقومون بشرح العقائد المسيحية[2] . والمعروف أن الديانتين الإسلامية واليهودية كانتا معروفتين عند الخزر[3] . ولتحقيق هذا الغرض تقرر إرسال سفارة إليهم . ومن دلائل ما ساد بيزنطة وقتذاك من روح جديدة ، أن هذه السفارة قامت بعمل تبشيرى ، إذ تولى رياستها قنسطنطين ، أحد تلاميذ فوتيوس ومريديه[4] . امتاز قنسطنطين على غيره بما اشتهر به من التبحر فى علم اللغة ، والتضلع فى علوم الدين ، فعكف على تعلم لغة الخزر واتخذ قنسطنطين طريق نهرى الدون والفولجا حتى وصل إلى ايتل ، ثم هبط إلى ساحل بحر قزوين ، حيث التقى بخاقان الخزر فى سمندر . وعلى الرغم مما تركه قنسطنطين من أثر طيب فى نفس ملك الخزر ، فإن سفارته لم تحرز نجاحا يذكر ، ولم يلبث أن عاد إلى القسطنطينية[5] .

(١) Bury p. 422.
(٢) Dunlop. p. 194.
(٣) Ostrogorowski : p. 203.
(٤) Dunlop. p. 194.
(٥) Dunlop. p. 195.

الصقالبة (مورافيا)

غير أن ما هو أهم من ذلك ، ما اضطلع به قنسطنطين وأخوه مثوديوس من عمل ، حين أرسل أمير مورافيا المعروف باسم راستلاف Rastilav ، سفارة إلى القسطنطينية ، يطلب إرسال مبشرين إلى قومه[١] . ولعل السر فى التجاء راستلاف إلى الدولة البيزنطية ، هو ما ساوره من المخاوف من تأثير رجال الدين الفرنجة ، ورغبته فى أن يجد فى بيزنطة من المساعدة ، ما يمنع عنه خطر تطويق الفرنجة والبلغار له[٢] .

والمعروف أنه ترتب على تدمير قوة الأفار على يد شرلمان ، ما جرى من نمو الإمبراطورية البلغارية ، وتحرر الصقالبة النازلين بحوض الدانوب الأوسط ، والذين كانوا خاضعين لسلطة الأفار . ولم تمض إلا سنوات قليلة على تدمير الأفار حتى تعرض الغزاة الكارولنجيون أنفسهم لهزيمة ساحقة ، أنزلها بهم المورافيون[٣] بقيادة ملكهم راستلاف ، على الرغم من أنه كان أصلا يدين بالولاء للجرمان ، وقد أضحى سنة ٨٥٠ ملكا على سائر الجهات التى تشمل اليوم ما يعرف بالنمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، وبذلك أوقف مطامع الفرنجة فى بسط سلطانهم على الإمارات الصقلبية المتاخمة لحدهم الجنوبى الشرقى[٤] . وصار يفصل بين الإمبراطورية الغربية (الكارولنجية) وبين الإمبراطورية البيزنطية ، دولتان كبيرتان هما مورافيا وبلغاريا[٥] . وما حدث من دخول المسيحية الأرثوذكسية إلى هذه الجهات ، إنما ارتبط باعتبارات سياسية ، أهمها ما جرى من التحالف بين الجرمان (الفرنجة) والبلغار ، وما ترتب على ذلك من تعرض مورافيا للخطر من قبل هاتين الدولتين[٦] .

---

(١) Ostrogorowski : p. 203.

(٢) Ibid. P. 203.

(٣) Runciman : Byzantium and the Slave — Byzantium ed. Baynes p. 346.

(٤) Bury p. 382.

(٥) Runciman p. 346.

(٦) Bury p. 383.

وعلى الرغم من جهود الكنسيين الألمان فى نشر المسيحية بجهات موراڤيا ، فإنهم لم يحرزوا نجاحا يذكر[١] . لأن دعوتهم لم تكن دينية خالصة ، بل اختلطت بها الدعوة الوطنية[٢] . ولذا قرر راستلاف أن يحصل على المسيحية من جهة أخرى . ولما كان بين القسطنطينية ومورافيا من علاقات تجارية ناشطة . ولما أدركه المورافيون من تفوق الحضارة البيزنطية على حضارة الجرمان الكارولنجيين ، فضلا عن التحالف بين البلغار والكارولنجيين ، التمس المساعدة من الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث[٣] .

وفى سنة ٨٦٣ ، قدمت إلى القسطنطينية السفارة المورافية ، التى تطلب معلما يبشر بالمسيحية باللغة المورافية . ولقيت هذه السفارة القبول والتشجيع من قبل الإمبراطور ، إذ تهيأت لبيزنطة الفرصة لمد سلطانها ونفوذها إلى بلاد جديدة ، ولأن تستخدم الضغط على البلغار[٤] . ومن الدليل على إدراك الدولة البيزنطية ، حكومة وكنيسة ، لأهمية هذه السفارة ، أنها عهدت بالبعثة التبشيرية التى سوف ترسلها إلى مورافيا ، إلى الأخوين قنسطنطين ومثوديوس ، وطلبت إليهما أن يبشرا بالدين الجديد فى بلاد الصقالبة وبلغة الصقالبة . والواقع أن الفضل فى تحويل الصقالبة إلى المسيحية إنما يشترك فيه الأخوان قنسطنطين (الذى اشتهر فيما بعد باسم كيرلس) ومثوديوس ، والبطريرك فوتيوس ، والقيصر بارداس[٥] .

وكان مثوديوس واليا على بعض الأقاليم التى ينزل بها الصقالبة المجاورين لموطنه سالونيك ، ثم لجأ آخر الأمر إلى دير فوق جبل أوليمبوس فى بثينيا . أما قنسطنطين (الذى ولد حوالى سنة ٨٢٧) فإنه تعلق منذ صغره بالعلم

---

(١) Ibid p. 384.

(٢) Runciman p. 347.

(٣) Ibid p. 347.

(٤) Ostrogorowski : p. 203. Bury p. 393.

(٥) Ostrogorowski : p. 204. Runciman p. 347.

والدراسة ، ثم انتقل إلى القسطنطينية بناء على توصية الوزير ثيوكتستوس ، لما توسمه فيه من الذكاء والشغف بالعلم ، فأتم تعليمه .

وتلقى قنسطنطين تعليمه على اثنين من خيرة العلماء وقتذاك ، ليو وفوتيوس[1] ونبغ فى اللغة والدين[2] ، ولم يلبث أن صار أستاذاً للفلسفة فى جامعة القسطنطينية . ويشير مؤرخ حياته إلى أن الإمبراطور البيزنطى اختاره سنة ٨٥١ ليقوم بمناظرة العلماء المسلمين فيما يتعلق بالتثليث[3] ثم دخل الدير وعاش مع أخيه فى دير جبل أوليمبوس[4] . ولما قدمت سفارة ملك الخزر إلى القسطنطينية ، وقع عليه الاختيار ، ليشرح مزايا المسيحية للخزر ، حتى يستطيع ملك الخزر أن يقدر مكانتها من الديانتين الأخريين ، اليهودية والإسلام[5] . واشتهر قنسطنطين بعكوفه على الدراسات الصقلبية ، وأنه ألف أبجدية للصقالبة النازلين فى الجهات المجاورة لموطنه سالونيك[6] ، وهذه الأبجدية اشتهرت باسم Glagolithic ، وقام بترجمة الإنجيل إلى اللغة الصقلبية (استخدم فى ذلك لهجة صقالبة مقدونيا) . وكذلك قام الأخوان بترجمة كتب الصلاة إلى هذه اللغة الصقلبية ، وذلك لشيوعها بين المورافيين ، وهذه اللغة الصقلبية (المقدونية) لازالت حتى اليوم اللغة المستخدمة فى الصلاة فى الكنائس الصقلبية[7] . ومن أسباب استخدام اللغة الصقلبية فى التبشير بالأرثوذكسية البيزنطية بين المورافيين ، حرص بيزنطة على ألا تثير مخاوف الكنيسة اللاتينية ، التى دأبت على نشر مذهبها بين المورافيين من قبل ، وليس ثمة ما يثير هذه المخاوف أكثر من الاستعانة بكتب دينية باللغة اليونانية . فاستخدام اللغة الصقلبية Glagolitic يحقق رغبة بيزنطة فى نشر نفوذها الدينى والسياسى

(١) Bury p. 394.
(٢) Runciman p. 347.
(٣) Bury p. 394.
(٤) Ibid p. 394.
(٥) Bury p. 394. انظر ما سبق ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .
(٦) Runciman p. 347.
(٧) Runciman p. 347.

من جهة ، ويخفى أغراضها عن الأساقفة اللاتين من جهة أخرى ، فضلا عن اجتذاب الصقالبة إلى التعاليم البيزنطية ، إذ صار من اليسير أن يتعرفوا إلى هذه التعاليم بلغتهم وكتابتهم[1] .

على أن هذه البعثة التبشيرية لم تحظ بما هو مقدر لها من النجاح فى مورافيا . ولم تحرز لكنيسة القسطنطينية ما تطلعت إليه من النصر والمكانة[2] .

ظل الأخوان قنسطنطين ومتوديوس ثلاث سنوات ، يؤدون واجبهم فى مورافيا ، ولقوا ، فيما يبدو ، معاملة طيبة من قبل أميرها . غير أنهما عادا إلى القسطنطينية ، فى سنة ٨٦٧ ، وفى السنة التالية (٨٦٨) توجها إلى روما[3] . إذ أن البابا نقولا حينما سمع بنشاطهما فى مورافيا ، أراد أن يتحقق الأمر ، فأرسل إليهما يدعوهما إلى روما . فأدرك الأخوان أن أمرهما لن يستقيم فى مورافيا . إلا إذا تم الاتفاق بينهما وبين البابا لاسيما بعد أن تعرضا لمناوأة الأساقفة الألمان فى مورافيا ، وبعد أن تبين لهما أنه ليس فى استطاعة بيزنطة أن تكفل حمايتهما والدفاع عنهما فى هذه الجهات النائية[4] غير أن الوضع تغير بعد أن ولى باسيل (المقدونى) عرش الإمبراطورية البيزنطية ، وبعد أن جرى عزل فوتيوس من البطريركية[5] . غير أنهما حين قدما إلى روما وجدا أن البابوية تولاها هادريان الثانى ، فأحسن استقبالهما ، وأثنى فيما يبدو على ما قاما به من عمل تبشيرى فى مورافيا ، إذ قام برسامة مثوديوس وثلاثة من الموارفيين . ومع ذلك لم تقم بمورافيا أسقفية ، بل ظلت كنيستها تابعة من الوجهة الرسمية للكنيسة الألمانية فى باساو Passau[6] . ولم يلبث قنسطنطين أن خر مريضا ، ودخل الدير ، واتخذ اسم كيرلس ، وفى ١٤ فبراير سنة ٨٦٩ ، قضى نحبه[7] .

(١) Bury p. 398.
(٢) Ibid p. 398.
(٣) Bury p. 400.
(٤) Ibid p. 400. Ostrogorowski : 204.
(٥) Ibid p. 400.
(٦) Bury p. 400.
(٧) Bury p. 401.

أما مثوديوس ، فلم يكن الطريق أمامه سهلا ممهداً ، إذ وجد مقاومة شديدة من قبل الأساقفة الجرمان ، ولم يلبث البابا أن تخلى عن مساعدته . فلما مات سنة ٨٨٠ لم يسع تلاميذه إلا أن يغادروا مورافيا . وأن يتحولوا إلى بلغاريا[1] .. ومع ذلك فإن ما قام به مثوديوس وأخوه قنسطنطين من جهود أينعت ثمارها . فإلى هذين الأخوين يدين الصقالبة بما صار لهم من آداب وحضارة قومية[2] .

البلغار .

ولما أصبح المورافيون مسيحيين ، لم يتردد البلغار فى أن يقيموا كيانهم السياسى والحضارى على أساس متين ، فاعتنقوا المسيحية . غير أنه إذا كان المورافيون تحالفوا مع بيزنطة ، فإن بوريس ملك البلغار أرسل سفارته إلى الفرنجة[3] . وأدركت الدولة البيزنطية خطورة ما يترتب على هذه السفارة من النتائج ، فإن ما جرى من التحالف السياسى بين بلغاريا والإمبراطورية الغربية (لويس) ، سوف يزداد قوة ومتانة إذا خضع البلغار لسيطرة كنيسة روما ، وارتبطوا بالمسيحية اللاتينية[4] . ولذا حرصت الدولة البيزنطية على أن تمنع الاتصال بين بوريس ولويس[5] وما أحرزه البيزنطيون وقتذاك من الانتصارات على الحدود الشرقية ، زاد مركز الإمبراطورية قوة ، ورفع من هيبتها ، ودفعها إلى المضى فى أعمالها ، لاسيا بعد أن أوقفها على خطورة الحال ، ممثلو رستلاف . فتقرر تشديد الضغط على بلغاريا ، وفى صيف سنة ٨٦٣ توجه الإمبراطور ميخائيل الثالث على رأس الجيش ، لمهاجمة الأراضى البلغارية ،

(١) Ibid p. 402.
(٢) Ostrogorowski : p. 204.
(٣) Bury p. 204. Bury p. 383.
(٤) Bury p. 383.
(٥) Bury p. 383.

وظهر الأسطول البيزنطى تجاه ساحل بلغاريا فى البحر الأسود[1] . وكانت الأحوال مواتية للبيزنطيين إذ أن القوات البلغارية كانت وقتذاك قد توجهت لقتال كارلمان Karlman أمير الحد الشرقى (للإمبراطورية الغربية) الذى أعلن تمرده على أبيه لويس ، بناء على ما كان بين لويس والبلغار من تحالف[2] . يضاف إلى ذلك أن بلغاريا تعرضت لمجاعة رهيبة . وفى هذه الأحوال استطاع الإمبراطور البيزنطى ، بفضل هذه المظاهرة الحربية البحرية ، أن يحقق غرضه دون قتال ، إذ قبل بوريس كل ما عرضه ميخائيل من شروط[3] ولم تتطلب بيزنطة من بلغاريا أكثر من أن تتخلى عن التحالف مع الفرنجة ، وأن تتقبل المسيحية من القسطنطينية ، وأن تعقد معها معاهدة . ووافق الإمبراطور البيزنطى على أن يمنح بلغاريا ، مقابل ذلك ، بعض امتيازات إقليمية ، تزيد من اتساع رقعتها[4] . فتنازل الإمبراطور ميخائيل الثالث لبلغاريا ، عن منطقة غير آهلة بالسكان ، وتفصل بين الدولتين ، وتمتد من الباب الحديدى جنوبا وهو ممر بجبال سترانج داغ Stranja Dagh ، إلى ديفلتوس Develtus شمالا[5] . ولما تم عقد الصلح (٨٦٤) جرى تعميد الملك البلغارى ، وكان شبينه الإمبراطور البيزنطى ميخائيل ، فاتخذ لنفسه اسما نصرانيا ، وهو اسم ميخائيل[6] . وبناء على تعاليم البطريرك ، شرع رجال الدين اليونانيون فى تنظيم الكنيسة البلغارية ، وتنصير البلغار[7] . على أن تحول بلغاريا المسيحية لا يعتبر فحسب خطوة كبيرة فى سبيل تقدمها الحضارى ، بل يعتبر أيضاً إتماماً للحركة نحو الصقلبة ،

(١) Bury p. 384.
(٢) Bury p. 383, 384.
(٣) Ibid pp. 384.
(٤) Ostrogorowski. p. 204. Bury p. 384.
(٥) Bury p. 384.
(٦) Bury p. 385. Ostrogorowski : p. 204.
(٧) Bury p. 385.

وما يتبعها من إتمام توحيد الدولة الناشئة من الناحيتين السياسية والعنصرية[١] ، وأمر بوريس — ميخائيل بإعدام ٥٢ من البلغار الذين اشتهروا بمقاومتهم لما جرى من تنصير السكان وتحولهم إلى المسيحية[٢] .

غير أنه على الرغم من المزايا التى حصلت عليها بلغاريا ، من حيث التقدم الحضارى ، وتحقيق الوحدة الداخلية ، بفضل اعتناقها المسيحية ، فإن الملك البلغارى ، الحديث العهد بالمسيحية ، لم يلبث أن ساورته الشكوك والأوهام . ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية كانت ترمى إلى أن تنضم كنيسة بلغاريا ، الخاضعة لتوجيه أسقف يونانى ، إلى بطريركية القسطنطينية[٣] ، بينما أراد بوريس ميخائيل أن يكون لكنيسته الناشئة الاستقلال التام تحت رئاسة بطريرك من قبله[٤] . ومن الواضح أن ما بين روما والقسطنطينية من علاقات سيئة ، هيأ الفرصة للبابا أن يتدخل فى النزاع بين الملك البلغارى والبيزنطيين ، وأن يجعل تحت سلطانه ونفوذه ، الكنيسة البلغارية ، التى يصح أن يجرى تنظيمها على النحو الذى يتفق مع أغراض الملك البلغارى[٥] . وعندئذ أرسل بوريس فى أغسطس سنة ٨٦٦ ، مبعوثين من قبله إلى البابا نقولا ، طلبوا إليه أن يرسل إلى بلغاريا أسقفا وقسيسين ، ورفعوا إليه ١٠٦ من الأسئلة التى ترتبط بما تفرضه على قومهم العقيدة الجديدة من قيود دينية ، وقدموا للبابا ، مع الهدايا ما غنمه ملكهم من الأسلحة بعد أن انتصر على أعدائه[٦] . وأرسل بوريس فى الوقت ذاته ، إلى الملك لويس الثانى سفارة . طلبت إليه أن يبعث من قبله إلى بلغاريا أسقفا وقسيسين أيضا[٧] . ولا شك أن بوريس

---

(١) Ostrogorowski : p. 205.

(٢) Ibid p. 205.

(٣) Ostrogorowski: p. 205 Bury pp. 388 — 389.

(٤) Ostrogorowski : p. 205.

(٥) Bury p. 389.

(٦) Bury p. 389. Vasiliev : p. 283.

Dvornik : The Photion Schism p. 113

(٧) Bury p. 389.

تأثر فى ذلك ، بما بثه فى بلاده القسس الفرنجة من تعاليم ، وبما كان فى البلاط البلغارى من حزب يمالئ الفرنجة ، ويعمل ضد المبشرين البيزنطيين[١] . ولما كان البابا حريصا على أن ينشر فى بلغاريا الشعائر الرومانية ، وأن يخضع لسلطانه الروحى إقليما جديدا ، اختار أسقفين : بولص أسقف بوبولونيا Populonia ، وفورموزوس Formosus أسقف بورتو Porto ، وبعث بهما مع طائفة من المبشرين إلى بلغاريا ، كما أنه أرسل معهما ردوده على ما وجهه إليه البلغاريون من أسئلة[٢] .

ومن الواضح أن البابا نقولا كان حريصا على ألا يثقل على هؤلاء الذين لم يعتنقوا المسيحية إلا منذ عهد قريب ، أصر البابا على ضرورة مراعاة ما هو مقرر بالكنيسة من أزمنة الصيام ، وضرورة الامتناع عن العمل فى الأيام المقدسة ، ومنع ما يجرى من الزيجات المحرمة . ولم يجز البابا لأحد أن يدخل الكنيسة وعلى رأسه عمامة ولا يجوز تناول الطعام قبل الساعة التاسعة صباحا[٣] .

وأنكر البابا أيضاً ما فرضه القسس اليونانيون على البلغار من قيود ، إذ حرموا عليهم أن يستحموا فى يومى الأربعاء والجمعة من كل أسبوع ، وأن يأكلوا لحم ما ذبحه الخصيان من الحيوانات ، على أن البابا قضى بألا يجوز أكل ما صاده المسيحى من حيوان ، إذا ذبحه الوثنى ، أو أكل ما ذبحه المسيحى من حيوان إذا صاده وثنى . ومن عادة ملك البلغار أن يتناول الطعام منفرداً ، دون أن يشاركه فيه أحد ، حتى زوجته . واعتبر البابا ذلك من العادات السيئة ، غير أنها ليست مخالفة للدين وطلب البابا إلى البلغار أن يتخذوا الصليب لواء لهم فى الحرب ، بعد أن جروا على أن يتخذوا ذيل الحصان . وحرَّم البابا ما درجوا عليه من الالتجاء إلى الخرافات الوثنية ، كالقسم بالسيف ، والتعاويذ وأمرهم بأن يمتنعوا عن إنشاد الأهازيج ، والالتجاء

---

(١) Dvornik p. 113.

(٢) Bury p. 389.

(٣) Bury p. 390.

إلى الطيرة والتنبؤ ، قبل خوض المعارك الحربية ، ونصحهم بأن يتهيأوا للقتال ، بتلاوة الأدعية ، وإطلاق سراح المسجونين ، وعتق الرقيق وبذل الصدقات[١] .

ومن الجهود التى بذلها البابا لتلطيف ضراوة البلغار وشدتهم ، ما أنكره عليهم من الالتجاء إلى تعذيب المتهمين (المذنبين) والتنكيل بهم ، ليستخلصوا منهم ما يطلبون من الاعترافات. وأقر ما للكنيسة من حق إيواء من يلجأ إليها من المجرمين، حتى لو كانوا متهمين بالقتل[٢]. وجريمة القتل فى نظر المسيحيين فى العصور الوسطى لا تعدل جريمة اقتناء زوجتين ، والتجاوز عنها أقرب من العفو عن الجمع بين الزوجتين . على أن البلغار لم يتلقوا من الأوامر ما يقضى بإعدام الذى يتزوج منهم بامرأتين ، كما كان متوقعا ، بل جرت الأوامر بأن يطلق إحداهما وأن يعلن توبته وندمه على ما ارتكبه من الذنوب[٣] . على أن أهم ما وجهه بوريس من الأسئلة إلى البابا ، ما يتعلق منها بتعيين بطريرك . ولم يتخذ البابا فى هذا الأمر قراراً . بل أشار إلى أنه سوف لا يقرر شيئاً إلا بعد أن تصل إليه تقارير مندوبيه . غير أنه وعد بأنه كيفما كان الأمر فإنه سوف يكون لبلغاريا أسقف. وإذا توافر بها عدد من الكنائس ، فسوف يكون بها رئيس للأساقفة أو بطريرك[٤] . ولما تراءى للملك بأن الأمل فى إنشاء أسقفية فى بلغاريا صار قريب التحقيق ، رحب بمندوبى البابا ، وعهد إليه بأعمال التبشير والتنصير ، بعد أن طرد من المملكة غيرهم من المبشرين . وظل رجال الكنيسة اللاتينية يعملون أكثر من سنة (٨٦٥-٨٦٧) فى إقليم ، كان البابا يرجو أن يدخل فى نطاق سلطة روما الروحية . غير أنه لم يقدر لبلغاريا أن تنتمى للكنيسة اللاتينية ، إذ أنها ارتبطت بالدولة البيزنطية من الناحيتين الدينية والسياسية[٥] .

---

(١) Bury p. 566.

(٢) Bury p. 390.

(٣) Ibid. p. 391.

(٤) Bury p. 392.

(٥) Bury p. 392.

على أن بوريس ما لبث أن وقع تحت تأثير ما اتبعته بيزنطة من الوسائل السياسية ، فطرد من بلغاريا سنة ٨٦٩ رجال الدين من اللاتين ، ورحب بالقسس اليونانيين ، وما لجأ إليه البابا من التهديد والوعيد لم يثن بوريس عن عزمه ، وعما اتخذه من قرار ؛ ذلك لأن البيزنطيين وافقوا على أن يكون لبوريس حق اختيار رئيس الأساقفة ، وأنهم سوف يبذلون له كل ما يعود عليه بالفائدة والمصلحة[١] .

الشقاق الدينى :

سبق أن أشرنا إلى ما صار لبارداس من السلطة بعد مصرع ثيوكتستوس . ويتضح ذلك فيما جرى من الإنعام عليه بأرفع التشاريف ، واتخاذه لقب قيصر . وفاق بارداس كل منافسيه بما اشتهر به من النشاط والإدراك السياسى . وفى زمنه ظهر من الدلائل ما يبشر بما بلغته الإمبراطورية البيزنطية من التقدم السياسى الكبير . وفى عهده ازداد قوة وشدة ، ما صدر عن الثقافة البيزنطية من النشاط والإشعاع . فالجامعة التى قامت فى قصر ماجنورا ، بفضل القيصر بارداس ، أضحت مركزاً للعلم البيزنطى ، وبها زكت جميع فروع المعرفة الدنيوية ، وبفضل ما اشتهر به بارداس من بعد النظر السياسى وفد إلى الجامعة طائفة من الأساتذة النابهين ، وعلى رأسهم ليو الرياضى ، الذى اشتهر بسعة اطلاعه فى سائر الفنون والعلوم ، على الرغم من أنه ابن أخت حنا النحوى اللاأيقونى ، وأنه لم يخف زمن ثيوفيل نزعته اللاأيقونية ، وعمل بالجامعة أيضاً ، فوتيوس الذى يعتبر من أعظم أساتذة عصره[٢] .

وما جرى من تغيير فى حكومة الدولة ، اقتضى التغيير فى إدارة الكنيسة . إذ لم يتم التفاهم بين الوصى الجديد (بارداس) وبين البطريرك اجناتيوس ، الذى كان وثيق الصلة بنظام الحكم السابق ، وبالحزب المتعنت من رجال

---

(١) Runciman : Byzantine and The Slavs p. 349.

(٢) Ostrogorowski : p. 199.

الدين (رهبان دير ستوديون)[1] فوقع الاختيار على فوتيوس ليكون بطريركا[2] .

وإذ جرت العادة بأنه حينما يتولى البطرك الجديد منصبه ، تحتم عليه أن يرسل إلى البطاركة الأربعة الآخرين ، بطريرك (بابا) رومة ، بطريرك

---

(١) ذلك أن تيودور رئيس دير ستوديون رأى فى الإمبراطور مجرد حام للكنيسة ، وأن الكنيسة لا بد أن تكون مستقلة ، وأن للرهبان الحق فى أن يصدروا حكمهم على إدارة بطريركهم أو أسقفهم ، فإذا لم تحظ أعمال البطريرك بموافقتهم ، امتنعوا عن مناصرته ، وبذلك ظهرت بوادر حركة التمرد التى أدت فيما بعد إلى الانشقاق الدينى فظهر حزبان متعاديان ، أحدهما يقوم بتأييد تعاليم تيودور رئيس دير ستوديون بينما ينتصر الحزب الآخر للسلطة البطريركية . وبينما ينكر أحدهما كل تهاون فى القواعد الكنسية ، أجاز الحزب الآخر للإمبراطور أن يتجاوز بعض القواعد الكنسية . والواقع أن اختلاف الحزبين فى فكرتهما عن روح الإدارة الكنسية وطريقة سيرها ، إنما يمثل الاختلاف بين فئتين من رجال الكنيسة وفى كلتا الفئتين كثير من الرهبان إذ أن عدداً كبيراً من رؤساء الأديرة والرهبان أنكروا ما اشتهر به رهبان ستوديون من تمسكهم بقاعدة المثالية الشديدة لحياة الديرية ، ومن رؤساء الأديرة والرهبان أيضاً طائفة كبيرة أقرت ما للدولة من سيطرة على الكنيسة ، وكرهت السياسة الهجومية التى جرى عليها تيودور وأتباعه . انظر **Ibid. p. 181. Bury p. 181.**

(٢) ولد فوتيوس فى بداية القرن التاسع الميلادى ، وأبوه سرجيوس شقيق البطريرك تاراسيوس ، ويرتبط عن طريق أمه بأسرة الإمبراطورة تيودورا . تعرض والداه للنفى والتشريد بسبب تعلقهما بعبادة الصور ، من الأباطرة اللاأيقونيين . والراجح أن فوتيوس صار مدرسا للفلسفة فى السنوات الأولى من عهد تيودورا . وبفضل مااشتهر به فوتيوس من شخصية جذابة ، ومن تأثيره فى تلاميذه ، التف حوله طائفة من الطلاب . وترتب على كثرة اتصالات أسرته ، وعلى ما اشتهر به من مواهب ، أن تقرر تعيينه كبيراً لكتاب السر **Protoasecretis** وحدث أثناء توليه هذه الوظيفة ، زمن وصاية ثيوكتستوس أن تقرر إرساله فى سفارة إلى الشرق إما إلى بغداد وإما إلى بعض الأمراء المسلمين وكيفما كان الأمر ، فإنه ارتبط مع كثير من الأمراء المسلمين بأواصر الصداقة .

ولما وقع النزاع بين الإمبراطور ميخائيل وبارداس من جهة وبين البطريرك اجناتيوس من جهة أخرى ، بسبب أمور عديدة ، منها انتقاده لسلوك بارداس الشخصى ، وعدم إجابته لطلب الإمبراطور بإدخال أمه وإخوته فى الدير ، واتهام الإمبراطور له بالخيانة ، كل ذلك أدى إلى اعتقال اجناتيوس ونفيه إلى جزيرة تربنتوس **Terebenthos** (سنة ٨٥٨) . على أن ما تعرض له إجناتيوس من الاضطهاد والتعذيب ، على يد بارداس ، جعله موضع عطف أهل القسطنطينية وبعض الوزراء ، وعدد كبير من الرهبان .

(انظر **Bury pp. 186 — 192.**)

الإسكندرية ، وبطريرك أنطاكية ، وبطريرك بيت المقدس ، يخطرهم بذلك . فتقرر إرسال كتاب إلى البطاركة فى الشرق ، وإيفاد سفارة إلى روما تحمل رسالة إلى البابا من الإمبراطور ميخائيل الثالث والبطريرك فوتيوس . وكان فى كرسى البابوية وقتذاك (٨٦٠) نقولا الأول . واشتهر نقولا بأنه رجل أعمال لا أقوال ، على حد قول أحد المعجبين به ، تشبع بفكرة ما لكرسى روما الرسولى من سيادة عالمية[1] . وما حدث بالإمبراطورية الكارولنجية من اضطرابات ، هيأ للبابا أن ينشر هذه الدعوى فى الغرب ، وما جرى فى القسطنطينية من الشقاق الدينى ، أتاح له الفرصة ليفرض دعواه على المشرق ، غير أنه وجد فى فوتيوس خصما لا يفوقه فحسب فى العلم ، بل لا يقل عنه عزما وتصميما ونشاطاً ونهوضا[2] .

وتعتبر رسالة فوتيوس إلى البابا من روائع الرسل الدبلوماسية . أشار فى هذه الرسالة إلى كراهيته لأن يضطلع بأعباء المنصب الأسقفى (البطريركية) ، الذى لم يسعه إلا أن يقبله تحت الإلحاح الشديد من قبل الإمبراطور ورجال الدين . ووفقاً لما جرت به العادة من إنفاذ الرسائل والكتب عند توليه منصب البطريركية ، أشار إلى أصول ديانته ، وأعلن إيمانه الشديد بالمجامع المسكونية السبعة . وختم رسالته بأن طلب إلى البابا أن يشمله بدعواته وبركاته ، ولم يطلب منه عونا أو مساعدة ، ولم يذكر فى رسالته شيئا عن سلفه فى البطريركية[3] .

أما رسالة الإمبراطور ميخائيل الثالث ، فإنها تضمنت خبراً مقتضبا عن شعور الكرسى البطريركى . إذ طلب إلى البابا أن يرسل من قبله مندوبين ليشهدوا المجمع الذى سوف ينظر فى بعض الأمور المتعلقة باللاأيقونية . فلم يطلب كل من البطريرك والإمبراطور من البابا أن يبسط رأيه فى الحوادث الجارية ، غير أن البابا نقولا عزم على أن يغتنم الفرصة لكى يفرض

---

(١) Bury p. 193.

(٢) Ibid p. 193.

(٣) Bury p. 193. Dvornik op. cit. p 71.

من النفوذ ، والسلطان ، ما يقوض استقلال كنيسة القسطنطينية . فأرسل أسقفين ، وزودهما بالتعليمات التى تقضى بأن يقوما بفحص الحقائق التى تتعلق بعزل اجناتيوس عن البطريركية ، وأن يرفعا إليه تقريراً بذلك . ودفع إليهما برسالتين (مؤرختين فى ٢٥ سبتمبر سنة ٨٦٠) ليحملاهما إلى الإمبراطور وفوتيوس . واستهلت الرسالة الموجهة إلى الإمبراطور بالإشارة إلى ما لكرسى روما الرسولى من الصدارة ، وأنه لا يجوز اتخاذ قرار فى أية مشكلة كنسية فى العالم المسيحى إلا بعد موافقة بابا روما . وجاء فى الخطاب أن هذا المبدأ انتهك حرمته ما حدث من عزل إجناتيوس ، وأن منصب البطريركية ازداد حرجا بما حدث من اختيار أحد العلمانيين لولايته ، وقد حرصت كنيسة روما المقدسة على منع هذا الانتخاب . ولهذه الأسباب يعلن البابا بأنه سوف لا يعترف برسامة فوتيوس إلا بعد أن يرد إليه تقرير مبعوثيه عن الحقائق المتعلقة بهذا الأمر ، وبعد أن يجتمع المبعوثان باجناتيوس ويتحدثا إليه[1] .

ثم يتناول الكتاب الإجابة على ما ورد فى رسالة الإمبراطور عن عبادة الصور المقدسة ، فيشير إلى أنه ينبغى على ميخائيل أن يثبت تعلقه بمصالح الكنيسة ، بأن يعيد إلى كرسى روما الرسولى ، ما نزعه الإمبراطور ليو الثالث من الأملاك التى كانت خاضعة لسلطان البابا ، وتشمل منطقة سالونيك ، وإمارتى كالابريا وصقلية . وفى رسالته الموجزة إلى فوتيوس ، أنكر البابا الطريقة التى بمقتضاها تولى فوتيوس كرسى البطريركية ، واعتبرها طريقة هوجاء ، ورفض أن يعترف برسامته إلا بعد أن ينهى إليه مندوباه ، بعد عودتهما من القسطنطينية بأن ما يقوم به من أعمال نحو الكنيسة ، تعتبر أعمالا مرضية[2] .

انعقد بالقسطنطينية مجلس (مجمع) فى مايو سنة ٨٩١ ، شهده عدد كبير من الأساقفة وممثلون للبابا ، وأقر المجلس خلع اجناتيوس ، وبذلك

(١) Bury p. 193.

(٢) Bury p. 194, Dvornik p. 75.

استقر فوتيوس فى البطريركية بموافقة المجلس ومندوبى المقر المقدس بروما[1] .

على أن مندوبى البابا تجاوزا تعاليم البابا ، التى تقضى بأن ينهيا إليه بما حدث ، وليس لهما الحق فى الفصل فى الأمور . ورفع البطريرك والإمبراطور إلى البابا قرارات المجلس لإقرارها ، غير أن البابا نقولا أصر على أن يأخذ جانب اجناتيوس ، ويعزل فوتيوس . فأرسل منشوراً بابوياً إلى بطاركة الشرق يخطرهم فيه بما حدث من إقصاء اجناتيوس عن البطريركية ، وأن المقر المقدس لا يقبل هذا الظلم والاستبداد ، وطلب إليهم العمل على طرد فوتيوس ، وإعادة اجناتيوس إلى منصبه[2] . وفى الوقت ذاته ، بعث البابا إلى الإمبراطور والبطريرك برسائل أصر فيها على سلطة كنيسة روما التى تعتبر رأس الكنائس كلها . وكره أن يدين اجناتيوس ، ولم يعترف ببطريركية اجناتيوس ، وفى إبريل سنة ٨٦٣ انعقد مجمع دينى فى اللاتران ، تقرر فيه حرمان فوتيوس من مكانته الكنسية ، وقطعه من الكنيسة . إذا لم يبادر بالتخلى عن المنصب الذى اغتصبه ، وأصدر هذا الحكم أيضا على كل رجال الكنيسة الذين رسمهم فوتيوس . وقرر هذا المجمع أيضا إعادة اجناتيوس وسائر الأساقفة ، الذين جرى نفيهم ، إلى مناصبهم[3] .

على الرغم من أن هذا القرار له من الأهمية ما لا يمكن تجاهلها ، فإن فوتيوس فى سبيل المحافظة على استقلال كنيسة القسطنطينية وعلى كرسى البطريركية ، حرص على أن يتخذ البابا مثلما اتخذ نقولا ضده من إجراءات . ففى أغسطس سنة ٨٦٥ ، تلقى البابا نقولا رسالة من الإمبراطور ، تشير إلى أن ما بذله من جهود لصالح اجناتيوس ، لا أهمية لها ، وأنه ينبغى عليه أن يسحب ما أصدره من الحكم ، وهدد الإمبراطور بأنه إذا لم يستجب لطلبه ،

(١) Bury p. 197.

(٢) Ibid p. 198.

(٣) Bury p 199.

فسوف يزحف على روما ويدمرها[1] . وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى إنكار الإمبراطور دعوى البابا فى أن له السيادة العليا ، وأن له الحق فى الفصل فى النزاع بين المتنافسين على كرسى البطريركية[2] .

واشتد الخصام بين روما والقسطنطينية ، بسبب النزاع على السيطرة والسيادة على كنيسة بلغاريا ، وأدرك فوتيوس أن الوقت قد حان لكى يصوب إلى البابوية ضربة قاصمة . إذ عقد فوتيوس مجمعا محليا ، أعلن فيه بطلان ما أدخله رجال الدين من اللاتين من نحل مخالفة للمسيحية واعتبرها هرطقة . فاتهمهم بأنهم أجازوا أكل اللبن والجبن فى الصيام الكبير ، وأنهم غرسوا بذور المانوية ، بإنكارهم زواج القسس ، واتهمهم أيضا بأنهم نشروا نحلة مخالفة للدين ، وهى النحلة المعروفة بنحلة « ومن الإبن » Filioque والتى تعتبر بأن الروح القدس لم ينبثق فحسب من الأب ، بل انبثق أيضا من الإبن[3] .

وأرسل فوتيوس إلى بطاركة الشرق ، يدعوهم إلى حضور المجمع العام الذى تقرر عقده فى القسطنطينية للنظر فى القضاء على هذه الأخطاء البغيضة ، وفى الشكاوى الخطيرة التى وردت عليه من الغرب ، وتنطوى على ما ارتكبه البابا من الظلم والاستبداد[4] .

وهذه الحركة التى حدثت فى الكنيسة الغربية ، جرى اتخاذها دليلا على

(١) Ibid p. 199.

(٢) Bury p. 199. Dvornik p. 89.

(٣) Bury p. 200.

(٤) يشير فوتيوس إلى ما تلقاه رئيسا أساقفة كلن وتربيه من احتجاج على تصرفات البابا نقولا الأول ، إذ اعتدى على اختصاصهما ، فألغى قرار مجمع متز الذى انعقد للنظر فى أمر ما أقدم عليه لوثير الثانى ملك لوثرنجيا من طلاق زوجته وإقراره طلب الملك ، وذلك بفضل تأييد رئيس الأساقفة . ولم يكتف البابا نقولا بذلك ، بل عزل هذين الكنسيين الكبيرين . فنزعم هذان الكنسيان حركة ، انتظم فيها عدد كبير من الأساقفة لمقاومة دعاوى البابا ، فوصفوه فى بيانهم بالاستبداد والمكر والغطرسة ، ونزوعه إلى أن يكون إمبراطوراً على جميع العالم . وأرسلوا نسخة من هذا البيان إلى بطريرك القسطنطينية ، والتمسوا منه أن ينهض لمساعدتهم وإنقاذهم منه . (انظر Bury p. 201)

سلامة موقف فوتيوس والحكومة البيزنطية ، وجعلت البطريرك يعد من الخطط ما يحتاج إلى وقت لبلورتها واكتمالها . ومن المحقق أنه جرى فى السنوات ٨٦٥ — ٨٦٧ مفاوضات سرية بين القسطنطينية والإمبراطور لويس ، انتهت بالاتفاق على أنه إذا قرر بطاركة الشرق قطع البابا من الكنيسة ، يبادر لويس إلى طرده من روما باعتباره مغتصبا ومتهرطقا ، وعندئذ يعترف البلاط البيزنطى رسميا بالإمبراطورية الغربية ، وبلقب إمبراطور الذى اتخذه لويس[1] .

وبذلك صار فوتيوس ، الذى فكر البابا فى استدعائه للمثول أمام محكمته ، وليقضى فى النزاع بينه وبين اجناتيوس ، يتهم الآن روما بالزندقة . ففى سنة ٨٦٧ انعقد بالقسطنطينية مجمع تولى رئاسته الإمبراطور ميخائيل الثالث ، وتقرر فيه قطع البابا نقولا الأول من الكنيسة . وبطلان مذهب كنيسة روما بشأن الروح القدس واعتباره هرطقة ، واعتبر تدخل روما فى شئون كنيسة بيزنطة أمراً غير مقبول أو مشروع[2] . وأرسل البطريرك إلى جميع البطريركيات بالشرق منشوراً ، ناقش فيه بالتفصيل ما فى كنيسة روما من عقائد وتقاليد ونحلة (ومن الإبن) وأعلن استنكارها وبطلانها[3] .

نهاية الأسرة العمورية

غير أنه فى هذه اللحظة التى اشتد فيها النضال ، وقعت ثورة فى القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية ، غيرت كل الأمور ، إذ أن ميخائيل الثالث سعى إلى حتفه بالتماسه صداقة باسيل المقدونى[4] .

ينتمى باسيل إلى أسرة أرمنية وضيعة غير معروفة . وقع أبواه فى أسر كروم البلغارى ، فانتقل مع أسرته إلى الإقليم الذى يقع وراء نهر الدانوب ،

(١) Bury p. 201.

(٢) Ostrogorowski : p. 206.

(٣) Ibid p. 206.

(٤) Ostrogorowski p. 170.

والمعروف باسم مقدونيا(١) . والراجح أن ما اشتهر به باسم باسيل المقدونى ، إنما يرجع إلى إقامته الطويلة فى هذا الإقليم ، فالمعروف أن باسيل وُلِد فى تراقيا لا فى مقدونيا(٢) ونشأ باسيل فى فقر مدقع ، وحينما بلغ الخامسة والعشرين من عمره دخل فى خدمة قائد ثغر مقدونية ، غير أنه حينما تبين أنه لا أمل له فى الرقى والتقدم فى الأقاليم ، عزم على أن يجرب حظه فى القسطنطينية(٣) . وما اشتهر به باسيل وقتذاك من قوة بدنية هائلة ، هيأ له الفرصة لأن يعمل سائسا عند أسرة الإمبراطورة تيودورا(٤) . ومن هذه البداية أخذ يرتقى ويرتفع ، ولا شك أن ما اتصف به الإمبراطور ميخائيل الثالث ، من الأهواء المتقلبة ، أسهم فى رقى وتقدم باسيل المقدونى . إذ لم يلبث باسيل أن استرعى نظر الإمبراطور . ذلك أن ميخائيل تلقى هدية ، كانت عبارة عن فرس جموح قوى النفس ، شديد النشاط . لم يستطع سائسوه أن يعالجوه ، فأشار عليه قريبه Theophilitzes ، الذى يخدم عنده باسيل ، بأن يقوم باسيل على ترويضه ومعالجته ولما نجح باسيل فى مهمته ، وأثار اهتمام الإمبراطور بقوته البدنية ، ألحقه بخدمته(٥) . ولم يلبث باسيل أن صار أقرب الأصدقاء إلى ميخائيل الثالث ، وذلك لأنه صار يشغل وظيفة Protostrator سنة ٨٥٩ ، ومن واجب صاحب هذه الوظيفة أن يقوم على خدمة الإمبراطور(٦) . فأخذ يراقب مايجرى فى القصر من مؤامرات ، ويعمل على أن يفيد منها ، مثال ذلك ، أنه لما وقع النزاع بين بارداس ، خال الإمبراطور ، وقسيمه فى الحكم ، وبين كبير الأمناء (الحجاب) ، ترتب على ذلك ، أنه تقرر تعيين باسيل فى منصبه(٧) .

(١) Bury p. 166. Vasiliev p. 301.
(٢) Ibid. p. 166.
(٣) Ostrogorowski : p. 206.
(٤) Bury p. 166.
(٥) Bury p. 168.
(٦) Ibid, p. 168.
(٧) Ibid. p. 169.

ولما أصبح باسيل وثيق الصلة بالإمبراطور ، أخذ يدبر مؤامرة للتخلص من بارداس الذى وضع فيه الإمبراطور كل ثقته ، لما امتاز به من الكفاءة الإدارية والعسكرية والخبرة المالية فضلا عن تشجيعه الحركة العلمية ومناصرته للبطريرك(١) . ولما لم يصغ الإمبراطور لما يدسه باسيل له ضد خاله ، لجأ باسيل إلى خطة ماكرة إذ عقد الصداقة مع صهر بارداس ، وكان وزيراً ، ووعده بأنه سوف يحل مكان بارداس ، إذا اشترك معه فى التآمر ضده(٢) .

سنحت لباسيل الفرصة فى ربيع سنة ٨٦٦ ، حينما جرت الاستعدادات للقيام بحملة ضد المسلمين فى كريت ، وتقرر أن يشترك فيها الإمبراطور ميخائيل وبارداس . وأدرك بارداس ما دبره باسيل ضده من مؤامرة ، وذلك بما أحسه من تغير سلوك الإمبراطور نحوه ، فقرر ألا يصحب الحملة ، والراجح أنه أنهى برأيه إلى ميخائيل ، وذلك لأن الإمبراطور وباسيل أقسما له على سلامة نيتهما ، وأنه لا داعى للخوف إذا اشترك فى الحملة(٣) .

واحتشدت القوات من جميع الأقاليم فى موضع اشتهر باسم البساتين (Kéroi) فى ثغر تراقيسيون ، على شاطئ نهر مايندر Maeander . وفى ٢١ إبريل سنة ٨٦٧ ، امتطى بارداس فرسه ، وتوجه مع صفوة أتباعه إلى سرادق الإمبراطور ، فاستقبله باسيل ، باعتباره كبير الحجاب ، وأدى له ما يليق بالقيصر من الولاء والخضوع ، وقاده إلى حيث يجلس الإمبراطور . ولما تكامل اجتماع العساكر ، اقترح بارداس على الإمبراطور المبادرة إلى المسير ، وعندئذ اندفع نحوه باسيل فضربه بسيفه ، فاندفع سائر المتآمرين فأجهزوا عليه(٤) . وترتب على مصرع بارداس ، أن صار باسيل قيصرا وقسيما للإمبراطور ميخائيل فى الحكم . على أن اشتراكهما فى الحكم لم يتجاوز سنة ونصف سنة ، استمر ميخائيل فى أثنائها على الإمعان فى نزواته وملذاته ،

(١) Ibid p. 164.
(٢) Bury p. 170.
(٣) Bury p. 171.
(٤) Ibid. p. 172.

فأسرف فى الشراب ، وازداد غلظة وقسوة فى أعماله ، وتغالى فى البذخ والإسراف . ولم يكن لباسيل من السلطان على ميخائيل مثلما كان لبارداس[١] .

وإذ خشى باسيل على حياته ومنصبه ، أخذ يدبر مؤامرة لاغتيال ميخائيل . وحانت الفرصة لباسيل مرة أخرى ، ليتخلص من ميخائيل وليحل مكانه على العرش الإمبراطورى . ففى ليلة ٢٣ — ٢٤ سبتمبر سنة ٨٦٧ ، كان باسيل يتناول العشاء على مائدة ميخائيل فى قصر St. Mamas . وبينما كان ميخائيل يسرف فى الشراب ، استأذن باسيل ، ونفذ إلى الحجرة التى ينام بها الإمبراطور ، فأفسد مغاليقها ، ثم عاد إلى مكانه وبعد أن انتهى ميخائيل من شرابه ، قاده باسيل إلى حجرته ، ولثم يده ثم انصرف . ولما استغرق ميخائيل فى النوم ، أجهز عليه باسيل ورفاقه الذين اشتركوا من قبل فى اغتيال بارداس . وجرت المناداة بباسيل إمبراطوراً[٢] .

(١) Bury p. 176.

(٢) Ostrogorowski : p. 206. Vasiliev p. 301.

الفصل السابع

الأسرة المقدونية

(العصر الذهبى للدولة البيزنطية)

٨٦٧ — ١٠٨١

باسيل الأول وليو السادس :

لم يكن الطريق الذى سلكه باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦) للوصول إلى العرش الإمبراطورى سهلا هيناً ، فإلى جانبه كانت زوجته إيدوسيا انجرينا Eudocia Ingerina ، المحظية السابقة للإمبراطور ميخائيل القتيل . ولإقرار ولاية العهد وتوطيدها ، توج باسيل ابنه الأكبر ، قنسطنطين ، وجعله قيسماً له فى الحكم منذ يناير سنة ٨٦٩ . ثم بعد سنة ، توج ابنه الثانى ليو ، وأعقب ذلك بتتويج ابنه الثالث اسكندر (حوالى سنة ٨٧٩) ، بعد وفاة قنسطنطين . أما ابنه الأصغر ستيفن ، فإنه سلك طريق الكنيسة ، وتولى منصب البطريرك زمن حكم أخيه ليو السادس . وأكبر أبناء الإمبراطور وأقربهم إليه ، وهو قنسطنطين ، إنما جاء ثمرة زواجه من ماريا المقدونية ، على حين أن ليو واسكندر وستيفن أنجبهم من ايدوسيا[١] ، ولم ينجب باسيل الولدين الصغيرين إلا بعد أن أصبح إمبراطوراً[٢] .

المشكلة الدينية :

جرى باسيل على سنة الأباطرة البيزنطيين من حيث الاهتمام الشديد بأمور

(١) اعتبر بعض المؤرخين ليو السادس ابنا غير شرعى لميخائيل الثالث ، وأن باسيل لم يسعه إلا أن يعتبره ابنا شرعيا له . وجرت مناقشة هذا الموضوع بين المؤرخين . انظر :
Ostrogorowski : p. 207. notel. Bury pp. 169 — 170.

(٢) Ostrogorowski : p. 207.

فأسرف فى الشراب ، وازداد غلظة وقسوة فى أعماله ، وتغالى فى البذخ والإسراف. ولم يكن لباسيل من السلطان على ميخائيل مثلما كان لبارداس[١].

وإذ خشى باسيل على حياته ومنصبه ، أخذ يدبر مؤامرة لاغتيال ميخائيل. وحانت الفرصة لباسيل مرة أخرى ، ليتخلص من ميخائيل وليحل مكانه على العرش الإمبراطورى. ففى ليلة ٢٣ — ٢٤ سبتمبر سنة ٨٦٧ ، كان باسيل يتناول العشاء على مائدة ميخائيل فى قصر St. Mamas . وبينما كان ميخائيل يسرف فى الشراب ، استأذن باسيل ، ونفذ إلى الحجرة التى ينام بها الإمبراطور ، فأفسد مغاليقها ، ثم عاد إلى مكانه وبعد أن انتهى ميخائيل من شرابه ، قاده باسيل إلى حجرته ، ولثم يده ثم انصرف. ولما استغرق ميخائيل فى النوم ، أجهز عليه باسيل ورفاقه الذين اشتركوا من قبل فى اغتيال بارداس. وجرت المناداة بباسيل إمبراطوراً[٢].

---

(١) Bury p. 176.

(٢) Ostrogorowski : p. 206. Vasiliev p. 301.

الفصل السابع

الأسرة المقدونية

(العصر الذهبى للدولة البيزنطية)

٨٦٧ — ١٠٨١

باسيل الأول وليو السادس :

لم يكن الطريق الذى سلكه باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦) للوصول إلى العرش الإمبراطورى سهلا هيناً ، فإلى جانبه كانت زوجته إيدوسيا انجرينا Eudocia Ingerina ، المحظية السابقة للإمبراطور ميخائيل القتيل. ولإقرار ولاية العهد وتوطيدها ، توج باسيل ابنه الأكبر ، قنسطنطين ، وجعله قيسماً له فى الحكم منذ يناير سنة ٨٦٩. ثم بعد سنة ، توج ابنه الثانى ليو ، وأعقب ذلك بتتويج ابنه الثالث اسكندر (حوالى سنة ٨٧٩) ، بعد وفاة قنسطنطين. أما ابنه الأصغر ستيفن ، فإنه سلك طريق الكنيسة ، وتولى منصب البطريرك زمن حكم أخيه ليو السادس. وأكبر أبناء الإمبراطور وأقربهم إليه ، وهو قنسطنطين ، إنما جاء ثمرة زواجه من ماريا المقدونية ، على حين أن ليو واسكندر وستيفن أنجبهم من ايدوسيا[١] ، ولم ينجب باسيل الولدين الصغرين إلا بعد أن أصبح إمبراطوراً[٢].

المشكلة الدينية :

جرى باسيل على سنة الأباطرة البيزنطيين من حيث الاهتمام الشديد بأمور

---

(١) اعتبر بعض المؤرخين ليو السادس ابنا غير شرعى لميخائيل الثالث ، وأن باسيل لم يسعه إلا أن يعتبره ابنا شرعيا له. وجرت مناقشة هذا الموضوع بين المؤرخين. انظر :
Ostrogorowski : p. 207. notel. Bury pp. 169 — 170.

(٢) Ostrogorowski : p. 207.

الكنيسة . على أنه اتخذ اتجاهاً مخالفاً لما سارت عليه السياسة الكنسية زمن بارداس وميخائيل الثالث .

سبق أن أشرنا إلى ما وقع من الشقاق الدينى بين روما والقسطنطينية ، وإلى أن كلا من البابا والبطريرك ، قطع كل منهما الآخر من الكنيسة . على أن هذا الشقاق لم يلبث أن تمت تسويته ، وأن محاولات البطريرك فوتيوس لتدمير خصمه باءت بالفشل . إذ تغير الموقف بعد مصرع الإمبراطور ميخائيل . فما كاد باسيل يتولى العرش ، حتى أمر بعزل فوتيوس وإعادة اجناتيوس إلى كرسى البطريركية (نوفمبر سنة ٨٦٧) .

وهذا الإجراء الذى اتخذه باسيل ، إنما قصد به أن يوطد مركزه على العرش ، الذى لا يستند فيه إلى حق شرعى . إذ أدرك أنه بإعادة اجناتيوس إلى البطريركية ، يتحقق له هدفان : الأول عودة العلاقات الودية مع البابا ، والثانى ، الحصول على تأييد البيزنطيين ، الذين يعطف معظمهم على اجناتيوس[1] . وأقر كل من باسيل واجناتيوس ، فى رسالتهما إلى البابا[2] ، بما للبابا من سلطة ونفوذ فى أمور الكنيسة الشرقية ؛ إذ ورد فى هاتين الرسالتين ما يشير إلى دعوة البابا إلى إصلاح الكنيسة ، وإعادة الوحدة إليها ، وإلى أن يرسل البابا مندوبين من قبله لتنظيم الكنيسة . وهاتان الرسالتان تدلان على أن البابوية أحرزت النصر فى الشرق[3] . وفى سنة ٨٦٩–٨٧٠ انعقد مجمع بالقسطنطينية ، شهده مندوبون عن البابا هادريان الثانى ، وتقرر فيه قطع البطريرك فوتيوس من الكنيسة . وهذا المجمع تعتبره كنيسة روما المجمع المسكونى الثامن[4] . على أنه لم يتم الاتفاق بين باسيل ومندوبى البابا على أى مبدأ من الناحية العملية ؛ لأن كلا من الجانبين تمسك بوجهة نظره فيما يتعلق بسلطة المركز الرسولى بروما (البابوية) . فبينما

(١) Vasiliev : p. 303. Bury. p. 204.

(٢) المعروف أن البابا نقولا الأول مات فى نوفمبر سنة ٨٦٧ ، وخلفه البابا هادريان الثانى ، الذى تلقى هاتين الرسالتين .
Vasiliev : p. 330.

(٣) Vasiliev : p. 330.

(٤) Ostrogorowski : p. 208.

اعتبر مندوبو البابا أن أمر فوتيوس ، قد تم البت فيه من قبل البابا ، فإن الإمبراطور حرص على أنه ينبغى أن يعاد النظر فى هذه المسألة ، فى مجمع ينعقد بإرشاده وبتوجيهه ، وأنه لا بد أن يصدر القرار عنه[1] . على أن المجمع أسفر عن نتيجة لم تتوقعها روما . إذ ما كاد يمضى على انفضاض المجمع ثلاثة أيام ، حتى قدم إلى القسطنطينية سفارة بلغارية ، تطلب من المجمع أن يصدر قراراً بشأن البطريركية التى تنتمى إليها بلغاريا[2] ، فهل هى تابعة لكنيسة روما أو بطريركية القسطنطينية[3] . ذلك أن بوريس ملك بلغاريا ، لم يتحقق له ما عقده على تحالفه مع روما من آمال ، فلم يقربه اتصاله بروما من الهدف الذى يرمى إليه ، وهو إقامة كنيسة مستقلة فى بلغاريا ، ولما رفضت روما مرشحيه للأسقفية التى أزمع أن ينشئها فى بلغاريا ، ولى وجهه مرة أخرى ، نحو القسطنطينية وهذا هو السر الذى من أجله توجهت السفارة البلغارية إلى القسطنطينية[4] ، وتقرر امتداد انعقاد المجمع برآسه الإمبراطور للنظر فى مشكلة الكنيسة البلغارية ، وشهده مندوبون عن البطريركيات ، ومبعوثو بلغاريا ، وحاول مندوبو البابا الاحتجاج على هذا الإجراء ، لمخالفته إرادة البابا ، الذى يخضع لسلطانه الكنيسة بأسرها . غير أن احتجاجهم ضاع سدى ، وتقرر انتماء بلغاريا لبطريركية القسطنطينية[5] . غير أن كنيسة بلغاريا احتفظت بقدر من الاستقلال . وتقررت رسامة رئيس أساقفة بلغاريا وجماعة من أساقفتها[6] . وأعاد بوريس بذلك الاتحاد مع الكنيسة الشرقية ، وكان لهذا الحادث أثر كبير فى مستقبل البلغاريين[7] .

(١) Ibid. p. 208.

(٢) Dvornik p. 152.

(٣) Ostrogorowski : p. 208.

(٤) Ostrogorowski: p. 208.

(٥) Dvornik p. 153.

(٦) Ostrogorowski p. 203.

(٧) Vasiliev : p. 331.

أما فوتيوس ، فعلى الرغم مما تعرض له فى منفاه من المحنة الشديدة ، فلا زال موضع إعجاب وتقدير أتباعه ، الذين ظلوا مخلصين له أثناء بطريركية اجناتيوس . بل إن باسيل نفسه ما لبث أن أدرك أن ما جرى اتخاذه من إجراء ضد فوتيوس ، كان خاطئا وحاول أن يصلح ذلك(١) .

والواقع أن ما حدث من دخول بلغاريا فى دائرة نفوذ وسلطان الكنيسة البيزنطية والحضارة البيزنطية ، لم يتحقق إلا على حساب تدمير الصداقة مع روما التى بالغ باسيل فى تقديرها ، وضحى من أجلها بالبطريرك فوتيوس . وما أدركه باسيل آخر الأمر لمهمة بيزنطة فى العالم الصقلبى ، يتفق مع رأى فوتيوس الذى عزله ، ويطابق فكرة بارداس الذى صرعه(٢) ، وما قام به باسيل من النضال من أجل البلغار ، وما أحرزه من انتصار فى سبيلهم ، يطابق تماما اتجاه فوتيوس وبارداس(٣) .

وكثرة رسائل فوتيوس إلى أصدقائه وأتباعه من رجال الدين ، إنما تدل على ما يكنه هؤلاء له من المحبة والتقدير ، وعلى أنه لا زال عدد كبير من كبار الموظفين مقيمين على صداقتهم له(٤) . وما وعد به المقر المقدس بروما ، الإمبراطور من مساعدة لتوطيد سلطانة وحكمه ، بل إن باسيل لقى مقاومة ومعارضه من مندوبى البابا ولم يحظ باسيل أيضاً بنصرة الجيش له ، وهو الجيش الذى شهد من الانتصارات زمن بارداس وميخائيل ما يجعله ينفر من تقدير قاتلهما(٥) . ولما لم يطمئن إلى إخلاص الجيش لم يحاول أن يخاطر بالقيام بحملات حربية ، وهذا هو السر فى أنه لجأ إلى مصالحة أمير الشام ، وإلى ما أنفقه فى سخاء على تأليف رسائل فى تمجيد العهد الجديد(٦) .

(١) Vasiliev : p. 331.
(٢) Ostrogorowski : p. 208.
(٣) Ibid. p. 208.
(٤) Dvornik p. 162.
(٥) Ibid. p. 162.
(٦) Dvornik p. 164.

واتخذ فوتيوس إزاء الإمبراطور سياسة تدل على ذكائه وكياسته . إذ حرص هو وأساقفته على أن يظهروا باستمرار ولاءهم وإخلاصهم للإمبراطور . وظهر أثر هذه السياسة فيما حدث من التحسن فى معاملة فوتيوس ، وبات الاتفاق والصلح بين باسيل وفوتيوس أمرا قريب الوقوع . وعلى الرغم من أننا لم نقف على تاريخ توقف العداوة بين الرجلين ، فإن هذا التاريخ لا يرجع إلى أبعد من سنة ٨٧٣(١) . ففى ربيع سنة ٨٧١ ، أرسل باسيل إلى لويس الثانى خطابه الشهير ، الذى طلب فيه من لويس ألا يستعمل لقب إمبراطور ، وذلك لما تبين لباسيل من أطماع لويس فى جنوب إيطاليا(٢) . وفى ذلك من الدلالة على أنه إذا لم يكن قد حدثت القطيعة الكاملة مع الغرب ، فلا أقل من أنه يدل على أن الإمبراطور أضحى له من القوة ، ما يستطيع أن يستغنى بها عن صداقة الغرب(٣) .

وماحدث من رفض البابا هادريان مساعدة الإمبراطور فى توطيد حكمه ، أتم القطيعة(٤) .

ولكل هذه الأسباب استدعى باسيل فوتيوس من منفاه ، فأضحى من أخلص أصدقائه ، فعهد إليه بتربية أبنائه ، وأفرد له مسكنا بالقصر الإمبراطورى يأوى إليه . ولا شك أن فوتيوس استأنف دروسه فى جامعة ما جنورا لأن ما جعله الإمبراطور له من حجرات إنما تقع بهذا القصر(٥) . ثم قام باسيل بالتوفيق بين اجناتيوس وفوتيوس سنة ٨٧٦(٦) . ولما مات اجناتيوس فى ٢٣ أكتوبر سنة ٨٧٧ ، خلفه على كرسى البطريركية فوتيوس ، طبقاً لما تم الاتفاق عليه بين هؤلاء الثلاثة باسيل ، واجناتيوس ، وفوتيوس(٧) .

(١) Ibid p. 164.
(٢) Lewis pp. 187 — 188. Ostrogorowski p. 212.
(٣) Dvornik p. 164.
(٤) Ibid. p. 164.
(٥) Dvornik p. 165. Vasiliev p. 331.
(٦) Ibid p. 171.
(٧) Ibid p. 171.

وفى مايو سنة ٨٧٩ تلقى البابا حنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) رسائل من سفراء من قبل الإمبراطور باسيل والبابا فوتيوس ومن رجال الدين بالقسطنطينية . وطلب الإمبراطور فى رسالته أن يعترف البابا بالبطريرك الجديد (فوتيوس) ، وعقد مجمع لتنظيم مركز بزنطة ووضعها . أما رسالة الدين فتضمنت إجماع رجال الدين على الاعتراف بفوتيوس بطريركا[١] .

على أن الرسائل التى وجهها البابا إلى باسيل وفوتيوس ورجال الدين ، ردا على رسائلهم فإنها تنطوى على إقراره بعودة فوتيوس إلى البطريركية بشرط أن ينكر أمام المجمع ما بدر منه ، وأن يصلح سلوكه وأن يقر ما للمقر المقدس (البابا) من حق فى محاكمة البطاركة ، ولما عرضته روما من شروط عودة فوتيوس للبطريركية . فينبغى على فوتيوس ألا يمارس سلطة الكنيسة فى بلغاريا بل يعيدها إلى تبعية المقر المقدس (روما) ، وألا يختار ، مستقبلا ، أسقفا من العلمانيين ، وأن يتعهد هو ورجال الدين البيزنطيون بأن تقبل الكنيسة البيزنطية الأوضاع الجديدة . وأشار البابا بأنه زود مبعوثيه إلى المجمع بتعاليم خاصة[٢] .

انعقد بالقسطنطينية سنة ٨٧٩ — ٨٨٠ مجمع بلغ من ضخامته أنه فاق بعض المجامع المسكونية ، وشهده مندوبون عن البابا حنا الثامن ، ولم يعترفوا فحسب بعودة فوتيوس إلى البطريركية ، بل تحتم عليهم أن يستمعوا إلى صيغة المذهب الدينى التى لم يرد بها ما يشير إلى نحلة « ومن الابن » السائدة فى الغرب[٣] . وأصدر المجمع ثلاثة قوانين أهمها : أن البطريرك فوتيوس يحرم من يحرمه البابا حنا من رجال اكليروسه ، أوأبناء رعيته المقيمين فى آسيا أوأوربا أوأفريقية ، وأن البابا يقوم بمثل ذلك . وما لكنيسة روما من المكانة يظل باقياً على ماكان عليه دون تغيير فى الحاضر أو المستقبل[٤] ، وناقش المجمع مسألة أن البابا ليس

(١) أسد رستم . الروم ج ٢ ص ١٠ . Ibid p. 174.
(٢) Dvornik p. 175.
(٣) Vasiliev : p. 331.
(٤) أسد رستم . الروم ج ٢ ص ١٠ .

إلا بطريركا من البطاركة ، وليس له السلطة على جميع الكنيسة ، ومن ثم فليس المحتم على بطريرك القسطنطينية ، أن يتلقى من بابا روما صيغة التصديق على بطركته[١] .

وانعقدت الجلسة الختامية فى مارس ٨٨٠ فى البلاط الإمبراطورى ، وحضرها باسيل وأولاده ، وتقرر التصديق على العقيدة القديمة التى صدرت فى نيقية[٢] . على أن البابا استشاط غيظاً ، وأرسل إلى القسطنطينية يطلب إلغاء كل قرار صدر لا يقره البابا . وأصر مندوب البابا على أن يحصل على بعض حقوق وامتيازات تتعلق بكنيسة بلغاريا ، غير أن باسيل وفوتيوس رفضا أن يستجيبا لأى طلب من هذه الطلبات ، بل أنهما ذهبا إلى أبعد من ذلك ، إذ أمرا بالقبض على المندوب البابوى[٣] ، على أن العلاقات بين روما والقسطنطينية لم تنقطع ، غير أنها لم تكن منتظمة أو وثيقة . ولم يستمر فوتيوس فى منصبه حتى وفاته ، إذ تخلى عن البطريركية حين تولى عرش الإمبراطورية تلميذه ليو السادس ، وذلك فى سنة ٨٨٦ ، ولم يلبث أن قضى نحبه بعد مضى خمس سنوات على هذا التاريخ (٨٩١)[٤] .

وفى زمن باسيل جرت محاولات لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية وبين المخالفين للمذهب الأرثوذكسى ، والراجح أنه حدث فى عهده أن حاولت الإمبراطورية البيزنطية أن تحول الروس إلى المسيحية ، فيشير مصدر تاريخى إلى أن باسيل حث الروس على أن يقبلوا على التنصير ، وأن يقروا رئيس الأساقفة الذى سامه لهم اجناتيوس . على أنه من العسير أن نقرر أية طائفة من الروس يشير إليها المصدر التاريخى[٥] ، على أنه حدث أيضاً فى زمن باسيل الأول ، أن اعتنق المسيحية الجانب الأكبر من القبائل الصقلبية التى تنزل

(١) Vasiliev : p. 331.
(٢) أسد رستم . الروم ج ٢ ص ١١ .
(٣) Vasiliev : p. 332.
(٤) Vasiliev : p. 332.
(٥) Theophanes Continuatus, Historia Bonn ed. 342 — 343
Vasiliev : p. 332,

البيلوبونيز(١) ، وكذا الصقالبة الوثنيون الذين يقيمون بجبال تايجيتوس Taygetus واعتنق المسيحية أيضا فى زمن باسيل الصقالبة الذين أقاموا بغرب شبه جزيرة البلقان ، فخضعوا بذلك لنفوذ بيزنطة وسلطانها(٢) . وألزم باسيل اليهود باعتناق المسيحية(٣) .

باسيل والبلقان

والمعروف أن الجزء الغربى من البلقان أخذ ينسحب ، زمن الحركة اللاأيقونية ، من دائرة نفوذ الإمبراطورية البيزنطية وفى النصف الأول من القرن التاسع صارت مدن ساحل دالماشيا والقبائل الصقلبية النازلة على هذا الساحل وفى الجهات الداخلية ، تقطع صلتها بالدولة البيزنطية . وفى أثناء هذه الفترة ظهرت أيضاً مملكة مستقلة قوية فى بلاد الصرب بزعامة فلاستمير Vlastimir ، غير أنها لم تستمر زمنا طويلا (٤) .

وفى هذه الأثناء أيضاً تعرض ساحل بحر الأدرياتيك لخطر جديد ، وهذا الخطر إنما جاء وقتذاك من قبل المسلمين بجنوب إيطاليا . على أن بيزنطة استطاعت أن تعيد سيادتها على الساحل الشرقى لبحر الأدرياتى(٥) . وذلك أنه حينما حاصر الأسطول الإسلامى رجوزا (ديروفنك Dulrovnik) سنة ٨٦٧ ، استنجدت هذه المدينة بالدولة البيزنطية ، فأرسل الإمبراطور باسيل أسطولا مؤلفا من مائة سفينة بقيادة البطريق نكيتاس ، لنجدة راجوزا التى حاصرتها قوات إسلامية من كريت وتارنت ، فاضطرت إلى رفع الحصار عن راجوزا بعد أن استمر خمسة عشر شهرا(٦) . والراجح أن إنشاء ثغر دالماشيا ، الذى يضم

(١) انظر : Bury p. 379. Ostrogorowski p. 209.
(٢) Ostrogorowski : p. 209.
(٣) Vasiliev p. 332.
(٤) Ostrogorowski : p. 209.
(٥) Lewis p. 137 Ostrogorowski d. 209.
(٦) Lewis ; p. 137. Ostrogorowski : p. 209.

المدن البيزنطية وجزر بحر الأدرياتى ، إنما يرجع إلى هذا التاريخ(١) . فالمعروف أن مدن دالماشيا وجزائرها ازداد اعتمادها على أراضى الصقالبة المتاخمة للساحل الدالماشى ، لا على القسطنطينية ، ولذا صارت تدفع إتاوة للقبائل الصقلبية ، وما تدفعه من مبالغ ضئيلة لقائد الثغر لم تكن إلا على أنها رمز للتبعية(٢) على أنه من جهة أخرى لم تكن مدن دالماشيا وحدها هى التى اعترفت بما لبيزنطة من امتيازات ، وتحتم عليها نتيجة ذلك أن تنهض لمساعدة الإمبراطورية البيزنطية من الناحية الحربية ، بل شاركها فى ذلك القبائل الصقلبية النازلة بساحل دالماشيا وبداخل البلاد ، وبذلك ازداد رسوخ النفوذ البيزنطى فى البلقان ، وترتب على ذلك سرعة انتشار المسيحية . إذ حدث وقتذاك أن تحول الصربيون والقبائل الصقلبية النازلة بالجهات التى تطل على ساحل دالماشيا الجنوبى ، إلى المسيحية على مذهب الدولة البيزنطية ، بل إن نفوذ بيزنطة تغلب فترة من الزمن على ماكان لمملكة الفرنجة (الكارولنجيين) وكنيسة روما من سيادة فى كرواتيا ، يضاف إلى ذلك أن جهود بيزنطة التبشيرية فى البلقان ، لا سيما فى مقدونيا وبلغاريا ، ازدادت قوة بمن قدم إلى هذه الجهات من تلاميذ مثوديوس (المتوفى سنة ٨٨٥) ، الذين جرى طردهم من مورافيا ، فأخذوا ينشرون الديانة المسيحية والحضارة البيزنطية بين الشعوب الصقلبية . وبذلك دخلت مورافيا فى دائرة النفوذ الرومانى ، بينما دخلت بلغاريا ومقدونيا وصربيا فى دائرة النفوذ البيزنطى(٢) .

إيطاليا :

أما مركز بيزنطة فى (إيطاليا) فإنه ازداد متانة وقوة ، إذ أن أمير بنيفنتو التمس حماية بيزنطة بعد ثورته على الملك لويس الثانى سنة ٨٧٣ ، وترتب على ما وقع من العداء بين باسيل ولويس الثانى ، ومقاومة بيزنطة لأطماع الكارولنجيين

(١) Ostrogorowski : p. 209.
(٢) Ostrogorowski p. 210.

فى جنوب إيطاليا ، أن استولى باسيل على أوترانتو سنة ٨٧٣ . ولما مات لويس الثانى سنة ٨٧٥ ، فتحت بارى سنة ٨٧٦ أبوابها لقائد الثغر البيزنطى[١] ، ولم يبق فى يد المسلمين إلا تارنت ، التى منها أو من كريت أقلع أسطول إسلامى فأغار سنة ٨٧٥ على البندقية ، وأحرق ميناء كوماشيو Comacchio على مصب نهر البو ، وتعتبر هذه آخر غارة قام بها المسلمون فى أعالى بحر الأدرياتى[٢] .

وعلى الرغم من أن الدولة البيزنطية بمساعدة البندقية ، استطاعت أن تصد الضربات التى وجهها المسلمون إلى سواحل دالماشيا واليونان والبيلوبونيز ، وأن تستولى على جزيرة قبرص وتحتلها لمدة سبع سنوات ، فإنها لم تستطع أن تبسط سلطانها على الساحل الغربى لإيطاليا[٣] . إذ ازداد ضغط المسلمين على امتداد هذا الساحل الإيطالى ، فأغاروا على جائيتا Gaeta وسالرنو ، وتعرضت إمارة البابا لهذه الغارات التخريبية ، واستنجد البابا حنا الثامن بالإمبراطور شارل الأصلع ، وبالدولة البيزنطية ، وبمدن أمالفى وجائيتا ونابولى ، غير أن دعوته لم تلق اهتماما محسوساً . فلم تحفل الدولة البيزنطية بمساعدته لما تبين لها من ممالأته للكارولنجيين ومناوأته لمصالحها ، فضلا عن تحسن مركزها فى صقلية والشرق . ولم يكن لدى شارل الأصلع قوة بحرية يستطيع أن يبعث بها لرد المسلمين . يضاف إلى ذلك أن مدن كامبانيا حرصت على الإبقاء على صداقة المسلمين . فلم يسع البابا ، إزاء كل ذلك ، إلا أن يدفع للمسلمين جزية قدرها ٢٥ ألف دينار حتى يستتب الأمن والسلام فى أملاك الكنيسة بوسط إيطاليا[٤] ثم استولى المسلمون على جزيرة مالطة ، التى اشتهرت بموقعها الحربى بجنوب صقلية[٥] .

---

(١) **Lewis p. 138. Ostrogorowski p. 211.**

(٢) **Lewis p. 138.**

(٣) **Ibid. p. 138. Ostrogorowski p. 211.**

(٤) **Lewis p. 138.**
Engreen : Pope John VII and the Arabs, Speculum (1945) XX.

(٥) **Vasiliev p. 304.**

وفى سنة ٨٧٨ سقطت سيراكوز ، بعد حصار استمر تسعة شهور ، تعرضت أثناءه المدينة لمجاعة مريعة ترتب عليها وباء ، هلك فيه عدد كبير من السكان ، فلم يبق فى يد البيزنطيين إلا تاورمينا Taormina[١] فى شرق الجزيرة . على أن ضغط المسلمين لم تتوقف حدته إلا سنة ٨٨٠ ، حين ظهر أسطول بيزنطى تجاه صقلية ، واعترض طريق التجارة بين المسلمين ومدن جنوب إيطاليا ، واستولى على مقادير من الزيت بلغت من الوفرة أن انخفضت أسعار الزيت فى أسواق القسطنطينية[٢] . ومن الواضح أن هذا الأسطول اتخذ قاعدته ترمينى Termini . وعلى الرغم من أن نابولى عادت إلى سابق تبعيتها لبيزنطة[٣] . بسبب قوة هذا الأسطول ، فإن نشاط المسلمين البحرى لم يتوقف فى المياه الغربية ، بل إنهم اتخذوا لهم قاعدة بحرية فى سنة ٨٨٢ أو ٨٨٣ ، فى مونتى جارجليانو[٤] Monte Garigliano .

وترتب على قوة بيزنطة البحرية فى هذه الجهات ، أن تقرر عقد هدنة فى سنة ٨٨٥ بين المسلمين فى صقلية وبين البيزنطيين . وفى نفس السنة استطاعت بيزنطة أن تنزل فى جنوب إيطاليا جيشاضخما بقيادة نقفور فوكاس[٥] . وتقرر إنشاء ثغرين فى كالابريا وأبوليا ، بينما اعترفت بنيفنتو بسلطة بيزنطة ، وجرت على نهجها مدن كامبانيا[٦] . فأضحت بيزنطة ، وسط الإمارات الإيطالية الصغيرة المتعادية ، العامل الوحيد الذى يمثل القوة والاستقرار . وهذه الأمور تفسر ما اتخذته البابوية من اتجاه طيب نحو بيزنطة فى الأمور الكنسية[٧] .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٢٢٢ .
Ostrogorowski p. 211. Vasiliev p. 304.

(٢) **Lewis p. 138.**

(٣) **Gasquet pp. 422—423.**

(٤) **Lewis p. 139.**

(٥) **Ibid. p. 139.**

(٦) **Ibid. p. 139.**

(٧) **O trogorowski p. 212.**

الحرب ضد المسلمين فى الشرق :

الواقع أنه تهيأ لباسيل من الأحوال المواتية لقتال المسلمين مالم يتهيأ لإمبراطور قبله ، فإلى جانب ما يربطه من علاقات سلمية مع جيرانه المسيحيين (ارمينيا ، روسيا وبلغاريا ، والبندقية والإمبراطورية الغربية) ، سادت الفتن الداخلية فى أنحاء العالم الإسلامى ، فازداد نفوذ الترك فى دار الخلافة العباسية ببغداد ، واستقل أحمد بن طولون بمصر سنة ٨٦٨ ، ونشبت الحرب الداخلية فى شمال أفريقية ، واشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس ، ومع ذلك لم يتحقق للإمبراطورية البيزنطية كل ما تصبو إليه من آمال[١] .

والمعروف أن البيالصة ازداد نفوذهم فى الشرق ، وانتشروا فى سائر أنحاء آسيا الصغرى . وفى سنة ٨٧٢ توجهت حملة بقيادة كريستوفر ، صهر الإمبراطور باسيل ، والقائد العام للجيش ، لقتالهم ، فأحرزت انتصاراً حاسماً على البيالصة ، ودمرت معقلهم فى تفريق Tephrik ، وخربت ما كان لهم من استحكامات عديدة ، وبددت قواتهم فى معركة حامية ، هلك فيها زعيم البيالصة كريزوخيروس Chrysocheiruis[٢] . وترتب على هذا الانتصار أن واصل البيزنطيون الزحف نحو الشرق . فاندفع باسيل بجيشه ، حتى بلغ إقليم الفرات ، فاستولى سنة ٨٧٣ ، على زبطرة وسموساط ، ومع ذلك تعرض باسيل لهزيمة ساحقة ، حين حاول الاستيلاء على حصن ملطية الذى يعتبر من المعاقل الهامة[٣] . وعلى الرغم من أن باسيل اكتفى بهذا الانتصار الجزئى فى هذه الحملة ، وفيما تلاها من الحملات التى توجهت إلى أقاليم الفرات وإلى أطراف طوروس ، فإن عمله يعتبر بداية مرحلة جديدة من مراحل الزحف والتقدم المنتظم ، التى قامت به الإمبراطورية البيزنطيـــة على الأطراف

---

(١) Vasiliev p. 303.

(٢) Ostrogorowski : p. 211

(٣) Ostrogorowski : p. 211.

الشرقية[١] . يضاف إلى ذلك أن ما أصاب الدولة الإسلامية من الضعف ، أسهم فى نمو أرمينيا ، إذ اعترف بسلطة آشوت الأول وقرر اعتباره ملكاً ، كل من الخليفة ، سنة ٨٨٥ ، والإمبراطور البيزنطى سنة ٨٨٧ ، فكان ذلك الاعتراف بداية مرحلة من مراحل توسع أرمينية زمن الأسرة البغراطية الوطنية Bagratuni[٢] .

البلغار :

نشطت العلاقات السلمية بين باسيل الأول وبلغاريا ، وذلك نتيجة لما تم من ارتباط الكنيستين البيزنطية والبلغارية ، وبلغت المودة بين الدولتين البيزنطية والبلغارية ، أن تلقى سيمون ابن بوريس تعليمه فى القسطنطينية . وأفاد باسيل من هذه العلاقات الودية ، بما قام به من حروب ضد المسلمين فى آسيا الصغرى وإيطاليا . أما بوريس فإنه أفاد من حالة الهدوء والسلام فى إصلاح مملكته الناشئة التى لم تعتنق المسيحية إلا حديثاً[٣] .

الإصلاح المالى :

ما كاد باسيل يتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية ، حتى نهض بأعباء الحكم ، وأول شىء أولاه الاهتمام الكبير ، الإدارة المالية ، إذ أن حالة مالية البلاد حين تولى باسيل العرش كانت بالغة السوء . ذلك أن ميخائيل الثالث استنفد كل ما لديه من موارد ، وفى سبيل الحصول على المال ، باع مقادير كبيرة من التحف الفنية ، وأمر بتحطيم وصهر كثير من الأوانى ، ولما أراد

---

(١) Ibid p. 211.

(٢) Ibid p. 211.

Vasiliev pp. 313—314.

Laurent : d'Armenieentre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqui en 886. pp. 282—283.

Grousset : Histoire de l'Armeniê pp. 394—397.

 Vasiliev p. 316,

باسيل أن يقف على محتويات الخزانة ، لم يجد بها شيئاً . غير أنه جرى العثور عند أحد الموظفين على جريدة بالحسابات ، عرف منها أن سرقات كبيرة قد وقعت . فأرغم اللصوص على إعادة ما نهبوه من الأموال ، فأفاد ذلك فى إصلاح الحالة موقتا(١) .

على أن إعادة تنظيم الإدارة المالية بالدولة كان أول إصلاح التفت إليه باسيل . إذ اشتدت المشاكل الاجتماعية سوءا . فما اشتهرت به الطبقة الإقطاعية، من السلطان والنفوذ ، أدى إلى أن يكون ثمة طبقتان متميزتان ، ازدادت الفروق بينهما ، وهما طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ، وأساء هؤلاء السادة المقطعون استخدام ما لهم من سلطان . فحاول باسيل أن يحمى الضعفاء من الأقوياء بما أظهره من العطف على صغار الملاك . فعين موظفين اشتهروا بالأمانة والإخلاص ، ليقوموا بالإدارة المالية ، وبذل جهداً كبيراً فى أن يحفظ على الفلاح ما يملكه من الأرض وأن يحول دون أن يصيب ثروته الدمار والخراب ، بما تقرر عليها من ضرائب وغرامات لاتتناسب مع ثروته(٢) . ثم حاول أن يصلح طريقة جباية الضرائب ، بأن راجع سجل الأراضى ، وحتم على الموظفين أن يثبتوا بأرقام جلية واضحة ما هو مقرر من الضريبة التى ينبغى دفعها . واشترك باسيل آخر الأمر فى الإدارة المالية ، بأن قام بفحص ومراجعة الحسابات ، وأخذ ينظر فيما وصل إلى القسطنطينية من شكاوى ، وصار يبت فيها . والراجح أن هذه الجهود التى بذلها أدت إلى شىء من التحسين فى حالة الطبقات العاملة والفقيرة . ومع ذلك فإن الأباطرة الذين خلفوا باسيل على الحكم صادفهم من سوء الأحـوال المالية والاجتماعية ما لم يكن معروفاً من قبل(٣) .

---

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 51.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 52.

(٣) Ibid p. 52.

تشريعات باسيل :

ترجع شهرة باسيل إلى أعماله التشريعية ، وما عمد إليه من مراجعة القانون الرومانى . أراد باسيل أن يصنف مجموعة شاملة للقانون البيزنطى ، تشتمل على القوانين القديم والجديد ، ويجرى ترتيبها ترتيباً زمنياً ، على أن يتم نشر ذلك باللغة اليونانية ، فضلا عن إضافة ما استجد من القوانين(١) . فالأقسام الأربعة التى تألفت منها مجموعة جستنيان والتى اشتهرت بضخامتها ، وبأنها كتبت باللغة اللاتينية ، لم تدرس إلا فى الملخصات اليونانية ، فى فقرات وشروح استندت إلى الأصل اللاتينى . ومعظم هذه الشروح لم تكن ، برغم شيوع استخدامها ، بالغة الدقة ، بل بعدت فى كثير من الأحوال عن النصوص الأصلية . وحرص باسيل على أن يستبعد من القوانين القديمة ما نسختها المتجددات ، وأن يدخل عدداً من القوانين الجديدة . والمصطلحات اللاتينية التى جرى الاحتفاظ بها فى المجموعة الجديدة ، تم شرحها باللغة اليونانية ، لأن اليونانية هى اللغة التى تقرر استخدامها فى تشريعات باسيل . ووصف الإمبراطور باسيل محاولته لإصلاح القانون بأنها ليست إلا تنقية للقوانين القديمة(٢). غير أن هذا العمل الضخم لم يكتمل زمن باسيل ، إنما صار الأساس الذى أقام عليه ليو السادس أعماله التشريعية ، فأصبح الحجر الأساسى لما هو معروف زمن ليو السادس ، باسم الباسيليكا(٣) .

على أن باسيل أصدر كتابين صغيرين فى القانون ، وجعلهما مقدمة لعمله التشريعى الضخم أولهما المجمل Procheiron ، الذى صدر بأسماء باسيل وقنسطنطين وليو ، ويرجع إلى الفترة الواقعة بين ٨٧٠ ، ٨٧٩ . والكتاب كما هو ظاهر من عنوانه ليس إلا مجملا ، الغرض منه الإفادة فى الناحية العملية ،

---

(١) Ostrogorowski p. 212. Vasiliev p. 339.

(٢) Vasiiiev p. 389.

(٣) Freshfield. A Manual of Eastern Roman Law p. 51.
Ostrogorowski p. 213.

يتضمن موجزاً للقوانين التى تسير عليها الدولة ، فاشتمل على أهم ما فى القانون المدنى والقانون العام ، من القواعد التى ساد استخدامها ، وجرى تنظيمها وفقاً لترتيب خاص ، فانقسمت إلى أربعين موضوعاً أو عنواناً ، منها الخطبة والزواج ، والالتزامات ، والمواريث ، والقانون العام[١] . ولما كان الغرض من هذا المجمل أن يكون كتاباً عاماً ، فمن الطبيعى أنه استند إلى ما فى شرائع جستنيان Institutes من مادة ، ولم يحفل كثيراً بالأجزاء الأخرى من تصانيف جستنيان ، والواقع أنه لم يشر إلا قليلا إلى المصدر الأصلى ذاته ، بل استخدم الترجمات والشروح اليونانية المتأخرة[٢] . وعلى الرغم من أن الغرض من مجمل باسيل لا يختلف عن الغرض من الأكلوجا الذى أصدره ليو الثالث ، والذى كان أيضاً مجملا ، لسد حاجات القضاة ، فإن الإمبراطور باسيل حاول ألا يرتبط بقانون ليو الثالث ، الذى وصفه بأنه ليس إلا « تدميراً للقوانين الصالحة »[٣] . ومع ذلك فإن ما اشتهر به قانون الأكلوجا من الفائدة العملية ، وكثرة استخدامه ، أدى إلى أن يسير مجمل باسيل على نسقه ، لا سيما فى الجزء الثانى منه الذى يشمل قانون المواريث والقانون العام . وساد استخدام مجمل باسيل فى داخل الدولة البيزنطية ، وظل محتفظاً بقيمته حتى زوال الإمبراطورية البيزنطية[٤] ، وجرت ترجمته وترجمة الأكلوجا أيضاً ، منذ زمن مبكر ، إلى اللغة الصقلبية ، فازداد أثره عند البلغار والصربيين والروس[٥] . أما الكتاب الثانى الذى أصدره باسيل ، فإنه يماثل المجمل فى أنه ليس إلا موجزاً فى القانون ، وصدر هذا الموجز المعروف باسم Epanagoge (المدخل) بأسماء الأباطرة باسيل وليو واسكندر ، بين سنتى ٨٧٩ ، ٨٨٥ ، ولم يكن إلا صورة أخرى من المجمل ، كما يدل على ذلك عنوانه باللغة اليونانية ، وهو أيضاً يشبه

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 712.
(٢) Ibid p. 213.
(٣) Freshfield p. 51.
(٤) Ostrogorowski p. 213. Camb. Med. Hist. IV p. 52,712.
(٥) Ibid p. 213.

المجمل فى أن باسيل قصد به أن يكون مدخلا للعمل التشريعى الضخم الذى عزم على القيام به . واشتمل هذا الموجز على أربعين عنواناً أو موضوعاً تطابق فى مجموعها ما اشتمل عليه المجمل من الموضوعات ، ولا يختلف أيضاً عن المجمل ، فى أنه أفاد من قوانين جستنيان ، على الرغم من أنه تضمن أيضاً بعض القوانين المستحدثة[١] .

على أن الأيباناجوج (المدخل) يختلف عن المجمل فى أنه اشتمل على فصول جديدة بالغة الأهمية . عن سلطة الإمبراطور ، وسلطة البطريرك ، وسائر الموظفين الكنسيين والمدنيين ، وبذلك عرض صورة جلية عن الأصول والأسس التى قام عليها كيان الإمبراطورية ، وعن العلاقات بين الكنيسة والدولة . ومن أوجه الاختلاف أيضاً أن ما استمده الأيباناجوج من المجمل من مادة ، جرى ترتيبها فى صورة جديدة[٢] . وما ورد عن علاقة الكنيسة بالدولة وأنهما ليسا إلا هيئة واحدة مؤلفة من عناصر عديدة ، ويرأسها الإمبراطور والبطريرك ، باعتبارهما زعيمى العالم ، ومن واجبهما أن يعملا معاً فى وفاق تام لصالح الإنسانية ، وينبغى على الزعيم العلمانى أن يعمل على أن يهيئ للرعية السعادة المادية ، على حين يتكفل الزعيم الدينى بتوفير السعادة الروحية ، إنما يدل على أن واضع هذه النظرية لم يكن سوى فوتيوس الذى كان وقتذاك بطريركاً[٣] . وهذا هو السر فى أن ما ورد فى Epanagoge عن العلاقة المثالية بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية ، إنما تتفق مع الأفكار السائدة فى دوائر الكنيسة الأرثوذكسية[٤] .

ولم يعرف ذلك جيداً إلا فوتيوس . ولم تلبث هذه المعرفة أن أيدتها التجربة الشخصية ، على أن التطبيق لم يتفق تماماً مع الناحية النظرية ، إذ ترتب على

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 712.
(٢) Vasiliev p. 341.
(٣) Ostrogorowski p. 214.
(٤) Ibid p. 214.

تغيير الحاكم ، أن هوى فوتيوس . ذلك أنه أعقب وفاة قسطنطين المبكرة (٨٧٩) أن صار حق ولاية العرش إلى ليو ، على الرغم مما يكنه له أبوه (باسيل) من الكراهية وعدم الثقة فيه . لم يستطع باسيل أن يحتمل ما جرت به المقادير من وفاة ابنه الأثير عنده ، قسطنطين ، فعاش السنوات الأخيرة من حياته فى حالة انهيار عقلى شديد . وفى ٢٩ أغسطس سنة ٨٨٦ ، تعرض باسيل أثناء الصيد لحادث أودى بحياته[1] .

ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) :

على الرغم من الروايات التى تشير إلى أن ليو ليس إلا ابنا شرعيا للإمبراطور ميخائيل الثالث ، الذى اغتاله باسيل ، وتولى مكانه الحكم ، فإنه من الناحية الرسمية يعتبر الوريث الشرعى لباسيل ، ومن الروايات ما يشير إلى أنه ابن شرعى لباسيل وايدوسيا وأدى هذا الوضع إلى ظهور حزب فى البلاط يقوم على كراهية باسيل ، ويتعلق بأسرة ميخائيل ، التى يعتبر ليو السادس ممثلا لها[2] .

لم يكن ليو ، حين تولى العرش ، يتجاوز العشرين من عمره . على أن حياته قبل ولايته الحكم لم تكن طيبة سعيدة . تلقى ليو حظا وافرا من التعليم ، وكان لهذا التعليم ثمرته . فما اشتهر به ليو بأنه ليو الفيلسوف ، إنما يرجع إلى مؤلفاته وفصاحته وعلمه . ولعل ما أصابه من التعليم يعتبر المكرمة الوحيدة التى يدين بها لأبيه باسيل . ذلك أن باسيل أمر بإدخاله الدير ، وهو صبى صغير ، وجعله قسيما فى الحكم لأخويه قسطنطين واسكندر[3] وماكاد يتوفى قسطنطين حتى تغيرت معاملة باسيل له فحاول بكل الوسائل أن ينحى ليو جانبا ، ويجعل الأمر لإسكندر ، فزوجه من امرأة تيوفانو ، اعتقد أنها سوف لاتنجب له أطفالا ،

(١) Ostrogorowski p. 214.

(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 55.

(٣) Camb Med Hist, IV p. 55.

غير أنه خاب ظنه ، ورزق ليو بطفلة ، فازدادت الكراهية بين باسيل وليو . ولما نشبت ثورة سنة ٨٨٥ ضد باسيل ، اتهم ليو بأن له يدا فيها ، فألقى به وبزوجته وابنته فى السجن . ثم تقرر إطلاق سراحه غير أنه لم يحظ بمحبة وثقة أبيه[1] .

ماكاد ليو يتولى العرش ، حتى باشر سلطته ، وعلى الرغم من أن أخاه اسكندر يعتبر من الناحية النظرية قسيما له فى الحكم ، فإن ليو انفرد بإدارة شئون البلاد[2] . ويعتبر زوتزيس Zautzes الأرمنى أكبر المستشارين مكانة عند ليو فى المرحلة الأولى من حكمه ، وهى المرحلة المثمرة التى شملت السنوات العشرة الأولى من حكمه ، وكان زوتزيس والد زوى Zoé جارية ليو ، التى اتخذها زوجة له ، وارتقى فى سلك الوظائف حتى صار يلى وظيفة basile oprator أى الأمير الوالد ، التى تعتبر أعلى وظائف الدولة ، والتى أنشأها له[3] .

السياسة الداخلية — المشكلة الدينية :

وأول مشكلة دينية واجهت الحكومة الجديدة ، مشكلة فوتيوس . فعلى الرغم من أن فوتيوس قام بتربية ليو السادس . وبفضله صار يلم بجميع علوم عصره ، فدرس الفلسفة والمنطق واللاهوت والفقه وفن الحرب ، والشعر ، واشتهر بميوله الكنسية واللاهوتية ، فصدر عنه عدد من القصائد الدينية ، وعدد كبير من المواعظ والخطب التى كان يلقيها بنفسه فى الأعياد الكنسية ، فإنه ماكاد يتولى الحكم حتى عزل فوتيوس من كرسى البطريركية[4] . وذلك لما

(١) Ibid p. 255.

(٢) Ostrogorowski p. 215.
Camb. Med. Hist. IV p. 56.

(٣) Ostrogorowski p. 215.

(٤) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ١٤ . Ibid p. 215.

تبادر إلى ذهنه بأن فوتيوس هو الذى حرض باسيل على أن يسىء إليه ، ويأمر بسجنه[1] ، أو لأنه خشى ازدياد نفوذ البطريرك وحزبه ، أو لأنه أراد أن يجعل أخاه ستيفن بطريركا ، وبذلك تنطلق يده فى الأمور الكنسية بالإمبراطورية ، فلا يستطيع تحقيق ذلك إذا ظل فوتيوس بطريركا[2] . فأمر بنفى فوتيوس إلى أرمينيا حيث مات سنة ٨٩١ ، وخلفه على البطريركية سنة ٨٨٦ ستيفن الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، غير أنه لم يستمر بها زمنا طويلا ، إذ مات سنة ٨٩٣ . وما حدث سنة ٩٠٠ من تبادل السفارات والرسائل بين روما والقسطنطينية ، أدى إلى التوفيق بين الكنيستين ، وتقرر تنصيب انطون كالوياس Anthony Cauleas بطريركا ، وبذلك انتهى الشقاق بين الكنيستين[3] .

التشريعات :

من الأعمال التى لها قيمة تاريخية كبيرة ، ذلك العمل القانونى الضخم الذى تم زمن ليو السادس ، والذى جعله أوفر المشرعين إنتاجا منذ زمن جستنيان . ومع ذلك فمن الخطأ المبالغة فى تقدير نصيب ليو فى هذا العمل . إذ سبق أن أشرنا إلى أن عملا تحضيريا ضخما تحقق زمن أبيه . وينبغى أن نلحظ أن المرحلة الكبيرة التى توافر فيها الجهد القانونى ، إنما تقع فى السنوات العشرة الأولى من حكم ليو السادس ، أى فى الفترة التى لا زال يستند فيها إلى تأييد ستليانوس زوتزيس ، بينما لم يكن نصيب الفترة الثانية من حكمه من الإنتاج إلا قليلا[4] .

فعلى الرغم مما كان بين الأب والإبن من كراهية متبادلة ، ومن الاختلاف الشديد فى الطباع ، فإن أغراضهما كانت متماثلة . فما حدث زمن باسيل الأول

(١) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ١٤ — Camb. Med. Hist. IV p. 56.

(٢) Vasiliev p. 332.

(٣) Camb. Med. Hist. IV p. 56.

(٤) Ostrogorowski p. 216.

من مراجعة وتنقيح قانون جستنيان ، جرى استكمالها فى الباسيليكا[1] Basilica زمن ليو السادس .

أمر ليو السادس بتأليف لجنة من كبار المشرعين برئاسة سيمباتيوس Symbatius لتعيد النظر فيما تم زمن والده من تشريعات . وترتب على جهود هذه اللجنة صدور مجموعة القوانين المعروفة بالباسيليكا والتى تعتبر أضخم مجموعة للقوانين فى الإمبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى ، وصدرت فى السنوات الأولى من حكم ليو السادس ، أى بين سنتى ٨٨٦ ، ٨٩٢[2] .

حاولت اللجنة أن تنقح قانون جستنيان ، باستبعاد القوانين التى لم يعد لها أهمية أو التى لم تعد تلائم ما أصاب الحياة البيزنطية من تغيير[3] . ولذا لا تعتبر الباسيليكا ترجمة حرفية كاملة لمجموعة قوانين جستنيان ، بل جرى تصنيفها لتلائم الأحوال الجديدة للحياة البيزنطية[4]. وتقع الباسيليكا فى ستين كتابا ، تجتمع فى ستة مجلدات ضخمة ، ومع ذلك لم تحتفظ مخطوطة من المخطوطات على كل كتب الباسيليكا ، وما اشتملت عليه المخطوطات من أجزاء الباسيليكا لا يتجاوز الثلثين[5] .

والباسيليكا ليست إلا مجموعة للقانون الكنسى والقانون المدنى والقانون العام ، استندت إلى مجموعة قوانين جستنيان : القانون والمختار ، والشرائع والمتجددات ، واعتمدت أيضاً على قوانين جستين الثانى وتيباريوس التى جرت إضافتها إلى تشريعات جستنيان ، كما أنها أفادت من القانون الذى أصدره باسيل ، وهو المعروف بالمختار المحمل Procheiron ، وعلى القوانين الأخرى التى صدرت زمن ليو السادس[6] .

(١) المقصود بالباسيليكا القوانين الإمبراطورية نسبة إلى باسيليوس (الإمبراطور) ، لا إلى باسيل ، كما كان معروفا من قبل . (Vasiliev p. 342)

(٢) أسد رستم : الروم جـ ٢ ، ص ١٧ — Ostrogorowski : p. 216.

(٣) Vasiliev p. 342.

(٤) Vasiliev p. 342.

(٥) أسد رستم : الروم جـ ٢ ، ص ١٧ . — Vasiliev p. 342.

(٦) Vasiliev p. 342.

ومشرعو ليو السادس لم يختلفوا عن مشرعى باسيل الأول ، فى أنهم لم يشيروا إلى المصادر اللاتينية إلا إشارات قليلة ، إنما استخدموا عوضاً عنها ، الترجمات اليونانية ، وماجرى فى القرنين السادس والسابع من شروح . وتفترق الباسيليكا عن مجموعة قوانين جستنيان ، فى أنها عملية يسهل الحصول عليها ، وأنها مدونة باللغة اليونانية . يضاف إلى ذلك أن مادة الباسيليكا اجتمعت كلها فى مصنف واحد ، وجرت مراعاة الترتيب فى تنظيمها ، على حين أن مجموعة قوانين جستنيان تعالج الموضوع الواحد فى مواضع كثيرة مختلفة . فلا عجب إذا حلت الباسيليكا مكان مجموعة جستنيان وأوضحت أساس الدراسة القانونية فى الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى(١) .

ثم صار لهذه المجموعة شروح عديدة، أشهرها ما هو معروف « بالشروح القديمة » ، التى ترجع إلى زمن قنسطنطين السابع ، بينما ترجع « الشروح الحديثة » إلى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . ففى القرن الثانى عشر تم تصنيف الكشاف « Tipucitus » ، الذى يعتبر فهرساً كاملا لمحتويات الباسيليكا ، ومنه تقف على محتويات الكتب القانونية التى اندثرت(٢) .

وإلى جانب الباسيليكا توجد مجموعة مؤلفة من ١١٣ مرسوماً من مرسومات ليو السادس ، وتعرف بمجموعة المتجددات . والواقع أن مرسومات ليو السادس تعتمد اعتماداً وثيقاً على متجددات جستنيان ، حتى فى صورتها وشكلها(٣) .

ومع ذلك فإن عنوان هذه المجموعة وهو « تصويب وتنقية القوانين السابقة » إنما يدل على الصلة الوثيقة بين العمل التشريعى عند ليو السادس ، وبين عمل أبيه باسيل . وعالجت متجددات ليو السادس موضوعات بلغت من شدة

(١) Ostrogorowski p. 216.

(٢) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ١٧ Ostrogorowski p. 217.

(٣) Ostrogorowski p. 217.

التنوع ، أنها صارت تتوالى ، الواحد بعد الآخر ، دون أن يربطها نظام معين ، وأجرت لأسباب مقبولة تغييرات فى القوانين القديمة أو نسخها .

ويرجع أيضا إلى زمن ليو السادس ، وثيقة على جانب كبير من الأهمية ، فيما يتعلق بتاريخ القسطنطينية . وهذه الوثيقة هى المعروفة بكتاب والى المدينة The Book of the Prefect . واكتشف هذه الوثيقة عالم سويسرى ، وهو نيقول ، فى أواخر القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أنه لم يتحقق تاريخ هذه الوثيقة ، فالراجح أنها وضعت زمن ليو السادس أو فى أواخر القرن العاشر ، زمن نقفور فوكاس ، بعد سنة ٩٦٣ . يعرض هذا الكتاب صورة عن الحياة فى القسطنطينية فى القرن العاشر . إذ أورد أنواع الحرف والصناعات القائمة بالمدينة ، والتنظيم الداخلى لهذه الحرف ، وعلاقة والى المدينة بها(١) .

أما القوانين الكنسية الخاصة (وتشمل من المتجددات الفصول من ٢ — ١٧ والفصل ٧٥) ، فجرى توجيهها إلى البطريرك استيفن ، بينما جرى توجيه ما تبقى من المتجددات ، فيما عدا القليل منها ، إلى ستليانوس زاوتسس(٢) . والمعروف أن الشخص الموجه إليه هذا القانون ، ليس إلا المؤلف ، مثلما حدث زمن جستنيان ، من توجيه المتجددات إلى واليه (نائبه) حنا القبادوقى ولذا فإن هذه التشريعات إنما جرت لمعالجة الأمور الكنسية ، والتنظيم الداخلى للكنيسة ، والتهذيب الدينى ، على النحو الذى أراده البطريرك(٣) .

وهذا هو السر فى أن عهد ليو السادس بعد وفاة زاوتسيس كان قفراً وخلوا من التشريعات(٤) .

(١) انظر العرينى : كتاب عن الحسبة فى الدولة البيزنطية . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥٧ .

(٢) Ostrogorowski p. 217.

(٣) Camb. Med. Hist. IV p. 58.

(٤) Ostrogorowski p. 217.

نظام الحكم :

ومن متجددات ليو السادس التى لها أهمية خاصة ، تلك التى تضمنت إلغاء حقوق مجالس البلدية والسناتو . فالمعروف أن طائفة أعضاء البلديات curiales تداعت وانهارت منذ زمن طويل ، وعلى الرغم من أنه لم يعد للسناتو من سلطة إدارية وتشريعية إلا من الناحية النظرية(١) . فإن إلغاءها بمرسومات تشريعية يعتبر أمراً كبير الأهمية ، لا سيما لأنه جرى تبرير هذا الإلغاء فى كل من المتجددات الثلاثة (٤٦ ، ٤٧ ، ٧٨) ، على أساس أن السلطة المطلقة إنما أصبحت فى يد الإمبراطور(٢) .

والواقع أن تشريع ليو السادس يعتبر الذروة لعملية تاريخية هامة جعلت كل سلطة الحكومة فى أيدى الإمبراطور ، ووضعت جميع أمور الدولة فى يد موظفى الإمبراطور . وما صار للإمبراطور من سلطة مطلقة ، وما حدث من تحول الحكومة إلى أداة بيروقراطية لم يستكمل تطوره إلا زمن الأسرة المقدونية . فالسناتو الذى تألف من كبار الموظفين الإمبراطوريين . لم يعد إلا مجرد صورة بعد أن فقد ما كان له من قبل من وظائف إدارية وتشريعية ، وما اكتسبه أيضاً من أهمية فى القرنين السابع والثامن(٣) فالدولة لم تعد سوى الإمبراطور وما لديه من أداة حربية وبيروقراطية . فالإمبراطور إنما اختاره الله ، وترعاه العناية الإلهية ، وهو السيد الأعلى لحكومة الإمبراطورية ، والقائد الأعلى للجيش ، وكبير القضاة ، والمشرع الأول ، وحامى الكنيسة والمدافع عن العقيدة الصحيحة . وعليه يتوقف أمر السلم والحرب ، وحكمه القضائى نهائى لا راد له ، وقوانينه إنما استوحاها من الله(٤) . وعلى الرغم من

(١) Ibid p. 217.

(٢) Ostrogorowski pp. 217 — 218.

(٣) انظر ما سبق ص ١٠٢ ، زمن أسرة هرقل .

(٤) Ostrogorowski p. 218.

أنه يتحتم عليه مراعاة القانون القائم ، فإن من سلطته أن يصدر قوانين جديدة ، ويلغى القوانين القديمة ، ولا يلتزم فى ذلك إلا بمراعاة مقتضيات العدالة ، وباعتبار الإمبراطور رئيس الدولة وسيدها يمارس سلطة لاحد لها ، ولا يتقيد إلا بما تمليه قواعد الأخلاق والتقاليد(١) .

على أن الاستبداد الإمبراطورى ، لم يجر تقييده إلا فى الأمور الدينية . فهما حاول الإمبراطور البيزنطى فرض نفوذه وسلطانه على النظام الكنسى ، فإنه لا زال يعتبر علمانيا . وبهذه الصفة لايعتبر رئيساً للكنيسة ، بل يعتبر حاميا لها . إذ أن للكنيسة رئيسها ، وهو بطريرك القسطنطينية ، الذى أخذت سلطته ومكانته تزداد يوما بعد يوم(٢) . ومع ذلك فالواقع أن الإمبراطور هو الذى يقرر أمر من يتولى منصب البطريركية ، وهو باعتباره المشرع الأول ، يشارك فى إدارة الكنيسة . وما يحدث من التعيين والعزل فى المناصب المدنية ، يعتبر من اختصاص الإمبراطور وحده ، أما تعيين وعزل كبار رجال الكنيسة ، فيقتضى موافقة رجال الدين . فليس للإمبراطور أن يغير أو يلغى ما تصدره المجامع الكنسية من قرارات . فالمجمع الكنسى هو أعلى محكمة للاستئناف فى الكنيسة ، وهو صاحب الحق فى تقرير أمور العقيدة . وليس للإمبراطور سوى أن يصون المذهب الرسمى . وبينما فقدت السلطات العلمانية أو المدنية ما كان لها من أهمية ، فى تقييد سلطة الإمبراطور المطلقة ، أخذت سلطة الكنيسة تزداد جنبا إلى جنب مع سلطة الإمبراطور(٣) .

الثغور :

أما النظام الادارى والمدنى ، فإنه تعرض زمن الأسرة المقدونية لتطور كبير الأهمية . فالاتجاه الذى جرى اتخاذه منذ القرن السابع ظل ساريا

(١) Ibid p 218.

(٢) Ostrogorowski p. 218.

(٣) Ibid . 219.

ومتبعا[١] . وترتب على ذلك ، أن الصورة النهائية للنظام الإدارى والمدنى ، اختلفت اختلافا كبيرا عن الصورة الأصلية للنظام السياسى الذى كان معروفا بالدولة الرومانية ، والذى يعتبر الأصل الذى نبت منه هـــذا النظام الإدارى[٢] .

اكتمل نظام الثغور فى القرن العاشر الميلادى . وجرى تبسيط الإدارة المدنية بالأقاليم ، بما حدث من تقسيم الثغور الكبيرة إلى وحدات ثغرية صغيرة . ولما لم تزد الثغور فى القرن التاسع فى المساحة على مساحة الأقاليم المعروفة قديما ، فإن إدارة الثغر اندمجت فى حكومة الإقليم . وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، تقرر إلغاء وظيفة متولى إدارة الثغر ، Proconsul ، فاختفى بذلك البقية الباقية من تنظيم دقلديانوس وقسطنطين[٣] . وأضحت السيادة للقائد الحربى Strategus نظراً لما تعرضت له الإمبراطورية من الأخطار الخارجية فى الشرق والغرب[٤] .

والمعروف أن إدارة الأقاليم بالإمبراطورية البيزنطية فى القرن التاسع ، وفى زمن الأسرة المقدونية ، ظلت تجرى على أساس نظام الثغور . وهذا التطور فى الإدارة الإقليمية ، إنما يتمثل فيما حدث من انقسام الثغور القديمة من جهة ، وما يترتب على ذلك من ازدياد فى عدد الثغور ، وفيما حدث من جهة أخرى من أن المناطق التى سبق أن اتخذت اسم دروب Clisurae ، ارتقت إلى مكانة الثغور[٥] . وبناء على ما توافر عن الثغور من مادة عنـــد الجغرافيين

(١) Baynes - Moss : Byzantium p. 298.
Ostrogorowski : p. 219.
Bury : Administrative System pp. 146 - 147.
Brehier : Institutions p. 121.

(٢) Ostrogorowski : p. 219.

(٣) Cambridge Medieval History II p. 38 - 39, iv p. 732.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 732.

(٥) Vasiliev : The Byzantine Empire p. 349.
= Camb. Med. Hist. IV. p. 732.

العرب[١] ، ومن المصادر الأخرى ، أشار المؤرخون إلى أنه قام بالدولة البيزنطية فى القرن التاسع الميلادى خمس وعشرون منطقة حربية ، على أن هذه المناطق لم تكن كلها ثغورا[٢] . فمن هذه المناطق كيلارجيتان clisurarchiae ودوقية واحدة ducatus وأرخونيتـــان archontatus . وأورد فيلوثيوس الحاجب Philotheus ، فى رسالته عن مراسيم البلاط التى تعتبر جزءاً من كتاب قنسطنطين بورفيروجنيتوس فى القرن العاشر الميلادى عن المراسيم ، خمسة وعشرين ثغرا[٣] . ووضع الإمبراطور قنسطنطين بورفيروجنيتوس كتابا مستقلا عن الثغور De Thematibus ، أشار فيه إلى تسعة وعشرين ثغرا ، منها سبعة عشر ثغرا فى آسيا الصغرى ، ويدخل فى هذا العدد الثغور البحرية الأربعة ، ومنها اثنى عشر ثغرا فى أوربا ، ويدخل فى ذلك ثغر صقلية ، الذى تألف من جانب منه ثغر كالابريا فى القرن العاشر عقب استيلاء المسلمين على

= المعروف أن لفظة Clisma ، التى يقصد بها فى اللغة اليونانية حتى اليوم « درب بالجبل » ، جرى إطلاقها فى العصر البيزنطى على كل حصن يقع على الحدود أو الأطراف ، وما يحيط به من أراضى ، أو تطلق بصفة عامة على إقليم صغير المساحة ، يتولى أمره حاكم Clisurarch الذى لم تبلغ سلطته من الضخامة ما بلغته سلطة الاستراتيجوس . والراجح أنه لم يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . ومن قبيل المناطق العسكرية التى تقل شأناً عن الثغور ، ما هو معروف بالأسماء التالية : Drungariates Catapanates, Duchies, Archontates
انظر Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 351.
Os rogorowski : p. 219 note 4.

(١) انظر ما ورد عن الثغور فى كتاب ابن خرداذبه المعروف باسم المسالك والممالك ص ٧٨ وما يليها ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، وفى المسعودى : التنبيه والإشراف ص ١٧٦ — ١٨٠ ، وفى قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ، المكتبة الجغرافيـــة ج ٦ ، ص ٢٥٢ — وانظر أيضاً دراسات عن هذا الموضوع فى :
Brooks, E. W., : Arabic Lists cf the Byzantine Themes. Journal of the Hellenic Studies, XXI (1901).
Diehl, Charles : L'Origine du régime des themes dons L'Emplre Byzantin, (Etudes Byzantines. Paris 1905)

(٢) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 350.

(٣) Bury : The Imperial Administrative System, p. 146 — 147.

صقلية ذاتها[1] . على أن الصورة التى تعرضها أقسام الثغور فى أوائل القرن العاشر ، تتمثل فيما يأتى : ما اشتملت عليه آسيا من الثغور ، يقع منها بغرب آسيا الصغرى ثغر الأبسيق Opsikion وعاصمته نيقيه ، والأفتماتى Optimaton وعاصمته نيقوميديا ، ثم التراقسيون Thracesion ، بالجنوب الغربى من هضة الأناضول . ويقع بالقرب من البحر الأسود ثغرا البقلار Bucellairon وبافلاجونيا Paphlagonia ، وثغرا الأرمنياق Armeniakon المعروف بضخامة مساحته ، ثم ثغر خالديا Chaldia[2] . وعلى امتداد الطرف الشرقى للأملاك البيزنطية فى آسيا الصغرى ، تقع ثغور خرسنة Charsianon وليكاندوس Lycandus ، والجزيرة (ميزوبوتاميا) ، وسيواس Sebastea وكلونيا Colonea ، وكل هذه المناطق العسكرية الواقعة على الأطراف ، حفلت بالحصون ، وزخرت بالعساكر . وما ورد فى ملحمة ديجنيس اكريتاس Digenes Akritas من الشعر البيزنطى ، إنما يصور ما اشتهرت به حياة العساكر البيزنطية من البساطة والبطولة ، وتعرضها للخطر أثناء الحروب التى لا تنقطع مع المسلمين[3] . أما قبادوقيا الجنوبية ، التى تعرضت بحكم موقعها لغارات المسلمين من دروب قلبقية ، فتألفت بها حكومة مستقلة وصارت ، منذ أوائل القرن التاسع ، من الثغور[4] . ومن أكبر الثغور وأعظمها أهمية ثغر الناطليق Anatolikoi[5] ، وأشارت المراجـــع أيضاً إلى ثغر ليونتوكوميس

(١) Vasiliev : The Byzantine Empire p. 350.

أشارت قائمة ترجع إلى زمن رومانوس ليكابينوس إلى عدد الثغور بلغ قبل سنة ٩٢١ — ٩٢٧ ، ثلاثين ثغرا ، بينما صار عددها فى القرن الحادى عشر ثمانى وثلاثين ثغرا — انظر (Vasiliev, p. 350)

(٢) Camb. Med. Hist. IV, p. 733.

Ostrogorowski : p. 219.

(٣) Camb Med. Hist. IV. p. 733. Ostrogorowski p. 220.

(٤) Bury : The Eastern Roman Empire p. 213.

(٥) Camb. Med. Hist. IV. p. 733. Brooks : op. cit p. 69.

Leontocomis[1] وظلت الثغور الشرقية حتى القرن الحادى عشر تفوق فى الأهمية الثغور الغربية ، لما اتصفت به من أنها أخصب وأكثر رخاء ، فضلا عن وفرة عدد سكانها . فأضحت على حد القول المعروف « تؤلف فعلا الإمبراطورية الرومانية »[2] . ولقادة الثغور الشرقية من المكانة والرواتب ما يزيد على ما كان لأمثالهم فى الغرب من المكانة والرواتب[3] . واستمدت الإمبراطورية البيزنطية من آسيا الصغرى خبرة عساكرها وبحارتها ، كما أن معظم أموال الخزانة العامة ، تحصلت من هذه الجهات[4] .

أما الثغور الواقعة فى الغرب ، فإنها نشأت بسبب ما تعرضت له أيضاً أملاك الإمبراطورية البيزنطية فى أوربا من أخطار من قبل البلغار والصقالبة والمسلمين . واشتملت على الثغور الواقعة فى شبه جزيرة البلقان ، وظلت حتى بداية القرن الحادى عشر ، طالما بقيت الإمبراطورية البلغارية الأولى ، لا تحتل إلا أطراف شبه الجزيرة . ومن هذه الثغور ، ثغر تراقيا الذى تقع فيه القسطنطينية ، وثغر مقدونيا ، وحاضرته أدرنه ، وهذان الثغران بلغا من الثروة والأهمية ، ما يكفى لأن يحعل قادتهما يليان فى المكانة والرواتب ، قادة الثغور الأسيوية[5] . وعلى امتداد شواطئ بحر الأرخبيل ، تقع ثغور ستريمون ، وسالونيك[6] ، وهيلاس ، والبيلوبونيز ، وبحر إيجه . وعلى سواحل بحر ايونيان ، وبحر الأدرياتى ، تقع ثغور نيقوبوليس ، ودورازو ، وكيفالونيا ، ودالماشيا ، وفى جنوب إيطاليا يقع ثغرا كالابريا ولانجوبارديا فضلا عن صقلية . وعلى البحر

(١) Ostrogorowski : p. 220.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 732.

(٣) Ibid. p. 732.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 733.

(٥) Ibid p. 733.

(٦) وحاضرة هذا الثغر ، سالونيك ، تعتبر أهم مدينة فى الامبراطورية البيزنطية فى أوروبا بعد القسطنطية . Camb. Med. Hist. IV. p. 733.

الأسود يقع ثغر خرسون[١] . على أن نظام الثغور تعرض لتغييرات جديدة أدّت إلى قيام ثغور أخرى فى الأقاليم التى استولت عليها حديثاً الإمبراطورية . على حين أن إقامة ثغور جديدة فى الأقاليم الأصلية كان أمراً نادر الحدوث ، ومنذ نهاية القرن الحادى عشر ، ترتب على تداعى النظام السياسى البيزنطى ، أن تفتتت الثغور من جديد[٢] . ومهما يكن من أمر التغييرات التى أصابت الثغور ، فإن المبدأ الذى قام عليه هذا النظام الإدارى لم يتغير ، وهذا المبدأ يتمثل فى تركيز كل السلطات فى أيدى الحاكم العسكرى[٣] .

الثغور البحرية :

الواقع أن البحرية البيزنطية لم تأخذ فى النهوض إلا زمن أسرة هرقل ، وذلك بسبب قيام البحرية الإسلامية ونشاطها فى البحر المتوسط ، منذ زمن معاوية بن أبى سفيان ، كما أن المغيرين على أملاك الدولة البيزنطية ، بلغ من إمعانهم فى تعطيل ومنع مسير الجنود براً ، ما أدى إلى ضرورة التماس طرق بحرية آمنة ، يحرسها أسطول قوى ، فقام الإمبراطور قنسطانز الثانى بتحقيق هذا الغرض[٤] . فالمعروف أنه نشأ فى القرن السابع قيادة بحرية واحدة ، يتولاها قائد ثغر كرابيسيانى Carabirsiani ويخضع لسلطانه منطقتان ، لكل منهما أسطول خاص يتولى قيادته نائب عن قائد الثغر ، وهو المعروف باسم الطرنجار drungarius . وهاتان المنطقتان هما منطقة كيبريوت Cibyrrheots وهى أكثرهما أهمية ، ومنطقة بحر إيجة . وشملت الأولى بامفيليا التى تعتبر من قديم الزمن وكر القرصان ولصوص البحر الأشـــداء العتاة ، بينما تألفت المنطقة

(١) Ibid, p. 733. Ostrogorowski p. 220.

(٢) Ostrogorowski : p. 220. Camb. Med. Hist., iv. p. 733.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 733.

(٤) Baynes : The Byzantine Empire p. 144.

الأخرى من جزء من الساحل الغربى لآسيا الصغرى وما يقابله من الجزائر[١] ، وازداد شأن الأسطول البيزنطى حتى أضحى مصدر خطر على مركز الأباطرة البيزنطيين ، ولذا عمدوا إلى إنقاص عدد سفن الأسطول ، وألغوا القيادة البحرية العليا وأنزلوا من مكانة الثغور البحرية ، وجعلوها فى مرتبة ثانوية[٢] .

والواقع أن هذه السياسة أفاد منها المسلمون فى الاستيلاء ، فى القرن التاسع الميلادى ، على جزيرة صقلية . وعلى جزيرة كريت التى أضحت قاعدة بحرية إسلامية تثير الرعب فى شواطئ بحر إيجه[٣] . فكان لزاماً أن يجرى إعادة تنظيم الأسطول البيزنطى . ويرجع الفضل فى ذلك إلى ميخائيل الثالث ، ثم إلى باسيل الأول[٤] ، إذ جرى فى زمنهما تنظيم الثغور البحرية . ويعتبر عصرهما أزهى عصور البحرية البيزنطية ، إذ تقرر إنشاء ثغر بحرى جديد ، وهو ثغر ساموس ، وحاضرته أزمير[٥] . على أن الثغور الأوربية ، أمثال هيلاس ، والبيلوبونيز ، وكيفالونيا ، والثغور الإيطالية ، جرى بها تشييد قواعد بحرية ، يستخدمها الأسطول البيزنطى[٦] . يضاف إلى ذلك أن الأسطول الإمبراطورى الضخم يرابط بمياه القسطنطينية ، ويتولى قيادته الطرنجار الكبير . الذى يعتبر من كبار الموظفين . ومع ذلك فإن قادة الثغور البحرية لا زالوا يتقاضون من المرتبات ما يقل قدراً عن مرتبات قادة الثغور البرية[٧] .

(١) Baynes : op. cit. p. 144 — 145.
Runciman : The Byzontine Civilisation p. 150.

(٢) Ibid p. 150.

(٣) Ibid p. 150 — 151. Baynes : op. cit. p 145.

(٤) من الملحوظ أن الأباطرة اللاأيقونيين ، أى الذين يناهضون عبادة الصور ، لقوا التأييد من العساكر الأسيوية للذين يكرهون أيضا عبادة الصور ، على أن معظم بحارة الأسطول جرى اتخاذهم من الأقاليم التى تعلقت بعبادة الصور . واقترن زمن إصلاح الأسطول بزوال عصر الأباطرة اللاأيقونيين — انظر . Runciman : op. eit. p. 151

(٥) Runciman : op. cit p cit. 151. Baynes : op. cit. p. 146.

(٦) Ibid. p 151. Baynes. 146.

(٧) Runciman : p. 151.

أهمية الثغور :

ترتب على نظام الثغور تغييرات بالغة الأهمية ، أثرت فى الكيان الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية . إذ أن الجيش القديم الذى تألف من متبربرين مأجورين لم يعد له وجود . ولم يبق منه إلا الحرس الإمبراطورى بالقسطنطينية ؛ وحل مكانه جيش جديد من الجند الفلاحين . واستقر هذا الجيش فيما يعرف بالثغور أو الأجناد . وقامت الدولة بتقسيم الأراضى التى نزل بها الجند إلى ضياع Stratioka klemate ووزعتها عليهم ، وتفى الضيعة منها بحاجات أسرة بأكملها ؛ وتتوارث الأسرة الأرض بشرط أن يقوم الحائز للأرض بتأدية الخدمة العسكرية[١] . وللجندى الفلاح أن يحوز من الأرض ما يكفى لمعيشته ، بشرط أن يكون فى استطاعته ، هو وأسرته ، القيام على زراعتها . وينبغى ألا يقل ما يحوزه الجندى عن مساحة من الأرض لا يقل ثمنها عن أربع ليرات ذهبية . وينبغى ألا يتصرف فيها بالبيع أو الشراء ، فإذا زادت المساحة على هذا الحد ، جاز له أن يبيع الزيادة . وجرت العادة بأن يرث الضيعة الابن الأكبر ، على أن يؤدى الواجبات العسكرية . ويعمل الأبناء الصغار فلاحين فى زراعة الأرض ، ويدفعون ما هو مقرر عليها من الضرائب ، دون أن ترتبط أرضهم بالواجبات العسكرية . وصارت لفظة Stratiotes تطلق على الفلاح الذى يستقر بالإقليم ، ويحوز من الأرض ما يضارع فى المساحة إقطاع الفارس فى غرب أوربا ، وعند استدعائه للخدمة الحربية ، ينبغى أن يتقدم مزوداً بكامل الأسلحة وبفرس جيد . وينبغى أيضاً أن يدفع بعض الضرائب عن ضيعته الصغيرة[٢] ، وفى أثناء الخدمة الحربية ، يتقاضى الجندى راتبا صغيراً ، فيأخذ فى السنة الأولى نوميزما واحدة (ديناراً واحداً) ، وفى السنة الثانية نوميزمتين ، ويزداد الراتب ، حتى يبلغ ما يتقاضاه الجندى ثمانى عشرة نوميزمة[٣] .

---

(١) Kantarowicy, E., Feudalism in the Byzantine Empire, p. 156.

(٢) Ibid. p. 157.

(٣) Runciman : Op. cit. pp. 145 - 146.

ومن النتائج التى ترتبت أيضاً على قيام الثغور ، أن أصبح من اليسير تجنيد جيش من داخل الإمبراطورية البيرنطية ، بعد أن جرى استخدام الجند المأجورة من المتبربرين فى الجيش زمناً طويلا ، كما أن ما تنفقه الحكومة على الجيش والدفاع عن الإمبراطورية من أموال ، انخفض مقدارها ، بسبب توزيع الأراضى على الجند . يضاف إلى ذلك أنه تألفت طبقة من الجند الفلاحين ، لا من الأرستقراطية كما هو الحال فى الغرب ، اشتهرت بالحرص الشديد ، والغيرة القوية ، على الدفاع عن أملاكها التى تعتمد عليها فى معيشتها ، وفى شراء الأسلحة ، فضلا عن الضرائب التى تؤديها للدولة[١] .

ويتولى إدارة الثغر ، حاكم اشتهر باسم ستراتيجوس Strategus ، واتخذ عادة لقب بطريق patrician[٢] . ويعينه الإمبراطور . ولذا يتصل القائد بالإمبراطور مباشرة . ولم تكن واجباته قاصرة فحسب على قيادة القوات الحربية المرابطة فى إقليمه (الثغر) ، بل شملت أيضا كل ما يتعلق بالإقليم من سلطة إدارية ، بأن يتولى إدارة الإقليم ، ومباشرة القضاء ، والنظر فى الشئون المالية . فاضحى كأنه نائب إمبراطور ، لاسيما فى العصر المتقدم حينما كانت الثغور أقل عدداً ، وأكبر مساحة[٣] .

وبمقتضى أوامر قائد الثغر ، انقسم الجيش عادة إلى قسمين أو ثلاثة أقسام ، يطلق على كل قسم لفظة Turma ، يتولاه موظف معروف باسم الطرماخ Turmarch ، وانقسم كل شطر بدوره إلى ثلاثة أقسام ، اتخذ كل

---

(١) Kantarowicy : op. cit. p. 157.

(٢) على أن اسم ستراتيجوس الذى يطلق عادة على قائد الثغر ، ظهر إلى جانبه ألقاب جديدة لقادة ثغور أخرى ، فصار يطلق على قائد ثغر الأبسيق لقب كونت ، واتخذ قائد ثغر الافطيمات ، لقب الدمستق Domestic ، وفى أنطاكية صار يعرف باسم الدوق ، وفى بلغاريا باسم Pronoetes ، وفى إيطاليا باسم Catapan — انظر . Camb. Med. Hist. IV. p. 734.

(٣) انظر Camb· Med. Hist. IV. p. 734.

منها اسم Moira ، واشتهر قائده باسم drungarius ، واجتمع فى كل واحد من هذه الأقسام عشر جماعات Tagmata ، يتولى كل منها قائد Count[1] .

واهتمت الإمبراطورية البيزنطية بتحديد واجبات الفرق العسكرية المختلفة . فمن واجبات جيوش الثغور ، النهوض لرد الغارات الخارجية . فإذا قام المسلمون بعبور الحدود الشرقية ، تولى قائد المنطقة أو الجهة التى اجتازها المغيرون ، إخطار قائد الثغر بذلك ، فيقوم القائد بإنذار الثغور المجاورة ، ويوجه قوة من الفرسان لتعقب آثار المغيرين ، فيحتل المشاة الدروب ، التى ربما استخدمها الغزاة عند عودتهم ، وفى الوقت ذاته . تحتشد قوات الثغور المجاورة ، وتستعد للتجمع فى موضع معين ، يتوقعون أنه هدف المغترين . فإذا نجح توقيتهم ، وقع المغيرون فيما نصبه له خصومهم من كمين . وربما قام الجيش البيزنطى بهجوم مضاد . وفى هذه الحالة يقوم الأسطول بمهاجمة السواحل الإسلامية[2] .

ومن الملحوظ أن قادة الثغور الأسيوية والقواعد البحرية وقائدى ثغرى تراقيا ومقدونيا ، تناولوا مرتباتهم من الخزانة العامة مباشرة ، بينما تقاضى قيادة الثغور الأوربية مرتباتهم مما يتحصل من أقاليمهم من الضرائب[3] . وتراوحت أرزاق قادة الثغور فى آسيا من ٢٠ لبرة ذهبية فى السنة ، إلى ٤٠ لبرة ذهبية (٢١٦٠٠ — ٤٣٢٠٠ من الفرنكات الذهبية) . أما الطرماخ فلم يقل ما يتقاضاه عن ثلاث لبرات ذهبية (٣٢٤٠ فرنكا ذهبيا) ، على أن الدولة صارت تنفق سنويا على الجيش فى الثغور الشرقية وتراقيا ومقدونيا ، مبالغ تتراوح بين ٥٠٠ ألف فرنكا ذهبيا ، وبين ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ فرنكا ذهبيا[4] . وأقصى عدد بلغه الجيش البيزنطى كان ١٢٠ ألف جندى ، أقام منهم

(١) Camb. Med Hist. IV. p. 734. Bury : Op cit. p. 226

(٢) Runciman : op. cit. p. 142.

(٣) Runciman : op. cit. p. 142.

(٤) Ibid, p. 145.

سبعون ألف فى الثغور الشرقية ، واستقر الباقون فى الثغور الشرقية ، واستقر الباقون فى الثغور الغربية والعاصمة (القسطنطينية) . يضاف إلى هؤلاء عدد كبير من غلمان المعسكر ، الذين يصحبون الجيش فى حركاته وتنقلاته ، ويقومون بنصب الخيام وحفر الخنادق ، فضلا عن وحدات من المهندسين والأطباء تتولى إقامة المعسكرات ، وإسعاف الجرحى المصابين ، وتوفير أسباب الراحة لهم[1] . على أن الجند الفلاحين لم يكونوا جميعاً من أصل يونانى ، بل إن كثيراً منهم جاء من أصل أجنبى ، فتكاثر عدد الأرمن النازلين بالثغور ، كما أن عددا غير قليل من الجند ، كان من الصقالبة والأجناس لأخرى[2] .

واستمر نظام الثغور قويا فعالا مدة ثلاث قرون ونصف قرن ، والمعروف أن عصر الجند الفلاحين يتفق مع أزهى عصور التاريخ البيزنطى . فنظام الثغور لم يعمل فحسب على بعث القوة الحربية البيزنطية ، بل صار له آثار اجتماعية خطيرة الشأن ، إذ أن الجندى الفلاح القوى ، والفلاحة التى درج عليها أبناء هذا الجندى ، يعتبر من خيرة الوسائل لوقف نفوذ كبار الملاك dynatoi والحد من أطماعهم[3] .

وفى هذه الظروف التى استمرت حتى منتصف القرن الحادى عشر ، أخذت الدولة البيزنطية تزداد قوة وتماسكا ، واستطاعت أن تسترجع أجزاء كثيرة من الأراضى التى فقدتها بآسيا الصغرى والبلقان ، غير أن ذلك لم يقض مطلقاً ، على ما كان يختمر فى داخل البلاد من تطور وتحول نحو النظام الإقطاعى ، وتفكك فى القوة الحربية فى الثغور[4] . بسبب ازدياد قوة الحكومة المركزية ، واستيلاء الأتراك السلاجقة على الجانب الأكبر من

(١) Ibid p. 147.

(٢) Kantarowicy : op. cit. pp.157 — 158.

(٣) Ibid, p. 158.

(٤) Runciman : op. cit. p. 147.

آسيا الصغرى[١] . وما ترتب على ذلك من ظهور طبقة أرستقراطية حربية امتلكت معظم أراضى الجند الفلاحين[٢] .

أما أهمية الثغور البحرية ، فتتمثل فى إنه إذا اجتمعت الأساطيل المختلفة للقيام بعمل مشترك ، تولى قيادة جميع القوات البحرية قائد عام ، يخضع لسلطانه قادة سائر الأساطيل . ومن الأساطيل المحلية التى لازالت لها مكانتها ، أسطول ثغر كيبريوت ، الذى يعتبر معقل الإمبراطور البيزنطى ضد هجمات المسلمين ، فضلا عن الاشتباكات المستمرة بين أسطول هذا الثغر وقوات أميرى أدنه وطرسوس ، فإذا زحف أحد هذين الأميرين بجيشه ، نهض الأسطول البيزنطى للقيام بهجوم بحرى مضاد ، حتى يحول الجيش الزاحف عن وجهته ، وإذا قام المسلمون بهجوم بحرى ، عمدت القوات البرية البيزنطية إلى القيام بهجوم ، كيما تصرف المسلمين عن وجهتهم أيضاً[٣] .

ولما استولى السلاجقة على آسيا الصغرى . وبلغوا شاطئها الغربى ، ساد الاضطراب والفوضى المناطق التى كانت ثغورا بحرية ، والتى تعتبر مراكز للأساطيل المحلية[٤] . يضاف إلى ذلك أن الحكومة المركزية ، توافر لديها عامل جديد ، يجعلها تخشى ازدياد سلطة القادة البحريين ، بعد أن تعرضت لهذه التجربة بقيام طبقة أرستقراطية حربية فى آسيا الصغرى . فالمعروف أن رومانوس ليكابينوس والوزير القوى يوسف برنجاس ، إنما ارتفع شأنهما بسبب مكانتهما ووظيفتهما ، إذ أن كلا منهما كان يشغل وظيفة قائد الأسطول ، طرنجار ، ولم يلبث رومانوس أن وثب إلى العرش ، وصار إمبراطوراً[٥] ، والراجح أن هذين العاملين أسهما فى انهيار البحرية البيزنطية[٦] ، يضاف إلى ذلك أنه لم يعد

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 733.
(٢) Baynes : op. cit. p 133 — 139.
(٣) Baynes p. 146.
(٤) Ibid. p. 146.
(٥) Baynes : op. cit. p. 147.
(٦) Ibid. p. 147.

ثمة من الأساطيل القوية ما يخشى بأسها ، فلم تعد الحاجة ماسة إلى وجود أسطول بيزنطى قوى ، ومن الدليل على ذلك أن الإمبراطور باسيل الثانى عهد إلى البنادقة بحراسة البحر الأدرياتى ؛ واتفق معهم على أن يتولوا نقل القوات البيزنطية كلما اقتضى الأمر ذلك[١] . على أن ما تبذله البندقية من مساعدة بحرية للدولة البيزنطية ، إنما جرت مقابل الحصول على امتيازات تجارية ، هددت كيان الاستقلال الاقتصادى للدولة[٢] .

ليس من اليسير أن نقدر ، على وجه التحقيق ، قوة البحرية البيزنطية . فالحملة البحرية التى ورد عنها تفاصيل ؛ تألفت من مائة سفينة من الأسطول الإمبراطورى ومن ٧٧ سفينة من الأسطول الإقليمى . أما البحارة فبلغ عددهم فى الأسطول الإمبراطورى من ٢٣ ألف إلى ٢٤ ألف ؛ بينما بلغ عدد البحارة الإقليميين (فى الثغور البحرية) ١٧ر٥٠٠ بحار . وفى زمن ميخائيل الثالث ، فى سنة ٨٥٨ — ٨٥٩ ، بلغ عدد سفن الأسطول ٣٠٠ سفينة . وتولى تسيير هذه السفن ، بحارة من رعايا الإمبراطورية ، أو من المتبربرين الذين استقروا بأراضيها أمثال المردة Maradites أو من المأجورين أمثال الروس ، الذين جرى استخدامهم بالأسطول البيزنطى لأول مرة من الأسرة المقدونية[٣] .

ومن أهم أسلحة الأسطول البيزنطى ما يعرف بالنيران الإغريقية . والواضح أن هذه المادة الكيمائية كانت على أنواع مختلفة ، وجرى استخدامها بطرق مختلفة ، وأهمها أنها كانت تلقى على صورة قنابل يدوية فتنفجر ، فإذا أصابت سفينة معادية اشتعلت بها النيران ؛ أو أنها كانت عبارة عن قدور تحتوى على هذه المادة ، وتقذفها مقاليع على السفن المعادية . وظل تركيب هذه المادة سراً مكتوماً . وأقامت الدولة مستودعات لها فى المدن الكبيرة الواقعة على شواطئ البحر[٤] .

(١) Runciman : op. cit. p. 152, Baynes : op. cit. p. 147.
(٢) Baynes : op. cit. p. 148.
(٣) Baynes : op. cit. p. 148, Camb. Med. Hist. IV p. 742.
(٤) Runciman : op. cit. p. 154.

ترتيب الوظائف

المعروف أن الدولة البيزنطية فى أواخر القرن السادس الميلادى احتفظت بالنظام الإدارى الذى كان معروفاً عند الرومان ، ذلك أن عدداً قليلا من كبار الموظفين ، يخضع لسلطانهم كل الخدمات ، ويتولون الإشراف على كل الأمور . وجرت الدولة البيزنطية على نهج الدولة الرومانية ، فأبقت على نظام الفصل بين السلطتين العسكرية والمدنية ، ولم تغير من التقسيمات الإقليمية التى أجراها دقلديانوس وقسطنطين . ثم حدث تطور جديد ، بأن حلت الثغور مكان التقسيمات الإقليمية ، واجتمعت السلطتان الحربية والمدنية فى يد حاكم الثغر ، وتزايد عدد كبار الموظفين فى الحكومة المركزية ، وفى الوقت ذاته تضاءلت كفايتهم وخبرتهم ، بينما ازدادت مسئوليتهم أمام الإمبراطور . ظهر النظام الجديد (الثغور) زمن هرقل ، واستقر زمن الأسرة الإيزورية ، وفى القرن العاشر صار هذا النظام مخالفاً تماماً لما كان معروفاً زمن جستنيان[١] .

ومنذئذ ، صار ثمة ترتيب متدرج للوظائف ، ووردت تفاصيل هذا النظام البيروقراطى ، فى كتاب cletorologion الذى ألفه فيلوتيوس ، وفى قوائم الموظفين فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى[٢] . ولا بد أن نفرق بين الوظائف الحقيقية والوظائف الشرفية . فمن ذلك ثمانى عشرة رتبة ، استمدت أسماءها وألقابها من الوظائف المدنية والعسكرية بالبلاط ، وهى تؤلف رتب ودرجات فئة من الأرستقراطية الإدارية ، ويتوقف على إرادة الإمبراطور ، الانتقال

= وتشير المراجــع إلى أن هذه المادة اخترعها فى القرن السابع الميلادى مهندس اسمه كالينكوس ، وجرى استخدامها لرد جيش المسلمين عن حصار القسطنطينية . على أن هذا الاختراع ، لم يكتمل فيما يبدو ، إلا فى القرن التاسع . إذ يشير ليو السادس على أنه اكتشاف جديد . والراجح أن العرب عرفوا قبيل الحروب الصليبية ، كيف يصنعون هذه النيران .
Runciman : op. cit p. 154.

(١) Camb Med. Hist. IV. p. 729 — 730.

(٢) Ostrogorowski p. 220.

من رتبة إلى رتبة أعلا ، وأعلا هذه الرتب ، هى رتبة قيصر ، ونبيل nobilissimus وكوربلات Curopalatus ، التى لا ينعم بها إلا على أفراد الأسرة الإمبراطورية[١] . ويلى ذلك لقب zosta patricia ، الذى اختص به أكبر موظف بالبلاط يتولى أمر نساء القصر ، وألقاب Protospatharii, patricii, antypati, magistri, Hypati, Spatharii, Candidati, spathars, dishyapti . . . [٢] الخ .

وثمة ثمانى رتب اختص بها الطواشية ، وارتبط بها لقب بطريق . والواقع أن الطواشى البطريق صار له من المكانة ما يفوق مكانة سائر البطارقة . وللطواشية أثر كبير فى البلاط البيزنطى . فليس ثمة من الوظائف ، مهما ارتقت فى الكنيسة أو الحكومة ، (فيما عدا وظيفة الإمبراطور طبعاً) ، ما هو محرم من حيث المبدأ على الطواشية ، فمن البطاركة ورجال السياسة والقادة الذين اشتهروا فى التاريخ البيزنطى عدد كبير من الطواشية[٣] . ويؤدى هؤلاء الطواشية وظائف معينة على جانب كبير من الأهمية ، وينعم عليهم الإمبراطور ، بتشاريف وخلع هذه الوظائف insignia . وأعلا هذه الوظائف فى البلاط ، شـــغلها المشرف على تنظيم المواكب وهو Praepositus والبركومينوس Parakoimomenos الذى يعتبر كبير الحجاب ، و Protovestiarios وهو الموكل بثياب الإمبراطور . وإلى جانب هؤلاء ، موظفون أقل منهم رتبة ودرجة ، كثر عددهم بالبلاط[٤] .

(١) bid p. 220. ˆamb. Me1 Hist. VI. p. 730.

(٢) Ostrogorowski, p. 220 Camb. Med. Hist. VI. p. 730.

(٣) ومن وظائف البلاط ، عدد اختص به الطواشية ، برغم بعض الاستثناءات . ومن هذه الوظائف ، وظيفة البركومينوس Parocaemomenus ، ومن واجب صاحبها أن ينام قرب غرفة نوم الإمبراطور ، ويعتبر صاحبها من أقرب الناس للإمبراطور ، ولذا شغلها باسيل المقدونى زمن ميخائيل الثالث . ومنها الموكل بملابس الإمبراطور ، والذى يشرف على المواكب والذى يتولى أمر الاسطبلات الإمبراطورية . انظر :
Ostrogorowski p. 220.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 730.

ولكى نفهم الأداة التى تسير الإدارة البيزنطية ، يجب أن نعلم بأن كل موظف من كبار الموظفين ، إنما يحمل لقبين ، الأول يشير إلى مكانته ورتبته فى سلك الأرستقراطية الإدارية ، أما الثانى فيدل على الوظيفة التى يتقلدها فعلا . على أن الترقية إلى وظيفة ورتبتها ، إنما يتوقف على رضى الإمبراطور[1] .

ويتولى تسيير الحكومة رؤساء الإدارات ، المقيمون بالعاصمة قريباً من الإمبراطور ، ويعتبرون وزراءه ، وهم الذين يتولون نقل أوامر الإمبراطور إلى سائر أنحاء الدولة . ومن هؤلاء الموظفين الكبار ، أربعة يعرف كل منهم باللغتيت ، ومنهم اللغتيت المعروف باسم Logothete of the Dromos ، الذى تولى أول الأمر الإشراف على إدارة النقل والبريد[2] ، ثم أصبح يشرف على الأمن الداخلى والشرطة ، والشئون الخارجية . ولم يلبث أن صار بعد القرن العاشر كبير الوزراء ويعرف باللغتيت الكبير[3] . ويلى هذا الوزير ، اللغتيت الذى يشرف على الأمور المالية Legothete of Public Treasury ، ثم اللغتيت الذى يتولى دفع رواتب العساكر Logothete of the Military Chest . أما الوزير الرابع ، اللغتيت ، فهو الذى يشرف على ضياع الإمبراطور وخيوله ، Logothete of the Flocks . ومن كبار الموظفين بالإدارة المالية ، الموظف الذى يشرف على أموال الإمبراطور الخاصة chartuiary of the sakellion ، والموظف الذى يشرف على دور الصناعات الإمبراطورية eidikos ، وأعلاهم جميعاً رتبة ، الموظف الذى يعتبر مشرفاً عاماً Sacellarius ، إذ يخضع له كبار موظفى المالية[4] .

ومن ناحية التنظيم الحربى ، ثمة فرق ظاهر بين قوات الثغور فى الأقاليم Themata وبين القوات (الكتائب) Tagmatâ المرابطة فى القسطنطينية ، فعلى

(١) Ibid p. 266.

(٢) لفظة دروموس اليونانية تقابل لفظة بريد اللاتينية Cursus publicus

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 731.

(٤) Càmb. Med. Hist. IV. 731. Ostrogorowski, p. 222.

رأس قوات الثغور قادة معروفون باسم Strategi ، بينما تولى أمر القوات المرابطة فى العاصمة قادة اشتهر كل منهم باسم الدمستق[1] .

ويتولى قائد الثغر Strategus أمر قوة يتراوح عددها فى الثغور بحسب أهميتها من ١٠ آلاف جندى إلى أربعة آلاف[2] . أما القوات المرابطة فى العاصمة وضواحيها فمعظمها من الفرسان ، وانتظمت فى أربعة أقسام اشتهرت بأسماء Scholae, Hikanatai, Arithmus, Excubitores.. ويتولى قيادة كل منها دمستق Domesticius[3] ، وأعلاهم رتبة قائد الفرقة الأولى الاسكلارية Scholae الذى يعتبر القائد العام للجيش . وإنما يظهر نشاط قوات القصر حينما يتولى الإمبراطور قيادة الجيش فى حملة من الحملات[4] .

وكلما اتسعت الإمبراطورية ، تقرر انقسام الوظيفة ، فمنذ النصف الثانى من القرن العاشر ، صار لكل من الشرق والغرب ، دمستق[5] . أما البحرية فلا بد من التفرقة بين الأسطول الإمبراطورى ، وقوة الثغور البحرية . ومن الملحوظ أن قائد الأسطول الإمبراطورى : الطرنجار Drungarius أقل مكانة من قائد الثغر البحرى ، غير أنه لم يلبث أن ازداد شأنه فى منتصف القرن العاشر الميلادى ، وهذا دليل على ازدياد أهمية البحرية[6] .

ومن الموظفين الدامرخ demarchs ، فصار لكل من حزبى الخضر والزرق دامرخ ، غير أنه لم يعد لهذين الحزبين فى بلاط الإمبراطور إلا دور شكلى يقتصر على أن يشهد أعضاؤهما حفلات تنصيب الإمبراطور[7] .

(١) Ostrogorowski : p. 222.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 739.

(٣) Baynes : The Byzautine Empire, p. 137.

(٤) Ibid p. 137, Camb. Med. Hist. IV p. 739.

(٥) Ostrogorowski : p. 222.

(٦) Ibid, p. 222.

(٧) Ostrogorowski : p. 223.

وكبار الموظفين الذين ورد ذكرهم فى كتاب فيلوتيوس ، يقومون على الإدارات الحربية والمدنية والبلاط ، ويعتبرون مسئولين أمام الإمبراطور ، وليس لأحد عليهم سلطان . على أن الإمبراطور وحده هو الذى يوجه الإدارة ويسيرها ، فيعين كبار الموظفين ومساعديهم ، ويقوم بعزلهم متى أراد[١] .

ومن أهم خصائص الإدارة البيزنطية فى هذه المرحلة المتوسطة من التاريخ البيزنطى تفوق الوظائف العسكرية وازدياد عددها ، وما كان لقادة الثغور من مكانة ممتازة[٢] .

والمعروف أن لقادة ثغور آسيا الصغرى ، التى تعتبر العمود الفقرى للقوة الحربية فى بيزنطة ، المكانة العليا ، ويتضح ذلك من المرتبات التى يتقاضونها إذ أنها تفوق مرتبات قادة سائر الثغور[٣] .

على أن التفرقة لم تكن حادة بين طبقات الموظفين ، وترتب على ذلك أنه يجوز أن ينتقل الموظف من السلك المدنى إلى السلك العسكرى ، ويجوز أن يتولى القيادة العسكرية أحد المدنيين أو أحد رجال البلاط ، وكل ذلك يتوقف على رغبة الإمبراطور وما يطرحه من الثقة فى هؤلاء الموظفين[٤] .

الأسواق والنقابات :

تأثرت حياة المدن واقتصادها بما اشتهرت به الحكومة البيزنطية من الاستبداد . فكل النشاط الاقتصادى بالقسطنطينية إنما سيطر عليه والى المدينة . كما هو واضح فى كتاب والى المدينة[٥] The Book of the Prefect ، الذى

(١) Ib id, p, 223.

(٢) Ibid, p, 223.

(٣) Ibid, p, 223.

(٤) Ostrogorowski : p. 223.

(٥) **Camb. Med. Hist. IV. pp. 761 — 762.**
هذا الكتاب ، نقله المؤلف إلى اللغة العربية ، ونشره بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠ .

يرجع إلى القرن العاشر الميلادى ، فلما بلغت سلطة الحكومة ذروتها ، ازدادت سلطة الوالى . ذلك أن التجار بالقسطنطينية ، بل وفى سائر المدن ، انتظموا فى نقابات . ومن النقابات التى لها أهمية خاصة ، تلك التى تقوم بمد العاصمة بالمئونة ، أمثال : تجار المواشى ، والجزارين ، وبائعى السمك ، والخبازين ، وأرباب الحانات . وترتب على النشاط التجارى فى الشمع والعطور والتوابل ، أن أخذت نقابات تمارس تجارة العطور ، والصابون ، وصناعة الشمع ، وتجارة التوابل .

ومن الدليل على أهمية تجارة الحرير فى بيزنطة ، أن صار لصناعة الحرير والسلع الحريرية نقابات عديدة[١] ، وما جرى من التفرقة بين المنتجين والتجار ، وما حدث من التمييز بين الذين يغزلون الحرير ، والذى ينسجونه ويصبغونه ، وبين المشتغلين بتجارة الحرير الخام ، والحرير الشامى ، والملابس المصنوعة من الحرير ، جعل لكل منها نقابة خاصة . ولتجار الكتان وصناع الجلد نقابات خاصة[٢] . غير أن كتاب الحسبة المعروف باسم « كتاب والى المدينة » ، لم يتناول إلا بعض النقابات القائمة فعلا بالقسطنطينية . وانتظام أمثال الموثقين (الكتّاب) ، والصيارف والصاغة فى نقابات ، إنما يدل على ما كان لنظام النقابات فى بيزنطة من أهمية[٣] .

ولم يكن نظام النقابات فى بيزنطة ، إلا امتداداً لهذا النظام فى الدولة الرومانية . فالصلة المتصلة ، غير المقطوعة ، بين النقابات البيزنطية والنقابات الرومانية (collegia) ، ليست خافية . على أن الشخص ، فى العصر البيزنطى ، لم يكن مقيداً بحرفته ومهنته ، كما كان الحال فى الدولة الرومانية . ولم تكن العضوية فى النقابة وراثية ، فلم يعد محتما على الشخص ، أن ينتمى لنقابة .

(١) انظر العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٠ ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) **Ostrogorowski : p. 224.**

(٣) **Ibid, p. 224.**

وصار الالتحاق بالنقابة مرتبطاً بشروط خاصة ، ويتوقف على القدرة على إثبات الميل إلى الحرفة[١] .

ومع ذلك فإن الدولة البيزنطية كان لها سلطان قوى على النقابات . فلم يكن المطلوب من النقابات أن تؤدى للدولة فحسب خدمات ، كما جرى زمن الإمبراطورية الرومانية ، بل إن كل نشاطها خضع للرقابة الشديدة والإشراف الدقيق من قبل والى المدينة[٢] ، وازداد الاهتمام بالنقابات التى تعتمد عليها العاصمة (القسطنطينية) فى تموينها . وللاطمئنان إلى أن العاصمة توافر لديها المئونة والمواد الغذائية ، لجأت الحكومة إلى تحديد مقدار ما ينبغى شراؤه من السلع ، وأشرفت على تعيين أنواعها ، وجعلت سعراً للشراء وسعراً للسوق . وازداد تشجيع ما يستورد من السلع من الأقاليم والبلاد الأجنبية ، بينما اشتد التضييق على الصادرات[٣] .

والواقع أن الغرض الأساسى لنظام النقابات ، لم يكن تحقيق مصالح المنتجين والتجار ، بل كان الغرض أن يكون وسيلة تتخذها الحكومة للإشراف على الحياة الاقتصادية ، لصالح الحكومة والمستهلك . إذ أن الحكومة هى التى تولت تعيين رؤساء النقابات ، وعينت بها من الموظفين من اشتهروا بالتفانى فى أداء واجبهم . وبهذه الوسيلة ، سيطرت الحكومة فعلا على جميع جوانب الحياة الاقتصادية بالقسطنطينية ، وما يجرى بداخلها من عمليات اقتصادية[٤] .

غير أنه إذا كان تشريع الإمبراطور ليو السادس ، يعتبر أكبر وسيلة تؤدى إلى توطيد السيطرة الإمبراطورية ، فإنه أيضاً يلقى الضوء على ما حدث من تزايد قوة الأرستقراطية البيزنطية ، التى أدت فيما بعد إلى إضعاف سلطة الإمبراطور وتقويض بناء الإمبراطورية . وترجع بوادر هذا التطور إلى القرن

(١) Ibid, p. 225.

(٢) انظر العرينى : كتاب عن الحسبة ص ١٣٧ . Ostrogorowski : p. 225

(٣) Ibid p. 225 : Lopez : Silk Industry in the Byzantine Empire. p. 4.

(٤) Ostrogoroski : p. 225.

الثامن الميلادى ، إذ حدث وقتذاك ، أن أسرات من الأعيان أخذت فى الظهور . ثم صار للأرستقراطية زمن ليو السادس من النفوذ والسلطان ، ما جعلها طبقة مستقلة ، والتزمت الدولة بالاعتراف بحقوقها ، ومن الدليل على ذلك ما أوصى به ليو السادس فى كتابه عن الخطط الحربية Tactica ، من أن منصب قائد الثغر ، والوظائف الكبيرة ، لا يصح أن يليها إلا أفراد لهم مكانتهم ، واشتهروا بالنفوذ والثروة[١] . ومن الدليل أيضاً على أن حكومة ليو السادس ، أسهمت فى تشجيع الأطماع الأرستقراطية فى الحقل الاقتصادى ، ما قام به ليو من رفع القيد أو الحظر الذى حرم من قبل على الموظفين ، أثناء توليهم وظائفهم ، أن يشتروا سلعاً ، أو يقبلوا هدايا دون الحصول على تصريح خاص من الإمبراطور[٢] .

وفى واحد من متجددات ليو السادس ، ما يشير إلى إلغاء حق الجار فى الشفعة ، أى أن يشترى ما يجاور ممتلكاته ، والذى كان يمنع انتقال أرض الفلاح إلى المالك ، فصار للجيران الحق فى طرد الفلاحين من الأرض ، إذا قاموا بتسديد ثمن شراء الأرض . وترتب على هذه الاتجاهات ، أن صار من اليسير على الطبقة الأرستقراطية أن تمتلك أراضى الفلاحين ، وهذا معناه أيضاً ازدياد قوة الأرستقراطية من ملاك الأراضى ، وسرعة الاتجاه نحو الإقطاع ، وكان لزاما على خلفاء ليو السادس أن يقوموا ، نتيجة ذلك ، بنضال بالغ الشدة ضد الأرستقراطية[٣] .

السياسة الكنسية

على أن المشاكل الكنسية بالإمبراطورية البيزنطية لم تلبث أن ازدادت

(١) Ostrogorowski : p. 226. Mitard : Le pouvoir imperial au temps de Leon IV Le Sage. Melenges Diehl I (1930) p. 215.

(٢) Ostrogorowski : p. 226.

(٣) Ostrogorowski : p. 226. Vasiliev : p. 346. Cambridge Economic History, I p, 205.

تعقيدا فى مستهل القرن العاشر الميلادى ، أثناء بطريركية نقولا ميستيكوس Nicholas Mysticus ، وهو من أقارب فوتيوس ومن تلاميذه ، ومن أشهر البطاركة الذين جاءوا من بعده[١] . فإن ما اشتهر به فوتيوس من صفات النبل والشرف ، حلت فى تلميذه نقولا ميستيكوس ، على حد رأى أحد المؤرخين ؛ إذ حاول أن يسير على نهج فوتيوس[٢] وخلف هذا البطريرك مجموعة قيمة من الرسائل ، تعتبر عظيمة الأهمية من الناحيتين التاريخية والكنسية[٣] .

نشب النزاع بين ليو ونقولا ، بسبب ما جرى من زواج الإمبراطور ، أربع مرات ، واشتدت معارضة البطريرك للإمبراطور ، لمخالفة تصرفاته قوانين الكنيسة[٤] . فى ١٠ نوفمبر سنة ٨٩٣ ، توفيت تيوفانو زوجة ليو ، فصار للإمبراطور مطلق الحرية فى أن يتزوج للمرة الثانية . والمعروف أن ليو اتخذ له ، منذ زمن طويل ، وبرغم سخط أبيه باسيل ، خليلة ، وهى امرأة اسمها زوى ، اشتهرت بالسمعة السيئة . كانت ابنة ستليانوس زاوتسيس الأرمنى ، الموظف ببلاط باسيل المقدونى ، والذى كان يقوم على تربية ليو ، والراجح أنه تغاضى عن سلوك ابنته زوى وعلاقتها المشينة مع ليو ، ومن الدليل على ذلك ، أن ليو ما كاد يتولى العرش ، حتى غمره بأفضاله ، فجعل له الإشراف على الشئون العامة وتوجيهها ، ولم يلبث أن رفعه إلى رتبة كبير الوزراء[٥] . وتزوج ليو من زوى ، غير أنه لم يمض على زواجه منها بضعة شهور حتى ماتت سنة ٨٩٦ ، ولم تنجب له وريثاً يخلفه على الحكم[٦] .

---

(١) Vasiliev. p. 335. Camb. Med. Hist. IV. p. 57.

(٢) Vasiliev : p. 335.

(٣) Ibid, p. 335.

(٤) Diehl : Figures Byzantines, I. pp. 181 — 215.

(٥) أسد رستم : الروم ج ٢ ، ص ١٨ Camb. Med. Hist. iV. p. 57.

(٦) Camb. Med. Hist. IV. p. 57.

وعزم ليو على أن يتزوج للمرة الثالثة ، برغم مخالفة ذلك لكل القوانين والقواعد المرعية فاتخذ فى سنة ٨٩٩ له زوجة اسمها ايدوسيا من فريجيا ، غير أنها لم تلبث أن ماتت فى ابريل سنة ٩٠٠ ، فأضحى ليو مرة أخرى أرملا[١] . ولم يمض على وفاة ايدوسيا إلا زمن قصير ، حتى استرعى نظره فتاة جميلة من أسرة نبيلة ، وهذه الفتاة اسمها أيضازوى ، اشتهرت بسواد عينيها فصارت معروفة بذات العيون الدعج ، كاربونبسينا Carbonupsina[٢]. لم يجرؤ الإمبراطور أول الأمر ، على أن يتزوجها . وعلى الرغم من أن الإمبراطور أفصح مرارا عن عزمه على الزواج منها ، غير أن ما تعرض له من النفور والسخط ، جعله يعدل عن ذلك ، إلى أن وضعت له ابنه الذى اشتهر باسم قنسطنطين السابع . جرى ذلك فى خريف سنة ٩٠٥ ؛ وفى يناير ٩٠٦ ، قام البطريرك بتعميد الطفل ، بشرط أن يقوم ليو بطرد زوى . وهذا الشرط لا يتفق فحسب مع قوانين الكنيسة البيزنطية ، بل يطابق أيضاً ما أصدره ليو من القوانين المدنية ، فكلا القانونين الكنسى والمدنى ، لا يجيزان الزواج للمرة الرابعة[٣] .

غير أن الإمبراطور كان حريصاً على أن يسبغ الصفة الشرعية على ابنه ووريثه فى الحكم ، كما أن زوى كانت تأمل فى أن تكون إمبراطورة وأن تتولى الحكم . وسبق أن رفض البطريرك أن يقر زواج ليو السادس من ايدوسيا ، وأنزل العقاب بالقس الذى قام بعقد زواجه ، ولم يكن هذا البطريرك إلا أنطون كاولياس ، ولم يكن الأمر يتعدى عقد زواج الإمبراطورة للمرة الثالثة . فماذا يكون موقف البطريرك نقولا من عقد زواج رابع ؟ ما كاد يمضى على تعميد قنسطنطين ثلاثة أيام ، حتى تزوج ليو من زوى ، وجعلها إمبراطورة . لم يستطع البطريرك أن يقر تصرف الإمبراطور ، على الرغم

---

(١) Ibid, p. 57.

(٢) Camb. Med. Hist IV. p. 57.

(٣) Ibid, p. 57.

من الصداقة الوطيدة التى تربط بينهما منذ الصغر ، ومن أن الإمبراطور هو الذى اختاره لمنصب البطريركية . ولما فشل البطريرك نقولا فى التأثير على الإمبراطور ، لم يسعه إلا أن يرفض الاعتراف بزواجه ، وفى نهاية سنة ٩٠٦ ، حرم على الإمبراطور المذنب أن يدخل كنيسة القديسة صوفيا (بالقسطنطينية) . وانحاز إلى جانب البطريرك ، الكنيسة ، والبلاط ، والعاصمة[١]. ومع ذلك تقرر الرجوع إلى بابا روما والائتناس برأيه فى هذا الموضوع . فكتب كل من نقولا وليو ، إلى البابا ، فبعث البابا من قبله مندوبين ، وتقرر آخر الأمر إجازة الزواج . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أن لوائح الزواج عند الرومان ، أقل صرامة وشدة . من اللوائح البيزنطية ، أما السبب الثانى ، وهو الأهم ، فهو أن البابا لا يستطيع أن يرفض طلب إمبراطور لجأ إليه لمساعدته ضد البطريرك ، وفى ذلك من الدلالة على الاعتراف بالسيادة البابوية[٢] .

ولقى هذا القرار التأييد من قبل الكراسى البطريركية فى الشرق ، وترتب على ذلك ، أن صدر الأمر بنفى نقولا وعزله من البطريركية ، فخلفه عليها فى يناير سنة ٩٠٧، إيتيميوس Euthymius الذى اشتهر بالتقوى والصلاح[٣].

ومع ذلك فإن مسألة زواج الإمبراطورة للمرة الرابعة ، ظلت موطن نقاش استمر زمنا طويلا ، فانقسم رجال الدين فى بيزنطة إلى فريقين : الأول الذى يؤيد نقولا ميستيكوس ، ينكر إقرار زواج الإمبراطور للمرة الرابعة ، ولا يعترف بالبطريرك الجديد إيتيميوس . أما الفريق الثانى ، وهو حزب الأقلية ، فإنه يقر ما جرى من الاعتراف بزواج ليو ، وبطريركية إيتيموس ، وذاع هذا النزاع فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، واعتبر بعض المؤرخين أن هذا النزاع ليس إلا امتدادا لما كان من العــداوة بين أنصار فوتيوس واجناتيوس[٤] . ورأى الإمبراطور آخر الأمر ، أن نقولا ميستيكوس

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 57.
(٢) Ostrogorowski : p. 231.
(٣) Vasiliev : p. 333. أسد رستم : الروم ج ٢ ص ١٦
(٤) Vasiliev : p. 333.

بفضل ما اشتهر به من الخبرة والنشاط ، هو الذى يستطيع أن يحل المشكلة ، فاستدعاه فى سنة ٩١٢ قبيل وفاته . وأعاده إلى منصب البطريركية بعد عزل إيتيميوس . وسعى نقولا فى إعادة العلاقات الودية مع روما ، بعد أن انقطعت الصلات بين القسطنطينية وروما ، بسبب إقرار البابا رواج الإمبراطور[١] .

السياسة الخارجية

يختلف ليو السادس عن باسيل الأول . فى أنه لم يكن لديه منهج مرسوم للسياسة الخارجية ، فلم يعد فى وسعه أن يقصر أمر الحرب على المسلمين ، ويعد هذا الاختلاف من الأضرار التى لحقت بالإمبراطورية[٢] .

الحرب ضد البلغار

تعرضت العلاقات بين بيزنطة وبلغاريا لأزمة حادة ، بعد فترة طويلة من الهدوء والسلام . فبعد أن تخلى عن الحكم أول ملك بلغارى مسيحى ، وهو بوريس — ميخائيل، سنة ٨٨٩ . وبعد أن ارتد ابنه الأكبر فلاديمير إلى الوثنية سنة ٨٩٣ ، انتقلت السلطة إلى أصغر أبناء بوريس ، وهو سيميون (٨٩٣ — ٩٢٧) ، الذى أضحى أعظم ملوك بلغاريا فى العصور الوسطى[٣] .

وكان قد تم الامتزاج بين البلغار الحاكمين ورعاياهم الصقالبة ، فتوحدت الكلمة واشتدت المطامع ، وكانت بلغاريا زمن ليو السادس تشمل جانبا كبيرا من غرب البلقان ، ومعظم ما يقع بين الدانوب ومورافيا وبولنده[٤] .

والمعروف أن سيمون نشأ بالقسطنطينية ، وتلقى تعليمه بها ، وأتقن اليونانية والخطابة والمنطق ، ووقف على ما اشتهر به البلاط البيزنطى من الأبهة

(١) Ibid, p. 334. Camb. Med. Hist. IV p. 57.
(٢) Ostrogorowski : p. 226.
(٣) Ostrogorowski : p. 226.
(٤) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٢٠ .

والعظمة ، واستهوته الحضارة البيزنطية . وما قام فى عاصمته بريسلاف من الكنائس والقصور . إنما شيده مهندسون تأثروا بالأساليب الأرمنية البيزنطية ، وفى زمنه جرى نقل كثير من الكتب من اليونانية إلى الصقلبية[١] .

ما كاد سيميون يتولى الحكم ، حتى شب النزاع بين بلغاريا وبيزنطة ، ونشأ هذا النزاع لأسباب تجارية ، ذلك أن اثنين من التجار البيزنطيين ، حصلا من الإمبراطور ليو السادس على حق احتكار التجارة البلغارية . فعمدا بموافقة ستليانوس زاوتسس ، إلى نقل السوق البلغارية من القسطنطينية إلى سالونيك ، وفرضا مكوسا باهظة على التجار البلغاريين . وتقدم هؤلاء التجار بالشكوى إلى سيميون فرفع شكواهم إلى الإمبراطور البيزنطى ، غير أن ما حدث من عدم الاهتمام بهذه الشكاوى ، دفع سيميون إلى الالتجاء إلى القتال . فأغار على الأراضى البيزنطية سنة ٨٩٤، وأنزل بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة ، وبعث بمن أسره منهم إلى القسطنطينية بعد جدع أنوفهم[٢]، ولما لم يكن لبيزنطة قوات كافية بالبلقان ، نظرا لتوجيه كل عساكرها لقتال المسلمين ، لجأت إلى استخدام الدبلوماسية ، بأن استنجدت بالمجريين[٣]. والمعروف أن المجريين كانوا ينزلون وقتذاك وراء الحدود البلغارية ، على پروث Pruth ، ومن خلفهم نزلت أقوام تركية Ugrian Turco ، وهم المعرفون بالبجناك[٤] .

---

(١) Moss : Byzantium, p. 351.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 237. Ostrogorowski, p. 227.

(٣) Vasiliev : p. 316. Ostrogorowski : p. 227.

Macartney E. A. : The Magyars in the Ninth Century - Cambridge, 1930.

(٤) فى النصف الثانى من القرن التاسع ، كان المجريون ينزلون الإقليم الواقع بين نهرى الدنيبر والدون . ثم لم يلبثوا أن عبروا الدنيبر . ويرجع السبب فى هجرتهم ، إلى ما حدث من انسياب البجناك من نهر الفلجا ، فحاولوا أن يستولوا على بلاد الخزر ، غير أن ما أصابهم من الهزيمة على يد الخزر ، جعلهم يتحركون لاحتلال منازل المجريين ، بعد إجبارهم على عبور الدنيبر . فاحتل المجريون الأراضى الواقعة بين الدنيبر وروافد نهرى بروث وسريت Seret ، التى خضعت وقتذاك لسلطان البلغار . فأصبحت منازلهم قريبة من نهر الدانوب ، ولم يوجهوا هجومهم أول الأمر ضد بلغاريا ، بل أغاروا على ما يقع بوسط أوروبا من الأراضى التى اعترفت بسيادة لويس الألمانى . انظر :

Bury : Eastern Raman Empire, pp. 424 — 425.

ونهض المجريون لمساعدة البيزنطيين ، فاحتلوا الجهات الواقعة بين نهر الدنيبر والدانوب . وما لجأت إليه بيزنطة من الاستنجاد بالمجريين ، هيأ لهم الفرصة لأن يتدخلوا لأول مرة فى سياسات الدول الأوربية . فاستجابة لنداء بيزنطة ، هاجم المجريون مؤخوة سيميون ، وأنزلوا بهم هزائم عديدة ، وخربوا الأراضى الواقعة بشمال بلغاريا ، بينما احتل القائد البيزنطى ، نقفور فوكاس ، الطرف الجنوبى لبلغاريا وقام ايستاتيوس Eustathius ، قائد الأسطول البيزنطى ، بإحكام الحصار على مصب نهر الدانوب[١] . ولم يسع سيميون إلا أن يعقد الهدنة مع البيزنطيين ، كيما يكتسب الوقت الكافى لمناوأة البيزنطيين من جديد . وإذ لجأ البيزنطيون إلى الاستعانة بالمجريين ، لجأ سيميون إلى أقوام بدوية اشتهرت بالميل الشديد للحرب ، وهؤلاء هم المعروفون بالبجناك ، الذين قدموا من سهول جنوب روسيا . وبفضل مساعدتهم ، استطاع سيميون أن يتغلب على المجريين ، ثم على البيزنطيين ، فأحرز فى سنة ٨٩٦ انتصاراً حاسماً فى معركة بلغاروفيجون Bulgarophygon قرب أدرنة . وتقرر عقد الصلح ، وبمقتضاه تحتم على بيزنطة أن تدفع جزية سنوية لمملكة البلغار[٢] .

على أن سيميون كان حريصا فى سنة ٩٠٤ على أن يضم إلى مملكته مدينة سالونيك بعد أن تعرضت فى هذه السنة للحصار والتخريب من قبل المسلمين . ولم يستطع ليو السادس الوقوف دون تحقيق هذه الخطة ، إلا بعد أن تنازل للبلغار عن أجزاء أخرى من إمبراطوريته . وبمقتضى الاتفاق الذى انعقد بين بيزنطة والبلغار ، انضم إلى مملكة بلغاريا ، سنة ٩٠٤ ، كل الأراضى الصقلبية التى تقع بجنوب مقدونيا وإلبانيا الحالية ، فكأن سيميون وحد تحت لواء بلغاريا كل القبائل الصقلبية بالبلقان ، والتى جعلت للقومية البلغارية طابعها الأخير .

---

(١) Ostrogorowski : p 227.

(٢) Ibid, p. 227 Camb. Med. Hist. IV p. 237.

Vasiliev : p. 316.

Runciman : The First Bulgarian, Empire, p 1 8.

ومنذ تاريخ هذه المعاهدة حتى نهاية زمن ليو السادس ، لم يقع صدام بين بلغاريا والإمبراطورية البيزنطية[١] .

أما المجريون ، فإنهم تحركوا ، تحت ضغط البجناك ، صوب الغرب ، فاستقروا فى موطنهم الحالى بسهل الدانوب ، فدقوا بذلك إسفينا فى وسط إقليم الصقالبة ، وفصلوا صقالبة الجنوب ، عن زملائهم بالشمال والشرق[٢] ، إذ أن الكتلة الصقلبية الضخمة الممتدة من بحر البلطيق إلى بحر الأدرياتى ، وبحر إيجه ، والبحر الأسود ، قد تعرضت فى صميمها لمهاجمة المجريين[٣] .

الحروب ضد المسلمين

ولم تكن لبيزنطة من القوة ما تستطيع بها مواجهة المسلمين فى الشرق والغرب . والمعروف أن بيزنطة ارتبطت بأرمينيا ، زمن باسيل ، بنوع من التحالف والعلاقات الودية ، منذ زمن ملكها أشوت الأول ، وصارت أرمينيا تعتبر دولة حاجزة ضد المسلمين فى الشرق[٤] . غير أن أرمينيا لازالت تعترف للمسلمين بالسيادة . ومن الدليل على ذلك ، ما تدفعه من جزية سنوية للخليفة العباسى ، وضرورة الحصول على موافقة الخليفة عند تنصيب ملوكهم[٥] . وفى سبيل المحافظة على السلام ، حرص أشوت على أن يعقد محالفات مع سائر الملوك والأمراء المجاورين . فتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور ليو الفيلسوف (ليو السادس) ، الذى قيل عنه ، إنه ينحدر من أصل أرمنى . ووقع الملكان معاهدة سياسية وتجارية . وأمد الملك أشوت الإمبراطور البيزنطى ، بكتيبة أرمينية ، تسانده فى الحرب ضد البلغار[٦] .

---

(١) Vasiliev : p. 3 7.

(٢) Ostrogorowski : p. 227. Byzantium (ed. Moss), p. 350.

(٣) Baynes - Moss : Byzantium, p. 351.

(٤) Camb. Med. Hist. IV p. 140.

(٥) Ibid, p. 158.

(٦) Ibid, p. 159.

وما كاد أشوت يقضى نحبه ويتولى مكانه ابنه سمباد الأول Sambat I (٨٩٢ — ٩١٤) ، حتى نشبت الحرب الداخلية فى البلاد ، وانحاز كثير من الأمراء ، إلى جانب المسلمين فى أذربيجان ، الذين يكرهون أرمينيا[١] . وتطلع سمباد إلى المساعدة الخارجية من قبل البيزنطيين[٢] . على أن أرمينيا تعرضت لمهاجمات المسلمين المستمرة ، ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى أن ينهض لمساعدة أرمينيا ، وحينما توجه ليو السادس على رأس حملة لتقديم المساعدة للأرمن ، مات قبل أن تصل إليهم النجدة ، ولم تلبث أرمينيا أن خضعت لحكم المسلمين سنة ٩١٤[٣] .

وما حدث من نشوب الاختلاف والشقاق بين البيزنطيين ، بسبب مشكلة زيجات الإمبراطور ليو السادس ، جعل النضال بين البيزنطيين والمسلمين شاقا ومضنيا[٤] .

ففى الأربع عشرة سنة الأولى من حكم ليو السادس ، من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩٠٠ ، تعرض البيزنطيون لهزائم عديدة فى الشرق ، عند أبواب قليقية ، وفى غرب قليقية ، حيث أدى انتصار المسلمين إلى أن يزحفوا على امتداد الساحل ، وأن يتوغلوا فى جوف آسيا الصغرى[٥] . وما حل بالبيزنطيين من الهزيمة براً ، وما تعرضوا له من الهزيمة بحراً سنة ٨٩٨ عند Ragnib تجاه شاطئ آسيا الصغرى ، أجبر الحكومة البيزنطية على أن تستدعى من إيطاليا قائدها الشجاع نقفور فوكاس ، فقدم إلى آسيا الصغرى سنة ٩٠٠[٦] . وما أحرزه نقفور من انتصار فى أدنه سنة ٩٠٠ ، لم يترتب عليه منع إغارات المسلمين ووقف هجماتهم[٧] .

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 159.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 159.

(٣) Ibid. pp. 140, 160.

(٤) Ibid p. 140.

(٥) Ibid p. 140.

(٦) Camb. Med. Hist. IV. p. 141. Ostrogorowski, p. 228.

(٧) Camb. Med. Hist. IV. p. 141.

أخذت الأمور فى صقلية تزداد سوءاً ، سنة بعد سنة ، فعلى الرغم من الجهود التى بذلها باسيل الأول ، لتوطيد النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا ، وإفادته من التزام المسلمين بصقلية الهدوء ، فى توجيه البحرية البيزنطية لمواصلة نشاطها فى البحر التيرانى ، فإن هذا الهدوء لم يكن إلا ظاهرياً ، إذ أعقب وفاة باسيل سنة ٨٨٦ ، أن عاد المسلمون بصقلية إلى الهجوم ، فأغاروا فى سنة ٨٨٨ على كالابريا[١] (قلورية) وأقلعت قوات بحرية بيزنطية ، نحو الغرب ، إلى ريجيو (ريو) ، وإلى بوغاز مسينا ، وبالقرب من Milazzo (ميلاص) ، تجاه الساحل الشمالى لجزيرة صقلية ؛ التقت بأسطول إسلامى ضخم ، فحلت الهزيمة بالقوات البيزنطية ، وتعرض الأسطول البيزنطى للتدمير[٢] . وتقرر سنة ٨٩٥ ، عقد هدنة بين الفريقين ، وبذلك فقدت بيزنطة كل ما لها من سلطان على مياه صقلية وغرب إيطاليا[٣] .

والسنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى ، اشتهرت بما أصاب الدولة البيزنطية من الهزائم ، إذ استولى أبو العباس بن إبراهيم بن الأغلب ، فى سنة ٩٠١ على ريجيو (ريو) Reggio فى كالابريا[٤] ، بينما قاد إبراهيم بن الأغلب ، الذى تنازل لابنه عن حكم أفريقية ، حملة ضخمة سارت براً وبحراً فى سنة ٩٠٢ ، من بالرمو ، لمهاجمة آخر ما تبقى فى صقلية من الأملاك فى يد البيزنطيين ، التى لم تتعد مدينة توارمينا (طبرمين) Toarmina وما يجاورها ، والتى لم تلبث أن سقطت فى يد المسلمين . ثم واصل إبراهيم بن الأغلب المسير إلى كالابريا ، غير أن موته المفاجئ فى كوسنزا Cosenza ، أنقذ إيطاليا من المصير الذى تعرضت له توارمينا ، إذ أن الجيش الإسلامى عاد إلى صقلية[٥] .

---

(١) Lewis : Naval Power, p. 139.

(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 141, Lewis, p. 139.

ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٣) Lewis, p. 139

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ، ص ٣٥٠ . Camb. Med. Hist. IV p. 141

(٥) انظر الترجمة العربية : لويس : القوى البحرية و التجارية ، ص ٢٢١ . Lewis : p. 139

وعلى الرغم من أن بيزنطة لازالت تملك بعض المواضع فى صقلية ، فإن هذه المواضع لم يكن لها أهمية فيما بعد ، فى تاريخ بيزنطة . فمنذ سنة ٩٠٢ ، ما جرى من الحوادث بصقلية لم يكن لها أثر فى توجيه الأمور السياسية فى بيزنطة . وما سار عليه ليو السادس فى سياسته مع المسلمين فى الشرق ، لا ترتبط مطلقاً بعلاقاته مع المسلمين فى صقلية[١] .

واشتهرت أيضاً السنوات الأولى من القرن العاشر ، بما وقع من حوادث كبيرة الأهمية . إذ أن المسلمين فى الشرق لم يسيطروا فحسب على البحر المتوسط ، بل بسطوا سلطانهم على بحر إيجة ، الذى تحيط به الممتلكات البيزنطية . فجزر بحر الأرخبيل . وساحل البيلوبونيز ، وتساليا ، تعرضت باستمرار لغارات المسلمين المخربة[٢] . واشترك ، عادة ، الأسطولان الإسلاميان فى الشام وكريت ، فى هذه الغارات . ففى سنة ٩٠٢ ، أغار الأسطول الإسلامى ، على جزائر بحر إيجة ، وأنزل الدمار بمدينة ديمترياس Demetrius (سالونيك) ، الواقعة على ساحل تساليا ، والتى اشتهرت بكثرة عدد سكانها ووفرة ثروتها[٣] . وفى سنة ٩٠٤ قام أسطول إسلامى آخر بقيادة ليو الطرابلسى ، وهو يونانى اعتنق الإسلام ، بالهجوم على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وفى شهر يوليه من هذه السنة استولى على مدينة أطاليا Attalia الهامة . ثم عزم ليو على أن يقصد القسطنطينية ليستولى عليها ، فاجتاز فعلا الدردنيل إلى بحر مرمرة واستولى على أبيدوس ، التى تعتبر الميناء الرئيسى للسفن عند مضيها إلى القسطنطينية ، حيث يقع بها الديوان[٤] (الجمرك) . غير أن ليو لم يلبث أن ارتحل فجأة ، واستدار مع شبه جزيرة خلقيديقا Chalcidice وانقض على سالونيك التى اشتهرت بنشاطها التجارى والثقافى ، والتى تلى القسطنطينية فى الأهمية والثروة . وانحاز إلى أسطوله سفن إسلامية من كريت ، واستخدم فى هذا الهجوم قاذفات

---

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 141. Ostrogorowski, p. 228.

(٢) Ostrogorowski : p. 228.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 141.

(٤) Ibid, p. 141.

اللهب ، فأحرز انتصاراً حاسماً ، ووقع فى يده من السبى نحو ٢٢ ألفاً ، من الذكور والإناث ، فباعهم فى أسواق الرقيق فى الخندق وطرابلس ، فضلا عن الغنائم[1] .

وما أصاب الدولة البيزنطية من ضربات قاصمة ، ردَّها إلى صوابها ، فعملت على إقامة استحكامات قوية فى سالونيك وأضاليا ، واتخذت من التدابير الفعالة ، ما يزيد فى قوة الأسطول . ولم تلبث هذه القوة الجديدة أن ظهرت آثارها ، إذ استطاع الوزير هيميريوس Himerius ، أن يحرز فى سنة ٩٠٦ انتصاراً باهراً على المسلمين . وفى سنة ٩١٠ ، نزل بجنده فى جزيرة قبرص ، ومن ثم تحول لمهاجمة ساحل الشام ، فاقتحم اللاذقية[2] .

وقاد هميريوس سنة ٩١١ أكبر حملة بحرية لمهاجمة جزيرة كريت ، إذ تألفت من ٧ آلاف فارس ، و٣٤ ألف مقاتل بحرى ، وخمسة آلاف من المردة ؛ وسبعمائة مرتزق روسى[3] ، على أن الأسطول البيزنطى انسحب بعد قتال فاشل ، استمر طويلا ، دون جدوى ، وفى أثناء عودته هاجمه أسطول إسلامى بقيادة ليو الطرابلسى ودميان ، اليونانى المسلم أمير صور وقائد الأسطول الشامى[4] ، وذلك تجاه جزيرة خيوس ، فتعرض هيميريوس لهزيمة ساحقة ، وبذلك أخفقت الحملة الكبيرة . وما بذلته الإمبراطورية من جهود حربية

---

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ، ص ١٩ Lewis : p. 145.
Vasiliev : p. 305.
على أن أحد رجال الدين ، واسمه كامنياتس Cameniates ، وقد شهد ما اقترن بحصار سالونيك من المشاق والمتاعب ، دون وصفا تفصيليا لهذه الغارة الإسلامية على المدينة انظر :
Vasiliev : p. 305.
Vasiliev : Byzance et Les Arabs, I pp. 143 — 153.

(٢) Ostrogorowski : p. 229.

(٣) أسد رستم : الروم ، ٢ ص ١٩ — ٢٠ .

(٤) Lewis : p. 141.
أورد الإمبراطور قنسطنطين بورفيروجنيتوس وصف حملة هيميروس بالتفصيل فى كتابه عن المراسيم . انظر : Ostrogorowski : p. 229.
Camb. Med. Hist., IV p. 142.

ومالية ، تجاوزت الحدود ، ولم تؤد إلى نتائج إيجابية[1] . ولما عاد هيميريوس إلى القسطنطينية بعد وفاة ليو السادس ، تقرر إنزاله بالدير[2] .

الـروس :

فى عهد الأسرة المقدونية ازداد نمو العلاقات بين روسيا والدولة البيزنطية . فيشير مؤرخ روسى ، إلى أن الأمير الروسى أوليج Oleg ، قدم بأسطول مؤلف من سفن عديدة ، زمن الإمبراطور ليو السادس ، وظهر سنة ٩٠٧ ، أمام أسوار القسطنطينية . واستطاع « أوليج » أن يرغم الإمبراطور البيزنطى ، على أن يدخل معه فى مفاوضات ، انتهت إلى عقد اتفاق ، وذلك بعد أن خرب أرباض القسطنطينية وقتل عدداً كبيراً من السكان[3] . وعلى الرغم من أنه لم يشر إلى حادث « أوليج » مصدر من المصادر المعروفة حتى الوقت الحاضر ، سواء كانت بيزنطية أو غربية أو شرقية ، فالواقع أن الرواية التى أوردها المؤرخ الروسى ، استندت إلى حوادث تاريخية صحيحة ، برغم ما شاب تفاصيلها من الأساطير . والراجح أن هذا الاتفاق الابتدائى ، الذى جرى عقده سنة ٩٠٧ ، تجدد سنة ٩١١ ، فى معاهدة رسمية ، انطوت ، وفقاً لما أورده هذا المؤرخ الروسى السابق ، على امتيازات وحقوق تجارية حصل عليها الروس[4] . وهذه المعاهدة تحدد بداية العلاقات التجارية المنتظمة ، بين الدولة البيزنطية ومملكة روسيا الناشئة . ومن النتائج التى ترتبت أيضاً على هذه المعاهدة ، أنها جعلت للروس الحق فى الاشتراك فى الحملات البيزنطية[5] . ومن الدليل على

---

(١) Ostrogorowski : p. 229 Vasiliev : p. 305.

(٢) Camb. Med. Hist, VI p. 14.

(٣) Vasiliev : p. 321.

(٤) Vasiliev : p 311.
Vasiliev : The Second Russian Attack on Constantinople, Dumbarton Oake Papers, VI (195?) pp. 161 - 225.

(٥) Ostrogorowski : p. 229

ذلك ، ما سبق الإشارة إليه من اشتراكهم فى الحملة الموجهة إلى جزيرة كريت ، ووصفها بالتفصيل قسطنطين بورفيروجنيتوس فى كتاب المراسيم(١).

بيزنطة وسيميون ملك بلغاريا

مات ليو السادس ، فى ١٢ مايو سنة ٩١٢ ، وانتقلت السلطة إلى يد رجل سفيه محب للمتعة والمباذل ، وهو الإسكندر ، عم قسطنطين وابن ليو ، والذى لم يتجاوز وقتذاك السادسة من عمره . وكل ما كان يرمى إليه الإسكندر ، أن يستخلص لنفسه حكم الإمبراطورية البيزنطية . فأمر بالإمبراطورة زوى ، فاعتزلت فى الدير ، وأخرج من الوظائف أشهر مستشارى الإمبراطور ليو ، وأحل مكانهم طائفة من الرجال المخاصين له ، وترتب على هذه السياسة أن عاد نقولا ميستيكوس إلى كرسى البطريركية بعد أن تنحى عنه إيتيميوس(٢) .

وتأثرت السياسة الخارجية بسلوك هذا الحاكم الجديد ، إذ امتنع عن أن يدفع للبلغار الجزية السنوية ، التى تعهدت بأن تدفعها بيزنطة ، وفقاً لمعاهدة الصلح سنة ٨٩٦ ، فهيأ بذلك لملك البلغار سيميون ، السبب الذى من أجله أنشب الحرب من جديد ضد بيزنطة ، لاسيا بعد أن ازدادت قوته الحربية . على أن الإسكندر لم يعش حتى يرى ما ترتب على أعماله من نتائج وخيمة ، إذ أنه مات فى ٦ يونيه ٩١٣(٣). أما قسطنطين ، الذى يعتبر الممثل الوحيد للأسرة المقدونية ، فلم يتجاوز وقتذاك السابعة من عمره ، فوقع تصريف أمور الدولة البيزنطية ، فى أيدى مجلس وصاية برآسة البطريرك ميستيكوس(٤) .

وأضحى الموقف معقداً وخطيراً ، إذ واجه ميستيكوس معارضة شديدة

---

(١) انظر ما سبق ص ٣١٣ ، أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٥١٢ – ٥١٣
Ostrogorowski : p. 229,

(٢) Ostrogorowski : p. 231,

(٣) Ostrogorowski : p. 132.

(٤) Ibid, p. 231,

من عناصر شديدة الولاء للأسرة المقدونية ، وتركزت فى شخصية زوى أرملة الإمبراطور . وتعرض كذلك لكراهية فريق من رجال الدين ، ظلوا على إخلاصهم للبطريرك المعزول ، ايتيميوس . يضاف إلى ذلك أنه صار لزاما على على ميستيكوس أن يكون وصياً على طفل ، لا يعتبره ابنا شرعيا للإمبراطور ، وليس له الحق فى أن يتولى العرش(١) . وزاد من الاضطراب والفوضى ما أقدم عليه القائد الأعلى للجيش ، قسطنطين دوكاس ، من محاولة اغتصاب الملك(٢) . وفى وسط هذه الأحوال ، نشبت الحرب الضروس ، مع ملك البلغار ، وهى التى أثارها الإسكندر(٣) .

وعزم سيميون على أن يفتح القسطنطينية ، ولم يجد نفعا ما لجأ إليه البطريرك نقولا ميستيكوس ، من كتابة رسائل مؤثرة ، إلى سيميون ، « لابالمداد ، إنما بالدمع » يثنيه فيها عن غرضه(٤) . وحاول البطريرك أيضا أن يلجأ إلى التهديد بأن الإمبراطوية البيزنطية ، سوف تعقد محالفة مع الروس ، والبجناك ، واللان ، والترك الغربيين (المجريين)(٥) . على أن سيميون أيقن بأن هذه المحاولات لعقد المحالفات لن تتحق ، ولذا لم يكن لما لجأ إليه ميستيكوس من التهديد أى أثر فى تغيير خطته(٦) . لم تكن حملة سيميون التى قام بها لمهاجمة القسطنطينية يرمى من ورائها إلى النهب والسلب ، وتوسيع ممتلكاته ، إنما كان يهدف بها إلى إحراز التاج الإمبراطورى . فالوصاية على العرش البيزنطى ، أثارت عند سيميون ، ما يقترن بهذه الوظيفة من مكانة وهيبة . ويعتقد سيميون أيضا ، مثلما يعتقد البيزنطيون أنه لاينبغى أن يكون ثمت إلا إمبراطورية واحدة . فلم يكن هدفه إقامة مملكة بلغارية قومية ، محصورة فى داخل حدود إقليمية معينة ، وتعيش

---

(١) Ibid, p. 322.

(٢) Ibid, p. 232.

(٣) Ibid, p. 232.

(٤) Vasiliev, p. 371.

(٥) Ibid, p. 317.

(٦) Ibid, p. 317.

جنبا إلى جنب ، مع الإمبراطورية البيزنطية ، إنما كان يرمى إلى إنشاء إمبراطورية عالمية واحدة ، تحل مكان بيزنطة[١] . هذا الطموح هو الذى جعل للنضال بين سيميون والدولة البيزنطية طابعا خاصا ، بأن رفع هذا النضال فوق ما كان يجرى عادة من نهوض بيزنطة لمحاربة جيرانها المتمردين ، وجعله من أشد ما تعرضت له بيزنطة من الاختبارات القاسية[٢] . فالحرب من أجل الحصول على اللقب الإمبراطورى فى العصور الوسطى إنما يقابل القتال من أجل السيادة والسيطرة[٣] ، فحتم بذلك سيميون على بيزنطة أن تدافع عن مكانة الإمبراطورية ، لما لها من الصدارة على سائر الدول المسيحية[٤] .

أنزل الجيش البلغارى الهزيمة بالبيزنطيين معارك عديدة ، غير أن أشد ما لحق بالبيزنطيين من خسائر ، حدثت سنة ٩١٧ ، حين تم سحق القوات البيزنطية عند نهر أخيلوس Achelous ، قرب أنخيالوس Anchialus (فى تراقيا) . ويشير المؤرخ ليو الشماس الذى زار هذا الموضع فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، إلى أنه « شهد أكواما من العظام ، قرب انخيالوس ، حيث تعرض الجيش البيزنطى ، عنـــد هروبه ، للقتل والتذبيح ، وتقطيع أوصاله »[٥] . وأضحى الطريق أمام سيميون بعد معركة أخيلوس ، مفتوحا بعد القسطنطينية[٦] . وفى سنة ٩١٨ ، أغار سيميون على شمال بلاد اليونان ، وأوغل فى اندفاعه حتى بلغ خليج كورنثه[٧] .

وما تعرضت له بيزنطة من حرج ، وما تبين من فشل كل من البطريرك ميستيكوس والإمبراطورة زوى فى رد البلغار على أعقابهم ، تطلب إقامة حكم

---

(١) Ostrogorowski : p. 232.

(٢) Ostrogorowski : p. 232.

(٣) Ibid, p. 232.

(٤) Ibid, p. 232.

(٥) Vasiliev : p 317.

(٦) Ibid, p. 371.

(٧) Ostrogorowski : p. 234.

عسكرى قوى يؤمن بأغراضه[١] . على أن أقدر شخص يستطيع الاضطلاع بالحكم ، إنما كان القائد البحرى (الطرنجار Drungarius) رومانوس ليكابينوس الأرمنى Romanus Lecapenus ، الذى تغلب على ليوفوكاس قائد الجيش ، والذى كان موضع عطف الإمبراطورة ، والذى رشحته ليتولى مقاليد الأمور . فاستطاع رومانوس أن يستولى على الحكم[٢] . وبفضل ما اشتهر به رومانوس ليكابينوس من المكر والدهاء ، عمل على أن يتخلص من الإمبراطورة زوى ومستشاريها ، وأن يوطد سلطانه ونفوذه . وفى مايو سنة ٩١٩ تزوج الإمبراطور الشاب ، قنسطنطين السابع من هيلينا Helena ، ابنة الوصى الجديد رومانوس[٣]. فاتخذ رومانوس بذلك لقب الأمير الوالد Basileopator [٤] ، الذى اتخذه من قبل ستليانوس زوتسيس ، زمن الإمبراطور ليو السادس[٥] . غير أنه لم يلبث أن ارتقى إلى أعلى من ذلك ، ففى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٢٠ رفعه صهره الإمبراطور قنسطنطين إلى رتبة قيصر ، وفى ١٧ ديسمبر من نفس السنة ، صار قسيما للإمبراطورية . فرومانوس ليكابينوس ، ابن الفلاح الأرمنى ، نجح فيما فشل فيه سيميون[٦] ، إذ أصبح

---

(١) Ibid, p. 234.

(٢) Ibid, p. 234. Vasiliev p. 317.

(٣) Ibid, p. 234.

(٤) هذا اللقب يقابل ما كان معروفا عند المسلمين بالأتابك ، ومعناه الأمير الوالد ، (انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٥٤) .

(٥) Ostrogorowski : p. 234.

(٦) انظر ما سبق ص ٣٨٥ — فا أحرزه سيميون من انتصار سنة ٩١٧ ، على الدولة البيزنطية ، أدى إلى إذعان الوصية على العرش ، وإلى ما تقرر من أن تصبح إحدى بنات سيميون زوجة للإمبراطور قنسطنطين السابع ، بينما جرى تتويج سيميون على يد البطريرك ، والمقصود من ذلك أن يكون سيميون ملكا على بلغاريا لا قسيما لقنسطنطين السابع — على أن كل ما حصل عليه سيميون من امتيازات ، عصفت بها ثورة قامت بالبلاط البيزنطى ، عقب عودته إلى بلغاريا ، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، فاستردت زوى سلطتها ، ونشب العداء من جديد بين بيزنطة وبلغاريا (انظر Ostrogorowski, p. 233) .

صهر الإمبراطور البيزنطى وقسيمه فى الحكم ، فأضحى بذلك له السيادة والسيطرة على الإمبراطور البيزنطى[1] .

ويعتبر ظهور رومانوس ليكابينوس ، لطمة خطيرة موجهة إلى سيميون . فعلى الرغم من محاولات البطريرك نقولا ميستيكوس لتهدئة البلغار ، وبرغم مادبّجه من رسائل عديدة إلى الملك سيميون ، فإن كل ذلك لم يجد نفعا ، إذ أن سيميون لم يطلب ما هو أقل من عزل منافسه الذى بزّه وانتصر عليه ، وهو رومانوس ليكابينوس ، الذى صار حاميا وصهرا للإمبراطور الصغير ، فأوصد بذلك أمام سيميون السبيل الذى يؤدى إلى تحقيق هدفه ، إذ أن مطالب سيميون الجزئية ، لا تتحقق إلا بالاستيلاء على القسطنطينية . فمهما قام به من التخريب والنهب فى الأراضى البيزنطية ، وبرغم استيلائه على أدرنه سنة ٩٢٣ ، فإن كل ذلك لا يغير الوضع القائم بأى حال من الأحوال . أما رومانوس ليكابينوس ، فإنه اطمأن إلى موقفه ، وأخذ فى هدوء يرقب الأمور من وراء أسوار عاصمته المنيعة ؛ فكل من يملك القسطنطينية ، يعتبر سيد الموقف[2] . وأدرك سيميون كل ذلك ، وأنه لا يستطيع اقتحام القسطنطينية الحصينة ، مالم يكن لديه أسطول قوى ، ولذا عقد محالفة مع المسلمين بمصر ، كيما يفيد من مهارتهم البحرية ، فى القيام بهجوم مشترك على القسطنطينية[3] . على أن هذه الخطة أحبطها ما اشتهرت به بيزنطة من المهارة الدبلوماسية ، فلم يكن من العسير على الإمبراطور البيزنطى أن يتقرب إلى المسلمين ، بما قدمه من هدايا وبما تعهد به لهم من دفع الجزية[4] .

فحينما ظهر سيميون للمرة الثانية أمام أسوار القسطنطينية سنة ٩٢٤ ،

---

(١) Ostrogorowski : p. 234.

(٢) Ostrogorowski ; p. 235.

(٣) Ibid, p. 235.

(٤) Ibid, p. 235, القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ، ص ١٠ — ١٨

أدرك أنه ليس لديه من القوات ، ما يكفى لاقتحام أسوار القسطنطينية ، مثلما جرى سنة ٩١٣ ، ولذا ألح فى أن يجتمع بزعيم الدولة البيزنطية .

وفى سنة ٩٢٤ ، جرى اللقاء الشهير بين رومانوس ليكابينوس وسيميون ، تحت أسوار القسطنطينية ، فاستقل الإمبراطور سفينته إلى موضع اللقاء ، بينما جاء سيميون من جهة البر . وبعد أن تبادل الملكان عبارات التحية والاحترام ، شرعا فى الحديث عن موضوع المقابلة[1] . وتقرر فى هذا الاجتماع عقد هدنة بشرط أن يؤدى البيزنطيون للملك سيميون جزية . غير أن سيميون تحتم عليه أن يرتد عن القسطنطينية ، لما كان يخشاه على أملاكه من مهاجمة مملكة الصرب الناشئة ، ولما بلغه من حدوث مفاوضات ، بين مملكة الصرب والإمبراطورية البيزنطية ، ولأن ما جرى بينه وبين المسلمين من مفاوضات ، لم تسفر عن نتائج مثمرة[2] . وبذلك انهارت آمال سيميون ، إذ أن رومانوس اختلف عن سائر أسلافه الذين حكموا أثناء عهد الإمبراطورة زوى ، فى أنه لم يحاول أن يضعف من شأن خصمه العنيد . فما بعث به من رسالة سنة ٩٢٥ إلى سيميون يحتج فيها بشدة على ما قام به سيميون من اتخاذ لقب إمبراطور (باسيليوس) الروم (اليونانيين) والبلغار[3] ، أعقبها برسالة يشرح فيها أنه إنما يحتج على اتخاذه لقب إمبراطور الروم ، لا اتخاذ لقب الإمبراطور ، ويشير إلى هذا اللقب لا ينصب إلا على بلاد البلغار[4] .

والواقع أن على الرغم مما اشتهر به سيميون من التفوق العسكرى ، فإنه لم يكن فى وسعه أن ينفذ خططه وأغراضه بقوة السلاح ، وأن البيزنطيين يستطيعون التضييق عليه بفضل ما اشتهروا به من سياسة المكر والدهاء[5] .

---

(١) Runciman : A History of The Frist Bulgarian Empire, p. 162.

(٢) Vasiliev : p. 318.

(٣) Vasiliev : p. 318.

(٤) Ostrogorowski : p. 235.

(٥) Ibid, p. 236.

وتأثرت سائر بلاد البلقان بما وقع من الحروب بين البيزنطيين والبلغار . فبينما تحالف سيميون ملك البلغار ، مع ميخائيل أمير زخلوميا Zschlumia حرصت الدولة البيزنطية ، بما منحته من امتيازات هامة ، على أن تكسب صداقة الكروات الذين اشتهروا وقتذاك ، بأنهم دولة بالغة الأهمية ، تولى حكمها أول ملك كرواتى ، توميسلاف Tomislav (٩١٠ — ٩٢٨ ، تولى الحكم منذ سنة ٩٢٥) ، وأناب البيزنطيون عنهم توميسلاف فى إدارة مدن دالماشيا وجزائرها ، التى كانت وقتذاك خاضعة لسلطان روما من الناحية الكنسية . وفى صربيا بلغ من تشابك النفوذ البيزنطى والبلغارى ، ما قد يؤدى إلى الصدام والصراع . إذا أخذت كل من الدولتين تتودد إلى الأمراء الصربيين ، وتعمل على الإيقاع بينهم ، فتارة ينجح سيميون ، فى أن يستخلص الحكم لأحد الموالين له ، وتارة يتغلب الفريق الموالى للإمبراطور البيزنطى . على أن النفوذ البيزنطى أحرز النصر ، آخر الأمر ، بعد نضال طويل ، وبعد معارك عديدة . فانحاز إلى جانب بيزنطة زكريا ملك الصرب ، على الرغم من أنه تولى العرش بمساعدة البلغار(١) . غير أن سيميون رأى أن يدمر ما يهدد مؤخرة جيشه من مواطن الفتنة والثورة ، فأنفذ جيشاً لقتال الصربيين ، غير أنه حلت به الهزيمة ، وتطلب الأمر إرسال قوة جديدة ، استطاعت آخر الأمر أن تخضع بلاد الصرب من جديد لسلطة سيميون سنة ٩٢٤ . وترتب على ذلك أن صار ملك البلغار يجاور حلفاء بيزنطة ، الكروات وصار لزاماً على سيميون أن يقوم بقتال الكروات ، وفى ذلك ما يصرفه عن مواصلة الحرب ضد بيزنطة(٢) .

على أن ما أقدم عليه سيميون من غزو كرواتيا ، عرض جيشه لأعظم هزيمة لحقت به سنة ٩٢٦ ، وتحتم على سيميون أن يعقد صلحاً مع الكروات ،

(١) Ostrogorowski : p. 236.

(٢) Ibid, p. 236.

وتوسط البابا فى عقد هذا الصلح . على أن سيميون أعد ، فيما يبدو ، حملة أخرى لمهاجمة القسطنطينية ، غير أن المرض بغته فمات فى ٢٧ مايو سنة ٩٢٧(١) .

بلغت بلغاريا زمن سيميون من الاتساع ، أنها امتدت من شاطئ البحر الأسود إلى ساحل بحر الأدرياتى ، ومن الحوض الأدنى للدانوب حتى وسط تراقيا ومقدونيا ، بل امتدت إلى سالونيك . ولما قام به سيميون من أعمال ، ذاع اسمه ، لأنه أول من حاول أن يبسط السيادة الصقلبية على ما كان للبيزنطيين من سلطان فى شبه جزيرة البلقان(٢) .

تغير الموقف كله بعد وفاة سيميون . فما اشتهر به سيميون من الطموح والميل إلى القتال ، لم يكن ملائماً لطبيعة ابنه وخليفته على الحكم ، بطرس . ولما اشتهر به بطرس من الضعف ، والانغماس فى اللهو والعبث ، بادر بعقد الصلح مع البيزنطيين ، تقرر فيه الاعتراف به قيصراً (ملكاً) Czar على البلغاريين ، وتزوج الأميرة ماريا ليكابينوس ، حفيدة الإمبراطور رومانوس ، وابنة أكبر أولاده ، كريستوفر(٣) . وتقرر أيضاً الاعتراف بالبطريركية البلغارية التى أقامها سيميون فى أواخر عهده(٤) . على أن حروب سيميون لم تذهب عبثاً ، فإذا بدا مستحيلا ، تحقيق أطماع سيميون ، فإن ما اتخذته زوى من سياسة ترمى إلى إنكار كل مطالب بلغاريا ، غدت أيضاً غير عملية وترتب على ذلك أن النصر أصبح حليف من اتخذ سبيل الاعتدال ، وهو رومانوس(٥) . فأضحى لملك البلغار الحق فى أن يتخذ لنفسه لقب باسيليوس ، بشرط ألا يتجاوز فى استخدامه حدود مملكة بلغاريا ، وصار له الحق أيضاً فى أن يعقد مع الأسرة الحاكمة فى بيزنطة ، المحالفات المبنية على المصاهرة والزواج . غير أن ذلك الحق اقتصر على أسرة ليكابينوس ، لا الأسرة الإمبراطورية الشرعية ،

(١) Vasiliev : p. 318.

(٢) Ibid, p. 318.

(٣) Ostrogorowski : p. 237.

(٤) Vasiliev : p. 318. Camb. Med. Hist. IV. p. 238.

(٥) Ostrogorowski : p, 237.

التى توارث أفرادها الحكم خالفا عن سالف. على أن الإمبراطورين رومانوس وكرستوفر ، لم يلبثا أن وجدا فى قيصر بلغاريا ، بطرس ، صهرا طيعا ، سهل الانقياد لهما . وما منحه رومانوس الأول للبلغار ، تحت الضغط الخارجى ، من امتيازات ضخمة ، أدت إلى توطيد الصلة بين البلغار والدولة البيزنطية(١).

فما ساد الحد البيزنطى البلغارى من الهدوء ، وما صار لبيزنطة من النفوذ فى بلغاريا ، لم يبلغا من الصلابة والقوة ، مثلما بلغاه فى السنوات العشر التى أعقبت معاهدة الصلح التى انعقدت سنة ٩٢٧(٢) .

وقوى مركز بيزنطة أيضاً فى أملاك الصقالبة الجنوبيين . إذ أن صربياً ، التى أخضعها سيميون ، بعد أن استباح أراضيها ، لم تلبث أن نهضت من جديد ، وأضحت مستقلة بزعامة الأمير Caslav ، الذى هرب بعد وفاة سيميون ، من برسلاف عاصمة بلغاريا ، وعاد إلى بلاده ، فتولى مقاليد الأمور ، بعد أن اعترف بالسيادة البيزنطية . أما الحليف السابق لسيميون ، وهو ميخائيل زخلوميا Zachlumia ، فإنه قبل أيضاً أن يكون حليفاً لبيزنطة ، واتخذ لقب بطريق ، مثلما فعل من قبل توميسلاف أمير كرواتيا . وبذلك أخذ نفوذ بيزنطة يزداد فى كل مكان ، بينما انحسر نفوذ بلغاريا(٣) .

أما بلغاريا ذاتها ، فلم تلبث أن وقعت تحت تأثير بيزنطة . فما حدث من إدخال بلغاريا ، فى نطاق المدنية البيزنطية ، وما ترتب عليه من أخذها بالحضارة البيزنطية ، والذى قطع شوطاً كبيراً من التقدم بعد أن تحولت بلغاريا إلى المسيحية ، قد بلغ الآن ذروته . على أن الدولة البلغارية ، أخذت تتداعى فى الناحيتين السياسية والاقتصادية بسبب ما تعرضت له زمن سيميون من الحروب التى أنهكت قواها . فأعقب ما حدث فى السنوات العشر الأخيرة من الرخاء والتقدم ، أزمة استمرت فترة من الزمن ، ووقع فى بلغاريا من

---

(١) Ibid p, 237,

(٢) Ostrogorowski : p, 372.

(٣) bid p, 237,

العداوات الاجتماعية ما يضارع فى الشدة ما حصل فى بيزنطة ذاتها . إذ ازداد نمو الضياع الكبيرة ، الكنسية والعلمانية ، فى كل مكان ، بفضل ما جرى من الاهتمام بإنشاء الكنائس والأديرة ، فى بلغاريا ، وفيما أضافته إليها من أملاك من إقليم مقدونيا ، وذلك منذ أن جاءت المسيحية إلى بلغاريا . على أن مذاهب معادية لم تلبث أن ترعرعت ، إلى جانب الحياة الديرية التى شجعتها الكنيسة الرسمية ، ولم تلبث هذه المذاهب أن اجتذبت إليها ، فى زمن الأزمة ، النفوس الساخطة الثائرة(١) .

الحركة البوجوملية :

البوجوملية ليست إلا مذهباً من مذاهب القائلين بالإثنوية . وما ينطوى عليه هذا المذهب من عقائد ، إنما تدل على ما يربطه من صلة وثيقة بالبيالصة والمصلين(٢) . فما اشتهرت به هذه النحلة من الثنائية ، إنما يرجع إلى البيالصة ، بينما يرجع إلى المصلين ، ما عرفت به من الزهد والتقشف . والمعروف أن حركتى البيالصة والمصلين ، انتقلتا من الأقاليم البيزنطية بالشرق (أرمينيا ، والجزيرة) ، إلى تراقيا فى القرن الثامن والتاسع والعاشر ، بعد أن نقلت الحكومة البيزنطية أعداداً كبيرة من سكان هذه الجهات إلى تراقيا(٣) . وازدهرت هاتان النحلتان بين الأقوام الصقلبية ، لا سيما البلغار . ونجم عن امتزاج هاتين النحلتين واختلاطهما ، أن ظهرت نحلة البوجومليين(٤) . فأخذت فى الظهور فى بلغاريا زمن بطرس على يد الداعى لها ، بوجومل(٥) . وترمى أساساً إلى معارضة الكنيسة . وتقضى هذه النحلة بأن العالم يسيطر عليه مبدآن : مبدأ الخير (الله) ، ومبدأ الشر (ويمثله الشيطان) . وما يقع بين القوتين من نضال ونزاع ، هو

---

(١) Ostrogorowski : p. 238.

(٢) Powicke : Bogomils, (En. Eth, Rel,)

(٣) Ostrogorowski : p, 288, Vasiliev p, 383,

(٤) Powick : op. cit,

(٥) Vasiliev p, 383,

الذى يقرر كل ما يحدث على سطح الأرض من الأمور ، ويؤثر فى حياة الناس[1] . فالعالم الظاهرى بأكمله يعتبر من صنع الشيطان ، ولذا ساد به الشر. وسعى البوجومليون ، مثلما فعل أسلافهم من البيالصة والمصلين ، إلى أن يسلكوا فى حياتهم ، سبيل التقوى الروحية الخالصة ، وأن يمعنوا فى التقشف والزهد . فاشتهروا بإنكارهم كل عبادة اتخذت شعائر ظاهرة ، أو طقوساً كنسية ، أى أنهم أنكروا كل ما هو معروف عند المسيحيين من النظام الكنسى[2] . وما قام به البوجومليون من ثورة على الكنيسة البلغارية ، نجم عنها أيضاً ثورة على نظام الحكم القائم . ذلك أن الكنيسة تعتبر المصدر الذى يستمد منه نظام الحكم التأييد الروحى . وبذلك تعتبر الحركة البوجوملية منفذاً للاحتجاج على الحكام الأغنياء الأقوياء[3] . والمعروف أن البوجومليين انتشروا فى القرى فى سائر أنحاء الإمبراطورية البلغارية . ولم يكونوا إلا فلاحين من الصقالبة يناضلون المزارعين (الملاك) من البلغار ، فاتسم نضالهم بصفة طبقية ، أى أنه نضال الفلاحين ضد المزارعين ، ولم يقم النضال الموجه من قبل الصقالبة ضد البلغار إلا على هذا الأساس[4] . ورسخت البوجوملية فى بلغاريا ، لا سيما فى مقدونيا ولقيت قبولا كبيراً فيما وراء حدود بلغاريا[5] .

---

(١) Ostrogorowski : p. 238.

(٢) Ostrogorowski : p. 238

(٣) Ibid p. 238.

(٤) Runciman : The Medieval Manichee, p. 87.

(٥) Ostrogorowski : p 238.

والواقع أن البوجوملية اتخذت صورا متنوعة فى بيزنطة ذاتها ، وفى صربيا والبوسنة وإيطاليا ، وجنوب فرنسا . فنحل البوجومليين والبالونيين **Baliuni** ، والباترانيين **Patarenes** والـكاتارنيين ، والبيجنسيين ، لم تختلف عن نحلة البيالصة فى آسيا الصغرى . إذا لم تـكن كلها إلا مظهرا خارجياً للحركة التى امتدت من تلال أرمينيا إلى جنوب فرنسا ، وظهرت فى فترات مختلفة ، فى مواضع عديدة . وكلما وقعت الأزمات ، واشتد الظلم ، قوى أمر النحلة وانتشرت سريعا ، وأقبل الناس على اعتناقها . انظر

Ostrogorowski : p. 239.

Bats Mullinher : Albigenses. (Encyclopedia of Ethics and Religion).

Runciman : The Medieval Manichee, pp. 90 — 100, 116, 184.

الفصل الثامن

رومانوس ليكابينوس وقنسطنطين بورفيروجنيتوس

(٩١٩ — ٩٤٤ م)

ما اتخذه رومانوس ليكابينوس لنفسه من مركز قوى فى داخل الإمبراطورية ، هيأ له من الاطمئنان الشديد ، ما جعله يسير قدما فى معالجة الشئون الخارجية . لم يبق طويلا قسيما لصهره الإمبراطور فى الملك . بل إن الترتيب الرسمى لما للحاكمين من أسبقية لم يلبث أن تغير : إذ أن رومانوس أضحى الإمبراطور الأول . بينما غدا قنسطنطين السابع قسيما له فى الحكم ، وارتقى أيضا أبناء رومانوس إلى مرتبة المشتركين فى الحكم . إذ صار كريستوفر قسيما للإمبراطور فى الحكم فى ٢٠ مايو سنة ٩٢٠ ، وبلغ هذه المكانة أيضا كل من ستيفن وقنسطنطين فى ٢٦ ديسمبر سنة ٩٢٤ ، وأضحى لكريستوفر الأسبقية على الإمبراطور الشرعى قنسطنطين السابع ، وبذلك صار يلى أباه فى الترتيب ، فيعتبر وريثا للعرش ، على حين أنه تحتم على أبناء البيت المقدونى ، أن يقنعوا بما للإمبراطور الثالث فى الترتيب ، من دور ثانوى . وعلى هذا النحو أقام رومانوس الأول (ليكابينوس) أسرة حاكمة ، إلى جانب البيت المقدونى ، وجعل لها الصدارة[1] . إذ جرى تتويج ثلاثة من أبنائه أباطرة ، وسلك الابن الرابع ، تيوفيلاكت Theophylact طريق الكنيسة[2] . وتقرر إعداده ليكون بطريركا فى المستقبل . وما أقامه رومانوس الأول من نظام حكومى ، يعتبر شديد الصلة بالنظام الذى أنشأه باسيل الأول . غير أن رومانوس يختلف عن باسيل الأول ، فى أنه لم يستخدم العنف فى التخلص من ممثل الأسرة الحاكمة

---

(١) Ostrogorowski : p. 239.

Runciman : Romanus Lecapenus, p. 67.

(٢) Ostrogorowski : p. 240.

الذى يقرر كل ما يحدث على سطح الأرض من الأمور ، ويؤثر فى حياة الناس[1] . فالعالم الظاهرى بأكمله يعتبر من صنع الشيطان ، ولذا ساد به الشر. وسعى البوجومليون ، مثلما فعل أسلافهم من البيالصة والمصلين ، إلى أن يسلكوا فى حياتهم ، سبيل التقوى الروحية الخالصة ، وأن يمعنوا فى التقشف والزهد . فاشتهروا بإنكارهم كل عبادة اتخذت شعائر ظاهرة ، أو طقوساً كنسية ، أى أنهم أنكروا كل ما هو معروف عند المسيحيين من النظام الكنسى[2] . وما قام به البوجوميليون من ثورة على الكنيسة البلغارية ، نجم عنها أيضاً ثورة على نظام الحكم القائم . ذلك أن الكنيسة تعتبر المصدر الذى يستمد منه نظام الحكم التأييد الروحى . وبذلك تعتبر الحركة البوجوملية منفذاً للاحتجاج على الحكام الأغنياء الأقوياء[3] . والمعروف أن البوجوملين انتشروا فى القرى فى سائر أنحاء الإمبراطورية البلغارية . ولم يكونوا إلا فلاحين من الصقالبة يناضلون المزارعين (الملاك) من البلغار ، فاتسم نضالهم بصفة طبقية ، أى أنه نضال الفلاحين ضد المزارعين ، ولم يقم النضال الموجه من قبل الصقالبة ضد البلغار إلا على هذا الأساس[4] . ورسخت البوجوملية فى بلغاريا ، لا سيما فى مقدونيا ولقيت قبولا كبيراً فيما وراء حدود بلغاريا[5] .

---

(١) Ostrogorowski : p. 238.

(٢) Ostrogorowski : p. 238

(٣) Ibid p. 238.

(٤) Runciman : The Medieval Manichee, p. 87.

(٥) Ostrogorowski : p 238.

والواقع أن البوجوملية اتخذت صورا متنوعة فى بيزنطة ذاتها ، وفى صربيا والبوسنة وإيطاليا ، وجنوب فرنسا . فنحل البوجومليين والبالونيين Baliuni ، والباترانيين Patarenes والكاتارنيين ، والبيجنسيين ، لم تختلف عن نحلة البيالصة فى آسيا الصغرى . إذا لم تكن كلها إلا مظهرا خارجياً للحركة التى امتدت من تلال أرمينيا إلى جنوب فرنسا ، وظهرت فى فترات مختلفة ، فى مواضع عديدة . وكلما وقعت الأزمات ، واشتد الظلم ، قوى أمر النحلة وانتشرت سريعا ، وأقبل الناس على اعتناقها . انظر

Ostrogorowski : p. 239.

Bais Mnllinher : Albigenses. (Encyclopedia of Ethics and Religion).

Runciman : The Medieval Manichee, pp. 90 — 100, 116, 184.

الفصل الثامن

رومانوس ليكابينوس وقنسطنطين بورفيروجنيتوس

(٩١٩ — ٩٤٤ م)

ما اتخذه رومانوس ليكابينوس لنفسه من مركز قوى فى داخل الإمبراطورية ، هيأ له من الاطمئنان الشديد ، ما جعله يسير قدما فى معالجة الشئون الخارجية . لم يبق طويلا قسيما لصهره الإمبراطور فى الملك . بل إن الترتيب الرسمى لما للحاكمين من أسبقية لم يلبث أن تغير : إذ أن رومانوس أضحى الإمبراطور الأول . بينما غدا قنسطنطين السابع قسيما له فى الحكم ، وارتقى أيضا أبناء رومانوس إلى مرتبة المشتركين فى الحكم . إذ صار كريستوفر قسيما للإمبراطور فى الحكم فى ٢٠ مايو سنة ٩٢٠ ، وبلغ هذه المكانة أيضا كل من ستيفن وقنسطنطين فى ٢٦ ديسمبر سنة ٩٢٤ ، وأضحى لكريستوفر الأسبقية على الإمبراطور الشرعى قنسطنطين السابع ، وبذلك صار يلى أباه فى الترتيب ، فيعتبر وريثا للعرش ، على حين أنه تحتم على أبناء البيت المقدونى ، أن يقنعوا بما للإمبراطور الثالث فى الترتيب ، من دور ثانوى . وعلى هذا النحو أقام رومانوس الأول (ليكابينوس) أسرة حاكمة ، إلى جانب البيت المقدونى ، وجعل لها الصدارة[1] . إذ جرى تتويج ثلاثة من أبنائه أباطرة ، وسلك الابن الرابع ، تيوفيلاكت Theophylact طريق الكنيسة[2] . وتقرر إعداده ليكون بطريركا فى المستقبل . وما أقامه رومانوس الأول من نظام حكومى ، يعتبر شديد الصلة بالنظام الذى أنشأه باسيل الأول . غير أن رومانوس يختلف عن باسيل الأول ، فى أنه لم يستخدم العنف فى التخلص من ممثل الأسرة الحاكمة

---

(١) Ostrogorowski : p. 239.
Runciman : Romanus Lecapenus, p. 67.

(٢) Ostrogorowski : p. 240.

الشرعية ، بل رأى أنه من الخير أن يربطه (قنسطنطين بورفيروجنيتوس) بأسرته بصلة القرابة ، وترتب على ذلك أن أخذ يقصيه بالتدريج بعيدا عن حقه الشرعى ، حتى صار يلى أبناءه فى الترتيب [١] .

واشتهر رومانوس الأول ، بأنه سياسى ودبلوماسى موهوب ، وامتاز بالنشاط الوافر والإدارة ، وماكان معروفا به من المثابرة ، والأناة ، جعله يحقق ما وضعه من خطط . يضاف إلى ذلك ما اشتهر به من القدرة على اختيار الرجال الذين يعاونونه فى الحكم ، مثال ذلك ما جرى من اكتشافه الوزير تيوفانس Teophanes ، والقائد البارع حنا كوركواس Curcuas ، الذى عينه فى سنة ٩٢٣ ، قائدا عاما للجيش [٢] .

ولما كان رومانوس الأول ، ينتمى إلى أسرة وضيعة ، صار من العسير على الأرستقراطية البيزنطية ، أن تقبله . ومع ذلك فإنه بفضل ما حدث من أن بناته أضحين من أصهار الإمبراطور الشرعى ، قنسطنطين السابع ، وقد تزوجن من أشخاص ينتمون إلى أسرات عريقة ، أحرز من صلات القرابة كالتى ربطته بأسرتى الأرجريين Argyri ، والموسيليين Musele [٣] .

أما الكنيسة فإنها أظهرت له الولاء والإخلاص ، فارتبط به البطريرك نقولا ميستيكوس بروابط الصداقة والمصالح المشتركة . ولم يعد ثمة أهمية للحزب الذى تألف من أنصار البطريرك أيتيميوس ، الذى توفى سنة ٩١٧ . وما تعرضت له كنيسة روما وقتذاك من أزمة تعتبر من أشد الأزمات التى اجتازتها فى تاريخها ، جعلها تخضع لرغبات الإمبراطور البيزنطى القوى . بل إنه قبل أن يتولى رومانوس الحكم رسميا ، انعقد فى يوليه سنة ٩٢٠ مجمع ،

---

(١) Ostrogorowski : p. 240.

(٢) Ibid p. 240.

شبهه أحد المؤرخين بأنه تراجان أوبليزاريوس فى كفاءته الحربية ، وأشار إلى أنه استولى على نحو ألف مدينة ، على أن ما اكتسبه من شهرة إنما يرجع إلى ما اتخذه من سياسة التوسع شرقا (انظر Vasiliev p. 306.) .

(٣) Ostrogorowski : p. 240.

Runciman : Rmanua Lecopenus, p. 69.

حضره ، ممثلو البابا ، وأصدر حكمه لصالح البطريرك ميستيكوس ، فى مسألة زيجات ليو السادس الأربعة [١] . إذ اعتبر الزيجة الرابعة غير شرعية ، لمخالفتها تعاليم الكنيسة ، ولم يقر الزيجة الثالثة إلا فى أحوال خاصة [٢] . ولهذا القرار أهمية كبيرة عند البطريرك ، إذ ازداد طمأنينة وارتياحا . أما أهمية هذا الحكم عند رومانوس ، فترجع إلى أنه حطّ من هيبة البيت المقدونى ، بينما رفع من شأن رومانوس ، بفضل ما بذله من جهد لإعادة وحدة الكنيسة ، فاتحدت الكنيسة البيزنطية آخر الأمر ، بعد أن طال أمد المنازعات ، وانتصر البطريرك نقولا ميستيكوس [٣] . وعادت العلاقات بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، بعد أن أذعنت كنيسة روما لكنيسة القسطنطينية ، بما لجأت إليه من نقض ما سبق أن اتخذته من قرارات وإجراءات [٤] .

وأعقب ذلك سنوات ساد فيها من التعاون بين السلطتين الروحية والزمنية ، ما يذكرنا بالصورة المثالية الواردة فى القانون المعروف بالمدخل Epanagoge [٥] . فما قام به الإمبراطور من نصرة البطريرك فى استرداد حقوقه ، إنما يقابله ما بذله البطريرك من تأييد للإمبراطور أثناء نضاله العنيف ضد سيميون ملك بلغاريا ، إذ كان أكبر مساعد له ، وخير مستشار فى كفاحه ضد البلغار [٦] .

على أن مركز الكنيسة لا زال يفتقر إلى شىء من الاستقرار ، لاسيما لأنها تعتمد أساسا على شخصية البطريرك ، ولأن تعيين البطريرك إنما يستند

---

(١) أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٢٤ . Ostrogorowski : p. 241.

(٢) Vasiliev : p. 334.

(٣) Ostrogorowski : p. 241.

(٤) Vasiliev : p. 334.

(٥) انظر ما ورد عن هذه العلاقة بالتفصيل فى كتاب وثائق العصور الوسطى ص ١٤١ — ١٤٥ .

Barker : Social and Political Thought in Byzantium. pp. 88—91.

(٦) Ostrogorowski : p. 241.

أساسا إلى إدارة الإمبراطور . ولما مات البطريرك ميستيكوس سنة ١٩٢٥ أضحى للإمبراطور رومانوس السيطرة التامة على الكنيسة ، وبذلك انتصر من جديد ما اشتهر به الأباطرة البيزنطيون من الاستبداد الإمبراطورى البابوى Caesarpapism[(١)] ؛ فما حدث من شغور كرسى البطريركية زمنا غير قصير ، أدى إلى أن يتدخل الإمبراطور رومانوس ، ويعين ابنه ثيوفيلاكت Theophylact ، الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، بطريركا . وقام برسامة هذا الشاب الصغير مندوبون من قبل البابا ، فى ٢ فبراير سنة ٩٣٣ ، استقدمهم لهذا الغرض الإمبراطور البيزنطى[(٢)] . ومن الطبيعى أن يكون البطريرك الجديد رهن إشارة أبيه ، وفيما عدا ذلك ، لم يحفل بأمور الكنيسة ، بل إن تردده على الإصطبلات الإمبراطورية ، استغرق من وقته ما منعه من التردد على الكنيسة ، إلا قليلا ، وظلت الأمور على هذا النحو من السوء حتى مات سنة ٩٥٦[(٣)] .

السياسة الاقتصادية :

ما اشتهر به رومانوس ليكابينوس من المهارة السياسية ، إنما يتجلى فى تشريعه الذى يتعلق بحماية صغار الملاك . إذ أن الدولة البيزنطية واجهتها مشاكل بالغة الخطورة ، أثرت فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك بسبب ما جرى من نمو الملكيات الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة ، التى بيد الفلاحين ، وعلى حساب جماعة الفلاحين الأحرار[(٤)] . إذ بادر « الأقوياء » إلى شراء ما بيد « الفقراء » من الأراضى . ولم يكن هؤلاء الفقراء سوى صغار الملاك وسكان القرى ، الذين بلغ من شدة وطأة

---

(١) Runciman : Romanus Leeopenus, p. 345.

(٢) Ostrogorowski : p. 241.

(٣) Ostrogorowski : p. 241.

(٤) Vasiliev : p. 345.

الضرائب والالتزامات عليهم ، أن اضطروا إلى أن يلتمسوا حماية كبار الأعيان ، ودفعوا ثمن هذه الحماية ، ما كان لهم من حرية واستقلال[(١)] والواقع أن هذه العملية شكلت خطراً كبيراً على الدولة البيزنطية ، التى ارتكزت قوتها المالية والاقتصادية والحربية ، منذ زمن هرقل ، على ما حازه الفلاحون من الملكيات الصغيرة ، وما فى يد الجند من إقطاعات . ويعتبر رومانوس ليكابينوس أول من أدرك هذا الخطر من الأباطرة ، « إذ أن الملكية الصغيرة تعتبر بالغة الأهمية ، بسبب ما يدفعه أربابها من الضرائب للدولة ، وما يؤدونه لها من خدمة عسكرية ، فإذا تناقص عدد صغار الملاك ، زالت هذه المميزة نهائياً » ، فهذه العبارة التى صرح بها الإمبراطور رومانوس ، إنما تدل على أنه أدرك جوهر المسألة وأهميتها . فإذا جرت المحافظة على النظام الذى استمر قرونا عديدة ، واحتفظت به الدولة البيزنطية ، بما لها من قوة مالية وحربية ، صار لزاما على الحكومة أن تقاوم ما جرى من طغيان « الأقوياء » على الضعفاء ، والاستيلاء على أملاكهم[(٢)] . فاكتشف رومانوس ليكابينوس أخطر مشكلة فى عصره ، ووصف العلاج الذى ينبغى إجراءه ، فأعلن مناهضته لنمو الضياع الكبيرة فى بيزنطة ، وجرى على نهجه من جاء بعده من الأباطرة حتى نهاية زمن باسيل الثانى[(٣)] (١٠٢٥ م) . أدرك الأباطرة أن هؤلاء الأقوياء يستطيعون ، بفضل ما لهم من سيطرة على عدد كبير من الأرقاء ، واستحواذهم على ضياع ضخمة ،

---

(١) Vasiliev : p. 345.

على الرغم من أن موضوع الملكيات الكبيرة لازال موضع الدراسة ، فإن فاسيلييف يرى ان من أسباب نمو طبقة كبار الملاك فى القرن العاشر ، إنما نجم عن الآثار التى ترتبت على ثورة توماس الصقلبى التى حدثت أواخر القرن التاسع الميلادى . على أن هذا يصح أن يصدق على آسيا الصغرى ، حيث ازداد نمو طبقة كبار الملاك فى القرن العاشر ، بسبب ما تعرض له صغار الملاك من الخراب : فأدى ذلك إلى أن يتنازلوا عن أراضيهم إلى من يجاورهم من الملاك الأقوياء : (انظر Vasiliev : p. 345.) .

(٢) Ostrogorowski : p. 242.

(٣) Ibid, p. 242.

أن يتخذوا جيوشا مؤلفة من أتباعهم ، وبذلك يستطيعون التآمر ضد الحكومة المركزية . فما بذله الأباطرة من جهود لسحق قوة هؤلاء الأعيان الكبار ، وحماية مصالح طبقة صغار الفلاحين إنما يعملون فى الوقت ذاته على حماية سلطانهم وعرشهم ، مما تعرض له من خطر شديد فى القرن العاشر لا سيما فى آسيا الصغرى(١) .

وما لجأ إليه كبار الملاك من ابتلاع ملكيات صغار الفلاحين ، لم يلبث أن امتد أثره إلى الإقطاعات التى حازها الجند الفلاحون ، فاشتد اهتمام الأباطرة بحماية هذه الإقطاعات(٢) .

وأول خطوة اتخذتها الحكومة المركزية لمنع كبار الملاك من أن ينفذوا إلى جماعات الفلاحين ، ومن أن يحوزوا أملاك الفلاحين أو الجند، ما أصدره الإمبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٢٢ من قانون (مرسوم) ، أعاد لجيران هؤلاء الملاك ، حق الشفعة فى امتلاك الأراضى ، بعد أن قيده ليو السادس(٣) . ووضع نظاماً جديداً لانتقال ملكية الأرض . فلانتقال ملكية أرض الفلاحين ، سواء بالبيع أو الحيازة ، تقرر جعل حق الشفعة فى امتلاك الأراضى على خمس درجات . جرى ترتيب الأسبقية فى حيازة الأراضى على النحو التالى :

١ — كل قريب من أقارب المالك ، يشترك فى امتلاك الأراضى .

٢ — شركاء آخرون فى ملكية الأرض .

٣ — الحائزون لأراضى شائعة فى قطعة الأرض التى سوف يجرى التصرف فيها .

٤ — الحائزون لأراضى مجاورة تشترك مع هذه القطعة فى دفع الضرائب .

٥ — سائر الحائزون للأراضى المجاورة لهذه القطعة من الأرض .

(١) Vasiliev : p. 346.

(٢) Vasiliev : p. 346.

(٣) Ibid p. 346.

انظر ما سبق ص ٣٧١ .

فلا يجوز بيع الأراضى إلى أحد من الأجانب ، إلا إذا رفض أحد ينتمى إلى هذه الفئات ، أن يشتريها . والواقع أن هذا النظام المبنى على التفكير العميق ، والذى جرت فيه دراسة كل التفاصيل بدقة ، إنما يستهدف منع الملكيات الصغيرة من أن يشتريها كبار الأعيان (الأقوياء) ، وعدم تعرضها للتفتت(١) . فلم يعد يجوز للأعيان أن يشتروا أو يحوزوا أرض أحد الفلاحين ، إلا إذا كان لديهم فعلا أملاك فى نفس القرية ، وفقاً لما ورد فى القواعد التى سبق الإشارة إليها ، كما أنه لا يجوز لهم أن يقبلوا هدايا أو هبات أو وصايا من « الفقراء » ، إلا إذا ربطتهم بهم صلة القرابة . وكل من ينتهك هذه اللوائح ، تحتم عليه أن يرد ما حصل عليه من الأراضى ، دون أن ينال أى تعويض ، وصار لزاماً عليه أن يدفع للخزانة العامة غرامة نقدية ، ما لم يكن مضى على الملكية عشر سنوات(٢) .

أما أرض الجند ، فإن ما جرى رده من الأرض إلى أربابها دون تعويض ، إنما ينطبق على الأرض التى سبق انتقال ملكيتها أثناء الثلاثين سنة السابقة ، إذا تبين أنه ترتب على انتقالها أن انخفضت قيمة الإقطاع عن الحد اللازم لتجهيز الجندى(٣) .

وعلى الرغم من صرامة هذا القانون وشدته ، فإنه لم يؤد إلى النتيجة المطلوبة . فما حدث بالإمبراطورية من كوارث مريعة ، عقب إصدار القانون ، منع تنفيذ هذه الإجراءات . إذا ترتب على حدوث شتاء (٩٢٧ — ٩٢٨) بالغ الطول ، شديد البرد ، أن أصاب المحصول من الخيبة ما أدى إلى مجاعة خطيرة وأوبئة مريعة ، فانتهز « الأقوياء » الفرصة ، وأقبلوا على شراء الأرض من السكان الجائعين ، بأبخس الأثمان(٤) . أو أخذوها مقابل

(١) Ostrogorowski : p. 242. Vasiliev : p. 346.
Ostrogorowski : Pour L'Histoire de la Feodalitè Byzntine, p. 13.

(٢) Ostrogorowski : p. 242. Camb. Med. Hist. I. p. 206.

(٣) Ibid p. 242. Vasiliev p. 349.

(٤) Ostrogorowski : 242. Vasiliev: p. 346.

ثمن ما تقدموا به إليهم من المؤونة(١) . على أن هذا التصرف السيء من قبل الأقوياء ، دفع رومانوس ، فى سبتمبر سنة ٩٣٤ ، إلى أن يصدر قانونا آخر ، أنكر فيه شدة جشع هذه الطبقة الأرستقراطية ووصفهم بأنهم لم يكونوا للقرى المنكودة الحظ ، إلا وباء بلغ من تغلغله بالقرية أنه كاد يودى بها(٢). غير أن رومانوس لم يصادر ما حازه « الأقوياء » من أرض الفلاحين ، كما كان متوقعاً من رجل معروف بشدة تمسكه بقانون سنة ٩٢٢ . على أنه من المحقق أن كل ما جرى من الهدايا والهبات وأشباهها من الاتفاقات تقرر اعتبارها باطلة . تقرر أيضا رد كل ملكية ، تمّ شراؤها بما يقل عن نصف الثمن المتعارف عليها عليه دون الحصول على تعويض . أما إذا جرى الشراء وفقا لما هو متبع ومعروف ، فإن إعادة الأرض ارتبطت بشرط إعادة ثمن الشراء ، أثناء ثلاث سنوات . وتقرر أيضا ، منع « الأقوياء » مستقبلا ، من امتلاك أرض الفلاحين ، وتقرر إعادة الأرض التى يصير شراؤها بهذه الوسيلة ، إلى أربابها السابقين ، دون تعويض ، فضلا عن دفع غرامة للخزانة العامة . وختم الإمبراطور قراره ، بما صرح به فى اعتقاده فى أنه بفضل ما لهذا القانون من سلطة ، سوف يقهر أعداء الإمبراطورية فى الداخل . مثلما تغلب على خصومها فى الخارج(٣) .

وعلى الرغم من الحدّة الظاهرة فى عبارة الإمبراطور ، فإن قانون سنة ٩٣٤ إنما يدل على أنه ليس من المستطاع تطبيق الإجراءات الحكومية بما ينبغى أن نتوقعه من قوة . فمن المؤكد أن جانباً كبيراً من أرض الفلاحين التى تم بيعها أثناء المجاعة ، لازالت باقية فى يد الأعيان . إذ ليس من المعقول أن الذى أرغمته الحاجة ، على أن يبيع ملكه ، يجد من المال ما يسترده به

(١) Vasili v : p. 346.

(٢) Vasiliev : p. 346.

(٣) Ibid, p. 346.

أثناء ثلاث سنوات(١) . والراجح أن حق الملكية لم يرجع إلى الفلاحين ، فى حالات البيع الاستثنائى الذى أدى إلى استعادة ما جرى إحرازه بهذه الوسيلة ، من الملكية ، وذلك لأن المشترين المدنيين ، إنما كانوا فى معظم الحالات ، إما أحد الموظفين المحليين ، أو من أقاربهم أو أصدقائهم . فألف ملاك الأراضى والموظفون طبقة معينة . فإذا كان الطموح الطبيعى للموظف المحظوظ أن يمتلك أرضا فى إقليمه ، فإن المطمع الأساسى لمالك الأرض الغنى ، أن ينفذ إلى طبقة الموظفين ، وبذلك يجعل لنفسه أهمية اجتماعية بالغة ، ويقيم اتصالات عظيمة الفائدة . كأن يقبل وظيفة رسمية ، أو يحوز لقباً رسمياً(٢) . وجرت القاعدة بأن أضحى « القوى » ، مالكا للأرض وموظفا فى آن واحد(٣) . وهذا الوضع يفسر ما صادفه رومانوس ليكابينوس من صعوبة بالغة حينما قام بمهاجمتهم . إذ أن إرادة الحكومة المركزية لقيت مقاومة شديدة من قبل فئات من المجتمع اشتهرت بمتانة مركزها الاقتصادى ، وبما تتمع به اجتماعياً من احترام كبير(٤) . أما أولئك الذين تحملوا مسئولية تنفيـــذ أوامر الإمبراطور ، فإنهم حرصوا على أن يصيبها الفشل(٥) .

ومع ذلك فإن أغراض الحكومة ونواياها ، تعرضت فى كثير من الأحوال لمقاومة الفلاحين . إذ أثارت الضرائب الباهظة موجة من الحركات التى أدت إلى نظام الحماية . فطبقة الفلاحين التى أصابها الخراب الاقتصادى ، سئمت متاعب الحرية وآثرت حماية سيد قوى ، يعد بتخليصهم من الأعباء والالتزامات التى تقررت عليهم . وهذا يفسر السبب فى أن الفلاحين لم يكتفوا بأن باعوا للأعيان أملاكهم ، بل إنهم فى بعض الحالات تنازلوا عنها عن طيب خاطر .

(١) Vasiiiev : p. 347. Ostrogorowski : p. 243.

(٢) Ostrogorowski : p. 243.

(٣) Ibid, p. 243.

(٤) Ibid, p. 243.

(٥) Ostrogoaowski : p. 244,

وهذا يدل على أنهم دخلوا فى تبعية الملاك بمحض إرادتهم ، حتى يتجنبوا ما حاق بهم من البؤس ، والقلق والاضطراب ، ويدل أيضاً على أنهم التمسوا الحماية ، بسبب ما تتقاضاه الدولة منهم من ضرائب باهظة ، وما تعرضوا له من ابتزاز جباة الضرائب(١) .

على أن الدولة البيزنطية التى تولت الدفاع عن الملكيات الصغيرة الحرة ، واجهتها مشاكل خطيرة عديدة .

العلاقة مع المسلمين فى الشرق :

ظلت الإمبراطورية البيزنطية ، حتى سنة ٩٢٧ منصرفة إلى النضال ضد سيميون البلغارى . أما فى الشرق ، فإن ما بذلته الإمبراطورية من نشاط ، اقتصر على اتخاذ تدابير دفاعية . فلجأت إلى السياسة فى الإفادة من التحالف مع أرمينيا ، والمحافظة على ما بين بيزنطة والدولة الإسلامية ، من السلام والهدوء(٢) . غير أن بيزنطة ما كادت تقضى على الخطر البلغارى ، حتى شرعت فى أن تتخذ خطة الهجوم فى الشرق . وتولى تحقيق هذه الخطة القائد الشهير كوركواس . وأفاد كوركواس من الأحوال السيئة التى تعرضت لها الدولة العباسية وقتذاك . إذ أن القرامطة هددوا العراق ، بل بغداد ذاتها ، ونشبت ثورات القادة والأمراء . وما حدث فى دار الخلافة من الفتن ، منع جانباً كبيراً من الجيش الإسلامى من القيام بأى مجهود حربى(٣).

على أن المنطقة المحيطة بجبال طوروس ، ظلت محافظة على ما سادها من الهدوء والاستقرار ، بينما غدت أرمينيا وأعالى الجزيرة مسرحاً للقتال بين البيزنطيين والمسلمين(٤) . وأول ما أحرزه البيزنطيون من نجاح كبير ، يتمثل

(١) Ostrogorowski : p. 244.

(٢) Ostrogorowski : p. 244.

(٣) Canard : Histoire de La Dynastie des Hamdanides de Gazira et de Syrie, T. I. p. 732.

(٤) Ostrogorowski : p. 244.

فى استيلائهم على ملطية ، التى ظلت دائماً هدفاً للمحاولات البيزنطية المتكررة ، بفضل ما اشتهرت به من أهمية ، إذ أنها تواجه ثغر ليكاندوس عند البيزنطيين(١) . غير أن سعيد بن حمدان أمير الموصل ودياربكر ، لم يلبث أن استردها فى سهولة ويسر(٢) . ثم استولى عليها من جديد سنة ٩٣٤ ، القائد البيزنطى كوركواس فأضحت منذ ذلك التاريخ ، حتى سنة ١١٠١ من أملاك الإمبراطور الخاصة(٣) غير أن كوركواس وجد نداً خطيراً ، يتمثل فى أمير الموصل وحلب ، سيف الدولة الحمدانى ، الذى تولى توجيه القتال ضد البيزنطيين . وصار لزاماً على البيزنطيين لمواجهة هذا العدو الجديد ، أن يدخلوا فى علاقات ودية مع الخليفة العباسى ببغداد ، ومع الإخشيديين بمصر(٤) . على أن سيف الدولة أحرز فى سبتمبر سنة ٩٣٨ انتصاراً باهراً على حنا كوركواس فى إقليم أعالى الجزيرة ، فى موضع يقع بين حصن زياد وحصن سلام(٥) . ثم غزا سيف الدولة أرمينيا ، وأرغم عدداً كبيراً من الأرمن والكرج على الاعتراف بسيادته . وبعد أن اجتاز الأراضى التى خضعت له ، ظهر فى بلاد الأرمن البيزنطية ، فخرّب الجهات المجاورة لكولونيا Colonea سنة ٩٤٠(٦). وما قام به سيف الدولة الحمدانى من الحروب إنما قصد بها منع بيزنطة من فرض سيطرتها على أرمينيا ، ومن استعادة الأرض التى استولت عليها فى إقليم الجزيرة ، فذاع اسمه فى العالم الإسلامى ، لا على أنه أمير حلب بل على أنه بطل الجهاد ضد البيزنطيين(٧). على أن ما حدث من منازعات داخلية فى دار الخلافة ،

(١) Canard : op. cit, p. 733.

(٢) Canard : p. 733.

(٣) Ibid, pp. 736 — 737.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٠ — ١٨ .

(٥) Canard : op. eit. p. 743.

(٦) Canard : op. cit. p. 746.

(٧) Ibid, p. 747.

منع سيف الدولة عن المضى فى غزواته ، فعاد كما يستأنف التدخل فى أحوال الخلافة ببغداد(١) .

الروس :

كان من حسن حظ بيزنطة ، أن انصرف سيف الدولة عن مهاجمتها ، إذ أن القسطنطينية تعرضت زمن رومانوس ليكابينوس للهجوم مرتين من قبل الروس، بقيادة الأمير إيجور Igor . حدثت الحملة الأولى فى يونيه سنة ٩٤١ ، إذ قصد الروس ، بأسطول مؤلف من سفن عديدة إلى شاطئ البحر الأسود المطل على بثينيا ، وعاثوا فساداً فى الشاطىء الأسيوى لبوغاز البوسفور ، واستمروا فى زحفهم على الشاطئ الأسيوى حتى كريسوبوليس (سكودار الحالية المواجهة للقسطنطينية)(٢) . وما حدث فى الشرق من الهدوء ، هيأ الفرصة لبيزنطة لأن تقوم بهجوم مضاد ضد العدو ، إذ توجه كوركواس نفسه إلى ساحة القتال ، وأنزل بالروس هزيمة ساحقة . ولما تهيأ الروس للارتداد ، دمرت النيران الإغريقية سفنهم فى معركة بحرية وجهها القائد البارع تيوفانس(٣) Theophanes . والفرق الشاسع بين نتائج الهجومين اللذين قام بهما الروس فى ٩٠٧ و ٩٤١ ، وكذا بين موقف بيزنطة فى كل من هذين الحادثين ، إنما يدل على ما جرى من ازدياد قوة بيزنطة العسكرية أثناء الفترة الواقعة بين هذين التاريخين(٤) .

ذلك أن حملة إيجور الثانية فى سنة ٩٤٤ كانت أكثر عدداً وأشد استعداداً من الحملة الأولى . إذ تشير الرواية التاريخية ، إلى أن إيجور حشد جيشاً ضخماً من « الورنك ، والروس ، والبوليانى ، والصقالبة ، والبجناك » . وانزعج الإمبراطور البيزنطى ، لما قام به إيجور من استعدادات ، لاسيما أن إيجور اختار

(١) Ostrogorowski : p. 245.
(٢) Vasiliev : p. 323. Ostrogorowski : p. 245.
(٣) Ostrogorowski : p. 245.
(٤) Ibid, p. 245.

لحملته فترة جرى أثناءها إعداد الأسطول البيزنطى لمهاجمة المسلمين(١) . فبعث من قبله إلى إيجور والبجناك خيرة نبلائه . فقدموا له الهدايا الثمينة ، وعرضوا على إيجور أن يتعهد الإمبراطور بأن يدفع له من الجزية مثلما حصل عليها أوليج . غير أن إيجور توجه نحو القسطنطينية فنزل بجنده على سواحل بثينيا ، وأمعن فى تخريب الأراضى حتى بلغ البوسفور . ولم يعد إلى بثينيا إلا بعد أن أرغمته النيران الإغريقية على الابتعاد عن القسطنطينية ، وفى تلك الأثناء جرى حشد الجيش البيزنطى . وما تعرض له إيجور وجنده من الصقيع ، ونفاد الأقوات ؛ وما أصابه بسبب النيران الإغريقية من الخسائر فى الأرواح ، أرغمه على العودة إلى روسيا . على أن الحروب ضد الروس ، انتهت سنة ٩٤٥ بعقد معاهدة . تقرر فيها التصديق على ما سبق عقده من معاهدات بين الفريقين ، وتعهد الجانبان بألا يهاجم أحدهما أراضى الجانب الآخر ، بل ينهض كل منهما لمساعدة الآخر(٢) . على أن الأراضى البيزنطية لم تلبث أن تعرضت لهجوم من قبل المجريين ، واتبعت بيزنطة أيضاً سياسة الرشوة فى وقف اعتدائهم(٣) .

التوسع جهة الشرق :

وبعد أن أنزل حنا كوركواس الهزيمة بالروس على البوسفور ، توجه مرة أخرى نحو الشرق ، ليواصل القتال فى إقليم الجزيرة ، فاستولى على ميافارقين . وآمد ودارا ، ونصيبين . ثم ولى وجهه نحو الرها ، التى اشتهرت بما احتفظت به من المقدسات الدينية ، وأهمها صورة المسيح وهو يقوم بالمعجزات ، وهى الصورة المرتبطة بأسطورة الأبجر(٤) . ولما اشتد حصار

(١) Camb. Med. Hist. IV, p. 205.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 205.
(٣) Ostrogorowski : p. 245. Rambaud : p. 379.
Cross, The Russian Primary Chronicle, pp. 160 — 163.
(٤) تشير رواية قديمة إلى ما جرى من تبادل الرسائل بين المسيح وبين الأبجر الخامس ، ملك الرها [٤ ق . م — ٥٠ م] . ذلك أن الملك كتب أثناء مرضه إلى المسيح يسأله أن =

البيزنطيين للرها ، قبلت المدينة أن تسلم المنديل المقدس الذى لم تصنعه فى اعتقادهم يد إنسان ، فجرى نقله إلى القسطنطينية باحتفال كبير فى أغسطس سنة ٩٤٤[1] .

وبفضل جهود حنا كوركواس ، ازداد امتداد الطرف البيزنطى نحو الشرق ، وأضحى لبيزنطة من المكانة والهيبة فى آسيا ، ما مهد الطريق للهجوم الشديد ، الذى قام به فيما بعد ، الإمبراطوران نقفور فوكاس وحنا زمسكيس . وما جرى من إجلاء القبائل العربية عن الجهات المتاخمة للحدود البيزنطية ، أسهم فى امتداد الطرف البيزنطى جهة الشرق[2] .

خاتمة ليكابينوس :

على أن إحراز المنديل المقدس ، يعتبر آخر ما ظفر به رومانوس الأول (ليكابينوس) من الانتصارات . إذ أن هذا الإمبراطور ، صادف خاتمة مفجعة ، وصدق فيه ما ورد بالكتاب المقدس ، من أن ألدّ خصوم الإنسان هم أقربهم إليه وأشدهم حظوة عنده[3] . فرومانوس ، الذى صار

= يقدم لزيارته ، ويشفيه من مرضه . ووعد المسيح بأنه سوف يرسل له من تلاميذه من يقوم على علاجه ، ويبشر بالإنجيل بين رعاياه . على أن من الروايات ما يضيف إلى أن رسالة المسيح المحفوظة فى الرها إنما كتبت على رق باللغة السريانية . ومنها نسخ كثيرة ، اشتهرت بقواها الخارقة فى شفاء المرضى ورعايتهم . ومن الإضافات التى ارتبطت بالأسطورة ، ما روى أن المسيح أرسل أيضاً صورته مطبوعة على منديل واشتهرت أيضاً هذه الصورة بما يصدر عنها من معجزات . انظر :

Cross : Dictionary of Christian Church — Abgar,

وهذه الصورة المطبوعة على القماش هى المعروفة بالمنديل **Mandil**

Ostrogorowski : p. 246.

Canard, I p. 748,

(١) Ostrogorowski : p. 246. Vasiliev p. 306.

(٢) Ostrogorowski : p. 246.

(٣) ورد فى العهد القديم ، سفر ميخائيل ، الاصحاح السابع : لا تأتمنوا صاحباً ، لا تثقوا بصديق . احفظ أبواب فمك عن المضطجعة فى حضنك ، لأن الابن مستهين بالأب ، والبنت قائمة على أمها ، والكنة على حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته .

منصبه من المناعة ما لا يسع أحد أن يهاجمه ، ضحى به أبناؤه من الشهوة إلى الحكم . فأكبر أبنائه ، وهو كرستوفر ، الذى جعله وريثا له فى الحكم ، لم يلبث أن مات سنة ٩٣١[1] . لم يجعل رومانوس لأبنائه الصغار ، حق التقدمة على الإمبراطور الشرعى (قنسطنطين السابع) . على أن ولدى رومانوس ، ستيفن وقنسطنطين ، حرصا على ألا ينتقل الحكم إلى قنسطنطين السابع (بورفيروجنيتوس) ، عند وفاة أبيهم ، فعزما على تدبير انقلاب . فى ١٦ ديسمبر سنة ٩٤٤ تم القبض على الإمبراطور رومانوس بناء على أمر ولديه ، وجرى نقله إلى جزيرة بروتى Prote ، من جزائر الأمراء[2] ، حيث بقى بها إلى أن أدركته الوفاة فى ١٥ يونيه سنة ٩٤٨ .

على أن ولدى ليكابينوس أساءا التقدير والحساب ، والراجح أن ما قاما به من أعمال يرجع السر فيها إلى ما بذله أنصار قنسطنطين السابع من نشاط فى حملهما على المضى فى عملهما وتدبيرهما . وكيفما كان الأمر ، فإن قنسطنطين السابع هو الذى أفاد من التغيير ، إذ لقى التأييد من قبل السكان فى أن يتولى الحكم ، باعتباره صاحب الحق الشرعى فى ذلك ، بينما لم يجد بطلا الانقلاب من يستندان إليه فى دعواهما ، وما أقدما عليه من نفى والدهما الشيخ أدى إلى إزالة الدعامة الوحيدة التى تعتبر سندهم الوحيد الذى يصح الاعتماد عليه[3] .

ولم يستطع الأخوان أن يحققا الشطر الثانى من المؤامرة الذى يقضى بالتخلص من قنسطنطين السابع ، إذ أمر الإمبراطور قنسطنطين فى ٢٧ يناير سنة ٩٤٥ بنفيهما ، ثم لقيا مصرعهما فى منفاهما[4] .

قنسطنطين السابع (بورفيروجنيتوس) :

وعلى هذا النحو ولى الحكم قنسطنطين السابع بورفيروجنيتوس ، وهو

(١) Ostrogorowski : p. 246.

(٢) أسد رستم ، الروم جـ ٢ ص ٣٨ .

(٣) Ostrogorowski : p. 246.

(٤) Ostrogorowski : p. 247.

فى الأربعين من عمره ، وبعد أن مضى على تتويجه نحو ٢٣ سنة . وفى يوم عيد القيامة (٦ أبريل سنة ٩٤٥) ، رفع ابنه رومانوس إلى مكانة إمبراطور . على أن السر فى أن قنسطنطين السابع ظل زمنا طويلا بعيداً عن الحكم ، وقد قبل ذلك كرها ، إنما يرجع معظمه إلى ميله الشخصى ، لا إلى الأحوال الخارجية ، إذ أن النزعة الأدبية عند قنسطنطين السابع فاقت النزعة السياسية . فما اشتهر به من الميل إلى المعرفة والعلم ، ومن أنه باحث نابه ، يميل للدراسات التاريخية ، ويعكف على القراءة والكتابة ، كل ذلك جعل منه شخصا يعيش فى الماضى لا فى الحاضر . ومع أن قنسطنطين أبدى بعض الاهتمام بالأمور السياسية ، وكذا بفن الحرب ، فإن هذا الاهتمام لم يكن إلا من قبيل الاهتمام بأية ناحية فكرية . ولذا خضع قنسطنطين السابع ، بعد أن انفرد بالحكم ، لقيادة وسلطان زوجته هيلين ، التى تنتمى إلى أسرة ليكابينوس المعروفة بالطموح ، والسعى للسلطان والسيطرة(١) .

والأهمية التاريخية للإمبراطور قنسطنطين السابع ، إنما ترجع إلى ما اشتهر به من نشاط كبير فى العلم والدراسة . فما أسهم به فى التقدم الفكرى البيزنطى لا يستند فحسب إلى ما بذله من رعاية للتعليم . بل إلى ما أصدره من مؤلفات عديدة ، وما أقدم عليه من تشجيع الآخرين على التأليف . وارتبط اسمه بكثير من العمائر الرائعة ، واشتد اهتمامه وولعه بالموسيقى والرسم ، وأنفق أموالا طائلة فى سبيل تصنيف مؤلفات تتضمن نصوصا مختارة من مؤلفات القدماء(٢) .

على أن قدرا كبيراً من المؤلفات التى ترجع إلى زمن قنسطنطين السابع فى القرن العاشر لازال باقيا . فمنها ما ألفه قنسطنطين ذاته ، ومنها ما تم

---

(١) Ostrogorowski : p. 247.

(٢) Vasiliev : p. 362.

أسد رستم : الروم ، ج ٢ ص ٢٨ .

تصنيفه بفضل مساعدته وتشجيعه ، ومنها ما تم وضعه بناء على اقتراحه ، مثل الكتب والموسوعات التى تضمنت مختارات من مصنفات المؤلفين القدامى . ومن مؤلفات قنسطنطين ، ما وضعه من ترجمة لجده باسيل الأول حفلت بالمدح والتقريظ . أما كتابه عن إدارة الإمبراطورية De Administrando Imperio ، والذى أهداه إلى ابنه وولى عهده ، فاشتمل على دراسة قيمة لجغرافية البلاد الأجنبية ، والعلاقات التى تربط الإمبراطورية البيزنطية بالأمم المجاورة ، والدبلوماسية البيزنطية . واستهل هذا الكتاب بفصل عن الأقوام التى تجاور الإمبراطورية البيزنطية من جهة الشمال ، أمثال البجناك ، والروس ، والأغوز Uzes ، والخزر ، والترك (المجريين) ، وما قام به هؤلاء الأقوام ، لاسيما البجناك والروس ، من دور كبير فى الحياة السياسية والاقتصادية فى القرن العاشر الميلادى . وتناول الكتاب أيضا دراسة المسلمين ، والأرمن ، والبلغار ، والدالماشيين ، والفرنجة ، وسكان جنوب إيطاليا ، والبنادقة وغيرهم ، وأشار هذا الكتاب إلى أسماء روافد نهر الدنيبر ، وأوردها فى صورتها الصقلبية والسكنديناوية . ويعتبر من أهم المصادر التى تستند إليها نظرية انتماء الأمراء الأوائل من الروس إلى أصل اسكنديناوى . وجرى تأليف هذا الكتاب بين سنتى ٩٤٨ ، ٩٥٢ ، وفى ترتيب يختلف عن الترتيب الذى نشر عليه حديثا(١) . على أن هذا الكتاب يعرض ما كان للإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر من قوة سياسية ودبلوماسية واقتصادية(٢) . واشتمل كتابه عن الثغور De Thematibus على مادة جغرافية وفيرة ، استمد معظمها من المؤلفات الجغرافية التى ترجع إلى القرنين الخامس والسادس(٣) . وفى زمن قنسطنطين السابع أيضا ، تم

---

(١) Vasiliev : p. 362.

(٢) Vasiliev : p. 363.

هذا الكتاب نشره من جديد وترجمه إلى الإنجليزية وعلق عليه G. Moravcsik & R. Jenkins. وذلك سنة ١٩٤٩ (بودابست) .

(٣) Ibid p. 363.

تصنيف كتاب المراسيم De Ceremoniis aulae Bizantinae . ويعتبر ، أصلا ، وصفا تفصيليا لناموس الحياة فى البلاط الإمبراطورى ، فكأنه مصنف عن لوائح البلاط . وجرى الاستناد فى تأليفه إلى ما هو محفوظ فى القصر من سجلات رسمية فى العصور المختلفة . وما تضمنه من مادة عن التعميد ، والزواج ، والتتويج ، وتشييع جنائز الأباطرة ، وطقوس الكنائس، واستقبال السفراء الأجانب ، وإعداد الحملات الحربية ، والوظائف والألقاب ، وسائر مظاهر الحياة ، لا تجعل منه فحسب مصدرا قيما للحياة فى البلاط ، بل يعتبر أيضا مرجعا للحياة الاجتماعية بالإمبراطورية بأجمعها[1] . فمراسيم البلاط البيزنطى التى نبتت ونمت من مراسيم البلاط الرومانى ، زمن دقلديانوس وقسطنطين الكبير ، لم تلبث أن نفذت إلى حياة البلاط فى غرب أوربا وممالك الصقالبة ، ومنها روسيا . ويعتبر قسطنطين السابع مسئولا أيضا عن التقرير المسهب عن انتقال صورة المسيح من الرها إلى القسطنطينية فى سنة ٩٤٤ ، وذاعت الرواية التى تشير إلى أن هذه الصورة بعث بها المسيح إلى أمير الرها[2] . وبفضل قسطنطين انبعث ما ادخرته الإمبراطورية البيزنطية من دوافع ثقافية ، وازداد النشاط الفكرى . والمعروف أن مؤلفات الإمبراطور قسطنطين السابع ورجال قصره . يغلب عليها طابع التصنيف . إذ أنها لم تكن سوى جمع المعلومات القيمة التى تعتبر المادة الأولية للثقافة والتعليم . فما ألفه قسطنطين من الكتب ، لم يكن يقصد بها سوى هدف عملى تهذيبى ، لتكون دليلا ومرشدا لمعاصريه ولسلالته ، لاسيما ابنه ووريثه فى الحكم رومانوس ، فهى فى الواقع عبارة عن كتب مراجع . فما عالجه قسطنطين وزملاؤه من الموضوعات لم يخرج عن دائرة معارف ، ورسائل ؛ وقصص تاريخى[3] .

---

(١) Vasiliev : p. 363.

(٢) Ibid, p. 363,

هذا التقرير هو المعروف باسم The Discourse upon the Image of Edessa.

(Camb. Med. Hist. IV. p. 67. انظر)

(٣) Ostrogorowski : p. 248.

حكومة قسطنطين السابع :

لم يبق لأسرة ليكابينوس من نفوذ إلا عن طريق مصاهرتهم للإمبراطور قسطنطين . فالمعروف أنه جرى نفى ستيفن إلى ردوس ثم لسبوس ، حيث تجرع السم الزعاف سنة ٩٦٣ ، ولقى قسطنطين حتفه على يد الحرس فى Samothrace . أما سائر آل ليكابينوس الذين وصل إلينا خبرهم ، فإن منهم من تعرض للتنكيل وتشويه الجسم ، أمثال رومانوس ، وميخائيل ، وباسيل ، ومع ذلك كان لهم دور فى الحياة السياسية[1] . أما ابنه تيوفيلاكت Theophylact فظل بطريركا للقسطنطينية . وأضحت دار البطريركية ، وجزيرة بروتى ، وجزيرة ساموتراكى ، وكرا لدسائس أسرة ليكابينوس[2]، وذلك بعد أن أصاب الأسرة من الهوان على يد قسطنطين ما أصابها ، حيث أمر بطرد كل من يمت لرومانوس بصلة ، من وظائف الدولة[3] ، وأحاط نفسه بجماعة من بيت فوكاس الذى نازع ليكابينوس السيطرة ، والذى استطاع بفضل صلة قسطنطين بهم ، أن يصل إلى العرش[4] . فصار لبرداس ، أخ المنافس السابق لرومانوس ليكابينوس ، القيادة العليا ، بعد أن عين دمستقا بالشرق ، وتولى أبناؤه الثلاثة نقفور ، الذى صار إمبراطورا فيما بعد ، وليو ، وقسطنطين قيادة ثغور الناطليق ، والقبادق ، وسيلوقية[5] .

وعلى الرغم من أن قسطنطين السابع كان يكن الكراهية الشديدة لصهره رومانوس ليكابينوس طوال حياته ، فإن ما وضعه هذا الحاكم القدير (رومانوس) من خطة سياسية لمعالجة الأمور الداخلية والخارجية ، جرى

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 64.

Rambaud : Histoire de L' Empire Grec, p. 38.

(٢) Rambaud. op. cit. p. 38.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 64.

(٤) Ibid, p. 64,

(٥) Ostrogorowski : p. 248.

Rambaud. p. 39.

عليها من بعده قنسطنطين[1] . يضاف إلى ذلك أن حكومة قنسطنطين السابع جرت على ما وضعه رومانوس ليكابينوس من سياسة زراعية ، والتزمت بتنفيذ قرارته ومرسوماته .

السياسة الاقتصادية :

فى مارس سنة ٩٤٧ ، صدر قانون يحمل اسم البطريق والمستشار القانونى تيوفيلوس[2] ، يشمل كل ما سنه سلفه من القوانين التى تحرم على على الأغنياء امتلاك أراضى الفقراء[3] . وهذا القانون اختص أول الأمر بثغرى الناطليق والتراقيسيون . وبمقضى هذا القانون ، تقرر استرداد ما أحرزه الأقوياء ، منذ أن انفرد قنسطنطين بالحكم ، من الأراضى التى حازوها من الفلاحين ، وكذا ما سوف يحوزونه فى المستقبل ، دون دفع تعويض لهم[4] . فإذا قام « الأقوياء » بالتصرف فيما صار لهم من الملكية ، صار للفلاحين ، منذ ذلك الحين ، حق الشفعة فى أراضى تماثلها[5] . غير غير أن ما جرى من بيوع سابقة ، فإن ما سنه رومانوس ليكابينوس سنة ٩٣٤ من لوائح تعتبر سارية المفعول . والواقع إن هذه اللوائح لم تكن سارية فحسب على ما حدث من البيوع السابقة على سنة ٣٩٤ ، بل على كل الفترة الممتدة منذ حدوث المجاعة سنة ٩٢٧ حتى انفراد قنسطنطين بالحكم[6] . وترتب عن ذلك أن الالتزام بإعادة ثمن الشراء ، الذى كان امتيازا هاما للأعيان ، اتسع حتى أصبح يشمل كل البيوع التى جرت بين سنة ٩٣٤ وسنة ٩٤٥ . ومع ذلك فإنه تقرر ، بمقتضى قانون قنسطنطين السابع الصادر

(١) Ostrogorowski : p. 248.
(٢) Rambaud : p. 91.
(٣) Ibid, p. 91,
(٤) Ostrogorowski : p. 248, Rambaud p. 285, Camb. Med. Hist. IV. p, 66,
(٥) Ostrogorowski : p. 248.
(٦) Ibid, p. 248, Rambaud : p, 285.

فى سنة ٩٤٧ ، إعفاء البائعين الفقراء ، الذين لاتزيد ثروتهم على خمسين قطعة ذهبية ، من إعادة ثمن الشراء . غير أن ما أصدره ابنه يدل على أن قنسطنطين السابع ، تحت تأثير الأعيان ، نقض هذا الامتياز ، بما سنه بعد ذلك التاريخ من قانون يقضى بمد الفترة التى يجوز فيها إعادة ثمن الشراء من ثلاث سنوات إلى خمس سنوات[1] .

ومن قوانين قنسطنطين السابع ، القانون الذى يتعلق بإقطاعات الجند ، والذى أصدره البطريق والمستشار القانونى تيودور ديكابوليتس Docapolites . وبمقضى هذا القانون ، لا يجوز التصرف فى الأملاك التى يعتمد عليها الجند فى معاشهم وفى تجهيز أنفسهم بأدوات القتال ، وتقرر أيضا ، وفقا للعرف ، ألا تقل قيمة ما يخص العساكر الفرسان من الإقطاعات ، وما يخص بحارة الثغور (كبريوت ، وبحر إيجه وجزيرة ساموس) عن أربع ليرات من الذهب ؛ وينبغى ألا يقل ما يتقاضاه الجندى من بحارة الأسطول الإمبراطورى عن ليرتين من الذهب[2] . والمعروف أن هذه الثغور البحرية الثلاثة من أشد المواقع الإمبراطورية تعرضا للخطر من جهة البحر ، وتؤلف الطرف البحرى للدولة البيزنطية لمقاومة الأساطيل الإسلامية ، ويجرى دائماً استدعاء بحارتها للخدمة العسكرية[3] .

ومن هذه الثغور الثلاثة يستمد عادة الأسطول الإمبراطورى عدداً كبيراً من بحارته . وبفضلها جرى تسيير الحملتين البحريتين على كريت زمن ليو السادس وقنسطنطين السابع[4] . ولذا تقرر مساواتهم (البحارة) مع العساكر الفرسان فيما يحصلون عليه من أملاك[5] . ويجوز

(١) Ramdaud : p, 285. Vasiliev : p, 346 — 347,
(٢) Ostrogorowski : p, 249,
(٣) Rambaud : p. 288
(٤) Rambaud : p. 289.
(٥) Rambaud : p. 289.

تجزئة الإقطاعات الحربية عن طريق التوريث ، بشرط أن تجتمع قوات الورثة لتأدية ما هو مقرر من الخدمة العسكرية . فإذا زادت قيمة إقطاع الجندي على الحد الأدنى المقرر ، لا يجوز التصرف فى الجزء الزائد ، إلا إذا لم يكن مدرجا فى جرائد الجند الفلاحين . ولن يصبح امتلاك ما كان للجندي من أرض أمر نهائيا إلا بعد مضى أربعين سنة . ولابد من مراعاة القواعد السابقة التى تقضى بانتزاع ما استولى عليه المشترون من أملاك الجند بطريق غير مشروع ، وذلك دون أن يؤدّى عن ذلك أى تعويض . يضاف إلى ذلك أن الحق فى دعوى الحلول بأرض الجندي لا يتوقف فحسب على المالك السابق ، بل يمتد طبقا لقانون الشفعة إلى الأقارب حتى الدرجة السادسة[١] ، ثم إلى أولئك الذين ارتبطوا مع المالك السابق بالتزام يقضى بالتعهد بتأدية ما هو مقرر من الخدمة العسكرية ، أو الذين اشتركوا معه فعلا فى تأدية الخدمة العسكرية ؛ ويمتد هذا الحق أيضا إلى الفلاحين « الفقراء » الذين اشتركوا معه فى دفع الضرائب ، وإلى الفلاحين الذين ينتمون إلى نفس الوحدة الضرائبية[٢] .

ويعتبر تيودور ديكابوليتس مسئولا أيضا عن القانون الذى صدر زمن رومانوس الثانى ابن قنسطنطين ، والذى يشرح اللوائح السابقة ، ويعالج أيضا المشكلة التى لم تتم تسويتها ، وهى مشكلة الأملاك التى تم بيعها منذ زمن المجاعة سنة ٩٢٧ . ويقرر هذا القانون أن ما جرى التصرف فيه من أراضى الجند والفلاحين عقب انفراد قنسطنطين السابع بالحكم ، ينبغى استعادتها واستردادها دون دفع تعويض[٣] .

وما أصدره الإمبراطور نفسه فى مارس سنة ٩٦٢ من قانون خاص بثغر التراقيسيون ، إنما ارتكن إلى ما صدر من قبل القوانين المرتبطة بالإقطاعات

---

(١) Cambridge Economic History, Vol. I p. 207.

(٢) Ostrogorowski : p. 249. Rambaud : p. 290.

(٣) bid, p. 246.

الحربية التى جرى التصرف فيها . وقضى هذا القانون بأن المشترين ذوى النية الطيبة جاز لهم استعادة الأراضى دون دفع تعويض ، أما ذوو النية السيئة فتقرر أن يدفعوا جزءا من التعويض[١] .

السياسة الخارجية

١ — علاقات بيزنطة بالمسلمين :

فى أواخر عهد رومانوس الأول ، وفى أثناء الفترة التى انفرد فيها قنسطنطين بالحكم ، كان كل الاهتمام موجها إلى قتال المسلمين فى الشرق . ففى السنوات التى تلت عزل كوركواس وسقوط ليكابينوس ، أحرز المسلمون انتصارات باهرة على البيزنطيين ، بفضل بسالة وفروسية سيف الدولة الحمدانى . والمعروف أن الحمدانيين ينتمون إلى قبيلة بنى تغلب ، وأن زعيمهم عبد الله بن حمدان استطاع أن يحصل من الخليفة المكتفى على الموصل سنة ٩٠٥ ، واتخذ ولداه حسن وعلى لقبى ناصر الدولة وسيف الدولة . وأقام سيف الدولة لنفسه إمارة جعل حاضرتها حلب ، وذلك سنة ٩٤٤ ، بينما بقى ناصر الدولة فى الموصل[٢] . وامتدت أملاك سيف الدولة من طرسوس إلى أرمينية[٣] . ولما أصبحت حلب مقرا لسيف الدولة ، تحول القتال الرئيسى بين المسلمين والبيزنطيين من جهة أرمينية إلى جهة جديدة امتدت من قليقية حتى ديار بكر . والمعروف أن الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة على الفرات تقع فوق سميساط ، وتمر بين حصن منصور وزبطرة ، وفوق الحدث ومرعش ، وقد اتبعت سلسلتى جبال طوروس

---

(١) Ostrogorowski : p. 250.
Rambaud : p. 292.

(٢) Rambaud : p. 425.
أسد رستم : الروم . ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) Canard : p. 755,

حتى أبواب قليقية ونهر اللامس ؛ واتجهت من ناحية ، نحو الشمال إلى شرقى سميساط فأرمينية[١] .

فى سنة ٩٤٤ انتصر سيف الدولة على البيزنطيين بالقرب من مرعش ، وانتصر عليهم أيضا سنة ٩٤٧ ، وكان برداس فوكاس قائداً للجيش البيزنطى ، الذى ضم جندا من الروس والبلغار[٢] .

ومن الأمور التى تلفت النظر ، أنه على الرغم من الحرب المستمرة بين الحمدانيين والبيزنطيين جرى التفاهم بين الفريقين سنة ٩٤٥ على تبادل الأسرى[٣] على نهر اللامس ، على أن هذا الترتيب جرى فى الوقت الذى لم يعد فيه لسيف الدولة سلطان على إقليم الثغور ، بل كان الإخشيد هو صاحب السيطرة فى هذه الجهات[٤] . ولعل الإمبراطور البيزنطى هو الذى اقترح إجراء تبادل الأسرى ، على أن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الإخشيد هو الذى عرض هذا الاقتراح ، ومهما يكن من الأمر ، فإن الدافع لذلك كان إنسانيا[٥] . غير أن ما حدث سنة ٩٤٦ من وفاة الإخشيد واستبداد كافور بالأمر ، أدى إلى أن يخرج والى الثغور على طاعة الدولة الإخشيدية ، وأن يعلن انتماءه إلى سيف الدولة الحمدانى ، وترتب على ذلك أن المفاوضات جرت بين الحمدانيين والبيزنطيين بشأن تبادل الأسرى[٦] .

وفى سنة ٩٤٩ استولى البيزنطيون على مرعش ، واستمروا فى زحفهم حتى طرسوس[٧] . وفى سنة ٩٥٠ ، خرج سيف الدولة غازيا فى أراضى

---

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٢٩ — Canard : p. 761,

(٢) Rambaud : p. 425.

(٣) Ibid, p. 425.

(٤) Canard : I. p. 758,

(٥) Canard : I, p. 758,

(٦) Ibid, p. 759.

(٧) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣٢ .
Rambaud : p. 425. Ostrogorowski : p. 250.

الدولة البيزنطية ، فحشد ثلاثين ألف مقاتل ، واصطحب ثلاثة من الشعراء ، المتنبي وأبا فراس وأبا زهير المهلهل ، وانضم إليه أربعة آلاف مقاتل من طرسوس ، فاستولى على بعض الحصون ، ووقع فى يده قدر كبير من الأسرى . ثم أراد العودة إلى حلب نظرا لحاول فصل الشتاء ، فتوجه جنوبا ، غير أن البيزنطين بقيادة الدمستق ليو بن فوكاس حشد جيشه فى منطقة خرشنه ، وأسرعوا إلى جبال طوروس يكمنون لسيف الدولة ، فاستقروا فى درب الجوزات ، بين البسان والحدث ، وضيقوا على سيف الدولة المسالك ، فتخلى عنه عدد من الجند ، وهلك عدد من عساكره ، واسترد البيزنطيون الغنائم والأسرى ونجا سيف الدولة فى عدد يسير[١] .

وما قام به سيف الدولة من تشديد الاستحكامات وإقامة الأسوار حول المدن التى تقع على الطرق المؤدية إلى حلب ، مثل رعبان ، وتل خالد ، وما حدث من ردّ هجمات البيزنطيين بقيادة قنسطنطين بن فوكاس سنة ٩٥٢ ، دفع البيزنطيين إلى أن يوجهوا هجومهم إلى الجزيرة ، فهاجموا حصن آمد ، غير أنهم ارتدوا على أعقابهم بفضل جهود أميرى ميافارقين وآمد[٢] . ونهض سيف الدولة وفاجأ الدمستق فوكاس وأنزل به هزيمة ساحقة[٣] .

وتعتبر الحملة التى قام بها سيف الدولة سنة ٩٥٣ فى الأملاك البيزنطية من أهم الحملات التى تدل على ما اشتهر به سيف الدولة من الإقدام والبسالة وسرعة البت فى الأمور ، وشدة الذكاء . إذ جعل هدفه هذه المرة إقليم ملطية ، الذى يعتبر مصدر خطر على إقليم الجزيرة ، الذى أغار عليه فى سنة ٩٥٢ الدمستق فوكاس . ولما بلغ حرّان واطمأن إلى ولاء قبائل الجزيرة ، توجه إلى دلوك حيث كان فى انتظاره سائر قواته وعساكره ، ثم عبر فروع نهر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٥ .
أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣٣ — ٣٤ .
Canard : I, pp. 761 — 769,

(٢) Canard : I. p. 772,

(٣) Ibid, p. 778.

الفرات ونهر سنجه ، وانتهى إلى سفح جبال طوروس ، واتخذ طريقه إلى درب القلة كيما يصل إلى زبطرة التى كانت وقتذاك فى يد البيزنطيين ، فنهب أرباض زبطره ، وعرقه وملطية[١] .

ثم جرت معركة عنيفة بين قنسطنطين فوكاس وسيف الدولة قرب ملطية ، فأنزل سيف الدولة بالبيزنطيين هزيمة ساحقة . ولما علم أن الدمستق أغار على الشام ، قرر أن يعترض طريق عودته ، فاتخذ طريقه إلى مرعش . وعلى الرغم من أنه لم يكن معه إلا ٦٠٠ فارس ، فإنه أحرز انتصارا باهرا ، وأخذ من البيزنطيين ما كان بيدهم من الغنيمة والأسارى[٢] . وأصاب الدمستق فوكاس الجراح فى وجهه ، ومن بين الأسرى الذين وقعوا فى يد سيف الدولة قنسطنطين بن فوكاس ، الذى جرى حمله إلى حلب ، ولم يلبث أن مات بها . وعلى الرغم من أن سيف الدولة أحسن معاملة قنسطنطين ، فقد شاع فى القسطنطينية بأنه مات مسموما ، وترتب على ذلك ما جرى من إساءة معاملة الأسرى المسلمين[٣] .

وفى سنة ٩٥٤ ، وبينما كان سيف الدولة يشرف على ما يجرى تشييده من الاستحكامات حول الحدث ، واجه جيشا ضخما بقيادة الدمستق فوكاس ، تألف من عناصر عديدة : من الأرمن والترك والروس والبلغار والصقالبة والخزر[٤] ، فاشتد القتال بين الفريقين ، فهلك من جيش فوكاس ثلاثة آلاف مقاتل ، ووقع عدد كبير من الأسرى فى يدى سيف الدولة ، واستطاع فوكاس أن ينجو بنفسه ، بأن اختفى ، على حد قول الرواية العربية فى سقاية بالحدث ، ومن الأسرى جماعة من أقارب الدمستق والبطارقة[٥] .

---

(١) Ibid. p. 138.

(٢) Canard : I. p. 775.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٨١ Rambaud : p. 426.
Canard : I. p. 776

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٨١ — ٣٨٢ Canard : I. p. 779.

(٥) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢٨٢ Canard : p. 780.

وترتب على الهزيمة الساحقة التى حاقت بالبيزنطيين ، أن أرسل الإمبراطور قنسطنطين سفارة إلى سيف الدولة سنة ٩٥٥ تلتمس منه الصلح ، غير أنه رفض أن يستجيب لرجائه ، وتبددت المحاولة الأخيرة التى قام بها فوكاس لمهاجمة سيف الدولة[١] . وعلى الرغم من الصفات الطيبة التى اشتهر بها الجيش البيزنطى ، التى بفضلها أحدث ثغرات فى أسوار حصن الحدث ، ومنع الاتصال بين السكان وسائر القوى الإسلامية فى الخارج ، فإنه كان يفتقر إلى القيادة الرشيدة والتنظيم السليم[٢] ، وما اشتهر به سيف الدولة من البسالة وشدة المراس فى الحرب ، منع بارداس فوكاس من تحقيق أغراضه ، فلم تمتد الحدود البيزنطية إلى غير ما كانت عليه قبل حلول سيف الدولة بحلب[٣] .

ولم يعرف تماما التاريخ الذى قرر فيه الإمبراطور قنسطنطين الاستغناء عن خدمة بارداس فوكاس بسبب كبر سنه ، وإحلال ابنه نقفور مكانه فى شئون الحرب والقتال . إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن هذا التغيير حدث فى سنة ٩٥٤[٤] . وفى زمن هذا القائد الجديد ، وبفضل مساعدة أخيه ليو ، جرى الجيش البيزنطى على السياسة التى انتهجها كوركواس ، والتى ترمى إلى مد أطراف الدولة البيزنطية فى الشرق على حساب الحمدانيين[٥] . جعل له الإمبراطور مطلق الحرية فى تصريف الشئون الحربية ، فاستعان بعدد غير قليل من خبرة القادة العسكريين أمثال : ليوفوكاس ، وحنا الشميشق ، وباسيل ليكابينوس[٦] . وفى سنة ٩٥٦ — ٩٥٧ حدثت وقعة بحرية ، أحرز فيها باسيل قائد ثغر كيبريوت البحرى ، الانتصار على أهل طرسوس المسلمين[٧] . وأعقب هذا الانتصار ، أن توجه حنا زمسكيس

---

(١) Canard : I, p. 781.

(٢) Ibid, p. 782.

(٣) Ibid, p. 782.

(٤) Osrtogorowski : p. 250 Canard : I, p, 783.

(٥) Canerd : I, 783.

(٦) Canard : I. p. 786.

(٧) Rambaud : p. 437. Canard : I. p. 793.
ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٩٩ .

فى يونية ٩٥٨ لقتال الجزيرة ، فانطلق نحو آمد ، وأرزان ، وميافارقين(١) ،
واستسلمت للبيزنطيين الحدث فى يونيه سنة ٩٥٧ . وفى سنة ٩٥٨ استولى
حنا زمسكيس بعد معركة عنيفة على سميساط فى شمال الجزيرة(٢) . وبلغ من
شدة حرص الإمبراطور قنسطنطين بإعداد الحملة وتجهيزها واهتمامه بها ،
أنه فى سبيل أن يكون حر التصرف ، عقد معاهدات صلح مع الأقوام المجاورين
للإمبراطورية ، أمثال البلغار والروس والمجريين ، والفرنج ، بل مع المعز
الفاطمى أيضاً ، الذى كان يحكم وقتذاك فى شمال أفريقيا(٣) . وما أحرزه
البيزنطيون من الانتصارات فى الشرق ، وما وقع من النزاع بين معز الدولة
صاحب بغداد ، والحمدانيين فى الجزيرة والشام ، شجعهم على المضى فى
الزحف إلى أن تجاوزوا نهر دجلة(٤) .

غير أن هذه الانتصارات لم تلبث أن بددها ما لحق الأسطول البيزنطى
من هزيمة ساحقة حينما حاول استرداد جزيرة كريت من المسلمين .

والمعروف أن بفضل ما كان لكريت من موقع ممتاز ، باعتبارها شديدة
القرب من شبه جزيرة المورة و Cehirgo ، وجزر بحر الأرخبيل ، وما صار
لها من سيطرة على Naxos التى أصبحت تؤدى لها الجزية ، صار قرصانها
يجوسون خلال بحر إيجه ، وأضحى ميناؤها وكراً للقرصان . وبفضلها جرى
التقارب بين طرسوس وطرابلس الشام ، ومصر وصقلية ، وأفريقية ،
ولم يعد للبيزنطيين سلطان فى بحر إيجه أو البحر المتوسط(٥) .

وما أحرزه قنسطنطين السابع فى السنوات الأول من حكمه من الانتصارات
على المسلمين فى الجزيزة وفى أرمينيا ، شجعه على أن يعمل على أن يأخذ

---

(١) Canard : I. p. 795.

(٢) Ostrogorowski : p. 250.
Canard : I. pp. 795 — 796.

(٣) Canard : I. p. 796.

(٤) Rambaud : p. 427.

(٥) Rambaud : p. 428.

بالثأر لما أصابه من الكوارث ، وأن يعيد إلى جزيرة كريت أسقفها
الشرعى ، الذى اتخذ مقره منذ ١٢٥ سنة فى سالونيك(١) .

ففى سنة ٩٤٩ ، أعد قنسطنطين أسطولا ضخما يتألف من ١٣٧ سفينة
كبيرة . وشحن بهذا الأسطول زهرة ما تحتويه ثغور أوربا وآسيا البيزنطية
من قوات . فبلغ عدد البحارة نحو ٩٧٠٧ منهم ٦٢٩ من الروس ، ٦٣٨ من
Talpaches ، و٧٠٠ أسير من مختلف الأجناس ، و٣٠٠٠من المردة بالغرب ،
و ١٥١٢ من ثغر كيبريوت والمردة بالشرق . أما القوات البرية فاشتملت
على ٤٧٤٣ جندى ، منهم خيرة جند الحرس الإمبراطورى ، وجند ثغرى
مقدونيا وتراقيا ، وصقالبة الأبسيق ، وأرمن من ثغرى الناطليق والتراقسيون .
وأنفق فيهم نحو ٣٧٠٦ من الليرات الذهبية . يضاف إلى ذلك مقادير
كبيرة من أدوات البحرية والحصار والقتال(٢) .

وأرسل قوات بحرية أخرى لمراقبة المسلمين فى أسبانيا وأفريقية ، ولمنعهم من
النهوض لمساعدة المسلمين فى كريت . وجعل على رأس هذه القوة الحربية
الضخمة قنسطنطين جونجل Constantin Gongyl ، من أساطين الحكومة
البيزنطية زمن وصاية زوى . وكان وقتذاك قائداً لثغر ساموس . غير أنه
لم يستطع بعد أن نزل فى كريت ، أن يقوم بتحصين معسكره ، أو يتخذ حراسا
له أو يبعث بكشافته . فانقض المسلمون على البيزنطيين ، وأمعنوا فى القتل
والذبح واستولوا على المعسكر . وكاد قنسطنطين يقع فى أيدى المسلمين لولا
أن حال دون ذلك غلمانه . وترتب على هذه الهزيمة الساحقه ، أن تعرضت
سواحل الإمبراطورية لغارات القرصان الكريتيين . وصار لزاما على نقفور
أن يستعيد كريت ، وأن يمضى فى الزحف نحو الشام(٣) .

وفى أثناء هذا العداء المرير الطويل الأمد ، بين الإمبراطورية العربية

---

(١) Rambaud : p. 429.

(٢) Ibid, p. 430.

(٣) Rambaud : p. 341.

والإمبراطورية البيزنطية ، زمن قنسطنطين السابع ، لم تعقد بين الدولتين إلا معاهدة أو معاهدتان للصلح[1] .

ومن خصائص عهد قنسطنطين السابع ، ما جرى من المحافظة على استمرار العلاقات الدبلوماسية مع الدول الخارجية . واتسمت العلاقات بين بيزنطة والمسلمين فى الشرق بروح العطف والمحبة ، ولعل السر فى ذلك يرجع ما استولى على البيزنطيين من الخوف والهلع من قرصان كريت والشام ، ومخاطرة ليو الطرابلسى ورفاقه من السودان . ومع ذلك فإن للمسلمين فى الشرق مكانة خاصة عند البيزنطيين ، لما اشتهروا به من الرقة والمدنية ، ولما أقاموه من حكومة حازمة ، خضع لسلطانها سائر الناس ، لها من صفة السلطان المطلق ما للدولة البيزنطية ، ولذا كان المسلمون فى الشرق لهم من المكانة عند بيزنطة ما جعلتهم فى مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين فى الغرب[2] .

على أن قنسطنطين السابع حرص على أن يثير روح الحرب والقتال فى نفوس رعاياه ؛ وصار دائماً يضرب لهم المثل بما يجرى عند المسلمين ، من أنهم يدأبون على تجهيز أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ، وأنهم يسهمون بأموالهم فى إعداد الفقراء وتجهيزهم بالسلاح . وأخذ يحض الناس ، بأن أشار بأن من لم يحمل منهم السلاح ، فكيف يبادر بالمسير لقتال المسلمين ؟ فينبغى على الرومان (البيزنطيين) أن يزودوا من يقاتل عوضا عنهم بالسلاح وأسباب المعيشة ، ومن يفتقر من المقاتلين إلى السلاح أو الخيل ، أو المؤن ، أو الزرد ، تحتم على الذين لم يشتركوا فى الحرب أن يمدوهم بكل ذلك[3] .

ولذا غلب على الحروب البيزنطية فى القرن العاشر الطابع الدينى . إذ صار من واجب كل مسيحى أن ينهض لقتال « هؤلاء المسلمين ، أعداء سيدنا المسيح » . فأحاط باسترداد المنديل المقدس بالرها من المظاهر الدينية الضخمة

(١) Rambaud : p. 431.

(٢) Ibid, p. 434.

(٣) Rambaud, : p. 436.

ما يضارع أشهر ما أحرزته بيزبطة من الانتصارات . وهذه الروح الدينية أثارت القادة والجند على السواء ، فاعتبرهم المعاصرون « حماة المسيحية وحفاظها » ، إذ أنهم بفضل حماية المسيح ورعاية العذراء كانوا يقاتلون ، وأنهم على استعداد لأن يخوضوا المعارك ، وقد حملوا راياتهم التى تزينها صور القديسين المقاتلين[1] .

ووقع زمن قنسطنطين السابع حوادث خطيرة فى الشرق ، حيث جرى الاستيلاء على ملطية سنة ٩٣٤ ، وعلى الرها سنة ٩٤٤ ، وعلى مرعش سنة ٩٤٩ ، وعلى ديار بكر سنة ٩٥٠ ، وعلى آمد سنة ٩٥٧ ، وعلى سميساط سنة ٩٥٨ . وترتب على كل ذلك أن امتد الحد البيزنطى إلى ما وراء الفرات . وما أصاب باسيل الأول من هزائم جرى استدراكها ، وأضحى الطريق مفتوحا أمام البيزنطيين إلى طرسوس ، وأنطاكية ، وقبرص ، وبيت المقدس[2] .

ويعتبر قنسطنطين السابع هو الذى استهل عصر الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، وعند البيزنطيين والفرنج سواء[3] .

أما العلاقات بين بيزنطة والمسلمين بالأندلس ، فلم تكن تتسم بالعداوة والكراهية . وما تعرضت له الدولة البيزنطية من هجمات المسلمين فى الشرق ومصر ، وما كان من نزاع وتنافس دينى وسياسى بين الأمويين فى الأندلس من جهة ، وبين الفاطميين والعباسيين ، أدى إلى التقارب بين بيزنطة والأندلس[4] .

ولذا جرت السفارات بين قنسطنطين السابع وعبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) . إذ قدمت سفارة أندلسية إلى القسطنطينية ٩٤٦ ، وأرسل

(١) Diehl & Marçais : Le Monde Oriental de 395 á 1081. Histoire du Moyen Age, T. III. p. 461.

(٢) Rambaud : p. 436. Diehl : p. 461.

(٣) Rambaud : p. 436. Vasiliev : pp. 307 — 308.

(٤) Rambard : p. 406.

قنسطنطين من قبله مبعوثا إلى أسبانيا سنة ٩٤٩ . ولعل السر فى تبادل هذه السفارات يرجع إلى أن قنسطنطين فكر وقتذاك فى إعداد حملته الكبيرة ضد جزيرة كريت ، فأراد بهذه السفارة إما أن يحصل على مساعدة الخليفة الأموى ، أو على الأقل يضمن حياده[1] .

على أن البيزنطيين اشتبكوا فى حرب ضد المسلمين الذين احتلوا فراكسنتوم Fraxinet بجبال الألب فى بروڤانس . إذ أن بيزنطة ، زمن رومانوس ليكابينوس ، تحالفت فى سنة ٩٤١ مع ملك إيطاليا هيج البروفانسى Hugues de Provence ، وأمدته بأسطول . وبفضل هذه المساعدة حلت الهزيمة بالمسلمين ، وتخلوا عن فراكسينتوم ، واتخذوا لهم مواضع فى جهات أخرى بجبال الألب. غير أنهم لم يلبثوا أن أثاروا بيزنطة بتعرضهم لتجارتها ، فتوجهت إليهم حملة لتأديبهم . وفى سنة ٩٥٦ ، تم الصلح بين هؤلاء المسلمين والبيزنطيين وجرى تبادل الهدايا ، وفى نفس السنة تم عقد الصلح بين المسلمين فى شمال إفريقية (الفاطميين) وقنسطنطين السابع[2] .

أما العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين ، فإنها اتخذت صورة القتال الذى دار فى صقلية وسردينية وجنوب إيطاليا[3] . فالمعروف أن الفاطميين فى صقلية ، كانوا شبه مستقلين عن الفاطميين فى القيروان . ولم يكن أمير صقلية معيناً من قبل الخليفة ، بل اختاره الجند العربى أو البربر الذين يتألف منهم حامية الجزيرة . وحاول أمير صقلية أن يحصل على تقليد من الخليفة العباسى ، ونجح فى ذلك سنة ٩٦٠ ، بعد أن فشلت محاولتان فى سنتى ٩١٧ ، ٩٤٣[4] .

أضحت صقلية من أشد ممتلكات الدولة الفاطمية تعرضا للخطر البيزنطى .

(١) Rambaud : p. 407. Cemb. Med. Hist. IV. p. 66.
Lévi-P ovencal : I. pp. 376 — 382.

(٢) Rumbaud : p. 408.

(٣) Ibid, p 408.

(٤)]bid, p. 409. Amari : II p. 147.

وهى لاتقل فى ذلك عن ثغر لانجوبرديا Langobardia أو ثغر كالابريا التابعين للدولة البيزنطية ، وتعرضهما للخطر الإسلامى[1] :

ولما تعرضت الدولة البيزنطية سنة ٩١٧ ، زمن وصاية الإمبراطورة زوى ، لخطر سيميون البلغارى ، تم الاتفاق بين بيزنطة والفاطميين الذين استعادوا مركزهم فى صقلية ، وبمقتضى هذا الاتفاق تعهدت بيزنطة بأن تدفع للخليفة الفاطمى جزية سنوية قدرها ١٢ ألف نوميزما[2] .

وما كاد الفاطميون يوطدون حكمهم فى صقلية سنة ٩١٧ ، حتى أخذ المسلمون فى صقلية وأفريقية يغيرون على أملاك بيزنطة ، بعد أن امتنعت عن دفع الإتاوة ، فتعرضت كالابريا فى سنتى ٩١٨ ، ٩٢٤ للهجوم الإسلامى ، الذى تركز على ريو Reggio ، وفى سنة ٩٢٥ ، جرى نهب أوريو Orio . وأدرك حاكم كالابريا آخر الأمر ، أنه من الخير أن يتعهد من جديد بدفع جزية سنوية قدرها ١١ ألف قطعة ذهبية ، حتى يأمن غارات المسلمين[3] . على أن الفاطميين انصرفوا إلى جهات أخرى ، ففى سنة ٩٢٨ هاجم أسطولهم البحرى مدينة تارنت (اذرنت) ، وأعلنت مدينتا نابولى وسالرنو استعدادهما لدفع الجزية للفاطميين[4] .

على أن ما حدث من ظهور الأسطول البيزنطى فى غرب البحر المتوسط ، أثار الفاطميين ، فأرسلوا سنة ٩٣٥ أسطولا ضخما ، ليعيد سيادتهم على البحر التيرانى ، فأغار على سردينية ، وقورسيقه وجنوه ، وأشعل الحرائق فى سفن بيزنطية عديدة[5] . ثم حدث من الفتن الداخلية فى صقلية ، التى شجعها البيزنطيون ، ومن فشل الحملة الفاطمية على مصر

(١) Ibid, p. 409.

(٢) Rambaud : p. 411.

(٣) Lewis : pp. 149 — 150.

(٤)]bid, p. 150.

(٦) Ibid, p. 276.

قسطنطين من قبله مبعوثا إلى أسبانيا سنة ٩٤٩ . ولعل السِّر فى تبادل هذه السفارات يرجع إلى أن قسطنطين فكر وقتذاك فى إعداد حملته الكبيرة ضد جزيرة كريت ، فأراد بهذه السفارة إما أن يحصل على مساعدة الخليفة الأموى ، أو على الأقل يضمن حياده(١) .

على أن البيزنطيين اشتبكوا فى حرب ضد المسلمين الذين احتلوا فراكسنتوم Fraxinet بجبال الألب فى بروفانس . إذ أن بيزنطة ، زمن رومانوس ليكابينوس ، تحالفت فى سنة ٩٤١ مع ملك إيطاليا هيج البروفانسى Hugues de Provence ، وأمدته بأسطول . وبفضل هذه المساعدة حلت الهزيمة بالمسلمين، وتخلوا عن فراكسينتوم ، واتخذوا لهم مواضع فى جهات أخرى بجبال الألب. غير أنهم لم يلبثوا أن أثاروا بيزنطة بتعرضهم لتجارتها ، فتوجهت إليهم حملة لتأديبهم . وفى سنة ٩٥٦ ، تمّ الصلح بين هؤلاء المسلمين والبيزنطيين وجرى تبادل الهدايا ، وفى نفس السنة تمّ عقد الصلح بين المسلمين فى شمال إفريقية (الفاطميين) وقسطنطين السابع(٢) .

أما العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين ، فإنها اتخذت صورة القتال الذى دار فى صقلية وسردينية وجنوب إيطاليا(٣) . فالمعروف أن الفاطميين فى صقلية ، كانوا شبه مستقلين عن الفاطميين فى القيروان . ولم يكن أمير صقلية معيناً من قبل الخليفة ، بل اختاره الجند العربى أو البربر الذين يتألف منهم حامية الجزيرة . وحاول أمير صقلية أن يحصل على تقليد من الخليفة العباسى ، ونجح فى ذلك سنة ٩٦٠ ، بعد أن فشلت محاولتان فى سنتى ٩١٧ ، ٩٤٣(٤) .

أضحت صقلية من أشد ممتلكات الدولة الفاطمية تعرضا للخطر البيزنطى .

(١) Rambaud : p. 407. Cemb. Med. Hist. IV. p. 66.
Lévi-P ovencal : I. pp. 376 — 382.

(٢) Rumbaud : p. 408.

(٣) Ibid, p 408.

(٤) Ibid, p. 409. Amari : II p. 147.

وهى لا تقل فى ذلك عن ثغر لانجوبرديا Langobardia أو ثغر كالابريا التابعين للدولة البيزنطية ، وتعرضهما للخطر الإسلامى(١) :

ولما تعرضت الدولة البيزنطية سنة ٩١٧ ، زمن وصاية الإمبراطورة زوى ، لخطر سيميون البلغارى ، تم الاتفاق بين بيزنطة والفاطميين الذين استعادوا مركزهم فى صقلية ، وبمقتضى هذا الاتفاق تعهدت بيزنطة بأن تدفع للخليفة الفاطمى جزية سنوية قدرها ١٢ ألف نوميزما(٢) .

وما كاد الفاطميون يوطدون حكمهم فى صقلية سنة ٩١٧ ، حتى أخذ المسلمون فى صقلية وأفريقية يغيرون على أملاك بيزنطة ، بعد أن امتنعت عن دفع الإتاوة ، فتعرضت كالابريا فى سنتى ٩١٨ ، ٩٢٤ للهجوم الإسلامى ، الذى تركز على ريو Reggio ، وفى سنة ٩٢٥ ، جرى نهب أوريو Orio . وأدرك حاكم كالابريا آخر الأمر ، أنه من الخير أن يتعهد من جديد بدفع جزية سنوية قدرها ١١ ألف قطعة ذهبية ، حتى يأمن غارات المسلمين(٣) . على أن الفاطميين انصرفوا إلى جهات أخرى ، ففى سنة ٩٢٨ هاجم أسطولهم البحرى مدينة تارنت (اذرنت) ، وأعلنت مدينتا نابولى وسالرنو استعدادهما لدفع الجزية للفاطميين(٤) .

على أن ما حدث من ظهور الأسطول البيزنطى فى غرب البحر المتوسط ، أثار الفاطميين ، فأرسلوا سنة ٩٣٥ أسطولا ضخما ، ليعيد سيادتهم على البحر التيرانى ، فأغار على سردينية ، وقورسيقه وجنوه ، وأشعل الحرائق فى سفن بيزنطية عديدة(٥) . ثم حدث من الفتن الداخلية فى صقلية ، التى شجعها البيزنطيون ، ومن فشل الحملة الفاطمية على مصر

(١) Ibid, p. 409.

(٢) Rambaud : p. 411.

(٣) Lewis : pp. 149 — 150.

(٤) Ibid, p. 150.

(٦) Ibid, p. 276.

سنة ٩٣٦ ، ما صرف الفاطميين عن مهاجمة البيزنطيين[1] . فلم يلتفتوا إليهم إلا سنة ٩٥٠ . إذ تعرضت كالابريا لهجوم عنيف من جهة البر والبحر ، ولم يستطع البيزنطيون أن يصمدوا لقتال الفاطميين ، فهلك فى ساحة القتال أحد بطارقتهم وقائد ثغر كالابريا[2] ، ولم يقف القتال سنة ٩٥١ (٣٤٠هـ) ، إلا بعد أن طلب البيزنطيون الهدنة ، وأعلنوا استعدادهم لدفع الجزية[3] . ولما تبين لأهل نابولى ما حاق بالبيزنطيين من الضعف ، أخذوا فى الانصراف عنهم ، وعملوا على أن يخرجوا على طاعتهم وتبعيتهم ، غير أن البيزنطيين هاجموا المدينة برا وبحرا سنة ٩٥٦ ، وأعادوها إلى سلطانهم . وفى هذه الأثناء ترددت السفارات بين البيزنطيين والأمويين بالأندلس ، الذين يعتبرون من ألد أعـداء الفاطميين . وترتب على ذلك نقض الهدنة بين بيزنطة والفاطميين فى صـقلية ؛ فتكررت الغارات من كلا الجانبين على صقلية وكالابريا[4]. ثم تجددت سنة ٩٦١ الهدنة بين الفريقين ، وظل البيزنطيون ، بمقتضى هذا الصلح ، يدفعون الجزية إلى الفاطميين حتى زمن نقفور فوكاس[5] .

٢ — بلغاريا :

وما جرى من المصاهرة بين البيت المالك فى بلغاريا وبيت ليكابينوس فى بيزنطة ، أدى إلى ازدياد الصلات بين الدولتين . وعلى الرغم من ضعف الدولة البلغارية ، فإن بيزنطة ظلت تدفع لها ما التزمت به من الجزية زمن رومانوس

---

(١) Lewis : p. 137.
(٢) Ibid, p. 276.
(٣) Lewis : p. 151. Rambaud : p. 414. ابن الأثير . الكامل جـ ٨ ، ص ٣٧١
(٤) Lewis : p. 151. Ramba aud : p. 415.
(٥) Rambaud : p. 416. Lewis : p. 151.

ليكابينوس ، وقنسطنطين السابع ، ورومانوس الثانى . ولما رفض نقفور فوكاس أن يدفع الجزية المقررة ، وقعت الحروب بين الدولتين[1] .

٣ — المجريون :

وما حاق بالمجريين من هزيمة فى سكسونيا سنة ٩٣٣ ، جعلهم يلتفتون إلى شبه جزيرة البلقان . ففى ربيع سنة ٩٣٤ ، أغاروا على تراقيا ، واشترك معهم فى الغزو البجناك الذين توغلوا فى زحفهم حتى وصلوا إلى القسطنطينية[2] . ثم دارت المفاوضات بين البيزنطيين والمجريين ، على أن يفتدى البيزنطيون من وقع من أسراهم فى أيدى المجريين[3] ، وأن يدفعوا لهم جزية معينة ، صارت تدفع لهم أول الأمر كل تسع سنوات ، ثم أصبحت تدفع كل خمس سنوات[4] . ولما أغاروا على البلاد من جديد سنة ٩٤٣ ، أرسل إليهم الإمبراطور ليكابينوس ، البطريق تيوفانس للتفاهم معهم مثلما فعل سنة ٩٣٤ . ونجح تيوفانس فى عقد معاهدة لمدة خمس سنوات ، وتقرر أن يقدم كل من الجانبين الرهائن[5] . والراجح أن بيزنطة حاولت وقتذاك أن تجتذب المجريين إلى جانبها ضد البجناك ، غير أنها أخفقت فى ذلك[6] . ولما ظهر المجريون فى تراقيا سنة ٩٥٨ ، وجه لهم قنسطنطين السابع جيوشاً تولى قيادتها زعماء ثغور البقلار والأبسيق والتراقيسيون ، وتألف معظمهم من عناصر صقلبية ، فبغتوا المجريين

---

(١) Rambaud : p. 345.
(٢) Camb. Med. Hist. IV, p. 212.
Rambaud : p. 357.
(٣) Rambaud : p. 357.
(٤) Camb. Med. Hist IV. 212.
Ibid, p. 212.
(٥) Camb. Med, Hist, IV p. 212.
(٦) Ibid, p. 212.

ليلا وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، وأجروا فيهم مذبحة كبيرة ، وحصلوا على غنائم وفيرة ، ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى ، فعاد المجريون إلى بلادهم مهزومين[1] . وظلت العلاقات العدائية مستمرة بين الفريقين زمن نقفور فوكاس[2] .

على أن خطر المجريين لم يلبث أن تداعى ، وأضحوا يمدون البيزنطيين ، بل وأعداء البيزنطيين ، بالجند المأجورة شأنهم فى ذلك شأن الأقوام المجاورة للدولة البيزنطية[3] .

٤ — الروس :

على أن أهم حلقة فى العلاقات بين الروس والبيزنطيين ، زمن قنسطنطين السابع ، إنما تتمثل فى رحلة الأميرة أولجا إلى القسطنطينية حوالى سنة ٩٥٦ أو سنة ٩٥٧ . ولم تتفق المراجع والمصادر على الإشارة إلى الغرض من رحلة أولجا إلى القسطنطينية ، فبعضها يرى أنها إنما قدمت لتتلقى التنصير فى القسطنطينية ، أو لتتزوج الإمبراطور قنسطنطين السابع ، أو لتؤدى له الجزية[4] . على أن أولجا اعتنقت المسيحية حوالى سنة ٩٥٤ ، أى قبل ثلاث سنوات من قدومها إلى القسطنطينية[5] ، كما أن قنسطنطين كان عند قدومها فى حوالى الستين من عمره ، وتزوج من الإمبراطورة هيلينا ، وما حدث من قيام الروس بالهجوم على أملاك الدولة البيزنطية فى سنة ٩٤١ ، وسنة ٩٤٤ ، وما تعرضت له من التخريب على أيديهم ، يمنع قنسطنطين من طلب الجزية[6] . والراجح أن

(١) Rambaud : p. 359.
(٢) Ibid, p. 359.
(٣) Ibid, p. 360.
(٤) Rambaud : p. 380 — 381.
(٥) Camb. Med. Hist. IV p. 207.
(٦) Rambaud : p. 380.

أولجا إنما قدمت لأغراض دبلوماسية[1] . فما قامت به أولجا ، الوصية على دولة روسيا الناشئة ، من زيارة إلى بيزنطة ، وما جرى من استقبالها باحتفال باهر ، يعتبر بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات الروسية البيزنطية ، أفادت ما حدث فيما بعد من نشاط كنيسة بيزنطة فى أعمالها التبشيرية فى روسيا[2] .

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 207.
(٢) Ostrogorowski : p. 251.

الفصل التاسع

نقفور فوكاس وحنا زمسكيس

ولما أدرك قنسطنطين أن منيته اقتربت ، توجه فى خريف سنة ٩٥٩ إلى منحدرات جبل أوليمبوس فى بثينيا يلتمس العلاج فى مياه سوتيريوبوليس Sotiriopolis ، وعند النساك فى الأديرة . غير أن كل ذلك لم يجد نفعاً ، فما كاد يصل إلى القسطنطينية حتى توفى فى نوفمبر سنة ٩٥٩ .

تولى رومانوس الثانى الحكم بعد وفاة أبيه ، ولم يتجاوز وقتذاك العشرين من عمره . وعلى الرغم من أن رومانوس اشتهر بأنه شاب وسيم ، ولم يكن خلواً من مواهب فكرية ، وقد تلقى قدراً كبيراً من التعليم ، فإنه لم يترك من بعده إلا شهرة سيئة . أحاط به عند توليه الحكم أمه هيلينا ، وزوجه تيوفانو ، وإخواته الخمس ، وابنه باسيل الثانى[١] . والمعروف أنه حدث فى سنة ٩٤٥ أن تم تتويجه ، وصار له نصيب فى إدارة الدولة وفقاً للتقاليد الإمبراطورية ، ثم أصبح فى يده كل السلطان . فنقله إلى زوجه تيوفانو . ولم تكن تيوفانو إلا ابنة صاحب إحدى الحانات ، ولم تصل إلى العرش إلا بما اشتهرت به من الجمال والشرور . وما اشتهر به زوجها من المجون وصحبة الفساق ، جعلها تقوم بإدارة الحكومة بمساعدة الطواشى يوسف برنجاس Bringas ، الذى أوصى به قنسطنطين ، عند وفاته ، ابنه خيراً[٢] .

لم يجعل لهذا العصر أهمية سوى ما أحرزه نقفور فوكاس وأخوه من انتصارات . فى دوائر القصر ازدادت الأمور سوءاً . إذ أن تيوفانو أصدرت الأوامر ، بموافقة الإمبراطور ، بطرد هيلينا وبناتها من القصر . وعلى الرغم

(١) Camb. Med. Hist. IV, p. 67.

(٢) Camb. Med. Hist. IV, p. 68.

من أن هيلينا تلقت الإذن بالبقاء فى القصر ، فإنها لم تلبث أن ماتت سنة ٩٦١ ، بينما نزل بناتها الخمس فى أديرة متفرقة . ولعل ما تعرضت له أسرة قنسطنطين من الذل ، أدى إلى تدبير مؤامرة لاغتيال رومانوس ، غير أن هذه المؤامرة لم تنجح . ومع ذلك فإن رومانوس لم يعش طويلا ، إذ مات مجنوناً . وخلّف من الأبناء والبنات ، باسيل الثانى ، وقنسطنطين (الثامن) ، وتيوفانو ، التى صارت زوجة لأوتو الثانى إمبراطور ألمانيا ، وآن ، التى تزوجت من ڤلاديمير قيصر روسيا[١] .

لم يرد فى التواريخ إشارة إلى حوادث هامة فى الأمور الداخلية بين سنتى ٩٥٩ ، ٩٦٣ . إذ أن حكومة رومانوس وجهت كل اهتمامها إلى ما يجرى من الحوادث وراء الحدود . وفى هذه الناحية اشتهرت حكومته بالحذق والقدرة . فما كاد قنسطنطين السابع يقضى نحبه ، حتى بادرت تيوفانو وبرنجاس إلى المضى فى توطيد العلاقات مع أمراء الشرق والغرب . فأرسلا المبعوثين إلى سائر القصور الملكية . وفى أبريل سنة ٩٦٠ تم تتويج باسيل الثانى . غير أن ما هو أكثر دلالة على حصافتهما السياسية ما أعداه من حملة بقيادة نقفور لمهاجمة المسلمين[٢] .

الحروب ضد المسلمين — الاستيلاء على كريت :

سبق الإشارة إلى ما أصاب الحملة التى توجهت سنة ٩٤٩ لمهاجمة كريت من هزيمة ساحقة ، وما ترتب عليها من سيطرة المسلمين على طرق الملاحة والتجارة فى بحر الأرخبيل[٣] . ولما صارت السلطة إلى برنجاس ، حرص على

(١) Camb. Med. Hist. IV, P. 68.

(٢) Ibid, p. 68.

(٣) Schlumberger : Un Empereur Byzantin au dixiéme Siecle, Nicephore Phocas. p. 39

أن يبذل مجهوداً كبيراً للاستيلاء على كريت ، فعين على الحملة التى أعدها لتحقيق هذا الغرض نقفور فوكاس .

والمعروف أن نقفور يعتبر من كبار القادة البيزنطيين ، اشتهر فى زمن الإمبراطور السابق (قنسطنطين السابع) بما قام به على الجبهة الشرقية فى آسيا الصغرى من حروب طويلة الأمد ، أحرز فيها انتصارات باهرة . فعينه قنسطنطين قائداً عاماً على القوات البيزنطية بآسيا[1] . ولما جرى تنصيبه لقيادة الحملة ضد كريت ، لقى هذا التعيين القبول والترحيب فى دوائر القصر الإمبراطورى وعند أهل القسطنطينية[2] ، لما اشتهر به عندهم من الدفاع عن الإمبراطورية فى الشرق ، فضلا عن تعلق الجند به لما اتصف به من العدل والحرص على أن يهوّن عليهم ما يتعرضون له من الأخطار والمشاق[3] . وهو (نقفور) ينحدر من أسرة عريقة فى قبادوقيا ، وهى أسرة فوكاس ، التى اشتهر أفرادها بالجندية وممارسة القتال ضد الفرس والعرب . فى زمن باسيل الأول ، أحرز جده المعروف باسم نقفور فوكاس أيضاً شهرة كبيرة ، بفضل ما قام به من أعمال حربية جليلة فى إيطاليا وصقلية . ومنذئذ صار كل أفراد الأسرة جنوداً مظفرين . اشتهر والد نقفور وعمه بالبسالة والبطولة ، فأسهم عمه ليو فى الحرب ضد البلغار[4] . وبلغ أبوه بارداس فوكاس أرقى الوظائف العسكرية ، ويعتبر من أشد أعداء العرب ، أسهم لمدة طويلة فيما جرى من القتال ضدهم فى آسيا الصغرى[5] .

ولما رأى قنسطنطين السابع أنه لم يعد فى وسع بارداس ، لكبر سنه ، أن يواصل القتال ضد المسلمين فى آسيا الصغرى ، أعفاه من منصبه ، وعين مكانه ابنه نقفور قائداً عاماً (دمستقا) على كل القوات المرابطة فى الثغور الأسيوية .

(١) Schlumberger : Op Cit. p. 40.
(٢) Bury : p. 40.
(٣) Ibid ,p. 40.
(٤) Camb. Med. Hist. IV p. 69.
(٥) Schlumberger : p. 41.

ووقع أخوه قنسطنطين قائد ثغور سيلوقية فى أسر الحمدانيين فى سنة ٩٤٩ ، بعد أن لحق بالبيزنطيين الهزيمة فى مرعش . أما أخوه الآخر ، ليو فوكاس ، فإنه تولى قيادة القوات البيزنطية فى آسيا أثناء تغيب نقفور فى كريت[1] . اجتمع فى نقفور صفة الجندى وصفة الراهب . اشتد تعلقه بالجيش وبالجند ، وازداد تمسكه بالصلاة والتصوف . والمعروف أنه صلب لا تلين قناته ، وشديد فى الحق والعدالة ، وشديد التقوى . وعلى الرغم من عيوبه ، فإن ما اشتهر به من الصفات والخلال الطيبة أكسبته محبة الناس وعميق احترامهم له لاسيما بين العساكر . وأكثر من هذا ازدادت هيبته ، وخشاه أناس كثيرون ، لاسيما برنجاس ، لما أحرزه من شهرة حربية ، ولما اقترن به اسمه من النصر فى حملة كريت[2] .

وتعتبر هذه الحملة الموجهة ضد كريت من أشهر أحداث التاريخ البيزنطى فى الشطر الثانى من القرن العاشر . إذ أن الدولة البيزنطية لم تشهد منذ قرون عديدة مثلما شهدته وقتئذ ، (ومرة أخرى فى زمن باسيل الأول) ، من حشد جيش ضخم وأسطول كبير[3] . احتشدت القوات فى بيزنطة ذاتها . وتألفت هذه القوات من عساكر الثغور الأوربية ، من تراقيا ومقدونيا ، الذين اشتهروا بأنهم من خيرة جيوش الإمبراطور ، ومن عساكر الثغور الأسيوية ، سكان قبادوقيا وليكونيا وبونطس ، ومن سلالة الفلاحين القوط فى الأبسيق وغلطة[4] .

وكثر عدد الأرمن فى جيش نقفور . أما البحارة فجاءوا من الثغور البحرية الأسيوية : تراقسيون ، وساموس ، وكبريوتس ، التى اشتملت على سائر المدن التجارية القديمة . وأضاف برنجاس إلى هذه القوات ، عددا كبيراً من الجند

(١) Schlumberger : p. 41.
(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 70.
(٣) Schlumberger : p. 44.
(٤) Ibid, p. 46.

المرتزقة من الروس(١) . ونصت المعاهدات التى جرى عقدها مع قياصرة الروس أو أمرائهم على أن يمدوا الجيش البيزنطى بأعداد من الروس ، وجرت العادة بأنه يتم تنصيرهم عند قدومهم(٢) . وعلى الرغم من كثرة هذه الفئات التى يتألف منها الجيش ، فإن نقفور أضاف إليها فئة أخرى ، تتمثل فى أولئك الذين وقعوا فى الأسر ، والذين كانوا ينتمون إلى أقوام متبربرة عديدة . ومن هؤلاء الأسرى ، المغامرون المسترقون ، الذين لم يكونوا سوى جند فلاحين استقروا فى أزمنة مختلفة فى جهات مختلفة بالإمبراطورية ، لاسيما على شواطئ أنهار مقدونيا وبثينيا(٣) . واكتمل هذا الجيش بمن انضم إليهم من Talpatches, (Talmatzes) Toulmatzes ، ومنهم أربعة آلاف من المردة ، وعدد من المرتزقة من البنادقة والأمالفيين(٤) .

أما الأسطول الذى جرى إعداده لحمل هذه القوات ، فكان يخضع مباشرة للحاجب ميخائيل ، بينما يتولى نقفور ، القائد الأعلى للحملة ، الإشراف على نزول الجند(٥) . تألف هذا الأسطول الضخم من ٢٠٠٠ سفينة حربية ، و١٣٦٠ سفينة للمؤن والإمداد . ومن السفن الحربية ما بلغ من الضخامة أن كان عدد المجدفين بالسفينة يبلغ ١٥٠ ، وأن كان بالسفينة الواحدة أربع طبقات المجاديف . ومن السفن ما جرى تشييده بحيث يسهل نزول الجند والفرسان منها إلى البر مباشرة . واتخذت البحرية من التدابير ما يكفل حماية الحملة ، فأرسلت إلى الشرق بعض القطع الحربية لتمنع كل مساعدة تأتى إلى كريت من بلاد الشام ، وتحول دون نهوض الأساطيل الإسلامية فى شرق البحر المتوسط لمساعدتها(٦) .

---

(١) Schlumberger, Op. Cit. p. 46.

(٢) Ibid, p. 47. Rambaud, p. 390.

(٣) Ibid, p. 50.

(٤) Ibid, p. 51.

(٥) Schlumberger, p. 51.

(٦) Lewis, pp. 185 — 186. Schlumberger, p. 52.

ومن كبار قادة الحملة ، زعيما الثغرين البحريين المعروفين : كيبريوتس وساموس ، وطرماخ شواطئ البيلوبونيز ، أى متولى الإشراف على سواحل شبه جزيرة الموره(١) . وتولى قادة الثغور البرية فى آسيا وأوروبا ، أمر الجند الذين اشتركوا فى الحملة ، من ثغور تراقيا ، ومقدونيا ، والأرمنياق ، والأبسيق(٢) .

أقلع أسطول نقفور من مراسيه فى الأيام الأخيرة من شهر يونيه أو الأيام الأولى من شهر يوليه سنة ٩٥٦ ، ثم تفرق الأسطول على سائر الأماكن على ساحل كريت ، فأضحى يحاصر المنافذ المؤدية إلى الخندق . ويمنع كل محاولة لمساعدة المسلمين بها ، تجىء من سواحل الشام وقليقية ومصر وأفريقية ، ومن الأندلس . وفى أثناء استعداد الجيش للزحف ، تولى باستيلاس Pastilas قائد ثغر تراقيسيون ، وهو من أقدر رجال الحملة وأشجعهم ، ومن أبطال الحروب بآسيا ، قيادة قوة للاستطلاع والاستكشاف فى داخل الجزيرة(٣) . غير أن المسلمين بغتوا هذه القوة وأبادوها عن آخرها ، ولقى باستيلاس مصرعه(٤) .

ساء نقفور ما حل بجيشه من هزيمة ، فقرر التوجه لحصار الخندق عاصمة جزيرة كريت ، وهذه المدينة اشتهرت بمناعتها وتعتبر مفتاح الجزيرة . تقدم الجيش البيزنطى فى إقليم اشتهر بالخصوبة ووفرة المحصولات وأشجار الفاكهة ، فانحاز إليه سكان الجزيرة من المسيحيين. فأشعلوا الحرائق بالقرى والمحصولات ، وقطعوا أشجار النخيل والفاكهة ، وبلغ الجيش آخر الأمر الخندق(٥) . واحتل الحصن (الخندق) موقعاً خطيراً ؛ فإلى جانب ما حدث من تحصينه من جهة البحر ، ارتكز من جهة أخرى إلى صخرة ضخمة ، ارتفع عليها أسوار

---

(١) Schlumberger, p. 66.

(٢) Schlumberger, p. 66.

(٣) Ibid, p. 67.

(٤) Ibid, p. 68.

(٥) Schlumberger, p. 78.

متينة . والواقع أن المدينة بلغت من المناعة ، ما جعل مهاجمتها أمراً يكاد يكون مستحيلا[1] .

قرر نقفور إلغاء الحصار على المدينة . وقطع الأسطول طريق الاتصال بالبحر . وأقام البيزنطيون معسكرهم على مسافة غير بعيدة من المدينة ؛ وأحاطوه بأسوار ضخمة . وخرجت السرايا من الجيش البيزنطى ، وأخذت تتوغل فى داخل الجزيرة ، تثير الفزع والرعب فى نفوس السكان ، وتنهب القرى لتوفير المؤن للجيش ، واحتلت القوات البحرية جميع الموانى كما يصبح الجيش بمأمن من المفاجأة[2] .

واشتد الجوع بالمسلمين المحاصرين ، فأرسل أميرهم عبد العزيز بن عمر ابن شعيب يلتمس المساعدة من الخلفاء الفاطميين بأفريقية ؛ والأمراء الأمويين بالأندلس[3] . فأرسل عبد الرحمن الثالث من قبله مبعوثين إلى الخندق[4] .

ومن الملحوظ أن السفارات لم تنقطع بين القسطنطينية وبلاط قرطبة فى القرن العاشر الميلادى ، ولم يتوقف النشاط البحرى بين سائر المسلمين فى حوض البحر المتوسط ، على الرغم من الصلات المتينة التى تربط بين مسلمى أسبانيا ومسلمى كريت[5] . غير أن ما حل بالمسلمين المحاصرين بالخندق من الشقاء والضيق ، واشتداد ضغط البيزنطيين ، وتضييقهم الخناق على المدينة ، جعل تقديم المساعدة أمراً غير يسير[6] .

استمر الحصار حتى سنة ٩٦١ ، تخلله اشتباكات عديدة بين الفريقين ، وحرص نقفور على منع وصول الأمداد من إفريقية أو آسيا[7] . وتغلب نقفور

(١) Ibid, p. 79.
(٢) Ibid, p. 80.
(٣) Ibid, p.80.
(٤) Ibid, p, 81.
(٥) Sehlumberger, p. 82.
(٦) Ibid, p. 82.
(٧) Ibid, P. F3.

على كل ما صادفه من العقبات . وما توافر لديه من الكشافة والجواسيس ، أفاد منهم كثيراً ، بفضل قوة نظامهم واستطاع عساكر ثغر تراقيسيون أن يردوا أمير طرسوس على أعقابه[1] . وحدث بعدئذ أن توجه إلى مهاجمة المعسكر البيزنطى نحو أربعين ألف من الجند المسلمين ، كان الفاطميون بشمال أفريقية ، قد أرسلوا جانبا منهم ، بينما كان الجانب الأكبر من داخل الجزيرة (كريت)[2] ونهض نقفور للالتقاء بالجيش الإسلامى الزاحف لنصرة حامية الخندق ، فجرت معركة عنيفة انتصر فيها البيزنطيون ، واستشهد فيها عدد كبير من العساكر الإسلامية . واشترك فى هذه الحملة من قبل البيزنطيين ، عساكر من الأرمن ، من ثغر الأرمنياق ، ومن الثغور النائية الصغيرة أمثال خالدية ، والجزيرة ، وسيواس ، وكلونيا ، وخربزيق Charpezic ، وليكاندوس ، فضلا عن الجند المرتزقة التى بعث بها الأمراء الأرمن الموالون للإمبراطور البيزنطى والمحالفون له[3] . ولما عاد القائد العام (الدمستق) إلى معسكره أمام «الخندق» قدر لهذا الانتصار أهميته . وبلغ من همجية البيزنطيين ووحشيتهم أن صاروا يقذفون إلى داخل المدينة ، بأشلاء الجند المسلمين الذين لقوا مصرعهم[4] . واستطاع نقفور وجنده ، بفضل ما ألقوه من القذائف على أسوار الخندق ، أن يحدثوا ثغرة كبيرة فيها[5] . بينما تقدم النقابون إلى الأسوار وصاروا يحفرون فى أسفلها[6] ، ثم أشعلوا فى هذه الحفائر النيران ، فهوت الأبراج إلى الخندق[7] . وتدفق العساكر البيزنطيون إلى داخل المدينة ، فأجروا مذبحة

(١) Ibid, p. 83.
(٢) Ibid, p. 83.
(٣) Schlumberger, p. 83.
(٤) Ibid, p. 85.
(٥) Ibid, p. 29.
(٦) Ibid, p. 92.
(٧) Ibid, p. 203.

مريعة ، هلك فيها عدد كبير من المسلمين ، ووقع فى أيديهم كثير من السبى الأسرى(١) .

على أن ما تعرضت له الخندق من النهب والسلب تجاوز كل الحدود ، فاستولى الجند البيزنطيون على كل ما ادخره المسلمون فى الجزيرة من الغنائم والثروات . وازداد تعلق الجند بقائدهم ، فلقبوه «بالظافر» ، الذى صار منذئذ من ألقابه . وأول ما قام به نقفور من أعمال ، أنه أرسل إلى البلاط البيزنطى ينهى إليه بخبر انتصار حملته(٢) . وبعد أن نال العساكر حظهم من الراحة ، أمرهم بتدمير أسوار «الخندق» فأرغموا أهل المدينة على القيام بهذا العمل . وشيد نقفور على مرتفع يجاور موضع الخندق ، امتاز بحسن موقعه وبتوافر المياه ، قلعة لتحل مكان المدينة التى دمرها(٣) ، اتخذت هذه القلعة اسم Téménos ، ورابط بها حامية مؤلفة من عساكر من الأرمن واليونانيين ، وأنشأ لها ميناء تأوى إليه السفن(٤) .

وترتب على سقوط الخندق ، أن استطاع نقفور أن يخضع سائر جزيرة كريت ، فقدمت الوفود تطلب منه الأمان . فأخذ نقفور يعيد تنظيم الإدارة البيزنطية بها . فتقرر تعيين قائد (استراتيجوس) على هذا الإقليم بعد أن تم الاستيلاء عليه ، وصار تحت تصرف هذا القائد قوة كبيرة من الجند ، وذلك لأن ما اشتهرت به كريت من أنها مخفر من المخافر الأمامية فى الإمبراطورية ، ظلت معرضة لغارات الأساطيل الإسلامية من إفريقية وآسيا(٥) .

---

(١) Schlumberger, p. 93.

يشير النويرى إلى أن البيزنطيين قتلوا من المسلمين نحو مائتى ألف من كريت وأسروا منهم مثل هذا العدد ، فضلا عن أعداد لا تحصى من الأطفال والنساء .

(Schlumberger, p. 93)

(٢) Schlumberger, p. 94.

(٣) Ibid, p. 95.

(٤) Ibid, p. 59.

(٥) Schlumberger, p. 96.

وأدى سقوط كريت فى يد البيزنطيين إلى نتائج بالغة الأهمية ، إذ تم نهائيا الاستيلاء على كريت ، وساد بحر الأرخبيل الأمن والهدوء ، بعد أن تعرض زمنا طويلا لغارات المسلمين ، وما نشب فى العالم الإسلامى وقتذاك من الاضطراب والقلق صرف المسلمين عن استعادة كريت(١) .

واستقبلت القسطنطينية بالحماس الكبير ما ورد إليها من أنباء الاستيلاء على كريت ، بعد أن حاصرها البيزنطيون ما يقرب من ثمانى شهور عانوا فيها كثيراً من الشدة والقسوة ، بسبب البرد وشدة مقاومة المسلمين(٢) . فلم يحرز البيزنطيون منذ سنوات عديدة من النصر مثلما أحرزوه وقتذاك . أضحى اسم نقفور مقترنا بالاستيلاء على كريت ، فذاع صيته فى كل أرجاء الإمبراطورية البيزنطية . فأرسل الإمبراطور يدعوه إلى القدوم إلى العاصمة ليشترك فيما جرى بها من الاحتفاظ بهذا الانتصار(٣) . على أن الطواشى برنجاس خشى أن ما أصابه نقفور من انتصارات ، وما غمره به الجند من المحبة والولاء ، قد يؤدى إلى أن يفكر فى اغتصاب الملك(٤) ، فلم يحظ هؤلاء القادة المظفرون ، الذين تعلق بهم الجند ، بالتقدير اللازم فى دوائر البلاط الإمبراطورى . ولعل هذا هو السر فى أن نقفور لم ينل من التشاريف ما هو جدير بما أحرزه من انتصارات(٥) . فسار فى الموكب بالملعب مترجلا ، لا فى عربة يجرها أربعة من الجياد البيضاء المطهمة ، مثلما حدث عقب انتصاره سنة ٩٦٣(٦) .

---

(١) Ibid p. 96.

(٢) ظلت جزيرة كريت فى أيدى البيزنطيين بعدئذ نحو قرنين ونصف قرن ، ثم صارت من أملاك بونيفاس مونتفرات بعد استيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، ولما أصبح قائد الحملة الصليبية الرابعة مالكا على سالونيك ، تنازل عن كريت إلى البندقية ، فبقيت فى أيديها إلى أن استولى عليها العثمانيون . (Schlumberger p. 95)

(٣) Schlumberger p. 99.

(٤) Ibid, p. 99.

(٥) Ibid, p. 99.

(٦) Ibid, p. 99.

الجيش البيزنطى :

ومن الخير أن نعرض هنا لما كان عليه وقتذاك الجيش البيزنطى ، الذى بفضل ما أدى للدولة فى نحو أربعين سنة من خدمات جليلة ، وما قام به فى نحو نصف قرن آخر من الفتوح الجديدة ، صار يعتبر من أهم الأدوات والوسائل[١] . يشير أحد أباطرة القرن العاشر إلى أن « الجيش للدولة كالرأس للجسم فما لم يجد اهتماماً بالغاً ، تعرضت الإمبراطورية للخطر » . ولذا لقى الجند اهتماماً بالغاً من سائر الأباطرة والأمراء البيزنطيين . وما بقيت الدولة البيزنطية إلا طالما كان جيشها قوياً متماسكاً ، وفير العدد ، متفانياً فى تأدية واجبه ، وفى الولاء لسيده ، برغم ما صادفه من العقبات[٢] .

وهذا الجيش ، تألف جانب منه ، من سكان الإمبراطورية ، ويعتبر هذا العنصر الوطنى جند الدولة وعدتها . وكل من يعمل فى سلاح الفرسان ينال من الإمبراطور ، مقابل ما يؤديه من خدمة حربية ، أراضى صالحة للزراعة ، إقطاعاً لا يجوز انتقاله إلى شخص آخر ، إنما يخضع لقانون الوراثة ، وكفل القانون لصاحب الإقطاع الحماية من الاغتصاب[٣] . على أنه إلى جانب هذا العنصر ، استخدمت الحكومة الإمبراطورية الجند المرتزقة ، وبفضل ما اشتهر به الإمبراطور من البذل والسخاء ، هرع إلى القسطنطينية جموع كثيرة من الأجانب ، فصار فى الجيش البيزنطى فى القرنين العاشر والحادى عشر ، جنود من الخزر والبجناك والفرنج[٤] والروس والأيبريين (الكرج) ، والصقالبة ،

---

(١) Diehl : Op. Cit. p. 463.

(٢) Diehl : p. 463.

(٣) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣٧ Ibid p. 468.

(٤) اشتهر الفرنج القادمون من الشمال إلى بيزنطة بأسماء مختلفة : كالروس ، والفرغان Phargans ، والورنك Varangians ، والورك Varegues ، وهم الـ Vaerings المعروفون فى أزهى الأزمنة السكندناوية . وتفرق المصادر بين الروس أو Tauroscythes وبين الفرغان Phargans أو الورنك Varangians . والراجح أن لفظة الروس تطلق على الورك Varegues الذين ولدوا بروسيا ، على حين أن لفظة الفرغان يقصد بها Varegues الذين قدموا مباشرة من اسكنديناوه .

انظر : Rambaud p. 388.

والعرب والترك ، ومن الشماليين السكنديناويين ، والنرمان بإيطاليا ، وأجاز الإمبراطور لهؤلاء الأجانب أن يلتحقوا بما صلح لهم من الفرق ، بما فيها فرقة الحرس . فتألفت كتيبة بأسرها من كتائب الحرس ، المعروفة باسم Heteria من الروس والسكنديناويين والخزر . والمعروف أن الحرس من الورنك ، الذى تألف فى أواخر القرن العاشر من الروس ، صار يستمد جنده باستمرار من السكنديناويين الروس ، ومن النرمان الشماليين النرويجيين والإيسلنديين ، ومن الإنجليز السكسون[١] . وازداد عدد الأرمن فى الجيش البيزنطى فى القرن العاشر ، وصارت لهم مكانة مرموقة ، وارتفع شأن عدد كبير من هؤلاء الأجانب ، فتولوا كثيراً من المناصب العسكرية العالية[٢] .

والقوات التى يتألف منها الجيش البيزنطى تنقسم قسمين : القوة المرابطة فى العاصمة وضواحيها ، وتعرف باسم Tagmata ، وجيوش الثغور المرابطة فى الأقاليم . والقسم الأول يشمل كتائب الحرس وكلها من الفرسان ، وهى أربع كتائب (فرق) ، اشتهرت بالإسكلارية Scholae ، Excubitors ، Arithmos ، Hicanati ، يضاف إليها فرقة من المشاة Numerii ، وكل فرقة من هذه الفرق ، تتألف من ٤ آلاف رجل ، يتولى قيادتها قائد اتخذ لقب دمستق domesticus . وفى القرن العاشر يعتبر دمستق الإسكلارية القائد العام للجيش البيزنطى[٣] . أما جيوش الأقاليم ، التى يتراوح عدد الواحد منها بين ٤ آلاف ، و ١٠ آلاف جندى ، فيتولى رئاسة الواحد منها قائد معروف باسم ستراتيجوس . وتتألف عادة من الفرسان . وللفرسان أهمية خاصة فى بيزنطة ، والفرسان على فئتين : فمنهم الخيالة الدارعة ومنهم المتخففون[٤] .

وإلى جانب هذه الجيوش التى تؤلف فى الواقع القوة الضاربة ، يوجد جيش

---

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣٧ . Diehl p. 464.

(٢) Ibid p. 464.

(٣) Diehl p. 464.

(٤) أسد رستم : ج ٢ ص ٣٨ . Diehl p. 464.

الأطراف ، الذى تألف على مثال جيش الأطراف Limitanei المعروف فى القرنين الخامس والسادس ، واتخذ مراكزه على امتداد أطراف التخوم الحربية ، ويحصل أفراده مقابل خدماتهم الحربية ، على أراضى جرى اتخاذها أصلا من الضياع الإمبراطورية ، فاستقر بها الجند بأسراتهم (١) .

وهذا الجيش يقوم بحماية الأطراف ، والمحافظة على سائر ما أقامته الدولة من استحكامات ، من القلاع والأبراج ، على امتداد الحدود . ومن واجبه أن يتخذ مراكزه فى النقط الاستراتيجية ، فيسد الدروب ويرقب الطرق ، ويحرص على أن يقف على ما يتجهز به العدو ، فيرد الهجوم بهجوم مماثل (٢) .

على أنه ينبغى ألا نبالغ فى تقدير أهمية هذا الجيش من الناحية العددية . ففى القرن العاشر ، لم يزد عدد الجيش البيزنطى بآسيا الصغرى ، والذى يواجه المسلمين ، على ٧٠ ألف مقاتل ، وكما أن كل القوات البيزنطية ، ما كان منها بآسيا ، وما كان منها بأوربا ، وما يتألف منها الحرس ، لم تتجاوز ١٤٠ ألف مقاتل . على أن ما اشتهر به الجيش البيزنطى من الدراية فى فنون الحرب ، التى لقيت من الأباطرة أمثال ليو السادس ونقفور فوكاس من الاهتمام ما جعلهم يضعون فيها المؤلفات ، وما كان من مهارته فى استخدام أدوات الحرب والمنجنيقات ، فضلا عن الحصون والاستحكامات التى أقامها المهندسون البيزنطيون ، كل ذلك جعل من الجيش المعروف بصلابته وقوة بأسه وحماسه ، قوة لا تقهر (٣) .

وتدل رسالة عن فن الحرب ، جرى تأليفها فى القرن العاشر ، زمن نقفور فوكاس ، على ما اشتهر به هذا الجيش من جودة التدريب ، وكيف

---

(١) Diehl p. 464.

(٢) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٣٨ . Diehl p. 465.

(٣) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٣٨ . Diehl p. 465.

استطاع أن يدافع عن الإمبراطورية لا سيما فى أطرافها بآسيا الصغرى . وأوردت هذه الرسالة وصفا شيقا لما جرى من الزحف البيزنطى إلى جبال طوروس ، وإلى تخوم قبادوقيا . وما حدث من الحروب إنما اتسمت بالعنف والمهارة ، لما كان عليه أعداؤهم من المسلمين من الإقدام والخبرة . وهذه الحروب لم تكن إلا حربا مباغتة وكمينا واستطلاعا ، والتحامات يقوم بها الفرسان المتخففون . وجرى تزويد أبراج المراقبة والملاحظة بإشارات ضوئية ، فإذا أخطرت بحركة العدو ، نهض الفرسان لاستكشاف مواقع العدو ، لم يحملوا من الزاد والمؤن إلا ما يكفى يوم واحد ، وأخفوا أسلحتهم ، ومن وراء هذا الستار تجرى التعبئة ، فيحتل المشاة الدروب ، ويلجأ سكان القرى إلى القلاع والأبراج ، بينما يحتشد فى مواضع معينة (١) .

وبلغ من شدة الاهتمام بالجيش ، أنه لم يكن للصدفة أو الارتجال أى أثر فيما صدر من إرشادات وتعليمات ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالتعاليم ، أو التموين وحشد الجيوش وسيرها ، أو مما يرتبط بخطة الهجوم ليلا ، من حيث الكمائن والتجسس (٢) .

واجتمع للجيش بهذا التكوين صفتا التماسك والبسالة . ولما اشتهر به من التمرس فى مهنة القتال ، والصمود لكافة التجارب والمحن ، وتحمل المشاق ، والصبر على الجوع ، ومعاناة التدريب المستمر العنيف ، ولما درج عليه من التجديد المستمر فى وسائل القتال من أثر فى متانته وقوته ، أضحى الجيش من الأهمية والقوة ما أدى للدولة خدمات فائقة . يضاف إلى ما قام به الأباطرة فى القرن العاشر من توجيه عناية خاصة بجندهم . إذ غمروهم بالمنح والامتيازات ، وأحاطوهم بالرعاية والاعتبار ، حتى يظلوا على حماسهم ورضاهم ، وكيما يكونوا دائما مستعدين للتضحية بحياتهم فى سبيل الأباطرة القديسين ، وفى سبيل الجماعة المسيحية ، وأن يبذلوا كل

---

(١) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٣٩ . Diehl p. 465.

(٢) Ibid p. 466.

ما فى وسعهم لخدمتهم[١] وبفضل ما بثوه فيهم من هذه العاطفة المزدوجة ، من أنهم من سلالة الجند الرومان القدامى المشهورين بالقوة والإقدام ، وبأنهم من ناحية أخرى يحاربون للدفاع عن المسيحية ، أثاروا فى الجند روح الوطنية البيزنطية ، التى كفلت لهم الانتصار فى ميادين القتال[٢] .

أما عيوب هذا الجيش ، فمنها أن ما جرى من اتخاذ الجند من الأقاليم ، جعل العساكر لا يعتمدون إلا على قادتهم المباشرين ، الذين ينحدرون عادة من كبار النبلاء الإقطاعيين بالإقليم ، فأظهروا من الولاء والخضوع لهم طواعية ما لم يحظ به الإمبراطور الذى يقيم بعيداً عنهم ، وترتب على ذلك ما حدث من حركات التمرد السياسية التى أثارتها أطماع هؤلاء القادة[٣] : ولم يكن الجند المرتزقة بأقل خطورة من الجند النظاميين ، لما اشتهروا به من المخاطرة والمغامرة ، وعدم ارتباطهم بوطن خاص ، وحرصهم على الكسب والغنيمة ، وعدم اكتراثهم بالنظام ، وسهولة استمالتهم للتمرد والثورة[٤] . يضاف إلى ذلك أن قادتهم كانوا دائما مستعدين لأن يبيعوا خدمتهم لمن يدفع أغلا ثمن ، أو أن يعملوا لصالحهم الخاص ، وعانت الإمبراطورية كثيراً بسبب ما اشتهر به هؤلاء الجند من الطمع والتمرد[٥] .

على أن من حسن طالع الإمبراطورية البيزنطية ، أن تولى أمر قيادة جيوشها طائفة من القادة الأعلام ، ومن هؤلاء القادة ، فى القرن العاشر ، حنا كوركواس ، وأفراد من بيت فوكاس ، وأفراد من بيت سكليروس ، وحنا زمسكيس ، وباسيل الثانى . وبفضل هؤلاء صارت الجيوش البيزنطية تحس بالعاطفة الوطنية ، إلى جانب ما اشتهرت به من الولاء للكنيسة والإمبراطور[٦] .

(١) Diehl p. 466.
(٢) Ibid. p. 466.
(٣) Ibid p. 466.
(٤) Ibid p. 467.
(٥) Diehl p. 467.
(٦) Ibid p. 467.

الحرب ضد المسلمين فى الشرق :

سبق الإشارة إلى ما جرى من القتال الذى أنشبه فى آسيا ليو فوكاس ضد الحمدانيين سنة ٩٥٩ ، وإلى أنه أوغل فى تقدمه إلى الشام ، وإلى أن ما أحرزه من الانتصارات ذاع خبرها فى سائر العالم الإسلامى وظل ليو يعيث فسادا فى أراضى الشام حتى سنة ١٩٦٠ . على أن سيف الدولة لم يحفل بكل ذلك ؛ فما أحرزه قائده نجا من الانتصار فى آسيا الصغرى ، ولحرصه على جعل عدوه يرتد عن الشام ، كل ذلك دعاه إلى أن يعبر بجيش كبير الحدود البيزنطية[١] . وهيأت الحملة البيزنطية على كريت له الفرصة للمضى فى طريقه ، إذ اشترك فيها خيرة قوات الإمبراطورية ، ولم يكن بالثغور البيزنطية فى آسيا من العساكر إلا من كان فى جيش ليو بالشام . ولعل من أسباب خروج سيف الدولة بهذا الجيش ، النهوض لنصرة عبد العزيز أمير كريت[٢] . وكيفما كان الأمر ، زحف سيف الدولة بجيشه من الفرسان وعددهم ٣٠ ألف فارس إلى البلاد البيزنطية ، دون أن يحفل بما خلفه وراءه من جيوش ليو فى الشام . وحدث ذلك فى أوائل صيف سنة ٩٦٠ أى حينما أخذت الحملة البيزنطية فى النزول إلى كريت ، وفى أثناء السنة الأولى من حكم رومانوس الثانى[٣] . ولما لم يكن فى استطاعة ليو الصمود لسيف الدولة ومقاومته ، رأى أن يتوجه نحو الشمال ، فاحتل الدروب الرئيسية بجبال طوروس التى تحتم على سيف الدولة أن يجتازها عند عودته[٤] . وأمعن سيف الدولة فى نهب بلاد كثيرة ، وأحرق وفتح عدة حصون ، وأخذ من السبى والغنائم والأسرى شيئا كثيراً ، ومضى فى طريقه حتى بلغ خرشنه[٥] حاضرة الثغر المعروف بهذا الاسم قرب ملطية[٦] . وبلغ الجيش الحمدانى بعد انتصاره ،

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٣٩٦ . Schlumberger p. 136.
(٢) Schlumberger p. 136.
(٣) Ibid p. 136, 139.
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٩٦ Ibid. p. 164.
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ص ٣٩٦ .
(٦) Schlumberger p. 139.

سفح جبال طوروس من الجهة الشرقية ، واتخذ طريقه فى درب صخرى ، ارتفع من جانبيه حاجزان صخريان ، واشتهر هذا الدرب عند اليونانيين باسم Kylindros وسماه المؤرخون المسلمون مغارة الكحل . ويعتبر من أهم الدروب الإسلامية ، واتخذ الحصن الذى يشرف على الدرب نفس الإسم . والتقى فى هذا الموضع ليو بقواته ، وبسائر قادة الثغور ، ومنهم قائد ثغر قبادوقيا والبطريق قنسطنطين مالينوس (ابن ملاينى) Maleinos ، اللذان قدما إليه بقوات من الجهات المجاورة ، اشتهرت بممارسة الحرب فى الجبال . ورابط ليو بهذه القوات عند هذا الحصن ، حتى إذا تقدم فيه جيوش سيف الدولة بما معهم من الأسرى والغنائم ، انقض عليهم ليو بقواته[1] . وتشير الروايات إلى أن سيف الدولة لم يستمع لنصيحة من معه من أهل طرسوس ، بأن البيزنطيين ملكوا الدرب خلف ظهره ، « وطلبوا إليه ألا يسلك هذا الطريق ، فلم يقبل منهم ، وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ، ولا يشاور أحدا لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره » ، فانتصر البيزنطيون ، وأخذوا ما حصل عليه سيف الدولة من الغنائم ، ووضعوا السيف فى أصحابه ، فأتوا عليهم قتلا وأسرا ، ونجا فى ثلثمائة رجل بعد مشقة وجهد[2] .

وفى صيف سنة ٩٦١ ، أى عقب أن أحرز ليو فوكاس انتصاره الشهير فى مغارة الكحل ، وعاد نقفور مظفراً من كريت ، وتقرر تعيينه دمستقا بالشرق ، حيث بقى فى هذا المنصب إلى أن صار إمبراطورا فحل مكانه فيه أخوه ليو ، ارتحل نقفور إلى آسيا الصغرى ، واستأنف الغارة على الأملاك الإسلامية[3] .

وما قام به البيزنطيون من حروب ، بدأت فى ديسمبر ٩٦١ واستمرت

---

(١) Schlumberger p. 142.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٩٦ Schlumberger p. 142 — 143.

(٣) Canard d. 805.

حتى أوائل سنة ٩٦٣ ، يصح تقسيمها إلى مجموعتين ، الحروب فى قليقية التى امتدت إلى العواصم وإلى الفرات ، ثم الحروب التى جرت فى الشطر الثانى من سنة ٩٦٢ وانتهت باستيلاء البيزنطيين على حلب .

وجرت الاستعدادات الحربية فى قيصرية بقبادوقيا ، حيث احتشدت العساكر القادمة من القسطنطينية ومن ثغور آسيا الصغرى[1] وتألف الجيش البيزنطى من نحو ١٦٠ ألف جندى ، ومن قطار من أدوات الحصار . ولما هو معروف من أن الجيش إنما يقصد الاستيلاء على عين زربة ، لم يستخدم فى ذلك دروب قليقية ، بل اتخذ الطريق المباشر الذى يربط قيصرية بعين زربة ووادى نهر جيحان[2] . وما دعا نقفور إلى مهاجمة عين زربة[3] ، إنما يرجع إلى أن حاميتها لم تبلغ من القوة ما بلغته حاميات المواقع الأخرى ، فضلا عن صعوبة قدوم الإمدادات لنجدتها ، يضاف إلى ذلك أنها تقع على الطريق المباشر القصير ، الذى يمتد من قيصرية إلى حلب ، حيث رأى الدمستق اتخاذه لمهاجمة الحمدانيين فى عاصمتهم (حلب) ، ولم يشأ نقفور أن يهاجم منذ البداية المراكز الرئيسية لجيوش قليقية[4] .

---

(١) Canard, p. 805.

(٢) Canard, p. 806.

(٣) وهى المعروفة حاليا عند الترك باسم Anavarza (Schlumberger p. 197)

(٤) ابن الأثير ٨ : ٣٩٩ — ٤٠٠ . Canard P. 806.

وفى هذه السنة (٣٥١ هـ) نزل الروم مع الدمستق على عين زربة ، وهى فى سفح جبل عظيم ، وهو مشرف عليها ، وهم فى جمع عظيم . فأنفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل ، فملكوه . فلما رأى ذلك أهلها ، وأن الدمستق قد ضيق عليهم ومعه الدبابات ، وقد وصل إلى السور ، وشرع فى النقب ، طلبوا الأمان ، فأمنهم الدمستق وفتحوا له باب المدينة ، فدخلها . فرأى أصحابه الذين فى الجبل ، قد نزلوا إلى المدينة ، فندم على إجابتهم إلى الأمان ، ونادى فى البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ، ومن تأخر فى منزله قتل ، فخرج من أمكنه الخروج . فلما أصبح أنفذ رجالته فى المدينة ، وكانوا ستين ألفاً ، وأمرهم بقتل من وجدوه فى منزله ، فقتلوا خلقا كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ، وأمر بجمع ما فى البلد من السلاح فجمع ، فكان شيئاً كثيراً . وأمر من فى المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاءوا يومهم ذلك ، ومن =

ولما أخذ نقفور فى إلقاء الحصار على هذا الموضع ، تعرض للهجوم من قبل جيوش طرسوس ، التى يقودها رشيق النسيمى ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة ، فهلك نحو ٩ آلاف من الجند ووقع فى يده عدد كبير من الأسرى واستمر على حصار عين زربة . والمعروف أن المدينة جرى تشييدها فى موقع منيع ، فى سفح جبل شديد الانحدار ، يحيط بها سور ذو حائط مزدوج ، وإنما تتوقف استدارة هذا السور عند الجهة التى تحتمى بالجبل . غير أن كل من يستولى على قمة الجبل ، صار فى استطاعته أن يصل إلى المدينة . وأرسل نقفور من قبله كتيبة لتستولى على القمة ، بينما تعرضت الأسوار لقذائف المجانيق ، فأحدثت بها ثغرة . ولما رأى سكان المدينة ما حدث من احتلال البيزنطيين للجبل ، طلبوا الأمان ، وقبلوا أن يسلموا المدينة ، بشرط الإبقاء على حياتهم ، غير أن نقفور ، حينما تبين له أن فى استطاعة جنده الاستيلاء على المدينة فى يسر وسهولة ، نقض عهده ، فأصدر أوامره إلى سكانها بأن يجتمعوا بالجامع . وفى اليوم التالى تعرض للقتل كل من صادفه الجند بشوارع المدينة ودورها . وصرح نقفور لمن اجتمعوا بالجامع بالخروج من المدينة ، غير أن عدداً كبيراً منهم لقى حتفه

= أمسى قتل . فخرجوا مزدحمين . فمات بالزحمة جماعة ، ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون ، فماتوا فى الطرقات . وقتل الروم من وجدوا بالمدينة آخر النهار ، وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم ، وهدم سورى المدينة . وأقام الدمستق فى بلد الإسلام أحد وعشرين يوما ، وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصنا للمسلمين ، بعضها بالسيف وبعضها بالأمان . وإن حصنا من تلك الحصون التى فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فخرجوا ، فتعرض أحد الأرمن ببعض حرم المسلمين ، فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم فاغتاط الدمستق لذلك ، فأمر بقتل جميع المسلمين ، وكانوا أربعمائه رجل ، وقتل النساء والصبيان ، ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ، فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد ، وخلف جيشه بقيسارية . وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج فى أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق ، فقتل أكثرهم ، وقتل أخا لابن الزيات . فعاد إلى طرسوس ، وكان قطع الخطبة لسيف الدوله بن حمدان . فلما أصابهم هذا الوهن ؛ أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة ، وراسلوه بذلك . فلما علم ابن الزيات حقيقة الأمر ، صعد إلى روشن فى داره فألقى نفسه منه إلى نهر تحته ، فغرق ، وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فاقرهم وترك معارضتهم .

بسبب شدة الزحام والبرد والجوع . ومن نجا منهم لجأ إلى طرسوس . وتعرضت المدينة للنهب ، وتدمرت الدور والأسوار ، فى فبراير سنة ٩٦٢[١] .

وظل نقفور أحد وعشرين يوما فى هذا الإقليم ، استولى أثناءها على ٥٤ موضعا . وأظهر نقفور فى هذه الحملة من الشدة والصرامة والقسوة ما اعتقد أنها تلقى الرعب فى نفوس السكان من المسلمين بهذه الجهات الواقعة على الأطراف ، فيجلون عنها ، فلقى السكان من النكال والعذاب والتشريد والقتل ما أدى إلى هلاك عدد كبير منهم ، ومن نجا من القتل من الأطفال جرى عليهم الرق ، وامتدت يد التخريب إلى الأشجار والنباتات ، فأمست الجهات المجاورة لعين زربة خرابا يبابا[٢] . ومن القلاع المنيعة التى استولى عليها البيزنطيون قلعة سيس المعروفة قديماً باسم Flaviopolis ، (التى أضحت فيما بعد عاصمة لأسرة روبن التى حكمت أرمينيا الصغرى[٣] . وهذه القلعة تقع على المدخل الشمالى لسهل قليقية ، وعلى سفح صخرة مرتفعة تستند إلى جبال طوروس ، على مسافة غير بعيدة من عين زربة[٤] .

لم يشر المؤرخون إلى أن نقفور استولى فى هذه الحملة على طرسوس والمصيصة ، ولم تتعرض هاتان المدينتان لحصار البيزنطيين ، والراجح أن ما حدث من انهزام ابن الزيات ووفاته ، قضى على كل مقاومة فى هذه الناحية (طرسوس)[٥] .

على أنه لم يكن الاستيلاء على قليقية عند نقفور يتطلب إلا استعداداً صغيراً ، إذ أن نقفور كان يكتفى حتى ذلك الحين بإنزال الهزيمة بأتباع سيف الدولة

(١) Canard pp. 806 — 807.
Schlumberger pp. 197 — 203.
ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٤٠٠ .

(٢) Canard p. 807.

(٣) Schlumberger p. 203.

(٤) Ibid. p. 204.

(٥) Ibid p. 206. Canard p. 808.

الحمدانى ، أما الآن فإنه أدرك أنه لابد أن يواجه بكل قواته عدوه العنيد ، وخصمه اللدود ، فيخضع أقاليمه الخصيبة ويهاجم عاصمته[١] .

وإذ تقدم الزمن ، وصار لزاما عليه ألا يضيع الوقت سدى ؛ تحتم عليه أن يستولى ، قبل كل شىء ، على ممرات جبال آمانوس ، وهذا الإجراء سوف يكفل للبيزنطيين من جهة ، الاستيلاء على قليقية ، وسوف ييسر لهم من جهة أخرى ، النفاذ إلى الشام والمسير إلى حلب[٢] .

والأمانوس هو شعبة من جبال طوروس تتصل بقليقية من جهة الشرق وتفصلها عن سوريا . وما اشتهر به الأمانوس من الدروب ، إنما يرجع إلى أن جميع الغزاة اجتازوها ، فمنها غزا العرب قليقية وما يليها من جهات آسيا الصغرى ، ولا بد لنقفور أن يجتازها ليهاجم سيف الدولة فى صميم دولته[٣] .

ولما أدرك نقفور الصوم ، انصرف على أن يعود عقب عيد القيامة الذى يقع فى ٣٠ مارس سنة ٩٦٢ ، وخلف جيشه بقيصرية[٤] . والمعروف أن نقفور اشتهر بشدة الورع والتقوى ، ولعل ذلك هو الذى حدد موعد رحيله . غير أن ثمة من الأسباب ما دعاه إلى العودة إلى الأراضى البيزنطية ، كيما يكون قريبا من العاصمة ، وليكون على اتصال ببعض العناصر بالقسطنطينية ، ولعله فكر وقتذاك فى الوصول إلى عرش الإمبراطورية ، لما اشتهر به الإمبراطور رومانوس الثانى من الخفة والطيش ، وما ترتب على ذلك من سخط الناس[٥] .

وما كاد نقفور يرتحل بجنده إلى الأراضى البيزنطية ، حتى نشط سيف الدولة من جديد ، فتوجه إلى قليقية ليؤدب ابن الزيات ، صاحب طرسوس ، لأنه قطع الخطبة لسيف الدولة ، فلما حلت الهزيمة بابن الزيات على يد نقفور ، أعاد

---

(١) Schlumberger p. 206.

(٢) Ibid p. 206.

(٣) Ibid p. 207.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٠٠ .

(٥) Canard p. 807.

أهل طرسوس الخطبة لسيف الدولة وراسلوه فى ذلك[١] ، وجرى القبض على ابن الزيات ونقله إلى حلب[٢] . وأعاد سيف الدولة تشييد ما تخرب من عين زربة وأنفق فى ذلك ثلاثة ملايين درهما . على أن عين زربة فقدت ما كان لها من أهمية ، لأن البيزنطيين لم يقدموا على الاستيلاء عليها مرة أخرى . وأرسل سيف الدولة جنداً من طرسوس بقيادة حاجبه جرجويه ، فأغاروا على الأراضى البيزنطية ، وبعث بغلامه نجا إلى ميافارقين ليبث بين أهلها الهدوء والسكينة ، وفى أثناء عودته التحم فى قتال مع البيزنطيين عند حصن زياد فى سبتمبر ستة ٩٦٢[٣] .

استيلاء البيزنطيين على حلب :

ينبغى أن نلقى نظرة على جغرافية الإقليم الذى تقع به حلب ، والذى لعب دوراً كبيراً فى تقرير مصير الشرق مرات عديدة . فالذى يجتاز دروب الأمانوس عند قدومه من قليقية ، إنما يلقى أمامه إقليما شاسعا ، وهو شمال الشام ، يمتد وقتذاك من شواطئ البحر المتوسط إلى نهر الفرات . هذا الإقليم يؤلف الجانب الأكبر من إمارة حلب التى تخضع لسلطان سيف الدولة[٤] . واشتمل هذا الإقليم على مناطق شديدة التنوع والاختلاف فعلى امتداد ساحل البحر يقع سهل خصيب يمتد بين الساحل والجبال . قام به فى القرن العاشر مدن إسلامية عديدة ، وموانى للتجارة ، وحصون تطل على البحر ، أمثال اللاذقية ، وجبلة ، وانطرطوس ، وأرواد وطرابلس . وهذا الساحل يحده شرقاً سلسلة جبال مرتفعة ، وهى المعروفة بجبال النصيرية التى تمتد من الجنوب إلى الشمال ، ويبلغ طولها ١٧٥ كيلومترا ، وتفصل بين حوض الأورنت (العاصى) والبحر المتوسط[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٠٠ Canard p. 809.

(٢) Canard p. 809.

(٣) Canard p. 809.

(٤) Schlumberger p. 212.

(٥) Schlumberger p. 214.

ويسير وادى الأورنت نحو الشرق إزاء جبال النصيرية ، التى تعتبر حده من جهة الغرب ويحد هذا الوادى من جهة الشرق هضبة كبيرة تمتد حتى نهر الفرات ، لا يتجاوز متوسط ارتفاعها أربعمائة متر ، ويحده من جهة الشمال الجبل المعروف باسم جبل باريشا الذى تقع عليه مدينة حارم التى لا تبعد كثيراً عن أنطاكية[١] . ثم يتجه الأورنت نحو الغرب مجتازاً جبل النصيرية ، فيستمد مياهه من بحيره أنطاكية ثم يجرى نحو البحر فيصب فيه على مقربة من خرائب سلوقية[٢] .

وتحتل بحيرة أنطاكية جزءاً من السهل المعروف بالعمق ، ويحدها من جهة الغرب الأمانوس وتستمد مياهها من نهرى عفرين والنهر الأسود[٣] .

على أن أهم جزء من إمارة حلب إنما يتألف من الهضبة الكبيرة التى تمتد من وادى نهر الأورنت وتنتهى عند الفرات ، والتى لم يكن الجزء الشرقى منها إلا صحراء تناثرت بها بعض الواحات . وفى الهضبة يجرى نهران الأول وهو المعروف بالقويق ، نهر حلب ، الذى يروى حدائق المدينة ؛ أما الثانى وهو نهر الذهب ، الذى يسير شرقاً ويصب فى بحيرة كبيرة ، اشتهرت بمياهها المالحة[٤] .

ومن المدن المعروفة ، الواقعة بهذه الهضبة زمن الحمدانين ، عينتاب ، ودولوك وكلس ، وشيزر ، ومنبج وباليس ، وكلها تقع إلى الشرق منها ، ثم سرمين وقنسرين والباره ، وأفامية ومعرة النعمان ، ثم حماه وحمص . وتعتبر أنطاكية أهم مدينة ، بعد حلب ، فى إمارة الحمدانيين ، وأول حصون سورية[٥] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ص ١٩١ حاشية ٢ Ibid p. 214.

(٢) Ibid p. 215.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨٥ . Schlumberger p. 215.

(٤) Ibid p. 215.

(٥) Ibid p. 216.

بدأ نقفور مسيره فى ديسمبر سنة ٩٦٢ ، فلما اجتاز البيزنطيون دروب جبل الأمانوس ، خرج سيف الدولة من حلب ، فتقدم إلى عزاز ، على مسيرة ١٢ ساعة من حلب ، فى أربعة آلاف فارس وراجل . ولما تبين له أنه ليس فى وسعه أن يلتى البيزنطيين لكثرتهم ، رجع إلى حلب ، وأقام معسكره خارج المدينة ، ليجرى القتال بهذا الموضع . ثم جاءه الخبر أن البيزنطيين مالوا نحو العمق ، فأدرك أن العدو إنما يقصد الاستيلاء على حلب ، وقد حرص على إنقاذها مهما كلفه ذلك ثمناً باهظاً ، فجهز غلامه نجا ، الذى يعتبر أشجع أتباعه وأشدهم إقداماً ، فى ثلاثة آلاف فارس لوقف تقدم البيزنطيين[١] .

وأخذ البيزنطيون ، يستولون على المدن والحصون بإمارة حلب . فسقط فى أيدى نقفور وقادته من المدن دولوك وعينتاب ، ومنبج ورعبان[٢] .

والمعروف أن قوة من الجيش البيزنطى ، بقيادة تيودور ، ابن أخت الدمستق ، توجهت ، قبل انثيال البيزنطيين فى الأراضى السورية ، نحو منبج وفاجأتها بالهجوم . وكان أبو فراس الحمدانى ، الذى يلى أمر منبج ، خارج المدينة ، فالتقى به كشافة البيزنطيين وجواسيسهم ، وعلى الرغم من الشجاعة الفائقة التى أبداها فى الدفاع عن نفسه ، أصابته جراح عديدة ، فوقع فى أسر البيزنطيين[٣] .

وسرت الحماسة بين البيزنطيين ، واعتقد الجند بأن ما استولوا عليه من البلاد والحصون ، إنما يزيد من تقدمهم نحو الجنوب ، وأنهم إنما يقاتلون ويلقون مصرعهم فى سبيل نصرة المسيح والإمبراطور الذى يمثله على الأرض ، وأنهم بقتالهم المسلمين إنما يبلغون أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وأنهم ينفذون إلى بيت المقدس فيستخلصونها من المسلمين ، بعد أن ظلت فى قبضة أيديهم نحو ٢٢٠ سنة[٤] .

---

(١) Schlumberger p. 216. Canard p. 810. مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٤ حاشية ١ .

(٢) Schlumberger p. 216. Ibid p. 217.

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٢ . Canard p. 809.

(٤) Schlumberger p. 218.

وتقدم نقفور على رأس جميع قواته ، بعد أن أحرق ودمر كل ما يقع فى طريقه ، وأراد أن يباغت سيف الدولة ، واستطاعت كشافته أن تجتاز نهر القويق ، برغم حرص المسلمين على حراسة مخاضاته ، وذلك بفضل حنا زمسكيس (الشمشقيق) الذى يعتبر من أمهر قادة نقفور ، وهو الذى يليه فى قيادة الجيش[1] . ولم يلبث سيف الدولة أن وقف على خبر تقدم البيزنطيين ، فاستعد لملاقاتهم ، وأعد العدة للدفاع عن حلب[2] . فالمعروف أن كل من يستطيع من سكان المدينة أن يحمل السلاح ، صار يعتبر من الأجناد ، فتألف فى زمن قصير جيش كبير ، إذ أن كل مسلم فى تلك الأزمنة الحافلة بالحروب يعتبر جنديا ، مارس القتال ، ومهر الفروسية ، ويكفى إعلان الدعوة إلى الجهاد فى أحد المساجد ، حتى ينفر الناس للقتال ، يبذلون أنفسهم فى سبيل الله . على أن سيف الدولة أنفذ غلامه نجا فى خيرة الجند لمنع تقدم البيزنطيين ، ريثما ينتهى من إعداد جيش ضخم ، يخوض به معركة فاصلة تحت أسوار حلب . على أنه حدث أن تقدمت القوات البيزنطية من جهة الشمال الغربى ، على حين أن نجا اتخذ طريقه أول الأمر نحو الغرب ، إلى الأثارب ، ثم انحرف نحو الشمال ، كيما ينقض بكل جيشه على مؤخرة الجيش البيزنطى . غير أن نقفور غيّر خطته ، بعد أن أبلغه كشافته وجواسيسه أخبار جيش نجا ، فسار بكل قواته صوب الشمال الشرقى ليتجنب الصدام مع نجا ، ثم اندفع نحو الجنوب ، حتى بلغ تُبَّل ، وهى قرية تقع إلى الشمال من حلب ، ومن ثم توجه إلى قلعة عزاز ، فأضحى الطريق إلى حلب مفتوحا أمام البيزنطيين[3] ، على أن سيف الدولة لم يتريث ، بل سار بنفسه لقتال البيزنطيين ، ونادى فى الناس : من لحق بالأمير فله دينار ، فلما سار فرسخا ، لقيه بعض العرب فأخبره أن البيزنطيين

(١) Schlumberger p. 224.

(٢) Ibid p. 226.

(٣) Schlumberger p. 227 — 228.

لم يبرحوا جبرين ، وأنهم سوف يصبحون فى حلب . فرد سيف الدولة إلى حلب ، ونزل على نهر قويق ، ثم تحول من الغد فنزل على باب اليهود (من أبواب حلب) ، وبذل خزائن السلاح للرعية ، وأقبل البيزنطيون فى ثلاثين ألف من الفرسان ، فوقع القتال فى مواضع متفرقة ، ثم قدمت مؤخرة الجيش البيزنطى فى أربعين ألف راجل بالرماح وفيهم زمسكيس (ابن الشمشقيق) ، واتخذ الجيش مواقفه على النهر ، وأحاطوا بسيف الدولة ، فحمل عليهم ، غير أنه لم يلبث أن ارتد ، وقصد ناحية بالس ، فاشتد القتال ، وهلك عدد كبير من جند سيف الدولة ، ولقى جماعة من الأعيان ومن أسرته مصرعهم[1] .

واستولى نقفور على دار سيف الدولة التى تقع خارج حلب ، « فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم ، وأخذ له ألفا وأربعمائة بغل . ومن خزائن السلاح ما لا يحصى ، فأخذ الجميع وخرب الدار ، وملك الربض »[2] . ثم حصر المدينة ، فقاتله أهلها ، وأحدث البيزنطيون فى السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها ، فلقى كثير من البيزنطيين مصرعهم ، وارتد سائرهم عن الثلمة ، ولم يلبث أهل حلب أن أصلحوا ما أفسده البيزنطيون فى السور ، وتراجع البيزنطيون إلى جبل جوشن[3]. على أن رجّالة الشرطة بحلب عمدت إلى نهب المنازل وخانات التجار ، فتخلى الناس عن مواضعهم على الأسوار ، ومضوا إلى دورهم ليدافعوا عنها . ولما أدرك البيزنطيون ما وقع من الاضطراب والفتنة فى داخل البلد ، اقتحموا المدينة ، فوضعوا السيف فى الناس ، فقتلوا كل من لقيهم ، وكان فى البلد من أسرى البيزنطيين ألف ومائتا رجل ، فاطلقوا سراحهم . وحملوا السلاح على المسلمين ،

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ حاشيه ١ .
Canard p. 812.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠١ . مسكويه : تجارب الأمم، ج ٢ ص١٩٢ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٤٠١ . مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٢ .

وكان سيف الدولة أعد من البيزنطيين سبعمائة رجل ليفادى بهم ، فأخذهم نقفور ، وسبى من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبى وصبية ، وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يوصف كثرة . فلما لم يكن معه من الدواب ما يكفى لحمل هذه الأمتعة ، أحرق ما تبقى منها بالنار ، وعمد إلى المستودعات التى يحفظ بها الزيت فصب فيها الماء ، حتى فاض الزيت على سطح الأرض ، وخرّب المساجد وأقام بالمدينة تسعة أيام[1] .

على أن انتصار البيزنطيين لم يكن شاملا ، فحينما توغل البيزنطيون فى داخل المدينة ، وجدوا أنه قد لجأ إلى القلعة عدد من المقاتلة لاسيما من الديالمة ، ومن رجال الحكومة ومن لهم أموال ، فضلا عن كثير من العلوية وبنى هاشم[2] . وعلى الرغم من سوء الأحوال التى تعانيها القلعة ، وما تعرض اللائذون بها من الشدة بسبب قلة المؤونة ، فإن حاميتها تعتبر مصدر خطر على الغزاة . إذ صاروا ينقضون ، من حين إلى آخر ، على البيزنطيين الذين انصرفوا إلى النهب والسلب[3] .

ولما تحرج الموقف ، كان لزاما على نقفور بعد أن أمضى بالمدينة تسعة أيام ، أن يهاجم القلعة . غير أنه بدلا من أن يقوم بذلك ، قرر الارتداد عن المدينة ، ولعل ذلك القرار يرجع إلى أنه اكتفى بإنزال الهزيمة بسيف الدولة ، وأنه خشى أن يقوم سيف الدولة بهجوم مفاجىء[4] ، لاسيما بعد أن شاع انحياز نجا إليه فى قنسرين[5] ، ولعله رأى أيضاً ما أصاب عسكره من الإرهاق والتعب

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٣ .
Canard p. 814.
Schlumberger p. 242.

(٢) مسكوية : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٣ . Schlumberger p. 244.

(٣) Schlumberger p. 244 — 245.

(٤) Schlumberger p. 245.

(٥) Canard p. 815.

الذى نجم عن هذه الحروب العنيفة . يضاف إلى ذلك ما شاع أيضاً من قدوم إمدادات من دمشق لإنقاذ حلب[1] ، وما حدث من مصرع ابن أخته ، وما شاع فى سائر العالم الإسلامى من الدعوة إلى الجهاد ، بعد أن هزته وأثارته كارثة الاستيلاء على حلب ، وما يترتب على هذه الدعوة من نبذ المسلمين ما بينهم من المنازعات ، وتوحيد كلمتهم ، والنهوض لقتال العدو المشترك . ومن أسباب ارتداد نقفور أيضاً ، أن تنظيم الجيش البيزنطى ، ولاسيما بعد المجهود الشاق الذى بذله فى هذه الحروب ، لم يتهيأ لممارسة حروب طويلة الأمد ، والراجح أيضاً أن نقفور اكتفى بما أنزله بالحمدانيين من هزيمة ، وبما خربه من بلادهم ، وبما دمّره من حصونهم ، وباستباحة عاصمتهم . ورأى أن يهتم بما يجرى فى القسطنطينية من الأمور ، لاسيما أنه لم يصل إليه ، منذ زمن طويل ، من الأنباء عما يدبر بالبلاط من المؤامرات ، التى تجرى دائماً ضد قائد مظفر[2] . فما أحرزه من الانتصارات الباهرة يكفى للتآمر ضده فى القصر[3] . وما شاع من الأنباء التى تشير إلى سوء صحة الإمبراطور البيزنطى جعل قادة القوات البيزنطية فى آسيا يتطلعون إلى بيزنطة[4] .

---

(١) Schlumberger p. 245.

تشير المصادر العربية إلى أن نقفور رأى أن يكتفى بما أحرزه من انتصار وما حصل عليه من غنائم ، غير أن ابن أخته (تيودور) ، ألحّ عليه بالمبادرة إلى الاستيلاء على القلعة ؛ فوافقه على كره منه ، ثم ترجل تيودور وأخذ سيفا ودرقة وصعد راجلا ، والمسلك إلى باب القلعة ضيق ، لا يحمل أن يسلكه أكثر من واحد . فصعد وتبعه أصحابه واحدا واحداً . فقذفه من بالقلعة من الديلم بحجر . ورمى أحدهم بخشب فأنفذ صدره . فأخذه أصحابه وانصرفوا إلى الدمستق (نقفور) ، فلما رآه مقتولا أحضر من كان أسر من المسلمين . فضرب أعناقهم بأجمعهم . وسار إلى بلد الروم بما معه .
(انظر : مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٤ .
ابن الأثير الكامل ج ٨ ، ص ٤٠٢) .

Canard : op cit p. 815 — 816.

(٢) Schlumberger : op. cit. p. 247 — 248.

(٣) Ibid p. 248.

(٤) Ibid p. 248.

وكيفما كان الأمر ، كل هذه الأسباب مجتمعة ، حملت نقفور ، على أن يأمر جنده بالارتداد عن حلب ، بعد أن احتلها ثماني أيام . على أن ما ترتب على حملة سنة ٩٦٢ من نتائج ، تعتبر فى حد ذاتها نتائج طيبة للبيزنطيين : إذ تم لهم استرداد قليقية ، وجرى احتلال جميع دروب الأمانوس ، ومعظم الحصون الضخمة الواقعة بالإقليم الممتد بين نهر الفرات وبين جبل (أمانوس) ، وأنزل نقفور بعدوه هزيمة ساحقة ، ونهب عاصمته ، وغنم أمواله . وعلى الرغم من أنه غضب لجلائه عن حلب . بعد أن فشل فى الاستيلاء عليها ، فإن ما من أحد من الجند البيزنطى الذى أثار حماسه ، ما أصابه نقفور من ظفر ، يشك فى أن عودة قريبة إلى هذه الجهات سوف تؤدى إلى الاستيلاء على المدينة[1] .

ومن الدليل على عزم نقفور على العودة إلى هذه الجهات ، أنه حينما غادر بقواته حلب ، فى ٣١ ديسمبر سنة ٩٦٢ ، لم يسمح لجنده بنهب وتخريب حدائق ومزارع حلب ، لحرصه على أن يتخذ منها فى السنة التالية قاعدة ، لما سوف يقوم به من أعمال حربية أخرى ، وهذا هو السر فيما أورده جميع المؤرخين عن حديثه لأهل البلد « هذا البلد قد صار لنا ، فلا تقصروا فى العمارة ، فإنا بعد قليل نعود إليكم[2] » .

واجتاز الجند البيزنطى جبال أمانوس من جديد ، عند عودتهم ، وعبروا سهول قليقية وجبال طوروس ؛ وما كادوا يصلون ، فى أواخر مارس سنة ٩٦٣ ، سماندوا Simandoa[3] (Tzamandos) بثغر قليقية ، حتى وردت الأنباء بوفاة الإمبراطور رومانوس الثانى[4] .

---

(١) Schlumberger : op. cit. p. 250.

(٢) bid p. 250.
مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٩٤ . ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٤٠٢ .

(٣) لعلها سرفندكار التى تتحكم فى دربند المعرة أى درب الأمانوس .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ١٣٤ .
انظر Gaudefroy-Demombynes : La Syrie p. 99 note, 3.

(٤) Schlumberger : op. cit. p. 251.

عهد نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩)

ترتب على وفاة رومانوس الثانى (فى مارس ٩٦٣) ، أن أصبح العرش من حق ولديه الطفلين ، باسيل الثانى الذى لم يتجاوز الخامسة من عمره ، وقسطنطين الثامن الذى يبلغ من العمر سنتين ، فتولت الوصاية عليهما أمهما الإمبراطورة تيوفانو ، يساعدها كبير وزرائها برنجاس الذى اتخذ لقب Parakimomène الذى لم يكن فيما يبدو على وفاق معها[1] . وذلك لأن تيوفانو ، وهى وقتذاك فى العشرين من عمرها ، كانت حريصة على أن تقبض على زمام الحكم ، باعتبارها قيمة ووصية على ولديها ، بينما أراد برنجاس غير ذلك ، إذ ركز اهتمامه على أن ينفرد بالحكم بمساعدة أنصاره[2]. والمعروف أن برنجاس يكن لنقفور الكراهية الشديدة لما حظى به نقفور من محبة الناس ، ولما أحرزه من انتصارات باهرة فى كريت وفى آسيا ، ولما كان له من مكانة رفيعة بين الجند[3] . ونجم عن ذلك كله أن حدث تقارب بين نقفور وبين الإمبراطورة تيوفانو[4] ، فأوقفته وهو بآسيا ، على كل ما يقع من الأحداث بالعاصمة . والواقع أن تيوفانو رأت أنها لو استطاعت أن تفيد من نقفور ، لتحقق أملها فى الاحتفاظ فى يدها بالسلطة العليا ، وفى إحراز أمر آخر بالغ الأهمية فى حياتها[5] . إذ استطاعت تيوفانو بمهارتها أن تغرس فى قلب هذا الجندى الزاهد من بذور العاطفة ما صرف عن فكره ما اشتهر به ، بعد حياة الرهبانية ، من التقوى والزهد ؛ وما غيّر طريقة حياته ، ولعل ذلك هو السر فى اشتداد خوف برنجاس وهلعه من نقفور[6] . غير أن الإمبراطورة

---

(١) Diehl et Marçais : Le mond Oriental p. 497.

(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 70.

(٣) Diehl et Marçais : op. cit. p. 467.

(٤) Camb. Med. Hist. IV p. 70.

(٥) Diehl et Marçais : op. cit. p. 467.

(٦) Ibid p. 71.

اتصلت سراً بنقفور ، ودعته إلى القدوم إلى القسطنطينية ، فبلغها فى ابريل سنة ٩٦٣ . زعم نقفور أنه من الناحية الرسمية ، إنما قدم ليتلقى جزاء ما أحرزه من انتصارات حربية من التشاريف ، ويحصل من الإمبراطورين الصغيرين على التصديق على سلطته(١) . والواقع أنه جاء لينازع خصومه السلطة . وأدرك برنجاس هذه الحقيقة ، فحاول أن يمنعه من دخول القسطنطينية ، وأنكر عليه حقه فى الاحتفال بانتصاره ، بل إنه هدده بسمل عينيه . غير أن ما حظى به نقفور من محبة الناس . فضلا عن مؤامرات ومكائد تيوفانو ، كل ذلك أحبط محاولات برنجاس(٢) . فاستقبل الناس نقفور بكل مظاهر التشريف والتبجيل ، وبفضل ما اشتهر به نقفور من التقوى ، وما كان من وثيق الصلات بينه وبين الرهبان ، وما أداه للإمبراطورية من خدمات ، وما وقع من العداوات التى أوقعت الفرقة بين القوى الثلاثة الهامة فى القسطنطينية : تيوفانو ، وبرنجاس ، والبطريرك بوليكتس Polyeuctes. وجد نقفور فى البطريرك نصيراً قوياً(٣) . فبفضل البطريرك ، وعلى الرغم من برنجاس ، أقر السناتو سلطة نقفور ، ووعد بأنه لن يجرى شىء إلا بعد استشارة نقفور . وأقسم نقفور بأنه سوف لا يقدم على عمل ينقص من حقوق الأميرين الصغيرين . ولم يلبث نقفور أن عاد بجيشه إلى آسيا الصغرى(٤) .

على أن برنجاس لم يستسلم للهزيمة ، وسعى للتخلص من نقفور ، فتقدم بعروض سخية إلى أعظم قائدين فى جيش نقفور ، وهما كوركواس ، وزمسكيس ، إذا أقدما على خيانته(٥) . والمعروف أن هذين القائدين المشهورين بولائهما لنقفور لم يستجيبا لهذه الوعود ، بل كشفا لنقفور عن هذه المؤامرة ، وحرضاه على أن يعجل بتحقيق خطته ، والتى تقضى باتخاذ التاج ،

(١) Ibid p. 71. Schlumberger : op. cit. p. 205.
(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 71.
(٣) Ibid. p. 71.
(٤) Ibid p. 71.
(٥) Ibid p. 71.

والزحف على القسطنطينية . ووفقاً لذلك ، حدث فى ٣ يوليه سنة ٩٦٣ ، أن نادى الجيش بقيصرية ، بتحريض هذين القائدين، بنقفور إمبراطورا(١) . وفى اليوم التالى نهضت العساكر للمسير بصحبته إلى كنيسة القديسة صوفية بالقسطنطينية ، حيث يجرى بها تتويجه . وما كادت الأنباء تبلغ القسطنطينية حتى اندلعت بها الثورة(٢) . ولقيت هذه الثورة التشجيع من قبل البطريرك ، وتولى قيادتها باسيل ، الابن غير الشرعى لرومانوس ليكابينوس ، والوزير السابق للإمبراطور قنسطنطين السابع ، والعدو اللدود لبرنجاس الذى خلفه على الوزارة(٣) . وحاول برنجاس أن يقمع الثورة ، وأن يتولى تنظيم الدفاع بالمدينة ، واعتمد فى ذلك على كثرة أنصاره ، وعلى الرهائن الذين فى قبضة يده ، ومنهم والد نقفور وأخوه(٤) . وفى ٩ أغسطس وصل الإمبراطور الجديد إلى اسكدار Chrysopolis ، وأخذ يرقب ما يجرى من الأحداث بالعاصمة . على أن أنصار برنجاس حلت بهم هزيمة ساحقة بعد ثورة عنيفة استمرت ثلاثة أيام ، تلطخت أثناءها شوارع القسطنطينية بالدماء ، ولم ينقذ والد نقفور من الهلاك إلا البطريرك . وفى ١٤ أغسطس سنة ٩٦٣ ، وفى حماية باسيل وجنوده ، دخل نقفور العاصمة . وفى ١٦ أغسطس تم تتويجه إمبراطورا ، فى كنيسة القديسة صوفية ، فأعلن رعايته لحقوق ولدى الإمبراطور ، قنسطنطين وباسيل واشتراكهما معه فى الحكم(٥) . وما كاد يمضى شهر على تتويجه ، حتى تزوج تيوفانو ، وقد تجاوز الخمسين من عمره(٦) .

أخذ نقفور عقب أن تولى العرش ، يكافئ من نهضوا لمساعدته ،

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 71. Schlumberger p. 280 — 281
(٢) Ibid. p. 72.
(٣) Diehl et Marçais : op. cit. p. 467.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 71.
(٥) Camb. Med. Hist IV p. 72.
(٦) Diehl et Marçais : op cit. p. 468.

فجعل أباه قيصراً ، وعهد بالقيادة العليا فى الشرق إلى القائد البارع حنا زمسكيس (ابن الشمشقيق) ، فنصبه دمستقا بالشرق ، وهو ينتمى إلى أسرة أرمنية معروفة ، ويعتبر أشهر قادة عصره ، بعد الإمبراطور . أما ليو فوكاس أخ نقفور ، وزميله فى السلاح ، فتقرر تعيينه دمستقاً فى الغرب ، فاتخذ لقب القرابلاط Curopalates [1] . وصار باسيل رئيساً للسناتو[2] Praedros فأضحى اليد اليمنى للإمبراطور الجديد . والمعروف أن برنجاس تقرر عزله من الخدمة ، وإنزاله بدير خارج القسطنطينية ، فأمضى به ما تبقى من عمره ، حيث مات سنة ٩٧١[3] .

وبتولية نقفور فوكاس العرش (٩٦٣ — ٩٦٩) ، أصبحت السلطة فى أيدى أسرة ، تعتبر من أهم الأسرات الكبيرة فى آسيا الصغرى . ولم يكن مظهر الإمبراطور وسلوكه ، يدلان على انحداره من أسرة أرستقراطية ، إذ لم يكن مظهره جذابا ، بل غلبت عليه خشونة الطبع ، ومع ذلك فإن حياته اتسمت بالبساطة والزهد . جعل نقفور كل اهتمامه أن يشارك جنده القتال والحرب ، كما أن الصلاة والاتصال برجال الدين تعتبر لذته الروحية الوحيدة[4] . وإذ كان نقفور فى وقت واحد محارباً ، وراهبا ، صار صديقاً حميما للقديس اثناسيوس ، مؤسس دير لور Laure بجبل آتوس[5] .

سياسته الداخلية

وعلى الرغم من أنه لم يكن لنقفور شىء من صفات الأرستقراطية ،

---

(١) وهو اللقب المعروف فى المصادر العربية باسم قر البلاط — انظر يحيى بن سعيد : التاريخ . ص ١٢٠ .

(٢) Ostrogorowski p. 252.

وهو اللقب المعروف فى المصادر العربية باسم البراكونومس .

(انظر : يحيى بن سعيد : التاريخ — نشر شيخو — بيروت ١٩٠٦ — ص ١٢٠ .

(٣) Camb. Med. Hist. IV p. 72.

(٤) Ostrogorowski p. 252.

(٥) Ibid p. 253.

فإنه ظل أنموذجا خالصاً للأقوياء . وما ارتقاؤه العرش إلا دلالة على ما أحرزته الأرستقراطية البيزنطية من انتصار . فالمعروف أن الحكومة البيزنطية أخذت تناضل ، منذ زمن ليكابينوس[1] ، ضد نمو الضياع . وفى زمن نقفور شرع السادة الإقطاعيون فى مهاجمة هذا الاتجاه . وما أصدره نقفور فوكاس سنة ٩٦٧ من قانون ، استهله بتقرير أن أسلافه من الأباطرة ، أظهروا نصرتهم للفلاحين ، وبذا أساءوا إلى مبدأ المساواة بين الرعايا ، ذلك أن الفقراء أضحوا محرومين من حق امتلاك ما يصير نزعه من أراضى الأقوياء ، فلا يحوز الفقراء أملاكا إلا من الفقراء ، ولا يحصل الأغنياء على أراضى إلا من الأغنياء[2] . على أن هذه اللوائح ذاتها لاتبدو عقيمة ، فمن الأمور التى تدع إلى التساؤل ما إذا كان الفلاحون حقيقة ، أضحى لهم من المكانة ، ما يجعلهم يمارسون حقوقهم فى أن تكون لهم الأسبقية على كبار الملاك فى امتلاك الأراضى ، الواقع أنه باسم العدالة جرت حماية الأغنياء من الهجمات التى تعرضوا لها فى التشريع السابق ، إذ تخلى نقفور فوكاس عن السياسة التى اتخذها الأباطرة السابقون عليه لمالأة الفلاحين[3] .

ويتصل بهذا الموضوع ما اتخذه الإمبراطور نقفور من الخطوات اللازمة لزيادة الإقطاعات الحربية . فوفقا للقاعدة القديمة لابُدَّ ، عند استرداد أراضى الجندى ، التى جرى التصرف فيها منذ زمن مبكر ، من مراعاة الحد الأدنى لقيمتها وهو أربعة جنيهات (لبرات) من الذهب ، وكل أرض تبلغ هذا الحد الأدنى ، تحتم استردادها ، دون دفع تعويض . فإذا تجاوز ثمنها هذا الحد ، فلا يجرى استردادها إلا بدفع ثمن الشراء كاملا[4] . ومنذئذ ، تقرر ألا يقل ثمن الأرض من الإقطاعات الحربية . التى لايجوز التصرف فيها بالبيع عن اثنى عشرة جنيها (ليرة) ، بعد أن كان الحد الأدنى لقيمتها

---

(١) Ibid p. 253.

(٢) Ostrogorowski p. 254. Camb. Med. Hist. IV p. 75.

Cambridge Economic History Vol. I p. 208.

(٣) Ostrogorowski p. 254.

(٤) Ostrogorowski : p. 254.

أربعة جنيهات ، وذلك نظرا لازدياد تكاليف ما يحتاج إليه الجندى من أدوات حديثة بالغة الأثر[1] . وهذا معناه أنه لا يجوز للجندى الفلاح Stratiotes أن يتصرف فى جانب من أرضه ، إذا قل مجموع قيمتها عن الحد الأدنى ؛ وكل تصرف يؤدى إلى أن ينقص ملكيته عن الحد الأدنى ، يعتبر لاغيا . ولا يجوز استعادة ثمن الشراء إلا فى الحالات التى جرى التصرف فيها فيما يزيد على الحد الأدنى[2]. وما قام به نقفور من هذه المحاولة لرفع قيمة إقطاع الجندى إلى ثلاثة أمثال ثمنه ، ترتب عليها تغيير فى التركيب الاجتماعى للجيش . فالمعروف أن السياسة التى جرى اتباعها حتى وقتذاك ، إنما قامت على الملكية الصغيرة للفقير ، فكأن الإجراء الجديد الذى صدر سنة ٩٦٧ أدى إلى الخروج على السياسة السابقة[3] . فما حدث من أن عساكر نقفور صاروا يحوزون أسلحة وفيرة ، وأصبح للواحد منهم من الأملاك ما تبلغ قيمتها ١٢ جنيها ذهبيا ، كل ذلك يدل على أنهم لم يكونوا مثلما كانوا من قبل ، فلاحين فقراء . والراجح أنه جرى تجنيدهم من طبقة جديدة ناشئة ، من صغار النبلاء ، تكررت الإشارة إليها فى تشريعات البيت المقدونى[4] . إذ أشارت إلى أن كل من يحوز من المدنيين إقطاعا عسكريا ، ويقبل ما يفرضه الإقطاع من التزامات ، صار بذلك من الأجناد[5] .

أما القانون الآخر الذى أصدره نقفور ، وهو مستمد أيضا من تجاربه . فيتعلق بإقطاعات الأرمن ، لا سيما المرتزقة الذين فى خدمة الإمبراطورية ، وتضمن هذا القانون ، الإجراءات العديدة التى اتخذها نقفور لإرغام الجند

(١) Camb. Econom. Hist. Vol I. p. 208.

(٢) Ostrogorowski p. 254.

(٣) Ostrogorowski : p. 254.
Schlumberger p. 394.
Camb. Med. Hist. IV p. 75.

(٤) Camb. Econom. Hist. Vol I p. 208.
Ostrogorowski p. 254.

(٥) Schlumberger p. 395.

على أن يزرعوا إقطاعاتهم ، التى طالما تركوها مهملة . فتقرر أنه إذا تغيبوا عنها ثلاث سنوات ، سقط حقهم فى امتلاكها ، وجاز منحها لغيرهم ، وبذلك كان الإمبراطور يأمل فى أن يستقر هؤلاء الجند بأراضيهم[1] .

على أن هذه القوانين غلب عليها الطابع الحربى ، وما حدث من المبالغة فى تقدير الأهمية المرتبطة بالجيش ، والتى ظهرت بوسائل عديدة ، إنما انتهت بإثارة الرأى العام . فحوالى سنة ٩٦٦ ، وسنة ٩٦٧ ، لم تلبث الأصوات الخفية المنذرة بالثورة ، أن جرى سماعها فى كل مكان[2] .

على أن أسباب الثورة لم تكن قاصرة على المبالغة فى الاهتمام بأمر الجيش . فما درج عليه نقفور من الإغداق على الجيش ، بل ما اتخذه نقفور من سياسة لمناهضة رجال الدين ، باعد بينه وبين عدد كبير من رعاياه[3] .

ذلك أن نقفور حاول أن يحد من نمو الضياع الشاسعة التى تملكها الكنائس والأديرة ، فحذا بذلك حذو رومانوس ليكابينوس . على أن رومانوس ليكابينوس لم يمس هذه المشكلة إلا مسا طفيفا ، بينما أصدر نقفور سنة ٩٦٤ ، مرسوما يمنع نمو أملاك الكنيسة ، وهو مرسوم يعتبر من أكبر التشريعات البيزنطية أهمية ، وأشدها جرأة . إذ أن أملاك الكنيسة بلغ من ازدياد نموها ما يضارع نمو الضياع العلمانية ، وتكاثرت بفضل ما بذله الأتقياء على اختلاف طبقاتهم ، من الوصايا والمنح[4] .

والمعروف أن هذا الرجل القوى ، نقفور ، هو الذى طالما اعتز بالقديس أثناسيوس واستمع له ، والذى أحب أن يلتف حوله رجال الدين ، ولبس مسوح الرهبان ، وأمر بنقش صورة المسيح على نقوده ، وجعل من نصيبه فى الغنيمة ألف جنيه ذهبى ، ليسهم بها فى تشييد دير لورا Laure بجبل أثوس Athos ، الذى يعتبر أكبر الأديرة وأوفرها ثروة ، وهو الدير الذى فكر نقفور

(١) Ibid p. 395. Camb. Med. Hist. IV. p. 75.

(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 76.

(٣) Ibid p. 76.

(٤) Ostrogorowski p. 254.

فى أن يلجأ إليه فى وقت من الأوقات(١). وما حدث من شدة اهتمام الإمبراطور بالنظام الحربى ، وحرصه على الإكثار من العساكر ، جعله يعالج ما لحق بالجيش من الضرر البالغ ، الذى نجم عن ازدياد عدد الرهبان(٢).

ذلك أن الديرية انتشرت فى جميع أرجاء الإمبراطورية البيزنطية ، فلم تخل قرية أو مدينة أو موضع ، من الأديرة ، بل إن القسطنطينية وأرباضها زخرت بالأديرة حتى صارت المئات منها ، ولم يبخل الإمبراطور أو أفراد أسرته فى الإغداق عليها بالمنح والهبات(٣) . واشتملت أديرة عديدة على عدد كبير من الرهبان ، فإذا كان دير ستوديون وحده ، يحوى نحو ألف راهب ، فكم يكون عدد الرهبان فى آتوس ، وفى أديرة البيلوبونيز ، التى حفلت بجيوش ضخمة من رجال الدين(٤) .

وفى هذه الحقبة من التاريخ ، والتى لم تنقطع فيها الحروب ، التى أهلكت أجيالا عديدة من الرجال ، ندرك ما تعرضت له الإمبراطورية من الخطر ، وما لحق بها من خسارة فادحة ، لكثرة عدد الرهبان ، الذين بلغوا مئات الألوف ، فحرموا بذلك الجيش من سواعدهم القوية ، بل إنهم كانوا فى أحوال عديدة يعتبرون عاملا خطيراً فى إثارة التعصب(٥) .

يضاف إلى ذلك ، ما ترتب على شدة التقوى التى اشتهر بها هذا العصر ، من خروج كثير من الناس عن جانب كبير من أموالهم لتشييد الأديرة ، فأخذت الثروة الأهلية بذلك تنتقل بالتدريج إلى أيدى الرهبان(٦) .

ورد فى القانون الذى أصدره نقفور سنة ٩٦٤ ، أنه نظراً لما استشرى من الجشع والنهم عند الأديرة وغيرها من المؤسسات الخيرية ، وأن حيازة الضياع

---

(١) Schlumberger p. 387 — 388.

(٢) Ibid p. 388.

(٣) Ibid p. 388 — 389.

(٤) Schlumberger p. 389.

(٥) Schlumberger p. 389.

(٦) Ibid p. 389.

الشاسعة ، والاهتمام الشديد بامتلاك أشجار الفاكهة الكثيرة ، لا يعتبر من أحكام الرسل أو من تقاليد الآباء ، أراد الإمبراطور أن يجتث ما يبغضه الله من شرور الطمع . ولتحقيق هذه الغاية ، أمر بمنع تشييد أديرة جديدة . أو بذل أحباس ، ومنح للإنفاق منها على الأديرة والمستوصفات والملاجئ ، أو الخروج عن منح لصالح المطارنة والأساقفة(١). إذ أن ما هو قائم من هذه المؤسسات كثير العدد ، ويكفى المبادرة إلى المحافظة عليها ، لا إلى إنشاء دور جديدة . وتقرر أيضاً منع ما يؤدى إلى زيادة ثرائها ، بما يجرى منحه من الهبات الجديدة من الأراضى ، أو المضى فى زيادة مساحتها . فما هى عليه ، فيه كل الكفاية . وحرم نقفور على الناس أن يوصوا للأديرة والملاجئ أو رجال الكنيسة بحقول أو أراضى أو ضياع(٢) . وطلب نقفور إلى الرهبان المتنسكين أن يلجأوا إلى مواضعهم المهجورة ، بدلا من أن يعيشوا فى ضواحى المدن ، وألا يمتلكوا الأراضى الخصيبة والعقارات الضخمة ، أى أنه أراد أن يعيد إلى الصحراء معظم الرهبان الذين يعيشون بالمدن ، وهذا يتفق مع الروح الأصيلة لنظامهم(٣) .

والواقع أن هذه الخلاصة التى تنطوى على أغراض نقفور ، تعتبر غريبة فى ذلك الحين ، لما اقترنت به من الصراحة ، وتعتبر أيضاً ضربة خطيرة موجهة ضد الرهبانية ، « لم يحز الرهبان شيئاً من الفضائل المسيحية ، فلم يفكروا إلا فى الاستزادة من الأراضى الجديدة ، وفى تشييد العمائر الضخمة ، وفى اقتناء أعداد كبيرة من الخيل والأبقار والإبل وسائر دواب الحمل(٤) ، بذلوا كل ما فى وسعهم من جهد ليصبحوا أغنياء ، على الرغم من أن ما يمارسونه من الحياة لا تختلف مطلقاً عن حياة المدنيين. فما أبعد الفرق بين هذه الحياة الباطلة ، وبين حياة القديسين الذين عاشوا فى القرون السابقة فى مصر وفلسطين والإسكندرية . نحن لا نفكر فى أن نمنع الأتقياء من أن يوصوا بأملاكهم إلى الكنيسة ، إنما ينبغى

---

(١) Vasiliev : op. cit. p. 336.

(٢) Schlumberger p. 390.

(٣) Ibid p. 390.

(٤) Schlumberger : op. cit. p. 391.

أن يكون معروفاً بأنه يحسن استخدام هذا المال فى إعادة بناء الأديرة العديدة التى تداعت وخربت ، والتى تكفى حاجة رجال الدين ، وذلك خير من تشييد أديرة جديدة ، للتباهى بها وللمفاخرة »(١) . ومع ذلك ينبغى أن يجرى بيع الأراضى ، على أن ترصد أموالها على الأديرة والمنشآت الخيرية . وعندئذ يصح أن يكون المشترى لهذه الأراضى من الملاك العلمانيين ، وبذلك يصبح من كبار الملاك ، كما أن إقامة قلايات وأماكن للتنسك فى الجهات المقفرة يعتبر عملا مشكوراً . وعلى الرغم من أن هذا المرسوم لم يستمر العمل به مدة طويلة ، فإنه يدل على ما يتصف به نقفور من المبادئ السياسية والتقوى الفائقة(٢) .

وما حدث من أن نمو أقوى الطبقات فى الإمبراطورية من الناحية الاقتصادية اتخذ وجهة الزراعة ، وتأثر بما جرى من شراء ملك الفلاح ، إنما يجد تفسيراً فى الوضع الاقتصادى بالمدن . اشتدت الحكومة فى التضييق على الأحوال الاقتصادية فى المدن ، فأصبح امتلاك الأرض ، الوسيلة العملية الوحيدة لاستثمار النائض من رأس المال ؛ ومن ثم ازدادت شراهة الأغنياء لشراء أراضى الفلاحين(٣) .

واتخذت حركة حيازة الأرض طريقين : الأول ، التهام ما فى الأقاليم البيزنطية من ملكيات صغيرة ، فتقوض بذلك البناء الاجتماعى للإمبراطورية البيزنطية . أما الطريق الآخر فإنما تم خارج حدود الإمبراطورية ، ويستهدف الاستيلاء على الأراضى من أعداء الإمبراطورية . وما حصلت عليه الدولة من ممتلكات فى الشرق فى القرن العاشر إنما يعتبر من أعمال الأرستقراطية بآسيا الصغرى . ومع ذلك فإن ما جرى فى القرن العاشر من الفتوح يعتبر دليلا على ازدياد سلطة الدولة البيزنطية ، ويعتبر أيضاً نتيجة للحماس الدينى الذى تشبع به البيزنطيون فى نضالهم ضد المسلمين(٤) .

(١) Ibid p. 391. Camb. Med. Hist. IV p. 74.
Ostrogorowski : p. 256.
(٢) Ostrogorowski : p. 255.
(٣) Ibid p. 255.
(٤) Ostrogorowski : p. 255.

وبهذا الحماس الوطنى ، وبفضل رغبته الشديدة ، فى إحياء روح المحارب ، التى أخذت فى الهبوط عند سكان الإمبراطورية لاسيما الذين يعيشون فى الشطر اليونانى منها ، لم يكتف نقفور بمهاجمة الرهبان ، والحرص على وقف تزايدهم ، بل بذل كل جهده فى تحسين حالة الجند ، فصار يكرر دائماً أنه لا يحب إلا الجند ، ويأمل أن يسلك كل فرد طريق الجيش ، بل بلغ به الأمر أن طلب إلى رجال الدين أن يعتبروا من الشهداء ، كل العساكر المسيحيين ، الذين يلقون مصرعهم أثناء النضال ضد غير المسيحيين(١) . وما كان معروفاً فى القرن العاشر فى بيزنطة من تقدير أهمية العقوبات الإلهية ، والتفكير فى الحياة الآخرة ، وكانت التقوى والديانة تعتبر وقتذاك طبيعة ثانية . كاد هذا القرار يؤدى إلى أعمال خارقة ، وإلى أن يخلق الألوف من الأبطال . غير أن سوء الحظ أفسد خطة الإمبراطور نقفور ، ذلك أن البطريرك بوليكتس Polayeuctes ، الذى تجرد من المهارة السياسية ، واشتد انقياده إلى شكلية التعاليم الدينية ، لم يلبث أن أعلن معارضته لهذا القرار ، حينما دعا إلى الأخذ بما جاء فى قاعدة القديس باسيل ، من الحكم بالحرمان من تأدية الشعائر ، مدة ثلاث سنوات ؛ على كل مسيحى يسفك الدماء ، بما فى ذلك الحرب(٢) .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الأتقياء من رجال الدين ؛ المشهورين بشدة إخلاصهم ، لم يعودوا يتفقون مع حاجات هذا العصر الحافل بالعنف والقتل ، فإن قوة الكنيسة ، وتدخلها فى كل الأمور الدينية ، هى التى هزمت نقفور(٣) .

والواقع أن نقفورفوكاس تملكه هذا الحماس ؛ إذ اعتبر أن الحرب ضد المسلمين رسالة مقدسة ، وهذا الشعور خلق قوة حافزة جديدة ، تدفع البيزنطيين للتوسع(٤) .

(١) Schlumberger p. 393.
(٢) Schlumberger p. 394.
(٣) Ibid p. 395.
(٤) Ostrogorowski p. 257.

حروب نقفور

الحرب فى الشرق

ما كادت الجيوش البيزنطية ترتد عن حلب منذ يناير سنة ٩٦٣ ، حتى دخل سيف الدولة حلب ، وانصرف إلى العمل على إزالة ما تخرب منها ، ودأب على أن يعيد إليها ما تفرق من سكانها . وعلى الرغم من كل ذلك فإنها لا زالت مهجورة ، فنقل إليها من استطاع جمعه من سكان مدينة قنسرين المجاورة ، والتى تعرضت أيضا للحرائق على يد البيزنطيين . وأعاد سيف الدولة عمارة أسوار حلب ، وشيد من جديد ميناء أنطاكية[1] .

وحدث فى الشطر الأكبر من سنة ٩٦٣ (٣٥٢هـ) ، من الأعمال الحربية ما يتطلب شيئا من التفصيل . ذلك أنه اجتمع من رجاله الأرمن جماعة كبيرة ، وقصدوا الرها ، فأغاروا عليها ، فحصلوا على غنائم[2] وفيرة . أثار ما حدث من سقوط حلب ، نفوس المسلمين فى الموصل ، فأغلق أهلها الأسواق ، واجتمعوا بالمسجد الجامع لذلك ، والتقوا بالأمير ناصر الدولة الذى وعدهم بالمضى إلى الجهاد[3] .

وفى الخريف بذل سيف الدولة جهداً كبيراً ، فتوجه إلى الأراضى البيزنطية ثلاثة جيوش ، اتخذت ثلاثة دروب مختلفة ، إذ أن عسكر طرسوس أوغلوا فى عدة وافرة حتى وصلوا قونية ، فأوقعوا بالبيزنطيين ، وانتصروا عليهم ، وعادوا بغنائم كثيرة ، فلما ارتدوا إلى الدرب (درب قليقية) ، التقوا على الدرب بقسطنطين ملاينوس (Constantin Maleinos) المعروف عند المؤرخين المسلمين بابن الملايني ، فاشتد القتال بين الجانبين وأحرز

(١) Schlumberger p. 398.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٠٧ .
Canard. p. 817.

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠١ حاشية ١ .
Canard p. 817.

المسلمون النصر[1] . أما نجا غلام سيف الدولة فتوجه من ناحية ملطية ، ثم عاد إلى ميافارقين ، فالتقى بغزاة من خراسان ، تبلغ عدتهم نحو خمسة آلاف رجل ، ويقصدون حلب ، فلم يمض معهم إلى سيف الدولة[2] . وعلى الرغم من المرض الذى ألم بسيف الدولة ، فإنه توغل بعساكره فى الأراضى البيزنطية وحصل من السبى على أكثر من ألفين ، ومن المواشى مائة ألف ، وفرح المسلمون بالنصر على العدو[3] .

وحدث فى الفترة السابقة على هذه الغارات من الفتن الداخلية ما تطلبت من سيف الدولة أن يوجه غلامه نجا إلى حران ، فى طلب هبة الله ابن أخى سيف الدولة الذى أعلن الثورة بالجزيرة ، فنزل نجا على حران ، فخرج أهلها إليه ، فأمر بالقبض عليهم ، وفرض عليهم غرامة قدرها ألف درهم ، واشتد فى تحصيل هذا المبلغ الضخم منهم ، حتى أدوه له[4] .

وفى نهاية السنة ، أخذ البيزنطيون يغيرون من جديد على قليقية ، وتولى قيادتهم فى هذه المرة ، حنا الشمشقيق (زمسكيس) ، الذى صار دمستقا بالشرق[5] . ففى الشتاء (ديسمبر سنة ٩٦٣ — يناير سنة ٩٦٤) نزل الدمستق فى جيش ضخم على المصيصة . فأقام عليها سبعة أيام ، ونقب فى سورها ما يزيد على ستين نقبا ، غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها ، ودفعه أهلها عنها ، فلم يسعه إلا الانصراف بجيشه عنها ، بعد أن تعرض عساكره للهلاك لقلة الأقوات

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠١ حاشية ١ .
ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠٦ . Canard : op. cit. P. 818.

(٢) Canard p. 818
مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠١ .
ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠٦ .

(٣) Canard p. 818
مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠١ حاشية ١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠٦ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٠٧ Canard p. 818

وارتفاع الأسعار ، وبعد أن أقام الدمستق بهذه الجهات خمسة عشر يوماً [١] ، وفى أثناء هذا الحصار حدثت معركة تعتبر من أعنف المعارك ؛ ذلك أن جيشا من طرسوس ، تبلغ عدته خمسة عشر ألف فارس وراجل ، بقيادة أمير طرسوس ، نهض لمساعدة المسلمين فى المصيصة ، فالتقى بهم ابن الشمشقيق فى أرباض أذنه ، فأحرز المسلمون أول الأمر انتصاراً باهراً ، وأخذوا يطاردونهم ، غير أن كمينا للبيزنطيين استطاع أن يحصر نحو أربعة آلاف راجل ، فلقوا مصرعهم . ومن تبقى من العساكر انحازوا إلى تل بعد أن تخاوا عن دوابهم ، وقاتلوا البيزنطيين يومين . وفى اليوم الثالث ، تقدم ابن الشمشقيق صفوف جيشه . فارتقى التل ، والتحم الفريقان فى معركة استحر فيها القتال . برغم قلة عدد المسلمين ، فهلك معظم العساكر الإسلامية ، واشتهر هذا الموضع باسم تل الدم [٢] . وذاع خبر هذه الكارثة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وأمسى اسم ابن الشمشقيق رمزاً للرعب والخوف [٣] .

على أن ما ترتب على غارات النهب والتخريب ، من قلة المؤن ، وازدياد الأحوال الاقتصادية شدة فى شتاء ٩٦٣ ، أدى إلى أن تنسحب جيوش الفريقين من قليقية . فبعد أن أحرق الدمستق أرباض المصيصة وطرسوس وأذنة ، شرع فى الرجوع ، بعد أن ترك حاميات فى بعض الحصون والمواقع [٤] . وتراجع المسلمون إلى ما وراء الأمانوس [٥] . وعلى الرغم من قدوم الخراسانيين لنجدة سيف الدولة ، ونهوضه معهم إلى المصيصة ، فإن ما جرى من

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٠٨ .
Canard p. 818. Schlumberger p. 403.

(٢) Schlumberger. p. 404.
مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٢ حاشية ١ .
Canard p. 819.

(٣) Schlumberger p. 404.

(٤) Schlumberger p. 404.

(٥) Ibid. p. 405.

انصراف البيزنطيين ، وما حدث من شدة الغلاء وقلة الأقوات ، جعلهم يتفرقون فى الثغور ، وعاد سيف الدولة بجماعة منهم إلى حلب ، ورجع أكثرهم إلى بغداد [١] .

وما استولى عليه زمسكيس من المواضع والحصون ، لم تلبث بعد عودته أن عادت إلى يد المسلمين ، برغم ما أشار إليه زمسكيس عند انصرافه عن المصيصة وأذنه وطرسوس ، من أن انصرافه لم يكن « لعجز ، ولكن لضيق العلوفة ، وشدة الغلاء ، وأنا عايد إليكم ، فمن انتقل منكم ، فقد نجا ، ومن وجدته بعد عودتى قتلته [٢] » .

ولما اشتهر به نقفور من حب الجندية ، والنزوع إلى القتال ، ولأن ما حازه من مجد ومكانة ، إنما يرجع إلى حروبه فى آسيا الصغرى ، قرر أن يقود بنفسه الجيش لمواصلة القتال ضد سيف الدولة . فخرج فى ربيع سنة ٩٦٤ من القسطنطينية على رأس جيش ضخم ، اشترك فيه أجناس عديدة ، من أبرزها الأرمن والكرج ، وجماعات من البنادقة والأمالفيين [٣] .

توجه الجيش أول الأمر لمهاجمة عين زربة ، ثم أذنه ، فاستولى عليهما وعلى ما يجاورهما من القلاع التى بلغ عددها عشرين حصنا [٤] ، وإذ اجتاز نقفور الأمانوس دون مقاومة ، أضحى مستعدا للمضى فى غزو بلاد الشام ، بما استولى عليه من الحصون القريبة من الدروب المؤدية إلى الشام . غير أنه حدث ما أدى إلى أن يتوقف الجيش البيزنطى فجأة ، وجرى الاعتقاد بأن السبب يرجع فيما يبدو إلى أن الجيش إنما يستعد للزحف على المصيصة وطرسوس ، حتى إذا قضى نهائياً على ما يتعرض له من هذين الحصنين المنيعين من مقاومة عنيفة ، وساد الأمان الأرض التى تقع من وراء جيوشه ، انطلق لمهاجمة

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٢ .
Canard p. 820.

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٣ . ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠٩ .

(٣) Schlumberger p. 424.

(٤) Schlumberger p. 424.

حلب[١] . غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث[٢] ، والراجح أن السر فى تراجع نقفور عن عزمه ، هو أنه أدرك أن الشتاء صار وشيكا ، فلا يستطيع المضى فى حصار حصنين منيعين مدة طويلة . ولذا رأى أن يتريث ، فعبر بجيشه الجبال من جديد ، وتوجه ليقضى فصل الشتاء عند أطراف قبادوقيا ، حيث لحق بالإمبراطورة والأميرين الصغيرين فى قلعة Drizibion (حاضرة قيصرية[٣] ، وأبقى نقفور حاميات بالمدن التى استولى عليها فى قليقية ، وتفرقت الجيوش إلى مواطنها[٤] .

ثم عاد نقفور للقتال سنة ٩٦٥ (٣٥٤ هـ) وللاستيلاء على المصيصة وطرسوس ، لاسيما بعد أن وقف على ما أصاب البلدين من الضعف ، وأنه لا ناصر لأهلهم ، وأنه لم تبق عندهم أقوات ، حتى لجأ أهل طرسوس إلى أكل الكلاب . فنقض ماسبق أن وعد به أهل البلدين ، بأن يقبل منهم إتاوة يؤدونها إليه ، على أن ينفذ إليهم صاحبا له ليقيم فيهم[٥] . فعزم على أن يرسل جيشاً

---

(١) Ibid p. 425.

(٢) يشير ابن الأثير إلى أنه حدث فى سنة ٣٥٢ (٩٦٤) أن نزل ملك الروم على طرسوس وحصرها ، وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة ؛ سقط فى بعضها الدمستق بن الشمشقيق (زمسكيس إلى الأرض ، وكاد يؤسر ، فقاتل عليه الروم وخلصوه . وأسر أهل طرسوس بطريقا من بطارقة الروم ، ورحل الروم عنهم ، وتركوا عسكراً على المصيصة مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعهم منها أحد ، فاشتد الغلاء على الروم ، وكان شديداً قبل نزولهم ، فلهذا طمعوا فى البلاد لعدم الأقوات عندهم ، فلما نزل الروم زاد شدة ، وكثر الوباء أيضاً ، فات من الروم كثير فاضطروا إلى الرحيل . (انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٤١١) ويتفق مسكويه مع ابن الأثير فى تحديد التاريخ ، وفى جوهر الوقائع ، إنما يختلف المؤرخان فى التفاصيل . (مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٠٨) . وعلى الرغم من أن المصادر اليونانية لم تشر إلى هذه التفاصيل ، واعتبرت أن ما حدث إنما وقع فى سنة ٩٦٥ ، وأن ما صادف نقفور من العقبات ، وشدة البرد ، دفعه إلى أن يغير فى خطته .

انظر (Schlumberger op cit. p. 424, note I.)

(٣) Schlumberger p. 425—426

(٤) المعروف أن هذه الجيوش نهضت من الثغور بآسيا الصغرى . انظر . Schlumberger : op. cit. pp. 410 — 414, 426.

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤١٤ Canard. p. 821.

مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢١٠ . أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٤٨٢

إلى الشام ، وجيشاً إلى الثغور (قليقية) وجيشاً إلى ميافارقين حيث كان سيف الدولة يقضى على فتنة قام بها غلامه نجا[١] . ثم إن نقفور أنفذ إلى المصيصة قائدا من قبله ليحارب أهلها ، ولم يلبث أن قدم بنفسه فأقام عليها ، وفتحها عنوة بالسيف ، ووضع السيف بأهلها ، فأجرى مقتلة مريعة ، ثم أمر أن يساق من بقى فى المدينة من الرجال والنساء والصبيان إلى القسطنطينية ، وكانوا نحو مائتى ألف شخص[٢] .

أما طرسوس ، فإن ما ساد بها من المجاعة ، وما كان من تعذر قدوم مساعدة من قبل سيف الدولة ، الذى انصرف إلى تدبير أمور الجزيرة وأرمينية ، كل ذلك جعل أهلها يعلنون التسليم ، وبذلك حصلوا على شروط لم يحصل على مثلها أهل المصيصة . إذ أنه بعد أن دخل نقفور المدينة ، دعا الرؤساء بها إلى طعامه فأكلوا معه ، وأمرهم بالانتقال عنها ، وأن يحمل كل واحد من ماله وسلاحه ما أطاق حمله ، ويترك ما تبقى ، ففعلوا ، وسير معهم من يحميهم حتى وصلوا إلى أنطاكية ، وجرى حمل بعضهم فى سفن بيزنطية إلى حيث أرادوا[٣] . جعل نقفور من طرسوس مدينة مسيحية ، فاتخذ المسجد اصطبلا لدوابه ، وأحرق المنبر ؛ ونقل ماكان فيه من قناديل إلى بلده ، وعين عليها حاكما من قبله ، وولى على المصيصة حاكما آخر . ثم قام بعمارة طرسوس وتحصينها ، وجلب إليها المؤن من كل جهة ، فرخص بها السعر فتراجع إليها أهلها ، ودخلوا فى طاعة الملك ، وتنصر بعضهم ، وعمل الملك على أن يجعلها حصنا ومعقلا له لمناعتها ولقربها من البلاد الإسلامية[٤] . وفى نفس السنة استولى الأسطول البيزنطى على جزيرة قبرص ، فتدعمت بذلك القوة البحرية البيزنطية[٥] .

---

(١) مسكويه تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٢) مسكويه ، تجارب الأمم جـ ٢ ، ص ٢١١ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤١٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤١٤ — ٤١٥ .

مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢١١ Canard. p. 822

(٤) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٥) Ostrogorowski p. 257.

ولم ترد الإشارة إلى نهوض سيف الدولة وقتذاك لمواجهة البيزنطيين ، وذلك يرجع إلى انصرافه إلى القضاء على الفتن التى نشبت فى الجزيرة وأرمينية وأنطاكية ، وإلى نزوعه إلى مهادنة البيزنطيين وإجراء تبادل الأسرى ، بعد أن أضحت المدن الكبيرة فى قليقية فى يد نقفور [١] .

وجرى الاتفاق على أن يخرج بدل أبى الفوارس محمد بن ناصر الدولة ، ومن معه من بنى عمه ، جماعة من أعيان البيزنطيين ، وأن يفادى بغلمان سيف الدولة ، طائفة من البيزنطيين [٢] . وتم الفداء على مرحلتين ، فى المرحلة الأولى ، جرى فداء المشهورين من الجانبين فى حصن الهتاج ، وفى المرحلة الثانية ، حدث تبادل من تبقّى من الأسرى وذلك سنة ٩٦٦ (٣٥٥ هـ) ، عند مقيله على نهر الفرات ، التى تقع قريباً من سميساط ، ولم يحدث الفداء على نهر اللامس ، كما جرت العادة بذلك ، لأنه أصبح فى داخل الأملاك البيزنطية . وتقرر أن يبتاع ما تبقّى من الأسرى فى البلاد البيزنطية ، كل واحد بثمانين دينارا [٣] .

وبلغ مقدار ما هو مطلوب من الأموال ، لافتداء الأسرى المسلمين ، نحو ٢٠٠ ألف دينار بيزنطى [٤] . والواقع أن أبا الفوارس قام بدور كبير فى تقرير الفداء والهدنة [٥] .

---

(١) لم يتدخل من الأمراء المسلمين فيما حدث من القتال فى قلقية سوى كافور الإخشيدى ، الذى وجه أسطولا بقيادة فتح الثملى ، وكان يحمل مؤناً وقمحا لأهل طرسوس ، غير أن البيزنطيين حالوا دون تفريغها ، فعاد فتح ، وتعرضت سفنه لهجوم البيزنطيين ، وحطمت العواصف عدداً منها .
انظر مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٣ حاشية ١ .
(Canard p. 8 ×)

(٢) ومن أعيان البيزنطيين ، ابن أخت نقفور وأبوه — مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢١٣ حاشية ١ .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢١٣ حاشية ١ .

(٤) Canard I. p. 824.

(٥) المعروف أن أبا فراس ظل أربع سنوات فى أسر البيزنطيين بالقسطنطينية ، وحاول أن يحمل سيف الدولة على افتدائه ، حتى تم ذلك فى أوائل سنة ٩٦٦ . وكان قد أسر فى الغزوة الأولى التى قام بها نقفور ضد حلب ، قبل أن يتولى الملك .
انظر Schlumberger p. 144 — 145.

وتشير بعض الروايات إلى أنه تقرر عقد هدنة بين الجانبين ، وأن البيزنطيين انتهكوا هذه الهدنة ، فسار نقفور بجيوشه إلى الشام ، فعاث وأفسد بالبلاد ، وعندئذ أرسل سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة (الموصل) ، وينهى إليه أن الإمبراطور عسكر بالدرب ، ومنع رسوله الذى وجهه إليه لإتمام الصلح ، من أن يكتب إليه ، وأعلن نقفور بأنه سوف لا يجيبه إلا من أنطاكية ، وينبغى أن يرحل (سيف الدولة) من الشام ويمضى إلى بلده ؛ ويهادن عنه ، إذ أن أهل أنطاكية بذلوا الطاعة لنقفور ، وقرروا أن يحملوا إليه مالا . ورأى الإمبراطور أنه لابد من المسير إلى بيت المقدس . بعد أن تعرض المسيحيون فيه إلى اعتداء السكان ، ولم ينهض كافور لإعادة حقوق كنيسة القيامة [١] .

وبينما كان سيف الدولة يقوم بتنظيم الدفاع عن حلب ، أغارت القوات البيزنطية على إقليم الجزيرة ، فقصدوا مدينة آمد ، ونزلوا عليها وحصروها ، غير أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، فانصرفوا إلى دارا ، واقتربوا من نصيبين ، فالتقوا بقافلة قادمة من ميافارقين ، فأخذوها ، وهرب الناس خوفاً منهم [٢] . وفى الشام ، استولى البيزنطيون على بالِس ، ثم نزلوا على منبج ، فأحرقوا الربض . غير أن نقفور لم ينزل الأذى بمدينة منبج ، فسار إلى وادى بطنان متجهاً نحو حلب [٣] . فراسل سيف الدولة نقفور فى أمر الصلح ، على أن يؤدى له مالا ، غير أنه رفض ، وأصر على أن يتنازل له سيف الدولة عن نصف الشام . ومن الطبيعى ألا يستجيب لنقفور ، وبعد أن أفسد البيزنطيون بأعمال حلب ، وجرت بينهم وبين العربان اشتباكات ، توجهوا إلى أنطاكية ، فحصروها ثمانية أيام ليلا ونهاراً ، وبذل نقفور الأمان لأهلها فأبوا ،

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٤٩٦ .
Canard I. p. 825.
مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ، ص ٢٢٠ حاشية ١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٢٣ .
Canard I. p. 825.

(٣) مسكويه ، تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٢١ . حاشية ١ .

وحاربوه أشد حرب ، وكان عسكره يفتقر إلى العلوفة وللمؤن ، فقرر نقفور الانسحاب إلى الأراضى البيزنطية[١] .

وبعد أن انسحب الإمبراطور ، أواخر سنة ٩٦٦ م . دخل سيف الدولة حلب ، ومعه قوم من الخراسانية ، غير أن نشاطهم لم يجر إلا بعد وفاة سيف الدولة فى فبراير سنة ٩٦٧ . أما نقفور فإنه لم يرجع لمواصلة حروبه فى الشرق إلا سنة ٩٦٨ ، لانصرافه إلى قتال البلغار[٢] .

وما تلى وفاة سيف الدولة من حروب بين المسلمين والبيزنطيين ، إنما تتصف بأنها حروب بين الدولة البيزنطية والشرق الإسلامى ، لا الحمدانيين . فالأمراء الحمدانيون أضحوا ، بعد وفاة سيف الدولة ، من الضعف ما جعلهم يتعرضون لضغط وخطر البويهيين ، الذين تطلعوا إلى الاستيلاء على الموصل ، كما تعرضوا أيضاً لخطر الفاطميين الذين أرادوا أن يستولوا على حلب ، يضاف إلى ذلك ما وقع بين أفراد الأسرة من الحروب الداخلية[٣] . ولم يكن عسيراً على الدولة البيزنطية أن توطد سلطانها فى هذه الجهات ، لولا انصرافها إلى الحروب فى أوربا والغرب وسوريا . ولم يكن للأمراء الحمدانيين من الصفات ما تحلّى بها سيف الدولة ، فصاروا يعهدون بقيادة الجيوش إلى قادتهم ، بعد أن كان يتولاها سيف الدولة . كما أن روح الجهاد الدينى أخذت تخبو عند خلفاء سيف الدولة ، الذين لم يجدوا غضاضة فى الالتجاء إلى بيزنطة ، إذا اقتضت مصالحهم[٤] ذلك .

أما الدولة البيزنطية فاتخذت خطة الهجوم والتوسع ، ورأى الأباطرة أن

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ، ص ٢٢١ . حاشية ١ .
ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٤٢٣ .
Canard I. p. 826. Ostrogorowski p. 257.

(٢) Canard I. p. 826.

(٣) Canard I. p. 830

(٤) Ibid I. p. 830.

يستردوا ما فقدوه من ممتلكات ، بما فى ذلك فلسطين والأراضى المقدسة ؛ وسرى فى القسطنطينية وقتذاك روح الحرب الصليبية[١] .

سبق أن أشرنا إلى الغزاة الخراسانيين ، ويبدو أنهم شنوا غاراتهم فى جهتين : الجهة الأولى ، التخوم البيزنطية الأرمنية ، والجهة الثانية ، أنهم ساروا من أنطاكية بصحبة لؤلؤ الجراحى إلى جهة المصيصة ، والجهات التى استولى عليها البيزنطيون أخيراً ، فانتصروا ، وأسروا عدداً غير قليل من البيزنطيين وحصلوا على غنائم وفيرة ، ثم عادوا إلى أنطاكية[٢] .

وقدم نقفور مرة أخرى سنة ٩٦٨ (٣٥٧ هـ) إلى الشام ، ونازل معرة مصرين فأخذها ، ثم نزل على معرة النعمان فأحرق جامعها ، وكان الناس قد هربوا فى كل الجهات إلى الحصون والبرارى والجبال المنيعة . ثم سار إلى كفر طاب وشيزر ثم إلى حماه وحمص ، فدخلها وصلى بكنيستها وأحرق جامعها ، ثم سار إلى عرقة فافتتحها ثم سار إلى طرابلس فأخذ ربضها ، ثم رجع إلى أنطاكية فأرضاه أهلها بمبلغ كبير من المال[٣] . غير أن نفاد المؤن والقوت ، وصعوبة المسير بالطرق بسبب الأمطار أرغمه على الارتداد . إنما جدد حصن بغراس ، وجعل به حامية تحت قيادة ميخائيل بورتزس (البرجى) Michel Bourtzes[٤] . وظل الإمبراطور فى سوريا شهرين ، يحرق الجوامع ، ويخرب القرى ، ووقع فى أسره عدد كبير[٥] .

---

(١) Canard, I. p. 830.

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ، ص ٢٢٨ حاشية ١ .

(٣) مسكوية : تجارب الأمم ج ٢ ، ص ٢٥٤ حاشية ١ .
Canard, I. p. 831.

(٤) وحصن بغراس ، وهو الذى اشتهر أيضا بحصن لوقا ، إنما يقع على الدرب الرئيسى ، الذى يمتد ، عبر الامانوس ، من أنطاكية إلى الإسكندرونة ، ثم إلى البحر . وجعل نقفور على هذا الحصن بورتزس الوارد فى المصادر العربية باسم البرجى ويشرف على كل مواقع الأطراف ويخضع لسلطانه قادة الحاميات بهذه المواقع ، ويجرى تخزين محصولات القرى المجاورة فى هذا الحصن Schlumberger, p. 708 .

(٥) Canard, I. p. 832.
ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٤٠ — ١٤١ . ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب — نشر الدهان ، ج ١ ص ١٥٩ .

وما اتخذه نقفور من إجراءات إنما قصد بها الاستيلاء على أنطاكية . وجعل على القيادة العليا بطرقاً آخر اشتهر بمعاناته للحروب ضد المسلمين ، وهذا البطرق هو ابن ليو أخى نقفور ، وهو بطرس فوقاس المعروف فى المصادر الغربية باسم الطرْبازى (الاصطراطوبدرخ Stratopedarque)[١] .

ويخضع لأوامر بطرس فوقاس كل الحاميات المرابطة فى القلاع والمواقع الحصينة المتناثرة بجبال طوروس ، والمرابطة أيضاً فى الحصون الواقعة بأعالى الشام . وأصدر الإمبراطور الأوامر بحشد عدد كبير من العساكر ، فصار تحت بطرس من العساكر ما يضارع فى العدد عساكر بورتزس (البرجى) . وعهد إليه بأن يحمى من غارات العساكر الحلبية ، ما عزم البيزنطيون الاستيلاء عليه ، من هضبة أعالى الشام والساحل الفينيقى . يضاف إلى ذلك أنه طلب إليه أن يغير على الأماكن والجهات التى يحل بها العدو فلا يجعلهم يخلدون إلى الراحة[٢] . وما جرى من الأحداث الداخلية أدى إلى ضعف قوة الدفاع عن المدينة ، وبفضل مساعدة المسيحيين بأنطاكية ، والمسيحيين من حصن بوقا (لوقا ، بغراس) ، استطاع البرجى (بورتزس) أن يستولى على جانب من سور أنطاكية ، بعد أن أهمل أمره المسلمون ، وغفلوا عن حراسته ، ولم يلبث أن استولى عليها (أنطاكية) بأجمعها بالاشتراك مع بطرس فوقاس (الاسطرطوبدرخ) ، وذلك فى أكتوبر سنة ٦٦٩ (ذى الحجة ٣٥٨ هـ)[٣] ، فوضع البيزنطيون السيف فى أهلها ، وأخذوا الشباب من الرجال والنساء ، والصبيان والصبايا ، فحملوهم سبياً إلى بلادهم ، وكانوا يزيدون على عشرين

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ، ص ١٦١ Schlumberger, p. 710.

(٢) Schlumberger, p. 710.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٦٢ Canard, I. p. 832.

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٤ . Schlumberger, p. 710.

تشير الرواية العربية إلى أن جماعة من المسيحيين بحصن لوقا ، جرى نقلهم إلى أنطاكية ، ليعينوا البيزنطيين على فتح أنطاكية . ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٤٤٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٦٢ .

ألف شخص[١] . والواقع أن أنطاكية وقتذاك لم تخضع تماماً لسلطان الحمدانيين ، بل غلب على أمرها أحد الأكراد ، ثم رجل أسود من الرجال الذين كانوا يرابطون فى طرسوس من قبل مصر[٢] ، وهو المعروف بالرعيلى ، الذى انضم إليه جماعة ، غير أنه لم يقاوم البيزنطيين فهرب من جهة البحر .

أما حلب فاغتصب الحكم بها الحاجب قرغويه ، وذلك سنة ٩٦٨ م (٣٥٨هـ) ، غير أن أبا المعالى بن سيف الدولة حصره بها . على أن قرغويه استطاع أن يجذب إلى جانبه أهل حلب ، بعد أن أوقفهم على ما تتعرض له مدينتهم من الخطر البيزنطى ، وبما قام به من عمارة القلعة وتحصينها ، وعمارة أسوار المدينة وتقويتها[٣] . وقطع قرغوية الدعاء لأبى المعالى سعد الدولة ، وأمّر غلامه بكجور ، وشاركه فى الحكم ، وجرى الدعاء لهما على المنابر ، وكتب اسم بكجور على السكة ، وكان يخاطب قرغويه بالحاجب ، وغلامه بكجور بالأمير[٤] .

وتهيأت الفرصة للبيزنطيين أن يمدوا فتوحهم ، ذلك أنه ما كادت تسقط أنطاكية فى أيديهم حتى هرع بطرس فوقاس (الطربازى) إلى حلب لمساعدة قرغويه ضد أبى المعالى سعد الدولة ؛ ولما علم أبو المعالى بقدوم البيزنطيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص ٤٤٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٦ Canard I. p. 832 .

يرى المؤرخون الغربيون أن سقوط أنطاكية فى أيدى البيزنطيين إنما هو نذير بأن سقوط سوريا بأسرها فى أيديهم أضحى وشيك الوقوع ، وعلى الرغم من أن هذا الأمل لم يتحق فى عهد الأباطرة الذين خلفوا نقفور ، فالواقع أن أنطاكية ظلت ما يزيد على قرن فى أيدى البيزنطيين ، ولم تخرج من أيديهم إلا قبيل الحروب الصليبية ، حين استولى عليها السلاجقة سنة ١٠٨٥ ، غير أنها لم تستمر فى حوزتهم إلا فترة قصيرة ، إذ لم تلبث أن سقطت فى أيدى الصليبيين فى يونيه سنة ١٠٩٨ . أضحت أنطاكية ، بعد استيلاء البيزنطيين عليها ، حاضرة لحكومة الطُرف الجنوبى ، وطالما تعرضت لغارات المسلمين ، ولذا جرى الاهتمام بعمارتها وتحصينها ، وتألفت منها وما يجاورها من الأملاك حكومة عسكرية ، تولى أمرها قادة عسكريون أكفاء ، جمعوا فى أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية ، واتخذ حاكمها لقب دوق لما لها من أهمية حربية .

انظر Schlumberger, p. 726.

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٦٠ Schlumberger p. 713.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ١٦١

انسحب إلى معرّة النعمان[١] . والواقع أن البيزنطيين لم يقدموا فحسب لمساعدة قرغويه ، إنما جاءوا طمعاً فى الاستيلاء عليها ، فحاصروها ، واشتد قرغويه فى مقاومتهم ، وظل الحصار البيزنطى ما يقرب من شهر ، وتحصن أهل البلد بالقلعة ، وهاجم البيزنطيون المدينة من جهة الشمال ، فملكوها ، ثم حصروا قلعتها بعد أن لجأ إليها قرغويه وعسكره ، على أن المفاوضات لم تلبث أن جرت بين قرغويه وبين بطرس فوقاس ، وانتهت بعقد معاهدة ، وذلك فى صفر ٣٥٩ ، (ديسمبر ٩٦٩ — يناير سنة ٩٧٠) ، وهذه المعاهدة أوردها بالتفصيل المؤرخ كمال الدين بن العديم ، وعنه نقلها سائر المصادر العربية والأوربية[٢] .

وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر عقد هدنة دائمة مقابل ما يأتى : —

١ — أن يحمل قرغويه ، إلى (ملك الروم فى كل سنة)[٣] ، عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التى وقعت الهدنة عليها ، دينار قيمة ستة عشر درهما إسلامياً[٤] .

٢ — أن يحمل إليهم (إلى البيزنطيين) ، فى كل سنة ، عن البلاد التى وقعت الهدنة ، سبعمائة ألف درهم[٥] .

٣ — والبلاد التى جرت الإشارة إليها هى : حمص ، وجوسيّة[٦] ،

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٣ Sch umberger p, 728.

(٢) Canard I. p. 833.

انظر ، ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٨ .

(٣) ما بين الحاصرتين عن يحيى بن سعيد ص ١٣٦ ، انظر ابن العديم : زبدة الحلب . ج ١ ، ص ١٦٣ حاشية ٥ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٦٦٣ Canard I. p. 833.

(٥) وهذه البلاد هى الواقعة فى داخل حكم قرغويه ، فتؤدى ثلاثة قناطير عن حق الأرض ، وسبعة قناطير ذهب عن خراج هذه الأعمال ، ويؤدى كل رجل حالم دينارا واحداً فى السنة . انظر : ابن سعيد ص ١٣٦ ، وجميع ذلك جرى تقديره بنحو ٤٤ ألف قطعة ذهبية .

انظر Sch'umberger p. 730

(٦) من قرى حمص ، على مسافة ٣٥ كيلو مترا منها ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٤ حاشية ٥ .

وسلمية ، وحماة ، وشيزر ، وأفامية ، ومعرة النعمان ، وحلب ، وجبل السماق ، ومعرة مصرين ، وقنسرين ، والأثارب إلى طرف البلاط[١] ، الذى يلى الأثارب وهو الرصيف ، إلى أرحاب[٢] ، وإلى ماسوفان[٣] ، إلى كيمار[٤] ، إلى برصايا[٥] ، إلى المرج الذى هو قريب غزاز ، ويمين الحد كله لحلب ، والباقى للروم .

ومن برصايا يميل (الحد) إلى الشرق ، ويتصل بوادى أبى سليمان إلى فج سنياب[٦] ، إلى ناقوذا ، إلى أوانا ، إلى تل حامد ، إلى يمين (نهر) الساجور ، إلى مسيل الماء ، إلى أن يمضى ويختلط بالفرات .

٤ — شرطوا أن الأمير على المسلمين قرغويه ، والأمر بعده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميرا ، يختاره من سكان حلب ، وليس للمسلمين أن ينصبوا أحدا .

٥ — لايؤخذ من نصرانى جزية فى هذه الأعمال ، إلا إذا كان له بها مسكن أوضيعة .

٦ — وإن ورد عسكر إسلامى ، يريد غزو الروم (البيزنطيين) ، منعه قرغوية ، وقال له « امض من غير بلادنا ولا تدخل بلد الهدنة » . فإن لم يسمع

(١) تقع شمال الأثارب ، على مسافة سبعة كيلومترات . ابن العديم زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٦٤ ، حاشية ٦ .

(٢) تقع فى الشمال الشرقى من البلاط ، فى قضاء جبل سمعان . انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٦٤ حاشية ٦ .

(٣) لعلها باسوفان ، وتقع أيضاً فى جبل سمعان . انظر Canard I. p. 833

انظر ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٦٤ حاشية ٧ .

(٤) كيمار على مسافة ١٢ كيلومتر من ماسوفان . ابن العديم زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٤ حاشية ٨ .

(٥) برصايا ، هضبة قرب اعزاز وتقع الشمال الغربى منها .

انظر ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٤ حاشية ٩ .

(٦) وهو الآن Sinob—su فى شمال كلس . انظر ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٦٥ حاشية ١ .

ذلك أمير الجيش قاتله ، ومنعه ، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازى لينفذ إليه من يدفعه .

٧ — ومتى وقف المسلمون على حال عسكر كبير ، كتبوا إلى الملك ، وإلى رئيس العسكر ، وأعلموهما به ، لينظروا فى أمرهما .

٨ — وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الإسلام ، تلقاه بكجور إلى المكان الذى يؤمر بتلقيه إليه ، وأن يشيعه فى أعمال الهدنة ؛ ولا يهرب من فى الضياع ليبتاع العسكر الرومى ما يحتاجون إليه ، سوى التبن ، فإنه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شىء .

٩ — ويتقدم الأمير بخدمة العساكر الرومية إلى الحد ، فإذا خرجت من الحد ، عاد الأمير إلى عمله .

١٠ — وإن غزا الروم غير ملة الإسلام ، سار إليه الأمير بعسكره ، وغزوا معه كما يأمر .

١١ — وأى مسلم دخل فى دين النصرانية ، فلا سبيل للمسلمين عليه ، ومن دخل من النصارى فى ملة الإسلام ، فلا سبيل للروم عليه .

١٢ — ومتى هرب عبد مسلم أو نصرانى ، ذكراً كان أو أنثى ، من غير الأعمال المذكورة إليها ، لايستره المسلمون ويظهرونه ، ويعطى صاحبه ثمنه ، عن الرجل ستة وثلاثون دينارا ، وعن المرأة عشرون دينارا رومية ، وعن الصبى والصبية خمسة عشر دينارا . فإن لم يكن له ما يشتريه أخذ الأمير فى مولاه ثلاثة دنانير ، وسلمه إليه .

١٣ — فإن كان الهارب معمداً ، فليس للمسلين أن يمسكوه ، بل يأخذ الأمير حقه من مولاه ويسلمه إليه .

١٤ — وإن سرق سارق من بلاد الروم ، واختفى هاربا أنفذه الأمير إلى رئيس العسكر الرومى ليؤدبه .

١٥ — وإن دخل رومى إلى بلد الإسلام فلا يمنع من حاجته .

١٦ — وإن دخل من بلد الإسلام جاسوس إلى بلد الروم أخذ وحبس .

١٧ — ولا يخرب المسلمون حصنا ، ولايحدثوا حصنا ، فإن خرب شىء أعادوه .

١٨ — ولا يقبل المسلمون أميرا مسلما ، ولا يكاتبوا أحدا ، غير الحاجب وبكجور . فإن توفيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميرا من بلاد الإسلام ، ولا يلتمسوا من المسلمين معونة ، بل ينصب لهم (الإمبراطور) من يختاره من بلاد الهدنة . وينصب لهم الملك بعد وفاة الحاجب (قرغويه) وبكجور ، قاضيا منهم ، يجرى أحكامهم على رسمهم .

١٩ — وللروم أن يعمروا الكنائس الخربة فى هذه الأعمال ، ويسافر البطارقة والأساقفة إليها ، ويكرمهم المسلمون .

٢٠ — وإن العشر الذى يؤخذ من بلد الروم ، يجلس عشار الملوك مع عشار قرغويه وبكجور . فمهما كان من التجارة من الذهب ، والفضة ، والديباج الرومى ، والقز غير معمول ، والأحجار ، والجوهر ، واللؤلؤ ، والسندس ، عشّره عشار الملك . والثياب والكتان والبزيون[1] ، والبهائم ، وغير ذلك من التجارات ، يعشره عشار الحاجب وبكجور بعده ، وبعدهما يعشر ذلك كله عشار الملك .

٢١ — ومتى جاءت قافلة من الروم ، تقصد حلب ، يكتب الزروار[2] ، المقيم فى الطرف إلى الأمير ، ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ، ويوصلها إلى حلب وإن قطع الطريق عليها بعد ذلك ، فعلى الأمير أن يعطيهم ما ذهب ، وكذلك إن قطع على القافلة أعراب أو مسلمون فى بلد الأمير ، فعلى الأمير غرامة ذلك .

---

(١) ما ورد فى ابن العديم : زبدة الحلب . نشر الدهان ، ج ١ ، ص ١٦٨ « المزيون » ويشير الناشر أنه لم يهتد إلى قراءة اللفظ فوضع رسمه . وما هنا من Canard I. p, 835 وهو يعتبر من المنسوجات الحريرية ، محلاة بأزهار مرسومة فى ألوان مختلفة .

(٢) أورد ابن حوقل (صورة الأرض — نشر كرامرز ، ص ١٩٦) تفصيل المناصب البيزنطية ، فمن هذه المناصب « الدمستق ، ثم البطارقة ، وهم اثنا عشر رجلا لا ينقصون ولا يزيدون بوجه ، وإذا هلك أحدهم قام مقامه من يصلح له ، ثم الزروارة ، وهم كثرة لا يحصون كالقواد اللاحقين بالأمراء » ، وجعل شلمبرجر الزروار ، رئيسا مقيما على الطرف . Schlumberger p. 733.

ووقع على هذه المعاهدة جماعة من شيوخ حلب مع قرغويه وبكجور ، اللذين بعثا بالرهائن ضمانا لتنفيذ المعاهدة[١] . وما انطوت عليه هذه المعاهدة من حقوق لبيزنطة ، جعلتها أشبه ما تكون بمعاهدة حماية . فإذ وثق الإمبراطور من إخلاص قرغويه وبكجور ، حرص على أن يكون له الحق فى أن ينصب من بعدهما أميرا يثق فى ولائه لبيزنطة ، ولعله كان يرمى من وراء ذلك إلى أن تنضم حلب بالتدريج إلى ممتلكاته . إذ صار أمير حلب مرتبطا بالإمبراطور بالتزامات حربية وسياسية بالغة الشدة . ومن الملحوظ أيضا أن هذه المعاهدة حرصت على ألا يعود الحمدانيون مرة أخرى إلى حكم حلب ، ومنعت أهلها من أن يقبلوا أميرا من بلاد الإسلام[٢] .

على أن ما هو أهم من ذلك ، أن دخل فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية ما يقع إلى غرب حلب وشمالها من إقليم العواصم وجبل النصرية . فصارت حدود بيزنطة تتاخم حدود سوريا الوسطى ومصر[٣] .

غير أن ما انطوت عليه هذه المعاهدة من نصوص تتعلق بالممتلكات ، لم يلبث أن جرى إغفال جانب منها ، ذلك أن أبا المعالى سعد الدولة الحمدانى ، الذى أقام بحمص ، مد سلطانه حتى معرة النعمان ؛ وطلب إليه الحاجب (قرغويه) وبكجور أن يؤدى إلى البيزنطيين قسطا من مال الهدنة ، فلم يستجب لهما[٤] . كما أن البيزنطيين لم يحتلوا كل المنطقة التى أصبحت فى أيديهم[٥] .

والمعروف أن هذه المعاهدة تم إبرامها قبيل مصرع الإمبراطور نقفور فوقاس ، الذى حدث فى ١١ ديسمبر سنة ٩٦٩ ، فخلفه على حكم الإمبراطورية حنا زمسكيس[٦] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢) Canard I. p. 836.

(٣) Ibid I. p. 837.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٥) Canard I. p. 837.

(٦) أشار نقفور فى رسالته إلى الخليفة المطيع ، بأنه سوف يستولى على دمشق ومصر وبغداد . واعتبر أن الاستيلاء على طرسوس ليس إلا تمهيداً للاستيلاء على بيت المقدس . انظر : Canard, I. p. 837

والواقع أن ما حدث بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية والمنازعات ، هيأ للبيزنطيين الفرصة للاستيلاء على ما استولوا عليه من البلاد ، وليس أدل على ذلك من إشارة ابن الأثير[١] ، حينما استولى البيزنطيون على ملاذ كرد سنة ٩٦٩ ، « بأنه عظمت شوكتهم ، وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد ، وصارت كلها سايبة ، لا تمنع عليهم ، يقصدون أيها شاءوا » . ويشير أيضاً إلى أطماع نقفور ، « جعل همته قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها وتم له ما أراد ، باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض ، فدوخ البلاد . وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه ، فيضعف البلاد فيملكها . وغلب على الثغور الجزرية والشامية ، وسبا وأسر ما يخرج عن الحصر ، وهابه المسلمون هيبة عظيمة ، ولم يشكوا فى أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر ، لخلو الجميع من مانع »[٢] . ويذكر المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكى : أن المسلمين أيقنوا أن نقفور سوف يستولى على كل بلاد الشام وسائر الأقاليم ، إذ أن غارات نقفور أضحت متعة لعساكره ، إذ لم يتعرضوا لأى هجوم ، ولم يعترضهم أحد ، يسير أينما شاء ، ويدمر ويخرب ما يريد ويشتهى ، دون أن يلتقى بأحد من المسلمين ، أو بمن يحول دونه أو يمنعه من أن يعمل ما يريد . فليس فى استطاعة أحد أن يرده أو يقاومه[٣] . أما المؤرخ اليونانى ، الذى عاصر تلك الأحداث ، وهو ليو الشماس فإنه أشار إلى أنه « لولم يلق نقفور مصرعه ، لاستطاع أن يمد أطراف دولتهم (البيزنطيين) إلى الهند شرقاً . وإلى تخوم الأرض غربا ، أى إلى المحيط الأطلسى[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ٤٤٧ .

(٣) Histoire de Yahia ibn Said d' Antioche. ed. and Trans. J. Kratchovsky and A. A. Vasiliv, Patrologia Orientalia, VIII (1924) pp. 825 — 826.

وفى طبعة شيخو ص ١٣٥

(٤) Varsiliev, p. 309.

الحرب ضد المسلمين فى صقلية :

سبق الإشارة إلى ما حدث سنة ٩٦١ من تجديد الهدنة بين الفاطميين والبيزنطيين فى صقلية ، وإلى أن البيزنطيين ظلوا يدفعون للفاطميين ما هو مقدر عليهم من الجزية ، حتى زمن نقفور فوقاس[١] ، ومقدارها ١١ ألف دينار (نوميزما)[٢] . والمعروف أن الحسن بن على الكلبى كان يحكم صقلية من قبل الفاطميين . ولما مات الخليفة المنصور الفاطمى ٣٤١ ﻫ (٩٥٠ م) ، سار عنها إلى إفريقية ، واتصل بالمعز بن المنصور ، واستخلف على صقلية ابنه أبا الحسن أحمد[٣] .

وحينما تولى نقفور عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة ٩٦٣ — بعد أن تبدلت أحوال بيزنطة ، بما حازه نقفور من انتصارات فى الشرق وبعد أن استعاد كريت وردّها إلى الدولة البيزنطية ، وأعاد تنظيم الجيش — رأى من العار أن يدفع الجزية للمسلمين بصقلية ، فمنع إرسال الأموال المقررة جزية إلى بلرم . والواقع أن نقفور قدّر أنه يستطيع أن يهزم المسلمين فى صقلية بالاعتماد على سكانها من المسيحيين ، والإفادة من كراهيتهم للمسلمين ، فسيّر المسلمون فى سنة ٩٦٢ (٣٥١ ﻫ) ، جيشا بقيادة أحمد بن الحسن ، إلى إلى قلعة طبرمين Taormina بصقلية ، وكانت بيد البيزنطيين ، فحصروها وهى من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين ، فامتنع أهلها . ودام الحصار عليهم ، فلما رأى المسلمون ذلك ، عمدوا إلى الماء الذى بداخلها ، فقطعوه عنها ، وأجروه إلى مكان آخر . فاشتد الأمر عليهم ، وطلبوا الأمان . على أن يؤمنوا على دمائهم ، ويكونوا رقيقا للمسلمين ، وأن تكون أموالهم فيئا . فأجيبوا إلى ذلك ، وأخرجوا من البلد ، فامتلكه المسلمون فى ذى القعدة ٣٥١ (٢٤ ديسمبر سنة ٩٦٢) . وكانت مدة الحصار سبعة أشهر

(١) انظر ما سبق ص ٤٢٨ .

(٢) Schlumberger p. 438.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٢٨١ Ibid p. 440

ونصفا ، وسكن القلعة نفر من المسلمين ، وصارت تعرف بالمعزية نسبة إلى المعز العلوى ، صاحب أفريقية ، والذى تم للفاطميين فتح مصر فى عهده[١] .

وبسقوط طبرمين ، أضحى بيد المسلمين صقلية بأكملها ما عدا مدينة صغيرة تقع بالجانب الشرقى منها ، وهى المعروفة بمدينة رمطة Rametta . فهذا المعقل لم يكن من السهل الوصول إليه ، لاختفائه بالجبال الواقعة فى أقصى الطرف الشمال الشرقى من الجزيرة ، غير بعيد من مسينا ، ويعتبر آخر معاقل البيزنطيين فى صقلية ، غير أنه لم يلبث أن سقط فى يد المسلمين ، بعد أن عجزت بيزنطة عن إنقاذه[٢] . ذلك أن المسلمين بعد استيلائهم على طبرمين ، قرروا أن يستولوا على رمطة ، وأن يقضوا على ما تبقى من المقاومة فى هذا الجزء الشرقى من الجزيرة[٣] ، فسار جيش إلى رمطة مع الحسن بن عمار فحصروها وضيقوا عليها[٤] ، وذلك فى ٢٣ أغسطس سنة ٩٦٣ ، أى بعد سبعة أيام من تتويج نقفور إمبراطورا[٥] .

وإذ اشتد تأثر نقفور بما حل بطبرمين من الكوارث ، ولما أدركه من الخطر الذى تتعرض له الحامية البيزنطية فى رمطة ، قرر أن يبادر بإرسال النجدات لمنع سقوطها فى يد المسلمين ، ولا شك أن ما تعرض له هذان الموقعان من هجمات ، وما أحس به نقفور من المهانة بدفع الجزية للمسلمين فى الغرب ، على الرغم من انتصاره عليهم فى الشرق ، كل ذلك دفعه إلى أن يرسل حملة لإنقاذ صقلية ، وما منعه عن قيادة هذه الحملة بنفسه ، سوى انصرافه إلى الحروب بالشام[٦] . وعلى الرغم من النشاط الوافر الذى بذله فى الإعداد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٠٣ — ٤٠٤ . Schlumberger p. 442.

(٢) Schlumberger p. 442.

(٣) Ibid p. 442.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠٤ .

(٥) Schlumberger p. 442.

(٦) Schlumberger p. 443.

لهذه الحملة ، فإن الأسطول البيزنطى لم يتحرك إلا أثناء سنة ٩٦٤ ، لإنقاذ رمطة(١) .

جعل نقفور قيادة الحملة ، على الأقل عند إنزال الفرسان إلى البر لوفرة عددهم ، إلى ابن عمه البطرق مانويل ، ابن الدمستق ليو فوقاس . وبرغم ما اشتهر به مانويل من النشاط والشجاعة ، فإنه ، على حد قول بعض المؤرخين ، لم يكن كفئا ليتحمل مسئولية هذه الحملة الضخمة لصغر سنه ، وشدة عناده ، وتجرده من الرزانة والتعقل(٢) .

أما قيادة الأسطول ، وتوجيه العمليات الحربية ، فصارت فى يد الطواشى نيكيتاس Nicetas ، شقيق ميخائيل حاجب الإمبراطور . ولم يكن نقفور موفقاً فى هذا الاختيار ، ولعل انصرافه إلى الحرب فى الشام ، أخفى عنه عيوبه . فعلى الرغم من شهرة نيكيتاس بالتقوى الشديدة ، والثقافة الواسعة فى أمور الكنيسة ، لم يكن فى وسعه أن يتولى القيادة العسكرية أياً كانت صفتها ، ويعتبر هذا التعيين من قبل نقفور من الأخطاء الخطيرة التى ارتكبها . أما الشخص الثالث الذى صحب الحملة ، باعتباره مستشاراً ، والمشهور بالبر والتقوى ، والحاكم المقبل للثغور الإيطالية بعد إعادة عمارتها ونظمها ، فهو نقفور الشيخ ، الذى اشتهر فيما بعد بأنه أسقف ميليه Milet وحاكم إيطاليا البيزنطية(٣) . وهذا الرجل الصالح تعلق منذ زمن قديم بالحياة الكنسية ، ولذا أقام بالقسطنطينية ، بين جماعة رجال الدين بالبلاط(٤) . وارتقى فى سلك الوظائف فى سرعة . وفى الوقت الذى نتحدث عنه ، أوشك أن يصل إلى أرقى المناصب الأسقفية . اشتهر باتزانه وحكمته ، وروحه الهادئة . وجعل الإمبراطور منه مساعداً للبطريق مانويل فوقاس فيما يتعلق بالشئون الدينية ومستشاراً له . واهتم الإمبراطور فى

(١) Ibid p. 443.

(٢) Ibid p. 443.

(٣) Schlumberger p. 445.

(٤) Ibid p. 466.

الوقت ذاته بما بلغته الأحوال من السوء فى الأقاليم الإيطالية التابعة لبيزنطة ، وحرص على أن ينقذها مما تعانيه من محنة . أدرك الإمبراطور أنه ليس فى وسعه إلا أن يجعل فى أيد أمينة طاهرة ، هذه الرسالة الضخمة العسيرة ، التى تتعلق بإعادة النظام والسلام إلى هذه البلاد التى تعرضت منذ زمن طويل لكوارث عنيفة . والواقع أن هذه كانت مهمة نقفور ، إذ أنه من الناحية الرسمية التحق بالحملة البحرية على أنه رئيس رجال الدين بها ، مهمته أن يدعو الله أن يهيئ للجيوش البيزنطية النصر والتوفيق . ثم يلى حكم جنوب إيطاليا ، بعد أن يحل الهدوء والسلام ، باسم الإمبراطور. على أن الإمبراطور لم يوفق إلا فى اختيار نقفور ، وذلك لما اتصف به القائدان الآخران من العيوب والمساوئ(١) .

أقلعت الحملة فى أواخر صيف سنة ٩٦٤ قاصدة صقلية ، لاستعادتها من يد المسلمين . واشتد اهتمام بيزنطة بإعداد هذه الحملة ، فاشترك فيها عدد كبير من السفن الحربية . وبلغت عدة الجند نحو أربعين ألفاً(٢) ، يعتبرون من خيرة عساكر الإمبراطورية ، منهم عدد كبير من الأرمن ، وعدد من الروس المشهورين بقوة مراسهم وشدتهم فى الحروب ، ومنهم بيالصة من آسيا ، عرف المسلمون عنهم شدة البأس والضراوة فى الحروب(٣) . وحملت السفن البيزنطية عتاداً كبيراً من أدوات الحرب(٤) . وفى خريف سنة ٩٦٤ أضحت القوات البيزنطية على مقربة من صقلية . والمعروف أن حصار رمطة لازال مضروباً عليها منذ شهور ، إذ بدأ المسلمون حصرها فى يوم الجمعة ٣٢ أغسطس سنة ٩٦٣(٥) .

(١) Schlumberher p. 446.

(٢) Schlumberger p. 446,

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤١١ . Gay : L'Italie Merinionale p. 290,.

(٣) Schlumberger p. 447.

(٤) Ibid p. 447.

(٥) Ibid p. 44.

ولم يكن استعداد المسلمين للحرب بأقل شأناً من استعداد البيزنطيين ، إذ أن أمير صقلية أرسل إلى الخليفة المعز بأفريقية ينهى إليه بما نمى إليه من خبر إنفاذ بيزنطة حملة كبيرة إلى صقلية ، وطلب الى المعز أن يبادر بإرسال العساكر ، بينما شرع هو فى إصلاح الأسطول والعمل على زيادة سفنه ، وجمع الرجال المقاتلة فى البر والبحر . فأخذ المعز فى جمع الرجال ، وفرق فيهم الأموال الجليلة ، وسيرهم مع الحسن بن على ، والد أحمد أمير صقلية ، فوصلوا إلى صقلية ، فى رمضان سنة ٣٥٣ (أكتوبر سنة ٩٦٤) ، فسار بعضهم إلى الذين يحاصرون رمطة ، فكانوا معهم على حصارها(١) . أما البيزنطيون فإنهم وصلوا إلى صقلية ، ونزلوا عند مدينة مسيني ، فى ١٣ أكتوبر ، ومنها خرجت الجيوش إلى شمال الجزيرة ووسطها ، تهاجم السواحل(٢) ، على حين أن مانويل فوقاس نهض بفرسانه لمساعدة رمطة(٣) . فلما سمع ذلك الحسن بن عمار مقدم الجيش الذى يحصر رمطة ، جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها ، وبرز بالعساكر للقاء البيزنطيين ، وقدم البيزنطيون فأحاطوا بالمسلمين ، ونزل أهل رمطة إلى من يليهم ، ليقاتلوا المسلمين من وراء ظهورهم ، غير أنه لم يتيسر لهم ذلك ، فتقدموا للقتال ، وقد أصابهم الغرور ، بكثرتهم وبما معهم من العدد . وجرى القتال ، واشتد الأمر بالمسلمين ، ودفعهم العدو إلى خيامهم ، وأيقن البيزنطيون بالظفر . فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم ، اختاروا الموت ، ورأوا أنه أسلم لهم(٤) . فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم ، وحمى الوطيس(٥) حينئذ ، وحرضهم على قتال البيزنطيين(٦) . وكذلك فعل بطارقة البيزنطيين ، حماوا وحرضوا عساكرهم .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤١٢ .

(٢) Schlumberger p. 451.

(٣) Ibid p. 452.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤١٢ .

(٥) Schlumberger p. 455.

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤١٤ — Ibid p. 456.

وحمل مانويل قائد البيزنطيين فأمعن فى قتال المسلمين ، فطعنه المسلمون ، فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من الزرد(١) . فرمى بعضهم فرسه فقتله . واشتد القتال بين الفريقين ، فلقى مصرعه . وعندئذ حلت الهزيمة بالبيزنطيين ، وأكثر المسلمون فيهم القتل . وظلت الحرب دائرة من الصباح حتى العصر ، وبات المسلمون يقاتلونهم فى كل ناحية ، وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحصى ، وإذ هلك ما لا يقل عن عشرة آلاف من البيزنطيين ، لم يحفل المسلمون بأن يأخذوا كل الأسرى ، وكل ما احتفظوا به منهم هو جماعة من بطارقتهم ، ليحصلوا على فديتهم(٢) . وأرسل القائد الإسلامى إلى المعز ، مع الأسرى والروس ، سيفاً هندياً ، وزنه مائة وسبعون مثقالا جرى استخدامه من قبل فى غزوات النبى ، على حد قول ابن الأثير(٣) ، وسار من سلم من البيزنطيين إلى ريو . أما أهل رمطة فقد ضعفت نفوسهم ، وقلت الأقوات عندهم ، فأخرجوا من فيها من الضعفاء ، وبقى المقاتلة . فزحف إليهم المسلمون ، وضيقوا الخناق عليها ، وظلوا يقاتلونها ليلا ، فتقدموا بالسلالم فملكوها عنوة ، وقتلوا من فيها ، وسبوا الحرم والصغار ، وغنموا ما فيها وكان شيئاً عظيماً(٤) . على أن الأسطول البيزنطى لم يجرؤ على الخروج من مياه ريو ، التى اجتمع بها حاميات المدن التى استولى عليها المسلمون . وحينما تقرر الرحيل إلى القسطنطينية ، ركب الأمير أحمد فى عساكره وأصحابه فى المراكب أيضاً ، وزحف إليهم فى الماء ، وقاتلهم فاشتد القتال بينهم ، وألقى جماعة من المسلمين بأنفسهم فى الماء ، وخسفوا كثيراً من السفن البيزنطية ، فغرقت ، فكثر القتل فى البيزنطيين ، واكتمل للمسلمين النصر . وهذه الوقعة الأخيرة هى المعروفة بوقعة المجاز(٥) . وحصل المسلمون على غنائم وفيرة ، ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى ،

---

(١) Schlumberger p. 428,

(٢) Schlumderger p. 428

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤١٣ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٤١٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ، ص ٣١٣ — Shlumberger, p, 461

فجرى إرسالهم إلى بالرم . ومن هؤلاء الأسرى ، قائد الأسطول البيزنطى ، نكيتاس Nicetas الذى ظل فى الأسر بالمهدية سنتين ، عكف فى أثنائهما على نسخ عظات القديس باسيل ، ومؤلفات القديس جريجورى النازيانزى Nazianze والقديس حنا كريزوستم Chrysostome . وهذا المصنف لا زال محفوظاً بالمكتبة الأهلية بباريس ، وأتم تأليفه فى شهر سبتمبر سنة ٩٦٧[1] .

وبعد أن تم للأمير أحمد النصر البحرى الكامل ، صار يهاجم المدن البيزنطية الواقعة على ساحل كالابريا (قلورية) ، فلما رأى أهلها ما حل بها من التخريب ، وما جرى من تعطل تجارتهم ، وأنه لم يكن لديهم من القوة ما يردون بها المسلمين ، لم يسعهم إلا أن يلتمسوا منه الهدنة على أموال يحملونها له ، فتقررت الهدنة سنة ٣٥٤[2] (٩٦٧) . على أن هذه الهدنة انتهت بعد مفاوضات استمرت شهرين إلى صلح نهائى سنة ٩٦٧ ، جرت فيه مراعاة مصالح الجانبين[3] ، على أن الأسباب التى دعت المسلمين والبيزنطيين إلى عقد صلح دائم ، وإلى أن تحل المودة بين بلاط القسطنطينية ودار الخلافة الفاطمية فى القيروان ، لابد أنها كانت من القوة والخطورة ما جعل نقفور يقبل ما ترتب على الهزيمة من المهانة والذلة دون أن يثأر لها ، ودفعت الخليفة الفاطمى بالقيروان إلى أن يوقع معاهدة مع الكفار ، وهذه الأسباب يصح تلخيصها فى حقيقة واحدة . تتمثل فيما حدث من زحف الإمبراطور الألمانى أوتو الأول على إيطاليا وتوغله[4] فيها . فما زعمه كل من البيزنطيين والفاطميين من امتلاك جنوب[5] إيطاليا ، وجعلهم يتوجسون خيفة من تقدم الإمبراطور فى إيطاليا .

(١) Ibid, p. 462.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤١٣ Schlumberger. p. 463

(٣) Ibid, p. 464

(٤) Ipid p. 464

(٥) ولذا تقرر عقد معاهدة بين الإمبراطور البيزنطى نقفور ، وبين الخليفة المعز ، أدت إلى ازدياد التقارب والمحبة بينهما . والواقع أن ماجرى من الأحداث فى الغرب والشرق ، أدّى إلى أن المصالح المشتركة بين الأميرين تقضى بتحالفهما ضد أوتو الألمانى وضد الإخشيديين فى =

إذ أعلن هذا الإمبراطور فى كبرياء ، أنه إنما يعمل على إعادة إمبراطورية شارلمان . ولذا استولى على شمال إيطاليا ووسطها . وصارت روما والبابا فى قبضة يده . وأخذ الأمراء اللومبارديون فى كابوا وبنيفنتو وسالرنو ، يستنجدون به ضد نقفور الذى يعتبر سيدهم الشرعى[1] .

العلاقة مع الامبراطورية الغربية :

على أن هذه الفترة التى ازداد فيها توسيع الإمبراطورية البيزنطية ، شهدت أيضا إحياء الإمبراطورية الغربية[2] . فالمعروف أن أملاك الإمبراطورية البيزنطية فى إيطاليا ، اقتسمها ثغران : قلورية (كالابريا) ، ولانجو بارديا . فاشتمل ثغر قلورية على كل ما تبقى من ثغر صقلية ، وذلك لأن صقلية بأكملها صارت فى أيدى المسلمين بعد استيلائهم على سراكوز وطرمين . وترتب على انتصار البيزنطيين فى إيطاليا ، أن قرر الإمبراطور ليو السادس أن يفصل لانجوبارديا من ثغر كيفالينيا Kephalenia أوجزائر بحر أيونيان ، وجعل منها ثغراً مستقلا ، يتولى أمره قائد (استراتيجوس) . على أن أطراف ثغرى قلورية ولانجو بارديا تعرضت باستمرار للتغيير والتعديل ، بسبب استمرار الحروب ،

= مصر والشام . ففى سنة ٩٦٧ ، أى بعد مضى سنتين على سقوط رمطة فى يد المسلمين ، عهد الخليفة المعز إلى أمير صقلية بعقد الصلح مع الإمبراطور البيزنطى . وطلب إليه أن يبادر بعمارة أسوار واستحكامات بلرم ، (لتوقعه مهاجمة أوتولها) ، وأن يتخذ كل إقليم من أقاليم صقلية موضعا منيعا ليقيم به مسجداً كبيراً ، يجتمع به سكان الأقليم ، وأن يمنع تفرق الناس بالقرى . وهذا هو السر فى نزول معظم سكان صقلية بأرباض المدن . أما السفير البيزنطى المنوض بعقد المعاهدة ، وهو نيقولاوس Nicalaos ، فتردد بين بيزنطة والمهدية . وبمقتضى هذه المعاهدة استمرت سيادة الفاطميين على صقلية طوال زمن نقفور . وظلت العلاقات ودية بين الفاطميين والبيزنطيين فى صقلية ، والراجح أن قوات إسلامية اشتركت مع القوات البيزنطية فى سنة ٩٦٨ ، وسنة ٩٦٩ ضد قوات أوتو المغيرة .
(انظر Schlumberger pp. 463—470) .

(١) Sciumberger. 461

(٢) Ostrogorowiski p. 258

التى لم تكن بيزنطة فيها هى الظافرة دائما . وبازدياد النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا فى القرن العاشر ، ازداد بها عدد الأديرة والكنائس اليونانية ، وأضحى بعضها فيما بعد مراكز ثقافية هامة[١] .

وحدث فى القرن العاشر أن شهدت ظهور أمير قوى ، يتمثل فى أوتو الأول الألمانى ، الذى توّجه البابا حنا الثانى عشر فى سنة ٩٦٢ إمبراطورا . واشتهر أوتو فى التاريخ بأنه مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولما اتخذ أوتو التاج الإمبراطورى ، عمل جاهداً على أن يصبح سيد إيطاليا . ومن الطبيعى أن يعتبر ذلك اعتداءاً على المصالح البيزنطية ، لاسيما فى لانجوباردو[٢] . جرت المفاوضات بين أوتو والإمبراطور البيزنطى نقفور فوقاس ، الذى لعله كان يأمل وقتذاك فى عقد محالفة هجومية مع الإمبراطور الألمانى ضد المسلمين . غير أن هذه المفاوضات أخذت تتعثر ، وانتهز أوتو هذه الفرصة ، فبادر إلى شن غارة على الأقاليم البيزنطية بجنوب إيطاليا ، غير أنها لم تحرز شيئا من النجاح[٣]

الواقع أن المنافسة بين الإمبراطوريتين ، البيزنطية والغربية ، انبعثت من جديد واتخذت هذه المنافسة مظهرين : الأول يعتبر مظهراً نظريا ، والآخر كان مظهراً سياسياً . فمن الناحية النظرية ، ارتكزت فكرة الإمبراطورية على ما للإمبراطورية من وحدة . ومع ذلك فثمة إمبراطوريتان فعلا ، تزعم كل منهما أنها وريثة روما . أما الناحية السياسية فتتمثل فى حرص أوتو على أن يحصل ، عن طريق المفاوضات مع بيزنطية ، على ما تبقى فى يد بيزنطة من الأملاك بإيطاليا ، بعد أن استولى على كل إيطاليا تقريبا[٤] ، إذ دانت له روما ، واعترف بسيادته أمراء اللومبارديين بجنوب إيطاليا ، (وهما أميرا إكابوا وبنيفنتو) ، وأغار على أبوليا وهاجم بارى[٥] . ثم أرسل أوتو من قبله سفارة

(١) Vasiliev: The Byzantine Empire, p. 327.

(٢) Ibid, p. 327

(٣) Ibid, p. 327

(٤) Ostrogorowski P. 258

(٥) Diehl et Marcais, p. 466

سنة ٩٦٨ إلى الإمبراطور نقفور فى بيزنطة ، لعله يصل بفضلها إلى اتفاق ودى . واختار سفيرا له ، ليتوبراند أسقف كريمونا ، الذى زار من قبل سنة ٩٤٩ ، العاصمة البيزنطية زمن قنسطنطين السابع ، مبعوثا من قبل برنجار الثانى . فعرض ليتوبراند على الحكومة البيزنطية مشروع قيام تحالف بين الدولتين ، على أن يتزوج ابن أوتو الأول من إحدى الأميرات البيزنطيات ، على أن تكون بائنتها (صداقها) ، تنازل الإمبراطورية البيزنطية عن ممتلكاتها بجنوب إيطاليا[١] . غير أن سكان شواطئ البوسفور (بيزنطة) ، لم يحيوا السفير بما يليق به من الاحترام ، فتعرض للمهانة والسخرية[٢] . أدرك الإمبراطور البيزنطى ، أن مصالح الإمبراطورية وكرامتها ، انتهك حرمتها ما جرى من أحداث فى الغرب . فـا عزم عليه أوتو من اتخاذ التاج الإمبراطورى ، واعتبار نفسه سيداً على روما ، وعلى كنيسة روما ، وما جرى من إخضاعه كل إيطاليا لسلطانه ، فضلا عن تحالفه مع أميرى كابوا وبنيفنتو ، الذين يدينان بالولاء للإمبراطورية البيزنطية ، وتجاسره على مهاجمة بارى التابعة لبيزنطة (برغم ما أصابه من الفشل فى الاستيلاء عليها) ؛ كل ذلك أثار الإمبراطور البيزنطى ، الذى لم يشعر مطلقاً بمثلما شعر به من القوة والأهمية ، بعد ما أحرزه من الانتصارات فى الشرق[٣] . أما السفير ، ليتوبراند ، الذى أنفذه أوتو إلى القسطنطينية ، والذى جرت معاملته على أنه أسير ، فإنهم أرغموه

(١) Diehl et Marçais, p. 469

(٢) 'Vasiliev p. 328

وضع ليتوبراند فيما بعد تقريراً عن زياراته الثانية إلى القسطنطينية ، وهو المعروف بـ : (تقرير عن السفارة إلى القسطنطينية). (Relatio do Legatione Constantinopolitana)

أشار ليتوبراند فى تقريره إلى ضعف بيزنطة ، وبرر ما كان لسيده من دعاوى . وتساءل منذا الذى تخدمه روما ، ولماذا تتذمر لما جرى من تحريرها ؟ وإلى أى الأمراء تؤدى روما الضرائب ؟ ألم تخدم هذه المدينة من قبل رجال البلاط ؟ ثم حدث ؛ والناس نيام ، بل استبد بهم الضعف والعجز ، أن نهض مولاى الإمبراطور ، فخلص روما من ربقة العبودية .

انظر (Vasiliev p. 328)

(٣) انظر Ostrogorowski p. 258.

على أن يستمع إلى القصص التى تروى أن سيده لم يكن إمبراطوراً ولا رومانيا ، إنما هو ملك متبربر ، وأنه لن يتم زواج بين ابن الحاكم المتبربر وبين أميرة إمبراطورية ، جرت ولادتها فى مخدع الملكة[١] .

وإذ فشلت سفارة ليتو براند ، لم يكتف نقفور بأن يرفض التنازل عن أى جزء من ممتلكاته ، مهما كان ضئيلا ، بل أنذر أوتو بضرورة الجلاء عن كل شبه جزيرة إيطاليا . وحرص نقفور على أن تعود إليه كل حقوق السيادة عن هذه الأقاليم ، باعتباره الوريث الشرعى لها ، وخليفة الإمبراطور قنسطنطين[٢] .

أما أوتو ، الذى أقام بروما ، ثم انتقل منها إلى رافنا ، مترقبا عودة رسوله ليتوبراند ، فإنه انتهز فرصة هذا الانتظار والهدوء ، ليلتفت إلى أمور الدنيا . على أن حرص البيزنطيين فى ملاحظة ليتو براند ، ومنعه من أن يبعث بأية وسيلة برسالة إلى الإمبراطور الألمانى ، وما حدث من مضى زمن طويل لم يصل فيه خبر إلى أوتو فضلا عن طول غيبة سفيره ، كل ذلك جعل البلاط الألمانى يعتقد أن السفارة لم تحرز نجاحا ، وأن بيزنطة لازالت تكن الكراهية للإمبراطور . يضاف إلى ذلك أنه علم بأنه وصل إلى ثغر لانجو بارديا أسطول بيزنطى يقل الأمداد ، التى شهدها ليتوبراند عند إبحارها فى شهر يوليه ٩٦٨[٣] . وداع فى رافنا ما دبّره أدالبرت ملك

Ostrogorowski, p. 25 (١)

Schlumberger . 664 (٢)

(٣) شهد ليتوبراند من نافذة السجن ، الحملة التى ينقلها الأسطول البيزنطى ، المؤلف من ٨٠ سفينة (شلندية) وسفينتين روسيتين ، وسفينتين من سفن الفرنج ، ولعل هذه السفن كانت تحمل قوات إضافية من هاتين الأمتين . وصحب هـذا الأسطول جريميزون Grimizon ، الذى أرسله الماركيز أدالبرت سفيراً من قبله إلى القسطنطينية ، وتحـدث السفير إلى نقفور بأن سيده أعد جيشاً قوامه ٨ آلاف محارب ، تهيأوا لقتال أوتو ، بشرط أن ترسل لهم بيزنطة إمداداً . وهذا هو السر فى بطء المفاوضات بين البيزنطيين وليتوبراند ، والتضييق على حريته . وقد وصلت الحملة إلى شواطئ أبوليا ، ولعل الإمبراطور أوتو كان يوجه هجومه وقتذاك إلى الجنوب (انظر Schlumberger p. 634)

إيطاليا ، وأخوه من مؤامرات ، وما صادفهما من عناء فى حشد القوات ، وجمع العساكر لمساعدة البيزنطيين . لم يكن أوتو فى حاجة إلى أن يظل منتظراً عودة مبعوثه ليتو براند ، إذ أدرك أن كل أمل فى الوصول إلى حل سلمى قد ضاع هباء . فلم يسعه إلا أن يلجأ إلى استخدام السلاح لطرد البيزنطيين من إيطاليا ، فقرر أن يمضى بجنده نحو الجنوب دون أن ينتظر عودة ليتوبراند . ولما اطمأن إلى أن قوته وسلطانه فى ألمانيا لن تتعرض لمقاومة ، حرص على أن يبادر بالاستيلاء على جنوب إيطاليا ، بعد أن فشل فى الحصول عليها بالطرق السلمية . وأدرك أوتو أن الاستيلاء على جنوب إيطاليا يعتبر من الأمور الضرورية لإحياء الإمبراطورية الغربية . وتهيأت خير الفرص لتحقيق غرضه ، ذلك أن الإمبراطور نقفور كان منصرفا وقتذاك لقتال المسلمين فيما وراء جبال طوروس[١] .

اتخذ أوتو فى سيره إلى أبوليا ، الطريق الممتد على ساحل بحر الأدرياتى ، وتقدم نحو كالابريا ، يستولى على ما يصادفه من البلاد ، ويشعل بها الحرائق . وكل ما نعرفه أن الألمان احتفلوا بعيد الميلاد (سنة ٩٦٨) فى بعض جهات أبوليا أى فى أرض بيزنطة[٢] .

ثم وصل ليتوبراند فى يناير سنة ٩٦٩ ، فاستقبله الإمبراطور أوتو ، ووقف منه على مالقيه من سوء المعاملة على يد البيزنطيين ، فازداد أتو اعتقاداً بأن نقفور لن يتنازل له ، إلا تحت ضغط القوة ، عن الأقاليم البيزنطية فى إيطاليا ، كما أنه لن يتمّ ، طواعية ، اتحاد المملكتين[٣] .

Schlumberger p. 666. (١)

Ibid p. 667. (٢)

(٣) المعروف أن بيزنطة ، منذ أن فقدت صقلية ، لم يعد لها فى إيطاليا سوى إقليمين ، يمثلهما ثغرا لانجوبارديا وكالابريا . فالثغر الأول يشمل . أبوليا أو بوليه ، بما يتبعها من إقليم أوترانت ، وما يقع من البلاد شمال سيلا . أما الثغر الثانى فيشمل البلاد الواقعة إلى الجنوب من سيلا ، وما يليها حتى مسينا . ثم اتحد الثغران تحت زعامة قائد Catepano ، غير أن كلا منهما لازال يتولى أمره إستيراتيجوس . وتعتبر بارى المدينة الرئيسية فى ثغر لانجوبارديا ، ولذا تعرضت باستمرار للحروب البيزنطية فى إيطاليا ، إذ كان ينزل بهما الأمداد القادمة من =

التقت القوات الألمانية ، بالحاميات البيزنطية المرابطة فى المواضع العديدة ، بوسط إيطاليا وجنوبها ، كما التقت بالأمداد التى أرسلتها بيزنطة ، وبالقوات التى حشدها أدالبرت وأخوه . والراجح أن الإمبراطور الألمانى وطّد علاقته بأميرى كابوا وبنيفنتو من اللومبارديين ، وكذا بجمهوريتى نابولى وأمالفى ، وأمير جائيتا ، وكل ذلك هيأ له السبيل للمضى فى سيره نحو الجنوب ، يصحبه باندولف أمير كابوا ، البطل اللمباردى الباسل ، المعروف بشدة مراسه . فمنذ عيد الميلاد سنة ٩٦٨ حتى شهر مايو سنة ٩٦٩ ، ازداد تقدم القوات الألمانية ، وأخذت تنهب وتحرق ما يصادفها من البلاد فاستولت على مواقع عديدة ، جعلت لأوتو السيطرة على بلاد وسط إيطاليا ، فشطر بذلك القوات البيزنطية شطرين ، ومنع الاتصال بين مدن كالابريا ، ومدن أبوليا ، وبذلك توقف نقل الأمداد من جهة إلى أخرى . على أن أوتو إنما قام بهذا الهجوم برّا ، لأنه ليس لديه من القوة البحرية ما يتصدى بها للبحرية البيزنطية أو يحصر المدن أمثال بارى ، وأوترانتو ، وريو ، وتارنت . تقدم أوتو حتى بلغ كالابريا . وفى ابريل سنة ٩٦٩ ، احتفل بعيد القيامة بهذا الإقليم ، غير أنه لم يلبث أن قرر الانسحاب . ولا نعرف السبب الذى دفعه للانسحاب ، لاسيما أن أوتو عزم ، فيما هو معروف ، على أن يفرض بالقوة التحالف مع أمير سالرنو ، ولم يكن ثمة ما يجعله يخشى جانبه ، حتى يتراجع نحو الشمال . يضاف إلى ذلك أن باندولف أمير كابوا كان من أشد الناس إخلاصاً له ، واشترك فى القتال

= القسطنطينية ، وأقام بها حاكم الثغر ، ونزل بها كل من يقدم من كبار الموظفين العسكريين والمدنيين فى مهمة رسمية . أما ثغر كالابريا فعاصمته ريو **Reggio** ، وتأثر سكانه بالصفة اليونانية . وتعرضت هذه الأقاليم البيزنطية فى إيطاليا لغارات المسلمين العنيفة ، وما ترتب عليها من الخراب والدمار ، كما أنها لم تحظ باهتمام الإمبراطور البيزنطى . يضاف إلى ذلك ما جرى عليه القادة العسكريون الذين تولوا أمرها ، من الحرص على أن يجمعوا لأنفسهم أثناء فترة حكمهم القصيرة أكبر مقدار ممكن من المال ، ولم يلتفتوا إلى حفظ الأمن . وتعرض هذان الثغران أيضا لعبث الجنود المرتزقة المرابطة فيهما . وبذلك صار إقليما أبوليا وكالابريا فى منتصف القرن العاشر من أتعس جهات العالم حظا (انظر **Schlumberger p. 677**) . جعل نقفور ، أحد قادة الحملة التى كانت تقاتل المسلمين فى مسينا ، وهو نقفور حاكما عاما على الأملاك البيزنطية فى إيطاليا (انظر **Schlumberger p. 679**) .

بقواته إلى جانبه ، بل إنه قاتل البيزنطيين ، وهو على رأس قوة ألمانية . والراجح أن اقتراب حلول فصل الصيف واشتداد الحرارة ، هو الذى عجل برحيل أوتو نحو الشمال ، لاسيما بعد أن قدّر الإمبراطور الألمانى أن الجانب الشاق من الحملة ، قد أتمّه ، فرأى أن يترك لنوابه تدعيم فتوحه واكتمال الاستيلاء على ما لم يقع فى يده من البلاد ، بينما ينصرف هو لتصريف أمور الإمبراطورية الشاسعة[1] .

واصلت القوات الإمبراطورية أعمالها الحربية بقيادة أمير كابوا ، غير أنه وقع فى أسر البيزنطيين ، الذين نقلوه إلى القسطنطينية ، حيث ظل فى الحبس إلى أن أطلق سراحه حنا زمسكيس[2] . غير أن أوتو أرسل حملة لقتال أبوليا من جديد ، فأنزلت باليونانيين (البيزنطيين) هزيمة ساحقة ، وحصلت على غنائم وفيرة ، ووقع فى الأسر عدد كبير ، وتعهدت مدن عديدة فى أبوليا بدفع الجزية للإمبراطور أوتو[3] .

غير أن الألمان لم يحصلوا على نتائج هامة من هذه الحروب ، فعلى الرغم من هزيمة البيزنطيين ، فلا زالوا يحتفظون بكل أراضيهم ، ما عدا مواضع الشمال ، أما باندولف ، الحليف الأكبر لأوتو ، فكان فى قبضة البيزنطيين . وقام قائد الثغر فى بارى بهجوم عنيف . ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الدولتين البيزنطية والألمانية ، عند مصرع الإمبراطور نقفور فى ديسمبر سنة ٩٦٩ ، فتغيرت بذلك الأوضاع فى إيطاليا[4] .

(١) **Schlumberger pp. 636—690.**

(٢) **Ibid. p. 690. Diehl et Marcais : op. cit. p. 470.**

(٣) **Ibid. p. 693.**

(٤) انظر **Schlumberger. p. 693. Diehl et Marcais op. cit. p. 470.**

حرص نقفور على أن يوطد سلطان الكنيسة البيزنطية فى جنوب إيطاليا ، فى أبوليا وكالابريا ، حيث أخذ نفوذ بابا روما يزداد فى النصف الثانى من القرن العاشر لا سيما بعد تتويج أوتو الأول امبراطوراً ، ونمو سلطة اللومبارديين فى الأجزاء الجنوبية من إيطاليا . فأوعز نقفور إلى البطريرك بأن يمنع ما يجرى فى أبوليا وكالابريا من شعائر لاتينية ، وأن يراعى ممارسة الشعائر اليونانية . وكان ذلك من أسباب تخلى البابوية عن الإمبراطورية =

علاقة بيزنطة مع جيرانها فى الشمال :

ترتب على حرص نقفور على أن يسترد للإمبراطورية كرامتها ومكانتها على امتداد حدودها ، وأن يضعف قوة جيرانها ، إن نشبت حرب جديدة . ذلك أن الأباطرة السابقين قبلوا أن يدفعوا لملك بلغاريا جزية سنوية ، مقابل تعهده بمنع المجريين من اجتياز نهر الدانوب ، والإغارة على الممتلكات البيزنطية ، وما يقترن بهذه الغارات من النهب والحرائق . وعلى الرغم من أن بلغاريا أخذت فى التداعى فإن الأباطرة البيزنطيين ظلوا ، حتى زمن نقفور ، يؤدون بانتظام ما هو مقرر من الجزية ، وليس ثمة ما يعلل ذلك سوى أن هذا الإجراء يتفق مع السياسة الإمبراطورية . إذ رأت الإمبراطورية البيزنطية أن من صالحها أن تستخدم البلغار لحراسة شواطئ الدانوب ، وللوقوف فى وجه المجريين الذين دأبوا على الإغارة والنهب ، فجرى استخدام البلغار على أنهم حفاظ الأمن من قبل بيزنطة[١].

على أن كبرياء نقفور وكرامته تحتم عليه الامتناع عن دفع الجزية . أراد أن يفيد من الضعف الذى حل بالبلغار ، فأخذ يلتمس الأسباب ليثير هذا الموضوع ، فلم يتعذر عليه ذلك ، إذ تبين له أن بطرس ملك البلغار ، أضحى من الضعف ما جعله عاجزاً عن تأدية المهمة الموكولة إليه ، وهى منع المجريين من اجتياز مملكته ، للإغارة على أطراف الإمبراطورية البيزنطية[٢].

على أن جيران بيزنطة من البلغار لم يقدروا ما حدث من ازدياد قوة بيزنطة ، فعاد ذلك عليهم بالضرر . فبينما كانت الاحتفالات تجرى بالقسطنطينية

= البيزنطية . فى السنوات الأخيرة من عهد نقفور ، صار البابا يخاطب نقفور على أنه إمبراطور اليونانية ، بينما منح أوتو لقب إمبراطور الرومان ، وهو اللقب الرسمى للأباطرة البيزنطيين . انظر Vasiliev : The Byzantine Empire p. 336.

(١) Schlumberger p. 550.

(٢) Schlumberger p. 551.

سنة ٩٦٧ ، للإشادة بما تمّ من استيلاء البيزنطيين على طرسوس ، وبما أحرزوه من انتصارات فى آسيا ، ظهر فى المدينة رسل بلغاريون جاءوا يطلبون من الحكومة البيزنطية أن تؤدى الجزية التى درج الأباطرة السابقون على دفعها[١] . فأثارت هذه الوقاحة شعور الإمبراطور ، وجرحت كبرياءه ، فاستقبلهم أسوأ استقبال . إذ أنه بعد أن كال للسفراء البلغار الشتائم واللعنات ، على مرأى من السفراء الحاضرين بقاعة الاحتفالات ، أمر بجلدهم ، وإعادتهم إلى بلادهم ؛ وطلب إليهم أن يبلغوا سيدهم أن أعظم أباطرة الرومان سوف يبادر إلى زيارة إقليمه ، ويقدّم له بنفسه الجزية[٢] .

ولم يضع الإمبراطور الوقت سدى ، ولم يترك لخصمه من الوقت ما يكفى لإعداد قوته لرد الاعتداء ، فخرج نقفور على رأس جيش كبير ، وتوجه إلى الحدود البلغارية . ولم تجد القوات البيزنطية عناء فى اجتياز الحدود ، فاستولت على بعض الحصون المجاورة ، والتى لم يكترث البلغاريون بعمارتها ، بعد أن جرى بين الدولتين صلح طويل الأمد[٣] . على أن هذه الانتصارات السريعة ، لم تجعل الإمبراطور يغفل ما تعرض له من الصعوبات ، الحرب فى جبال البلقان ، المشهورة بدروبها الضيقة الوعرة . وكيفما كان الأمر ، فإن الإمبراطور قرر بعد الاستيلاء على هذه الحصون ، أن يرتد إلى القسطنطينية ، ولعل السر فى أنه لم يواصل الحرب ضد البلغار ، يرجع إلى أنه لم يرغب فى أن ينصرف عن أمور الشرق ، وأنه أراد أن يعهد بتأديب البلغاريين وإخضاعهم ، إلى قوم مجاورين لهم ولا يقلون عنهم همجية ، وهم الروس ، حتى إذا تم تداعى المملكة البلغارية ، تقدم نقفور بجيشه فأجهز عليها ، وحولها إلى مجرد ثغر من ثغور الإمبراطورية[٤] .

(١) Ostrogorowski : p. 259. Schlumberger p. 552. Diehl et Marcais p. 470.

(٢) Ostrogorowski : p. 259. Diehl et Marçais p. 476. Schlumberger p. 554. Camb. Med. Hist. IV p. 239.

(٣) Schlumberger p. 557 Ostrogowski p. 259.

(٤) Schlumberger p. 558.

رأى نقفور أن يستعين بأمير كييف ، سفياتوسلاف Sviatoslav ، الذى اشتهر بالبسالة والإقدام ، وشدة المراس ، وقوة طموحه ، وأنه يهوى القتال والحرب . وحاز هذا البطل أمجاداً ضخمة فى جميع الأقاليم بجنوب روسيا ، وأدرك الإمبراطور البيزنطى أنه ليس فى مقدور بلغاريا أن تقاوم هذا الخصم العنيد ، ورأى أيضاً أنه لن يكون ثمة خطر من جانب الروس ضد بيزنطة ، حتى إذا انتصروا على البلغار فلن يفكروا فى مهاجمة القسطنطينية ، التى سوف تجعلهم بعيدين عن عاصمتهم كييف ، التى تعتبر القاعدة لأعمالهم الحربية . وأيقن نقفور أن سفياتوسلاف سوف يقنع بقتال البلغار ، ونهب بلادهم ، وحمل الغنائم الوفيرة من بلادهم إلى إمارته ، وان يفكر فى أن يغامر فى الالتحام فى حرب ضد القوات البيزنطية[١] . على أن نقفور خاب حدسه ، فما حدث من دفع نقفور الروس إلى الدانوب لتدمير المملكة البلغارية ، إنما أعد بذلك لخليفته من المشاكل الخطرة ما أثقل كاهله[٢] .

وما كاد الإمبراطور نقفور يرجع إلى القسطنطينية ، وأخذ يعد حملة جديدة للقتال فى سوريا ، حتى عهد بالمهمة الدقيقة التى ترمى إلى الاستعانة بالروس لقتال البلغار ، إلى شخص توافر فيه من صفات المرونة والكياسة والمهارة السياسية ، ما يكفل تحقيق أمل الإمبراطور ، إذ وقع اختياره على البطريق كالوسير Kalocyr وهو يونانى من مواليد خرسون (فى شبه جزيرة القرم) ، وكان أبوه كبير قضاة هذه المستعمرة البيزنطية النائية[٣] .

والواقع أن هذا الاختيار صادف أهله ، لما اشتهرت به شخصية كالوسير ، من أنه يجمع بين الصفتين اليونانية والبربرية (لمتاخمة بلاده لأقاليم المتبربرين) ، ولإجادته اللغتين اليونانية والصقلبية ، فضلاعن أن مقامه فى مدينة بالقرم ، هيأ له الفرصة للوقوف على أحوال البلاد المتبربرة المجاورة ، وموارده ،

---

(١) Schlumberger p. 560.

(٢) Ibid p. 560.

(٣) Schlumberger p. 560.

ونواحى الضعف بها ، وما درجت عليه الإمبراطورية البيزنطية من الأساليب السياسية فى معاملة هذه الأمم[١] . وتألفت حاشية كالوسير من عدد كبير من الأشخاص الذين يمثلون الحضارة البيزنطية ، إلى جانب العساكر الذين يؤلفون حرسه الخاص ، وحمل كالوسير معه مبالغ كبيرة من الأموال ، بلغت نحو ١٠٠ ألف دينار بيزنطى (نوميزما) ، لإشباع رغبات الروس . والواضح من هذا الاستعداد أن نقفور علّق أهمية كبيرة على مهاجمة الروس لبلاد البلغار[٢] .

أما سفياتوسلاف ، الذى لم يتجاوز وقتذاك الخامسة والعشرين من عمره ، فإنه تولى أمر الروس منذ سنوات عديدة ، وحظى فى طفولته ، وفى أثناء حداثته برعاية أمه واهتمامها ، وهى الإمبراطورة أولجا ، التى زارت القسطنطينية سنة ٩٥٧ . وبعد أن تنصرت فى القسطنطينية ، واتخذت اسم هيلين ، وغمرها الإمبراطور البيزنطى بالهدايا ، عادت لتنشر المسيحية بين قومها[٣] .

واستطاع السفير البيزنطى ، بلباقته ومهارته الدبلوماسية ، وبما عرضه من الأموال الوفيرة ، وبما أشار إليه من خصوبة بلاد البلغار ، وبما اشتهر به فلاحوها من الميل إلى الهدوء والسكينة ، أن يجعل سفياتوسلاف يقف على أغراضه ، وهى أن تكون له آخر الأمر هذه البلاد[٤] .

ولم يكن سفياتوسلاف إلا قائداً لعصابات مغامرة ، متأهبة لأن تسعى

---

(١) Schlumberger p. 561.

(٢) Ibid, p. 562.

لم يعتبر البيزنطيون ما دفعوه من أموال للروس ، أنها من قبيل الجزية ، إنما اعتبروها أجوراً لجيش أجنبى ، جرى استخدامه للتخلص من جار مثير القلق والمتاعب .

(أنظر Schlumberger p. 571)

(٣) Schlumberger p. 563.

(٤) Ibid, p. 567. Camb. Med. Hist. IV p. 239.

لإحراز المجد والغنيمة ، ولذا استقبل كالوسير فى حماس كبير[١] ، ووافق على كل ما عرضه كالوسير ، وأعلن استعداده للقيام بهذا الأمر[٢] .

وفى أغسطس سنة ٩٦٧ ، نزل الروس جنوب مصب نهر الدانوب ، ويبدو أن قدوم الروس إنما جرى مفاجأة للبلغار الذين أخذوا على غرة ، إذ أنهم أمعنوا فى مهاجمة البلغار وطردهم إلى سيلستريا Silistria[٣] . لم يلق الروس مقاومة من قبل البلغار ، فلم تمض أيام قليلة ، حتى صار فى أيديهم شمال بلغاريا ، فوقع فى أيديهم كل الحصون الهامة بالإقليم ، وحصلوا على غنائم وفيرة ، واتخذوا من ضحاياهم أهدافا لسهامهم ، ومن جماجمهم كؤوسا لشرابهم[٤] .

والراجح أن ما أصابه الروس من الانتصار السريع إنما يرجع جانب كبير منه إلى أن الغزاة كان لهم بالبلاد البلغارية عدد غير قليل من الأنصار الأقوياء . والمعروف أنه كان فى بلغاريا منذ سنوات عديدة ، حزب قوى يكن العداوة والكراهية الشديدة للملك البلغارى ، بطرس ، وما جرى عليه من سياسة التساهل والضعف ، إزاء بيزنطة ، التى تعتبر العدو التقليدى لبلغاريا . يضاف إلى أن بطرس لم يكن الوريث الشرعى للتاج البلغارى ، بل إنه عمل على نزع العرش من أخيه الأكبر . وفى هذا الحزب أيضا من لم ينس ما كان لبلغاريا من مجد حربى غابر ، فاتهم الملك بطرس بالتهاون والضعف[٥] . وتزعم هؤلاء الساخطين جندى باسل ، اسمه شيشمان Schischman أو سسمان ، المعروف أيضاً باسم موكر Mokr ؛ وهو والد صمويل الذى ولى عرش بلغاريا فيما بعد[٦] . أشار المؤرخون إلى أن شيشمان وأولاده الأربعة ، داود ، ومويس ، وهرون ، وصمويل ؛ أضحوا وقتذاك

(١) Ibid p. 567.
(٢) Camb. Med. Hist., IV p. 239.
(٣) Camb. Med. Hist. IV p. 239.
(٤) Schlumberger p. 570.
(٥) Ibid, p. 578.
(٦) Ibid p. 572.

يتزعمون حركة ثورية ، ترمى إلى الإفادة من الغزو الروسى ، لعزل بطرس ، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه فى بلغاريا . ولذا اتصلوا سراً بسفياتوسلاف . وأمدوه بالمساعدة ، كيما يخلصهم من الملك بطرس ، الذى اعتبروه مسئولا عن كل ما حاق بالبلاد من الشرور[١] .

وبعد أن قضى سفياتوسلاف فصل الشتاء مع أتباعه ، منهمكا فى الحروب والمآدب ، عزم على مواصلة الغزو ، ومد فتوحاته ؛ فاندفع فى ربيع سنة ٩٦٨ نحو الجنوب . وأخذ هو وأصحابه يعيثون فى الأرض فسادا ، ينهبون ويحرقون كل ما صادفهم من الجهات . وتوقع الناس ما سوف يحل بهذا الشعب البلغارى التعس من سوء المصير ، لولا أن جرى من المقادير ما منع حدوث الكارثة القاضية[٢] .

حدث أثناء تغيب الأمير الروسى وصفوة عساكره عن بلاده أن زحف البجناك ، المشهورون بشدتهم وقسوتهم فى الحرب ، على البلاد الروسية ، وحصروا مدينة كييف . وما كادت الأنباء تبلغ سفياتوسلاف وجنده ، حتى تخلوا فجأة عن فتوحهم ، وانطلقوا لإنقاذ عاصمتهم . وبذلك تخلصت بلغاريا من الهجوم الروسى ، كما أن الإمبراطور نقفور كان وقتذاك مشغولا بحملته ضد سوريا . وبالقتال ضد أوتو الأول[٣] .

على أن سيفاتوسلاف لم ينس أثناء مسيره ، لرد البجناك عن كييف ، أن يعلن بأنه سوف يعود سريعا إلى بلغاريا . جعل كل تفكيره مركزاً فى إعداد حملة جديدة كيما يستولى بها نهائياً على هذا الإقليم (بلغاريا) الذى يقع وراء الدانوب . غير أن ما جرى من الأحداث فى داخل هذه البلاد كان له أثر كبير فى تطور العلاقات الروسية البلغارية[٤] .

(١) Schlumberger p. 572.
(٢) Ibid, p. 573.
(٣) Diehl et Marcais p. 471. Ostrogorowski p. 259.
(٤) Schlumberger p. 576.

عاد نقفور إلى القسطنطينية فى أوائل سنة ٩٦٩ ، وقد حاز الانتصارات فى سائر الجهات ما عدا إيطاليا . وكاد يستقر فى عاصمته حتى التفت إلى مسألة بلغاريا . فما جرى عليه الأمير الروسى من سياسة الغزو والهمجية ، بعد أن وطأت أقدامه الشاطئ الأيمن لنهر الدانوب ، إنما خالفت ما كان يرمى إليه الإمبراطور البيزنطى من غرض . إذ أنه أراد من دعوته أن يكون سفياتوسلاف حليفا له ، وأن ما يحدث من الاستيلاء على مملكة بلغاريا ، إنما يكون لحساب بيزنطة[1] ، بعد أن حاز هذا المغامر الجزاء الأوفى ، بما حصل عليه من غنائم وفيرة[2] . غير أن سفياتوسلاف لم يقصد من وراء مغامرته شيئا من هذا القبيل ، إذ أن ما جرى بينه وبين كالوسير من حديث سرى ، انطوى على أن تكون له بلاد بلغاريا ، وأشار إليه كالوسير من طرف خفى إلى أن فى وسعه ، بعد الاستيلاء على بلغاريا ، أن يزحف على بيزنطة والحصول على تاجها[3] .

لم يلبث نقفور أن أدرك ما ارتكبه من خطأ كبير ، إذ تبين له أطماع الأمير الروسى . والراجح أنه وقف على خيانة كالوسير ، الذى ظل فى صحبة سفياتوسلاف فاعتقد أنه يدبر معه خطط الغزو ، فلم يسعه إلا تغيير سياسته[4] ، لأنه إذا وقعت بلغاريا فى يد الروس ، تعرضت بيزنطة للخطر . فعرض على البلغار المساعدة لطرد الروس ، وطلب إلى الملك البلغارى بطرس بأن يرسل إلى القسطنطينية أميرتين بلغاريتين لتجرى خطبتهما إلى ولدين من أبناء الإمبراطور رومانوس ، صار أحدهما فيما بعد مشهوراً باسم « جزار البلغار »[5]، فترابط بذلك الدولتان البيزنطية والبلغارية بروابط المحبة والسلام الدائم[6] .

(١) Ibid p. 735.
(٢) Schlumberger p. 735.
(٣) Ibid p. 567, 736.
(٤) Schlumberger p. 739.
(٥) Camb. Med. Hist. VI p. 239.
(٦) Schlumberger p. 739.

أعد نقفور جيشاً كبيراً يتوجه به لقتال الروس ، وليتحرز ضد ما تقوم به عصاباتهم من هجوم مفاجىء ، وهو أمر دأب الروس عليه فى كل حروبهم ، فحشد فى أسابيع قليلة جيشا ضخما ، كان معظمه من الفرسان ، واهتم بعمارة أسوار القسطنطينية ، فضلا عن الاستحكامات الحربية على بوغاز البوسفور ، حتى يأمن جانب غارة الروس بحرا على القسطنطينية[1] . وما ارتكبه الروس من الفظائع فى بلغاريا ، وما تكشف من أطماعهم ، أدى إلى أن الجانب الأكبر من البلغار أخذ يميل إلى مصالحة البيزنطيين[2] .

أما الأمير الروسى ، سفياتوسلاف وعساكره فاستهوتهم المغامرات البعيدة ، وركزوا كل تفكيرهم فى العودة إلى بلغاريا ، حتى إذا انتهوا إلى قرار ، لجأوا إلى تنفيذه . ففى أوائل صيف سنة ٩٦٩ ، حوالى شهر يوليه ، عاد هؤلاء المغامرون الغزاة إلى الظهور ، على الشاطئ الجنوبى لنهر الدانوب ، على أنهم جاءوا ليبقوا طويلا[3] .

وحدث فى هذه الأثناء أن مات بطرس ملك بلغاريا ، وقد كان ولداه وقتذاك بالقسطنطينية ، فأضحى العرش البلغارى شاغرا ، فى هذه الفترة الحرجة ، والتى تعتبر من أشد فترات التاريخ حرجاً وشدة ، لما تعرضت له البلاد من تهديد الروس . وفى غمرة هذه الفوضى ، نهض الحزب الوطنى المناوئ للبيزنطيين ، وجرت المناداة بزعيمه شيشمان ملكا (قيصراً) على بلغاريا . ولما لم يستطع شيشمان وأبناؤه أن يستولوا على الأجزاء الشرقية من بلغاريا ، اكتفوا بالاحتفاظ بالأجزاء الغربية منها ، مثل مقدونيا والبانيا ، فأصبح يلى بلغاريا قيصران ، أحدهما فى الشرق ، والآخر فى الغرب[4] .

ولما تحرج الموقف فى بلغاريا بظهور الروس من جديد ، بادر نقفور بإرسال الأميرين الصغيرين ، ولدى بطرس قيصر بلغاريا ، إلى وطنهما ، كيما

(١) Schlumberger p. 738.
(٣) Ibid p. 739.
(٣) Ibid p. 739.
(٤) Schlumberger p. 739.

يقضى بذلك على آمال الحزب الوطنى البلغارى . ونجح بوريس الثانى ابن بطرس فى رد هجوم قام به داود بن القيصر شيشمان[١] .

استولى سفياتوسلاف على الجزء الشمالى من مملكة البلغار ، دون أن يلقى مقاومة كبيرة . وأحرز الروس انتصارات عديدة ، ووقع فى أسرهم الأميران البلغاريان بوريس ورومانوس ، وأضحى جانب كبير من المملكة فى أيدى الروس ، الذين أخذوا يحكمونها بالسيف والنار[٢] .

ولم تلبث عاصمة بلغاريا ، بريسلاف ، أن سقطت فى أيدى الروس ، فترك بها سفياتوسلاف حامية قوية ، لحراسة أموال الملك التى وقعت فى أيديهم ، وللتحفظ على الأميرين الأسيرين ، لا سيما بوريس ، الوريث الشرعى للعرش البلغارى ، ريثما يواصل مسيره نحو الجنوب ، فلم تمض إلا أيام قليلة ، حتى صار فى قبضته كل ما يقع من بلغاريا بشمال البلقان . ثم تجهز الأمير الروسى لاجتياز جبال البلقان ، حتى إذا تم له ذلك ، اندفع نحو الإمبراطورية البيزنطية[٣] . على أن الروس ، بعد أن أمضوا فصل الشتاء ، أخذوا فى أوائل ربيع سنة ٩٧٠ فى اجتياز جبال البلقان ، ثم انقضوا ، على مدن تراقيا ، على أن ذلك لم يحدث إلا بعد شهور مضت على مصرع الإمبراطور نقفور[٤] .

خاتمة نقفور :

على الرغم من الانتصارات التى أحرزها نقفور ، فإنه لم يستطع أن يجعل نفسه أميراً محبوباً . فحكمه العسكرى الذى سخر فيه كل حياة الدولة لمصالح الجيش ، وما لجأ إليه نقفور فى استخلاص الضرائب لسد نفقات حملاته

(١) Ibid p. 740.

(٢) Ibid p. 740.

(٣) Sclumberger p. 741.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. pp. 239 — 240. Schlumberger.

العديدة ، اشتدت وطأته على الناس . إذ نسمع أثناء هذه الفترة عن ندرة الأقوات وانخفاض سعر العملة . ومع ذلك لم يكن سخط الشعب هو الذى ألقى بنقفور إلى مصيره ، إنما الذى أدى إلى ذلك ، نزاع مع صديقه القديم حنا زمسكيس (ابن الشمشقيق) وخيانة زوجته تيوفانو[١] .

توالى من الأحداث ما زاد فى انقباض نقفور ، وفى كثرة شكوكه ، لاسيما بعد أن تلقى رسالة سرية تحدد فيها الوقت الذى سوف يلقى فيه مصرعه . فلم يعد يروق له أن ينام فى الفراش الإمبراطورى ، بل صار يفترش جلد نمر على أرض حجرة كبيرة ، ملحقة بمخدع الملك ، يتخذها خدام الإمبراطور للسهر على حياته ، ويصح أن تكون أيضاً سبيلا إلى الفرار[٢] .

وازداد انقباض الإمبراطور وحزنه ، حينما توفى أبوه ، الذى اشتد تعلقه به[٣] .

أخذت المأساة تقترب من نهايتها ، فلم يتعرض نقفور لكراهية الشعب وزملائه فى السلاح فحسب ، بل صار مكروها عند زوجته الإمبراطورة تيوفانو . فما اشتهرت به تيوفانو من الجمال ، وشدة العاطفة ، والفجور ، والحرص على الاستمتاع بالحياة ، فضلا عن أنها لا زالت فى عنفوان صباها ، يقابله عند نقفور ، بشاعة المنظر ، وقبح الخلقة ، وخشونة الطباع ، وشدة الميل إلى التقشف ، والانصراف إلى الحرب والقتال[٤] .

ربطت روح التآمر بين الملكة الخليعة ، وبين الدمستق الباسل ، زمسكيس ، الذى يعتبر ألمع قادة الجيش البيزنطى ، ويعتبر فى نظر البلاط معبود العساكر . أما زمسكيس فإنه استبد به الطموح ، واشتد حقده على رفيقه القديم . فمن الطبيعى أن يشعر زمسكيس بالغيرة والحقد لما وصل إليه

(١) Ostrogorowski : p. 260.

(٢) Schlumberger p. 744.

(٣) Ibid p. 745.

(٤) Schlumberger p. 746.

نقفور من المجد والسلطان . أحس زمسكيس بأن نقفور أنكر معروفه له وما قدمه له من خدمات جليلة ، فهو مدين بعرشه إلى حد كبير إلى زمسكيس ، وشعر بأن الإمبراطور لا يوليه من العطف ما يخص به من هم أدنى منه مكانة ورتبة[١] .

تعلق زمسكيس بحب تيوفانو ، فعلى الرغم من أنه كان قصير القامة ، فإنه اشتهر بالوسامة وقوة الشخصية[٢] ، فضلا عن صغر سنه ، فهامت به ، واشتدت كراهيتها لزوجها ، وعملت على التخلص منه[٣] .

ولما يكنه ليو ، أخ الإمبراطور نقفور ، من الحقد والحسد للقائد زمسكيس ، صار يثير حوله الشكوك ، واتهمه بأن يتآمر على الإمبراطور ، ولم تلبث هذه الإثارة أن أثمرت . إذ تقرر إبعاد زمسكيس من البلاد . وإخراجه إلى أملاك له بآسيا الصغرى ، بعد التشهير به ، وتقرر منعه من مغادرة أراضيه . وإذ جرى عزله من قيادة قوات الشرق ، تقرر أن يشغل وظيفة مدنية ، وهى وظيفة اللغتيت ، الذى يتولى صاحبها إدارة البريد . فاعتبر زمسكيس ذلك إهانة وجهها إليه نقفور ، الذى أنكر ما أداه له من خدمات ، فلم يسعه إلا أن يتآمر مع تيوفانو ، التى اشتدت ثائرتها ، وازداد سخطها لما جرى من نفى زمسكيس[٤] .

وما اشتهرت به تيوفانو من مضاء العزيمة ، ووفرة النشاط ، فضلا عما كان معروفا عنها من الرقة وشدة العاطفة ، كل ذلك دفعها إلى أن تسعى عند الإمبراطور لاستدعاء زمسكيس . ولم يلبث الإمبراطور أن استجاب

(١) Ibid, p. 746.

(٢) Ostrogorowski : p. 260.

(٣) يشير المؤرخ يحيى بن سعيد (ص ١٣٦) إلى أن الإمبراطور حينما خرج بالعساكر ، جعل أخاه ليو يقوم مكانه ، إلى حين عودته . وإذ استبد بالإمبراطورة الخوف على ولديها توسلت تيوفانو ألا يفعل ذلك ، ولا يقصى عن وظيفته حنازمسكيس . غير أن نقفور لم يحفل بذلك ، بل إنه هدد بأنه سوف يمثل وينكل بولديها . وعندئذ قررت تيوفانو بمساعدة زمسكيس التخلص من نقفور . (انظر Sch'umberger p. 746 Note 1) .

(٤) Schlumberger p. 747.

لها ، لما صارت تلقيه على مسامعه من عبارات الإطراء والمديح ، وتشير إلى ما يربطه بزمسكيس من رابطة الدم والصداقة القديمة ، وإلى ما اشتهر به زمسكيس من أنه جندى لامع ، ومحارب بارع[١] .

وبفضل ما يكنه نقفور من الحب الشديد لزوجته تيوفانو ، وبفضل ما كان لهذه المرأة من سحر استحوذ على قلب المحارب الشيخ ، استجاب نقفور لطلبها . فتلقى زمسكيس أمراً من الإمبراطور ، يقضى بمغادرته مقره الساحق البعيد ، والمبادرة إلى القدوم إلى القصر الإمبراطورى[٢] .

وإذ طفح قلب زمسكيس بالحقد والكراهية ضد نقفور ، عزم على أن ينتقم منه . وفى أثناء قدومه إلى القسطنطينية ، اتصل سراً بالإمبراطورة ، وبعد أن تكرر التقاء العاشقين سراً وفى جنح الظلام ، وفى القصر الإمبراطورى ، تقرر التخلص من نقفور ، حتى إذا تم ذلك صارت تيوفانو زوجة لزمسكيس . فيجرى بذلك تتويجه إمبراطوراً . وقرر المتآمران أن يبادرا فوراً بتنفيذ المؤامرة .

ولم يكن من العسير على زمسكيس أن يلتمس شركاء لتنفيذ المؤامرة ، نظراً لكثرة الساخطين على نقفور . على أن أهم المتآمرين كان القائد (ستراتيجوس) ميخائيل بورتسز (البرجى) Michel Bourtzes ، الذى أحرز النصر الباهر فى أنطاكية والذى اشتد غضبه ، لما نزل به من التحقير والإهانة ، أما الشخص الآخر الذى يضارعه فى الأهمية فهو البطريق ليو بيدياسيموس Pediasimos . وانحاز إليهما جماعة من كبار الساخطين على الإمبراطور . وأخذ زمسكيس يلقى عليهم النصائح ويبذل لهم الوعود ، إذا حازوا النصر[٣] .

وتمت الاتصالات ليلا بين المتآمرين والإمبراطورة ، وأسهم فى نجاح

(١) Schlumberger p. 748

(٢) Ibid. 748.

(٣) Schlumberger p. 750—751

هذه الصلات الطواشية والجوارى . إذ يسروا لهم الدخول إلى المواضع الخفية ، حيث استقبلتهم تيوفانو . وتقرر تنفيذ المؤامرة فى ليلة ١٠ — ١١ ديسمبر سنة ٩٦٩[١] وبفضل ما أعدته تيوفانو من وسائل ، دخل إلى القصر الإمبراطوى زمسكيس وأنصاره ، فاتخذوا طريقهم فى سهولة ويسر ، إلى حجرة نقفور ، فألفوا الإمبراطور نائماً وقد افترش جلد النمر . فأيقظه المتآمرون بركله بأرجلهم ، ثم ضربوه بالسيف فأصاب وجهه جرح كبير . وعندئذ أقبل المتآمرون على ربط رجليه ، وأخذوا يجرونه أمام زمسكيس ، الذى صار يكيل له الشتائم واللعنات ، وأخذ يركله برجله ويشده من لحيته ، ثم ضربه آخر الأمر بسيفه على جمجمة رأسه فحطمها ، بينما بادر أحد المتآمرين إلى الإجهاز عليه . تمّ كل ذلك فى وقت قصير ، كما تخمد الثورة التى أخذت فى الظهور ، وجرى تتويج زمسكيس فوراً ، فأمر بعرض جمجمة نقفور فى النافذة ليشهدها الناس . وفى اليوم التالى ، تم دفن الإمبراطور القتيل فى سرية تامة فى كنيسة الرسل القدّيسين ، وبذلك كانت خاتمة عهد يعتبر من أهم العهود المجيدة فى التاريخ البيزنطى ، إذا نظرنا إليه من الناحية الحربية[٢] .

حنا زمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦)

ينتمى حنا زمسكيس[٣] إلى أسرة أرمنية عريقة النسب . فهو يتصل من جهة أبيه بأسرة كوركواس Curcuas ، ومن جهة أمه بأسرة فوقاس . وجرت ولادته فى هيرابوليس بأرمينيا (المعروفة حاليا باسم Chemishgadjak ومعناها مسقط رأس زمسكيس) حوالى سنة ٩٢٤ ، واحترف الجندية منذ

(١) Schlumberger. p. 751

(٢) Camb Med. Hist IV b. 77.

(٣) ورد فى المصادر العربية ابن ابى الشميشقيق ، وهذا قريب من الصيغة الأرمنية Chemishkik أو Chemsrgig التى جعلها البيزنطيون Tzimisces
انظر — زمسكيس Cam. Med. Hist IV p. 78

حداثته ، شأن نقفور وسائر أقاربه . واتصل منذ زمن مبكر بقريبه نقفور ، وصحبه فى الحملات الحربية الضخمة التى توجهت إلى قليقية وسوريا ، فجمعت بينهما صداقة وثيقة ، وسبق أن أشرنا إلى أن زمسكيس هو الذى ألح على نقفور بأن يتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية . وما حازه من صيت حربى ، وما أحرزه من انتصارات ، تكاد تضارع ما اشتهر به نقفور ذاته من الأعمال الجايلة . يضاف إلى ذلك ما تمتع به من محبة بين العساكر ، لما اشتهر به من البسالة والسخاء ، فضلا عن جمال خاتقته برغم قصر قامته[١] .

ولما تولى نقفور العرش ، شغل الوظيفة التى كان يحتلها الإمبراطور ، وهى وظيفة قائد القوات البيزنطية فى الأناضول (الدمستق) فصار لزاما عليه أن يواصل ما قام به نقفور من فتوح ، فأصاب فى ذلك توفيقاً كبيراً برغم ما تعرض له فى بعض الأحوال من هزائم . هل كانت هذه الانتصارات من الأسباب التى أدت إلى وقوع الشقاق بينه وبين الإمبراطور ؟ الواقع أنه ليس لدينا من الأدلة ما يجعلنا نجزم بذلك . وما هو محقق وأكيد أن زمسكيس فقد عطف الإمبراطور ، سنة ٩٦٩ ، ولعل ثمة من الأسباب الأخرى ما أدى إلى الحط من قدره . إذ أن زمسكيس لم يلبث أن اكتشف أن زميله القديم فى السلاح (نقفور) لم يعد يعيره اهتماما ، بل صار يعامله مثلما يعامل سائر القادة ، على الرغم من أن له اليد الطولى فى جعله إمبراطوراً . على أن أهم دافع له فى أن ينحاز إلى الساخطين ، ويشترك فى تدبير المؤامرة للتخلص من نقفور ، ما كان لتيوفانو عليه من تأثير ، إذ ازداد وقتذاك شغفها وتعلقها به ، فهى التى أيدته فى تمرده ، وحرضته على اغتيال نقفور ، يضاف إلى ذلك ما أضمره ليو فوقاس من العداء الشديد لزمسكيس ، فدأب على إلصاق التهم به عند أخيه ، وبذل كل ما فى وسعه من جهد لإفساد العلاقات بينه وبين أخيه ، واجتمعت كل هذه الأسباب ، فأدت أول الأمر إلى قطيعة بين الصديقين ، ثم إلى كراهية شديدة بينهما برغم ما يربطهما من أواصر القرابة

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 78.

والنسب . وانتهى الأمر بإقدام زمسكيس على اغتيال نقفور ، وما ترتب على ذلك من جلوسه على العرش الإمبراطورى . وحينما تولى العرش ، كان فى الخامسة والأربعين من عمره . وسبق أن أعلن طلاق زوجته ماريا Maria شقيقة بادراس سكلبروس Sclerus ، وكان فوق ذلك عشيقا لتيوفانو ، ولم يكن له ذرية[1] . ومن أجل الوصول إلى العرش ، بعد مصرع نقفور ، أعلن زمسكيس استعداده لقبول ما يصح أن يفرض عليه من الشروط[2] .

ماكاد يتم تتويج زمسكيس ، حتى أعلن ، مثلما فعل نقفور من قبل ، أنه سوف يعتبر نفسه مجرد قيم على صاحبى السلطان الشرعيين ، وهما باسيل وقنسطنطين ، ومن ثم يعتبر وصيا على الإمبراطورية[3] . اتخذ كبيرا لوزرائه ، باسيل ، الإبن غير الشرعى للإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، والذى لقى الحظوة عند قنسطنطين السابع . وكان من أشد الناس حماسا فى نصرة نقفور عند ما تولى العرش ، فصار أكبر حجابه Parakoimomenos ، وولى الوظيفة التى تقرر إنشاؤها له ، وهى وظيفة رئيس السناتو . ثم تخلى باسيل عن الإمبراطور نقفور لنفس الأسباب التى اتخذها زمسكيس . فلما جرى تدبير المؤامرة سنة ٩٦٩ ، انحاز إلى المتآمرين . فلما ولى زمسكيس العرش ، صار باسيل الرئيس الفعلى للحكومة ، ولاشك أنه هو الذى أشار بما جرى اتخاذه أول الأمر من التدابير والإجراءات . فهو الذى أصدر الأوامر بأن يجرى إعلان تنصيب الإمبراطور ، فى كل أرجاء القسطنطينية ، ويمنع الاجتماعات العامة ، وتجنب الإخلال بالأمن ، والنهب ، وجعل عقوبة من يرتكب ذلك الإعدام . إذ أنه لم يقبل أن يتكرر فى القسطنطينية من الثورات ما صاحب اعتلاء نقفور العرش . أما الخطوة الأخرى التى اتخذها ، فهى أنه عزل كل الموظفين الموالين للإمبراطور السابق ، وعين مكانهم غيرهم من الموظفين . فتقرر نفى

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 78.

(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 78.

(٣) Camb. Med. Hist. IV p. 79.

ليوفوقاس وكل أبنائه ، ما عدا بطرس ، الذى كان طواشيا ، إلى ميثيمنا Methymna وأماسيه ، وبذلك توطد مركز زمسكيس[1] .

على أن ثمة مشكلة خطيرة كان لابد من حلها فورا ، لما لها من أهمية فى توطيد مركز زمسكيس ، فلابد للإمبراطور الجديد أن يتلقى التاج من يد البطريرك بوليكتس Poleuyctes ، فى الكنيسة الكبرى . فلا يتخذ الحكم الصفة الشرعية إلا إذا تم تنصيب الإمبراطور فى الكنيسة . وأيقن زمسكيس نفسه ، أنه ما لم يتوجه البطريرك فى الكنيسة ، فلن يكون حكمه سوى أسوأ نوع من أنواع الاغتصاب[2] .

أما زعيم الكنيسة الذى سوف يرسم الحاكم الجديد ويتوجه ، فكان البطريرك بوليكتس الذى اشتهر بالقداسة ، وبما حازه من الفضائل الجليلة ، فضلا عما هو معروف به من الصلابة ، والعناد ، وشدة التمسك بالأرثوذكسية . وبسبب ما اشتهر به من التزمت ، أقام العقبات والمشاكل الضخمة فى سبيل نقفور فوقاس ، حينما تزوج من تيوفانو ، وحينما تم تتويجه . أدرك زمسكيس ما سوف يقوم به البطريرك من تدابير[3] .

حينما أبدى زمسكيس ، بعد أن مضى أسبوع على ارتكاب جريمته ، الرغبة فى أن يجرى تتويجه فى كنيسة القديسة صوفيا ، أعلن البطريرك صراحة أنه يرفض أن يشارك فى أى حفل دينى ، إلا بعد أن يعلن زمسكيس توبته ، وأن يبرئ نفسه من اغتيال نقفور ، وأن يتبرأ من القتلة . . بل إن البطريرك ذهب إلى أبعد من هذا . إذ أنه فى هذه اللحظة الحرجة ، انتقم لكل ما جرى له طوال حياته ، بأن وجه إلى زمسكيس الحديث التالى « لا بد لك أول الأمر أن تعلن توبتك ، وأن تدفع عن نفسك التهمة الخطيرة ، إذ أن الرأى العام يؤكد

(١) Camb. Med. Hist. IV p. 79

Schlumberger : L'Epopée Byzantine â la Fin du Xe siecle, I, pp. 11,12.

(٢) Schlumberger : L.Epopée I p. 14.

(٣) Schlumberger : L.Epopée I. p. 14.

اشتراكك فى اغتيال نقفور . وإلا أصبحنا مذنبين . فإذا أردت أن تدخل إلى المكان المقدس ، كيما أقوم برسامتك ، فلتبرئ نفسك أولا ، ولتنفض يديك من القتلة أياً كانوا » . وختم حديثه بالعبارة التى طغت فى عنفها وشدتها على ما سبق من العبارات . « فلتبادر أولا بأن تطرد من القصر المقدس الزوجة المجرمة الزانية ، التى دبرت كل شىء ، والتى لاشك أنها تعتبرك المحرك الأول للجريمة[١] » .

ولا شك أن لموقف البطريرك من الإمبراطور أثراً كبيراً فى تشكيل العلاقات بين الكنيسة والدولة . إذ أن سلطة الكنيسة الأدبية اكتملت بما حدث من إرغام زمسكيس على إلغاء القانون ، الذى أصدره سلفه (نقفور) ، لمناهضة الممتلكات الديرية والكنسية[٢] . وما أصدره نقفور أيضاً من قانون يحرم على رجال الدين أن يصدروا قراراً كنسياً ، أو يجروا تنصيب وترقية رجل من رجال الدين ، إلا بعد الحصول سلفاً على موافقة الإمبراطور ، كان من العوامل التى أدت إلى ما يكنه رجال الكنيسة من الكراهية لنقفور أواخر حكمه[٣] . اعتبر البطريرك بوليكتس هذا المرسوم مخالفاً للقانون ، وأنه جائر ، ولذا طلب إلى حنا زمسكيس ، أنه من أجل التكفير عن جريمته ، لا بد أن يعلن بطلان ، لا فحسب ، هذا المرسوم الذى يجعل كل الأمور الكنسية تخضع لموافقة الإمبراطور ، بل كذلك كل ما أصدره نقفور من المرسومات المتعلقة بالاعتداء على أملاك الكنيسة . وطلب البطريرك أيضاً أن يعود من المنفى كل رجال الكنيسة ، الذين تقرر طردهم من مناصبهم ، لأنهم لم يقبلوا هذه المرسومات ، وأن يعودوا إلى وظائفهم مكرمين معززين[٤] .

---

(١) Schlumberger: L.Epopée l. pp. 14—15.
Camb. Med. Hist. IV. p. 79. Ostrogorowski p. 260.

(٢) Ostrogorowski: p. 260. Vasiliev p. 335.

(٣) Schlumberger: L.Epopée l. p. 16.

(٤) Schlumberger: L.Epopée l. p. 17.
Camb. Med. Hist. IV p. 79.

ثم طلب آخر الأمر من زمسكيس ، أن يدفع ثمن الجريمة التى ارتكبها وأهدر فيها دم نقفور ، بأن يتنازل عن جميع ممتلكاته وعقاراته ، يؤدى شطراً منها إلى الفقراء ، أما الشطر الآخر فينفقه فى عمارة الكنائس الرئيسية بالقسطنطينية[١] . وافق زمسكيس على جميع ما طلبه البطريرك . إذ تقرر فوراً إلغاء قوانين نقفور ، وجرى استدعاء الأساقفة من المنفى ، وإرسال تيوفانو إلى دير فى بروتى Proti ، من جزر الأمراء ، بالقرب من العاصمة (القسطنطينية) ، ثم تقرر نقلها فيما بعد إلى أرمينيا[٢] . أما زمسكيس نفسه فإنه أعلن أنه لم يرفع يده ضد نقفور ، وأقسم أنه لم يشترك فى الجريمة . ثم رأى أنه من السياسة السليمة أن يَبِرَّ بالفقراء والفلاحين ، وأن يسخو على جماعة من الأرستقراطيين[٣] إذ جعل شطراً من امواله للفلاحين ، فى ثغر تراقيا ، الذين اشتد بهم العوز والفقر ، لاسيما فى السنوات الأخيرة التى سادها القحط[٤] . وتنازل عن جانب آخر من ثروته ، لمستشفى الجذام والأمراض المستعصية ؛ التى تقع فى كريسوبوليس (اسكودار) على الشاطئ الأسيوى[٥] .

لم يكتف زمسكيس بذلك ، بل إنه اختص سكان ثغر الأرمنياق ، برعاية خاصة ، لأنه نشأ وترعرع فى هذه الجهات ؛ فأعفاهم من الضرائب عن السنة الجارية . وفاق زمسكيس من سبقه من الأباطرة فيما جرت به العادة من بذل المنح والعطايا ، فى مستهل السنة الجديدة ، لأعضاء السناتو ، ولكبار الموظفين ، ولأفراد الطبقات النبيلة . هذا ما حدث فى نهاية السنة ، ومنه نتبين ما اتخذ من الإجراءات والتدابير لتألف القلوب للإمبراطور الجديد[٦] .

---

(١) Schlumberger : L.Epopée l. p. 17.
Camb. Med. Hist. IV. 79.

(٢) Ibid. p. 79. Schlumberger. L.Epopée l. p. 21.

(٣) Ibid. p. 80.

(٤) Schlumberger : L.Epopée I. p. 26.

(٥) Ibid p. 26.

(٦) Ibid. p. 26.

أما أهل العاصمة ، الذين شاركوا سائر السكان فيما حل بالبلاد من الضائقة والقحط ، فلم ينسوا ما جرى اتخاذه من التدابير لإنقاذ حياتهم ، والعمل على رفاهيتهم . إذ أن مقادير كبيرة من المؤن ، تقرر جلبها وتوزيعها . فوصل إلى القسطنطينية وسائر الجهات التى تعرضت للمجاعة ، مقادير كبيرة من القمح والحبوب ، من الشرق والغرب ، وتم توزيعها على السكان ، فأدى ذلك إلى تخفيف حدة الضائقة التى حلت[١] بالناس ، يضاف إلى ذلك ما حدث من إعدام اثنين من كبار المتآمرين على نقفور ، وهما ليوبالانتس Leo Balantes ، وحنا الزيبوثيدوروس Alzypothedoros[٢] .

وإذ تم إنزال العقاب بالمجرمين الذين قاموا فعلا باغتيال نقفور ، وجرى إلغاء القوانين الجائرة على حريات الكنيسة ، أعلن البطريرك بوليكتس ، بعد أن اقتنع بانتصار السلطة الروحية على السلطة الزمنية ، أنه مستعد لأن يقوم بتتويج الإمبراطور الجديد . وفى يوم عيد الميلاد من سنة ٩٦٩ ، أى بعد مضى أسبوعين على مصرع نقفور ، قام البطريرك بتتويج زمسكيس فى كنيسة القديسة صوفيا ، بعد أن مسحه بالزيت المقدس . والراجح أن ولدى تيوفانو ، شهدا هذا الاحتفال الدينى . أما البطريرك فقد قضى نحبه فى يناير سنة ٩٧٠ ، بعد أن كرس تيودور Theodor of Colonea ، بطريركاً على[٣] أنطاكية ، وبعد أن هيأ للكنيسة النصر على السلطة الزمنية ، بعد أن عانت من الذلة زمن نقفور[٤] .

وقام بوليكتس بدور كبير الأهمية ، فى عهود الأباطرة الثلاثة المتأخرين .

---

(١) Schlumberger : L.Epopée I. p. 27.

(٢) Ibid. p. 20.

(٣) Ibid. p. 27. Camb. Med. Hist. IV. p. 80.

من الملحوظ أن حنا زمسكيس لم يقدم على أن يختار للوظائف الكنسية الكبيرة إلا أشخاصا ، أقر كفايتهم البطريرك باعتباره رئيس الكنيسة .

انظر Schlumberger : L.Epopée p. 30.

(٤) Ibid p. 31.

فى زمن قنسطنطين ، تولى تنصير أولجا ، الأميرة الروسية التى ظلت حتى آخر حياتها من أخلص أصدقائه . وفى زمن نقفور ، كان يلى الإمبراطور فى المكانة . أما فى زمن حنا زمسكيس ، فإنه لم تمض إلا أيام قليلة على توليته العرش ، حتى أرغمه البطريرك ، قبل أن يتوجه ، على أن يعيد للكنيسة ما كان لها من امتيازات[١] .

كان لزاماً على زمسكيس ، فى سبيل الوصول إلى العرش ومباشرة سلطته ، أن يركع أمام البطريرك . ولحرصه على أن يتجنب مستقبلا مثل هذه الأحداث ، وعلى ألا يظل كرسى البطريركية شاغراً ، وعلى أن يسعى فوراً ، لأن يشغل هذا المنصب ، شخص من صنائعه ، ويعتبر فى الوقت نفسه خليقاً بأن يكون خليفة للبطريرك الراحل بوليكتس ، بادر الإمبراطور زمسكيس فى اليوم التالى لوفاة بوليكتس ، فدعا المجمع المقدس للانعقاد ، وشهد الاجتماع كل من كان بالعاصمة من الأساقفة ورجال السناتو[٢] .

واستهل الإمبراطور حديثه ، الذى وجهه إلى الحاضرين ، بالإشادة بالمرشح الجديد ، وبالإشارة إلى أنه يعرفه منذ زمن طويل . ثم قال : «إن الله القوى ، خالق السموات والأرضين ، أقام على سطح الأرض ، سلطتين كبيرتين : سلطة الكنيسة ، وسلطة الإمبراطور ، عهد للأولى بعلاج الأرواح ، وجعل للأخرى أمر الاهتمام بالأبدان ، فإذا لم تتعرض إحداهما للضرر ، ساد العالم الاطمئنان والسلام»[٣] . ثم رشح لشغل منصب البطريركية ، راهباً اسمه باسيل ، اشتهر بالقداسة والزهد والنبوءات ، فضلا عن أنه كان من أصدقاء الإمبراطور ، وكان باسيل من رهبان دير أوليمبوس فى بثينيا[٤] .

---

(١) Schlumbearger : L'Epopée.I. p. 81.

(٢) Ibid. p. 32

(٣) Ostrogorowski p. 261. Schlumberger : L.Epopée I. p. 32.

(٤) Camb. Med. Hist. IV p. 80.

ونستخلص من حديث زمسكيس ، ما جرى من تغير فى مكانة البطريركية . فمنذ زمن قنسطنطين الكبير ، وجستنيان ، جمع الإمبراطور فى ذاته ، باعتباره الكاهن الأكبر والإمبراطور ، السلطتين الروحية والزمنية . وباعتباره أسقفاً وملكاً ، صار له من المكانة والعظمة ما جعله فوق كل قانون بشرى . على حين أن الإمبراطور البيزنطى ، حنا زمسكيس ، صرح فى المجمع المقدس : أن الله القوى أقام على الأرض قوتين عظيمتين : البطريرك والإمبراطور [١] .

وما قاله زمسكيس ، الذى يعتبر من أعظم الأباطرة البيزنطيين وأقواهم ، يعتبر اعترافا بما ورد فى قانون Epanagoge من النظرية الفوتيوسية[٢] .

ثم أجرى زمسكيس زواجا سياسيا . بعد طرد تيوفانو ، بأن تزوج من تيودورا ابنة قنسطنطين السابع ، وعمة الإمبراطورين الصغيرين ، باسيل وقنسطنطين ، فاتخذ ما سبق أن اتخذه نقفور من خطة ، بأن جعل من نفسه حامياً لصاحبى الحق الشرعى فى الحكم[٣] .

السياسة الخارجية

المعروف أن زمسكيس يضارع نقفور فى مهارته العسكرية وقيادته الفذة ، بل إنه يفوقه فى الخبرة السياسية ، وذلك لما اشتهر به نقفور من التعجل والتسرع .

---

(١) Schlumberger. L.Epopée I. p. 34.

ومن التدابير التى اتخذها زمسكيس نستخلص : أن الإمبراطور هو الذى يتولى ترشيح البطريرك الجديد ، غير أنه لا يرشح لهذا المنصب إلا من كان جديرا به . ولذا رأى أنه للوفاء بوعده ، أن يجعل لمن كان بالعاصمة من الأساقفة ورجال السناتو ، الحق فى أن يحكموا بصلاحية المرشح للبطريركية ، ولذا جمعهم فى قصره لتقرير ذلك .

انظر Schlumberger : L.Epopée I. p. 34.

(٢) Ostrogorowski : p. 261.

(٣) Ibid p. 261.

كان لزاما على زمسكيس ، عقب تتويجه ، أن يفكر فى أن يدفع عن البلاد ما تعرضت له وقتذاك من أخطار . ومن أشد الأخطار التى تعرضت لها بيزنطة ، عندما تولى زمسكيس العرش ، كان خطر الروس .

الحرب ضد الروس والبلغار :

سبق الإشارة إلى ما أحرزه الروس من انتصار على البلغاريين ، وإلى أنهم اتخذوا معسكرهم على الطرف الشمالى للإمبراطورية ، عند سفوح البلقان ، على مسافة غير بعيدة من العاصمة ، جعل بلوغهم أسوار القسطنطينية أمراً متوقعاً من حين إلى آخر[١] .

ذلك أن جانباً من الروس ، الذين تألف منهم جيش Syvatoslav ، الذى غزا بهم فى السنة السالفة بلغاريا ، شجعته الانتصارات على أن يتجهز لعبور جبال الألب فى الربيع التالى ، للاستيلاء على سهول تراقيا ومقدونيا ، ومنها يتقدم لمهاجمة العاصمة البيزنطية[٢] .

وما منع سفياتوسلاف من اجتياز الجبال الضخمة سوى شدة الشتاء ووعورة الطريق . وحينما عاد نقفور من سوريا ، أخذ يتجهز لملاقاة هذا العدو المخيف . وبفضل اهتمامه ، تهيأت القسطنطينية للدفاع ، وتجهز الإمبراطور وجيشه للمسير لملاقاة العدو . غير أن ما حدث فى ليلة ١٠ ديسمبر من اغتيال نقفور ، حال دون المضى فى القتال .

وعلى الرغم من أن زمسكيس لم يقل عن سلفه بسالة وإقداما فإنه كان ، أثناء تفاقم الخطر الروسى ، فى أحرج الظروف وأشدها قسوة[٣] . وحينما اشتد ضجر وقلق سفياتوسلاف وصحبه ، من طول مكثهم شتاء فى المدن

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 34.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I. p. 37.

(٣) Ibid p. 38.

البلغارية الكريهة ، أخذوا ينسابون فى سهل تراقيا ، ويسلكون الطريق المؤدى إلى القسطنطينية . وترامت الأنباء إلى العاصمة ، فى شهر مارس سنة ٩٧١ ، بأن الروس اجتازوا البلقان فاندفعوا نحو مدينة فيليبوبوليس ، وهى من أمنع المواقع على نهر الهبر Hebre ، وهى أول مدينة صادفوها ، بعد اجتيازهم الجبال . فاستولوا عليها وأجروا بأهلها مذبحة مريعة[1] .

وبدا كأن البلغاريين أخذوا يتحالفون مع سفياتوسلاف . استعداداً للقيام بقتال شديد مشترك ضد بيزنطة . فما بذله زمسكيس من جهود للحصول على تسوية سلمية مع سيفاتوسلاف ، إذ أن الزعيم الجديد (سفياتوسلاف) لبلغاريا ، لم يطلب أقل من أن ينسحب البيزنطيون إلى آسيا ، وأن يتخلوا عن كل ما لهم من أملاك فى أوربا بما فيها القسطنطينية[2] .

هذه هى المرة الثالثة ، التى حدثت أثناء قرن واحد ، والتى طلب فيها الروس من الأباطرة البيزنطيين الجلاء عن عاصمتهم[3] .

فلم يكن فى وسع الإمبراطور سوى أن يختار سبيل الحرب[4] .

ولحسن طالع الإمبراطورية البيزنطية ، أن صادف هذا الهجوم الروسى ، فترة تجددت فيها القوة الحربية البيزنطية ، وأضحت مصائر بيزنطة فى أيدى إمبراطور ، يعتبر من أنشط الأباطرة ، ومن أكثرهم دراية بفنون الحرب والقتال . جمع بين المهارة السياسية ، والدراية الحربية[5] .

لم يلبث زمسكيس أن استدعى من آسيا القوات الإمبراطورية ، وسيرها فوراً إلى فيليبوبوليس . أما الإمبراطور فإنه أقام برهة فى العاصمة ، وذلك

---

(١) Ibid p. 38.

(٢) Ostrogorowski : p. 262. Schlumberger L'Epopée I. p. 41.
Camb. Med. Hist. IV. p. 240.

(٣) Schlumberger : op. cit. p. 42.

(٤) Schlumberger : L'Epopée I. p. 42.

(٥) Ibid. p. 46.

خوفاً من المؤامرات أو التحركات المفاجئة ، فضلا عن اهتمامه بإعداد القوات التى صار يبعث بها للقتال ، والتى سوف يلحق بها ، فيما بعد[1] .

وأعد زمسكيس ، فى هذه الفترة من التاريخ ، فرقته الحربية المختارة التى أطلق عليها اسم اثناتوى « Athanatoi » أى « الخالدين » . والراجح أن السر فى هذه التسمية يرجع إلى ما كان يحدث بعد كل معركة ، من سد العجز فى القوات ، بمن انضم إليهم من جند جدد ، جرى اتخاذهم من خبرة جند الجيش . واحتفظ زمسكيس لنفسه بالقيادة . وسوف تقف على ما أحرزه هؤلاء الخالدون من نصر ساحق فى المعركة الشهيرة ، التى تعتبر من أهم معارك القرن العاشر الميلادى[2] .

وتولى قيادة القوات ، التى بادر بإرسالها أول الأمر زمسكيس ، لملاقاة الأمير الروسى ، اثنان من زعماء القادة البيزنطيين ، أولهما : واسمه بارداس سكليروس ، كان صهر الإمبراطور ، وينتمى إلى أسرة عسكرية اشتهرت بهذا الإسم ، ومسقط رأسها آمد من بلاد إقليم بونطس Pont ، إذ تزوج الإمبراطور من أخته مارية ، غير أنها لم تلبث أن ماتت بعد زمن وجيز . واشتهر بارداس سكليروس ، بشدة النشاط ؛ وبأنه من طراز فريد فى القيادة العسكرية ، أحرز النصر فى العهود السابقة أثناء القتال فى آسيا . على أن شدة طموحه أدت إلى تدميره ، وإلى أنه كاد يودى بالإمبراطورية إلى أبواب الهاوية[3] .

أما القائد الثانى للحرس الإمبراطورى ، فكان بطرس فوكاس ، والذى سبق أن أبلى بلاء حسنا فى القتال ضد أنطاكية ، وفى الاستيلاء على حلب ، وذاع صيته بالقسطنطينية بعد أن أبرم المعاهدة مع زعماء حلب . وجرى استدعاؤه لرد غارات السزين والمجريين على تراقيا[4] .

---

(١) Ibid. p. 46.

(٢) Ibid p. 46.

(٣) Schlumberger : L Epopée I. p. 42.

(٤) Schlumberger : L.Epopée I. p. 47.

أرسل زمسكيس جيوشه الأولى لملاقاة الروس ، على أن يلحق بقائديه فى الربيع ، بعد أن يفرغ من مشاكل الدولة . غير أن ما حدث من ثورة بارداس فوكاس منعه من المسير نهائياً فى تلك السنة[١] .

ولما كان يأمله حنا زمسكيس من أن سفياتوسلاف سوف يتراجع حينما تقع عيناه على الجيوش البيزنطية النظامية ، أو بسبب قسوة الشتاء ، أمر قائديه بألا يبادرا بالهجوم على العدو . إنما أمرهما بأن يتخذا بجيوشهما منازل لهم ، فى سهل تراقيا ، لحماية البلاد مما يتجدد من الغارات من قبل جيوش الأمير الروسى . وطلب إليهما أيضاً أن يتوقعا هجوم سفياتوسلاف ، وأن يستعدا لمواجهة فصل بالغ القسوة ، وألا يغفلا المضى فى تدريب الجيوش ، وأن يحترسا من مباغتة الروس لقواتهما ؛ وأن يتخذا من الجواسيس من يجيد التحدث بالروسية ، لينفذوا إلى معسكر سفياتوسلاف ، فيعودون لهم بالأنباء الدقيقة عن نوايا الأمير الروسى ، التى لم يعرف عنها بالقسطنطينية إلا قدر ضئيل غامض[٢] ، وعندئذ اتخذ بارداس سكليروس مواقعه فى أدرنه ، وأخذ يراقب تحركات العدو ، بما يرسله نحوه من سرايا قليلة العدد[٣] .

أما الروس فانتشروا فى شمال سهل تراقيا الفسيح . وتجهز سفياتوسلاف للقيام بحملة كبيرة . فالحزب الملكى البلغارى ، الذى يمالئ البيزنطيين ، والذى استعد للقيام بثورة ضد الروس ، جرى القبض على زعمائه وإعدامهم ، فقضى بذلك على كل مقاومة من قبلهم . وتحالف سفياتوسلاف أيضا مع المجريين والبجناك ، ووعد الارستقراطية البلغارية بجواز عودتها إلى الوثنية ، واسترداد امتيازاتها ، فأقام ضد البيزنطيين حلفا من جميع عناصر المتبربرين ، وأضاف إلى رجالته ، حشداً كبيراً من فرسان أقاليم الدانوب ، تسلحوا بالرماح والقسى[٤] .

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 48.

(٢) Ibip. p. 49.

(٣) Ibid. p. 49.

(٤) Schlumberger : L'Epopée I. p. 49.

وصلت طلائع الروس إلى أدرنه ، فأجرت القتل والنهب ، فيما يصادفها فى الطريق وذلك فى إبريل سنة ٩٧٠ ، فانحاز إلى الجيش الروسى قوات بلغاريا وبجناكية وصقلبية[١] .

دفع الأمير الروسى بقوات الفرسان المساعدة للمضى أمامه صوب القسطنطينية ، ثم اتخذ طريقه بمن معه من رجالته الأشداء ، للحاق بالفرسان ، ولم يتوقف إلا حينما صارت طلائع جيشه على مقربة من القوات البيزنطية . ووقع أول صدام فى هذه الحرب فى قرى اركاديوبوليس **Arkadiopolis** (لولى بورغاز الحالية **Lulé-Bourgaz**) فلا تبعد القسطنطينية عن هذا المكان بأكثر من ٢٥ مرحلة[٢] .

لم يكن لدى بارداس سكليروس من القوات الإمبراطورية سوى ١٢ ألف مقاتل ، يعتبرون من خيرة العساكر . استقر بهم أول الأمر فى أدرنه ، ثم أخذ يتراجع كلما تقدم الروس ، وتجنب القيام بما يثيرهم ، حتى ظنوا أنهم سوف يقهرونهم إذا التحموا بهم . فانصرفوا إلى اللهو والعبث ، ولم يكترثوا باتخاذ الحذر والاحتراس من مباغتة البيزنطيين ، وهذه هى اللحظة التى تطلع إليها بارداس سكليروس ، إذ أعد كمائنه ، وسد المسالك التى سوف يتخذها الروس ، وفى اليوم المحدد ، أرسل قوة من الفرسان لمناجزة الروس ، ولاجتذابهم إلى المواضع التى أعدت بها الكمائن[٣] . وترتب على ما أحرزه بارداس سكليروس ، من نصر ساحق على البجناك المحالفين للروس ، والذين وقعوا فى أيدى الكمائن البيزنطية ، أن زحف بارداس بقواته لقتال الروس ، فحلت بالروس هزيمة ساحقة ، ولحقت بهم خسائر فادحة فى الرجال وذلك بالقرب من أدرنة[٤] . وإذا كان الروس ظهروا فى السنة التالية فى ثغر

(١) **Schlumberger : L'Epopée I. p. 51.**
يقدر بعض المؤرخين عدد الجيش الروسى بنحو ستين ألفا . وجعلهم آخرون ثلاثين ألفا .

(٢) **Ibid. p. 51.**

(٣) **Schlumberger : L'Epopée I. p. 52.**

(٤) **Ibid. p. 56**
جعل بعض المؤرخين موضع المعركة بقرى اركاديوبوليس ، فى منتصف الطريق بين بيزنطة وأدرنه
Ibid. p. 54.

مقدونيا ، فإن ذلك يرجع إلى أن ثورة بارداس فوكاس ، منعت البيزنطيين من الإفادة من الانتصار الذى أحرزوه من قبل(١).

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى فى سهل تراقيا الفسيح ، عكف حنا زمسكيس على استكمال عدته الحربية ، فصار يتلقى باستمرار ما يرد إليه من بلاد الأناضول من القوات الإضافية ، فيجهزها فى القسطنطينية ، ويعمل على تدريبها ، ثم يبعث بها إلى ساحات القتال فى شمال ثغرى تراقيا ومقدونيا . ورابط بارداس سكليروس فى سهل تراقيا طوال شتاء ٩٧٠ — ٩٧١ . أما سفياتوسلاف ، فإنه بعد أن غادر تراقيا اجتاز البلقان من جديد ، واستقر فى بلغاريا(٢) .

وفى مستهل سنة ٩٧١ ، أعد حنا زمسكيس عدته لقتال الروس ، وقرر الخروج على رأس جيشه ، لسحق الروس واستخلاص بلغاريا الدانوب من أيديهم . غير أن ما حدث وقتذاك من ثورة بارداس فوقاس ، أجبره على إرجاء هذا النضال الخطير(٣) .

وانقضى فصل الربيع من سنة ٩٧١ فى القضاء على ثورة فوكاس ، على أن الروس لم يحاولوا من جديد القيام بهجوم على العاصمة ، برغم انسحاب بارداس سكليروس وعساكره إلى آسيا لمواجهة ثورة بارداس فوكاس ، وكادت هذه السنة تنتهى دون أن يقع صدام بين الجانبين المتحاربين(٤) .

وإذ اطمأن الروس إلى غياب بارداس سكليروس والجانب الأكبر من القوات البيزنطية ، لم يعد يواجههم إلا قوة صغيرة من البيزنطيين ، اقتصرت مهمتها على منع تقدم الروس ، وتولى قيادة هذه القوات حنا كوركواس ، الذى ينتمى إلى أسرة أرمنية تحمل هذا الاسم ؛ ويعتبر من خيرة قادة الإمبراطورية ، غير أن تقدمه فى السن ، وحاجته إلى الراحة ، هيأ للروس

(١) Ibid. p. 57.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I. p. 59.

(٣) Ibid. p. 60.

(٤) Schlumberger : L'Epopée I. p. 76.

الفرصة ، طوال هذه السنة ٩٧٢ ، لأن يفلتوا من ملاحظته ورقابته ، وأن ينسابوا فى البلقان ، حيث أخذوا ينهبون ما صادفهم من القرى الخصيبة فى تراقيا ومقدونيا . واقترنت غاراتهم المستمرة فى سائر الجهات ، بالتخريب والقتل والأسر . وبلغ الخوف والذعر من سكان القرى ، أنهم تحصنوا خلف أسوار المدن والحصون ، فتعطلت زراعة الأرض(١) .

ومضى الإمبراطور البيزنطى فى الاستعداد من جديد للحرب . إذ جرى تجهيز الأسطول ، للتوجه إلى البحر الأسود ، ليكون بالقرب من ساحة القتال . وأنزلت سفن عديدة فى ميناء كريزوكيراس Chrysokeras ، المؤن اللازمة لجيش كبير من القمح ، وعلف الدواب والخيل ، والأسلحة ، وأدوات الحرب ، وجرى تدبير كل ذلك لمواصلة الحرب ضد الروس(٢) .

وفى مستهل ربيع سنة ٩٧٢ ، غادر الإمبراطور زمسكيس بيزنطة ، على رأس جيش ، لم يغفل يوماً عن تدريبه ، وتوجه إلى القرن الذهبى ، حيث تفقد الأسطول البيزنطى ، الذى تألف من أنواع السفن الحربية المختلفة ، وتزيد عدته على ثلاثمائة سفينة ؛ وتولى قيادة الأسطول ليو ، وأمر قائد الأسطول بأن يقلع قاصداً مصبات نهر الدانوب . وكان لزاماً على ليو أن يسير مصعداً فى النهر ، وأن يراقب كل الطرق والمسالك ، ليمنع الروس من أن يتخذوا طريقاً للعودة براً أو على شاطئ البحر الأسود(٣) .

أما الإمبراطور والقيادة العامة ، فإنه توجه قبيل عيد القيامة (أبريل سنة ٩٧٢) بالأمداد للانحياز إلى قوات حنا كوركواس ، التى أمضت فصل الشتاء فى مدن وقرى ثغر مقدونيا ، بجنوب جبال البلقان(٤) . وعلى الرغم من أن كوركواس اشتهر بأنه جندى باسل شجاع، فإنه كان يميل إلى الكسل والشراب

(١) Ibid. p. 77.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I. p. 77.

(٣) Ibid. p. 87,

(٤) Ibid. p. 90.

فظل راكداً فى موقفه ، على حين أن الروس انتهزوا فرصة رحيل بارداس سكلِ وس إلى آسيا ، وواصلوا إغاراتهم المخربة ، حتى بلغوا ثغر تراقيا ، قرب العاصمة ، وصاروا يخربون ويحرقون ما صادفهم فى طريقهم من القرى والضياع والزراعات ؛ وتكررت إغاراتهم على السهل الفسيح حتى بلغوا أسوار أدرنة[١] .

اجتمعت القوات البيزنطية فى أدرنة ، التى اتخذها زمسكيس مقراً لقيادته فترة وجيزة . والتقى زمسكيس أثناء سيره باثنين من جواسيس الأمير الروسى ، فأمر قادته بأن يطلعوهما على ما أعده للروس من حملة ضخمة ، حتى إذا وقفا على تفاصيل الحملة ، أمر بإطلاق سراحهما ، ليطلعا سفياتوسلاف على كل ما شاهدوه[٢] .

وجاءت الأخبار بأن ممرات جبال البلقان المؤدية إلى بلغاريا قد خلت من العساكر الروس ، وذلك بسبب الاحتفال بعيد القيامة . فلم يتصوروا أن عدوهم سوف يهاجمهم وقتذاك[٣] . وسار فى مقدمة الجيش الفرقة الممتازة Immortels التى اختار زمسكيس جندها من بين أبناء النبلاء ، ومن بين خيرة عساكر الإمبراطورية فى آسيا الصغرى . وهى مؤلفة من الفرسان المجهزين بأحسن الأسلحة المعروفة وقتذاك[٤] . وإذ أتم الإمبراطور وكبير وزرائه باسيل اجتياز البلقان ، وبعد أن استراحوا بجندهم فترة قصيرة من الزمن ، واصلوا سيرهم ، قاصدين بريسلاف Peréiaslavets عاصمة ملوك البلغار ، حيث احتشد بها جانب كبير من الجيش الروسى[٥] . فنشبت معركة عنيفة ، هلك فيها عدد كبير من الروس ، ووقع أسرى كثيرون فى أيدى البيزنطيين . وهذه

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 90.
(٢) Ibid p. 90.
(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 92.
(٤) Ibid p. 94.
(٥) Schlumberger : L'Epopée I. pp. 96.—97.

المعركة التى نشبت فى ٣ أبريل عند بريسلاف تعتبر من أكبر الكوارث التى حلت بالروس[١] . ومن الأسرى الذين وقعوا فى يده القيصر المعزول الذى نادى به حاكماً للبلغار ، ولا شك أن هذا الإجراء كان له أثر كبير فى انفضاض البلغار عن الأمير الروسى[٢] .

وأعقب زمسكيس هذا الانتصار الباهر ، والاستيلاء على العاصمة البلغارية بأن واصل السير نحو الشمال ، حتى لا يترك للروس الفرصة للاستعداد لملاقاته . فأمر بأن يبعث بالأسرى الروس إلى أميرهم سفياتوسلاف ، ليقصوا عليه نبأ ما حل بجنده من الهزيمة الساحقة . وأرسل إليه زمسكيس ، يخيره بين الإذعان والتسليم بلا قيد ولا شرط مع التنازل عن بلغاريا ، وبين هجوم لا هوادة فيه ولا رحمة[٣] .

وسار زمسكيس بجيشه ، فى ٨ أبريل ، من بريسلاف ، قاصداً مدينة سيليسترا (Dorystolon) ، العاصمة الثانية للملوك البلغار ، والواقعة على الدانوب ، والتى امتنع بها سفياتوسلاف[٤] .

واستبد الحزن والغضب بالأمير الروسى ، سفياتوسلاف ، حينما بلغته أنباء كارثة بريسلاف ، وما ترتب عليها من مصرع معظم المحاربين الشجعان . ودفعه الغيظ والحنق إلى أن يرفض ما عرضه الإمبراطور البيزنطى من مقترحات ، ترمى إلى منع إهدار الدماء[٥] . وما حدث من انسحاب العساكر البلغارية من صفوف الجيش الروسى ، وانحيازهم إلى القوات البيزنطية ، وما ترتب على ذلك من تناقص عدد القوات الروسية ، جعل الأمير الروسى يقرر توجيه ضربة خطيرة للقوات البيزنطية . فمن كان فى سيليسترا من الجند

(١) Ibid. p. 99.
(٢) Ostrogorowski : p. 262.
(٣) Schlumberger : L.Epopée I. p. 108.
(٤) Ostrogorowski : p. 262.
(٥) Schlumberger : L.Epopée I. p. 110.

البلغار ، تقرر إلقاء القبض عليهم وتكبيلهم فى السلاسل . اعتقد سفياتوسلاف بأن سقوط بريسلاف فى يد البيزنطيين ، إنما حدث بسبب ممالأة وخيانة الزعماء البلغاريين ، ولذا أمر بضرب أعناق ما لا يقل عن ثلثمائة من زعماء الأرستقراطية البلغارية وأكثرهم مالا ، وأقواهم نفوذاً(١) .

ولما فرغ من ذلك ، حشد الأمير الروسى تحت أسوار سيليسترا كل ما تبقى لديه من القوات ، وصار يترقب قدوم العدو . أما زمسكيس فاتخذ طريقه من بريسلاف قاصداً سيليسترا(٢) . وتولى زمسكيس بنفسه قيادة الجيش البيزنطى ، ورابط بجيشه قرب أسوار المدينة ، وعمل على تحصين معسكره حتى لا يتعرض لمباغتة الروس ، وظل يترقب قدوم أسطوله فى الدانوب . إذ كان فى حاجة ماسة إليه ، ليحول دون ارتداد الروس عن طريق النهر(٣) . وجاء الأسطول فى الوقت المناسب ، فمن سفنه ما حمل النيران الإغريقية ، ومنها ما حمل المواد الغذائية ، فرست السفن على مسافة قصيرة أسفل المدينة ، فقطعت بذلك كل اتصال بين الشاطئ الأيسر ، وبين كييف ونهر الدنيبر ، ومنعت الروس من اتخاذ سبيل الهرب ، إذ أن حنا زمسكيس أراد أن يجعل من بلغاريا مقبرة لهم(٤) .

ووقعت المعركة الفاصلة ، واشتد القتال بين الجانبين ، وأظهر الروس بسالة رائعة فى مقاومة البيزنطيين ، وحاولوا اختراق الحصار المفروض على مدينتهم ، غير أنهم لم يستطيعوا تحقيق غرضهم . واشتدت حاجة المدينة إلى المؤن . وفى أواخر يوليه سنة ٩٧٣ ، وبعد أن فشلت المحاولة الأخيرة لفك الحصار عن المدينة ، تداعت مقاومة الروس بعد أن هلك عدد كبير من

(١) Ibid. p. 110.

(٢) Ibid. p. 110.

(٣) Schlumberger : L.Epopée I. p. 117.

(٤) Ibid. p. 120.

عساكرهم ، وأصاب سفياتوسلاف الجراح ، ولم يهرب إلا فى جنح الظلام بعد أن اشتد به الألم . وحصل البيزنطيون على غنائم وفيرة(١) .

أرسل سفياتوسلاف إلى زمسكيس يطلب الصلح ، وعرض عليه أن يسلم سيليسترا ، ويجلوا عن بلغاريا ، وأن يعيد الأسرى ، مقابل أن يسمح له بالعودة إلى بلاده ، بمن تبقى معه من الجيش الروسى ، وألا تتعرض لعساكره ، السفن التى تحمل النيران الإغريقية . ولما لم يكن لديه من القمح ما يكفى لمؤونة جيشه ، طلب إلى الإمبراطور أن يمده بالقمح اللازم لجنده ، ثم طلب آخر الأمر أن يعتبر البيزنطيون ، الروس من بين الأمم الصديقة للإمبراطورية ، وأن يسمحوا لهم بالقدوم إلى القسطنطينية لبيع ما لديهم من السلع ، وتعهد الروس أيضاً ألا يغيروا على أطراف الأراضى التابعة لمدينة خرسون فى شبه جزيرة القرم ، التى تعتبر آخر ما للإمبراطورية من ممتلكات على الشاطئ الشمالى للبحر الأسود(٢) . وتعهد الروس أيضاً أن يبذلوا المساعدة للبيزنطيين فى رد كل عدو أجنبى(٣) .

أعلن زمسكيس قبوله لما تقدم به سفياتوسلاف من مقترحات ، وانعقد الصلح . وتم إرسال القمح إلى من تبقى من الجند الروسى وحلفائهم ، وعدتهم اثنان وعشرون ألف مقاتل(٤) ، وتجددت أيضاً ما كان للروس من امتيازات تجارية(٥) .

ثم جرى اللقاء بين سفياتوسلاف وزمسكيس ، وتلى هذا الاجتماع توقيع المعاهدة بين الروس والبيزنطيين(٦) .

(١) Schlumberger : op. cit. p. 121. Ostrogorowski p. 262.

(٢) Schlumberger : L.Epopée I. pp. 147—148.

(٣) Ostrogorowski : p. 262.

(٤) Schlumberger : op. cit. p. 148.

(٥) Ostrogorowski : p. 262.

(٦) Schlumberger : L.Epopée I. p. 150.

وبعد أن تم عقد المعاهدة ، اتخذ سفياتوسلاف طريقه فى نهر الدانوب ، حتى وصل إلى الشلالات ، حيث احتشد البجناك متربصين له . إذ أن أهل بريسلاف أرسلوا إلى البجناك ، يخطرونهم أن سفياتوسلاف حصل من البلغار على غنائم وفيرة ، وليس فى صحبته إلا جماعة قليلة العدد . فأعد البجناك كميناً للأمير الروسى ورجاله ، عند الشلالات ، قرب مصب النهر ، وأخذت الأقوات تنفذ من عند الروس ، وحلت بهم مجاعة شديدة ، وتحتم على سفياتوسلاف أن يمضى الشتاء فى هذا الموضع (جزيرة Biélo-Béréjie) .

وعند حلول فصل الربيع ، أزمع المسير غير أنه تعرض له أمير البجناك ، واسمه كوريه Kouria ، فاغتال سفياتوسلاف ، واحتز رأسه ، واتخذ منه ، بعد تغليفه فى معدن ، كأساً لشرابه ، وما تبقى عائشاً من جيشه وصل إلى كييف(١) . وترتب على هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه زمسكيس على الروس ، أن حصل البيزنطيون على ميزتين كبيرتين : الأولى . تتمثل فى أن الإمبراطورية تخلصت من عدو خطير ، ظهرت قوته باستيلائه على مملكة الخزر ، وإخضاع البلغار . أما الميزة الأخرى فهى أن بلغاريا أضحت تحت السيادة البيزنطية(٢) . فعلى الرغم من أن زمسكيس ، أثناء قتاله ضد سفياتوسلاف ، وعندما أطلق سراح بوريس الملك البلغارى وأسرته من أسر الروس ، أعلن أنه نهض للانتقام للبلغاريين لما تعرضوا له من أذى الروس وقسوتهم ، فإنه لم تتوافر عنده النوايا الخالصة لإعادة نظام الحكم القديم(٣) . فقرر زمسكيس عزل بوريس ، والبطريرك البلغارى ، وإضافة بلغاريا الشرقية إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطيـة(٤) . وأمر بتسيير بوريس أسيراً إلى القسطنطينية(٥) ، وبذلك فقدت بلغاريا الشرقية استقلالها السياسى والدينى .

(١) Schlumberger pp. 171—172. Camb. Med. Hist. IV p. 208.
(٢) Ostrogorowski p. 262.
(٣) Ostrogorowski : p. 262. Camb. Med. Hist. IV p. 240.
(٤) Ibid. p. 263. Camb. Med. Hist. IV p. 240.
(٥) Schlumberger : op. cit. p. 178.

وأضحت خاضعة مباشرة ، من الناحية الدينية ، لسلطة البطريرك المسكونى فى القسطنطينية(١) ، أما بلغاريا الغربية فظلت خاضعة لسلطة أبناء سيشمان مدة ٤٧ سنة أخرى(٢) .

وأمضى زمسكيس شتاء ٩٧٢ — ٩٧٣ فى القسطنطينية وأجرى على السكان من سابغ عطفه ما يتمثل فيما تقرر توزيعه عليهم من المؤن والأموال ، وأمر أيضاً بإلغاء الضريبة المعروفة باسم « Kapnikon » ، وهى ضريبة الدخان التى تقررت منذ قرن ونصف قرن ، وجرى فرضها على كل مدخنة أو موقد(٣) من المواقد .

العلاقات مع غرب أوربا :

سبق الإشارة إلى ما وقع من القتال بين نقفور فوكاس ، إمبراطور الدولة البيزنطية ، وبين أوتو الكبير ، فى جنوب إيطاليا . واستمر هذا القتال بين قادة نقفور وقوات أوتو منذ نهاية سنة ٩٦٨ حتى وفاة نقفور فى ديسمبر سنة ٩٦٩ . وترتب على هذا القتال أن وقع فى يد البيزنطيين باندولف المعروف بالرأس الحديدى ، أمير كابوا (Téte de Fer) ، وقائد القوات الألمانية فى هذه الجهات ، بعد أن حلت به الهزيمة عند بوفينو Bovino ، وتقرر إرساله مكبلا فى الحديد إلى بيزنطة(٤) . وعلى الرغم من أن البيزنطيين تعرضوا لهزيمة ساحقة بعد ذلك ، فإنهم ظلوا محتفظين بكل أملاكهم ، فيما عدا مواضع قليلة بالشمال . على أن أوتو ظل ، فى أواخر سنة ٨٦٩ ، ومستهل سنة ٩٧٠ ، يتجهز لإرسال حملة ضخمة لمهاجمة الأملاك البيزنطية فى إيطاليا فى أوائل الربيع . وبينما كان أوتو منصرفاً إلى حشد القوات ، جاءه نبأ مصرع نقفور فى

(١) Ibid. p. 179.
(٢) Camb. Med. Hist. IV p. 240.
(٣) Schlumberger : op. cit. p. 183.
(٤) Ibid. p. 186.
Gay : L'italie Meridionale, p. 313.

ليلة ١٠ — ١١ ديسمبر سنة ٩٦٩(١) . فتهيأت بذلك الفرصة لتحقيق مصالحه ، واعتقد أنه يستطيع القضاء على النفوذ البيزنطى فى إيطاليا . ففى أواخر مايو سنة ٩٧٠ زحف بجيشه على كامبانيا ، وفى أوائل أغسطس ، عاث الألمان فساداً فى نابولى وما يجاورها من الأراضى . على أن زوجة الأمير باندولف وابنه ، تضرعا إلى الغزاة ، بأن يسعوا عند الإمبراطور ، ليعمل على إطلاق سراح باندولف من أسر البيزنطيين بالقسطنطينية ، غير أن ذلك لم يكن أمراً سهلا ، لأنه لم يعقد بين الدولتين صلح أو اتفاق(٢) .

ومضى الإمبراطور الألمانى فى زحفه جنوباً حتى بلغ بوفينو ، واشتد حصاره لها ، وخرب الأراضى المحيطة بها . وعلى الرغم من القتال العنيف الذى دار بين الفريقين ، فلم يرد فى المصادر ما ترتب على هذا القتال من نتائج ، وأى الفريقين حاز النصر(٣) .

على أن ما جرى من الأحداث فى القسطنطينية وقتذاك غير الموقف فى إيطاليا ، ذلك أن الإمبراطور البيزنطى الجديد ، زمسكيس ، بلغ مركزه من الحرج والدقة ، ما جعله مغتصباً للحكم فى نظر كثير من رعاياه ، يضاف إلى ذلك ما تهدد الإمبراطور من الحرب الروسية البلغارية ، ثم ثورة بارداس فوكاس ، كما صار محتماً ألا ينفض يده نهائياً من الحرب السورية ، أو يغفل القتال ضد المسلمين بآسيا . ولذا حرص على أن يسوى الأمور فى إيطاليا التى لا تثير اهتماماً كبيراً عند الرأى العام فى بيزنطة(٤) . ولذا ساد المعسكر الألمانى الفرح والسرور ، حينما علموا أن زمسكيس ، قبل أن يتفاوض مع إمبراطور الغرب ، ليجنب أملاكه فى إيطاليا ، شر حرب طويلة الأمد ، وكيما يتفرغ لمواصلة القتال فى جهة أخرى . فبادر زمسكيس بإطلاق سراح باندولف ،

---

(١) Sclumberger : op. cit. p. 186.
انظر ما سبق ص ٤٥٠ .

(٢) Schlumberger : op. cit. 187.

(٣) Ibid p. 187.

(٤) Schlumberger : op. cit. p. 187.

الذى كان سجيناً فى الأسر منذ أواخر سنة ٩٦٩ ، ولم يجد زمسكيس من ينفذه من الرسل إلى الإمبراطور لتهنئته ولتقديم التحية له ، خيراً من باندولف ، الذى يعتبر أقرب الناس إلى قلبه(١) .

صار باندولف وسيطاً فى المفاوضات التى جرت بين الإمبراطورين ، فحمل معه الشروط الجديدة لعقد قران الأمير الصغير ولى عهد أوتو الكبير ، على تيوفانو ابنة رومانوس الثانى ، وتضمنت هذه الشروط ، ترجيحاً ، جلاء الألمان عن أبوليا وسائر الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة إيطاليا(٢) .

وعندئذ أمر الإمبراطور أوتو بانسحاب قواته ، ويعتبر ذلك آخر ما قام به أوتو من الأعمال الحربية جنوب جبال الألب . وجاز له أن يفخر بما قام به من عمل ، فإذا كان البيزنطيون قد احتفظوا بوسط إيطاليا ، فإن الألمان ظلت لهم السيادة على روما وعلى مملكة إيطاليا(٣) . ثم ارتحل أوتو إلى ألمانيا ، حيث قضى نحبه فى دير ميمليبن Memleben فى ثورنجيا ، فى مايو سنة ٩٧٣ ، بعد أن أعاد للإمبراطورية الألمانية السيادة والزعامة فى الغرب(٤) .

علاقة بيزنطة بالمسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا :

ساد الهدوء والسلام فى مستهل حكم زمسكيس ، إذ ظل المسلمون فى

---

(١) Ibid. p. 188.

(٢) Ibid. p. 188. Camb. Meb. Hist. IV. p. 81.
وعلى الرغم من الشكوك التى أثيرت حول نسب هذه الأميرة ، فالواقع أنها أميرة عريقة النسب ، ولدت بالفراش الإمبراطورى ، وهى شقيقة باسيل الثانى ، وبعد أن تمت خطبتها ، ارتحلت إلى إيطاليا ، حيث تم الزواج فى روما ، فى إبريل سنة ٩٧٢ .
Cam. Med. Hist. IV. p. 81.

(٣) Schlumberger. L. Epopée I. p. 81.

(٤) Ibid. p. 205.
تشير المراجع التاريخية إلى أن الإمبراطور أوتو الكبير استقبل فى أول مايو سنة ٩٧٣ ، فى مرزبرج بألمانيا ، أى قبيل وفاته ، سفارة من قبل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، حملت معها هدايا قيمة . والراجح أن الغرض من هذه السفارة ، هو التفاهم والاتفاق على سائر الأمور المتعلقة بصقلية وجنوب إيطاليا ، حيث تشترك الدولتان فى الحدود .
انظر : Schlumberger op. Cit. p. 205-209.

صقلية وأفريقية ، يحافظون على ما انعقد من الهدنات . والواقع أن الفاطميين انصرفوا وقتذاك عن الاهتمام بأمر إيطاليا . فنى فبراير سنة ٩٦٩ ، توجه جوهر بجيشه لغزو مصر باسم الخليفة المعز . وفى أغسطس سنة ٩٧٢ ، سار المعز إلى مصر ، فدخل الفسطاط بعد شهور من رحيله ، يونيه سنة ٩٧٣ ، أى حوالى الوقت الذى مات فيه أوتو الأول (الكبير) ، وأنشأ المعزّ القاهرة التى اتخذها عاصمة لدولته . وعهد المعز بإدارة ممتلكاته فى أفريقية إلى يوسف بلكين بن زيرى ، وولى أمر صقلية أبا القاسم بن الحسن بن على [1] .

لم تجر حوادث هامة فى أملاك بيزنطة بجنوب إيطاليا حتى نهاية حكم زمسكيس ، وما حدث من الصلح بين البيزنطيين والألمان ، بما جرى من زواج تيوفانو من أوتو الصغير ، يعتبر من الأسباب التى قضت على ما كان من تحالف أو هدنة بين البيزنطيين والفاطميين . أما السبب الآخر ، فيرجع إلى أن ما كان يفصل بين حدود الدولتين البيزنطية والفاطمية ، فى آسيا من مسافة ، لم تلبث أن اختفت ، بما حدث من توسع زمسكيس فى الشام وامتداد حروبه إلى فلسطين ، وبما أحرزه أيضاً الخليفة المعز من انتصارات على القرامطة فى الشام[2] ، فأضحى كل من الأميرين يواجه أحدهما الآخر فى آسيا ، بعد أن فصلت بينهما فى المغرب مساحات شاسعة ، باستثناء ما كان من اشتراكهما فى الحدود عند شواطئ إيطاليا[3] . فوقعت بينهما فى إيطاليا أحياناً بعض اشتباكات وجرت بينهما أحياناً أخرى محاولات للتقارب ، مثال ذلك ما حدث زمن نقفور فوكاس ، من إنفاذ رسول ، نيقولا ، إلى الخليفة المعز الفاطمى ، فى المهدية[4] .

وتعرضت شواطئ إيطاليا سنة ٩٧٤ (٣٦٥ هـ) للغارة من قبل أمير صقلية

(١) Schlumberger : op. cit. p. 207.

ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٦٠ .

(٢) Ibid. p. 210.

(٣) Ibid. p. 210.

(٤) Schlumberger : Un Empereur Byzantin. p. 468.

أبى القاسم ، الذى أقامه المعز فى إدارة حكومة صقلية ، إذ أنه توجه فى عساكر المسلمين ، ومعه جماعة من الصالحين والعلماء ، فنازل مسينا ، فهرب العدو عنها ، وعبر المسلمون كسنته فحصروها أياماً ، فسأل أهلها الأمان فأجابهم إليه ، وأخذ منهم مالا . ورحل إلى قلعة جلوا ، ففعل بها وبغيرها ما فعله بالمدن والمواقع السابقة . ثم أمر أخاه القاسم أن يذهب بالأسطول إلى ناحية يربوله ، ويبث السرايا فى جميع قلورية (كالابريا) ففعل ذلك ، فغنم غنائم كثيرة . وقتل وسبى ثم عاد هو وأخوه إلى المدينة[1] ولم يهبط الأمير بنفسه إلى الأراضى الإيطالية ، للقيام بعمليات حربية هامة إلا فيما بعد ، وذلك سنة ٩٧٥ (٣٦٦هـ) ، حين أمر أبو القاسم بعمارة رمطة ، وكانت قد خربت قبل ذلك ، وعاود الغزو ، وحشد الجيوش ، وسار فنازل قلعة أغاثه ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم . وسلموا إليه القلعة بجميع ما فيها ، ورحل إلى مدينة طارنت ، فهرب أهلها من وجهه ، فأمر الأمير بهدمها ، فهدمت وأحرقت ، وبعث بالسرايا فبلغت أذرنت وغيرها . ونزل أبو القاسم على مدينة عربلية ، فقاتلها ، فبذل أهلها له مالا صالحهم عليه وعاد إلى المدينة[2] .

وحدث فى مايو سنة ٩٧٤ ، أن أخذت سالرنو تنسلخ عن السيادة البيزنطية ، لما تعرضت له من تدخل باندرلف أمير كابوا وبنيفنتو ، الذى يمثل الإمبراطور الألمانى فى جنوب إيطاليا ، فلجأ أميرها إلى القسطنطينية يطلب مساعدة زمسكيس . أما نابولى فظل أميرها على ولائه وإخلاصه للإمبراطور البيزنطى ، وحرص على المحافظة على تحالفه معه حتى وفاته سنة ٩٧٧[3] .

حروب زمسكيس فى الشرق الاسلامى

وإذ أمن زمسكيس جانب الروس والبلغار ، ساد الهدوء والسلام إيطاليا

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٩٠ — ٤٩١ .

Gay : op. cit. p. 301.

أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ، ص ٥٢٤ .

Schlumberger : L. Epopée I. 212.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٤٩١ .

(٣) Schlumberger : L. Epopée I. pp. 216, 218

بما حدث من زواج تيوفانو من أوتو الثانى ، وسكنت الأحوال فى داخل البلاد ، بعد القضاء على فتنة بارداس فوكاس . وحاز من محبة الناس فى بيزنطة ما لم يحظ به غيره من الأباطرة ، بسبب انتصاراته الباهرة على نهر الدانوب ، وبفضل ما اتخذه من تدابير سليمة وصالحة ، أمضى فصل الشتاء من ٩٧٢ — ٩٧٣ فى القسطنطينية ، وصار يفكر فى مواصلة الحرب فى الشرق الإسلامى ، الذى يعتبر مصدر خطر دائم على الإمبراطورية ، وفى شمال الشام ، وفى قليقية ، التى انتزعها نقفور من المسلمين[١].

فما حدث من استيلاء البيزنطيين على حلب ، آخر سنة ٩٦٩ ، وأوائل سنة ٩٧٠ ، وما ترتب على ذلك من عقد معاهدة ، جرى الاعتراف فيها بالسيادة البيزنطية على إمارة الحمدانيين ، وما تلى ذلك من الاستيلاء على معاقل وحصون عديدة ، لا سيما أنطاكية ، التى تعتبر حاضرة الجنوب ، كل ذلك أثار نفوس المسلمين ، وجعلهم يتطلعون إلى الانتقام[٢] .

يشير بعض المؤرخين البيزنطيين إلى أنه حدث أوائل عهد زمسكيس ، أن تألف حلف قوى من المسلمين ، لاسترداد حلب وأنطاكية من أيدى المسيحيين ، واحتشد لحصار أنطاكية[٣] .

الواقع أن هذه الرواية البيزنطية ليست إلا صدى لحادث من أهم الأحداث التى وقعت فى الشام ، حين توجه إلى الشام ، قائد جوهر الصقلى ، عقب الاستيلاء على مصر . إذ أن جوهر أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح ، فى سنة ٩٧٣ ، فاستولى على أهم مدن الشام ، فدخل دمشق فى محرم سنة ٣٥٩ ﻫ (ديسمبر سنة ٩٦٩) ، غير أنه حدث فى السنة التالية ، أى فى ذى القعدة سنة ٣٦٠ﻫ (٩٧١ م) ، أن أنزل به هزيمة ساحقة ، تحت أسوار دمشق ، القرامطة وحلفاؤهم من الإخشيديين والعباسيين ، ثم قتلوه[٤] .

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 219.

(٢) Schlumberger : L.Epopée I p. 219.

(٣) Ibid pp. 219 — 220.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .
أبو الفدا : المختصر ج ٢ ، ص ٥٠٨ .
Schlumberger : L.Epopée I. p. 220.

يشير يحيى بن سعيد[١] إلى أن جعفر بن فلاح . أرسل ، أثناء الفترة الوجيزة الذى حكم فيها الشام باسم المعز لدين الله الفاطمى ، جيشاً ضخماً ، سيره من دمشق تحت قيادة غلامه فتوح لمهاجمة أنطاكية ، وذلك فى سنة ٣٦٠ ، فحاصر المدينة غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها . وكان زمسكيس وقتذاك منصرفاً إلى قتال البلغار . فلما قدم القرامطة إلى الشام ، بزعامة الحسن ابن أحمد القرمطى ، استدعى جعفر بن فلاح غلامه فتوحاً ومن معه من العساكر ، لقتال القرامطة ، وبذلك ارتفع الحصار عن أنطاكية ، غير أنها لم تلبث أن تعرضت لزلزال ، دمر جانباً كبيراً من أسوارها . فأرسل زمسكيس قائده ميخائيل البرجى المعروف بالطربازى ، وبصحبته اثنى عشر ألف عامل وبناء ، فأصلحوا ما تهدم من أسوارها ، فأعادوها إلى ما كانت عليه[٢] .

ومن رواية يحيى بن سعيد ، يتبين أن ما منع جنود المعز من مهاجمة أنطاكية ، سوى إغارة القرامطة على الشام . أما زمسكيس فإنه حينما علم بما وقع من مهاجمة أنطاكية ، بادر إلى استدعاء قائد ثغر الجزيرة ، الذى يعتبر ، فيما يبدو ، أقرب القادة إلى مسرح الحوادث ، وطلب إليه أن ينهض بقواته لمساعدة أنطاكية ضد المغيرين . وفى نفس الوقت أرسل من قبله قوات حربية بقيادة أقرب الطواشية إليه ، والقائد المعروف ، البطريق نيقولاوس . Nikolaos ، ولعله هو نفس الرسول الذى أوفده من قبل الإمبراطور البيزنطى إلى الخليفة المعز[٣] وعهد إليه زمسكيس بقيادة القوات البيزنطية . فلما اجتمعت عنده قوات ثغر الجزيرة أيضاً ، توجه إلى أنطاكية[٤] . ولم يورد تفاصيل الحصار من المؤرخين المسلمين . إلا يحيى بن سعيد ، وهو الذى أشار إلى أن ميخائيل البرجى (الطربازى) Bourtzés هو الذى تولى حكم

(١) يحيى بن سعيد : كتاب التاريخ — نشر شيخو ص ١٣٨ — ١٣٩ لم يكن جعفر إلا زهيرا الذى أشار إليه المؤرخون البيزنطيون . انظر :
Schlumberger : L.Epopée I. p. 221.

(٢) Schlumberger : L.Epopée I. p. 222.

(٣) Schlumberger : L.Epopée I. p. 222.

(٤) Schlumberger : L.Epopée. I. p. 223. Ostrogorowskip. 263.

أنطاكية بعد هذا الحادث . والمعروف أن ميخائيل البرجي اشترك فى اغتيال نقفور فوكاس ، ولعل ما ناله من حظوة عند زمسكيس ، إنما كان على سبيل المكافأة مقابل اشتراكه فى هذه الجريمة[١] .

والراجح أنه حدث أيضاً فى سنة ٩٧٠ ، أن هاجمت القوات البيزنطية مواضع عديدة على أطراف أرمينية وإقليم الفرات ، لاسيما حمص[٢] .

وفى الشهور الأولى من سنة ٩٧٢ ، كان زمسكيس منصرفاً إلى قتال الروس ، وفى السنة التالية ، تجهز لإرسال حملته الأولى على الشام ، التى أنفذها فى سنة ٩٧٤[٣] . على أن المصادر العربية تشير إلى أنه حدث فى سنة ٩٧٢ م . (٣٦١ هـ) أن أغار البيزنطيون على أعالى الفرات حتى بلغوا نصيبين ، فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد ، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ، ولم ينهض لردهم أبوتغلب بن حمدان صاحب ديار بكر ، فسار جماعة من أهل تلك البلاد مستنفرين ، وقاموا فى الجوامع ، وذكروا ما فعله البيزنطيون من النهب والقتل والأسر والسبى . وخوفهم أهل الجزيرة ، من الخطر الذى يتهددهم إذا انفتح الطريق أمام البيزنطيين نحو بغداد ، فلما تجمع خلق من أهل بغداد توجهوا إلى دار المطيع لله العباسى ، وحاولوا الهجوم عليها ، فأغلقت الأبواب دونهم ، فأسمعوه ما كره . ثم تقرر أن يعد أبوتغلب من الزاد والعلوفة ما يسعه وجنده فى الطريق[٤] .

ثم حدث فى سنة ٩٧٣ ، أن أغار قائد القوات البيزنطية فى الشرق ، واسمه مليح (Mleh) ، وهو أرمنى ، كما يدل على ذلك اسمه ، على أعالى الفرات ، وتوغل فى إقليم الجزيرة ، وذلك لما تبين له من أن أحداً لن يمنعه

---

(١) Schlumberger : L.Epopée I. p. 223.

(٢) Schlumberger : L.Epopée I. p. 224.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) Schlumberger : L. Epopée I. p. 228.

(٤) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ . أبو الفداء : المختصر جـ ٢ ، ص ٥١٠ . ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

عن مراده ، بعد أن نهب فى السنة الماضية ديار ربيعة وديار بكر ، وعزم على أن يستولى على آمد ، فتوجه إليها ، وبها هزارمرد ، غلام أبى الهيجاء ابن حمدان ، فكتب إلى أبى تغلب (فى آمد) يستنجده ، فسيّر إليه أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق . وجرت الموقعة على نهر دجلة قريباً من المدينة (ميافارقين) ، وذلك فى يوليه سنة ٩٧٣ (رمضان سنة ٣٦٢ هـ) . وكان الدمستق فى كثرة من العساكر غير أن المعركة وقعت فى مضيق لا تجول فيه الخيل ، فضلا عن أن البيزنطيين لم يتموا استعدادهم ، ولم يتخذوا أهبتهم لهذا اللقاء ، فانهزموا ، ووقع مليح أسيراً ، ولقى عدد كبير من العساكر مصرعهم ، وأرسل مليح ومن وقع فى الأسر من القادة وكلهم من ذوى الرتب العالية فى الجيش ، وعدتهم نحو أربعين ، إلى آمد مكبلين بالأغلال[١] . ولقى الدمستق وأصحابه معاملة طيبة من أبى تغلب ، ثم تقرر إرسالهم إلى بغداد . ولم يزل الدمستق فى الحبس إلى أن مرض (سنة ٣٦٣ هـ) ، فبالغ أبو تغلب فى علاجه ، غير أنه لم يلبث أن قضى نحبه[٢] .

ترتب على هزيمة الدمستق ، أن استرد المسلمون ، كل ما فتحه البيزنطيون من البلاد ، وأصرّ زمسكيس على أن ينتقم لقائده[٣] . فعلى الرغم من امتداد الحدود البيزنطية ، إلى قليقية وأنطاكية والثغور الشامية ، ومن أن حلب أضحت تدين بالولاء لبيزنطة ، فلا زال المسلمون خصما عنيداً ، قوى المراس ، يذكى روح الجهاد ، ويدأب على الإغارة على امتداداً الحدود . فمهما ساءت الأحوال الداخلية فى بغداد ، ومهما جرى من الانقسام والفتن الداخلية ، فإن ذلك لم يمنع إثارة القلق والاضطراب على الحدود ، وتنظيم حملات تلقى الرعب فى نفوس سكان الثغور البيزنطية ، بل تنزل الهزيمة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٦١ . أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٥١٢ ، ٥١٤ مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣١٢ . Schlumberger : L'Epopée I. p. 230

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٤٦١ . Schlumberger : op. cit. I. p. 231.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 232.

بالجيوش البيزنطية : ومن الدليل على ذلك ما حل بجيش الدمستق مليح من هزيمة ساحقة . يضاف إلى ذلك ما حدث من ظهور قوة بالغة الخطورة ، استقرت فى مصر ، وتتمثل هذه القوة فى الفاطميين ، الذين هزموا القرامطة ، وساروا إلى الشام لاسترداد الجزء الشمالى منها بعد أن دان لهم الجنوب ، فأضحوا بذلك مصدر خطر على الإمبراطورية البيزنطية[1] : فكان لزاماً على الإمبراطور البيزنطى ، أن يعمل على المحافظة على إمبراطوريته من هذه الأخطار[2] .

وحرص زمسكيس على أن يغتنم هذه الفرصة ، لإتمام العمل الذى شرع فيه نقفور فوكاس وقادته ، وذلك بأن يحطم نهائياً الخلافة العباسية ، ويضيف أملاكها إلى إمبراطوريته ، أو على الأقل ، يجعلها تعترف بزعامته وسيادته . الواقع أن زمسكيس لم يخطر على باله وقتذاك الفكرة الدينية ، التى تهبه القوة والحماس . على أن ما اشتهرت به بيت المقدس ، من أنها مدينة مقدسة ، يقصدها الملايين من الحجاج المسيحيين ، واتخذها مقاماً عدد كبير من الحجاج الأنقياء ، وتطلع إليها المسيحيون من سائر أنحاء البلاد ، وفى الوقت ذاته تخضع لسكان الفاطميين ؛ كل ذلك يرجح أن الإمبراطور البيزنطى ، الذى اشتهر بالتقوى ، نهض لتخليص هذه المدينة ، على حد قول المؤرخين المسيحيين ، وردها إلى المسيحيين[3] .

هذه كانت المشروعات التى دارت فى خاطر الأمير البيزنطى ، ولم تكن هذه الأفكار جديدة ، بل تشبع بها من قبل ، الإمبراطور نقفور فوكاس فصار حتماً على زمسكيس أن ينتزع بيت المقدس من أيدى المسلمين . وأن يستولى على ما بأيديهم من أملاك فى الشام والجزيرة . وهذه الخطة ، التى فكر فيها وقتذاك هذا الإمبراطور ، سبقت ما فكر فيه الصليبيون بعد مائة سنة[4]

(١) Schlumberger : L'Epopée. I. p. 236.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I. pp. 237 — 283.

(٣) Ibid. p. 338.

(٤) Schlumberger : L'Epopée. I. p. 233.

فما كان للإمبراطور قديماً من حقوق ، لا الدوافع الدينية فحسب ، هى التى بررت مشروع الإمبراطور[1] .

والحملة الضخمة التى جرى إعدادها عقب الحرب الروسية : التى كلفت زمسكيس مالا وفيراً وتضحيات كبيرة من الرجال ، استغرق تجهيزها أواخر سنة ٦٧٢ ، وطوال سنة ٩٧٣ ، وهى حملة مليح الدمستق التى سبق الإشارة إليها ، والتى انتهت بهزيمة ساحقة ، تعتبر مقدمة لهذا المشروع الكبير ، الذى أعده الإمبراطور زمسكيس[2] . ومن الطبيعى ألا تخفى هذه الاستعدادات على المسلمين ، ومن الدليل على ذلك ، ما أعلنه الناس من السخط على الخليفة المطيع واتهامه بالضعف والعجز . كما أن هذه الاستعدادات لم يجهل أمرها الغرب ، إذ عمل على تأييدها وتشجيعها ، البنادقة الموالون للإمبراطور البيزنطى . فعلى الرغم من أنه لم يمارس التجارة مع الشرق ، من دول أوربا ، إلا البنادقة والبيازنة والأمالفيون[3] . فإنهم قرروا فى سنة ٩٧١ ، بناء على أمر الدوج بطرس الرابع ، كانديانو Candiano ، منع كل تاجر من بلادهم من أن يحمل إلى المسلمين ، من الحديد والأخشاب ما يلزم لبناء السفن وتسليحها ، كالأخشاب الواردة من غابات دالماشيا ، وفريول Frioul ، واستريا ، أما الأسلحة فكانت على اختلاف أنواعها من الدروع ، والتروس ، والسيوف والرماح ، وسائر الأسلحة الهجومية أو الدفاعية كالتى ترد من مصانع ستيريا Styria ، وكارنثيا ، وبالجملة كل ما يجرى استخدامه ضد المسيحيين . وهذا الحظر تقرر تجديده بعد أن تعرض باستمرار للإغفال نتيجة الطمع والنهم[4] . على أن الأباطرة المقدونيين المشهورين بشن الحروب ، استشاطوا

(١) Ibid. p. 238.

(٢) Ibid. p. 239.

(٣) من العقود المعروفة ، عقد مؤرخ سنة ٩٧٣ فى سالرنو بين جماعة من الأمالفيين ، ويعتبر من أقدم الأدلة على رحلات الأمالفيين إلى مصر ، بشأن التجارة . وورد فى هذا العقد ، أن المعاهدة لن يسرى مفعولها إلا عند عودة أحد المتعاقدين من بابليون (القاهرة) .
Heyd : Histoire du Commerce de Levant. vol. I. p. 99.

(٤) Schlumberger L'Epopée I. p. 239.

غضباً ، لأن قادة السفن البندقية لم يتوانوا عن نقل ذخائر الحرب إلى المسلمين ، الذين يحاربونهم على امتداد السواحل الأسيوية[١] .

وثمة وثيقة أخرى[٢] تشير أيضاً إلى هذا الإجراء . وتشير هذه الوثيقة إلى أنه جرى تجديدها فى ريالتو (البندقية) ، فى السنة الثانية من حكم حنا زمسكيس . وأنه قدم رسل قبل حنا زمسكيس ، وباسيل وقنسطنطين ، يحتجون على تجارة الأسلحة والخشب ، التى كانت تمارسها سفن البنادقية مع المسلمين ، « وأنهم هددوهم ، باسم الإمبراطور ، بأنه إذا لم تتوقف هذه المتاجر غير المشروعة ، فسوف تتعرض للتدمير ، بحرق هذه السفن بحمولتها وشحنتها . وهذا هو السر فى أن السيد (الدوج) بطرس ، اجتمع بابنه البطريرك ڤيتالى Vitali ، وبماران Marin ، أسقف أوليڤولو Olivolo ، وسائر رجال الدين بالبندقية . وشهد الاجتماع عدد كبير من أهالى البندقية ، معظمهم من الأعيان ، وأخذوا يتناقشون فى الوسيلة التى يستطيعون بمقتضاها أن يلطفوا من غضب الإمبراطور ، وأن يعالجوا هذه الحالة[٣] .

وبعد نقاش طويل ، وصلوا إلى قرار ، تعهد فيه تجار البندقية ، أمام الدوج بأنهم لن يمارسوا مع المسلمين شيئاً من التجارة الممنوعة[٤] . وهذه الوثيقة عظيمة الأهمية ، إذ دلت على أن الأمراء المسلمين حصلوا من أوربا على الأسلحة اللازمة لعساكرهم فالمعروف أن دمشق اشتهرت وقتذاك بصناعة أسلحة بالغة الإتقان غير أن أثمانها بلغت من الارتفاع ما يجعل من العسير تزويد كل الجيش بها[٥] . أما الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، فإن ما ينتج من البلاد الخاضعة للمسلمين ، لم يكف لإنشاء السفن الإسلامية ؛ ويدل هذا

---

(١) Ibid. p. 239,

(٢) Ibid. p. 240. Tafelet Thomas : Urkunden zur aelteren. Handel.. und Staatsgeschichte. der Repubik Venedig T. I. (1826)p no. 25. XIV.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 240.

(٤) Ibid. p. 240.

(٥) Ibid. p. 240.

الاتفاق على ما اشتهر به تجار البنادقة من روح استقلالية شديدة ، والأخذ بمبادئ تعتبر غريبة على ذلك العصر أو الزمن . على أن هؤلاء التجار لم يترددوا فى أن يبيعوا لأعداء المسيحية الأسلحة والسفن[١] .

ونتبين أيضاً من هذا القرار ، المؤرخ فى يوليه سنة ٩٧١ ، ما كان للإمبراطورية البيزنطية وقتذاك من سلطات ، ووضع البندقية إزاءها . ويكفى أن يبعث الإمبراطور البيزنطى من قبله سفارة إلى جمهورية البندقية الناشئة ، تحتج على ما تتعرض له مصالح الإمبراطورية من أضرار ، بما تقوم به أعمال غير مشروعة ، فيجتمع الدوج بمجلس المدينة ، ويبادرون إلى اتخاذ قرار لترضية الإمبراطورية[٢] .

وللدلالة على حسن النية ، جرى تطبيق التدابير الصارمة الواردة فى قرار يوليه سنة ٩٧١ ، على ثلاث سفن ، أقلعت إلى الموانى الإسلامية ، منها اثنتان توجهتا إلى المهدية ، عاصمة المعز قديما ، والقيروان . أما الثالثة فإنها قصدت طرابلس . ونظراً لما يعانيه أرباب السفن من الفقر ، تقرر السماح لهم هذه المرة بأن يحملوا إلى هذه الموانى شحنات الخشب . وينبغى ألا نستخلص من هذه الحقيقة أن شمال إفريقية هى المنفذ الأساسى لتجارة الأخشاب والحديد . لم يكترث زمسكيس أيضاً بوقف هذه التجارة ، ما لم تقم البندقية بنقلها إلى المسلمين فى مصر والشام[٣] .

حملة زمسكيس على الجزيرة سنة ٩٧٤ :

ما حدث من الهزيمة الساحقة لقائد زمسكيس ، مليح ، كان الدافع الأول لتجريده حملة للانتقام لمصرعه . أما الأوضاع فى الشام وفى سائر آسيا الإسلامية ، التى تعرضت وقتذاك لغزو زمسكيس ، فتتمثل فى الإمارتين اللتين تولى حكمها من

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 242.

(٢) Ibid, p. 242.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 242.

الحمدانيين أبو تغلب (الموصل) ، وسعد (حلب) . والمعروف أن جانباً كبيراً من أملاك حلب قد جرى انتزاعه من الإمارة ، وأن العاصمة تولى أمرها حكام موالون للبيزنطيين . وفى بغداد تولى الخلافة المطيع العباسى المعروف بالضعف الشديد ، ويخضع لسلطان أمير الأمراء التركى بختيار . وخضع جنوب الشام وفلسطين لسلطة الخلفاء الفاطميين . والراجح أن زمسكيس استهدف من حملته فى سنة ٩٧٤ . تدمير الخلافة العباسية فى بغداد[١] .

لم يتخذ زمسكيس وعساكره إلى البلاد الإسلامية الطريق المألوف للقوات البيزنطية ، وهو الطريق الذى يجتاز جبال طوروس فى قليقية ، إنما اتخذ الطريق الذى يقع إلى الشرق ، والذى يخترق وادى الفرات ودجلة ، على أن زمسكيس. قبل أن يهبط إلى إقليم الجزيرة ، عبر الفرات وتوغل فى إقليم دارون Daron الأرمنى ، الذى يتاخم الشاطئ الغربى لبحيرة وان ، وأقام معسكره أمام حصن Aitziatspered [٢]. والمعروف أن آشوت الثالث (٧٥٢ — ٩٧٧) ، الذى كان يحكم أرمينيا وقتذاك اتخذ سياسة المسالمة والمهادنة ، فاستطاع أن يحوز ثقة الخليفة العباسى ببغداد بعد أن أنزل الهزيمة بأحد الثائرين ، الذى عاث فسادا فى أذربيجان والجزيرة[٣] . وعلى الرغم من المنازعات بين آشوت الثالث وسائر الأمراء الأرمن ، فإنهم خرجوا للقاء زمسكيس ، بثمانين ألفاً من العساكر الأشداء ، ليرقبوا حركات الإمبراطور البيزنطى الذى حرص على أن يطمئن إلى سلامة موقف أرمينيا ، قبل مسيره إلى بغداد[٤] .

(١) Ipid. p, 244.

فى سنة ٩٦٨ — ٩٦٩ ، توغلت القوات البيزنطية حتى وصلت إلى مانزيكرت ، وهدمت أسوار المدينة ، وبذلك بلغت أطراف إمارة الموصل . يشير بعض المؤرخين إلى أن الإمبراطورية البيزنطية إنما أرادت أن تجعل من الموصل إمارة حاجزة مثلما فعلت بإمارة حلب ُ انظر : Canard, 1. 838

(٢) Schlumberger, L'Epopée I. p. 244.

(٣) Camb. Med. Hist. IV, p. 161.

(٤) Camb. Med. Hist. IV, p. 161
Schlumbeɹger, op. cit. I. pp. 252—253

ولم تلبث المفاوضات أن دارت بين زمسكيس ، وهو أرمنى الأصل ، وبين آشوت الثالث وسائر الأمراء ، فانتهت إلى عقد معاهدة تتضمن تعهد آشوت بأن يمد العساكر البيزنطية بما تحتاجه من الزاد والعلف ، وأن يلحق بالجيش البيزنطى قوة من العساكر الأرمن ، للاشتراك فى الحملة الموجهة ضد المسلمين . والراجح أنه ما دفع زمسكيس إلى أن يتحول عن طريقه نحو الشرق ، إلى جهة الجنوب ، سوى حرصه على أن يحصل على قوة من العساكر الأرمن ، الذين يعتبرون من خيرة جنود الشرق المسيحى[١] .

وما كاد الإمبراطور ينتهى من عقد المعاهدة ، حتى سار جنوبا ، فأغار على الجزيرة وذلك فى خريف سنة ٩٧٤ ، إذ عبر الفرات بناحية ملطية ، واتخذ طريقه نحو الجنوب الغربى ، قاصدا آمد على نهر دجلة ، التى استردها المسلمون بعد هزيمة مليح ، فاستولى عليها دون عناء ، وافتدى أهلها أنفسهم ، بما دفعوه من أموال وفيرة ، وفى أثناء الطريق هاجم العساكر البيزنطيون ميافارقين ، فنهبوها وأشعلوا بها الحرائق ، وحازوا غنائم وفيرة . ثم توجه البيزنطيون نحو نصيبين ، فاستباحوها بعد أن هجرها سكانها ، وأقام زمسكيس بهذه المدينة إلى أن تقرر الحال بينه وبين أبى تغلب بن حمدان ، على هدنة ومال ، يتعهد بدفعه إليه كل سنة ، على أن يدفع جانبا منه عاجلا[٢] .

ولما تحقق لزمسكيس ، ماكان يتطلع إليه من سبقه من الأباطرة ، من الاستيلاء على أعالى الجزيرة ، عزم على المسير إلى بغداد . وأدرك أن ما اشتهرت به حكومة الخليفة المطيع العباسى من الضعف ، كفيل بتحقيق هدفه[٣] . على أنه لم يرد فى المصادر من التفاصيل ، ما يشرح الوسائل التى اتخذها زمسكيس لتحقيق مشروعه . والواقع أنه لم يفصل بينه وبين بغداد مسافة طويلة ، إذ أن فى وسع عساكر بيزنطة ، كما يزعم المؤرخون البيزنطيون ، أن يهبطوا من آمد

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 254.

(٢) يحى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٠ Canard I. p. 843. Ibid. p. 247.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 258

على امتداد نهر دجلة ، إلى بغداد . ومع ذلك لم يتحقق هذا الغرض ، لأسباب لازالت مجهولة[١] . وارتد زمسكيس بعساكره نحو الشمال ، بينما جرى فى بغداد من الأحداث ، ما أدى إلى خلع الخليفة المطيع ، وتولية ابنه الطائع ، وذلك لاتهامه بالعجز والضعف إزاء البيزنطيين ، ولما وقع من المنازعات بين الشيعة والسنيين ، وثورات عساكر الترك[٢] .

وفى صيف هذا العام ٩٧٤ ، قدم زمسكيس إلى القسطنطينية بعد أن ترك جيوشه فى مراكزها فى طرسوس وأنطاكية .

حملة زمسكيس على سوريا سنة ٩٧٥ :

فى مستهل الربيع من سنة ٩٧٥ ، عاد زمسكيس بجيوشه ، قاصدا مهاجمة الشام وفلسطين . والمعروف أن الخليفة الفاطمى ، هو الذى تتعرض أراضيه لهذا الهجوم ؛ إذ أن الفاطميين باستيلائهم على كل ماكان يخضع للإخشيديين من بلاد الشام ، ولتأمين وادى النيل ، لا بد لهم من طرد الحاميات البيزنطية ، التى تحتل أنطاكية وسائر المواضع الحصينة فى أعالى سوريا وإقليم الساحل ، وإخراجهم إلى ماوراء جبال طوروس . وينبغى أيضاً إلزام أمراء حلب بالاعتراف بالسيادة الفاطمية ، وبذلك يخضع لحكم الفاطميين الجهات الممتدة من وادى النيل إلى قليقية[٣] .

وسبق الإشارة إلى ما حدث من استيلاء الفاطميين على دمشق سنة ٩٧٤

---

(١) وما دفعه للرجوع عن تحقيق غرضه ، يرجع فيما يبدو ، إلى المجاعة والجفاف والمساحات الشاسعة من الرمال التى تحول دون بلوغه بغداد .

أنظر Schlumberger : L'Epopée, I. pp. 259--260.

(٢) يشير يحيى بن سعيد ، إلى أن حملة مليح **Mleh** جهة المشرق ، حدثت بعد حملة زمسكيس الأولى على الشام ، لا قبلها .

انظر : يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٩—١٤٠ . Schlumberger : Op. Cit. I. p. 280.

Camb. Med. Hist. IV, p. 147.

(٣) Schlumberger : L'Epopée, p. 278.

(٣٦٣ هـ) ، أى بينما كان زمسكيس بالجزيرة . على أن أبا محمود إبراهيم بن جعفر لم يحسن السيرة فى دمشق ، فتقرر عزله ، وتولى مكانه ريان الخادم والى طرابلس ، التى استردها من البيزنطيين . والراجح أن القوات الفاطمية من المغاربة ، انتزعت من يد البيزنطيين كل المواضع الحصينة التى استولوا عليها منذ زمن نقفور فوكاس[١] .

على أن ريان لم يمكث بدمشق طويلا ، إذ طرده الفتكين قائد القوات التركية فى بغداد ، فأعاد الخطبة باسم الخليفة الطائع فى دمشق[٢] . وحسنت سيرته ، فقمع الفتن ، وأصلح كثيراً من أمور الناس ، وأظهر من الشجاعة وحسن التدبير ، ماثبت أقدامه ، وأظهر الناس الطاعة له[٣] .

ومنذ أواخر سنة ٩٧٤ ، وأوائل سنة ٩٧٥ ، واصل الجند المغاربة المسير ، ولم يتوقفوا إلا بعد أن فشل جعفر بن فلاح فى الاستيلاء على أنطاكية بسبب انصرافه إلى قتال القرامطة الذين هاجموا الشام وقتذاك . على أن نصراً الخادم ، الذى خلف ريان فى قيادة الجند ، طرد الحامية البيزنطية من بيروت ، ثم أنزل الهزيمة بالقوات البيزنطية فى موضع قريب من طرابلس ، وهذا الخطر الجديد ليس إلا تمهيداً لزحف الفاطميين نحو أنطاكية[٤] .

وترتب على الفوضى الناشبة فى بغداد أن تقرر اتخاذ سياسة إيجابية لمواجهة الأخطار الخارجية ، كما أن ما اشتهرت به أنطاكية من المناعة لم يجنبها ، ما ترتب على قيام الدولة الفاطمية وامتداد سلطانها إلى الشام من الأخطار[٥] .

والواقع أن نهوض زمسكيس فى ربيع سنة ٩٧٥ لغزو بلاد الشام ، إنما

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤٧٢ . Ibid. p. 279

(٢) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 280.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ، ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٩ . Schlumberger : L'Epopée, I. p. 280.

(٥) Ibid. p. 281.

يرجع أساساً إلى تحقيق سياسة الإمبراطور نقفور فوكاس ، التى ترمى إلى استعادة سوريا وفلسطين والاستيلاء على بيت المقدس[1] .

ارتحل زمسكيس من القسطنطينية فى مستهل ربيع سنة ٩٧٥ ، واتخذ طريقه إلى انطاكية ، حيث أمضى عساكره الشتاء ، بعد الحملة التى توجه بها فى السنة الماضية إلى الجزيرة . ومن انطاكية ، سار جنوباً ، فى أبريل ، لقتال المسلمين ، فاتخذ طريق وادى نهر الأورنت (العاصى) ، حتى وصل إلى حمص ، وبعد أن أنزل بها الهزيمة ، وقبل أهلها دفع الجزية ، توجه إلى بعلبك ، فحاصرها ، ثم استولى عليها وخربها وأخذ جماعة من أهلها[2] . وعبر جيش زمسكيس جبال لبنان ، وتوجه قاصداً دمشق ، فقاطع أهلها على ستين ألف دينار يحملونها إليه فى كل عام[3] . وتشير رسالة زمسكيس إلى آشوت الثالث فى سنة ٩٧٥ ، إلى المواضع التى هاجمها واستولى عليها . إذ استولى على بانياس ، وواصل المسير إلى طبرية ، فعين عليها حاكما بيزنطيا ، ثم توجه إلى عكا ، ولم تلق جيوش زمسكيس مقاومة من قبل القوات الفاطمية حتى وصل إلى قيسارية[4] .

على أن القوات الفاطمية التى تراجعت أمام زمسكيس ، لجأت إلى المواضع الحصينة الواقعة على الساحل الفينيقى ، حيث جاءت الأمداد الوفيرة من جهة البحر . ولذا حرص زمسكيس على أن يدمر هذه القوات ، قبل المضى فى مسيره إلى بيت المقدس ، حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه للهجوم من قبلهم ، وكيما يؤمن طريق موصلاته[5] . وتحتم على القوات البيزنطية أن تنصرف عن

---

(١) Ibid. p. 281.

(٢) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 304.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٥ .

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٥ .

(٤) Schlumberger : L'Epopée. I. p. 305.

(٥) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 306.

مواصلة السير إلى بيت المقدس ، وأن تتوجه صوب الشمال ، عن طريق الساحل ، لإعادة الأمن والسلام ، قبل المضى إلى بيت المقدس[1] .

استولى زمسكيس على بيروت ، وأسر أميرها نصراً الخادم ، وحمله إلى بيزنطة ، ثم نزل على طرابس وقاتلها غير أنه لم يستول عليها[2] ، ومع ذلك أخذ جنوده يعيثون فساداً فى أراضيها ، وانتصروا على قوة فاطمية صغيرة[3] . ثم واصل السير شمالا بإزاء الساحل ، فاستولى على جبله ، فخضع له بذلك الساحل الفينيقى والسورى ، من الرملة حتى أطراف إمارة أنطاكية .

على أنه كان لزاماً عليه يستولى أن على بعض الحصون الداخلية فى الشمال ، ولذا بادر بمهاجمتها ، فاستولى على حصن صهيون ، وحصن برزويه[4] . وعاد زمسكيس إلى أنطاكية فى سبتمبر سنة ٩٧٥ . ولم يرد فى رسالة زمسكيس إلى الملك الأرمنى إشارة إلى مسيره من أنطاكية إلى بيزنطة ، وفى ذلك من الدليل على أن هذه الرسالة تحررت إما فى أنطاكية ، وإما أثناء مسيره إلى بيزنطة[5] . فلم يقتصر زمسكيس على تثبيت فتوح نقفور بل عمل على نموها وتوسيعها[6] .

وما أحرزه زمسكيس من شهرة وصيت ، إنما يرجع إلى انتصاراته الباهرة . وما كاد يعود إلى القسطنطينية من حملته الثانية بآسيا حتى قضى نحبه فى ١٠ يناير سنة ٩٧٦ . وتضاربت الأقوال حول وفاته المفاجئة ، فهل كانت وفاته ناجمة عن تسمم أو عن مرض ؟ . الواقع أنه لم ترد نصوص تؤكد أحد الأمرين . على أن المؤرخ شلمبرجر يرجح أنه مات نتيجة وقوعه فريسة لمرض التيفوس ، ودلل على ذلك بما بذله الإمبراطور من مجهود حربى شاق فى آسيا ،

---

(١) Ibid: p. 306.

(٢) Ibid: p. 307. يحيى بن سعيد : كتاب التاريخ ، ص ١٤٦ .

(٣) Ibid: p. 307.

(٤) Ibid: p. 307. يحيى بن سعيد : كتاب التاريخ ، ص ١٤٦ .

(٥) Ibid : p. 303. Camb. Med. Hist. IV, pp 147-148

(٦) Ostrogorowski: p. 264.

أثناء فصل الصيف ، فتعرض لحرارة بالغة الشدة ، واجتاز بلادا لم تخل من الوخامة ، يضاف إلى ذلك وعورة الطرق التى سلكها ، وقلة المؤن والزاد(١) .

وبوفاة زمسكيس انتهى عهد القادة الذين تولوا العرش البيزنطى فترة من الزمن ، ومنذئذ عادت السلطة إلى البيت المقدونى الذى ظل يحكم حتى ظهور أسرة كومنين(٢) .

السياسة الكنسية :

ما حدث عقب أن تولى زمسكيس العرش ، من اختيار بطريرك لأنطاكية ، إنما يلقى الضوء على مدى نفوذ الكنيسة . إذ ظلت بطريركية أنطاكية شاغرة بعد مصرع البطريرك كريستوفوروس . وأبدى زمسكيس اهتماماً خاصاً بملء هذا المنصب الهام . ووقع اختياره ، على راهب ساذج ، اسمه تيودور ، فاعتبر زمسكيس أن الزهد الشديد من الصفات التى لها وزنها وتقديرها وقتذاك(٣) . وهذا الراهب اشتهر بتنبؤاته ، فهو الذى تنبأ بأن الملك سوف ينتقل إلى نقفور ، ثم إلى زمسكيس . وتنبأ أيضاً بأن زمسكيس سوف يخلص الإمبراطورية من أنصار المانوية ، أمثال البيالصة فى أرضروم Theodosiopolis ، وفى ملطية . وتصادف وجود تيودور بالقسطنطينية فتولى تقديمه إلى البطريرك بوليكتس ، بعد أن اطمأن إلى موافقته مقدماً ، وعندئذ عقد البطريرك بالعاصمة مجمعاً شهده رجال الكنيسة ، تقرر فيه صلاحية تيودور لمنصب بطريرك أنطاكية ، لما اشتهر به من الروحانية البالغة(٤) . والواقع أن ما حدث إنما يدل على أن الإمبراطور هو الذى رشحه لمنصب البطريركية ، ثم تلا ذلك موافقة بطريرك القسطنطينية .

(١) Camb. Med. Hist., IV. p. 82, Schlumberger : Op. Cit. I, p. 314.
Schlumberger : L'Epopée. I. p. 314.
(٢) Camb. Med. Hist. IV, p. 82.
(٣) Schlumberger : L'Epopée, I p. 23
(٤) Camb. Med. Hist, IV. p. 80.

ومن الطبيعى ألا يرشح الإمبراطور من الأشخاص للوظائف الكنسية العالية ، إلا بعد أن أدرك أن البطريرك وافق وأقر مبدئياً كفايتهم(١) .

ولما مات بطريرك القسطنطينية بوليكتس ، انعقد مجمع دينى للنظر فى شغل هذا المنصب . فاقترح الإمبراطور زمسكيس على المجمع أن يختار باسيل . ولم يختلف باسيل فى صفته عن تيودور الراهب ، الذى تولى بطريركية أنطاكية . إذ أن باسيل كان من رهبان أوليمبوس ، واشتهر بقداسته وبتنبؤاته . وكان من أصدقاء الإمبراطور . ولما تمت رسامته فى ١٣ فبراير سنة ٩٧٠ . أراد زمسكيس أن يعلن سروره وغبطته ، بأن ما حدث يعتبر اختياراً موافقاً وسديداً ، لصالحه ولصالح الكنيسة . غير أن ما حدث فعلا كان يخالف ذلك ، إذ لم يلبث أن شب النزاع فى سنة ٩٧٤ بين السلطتين الروحية والزمنية(٢) . ولا شك أن باسيل لم يكن من سلامة الإدراك والفطانة ما كانه بوليكتس ، فأراد أن يجعل من الكنيسة ديراً كبيراً ، وأن يقوم بإصلاحات لا تتفق مع ميول ونزعات الأساقفة . بل إنه مضى إلى أبعد من ذلك ، بأن شرع فى مراقبة سلوك رجال الكنيسة الخاضعين لسلطانه . يضاف إلى ذلك أنه على الرغم من صفاته الطيبة ، فإنه اشتهر بأطواره الغريبة ، وتقلب أهوائه وأفكاره(٣) .

وترتب على ذلك أن تقدم الأساقفة إلى الإمبراطور بالشكوى ضد البطريرك بأنه وعد شخصاً ما ، بولاية العرش ، وأنه أساء إدارة الكنيسة ، وأنه تجاوز فى إدارته أحكام القوانين الكنسية(٤) . وكان لزاماً على الإمبراطور أن يتدخل فى الأمر ، فدعا البطريرك إلى المثول أمام المحكمة الإمبراطورية ليبرئ نفسه من التهم الموجهة ضده(٥) . غير أن باسيل رفض أن يقدم على هذه الخطوة ،

(١) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 30.
(٢) Camb. Med. Hist., IV. p. 80
(٣) Ibid: p. 80.
(٤) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 224.
(٥) Ibid: p. 264., Camb. Hist. IV, p. 80

وزعم أنه لا يخضع لسلطة من السلطات ، سوى سلطة المجمع المسكونى . ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى أن تشترك الكنيسة الغربية فى هذا المجمع[١] ؛ وقد أدى ذلك إلى سقوطه وعزله . فما اشتهر به بوليكتس من القوة فى الحق ، جعله يصمد فى كرسى البطريركية ضد كل من تولى العرش من الأباطرة ، على حين أن باسيل تقرر عزله ونفيه إلى ديره على نهر سكاماندر Scamander فى سهل طرواده ، ولعل السرفى ذلك أن ماجرى اتهامه به من الأخطاء كان صحيحاً[٢].
ولعل أيضاً ما حدث من عزل باسيل عن البطريركية يرجع إلى ما وقع من أحداث فى إيطاليا ، وإلى ماجرى من التجاء البابا بونيفاس إلى القسطنطينية بعد طرده من روما . وخلف باسيل على كرسى البطريركية ، أنطون ، أحد رهبان دير ستوديون[٣] .

فالمعروف أن الإمبراطور نقفور فوقاس عمل على توطيد نظام الكنيسة البيزنطية فى إقليمى إبوليا وكالابريا ، بجنوب إيطاليا ، حيث ازداد فيهما نفوذ البابوية فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، لا سيما بعد تتويج أوتو الأول إمبراطوراً ، فضلا عن نمو قوة اللومبارديين فى جنوب إيطاليا . فتقرر ، بناء على أمر بطريرك القسطنطينية وتحت تأثير نقفور ، تحريم ممارسة الشعائر اللاتينية فى أبوليا وكالابريا ، وتحتم مراعاة طقوس الكنيسة اليونانية . وهذا الإجراء ، كان من الأسباب التى أدت فيما بعد إلى التباعد بين البابوية والإمبراطورية البيزنطة . ففى أواخر عهد نقفور ، أخذ البابا يخاطب الإمبراطور ، على أنه « إمبراطور اليونانين » ، أما لقب إمبراطور الرومان ، وهو اللقب الرسمى للأباطرة البيزنطيين ، فنقله البابا إلى أوتو الأول ملك ألمانيا[٤] .

(١) Camb. Med. Hist, IV. p. 80

(٢) Ibid, p. 80., Schlumberger : Ob. Cit. p 264.

(٣) Ibid, p. 80,. Schlumberger : Op. Cit. p. 263.

(٤) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 328.

وعلى الرغم من صلة المصاهرة التى ربطت بين الدولتين البيزنطية والألمانية ، بزواج تيوفانو من أوتو ، فإن ما جرى من التنازع على كرسى البابوية ، بين الموالين لكل من الدولة البيزنطية والدولة الألمانية ، أدى آخر الأمر ، زمن زمسكيس إلى طرد بونيفاس السابع وعزله من البابوية ، فلجأ إلى القسطنطينية ، وتصايح الناس طالبين من زمسكيس ، سنة ٩٧٤ ، قطع الصلة بروما[١] .

وتقدم زمسكيس ، فطلب من البطريرك باسيل ، تأييده ونصرته ، قبل الإقدام على قطع الصلة بروما ، حتى يكون عمله مشروعاً . غير أن البطريرك رفض الاستجابة لذلك ، لما لبابا روما من مكانة خاصة ، لأنه خلف سيد الرسل (القديس بطرس) على كرسيه . ولما ضاق زمسكيس ذرعاً بهذا الرفض ، الذى قلب خطته رأساً على عقب ، عزم على أن يعزل البطريرك ، وأن يلتمس لذلك من الأسباب ما يبرر عزله[٢] ، وهى الأسباب التى سبق الإشارة إليها[٣] .

(١) Schlumberger : L'Epopée I, p. 272.

(٢) Schiumberger : L'Epopée, I. p. 272.

(٣) تتضمن الطعن فى ولائه وإخلاصه للإمبراطور ، ومحاولة الانتقاص من حقوق رجال الدين ، وأنه يقسو فى معاملة رجال الدين الموالين للإمبراطور وأنه يحاول باسم الكنيسة أن ينقض ما وضعه الإمبراطور من تحديد بين السلطتين الزمنية والروحية . أنظر ما سبق ص ٥٥٧ .
وحدث بعد نفى باسيل ، أن الإمبراطور البيزنطى لم يعترف بالبابا بنيدكت السابع ، الذى اتهمه بأنه هو الذى قطع بونيفاس من الكنيسة . وترتب على ذلك أن انقطعت العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ولم يتم الوفاق بين الكنيستين إلا بعد عشر سنوات . على أن رغبة بونيفاس فى العودة إلى كرسى البابوية ، لم تحقق بعد وقوع حوادث عنيفة ، وبفضل تأييد الإمبراطور البيزنطى ، وبعد وفاة بنيدكت السابع فى أكتوبر سنة ٩٨٣ ، إذ جرى طرد حنا الرابع عشر ، البابا الذى خلف بنيدكت على كرسى البابوية ، فتولى مكانه بونيفاس ، غير أن بابويته لم تزد على سنة .
ونستخلص من ذلك ، أن مالجأ إليه الأباطرة الألمان ، من أن يخضعوا لسلطانهم بابا روما ، أدى إلى أن يحرص أباطرة بيزنطة على أن يلى كرسى البابوية أشخاص معروفون بالولاء لهم . وأدرك الأباطرة البيزنطيون أهمية ذلك ، لأن البابوات كانوا يحرصون على المحافظة على مبدأ الانتخاب ، الذى يقوم به أهل روما لانتخاب البابا ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يخشون ازدياد النفوذ الجرمانى ، وسيطرة الأباطرة الألمان على شئون روما ، لما لمسوه من أن هذا النفوذ يعتبر مصدر خطر يهددهم .
(انظر : Schlumberger : L'Epopée I. pp. 272-275.)

على أن ما حدث من مصرع الإمبراطور نقفور ، الذى يعتبر ولياً ونصيراً لدير القديس أثناسيوس فى جبل آتوس ، والذى تم تشييده سنة ٩٦٦ ، لم يمنع المضى فى توسيع الدير وامتداده . والمعروف أن زمسكيس اشتهر بشدة التقوى ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأباطرة البيزنطيين ، فخص الطوائف الدينية بعناية خاصة ، وحباها بالمنح والعطايا . فالقديس أثناسيوس ، الذى توطدت صلته بالإمبراطور نقفور فوكاس ، ولقى منه المساعدة والتأييد فى تشييد دير لورا المعروف بآتوس ، لم تنقطع صلته بالإمبراطور زمسكيس ، برغم ما أقدم عليه زمسكيس من اغتيال نقفور . وفى سنة ٩٧٠ ، بلغ عدد الرهبان من الزيادة ، ما تطلب من القديس أثناسيوس ، أن يقرر لهم قاعدة ، اشتهرت باسم « typikon » أو « Kanonikon » ، تحدد القوانين والأحكام التى ينبغى أن يخضع لها رهبان الجبل المقدس (آتوس)[1] . على أن هذه القاعدة لم تلق من الرهبان قبولا حسناً ، فلم يحفلوا باتباعها ، ولم تلبث الثورة ضد رئيس الدير أن نشبت بين الرهبان .

أنكر المتمردون ما اشتهر به أثناسيوس وقاعدته من الصرامة والشدة ، ورفعوا إلى الإمبراطور زمسكيس شكواهم ، بأن أرسلوا مبعوثين ، أحدهما اسمه أثناسيوس ، والآخر اسمه بولص[2] . غير أن الإمبراطور حرص على الإبقاء على السيادة الروحية ، فأرسل إلى آتوس من قبله مبعوثاً لإجراء التحقيق فى شكوى الرهبان . وهذا المبعوث ، ايتيميوس ، كان من رهبان دير ستوديون . وأسفرت الاجتماعات التى عقدها مبعوث الإمبراطور ، وشهدها القديس أثناسيوس وجماعة من رجال الكنيسة ، عن إدراكهم لما أصاب

---

(١) Camb Med Hist IV. p. 80.

Schlumberger : L'Epopée, I p. 323.

وظلت هذه القاعدة سارية حتى سنة ٩٩٠ ، حينما حلت مكانها القاعدة المعروفة باسم diatyposis أى وصية القديس (أنظر . Schlumberger : Op. Cit. p. 323.)

(٢) Schlumberger : Op. Cit. p. 323.

Camb. Med. Hist. IV. p. 81.

قاعدة أثناسيوس من الإغفال والإهمال . فتقرر إخضاع الرهبان فى آتوس لقاعدة أشد صرامة من القاعدة الأولى . وهذا هو السر فى أن الإمبراطور زمسكيس أصدر سنة ٩٧٢ ، قراراً يقضى بالتصديق على قاعدة القديس أثناسيوس ، وعلى كل ما حصل عليه دير لورا بآتوس من نقفور ، من امتيازات[1] . وتقرر بمقتضى هذه الوثيقة أن يكون الدير مستقلا ، لا يخضع الا لسلطة رئيسه ، وليس لبطريرك القسطنطينية عليه من سلطان ، وتضمن القرار الإمبراطورى القواعد التى تجرى بمقتضاها إدارة الدير ، وهذه القواعد لا زالت سارية حتى الوقت الحاضر[2] .

على أن زمسكيس لم يكتف بأن اتخذ جانب أثناسيوس ضد الرهبان المتمردين ، بل إنه عمل على مساعدة الرهبان ، بأن أسهم فى توسيع الدير ، بأن منح القديس أثناسيوس ، عند قدومه لزيارة القسطنطينية مبلغاً من المال ، مقداره ٢٤٤ ديناراً ذهبياً ، وعزز هذا السخاء بما أصدره من قرار أجاز فيه للقديس أثناسيوس ، أن يزيد عدد الرهبان إلى مائة وعشرين ، بعد أن كانوا لا يتجاوزون ثمانين راهباً[3] .

تشريعات زمسكيس الأخرى :

لم نعلم لزمسكيس من المرسومات أو القرارات الأخرى ، إلى جانب قرار سنة ٩٧٢ الذى يرتبط برهبان آتوس ، سوى قرار واحد يتعلق بالرقيق الذين وقعوا فى الحرب . وتقرر فيه ذكر الحالات التى يجرى فيها الإعفاء من الضريبة المقررة على تجارة الرقيق ، التى نجمت عن الحرب ، والحالات التى ينبغى فيها تحصيل الضريبة منهم . وتضمن هذا القرار ما يؤدى من الرسوم أو الضرائب

---

(١) Camb Med. Hist. IV. p. 81.

(٢) Ibid : P. 81., Schlumberger : L'Epopée, I, P. 324.

(٣) Schlumberger : L' Epopée, I. P. 324

ظل أثناسيوس عائشاً حتى سنة ١٠١١ ، حيث لقى حتفه ، مع ستة من الرهبان تحت قبو ، بعد أن فرغ من تشييده . Schlumberger : L'Epopée, I. P. 324.

على الأسرى الروس ، الذين وقعوا فى قبضة البيزنطيين فى الحرب البلغارية ، وكذا الضرائب على الأسرى المسلمين نتيجة الحملات البيزنطية فى الشام . وأفاد رجال الحرب ، من القادة والعساكر سواء ، من المسامحات الإمبراطورية ، إذ جاز لهم فى بعض الأحوال التى تصرفوا فيها فى الأرقاء الذين حازوهم فى الحروب ، أن يستردوا ما أدوه من أموال إلى الخزانة العامة(1) .

واهتم الإمبراطور البيزنطى أيضاً بمصالح القوات البحرية ، إذ أن موضوع الأرقاء الذين وقعوا مباشرة فى أسر القوات البحرية ، أو الذين ابتاعوهم من التجار ، أو من البلغار ، ورد فى المعاهدة التى عقدها الإمبراطور ، سنة ٩٧٢ ، مع سفياتوسلاف من أجل الصلح والسلام(2) .

ثورة بارداس فوكاس :

بينما تجهز الإمبراطور زمسكيس ، فى مستهل سنة ٩٧١ ، للمسير إلى قتال الروس والاستيلاء على بلغاريا ، جاءه من الأنباء المروعة ، ما منعه من المضى إلى قتال الروس . إذ ذاع فى القصر الإمبراطورى أن الدوق بارداس فوكاس ، الابن الثانى للقائد ليو فوكاس ، وابن أخى الإمبراطور الراحل نقفور فوكاس ، والذى تقرر عند وفاة عمه ، اعتقاله فى أماسيه Amasia بإقليم بونطس ، استطاع بمساعدة اثنين من أبناء عمه ، وهما تيودور فوكاس ، ونقفور فوكاس ، وبعض قادة الثغور الذين ظلوا على ولائهم لنقفور ، وكذا بعض رجال الدين ، أن يهرب من معتقله(3) . ومن الواضح أن المتآمرين أفادوا من تأهب الإمبراطور لقتال الروس . فأضحى مركز الإمبراطورية شديد الحرج ، إذ قرر الإمبراطور العدول عن توجيه الجيوش وإرسالها صوب الشمال لقتال

(١) Schlumberger : L'Epopée, I. P. 322.

(٢) Ibid. P. 322.

(٣) Schlumberger : L'Epopée. I. PP. 90—91.
Camb. Med. Hist. IV. P. 81.

الروس ، بل تقرر أيضاً دعوة القائد بارداس سكليروس ، وإرساله بكل قواته إلى قتال بارداس فوكاس فى آسيا(1) .

وهرع بارداس فوكاس مع أنصاره إلى قيصرية ، حاضرة قبادوقيا ، وهو إقليم جبلى شاسع يقع بوسط آسيا الصغرى ، ويعتبر موطن أسرة فوكاس ، فاعلن نفسه إمبراطوراً مثلما فعل عمه ، فى نفس المدينة ، سنة ٩٦٣(2) . وأخذ بارداس فوكاس يباشر سلطانه ، باعتباره إمبراطوراً ، بأن وزع على أنصاره ما معه من أموال قليلة ، ووعدهم بالزيادة ، وصار ينعم بالرتب والألقاب على الذين التفوا حوله ، وعين قادة لثغور آسيا . ونجح فى أن يتصل سراً بوالده القربلاط ، ليو ، الذى كان معتقلا فى متيلين Mytiléne ، واستجاب ليو لدعوة ابنه . وبناء على أمر ليو ، نهض اتيين Etienne أسقف ابيدوس ، الذى ازداد تعلقا بأسرة فوكاس بسبب ما أصابه منها من ثروة ، وصار يجوب الأقاليم الأوربية البيزنطية ، ويذيع ما يبشر بخروج ليو وابنه نقفور من المعتقل ، وقدومهما إلى تراقيا ، ويعد باسمهما كل من ينحاز إليهما لاستخلاص العرش من المغتصب (زمسكيس) ، بالألقاب والتشاريف والوظائف(3) .

وعلى الرغم من هذه الأنباء المثيرة التى صار يتلقاها زمسكيس . فى الوقت الذى يتهيأ فيه للنهوض إلى قتال الروس ، فإنه أعد من الوسائل ما يواجه بها الأحداث ، فأمر بالقبض على أسقف أبيدوس ، وتقرر محاكمته بتهمة الخيانة العظمى . وتقرر أيضا توجيه هذه التهمة إلى ليوفوكاس وابنه نقفور ، وصدر ضدهما الحكم بالإعدام ، غير أن زمسكيس استبدل بهذا الحكم ، سمل عيونهما والنفى المؤبد(4) . واشتد التضييق عليهما ، ثم تقرر إلقاء القبض على كل أنصار ليوفوكاس ، وأنصار أبنائه ، وجرى أيضا مصادرة أملاكهم(5) .

(١) Schlumberger : L'Epopée, I. P. 61.

(٢) Ibid : P. 63., Camb. Med, Hist. IV, P. 81.

(٣) Schlumberger : L'Epopée, I. P. 64.

(٤) Schlumberger : L'Epopée. I. P. 64.

(٥) Ibid : P. 67.

لم يعبأ بارداس فوقاس بما ينتظره من مصير خطير ، بل ازداد تيها وتجبرا ، بما اجتمع حوله من عساكر ، فغادر قيصرية بكتائبه ، وتوجه صوب القسطنطينية ، وصار يشعل النيران والحرائق فى دور كل من رفض الانحياز إليه ، وأجاز لأنصاره أن ينهبوا أمتعتهم [١] . وفى أثناء مسيره تلقى من الإمبراطور زمسكيس رسالة تتضمن دعوته إلى الرجوع إلى صوابه ، وحثه على إعلان الخضوع للإمبراطور ، ووعده إذا استجاب لطلبه ، أن يبقى على حياته ، وعلى أمواله ، وأموال من تبعه ، أما إذا لم يستجب لدعوته ، فسوف يلقى مصرعه [٢] . غير أن بارداس لم يستجب له ، ورد عليه ، يطلب منه أن يعيد إليه الإمبراطورية ، التى يعتبر نفسه خير من يتولى أمرها ، ويحمله مسئولية مصرع عمه نقفور ، ومقتل أبيه وأخيه ، دون بينة أو دليل [٣] .

عهد زمسكيس ، إلى أبرع قادته ، بارداس سكليروس ، بأن يقمع ثورة بارداس فوكاس . وأجاز له أن يتخذ من الوسائل السلمية والقهرية ، ما يكفى للقضاء على هذه الفتنة ؛ فعبر سكليروس البوسفور على رأس قواته الأوربية ، وتقدم نحو دوريليه (دوريليوم) ، وهو الموضع الذى تقرر أن تحتشد فيه جيوش الثغور الأسيوية الموجهة لقتال بارداس فوكاس . على أن الإمبراطور طلب إليه ألا يريق الدماء إلا عند الضرورة القصوى ، بل إنه فوضه فى أن يبذل الوعود لكل من يتخلى عن بارداس فوكاس ، بأن يبقى على حياته ، ويجزل له العطاء ، ويمنحه التشاريف . وبعد أن اطمأن سكليروس إلى كفاية عساكره وحسن تدريبهم ، رأى قبل أن يسير لقتال بارداس فوكاس ، أن يكتب إليه ينصحه بالطاعة . وأشار فى رسالته إلى ما بينهما من زمالة قديمة ، وما يربط بينهما من أواصر القرابة ؛ إذ أن قنسطنطين أخ سكليروس ، والذى أبلى بلاء حسناً فى أركاديوبوليس تزوج صوفيا شقيقة الثائر بارداس فوكاس [٤] . غير

(١) Ibid : P. 67.

(٢) Ibid : P. 67.

(٣) Schlumberger : L' Epopée, I. P. 67.

(٤) Ibid : P. 68.

أن بارداس فوكاس لم يحفل بهذه الرسالة ، واعتقد أن سكليروس لم يلجأ إلى الكتابة إليه إلا لما يحس به من ضعف مركزه . فكان لزاماً على سكليروس ، أن يمضى لقتال بارداس فوكاس [١] .

وبفضل ما أرسله سكليروس إلى معسكر بارداس فوكاس ، الذى أقامه فى بارديتا Bardaetta ، (وهى المعروفة الآن باسم أقشهرجيلى) [٢] ، من العيون والأرصاد والجواسيس ، الذين أخذوا فى استمالة كبار أنصار بارداس ، ببذل الأموال لهم ، والوعد بالعفو عنهم ، أو التهديد بما ينتظرهم من عقاب شديد ، وبفضل ما شاع بين العساكر الموالية لبارداس ، من حرص الإمبراطور على أن ينفذ جيشاً كبيراً لقمع الثورة ، كثر عدد المنشقين على بارداس ، وانحاز عدد كبير منهم إلى جيش سكليروس .

ولما أدرك بارداس فوكاس خطورة مركزه ، عزم على أن يشق له ولأصحابه طريقا ، وسط قوات سكليروس المحاصرة له ، ونجح فى ذلك . واستطاع أن يفلت من عدوه ، وأن يلجأ إلى حصن تيريايون Tyriaion [٣] ، فى الجنوب الغربى من مدينة قيصرية ، على الطريق بين جبال طوروس وأبواب قليقية . على أن سكليروس ضيق الخناق على هذا الحصن ، وطلب إلى بارداس فوكاس أن يستسلم ، مقابل الإبقاء على حياته . ولما أدرك بارداس أنه لا أمل فى المقاومة ، أو فى قدوم نجدة لمساعدته ، أذعن لطلب سكليروس ، والتمس أن يبقى على حياته وحياة أنصاره . ولما رجع سكليروس فى هذا الأمر إلى الإمبراطور ، قَبِل طلب بارداس ، بشرط أن يصير راهبا ويتخذ رداء الرهبان ، فتقرر قص شعره ، وإرساله هو وأسرته ، إلى دير بجزيرة خيوس [٤] .

(١) Schlumberger : L'Épopée, I. P. 70.

(٢) Ak Cheher Queuli.

(٣) وهو الموضع المعروف حالياً باسم إيلكين Ilghin

(٤) Schlumberger : L'Epopée, I. P. 75.

وبينما كانت فتنة برداس وشيكة الاندلاع ، وبينما يجرى الاستعداد لقتال الروس ، أراد زمسكيس أن يفيد من هذا الوضع ، كما يقيم اتحادا جديدا ، فتزوج من تيودورا ، ابنة قنسطنطين السابع ، وأخت رومانوس الثا . ولقى هذا الزواج ارتياحا كبيراً فى القسطنطينية ، لأنه أكد لسلالة باسيل الأول حقهم الشرعى فى ولاية الحكم (١) .

(١) Camb. Med. Hist. IV, P. 81.

الفصل العاشر

باسيل الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥ م)

الفترة الأولى (٩٧٦ – ٩٨٩ م)

على الرغم من أن الحقوق الإمبراطورية ، لسلالة البيت المقدونى ، ظلت من الناحية الرسمية محفوظة ومعترفا بها ، زمن نقفور فوكاس ، وحنا زمسكيس ، فإن فكرة أن العرش البيزنطى لا يليه إلا من جرت ولادته فى فراش الملك ، أخذ يضعف شأنها فى أذهان أعيان البيزنطيين . إذ كان مألوفا ، أن تتركز السلطة فى يد أحد القادة ، الذين ينتمون إلى أسرات كبيرة . فلما مات حنا زمسكيس سنة ٩٧٦ ، ظهر صهره برداس سيكلروس ، وهو يأمل أن يشغل المنصب الشاغر ، وهو منصب قسيم الإمبراطور . وبدا كأن البيت المقدونى سوف يصبح كالبيت الميروفنجى ، ضحية حجابة للقصر بالغة الشدة والقوة ، أو يبقى ، مثلما بقيت الخلافة فى بغداد ، خاضعاً لسلطة عسكرية شديدة البأس على أن ما اشتهر به الإمبراطور الشاب ، باسيل الثانى ، من نشاط موفور ، وحيوية فذة ، أنقذ هذا البيت المقدونى من هذا المصير (١) .

لم ينجب زمسكيس وريثاً كفئاً ، يستطيع أن يتولى العرش من بعده . والمعروف أنه التزم ، مثلما فعل نقفور فوكاس ، بالمحافظة على حقوق الوريثين الشرعيين ، باسيل وقنسطنطين ، ولدى رومانوس الثانى من زوجته تيوفانو ، وأعلن نفسه قيما عليهما (٢) . ولذا انتهى إليهما ، وفقاً لمبدأ الوراثة ، التاج الإمبراطورى (٣) .

(١) Ostrogorowski : P. 264.
Schlumberger : L'Epopée, I. PP. 327—328.
Camb. Med. Hist. IV. P. 83.

(٢) Ibid : p. 83.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. P. 83.

وبينما كانت فتنة برداس وشيكة الاندلاع ، وبينما يجرى الاستعداد لقتال الروس ، أراد زمسكيس أن يفيد من هذا الوضع ، كيما يقيم اتحادا جديدا ، فتزوج من تيودورا ، ابنة قنسطنطين السابع ، وأخت رومانوس الثانى . ولقى هذا الزواج ارتياحا كبيراً فى القسطنطينية ، لأنه أكد لسلالة باسيل الأول حقهم الشرعى فى ولاية الحكم[١] .

---

(١) Camb. Med. Hist. IV, P. 81.

الفصل العاشر

باسيل الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥ م)

الفترة الأولى (٩٧٦ – ٩٨٩ م)

على الرغم من أن الحقوق الإمبراطورية ، لسلالة البيت المقدونى ، ظلت من الناحية الرسمية محفوظة ومعترفا بها ، زمن نقفور فوكاس، وحنا زمسكيس، فإن فكرة أن العرش البيزنطى لا يليه إلا من جرت ولادته فى فراش الملك ، أخذ يضعف شأنها فى أذهان أعيان البيزنطيين . إذ كان مألوفا ، أن تتركز السلطة فى يد أحد القادة ، الذين ينتمون إلى أسرات كبيرة . فلما مات حنا زمسكيس سنة ٩٧٦ ، ظهر صهره برداس سيكلبروس ، وهو يأمل أن يشغل المنصب الشاغر ، وهو منصب قسيم الإمبراطور . وبدا كأن البيت المقدونى سوف يصبح كالبيت الميروفنجى ، ضحية حجابة للقصر بالغة الشدة والقوة ، أو يبقى ، مثلما بقيت الخلافة فى بغداد ، خاضعاً لسلطة عسكرية شديدة البأس على أن ما اشتهر به الإمبراطور الشاب ، باسيل الثانى ، من نشاط موفور ، وحيوية فذة ، أنقذ هذا البيت المقدونى من هذا المصير[١] .

لم ينجب زمسكيس وريثاً كفئاً ، يستطيع أن يتولى العرش من بعده . والمعروف أنه التزم ، مثلما فعل نقفور فوكاس ، بالمحافظة على حقوق الوريثين الشرعيين ، باسيل وقنسطنطين ، ولدى رومانوس الثانى من زوجته تيوفانو ، وأعلن نفسه قيما عليهما[٢] . ولذا انتهى إليهما ، وفقاً لمبدأ الوراثة ، التاج الإمبراطورى[٣] .

---

(١) Ostrogorowski : P. 264.
Schlumberger : L'Epopée, I. PP. 327—328.
Camb. Med. Hist. IV. P. 83.

(٢) Ibid : p. 83.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. P. 83.

شخصية باسيل الثانى :

كان باسيل الثانى أكبر الأخوين سناً. فالراجح أن ولادته حدثت فى سنة ٩٥٨، وتم تتويجه فى ٢٢ أبريل سنة ٩٦٠ . أما قنسطنطين فإنه يصغر أخاه بسنتين ، فقد ولد سنة ٩٦٠ أو سنة ٩٦١ ، وتقرر تتويجه فى ٧ أبريل سنة ٩٦١[١] . وأمضى الولدان السنوات الأولى تحت وصاية أمهما والقائدين اللذين توليا العرش ، وهما نقفور وزمسكيس وما وقع من حولهما من الأحداث السياسية ، لم يؤثر فيهما إلا من الناحيتين الأخلاقية والفكرية . على أن الاختلاف فى الطباع بين هذين الأخوين ، بلغ من الشدة ما لم يحدث إلا عند فئة قليلة من الناس . وحكم هذان الأخوان بالقسطنطينية فترة من الزمن مقدارها ٥٢ سنة[٢] .

وعلى الرغم من أن المؤرخ بسيللوس Psellus ، لم يتجاوز السابعة من عمره عند وفاة باسيل الثانى ، فإنه نشأ وتربى وسط المعاصرين لهذا الإمبراطور ، ولذا يعتبر وصفه لباسيل صادقاً إلى حد كبير ، إذ يقول : « بدا الإمبراطور باسيل لمعظم من شهده ورآه من جيلنا ، كأنه عابس الوجه ، حاد الطبع ، بالغ الرزانة فى أعماله اليومية ، شديد الكراهية للاستهتار والفجور » . على أنه إذا صدق ما كتبه عنه مؤرخ ذلك العصر ، لم يكن باسيل على هذا النحو ، حينما بدأ حكمه . إذ طرأ على طباعه تغيير كبير حينما تولى العرش ، فبدلا من أن يمضى فيما اشتهر به من قبل من حياة الفسق والفجور ، أصبح بعد اعتلاء العرش ، رجلا وافر النشاط متين الخلق ، قوى العزيمة . والواقع أن ضغط الأحداث هو الذى أدى إلى هذا التغيير الشامل فى مجرى حياته . إذ ازداد خلقه متانة وصلابة ، فما اشتهر به من قبل من ضعف ، لم يلبث أن زال ، وحل مكانه القوة والبأس ، واختفى التراخى والكسل ، ليحل مكانه الإصرار على تحقيق الهدف[٣] .

---

(١) Ibid : P. 83.

(٢) Ibid : P. 83., Schlumberger, L'Epopeé. I. P. 328.

(٣) Psellus : Chronographia, pp. 12—13.

على أن باسيل الفارس ، لم يكن يضارعه أحد فى بأسه فإنه « متى صار فى سرج فرسه ، كان أشبه بتمثال ، نحته أحد كبار المثالين ، بعد أن اتخذ راكب الفرس وضعاً خاصاً ، فإذا أرخى باسيل العنان لفرسه ، عند مسيره للقتال والحرب ، ظل ثابتاً فى سرجه منتصب القامة ، يصعد على هذه الصورة ، الجبال ، ويهبط إلى الوديان . فإذا حبس حصانه ، وجذب إليه عنانه ، وثب من عل ، كأنه طائر يحلق فى الهواء ، لم تفارقه الرشاقة والخفة ، عند امتطائه الفرس أو ترجله »[١] فحاز باسيل ما حازه كبار القادة من الصفات ، مثل النشاط الوافر ، والعناد والصلابة ، وشدة المراس . وسوف نرى أيضاً أنه أحرز من الصفات ، ما هو جدير بكبار الحكام ورجال الإدارة[٢] .

وما أورده زوناراس Zonaras ، من وصف لأخلاق باسيل ، إنما يمثل باسيل فى أواخر حياته[٣] ؛ إذ يشير إلى أن باسيل بلغ من زهوه بانتصاراته ، أنه صار يؤثر لرعاياه أن يخشوه ، لا أن يحبوه . وكان لا يأبه للقوانين أو التقاليد ، فلا يفعل إلا ما يريده ويهواه . ولم يكن أيضاً يميل إلى رجال العلم ولا يحب التعليم ، إذ اعتبره لغوا عديم الجدوى . فلم يستخدم فى مجلسه ، وفى تسيير الأمور ، وفى الكتابة ، إلا رجالا لا يشتهرون بنسبهم ، أو بعلمهم . فكان لا يملى عليهم إلا رسائل قصيرة فى أسلوب جاف ، دون اهتمام بالصيغة ، إذ جعل كل اهتمامه يدور حول مسألة واحدة ، وهى تكديس الأموال .

وفى زمن الحرب درج على أن يغير فى قراراته ، ويعدل فى تدابيره ، بما يتفق مع الأحوال والظروف . وفى زمن السلم ، سلك إلى هدفه ، طريقاً مستقيما ، لا يعوقه عائق أو عقبة من العقبات ، واشتهر أيضاً بالإرادة الحديدية ، وبأنه قل أن يغفر لأحد ، ما ارتكبه من جرم[٤] .

---

(١) Ibid : P, 28., schlumberger : L'Epopèe, I. pp. 330—331,

(٢) Schlumberger : L'Epopée. I. P. 331.

(٣) خدم زوناراس أسرة كومنين ، ثم أصبح راهباً ، وصنف تاريخه فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، أى بعد مائة سنة مضت على وفاة الإمبراطور باسيل الثانى . (انظر Schlumberger : L'Epopée. I. p. 331.)

(٤) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 332.

أما وصفه بالقسوة ، والتدليل على ذلك بما أنزله بعساكر صمويل الملك البلغارى وبرعايا ملك الأبخاس ، من عقاب بالغ الشدة ، فإنما يرجع إلى أن الدواعى السياسية هى التى أرغمته على ذلك ، ولم يختلف فى ذلك عن كثير من كبار ملوك عصره[1]. ويشير أحد المؤرخين إلى أن باسيل لم يحفل إلا بالأعمال المجيدة ، وبقوة الجيش ، وبتدبير جمع الأموال ، وكلها تعتبر دعائم حكمه[2].

ويصفه المؤرخ يحيى بن سعيد ، وهو مسيحى معاصر له « أنه لم يزل فى جميع أيام ملكه ، مقتصراً فى مطعمه ومشربه وزيّه ، لازما الحِميّة طول حياته ، ناظراً بنفسه فى سائر أمور مملكته ، ما جلّ منها وما صغر ، وخلّف من المال ستة آلاف قنطار مسكوكة ، وكان جميع ما وجد من المال حين احتوى على الملك ، أربعة قناطير لا غير »[3].

أما قنسطنطين ، شقيق باسيل ، فلم يذكر عنه بسيللوس ، سوى أنه يختلف عن أخيه الأكبر ، فى أنه يميل إلى اللهو ، ويؤثر الحياة الوادعة ، وينزع إلى كل ماهو أنيق لطيف ، ويجنح إلى التظاهر بالقوة ، برغم تجرده منها[4]. وعلى الرغم من الاعتراف باشتراكه فى الحكم ، فإنه باشر الوظيفة دون أن يدرى شيئاً عن أعبائها[5] . فما اتصف به من الضعف ، جعل من حسن الطالع ، أن تولى تسيير الأمور نيابةعنه ، شخص يفوقه مقدرة وكفاءة ، وهو باسيل . ولم يتزوج من الأخوين إلا قنسطنطين ، إذ تزوج هيلينا ، ابنة البطريق الييبوس Alypius ، والتى أنجبت له بناته الثلاث ، ايدوسيا ، وزوى ، وتيودورا ، تولت اثنتان منهن الحكم بعد وفاته ، وبقيتا فى الحكم حتى سنة ١٠٥٦ . ولما مات زمسكيس ، وولى باسيل وقنسطنطين الحكم ، كانت أمهما تنزل بالدير ، ولم يكن ثمة من أفراد العائلة الأقوياء ، من يشاركهما فى تحمل مسئوليات الحكم .

(١) Schlumberger, L' Epopée, I. p. 332.
(٢) ibid : p. 332.
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٩ .
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 83.
(٥) Ibid. p. 84.

ولم يجدا من يعتمدان عليه سوى خالهما الأكبر ، الطواشى المعروف باسيل ، الملقب باسم براكيمومينوس Parakoimomenos ، الذى كان كبير الوزراء زمن الأباطرة الأربعة ، والقائد بارداس سكليروس صهر الإمبراطور حنا زمسكيس ، والذى حصل منه على وعد بأن يخلفه فى الحكم[1] .

والمعروف أن كلا من البراكيمومينوس باسيل ، والقائد (الماجسطرس) بارداس سكليروس ، يكره أحدهما الآخر ، وكلاهما يتطلع إلى الوصول إلى العرش . وسبق أن أشرنا إلى أن باسيل كان ابنا غير شرعى للإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، وهو من السيزين Scythions . أما بارداس سكليروس ، صهر الإمبراطور زمسكيس ، فإنه صار بعد وفاة صهره من دعائم الملك ، واشتهر بأنه إذا تولى تدبير أمر من الأمور ، لم يتوان عن المبادرة إلى تنفيذه[2]. ومن الدليل على ما ناله بارداس سكليروس من حظوة عند زمسكيس ، أنه عند وفاة الإمبراطور . كان يتولى قيادة كل القوات المرابطة بآسيا ، وأنه كان دمستقا فى الشرق ، وهذه الوظيفة تعتبر أعلى وظيفة فى الإمبراطورية ، ولعل زمسكيس كان يرمى ، قبيل وفاته ، من وراء تعيين سكليروس فى هذه الوظيفة ، إلى أن يليه على العرش صهره المعروف بنشاطه وبسالته ، أو على الأقل يتولى الوصاية على الأميرين الصغيرين ، باسيل وقنسطنطين[3] . ويشير بسيللوس ، إلى « أن سكليروس جمع من الأموال ما هو خليق بملك من الملوك ، فحاز بذلك عصب القوة وأداتها . واستطاع فى حملاته العديدة ، أن يكسب محبة العساكر ، الذين لم يطلبوا سوى أن يتبعوه أينما أراد ومتى شاء »[4] .

لم يكن بارداس سكليروس ، بالقسطنطينية ، عند وفاة زمسكيس ، بل كان

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 84.
Schlumberger : L'Epopée, I. pp. 338 — 340.
(٢) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 342.
Psellus : Chronographia, p. 13.
(٣) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 343.
(٤) Ibid : p. 343., Psellus : p. 13.

على رأس الجيش فى آسيا . أما باسيل فإنه كان بالقسطنطينية ، فصار من اليسير أن يقبض على زمام الحكم باسم باسيل الثانى ، والراجح أن يتم ذلك بموافقته ورضاه ، نظراً لما له من نفوذ كبير بالقصر الإمبراطورى ، ولما يليه منذ زمن طويل من وظائف عليا[١] ، وبذا تهيأ لباسيل من الفرص والأحوال ما لم يتهيأ لمنافسه سكليروس . وعلى الرغم من أنه لم يقع بين الرجلين صدام مباشر ، فمن الواضح أن الطواشى باسيل يعتبر سيد الموقف ، والمسيطر على كل الأمور ؛ إذ ظل على ما كان عليه من تدبير الأمور ومباشرة وظائفه[٢] . فعلى الرغم من أن باسيل ولى العرش فعلا ، ولم تعد ثمة وصاية عليه ، وأنه لم يقبل أن يشاركه أخوه قنسطنطين فى الحكم ، فإنه نظراً لأنه لم يكن له سابق تجربة وخبرة ، رضى ، فى السنوات الأولى من حكمه على أقل تقدير ، أن يظل تلميذاً طيعاً لكبير الوزراء ، الذى يتولى فعلا إدارة شئون الإمبراطورية ، والذى يسلك فى إدارتها سبيل الصلابة والشدة ، فضلا عن التعقل والمروءة[٣] . ولما ناله من مكانة ، ازداد تعلقاً بالأسرة الإمبراطورية ، وحرص على أن ينال ابن أخته باسيل ، من التربية والتعليم ما يؤهله لمباشرة السلطة . فظل الطواشى باسيل مطلق السلطة ، يسيطر على الحكومة والجيش ، وهو الذى يفرض الضرائب ، ويتولى تصريف الأمور العامة . على أن الإمبراطور الشاب لم يلبث أن شاركه إدارة الدولة ، فقبض بيديه على زمام الملك ، واشترك فى كل المناقشات والقرارات[٤] .

فتنة سكليروس :

كان أول عمل قامت به الحكومة الجديدة ، هو أن أعادت تيوفانو من

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 84.
Schlumberger : L'Epopeé, I. p. 343.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 84.

(٣) Psellus : Chronographia, p. 19.
Schlumberger : L'Epopeé, I. p. 346.

(٤) Schlumberger : L'Epopée, I. pp. 346.—347.
Psellus : Chronographia, p. 19.

الدير الذى نزلت به . على أن الطواشى باسيل لم يأمن لبارداس سكليروس ، وازداد خوفه منه ، وخشى أن يثب إلى العرش ، يسانده ما تحت يده من خيرة قوات الإمبراطورية ، ونظرا لما يليه من منصب القائد الأعلى للجيوش بآسيا (Stratilate) ، ففى وسعه أن يستخدمهم كل مغامرة[١] . ولذا بادر باسيل الـ اكيمومينوس ، إلى أن يعزل سكليروس من وظائفه ، وأن يعينه دوقا على ثغر الجزيرة ، وذلك على سبيل الحط من قدرته والتشهير به[٢] . وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التى لهذه القيادة الحربية فى الطرف المتاخم للمسلمين ، فالواقع أنها تعد منفى لبارداس سكليروس ، بالقياس إلى ما تطلع إليه من الوظائف العليا . ولم يكن بارداس سكليروس وحده ، هو الذى تعرض لهذه الإهانة من قبل الطواشى باسيل ، بل تعرض لها أيضاً قائد آخر من كبار قادة الحرب ، وهو ميخائيل بورتزيس Michael Bourtzes ، الذى اشتهر عند المسلمين باسم ميخائيل البرجى ، وهو من أهم القادة الذين اشتركوا فى الاستيلاء على أنطاكية ، زمن نقفور فوكاس ، كما أنه اشترك أيضاً فى اغتيال نقفور . وكان باسيل يرمى من وراء ذلك إلى أن يبعدهما عن العاصمة ، وأن يعرضهما للخطر والهلاك ، باشتباكهما فى القتال ضد المسلمين[٣] . أما القيادة العليا

---

(١) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 351.

(٢) Ibid : p. 351. Camb. Med. Hist. IV. p. 84.

ويشمل هذا الثغر الأراضى التى تحيط بالحصون والمعاقل الكبيرة فى Kamaka ، Keltréne ، وخربوت ، والشاطئ الذى يقع إلى يسار الفرع الشمالى لنهر الفرات ، وكل الوادى الذى يجرى فيه الفرع الشمالى من النهر . (Schlumberger : p. 351)

(٣) ويعتبر ميخائيل البرجى ، لذلك ، من أنصار سكليروس ، ومن قادته فى جيش أنطاكية ، وهذا هو السر فى أن الطواشى باسيل لم يأمن جانبه . فحرص على أن يقطع الصلة بينه وبين سكليروس ، فعينه دوقا على أنطاكية ، التى تقع أيضاً على طرف الحدود الأسيوية ، ورفعه إلى رتبة ماجسطرس Magistros . وتعتبر دوقية أنطاكية ، القيادة الحربية الثانية على الأطراف الجنوبية ، إذ أن دوق أنطاكية يعتبر نائب الإمبراطور ، وهو بذلك كان مسئولا عن كل المواضع والحصون الواقعة على الأطراف السورية ، فضلا عن الحاميات المرابطة بهذا الإقليم الشاسع ، الذى يعتبر من نقط الحراسة الأمامية بالإمبراطورية . ومن واجباته أيضاً الإشراف على العمليات الحربية ضد المسلمين فى هذه الجهات ، وتمثيل الإمبراطور فيما يجرى من مفاوضات مع كل الأمراء المسلمين بالإقليم ، ومع الخلفاء الفاطميين فى مصر . وكان الطواشى باسيل يرمى من وراء ذلك إلى أن يجعله ينصرف إلى القيام بهذه الحروب ، كما كان يرمى أيضاً إلى أن يشغل سكليروس فى القتال ضد الخليفة ببغداد .
(Schlumberger : L'Epopée, I. p. 352.)

للقوات البيزنطية فى آسيا ، والتى كان يتولاها سكلبروس ، فإنه جعلها لأحد القادة المشهورين أيضاً ، وهو الاصطراطوبدرخ البطريق بطرس فوكاس الذى اشترك فى الاستيلاء على أنطاكية سنة ٩٦٩ ، وكان أيضاً من الطواشية ، ومن المقربين عند عمه الإمبراطور نقفور فوكاس ، وأضحى موضع ثقة الطواشى باسيل(١) .

وفى هذه اللحظة ظهر بارداس سكلبروس فى القسطنطينية ، كيما يحصل على تقليد بوظيفته الجديدة ؛ على أنه تحدث دون شك إلى الطواشى باسيل ، عن أسفه وخوفه لما جرى من تعيينه فى منصب ، لا يتفق مع ما بذله فى سبيل الإمبراطورية من خدمات(٢) . غير أن الطواشى باسيل أمره بأن يغادر العاصمة فوراً إلى مقر قيادته ، وكان ذلك الأمر إيذانا بالثورة التى أعلنها سكلبروس ؛ فما كاد يصل إلى الجزيرة ، حتى أثار العساكر ضد الطواشى باسيل(٣) .

وهذا الدوق الجديد لثغر الجزيرة أحبه جند آسيا الصغرى ، إذ أنه لم يختلف عن نقفور فوكاس ، وحنا زمسكيس وسائر كبار القادة البيزنطيين فى القرن العاشر الميلادى ، فيما كان له من خبرة ودراية بالتحدث إلى الجند ، مما يجعلهم يحبونه ويقبلون على طاعته . واستغل بارداس ما كان له من نفوذ وسلطان على الجند ، كيما يصل إلى الحكم . ولم يكن يرمى إلى أن يكون مغتصبا للملك ، بالمعنى المعروف من هذه العبارة ، إنما يقصد أن يكون قيما على الإمبراطورين الصغيرين ، على النحو الذى جرى عليه من قبل نقفور وزمسكيس(٤) . على أن ثورته التى استمرت أربع سنوات ، هزت كيان الإمبراطورية وأضعفتها(٥) . وبدأت الثورة ، بأن جرت المناداة ببارداس سكلبروس إمبراطوراً ، وذلك

---

(١) Schlumberger : L'Epopée. I. pp. 352—354.
Camb. Med. Hist. IV. p. 84.
(٢) Ibid : p. 84. Schlumberger : Op. Cit. P. 354.
(٣) Ibid : p. 84.
(٤) Schlumberger : Op. Cit. p. 355.
(٥) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 355.

فى صيف سنة ٩٧٦ ، فى خربوت . ولم يصادف العساكر صعوبة فى التهليل لقائدهم ، ولم يلبث بارداس سكلبرس أن حصل على قوات إضافية جديدة من أرمينيا ، ومن لدى بعض الأمراء المجاورين ، بعد الاتصال بهم والتفاوض معهم(١) . ونظراً لما للمال من أهمية فى الإكثار من عساكره ، والمضى فى ثورته ، وتحقيق رغبته ، اتخذ كل الوسائل لجمع ما يحتاجه من الأموال ، فأمر بالقبض على بعض الجباة واستولى على ما معهم من الأموال ، وألزم كبار الملاك بأن يدفعوا مقادير من المال تتفق مع ما يملكونه من الأراضى ، ومن لم يبادر إلى دفع ما تقرر عليه ، أمر بإلقائه فى السجن ، فلا يخرج منه إلا بعد أن يؤدى المطلوب منه(٢) .

يشير يحيى بن سعيد إلى أن بارداس سكلبروس استولى على ملطية . وعلى الرغم من أنها كانت فى حوزة البيزنطيين منذ أربعين سنة ، وكان بها حامية بيزنطية ، فإن ما حدث من الهجوم المفاجئ الذى شنه عليها بارداس سكلبروس ، جعلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها . واتخذها بارداس قاعدة لأعماله الحربية ، فقبض على استراتيجوس ، الذى يحكمها باسم الإمبراطور ، وأخذ منه ما وجده معه من المال ، وقدره ، على حد قول ابن سعيد ، « ستة

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 85.

تشير بعض المصادر إلى أن أول من نادى من العساكر ببارداس سكلبروس إمبراطوراً كانوا من الأرمن ، ومن الطبيعى أن يكونوا كذلك ، إذ أن نقفور فوكاس وحنا زمسكيس وبارداس سكلبروس ، ينتمون إلى العنصر الأرمنى . ولم يكن غريبا أن يكون الجند الأرمن أول من ينحاز إلى سكلبروس ، ويذكر المؤرخ يحيى بن سعيد ، أنه ما كاد سكلبروس يدعو لنفسه بالملك ، حتى اجتمع إليه خلق كثير من الأرمن والمسلمين والروم .

بل إن الأرمن فى الحرس الإمبراطورى ، اشتد إعجابهم ببارداس سكلبروس . وينبغى ألا نغفل أن زمسكيس كان أرمنى الأصل ، وأنه ظل حتى آخر أيامه فى علاقات ودية مع الأرمن ، فعقد معاهدة مع الملك الأرمنى آشوت الثالث ، وأنه اتصل به عند قتال المسلمين . يضاف إلى ذلك أنه حرض الأرمن على الانتقام لمواطنهم زمسكيس ، الذى لقى مصرعه على حد قوله ، من يد الطواشى باسيل .

(انظر : يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص ١٤٧ .

(Schlumberger : Op Cit pp. 356—358

(٢) Ibid : p. 359.

قناطير » ، وفى رواية أخرى ٤٢٠ ألف دينار [١] ، وهو مقدار ما يجرى جمعه من الجزية المقررة سنويا على هذا الجانب من نهر الفرات [٢] .

ولم تكن هذه الأحوال فحسب هى تلك التى ساعدت بارداس سكليروس على أن يعجلَ بتجهيز حملته ، بل إن سائر الناس ، وكبار ملاك الأراضى ، وأنصاره ، وهبوه كل ما يملكون . اعتماداً على ما سوف يحصلون عليه فيما بعد من الجزاء الأوفى . وللمحافظة على ما جمعه من الأموال برسم الحرب ، حرص على أن يلتمس لها حصنا منيعا ، فاختار لها مدينة خربوت ، الواقعة فى شرق نهر الفرات ، فاحتلها بعد أن جدد عمارتها ، وأصلح استحكاماتها ، وملأها بما جلبه من المؤن والأسلحة والأموال ، وأضحت القلعة الملاذ الذى يلجأ إليه عند الهزيمة . وبفضل احتمائها بنهر الفرات ، صار من اليسير الدفاع عنها . ولم يقنع سكليروس بالاطمئنان إلى هذا المأوى الأمين ، ولا بما جمعه من أموال ، بل حرص على أن يزيد عدد أنصاره ، فصار معظم جيشه مؤلفا من عناصر أسيوية . وسعى أيضاً إلى أن يلتمس حلفاء من كل الجهات ، فأبرم معاهدات صداقة مع الأمراء المسلمين المجاورين [٣] ، منهم أمير آمد ، وأبو تغلب بن ناصر الدولة ، وهو ابن شقيق سيف الدولة [٤] . وإذ حدثت فتنة سكليروس فى نفس الوقت الذى استولى فيه بنو بويه على الموصل ، فإن أبا تغلب لجأ سنة ٩٧٨ (٣٦٨ هـ) إلى حصن زياد ، الذى يقع فى أملاك سكليروس ، فاتصل به سكليروس لينهض معه بما لديه من القوات ، حتى إذا تم له النصر ، بذل له المساعدة لاسترداد إمارته فى الموصل . على أن أبا تغلب بقى فى حصن زياد ، واكتفى بأن أرسل له جانبا من عساكره ، وظل يرقب سير

---

(١) وهو عند يحيى بن سعيد « الباسليق » — انظر ابن سعيد : التاريخ ص ١٤٧ .
Schlumberger : Op. Cit. p. 358.

(٢) Ibid : p. 329.

(٣) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 360.

(٤) Ibid : p. 360.

الحوادث [١] . وانحاز إلى سكليروس أيضاً عساكر من فرسان الأرمن والكرج [٢] .

يضاف إلى ذلك ، أنه تدفق على معسكر سكليروس كل الساخطين ، والذين جرى طردهم من مناصبهم ورتبهم ، والذين قاسوا الشدة فى حياتهم ، من سكان الثغور الواقعة على أطراف الدولة ، وكل العصابات ، وقطاع الطرق ، وكل من يريد أن يصطاد فى الماء العكر ، أملاً فى أن يحصلوا من سكليروس على تشاريف وأموال وفيرة [٣] .

فلما توافرت له القوات ، شرع فى المسير فى أوائل صيف سنة ٩٧٦ ، من ثغر الجزيرة ، قاصداً القسطنطينية ، وقد اطمأن أن النصر حليفه ، فتوجه على حد قول بسيللوس ، فى كامل قوته من الفرسان والمشاة ، وظن أنه إذا بسط يده ، لصارت الإمبراطورية فى قبضته [٤] .

وما كاد يرد إلى العاصمة أخبار حركة الثورة ، حتى ساد الذعر ، واشتد الخوف ، واستبد اليأس بالناس . غير أن الأفكار لم تلبث أن تغيرت ، واتخذت وجهة أخرى ؛ إذ تفتق ذهن البراكيموميوس باسيل ، عن فكرة رائعة ، إذ بادر إلى أن يبعث إلى البطريق بطرس فوكاس ، المعروف عند المؤرخين العرب بالطربازى ، الذى تولى من قبل قيادة الحملات الموجهة ضد الشام ، والذى كان يشغل وقتئذ وظيفة قائد القوات البيزنطية فى آسيا

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٥٨ . Ibid : p. 360. Canard : I. p. 845.

ولما لم يحصل أبو تغلب على ما كان يرجوه من مساعدة ، هرب إلى آمد ، فتعرض لمهاجمة عساكر البويهيين ، فلجأ إلى دمشق . وحاول أن يحصل من الخليفة العزيز الفاطمى على تقليد بولاية دمشق غير أنه لم يحظ بذلك ، بل إن العساكر المغاربة قبضوا عليه ، ولم يلبث أن لقى مصرعه فى ٢٩ أغسطس سنة ٩٧٩ ، ودخلت الموصل فى حوزة البويهيين .
Schlumberger : I, p. 360, note 3.

(٢) Schlumberger : I. p. 362.

(٣) Ibid : p. 392.

(٤) Psellus : Chronographia, p. 13.
Schlumberger : L'Epopée, I. p. 363.

الصغرى ، وطلب إليه أن يتوجه ، فى سرعة ، إلى قيصرية فى قبادوقيا ، ويتخذها قاعدة لكل القوات البيزنطية فى آسيا الصغرى ، التى لا زالت موالية للإمبراطور ، ويحول دون زحف سكليروس ؛ كيما يتم الاستعداد للدفاع عن العاصمة . وصدرت الأوامر بأن ينحاز إلى قوات بطرس فوكاس ، الجيش البيزنطى المرابط فى أنطاكية بقيادة ميخائيل البرجى Michel Bourtzes[1] .

وحاول البراكيمومينوس باسيل أن يثنى بارداس سكليروس عن عزمه ، فوجه إليه من قبله رسولا ، وهو سيلفانوس ، مطران نيقوميديا ، ليسترضيه ، غير أن سكليروس أصر على أنه لن يعدل عن موقفه ، ما لم يستجب الإمبراطور لطلبه ، الذى يتلخص فى أن يكون قسيما لباسيل ورومانوس فى الحكم ، شأنه فى ذلك شأن حنا الشمشقيق (زمسكيس) ، ونقفور فوكاس من قبله ، والمعروف أنه من طراز هذين القائدين من ناحية الكفاية الحربية ، ولا شك أنه أراد أن يحذو حذوهما[2] .

على أن البراكيمومينوس باسيل لم يقبل ما عرضه بارداس سكليروس من مقترحات ، وأرسل إلى بطرس فوقاس الاصطرطوبدرج المعروف بالاطرابازى[3] ، ليوصد الطريق فى وجه الثائر المتمرد وشيعته ، فاحتل ما يلى قيصرية من المخاضات والدروب والمواضع التى لها أهمية حربية . وجعل بارداس سكليروس نصب عينيه الاستيلاء على قيصرية ، التى سبق أن شهدت تتويج نقفور فوكاس على يد عساكر الشرق البيزنطى . ولبلوغ هذه المدينة كان لزاماً عليه أن يتخذ الطريق الرومانى القديم ، والذى صار الطريق الرئيسى الذى تسلكه الجيوش البيزنطية ، والذى يجتاز عرقه والبستان ، إلى دروب جبل اللكام (جبال طوروس الحلفية) ، وهو يعتبر جانباً من الطريق الممتد من أفيسوس إلى نهر الفرات[4] .

---

(١) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 364,

(٢) Ibid : p. 364.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ .

(٤) Sclumberger : L'Epopée, I. p. 367.

وخرج سكليروس من ملطية قاصداً القسطنطينية ، تسبقه طلائعه المؤلفة من فرسان العرب أو الكرج ، ويتولى قيادتهم انتيس الياتس Antés Alyatés ، ووقع أول صدام بين هذه الطلائع والعساكر الإمبراطورية ، فى الدرب المعروف باسم بوقيليتوس Boukoulithos[1] ، ويتولى قيادة العساكر الإمبراطورية الماجسطرس يوستاتيوس مالينوس Eustathios Maleinos ، من أنصار أسرة فوقاس[2] ، غير أن قوات سكليروس أحرزت النصر على القوات الإمبراطورية ، وعندئذ تقدم سكليروس بجيشه ، حتى بلغ أسوار حصن ليكاندوس Lykandos ، فاقتحمه[3] . ثم التقى العسكران : عسكر سكليروس ، وعسكر الاصطرطوبدرج ، بوادى نهر جيحان بسفح ليكاندوس ، فانتصر سكليروس ، وهلك عدد كبير من القوات البيزنطية ، وولى ميخائيل البرجى الأدبار ، وجرت هذه الوقعة فى خريف سنة ٩٧٦م[4] .

ولهذه الوقعة أهمية كبيرة ، إذ ازدادت سطوة سكليروس ، وخضع له معظم إقليم الأناضول ، وانحاز إليه عساكر ثغر ليكاندوس ، وعدد كبير من الأعيان ، وكبار الملاك ، كما نهض لنصرته جماعة كبيرة من أبناء الأسرات الأرستقراطية بقبادوقيا ، والتى كانت تدين بالولاء للإمبراطور البيزنطى[5] .

---

(١) هذا الموقع يقع فى ضواحى تاناداريس Tanadaris المعروفة حاليا باسم طانير Tanir.
(Schlumberger : L'Epopée I. p. 368)

(٢) المعروف أن مالينوس (وهو المعروف فى المصادر العربية بابن الملايينى) كان يلى أمر طرسوس (قليقية) ، التى استولى عليها البيزنطيون من أيدى المسلمين وأنه تلقى الأوامر من الإمبراطور باسيل ، بأن يجتمع مع ميخائيل البرجى ، قائد أنطاكية ، والاصطرطوبدرج ، لقتال سكليروس .
(يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٧ ,.Schlumberger : L'Epopée, I. P. 368)

(٣) والمعروف أن الثغر الذى اتخذ هذا الاسم نشأ زمن الإمبراطور ليو السادس ، أو ابنه بورفيروجنيتوس ، ويتألف من بعض جهات ثغر قبادوقيا القديم .
Schlumberger : L'Epopée, I. P. 370.

(٤) يشير يحيى بن سعيد ص ١٤٧ ، إلى ما جرى من انتصار سكليروس بجيحان وإلى أن ابن الملايينى توجه إلى بيته بالقبادق ، بينما تحصن البرجى فى حصن له فى بلاد الناطليق .
Schlumberger : L'Epopée, I. pp. 370 —374.

(٥) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 374.

ومن هؤلاء ميخائيل البرجى، الذى سبقت الإشارة إليه ، إذ أعلن ولاءه لسكليروس ، بعد أن بذل له الأمان ، فجعله ماجسطرس[١] . يضاف إلى ذلك أن موانى الثغر البحرى ، كيبريوت ، وسائر أقسام هذا الثغر ، أعلنت خضوعها لسكليروس ، فعين على هذا الثغر قائداً من قبله ، اسمه ميخائيل كورتيس Michel Courtice[٢] . ولما أصبح ميخائيل البرجى من أنصار سكليروس ، حرص على أن يضم إليه إقليم أنطاكية الذى كان يتولاه من قبل[٣] .

وذاعت أخبار انتصارات سكليروس ، فساد الرعب فى القسطنطينية ، وجرد الإمبراطور باسيل لقتاله ، بطرس الاصطراطوبدرج ، المعروف بالأطرابازى ، فى عسكر ضخم ، وطلب إليه أن يجتمع بابن الملايينى ، والالتقاء بسكليروس ، فجرى القتال فى قبادوقيا (الكبادوق) ، فلقى الأطرابازى مصرعه ، وانهزم ابن الملايينى ، وقوى أمر سكليروس ، وذلك فى نهاية سنة ٩٧٧[٤] وأدرك سكليروس أن أحلامه فى الوصول إلى العرش البيزنطى ، أضحت وشيكة التحقيق ، إذ أنه لم يفلت من قبضة يده فى آسيا

---

(١) يحيى بن سعيد . التاريخ ص ١٤٧ . Ibid : p. 374.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I P. 375.

(٣) يشير يحيى بن سعيد ص ١٤٧ — ١٤٨ ، إلى أن « البرجى قد خلف ابنه الأكبر بأنطاكية ، فخلفه وكاتبه سراً ، قبل أخذ السقلادوس له ، يستدعيه إلى ماقبله ، وتقدم إليه بتسليم المدينة إلى الباسليق كليب البطريق ، فامتثل ابن البرجى ، ما رسمه له أبوه ، وسار السقلادوس بعساكره إلى بلاد الكبادوق ، وقصد ابن الملايينى ليأخذه معه ، فلم يجتمع به ابن الملايينى . وكان مع القسلادوس شيخ متنصر بطريق يسمى عبيد الله ، من أهل ملطية ، فجعله ماجسطرس ، وأنفذه إلى أنطاكية ، وأنفذ معه غلاما خادما ، بسليفاً عليها . ولما وصل إلى أنطاكية سلم إليهما المدينة كليب ، وصارت أنطاكية حينئذ والثغور ، وسائر بلاد المشرق للسقلادوس . وسير عبد الله الماجسطرس بكليب البطريق وبرؤساء المدينة إلى حضرة السقلادوس بالكبادوق .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ Schlumberger : L'Epopée I. p. 385.

الصغرى إلا بعض المواقع المنيعة القريبة من القسطنطينية[١] . على أن الأعمال الحربية توقفت ، فيما يبدو ، فى شتاء ٩٧٧—٩٧٨ ، وما كادت تظهر تباشير الربيع ، حتى دب النشاط فى معسكر سكليروس ، إذ أخذت جيوش سكليروس وأساطيله تتحرك صوب الشمال لمواصلة القتال ، بينما اتخذ الجيش طريق البر نحو القسطنطينية . وتجهز أسطوله الضخم لتهديد العاصمة ، وتولى قيادته ميخائيل كورتيس ، فشرع فى نهب الجزائر الكبيرة التى تقع تجاه الساحل ، وأخذ يدمر ويحرق كل ما صادفه فى طريقه ، واستمر فى تقدمه حتى بلغ منافذ الدردنيل ، دون أن يلقى مقاومة ، وأخذ يتحين الفرص لحصار مدينة أبيدوس المنيعة التى ترابط بها قوات بيزنطية . وفى تلك الأثناء منع سكليروس المؤن والأمداد من الوصول إلى العاصمة ، وضيق الحصار على الدردنيل ، فلم يعد فى وسع أية سفينة أن تجتاز المضايق ، فتعرضت القسطنطينية بذلك للمجاعة[٢] . أما سكليروس فواصل زحفه ، حتى صار تحت أسوار نيقية ، عاصمة ثغر الأبسيق[٣] ، فلم تلبث أن سقطت فى يده بعد أن منع عنها المؤن والأقوات[٤] . وبسقوط هذا الحصن أضحى فى يد سكليروس كل الثغور الآسيوية[٥] . على أن أسطول سكليروس تعرض فى تلك الأثناء لهزيمة بحرية ساحقة عند أبيدوس ، على يد قائد الأسطول البيزنطى

---

(١) Ibid : p. 386.

أضحى فى يد سكليروس الثغور الوسطى ، والثغور البحرية ، وصار أحد قادته واليا على أنطاكية ، كما جعل على ثغر ملطية كليب Kouliba ، الذى انحاز إليه بعد أن انهزم ، فجعله باسليقا على ملطية . ومن الواضح أن سكليروس اتبع سياسة التسامح كيما يجذب إليه كبار خصومه ، ولم يعد فى يد باسيل وأخيه سوى الثغور الأوربية ، ونيقية ، ونيقوميديا ، وأبيدوس ، وبعض المواضع الواقعة على ساحل البحر الأسود وبحر مرمرة .

(يحيى بن سعيد ص ١٤٨ . (Schlumberger : L'Epopée I. pp. 386 — 387.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I. p. 387.

(٣) Ibid : p. 389.

(٤) Ibid : p. 392.

(٥) Ibid : p. 394.

تيودوركارانتينوس Karanténos ، فتدمرت سفنه بميناء أبيدوس ، واستولى البيزنطيون على الحصن وأجروا مذبحـــة مريعة فى حاميته من أنصار سكلـ وس(١)، وبذلك تحطمت القوة البحرية عند سكليروس . على أن القتال الذى أنشبه سكليروس ، والذى طال أمده ، كان له نتائج سيئة فى البلاد التى استولى عليها ، إذ اشتدت المجاعة ، بعد أن أقفرت الأراضى ، سنة ٩٧٨ ، من الأيدى العاملة ، وازداد ارتفاع مياه نهر دجلة ، فطغى على البلاد المجاورة(٢).

على أن ما اشتهر به البراكيموموينوس باسيل من النشاط النادر ، هو الذى أنقذ الموقف ، بعد أن استبد اليأس بالبلاد ، إذ أدرك أنه لم يعد ثمة وسيلة ناجعة لعلاج الموقف ، إلا باصطناع قائد يعتبر يداً قوياً لكليروس ، ولم يكن هذا القائد سوى الثائر المتمرد بارداس فوقاس ، الذى يفوق غيره فى تدبير الحروب . والمعروف أن سائر القادة الحربيين ، زمن الإمبراطورين الأخيرين ، قد اختفوا ، إما بالوفاة أو بانحيازهم إلى سكليروس أو بوقوعهم فى أسره ، والواقع أن بارداس فوقاس هو الوحيد الذى يستطيع أن يقهر سكليروس (٣) ، فأجمعوا على اختياره ، إذ اعتبروه الملاذ الأمين ، الذى يعتصمون به من العاصفة(٤) . إذ أنه ينحدر من أسرة شريفة ، فهو ابن أخ الإمبراطور نقفور فوقاس ، واشتهر بالبسالة والشجاعة . وسبق أن أشرنا إلى أنه خرج فى آسيا الصغرى على طاعة الإمبراطور حنا زمسكيس ، وأنه لقى الهزيمة على يد سكليروس ، وأن زمسكيس أبقى على حياته ، فاكتفى بنفيه إلى جزيرة خيوس ، حيث ظل بها سبع سنوات ، إلى أن جرى استدعاؤه إلى البلاط الإمبراطورى لقتال سكليروس(٥) . فعهدوا إليه بقيادة ما زال باقيا من القوات ، وجعلوا له القيادة العليا على القوات الموجهة لقتال سكليروس(٦) .

---

(١) bid : p. 395.
(٢) Ibid : p· 396.
(٣) Schlunberger : L'Epopée. I. p. 399.
(٤) Psellus : Chronographia, p. 14.
(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ Schlumberger : L'Epopée. I. P. 399.
(٦) Psellus : op. cit. p. 14.

لم يكن لدى باسيل من وسيلة لمناهضة سكليروس سوى الالتجاء إلى بارداس فوقاس ، على الرغم من أنه لايقل خطورة عن سكليروس . ونظراً لأنه ينتمى إلى أسرة إمبراطورية ، فلن يقنع بأن يكون تابعاً ، ولذا جرى تجريده من الخلع وشارات الملك ، وأدخلوه إلى الكنيسة ، حيث أخذوا عليه المواثيق والأيمان ، بألا يرتكب الخيانة ، وألا ينقض وعوده وعهوده . وبعد أن اتخذوا من التدابير ما يحول دون تحقيق أطماعه فى المستقبل ، جعلوه قائداً على كل جيوش الإمبراطورية(١) .

وبفضل ما ناله بارداس فوقاس من ثقة البراكيموموينوس ، صارت له القيادة العليا ، وتوافر له كل ما أراد من المال ، واستطاع أن ينفذ إلى داخل آسيا الصغرى ، فانحاز إليه ما تبقى بها من الجيوش البيزنطية ، وانضم إليه ابن الملايينى ، وكذا ميخائيل البرجى الذى تخلى عن سكليروس ، إما لأنه لم يلق منه الجزاء الأوفى عن خدماته ، أو لأنه سمع بخبر بارداس فوقاس (٢) . واحتشدت كل هذه العساكر الإمبراطورية فى قيصرية عاصمة قبادوقيا(٣) ، وتلقى بارداس فوقاس المساعدة من أفراد أسرته ؛ إذ أن قيصرية كانت موطن أسرته ، فجندوا له عدداً كبيراً من الرجال ، وأضحى بارداس فوقاس مصدر خطر على سكليروس الذى يرابط بكل جيوشه على الشاطىء الأسيوى للبوسفور ، استعداداً لمهاجمة القسطنطينية(٤) . وزحف بارداس فوقاس لمهاجمة سكليروس ، فبلغ عمورية ، من أكبر مدن فريجيا وحاضرة ثغر الناطليق (الأناتوليك) . وأضحى مركز سكليروس بالغ الحرج ، إذ أنه صار يواجه خطرين ، الأول من قبل العاصمة حيث الحرس الإمبراطورى المشهور بكفايته الحربية ، والخط

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ Psellus : Chronographia. p. 14. Schlumberger : L'Epopée I. p. 400.
(٢) Schlumberger : L'Epodée, I. p. 401.
(٣) Ibid : p. 403.
(٤) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 403.

الثانى يتمثل فى القوات التى يقودها بارداس فوقاس لمهاجمته . فبادر سكليروس بالانسحاب من مواقعه على البوسفور ، فى أواخر ربيع سنة ٩٧٨ ، وجلا عن نيقية ، ثم سار إلى عمورية لمواجهة بارداس فوقاس[1] .

ويشير بسيللوس ، إلى ما أدركه الناس من أوجه التشابه بين بارداس فوقاس ، وبين عمه الإمبراطور نقفور ؛ إذ كان عابس الوجه ، شديد اليقظة ، قوى الإدراك لما سوف يقع من الأحداث ، حاضر البديهة فى تعقل الأمور وفهمها . ويضاف إلى ما اشتهر به من الدراية بالخطط الحربية ، أنه كان عليما بفنون الحصار ، ومكائد وحيل الكمائن ، وتدبير المعارك الحربية . ومن ناحية البسالة والشجاعة ، ادخر بارداس من النشاط والفتوة ما يفتقر إليه سكليروس . والواقع أن كل من يتلقى ضربة من يد بارداس ، كان فيها هلاكه ، بل إن جيوشا بأسرها لترتعد خوفا ورعبا ، متى سمعت صوته من بعيد ، وعلى الرغم من أن جيوش بارداس تقل عدداً عن جيوش سكليروس ، فإن بارداس فاق خصومه فيما اشتهر به من البسالة والدراية بفنون الحرب[2] . وجرت المعركة فى سهل بنغاليا Pankaia على نهر صغارى Sangarios[3] . على الرغم مما اشتهر به بارداس فوقاس من الشجاعة والبسالة ، والمواهب الحربية النادرة ، فقد حلت به هزيمة ساحقة وذلك فى ١٩ يونيه سنة ٩٧٨ (١٠ ذى القعدة سنة ٣٦٧ هـ)[4] .

اتخذت الجيوش الإمبراطورية ، بعد ارتدادها عن عمورية ، طريقها نحو الشرق ، حتى بلغت الموضع Basilika Therma ، ثم اتجه بارداس فوقاس نحو الشمال إلى خرسنة حاضرة الثغر المعروف بهذا الاسم ، حيث أقام

(١) Ibid : p. 404.

(٢) Psellus : Chronographia. pp. 14—15.
Schlumberger : L'Epopée, I. p. 405.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ . Schlumberger : L'Epopée, I. p, 405.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ .
Ostrogorowski : p. 265.
Camb. Med. Hist. IV. p. 86.

معسكره ، وأخذ من حين إلى آخر يعمل على أن يجذب إليه جماعة من أنصار سكليروس ، فانحاز إليه كثيرون من ذوى المكانة ، فأنعم عليهم بارداس فوقاس ، باسم الإمبراطورين التشاريف والألقاب ، وبذل لهم أموالا وفيرة . يضاف إلى ذلك أنه حرص على أن يزداد جنده تعلقاً به ، فعمل على ترقيتهم فى السلك العسكرى ، وبذل لهم الإنعامات ، وأثار فيهم الحماس لأسرته[1] غير أن سكليروس اقتفى أثره إلى خرسنة ، وأقام معسكره أيضاً عند Basilika Therma (المعروفة الآن باسم حمام ترزيلى Terzili Hammam) ، ودارت معركة عنيفة بين الخصمين ، أحرز فيها سكليروس انتصاراً باهراً ، غير أن اليأس لم يتسرب إلى بارداس فوقاس ، إذ تقهقر نحو الشرق ، وأقام معسكره ، فيما يبدو فى سيواس . ثم هرع يلتمس المساعدة من حليف ظل على ولائه وإخلاصه للإمبراطورين البيزنطيين ، ولم يكن هذا الحليف سوى قربلاط ايبريا ، التى تقع شمال أرمينيا الكبرى ، وتؤلف شطراً كبيراً من جورجيا الحالية[2] . وإذ اجتمع لبارداس فوقاس فى ربيع سنة ٩٧٩ ، هذا الجيش الضخم توجه نحو الغرب ، وأنزل الخراب والدمار بالبلاد الخاضعة لسلطان سكليروس ، حتى بلغ سهل بنغاليا فى شرق عمورية ، وهو الموضع الذى سبق أن تعرض فيه للهزيمة على يد سكليروس . وما لجأ إليه بارداس فوقاس من المحاولات لالتماس حلفاء جدد لقتال سكليروس ، لم تغب عن ذهن

(١) Schlumberger : L'Epopée, I. p. 408.
Ostrogorowski : p. 265.

(٢) Schlumberger : L'Eoopée, I. p. 409.
Camb Med Hist. IV. b. 86.
هذا الحاكم الذى اشتهر أيضاً باسم أرخون الأيبريين ، احتفظ بلقب قربلاط الذى أنعم به الإمبراطور البيزنطى على أمراء أسرة داود ، فظلوا يتوارثونه . وهذا الأمير ارتبط منذ زمن بعيد بصداقة متينة مع بارداس فوقاس ، ترجع إلى أيام عمه نقفور حينما كان استراتيجوسا على ثغر خالديا الملاصق لايبريا . واشتهر أمير ايبريا أيضاً بما توافر لديه من قوة حربية كبيرة من الفرسان والرجالة ، فاستقبل بارداس فوقاس أحسن استقبال ووعد بمساعدته ، فأمده بنحو ١٢ ألف من الكرج ، بقيادة تورنيكيوس Tornikios.
(Schlumbérger : I. p. 420)

سكليروس ؛ إذ أرسل من جانبه يطلب المساعدة من أمير حلب ، ومن أبى تغلب ، أمير آمد ، ومن عضد الدولة ، أمير الأمراء بدار الخلافة فى بغداد ، زمن الخليفة الطائع[١] . ووقعت المعركة الفاصلة فى ٢٤ مارس سنة ٩٧٩ (٢١ شعبان سنة ٣٦٨) ، فالتحم الجيشان ، واشتدت الحرب بين الفريقين ، غير أن العساكر الإمبراطورية استبد بها التعب ، وحل بها الإرهاق ، وأوشكت قوتها على الانهيار . وعندئذ اندفع برداس فوقاس صوب سكليروس ، فاشتبك معه فى المبارزة ، وأدرك الفريقان أن مصير الحرب قد تحدد فى هذه اللحظة ، وفى تلك البقعة . والواقع أنه لم يكن ثمة ما هو أهم من هذا الحادث فى ترجيح كفة الجيش الإمبراطورى ، إذ صار مركز سكليروس شديد الحرج ؛ فلم يكن فى وسعه أن يصمد لبرداس فوقاس فى القتال . يضاف إلى ذلك أنه بلغ به الخجل أنه لا يستطيع أن يطلب من الإمبراطور البيزنطى الصفح والعفو ، وفى تلك الأثناء رأى أنه من الخير أن ينتقل بكل عساكره من الأملاك البيزنطية إلى البلاد الإسلامية[٣] .

---

(١) يشير ابن سعيد أن سكليروس طلب إلى أبى تغلب بأن يلحق به ليجتمعا على حرب خصومه ، وإذا انهزموا واستظهر عليهم عاد فنصره . فلم يطمئن أبو تغلب إلى ذلك ، واكتفى بأن أرسل إليه طائفة عن عسكره على سبيل النجدة ، وأقام بحصن زياد ينتظر ما يترتب من النتائج على هذا النضال . وما أرسله عضو الدولة من عسكر لمساعدة سكليروس ، لم يبلغوه إلا بعد هزيمته فعادوا أدراجهم إلى بغداد دون أن يشتركوا فى القتال .

وفى تلك الأثناء استطاع الإمبراطور باسيل أن يستميل عبيد الله المتنصر ، الذى ولاه سكليروس حكم أنطاكية ، وذلك بفضل جهود أجابيوس الذى رشحه الإمبراطور لبطريركية أنطاكية ، ووافق السكان على اختياره ، ونجح عبد الله على إنزال الهزيمة بالقائد إسحاق فراهميوس **Isaac Vrachamios** ، الذى ورد فى المصادر العربية باسم ابن بهرام ، والذى بعث به سكليروس لاسترداد المدينة ، فضلا عن القضاء على الفتنة الى نشبت بين الأرمن فى أنطاكية . وبذلك دخلت أنطاكية فى طاعة باسيل .

انظر التفاصيل فى : يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ — ١٥٨ .
مسكويه : تجارب الأمم ، ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

(٢) **Schlumberger : L'Epopée, I. pp. 412—415, 421—423.**
Psellus : Chronograbhis, pp. 14—15.
Schlumberger : L'Epopée, I. pp. 423—324,

وبذلك انتهت الثورة العنيفة ، التى ظلت متأججة أربع سنوات متتالية ، خربت أثناءها ثغور آسيا ، وتعطلت أحوال الإمبراطورية ، وتوقفت كل الأعمال ، وكادت تعصف بحكم الأسرة المقدونية . وتنفس الصعداء الإمبراطوران الصغيران ، والبراكيمومينوس ، ورجال البلاط ، وغمر العاصمة موجة من الحماس ، فعاد برداس فوقاس إلى القسطنطينية قرير العين ، واحتفل الإمبراطور رسمياً بما أحرزه من الانتصار ، وصار برداس فوقاس يعتبر من أصدقاء الإمبراطور المقربين ، فأقره فى وظيفة دمستق الشرق ، فصارت له القيادة العليا على جيوش الإمبراطورية[١] .

على أن فتنة برداس سكليروس ، التى استمرت أربع سنوات (٩٧٦ — ٩٨٠) ، أدت إلى خراب ودمار ثغور آسيا الصغرى ، فضلا عن إثارة الفوضى والاضطراب بهذه الأقاليم[٢] .

---

(١) **Psellus : op. cit. p. 12. Schlnmperger : L'Epopée, I. p. 436.**

(٢) **Schlumberger : op. cit. p. 439.**

لجأ سكليروس أول الأمر إلى مدينة ميافارقين ، التى تعتبر قاعدة إمارة حليفه أبى تغلب الحمدانى ، والذى أقام وقتذاك فى حصن زياد ، يتطلع إلى المساعدة من قبل سكليروس . فلما خاب أمله ، بادر بالعودة إلى البلاد الإسلامية ، فتحصن بقلعة آمد . غير أن عضد الدولة أنقذ قائده أبا الوفا ، فاستولى على ميافارقين ، فأدرك أبو تغلب أن جيش أبى الوفا سائر إليه ، وأنه لا يثبت مع الحصار ، فهرب إلى الرحبة على نهر الفرات ، فسقطت آمد فى يد أبى الوفا ، وبذلك خضع له ديار بكر بأسرها ، وما يتبعها من الحصون التى تؤلف جانباً من ممتلكات الحمدانيين . ثم توجه أبو تغلب إلى الشام لاجئاً للفاطميين ، وذلك سنة ٣٦٨ ، غير أنه لم يلبث أن لقى مصرعه ، بعد أن أثار الفتن فى بلاد الشام .

أما سكليروس ، فإنه ، بعد هزيمته ، أخذ معه أخاه قنسطنطين وولده رومانوس ، وسار إلى آمد ، التى لجأ إليها حليفه أبو تغلب ، غير أنه ما كاد يصل إلى أسوار هذه المدينة ، حتى اكتشف أن العساكر البويهية استولت على المدينة وما يتبعها من الحصون ، بعد فرار أبى تغلب منها . فأنفذ أخاه قنسطنطين إلى عضد الدولة ، يلتمس منه النجدة والمعونة ، وبذل له الطاعة والولاء . ولما علم الإمبراطور باسيل بما دار من المفاوضات بين سكليروس وعضد الدولة ، جزع لذلك ، ورأى فى تحالفهما خطرا على الإمبراطورية ، فحرص أشد الحرص على ألا يتم التحالف بينهما ، فأرسل إلى عضد الدولة كاتبا يسمى نقفور ويعرف بالأواريون **Ouranos** ، والذى صار أخيرا ماجسطرس وولى أنطاكية ، وفوض إليه أن يتحدث باسمه ، وطلب إليه أن يفسد على سكليروس ما شرع فيه مع عضدالدولة . وجعل له مالا وفيراً يستعين به على قصده ، =

السياسة الكنسية :

على الرغم من أن المصادر البيزنطية والعربية أسهبت فى وصف فتنة بارداس سكليروس ، فى السنوات الأربع الأولى من عهد باسيل الثانى وقنسطنطين التاسع ، فإنها لم تورد إلا إشارات قليلة عن الفترة التالية لهذه الفتنة ، والتى تمتد من سنة ٩٨٠ إلى سنة ٩٨٦ ، وهى الفترة التى استغرقتها الحملة الكبيرة الأولى التى توجهت لقتال البلغار . فما حدث فى أثناء هذه الفترة ، التى تبلغ نحو ست سنوات ، فى عاصمة بيزنطة ، وفى الثغور البيزنطية بأوربا وآسيا ، وما جرى للإمبراطورين ، ووزيرهما باسيل ، وما وقع من الأحداث فى هذه الفترة ، لم نعلم عنه إلا النذر اليسير (١) .

= ورسم له بأن يرغب عضد الدولة ، بما يبذله له ، ويعده بإخراج كل أسير فى بلاد الروم ، وأن يتلطف بإحضار سكليروس إليه ، ولو بابتياعه وابتياع من معه من الروم ، ويضمن له أنه يؤمنهم ، ولا يسىء إلى أحد منهم .

ونظرا لأن عضد الدولة هو الذى كان يتحكم فى كل الأمور ببغداد ، انتهج من السياسة ما يكفل له الإفادة من الجانبين (الإمبراطور وسكليروس) ؛ إذ أن سفارة أواريون حينما تراءى لها أنها نجحت فى مهمتها ، أوعز ضد الدولة إلى صاحبه المقيم بميافارقين سرا ، بأن يقبض على سكليروس ، ويحمله إلى بغداد ، وحمل معه ولده رومانوس وسائر أصحابه ، وكان عددهم نحو ثلثمائة نفس . ولما صل سكليروس إلى بغداد ، أنزله عضد الدولة دارا ، ووسع عليه الجراية ؛ ثم اعتقله واحتاط عليه ، ووعد بإطلاقه ، وأنه سوف يجرد عسكرا معه . وأرسل عضد الدولة إلى باسيل الملك ، صاحبا له يعرف بابن سهرا فى أمر سكليروس ، وأشار للإمبراطور باسيل ، بأن سكليروس وعد أن يرد إلى المسلمين ما افتتحه الأباطرة البيزنطيون من الحصون فى قليقية وسوريا والفرات ، التى انتزعوها من المسلمين ، وذلك فى مقابل مايبذله له الخليفة من المساعدة . فطلب من الإمبراطور أن يسلم فوراً هذه المواضع وما يجاورها من الأراضى ، مقابل تسليم سكليروس . فلم يحفل باسيل بطلبه ، فأمر عضد الدولة باعتقال نقفور أواريون رسول باسيل ، واستولى على جميع ما كان معه من المال والمتاع . ومات عضد الدولة ، وبقى جماعتهم معتقلين ببغداد مدة ثمانى سنين ، ثم جرى الإفراج عنهم فى زمن صمصام الدولة بن بويه .

يحى بن سعيد : التاريخ ، ص ١٥٨ — ١٦٠ .

مسكويه : تجارب الأمم ؛ ج ٢ ، ٣٩٠ — ٣٩٢ ؛ ج ٣ ص ١٤ — ١٥ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ .

أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ .

Schlumberger : L'Epopée I. p.436—443.

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 446.

ومن أهم الأحداث التى وقعت فى هذه الفترة ، اعتزال البطريرك أنطون الاستوديونى سنة ٩٨٠ ، وتخليه عن منصبه والواقع أننا لانعرف تماماً السر فى اعتزاله للبطريركية ، كما أنه لم يتوافر لدينا ما يفسر الحقيقة التى تشير إلى أن خليفته على البطريركية نيقولا كريسوبرجز Chrysoberges ، لم يتم انتخابه إلا سنة ٩٨٤ . ومع ذلك يصح أن نلتمس سبباً لذلك ، فى ثورة بارداس سكليروس (١) .

فالمعروف أن بارداس سكليروس ، صهر زمسكيس ، والذى اختاره ، وهو على فراش الموت ، ليخلفه على حكم الإمبراطورية ، حظى ترشيحه بالتأييد من قبل رجال الدين ، مثلما لقى بارداس فوقاس التأييد من الجيش ، فما حدث سنة ٩٨٠ من هزيمة سكليروس ، إنما اقتضى أن يتخلى عن منصبه البطريرك أنطون لما عرف عنـــه هو ورجال الدين من الحماس لنصرة سكليروس ، ولم يلبث أن توفى أنطون سنة ٩٨٠ . أما نيقولا كريسوبرجز الذى خلفه على كرسى البطريركية سنة ٩٨٤ ، وظل يباشر وظيفته حتى سنة ٩٨٦ ، فكل ما نعرفه عنه ، أنه حدث فى عهد بطريركيته أن تم تنصير فلاديمير قيصر روسيا ، هو وقومه (٢) .

ومن الأساقفة الذين ارتبطت شهرتهم بفتنة بارداس سكليروس ، أجابيوس أسقف حلب . ذلك أن بطريرك أنطاكية ، تيودوركولونيا ، توفى بطرسوس فى ٢٨ مايو سنة ٩٧٦ ، أثناء مسيره بالبحر إلى القسطنطينية ، واستولى سكليروس على أنطاكية ، وحرصت الحكومة البيزنطية على استرداد أنطاكية ، لما لها من أهمية كبيرة . وكان أجابيوس أسقفاً لحلب ، فأشار بأنه لو تولى بطريركية أنطاكية ، فإنه يعد بردها إلى بيزنطة . فتقرر تعيينه بطريركاً لأنطاكية ، واستطاع أجابيوس أن يستميل حاكم أنطاكية الذى يليها من

(١) Camb. Med. Hist. IV. pp. 88—89.

(٢) Schlumberger : L' Epopée I. pp. 446—449.

Camb. Med. Hist. IV. p. 89.

قبل بارداس سكليروس ، وبذا عادت المدينة إلى سابق ولائها لبيزنطة(١) .

ويرجع إلى هذه الفترة من عهد باسيل الثانى ، القانون الذى أصدره فى ٤ أبريل سنة ٩٨٨ ، والذى يتعلق بالأمور الكنسية ، والذى يلغى ما أصدره الإمبراطور نقفور فوقاس من التشريعات التى تناهض رجال الدين . والراجح أن باسيل أصدر هذا القانون للتدليل على تقواه ، وليتجنب سخط الله ، بأن يرد للرهبان حقهم فى إقامة وحيازة أديرة جديدة . على أن لهذا المرسوم أهمية سياسية أيضاً ؛ إذ أن حرصه على أن يصدر هذا القانون ، فى الوقت الذى تجهز فيه لمهاجمة بارداس فوقاس فى أبيدوس ، إنما أراد بذلك أن يعيد لأذهان رجال الدين ما سبق أن اتخذه الإمبراطور نقفورفوقاس من إجراءات ضدهم ، وأن يقنعهم ، أن الإمبراطورالشرعى (باسيل) لم يهدف إلى أن ينتهج السياسة الدينية الذى اتخذها القيم عليه (نقفور) . ولذا لم يكن غريباً أن انبعثت من جديد الحياة الديرية فى الوقت الذى سادت فيه الحروب الأهلية ، وشاع البؤس فى كل مكان . فما كادت تبلغ أنباء الحرب الأهلية ، أديرة جبل آتوس ، حتى نهض قائدا باسيل الثانى ، اللذان كانا ينزلان بالدير ، وهما حنا وتورنيكيوس Tornicius ، فاشتركا فى معركة بنغاليا سنة ٩٧٩ . وشيد تورنيكيوس دير ايفيرون Iviron ، بما حصل عليه من الغنائم ولم يلبث الدير أن ازداد ثروة بفضل الإمبراطور باسيل الثانى(٢) . وكثر تشييد الأديرة بجبل آتوس ، وأسهم فى ذلك الكرج ، والرومان (أهل روما) ، والأمالفيون ، فأربى عدد الرهبان عند وفاة القديس أثناسيوس (سنة ١٠٠٠) ، على ثلاثة

(١) على أن هذه الأوضاع فى أنطاكية استمرت حتى نشبت فتنة بارداس فوقاس ، الذى استطاع أن يستولى على أنطاكية ، فأمر بنفى أجابيوس سنة ٩٨٠ . وفى أواخر سنة ٩٨٩ أو أوائل سنة ٩٩٠ ، تقرر حبسه فى أحد الاديرة ، حيث تنازل رسميا عن منصب البطريركية ، مقابل الحصول على راتب ضخم ، ثم مات اجابيوس سنة ٩٩٧ .

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٨ — ١٥٠ . Camb. Med. Hist. IV. P. 86.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 90.

آلاف راهب ، بجبل آتوس(١) . وتقرر وضع نظام لإدارة هذه الأديرة ، يقضى بأن يتولى هذه الإدارة مجلس من رؤساء الأديرة ، يختارون مقدماً لهم ، فأضحى جبل آتوس زمن الأسرة المقدونية ، مركزاً ثقافياً هاماً لا فى الإمبراطورية البيزنطية فحسب ، بل للعالم أجمع(٢) .

علاقة بيزنطة بإيطاليا :

منذ أن مات حنا زمسكيس فى ١٠ يناير سنة ٩٧٦ ، لم يتحسن الموقف فى إيطاليا البيزنطية . فعلى الرغم من امتداد أجل الهدنة المعقودة بين بيزنطة والألمان ، وبدا الإمبراطور أوتو الثانى كأنه تخلى ، فى الوقت الراهن على الأقل ، عن دعاوى أسرته فى الأقاليم الجنوبية بشبه جزيرة إيطاليا ، فإن الهدوء والسلام ، لم يستتبا على شواطئ أبوليا وكالابريا . بل حدث عكس ذلك ، إذ ساءت أحوال هذين الثغرين لتعرضهما لغارات المسلمين المستمرة . فالإمبراطورية البيزنطية ، التى وقعت فريسة لحرب أهلية مريعة بسبب أطماع بارداس سكليروس ، لم تستطع أن توجه حملة حربية كبيرة ، لمواجهة سلطان الفاطميين ، الذى أخذ يزداد قوة فى البحر المتوسط . ولما لم ينعقد الصلح بين البيزنطيين والفاطميين ، فإن المسلمين بصقلية والمغرب ، أفادوا من اضطراب الأمور بالقسطنطينية ، بأن دأبوا كل سنة على أن يوجهوا حملاتهم لنهب السواحل الإيطالية(٣) .

وسبق الإشارة إلى ما اتخذه الإمبراطور نقفور فوكاس من تدابير للمحافظة على الثغرين البيزنطيين فى جنوب إيطاليا ، بأن عهد بإدارتهما إلى الماجسطرس نقفور ، وجعل له مطلق التصرف فى إدارتهما ، والراجح أن الوضع استمر

(١) Vasiliev : op. cit p. 337.
Schlumberger : L'Epopée I. pp. 430—434.

(٢) Vasiliev : op. cit. p. 337.
Schlumberger : L'Epopée I. pp. 455—456.

(٣) Gay : L'Italie Meridionale, pp. 324—325.

على هذا النحو حتى بداية عهد باسيل وقنسطنطين[١] . ومن الدليل على ذلك أن نقفور حاكم كالابريا من قبل الإمبراطورين ، أصدر أمراً يلزم المدن الإيطالية ببناء وتجهيز شلنديات (سفن حربية) ، لحماية شواطئ الثغور البيزنطية فى إيطاليا ، ولمهاجمة سواحل صقلية الإسلامية ، فكأن الحرب بين المسلمين والبيزنطيين قد نشبت فى تلك الجهات[٢] .

لم يستجب الناس ، لاسيما فى كالابريا ، لأمر قتال المسلمين ، إذ أدركوا ما سوف تجلبه عليهم الحرب من عواقب وخيمة ، بل إن أهل روسانو Rossano فى كالابريا ، عمدوا إلى إشعال الحرائق فيما يجرى بناؤه من السفن الحربية بمينائهم ، وذبحوا القادة الموكلين بها ، وأعلنوا تمردهم وعصيانهم لأوامر نقفور[٣] . غير أن مواطنهم الراهب « نيل » توسط بينهم وبين نقفور ، على أن يدفعوا غرامة كبيرة ، مقابل سوء سلوكهم ، وما أنزلوه بالأسطول من خسائر[٤] .

وعلى الرغم من فتنة روسانو ، فإن ما قام به نقفور من استعدادات حربية أفاد منها فى مستهل عهد الإمبراطورين الصغيرين (باسيل وقنسطنطين) ، فى أوائل سنة ٩٧٦ ؛ إذ حدث فى تلك السنة أن توجهت حملة لمهاجمة شواطئ صقلية ، للانتقام لما أجراه المسلمون من النهب والتخريب فى الممتلكات الإيطالية ، ولوقف ما دأبوا عليه من الهجوم والاعتداء . واشترك فى هذه الحملة البحرية ، البيازنة ، على أنهم مأجورون ، يتناولون أجرهم من

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. pp. 456—457.

(٢) Ibid : P. 427. Gay : op. cit. p. 346.

(٣) Ibid : P. 427, Gay : op. cit. p. 346.

(٤) Ibid. : p. 458.

الواقع أن ثغر كالابريا لم يعتبر من الثغور البحرية شأن ثغرى ساموس وكيبريوت ، اللذين يلتزمان بإعداد أسطول بحرى ، بينما لم يكن لكالابريا إلا سفن قليلة العدد ، تطوف بشواطئها ، فإذا نشبت الحرب ، اعتمدت على الأسطول الإمبراطورى أو أساطيل الثغور الشرقية .

انظر : Gay : L'Italie Méridionale, P. 346.

الإمبراطورين[١] . وانقض الأسطول المسيحى على مسينا فاستولى عليها ، غير أن الأمير أبا القاسم ما كاد يسمع بهذا الهجوم ، حتى نهض بكل جيش صقلية لاستخلاص مسينا ، فتم له ذلك فى مايو سنة ٩٧٦ رمضان (٣٦٥هـ)[٢] . وطارد الأمير أبو القاسم البيزنطيين أثناء اجتيازهم مضيق مسينا ، ثم ألقى الحصار على كوسنزا (كسنته) Cosenza ، ولم يعد الهدوء والسلام إلى أهل كوسنزا إلا بعد أن بذلوا أموالا للمسلمين ، فضلا عن قيامهم بضيافة العساكر الإسلامية[٣] .

على أن الأمير أبا العباس أنفذ أخاه فى أسطول لنهب أبوليا (بربوله) ، وطلب إليه أن يوجه عساكره إلى مهاجمة الممتلكات المسيحية فى داخل شبه الجزيرة ، ثم يقدم عليه لمساعدته فى قتال أهل كالابريا (قلورية) ، وترتب على هذه الحملات أن أحرز الأمير وأخوه النصر الباهر ، فعادا إلى صقلية بعد أن حصلا على غنائم وفيرة ، وأسرى كثيرين[٤] . وتشير المصادر إلى أن أبا القاسم قام بحملتين فى سنة ٩٧٨ ، وسنة ٩٨١ لمهاجمة الأراضى الإيطالية[٥] .

وحدث فى سنة ٩٨٠ ، أن جيش الإمبراطور الألمانى أوتو الثانى ، أخذ يظهر من جديد على السفوح الجنوبية لجبال الألب ، والواقع أن الجيش الإمبراطورى قدم إلى جنوب إيطاليا فى الوقت المناسب فما دأب عليه الأمير أبو القاسم من الغزو المستمر ، أثار الاضطراب الشديد فى جنوب إيطاليا .

---

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٩٠ — ٤٩١ .

Schlumberger : L'Epopée I. P. 459.

(٣) Ibid : P. 459. Gay : Italie Meridiona le. P. 325,

(٤) Schlumberger : L' Epopée I.pp. 460-461.

يشير أبو الفدا إلى أنه حدث فى أواخر سنة ٣٦٥ وأول سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦) ، أن سار للغزو أمير صقلية أبو القاسم بن الحسن بن على ، ففتح مسينا ، ثم عدى إلى كسنته ، ففتحها ، وفتح قلعة حلوى ، وبث سراياه فى نواحى قلورية ، وغنم وسبى ، وفتح غيرها من تلك البلاد . (أبو الفدا : المختصر ج ٢ ، ص ٢٥٤) .

(٥) Schlumberger : L'Epopée I. 492.

المعروف أن الإمبراطور أوتو الثانى كان بكالابريا سنة ٩٨١ .

ونظراً لانصراف الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك للقضاء على فتنة بارداس سكليروس ، ولما تعرضت له من متاعب شديدة من قبل البلغار ، لم يكن بوسع الإمبراطورية البيزنطية أن تقاوم هجمات أمير صقلية على شواطئ شبه جزيرة إيطاليا . ولذا حدث فى سنة ٩٨٠ ، أن تطلع السكان إلى الإمبراطور الألمانى الشاب (أوتو الثانى) كيما ينهض بعساكره . لمهاجمة المسلمين وطردهم من صقلية[1] .

أدرك أوتو الثانى ، أنه لن يمتنع المسلمون من تهديد إيطاليا باستمرار ، طالما لم يطردهم من جزيرة صقلية ، التى صار يخرج منها فى الربيع فى كل سنة ، الأساطيل الإسلامية ، فتجتاز المضيق بين الجزيرة وإيطاليا ، ثم تنزل بكالابريا العساكر الإسلامية . ونظراً لأن صهريه الإمبراطورين الصغيرين ، باسيل وقنسطنطين لم يستطيعا المحافظة على أملاكهما فى إيطاليا ، صار لزاماً على أوتو الثانى أن يضم هذه الأقاليم النائية إلى ممتلكاته ، وبذلك يحفظها للمسيحية[2] .

على أن نوايا أوتو الثانى لم تكن خافية على الدولة البيزنطية ، فأنفذت إليه رسلا من قبلها ، غير أنهم لم يصادفوا نجاحاً كبيرا فى رسالتهم ، فازداد سخط الناس فى القسطنطينية على أهل الغرب ، وصار البيزنطيون يؤثرون أن تقع الثغور الإيطالية فى أيدى المسلمين ، على أن يتركوها تهوى هى وشبه الجزيرة الإيطالية وصقلية فى أيدى إمبراطور الغرب . وبدلا من أن يتنازل البيزنطيون للإمبراطور أوتو الثانى عن الأقاليم التى يعجزون عن حمايتها من غارات المسلمين من أفريقيا ، ازداد التقارب بين البيزنطيين والمسلمين بأفريقية ، حتى انعقد بينهم تحالف رسمى[3] .

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. P. 498
Camb. Med. Hist. IV. P. 149.

(٢) Schlumberger : L'Epopée I. P. 498.
Camb. Med. Hist. IV. P. 149.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. P. 499.

كان أوتو الثانى فى روما فى صيف سنة ٩٨١ ، وتوجه فى أغسطس إلى شواطئ بحيرة شيلانو Celano ، حيث عكف على إعداد حملة ضخمة لقتال المسلمين . وحينما كان بروما ، علم أن أبا القاسم وعساكره لم يكفوا عن مهاجمة قرى أبوليا . والراجح أنه حدث وقتذاك أن استقبل الإمبراطور الألمانى ، فى رافنا ، المبعوثين الذين سبق أن أنفذهم إلى البلاط البيزنطى ، غير أن هذه السفارة لم تحرز شيئا من النجاح فى بيزنطة[1] .

وما جلبه الإمبراطور أوتو الثانى فى السنة السابقة من القوات ، من جبال الألب ، اشتهرت بالشدة والإقدام برغم قلة عددها — وتألفت فى معظمها من السكسون ، وانحاز إلى قواته الألمانية ، عساكر إيطالية ، لا سيما تلك المستمدة من الثغور اللومباردية . على أن الحظ لم يلبث أن تخلى عن أوتو الثانى ، وذلك بوفاة أخلص التابعين له ، باندولف ، أمير كابوا وبنيفنتو وسالرنو ؛ وهو من أقوى شخصيات الحزب الألمانى فى جنوب إيطاليا[2] ؛ إذ مات وهم فى أشد الحاجة إليه ، فى مارس سنة ٩٨١ . والواقع أن وفاته تعتبر خسارة بالغة للإمبراطور أوتو ، نظراً لما كان لباندولف من نفوذ قوى فى تلك الأقاليم . وخلفه على حكم كابوا وبنيفنتو ابنه لاندولف الرابع Landolf IV ، الذى خلفه أيضا فى إقطاعاته فى كامرين Camerine وسبوليتو[3] . ولما كانت حكومة اللومبارديين تعتمد أساساً على ما لمؤسسها من شخصية قوية ، فإنها لم تلبث أن انشقت على نفسها ، عند وفاة باندولف المبكرة[4] . ومع ذلك فإن الإمارات اللومباردية ظلت على ما كانت عليه ، تخضع لنفوذ الإمبراطورية الغربية ، وأسهم أبناء باندولف بكل جهودهم فيما أعده الإمبراطور أوتو الثانى من حملة ضخمة[5] .

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 500.

(٢) Ibid. : P. 500.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 501.

(٤) Ibid : p. 501.

(٥) Ibid : p. 502.

وبذا اجتمع فى الطرف البعيد من الأراضى الإيطالية ، جيوش أقوى ثلاث دول فى القرن العاشر ، وهى الإمبراطورية الغربية ، والإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الجنوب ، وهى تمثل الألمان واليونانيين والعرب[١] . فالجيش الإمبراطورى الذى نفذ فى سبتمبر إلى Lucœria ، أخذ يتجهز لغزو الأراضى البيزنطية ، كما ينجز ما بدأه أوتو الأول من أعمال . وتوغل الجيش فى سالرنو ، وأوشك أن يستولى على كابوتشيو Capacio ، غير أنه لم يلبث أن قفل راجعا ، لما اندلع من الاضطرابات والقلاقل فى مدينتى بنيفنتو وسالرنو ، بتحريض البيزنطيين ، لينصرف أوتو عن المضى فى مغامراته التى اعتبروها مصدر خطر عليهم[٢] ذلك أن باندولف الثالث ابن لاندولف الثالث ، استطاع أن يقصى عن الحكم فى مدينة بنيفنتو ،حكومة لاندولف الرابع ، وأقر أوتو الأمر الواقع. أما سالرنو ، فقد غزاها دوق أمالفى المعروف باسم مانسو ، وتقرر الإعتراف بسيادة الدولة البيزنطية فيها . والواضح أن المؤامرات والفتن البيزنطية استمرت حتى قدوم الجيش الإمبراطورى أو قبيل ذلك . ولما لم يكن فى وسع البيزنطيين أن يقاتلوا الألمان وجها لوجه فى إيطاليا ، اتخذوا كل وسيلة لعرقلتهم ومناوأتهم[٣] .

حرص أوتو الثانى على أن يخضع سالرنو ، لما أدركه من سيطرتها على الطريق الذى تسلكه قواته عند ارتدادها من الجنوب ، فتوجه بقواته لمهاجمتها ، ولم يلبث أميرها أن اعترف بسيادته ، وأخضع أوتو أيضا نابولى وأمالفى . ثم توغل الجيش الألمانى فى الأملاك البيزنطية حتى بلغ أسوار مدينة بارى ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ، ولم تلبث بارى ، عاصمة الممتلكات البيزنطية أن سقطت فى سنة ٩٨٢ ، بعد حصار لم يستمر طويلا[٤] . وما تعرضت له الأملاك

(١) Ibid : p. 502. Gay : L'Italie Meridionale. P. 331.

(٢) Ibid : p 502.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 502.
Gay : L'Italie Meridionale. p. 332.

(٤) Schlumberger : L'Epopée. I. p. 504.
Camb. Med. Hist. IV. p. 149.

البيزنطية بإيطاليا ، والأملاك الإسلامية فى صقلية ، من الخطر الألمانى ، حمل بعض المؤرخين على الإشارة إلى قيام تحالف بين البيزنطيين والمسلمين (الفاطميين) بالقاهرة[١] .

على أن الإمبراطور الألمانى أحب ، قبل أن يخوض المعركة مع قوات أمير صقلية ، أن يؤمن المواضع البيزنطية الحصينة التى سوف يجعلها قاعدة للأعمال الحربية ضد المسلمين ، ويتخذها أماكن يلوذ بها إذا ألحقت به الهزيمة . فبعد أن استولى على بارى ، زحف على تارنتو التى تعتبر من أمنع مدن البيزنطيين فى إيطاليا ، وذلك فى مارس سنة ٩٨٢[٢] . وجرت المعركة الحاسمة فى ١٣ يوليه ٩٨٢ عند ستيلو Stilo بين القوات الجرمانية والقوات الإسلامية . ولم يحدث منذ وقعة توربواتييه ، أن التقى الألمان بالمسلمين فى قتال ، إلا فى هذه المعركة ، واشتد الحماس الدينى عند كلا الجيشين ، وحاز الألمان النصر أول الأمر ، ولقى أبو القاسم مصرعه[٣] على أن المسلمين استماتوا وقاتلوا الألمان ، وعزموا على الانتقام لمصرع قائدهم ، ووقعت المعركة الثانية قرب رأس كولون Colonne ، ووقع الاضطراب بين صفوف الألمان بإيطاليا ، وحدثت مذبحة مريعة ، فى هذا الموضع الذى يقع بين الجبال اللافحة الحرارة وبين البحر . ولقى عدد كبير من المحاربين الألمان مصرعهم بسيوف المسلمين ، من إفريقية أو صقلية . كما أن عددا كبيرا من اللومبارديين الذين انحازوا إلى الألمان ، لم يكن مصيرهم خيرا من مصير الألمان . ومن لم يلق مصرعه من العدو ، وقع فى أسر

(١) تشير المصادر العربية ، إلى أن أبا القاسم أمير صقلية ، حينما سمع بخبر قدوم ملك الفرنج ، أعلن الجهاد ضده . والراجح أن قائد ثغر كالابريا البيزنطى استعان فى قتال الألمان ، بجماعات من العساكر الإسلامية . غير أنه لم تشترك الجيوش الإسلامية والبيزنطية بأسرها معا فى قتال الفرنج فى معركة من المعارك .

Schlumberger : L'Epopée I. p. 506. Gay : Op. Cit. pp. 335—336.

(٢) Ibid : p. 506. Camb. Med. Hist. IV. p. 149.

(٣) Ibid : p. 511. Camb. Med. Hist. IV. p. 149.
ابن خلدون : كتاب العبر ج ٤ ، ص ٢١٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٠ .

المسلمين ، فجرى بيعه فى أسواق بلرم والمهدية والقاهرة[1] . ولم يفلت الإمبراطور أوتو من الموت إلا بمعجزة ؛ فعلى الرغم من تطويق المسلمين لموضع المعركة ، استطاع أن يفلت من أيديهم دون أن يفطنوا له ، وأن يركب سفينة حربية (شلندية)، وتوجه إلى روما[2]. ومات أوتو الثانى فى ديسمبر سنة ٩٨٣ ، وجرت مواراته فى كنيسة القديس بطرس بروما[3] ، ولم تتحقق أحلامه فى طرد العرب من صقلية ، ولم يثأر لما حل به من الهزيمة الساحقة[4] . أما الدولة البيزنطية فإنها أفادت من انتصار المسلمين فى ستيلو ، ومن وفاة أوتو الثانى ، فى إعادة سلطانها لمدة طويلة على راقنا وعلى روما ، وفى التدخل فى اختيار البابوات[5] .

الحرب ضد المسلمين بالشام :

لم تتفق روايات المؤرخين المحدثين ، عن الوقائع التى جرت بالشام ، فى الفترة الواقعة بين سنتى ٩٦٩ ، ٩٧٧ (٣٥٨ — ٣٦٦ هـ) . وسبق الإشارة إلى ما وقع من تلك الأحداث منذ سنة ٩٦٩ ، حتى وفاة الإمبراطور حنا زمسكيس فى يناير سنة ٩٧٦ ، وإلى أن سلطة الخليفة العباسى فى تلك الجهات أخذت تتضاءل ، بينما امتد إليها نفوذ الخلفاء الفاطميين ، الذين أقاموا ملكهم بمصر ، واتخذوا القاهرة عاصمة لهم . ثم جرت الإشارة إلى حروب زمسكيس فى بلاد الشام ، وإلى أنه بلغ أبواب بيت المقدس ، ولم يلبث زمسكيس أن قضى نحبه سنة ٩٧٦ ، فى نفس السنة التى مات فيها المعز لدين الله الفاطمى .

وفى تلك الأثناء وقع بالشام حادث بالغ الأهمية ، ذلك أن سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى ، استطاع أن يعود إلى إمارة أبيه بحلب ، بعد أن ظل زمنا طويلا ينتقل من مدينة إلى أخرى ، منذ طرده من حلب .

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 514.

(٢) Ibid : pp. 517—518. Gay : Op. Cit. p. 340.

(٣) Ibid : p. 529. Gay : Op. Cit. p. 341.

(٤) Ibid : p. 530.

(٥) Ibid : P. 530. Gay : Op. Cit. p. 342.

وتفصيل ذلك ، أن الأمر بحلب صار فى أيدى قرغويه وبكجور ، فأحب بكجور أن ينفرد بالحكم دون مولاه ، فألقى القبض على قرغويه سنة ٩٧٥ (٣٦٤ هـ) ، واستولى على حلب ، واستقر بها[1] . والمعروف أن قرغويه وبكجور ، اعترفا بالسيادة البيزنطية على حلب ، بعد طرد سعد الدولة الحمدانى منها ، فلجأ إلى حمص . وظل يتحين الفرص ، ويتخذ من الوسائل ما يكفل له استرداد ملكه[2] .

وبفضل ما بذله سعد الدولة من الإقطاعات بحمص لبدو بنى كلاب ، واضطراب الأمور بحلب عقب النزاع بين قرغويه وبكجور ، وحرص أهل حلب على مساندة سعد الدولة ، وانصراف الدولة البيزنطية عن تأييد قرغويه نظرا لما ساد من الفتن الداخلية فى بيزنطة ، بعد وفاة زمسكيس سنة ٩٧٦ ، استطاع سعد الدولة أن يسترد حلب وقلعتها سنة ٩٧٧ بعد حصار استمر زمنا طويلا[3] . واستقرت له الأمور بحلب حتى سنة ٩٨١ ، لما اشتهر به من المهارة فى تجنب خطر كل من البيزنطيين والفاطميين . إذ أن سعد الدولة اعترف سنة ٩٧٧ بسيادة الفاطميين ، لالتماس رضى الخليفة العزيز الفاطمى من جهة ، ولكسب تأييد الحزب الشيعى القوى بحلب من جهة أخرى . وجدد الحلبيون عمارة المسجد الجامع بحلب ، وزادوا فى عمارة الأسوار التى تعرضت للتدمير بسبب ما توالى عليها من الحصارات[4] . وعلى الرغم من أن سعد الدولة اعترف سنة ٩٧٧ ، بسيادة الفاطميين ، فإن ذلك لم يمنعه ، فى الوقت ذاته ، من إظهار الولاء لعضد الدولة بن بويه ، والخليفة العباسى الطائع لله ، فوصلته الخلع منهما ،

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٧٠

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٥٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٧٢ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧ .

Canard : Op. Cit. I. p. 849.

Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 541—542.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٧٢ .

Schlumberger : Op. Cit. I. p. 542.

وأقيمت لها أيضا الدعوة بحلب[(١)] وحاول سعد الدولة أن يتخلص من التبعية البيزنطية ، فاغتنم فرصة ما وقع من اضطراب فى بيزنطة عقب وفاة زمسكيس ، وحداثة سن الإمبراطورين الصغيرين ، باسيل وقنسطنطين ، فامتنع عن دفع الجزية التى التزم الحلبيون بدفعها لبيزنطة وفقا للمعاهدة المبرمة فى ٩٦٩ (٣٥٩ هـ) ، وذلك لأنه رأى أنه لا يلتزم بمعاهدة لم يوقعها ، فضلا عن تعارضها مع مصلحته[(٢)] .

غير أن المتاعب لم تلبث أن أحاطت من جديد بسعد الدولة ، إذ أنكرت بيزنطة ما لجأ إليه سعد الدولة ، من الامتناع عن دفع الجزية المقررة على حلب . والراجح أيضا أن سعد الدولة أظهر العطف على الثائر سكليروس ، فازداد سخط الحكومة البيزنطية[(٣)] .

أما الخليفة الفاطمى العزيز ، الذى أصبحت له السيطرة على جنوب الشام ووسطه ، والذى أوشك أن يستخلص دمشق ، بعد أن حلت الهزيمة سنة ٩٧٧ بألفتكين الذى يليها من قبل الخليفة العباسى ، فإنه ساءه ، فيما يبدو انتظام العلاقات بين سعد الدولة والخلافة العباسية ، وتطلع إلى الاستيلاء على إمارة حلب[(٤)] . والواقع أن كلا من البيزنطيين والفاطميين ، أخذوا يتحينون الفرص للتدخل فى أمور حلب[(٥)] .

وأول ما تعرضت له حلب من صدمة ، إنما جاءت من قبل البيزنطيين ؛ إذ أن الدمستق (القائد العام) ، بارداس فوكاس ، الذى طرد سكليروس من آسيا الصغرى ، فأعاد إليها الهدوء والسكينة ، حرص على توطيد سلطة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٥٧ .

(٢) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 544.
Canard : Op. Cit. I. p. 849.
ولعل ذلك هو السر فى قدوم بارداس فوكاس إلى حلب لمهاجمتها ، فى سنة ٩٨١ (٣٧١هـ)

(٣) Schlumberger : Op. Cit. I. P. 544.

(٤) Ibid : p. 544.

(٥) Ibid : p. 544.

بيزنطة فى الأطراف الجنوبية . فقدم فى جيش كثيف إلى حلب ، فى نوفمبر سنة ٩٨١ (٣٧١ هـ) ، لإلزام أمير حلب بالمضى فى دفع الجزية التى سبق تقريرها على حلب . ولم يستمر القتال طويلا بين البيزنطيين والحلبيين ، إنما دارت المفاوضات بين سعد الدولة ، وبين بارداس فوكاس . وقبل أمير حلب أن يؤدى إلى البيزنطيين كل سنة ، أربعمائة ألف درهم فضة (أى عشرين ألف دينار)[(١)] . على أن بارداس فوكاس عاد لمهاجمة حلب فى سنتى ٩٨٣ ، ٩٨٥ ، للاطمئنان على أن سعد الدولة لا زال موالياً لبيزنطة ، لا سيما بعد أن حشد الفاطميون قواتهم بدمشق لاستخلاص حلب ، وبعد أن امتنع سعد الدولة عن دفع الجزية ، وأرسل قوة هاجمت دير سمعان الحلبى ، على الحدود بين حلب وأنطاكية ، فلقى جماعة من الرهبان مصرعهم ، ووقع فى الأسر كثير من الرهبان ، وكذا التجار الذين لجأوا إليه . يضاف إلى ذلك ما حدث من مسير القوات المحتشدة فى دمشق لمهاجمة ما بيد البيزنطيين من المدن الساحلية ، والاستيلاء على حصن بالينياس (المعروف حالياً باسم بانياس على البحر المتوسط)[(٢)] . ولم يستطع سعد الدولة أن يصمد طويلا فى القتال ، فطلب من بارداس فوكاس الأمان له ولرعاياه ، وتقرر سنة ٩٨٦ (٣٧٦ هـ) عقد هدنة بين الجانبين . واستقر الحال بينهما على أن يحمل الحلبيون إلى الإمبراطور باسيل فى كل سنة ، ما هو مقرر عليهم من المال ، وقدره عشرون ألف دينار ، وأن يؤدوا ما تأخر عليهم من الأموال التى التزموا بها من قبل . والملحوظ أن هذه المعاهدة تم توقيعها فى نفس السنة التى نشبت فيها الحرب الباغارية[(٣)] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .
يحيى بن سعيد : التاريخ . ص ١٦١ .
المعروف أن حلب التزمت زمن قرغويه وبكجور بأن تؤدى لبيزنطة فى كل سنة ٣٥ ألف دينار ، فكأن الجزية نقصت إلى ما يقرب من النصف (أنظر Schlumberger : Op. Cit. I. p. 546.)

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٤ — ١٦٥ .
ابن العدم . زبدة الحلب ج ١ ص ١٧٧ .
Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 552—553.

(٣) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 571.
Canard : Op. Cit. I. p. 855.

وتوجه دوق (أنطاكية) ليو ميليسينوس لاسترداد حصن بلنياس من يد الفاطميين سنة ٩٨٥ ، غير أنه أعلن عصيانه ، وارتحل بعساكره عن بلنياس فاشتد غضب الإمبراطور[١] .

وما حدث من إقصاء البركيموس باسيل عن الحكم سنة ٩٨٦ ، دفع الإمبراطور إلى أن يترفق فى معاملة الذين اشتركوا معه فى التآمر ضده . فطلب إلى ميلسينوس العودة إلى حصار بانياس واستردادها . فأذعن ميلسينوس لأمر الإمبراطور ، وألقى الحصار على المدينة ، ودمر أحد أبراجها ، فالتمس من كان فيها من المغاربة (العساكر الفاطمية) الأمان ، وانصرفوا إلى دمشق . ثم جدد ميلسينوس ما تخرب وعمر الأسوار ، وأنزل بالمدينة حامية بيزنطية ، ثم عاد إلى أنطاكية . أما بارداس فوكاس ، فتقرر عزله من وظيفة الدمستق ، والاكتفاء بجعله واليا على أنطاكية[٢] .

---

(١) يشير يحيى بن سعيد إلى أن قدوم بارداس فوكاس إلى حلب ، ومسير ليو ميلسينوس لاسترداد المدن الساحلية ، لاسيما بانياس ، يطابق فى الزمن عزل البركيموس باسيل (٩٨٦ م) ، وربط هذا المؤرخ بين تصرف دوق أنطاكية وبين عزل باسيل . ونستخلص من رواية ابن سعيد ، أن مؤامرة دبرها ضد الإمبراطور ، كل من البركيموس باسيل ، الذى ضاق ذرعا بأعمال الإمبراطور باسيل ، وحرصه على الانفراد بإدارة شئون الدولة ، وكبار القادة العسكريين ، أمثال بارداس فوكاس وليو ميلسينوس ، اللذين خشيا أن يجردهما الإمبراطور من سلطانهما . ومن العوامل التى دعت المتآمرين إلى التعجيل بتحقيق خططهم ، ما حدث من الاستيلاء على دير سمعان ، واستيلاء الفاطميين على بعض المدن الساحلية . وتم الاتفاق على أن ينحاز ميلسينوس بقواته ، بعد ارتداده عن بانياس ، إلى قوات بارداس فوكاس ، أثناء عودتها من حلب إلى أنطاكية ، ثم المسير سويا لمهاجمة القسطنطينية . غير أن المؤامرة انكشف أمرها فى القسطنطينية ، وذهب ضحيتها البركيموس باسيل ، ولم يجتمع عساكر بارداس فوكاس مع قوات ميلسينوس أنظر (يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٥

(Schlumberger : Op. Cit. pp. 568 — 570.

(٢) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 572.

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٥ .

الواقع أن حداثة الإمبراطور باسيل المقدونى ، وجهله بتسيير أمور الدولة ، جعله يقبل وصاية البركيموس باسيل ، لما اشتهر به من الخبرة والدراية بإدارة البلاد ، ولما تربطه بالإمبراطور من صلات القرابة . غير أن نزوع الامبراطور للانفراد بالحكم ، وميله للسلطان ، وإمعان البركيموس فى إقصائه عن مباشرة أمور الدولة ، كل ذلك ولد عند الإمبراطور شعوراً بالكراهية =

وحدث فى نفس السنة ، ٩٨٦ (٣٧٦ هـ) ، أن اعترف سعد الدولة مرة أخرى بسيادة الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة بحلب ووصلته خلع العزيز فلبسها[١] . ولعل هذا التقارب بين الأمير الحمدانى سعد الدولة ، وبين الخليفة الفاطمى ، إنما حدث بعد أن حلت الهزيمة الساحقة بالجيوش البيزنطية فى البلقان ، على يد البلغار سنة ٩٨٦ ، وتردد صداها فى سائر أنحاء الشرق[٢] .

بارداس سكليروس :

لم يكن عزل البركيموس باسيل عن منصب الوزارة ، آخر ما صادف باسيل الثانى من سوء الحظ إذ لم يكد الإمبراطور باسيل يتخلص من سيطرة البركيموس وجبروته ، حتى تحتم عليه أن يواجه أخطارا جديدة . ففى خريف سنة ٩٨٦ ، عاد الإمبراطور إلى القسطنطينية ، بعد أن حاقت به هزيمة ساحقة ، على يد البلغار فى ١٧ أغسطس ، بسبب فتور حماس قادته وتراخيهم[٣] . ويشير المؤرخون إلى أن من أسباب ثورة القادة العسكريين على الإمبراطور البيزنطى ، أن بارداس فوقاس ، دمستق الشرق الذى قهر سكليروس ، لم يلبث أن اشتدت ثائرته هو وأصحابه على الإمبراطور ، لأنه لم يلتمس منهم النصيحة حين قرر مهاجمة البلغار ، ولم يلجأ إلى مساعدتهم عند إعداد الحملة وتجهيزها[٤] . وبلغ

= المريرة للرجل الذى دان له بتربيته السياسية ، بل بالعرش ذاته . فأمر الامبراطور بإلقاء القبض عليه ، ونفيه إلى دير على شاطئ البوسفور ، ومصادرة أمواله وأملاكه .

ومن الدليل على اشتداد حنق الامبراطور على البركيموس ، أنه أخذ يفحص كل ما أصدره البركيموس من قرارات فما وجده منها سليما وصالحا أبقى عليه ، بينما ألغى سائر القوانين التى انطوت على المحاباة وإيثار بعض المقربين بالوظائف . (انظر

Psellus : Op. Cit. pp. 19—20.
Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 573—575
Ostrogorowski : p. 266.

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٢) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 572,

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 87.

(٤) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 674.

التوتر فى بيزنطة أقصاه فى الشتاء سنة ٩٨٦ — ٩٨٧ ، بعد أن ترددت الأنباء عن ثورة بارداس فوكاس وقادة الجيش فى آسيا . وازداد الموقف سوءا ، بما ورد من أخبار هروب بارداس سكليروس وصحبه من حبس الخليفة العباسى ، بعد أن سمع بما حل بالإمبراطور البيزنطى ، من كارثة فى بلاد البلغار ، فظهر من جديد فى الأراضى البيزنطية ، وأعلن نفسه امبراطورا ، وذلك فى مستهل سنة ٩٨٧[١] .

لم يكد سكليروس يعلم بهزيمة الإمبراطور البيزنطى ، حتى راسل أمير الأمراء فى بغداد ، صمصام الدولة ، فسأله إطلاق سراحه ، والتمس منه أن يمده بالمال والرجال ، لمواصلة القتال ضد الإمبراطور باسيل ، مقابل الوفاء بما كان شرطه لوالده عضد الدولة ، وكاد الاتفاق يتم بينهما ، لو لم يجر بالقسطنطينية من الفتن ما حال دون ذلك[٢] .

وتم الاتفاق بين صمصام الدولة وسكليروس ، على أنه إذا نجح سكليروس فى حملته ضد البيزنطيين ، أطلق الأسرى المسلمين الذين بأيدى البيزنطيين ، وأن يسلم إليه سبعة حصون بيزنطية ، بما يتبعها من الأراضى وألا يشن هو ولا أحد من أصحابه ، الحرب على البلاد الإسلامية[٣] . وفى ديسمبر سنة ٩٨٦ (شعبان سنة ٣٧٦ هـ) ، أبرم صمصام الدولة معاهدة تحالف مع سكليروس ، فأطلق سراحه وأفرج عن أخيه قنسطنطين ، وعن ابنه رومانوس ، وعن سائر أصحابه وكانوا زهاء ثلثمائة رجل ، بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالوفاء بذلك[٤] . وأطلق لهم دوابا وسلاحا ، مما كان أخذه منهم ، وأمدهم بما

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 87.
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 674.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٦ .
Ibid : pp. 674. 675,

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣٠ — ٣١ .
أبو شجاع ، ذيل كتاب تجارب الأمم ص ١١٢ .
Ibid : p. 676.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٦ .
Schlumberger : Op, Cit. I. P. 676.

يحتاجون له من المال[١] . وبناء على أوامر صمصام الدولة ، تولى رؤساء بنى عقيل وبنى نمير ، الذين يضبطون الطريق الذى يجتاز الجزيرة ، اصطحاب سكليروس ومن معه ، فسلكوا بهم الصحارى التى تفصل بغداد عن نهر الفرات وعن الأطراف المسيحية ، وحرص سكليروس أن يجعل أمره سرا مكتوما ، فاستحث مرافقيه على الإسراع فى السير ، حتى بلغ ملطية الواقعة على الحدود ، وذلك فى مستهل مارس سنة ٩٨٧ (شوال سنة ٣٧٦ هـ)[٢] .

وكان يلى ملطية وقتذاك من قبل الإمبراطور البيزنطى ، كليب البطريق المعروف بالنصرانى ، الذى جعله زمسكيس من قبل بطريقا على أنطاكية ، لأنه سلّم له حصن برزويه ، الذى كان يليه من قبل سيده ياركوتاج الحمدانى[٣] .

أصدر سكليروس سنة ٩٨٧ ، الأمر بإلقاء القبض على كليب النصرانى ، ومصادرة كل ما عنده من المال والخيل والكسوة ، والاستيلاء على معدات الحامية العسكرية فى ملطية . ثم دعا سكليروس لنفسه بالملك ، مثلما فعل منذ سبع سنوات ، واستأنف من جديد النضال والقتال . وتفاقم أمره ، فاجتمع إليه من العرب العقيليين والنميريين الواردين معه عدد كبير ، فضلا عن كثير من الأرمن ، والمغامرين ، وقطاع الطرق بجبال طوروس[٥] .

واستنجد سكليروس بالأمراء المسلمين المجاورين ، ومنهم باذ الكردى ، أمير آمد (ديار بكر) ، الذى عقد معه معاهدة تحالف ، وبمقتضاها أنفذ إليه أخاه أبا على فى عسكر قوى[٦] . على أن خبر إطلاق سكليروس من بغداد ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣٠ .
Ibid : p. 676.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٧ .
والمعروف أن سكليروس بدأ ثورته فى ملطية ضد باسيل وأخيه ، ولما حلت به الهزيمة لجأ إلى البلاد الإسلامية (Schlumberger : Op. Cit. I, P. 678)

(٣) ابو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢٩ .

(٤) يحى بن سعيد : التاريج ص ١٦٧ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 679.

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٦ .

إنما نقله إلى القسطنطينية نقفور أورانوس ، الذى سبق أن بعث به الإمبراطور باسيل إلى عضد الدولة فى بغداد للتحدث إليه فى أمر تسليم سكليروس[1] . فلما وصل سكليروس إلى ملطية ، ساد الاضطراب والذعر فى العاصمة البيزنطية ، وفى سائر أنحاء الإمبراطورية ، لما اشتهر به سكليروس من الصلابة وشدة البأس ، وقوة الجنان ، والصبر على المضى فى القتال[2] . وأول ما ترتب على ذلك من نتائج ، شيوع الاضطراب والقلق ، وازدياد ميل القادة العسكريين بآسيا ، والساخطين على الإمبراطور ، إلى الثورة والتمرد[3] . وبلغ من شدة الخوف بالقسطنطينية ، أن تحتم على الإمبراطور باسيل أن يعيد بارداس فوكاس ، دمستقا على الشرق ، فى أبريل سنة ٩٨٧ (ذى القعدة سنة ٣٧٦هـ) ، وسير إليه الجيوش ، وطلب إليه أن يمضى إلى قتال سكليروس ، وأن يطرده من البلاد البيزنطية . وحرص الإمبراطور على أن يستوثق من إخلاص بارداس فوكاس ، لأنه سبق أن اشترك فى المؤامرة التى دبرها فى السنة السابقة البراكيموس باسيل ، فأرسل إليه من استحلفه بجميع الآثار المقدسة ، وأخذ عليه العهود والمواثيق بمناصحته وموالاته ، والمحافظة على طاعته[4] . والواقع أن ما اتخذه الإمبراطور البيزنطى من التدبير والاحتياط ، لم يكن إلا من قبيل الأمور الشكلية ؛ إذ أن بارداس فوكاس لم يلبث أن خرج على طاعة الإمبراطور ، فكتب إلى سكليروس ، يطلب منه أن ينفذ إليه أخاه قنسطنطين ، وهو زوج أخت بارداس فوكاس ، فبعث به إليه[5] .

ولاشك أن ما أصاب الإمبراطور البيزنطى من هزيمة فى بلاد البلغار ، شجع الأرستقراطية البيزنطية على الثورة . فتجهز سكليروس لغزو آسيا

---

(١) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 679.
ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٥١٧ .

(٢) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 679.

(٣) Ibid : p. 683.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٧ . Ibid : p. 683.

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٧ .

البيزنطية ؛ ولازال يدعى لنفسه الملك . ولم يكن بارداس فوكاس بأقل طموحاً من سكليروس ، ولم ينس ما نزل به الإمبراطور فى السنوات القليلة الماضية من الإذلال والمهانة ، بأن عزله عن دمستقية الشرق ، الذى يتولى صاحبها القيادة العامة للجيوش البيزنطية فى الشرق. يضاف إلى ذلك أن بارداس فوكاس اتخذ مثله الأعلى عمه الأكبر ، الإمبراطور نقفور فوكاس .على أنه لم يعلن نفسه إمبراطوراً فى ١٥ أغسطس سنة ٩٨٧ ، إلا بعد أن انعقد فى خرسنة[1] مجلس حضره كبار قادة الجيش ، وكبار أفراد الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضى بآسيا الصغرى ، فأعلنوا تأييدهم المطلق لبارداس فوكاس ، نظراً لما اشتهر به الإمبراطور باسيل من الحرص على فرض إرادته على القادة العسكريين ، ومناوأة أطماع الطبقة الأرستقراطية[2] . وبذا صار يتنازع الحكم إمبراطوران فى آسيا ، بارداس سكليروس وبارداس فوكاس ، وإمبراطوران بالقسطنطينية . وخشى سكليروس وبارداس فوكاس ، أنهما إذا تشاحنا على الملك ، أفاد من ذلك الإمبراطوران بالقسطنطينية ، فحاولا أن يصلا إلى اتفاق ضد العدو المشترك ، كيما يجوزا ملكه ، فيقتسمانه بينهما[3] .

وسبق الإشارة إلى أن بارداس فوكاس هو الذى بدأ بالاتصال بسكليروس . والراجح أن ذلك جرى بعد المناداة به فى خرسنة إمبراطورا ،

---

(١) Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 684—685.
المعروف أن خرسنة تعتبر من أمنع المدن فى قبادوقيا ، ويرابط بها جيش من جيوش الثغور ، وتنتمى أسرة فوكاس إلى قبادوقيا . وشغل كثير من أهل هذا الإقليم وظائف هامة بالإدارة البيزنطية ، وسلكوا سبيل الجيش . ونظراً لأن هذا الإقليم يتاخم البلاد الإسلامية ، صارت له أهمية حربية كبيرة ، وأضحى لأسرة فوكاس مكانة عظيمة . ولذا انحاز إلى بارداس فوكاس شطر كبير من جيش الأناضول ، وكل الأسرات القوية بآسيا الصغرى ، واستطاع أن يحشد جيشاً من الكرج الذين يعتبرون خيرة جيوش الإمبراطورية البيزنطية .
أنظر Psellus : Op. Cit. p. 15.
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 687.

(٢) Ostrogorowski : p. 269.
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 686.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٧ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 692,

لاسيما أنه لم يفصل بين خرسنة وبين ملطية (مقر سكليروس) ، مسافة طويلة . وتم الاتفاق بينهما ، على أنه إذا أحرزا النصر ، اقتسما الإمبراطورية ، فيصير لبارداس فوكاس الشطر الأوربى ، بما فيه القسطنطينية ، بينما يحوز سكليروس الشطر الأسيوى(١) . وتقرر أن يتوجه الجيشان لمهاجمة القسطنطينية ، غير أن رومانوس بن سكليروس ساوره الشك فى نوايا بارداس فوكاس ، ولما لم يستمع أبوه لتحذيره ، بأن بارداس إنما يمكر به ، تخلى عنه وانطلق إلى القسطنطينية ، فأنهى إلى الإمبراطور باسيل بما حدث من الاتفاق بين أبيه وبين بارداس فوكاس(٢) .

وتحققت شكوك رومانوس ومخاوفه ، فبعد أن اجتمع سكليروس وبارداس فوكاس مرتين لتدبير أمورهما ، انقض رجال بارداس فوكاس على سكليروس ، فألقوا القبض عليه ، وجردوه من شارات الملك ، وحملوه إلى حصن تيروبايون Tyropaeon ، الذى يعتبر من أهم معاقل أسرة فوكاس ، وتقيم به زوجة بارداس فوكاس . وصرح بارداس فوكاس أنه سوف يطلق أسره ، متى تم له ما أراد واستولى على الملك ، فيوفى له بما اتفقا عليه ، وأنه لن يغدر به(٣) .

وقعت هذه الخيانة فى ١٤ سبتمبر سنة ٩٨٧ (جمادى الأولى سنة ٣٧٧هـ) ، أى بعد أن مضى شهر على تتويج بارداس فوكاس فى خرسنة ، وإعلانه إمبراطوراً ، فانحاز إلى بارداس فوكاس عدد كبير من أنصار سكليروس ، وتفرق كثير منهم فى سائر البلاد(٤) .

---

(١) يحيى بن سعيد التاريخ ص ١٦٧ .
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٣١ .
Ostrogorowski : p. 269.
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 692.
Ibid : pp. 693 — 694. (٢)
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ١١٤ — ١١٥ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 694.
(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 698.

توجه بارداس فوقاس بكل قواته صوب الغرب ، إلى القسطنطينية ، فدانت له كل الثغور الأسيوية ، وامتد سلطانه إلى دورليه ، وبلغت عساكره خريصوبولى Chrysopolis ، تجاه القسطنطينية ، وذلك فى مستهل سنة ٩٨٨(١) . والواقع أنه جعل جيشه قسمين ، القسم الأول وهو أكثرهما عدداً ، وأشدهما بأساً ، والمؤلف من الفرسان والرجالة ، تولى قيادته أخوه البطريق نقفور فوقاس ، والبطريق كالوسير ديلفيناس Kalocyr Delphinas ، توجه لاحتلال المرتفعات التى تشرف على خريصوبولى والساحل الأسيوى للبوسفور ، واقتصر عمل هذه القوة على إثارة الرعب والخوف فى نفوس أهل العاصمة(٢) .

أما القسم الثانى من الجيش ، فتولى قيادته ليو ميلسينوس ، وحاصر أبيدوس على الشاطئ الأسيوى للدردنيل . وتلقى ليو الأمر بأن يستولى على هذا الموضع ، مهما كلفه ذلك من تضحية ، نظراً لتحكم هذا الموضع فى المضايق ، فيؤدى الاستيلاء عليه إلى منع السفن التى تحمل المؤن ، من الوصول إلى القسطنطينية ، وبذلك تستسلم العاصمة دون إراقة الدماء(٣) .

وبينما ارتفع شأن بارداس فوقاس بما توافر له من القوة ، وبما لأسرته من مجد ، وبما لقيه من تأييد من الطبقة الأرستقراطية ، تحرج مركز الأسرة المقدونية . إذ صارت القسطنطينية مهددة بالجوع ، واستولى البلغار على جانب كبير من الثغور البيزنطية الأوربية ، وأحرزوا انتصارات باهرة على الجيوش البيزنطية . ولم يكن بالقسطنطينية من القوات ما يكفى للدفاع عنها ، وما يصح الحصول عليه من الثغور الأوربية من القوات ، اتخذت مواضعها على الحدود

Ostrogorowski : p. 269. (١)
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 698.
يحيى بن سعيد . التاريخ ص ١٦٨ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 699. (٢)
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 699.

البلغارية لحراسة المواقع الحصينة ودروب الجبال . ولم يتبق لدى الإمبراطور إلا حرسه الخاص المؤلف من قوة صغيرة ، والأسطول الراسي فى كريسوكيروس Chrysokeros[1] .

ويشير يحيى بن سعيد إلى أن الإمبراطور باسيل جزع من بارداس فوكاس « لقوة جيوشه ، واستظهاره عليه ، فنفدت أمواله »[2] ، وعندئذ أدرك أنه لن ينقذه من الدمار إلا مساعدة خارجية[3] .

وحرص باسيل على أن يلجأ إلى ما درجت عليه بيزنطة من سياسة تقليدية ، بأن يجلب من الجند المرتزقة ما يكفل له مهاجمة بارداس فوكاس فى خريصوبولى . فاستدعى إلى القسطنطينية خيرة عساكر الأمير الروسى ، فلاديمير ، ابن سفياتوسلاف . وما أرسله الروس من نجدة إلى الإمبراطور البيزنطى ، هيأ الفرصة لوقوع حدث يعتبر من أهم الأحداث التاريخية ، إذ ترتب على ذلك عقد معاهدة ، بمقتضاها اعتنق المسيحية الأمير الروسى وقومه ، فضلا عن زواج هذا الأمير ، فلاديمير ، من أخت باسيل[4] .

---

(١) Ibid : p. 701.
Ostrogorowski p. 299.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .

(٣) Ostrogorowski : p. 299.

(٤) يرجع الفضل إلى المؤرخين العرب ، أمثال ابن الأثير ، وابن تغرى بردى ، ويحيى بن سعيد فى الإشارة إلى هذه الحقيقة التاريخية . ومنهم وقفنا على العلاقة بين تنصير الأمير الروسى وقومه ، وزواجه من آن أخت باسيل ، وبين ما جرى وقتذاك تحت أسوار القسطنطينية من الأحداث الخطيرة . أما المصادر البيزنطية فاكتفت بالإشارة إلى ما أرسله الروس من مساعدة فى تلك اللحظة الحرجة . ويشير يحيى بن سعيد ، إلى أن باسيل أرسل مضطرا ، إلى ملك الروس ، وهم أعداؤه ، يلتمس منهم المعاضدة على ما هو بصدده ، فأجابه إلى ذلك . وعقد بينهما مصاهرة ، وتزوج ملك الروس أخت باسيل ، بعد أن شرط عليه أن يتنصر هو وسائر أهل بلاده ، وهى أمة عظيمة . وكان الروس يومئذ لا ينتمون إلى شريعة ، ولا يعتنقون ديانة . وأنفذ إليهم باسيل الملك ، فيما بعد ، مطارنة وأساقفة ، وعمدوا الملك وجميع من تحويه بلاده ، وسير إليه أخته (آن) ، وبنت كنائس كثيرة فى بلد الروس . ولما استقر بينهما أمر التزويج ، وردت جيوش الروس أيضاً ، وانضافت إلى عساكر الروم التى لباسيل الملك ، فتوجهت بأجمعهم للقاء بارداس فوكاس برا وبحرا ، إلى خريصوبولى .
انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣١ .

وفى ربيع سنة ٩٨٨ ، هبط إلى الأرض البيزنطية قوة عسكرية ، مؤلفة من ستة آلاف جندى من الروس ، وهى المعروفة باسم الورنك Varangia ، و Druzina ، فاستطاعت أن تنقذ الموقف فى الساعة الحرجة[1] . والراجح أن هذه القوات لم تصل إلى القسطنطينية إلا بعد ٤ أبريل سنة ٩٨٨ ، وهو التاريخ الذى أصدر فيه باسيل المرسوم المشهور الذى يتعلق بالأديرة ، والذى انطوى على عبارات ملؤها الأسى والحزن ، على ما حلّ بالبلاد من الكوارث . فلو أن هذه القوة وصلت قبل صدور المرسوم ، لم يكن ثمة ما يدعو إلى ما انطوى عليه من النغمة الحزينة الواضحة فى عباراته[2] .

والواقع أن باسيل أراد أن يسوى مشاكله الداخلية والخارجية ، كيما يتفرغ للقضاء على فتنة بارداس فوكاس . إذ بلغ الاضطراب أشده حوالى نهاية سنة ٩٨٨ (٣٧٧ هـ) ، فهيأ الخليفة الفاطمى العزيز عدة شوانى « لغزو الروم »[3] . ثم جرت الإشارة بعدئذ إلى « أن رسل الروم وصلت فى البحر إلى ساحل القدس بتقادم (هدايا) للعزيز ، ودخلوا مصر يطلبون الصلح ، فأجابهم العزيز . واشترط العزيز شروطاً شديدة التزموا بها كلها ، منها أنهم

---

(١) Ostrogorowski : p. 269.
Camb. Med. Hist. IV. p. 88.

(٢) أصدر الإمبراطور باسيل هذا الموسوم ، لإلغاء القرار الذى أصدره من قبل ، الإمبراطور نقفور فوقاس لمنع النمو المضطرد للديرية ، وتكاثر الأديرة ، لما لها من أثر سيىء على موارد الإمبراطورية ومصادرها الحربية . فما حل بالدولة البيزنطية من شقاء طوال الاثنى عشرة سنة الأولى من حكم باسيل ، أى منذ وفاة حنا زمسكيس ، يرجع إلى الحروب الداخلية ضد سكليروس وبارداس فوكاس ، والحروب ضد البلغار ، وضد المسلمين ، والعداء المستمر من قبل الروس ، وتطلع أمير صقلية والإمبراطور الألمانى ، إلى الاستيلاء على الثغور البيزنطية بإيطاليا ، وما أصاب المحصول من نقص ، مما ينذر بحدوث مجاعة . كل ذلك دفع الإمبراطور البيزنطى والسكان ، إلى أن يلتمسوا رضى الله ويتقوا غضبه ، بالتقرب إلى الكنيسة . فحرص رجال الدين ، والرهبان ، ورجال الكنيسة على أن يفيدوا من هذه الأحوال ، فى استرداد ما فقدوه من نفوذ وامتيازات فى أزمنة الرخاء .
(انظر (Schlumberger : Op. Cit. I. p. 730.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥١ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 730.

(الروم) يحلفون أنه لايبقى فى مملكتهم أسير إلا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحمل إليه من أمتعة الروم كل ما افترضه عليهم ، ثم ردهم بعقد الهدنة سبع سنين »(١) .

هذا النص يدل على ازدياد نفوذ الخليفة الفاطمى ، وعلى أن الإمبراطورية البيزنطية رفعت القيود التى فرضتها على رعاياها ؛ والتى تقضى بمنعهم من ممارسة التجارة مع مصر . ولعل الغرض الأساسى من سفارة باسيل إلى العزيز الفاطمى ، هو أن يتجنب ما يصح أن يقوم به الأسطول المصرى من هجمات ، فيزداد مركزه سوءاً وحرجاً ، أو يمنع التحالف بين بارداس فوكاس والخليفة العزيز الفاطمى . والواضح أن الإمبراطور قبل هذه الشروط كما يوجه كل قواته للقضاء على فتنة بارداس فوكاس(٢) .

وفى تلك الأثناء توجهت سفارة بيزنطية إلى الأمير الروسى تطلب منه المساعدة ، فوردت « جيوش الروس ، وانضافت إلى عساكر الروم ، التى لباسيل الملك ، فتوجهت بأجمعهم للقاء بارداس فوقاس ، براً وبحراً ، إلى خريصوبولى »(٣) .

ومن التدابير التى اتخذها باسيل للتضييق على بارداس فوكاس ، أنه سير الطارونى الماجسطرس Daronite بالبحر إلى طرابزنده (طرابيزون) ، نظراً لأن طريق البر فى آسيا الصغرى أوصدته قوات فوكاس . وكان باسيل يرمى من وراء ذلك إلى منع الاتصال بين بارداس فوكاس وبلاد الكرج الملاصقة للبحر الأسود ، والتى يستمد منها فوكاس خيرة عساكره ، وإلى إعداد هجوم على مؤخرة جيش بارداس فى آسيا ، وعندئذ تحتم عليه أن يعيد من كان معه منهم إلى بلادهم للدفاع عنها(٤) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٢) Schlumberger : Op. Cit. pp. 730-731.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .

Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 733 — 734.

ولم يلبث باسيل أن اتخذ خطة الهجوم ، بعد أن نقلت السفن البيزنطية ، فى جنح الظلام إلى الشاطئ الأسيوى ، القوات الروسية ، والجند المرتزقة ، والعساكر البيزنطية . وصحب الحملة الإمبراطور باسيل وأخوه قنسطنطين ، والراجح أيضاً أن فلاديمير تولى قيادة العساكر الروس . وتركز هجوم الروس على القوات المرابطة فى خريصوبولى ، تجاه القسطنطينية ، التى يقودها نائب بارداس فوكاس . وصارت السفن تقذف المعسكر بالنيران الإغريقية فى مارس سنة ٩٨٩ . وبفضل الهجوم الشديد براً وبحراً ، على قوات بارداس فوكاس ، حلت الهزيمة الساحقة بجيوش بارداس ، وتعرض كثير من العساكر للقتل ، ولقى فريق منهم حتفه غرقاً فى البحر(١) .

على أن بارداس فوكاس حشد من تبقى معه من العساكر ، وتوجه نحو ابيدوس ، لينحاز إلى قائده ليوميليسينوس ، وعزم على أن يستولى على هذا الموضع ، لما له من أهمية فى منع وصول المؤن إلى القسطنطينية ، فيهلك سكانها جوعاً ، بعد أن فشل فى الاستيلاء عليها عنوة ؛ ومن هذا الموضع ، ابيدوس ؛ يستطيع بارداس فوكاس ، أن يواصل القتال على الجهة المقابلة فى الثغور الأوربية ، بعد أن يحصل على المساعدة من البلغار(٢) .

أرسل باسيل أخاه قنسطنطين بقوة من العساكر للدفاع عن أبيدوس ، ومنعها من السقوط فى أيدى عساكر بارداس فوكاس ، ثم قدم باسيل بمعظم الجيش ، يسانده الأسطول الذى ظل على ولائه ، وحامية أبيدوس . وأقام باسيل معسكره فى سهل أبيدوس ، تجاه معسكر بارداس فوكاس . وصار كل من الخصمين يغتنم الفرص لمهاجمة خصمه ، حتى إذا حانت ليلة السبت ١٣ أبريل سنة ٩٨٩ (محرم سنة ٣٧٩) ، استطاع فريق من عساكر باسيل أن يشعلوا النيران فى سفن بارداس فوكاس ، وتلى ذلك اشتداد الهجوم على

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ .

Ibid : p 735.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٩ .

Schlumberger : Op. Cit. I. p. 736.

معسكر بارداس ، الذى لم يكن يتوقع هذا الهجوم المفاجىء ، فهلك عدد كبير من عساكر بارداس فوكاس ، ووقع منهم أسرى عديدون ، ولاذ كثير بالهرب فى أنحاء البلاد[1] .

وعندئذ اندفع بارداس بأقصى سرعته نحو الإمبراطور ، وقد شهر سيفه كأنما أراد أن يقتل الإمبراطور . فامتطى باسيل فرسه وتقدم عساكره وقبض بيمناه على سيفه ، بينما جعل فى يده اليسرى أيقونة (صورة) العذراء ، التى اعتبرها خير ملاذ ضد عدوان فوكاس . على أن بارداس فوكاس لم يلبث أن سقط عن فرسه أثناء ركضه لمهاجمة باسيل ، وعندئذ انقض عليه قنسطنطين فأجهز عليه . وبذلك هوى فوكاس الذى لم تصبه الجراح ، ولم يؤخذ حياً ، وكان ذلك ، على حد قول المؤرخ البيزنطى بسيللوس ، منظراً أليماً ، فما كادت عساكره تشهد ما حدث ، حتى تبدد شملها ، وارتدت على أعقابها ، وتداعت الصفوف ، وحلت بها الهزيمة الساحقة[2] .

وبذلك انتهت ثورة بارداس فوكاس ، بعد أن استمرت سنة وثمانى شهور ، ابتداء من أغسطس سنة ٩٨٧ . على أنه إذا كانت فتنة بارداس فوكاس فشلت ، فلا زال بارداس سكليروس موطن خطر شديد على الإمبراطور باسيل . ذلك أن زوجة بارداس فوكاس أطلقت سراح سكليروس بعد مصرع زوجها ، وانحاز إليه جانب كبير من عساكر بارداس فوكاس ، ونقفور بن بارداس ، ومن تفرق من عساكره[3] .

وعلى الرغم من أن سكليروس لم يضارع فوقاس فى البسالة والإقدام ، فإنه كان يفوقه فى التدبير الحربى ، بل يزيد عليه فى سعة الحيلة والمكر والدهاء . فحينما تجدد النزاع بينه وبين باسيل ، حرص على ألا يشتبك معه فى معركة فاصلة . إذ كان يرمى إلى الإكثار من العساكر ، بمن ينحاز إليه من الأمداد

(١) Ibid : p. 736.

(٢) Psellus : Op. Cit. pp. 18 — 19.
Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 738 — 742.

(٣) Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 749 — 750.

الوفيرة ، فيناوىء الإمبراطور بما يشنه من حرب العصابات ، ولا يشتبك معه فى معركة فاصلة . ولما تحتم على باسيل أن يشتبك مع أعدائه فى حرب العصابات ، اضطربت أحوال الطرق فى آسيا ، وتوقف نقل المؤن إلى القسطنطينية ، وانقطع مسير السفن التى تنقل القمح إلى العاصمة ، وأفاد سكليروس من ذلك[1].

على أن الفتنة التى بدأت فى الصيف ؛ ظلت مستمرة فى الخريف ولم يجر قمعها إلا بعد سنة ، وخلفت بالبلاد من الاضطراب ما استمر سنوات عديدة[2].

والواقع أنه بلغ من شدة ولاء الجند لقائدهم سكليروس ، أن صار كل واحد منهم يعتبر نفسه ثائراً . يضاف إلى ذلك أن سكليروس غرس فيهم ما اشتهر به من العزم والصلابة ، وجعل منهم قوة متماسكة ، وحاز ولاءهم وإخلاصهم بما بذله لهم من المنح ، وبما غمرهم به من العطاء ، فازداد تعلقهم به . وحرص سكليروس على أن يسوى ما يقع بينهم من منازعات ، وأن يشارك رجاله الطعام والشراب ، وأن يناديهم بأسمائهم ، وبذلك كسب ودهم ، وجعلهم يخضعون له عن طيب خاطر[3] .

بدأت فتنة سكليروس الثانية ؛ فى صيف سنة ٩٨٩ ، عقب مصرع بارداس فوكاس ، وانتهت قبل أن تنسلخ هذه السنة ، بما حدث من التوفيق بين سكليروس والإمبراطور باسيل[4]. والراجح أن ما أحرزته الحكومة البيزنطية من انتصار ساحق على بارداس فوكاس ، وهيها من القوة ، ما حقق لها النصر على سكليروس[5] . على أن باسيل لم ينجح فى إخضاع سكليروس ، بما لجأ إليه من استخدام الحيل ، وتدبير الخطط ، وذلك لما اشتهر به سكليروس من المهارة الحربية والمكر والدهاء ، فلم يسع باسيل إلا أن يلجأ إلى مسالمته . فأرسل

(١) Psellus : Op. Cit. p. 21.
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 750.

(٢) Ibid : p. 750.

(٣) Psellus : Op. Cit. p. 22.

(٤) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 751

(٥) Schlumberger : Op. Cit. II. p. 14

إليه سفارة تعرض عليه من الشروط ما يقضى بالتزامه الهدوء ، والامتناع عن المضى فى ثورته ، فإذا قبل ذلك ، صارت له المكانة التالية للإمبراطور مباشرة ، غير أن سكليروس لم يستجب أول الأمر لهذه المفاوضات ، ولم يعبأ بها . ثم أخذ يتدبر الأمر ، ويمعن النظر ، ويوازن بين موقفه الحاضر بموقفه السابق ، وصار يفكر فيما يخبئه له المستقبل من مفاجآت ، لا سيما بعد أن أحس بالتقدم فى العمر ، فتبين له أن هذه الشروط لا تخلو من أهمية[١] .

وحرص باسيل على أن يفرغ من هذه الأزمة ، التى أثارت القلق والاضطراب فى الإمبراطورية ، فتحدث إلى رسل سكليروس ، وطلب أن « يكف سكليروس عن سفك دماء المسيحيين وأن يعود إلى صوابه ، وأن يعترف بالإمبراطور سيداً »[٢] . وتولى الوساطة رومانوس بن سكليروس ، الذى كان بخدمة الإمبراطور البيزنطى . على أنه ينبغى أن نشير إلى حادثين لهما أهمية كبيرة فى تقدير موقف باسيل وقتذاك ؛ الأول ما وقع من الشقاق مع فلاديمير ، وما ترتب على ذلك من استيلاء الروس على خرسون التابعة للدولة البيزنطية . أما الحادث الثانى فيتمثل فى استيلاء البلغار على بربا Berrboea .
ووقع هذان الحادثان فى الفترة الواقعة بين شهرى أبريل وأكتوبر سنة ٩٨٩ ، أى حوالى يونيه أو يوليه . وهذان التاريخان يطابقان ما حدث من التطور الأخير فى ثورة سكليروس . فلا شك أن باسيل تحتم عليه أن يتخلى عن كبريائه ، إزاء الروس وسكليروس ، ليواجه عدوه اللدود ، البلغار[٣] .

أثمرت المفاوضات بين باسيل وسكليروس ، الذى قبل أن يجتمع بقسطنطين شقيق باسيل ، الذى وعده بأن يجعل الإمبراطور يصفح عنه وضمن له عن باسيل ، الإحسان التام ، فأجاب الإمبراطور هذا الملتمس ، وأعلن سكليروس تخليه . عن لقب باسيليوس الذى اتخذه لنفسه ، ووعد بأن

(١) Psellus : Op. Cit. p. 22.
Schlumberger : Op. Cit. II. p. 14.

(٢) Ibid : p. 14.

(٣) Schlumberger : Op. Cit. II. 16.

ينزع شارات الملك ، وأن يلقى أتباعه السلاح ، فمنحه الإمبراطور لقب قربلاط وخصه بالمكان التالى له . واشترط سكليروس بأن قادته وسائر أتباعه ، الذين انحازوا إليه فى الثورة ، لابد أن يحتفظوا بوضعهم الراهن ، فتبقى لهم امتيازاتهم وحقوقهم وأملاكهم[١] .

ولما تم الاتفاق على هذه الشروط ، خرج الإمبراطور باسيل من العاصمة ، وتوجه إلى إحدى ضياعه ، كيما يستقبل سكليروس ، ويصدق على المعاهدة ، فأقام له مأدبة ، وصار يتلطف معه فى الحديث ، وأعلن أنه صفح عنه ، ثم منحه خلعة القربلاط ، وجعل له حكومة ثغر الأرمنياق الشاسع ، فضلا عن جهة رعبان بالشام ، على أن يحصل سكليروس من هذه الجهات ما يخرج منها من جزية وخراج ، وأعاد إليه ما صادره من ممتلكاته . وأبقى أخا سكليروس وابنه رومانوس ، وجميع أتباعه فى وظائفهم ، وحفظ عليهم ألقابهم وتشاريفهم . أما نقفور فوقاس ، الذى انحاز إلى سكليروس بعد مصرع أبيه ، فإنه حظى أيضاً بعفو باسيل ، وبما بذله له من إقطاعات وفيرة[٢] .
غير أن موقف باسيل مع ليوفوكاس ، الأخ الأصغر لنقفور فكان مختلفاً ؛ إذ أن ليوولى أمر أنطاكية أثناء ثورة أبيه ، فلما هلك أبوه بارداس فوقاس أعلن العصيان واعتصم بأنطاكية ، وكان يأمل فى الحصول على المساعدة من القوات المصرية المحتشدة على الحدود ، أو يتحالف مع المسلمين ، غير أن آماله تبددت

(١) Ibid : p. 17.
Pselus : Op. Cit. p. 22.
يشير يحيى بن سعيد إلى أن الصلح تم بين سكليروس و باسيل فى رجب سنة ٣٧٩ (أكتوبر — نوفمبر سنة ٩٨٩) — انظر يحيى بن سعيد ؛ التاريخ ص ١٦٩ — ١٧١ .

(٢) Pselus : Op. Cit. p. 23.
Schlumberger : Op. Cit. II. pp. 20 — 22.
وحدث سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ / ٩٩١) أن تجهز الإمبراطور باسيل اغزو البلغار ، فطلب إلى سكليروس أن يصحبه معه فى غزوته . فاعتذر سكليروس عن عدم المضى فى صحبة الإمبراطور بسبب ما اعتراه من مرض شديد ، فاستجاب له الإمبراطور ، ورسم له المقام فى بيته ، ووصله « بقنطار دنانير ليتصدق به » ولم يلبث سكليروس أن مات بعد أيام قليلة ، فى ٦ مارس سنة ٩٩١ ، ولحق به أخوه قنسطنطين بعد خمسة أيام (يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٠) .

بعد فشل ثورة سكليروس ، وتعرض لمهاجمة الحزب الموالى للإمبراطور باسيل بأنطاكية ، ولمقاومة خصومه من رجال الدين ، وعلى رأسهم البطريرك أجابيوس . فلم يلبث أن أذعن آخر الأمر ، وبذلك استقر الأمر للحكومة البيزنطية فى أنطاكية وفى سائر الثغور الأسيوية . وتقرر نفى ليو فوكاس إلى دورليه (دوريليوم) وتعيين ميخائيل البرجى الماجسطرس دوقا على أنطاكية ، وذلك سنة ٩٨٩[١] .

أما أجابيوس ، بطريرك أنطاكية ، فإنه تعرض لنقمة الإمبراطور باسيل ، الذى أمر بنفيه ، فألزمه المقام بأحد الأديرة بالقسطنطينية ، بعد أن تبين للإمبراطور ما قام به البطريرك من ممالأة بارداس فوكاس ، والبراكيموس باسيل ، وميخائيل البرجى وليو مليسينوس[٢] . وأقام أجابيوس فى النفى ما يقرب من سبع سنوات ، ظل أثناءها يباشر أعمال أسقفيته ، حتى ألزمه الإمبراطور البيزنطى آخر الأمر ، سنة ٩٩٦ ، بالتنازل عن البطريركية ، وعوضه عن ذلك بأن جعل له رئاسة أحد الأديرة بالقسطنطينية ، ويحصل من أملاكه على خراج وافر[٣] .

ولما فرغ الإمبراطور باسيل من أمر ليو فوكاس وبطريرك أنطاكية أجابيوس ، رأى أن ينزل العقاب بسائر المتآمرين . وانفرد يحي بن سعيد ، دون المؤرخين الشرقيين والغربيين ، بالإشارة إلى أن باسيل حقد على داود ملك الجرزان (الكرج) ، وصاحب مدينة النىّ (Ani) أو التايخ Taikh ، وعلى ابنى بقراط الطارونى ، صاحبى الخلديات (Khaldia) وهما كريكوريكوس Krikorikos وبقراط ، لنهوضهم إلى مساعدة بارداس فوكاس ، فأرسل جيشاً

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٠ .
Schlumberger : Op. Cit. II. p. 28.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٠ .
Schlumberger : Op. Cit. I. p. 589. II. p. 29.

(٣) Schlumberger : Op. Cit, II. p. 30.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٠ .

بقيادة البطريق الجاكروس ليغزوهم فأنزل الهزيمة بولدى بقراط[١] . ولما أدرك داود ما سوف يتعرض له من خطر شديد بادر سنة ٩٩٦ إلى التماس العفو والصلح من الإمبراطور باسيل ، وبذل له الطاعة والعبودية ، وأن تجرى إضافة بلاده إلى ملك باسيل ، بعد وفاته (داود) ، إذ لم يكن له ولد يرثه[٢] . واستأذن الإمبراطور فى أن يبعث من قبله إلى القسطنطينية رؤساء دولته ، الذين سوف ينفذون وصية الملك ، فيأخذ عليهم الإمبراطور باسيل ، من الضمانات ما يكفل له تسلم ممتلكاته منهم مستقبلا ، وإضافتها إلى الإمبراطورية البيزنطية[٣] . فصادف ذلك هوى عند الإمبراطور باسيل ، لأنه لم يفكر وقتذاك فى إرسال إمداد لمواصلة القتال ، فمنح داود لقب قربلاط ، وهو اللقب الذى اتخذه عادة أمراؤه فى آسيا ، وبعث إليه ما يتعلق بهذا اللقب من الخلع[٤] :

وبالاستيلاء على التايك (Taikh) ، أخذ البيزنطيون يوطدون سلطانهم فى بلاد الأرمن ، ويدمرون كل ما قام به ملوك أسرة بقراط من أعمال ، على حين أن الطارونيين لقوا من بيزنطة العطف والرضى ، لما أظهروه من الولاء

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٠ .
لم يكن الجاكروس سوى البطريق حنا بورتيز Jan Portez ، الذى توجه لقتال تشوردفانل Tchordvanel ، ابن أخت الراهب المحارب Toring ، الذى كان من أشد أنصار بارداس فوكاس . والمعروف أن تشوردفانل انتزع طارون Daron من الماجسطرس جورج الطارونى ، الذى ظل على ولائه للدولة البيزنطية ، فاستقل تشوردفانل بالطارون وتردخان Terdchan . فأنزل حنا بورتيز الهزيمة بتشوردفانل سنة ٩٩٠ فى سهل بغاريتش Bagaritch (بيكاردج الحالية) بإقليم تردخان .
Schlumberger : Op. Cit. II. p. 33.
Grousset : Histoire de L'Armenie p, 513.

(٢) Rambaud : L'Empire Grec. p. 519.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧١ .
Schlumberger : Op Cit. II. p. 31.
Grousset : Op, Cit. p. 513.

(٤) Schlumberger : Op. Cit, II. p. 32.

والإخلاص أثناء فتنة بارداس فوكاس ، غير أن بلادهم اصطبغت نهائياً بالصبغة البيزنطية ، وتخلت عن الصفة الأرمنية[١] .

الروس :

سبق الإشارة إلى أن سفياتوسلاف أمير الروس لقى مصرعه فى ربيع سنة ٩٧٣ على يد البجناك ، فخلفه على الحكم أبناؤه الثلاثة ، ياربولك ، وأوليج ، وفلاديمير . لم يلبث الشجار أن دب بين الإخوة الثلاثة ، وانتهى هذا الشجار بتغلب فلاديمير على أخويه ، فاستقرله الحكم سنة ٩٨٠ فى كييف[٢] .

وما حل بسفياتوسلاف من الكوارث على يد البيزنطيين ، ولد مرارة شديدة عند فلاديمير وقومه . فاستحوذ على نفوسهم الرغبة فى الانتقام[٣] . على أن العلاقات لم تتوقف بين الروس والبيزنطيين ، إذ أن الورنك أخذوا يهرعون إلى بيزنطة التماساً للرزق ، بما يؤدونه من خدمة للإمبراطور البيزنطى[٤] . غير أن هؤلاء المغامرين ، الذين يعتبرون ترجيحاً أول من التحق بخدمة الجيوش البيزنطية ، منذ الحرب التى نشبت بين بيزنطة والروس ، زمن زمسكيس ، لابد أن اشتركوا فى قتال سكليروس ، والبلغار ، والمسلمين فى صقلية . ومن هؤلاء الورنك الذين دخلوا فى خدمة بيزنطة ، فريق ظل على وثنيته ، حتى عاد إلى موطنه ، ولم يعتنق المسيحية إلا فئة قليلة العدد . وعلى هذه الصورة تغلغل النفوذ البيزنطى عند الروس[٥] .

وحدث فى سنة ٩٨٨ ، أن قدم إلى بيزنطة أول فرقة كبيرة من الروس ، يبلغ عدد أفرادها ستة آلاف مقاتل ، فأضحت تؤلف جانباً من الجيوش

---

(١) Grousset : Op. Cit. p. 213.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 208.

(٣) يشير يحيى بن سعيد إلى أن الروس كانوا أعداء البيزنطيين حتى وقتذاك (يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨) .

(٤) Schlumberger : Op. Cit. I. p. 712.

(٥) Schlumberger : Op. Cit. I. p.713.

البيزنطية . وظل هذا العدد ثابتاً ، فمن يقدم بعد هؤلاء ، يسد ما شغر من الأماكن فى هذه الفرقة ، بسبب الحروب ، أو المرض ، أو عودة العساكر إلى مواطنهم[١] .

وينبغى أن نميز بين عساكر الورنك الذين تتألف منهم الفرقة الأساسية للحرس الإمبراطورى ، والمعروفة باسم دروجينا «Druijina»[٢] وبين أولئك الذين يؤلفون سائر القوة الروسية ، أى الدروجينا الكبيرة ، التى ترابط عادة بآسيا الصغرى ، وتعتبر جانباً من الجيش النظامى ، وتتولى القتال على الأطراف الملاصقة للشام ، وتشترك أحياناً فيما ينشب من الحروب فى إيطاليا ، أو على الأطراف الشمالية[٣] . والواقع أن الروس كانوا يعتبرون منذ أواخر القرن العاشر ، وأثناء القرن الحادى عشر الميلادى ، خيرة الجند المأجورة ، ومن هؤلاء الجند ، جرى انتخاب عساكر الحرس الإمبراطورى[٤] .

على أنه ما كاد ينهض العساكر الروس لمساعدة الإمبراطور باسيل الثانى ، على إحراز النصر على بارداس فوقاس ، حتى خرجوا فجأة على طاعة الإمبراطور ، لأسباب لا زالت مجهولة ، وزحفوا على مدينة خرسون ، عاصمة الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة القرم ، وذلك فى يونيه سنة ٩٨٩[٥] . فمن العسير أن ندرك السبب الحقيقى الذى دعا الروس إلى مهاجمة هذه المستعمرة البيزنطية الزاهرة فى شبه جزيرة القرم . فالمعروف أن مفاوضات دارت فى مستهل سنة ٩٨٨ ، بين فلاديمير والإمبراطورية البيزنطية ، وتقرر توجيه سفارة من

---

(١) هذه الفرقة تألفت من اثنتى عشرة كتيبة ، كل منها تشمل خمسمائة مقاتل ، ولكل منها علم خاص (انظر — Schlumberger : I. p. 721)

(٢) جرت التفرقة أيضا ، بأن صار يطلق على الحرس الخاص ، ورنك القصر ، وعلى سائر القوة الروسية ، الورنك ، الذين يرابطون خارج العاصمة .
انظر Schlumberger : Op. Cit. I p. 722, note, I.

(٣) Schlumberger : L'Epopée I. p. 722.

(٤) كان لهؤلاء الروس الورناك ، كنيسة خاصة فى بيزنطة ، أما الورنك الذين ألفوا جانبا من الحرس الإمبراطورى ، فاتخذوا مواضع خاصة بالقصر الإمبراطورى (Schlumberger : I. p.723.)

(٥) Ibid: p, 728.

قبل فلاديمير إلى البلاط البيزنطى ، من أجل زواج فلاديمير من « آن » أخت الإمبراطور ، وهو الذى أدى إلى قيام تحالف بين الروس والبيزنطيين ، وتحول الروس إلى المسيحية(١) .

ومن نتائج هذه المفاوضات أيضاً ، ما حدث فى أثناء تلك السنة ، من إنفاذ تلك القوة الروسية ، من ٦ آلاف عسكرى ، التى هيأت للإمبراطور البيزنطى النصر على بارداس فوكاس فى خريصوبولى وأبيدوس . على أن الشقاق لم يلبث أن نشب بين الحلفاء (الروس والبيزنطيين) ، ولم يمض على الانتصار فى أبيدوس إلا أسابيع قليلة ، وبعد أن انتهت الحرب الأهلية . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أن باسيل لم يعد مرناً سهلا طيعاً ، بعد أن زال خطر بارداس فوكاس ، إذ أن كبرياءه الإمبراطورى أبى عليه أن يقبل فكرة زواج أخته من متبربر . فلم يسع فلاديمير إلا أن يحسم الأمر ، بما قام به من توجيه ضربة خطيرة ، والاستيلاء على خرسون ، كيما يتذكر الإمبراطور ما تتعرض له إمبراطوريته من الخطر الروسى ، بعد أن استهدفت لخطر الثورة التى قام بها سكليروس من جديد ، وبعد أن اشتدت الحرب ضد البلغار ، وتناقص عدد الجيوش البيزنطية ، لما تعرضت له بيزنطة فى سنوات عديدة ، من المحن والأزمات(٢) .

وما حدث من مباغتة الروس لخرسون والاستيلاء عليها ، كان نذيراً لبيزنطة ، إلى أن تبادر إلى أن تمنح الروس من الامتيازات الضخمة ، ما يكفل لها دائماً تجنب خطرهم ، ويجعلها تنصرف إلى معالجة أمرين خطيرين ، يصح أن يؤديا إلى تحطيم بيزنطة ، وهما ثورة سكليروس والحرب البلغارية(٣) .

---

(١) Schlumberger : L'Epopée I. p. 759.

(٢) Ibid : pp. 755—760.

(٣) تعتبر خرسون من أهم المواضع للتجارة البيزنطية ، فضلا عن كونها ، مقرا لأبروشية هامة ، وتعتبر مع ما يتبعها من الأراضى ، آخر ما تبقى للبيزنطيين من ممتلكات شمال البحر الأسود . وتولى أمرها قائد حربى بيزنطى ويساعده مجلس سناتو المدينة . وأفادت بيزنطة من هذا الموضع فى مباشرة تجارتها مع روسيا وبلاد القوقاز والبلاد الآسيوية ، واتخذته قاعدة ترقب منها القبائل المتبربرة المبعثرة بهذه الجهات ، فتعمل على ضبطها . =

ولما استولى فلاديمير على خرسون ، أنفذ الرسل إلى الإمبراطورين باسيل وقنسطنطين ، برسالة تشير إلى أن فلاديمير استولى على هذه المدينة الشهيرة (خرسون) ، وإلى أنه سوف يستولى على القسطنطينية ما لم يوافقا على زواجه من أختهما آن(١) .

وصل هذا التهديد الخطير إلى القسطنطينية فى الوقت المناسب ، إذ أن الإمبراطور البيزنطى ما كاد يستريح مما حل بالإمبراطورية من كوارث ، وما صادفها من متاعب ، حتى اشتد قلقه لما قد يحدث من ظهور الروس مرة أخرى تحت أسوار القسطنطينية ، وخشى قيام تحالف بين فلاديمير وصمويل قيصر بلغاريا ، وأدرك أيضاً أن القوة الروسية التى قدمت لنجدته ، يصح أن تعود إلى بلادها . ولذا عزم باسيل على أن يعجل بالموافقة على أن تتزوج أخته « آن » من فلاديمير . وسوف نلحظ أن هذا التهديد الروسى كان له أثر كبير فيما بذله باسيل من شروط معتدلة لبارداس سكليروس ، مقابل خضوعه وإذعانه(٢) .

= وبمقتضى الامتياز الذى حصل عليه أهل خرسون ، من الإمبراطور قنسطنطين الكبير ، أضحى لسفن خرسون الحرية فى أن تجتاز البوسفور ، وأن تنزل متاجرها بميناء القسطنطينية دون أن تؤدى رسوما . يضاف إلى ذلك أن فلاديمير الذى صار على رأس دولة قوية ، والذى حرص على أن يبسط سلطانه على سائر البلاد المجاورة ، لم يسعه إلا أن يقبل على كره منه ، وسط بلاده ، هذا الموضع البيزنطى ، الذى يذكره دائماً بغطرسة أباطرة القسطنطينية .

انظر Schlumberger : Op. Cit. I. pp. 760—764.

(١) Ibid : p. 770.

(٢) Schlumberger : op. cit. I. p. 770.

لم يحدث فيما مضى أن تزوجت أميرة بيزنطية من أجنبى ؛ إذ أن بطرس قيصر بلغاريا قنع بزواجه من فتاة من أسرة ليكابينوس ، وتزوج أوتو الثانى ، الإمبراطور الألمانى من إحدى قريبات زمسكيس مغتصب الملك . ولذا يعتبر فلاديمير هو الوحيد الذى نال شرف الارتباط بصلة المصاهرة مع الأسرة الحاكمة الشرعية . وهذا التحالف المبنى على الزواج بلغ من إثارته الكبرياء الإمبراطورى البيزنطى ، أنه ما كاد خطر بارداس فوقاس يزول ، حتى ساد القسطنطينية الشعور بأنه لا ينبغى إقرار ما سبق بذله من الوعود فى لحظة حرجة ، وترتب على ذلك ، ما سبق الإشارة إليه ، من استيلاء فلاديمير على خرسون .

انظر : Ostrogorowski : p. 269.

فما حدث من إنفاذ الأميرة البيزنطية آن ، إلى كييف ، فى حاشية من القسس وكبار رجال الدولة ، كيما يحولوا الروس الوثنيين إلى المسيحية ، إنما وقع بعد أن استولى الروس على خرسون . فكأن تنصير الروس وأميرهم فلاديمير ، لم يحدث إلا فى أوائل الخريف من سنة ٩٨٩ ، على يد القسس والمطارنة الذين صحبوا الأميرة الصغيرة فى سفرها إلى روسيا(١) .

على أن تحول دولة كييف إلى المسيحية يعتبر فحسب بداية مرحلة جديدة فى نمو روسيا وتطورها ، بل يعتبر أيضاً انتصاراً باهراً لبيزنطة . إذ أن دائرة النفوذ البيزنطى بلغت من الاتساع درجة لم تحلم بها ، فخضع لتوجيه بيزنطة الروحى أكبر الإمارات الصقلبية ، وأكثرها قابلية للتقدم والازدهار . فأضحت الكنيسة الروسية الجديدة خاضعة لبطريركية القسطنطينية ، وصارت إدارتها منذ بداية عهدها ، فى أيدى مطارنة يونانيين ، تبعث بهم بيزنطة ، يضاف إلى ذلك أن حضارة روسيا خضعت فترة من الزمن ، لتأثير بيزنطة(٢) .

البلغار :

وأول عمل مستقل قام به باسيل الثانى ، بعد إقصاء البراكيمومنس باسيل ، يتمثل فى حملته التى أرسلها سنة ٩٨٦ إلى البلقان . إذ أن وفاة الإمبراطور زمسكيس هيأت لأعداء الإمبراطورية البيزنطية ، الفرصة للتخلص من سيطرتها . فما حدث فى بيزنطة بعد وفاة زمسكيس من الحروب الداخلية ، وما تلى ذلك من الاضطراب والفوضى ، أطلق للأعداء الحرية فى أن يواصلوا نشاطهم سنوات عديدة . فعلى الرغم من أن بيزنطة استطاعت أن ترد ما وقع على أطرافها من هجمات من قبل الخلافة الفاطمية فى مصر ، التى ظلت الخطر الوحيد القوى على الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق ، فإن ما حدث من تداعى السلطة المركزية فى القسطنطينية ، أدى إلى نتائج بالغة الأهمية فى تطور الموقف

(١) Schlumberger : op. cit. I. p. 771.

(٢) Ostrogorowski : p. 269.

فى البلقان . فنشب ، عقب وفاة زمسكيس ، ثورة فى إقليم مقدونيا قادها أبناء القائد نقولا الذى حكم أحد البلاد فى مقدونيا(١) .

سبق الإشارة إلى ما نشب من القتال بين الإمبراطور زمسكيس والروس سنة ٩٧١ ، وما ترتب على ذلك من طرد الروس من بلغاريا الشرقية ، وإضافة هذا الإقليم إلى بيزنطة بعد عزل بوريس عن عرش بلغاريا ، وحمله مع أخيه إلى بيزنطة . أما بلغاريا الغربية فظلت نحو ٤٧ سنة مستقلة ، يحكمها أبناء شيشمان الأربعة المعروفون باسم الكونتات الصغار Comitopouli ، وهم داود الذى لقى مصرعه على أيدى بعض الأفلاخيين ، وموسى الذى نال حتفه أثناء حصار سيرس (شمال شرق سالونيك) Seres ، ثم هرون Aaron ، الذى تخلص منه أخوه صمويل ، لما اشتهر عنه من الميول البيزنطية ، وبذلك انفرد الابن الرابع صمويل بحكم بلغاريا سنة ٩٨٠(٢) .

شملت مملكة صمويل جانباً كبيراً من بلغاريا الدانوب ، بما فيها مدن بريسلاق ، وڤيدن Vidin ، وصوفية ؛ ودخل فى نطاق هذه المملكة أيضاً جزء كبير من الصرب وألبانيا ، على أن مقدونيا تؤلف معظم مملكته . وانتقلت العاصمة آخر الأمر إلى أوكريدا Ochrida . وأعاد صمويل بطريركية بلغاريا بعد أن أزالها زمسكيس ، واتخذت البطريركية مقرها بالعاصمة ، وظلت قائمة قروناً عديدة بعد تدمير إمبراطورية صمويل(٣) .

وعلى الرغم من أن إمبراطورية صمويل ، تختلف عن إمبراطورية سيمون فى تركيبها وامتدادها ، إذ اتجهت نحو الغرب والجنوب ، فإنها تعتبر من

(١) Ostrogorowski : p 270.

(٢) Schlumberger : op. cit. I. pp. 605–606.
Camb. Med Hist. IV. p. 240.

(٣) Camb Med. Hist. IV. p. 240.
Schlumberger : op. cit. I. p. 598.
Ostrogorowski : p. 267.

الناحيتين السياسية والكنسية ؛ استمراراً لإمبراطورية سيميون وبطرس . واعتبرها صمويل ، والبيزنطيون أيضا ، الإمبراطورية البلغارية ؛ لأن البلغار كانوا وقتذاك الشعب الوحيد الذى يلى البيزنطيين ، فى أن له من التقاليد ما يجعل له إمبراطورية وبطريركية مستقلة[١] .

واشتهر صمويل بدرايته بفنون الحرب ، وبالصلابة والبسالة وبالنشاط الوافر ، لا يتطرق إليه الخوف أو التعب أو التراخى[٢] . وما حدث من اضطرابات وقلاقل فى داخل بيزنطة عقب وفاة زمسكيس ، وما اشتهر به صمويل من الحرص على الإفادة من كل ما يعرض من الفرص والأحوال ، جعله دءوبا على تنظيم صفوف قومه ، وإعداهم للتخلص من سيادة البيزنطيين . فعلى الرغم من أن صمويل تلقى التاج من بابا روما ، فإن ذلك لم يؤد إلى أن يرتبط دينيا بالبابوية . وحرص أيضا على أن يتجنب النزاع مع البوجوميليين ، المنشقين على كنيسة بلغاريا ، لما لهم من أهمية فى تسيير أمور الدولة . ولم يظهر العداء للكنيسة البلغارية الأرثوذكية لما اشتهرت به من العداء ضد البعثات التبشيرية البيزنطية[٣] .

وأول ما قام به صمويل من أعمال ، أنه شرع فى التوسع جهة الجنوب ، فاستطاع بعد هجماته المتوالية على سالونيك ، وإغاراته على تساليا ، أن يستولى على لاريسا فى تساليا سنة ٩٨٦ ، على الرغم من ضخامة حاميتها[٤] .

---

(١) Ibid : p. 268.

(٢) Schlumbergers L'Epopée, I. p. 607.

(٣) Schlumberger : op. cit. I. pp. 908, 619.

(٤) Ostrogorowski : p. 298.
أمر صمويل بأن ينتقل سكان هذه المدينة إلى بريسبا ، وإلى جهات أخرى بداخل بلغاريا . وأجاز لكل واحد منهم ، أن يحمل معه ما شاء من المتاع . وأدخل فى الجيش البلغارى ، كل الأصحاء من هؤلاء السكان ، فأبلوا بلاء حسناً تحت لواء الملك البلغارى . ولم ينس صمويل أن ينقل إلى الكنائس البلغارية ، ما حوته الكنائس البيزنطية فى هذه الجهات من مقدسات دينية . يضاف إلى ذلك ما وقع فى يده من الأسرى والسبى الوافر من النساء ، فاختار له منهن زوجة .
(انظر Schlumberger : op. cit. I. p. 618.)

تألفت القوة الحربية الأساسية فى الدولة الناشئة (بلغاريا) ، من فئة كبار الملاك التى ناضلت من أجل استقلالها . وعلى الرغم من أن هذا الحزب الإقطاعى يناهض الملكية ، فإنه يُكن أيضا الكراهية لبيزنطة ، وهو الذى تحالف من قبل مع سفياتوسلاف والروس ضد الإمبراطور البيزنطى حنا زمسكيس .

وبرغم ما أحرزه صمويل ، قيصر بلغاريا ، من الانتصار على الحاميات البيزنطية عند توغله فى الأملاك البيزنطية بالبلقان ، فإنه لم يلبث أن ارتد على أعقابه ، حين بلغه تجهز الإمبراطور باسيل الثانى للقيام بحملة كبيرة لمهاجمة الأطراف الشمالية لبلغاريا ، فأدى ذلك إلى مبادرة صمويل بالعودة كيما يدافع عن المواضع التى تعرضت لخطر الحملة البيزنطية[١] .

على أن هذه الحملة التى قام بها باسيل سنة ٩٨٦ ، والتى تعتبر أولى الحملات التى قادها الإمبراطور البيزنطى بنفسه ، سبقها حادث محزن ، شديد الصلة بنمو الحركة الوطنية فى بلغاريا . ذلك أن ولدى الملك بطرس البلغارى ، وهما الملك بوريس الثانى وأخوه رومانوس ، اللذان ظلا فى الأسر فى بيزنطة أربع عشرة سنة ، أدركا أن الفرصة حانت لهما ، كيما يتوليا عرش أبيهما . فحاول هذان الأميران أن يهربا ، غير أنهما فشلا فى تحقيق غايتهما ، إذ لقى بوريس مصرعه أثناء هروبه ، ولما علم أخوه بذلك ، تنازل عن حقوقه فى العرش ، وعاد إلى القسطنطينية[٢] .

وتلى هذه الأحداث مباشرة ، وارتبط بها ، الحملة التى قام بها باسيل لقتال البلغار ، لاسترداد البيلوبونيز وسائر البلاد التى استولى عليها صمويل قيصر

---

(١) Schlumberger : op. cit. I. p. 647.

(٢) تشير بعض الروايات إلى أن البراكيمومنس باسيل وسائر القادة العسكريين المناوئين لحكومة الإمبراطور باسيل ، هم الذين دبروا هذا الأمر كيما يثيروا المشاكل ضد الإمبراطور البيزنطى ، فتشتد حاجته إلى مساعدتهم .
انظر Schlumberger : op. cit. I. pp. 648—650.

البلغار[1] . والمعروف أن ما أحرزه صمويل من انتصارات ، زاد فى مساحة أملاكه وأراضيه على حساب البيزنطيين ، فاسترد كل ما استولى عليه زمسكيس من الأراضى الواقعة بين جبال البلقان ونهر الدانوب ، فضلا عن استيلاء قواته على كل تساليا وعلى جانب من ثغر هيلاد[2] .

تولى الإمبراطور باسيل بنفسه أمر إعداد هذه الحملة ، فلم يشرك فى ذلك كبير وزرائه (باسيل) ، وقائد جيوشه فى الشرق (بارداس فوكاس) ، ومن انحاز إليهما من القادة العسكريين . بل قمع الفتنة التى أثارها هؤلاء ، فعزل باسيل من منصبه ، وأعفى بارداس من القيادة ، وطرد عددا من القادة من مناصبهم . والواقع أن اعتداده بنفسه وانتصاره على خصومه ، وما اشتهر به من صفات حربية ، كل ذلك جعله يأخذ على عاتقه مسئولية قتال البلغار[3] .

---

(١) Ibid : p. 621.

(٢) Schlumberger : op. cit. I. pp. 651—652.

(٣) أورد المؤرخ بسيللوس Psellus ، ما اشتهر به هذا الإمبراطور من صفات حربية ، فأشار إلى أن من الصفات التى اختص بها باسيل ، أنه لم يجر على سنة الأباطرة السابقين ، فى تعيين زمن للقيام بحملاتهم ، كأن يخرجوا للغزو فى منتصف الربيع ، ثم يعودون إلى حاضرة ملكهم فى نهاية الصيف . أما باسيل فإنه جعل موعد عودته مرتبطاً بإنجاز عمله . لم يكترث بزمهرير الشتاء وقيظ الصيف ، ووطن نفسه على احتمال الظمأ . والواقع أنه أخضع لإرادته الحديدية كل رغباته وأهوائه .

اشتهر باسيل بدرايته التامة بتفاصيل حياة الجندية ، فلم يقتصر فحسب على ما يهم قائد الجيش من الإلمام بتأليف الجيش ، بل عرف كل ما يجرى فى الجيش من أعمال القادة والعساكر . وحرص على أن يجعل كل فرد فى الوضع الذى يلائمه . وما حازه باسيل من الدراية التامة بفن الحرب ، إنما نجم عن إطلاعه الوافر ، وميله الفطرى . وبفضل ما اشتهر به الإمبراطور البيزنطى من الإحاطة التامة بصفات كل فرد وطباعه ، وبما يؤديه من أعمال حربية ، ونظراً لإدراكه ما يناسب كل فرد من الأعمال ، وفقاً لمزاجه وتدريبه ، حرص على ألا يستخدمه إلا فيما يصلح له من الأعمال .

يضاف إلى ذلك معرفته التامة بما يناسب رجاله من أوضاع وتشيكلات مختلفة ، عرف بعضها من الكتب التى درسها ؛ وهداه تفكيره أثناء القتال إلى تدبير بعضها الآخر . كان باسيل يعلن أنه سوف يتولى توجيه القتال ، ويقوم على ترتيب العساكر فى ساحة المعركة . وعلى =

وفى شهر يوليه سنة ٩٨٦ ، اتخذ باسيل وجيشه الأوربى ، الطريق المؤدى إلى بلغاريا المستقلة ، وقد وطد العزم على تدمير قوة القيصر

= الرغم من أنه هو الذى نظم الحملة وجهزها ، فإنه كان يؤثر دائما ألا يباشر بنفسه ، إذ يصح أن يحدث من الارتداد المفاجىء أثناء اشتراكه فى القتال ، ما يؤدى إلى ارتباك واضطراب شديد ، ولذا لم يجر على تعبئة كل الجيش . ويصح أن يتخذ له موضعاً ، على مسافة من ساحة القتال ، ينصب به آلات الحرب ، ويجرى المناوشات ، بينما يقوم جماعة من العسكر بكشف مواضع العدو . فإذا وقع الصدام ، جرى اتصال حربى منتظم بين تشكيلات الجيش المختلفة ، فأضحى الجيش كتلة واحدة متينة ، بما حدث من الاتصال المستمر بين القيادة العامة والرجالة والفرسان . فإذا تم إعداد كل شيء ، صدرت الأوامر الصارمة بأنه ينبغى ألا يتجاوز الجندى خط القتال ، أو يخرج من صفوف الجيش مهما كانت الأحوال . فإذا لم تلق هذه الأوامر الطاعة التامة ، فتقدم على سائر الجند ، بعض العساكر الشجعان ، وظفروا بالعدو ، فلن ينالوا على شجاعتهم وبسالتهم الجزاء الأوفى عند عودتهم ؛ بل يحدث عكس ذلك ، إذ يبادر باسيل إلى طردهم من الجيش ، وينزل بهم من العقاب ما ينزله بسائر المجرمين .

ويرى باسيل أن العامل الحاسم فى إحراز النصر ، إنما يتوقف على حشد العساكر فى مجموعة متماسكة . ولهذا السبب وحده ، اعتبر الجيش الرومانى (البيزنطى) قوة لا تقهر . على أن ما حرص عليه باسيل ، قبيل كل معركة ، من إجراء تفتيش دقيق على العساكر ، كان يؤدى دائما إلى إثارة الجند ؛ فكانوا ينكرونه علناً . غير أن الإمبراطور تلقى هذا الاحتجاج بشيء من التعقل والحكمة ، فكان يصغى فى هدوء إلى ما يوجهونه له من اللوم ، ثم يشير بابتسامة عذبة ، إلى أنه إذا أغفل هذه التدابير ، فسوف لا تنتهى المعارك التى يخوضونها .

وما كان لباسيل من طبيعة مزدوجة ، من الشدة والهدوء ، هيأت له من التصرف فى أعمال الحرب ، مثلما هيأته له فى أعمال السلم . والواقع أن مهارته فى القتال ، لا يضارعها إلا خبرته الإدارية زمن السلم ؛ إذ حرص على أن يضبط غضبه ، ووفقاً للمثل المعروف « إنما تكمن النار فى الرماد » ، عمل على أن يكظم غيظه ؛ فإذا عصى أحد العساكر أوامره ، عرف كيف يخفى غضبه ، حتى إذا عاد إلى البلاط ، أنزل به الانتقام الشديد .

وعلى الرغم من أن باسيل اشتهر عادة بالإصرار على رأيه ، فإنه حدث فى بعض الأحوال أن عدل عن رأيه . وبرغم ما اشتهر به من القسوة والصرامة ، عرف عند الضرورة كيف يغفر الذنوب ، بعد أن يقف على الأحوال التى وقعت فيها .

ومتى اتخذ باسيل قراراً معيناً ، وذلك بعد تدبير وإعداد ، فليس فى وسع قوة بشرية ، أياً كانت ، أن تجعله يحيد عنه . ولذا لم يتغير سلوكه نحو أصدقائه ، ما لم تلزمه الضرورة بذلك ، لسبب من الأسباب ، فيغير رأيه فيهم . وإذا خرج عن طوره ، واشتدت ثائرته على فرد من الأفراد ، فلا تهدأ ثائرته سريعاً . وإذا انتهى باسيل إلى قرار أو رأى ، اعتبره نهائيا لا يجوز نقضه ، واعتبره حكما مقدسا .

انظر Psellus : Chronographia, pp. 26 — 27.

صمويل . وأعد باسيل خطته على أساس أن يقطع طريق الاتصال بين بلغاريا الدانوب وبلغارية مقدونية ، بأن يستولى على دروب الجبال الواقعة على الطريق المؤدى بين فيليبوبوليس وبين سرديكا (صوفيا الحالية)[١] . حشد باسيل فى هذه الحملة قوات ضخمة ، ولعل ما ذاع من أخبار ضخامة هذه الحملة ، هو الذى أدى إلى توقف صمويل عن غزو البيلوبونيز[٢] . فكان لزاما على قيصر البلغار أن يتوجه بقواته نحو الشمال للدفاع عن مدينة ستريدتز Stredetz إزاء الهجوم البيزنطى . يضاف إلى أن الأمير الروسى ، فلاديمير أسهم فى هذه الحملة باعتباره صهراً وحليفا للإمبراطور البيزنطى ، بما قدمه من عساكر[٣] .

احتل باسيل حصن فيليبوبوليس ، وعهد بحماية مؤخرة الجيش وحراسة مدخل دروب جبال البلقان إلى قوة كبيرة العدد ، تولى قيادتها الماجسطرس ليومليسينوس ، الذى سبق الإشارة إليه فى أحداث سوريا[٤] . وجعل باسيل كل اهتمامه فى الاستيلاء على ستريدتز (صوفيا) ، التى تعتبر من أهم المدن البلقانية ومن أمنع الحصون . وللوصول إليها لا بد من اجتياز الدرب المعروف باسم درب تراجان Porte de Trajon ، وهو الدرب الذى اجتازته عادة الجيوش البيزنطية ، عند مسيرها جهة الشمال الغربى ، وسلكته أيضاً الجيوش المتبربرة عند قدومها من الغرب لمهاجمة أسوار بزنطة (القسطنطينية)[٥] .

تقدمت الجيوش البيزنطية ، بعد اجتياز درب تراجان ، لحصار ستريدتز ، فهرع صمويل بقواته نحو الجنوب ، وتجنب الاشتباك فى معركة حاسمة مع البيزنطيين ، بل لجأ إلى نصب الكمائن ، بينما احتلت عساكره المرتفعات التى تحيط بمعسكر باسيل[٦] .

(١) Schlumberger : op. cit. I. pp. 653 — 661.

(٢) Ibid : p. 661.

(٣) Ibid : p. 661.

(٤) Ibid. : p. 662.

(٥) Schlumberger : op. cit. I. p. 662.

(٦) Ibid : p. 663.

وما حدث من خيانة بعض القادة البيزنطيين لإنكارهم ما لجأ إليه باسيل من الانفراد بالحكم ، والاستبداد بالأمر ، فمنعوا الجيش عن المضى فى سيره ، وما كان من نفاذ أقوات الجيش البيزنطى ، وانقضاض العساكر البلغارية على البيزنطيين ، كل ذلك جعل الإمبراطور باسيل يقرر رفع الحصار عن صوفيا ، والعودة إلى القسطنطينية . غير أن البلغار أخذوا يطاردونهم أثناء اجتياز درب تراجان ، فلقى عدد كبير من العساكر البيزنطية مصرعهم ، ووقع فى أيدى البلغار خيمة الإمبراطور وأموال الجيش وأمتعته ، وهرب من بقى من العساكر إلى البلاد البيزنطية[١] .

ولم تؤد كارثة مضيق تراجان ، إلى مصرع عدد كبير من القوات البيزنطية فحسب ، بل ترتب عليها أيضاً أن بلغاريا الدانوب ، التى استولى عليها زمسكيس ، خرجت من أيدى البيزنطيين ، واشتدت الروح القومية فى هذه الجهات . ولم يعد للبيزنطيين إلا قوات قليلة متناثرة فى بعض الحصون والمدن الكبيرة[٢] .

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٦ . Schlumberger : op. cit. I. p. 667.

(٢) Schlumberger. op. cit. I. p. 670.

الفصل الحادى عشر

باسيل الثانى

الفترة الثانية (٩٨٩ – ١٠٢٥)

تعتبر سنة ٩٨٩ ، خاتمة الفتن الداخلية فى زمن باسيل الثانى . إذ خرج الإمبراطور البيزنطى منتصراً فى نضاله ضد الطبقة الأرستقراطية فى آسيا (الصغرى) ، بعد أن أنزل الهزيمة بكل أعدائه وخصومه فى معارك عنيفة ، استغرق القتال فيها ثلاث عشرة سنة كاملة ، تعرض أثناءها خلق الإمبراطور إلى تغيير كبير [١] .

فما اشتهر به باسيل فى مطلع شبابه من الميل إلى اللهو والبعث ، لم يلبث أن اختفى وزال ، فأضحى باسيل رزينا ، شديد الصرامة ، كثير الشك ، لا يثق فى أحد ، ولايقيم للصداقة وزناً أو تقديرا . ظل طوال حياته عازفاً عن الزواج ، وعاش منطوياً على نفسه . انفرد بالحكم وحده ، ورفض كل ما جرى بذله له من النصائح ، فكان حاكماً أوتوقراطياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى [٢] .

اتخذ باسيل فى حياته أسلوب المتصوف المحارب ، فلم يحفل بما يجرى فى البلاط من مراسيم ، ولم يهتم بالفن أو الأدب ، شأن جده قنسطنطين السابع وعلى الرغم من أنه كان عدوا لطبقة الأرستقراطية ، فإنه لم يحاول أن يكسب عطف الجماهير ، ولم يلتمس المحبة من رعاياه ، بل طلب منهم الطاعة ، وركز كل اهتمامه فى ازدياد قوة الدولة ، والتغلب على أعدائها فى الداخل والخارج [٣] .

(١) Ostrogorowski : p. 270.

(٢) Ibid : p. 270.

(٣) Ostrogorowski : p. 270.
Camb. Med. Hist. IV. pp. 90 — 91.
Schlumberger : op. cit. pp. 580 — 584.

تشريعات باسيل :

صار فى وسع باسيل أن يحد من الأطماع الاقتصادية للأرستقراطية البيزنطية ، بعد أن تحطمت آمالهم السياسية ، فما حل بهم من هزائم ساحقة على يد الإمبراطور البيزنطى . فالمعروف أن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أدرك ما تعرض له من التداعى ، كيان الدولة الاقتصادى والاجتماعى ، بسبب نمو الضياع . ولمس باسيل الثانى ما ترتب على ذلك أيضاً من نتائج سياسية ، فاستأنف سياسة ليكابينوس التى ترمى إلى مناهضة طبقة الأرستقراطية ، كبار أرباب الأملاك ، بل إنه فاقه فى الشدة والصلابة [١] .

اشتد حرص باسيل على المحافظة على أملاك الفلاحين والعساكر ، وازدادت كراهيته للأسرات الحاكمة التى نازعته حقه فى عرش آبائه . ولتحقيق سياسته ، لم يحفل بمقتضيات العدالة والإنصاف ، ومن الدليل على ذلك ، ما حدث للقائد يستاثيوس مالينوس Eustathius Maleinus ، أحد زملاء بارداس فوقاس القدامى ، الذى شاد باسيل بكرمه وسخائه أثناء عودته من إحدى حملاته على سوريا . اشتهر هذا الزعيم القبادوقى بالثروة الطائلة ، وحاز ضياعاً شاسعة ، واقتنى من الرقيق والأتباع مايكفى لتأليف قوة عسكرية ، بلغت عدة ألوف من الرجال . وإذ اشتد قلق الإمبراطور ، بسبب ما لمسه من خطورة هذا القائد ، لم يسعه إلا أن يدعوه للقدوم إلى القسطنطينية ، وما كاد مالينوس يصل إلى العاصمة ، حتى أمر الإمبراطور باعتقاله ، ومصادرة ممتلكاته [٢] .

وفى القانون الذى أصدره باسيل الثانى سنة ٩٩٦ ، وردت الإشارة إلى أسرتى فوكاس ومالينوس ، على أنهما تمثلان وقتذاك الطبقة الأرستقراطية البالغة القوة والنفوذ [٣] . وبمقتضى هذا القانون ، تقرر إلغاء القانون الذى سبق

(١) Ostrogorowski : p. 271.

(٢) Ibid : p. 271.

(٣) Ostrogorowski : p. 271.

إصداره ، والذى أجاز « للأقوياء أن يشتروا الأراضى بعد فترة معينة من الزمن ، قدرها أربعون يوماً »[١] . وهذا القانون الذى أصدره باسيل الثانى أكد الحقيقة الواقعة ، التى تتمثل فى أن الزعماء والأعيان ، استطاعوا بفضل ما كان لهم من نفوذ قوى . أن يتجاوزوا هذه الفترة المحددة ، وأن يجعلوا تصرفهم سليما فيما ملكوه من الأراضى بطريق غير مشروع . على أن الإمبراطور البيزنطى قرر أن كل ماحازه الأغنياء (الأقوياء) من الأراضى من « الفقراء » ، منذ أن صدر أول مرسوم يتعلق بهذا الأمر ، وهو مرسوم رومانوس ليكابينوس ، سنة ٩٢٢ ، لا بد من إعادتها إلى أربابها (الفقراء) ، دون اعتبار لفترة الرخصة أو المهلة ، ودون دفع تعويض . ومع ذلك ، فإنه وفقاً لقانون باسيل الثانى ، لم تلتزم خزانة الدولة بمراعاة أية فترة من فترات الرخصة أو السماح . كما أن حق الدولة فى طرد الشخص من أملاكه ، يرجع إلى زمن أغسطس[٢] .

وحاول باسيل الثانى ، بهذا القانون ، أن يوقف نمو أملاك الكنيسة على حساب أملاك الفلاحين . فما قام على أرض الفلاحين من أديرة ، لم ينزل بها إلا عدد قليل من الرهبان ، صارت تعتبر مجرد كنائس صغيرة تابعة للقرية ، ولا تؤدى للأسقف أية ضريبة . أما الأديرة التى ينزل بها ثمانى رهبان فأكثر ، فإنها ظلت خاضعة للأسقف الذى احتفظ بكل حقه فى التصرف فى أملاكها ، على أنه لا يجوز لهذه الأديرة أن تقتنى أملاكا جديدة[٣] . ويعتبر هذا الشرط حلقة جديدة تربط بين باسيل وبين قانون رومانوس ليكابينوس[٤] . على أن باسيل لم يشر إلى مرسوم نقفور فوكاس ، الذى يتعلق بأراضى الأديرة ، والذى ألغاه الإمبراطور حنا زمسكيس[٥] .

(١) Camb. Econom. Hist. I. p 209.

(٢) Ostrogorowcki : pp. 271 — 272.

(٣) Ibid : p. 272.

(٤) Ibid : p. 272.

(٥) Ibid : p. 272.

وما اتخذه باسيل الثانى من إجراء ضد كبار الملاك والأعيان ، ازداد شدة وعنفاً ، لأنهم هم الذين رفعوا ضده راية العصيان ، وساندوا بأموالهم ورجالهم القادة الذين تمردوا عليه ، وخرجوا على طاعته[١] . ولذا حرص باسيل على أن يمضى فى تحقيق نصيحة بارداس سكليروس ، التى بذلها له بعد أن حلت به الهزيمة ، والتى تشير عليه ، بأن يحطم هذه القوة الخطيرة (كبار الملاك) ، وأن يدمر المصدر الذى تستمد منه سلطانها ، وهو الثروة العقارية[٢] .

على أن أشد ما اتخذه باسيل الثانى من الإجراءات فى نضاله ضد كبار الملاك ، ما أصدره سنة ١٠٠٢ من مرسوم يلزم « الأقوياء » بأن يدفعوا ، نيابة عن الفقراء ، الضريبة المعروفة باسم Allelengyon[٣] ، فاعتبرهم مسئولين عن دفع الضرائب المتأخرة على الفلاحين . وبذلك أصبح كبار الملاك وحدهم ، يحملون عبء ضريبة الضمان المتبادل (Allelengyon) ، بسبب عجز دافعى الضرائب من الفلاحين عن أدائها ، مع أنهم ظلوا حتى صدور هذا القرار يؤدونها[٤] . وليس لهؤلاء الأعيان (الأقوياء) الحق فى أن ينتفعوا بأراضى الفلاحين ، بعد أن تولوا نيابة عنهم تسديد ما هو مقرر عليهم من الضرائب ، والتزموا أيضاً بما هو مفروض عليهم من الخدمة العسكرية[٥] .

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 92.

(٢) Psellus : op. cit. p. 23.

Schlumberger : op. cit. II. pp. 21—22.

Camb. Med. Hist. IV. p. 92.

(٣) هذا اللفظ معناه الضمان المتبادل .

(٤) Ostrogorwski : pp. 120,169,172.

Camb. Ecouom. Hist. I, p. 209.

Camb. Med. Hist. IV. p. 93.

(٥) Ibid. p. 63.

الواقع أن أول من فكر فى فرض هذه الضريبة ، هو الغتيت نقفور الأول ، الذى خلف الإمبراطورة أيرين على الحكم . إذ أصدر أول الأمر قرارا بأن كل من لم يستطع أن يؤدى ضريبة الرأس ، يعتبر من الأجناد . وكل واحد من هؤلاء الأجناد يتكفل جيرانه الأكفاء « الأقوياء » ، بما يحتاج له من الأسلحة فضلا عن ضمان شخصى قدره ١٨ صولدا ذهبيا . —

ولهذا الإجراء الحاسم أهمية مزدوجة ؛ إذ يعتبر لطمة جديدة قوية ، موجهة إلى كبار الملاك ، يضاف إلى ذلك أنه كفل للخزانة العامة الحصول على هذا النوع من الضرائب ، إذ لم يكن فى وسع الفلاحين بمواردهم المحدودة ، أن يؤدوا هذه الضريبة ، بل إن عجزهم عن أدائها ، دفعهم إلى الهجرة ومغادرة أراضيهم ، فنجم عن ذلك خسارة جديدة للدولة(١) .

لم يحفل باسيل بما لجأ إليه الأعيان من المقاومة والاحتجاج والاستعانة بالبطريرك سرجيوس(٢) . إذ جعل باسيل هدفه الأساسى ، هو القضاء على ما كان للأرستقراطية من سلطان قوى ، ونفوذ شديد ، بعد أن فشل أسلافه فى تدمير قوتهم . غير أن إجراء باسيل لم يستمر طويلا ؛ فعلى الرغم من أن باسيل حصل بمقتضاه على ما احتاج إليه من الضرائب ، فإن خلفاءه لم يلبثوا أن ألغوا هذه القوانين(٣) ؛ بعد أن أضحى لطبقة « الأقوياء » السيادة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ؛ فأخذت طبقة صغار الملاك الأحرار فى الاختفاء ، بينما سادت منذ القرن الحادى عشر طبقة كبار الملاك(٤) .

الحرب ضد البلغار :

والواقع أن ما أحرزه البغار سنة ٩٨٦ ، من الانتصار على البيزنطيين فى معركة مضيق تراجان ، إنما يرجع إلى أنهم لم يصادفوا إلا عدداً قليلا من

= يضاف إلى ذلك ، التزام هؤلاء الأغنياء بأن يؤدوا نيابة عنهم كل ما لم يستطع العساكر دفعه من الضرائب العادية ، أى أنهم يعتبرون ضامنين للفقراء الذين عجزوا عن دفع ما هو مقرر عليهم من الضرائب .

وأصبحت هذه الضريبة عبئاً ثقيلا عن الأغنياء ، فحرص خلفاء نقفور الأول على إلغائها . غير أن الإمبراطور باسيل المقدونى ، أعاد فرضها ، نظراً لحاجته الشديدة للأموال والرجال من أجل الحرب البلغارية .

انظر : Schlumberger : op. cit. II. p. 328.

(١) Ostrohorowski : p. 272.

(٢) Ibid : p. 272. Schlumberger : II. p. 328,

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 94.

(٤) Camb. Econom. Hist. I, p. 210.

العساكر البيزنطية ، بينما احتشد فى آسيا معظم العساكر البيزنطية ، لقمع فتنة بارداس فوقاس وبارداس سكليروس ، فى سنوات ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩(١).

وترتب على ذلك أن الجانب الأكبر من الأقاليم الأوربية التابعة للدولة البيزنطية ، وقعت فى أيدى البلغار . وأدرك الناس أن الأسرة المقدونية لن تنهض من عثرتها ، بعد أن استولى البلغار على موضعين من أمنع المواضع البيزنطية وأكثرها أهمية ، وهما سالونيك وباريا (سنة ٩٨٩)(٢). فأضحى صمويل يسيطر على ما يقرب من ثلثى شبه جزيرة البلقان ، فعقد محالفات مع سائر أمرائها لمناهضة الإمبراطورية المقدونية ؛ إذ بعث بشارات الملك إلى أمير الكروات Stjepan Dizislav ، وعهد إليه بإدارة المدن الدالماشية ، وجعله نائباً عنه وأنعم عليه بلقب بطريق . وقلد حنا فالديمير Valdimir أمر ديوكله Dioclée (الجبل الأسود) ، ونصب رومانوس ابن الملك بطرس قيصر بلغاريا السابق أميراً على سكوب Skopia ، وعين آشوط Ashod الأمير البيزنطى الأرمنى قائداً على دورازو(٣) .

والراجح أن الإمبراطور باسيل الثانى ضاق ذرعاً بإغارات البلغار فعزم على أن يهاجمهم . فاجتاز تراقيا ومقدونيا ، ومضى فى سيره حتى بلغ سالونيك حيث التمس البركات من وليها وراعيها ، القديس ديمتريوس ، وتعاهد عمارة استحكامات المدينة . ثم قاد سنة ٩٩١ حملته الثانية على البلغار(٤) . فظل يحاربهم مدة أربع سنوات ، أحرز فيها انتصارات باهرة ، وحصل على غنائم وفيرة ،

(١) Schlumberger : op. cit. II. pp. 43—44.

(٢) Ibid : p. 45.

يشير يحيى بن سعيد إلى أنه حدث زمن عصيان بارداس فوكاس ، وانصراف الإمبراطور باسيل إلى قتاله ، أن انتهز البلغار الفرصة ، وغزوا بلاد الروم ، وأتوا إلى بلد صالونيكى . (انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧١) .

(٣) Schlumberger : op. cit. II. p. 46.

Ostrogorowski : p. 273.

(٤) Schlnmberger : op. cit. II. p. 51.

ووقع فى يده عدد كبير من الأسرى ، واستولى على حصون عديدة ، احتفظ ببعضها وخرب ما ظن أنه يكلفه جهداً شاقاً . وأخرب مدينة باريا فى جملة ما أخرب ، وأجلى كثيراً من البلغار من مدنهم وأسكنها البيزنطيين[١] . ثم إن باسيل لم يلبث أن غادر بلاد الشام ، نظراً لما تعرضت له أنطاكية من خطر الغزو الفاطمى سنة ٩٩٥[٢] .

وفى أثناء وجود الإمبراطور باسيل فى آسيا سنة ٩٩٥ ، لم تتوقف الحرب ضد البلغار ، وظلت الحرب مستمرة إلى ما بعد عودته . إذ أن صمويل قيصر البلغار ، الذى لا يعرف للراحة طعماً انتهز فرصة رحيل الإمبراطور باسيل إلى الشام (أنطاكية) ، فاستعاد ما استولى عليه البيزنطيون من المدن[٣] . ومن أهم الحملات ، تلك التى وجهها ذلك الملك إلى قتال حامية سالونيك . فأراد صمويل ملك البلغار أن يحمل الماجسطرس جريجورى الطارونى ، من أمراء دارون ، الذى سبق أن جعله باسيل على سالونيك التى تلى القسطنطينية فى الأهمية ، على الخروج للقائه ، فأنفذ إليه فئة قليلة العدد من الجيش ، بلغت أسوار المدينة ، فأرسل ابنه لمناوشتهم ، فوقع فى أسرهم ، فخرج لإنقاذه غير أنه لقى حتفه ، بينما تقرر نقل الأسرى إلى بعض جهات بلغاريا[٤] .

ولما جاءت إلى باسيل بالشام أنباء كارثة سالونيك ، بادر إلى إرسال نقفور

---

(١) Ibid : p. 57.

يشير المؤرخون العرب إلى أن باسيل توجه لقتال البلغار ، وظل يحاربهم مدة أربع سنين ، وكان فى الشتاء يخرج الى أطراف بلدة البلغر ، يغزو ويسبى منها ، وفتح فى هذه المدة عدة حصون من حصونهم ، فتمسك ببعضها ، وأخرب منها ما ظن أنه لا يضبط له ، وأخرب مدينة باريا . . وأجلى باسيل كثيراً من البلغار من بلادهم ، وأسكنها الروم .

(أنظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧١ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣١) .

(٢) Schlumberger : op. cit. II. pp. 87—89.

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٦ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ .

(٣) Schlumberger : op. cit. II. p. 131.

(٤) Ibid : p, 132.

أورانوس — الذى سبق أن أنفذه رسولا إلى بغداد بعد هزيمة سكليروس سنة ٩٨٠ — كيما يتولى قيادة القوات البيزنطية فى أوربا[١] .

توجه نقفور أورانوس مباشرة إلى سالونيك ، ومنها سار إلى حيث ترابط القوات البيزنطية بعد أن فقدت قائدها الطارونى ، وبعد أن وقع ابنه فى الأسر ، وذلك سنة ٩٩٦[٢] . على أن الإمبراطور لم يقرر بعد عودته إلى العاصمة ، أمر المسير لقتال البلغار ، لأن أعباء الحكم تطلبت بقاءه فى حاضرة ملكه . ومنذ أن قدم نقفور أورانوس إلى سالونيك أدرك أن صمويل ملك البلغار ، اتخذ طريقه نحو الجنوب[٣] . فأخذ يعيث فساداً فى تساليا وبيوتيا واتيكا ، حتى بلغت عساكره أبواب البيلوبونيز ، عبر برزخ كورنثة[٤] . وبذلك صارت كل هذه البلاد من أرض بيزنطة فريسة للهجمات المخربة التى شنها هذا العدو الخطر[٥] .

وتلقى نقفور أورانوس من الأوامر ما يقضى بلقاء القوات المغيرة واتخذ طريق الساحل إلى الغرب من سالونيك ، فبادر بالاستيلاء على حصن لاريسا فى تساليا المشهور بمناعته[٦] ، فأنزل فيه دمستق الغرب أمتعته والجرحى والمرضى . ثم اجتاز تساليا بمن معه من العساكر الأصحاء[٧] ، وبعد أن اجتاز وادى فرساليا المعروف ، هبط إلى وادى نهر سبرخيوس Sperchios ، حيث عثر على عدوه[٨] .

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٨ . Ibid : p. 132.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦٨ . Schlumberger : II. p. 135.

(٣) Ibid : p. 135.

(٤) Ibid : p. 135.

(٥) Ibid : p. 135,

(٦) Ibid : p. 135.

(٧) Schlumberger : op. cit. II. p. 136

(٨) Ibid : p. 136.

والتقى القائد البيزنطى بالجيش البلغارى الضخم ، عند عودته من البيلوبونيز وأتيكا بعد أن أجرى نهبها . والواقع أن الطريق الذى سلكه مرغما نقفور أورانوس لم يلبث أن أدى إلى نتائج مثمرة ؛ إذ أن الجيش البيزنطى فاجأ ملك البلغار عند النهر ، حيث كان يعسكر بجنده على الضفة الجنوبية ، بعد أن توافرت عندهم الغنيمة من بلاد اليونان . ورابطت القوات البيزنطية على الضفة المقابلة ، عند موضع لا يبعد كثيراً عن مضيق ترموبيل المعروف قديماً . ونظراً لفيضان النهر ، تعذر التقاء الجيش ، فالتزم ملك البلغار الهدوء والسكينة ، وغفل جنده عن الحراسة[١] .

أما نقفور أورانوس فظل يقظا ؛ فإنه بعد البحث الشديد ، وبفضل مساعدة أحد سكان البلاد ، اكتشف مخاضة استطاع منها أن يجتاز النهر فى جنح الظلام ، فانقض العسكر البيزنطى على جند ملك البلغار ، وهم نيام ، بعد أن اطمأنوا أنهم بنجوة من الخطر بسبب الفيضان . وجرت مذبحة مريعة ، وأصاب الملك صمويل وابنه الجراح ، ولم ينقذهما من الهلاك إلا التظاهر بالموت ، حتى إذا سنحت لهم الفرصة لاذا ليلا بالفرار ، وعندئذ أخذ نجم صمويل فى الأفول[٢] .

ولما فرغ نقفور أورانوس وجيشه المظفر من الحصول على أسلاب القتلى من البلغار ، وأطلق سراح الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا فى أيدى صمويل ، واستباحوا معسكر البلغار ، وأحرزوا ما حصل عليه صمويل من الغنائم من البيلوبونيز وأتيكا ؛ اتخذ طريقه إلى سالونيك[٣] . وبفضل

(١) Ibid : p. 139.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 138.
Cam. Med. Hist. IV, p, 241.

(٣) Schlumberger : op. cit. II. pp. 142—143.
يشير يحيى بن سعيد ، إلى أن نقفور الأورتون الماجسطرس ، قتل من من البلغر مقتلة عظيمة ، وأدخل إلى القسطنطينية ألف رأس منهم ، واثنى عشر ألف أسير (يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٨) .

هذا الانتصار جرى استخلاص بلاد اليونان والبيلوبونيز ، وتحريرها نهائياً من الخطر البلغارى[١] .

وحوالى سنة ١٠٠٠ ، استولى البيزنطيون على دورازو ، الواقعة على بحر الأدرياتى ، وقد كانت عاصمة لثغر بهذا الاسم ، وتقع على رأس الطريق المعروف باسم **Via Egnatia** الذى يجتاز مقدونيا[٢] .

ما كاد الإمبراطور باسيل يوطد نفوذه فى أرمينيا وبلاد الكرج ، ويعقد الهدنة مع الخليفة الفاطمى ، فى أوائل سنة ١٠٠١ م ، حتى التفت إلى مواصلة القتال ضد البلغار[٣] .

وما أشار إليه يحى بن سعيد ، من أنه حينما استقرت الهدنة بن باسيل والحاكم بأمر الله ، توجه لقتال البلغار ، ولبث ببلادهم أربع سنين ، إنما يدل على خطورة تلك الحرب ، التى تطلبت من باسيل حشد كل عساكره ضد

(١) Schlumberger : II. p. 143.
وما أورده يحيى بن سعيد عن حرص ملك البلغار على أن يبذل الطاعة للإمبراطور باسيل ، وقبول الإمبراطور هذا العرض ، إنما يدل على شدة ما حل بصمويل من كارثة ، وعلى أن الإمبراطور كان مهتما وقتذاك بالحملة التى وجهها الفاطميون إلى بلاد الشام ، وتقدمها على امتداد الساحل . ولما أدرك باسيل أن ملك البلغار لم يكن جاداً فى عرضه ، أرسل إليه من جديد نقفور بحملة جديدة سنة ٩٩٧ ، توغلت فى غرب بلاد البلقان ، حتى بلغت صوفيا غير أن هذه الحملة لم يكن لها نتائج هامة فى الحروب البلغارية التى استمرت سنوات عديدة .
(انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٨)

(٢) Schlumberger : op. cit. II. pp. 143—144.
(٢) الراجح أن البلغار استولوا عل هذه المدينة ، فى الوقت الذى سقطت فى أيديهم مدن بيزنطية أخرى تقع على ساحل ابيروس وايلليريا وذلك منذ الحملة الكبيرة التى قادها صمويل سنة ٩٨٦ ، وتوجه صوب الجنوب حتى بلغ برزخ كورنثه .
ويعتبر ضياع دورازو خسارة كبيرة لملك البلغار ، لما لها من أهمية فى مراقبة مملكة الصرب المجاورة له . وحدث أثناء سنة ٩٩٨ أن عهد الإمبراطور باسيل ، إلى تابعه دوج البندقية ، بإدارة ثغر دالماشيا ، الذى يجاور دورازو ، نظراً لأنه بلغ من البعد عن حاضرة الإمبراطورية ، ما يجعل من العسير على العساكر البيزنطية ، أن تنجح فى حمايته من اعتداء ملك الكروات .
(Schlumberger : II. pp. 149—147.)

(٣) Ibid : pp. 201. 211.

صمويل(١). إذ أدرك باسيل أن إمبراطوريته لن يرفرف عليها السلام والهدوء ، ما لم يقمع نهائياً قوة ملك البلغار ، ولذا ما كاد باسيل يعقد الهدنة مع الحاكم سنة ١٠٠١ م حتى توجه إلى بلاد البلغار فبقى بها حتى سنة ١٠٠٥(٢) .

وإذ تجمعت عساكره فى فيليبوبوليس ، اجتاز باسيل ممر تراجان إلى السهل الشاسع الذى تقع به صوفيا ، واستولى البيزنطيون على كثير من الحصون بهذا الإقليم ، ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى . ثم توجهوا صوب الشرق ؛ حيث بلغوا منازلهم فى mosynopolis على أحد فروع نهر موستوس Mostos ؛ حيث أمضوا فصل الشتاء(٣) . وأرسل باسيل فى هذا الموضع قوة عسكرية ضخمة بقيادة البطريق Theodorokanos ، والبروتوسباتار نقفور أكسيفياس ، لشن الهجوم على القلاع البلغارية الواقعة وراء جبال هايموس Haemus ، وذلك سنة ١٠٠٢ . واستولى هذا الجيش على بريسلاف الكبرى والصغرى ، وعلى بليسكا فضلا عن الغنائم الوفيرة التى حصل عليها(٤) .

والواضح أن باسيل لم يقصد بإرسال هذه الحملة سوى الاستيلاء على وادى نهر الدانوب ، إذ تقع بلغاريا القديمة فى ذلك السهل الكبير ، بين نهر الدانوب ، والمنحدرات الشمالية لجبال البلقان ، وهو السهل الذى سبق أن استرده زمسكيس من سفياتوسلاف(٥) .

وترتب على هذه الفتوح ، أن صمويل أضحى غرب البلقان ، وقد أحاطت به الممتلكات البيزنطية من جهتى الشرق والجنوب(٦) ونستطيع أن نقف على ما اتخذه باسيل من خطة للقضاء على خصمه صمويل ، إذ أنه أخذ

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤ — ١٨٥ . Ibid : P. 212.
(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٥ .
(٣) Schlumberger : op. cit. II. pp. 214 — 215.
(٤) Ibid : p. 215.
Camb. Med. Hist. IV. p. 241.
(٥) Schlumberger : op. cit. II. p. 215.
(٦) Ibid : p. 217.

يكيل له الضربات المتتالية ، حتى تضمحل قوته ، وهذا هو السر فى أنه أمضى سنوات بأسرها فى بلغاريا أو على أطرافها : ينتزع المدينة بعد المدينة ، ويستولى على الحصن بعد الحصن(١) .

وفى الحملة التى قادها باسيل سنة ١٠٠٣ ، من مقر قيادته سالونيك ، هاجم الطرف الجنوبى لمملكة صمويل مثلما هاجمه من قبل من جهة الشرق ، فاستولى على برهويا Berrhoea (فريا الحالية) ، وهو حصن هام يقع إلى الجنوب قريباً من سالونيك(٢) . ولهذا الحصن أهمية بالغة فى حماية سالونيك وتساليا ، نظراً لتحكمه فى المواصلات من سالونيك ، وفى الطريق العسكرى الرئيسى Via Egnatia ، والمؤدية إلى إقليمى تساليا وهيلاد(٣) . فبفضل استرداد هذا الحصن المنيع ، تهيأ لباسيل أن يمنع البلغار من مواصلة الإغارة على الثغور الجنوبية ، وبذلك ازداد التضييق على الأقاليم البلغارية ، وتدعمت النتائج التى سبق أن حصل عليها نقفور أورانوس بعد انتصاره فى معركة على نهر سبرخيوس(٤) وتم أيضاً الاستيلاء على سرفيا Servia ، الواقعة على حدود مقدونيا وتساليا ، وتسيطر حصنها على الطريق المؤدى إلى تساليا وسائر أقاليم ثغر هيلاد(٥) . وتقرر نقل سكانها من البلغار إلى موضع آخر بالإمبراطورية ، وأنزل بها حامية عسكرية(٦) .

ثم اجتاز باسيل درب سرفيا إلى تساليا ، واستولى أثناء مسيره على ما بيد البلغار من الحصون بعد أن حاصرها ، ومن الملحوظ أن الحاميات البلغارية لم تبذل مقاومة عنيفة ، بل لجأت إلى التسليم بدون قيد ولا شرط . والتزم

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٥ . Ibid : p. 218.
(٢) Ibid : p. 218.
(٣) Schlumberger : II. p. 219.
(٤) Ibid : p. 219.
(٥) Ibid : p. 221.
(٦) Ibid : p. 222.
Camb. Med. Hist. IV. p. 241.

باسيل بالسياسة البيزنطية التقليدية ، بأن أرسل هؤلاء العساكر البلغار لاستثمار الأراضى الخصيبة الواقعة على ضفتى نهر ماريتزا عند فولبروس Voleros ، قريباً من المصب فى بحر إيجه . ثم توجه باسيل من جديد صوب الشمال حتى بلغ فودينا Vodhena فى مقدونيا(١) ، فاستولى عليها بعد أن حاصرها ، وطرد حاميتها إلى ڤولبروس ، وأقام بها حامية بيزنطية ، ثم ارتحل باسيل بجنده إلى سالونيك(٢) .

وما وضعه باسيل من الخطط أخذت تتحقق شيئاً فشيئاً ، إذ أن النطاق الحديدى الذى أقامه حول بلغاريا ، أخذ يضيق بالتدريج . ففى السنة السابقة سقطت بلغاريا الدانوب فى أيدى القوات البيزنطية . وفى هذه المرة لم تسقط فحسب تساليا ، بل دان أيضاً للبيزنطيين مقدونيا وما بها من مواضع منيعة ، أمثال ڤاريا وفودينا حيث استقرت بها حاميات عسكرية بيزنطية(٣) . أما سلطان صمويل فإنه انحسر إلى الشمال الغربى وتركز فى المناطق الوعرة المنيعة بشمال مقدونيا ، وفى الغابات الكثيفة والوديان العميقة والسهول المحيطة بأعالى الجبال الممتدة إلى غرب البلقان حتى قرب بحر الأدرياتيك . وامتنع البلغار بهذه الجهات وظلوا يناضلون فى سبيل المحافظة على استقلالهم ، نحو خمس عشرة سنة أخرى ، حتى خر ساجداً آخر ملوكهم أمام الإمبراطور البيزنطى باسيل(٤) .

والراجح أن باسيل أمضى الشتاء ، فى سالونيك ، التى تولى أمرها البطريق داود أريانيتس Arianites بعد أن انتقل حاكمها نقفور أورانوس ليتولى حكم أنطاكية ، كما أن اكسيفياس تولى حكومة فيليبوبوليس(٥) .

وأخذ البيزنطيون يستولون على ما فى تساليا ومقدونيا من الحصون ، وفى

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 223.
Camb. Med. Hist. IV. p. 241.
(٢) Ibid : p. 241.
(٣) Schlumberger : op. cit. II. p. 223.
(٤) Schlumberger ; op. cit. II. p. 226.
(٥) Ibid : p. 226.

سنة ١٠٠٤ ، حاصر باسيل مدينة ويدين Widdin الواقعة على نهر الدانوب ، وظل نحو ثمانى شهور يضيق الحصار عليها ، حتى سقطت آخر الأمر فى أيدى البيزنطيين(١) . ثم اجتاز باسيل بلغاريا ، فى طريق عودته إلى عاصمته ، فاستولى على مدينة اسكوب Skopia ، التى تبعد ثلاثين ميلا عن نهر فاردار(٢) ، ثم واصل السير فبلغ القسطنطينية حوالى أوائل سنة ١٠٠٥(٣) .

وتعتبر الفترة التى تلت حروب باسيل فى بلغاريا فى السنوات الواقعة بين ١٠٠١ ، ١٠٠٤ ، أغمض فترة فى حكمه . على أن ما اتصف به البلغار من شدة المقاومة ، والحرص على استقلالهم ، لم يكن يضارعه سوى عزم باسيل على قمعهم وقهرهم . إذ دأب الإمبراطور باسيل على أن يتوجه كل سنة بجيشه فى داخل بلغاريا ، وعلى أن يخرب ما يصادفه من البلاد وأن يخليها من السكان ، أما صمويل فإنه لما أحس بتضاؤل جيشه ، وضعف قوته ، وأنه لم يسعه أن يواجه القوات البيزنطية ، حرص على أن يجنب قومه التعرض لهذه الحملات ، بأن أغلق ما يؤدى إلى بلاده من المنافذ ، وأن يتخذ من أساليب حرب العصابات ، والكمائن ما يعوق حركات العدو(٤) .

وما حدث فى المرحلة الثالثة والأخيرة من الحروب ضد البلغار ، إنما كان الغرض منها الاستيلاء على المنافذ المؤدية إلى بلغاريا . ففى سنة ١٠٠٦ وسنة ١٠٠٧ ، زحف بجيشه لمهاجمة البلغار ، فأقام ببلادهم فترة طويلة من الزمن ، وفى سنة ١٠٠٩ أنزل بهم هزيمة منكرة عند كريتا (توبيتز الحالية)(٥) .

ومنذ سنة ١٠٠٩ حتى سنة ١٠١٤ ، لم يرد فى المصادر ما يشير إلى الحرب البلغارية . وإذ أدرك صمويل أن باسيل الثانى جرى على أن يتوغل سنوياً فيما تبقى

(١) Ibid : p. 227.
(٢) Ibid : pp. 227— 230.
(٣) Ibid : p. 321.
(٤) Schlumberger : op. cit. II. p. 334.
(٥) Schlumberger : op. cit. II. p. 335.

له من ممتلكاته ، وصار فى غزواته يجتاز درب سيمبالونجو Cimbalongou وكلايديون Kleidion بوادى نهر ستريمون ، عزم على أن يوصد هذا الدرب فى وجه الإمبراطور البيزنطى(١) . فلما قدم باسيل فى سنة ١٠١٤ لمواصلة الغزو فى بلغاريا ، جرياً على عادته ، ألفى الدرب مسدوداً ، وتعرض لمقاومة بالغة العنف(٢) . وما كاد باسيل يفكر فى التراجع والارتداد ، حتى بادر أحد قادته ، وهو نقفور اكسيفياس حاكم ثغر مقدونيا ، باتخاذ ما يلزم لحمل العدو على تغيير مواضعه ومراكزه(٣) . فبينما كان الإمبراطور باسيل يوجه هجوماً عنيفاً على متاريس العدو ، ويحمل البلغار على أن يركزوا اهتمامهم به ، استطاع قائده أكسيفياس بمن معه من قوة عسكرة منتخبة ، أن يجتاز بفضل مساعدة حراس الغابات ، قمة جبل بلاثيست Balathiste بالجنوب الغربى من درب كلايديون ، ومن ثم انقض على مؤخرة العــدو وذلك فى ٢٩ يولية سنة ١٠١٤(٤) .

وترتب على هذا الهجوم المفاجئ ، أن وقع الاضطراب فى صفوف البلغار ، ولاذوا بالفرار ، ودمرت عساكر باسيل ما أقامه البلغار من استحكامات . وانطلقوا يطاردون البلغار ، فاجروا مذبحة مريعة ، وكاد صمويل نفسه يقع فى أيدى البيزنطيين ، ولم ينقذه من الأسر إلا ابنه بعد قتال عنيف . ولجأ الاثنان إلى قلعة Prilep ، بوادى تشيرنا Tcherna أحد فروع نهر فاردار(٥) . على أن العساكر البيزنطيين استباحوا البلاد وخربوها ، واستولوا على مواضع وحصون عديدة . وقرر باسيل آخر الأمر أن يوجه إلى خصمه العنيد ضربة

---

(١) Ibid : p. 336.
Camb. Med. Hist. IV. p. 241.

(٢) Schlumberger : II. p. 335.

(٣) Ibid : pp. 335 — 336.

(٤) Schlumberger : op. cit. II. p. 338.
Camb. Med. Hist. IV. p. 241.

(٥) Ibid : p. 241.
Schlumberger II. p. 238,

قاضية ، كما يتوقف نهائياً عن المقاومة . فحينما استولى على دروب سيمبالونجو ، وقع فى الأسر فى أيدى عساكره ، ١٥ ألف من العساكر البلغار ، فأمر باسيل بسمل أعين هؤلاء الأسرى جميعاً ، واكتفى بأن جعل على كل مائة من هؤلاء الأسرى دليلا بعد سمل عينيه ، ثم بعث بهم إلى قومهم ليكونوا عبرة لهم(١) . وما كاد صمويل يرى هذا المنظر حتى خر مغشياً عليه ، ولم يلبث أن قضى نحبه بعد يومين ، وذلك فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٠١٤ ، ولم تعش بعده بلغاريا الغربية سوى أربع سنوات(٢) .

على أن المقاومة انبعثت من جديد فى بلاد موجلين الوعرة Moglenes التى تقع إلى الشمال الشرقى من Vodhena . فأرسل باسيل فى أوائل الربيع من سنة ١٠١٦ ، العساكر بقيادة نقفور اكسيفياس وقنسطنطين ديوجين الذى صار حاكماً لثغر سالونيك ، فركزا هجومهما على حاضرة البلاد وهى موجلينا ، وحصرا المدينة حتى قدم باسيل ، الذى بادر إلى تحويل مجرى المياه الذى يتألف منه جانب من جوانب الدفاع . ثم جرى نقب أسوار المدينة ، ولم تلبث الحامية أن أعلنت الإذعان ، وطلب الجند البلغار من الإمبراطور باسيل أن يبقى على حياتهم ، ووقع فى أيدى باسيل جماعة من مشاهير البلغار ، فضلا عن عدد كبير من الأسرى(٣) . وحرص باسيل على تحطيم المقاومة ومنع انبعاثها من جديد ، أمر بنقل كل سكان موجلين القادرين على حمل السلاح ، إلى أقصى الطرف

---

(١) Ibid : p. 241.
Schlumberger : II. p. 339.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 339.
Camb. Med Hist. IV. p. 241.
الواقع أن باسيل لجأ إلى هذا الإجراء العنيف ، ليفرغ نهائياً من هذه الحروب التى ظلت ثلاثين سنة تستنفذ قوى الإمبراطورية ، فقضى بذلك على كل الآمال القومية وكل مقاومة متوقعة ، بأن أرسل إلى كل قرية فى بلغاريا أحد هؤلاء الأضراء التعساء ، ليكون شاهداً ناطقاً على قوة الإمبراطور البيزنطى .
Schlumberger : II. p. 341.

(٣) Ibid : pp. 354 — 356.

الشرق للإمبراطورية عند الحدود الفارسية ، فأنزلهم بالجهات التى امتلكها حديثاً ، وهى فاسبوركان ، وأحل مكانهم جماعات أخرى من الفلاحين ، من آسيا ، من الأرمن أو الكرج(١) .

ولم يبق ابنه جبريل رومانوس على الحكم بعده سوى سنة واحدة ، إذ اغتاله ابن عمه ، حنا فلاديسلاف Vladislav ، الذى توسل لأبيه فى أن يبقى على حياته ، حينما أمر صمويل بإعدام هرون ، والد حنا فلاديسلاف وسائر أفراد أسرته(٢) . وتخلص فلاديسلاف من جميع المنافسين له على العرش ، ولما أصبح قيصراً على البلغار ، حرص على تسوية الأمور مع الإمبراطور باسيل ، فأرسل إليه يعلن خضوعه واستسلامه للإمبراطور دون قيد ولا شرط(٣) . على أن الإمبراطور لم يثق فى نوايا القيصر الجديد ، وعزم على مواصلة القتال حتى يقضى على كل أثر للمقاومة(٤) . فرتحل بجيشه من فودنيا على نهر Ostrova ، واجتازوا وادى تشيرنا ، ثم واصلوا السير حتى بلغوا بحيرة أوكريدا Ochrida ، التى يقع على طرفها الجنوبى عاصمة صمويل ملك البلغار ، وهى مدينة اكريدا Achrida(٥) . ولهذه المدينة أهميتها ، نظراً لمناعة موقعها على الجبال ، ولوقوعها على الطريق الرومانى القديم المعروف باسم Via Egnatia ، الذى يمتد من سالونيك إلى دورازو على بحر الأدرياتى ، مجتازاً السلسلة الوسطى من جبال البلقان ، وبذلك يجعل الاتصال ميسوراً بين شطرى أملاك الإمبراطورية البيزنطية فى أوربا ، أى بين بحر الأدرياتيك من جهة ، وبين سالونيك وبحر الأرخبيل والقسطنطينية من جهة أخرى(٦) . وكل من

---

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 356.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 242.

(٣) Ibid : p. 242. Schlumberger II. p. 358.

(٤) Schlumberger : II. p. 359.

(٥) Camb. Med. Hist. IV. p. 242.
Schlumberger : II. p. 360.

(٦) Ibid : p. 362.

وقع فى أسر باسيل من العساكر البلغار أثناء مسيره ، أمر بسمل عيونهم(١) . وبعد أن استولى باسيل على اكريدا ، وتوجه لإنقاذ دورازو التى تعرضت لهجوم البلغار ، تحتم عليه أن ينسحب إلى سالونيك ، بعد أن علم بما أنزله أحد النبلاء البلغار واسمه إيفاتز Ivats (Ibatzés) من هزيمة بإحدى سرايا الجيش البيزنطى(٢) . واستمر البلغار على مقاومتهم وأفادوا من وعورة بلادهم فى الاستماتة فى الدفاع ، فصمدت Pernik للحصار الذى فرضه عليها باسيل واستمر ٨٨ يوماً ، وذلك سنة ١٠١٦ . وحاول قيصر البلغار أن يتحالف مع البجناك النازلين وراء الدانوب ، لقتال البيزنطيين(٣) . غير أن البجناك لم يستجيبوا له ، حتى لا يتعرضوا لغضب الإمبراطور البيزنطى(٤) .

على أن فلاديسلاف ظل رابط الجأش ، قوى الإرادة ، على الرغم من تخلى البجناك عنه ، فاستطاع أن يوقع حاكم سالونيك ، قنسطنطين ديوجين ، بمن معه من العساكر فى كمين ، فنهض باسيل لإنقاذه ، غير أن البلغار ولوا الأدبار . وحصل باسيل على غنائم وفيرة ، واستسلم له عدد كبير من الجند البلغار ، ومن الغنائم متاع فلاديسلاف نفسه(٥) . وبعد أن أخذ باسيل يعمل على استقرار الأمن والهدوء فى البلاد التى خضعت له ، قدم إلى عاصمته ، القسطنطينية فى يناير سنة ١٠١٨(٦) .

وأفاد فلاديسلاف من فترة الهدوء ، فشن الحرب على جهة أخرى من أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، إذ هاجم بكل ما لديه من قوات حصن دورازو ،

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 262.

(٢) Schlumberger : II. p. 363.
Camb. Med. Hist. IV. p. 242.

(٣) Ibid : p. 242.
وحدث فى تلك السنة أيضاً أن وجه باسيل إلى الخزر أسطولا بقيادة بارداس دوكاس المعروف باسم مونجوس Mongos ، فأخضع بلادهم للسيادة البيزنطية ، ووقع حاكم البلاد أسيراً فى أيدى القوات البيزنطية عند أول لقاء . (Schlumberger II. pp. 365 — 366.)

(٤) Ibid: p. 368. Camb. Med. Hist. IV. p. 242.

(٥) Ibid : pp. 379 — 381.

(٦) Ibid : p. 381.

غير أنه ما كاد يشرع فى حصاره حتى لقى مصرعه على يد أحد البلغار الثائرين سنة ١٠١٨ ، فانتقم بذلك لمصرع القيصر صمويل[1] . وعلى الرغم من قصر مدة حكم فلاديسلاف ، التى لم تتجاوز سنتين ونصف سنة ، فيصح اعتباره خير خليفة لصمويل فى النضال الذى واصله من أجل استقلال بلاده[2].
واغتنم باسيل هذه الفرصة فتوجه نحو الشمال فى مارس سنة ١٠١٨ ، بعد أن كاتبه « رؤساء البلغر يرغبون إليه فى أن يتسلم ما فى أيديهم من الحصون والبلاد، ويستأذنونه فى القدوم إليه ، والتصرف حسب أوامره »[3] . فالتقى فى أدرنه بابن كراكراس Krakras وكبار زعماء البلغار. فأعلنوا استسلام ٣٦ حصناً بلغارياً ، من بينها حصن برنيك الذى لا زال حتى وقتذاك يقاوم هجمات البيزنطيين[4] . والراجح أن هذه الحصون تعتبر آخر ما استسلم فى شمال بلغاريا ولذا عاد باسيل بجيوشه إلى منازله فى موزينوبوليس Mosynopolis[5] .

وبذلك حاز الإمبراطور وعساكره النصر النهائى سنة ١٠١٨ بعد نضال استمر ٤٢ سنة[6] . وتقدم باسيل لتسلم هذه الممتلكات التى دانت لهم[7] ، وعند سترومنتزا Strumnitza استقبل البطريرك داود ورجال الدين ، وقد حمل إليه رسائل من الملكة ماريا ، تتضمن تنازلها عن كل ما لها من حقوق على بلغاريا ، والتنازل للإمبراطور باسيل عن كل المملكة ، بشرط أن يبذل

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 242.
Schlumberger : II. p. 381.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٦ — ٢١٧ .
(٢) Ibid: p. 382.
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٦ . Ibid: p. 382.
(٤) Ibid: p. 382.
(٥) Ibid: p. 382
(٦) Schlumberger : op. cit. II. p. 383.
(٧) اقتسم بلغاريا بعد مصرع قيصرها فلاديسلاف ، حزبان ، يتألف الحزب الأول من الملكة ماريا زوجة فلاديسلاف ، والبطريرك داود ، وبغدان Bogdan متولى الحصون الداخلية . أما الفريق الثانى ، وهو أضعفهما فيتألف من فروين Fruyin ابن فلاديسلاف وعسكر إيفاتز
Camb. Med. Hist. IV. p. 242.

لها باسيل ما تراه ضرورياً لحمايتها . وقدم أيضاً إلى هذا الموضع ، بغدان متولى الحصون الداخلية ، فرحب به الإمبراطور ، وجعله بطرقاً[1] . ثم مضى باسيل من سترومنتزا ، متتبعاً نهر فاردار حتى بلغ سكوب فعهد بإدارتها إلى البطرق داود أريانيتس Arianites ، واستولى على ما صادفه فى طريقه من الحصون ، ولقى أثناء سيره الترحيب والهتاف من سكان المواضع التى اجتازها ، بعد أن اطمأنوا إلى وقف القتال . ثم اتخذ طريقه نحو الجنوب الغربى ، ثم إلى أكريدا العاصمة البلغارية التى تعتبر الحاضرة السياسية والدينية لبلغاريا الغربية . فأقام معسكره عند أبواب المدينة ، وخرج للقائه سكان المدينة وعلى رأسهم رجال الدين يهللون له ويهتفون باسمه[2] ، واستولى على كل ما فى القصر من الأموال والتحف[3] واستقبل باسيل فى معسكره ، خارج المدينة ، الملكة ماريه ، وبصحبتها بناتها الست ، وأبناؤها الثلاثة ، وابن غير شرعى لصمويل ، وخمسة أبناء وبنتان لجبريل رادومير رومان (ابن صمويل) ، وتلطف الإمبراطور فى استقبالها هى وأسرتها ، كما أنه أحسن معاملة أعيان البلاد الذين قدموا لإعلان خضوعهم واستسلامهم . على أن أبناء ماريا الثلاثة الآخرين وأشهرهم فروين Furyin ، هربوا إلى جبل تومور Tomor ، بالقرب من بيرات Berat ، حيث حاولوا الإبقاء على استقلال بلغاريا فى مرتفعات ألبانيا . واعتصم ايفاتز Ivats بقلعته فى برونيشتا Pronishta الواقعة أيضاً فى هذا الإقليم الجبلى .
ومع ذلك لم يلبث الأمراء الصغار أن أذعنوا ، فمنحهم الإمبراطور التشاريف والألقاب ، أما ايفاتز فلم يطل أمر اعتصامه بقلعته إذ تم القبض عليه ، وتقرر سمل عينيه ولم يلبث النبيلان الآخران أن أذعنا وخضعت بلغاريا آخر الأمر بعد نضال استمر أربعين سنة[4] .

(١) Schlumberger : II. p. 384.
(٢) Schlumberger : op. cit. II, pp. 285 — 286.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 242.
(٤) Camb. Med. Hist IV. p. 242.

وبعد أن هدأت الأحوال فى البلاد التى استولى عليها ، لاسيما فى دورازو ودرينوبوليس Drynopolis ، وكولونيا Colonia أى كل أجزاء الإقليم المعروف قديماً باسم إبيروس ، وجعل باسيل على إدارة هذه الجهات حكاماً ، تخضع لهم حاميات عسكرية قوية[١] .

وعند اجتيازه تساليا ، تقاطر الناس للترحيب به واعتبروه مبعوث العناية الإلهية لتخليصهم من الغزو البلغارى . على أن باسيل حرص قبل المضى إلى القسطنطينية وبعد أن غاب عنها زمناً طويلا ، على أن يتوجه إلى أثينا ، ليحتفل فى كنيسة البارثينون ، التى تعتبر من أعرق الكنائس ، بما أحرزه من انتصارات[٢] . واجتازت العساكر أثناء سيرها بالموضع الذى نشبت فيه سنة ٩٩٥ ، معركة حامية بين نقفور أورانوس وبين صمويل ، واندحر فيها ملك البلغار ، فشهدوا عظام من سقط صريعاً من البلغار ، تغطى الجهات القريبة من سبرخيوس Speréhios ، ولفت أيضاً نظر الإمبراطور الحائط الضخم الذى شيده قائده الأرمنى ، روبين ، ليسد درب ترموبيل ، ليغلق الطريق فى وجه البلغار ، ويمنعهم من مواصلة الإغارة على ثغور بلاد اليونان ، واستغرقت رحلة الإمبراطور فى مقدونيا وتساليا نحو سنة (١٠١٨)[٣] .

ثم اتخذ باسيل آخر الأمر الطريق إلى القسطنطينية ؛ بعد أن ظل سنوات عديدة يقاتل عدوه ، وبعد أن استغرقت سفرته الأخيرة المظفرة مدة طويلة ، وبعد أن اطمأن إلى ما أقامه من حكومات فى البلاد التى استردها من البلغار . ومن المحقق أنه سلك الطريق المعهود ، الذى يجتاز تساليا وسالونيك ، ثم إلى موزينو بولس Mosynopolis . والراجح أنه استقل من بريه سفينة إلى القسطنطينية ، التى دخلها فى موكب حافل[٤] ، فليس ثمة ما هو أجدر

---

(١) Schlumberger : op. cit. II. pp. 385 — 391.

(٢) Ibid : p. 395.

Camb. Med. Hist. IV. p. 242.

(٣) Schlumberger : op. cit II. pp. 398 — 400.

Camb. Med. Hist. IV. p. 242.

(٤) Schlumberger : II. p. 410.

بالاحتفال من هذا الانتصار . فالمملكة البلغارية التى امتدت أطرافها فى وقت من الأوقات ، حتى بلغت أبواب سالونيك والقسطنطينية ، والتى استولت لمدة طويلة ، على ما يزيد على ثلثى أقاليم شبه جزيرة البلقان ، لم يعد لها وجود . واختفى أيضاً ذلك الخطر الشديد الذى تعرضت له دائماً بيزنطة[١] .

واجتاز الإمبراطور باسيل باب الذهب فى موكبه ، إلى داخل القسطنطينية ، فسار ممتطياً جواده مرفوع الرأس ، كأنه فى ربيع العمر ، يعلو التاج هامته ، ومشى راجلين أمامه ، مارية ملكة البلغار ، وبنات الملك صمويل ، وسائر الأمراء والأميرات ، فضلا عن عدد كبير من كبار أسرى البلغار ، وتلى الموكب ما ظفر به من الأموال والتحف فى اكريدا ؛ وذلك فى أوائل سنة ١٠١٩ . ثم توجه الإمبراطور المظفر ، وسط الأناشيد والأغانى والتّهليل ، إلى الكنيسة الكبرى ، كنيسة القديسة صوفية[٢] ، حيث أدى الصلاة ، شكراً لله على ما حباه من الانتصارات التى ختم بها الحروب البلغارية التى طال أمدها ، ثم عاد إلى قصره ليستريح من عناء الحملات المضنية . والراجح أن الإمبراطور ، أثناء هذه الاحتفالات اشتهر لأول مرة باسم جزار البلغار Bulgaroctone ، تمييزاً له عن سميه ، باسيل الأول ، مؤسس الأسرة المقدونية[٣] .

حطم باسيل الإمبراطورية البلغارية ، بعد حروب هلك فيها آلاف الرجال من الجانبين . وبذلك خضعت بلغاريا لبيزنطة ما يقرب من قرنين (حتى سنة ١١٨٥) ، حاولت بعدئذ أن ترفع عن كاهلها النير البيزنطى . واشتد سرور الإمبراطور باسيل ، لما قام به من عمل مجيد ، فبلغت الإمبراطورية فى عهده أزهى مجدها ، وما أحرزه من انتصارات فاقت ما أحرزه كل من نقفور فوكاس وحنا زمسكيس[٤] . فلم تبلغ الإمبراطورية البيزنطية ، منذ زمن جستنيان

---

(١) Schlumberger : op cit. II. p. 410.

(٢) Ibid : p. 411.

(٣) الراجح أن البطريرك سرجيوس ، اغتنم فرصة هذه الاحتفالات ، وطلب من الإمبراطور أن يرفع عن الناس الضريبة المعروفة باسم Allehengyon غير أن محاولته باءت بالفشل .
(Ibid : p. 411.)

(٤) Schlumberger : op. cit II. p. 412.

وهرقل ، من القوة والسلطان مثلما بلغته فى مستهل سنة ١٠١٩ بما أحرزه باسيل من انتصارات باهرة(١) . ولأول مرة منذ جستنيان ، لم يجد الإمبراطور من ينازعه السلطة فى أوربا ، من حد الدانوب إلى أقصى البيلوبونيز . وتحسن أيضاً مركزه فى آسيا ، فدان لعماله وولاته سكان البلاد الممتدة من كولكيس Colchis وأطراف أرمينيا ، حتى أطراف شمال الشام . وبفضل جهود قطبان إيطاليا ، قوى شأن الإمبراطورية البيزنطية فى أملاكها الإيطالية ، وأضحى الأسطول البيزنطى أقوى الأساطيل وقتذاك ، وأحسنها قيادة ، وأشدها تجهيزاً وإعداداً، وأعظمها توجيها. ومن الدليل على قوة الجيش البيزنطى ،أن صار أداة طيعة فى يد إمبراطور بارع ، يدفع به إلى شواطىء الدانوب، وجبال ألبانيا، ووديان القوقاز ، وإلى الرمال المحرقة بإقليم الجزيرة ، وإلى شاطىء البحر المتوسط ، على أنه إذا حدث فيما بعد ، أن اتحدت بلغاريا لإقامة إمبراطورية ، فلن تبلغ العداوة بينها وبين بيزنطة ما بلغته من قبل(٢) .

ترتب على انهيار مملكة صمويل البلغارية ، أن سائر البلاد المتاخمة لشبه جزيرة البلقان، والتى أفادت من القتال المرير بين بيزنطة وبلغاريا فى المحافظة على استقلالها ، لم تلبث أن أعلنت خضوعها للإمبراطور البيزنطى ، الذى لم ينازعه أحد القوة والسلطان . فالكروات — وهم من الصقالبة ، وينزلون على نهر الساف ، وفيما بين هذا النهر وبحر الأدرياتى ، يسيطرون على هذه الجهات من إقليم ايلليريا ، وانتزعوا من البنادقة سنة ١٠١٨ ، السيادة على دالماشيا — حرصوا على أن يكسبوا عطف الإمبراطور ، فأنعم على أمرائهم بالتشاريف والألقاب، وقبل ملكهم كريزيمير Cresimir أن يحكم ما تحت يده من البلاد باعتباره من أتباع الإمبراطور البيزنطى(٣) .

والمعروف أن جانبا من الجيش البيزنطى توجه إلى شواطىء بحر الأدرياتى ،

(١) Ibid : p. 413.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 414.

(٣) Ibid : p. 415.

ليتم إخضاع الأقاليم الجبلية الوعرة الممتدة من ثغر دورازو حتى أطراف دالماشيا وبلاد الصرب . وسار ببحر الأدرياتى أسطول لمساندة القوات البرية ، فاعترف زعماء الصرب وسادتهم بالسيادة البيزنطية(١) .

لم يتوافر من المعلومات ، ما يجعلنا نقف على ما قامت به حكومة باسيل من تنظيم جديد لأقاليم بلغاريا بعد الاستيلاء عليها . وما تضمنه مرسوم الإمبراطور ميخائيل باليولوغوس، من الإشارة إلى ما أصدره باسيل الثانى من القرارات ، التى تتعلق بإدارة الممتلكات الجديدة ، إنما ارتبطت بالنظام الكنسى ، ولم يكن لها من غرض سوى إقرار ما لكنيسة بلغاريا من حقوق سياسية وعقارية ، وليس لها صلة بالإدارة المدنية للبلاد(٢) . على أن يحيى بن سعيد هو الوحيد بين المؤرخين المعاصرين ، الذى أشار إلى ما وضعه باسيل الثانى ، بعد انتصاره النهائى سنة ١٠١٨ ، من نظام لإدارة بلغاريا(٣) .

يذكر يحيى بن سعيد أنه لما هلك حنا فلادبسلاف سار الإمبراطور باسيل إلى بلاد البلغار فى شوال سنة ٤٠٨ (فبراير — مارس سنة ١٠١٨) ، « فاستقبله جماعة الرؤساء بها ، وتسلم حصونهم، وأحسن إليهم ، ورتب كل واحد منهم على ما يقتضيه استحقاقه ، واستبقى الحصون المنيعة ، وولى عليها ولاة من الروم (البيزنطيين) وأخرب ما سواها . وأصلح أمور البلغرية، وقرر فيها باسيليقية ، basilikoi ، وهم المتولون جميع الأعمال والأموال . وصارت مملكة البلغر مضافة إلى مملكة الروم ، وجعلها قطبانية ، وذلك فى السنة الرابعة والأربعين من ملكه . ثم عاد (باسيل) إلى القسطنطينية ، وزوج بنات البلغر أولاد الروم ، وبنات الروم إلى بنى البلغر ، وخلطهم بهم ، وأزال بذلك الضغائن القديمة التى بينهم »(٤) .

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 415.

(٢) Ibid : p. 418.

(٣) Ibid : p. 419.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٦ — ٢١٧ .
Schlumberger : op. cit. II. pp. 419 — 420.

ونستطيع أن نستخلص من مرسوم الإمبراطور ميخائيل باليواوغوس ، ومن عبارة يحيى بن سعيد ، ما بذله باسيل لكنيسة بلغاريا من امتيازات ، وما جعله للطبقات المدنية من حقوق سياسية[١] .

على أن باسيل لم يحرز النصر بفضل قوة السلاح فحسب ، إذ كان لزاماً عليه أيضاً أن يتخذ من وسائل التآمر والسخاء ما يحقق هدفه . فظهرت عيوب ومثالب كثيرة فى أسرة القمطورياس Comitopoule ، فما حدث فى مستهل الحرب البلغارية من انحاذ البزنطين شقيق صمويل — هرون — حليفاً لهم ، جرى اعتباره ، خيانة كلفته ضياع حياته . ولم يتردد حنا فلاديسلاف بن هرون ذاته فى أن يغتال ابن عمه جبريل رومان ، من أجل الوصول إلى اتفاق مع الإمبراطور البيزنطى . فكأنه أسهم بذلك فى القضاء على الحزب الوطنى ببلاده . فخيانته للمصلحة الوطنية أخذت تضعف طبقتى الأشراف ورجال الدين ، على حين أن ما حدث من تزايد نفوذ الحزب الممالىء للبيزنطيين فى بلغاريا ، أخذ يهيئ للإمبراطور البيزنطى من عوامل القوة ، ما جعله يحرز انتصارات جديدة على ما تبقى من المقاومة فى جهات بلغاريا[٢] . وما ورد من الإشارة فى متجددات باسيل المتعلقة بإعادة تنظيم الكنيسة البلغارية ، وما اشتهر به الأسقف البلغارى وبدين Widdin ، من خلال طيبة ، أتمها ما أورده يحيى بن سعيد من دليل من أنه حدث بعد مصرع حنا فلاديسلاف ، فى حصار دورازو ، أن « كاتب رؤساء البلغر الملك باسيل ، يتوسلون له ، ويرغبون إليه فى أن يتسلم ما فى أيديهم من الحصون والبلاد »[٣] . وحرص باسيل أيضاً ، وفقاً لما جاء فى مخطوطة معاصرة له ، على أن يستميل إليه الأرستقراطية البلغارية بما بذله لهم

(١) Ibid : p. 420.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 420.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٦ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 421.

من الرتب ، والألقاب والوظائف بالبلاط الإمبراطورى[١] .

كل هذه القرائن توقفنا على النظام الذى وضعه باسيل لإدارة بلغاريا ، فمنذ البداية لم يكن من اليسير أن تتخذ بلغاريا نظام الحكم البيزنطى بتمامه ، بما اتصف به من نظام قضائى معقد ، ونظام للضرائب . فاكتفى الإمبراطور بوضع حاميات فى الحصون الهامة ، وتدبير ما سوى ذلك من الحصون ، حتى لا تتخذ مواضع للتمرد والفتنة ، وعيّن من قبله كبار الولاة ، الذين اتخذوا اسم pronoitai (أى الذين يسهرون على أمور البلاد) . وساوى بين اليونانيين والبلغار فى الحقوق السياسية فجعل لليونانيين الحق فى الاستيطان فى بلغاريا واستغلالها[٢] . والراجح أن عوامل التهدئة إنما تضمنها اتفاق انعقد بين زعماء البلغار وبين باسيل ، يصح أن اطلع عليه يحيى بن سعيد ، ولم يقف عليه المؤرخون اليونانيون الذين جاءوا من بعده[٣] .

لم تتحول بلغاريا ، بعد الاستيلاء عليها ، إلى ثغر من ثغور الإمبراطورية البيزنطية ، بل ظلت بلاداً خضعت عنوة وقهراً ، فوضع لها نظام حربى لم يجر تعديله إلا بما تقتضيه طبيعة الأمور التى ترجع إلى زمن الاستقلال . ولما اشتهر به باسيل الثانى من الحكمة والتعقل ، جعل لهذه البلاد الشاسعة التى تقع بين الدانوب ، والبلقان ، وجبال أعالى مقدونيا ، حكومة خاصة . وما أشار إليه يحيى بن سعيد من أن باسيل جعل منها « قطبانية » للدلالة على الصفة العسكرية للحكومة بتلك الجهات ، وعلى أن حكام بلغاريا كانوا من العسكريين ، يختلف مع الوثائق التى ترجع إلى ذلك العصر ، والتى تشير إلى أن الحكام لم يكونوا سوى دوقات أو pronoitai[٤] ، ولا يبقى الحاكم فى منصبه عادة إلا سنة

(١) Ibid : p. 421.

Wassiliewsky : Conseils et Récits d'un grand seigneur byzantin, p. 35.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 422.

(٣) Ibid : p. 42[illegible].

(٤) Schlumberger : op. cit. pp. 4[illegible]-423.

Camb. Med. Hist. IV. pp. 243. 733.

واحدة ، بينما احتفظت الهيئات المحلية بقدر كبير من الاستقلال الذاتى[١] .

أما كنيسة بلغاريا فظلت مستقلة عن كنيسة القسطنطينية ، غير أنها تحولت من بطريركية ، التى اتخذت مقرها أثناء قيام إمبراطورية بلغاريا الغربية ، فى فودينا ، وبريسبا ، ثم فى اكريدا ، إلى أسقفية كبرى[٢] ، تستخدم الطقوس الصقلبية التى ترجع إلى زمن ميثوديوس ، وتحتفظ بما لها من طابع قومى ، واستقلال قديم . ولم يخش باسيل من أن يجعل على رأس رجال الدين البلغاريين واحداً منهم ؛ ولذا كان أول رئيس لأساقفة بلغاريا بعد الاستيلاء على عاصمتها اكريدا سنة ١٠١٨ ، أحد الرهبان من أهل البلاد ، واسمه حنا[٣] . غير أنه عقب وفاة باسيل ، أخذت روح التسامح تتغير وتتضاءل ، فتلى حنا على أسقفية بلغاريا أحد اليونانيين ، وهوليو ، من قسس كنيسة القديسة صوفية ذاتها[٤] . والمعروف أن باسيل الثانى أصدر فى سنة ١٠٢٠ ثلاثة قرارات تتعلق بحقوق رئيس أساقفة بلغاريا ، الذى ظل يتخذ اكريدا مقراً له[٥] . أقر باسيل ما كان لكنيسة بلغاريا ، منذ زمن بطرس وصمويل ، من حقوق ، وما خضع لولايتها من أسقفيات ومدن ، وهذه الأسقفيات بلغ عددها ثلاثين أسقفية ، واشتملت على نحو ٦٨٥ من رجال الكنيسة ، وعلى نحو ٦٥٥ من الأرقاء[٦] . ووفقاً لما متبعاً زمن صمويل ، تقرر إعفاء رجال لكنيسة من ضرائب الحكومة[٧] .

وما وضعه باسيل الثانى لبلغاريا من نظام إدارى وحربى ، اقتضى إقامة ثغر جديد يخضع لسلطة دوق Pronoetes ، ودوقية باريستريوم Paristrium[٨] .

(١) Ibid : p. 243.
(٢) Ibid. p. 243.
(٣) Schlumberger : op. cit II. p. 425
(٤) Ibid p. 426. Camb. Med. Hist. IV. p. 243.
(٥) Camb. Med. Hist. IV. p. 243.
(٦) Ibid p. 243. Schlumberger II pp. 426 — 427.
(٧) Schlumberger : op. cit. II. p. 426 .
(٨) Camb. Med. Hist. IV. p. 427.

وما جعله باسيل للزعماء البلغار من استقلال ذاتى ، إنما خضع لإشراف هؤلاء الدوقات. فلم يجر إلا أقل تعديل فيما استقر من أحوال البلاد من قبل ، واكتفى بأن يوطد الأمن فى البلاد المفتوحة ، وأن يحرص على أن يستخلص من السكان الخضوع المطلق[١] . ونظراً لأن باسيل لم يتعرض للنظام الكنسى ببلغاريا بالتغيير ، فالراجح أنه أقر أيضاً ما أصدره القياصرة البلغار من مرسومات ، واعتمد المشرع البيزنطى على هذه الوثائق فى تعيين الحدود الكنسية أولا ، ثم الحدود السياسية فى البلاد المفتوحة[٢] . على أنه من اليسير أن نستخلص من قرارات الإمبراطور باسيل ، ما يعتبر أكثر من مجرد إقرار الحقوق السابقة لرئيس أساقفة بلغاريا وسائر أساقفتها . فمن المحقق أن الإمبراطور البيزنطى ، منح البلاد المفتوحة بعض الحقوق المستمدة من سيادته وسلطانه[٣] ، يضاف إلى ذلك أنه منح حقوقاً جديدة . وهذا العامل الشخصى المستمد من إرادة الأمير ، والذى يظهر أحياناً فيما يفرضه من قيود على أرقاء الكنيسة أو رجال الدين ، ويتجلى أحياناً أخرى فى المبالغة فى بذله لكل من يمعن فى الإخلاص لبيزنطة ، جعل لهذه الوثائق القيمة أهمية كبيرة . ومن الدليل على ذلك ما نشهده من أن الأسقف Widdin ، حاز من الجزاء والمكافأة ما يفوق ما ناله رئيس الأساقفة ، وذلك لما بذله هذا الأسقف من الخدمة فى إخضاع بلغاريا . والخلاصة أن الإمبراطور باسيل زاد فى حقوق رجال الدين البلغار ، دون أن يكتفى بإقرار ما كان لهم من حقوق فى زمن ملوكهم السابقين[٤] .

وبادرت الحكومة الجديدة إلى الارتكان على الكنيسة فى إدارة شئون البلاد المفتوحة . والراجح أيضاً أنه تقرر بذل حقوق خاصة لأفراد ليسوا من السلك الكنسى[٥] .

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 428.
(٢) Ibid : p. 430.
(٣) Ibid : p. 430.
(٤) Schlumberger : op. cit. II. p. 430.
(٥) Ibid : p. 431.

ويتبين أيضاً من مرسومات باسيل عدد الأرقاء أو الفلاحين ، ورجال الدين ، الذين يحوزهم الأسقف ، فكأن الأسقف امتلك بهذا الحق ، الذى يعتبر من حقوق الإمبراطور ، مواضع آهلة بالسكان . على أن الإدارة البيزنطية اقتصرت وفقاً لما جاء بهذه المرسومات ، على اتخاذ التدابير التى تحدد عدد رجال الكنيسة الذين يخضعون لسلطة الأسقف ، والتى تشير إلى تعيين بداية القانون المالى ، وقانون الملكية الخاصة . ونستخلص من دراسة تاريخ الإدارة البيزنطية فى بلغاريا ، أن السلطة المدنية حرصت على أن تكشف عن عدد ما يزيد من أرقاء الكنيسة على الحد المقرر ، لتتخذ من ذلك وسيلة للتدخل فى إدارة الأساقفة ، وأن كبار رجال الدين اعتبروا ذلك انتهاكاً لحقوقهم القديمة ، وحاولوا بكل الوسائل ، أن يمنعوا رجال الحكومة من إجراء إحصاء الأرقاء التابعين لهم [١] .

يضاف إلى حق امتلاك المواضع المأهولة بالسكان ، بعض الحقوق والاستثناءات . فإذا لم يجر مثلا توضيح ما للأسقف من حقوق على رجال الكنيسة ، لأن هذه الحقوق إنما تجرى وفقاً للتقاليد القديمة . فإنه تعينت بكل دقة حدود سيادة السلطة الإدارية وبذلك لا يؤدى للدولة ، رجال الكنيسة وأرقاؤها من الضرائب النوعية ، مايؤديه سائر الأفراد ببلغاريا[٢] . وما يخضع للكنائس من مواضع مأهولة ، لا يتدخل فى أمورها الموظفون العسكريون والمدنيون وأمثال القادة ، وجباة الضرائب والقادة ، والقضاة وغيرهم [٣] . وتقرر أيضاً لصالح رجال الدين ، فرض ضريبة (كنسية) ، على الأرقاء التابعين للكنائس ، وعلى الأفلاخ المقيمين ببلغاريا ، وعلى الترك النازلين منذ زمن بعيد بالمعسكرات على نهر ڤاردار[٤] .

---

(١) Schlumberger : op. cit. II p. 431.

(٢) Schlumberger : op. cit II p. 431.

(٣) Ibid : p. 431

(٤) Ibid : p. 432.

تنازع القوى فى الشام :

بينما كان الإمبراطور باسيل يركز كل نشاطه الحربى والسياسى فى إقليم البلقان لمواجهة البلغار ، وذلك فى الفترة الواقعة بين سنتى ٩٩١ ، ٩٩٥ ، جاءه من الأنباء الخطيرة ، ما ألزمه بالمبادرة إلى المسير إلى الطرف الشرقى ، لإمبراطوريته الشاسعة والارتحال إلى أنطاكية ، وشن الحملات على شمال الشام .

المعروف أن الفترة الواقعة بين سنة ٩٨٦ ، حتى نهاية سنة ٩٨٩ ، وهى السنة التى تم فيها القضاء على فتنة بارداس سكليروس ، اختلطت فيها أحداث فتنتى سكليروس وبارداس فوكاس ؛ ولذا تعتبر سنة ٩٨٩ بداية للأحداث الهامة التى تطلبت تدخل بيزنطة .

الواضح أن سياسة الدولة الفاطمية فى الشام كانت ترمى إلى امتداد سلطانها إلى تلك الجهات ، وما يتبع ذلك من نشر المذهب الفاطمى ، وكان لزاماً أن تصطدم بالقوى المختلفة التى تتنازع الحكم فى بلاد الشام ، ومن هذه القوى إمارة حلب التى لا زالت تخضع لسلطان الحمدانيين ، والدولة البيزنطية التى تسيطر على أنطاكية وترتبط بحلب بمعاهدة تجيز لها التدخل فى شئونها ، والدولة العباسية التى حرصت على مناوأة الفاطميين فى الشام . يضاف إلى كل هذه القوى الأمراء المغامرون الذين أرادوا أن يفيدوا من تنازع القوى المختلفة ، من أجل إقامة إمارات مستقلة ، ثم العشائر العربية فى شمال الشام وجنوبه .

سبق الإشارة إلى أن سعد الدولة استعاد ملكه بحلب ، بعد أن تخلص من بكجور وقرغويه ، وإلى أن بكجور دخل فى خدمة الخليفة العزيز الفاطمى ، فولى أمر دمشق سنة ٩٨٣[١] غير أنه أساء السيرة ، فجمع الأموال لنفسه ، واستند فى ذلك إلى مساعدة حلفائه من البدو . ولم يلبث الوزير يعقوب بن كلس ، الذى يكن له الكراهية ، أن وشى به عند الخليفة العزيز بالله ، فأمر

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ص ١٧٧ .

بعزله ، وبعث بجيش لطرده من الشام ، فلم يجد بكجور بداً من تسليم دمشق إلى قائد الخليفة ، منير الخادم الصقلبى سنة ٩٨٩ ، ثم توجه إلى الرقة على نهر الفرات[١] ، فانتزعها من يد أحد غلمان سعد الدولة الحمدانى أمير حلب[٢] .

وحاول بكجور من مقره بالرقة ، أن يوطد سلطانه فى تلك الجهات وأن يسترد حلب ، وأن يفيد من القوى المتنازعة ، غير أنه لم يحفل به بهاء الدولة ابن بويه ، أوباذ الكردى أمير ديار بكر ، وعندئذ أقام الدعوة للفاطميين ، وراسل جماعة من مماليك سعد الدولة الساخطين عليه ، ينهى إليهم بخبر عزمه على قصد حلب . وأرسل إلى الخليفة الفاطمى ، العزيز بالله ، يطمعه فى حلب ، ويقول له « إنها دهليز العراق ، ومتى أخذت ، كان ما بعدها أسهل منها » ، ويطلب إليه إمداده بالعساكر ، فأجابه العزيز إلى ذلك ، وطلب إلى والى طرابلس وسائر ولاته بالشام ، أن ينهضوا لمساعدة بكجور فى قتال سعد الدولة أمير حلب[٣] . على أن عيسى بن نسطورس الذى خلف يعقوب بن كلس على الوزارة الفاطمية ، لم يكن أقل من سلفه كراهية وبغضاً لبكجور ، فحرض جيوش العزيز بالشام على الانصراف عن مساعدة بكجور[٤] .

حرص أمير حلب ، سعد الدولة الحمدانى ، أول الأمر على أن يدعو بكجور إلى الموادعة ورعاية حق الرق والعبودية ، وعرض عليه أن يقطعه

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، حـ ١ ص ١٧٧ – ١٧٨ .
ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ص ٤٠ .
(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٢ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 60.
Camb. Med' Hist. IV. pp. 250 — 251.
(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ص ٥٩ – ٦٠ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٠٩ .
Schlumberger : op. cit II. p. 61.
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ، ص ٦٠ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٣ .

من الرقة إلى حمص ، فلم يقبل منه ذلك ، اعتماداً على مساعدة الفاطميين والبدو ، وعلى الحزب المناهض للحمدانين بحلب[١] . وعندئذ كتب سعد الدولة إلى الإمبراطور البيزنطى ، باسيل ، بخبر ثورة بكجور وعصيانه ، ومحاولته الاستيلاء على حلب ، وطلب إليه أن يصدر أوامره إلى ميخائيل البرجى ؛ دوق أنطاكية ، وإلى سائر ولاة الأقاليم البيزنطية المجاورة بالنهوض إلى مساعدته[٢] . وكاتب سعد الدولة أيضاً من مع بكجور من العرب ، يرغبهم فى الإقطاع والعطاء الوفير ، والصفح عنهم لانحيازهم إلى بكجور ، فمالوا إليه[٣] .

أدرك بكجور ما حدث من المراسلات بين سعد الدولة والبيزنطيين ، وما جرى من انصراف العرب عنه ، فبادر بالمسير إلى الناعورة ، على مسافة ثمانى أميال من حلب ، فتوجه لقتاله سعد الدولة بعساكره ، وبمن انحاز إليه من فرسان بنى كلاب ، الذين يبلغ عددهم نحو خمسمائة فارس ، وفئة من العساكر البيزنطية بعث بها ميخائيل البرجى دوق أنطاكية ، فوقع الصدام عند الناعورة فى ابريل سنة ٩٩١ (محرم سنة ٣٨١) ، وأحرز سعد الدولة نصراً حاسماً ، بسبب مهارته فى قيادة هذه العناصر المختلفة ، والإحسان إلى الجند بالعطاء والخلع ، يضاف إلى ذلك أنه نجح فى استمالة العرب الذين مع بكجور فأمنهم ووعدهم ورغبهم ، فانصرفوا عن بكجور فدارت عليه الدائرة ولم يلبث أن لقى مصرعه على يد سعد الدولة ، بعد إلقاء القبض عليه أثناء فراره[٤] .

وتوجه سعد الدولة إلى الرقة ، فاستولى عليها ، وحاز أموال بكجور ،

---

(١) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢١٠ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 62.
(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 62.
(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٦٠ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢١١ .
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٧٩ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢١١ – ٢١٣ .

وصادر نوابه ، وأمر بالقبض على أفراد أسرته ، وحملهم إلى حلب . ولم يعبأ سعد الدولة بتهديد الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى كتب إليه أولاد بكجور يسألونه الشفاعة فيهم ، فطلب إلى سعد الدولة أن يسيرهم إليه ، بل إن سعد الدولة أعلن أنه سوف يزحف على مصر ، فسير مقدمة جيشه فعلا إلى حمص ، ثم نهض للتوجه إلى دمشق ، غير أنه منعه عن ذلك إصابته بالفالج (الشلل) ، ثم وفاته فى ديسمبر سنة ٩٩١ (رمضان سنة ٣٨١)(١) .

ولى حكم حلب ، بعد وفاة سعد الدولة ، ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة ، وتولى الوصاية عليه ، وعلى سائر أهله ، لؤلؤ الكبير ، الذى حرص على توطيد سلطانه ، فزوج ابنته من سعيد الدولة ، ورفع المظالم عن الرعية ، فرد إلى الحلبيين ما سبق أن اغتصبه الأمراء الحمدانيون ، بأن أعاد الخراج إلى ما كان عليه ، فاستهل بذلك عهداً جديداً من الرخاء(٢) . وعلى الرغم من أن العساكر أعلنوا طاعتهم للأمير الجديد ، فإن جماعة منهم لجأت إلى الخليفة الفاطمى ، فأحسن استقبالهم ، وعين بعضهم على البلاد(٣) .

ولجأ إلى مصر أيضاً بعد وفاة بكجور ، وزيره أبو الحسن المغربى ، فعظم أمر حلب عند الخليفة الفاطمى ، وصار يشيد بكثرة أموالها ، وهون عليه أمر الاستيلاء عليها ، فصادف ذلك هوى عند العزيز بالله ، لاسيما أنه أراد أن ينتقم للإهانة التى وجهها سعد الدولة إلى رسوله(٤) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ١٨٠ — ١٨١ .
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٢ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢١٦ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 68.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، س د

(٣) من هؤلاء ، وفى الصقلبى فى ثلثمائة غلام ، وبشارة الإخشيدى فى أربعمائة علام ورباح السيفى ، فولى العزيز وفياً على عكا ، وبشارة على طبرية ، ورباحاً على غزة .
(انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ، ص ١٧) .

(٤) Schlumberger : op. cit. II. p. 73.

حرص الخليفة العزيز بالله على أن يضم حلب إلى ممتلكاته ، فأعد لذلك حملة كبيرة تبلغ عدتها ثلاثين ألفاً ، وجعل عليها القائد التركى بنجوتكين (منجوتكين) ، ولقبه أمير الجيوش المنصورة ، وضم إليه أبا الحسن المغربى ، لما له من الخبرة السابقة بأمور الشام ، فعهد إليه بأمر تدبير الجيش . وخرجت الحملة من مصر فى نوفمبر سنة ٩٩١ ، وبلغت حلب فى يناير سنة ٩٩٢ ، فارتاع الأمير الحمدانى ووصيه وتحصنا بالمدينة ، التى حصرها بنجوتكين . فبذل له أبو الفضائل أموالا كثيرة ، على أن يرحل عنه ، وعلى أن يكون أبو الفضائل فى الطاعة ، ويقيم الدعوة الفاطمية ، ويضرب السكة باسم العزيز بالله ، ويكتب اسمه على البنود فى سائر أعماله(١) ، وبالجملة قبل أمير حلب أن يكون تابعا للخليفة الفاطمى ، غير أن بنجوتكين رفض ذلك العرض(٢) .

وعلى الرغم مما يقاسيه لؤلؤ من العناء والضيق ، لم يضع الوقت سدى ، فلم يتخل عن السياسة التى انتهجها الأمراء الحمدانيون للمحافظة على استقلال إماراتهم الصغيرة إزاء الدولتين القويتين المجاورتين لها ، وهما الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية . فلما تعرضت حلب لخطر الفاطميين ، التمس أميرها المساعدة من الإمبراطور البيزنطى ، نظراً لما يربط حلب بيبزنطة من معاهدات ، أفادت منها كلما دهمها خطر من الأخطار(٣) .

تعرضت حلب فى الفترة الواقعة بين نوفمبر سنة ٩٩١ ، وسبتمبر سنة ٩٩٤ ، لأشد ما وجهه إليها الفاطميون من هجمات ، إذ أن جيوش بنجوتكين فرضت عليها الحصار ، أثناء تلك الفترة ثلاث مرات ، فى يوليه سنة ٩٩٢ ، وفبراير

---

(١) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢١٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ، ص ١١٨ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٣ .

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 73.

(٣) Ibid : p. 73.

سنة ٩٩٣ ، ومارس سنة ٩٩٤ . واستطاع بنجوتكين أن يستولى على البلاد التابعة لإمارة حلب ، وبعض الحصون الواقعة على الحدود بين حلب وأنطاكية . وضيق بنجوتكين الخناق على حلب وأصر على إخضاعها ، فشيد إزاء حلب ، مدينة أقام بها الحمامات والخانات والأسواق والمساجد ، واستمر الحصار ثلاثة عشر شهراً ، فأوشكت حلب على الاستسلام والإذعان[١] .

حدث فى أثناء تعرض حلب للخطر الفاطمى ، أن انصرف باسيل لقتال البلغار ، والمعروف أيضاً أن المعاهدة التى وقعها كل من الإمبراطور البيزنطى والخليفة الفاطمى فى ديسمبر سنة ٩٨٧ ، والتى تقضى بالسلام والهدنة بينهما لمدة سبع سنوات لم ينته أجلها[٢] . على أن الإمبراطور باسيل كتب إلى دوق أنطاكية ، ميخائيل البرجى ، يأمره بالمسير إلى حلب ، وفك الحصار عنها . وعلى الرغم من أن بنجوتكين أرسل إلى البرجى ، يخطره بأنه إنما يقصد حلب ، وأنه لا يتطرق إلى شىء من البلاد البيزنطية ، وأنه لن يجيز لأحد من رجاله أن يفسد فى البلاد البيزنطية فإنه لم يحفل بكل ذلك ، بل أمر باعتقال رسول بنجوتكين[٣] . وخرج بجيش ضخم يزيد فى عدته على جيوش الفاطميين . على أن ما حدث من قدوم الأمداد والمؤن من مصر بحراً إلى طرابلس ، وانبعاث الفتن فى بعض المدن التى خضعت لأنطاكية مثل اللاذقية ، وما أحرزه بنجوتكين من الانتصار الحاسم ، عند مخاضة بنهر العاصى (الأورنت) سنة ٩٩٤ ، على قوات البرجى ومليسينوس ، زاد الموقف سوءاً فى حلب ، لا سيما أن الأقوات

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ١١٨ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٤ — ١٧٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٦٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٨٦ — ١٨٩ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢١٩ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٤ .
Schlumberger : op. cit. II. pp. 74—75.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ١١٨ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٤ .
Ibid p. 73.

أخذت تنفد ، وارتفعت أسعار الحنطة ، ولم تجد نفعاً تدابير لؤلؤ[١] . وعندئذ كتب إلى الإمبراطور باسيل ، وأنفذ إليه رسوله ملكونا ، وأشار لؤلؤ فى كتابه إلى باسيل إلى « أنه متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية ، أخذت القسطنطينية »[٢] .

الراجح أن الإمبراطور باسيل ، تلقى فى وقت واحد ، أخبار الكارثة المريعة التى حاقت بعساكره فى مخاضة نهر العاصى (الأورنت) ، وأنباء الشدة التى عانتها حلب بحصر القوات الفاطمية لها من جميع الجهات ، وخروج بدو الشام والجزيرة للنهب والغنيمة ، وسوء الأحوال الاقتصادية[٣] . ولا شك أن الحزب العسكرى بالقسطنطينية ازداد تعلقاً بالمحافظة على حلب ومنع سقوطها فى يد الفاطميين ، وأدرك ما تتعرض له أنطاكية من خطر إذا سقطت حلب فى يد الفاطمنين[٤] .

أدرك باسيل خطورة الموقف . فعلى الرغم من أهمية بقائه فى بلاد البلغار ، ومن سوء الأحوال المناخية ، التى جعلت انتقال العساكر أمراً عسيراً . عزم على المضى بعساكره إلى حلب ، لمساعدتها ضد الفاطميين[٥] . خرج باسيل من بلاد البلغار ، قاصداً القسطنطينية ، ثم توجه منها فى جيش ضخم ، ازداد قوة بمن انحاز إليه من عساكر الثغور فى آسيا الصغرى ، فوصل إلى أنطاكية فى ابريل سنة ٩٩٥ (ربيع الأول سنة ٣٨٥)[٦] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٩٠ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٦ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة . ج ٤ ، ص ١٢٠ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢٠ .
Schlumberger : op. cit. II. pp. 86.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١٢٠ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢٠ .

(٣) Sclumberger : op. cit. II. p. 86.

(٤) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم . ص ٢٢٠ . Ibid : p. 86.

(٥) Sclumberger : op. cit. II. p. 87.

(٦) Ibid. p. pp. 88 — 89.
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٦ .

ثم خرج باسيل من أنطاكية ، وصحبه بالعساكر ميخائيل البرجي ومليسينوس فقصدوا حلب . فلما اقترب من حلب ، أرسل إلى أميرها يخطره بقدومه ، وعندئذ أرسل لؤلؤ إلى بنجوتكين يقول « إن الإسلام جامع بيني وبينك ، وأنا ناصح لكم ، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده ، فخذوا لأنفسكم » . ثم جاءته الجواسيس بهذه الأخبار[١] . ولم يسع بنجوتكين إلا أن يرفع الحصار عن حلب ، وأن يحرق الحصن الذى عمره ، وجميع ما معه من الخيام والعدد ، ودمر الأسواق والخزائن والأبنية التى استحدثها[٢] . ثم توجه بجيشه إلى دمشق فى مايو سنة ٩٩٥[٣] .

أما الإمبراطور باسيل فاكتفى بتجديد معاهدة التحالف بين بيزنطة وحلب ، وضمنها شروطاً فى صالح المسيحيين المقيمين بحلب ، لا سيما أولئك الذين يمارسون التجارة . ولم يحرص باسيل على أن يضم المدينة إلى ممتلكاته ، بناء على نصيحة أخيه وقادته ، لإدراكه ما يؤدى ذلك إلى اتحاد كلمة المسلمين ، ونبذ المنازعات بينهم[٤] . على أن باسيل استولى على بعض المواقع التى بأيدى الفاطميين بشمال الشام ، فوقع فى يده شيزر وحمص ، غير أن طرابلس امتنعت عليه ، لحصانتها ، ولما اشتهر به سكانها من شدة المراس فى قتال البيزنطيين[٥] . ثم استولى باسيل على حصن أنطرطوس وعمره ، وشحنه بالأرمن المقاتلة ، وتوجه بعدئذ إلى أنطاكية[٦] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١٢٠ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٦ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ١٢١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٦٣ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ .

chlumberger : op. cit. II. p. 91.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٩١ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 95.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ — ٤٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

Schlumberger : op. cit. II, p. 95.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ : ص ١٢١ . Ibid : p. 96.

وبعد أن توطد نفوذ بيزنطة فى تلك الجهات بشمال الشام وعلى الساحل ، باستثناء طرابلس ، ارتحل باسيل إلى القسطنطينية ، غير أنه اجتمع قبيل رحيله بنوابه فى تلك الجهات ، لاتخاذ التدابير اللازمة لتأمين حلب ، وحماية الحصون الواقعة بالأطراف . وأقام أيضاً فترة وجيزة بأنطاكية للنظر فى أحوالها ، فولى عليها بطريقاً ، دوقاً اسمه داميانوس ويعرف بالدلاسينوس Damien Dalassenos ، فجعل له ولاية الشرق . أما ميخائيل البرجي فإنه نظراً لما حل به من الهزيمة الساحقة فى السنة السابقة ، جرى عزله وتقرر أن يلتزم داره[١] ، فصار من واجب الدالاسينوس ، ملاحظة الخطر الناجم عن ضغط القوات المصرية وهجماتها ، والاهتمام بحماية حلب ، بعد أن أصبحت تحرس أطراف الإمبراطورية البيزنطية من كل ما تتعرض له من اعتداء[٢] .

على أن الخطر لا زال شديداً ، إذ أدرك كل من أمير حلب والخليفة الفاطمى ، ما ترتب على النزاع بينهما من تعرض البلاد الإسلامية للخطر البيزنطى . فتوسط فى الصلح بينهما سنة ٩٩٥ ، بدر الحمدانى ، وتضمنت المعاهدة بينهما اعتراف لؤلؤ بخلافة العزيز الفاطمى[٣] . وترتب على هذه المعاهدة ، أن دعا العزيز بالله الفاطمى إلى الجهاد . وأعد جيشاً ضخماً للقاء البيزنطيين . ولحرصه على توفير المؤن للعساكر بعد بلوغهم الشام ، طلب إلى وزيره عيسى بن نسطورس ، إنشاء أسطول يسير إلى طرابلس ، عند مسيره براً[٤] . أمر ابن نسطورس بجمع الأخشاب من سائر النواحى وأنشأ أسطولا

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 97.

(٢) Ibid p. 98.

(٣) Ibid, p. 98. Camb. Med. Hist. V. p 252.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،ج ص ١٢١ .

يحيى بن سعيد : التاريخ ١٧٨ .

Schlumberger op. cit. II. p. 99.

فى دار الصناعة بمصر ، وحمل إليه جميع الآلات والسلاح والعدد ، وعزم على تسيره ، بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخر سنة ٣٨٦ (٩ مايو سنة ٩٩٦) ، فوقع فيه نار فى ذلك اليوم أحرق منه ستة عشر مركباً . فاتهم السكان بحريقه التجار اليونانيين والأمالفيين ، الواردين بالبضائع والنازلين فى دار مانك ، التى لا تقع بعيداً عن دار الصناعة بالمقس[1] ، وهؤلاء الأمالفيون الذين اشتهروا بنشاطهم التجارى فى مصر ، تكاثر عددهم منذ ذلك الحين ، وفى ذلك دليل على قوة الحكومة الفاطمية ، ويقظتها فى ضبط الأمور ، وأهمية التجار الأمالفيين بالقاهرة ونمو أعمالهم التجارية واهتمام الخليفة بهم[2] .

وبناء على أمر الخليفة الفاطمى ، العزيز بالله ، شرع عيسى بن نسطورس فى إنشاء أسطول جديد ، فتقرر جمع الأخشاب من كل الجهات ، واشتدت الهمة فى إنجاز الأسطول ، فاكتمل فى فترة لا تزيد على ثلاثة شهور ، إنشاء أربعة وعشرين مركبا ، وتم شحنه بالرجال ، وتقرر تسيره إلى أنطرطوس بعد أن تجددت الاضطرابات فى الشام[3] . وتولى قيادة هذا الأسطول رشيق العزيزى ، وتقرر أن يجتمع فى ميناء أنطرطوس بالقائد بنجوتكين لاستردادها من يد البيزنطيين. وسبق الإشارة إلى أن حامية أنطرطوس تلقت أمداداً جديدة أثناء اجتياز الإمبراطور باسيل بها[4] . ولم يلبث أن ارتحل من أنطاكية

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٨ .

المقريزى : الخطط ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 99.

(٢) ما حدث سنة ٩٧٣ من عقد اتفاق تجارى بين طائفة كبيرة من الأمالفيين فى سالرنو ، يعتبر أقدم دليل على نشاط الأمالفيين التجارى فى مصر . إذ أن المعاهدة لم تعتبر نافذة المفعول إلا بعد عودة أحد المتعاقدين من مصر ، وقد كان وقتذاك بالقاهرة ، ومن ذلك يتبين أن تجارة أمالفى امتدت حتى بلغت الإسكندرية والقاهرة .

انظر Heyd : Histiore du Commerce du Levant, I. p. 99.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ : ص ١٧٩ .

لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

Schlumberger : op. cit. II. pp. 100 — 102

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٦ ، ١٧٩ .

Schlumberger op. cit. II. p. 103.

دلاسينوس ، لمساعدة أنطرطوس ، التى تعرضت برا لخطر بنجوتكين ، وبحرا لخطر الأسطول المصرى[1] .

على أن ما حدث من اشتداد العواصف ، وأثرها فى تحطيم الأسطول ، أدى إلى ارتداد بنجوتكين عن انطرطوس ، وإلى أن يقع عدد كبير من البحارة أسرى فى يد سكان أنطرطوس[2] .

وفى تلك الأثناء ، وقع حادث بالغ الأهمية فى تغيير مجرى الأمور ، لا فى سوريا وحدها ، بل فى أنحاء العالم الشرقى . ذلك أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، نهض بنفسه لقتال البيزنطيين ، فلما بلغ بلبيس ازدادت حالته الصحية سوءا ، ولم يلبث أن قضى نحبه فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ (١٤ أكتوبر سنة ٩٩٦) ؛ وتم دفنه بالقاهرة[3] . والواقع أن وفاة الخليفة العزيز . أنقذت الإمبراطورية البيزنطية من حرب بالغة الخطورة[4] .

تولى الخلافة الفاطمية ، بعد العزيز ، ابنه أبو على المنصور ، الذى تلقب بالحاكم بأمر الله ، ولم يتجاوز عمره إحدى عشرة سنة . صارت الغلبة والسيطرة للمغاربة الذين تزعمهم أحد شيوخ كتامة ، وهو الحسن بن عمار ، فعهد إليه الحاكم بتدبير الأمور ، وبسط يده فى الإطلاق والعطاء ، والصلات بالأموال والثياب والهدايا[5] . أما الترك الذين ارتفع شأنهم زمن العزيز بالله ، فإنهم فقدوا ما كان لهم من نفوذ . وأبطل ابن عمار ما استحدثه ابن نسطورس أثناء

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٩ . Ibid : p.103.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٩ . Ibid : p. 103.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 104.

(٤) Ibid : p. 104.

(٥) المعروف أن الحسن بن عمار ولى من قبل حاكم صقلية ، وهو الذى أنزل الهزيمة بالبيزنطيين فى وقعة رمطة سنة ٩٦٤ . وقدم إلى مصر زمن المعز لدين الله الفاطمى ، ومنذئذ قام بدور كبير فيما حدث من التنازع على السلطة والسيطرة على الحكم . فلما تولى الحاكم الخلافة ، ندب الحسن بن عمار للنظر فى تدبير الأمور ، ولقب بأمين الدولة .

انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٠ . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤ — ٤٥.

Schlumberger : op. cit. II. p. 105.

وزارته ، من رسوم جائرة ، ومكوس زائدة ولم يلبث أن تقرر اعتقال ابن نسطورس ، ثم اغتياله ، فى فبراير سنة ٩٩٧ (صفر سنة ٣٨٧) . وبذلك استولى المغاربة على كل الوظائف التى كان يليها المشارقة (الترك)[1] .

وتردد صدى هذه الأحداث فى الشام . فالمعروف أن بنجوتكين التركى استقر واليا على دمشق بعد حملة باسيل على الشام ، فأضحى لا يطمئن على وظيفته وحياته ، بعد أن تعرض المشارقة للمهانة والإذلال على أيدى المغاربة ؛ فاضطربت أحواله ببلاد الشام ، فالتمس المساعدة من الإمبراطور باسيل ، غير أنه انصرف عنه ، خشية أن يغضب الخليفة الفاطمى وأمير حلب . فخرج من دمشق بعد أن انحاز إليه جماعات البدو العديدة ، لاستخلاص مصر من يد المغاربة ، فهزمته القوات الفاطمية فى الشام ، ثم سعى برجوان عند الخليفة الفاطمى ، فعفا عنه فقدم بنجوتكين إلى مصر ، وبذلك استمال الحاكم المشارقة[2] .

وتعرضت سوريا فى سنتى ٩٩٧ ، ٩٩٨ لكثير من الاضطرابات والثورات والفتن الداخلية ، وذلك بسبب التنافس بين كل من الإمبراطور البيزنطى باسيل ، والخليفة الفاطمى ، على امتلاك هذه البلاد الوفيرة الثروة ، واغتنم البيزنطيون ما وقع من الفتن والاضطرابات ، فأخذوا يظاهرون كل من يعصى الخليفة الفاطمى ، فمن ذلك ما حدث فى صور سنة ٩٩٧ (٣٨٧ هـ) ، من حركة ترمى إلى تدمير سلطة الخليفة الفاطمى ، إذ اختار أهل صور لهم أميراً من البحارة اسمه العلاقة ، فاستنجد بالإمبراطور باسيل بوساطة دوق أنطاكية ، فسير إليه قوة بحرية . غير أن الوقت الذى اختاره باسيل لم يكن مناسبا . إذ

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٠ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 106.

(٣) الواقع أن ما حدث من التنازع على السلطة فى مصر ، بين كل من برجوان ، مؤدب الخليفة الحاكم ، وبين الوزير الحسن بن عمار زعيم الكتامية (البربر) ، الذى أراد أن يجرد الخليفة من كل سلطة ، أدى إلى أن يستغل برجوان التنافس بين الترك والبربر ، فى توطيد سلطاته ، فكتب إلى بنجوتكين يدعوه إلى القدوم إلى مصر ، لقمع هذه الفئة الباغية (البربر) انظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٥ .

استقرت الأمور للخليفة الحاكم فى الشام ، ثم وجه الجيوش لقمع فتنة صور ، وفى الوقت ذاته ، قدم إلى صور أسطول مصرى مؤلف من عشرين سفينة مشحونة بالعساكر ، وصدرت الأوامر إلى أمير طرابلس بالمسير بأسطوله إلى صور أيضاً ، وتوجه إليها أيضاً وإلى صيدا ، وولاة الجهات المجاورة . فاجتمع على باب صور فى يونية سنة ٩٩٨ (جمادى الآخرة سنة ٣٨٨) عدد كبير من المقاتلين ، فاشتد القتال فى البحر ، وأثبت الأسطول الفاطمى تفوقه على البحرية البيزنطية ، بما أنزله من خسائر فادحة بالأسطول البيزنطى ، والاستيلاء على عدد كبير من الأسرى البيزنطيين ، فخمدت الفتنة فى صور وقتل أميرها مصرعه ، وتولى مكانه الحسين بن ناصر الدولة الحمدانى ، فعمل على توطيد سلطة الفاطميين[1] .

وحدث أيضاً فى نفس السنة (٩٩٨) ، أن تعرضت أفامية لهجوم عنيف من قبل دوق أنطاكية ، دلاسينوس ، فنهض لمساعدة أفامية عساكر بيروت وصور ودمشق ، وكلها خاضعة لسلطة الفاطميين . فلقى الدوق مصرعه ، وهلك كثير من عساكره ، ووقع فى أسر العساكر الفاطمية أبناء الدوق وجماعة من رؤساء العسكر ، فتقرر حملهم إلى مصر ، حيث أقاموا بها عشر سنين ، حتى تم افتداؤهم وإعادتهم إلى بلادهم[2] .

وحزن باسيل لما حل بالبيزنطيين من كارثة شديدة فى أفامية ، وكان وقتذاك يقاتل البلغار . والراجح أنه حرص على مسالمة الخليفة الفاطمى . فأرسل فى خريف سنة ٩٩٨ أو فى مستهل الشتاء ، سفارة إلى القاهرة ، تعرض على

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨١ — ١٨٢ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠ — ٥١ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٨٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٨٥ .
أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢٧ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٢ .

Schlumberger : op. cit. II. p. 110.

حكومة الخليفة الحاكم عقد الهدنة ثم إجراء الصلح[١] . ومن المحقق أن الإمبراطور البيزنطى لم يقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن ترامى إليه الأنباء المزعجة عن انتصار الجيش المصرى فى صور ، بقمع الفتنة التى نشبت بها بتأييد بيزنطة ، وما ترتب على ذلك من مصرع عدد كبير من العساكر البيزنطية ووالى صور . يضاف إلى ذلك ما حاق بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة فى أفامية ومصرع دوق أنطاكية دلاسينوس[٢] . وحرص الإمبراطور باسيل على أن يستتب الأمن والسلام فى الشام ، كيما يتفرغ لأمور بلغاريا إذ كان يخشى أن تغير القوات المصرية فى الشام على البلاد البيزنطية[٣] .

ولا شك أن ما أحرزته العساكر المصرية بالشام من الانتصارات ، هو الذى دفع الخليفة الحاكم إلى أن يبعث إلى الإمبراطور البيزنطى بإجابة غير مرضية ، ومن الدليل على ذلك أن الإمبراطور باسيل عزم على أن يتوجه إلى سوريا مرة أخرى[٤] ، بعد أن جعل القيادة فى بلغاريا لنقفور أورانوس[٥] .

والواقع أن باسيل لم يقصد من حملته الثانية على الشام سنة ٩٩٩ ، إلا أن يرد إلى الجيوش البيزنطية ما فقدته من هيبة ، بعد الهزيمة الساحقة التى لحقت دلاسينوس فى أفامية . وصل ، فى سبتمبر سنة ٩٩٩ (٣٨٩ هـ) باسيل بقواته إلى الجسر الجديد الذى يقع على نهر العاصى (الأورنت) ، والذى لا يبعد كثيراً عن أنطاكية . ثم اجتاز سهل أفامية ، التى دارت بها المعركة العنيفة والتى هلك فيها دوق أنطاكية ، فأمر بتشييد كنيسة بهذا الموضع[٦] . ثم توجه باسيل إلى شيزر

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤ .
Sch'umberger : op. cit. II. pp. 112 — 113.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 113,

(٣) Ibid : p. 113.

(٤) Ibid : p. 114.

(٥) Ibid : p. 150.

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٩٢ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 151.

فحصرها ، والمعروف أن القوات المصرية استردتها بعد مغادرة باسيل للشام بعد الحملة الأولى . وضيق الإمبراطور الخناق على أمير شيزر ، ابن كراديس ، فلم يسعه إلا التسليم ، بعد أن فقد الأمل فى قدوم إمداد لرد العدو عن المدينة . على أنه اشترط على الإمبراطور ، ألا يعترض أحد من العساكر البيزنطية ، سبيل رجاله الذين يرغبون فى الخروج معه ، وألا يتعرض للضرر والأذى أهل المدينة وأملاكهم ، وألا يركع أمام باسيل ، لإظهار الولاء والخضوع له ، فأجابه إلى ذلك[١] . فخرج من شيزر حاكمها ، ابن كراديس ، بعساكره وصحبه عدد كبير من سكانها ، وتوجهوا إلى حماة وبعلبك ، بينما عهد باسيل إلى شحن شيزر بالأرمن[٢] . ولجأ باسيل وعساكره إلى استخدام أساليب العنف والشدة والتدمير ، عند استيلائهم على الحصون الواقعة بشمال الشام . فلم تسلم حصون أبى قبيس ومصياف ورفنيه من التخريب والتدمير ، بعد الاستيلاء عليها . وحينما لجأ أهل حمص إلى كنيسة مار قسطنطين ، هاجمهم من كان بصحبة باسيل من العساكر الروس فأحرقوا الكنيسة وجردوا مبانيها من النحاس والرصاص[٣] .

ونستخلص من ذلك ، ما اقترنت به غارات البيزنطيين فى البلاد الإسلامية ، من النهب ، والإجهاز على الأسرى ، حتى لا يتوافر للأراضى من الرجال من يفلحها ويزرعونها ، وكيما يتناقص عدد من يؤدون الخدمة العسكرية ، فضلا عن تدمير ما صادفوه من الزراعة ، فخلت بذلك ، بعض البلاد من السكان ، وانتشرت المجاعات وهلك عدد كبير من السكان[٤] .

---

(١) أورد يحيى بن سعيد (ص ١٨٣) هذه الشروط « أشرط عليه (على باسيل) ، أن لا يطأ له بسطاً عند خروجه من البلد ، ولا يعترضه ، ولا لأحد من أصحابه ، ممن يختار المسير معه ، فأجابه إلى ذلك ، وأنفذ إليه صليبه ، للدلالة على موافقته على هذه الشروط » .
Schlumberger : op. cit. II. p. 151.

(٢) يحيى بن سعيد التاريخ ص ١٨٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٣ .
Schlumberger : op. cit. II. p, 152.

(٤) Ibid : p. 152.

على أن باسيل اتخذ طريقه إلى الساحل بعد أن حشد أمير دمشق ، جيش ابن صمصامة ، كل ما لديه من العساكر ، وانحاز إليه بقواتهم سائر ولاة الشام ، فاجتمع بدمشق من العساكر ما لم يجتمع فيها ، على حد قول يحيى بن سعيد ، زمن المسلمين من قبل للدفاع عن المدينة[١] .

أما باسيل وعساكره ، فلم يتخلوا عن سياسة التخريب والتدمير ، إذ هاجموا حصن عرقه ، فأحرقوه ودمروا قلعته . ثم نزل باسيل فى ديسمبر سنة ٩٩٩ (ذى الحجة ٣٨٩) على طرابلس ، وزحف عسكره على الحصن . والمعروف أن هذا الموضع تعرض مرات عديدة لهجوم القوات البيزنطية ، غير أنها لم تستطع الاستيلاء عليه . ولذا حرص باسيل على إحكام حصاره ، فأمر بحفر خندق حول عسكره ، ثم قطع عن الحصن قناة الماء وحمل إليه مركبان من أسطوله ما يكفى لدوابه من المؤن والعلف ، ثم شن هجوماً عنيفاً على الحصن فلم يحرز نجاحاً يذكر . وفى تلك الأثناء بعث باسيل بالسرايا لمهاجمة الحاميات المصرية المرابطة فى جبيل وبيروت وجبله ، فوقع فى أيدى البيزنطيين كثير من السبى والأسرى ، فتقرر حملهم فى السفن إلى حيث تم بيعهم رقيقاً فى أسواق أزمير وسالونيك والقسطنطينية[٢] .

على أن البيزنطيين تعرضوا لهزيمة ساحقة فى ديسمبر سنة ٩٩٩ (محرم سنة ٣٩٠) حين هاجموا حصن طرابلس ، وتحتم على باسيل أن يرفع الحصار عن طرابلس ، والرحيل إلى أنطاكية[٣] .

مكث باسيل نحو شهر فى أنطاكية ، يناير سنة ١٠٠٠ ، فعين عليها نقفور أورانوس بدلا من دالاسينوس الذى لقى مصرعه فى أفامية[٤] .

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٣ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٣ .

Schlumberger : op. cit. II p. 155.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤ . **Ibid. p. 156.**

(٤) **Ibid. p, 156.**

سبق الإشارة إلى أن باسيل أنفذ نقفور أورانوس إلى عضد الدولة ببغداد حين لجأ إليه بارداس سكليروس ، وإلى أنه عهد إليه بقيادة العمليات الحربية فى بلغاريا ، عند قدومه على رأس حملة إلى الشام ، ويعتبر نقفور أبرع القادة البيزنطيين .

(Schlumberger : op. cit, II. p. 156).

على أنه حدث فى الشطر الأول من سنة ١٠٠٠ ، أن توجهت إلى بيزنطة سفارة من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، برئاسة أريسطس **Orestes** بطريرك بيت المقدس لعقد الهدنة[١] ، ولعل ما أحرزه باسيل من انتصارات فى الشام ، وما حدث من سخط الحاكم على مؤدبه برجوان ، كان له أثر فى إجراء هذا الصلح . غير أن هذه الهدنة لم يتم عقدها إلا أوائل الصيف من سنة ١٠٠١ ، ولمدة عشر سنوات . ويعتبر هذا الصلح بداية عصر جديد للسلام بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية فى أملاكهما بالشام وآسيا الصغرى ، بعد أن عانت هذه البلاد البؤس الشديد والاضطرابات والمعارك الدامية ، سنوات عديدة . وبذلك تهيأت الفرصة لباسيل لمواصلة القتال فى بلغاريا ، إذ ظل أربع سنوات (١٠٠٢ — ١٠٠٥) فى نضال عنيف مع البلغار ، فأحرز انتصارات باهرة ، واستولى على حصون عديدة ، وكاد يقع أسيراً فى يده ملك البلغار القمطوفيلس **Comitopoule**[٢] .

وما وقع من الأحداث فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر ، بشمال الشام كانت بالغة الأهمية فى تطور العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية . ذلك أن أبا الفضائل سعيد الدولة أمير حلب ، قضى نحبه فى أول يناير سنة ١٠٠٢ (١٥ صفر سنة ٣٩٢) ، فتولى الحكم ولداه ، أبو الحسن على ، وأبو المعالى شريف ، فاستبد لؤلؤ بالأمر دونهما ، ولم يلبث أن سيرهما إلى مصر سنة ٣٩٤ (١٠٠٣/١٠٠٤) كيما ينفرد بالحكم ، وأشرك معه ابنه مرتضى الدولة ، واعترف بسيادة الخليفة الحاكم الفاطمى . والراجح أن ما التزمت به حلب من دفع الجزية لبيزنطة لازال جارياً . ومع ذلك فإن لؤلؤ

---

(١) اختار الحاكم البطريرك أريسطس ، سفيراً له ، لما تربطه به من صلة المصاهرة ، إذ أنه كان شقيق أمه . **Schlumberger : op. cit. II. p. 202.**

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٨٦ .

أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٣٠ .

Schlumberger : op. cit. li. pp. 234,

صار يساوره الشك والقلق من جهة البيزنطيين ، فأخذ يجبر خصومهم وأعداءهم[1] .

فما قام به الأصفر التغلبى ١٠٠٥ (سنة ٣٩٥ هـ) من الدعوة إلى الجهاد الدينى وقتال البيزنطيين ، لقيت قبولا عند البدو وسكان القرى ، أثناء قدومه من الجزيرة إلى أعالى الشام ، فكثر أنصاره ، ووجه هجومه إلى المدن التى سقطت فى أيدى باسيل ، مثل شيزر وارتاح ، والجهات القريبة من أنطاكية ، وكفر عزوز ، فى الجنوب الغربى من الرها . ونهض لمساعدته عرب بنى نمير وبنى كلاب بقيادة وثاب بن جعفر النميرى ، صاحب سروج ، الذى يعتبر أقوى زعماء الجزيرة[2] . على أن هذه الحركة لم تجد من أمير حلب والخليفة الفاطمى من التأييد المادى ما يكفل لها النجاح . فاشتد دوق أنطاكية ، نقفور أورانوس ، فى مطاردة الأصفر ، وتخلى عنه وثاب ، بل إنه سلمه إلى لؤلؤ ، فاعتقله بقلعة حلب فى مايو سنة ١٠٠٧ (شعبان سنة ٣٩٧) ، فكأن حركة الأصفر استمرت نحو سنتين ، وظل معتقلا بحلب ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن سقطت فى يد عساكر الخليفة الفاطمى فى ٢١ يونية سنة ١٠١٦ (٤٠٦ هـ)[3]. على أن لؤلؤ لم يسىء معاملة الأصفر فى حبسه ، حتى لا يثير سخط أنصاره وأتباعه الذين يقيمون قرب حلب ، وكيما يتخذه أداة يهدد بها البيزنطيين بأن يلوح بإطلاق سراحه ، إذا تعرض لؤلؤ للخطر من قبلهم[4] .

على أن حلب تعرضت للفتن والقلاقل بعد وفاة لؤلؤ فى سبتمبر سنة ١٠٠٨ ، إذ أن ابنه منصور اشتد فى التضييق على ابن أبى الفضائل ، فلجأ

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 434.

(٢) يحيى بن سعيد التاريخ ص ١٨٦ — ١٨٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٩٦ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 436.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٧
Schlumberger : op. cit. II. P. 433.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ١٩٦
Ibid. P. 436.

إلى الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله ، والتجأ أبو الهيجاء بن سعد الدولة إلى الإمبراطور باسيل[1] . ولما اشتهر به منصور من الاستبداد والظلم ، كرهه سكان حلب ، ولم يطمئن إليه بنوكلاب . فجرى الاتفاق على إعادة حلب للحمدانيين ، ووقع الاختيار على أبى الهيجاء الذى لجأ إلى باسيل . غير أن منصور بن لؤلؤ استمال إليه بنى كلاب ، فوعدهم بالإقطاعات الوافرة . واستنجد أيضاً بالمغاربة (الفاطميين) ، ووعدهم بأن يسلم إليهم قلعة حلب . وترتب على ذلك أن توجه قاضى طرابلس ، الذى يتولى النظر فى طرابلس وسائر الحصون ، فى جيش كبير لإنقاذ حلب ، ثم نشبت المعركة بالقرب من حلب ، فانسحب بنو كلاب من صفوف جيش أبى الهيجاء . فحلت الهزيمة به ، ووقع النهب فى خيامه ، ولجأ آخر الأمر إلى باسيل بالقسطنطينية ، حيث بقى بها إلى أن مات[2] .

ولم يلجأ إلى باسيل الأمراء الحمدانيون فحسب ، بل سعى إلى الالتجاء إليه ، أولاد الحسن بن جوهر الصقلى ، وهم جعفر وأبو جعفر وجوهر ، بعد أن لقى أبوهم مصرعه بالقاهرة ، بتدبير الحاكم بأمر الله ، وذلك فى يناير سنة ١٠١١ (جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ) . وتوسط لهم عند باسيل ، دوق أنطاكية ، ميخائيل البطريق المعروف بالقطائبوس Kitonite ، الذى ولى حكمها ، بعد أن توجه نقفور أورانوس للقتال فى بلغاريا . ولما أحسوا بمطاردة الحاكم لهم ، عزموا على التوجه إلى العراق ، غير أنهم وقعوا فى قبضة والى دمشق فأمر بقتلهم فى نوفمبر سنة ١٠١٢ (٤٠٣ هـ)[3] .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ، ص ١٩٩
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٠

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ٢١٠ — ٢١١
Schlumberger; ob. cit. II. P. 442.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٩٩

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٠٠
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٦٩
والملحوظ أن الإمبراطورية البيزنطية أصبحت منذئذ تأوى من المسلمين من خرجوا على طاعة الأمراء والخلفاء ، كيما تفيد منهم فى توجيه سياستها فى الشرق الأدنى ، كما أن الخلفاء والأمراء المسلمين أجاروا الثائرين على الإمبراطورية البيزنطية .
Schlumberger ; II. P. 440.

والواقع أن بلاد الشام تنازعها وقتذاك قوى مختلفة . إذ حرص منصور ابن لؤلؤ الذى استبد بحكم حلب ، من دون الحمدانيين ، على الاحتفاظ باستقلاله، واستعان من أجل ذلك بالقوى المتنازعة، من البيزنطيين والفاطميين والبدو (بنى كلاب) ، ولما لم يف بما بذله من الوعود لهذه القوى ، انصرفوا عن تأييده ، وتخلوا عن مساعدته فتعرض للهزيمة على يد صالح بن مرداس ، ووقع فى يده أسيراً ولم يطلق سراحه فى أغسطس سنة ١٠١٤ (٤٠٥هـ) إلا بعد أن دفع له خمسين ألف دينار ، ومائة وعشرين رطل فضة ، وخمسمائة قطعة ثياب من أصناف مختلفة ، وأطلق سراح الأسرى من بنى كلاب ، ومنحهم نصف بلاد حلب إقطاعاً(١) . كما أن الإمبراطور البيزنطى تخلى عن منصور ، وصار يظهر العطف على صالح بن مرداس(٢) .

وما حدث فى شمال الشام من محاولة بنى كلاب فرض سلطانهم على حلب والبلاد المجاورة ، وقع مثله فى جنوب الشام ، إذ سيطر المفرج بن دغفل الطائى على تلك الجهات ، نحو سنتين وخمسة أشهر ، ولم يسير إليه أثناءها الحاكم عسكراً ، فقويت شوكته ، فأوقع بياروخ التركى الذى جعله الحاكم والياً على الشام . فأمر بقتله ، ونهب الرملة ، واستولى على ما كان بها من أمتعة وأموال ، وأقام الدعوة لأمير مكة ، وأسماه أمير المؤمنين . واستحوذت العرب على الشام من الفرما إلى طبرية وحصروا حصون السواحل مدة طويلة(٣) . فوجه إليه الحاكم ، فى سنة ١٠١٣ (٤٠٤ هـ) جيشا كبيرا بقيادة على بن فلاح ، جمع فيه معظم رجال مملكته ، وطلب إلى جيوش دمشق والسواحل أن تنهض لقتاله ، فتعرض للهجوم من جهتين ، غير أنه مات وقتذاك ، فى سنة ١٠١٣ (٤٠٤ هـ) . ولما عرف أولاده خبر مسير العساكر

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٢ — ٢١٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٢) يحيى بن سعيد التاريخ ص ٢١٣ .
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٠١ .
Schlumberger; op. cit. II. P. 447.

المصرية هربوا إلى الصحراء ، وغادروا الرملة وسائر البلاد التى دانت لهم(١) .

ولم يستطع منصور بن لؤلؤ أن يمضى طويلا فى سياسته القائمة على الإفادة من الفئات المتنازعة على السلطة فى الشام ، إذ أن الفتنة لم تلبث أن اندلعت فى قلعة حلب ذاتها ، وأشعلها قائد القلعة نفسه ، وهو فتح القلعى ، وذلك فى يناير سنة ١٠١٦ (٤٠٦)(٢) . فهرب من حلب منصور ، ومعه أخواه وأولاده ، ومن تبعه من الغلمان ، ولجأوا إلى أنطاكية الخاضعة للحكم البيزنطى(٣) . والواضح أن هذا التدبير لقى تأييداً من الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وصالح بن مرداس زعيم عرب بنى كلاب ، ومن الدليل على ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر واليه على أفامية ، وهو على بن أحمد بن الضيف ، أن ينهض برجاله لمساندة فتح القلعى ، وأنه تقرر أيضا ، بموافقة فتح وابن الضيف ، أن يتسلم صالح بن مرداس جميع الأعمال والضياع ، التى سبق أن أقر ابن لؤلؤ بالتنازل عنها ؛ يضاف إلى ذلك ما لقيه فتح من التكريم والتشريف من الحاكم ، إذ لقبه مبارك الدولة وسعيدها ، وقلده ولاية حلب ، وجعل له خراج صور وصيدا وبيروت(٤) ، ثم كتب الحاكم بأمر الله الفاطمى لأهل حلب ، توقيعا بإطلاق المكوس والمظالم والتخلى عما هو مقرر عليهم من الخراج(٥) .

ولما علم الإمبراطور باسيل بالتجاء منصور بن لؤلؤ إلى أنطاكية ، كتب إلى دوقها ميخائيل البطريق ، يطلب إليه أن يحسن قبول منصور بن لؤلؤ

Ipid. P. 448.
(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٠٧ .
(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ٢٠٨ .
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٤ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ٢٠٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ، ص ١٦١ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٤ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ٢١٠ ، ٢١٤ .
Schlumberger : op. cit. II. P. 451.
(٥) انظر نص هذا التوقيع فى : ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ١١٤ .

وإجلاله ، وألا ينقص مما كان له من الهيبة والكرامة أثناء إمارته بحلب[١] . فأطلق له ولأقاربه جرايات واسعة . ورسم باسيل لقبطان أنطاكية « أن يثبت له جميع ما يرد إليه من غلمانه وأصحابه وغيره من جند المسلمين مستأمنا ، ويكونوا فى جملته ويرسم خدمته » ، فأثبت له سبعمائة خيالة ورجالة ، وأطلق له الأرزاق والجرايات مشاهرة من مال باسيل ، وأمر بأن يتخذ لقب ماجسطرس[٢] . وحرص باسيل على أن يجعل لمنصور شيئاً من مظاهر الإمرة ، فأقطعه عقاراً يستغله بأنطاكية ، وأقطعه فى ظاهرها ضيعة شيح ليلون ، بين حلب وأنطاكية ، وعمر حصنها ، فانتقل إليها منصور ، وتيسر له بذلك أن يقف على أمور حلب[٣] . لم يكتف باسيل بذلك ، بل استدعى من تفرق من أفراد أسرة منصور ، وأخويه وولديه ، فبعث بهم إليه بعد أن منحهم التشاريف والألقاب[٤] .

أضحى منصور بن لؤلؤ ، وأسرته ، فى قبضة الإمبراطور باسيل يستخدمهم سلاحا لتهديد حكومة حلب الجديدة[٥] . ولجأ باسيل أيضا فى تلك الأثناء إلى أن يوجه ضربة شديدة للقضاء على رخاء الشام ، بأن منع السفر والمتاجرة من جميع بلاده ، إلى الشام ومصر[٦] . على أننا نجهل الأسباب التى دعت الإمبراطور باسيل إلى اتخاذ هذه الإجراءات الصارمة التى تضر بصالح رعايا الخليفة الفاطمى ، على الرغم من المعاهدات التى لازالت قائمة بينهما[٧] . على أن ما اتخذه

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٤ .
Schlumbergra : op. cit II, P. 215.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٤
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢١٠ .
Schlumberger : op. cit. P. II. 451.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٥ .
ابن العديم : زبدة الحلب ح ١ ، ص ٢١٠ .
Ibid : p. 452.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٥ .

(٥) Ibid : P. 452.

(٦) Schlumberger : op. clt. II. P. 452.

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٤ .
(٧) Ibid : P. 422.

باسيل من إجراءات لم يكن القصد من ورائها الانتقام فحسب لما اتخذه الخليفة الحاكم من أساليب عنيفة ضد المسيحيين فى سنوات ١٠١٢ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ (٤٠٤—٤٠٥ هـ) ، أدت إلى أن جماعة من النصارى لم يطب لهم المقام ببلاده ، فأخذوا يتسللون إلى البلاد البيزنطية ، وصاروا يبذلون لأرباب المراكز والطرقات مالا حتى يطلقوهم ، فأذن الحاكم لفئة منهم بالرحيل بأهلهم وأموالهم وما تحويه أيديهم ، وأجاز لهم أن يتصرفوا كيفما شاءوا ، وكتب بذلك إلى سائر عماله ، فانتقل من الشام ومصر وغيرهما ، من النصارى خلق كثير ، بعد أن باعوا أملاكهم وأمتعتهم ، فتوجهوا إلى أنطاكية واللاذقية وغيرهما من البلاد البيزنطية[١] .

وما أصدره الإمبراطور باسيل من قرار بمنع التجارة مع رعايا الخليفة الفاطمى ، أثار اضطرابا وقلقا بالغ الشدة فى سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية ، لاسيما بين سكان الأقاليم المتاخمة لأعالى الشام ، حيث نشطت التجارة بين المسلمين والمسيحيين . على أن الإمبراطور باسيل استثنى حلب من هذه القيود ، استجابة لطلب صالح بن مرداس ، كيما يفيد منه فى سياسة بيزنطة بالشام ، وليتجنب هجمات الأمراء بأعالى الشام ، وللمحافظة على أنطاكية ، فضلا عن أهمية حلب فى تجارة بيزنطة مع العالم العربى[٢] .

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٠٧ — ٢٢١ . ومن الذى لجأوا إلى أنطاكية وقتذاك يحيى بن سعيد .
Schlumberger : op. cit II. P. 453.

والمعووف أيضاً أن الخليفة الحاكم بأمر الله ، أصدر فى سنة ١٠٠٧ (محرم ٣٩٨) أمراً بهدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وأمر بهدم البيع (الكنائس) فى جميع مملكته فهدمت ، وأمر اليهود والنصارى ، إما أن يسلموا أو يسيروا إلى بلاد الروم ، ويلبسوا العيار ، فأسلم كثير منهم ، انظر : ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٤٧ .

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٩٦ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٦٦ — ٦٧
Schlumberger : op, cit. II. PP. 442—443.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٤ .
لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٣٤ .
Wiet : L'Egypt Arabe, pp. 230—234.
Schlumperger : op. cit. II. P. 454.

أما التحالف الذى تألف من فتح قائد قلعة حلب ، وعلى بن أحمد الضيف ، الذى يحكم أفامية من قبل الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله ، وصالح بن مرداس زعيم عرب بنى كلاب ، فلم يلبث أن تفكك بعد طرد منصور بن لؤلؤ من حلب . ذلك أن على بن الضيف ، بعد أن استولى على حلب ، ولحق به بعض العساكر المغاربة ، وحصل من فتح متولى القلعة من المال ما أنفقه فيهم ، لم يشأ أن يتخلى عن حكومة حلب إلى صالح بن مرداس وعرب بنى كلاب ، ولقى التأييد من سكان المدينة ، الذين كرهوا أن يحكمهم البدو ، وطلب الضيف من الحاكم أن يمده بالعساكر فجاءته الأمداد من سائر ولاة الشام وزعماء العشائر العربية[1] . أما فتح فانتقل إلى ولاية صور بعد أن استماله الحاكم بأمر الله[2] .

وتولى حكم حلب بعد خروج فتح عنها ، عزيز الدولة فاتك ، وهو أرمنى من مماليك بنجوتكين ، ولقبه الخليفة الحاكم بأمر الله ، أمير الأمراء ، فدخل إلى حلب فى أول فبرير سنة ١٠١٧ (أول رمضان سنة ٤٠٧ هـ)[3] . واستقامت الأحوال بينه وبين سائر الأمراء المجاورين ، فتوطدت العلاقات الودية بينه وبين صالح بن مرداس ، وراسل الإمبراطور باسيل ، يبذل له الولاء وطلب إعادة العلاقات التجارية بينه وبين البلاد البيزنطية المجاورة له ، وأخذ يولى على أعمال حلب الرجال الموالين له[4] .

ولم يلبث عزيز الدولة أن خرج على طاعة الحاكم بأمر الله ، فضرب الدينار والدرهم باسمه بحلب ، ودعا لنفسه على المنبر ، فأمر الخليفة الفاطمى بإعداد

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٥ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٥ — ٢١٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢١٤ .
Schlumberger : op. cit, P. II. 454.

(٣) يحيى بن سعيد ، التاريخ ص ٢١٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢١٦ . Ibid. P. 455.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١٦ . Ibid. P. 455.

الجيوش وإنفاذها لقتال عزيز الدولة ، وذلك سنة ١٠٢٠ (سنة ٤١١ هـ)[1] .

ولعل ما حدث وقتذاك بمصر والشام من الفتن ، التى نجمت عن سياسة الحاكم وشدته فى معاملة السكان ، هيأت لأمير حلب الفرصة للاستقلال[2] .

فما دعا إليه محمد بن إسماعيل الدرزى من تأليه الحاكم ، وما اتبعه من الأساليب فى نشر هذه الدعوة بمصر والشام ببذل الأموال ، وإباحة شرب الخمر وارتكاب المنكرات[3] ، أدى سنة ١٠٢٠ (٤١٠ هـ) إلى سخط الناس على الحاكم . وتعرض الحاكم للإهانة والشتائم ، التى انطوت عليها أشعار نظمت لهذا الغرض ، فأمر بتوزيع السلاح على عساكره من السودانيين . وأوعز إليهم بطرح النار فى أطراف مصر ، وأجاز لهم نهب الدكاكين والبيوت . على أن دمشق أعلنت أيضا العصيان والتمرد[4] .

على أن ما حدث وقتذاك فى الشام ومصر ، من الأمور المتعلقة بالدولة البيزنطية ، أن الحاكم بأمر الله أعرض عن سماع ما أذاعه الوشاة من أنه لم ينكر ما رفعه إليه جماعة من المسلمين ، من اجتماع المسيحيين فى دورهم لتأدية الصلاة وإقامة القداس ، واشترك طائفة من الذين أسلموا منهم فى القربان معهم[5] . واستقبل الحاكم أنبا سلمون رئيس دير طور سينا ، وتوسل إليه فى إطلاق الأوقاف المقبوضة برسم هذا الدير ، فأجابه إلى ذلك ، وأعاد جميعها إليه ، كما أن سلمون حصل أيضاً فى يوليه سنة ١٠٢٠ (ربيع الثانى سنة ٤١١) على الأموال المتحصلة من الأوقاف المحبوسة على دير القصير بطره ، للإنفاق منها

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢١٨ .
Schlumberger : op. cit. II. pp. 429, 605.

(٢) Ibid. p. 455.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ح ٤ ، ص ١٨٤ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٢٠ — ٢٢٣ . Ibid : pp. 459—457

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ Ibid : pp. 459—457

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٢٨ .
Schlumberger : op. cit. II. pp. 459—457.

على الرهبان والدير ، فكتب له الحاكم سجلا بذلك[1] .

وحدث أيضاً فى سنة ١٠٢٠ (شوال سنة ٤١١) أن سلم محمد بن خليد النهرانى إلى البيزنطيين ، الحصن المعروف بالخوابى ، فى جبل نهران ، ومدينة مرقية على ساحل البحر ، وكانت خرابا ، فأحسن إليه الإمبراطور باسيل وأنعم عليه بالتشاريف . وجرى أيضاً أن ولى ، فى تلك السنة (١٠٢٠) بطريركية ببيت المقدس نجار رومى ، اسمه نقفور ، كان يخدم فى قصر الخليفة بالقاهرة[2] .

ترتب على وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى فبراير سنة ١٠٢١ (شوال سنة ٤١١) ، بتدبير أخته ست الملك ، أن تعرض ولى العهد وأسرته للاضطهاد ، بعد أن تم تعيين الظاهر خليفة ، وصارت السلطة فى أيدى ست الملك ، فاستمالت أمراء الشام والقادة والجند ، وتخلصت من ولى العهد ، بأن مات مسموما ، ولجأ ابنه الكبير عبدالعزيز وابن أخيه إلى الإمبراطور باسيل فأحسن استقبالهما[3] .

وحرصت الحكومة الجديدة على أن تصلح ما فسد من الأمور فى العصر السابق فتوقف اضطهاد المسيحيين ، وساد التسامح ، فعاد من البلاد البيزنطية من لجأ إليها من المسيحيين والذين تعرضوا لاضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، بل صار للمسيحيين من النفوذ والسلطان فى قصر الخلافة ، ما جعلهم موضع عطف الخليفة وعمته ست الملك ، فأطلق لهم عمارة الكنائس ، ورد ما لم يطلقه

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . Ibid : P. 457.
على أن المؤرخ شلمبرجر اعتبر سلمون زعيم رهبان دير آنوس ، وهو الذى طلب من الحاكم بأمر الله ، أن يرد على الدير ما صادره من الأملاك التى برسمه فى مصر .
(انظر Schlumberger : op. cit. II. P. 458.)

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٢٨ .

(٣) والملحوظ أن بيزنطة حرصت على التمسك بسياستها التقليدية ، التى تقضى بأن تجيز كل من يلجأ إليها من الأمراء المسلمين وذوى المكانة منهم ، كيما تتخذ منهم أدوات ووسائل لإثارة القلق والاضطراب فى الدولة الإسلامية .
انظر Schlumberger : op. cit II. P. 605.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٦ .

لهم الحاكم من الأوقاف المحبوسة على الأديرة[1] .

ووقعت بحلب أحداث هامة . إذ سبق الإشارة إلى أن حلب صارت أواخر حكم الحاكم بأمر الله ، فى حوزة الفاطميين . فتولى أمرها عزيز الدولة فاتك فى فبراير سنة ١٠١٧ (سنة ٤٠٧ هـ) . غير أنه لم يلبث أن خرج على طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ١٠١٨ ، فأعلن استقلاله بالمدينة وضرب النقود باسمه ، وجرى ذكر اسمه على المنبر ، ولما تعرض لهجوم العساكر المصرية سنة ١٠٢٠ — ١٠٢١ (٤١١ هـ) ، استنجد بالإمبراطور باسيل ، الذى نهض لمساعدته ، ولما بلغ باسيل مرج الديباج قرب حلب ، وعلم عزيز الدولة بوفاة الحاكم (فبراير سنة ١٠٢١) ، أرسل إلى الإمبراطور البيزنطى يخطره بأنه انتقض ما بينهما من شروط[2] . ولما أصر باسيل على المضى إلى حلب هدده أميرها ، بأنه سوف يقاومه بكل ما عنده من العساكر وعرب بنى كلاب . وعندئذ اتخذ طريقه شرقا إلى مناذكرد[3] .

ولم تستمر محاولة عزيز الدولة للاستقلال بحلب زمناً طويلا ، إذ لقى مصرعه بتدبير عمه الخليفة الظاهر ، فى سنة ١٠٢٣ (ربيع الآخر سنة ٤١٢) ، استعاد

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ .
ابن الأثير : الكامل : حـ ٩ ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ — انظر ما سبق ص ٦٨٤ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ .
Schlumberger : op. cit. II. P. 606

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ؛ ص ٢١٩ .
الواقع أن من العوامل التى دعت الإمبراطور البيزنطى ، إلى التوجه بحملته إلى الشام ، ما سبق الاتفاق عليه بين الحاكم بأمر الله ، وجرجس (جورج) ملك الأنجاز (الكرج) ، من النهوض لحرب باسيل ، فيقصده كل واحد منهما من جهته . فلما علم باسيل بهذا الاتفاق ، جهز حملة لغزو بلاد الشام ، وأرسل المؤن والعلوفات إلى أنطاكية . وما حدث من تعرض عزيز الدولة فاتك ، أمير حلب ، لهجوم العساكر المصرية ، واستنجاده بقوات باسيل ، كان ذريعة لتدخل باسيل . على أن وفاة الحاكم أفاد منها كل من باسيل ، فى قتال ملك الكرج ، الذى فقد كل أمل فى مساعدة خليفة مصر ، كما أفاد منها عزيز الدولة ، فى التخلص من تدخل باسيل ، والمحافظة على استقلاله . انظر : يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ .
Schlumberger : II p. 478.

الفاطميون ملكهم بحلب ، وجعلوا بها حامية من المغاربة وتولى على حلب وعلى قلعتها ولاة من قبل الخليفة الظاهر الفاطمى[1] . فولها فى سنة ١٠٢٥ (جمادى الأولى سنة ٤١٥ هـ) سديد الدولة ثعبان بن محمد الكتامى ، بينما ولى القلعة موصوف الخادم الصقلبى ، فظلا يسيران الأمور بحلب ، إلى أن خرج على طاعة الخليفة الظاهر زعماء العرب بالشام[2] . وذلك أن أمراء عرب الشام ، وهم يومئذ حسان بن المفرج بن الجراح أمير الطائيين ، وصالح بن مرداس أمير الكلابيين ، وسنان بن عليان أمير الكلبيين ، اجتمعوا وجددوا ما كان قائماً بينهم من التحالف ، أواخر زمن الحاكم بأمر الله ، وفى أول أيام الظاهر . ويقضى هذا الحلف ، بأن يجرى الاتفاق بينهم على اقتسام جميع أعمال الشام وحلب ، فتكون فلسطين وما برسمها لحساب ابن الجراح ، وتصير دمشق وما يتبعها لسنان بن عليان وعشيرته ، أما حلب وتوابعها فتكون من نصيب صالح بن مرداس وبنى كلاب ، وحاولوا الاتصال بالإمبراطور باسيل ، كيما يساندهم بعساكره ، فلم يستجب لهم ، وعندئذ اهتم الخليفة الظاهر باستمالتهم غير أن حساناً استوحش منه ، فتجددت المحالفة بينهم[3] .

وتنفيذاً لهذا الاتفاق سار حسان بن الجراح إلى الرملة ، وبها أنوشتكين الدزبرى ، الذى أنفذه الظاهر الفاطمى والياً على فلسطين . فتعرضت الرملة للحريق والنهب والسلب ، ووقع كثير من الأسرى فى يد حسان ، بينما انهزم أنوشتيكين ولجأ إلى عسقلان ، وذلك سنة ١٠٢٥ (رجب ٤١٥ هـ)[3]

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٢١ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 606.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٥ .
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ، ص ١٦٢ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٤ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٢٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٦٢ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 607.

وفى نفس الوقت تغلب كاتب صالح بن مرداس ، وهو سليمان بن طوق ، على معرة مصرين ، من أعمال حلب ، ثم توجه فى جماعة من العرب إلى حلب سنة ١٠٢٥ (رجب سنة ٤١٥) ودارت الحرب بينه وبين واليها ، وهو يومئذ ، ثعبان بن محمد الكتامى ، والوالى على القلعة موصوف الصقلبى ، ثم لم يلبث صالح بن مرداس أن جاء من فلسطين (نوفمبر سنة ١٠٢١) بعد مساندته لحسان ابن الجراح ، واستمرت الحرب بين الفريقين ما يربو على خمسين يوماً[1] . على أنه لا زال للحمدانيين بحلب حزب قوى ، ويأملون فى استرداد ملكهم من الفاطميين ، وتولى زعامة هذا الحزب سالم بن مستفاد ، غلام سيف الدولة الحمدانى ، ومن كبار القادة بحلب ، فوجه إليه موصوف والى قلعة حلب ، التهمة بأنه خرج على سلطان الخليفة ، ومالأ أعداءه ، ودبر مؤامرة لاغتياله ، فالتف حوله الحمدانية وأهل البلد ، وأعدوا أنفسهم للدفاع عنه ، والخروج معه للقتال ، فلم يلبث أن فتح أحد أبواب حلب ، واجتمع بصالح بن مرداس ، وأخذ الأمان لنفسه ولأهل المدينة ، فى يناير سنة ١٠٢٥ (ذى القعدة سنة ٤١٥)[2] واعتصم سديد الملك بن ثعبان بالقصر الملاصق للقلعة ، على أن المهاجمين نصبوا المنجنيقات على سديد الملك وعلى القلعة ، ثم عهد صالح بن مرداس إلى سالم بن المستفاد ، وإلى كاتبه سليمان بن طوق بقتال من التجأ إلى القصر والقلعة بحلب ، وتوجه إلى فلسطين لمساعدة حسان بن المفرج على الدزبرى[3] .

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٢٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 608.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٢٨ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٦ .

وطلب صالح إلى قطبان أنطاكية ، قنسطنطين دلاسينوس ، أن يمده برجال يستعين بهم على الذين اعتصموا بالقلعة ، فأنفذ إليه ثلثمائة رجل ، فرتبهم على ناحية من سور المدينة ، ولما علم الإمبراطور البيزنطى بذلك أنكره عليه ، وطلب إليه استعادة الرجالة ، فأنفذهم صالح إليه . والواضح أن باسيل رأى أنه من الخير أن يطول أمد النضال بين الحزبين المتنازعين على السلطة فى حلب ، فيدب الضعف فيهما[1] .

وعرض من فى القلعة ، على سالم بن المستفاد ، وسليمان بن طوق ، إجراء الصلح والتسليم لهما ، فلم يستجيبا لهم وعندئذ نصبوا الصلبان على أسوار المدينة ثلاثة أيام . ودعوا للإمبراطور البيزنطى ولعنوا الظاهر الفاطمى . ولعل سكان القلعة اعتقدوا أنهم بهذا الإجراء يحصلون من الغزاة على شروط معتدلة للتسليم وأن هذه المظاهرة سوف يبلغ خبرها إلى من كان بخارج حلب . أو إلى الإمبراطور البيزنطى ، أو على أقل تقدير إلى دوق أنطاكية ، وبذلك يرتد المهاجمون على أعقابهم[2] .

ورأى حكام حلب الذين عينهم صالح بن مرداس أنه لا بد من وضع حد لهذا الاضطراب . فتقرر يوم الجمعة يونية ١٠٢٥ (١٢ ربيع الآخر سنة ٤١٦) أن يحتشد كل قادر على حمل السلاح ، وأن يتجهوا إلى القلعة لمهاجمتها . فحملوا المصاحف على أطراف الرماح فى الأسواق . وأعلنوا الجهاد وزحفوا على القلعة[3] . وأخذ اليأس يتسرب إلى نفوس المقيمين بالقلعة من المغاربة فاستأمن منهم جماعة ، فخلع عليهم ، وجرى الطواف بهم فى المدينة . وبذل من ثياب

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٧ .
Schlumberger : op. cit II. p. 608.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٢٩ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 610.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٢٩ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٧ .

الديباج والأموال لمن ينزل من القلعة مستأمناً ويكف عن المقاومة[1] .

ودارت بعدئذ مراسلة بين موصوف والى القلعة ، وبين ابن المستفاد الحمدانى وسليمان بن طوق كاتب صالح ، فاستقر الحال بينهم على شروط ، كتبت بينهم ، وأنفذ موصوف قوماً من المغاربة ، واستحلفوا ابن المستفاد وسليمان بن طوق على الوفاء بما تقرر ، وذلك فى ٢٤ يونية سنة ١٠٢٥[2] .

على أن ما حدث من الشجار بين المغاربة فى قلعة حلب ، أدى إلى استنجاد فريق منهم بأهل المدينة ، وفتحوا لهم باب القلعة ، فدخلوها فى ٣٠ يونيه ١٠٢٥ (مستهل جمادى الأولى سنة ٤١٦) ، فجرى القبض على موصوف الصقلبى متولى القلعة ، وسديد الملك ثعبان والى المدينة وعلى غيرهم من رجال الحكومة القائمة بحلب ، وتقرر اعتقالهم لمدة ثلاثة أشهر . كما تم طرد المغاربة من حلب ، فتخطف العرب أكثر ما كان معهم عند خروجهم من حلب[3] .

وعاد صالح بن مرداس من فلسطين ، فدخل حلب ، وأحضر موصوفا الخادم وأخذ يؤنبه على أفعاله ، ثم أمر بقتله . وأطلق سراح سديد الملك ثعبان ، بعد أن أخذ منه مالا قرره عليه ، وأطلق سائر الزعماء المصريين[4] ، واستولى صالح فى هذه السنة على حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس ، بالإضافة إلى ما كان بيده من البلاد ، الرحبة ، ومنبج وبالس ورفنية[5] . أما سنان بن عليان فحاصر دمشق ، ووقعت بينه وبين أهلها

---

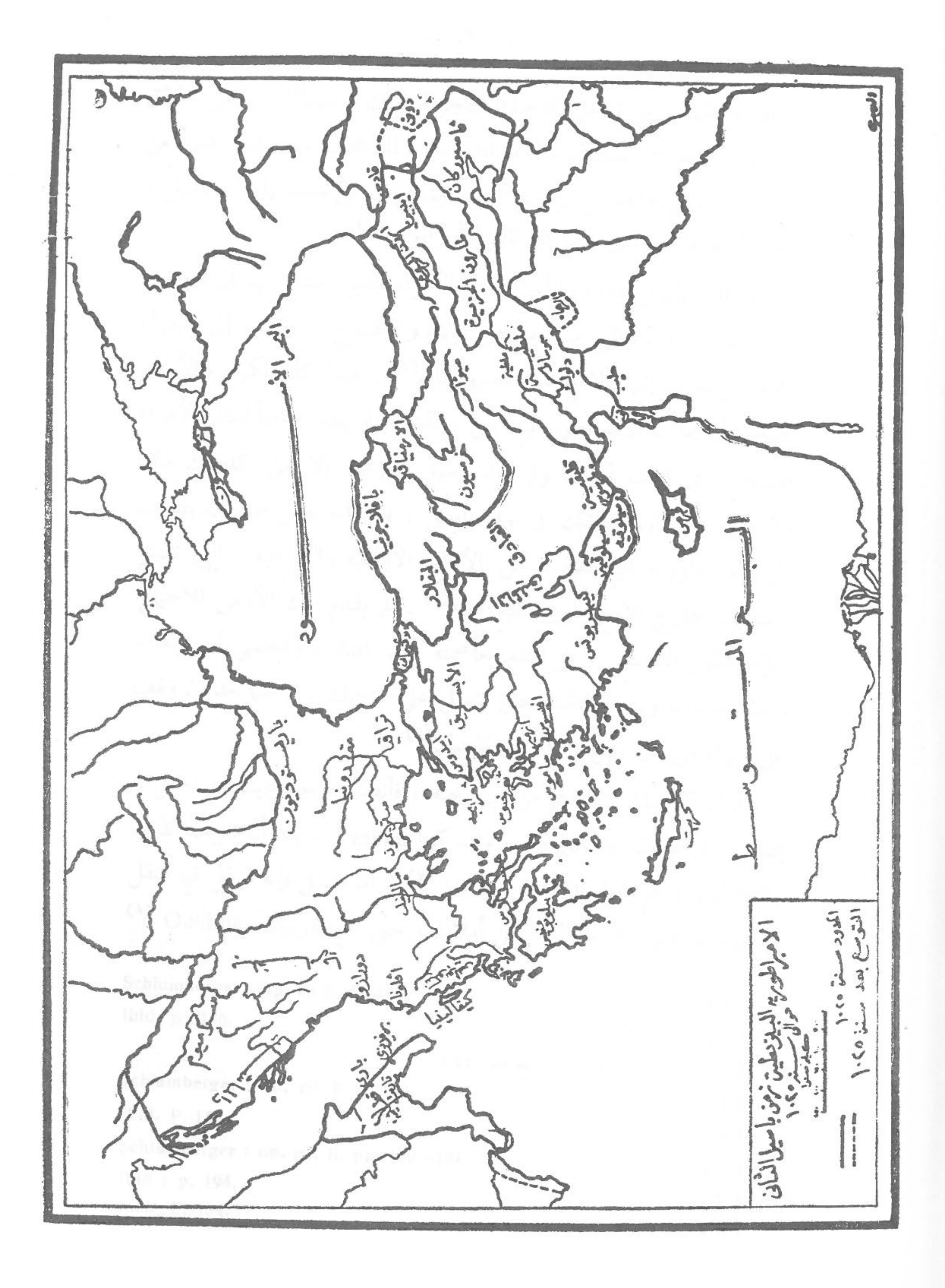
(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٢٩ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٧ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 610.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٧ .
Schlumberger. : op. cit. II. p. 610.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٣٠ .
Ibid p. 611.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٨ .

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ٢٣٠ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٨ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 611.



حروب عنيفة ، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة لصبر أهلها على الدفاع عنها[١] .

وبقى صالح بحلب حتى سنة ٤٢٠ هـ فأنفذ كاتبه سليمان بن طوق إلى الخليفة الظاهر ، فعاد إليه بخلع جليلة وهدايا قيمة له ولأولاده[٢] .

أرمينيا وبلاد الأبخاز (الكرج) :

سبق الإشارة إلى امتداد سلطان بيزنطة إلى بلاد أرمينيا والكرج (الأبخاز) . فالمعروف أن داود القربلاط ، الذى يعتبر من أقوى أمراء أرمينيا والكرج ، بل بلاد القوقاز كلها ، انحاز بعساكر الكرج إلى جانب بارداس فوقاس أثناء القتال ضد بارداس سكليروس . ولما خرج بارداس فوقاس على طاعة الإمبراطور باسيل ، وجه إلى أطرابزون حملة بحرية بقيادة جورج الطاروني ، لتهاجم بلاد الكرج ، فتخلى الكرج عن مساعدة بارداس فوقاس ، وأعلن أميرهم داود سنة ٩٩٦ ، أن يتنازل للإمبراطور باسيل عن كل ممتلكاته ، وأن يجعله وريثاً له فى الحكم[٣] . غير أن دواد نقض عهده قبيل وفاته ، فعهد بالحكم من بعده إلى بقراط (Parkarat) فنشبت بذلك الحروب بين باسيل والكرج[٤] .

وماكاد باسيل يسمع بهذا النبأ ، فى شتاء سنة ١٠٠٠ ، بينما كان يقيم بعساكره فى طرسوس ، بعد عودته من حملته على سوريا ، حتى تخلى عن مشروعه ، الذى يقضى بتوجيه حملة ثالثة على سوريا ، وعجل بالسير إلى بلاد الكرج ، ودعا إليه أمراء الكرج ليجتمعوا به . فعرض عليهم إنه حريص على أن يحوز أملاكه الجديدة ، التى تنازل عنها داود ، دون الالتجاء إلى الحرب .

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٨ . Ibid. P. 611.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٨ .

(٣) Schlumberger : op. cit. II. P. 160. Rembaud : L'Empire Grec P. 519.

(٤) Schlumberger : op. cit. II. P. 165.

وساوره الخوف من تدخل كاجيك الباجراتى ملك أرمينيا[١] . ومن المحقق أن باسيل توقع أن يصادف مقاومة شديدة ، ولذا صحب معه عدداً كبيراً من العساكر ، منهم جماعة من الروس[٢] . ويشير يحيى بن سعيد إلى أن باسيل ، تبعه الماجسطرس وإلى أنطاكية نقفور أورانوس[٣] .

وأغدق باسيل الهدايا والأموال على الأمراء الذين اجتمع بهم فى طايخ ، وبذل لهم حمايته ، وتلقى منهم مظاهر الولاء والخضوع ، وكتب إلى الأمراء المجاورين يطلب إليهم ألا يهاجموا فاسبوركان[٤] . فبدا كأن الكرج والأرمن أضحوا فى جانب الإمبراطور البيزنطى ، الذى صار يعتبر حامياً لسائر الأمراء المسيحيين فى غرب آسيا ، ولم يجد باسيل معارضة إلا من كاجيك ملك الأرمن ، إذ ساوره الشك فى نوايا باسيل ، وفى أنه يعمل على أن يضيف إلى الإمبراطورية البيزنطية ، كل الأقاليم الأرمنية والكرجية ، التى تتمتع باستقلالها خارج الإمبراطورية البيزنطية[٥] . فلم يقدم ملك الأرمن للاجتماع بالإمبراطور البيزنطى ، بل امتنع بعاصمته آنى Ani ، واحتمى بأسوارها ، وحشد فرسانه ورماته فاشتد حنق باسيل على كاجيك ، لا سيما بعد أن وقف على نواه من أبى سهل بن أخت كاجيك[٦] .

أراد كاجيك أن ينتقم من ابن أخته ، فأنفذ ابنه حنا بجيش ، احتل به إقليمى كوجوڤث Kogovith ، وتساكوا Tzahko ، بعد أن تعرضا للنهب والتخريب ، فلم يلبث أن أذعن أبو سهل[٧] . أما باسيل فإنه توغل فيما انتقل إليه بوصية داود القربلاط ، من أملاك ، حتى بلغ خوتيك Oukhtik[٨]

(١) Schlumberger : op. cit II. P. 166.

(٢) Ibid. p. 166.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤ .

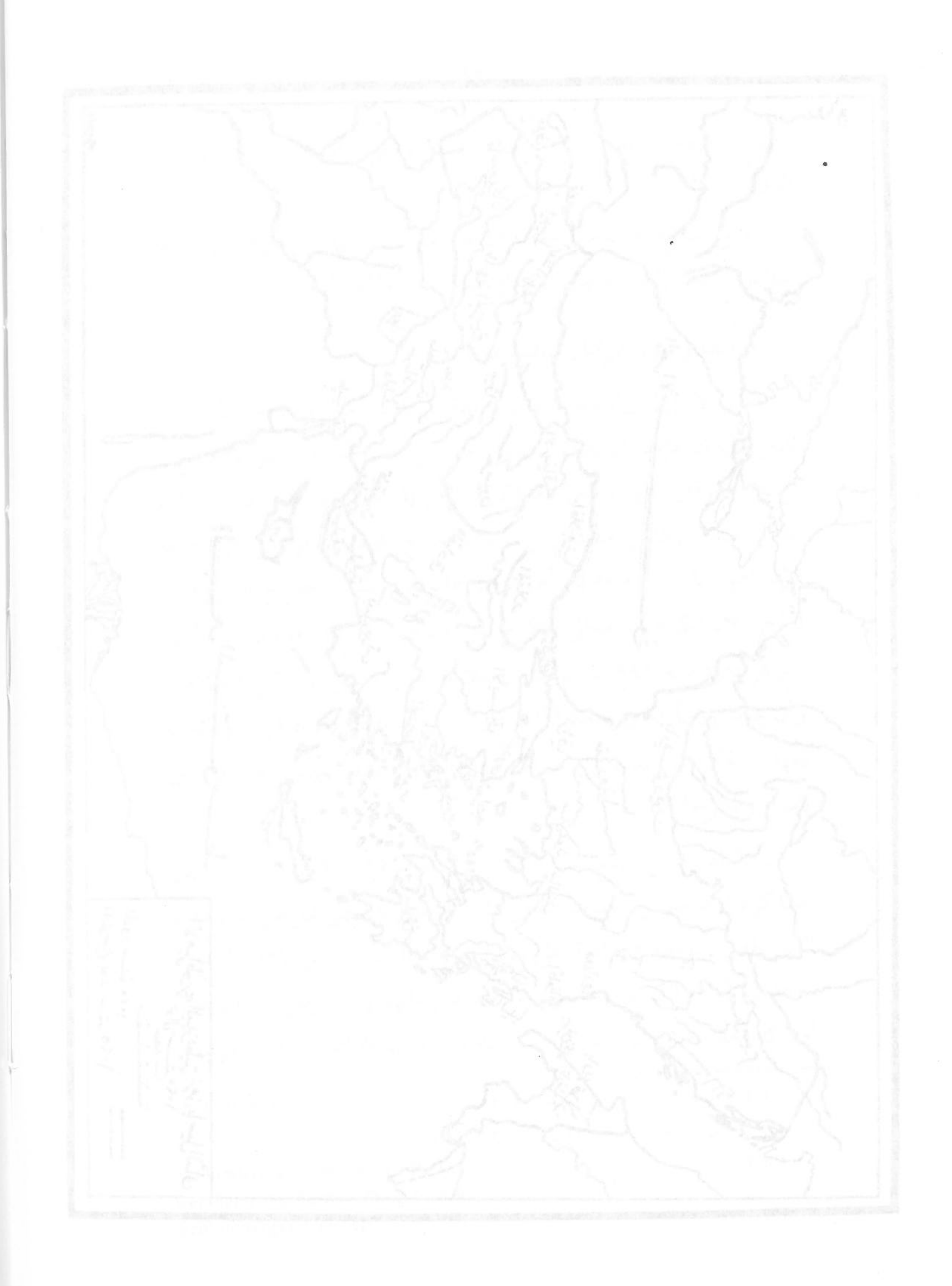
(٤) Schlumberger : op. cit. II. p. 180.

(٥) Ibid. P. 180.

(٦) Schlumberger : op. cit. Ii. pp. 180—181.

(٧) Ibid : p. 194.

(٨) Ibid : P. 194.



التى تقع فى الشمال الغربى من أرمينيا . ومن هذا الموضع ، تقدم للاستيلاء على ما يقع بأملاك داود القربلاط ، من مدن وحصون وكل المواضع التى تمد الأطراف البيزنطية إلى بلاد اللاظ . وجعل باسيل على هذه الممتلكات ولاة وموظفين من اليونانيين الذين يطمئن إليهم[١] .

وتبع باسيل عند عودته ، عدد كبير من أشراف الكرج ، فعينهم حكاما وولاة على جهات كثيرة بالإمبراطورية . والراجح أنه نصبهم أيضا حكاماً على الأقاليم التى استولى عليها حديثاً فى بلغاريا[٢] .

وأثناء انصراف باسيل لقتال البلغار ، خرج على طاعته تابعه جورج (جرجس) ملك الأبخاز (الكرج)[٣] . والواقع أن العلاقات ظلت ودية بين الإمبراطورية البيزنطية وبين ملوك الكرج ، منذ أن انضم إلى الإمبراطورية البيزنطية أملاك القربلاط داود . وصار الكرج يعتزون بالإمبراطور باسيل ، ويعتبرونه السيد الذى ينتمى إليه ملوكهم[٤] . ونظراً إلى أن القربلاط داود لم يكن له وريث ، فإنه اتخذ ، بناء على توسل النبلاء والأشراف ، ابن أخيه ، بقراط ، ملك الأبخاز وريثا له فى الحكم ، وهو والد الملك جرجس (جورج) . على أن هذا الإجراء ألغاه ما حدث بعدئذ من الاتفاق المعقود بين باسيل وداود[٥] . ولما مات داود القربلاط سنة ١٠٠٠ ، وانتقلت ممتلكاته إلى باسيل حسب الاتفاق المعقود بينهما ، لم يحتج الملك بقراط على هذا الإجراء ، الذى حرمه من إرث عمه الذى تبناه . غير أن ابنه جرجس

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤ .

(٢) Schlumberger op. cit. II. p. 195.

(٣) أشار يحيى بن سعيد إلى أن جرجس ملك الأبخاز ، وهو ملك الجرجان ، ويسمون بالتركى الكرج ، هو ابن الملك بقراط ، الذى اتخذه القربلاط داود الكبير ابناً له ، والمعروف أن داود تولى العرش سنة ٩٨٠ ، وجعله باسيل قربلاطاً سنة ١٠٠٠ ، ومات بقراط سنة ١٠١٤ فخلفه على الحكم ابنه جرجس (جورج) . انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ .
Schlumbergér : op. cit. II. pp. 469—470.

(٤) Ibid : P. 470.

(٥) Schlumberger : op. cit. II. p. 160.

(جورج) ، لم يسر على نهج أبيه ، بقراط ، بل استولى على البلاد التى سبق بذلها لباسيل وذلك سنة ١٠١٤ ، أو سنة ١٠١٥[١] .

ولم يكتف جرجس (جورج) بذلك ، بل كاتب الخليفة الحاكم بأمر الله ، فى أن يقوما معاً بإجراء مشترك ضد الإمبراطور باسيل ، فيقصده كل واحد منهما من جهته[٢] . ولم تتعرض الحاميات البيزنطية فحسب لهجمات جرجس الأبخازى ، بل نهض لمساندته حنا سمباد ملك الأرمن ، فاشتركا فى الإغارة على البلاد البيزنطية المتاخمة لها[٣] .

تلك هى الأسباب التى أدت إلى استئناف النضال الشديد بين جرجس ملك الأبخاز والإمبراطور باسيل ، على أن باسيل لم ينهض لتأديب ملك الأبخاز إلا بعد أن فرغ من قتال البلغار سنة ١٠١٨ وأحرز النصر النهائى عليهم سنة ١٠١٩[٤] . فخرج من القسطنطينية وسار إلى القلميل **Philomelion** سنة ١٠٢٠ دون أن يعلم أحد بقصده وأظهر الاستعداد لغزو بلاد الشام فجهز المؤن والعلف والسلاح وبعث بها إلى أنطاكية ، ليتخذ منها قاعدة للاستيلاء على حلب أو دمشق[٥] . وفى القلميل سمع الإمبراطور باسيل بوفاة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وذلك فى فبراير سنة ١٠٢١ . وهذا التاريخ يطابق الزمن ، الذى توجهت فيه حملة باسيل لقتال الكرج[٦] .

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 474.
يشير يحيى بن سعيد إلى أن جرجس ملك الأبخاز ، انتهز فرصة انصراف باسيل إلى قتال البلغار ، وطول مقامه بتلك الجهات ، فعمد إلى الإفساد فى أطراف الأملاك البيزنطية المجاورة واستولى على حصون سبق أن تنازل عنها لباسيل ، عمه دارد القربلاط .
انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ .
Schlumberger : op cit. pp. 474—475.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٣٩ . Ibid : pp. 474— 475.

(٣) Ibid : p. 475.

(٤) يحيى بن سعييد : التاريخ ص ٢٣٩ . Ibid : P. 475.

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ .

(٦) Schlumberger : op. cit. II. p. 477.
ibid : P. 478.

وترتب على وفاة الحاكم ، أن فقد جرجس ملك الأبخاز ، كل أمل يبتغيه من مساعدة هذا الحليف القوى ، إذ كان يأمل أن يقوم الحاكم بتوجيه حملة من جهة الشام لمناوأة الإمبراطور ، كيما ينصرف عن قتال الكرج (الأبخاز)[١] . وعلى الرغم من أن جرجس ملك الأبخاز لم يكن بوسعه أن يحشد من العساكر ما تضارع فى العدد العساكر البيزنطية ، فإن ما اشتهر به من البسالة والإقدام ، وما لبلاده الجبلية من الأهمية فى مقاومة العدو ، جعله يصر على ألا يذعن للإمبراطور البيزنطى ، فحشد جيوشه ، واستعان بالمأجورين من الأجانب ، وتقدم للقاء عدوه .

وتألف جيش باسيل من اليونانيين ومن الأجانب . وخرج لقتال جرجس ملك الأبخاز ، فى أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ١٠٢١ . وعزم باسيل على أن ينزل العقاب بملك الأبخاز ، لأنه هو الذى بادر بالعدوان . ثم رأى أيضا أن يزجر حنا سمباد ملك الأرمن ، لأنه ساند ملك الأبخاز فى ثورته وتمرده على باسيل[٢] . واتخذ جيشه الطريق الحربى الرئيسى ، الممتد من قيصرية إلى ملطية ؛ وتتبع أعالى الفرات ، ثم اتخذ معسكره أول الأمر ، فى جارين Garin بأرمينيا ، ولا تبعد إلا قليلا عن أرضروم ، وتعتبر من أهم الحصون ، ومن أهم المراكز التجارية ، فتحمل إليها متاجر فارس والهند وسائر ما يرد من آسيا والإمبراطورية البيزنطية برسم طرابزون . وكانت وقتذاك بأيدى البيزنطيين ، وتقع على أطراف بلاد ملك أرمينيا[٣] . ولما اقترب باسيل من أطراف بلاد ملك الأبخاز ، بعث إليه ، يطلب منه القدوم وإظهار الطاعة والولاء ، غير أنه رفض وأصر على موقفه . فلم يسع باسيل إلا أن يجتاز بجيوشه سلسلة الجبال التى تفصل بين الثغر البيزنطى خالديا ، وبين بلاد باسيان والأبخاز ، فهبط إلى أرض باسيان ، ولم يلبث

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ . Ibid : pp. 478—479.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. P. 479.

(٣) Ibid : pp. 479.—480.

أن انقض بجيشه على أوجومى Ogomi ببلاد باسيان ، وهو موضع مأهول بالسكان ، يقع فى منطقة حصينة ، فتعرض للخراب والدمار ، ولم تنج القرى المجاورة من هذا المصير ، وتقرر نقل سكان هذه المواضع إلى ثغر خالديا البيزنطى[١] . وأخذ باسيل يطارد ملك الأبخاز ، الذى تحصن وراء نهر كور ، فأمر باسيل بإحراق ضياعه ونهب غلاتها ، ووقع فى يده عدد كبير من الأسرى ، وبذلك تعرض كل ما يقع من مملكة الكرج جنوب نهر الكور للخراب والدمار على أيدى العساكر البيزنطية ، ومن بينهم الروس[٢] .

وفى شتاء سنة ١٠٢١ — ١٠٢٢ ، توجه باسيل بجيشه إلى مواضع قريبة من الحدود وتقع بثغر خالديا ، وأقام باسيل فى أطرابزون ، حاضرة الثغر . حيث استقبل سفارات من قبل جرجس ملك الأبخاز ، تسعى لعقد الصلح بينهما ، ومن قبل حنا سمباد ملك الأرمن ، تلتمس عقد الصلح مع باسيل ، بعد أن تخلى عنه حليفه جرجس ملك الأبخاز ، وبعد أن تعرض للاغتيال من قبل أخيه أشوت ، وبعد أن خرج على طاعته سائر أمراء أرمينيا ، فبادر باسيل بإرسال العساكر التى أخمدت الفتن ووطدت ملكه وسيادته[٣] . ولم يلبث سمباد أن تنازل سنة ١٠٢١

---

(١) Schlumberger : op. cit II. P. 482.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ . Ibid : P. 482.

(٣) المعروف أن أرمينيا نعمت بالرخاء والسلام زمن جاجيك الأول (٩٩٠ — ١٠٢٠) ، ولم يقع صدام بينه وبين بيزنطة . ولما ولى الحكم من بعده ابنه حنا سمباد ، الذى لم يكن له من الشجاعة والكفاية ما يجعله يحافظ على تراث أبيه ، خرج عليه أخوه آشوت الذى لقى التأييد والتشجيع من ملك فاسبور كان ، وهو المعروف باسم سنخريم Senckherim . ثم توسط فى الصلح بين الأخوين الجاثليق بطرس (بدروس) ، وجرجس ملك الأبخاز ، على أساس أن يقتسم الأخوان المملكة ، فكان من نصيب سمباد أنى وتوابعها ، بينما اختص آشوت بما يتاخم فارس وبلاد الكرج من مملكة أرمينيا . وتقرر أن يندمج الشطران ، إذا مات أحد الأخوين .

وما تعرض له سمباد من الأخطار من قبل أخيه آشوت ، وجرجس ملك الأبخاز ، والسلاجقة ، جعله يلتمس من باسيل المساعدة ، فتوسط فى ذلك جاثليق أرمينية . ورضى سمباد بما أملاه باسيل من شروط مهينة . إذ قبل ، على كره منه ، أن يتنازل عن إمارته لباسيل ، وذلك بعد وفاته ، على أن يظل ملكا عليها أثناء حياته ، وبقى سمباد يحمل لقب أرخون أنى =

لباسيل عن أملاكه بعد وفاته ، على أن يظل يحكمها أثناء حياته ، وذلك نظراً لما تعرضت له بلاده من الغارات من قبل السلاجقة والأبخاز ، فضلا عن الحروب الداخلية[١] .

لم يكن سمباد هو الوحيد الذى قبل هذه الشروط المهينة ، بل جرى على نهجه أستخريم (سنحاريب) ، أمير فاسبوركان (وعاصمتهما فان) ، بعد أن تعرضت بلاده لهجمات الإمارات العربية المجاورة ، وغزو السلاجقة الذين اجتازوا بلاده فعلا ، فضلا عن الحروب الداخلية ، كل ذلك جعله يدرك أنه ليس فى وسعه أن يدرأ هذه الأخطار ، فاجتمع بأفراد أسرته وحكام الأقاليم ، واستقر الرأى على أن يتنازل للإمبراطور باسيل عن مملكته ، مقابل الحصول على سيواس والبلاد الممتدة حتى نهر الفرات ، ولاريسا وأباره ، ومواضع عديدة أخرى ، على أن يكون منتميا للإمبراطور البيزنطى ومن أتباعه ، فمنحه الإمبراطور باسيل لقب بطريق ودوق ميزوبوتاميا وجعله حاكما على ثغر قبادوقيا[٢] وبذلك امتدت حدود الإمبراطورية البيزنطية شرقا إلى جبال أذربيجان فازدادت سلطة بيزنطة ونفوذها فى الشرق ، وازدادت مناعة الطرف الشرقى ازاء غارات المسلمين . يضاف إلى ذلك ، أن تلك الأسرة التى كانت تناوئ بيزنطة ، لم تلبث أن أضحت مجرد أسرة تتولى حكم إقليم ، على أنه إقطاع ، من قبل الإمبراطورية البيزنطية[٣] .

ولما فرغ سنحاريب من إجراءات تسليم فاسبوركان ، خرج من حاضرة ملكه فان ، وبصحبته أبناؤه ، وحشد كبير من رعاياه ، يبلغ عددهم أربعين

= وأرمينيا الكبرى ، حتى وفاته فى سنة ١٠٤٠ ، فخلفه على الحكم ابنه كاجيك الثانى فتخلى نهائياً لبيزنطة عن ممتلكاته .

انظر Camb. Med. Hist. IV. pp. 162—164.

Schlumberger : op. clt. II. pp. 493—494. 498—499.

(١) Schlumberger : op. cit. II. P. 500.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ .

(٣) Schlumberger : op. cit. ili. P. 502.

Ibid : P. 504.

ألفا[١] . فارتحلوا جميعاً بأمتعتهم وأموالهم وتحفهم ، وحلوا بوطنهم الجديد سيواس ، وذلك فى سنة ١٠٢٢ . ثم امتد سلطانهم إلى قبادوقيا وقليقية زمن داود بن سنحاريب وإخوته[٢] .

وترتب على تنازل سنحاريب عن فاسبوركان ، أن تشجع باسيل على أن يضيف أيضا إلى أملاكه جميع أرمينية ، فهاجم المدن الواقعة على شواطئ بحيرة فان (وان) ، فانحاز إليه كثير من الأمراء الأرمن ، وأمدوه بالعساكر ، كما يستعين بهم فى القتال فى الشرق . ويشير يحيى بن سعيد ، إلى أن باسيل تسلم أيضا من ابن الديرانى حصونه وقلاعه ، فجعل منها ومن أملاك سنحاريب قطبانية مستقلة ، وشحن الحصون بالعساكر ورتب فيها عمالا[٣] . والواقع أن ابن الديرانى لم يكن إلا شقيق سنحاريب ، واسمه ديرنيك Derenik[٤] .

وفى تلك الأثناء تجهز باسيل لقتال جرجس ملك الأبخاز ، بعد أن جاءته من القسطنطينية بطريق البحر ، أمداد وفيرة . ولم يلبث جرجس ، أن أنفذ إلى أطرابزون رسولا ، يستعطف الإمبراطور ، ويعتذر إليه ، مما كان فعله ، ويعد بأن يسلم إليه الحصون وسائر البلاد ، التى كانت لعمه داود القربلاط . وأن يعطيه ابنه بقراط رهينة على ذلك . ولا يحاول أن يخرج على ما بذله من العبودية والموالاة له[٥] .

ولما أدرك الإمبراطور باسيل صدق نوايا جرجس الأبخازى . قبل ما عرضه

(١) Schlumberger : op cit II. pp. 404—406.

Camb. Med. Hist. IV. II. P. 164.

على أن الحكومة البيزنطية حرصت على أن تملأ الفراغ الذى نجم عن هجرة هؤلاء الأرمن ، فنقلت إلى فاسبوركان ، حاميات حربية من سورية وبلغاريا .

انظر Schlumberger : op. cit. Ii. P. 506.

(٢) Ibid : p. 509.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ .

(٤) Schlumberger : op. cit. II. P. 510.

ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢٥٠ .

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ .

من المقترحات . فأنفذ إليه جماعة من الرؤساء والقضاة كيما يحرروا المعاهدة . وساروا بحرا ليجتمعوا بجرجس والجاثيليق (الكاثوليكوس) ، رئيس الكهنة وجميع الأساقفة . وغيرهم من رؤساء الدولة : فأخذ عليهم رسول باسيل الأيمان المؤكدة . على الوفاء بما بذله جرجس ملك الأبخاز[١] .

وسار باسيل ليتسلم الحصون التى بذلها له الأبخازى . وليتخذ ابنه رهينة وذلك فى سنة ١٠٢٢ . غير أنه اتصل بالإمبراطور تدبير فتنة اشترك فيها نقفور اكسيفياس Xiphias ، ونقفور فوقاس ، وجرجس الأبخازى ، فاستصحب معه شجعان الرجال وذوى الناس . ومنهم طائفة من الروس ، من يستطيع أن يقهر بهم الأبخازى . إن لم يف بوعده . وظن الأبخازى أنه ظفر بالإمبراطور وجيشه . حين توغل فى بلاده فنشبت معركة عنيفة قرب أرضروم ، فى سبتمبر سنة ١٠٢٢ . أسفرت عن هزيمة الأبخازى . ومصرع عدد كبير من عساكره . وفرار جرجس الأبخازى إلى الجبال بداخل بلاده[٢]. ولما لم يجد له نصيراً ،

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ – ٢٤١ .
Schlumberger : op. cit. II. pp. 511—512.

(٢) Ibid : p. 527.
المعروف أن نقفور اكسيفياس كان وقتذاك حاكماً على ثغر الناطليق ، من أكبر أقاليم وسط آسيا الصغرى ، وأنه اشتهر ببلائه فى الحرب البلغارية ، وسبق أن تولى إدارة ثغر مقدونية . أما نقفور فوقاس فهو ابن بارداس فوقاس الذى سبق أن خرج على طاعة باسيل ، وادعى الملك لنفسه ، واشترك الاثنان فى الحملة التى وجهها باسيل لقتال جرجس الأبخازى . وترجع أسباب فتنتهما إلى أنهما زعما أن باسيل لم يكافئهما على خدماتهما الحربية العديدة ، ولم يجعل لهما قيادة الحملة لقتال الأبخازى ، بل صيرهما فى مؤخرة الجيش . فانتهز فرصة بعد باسيل عن القسطنطينية ، وانصرافه إلى قتال الأبخازى . وقررا الخروج على طاعة باسيل ، والتمسا لهما حلفاء من أمراء الأرمن والأبخاز (الكرج) الذين استولى باسيل على ممتلكاتهم ، ومن بينهم جرجس ملك الأبخاز . فاجتمع إليهما عدد كبير من أهل قبادوقيا ، فأقاما معسكرهما فى قيصرية . وكان كل من المتآمرين يأمل فى أن ينفرد بالحكم من دون الآخر .

ولما تبين لباسيل أن الأخطار أحدقت به ، وأنه لم يثق فى الأبخازى ، أرسل قائده تيوفيلالت دالاسينوس لقمع هذه الفتنة . فعينه حاكماً على ثغر الناطليق مكان اكسيفياس . وبذل له من الأموال ما يكفى لتأليف جيش من المرتزقة ، وأوصاه بالحذر والسرية . غير أنه لم يكد تيوفيلالت يصل إلى ثغر الناطليق ، حتى أدرك خطورة الموقف ، إذ التف حول الثائرين عدد كبير من الأنصار والنبلاء . وامتدت الفتنة إلى صفوف جيش باسيل إذ ضاق العساكر=

واشتد به اليأس . أخذ يستعطف الإمبراطور ، ويتوسل إليه أن يقبل ولده رهينة ، وأن يتسلم ما سبق أن بذله من الحصون والضياع . فأرسل باسيل عساكره ، فاستولت على هذه المواضع ، ولم تبق للأمير الأبخازى إلا بعض الكنائس والقرى بالجهات النائية ببلاد الأبخاز ، ولم تلبث أن انضافت إلى بيزنطة[١] .

وبذلك امتدت الأطراف البيزنطية إلى وادى نهر كور ، بل لعلها تجاوزت تفليس ، فصارت الأملاك البيزنطية تحيط بأملاك أسرة بقراط الأرمنية من جميع الجهات[٢] . وجعل باسيل على بلاد الأبخاز قادة ، وعهد إليهم بعمارة القلاع الواقعة بالأطراف وإعدادها لصد هجمات الأتراك والسلاجقة[٣] . وحصل باسيل على رهينته ، بقراط بن جرجس ، وهو طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره ، فنقله إلى القسطنطينية ، كيما يقيم بها ثلاث سنوات ، ضماناً لحسن سلوك أبيه[٤] .

وعاد باسيل فى أوائل سنة ١٠٢٣ إلى عاصمته ، يتبعه من الرهائن والأسرى ، من جلبهم الأمراء والسادة ، من شواطئ البحر الأسود ، وبحيرة فان وسهل كور ، والفرات[٥] .

= ذرعاً بهذه الحملة التى طال أمدها ، كما أن عدداً غير قليل من العساكر ينتمون إلى ثغر الناطليق . فعولوا على الهروب ليدافعوا عن أوطانهم وأسراتهم : حتى لا ينتقم منهم العصاة وانحاز أكثر هؤلاء العساكر إلى نقفور فوقاس ، نظراً لأنه ينتمى إلى موطنهم ، ولمحبتهم لأسلافه . وعندئذ دبر اكسيفياس مؤامرة انتهت باغتيال نقفور فوقاس فى أغسطس سنة ١٠٢٢ (٤١٣ هـ) ، فانفض عنه العساكر ، فلجأ إلى الهروب ، غير أنه لم يلبث أن وقع فى قبضة الدلاسينوس ، فأرسله إلى الإمبراطور ، فنفاه إلى جزيرة الأمراء ، وصادر ممتلكاته .
انظر Schlumberger : op. cit. II. pp. 514 — 522.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٣ .
Schlumberger : op. cit. II. p. 531.

(٢) Ibid : p. 531.

(٣) Ibid : p. 532.

(٤) Ibid : p. 532.

(٥) Schlumberger : op. cit. II. pp. 534—536.

وبذل باسيل الثانى ، قبيل وفاته ، النصح لأخيه قنسطنطين الثامن ، بالإحسان إلى هذه البلاد ، والترفق إلى أبناء سنحاريب وسائر أمراء أرمينيا . فلما تولى قنسطنطين العرش سنة ١٠٢٥ ، أعاد بقراط بن جرجس ملك الأبخاز ، ولما يمض عليه بالقسطنطينية سوى سنتين يصحبه إلى بلاده قطبان الشرق ، الذى حمل رسالة من قنسطنطين إلى ملك الأبخاز تتضمن الإشارة إلى أنه تولى عرش بيزنطة ، والاعتراف بأن يتولى بقراط الحكم بعد أبيه[١] ، فأرسل ملك الأبخاز سفارة إلى القسطنطينية لتوكيد الولاء والإخلاص للإمبراطور البيزنطى ، ولما توفى جرجس ملك الأبخاز سنة ١٠٢٧ ، تولى مكانه ابنه بقراط ، الذى صار يعرف ببقراط الرابع ، وتولت الوصاية عليه أمه ابنة سنحاريب . فظل يحكم البلاد نحو نصف قرن ، حتى سنة ١٠٧٢[٢] .

والواقع أنه فى كل هذه الممالك المسيحية المتاخمة للقوقاز ، والتى ساد بها النظام الإقطاعى ، لم ينتقل الحكم من ملك إلى آخر دون أن تحدث فتن عنيفة ، إذ لا بد من ظهور حزب يقاوم المرشح الحكم ، فتهيأ بذلك الفرصة للتدخل الأجنبى . ودرجت الدبلوماسية البزنطية على أن تشجع على وقوع الانقسام والفتن ، كما تضيف إلى الإمبراطور أملاكا جديدة[٣] .

فحينما تولى بقراط الرابع الحكم ، خرج على طاعته أسقف بانه Bana وجماعة من أنزامه وأتباعه واتصلوا بقنسطنطين ، بينما حسن له أصحابه استرجاع الحصون والقلاع التى سلمها أبوه إلى باسيل الثانى ، فجرد قنسطنطين إليهم حملة ، استباحت بلاد الأبخاز ولى كثير من الأبخازيين مصرعهم ، ووقع عدد كبير فى الأسر . فوجهت الملكة ابنة سنحاريب إلى قائد قنسطنطين جماعة من الرؤساء يحملون رسالة منها ، تشير إلى الاعتذار عما حدث ، وتعلن فيها ولاءها وولاء ابنها للإمبراطور قنسطنطين[٤] .

---

(١) Schlumberger : op. cit. III. pp. 25—26.

(٢) Ibid : p. 27.

(٣) Schlumberger : op. cit. III. pp. 29 — 30.

(٤) Ibid : p. 30.

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٠ .

أما مملكة أرمينيا فإنها تعرضت باستمرار لغارات الأتراك السلاجقة[١] ، واقترن ذلك بحدوث مجاعة بلغت من الشدة ، أن أخذ الفلاحون يبيعون نساءهم وأطفالهم لكيلا يموتوا جوعاً . يضاف إلى ذلك أن الأتراك السلاجقة ، وعساكر الأسرات العربية المالكة بالجهات المجاورة ، والعساكر البيزنطية على الطرف الجنوبى لأرمينيا ، كل هذه الفئات دأبت على مهاجمة الأقاليم المتاخمة لأرمينيا ، فلم يعد لملوكها من السلطة ، بعد أن تجردوا من الموارد ، ما يكفى للمحافظة على استقلالهم ، بينما لجأ رجال الدين إلى الأديرة ، ومواصلة النشاط الدينى بها[٢] .

إيطاليا :

ما حدث من هزيمة الجيش الألمانى سنة ٩٨٢ فى ستيلو ، ووفاة الإمبراطور أوتو الثانى فى السنة التالية ، كان له أثر طيب فى مجرى الأمور فى بيزنطة . والواقع أنه مهما حدث من الاتفاق بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين ، ضد أوتو ، لم يعد لهذا الاتفاق أهمية بعد وفاة أوتو الثانى . غير أن ما حدث فى ألمانيا من الفوضى بسبب حداثة سن الإمبراطور أوتو الثالث ، منع ألمانيا ، سنوات عديدة ، من التدخل فى الأحوال السياسية بجنوب إيطاليا[٣] .

---

(١) المعروف أن أول غارة خطيرة للسلاجقة على أرمينيا حدثت سنة ١٠٢١ ، وترتب عليها ما حدث من تنازل سنحاريب عن فاسبوركان للإمبراطور باسيل الثانى .

(انظر Schlumberger : II. p. 495.

(٢) Schlumberger : op. cit. III. p. 36.

سبق الإشارة إلى أن سمباد أوصى كتابة بأن تضاف بلاده (أنى Ani) عند وفاته إلى باسيل . غير أن الإمبراطور قنسطنطين الثامن الذى خلف باسيل على الحكم ، سلم هذه الوثيقة قبيل وفاته إلى رسول ملك الأرمن ، وأشار بأن يبلغ الملك : « أنى لما أصبحت على عتبات الآخرة ، رأيت ألا أغتصب أملاك الآخرين . فليسترد مملكته ، ويردها على أبنائه » . غير أن الرسول الأرمنى لم يبلغ الرسالة ، بل احتفظ بها حتى باعها إلى الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ١٠٣٤ ، مقابل مبلغ ضخم من المال ، على أن هذه الصفقة أدت إلى ضياع أرمينيا من بيزنطة — انظر :

Schlumberger : op. cit. II. p. 500.
Camb. Med Hist. IV. pp. 164 — 165.

(٣) Schlumberger : op. cit. II. [illegible]

وترتب أيضا على وفاة الأمير المجاهد أبي القاسم ، أمير صقلية (سنة ٣٧٢ هـ)[١] أن توقف المسلمون فترة من الزمن ، عن مواصلة ما درجوا عليه من الغارات ، على شواطئ ثغرى أبوليا وكالابريا . واغتنم البيزنطيون هذه الأحوال ، فاستردوا كالابريا ومعظم أبوليا ، واستعادوا ما احتله الألمان منها منذ سنة ٩٨٢[٢] .

أفادت الحكومة البيزنطية ، من هزيمة أوتو الثانى وفشله فى الاستيلاء على وسط إيطاليا ، فزادت من سيطرتها على تلك البلاد ، التى امتدت على بحر الأدرياتى إلى نهر ترنتو Tronto ، وامتدت من جهة أخرى إلى بحر التيرا حتى خليج بوليكاسترو Policastro . والواقع أنه حدث فى تلك الأثناء أن لجأت الحكومة البيزنطية ، إلى تنظيم إدارة الثغرين البيزنطيين ، كالابريا وأبوليا ، فصارت تخضع لسلطة حاكم عسكرى واحد ، اتخذ حوالى نهاية القرن العاشر الميلادى ، اسم قطبان وجعل مقره فى بارى[٣] . والواضح أن كلا من الثغرين البيزنطيين فى جنوب إيطاليا ، كالابريا وأبوليا ، احتفظ بقائده (استراتيجوس) ، ثم خضع هذان القائدان لسلطة القطبان الذى فى بارى[٤] .

على أن السنوات التى تلت تداعى النفوذ الألمانى فى إيطاليا ، وساد فيها الهدوء ، تعتبر فترة وجيزة ، فلم يتغير أثناءها ، ما اشتهر به الحكام البيزنطيون بتلك الجهات من الفساد وابتزاز الأموال والاستبداد ، وشجع على ذلك بعد هذه الجهات عن بيزنطة وانصراف بيزنطة إلى قمع ما يهدد كيانها من ثورات ، وإلى الدفاع عن حدودها جهة بلغاريا سوريا . وترتب على ذلك ، أن للتحرر من هذا الاستبداد ، نشبت ثورات وفتن . وجرى الاستعانة بالمسلمين فى صقلية

---

(١) آمارى : المكتبة الصقلية (نقلا عن ابن الأثير) ، جـ ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 232.

(٣) Schlumberger : op. cit. II. p. 235.

والقطبان : "Catepano"

(٤) Schlumberger : op. cit. II. p. 235.

لمقاومة الحكم البيزنطى فى إيطاليا[١] . وتهيأت الأحوال للمسلمين لمهاجمة الأملاك البيزنطية بإيطاليا[٢] . ولذا فإن ما وقع من الأحداث ، فى الثغور البيزنطية فى الفترة الواقعة بين سنة ٩٨٤ عند استرداد ابوليا ، وبين سنة ١٠١١ ، حين اندلعت أول ثورة للحزب الوطنى من اللومبارديين تحت زعامة ميلو ، والتى عجلت بالفتح النورماندى لإيطاليا ، إنما تتمثل فى إغارات المسلمين على جنوب إيطاليا ، وثورات اللومبارديين[٣] . كان لزاما على القطبان البيزنطى فى بارى أن يتخذ من الأساليب السياسية والحربية ، ما يساعده فى المحافظة على سلطان الدولة البيزنطة فى تلك الجهات . إذ لم يكن فى وسع الدولة البيزنطية وقتذاك أن تبعث بأمداد إضافية ، نظراً لانصرافها لقمع الفتن الداخلية ، وإلى قتال المسلمين فى الشرق ، والبلغار فى شبه جزيرة البلقان[٤] .

توالى على حكومة بيزنطية فى هذه الفترة ، ستة حكام ، وجعلوا كل اهتمامهم ابتزاز الأموال ، والاحتماء بمن يجلبونه معهم من بيزنطة من العساكر ، فتهيأت بذلك الفرصة للمسلمين بصقلية لمواصلة غاراتهم فى جنوب إيطاليا[٥] . ولم تقنع بما حصلت عليه من سكان كالابريا من الإتاوات ، بل استولوا على المدن الكبيرة ، فاستولوا فى سنة ٩٨٦ على جيراس Gerace ، ولم يلبث الأمير عبد الله بن محمد ، أن انتزع مدينة كسنته Cosenza فى سنة

---

(١) Schlumberger : op. cit. II. pp. 237. 242.

(٢) Ibid : p. 242.

الملحوظ أن الصفة اليونانية غلبت على كالابريا وأوترانتو ، بسبب ازدياد النفوذ البيزنطى الناجم عن قدوم الموظفين البيزنطيين ، وكثرة رجال الدين اليونانيين ، فضلا عن النشاط التجارى ، الذى يربط بين ثغور إيطاليا وسالونيك وموانى البيلوبونيز ، والقسطنطينية . أما أبوليا فعلى الرغم من خضوعها لبيزنطة ، فإن سكانها تألفوا من الإيطاليين واللومبارديين ، وخضعوا لكنيسة روما ، وغلبت عليهم الصفة اللاتينية انظر .

Schlumberger : op. cit. II. pp. 240 — 242.

(٣) Ibid : p. 243.

(٤) Gay : op. cit. p. 378.

(٥) Schlumberger : op. cit. II. p. 246.

٩٨٨ ودمر أسوارها[١] ، وتعرضت باری عاصمة إيطاليا البيزنطية للتهديد المباشر ، إذ هاجم المسلمون أرباضها ، ونهبوا الأراضى ، ثم هاجموا تارنت[٢] . وفى ديسمبر سنة ٩٨٦ مات عبد الله أمير صقلية ، فخلفه على الحكم ابنه ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف ، الذى اشتهر بالبذل والسخاء ، وفى زمنه كادت تستقل صقلية عن الخلافة الفاطمية فى مصر وبلغت من الرخاء ما لم تبلغه زمن الأمراء الكلبيين الأوائل ، وارتفع بها شأن الأدب والفن . ودرج المسلمون أثناء حكمه على أن يغيروا كل سنة على الممتلكات البيزنطية فى جنوب إيطاليا[٣] ، ففى سنة ٩٩٤ أغاروا على تارنت ، واستولوا على ماطيرا Matera بعد حصار استمر أربع سنوات[٤] .

وما حدث فى بارى من ثورة اللومبارديين ، بزعامة سمارجدوس Smaragdus ، التى استمرت نحو أربع سنوات (١٠٠٠ — ١٠٠٤) ، وما ترتب عليها من إنزال الضرر والخسائر بقطانية بارى ، هيأت الفرصة للمسلمين ، لمهاجمة بارى ، إذ نهض لحصار بارى فى مايو سنة ١٠٠٤ ، جيش ضخم بقيادة صنى غلام الأمير جعفر ، بينما أخذت السفن الإسلامية تهاجم المدينة من جهة البحر ، وظل الحصار مضروباً على المدينة حتى سبتمبر سنة ١٠٠٤ ، وعانى السكان مرارة الجوع نظراً لنفاد الأقوات ، وكادت المدينة تستسلم ، لولا أن قدم لإنقاذها أسطول البنادقة بقيادة الدوج بطرس أورسيولو Orseolo[٥] ، ووفقا لمرسوم سنة ٩٩٢ ، الذى يحدد العلاقة بين البنادقة

---

(١) Gay : op. cit. p. 387.

(٢) Ibid : p. 388. Schlumberger II. p. 246.
Gay : op. cit. p. 388.

(٣) Schlumberger : op. cit. II. p. 247.

(٤) Gay : op. cit. p. 388.

(٥) Gay : op. cit. p. 369.
Schlumberger : op. cit. II. p. 309.
تولى أورسيولو الحكم فى البندقية سنة ٩٩١ ، واستمر حتى سنة ١٠٠٨ : اشتهر هذا الدوج بالتعصب الشديد لقوميته ، وأفاد من حداثة عمر الإمبراطور أوتو الثالث ، =

والبيزنطيين ، تحتم على البندقية المبادرة إلى بذل المساعدة للأملاك البيزنطية فى إيطاليا ، التى تعرضت لهجوم المسلمين . فتولى الدوج قيادة الحملة البحرية فى أغسطس سنة ١٠٠٤ ، غير أنها لم تصل إلى بارى إلا فى سبتمبر . فلقى الأسطول استقبالا حافلا ، ولم يجد البنادقة مقاومة تمنعهم من شق طريقهم إلى الميناء ، لإنزال المؤن والعساكر ودارت معركة عنيفة فى بارى اشترك فيها العساكر المسيحية المتحالفة من البنادقة واللومبارديين والبيزنطيين والروس فضلا عن عساكر من أصل أسيوى ، واستمر القتال براً وبحراً ثلاثة أيام متتالية ، وانتهى القتال بارتداد المسلمين عن بارى فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٠٠٤[١] . وما أحرزه البنادقة من الانتصار ، كفل لسكان أبوليا الهدوء والسلام سنوات عديدة[٢] .

غير أن مدن كالابريا ، تعرضت كثيراً لهجمات المسلمين . ففى سنة ١٠٠٥ ، دارت معركة بحرية شديدة ، قرب ريو ، بين الأسطولين الإسلامى والبيزنطى ، ونهض البيازنة لمساعدة البيزنطيين ، فرجع المسلمون إلى قواعدهم بصقلية[٣] .

= والمشاكل التى صادفت الإمبراطور باسيل ، فى تحقيق غرضه ، الذى يتمثل فى إعلاء شأن البندقية ، وتنمية تجارتها . فحرص على توطيد العلاقات التجارية مع البيزنطيين والمسلمين والإمبراطور الألمانى . فقرر باسيل تخفيض الرسوم الجمركية المقررة على سفن البنادقة وتحديد مقاديرها ، ولا تخضع سفنهم إلا لسلطة أحد كبار موظفى المالية ، اللغتيت . وما حصلت عليه البندقية فى مرسوم ٩٩٢ من امتيازات ، إنما اختصت بها وحدها ، فلم يشاركها فيها اليهود ، واللومبارديون والأمالفيون ، أو تجار بارى الذين يعتبرون من رعايا الإمبراطور البيزنطى . ومن الواضح أن هذه الامتيازات إنما يقابلها التزام البنادقة بأن يقدموا السفن اللازمة للدفاع عن الإمبراطورية ، ونقل الجنود البيزنطية إلى الثغر البيزنطى بإيطاليا .

والمعروف أن البندقية تولت حراسة بحر الأدرياتيك باسم الإمبراطور البيزنطى ضد المسلمين والصقالبة ، فدان لسلطانها أمير الكروات ، والتارنتان فى أرخبيل إيلليريا ، ودالماشيا . فأضحى الدوج يحكم ثغر دالماشيا باسم الإمبراطور البيزنطى .

(انظر Schlumberger : op. cit. II. pp. 313—319.
Gay : op. cit. p. 369.

(١) Schlumberger ; op. cit. II. pp. 321—322.
Gay : op. cit. p. 369.

(٢) Ibid : p. 369.

(٣) Schlumberger : op. Cit. II. p. 540.
Gay : op. cit. p. 369.

على أنهم لم يلبثوا أن هاجموا كسنته Cosenza واستولوا عليها سنة ١٠٠٩[١] وتعد كسنته من أمنع حصون كالابريا[٢] .

وفى مايو سنة ١٠٠٩ ، أعلن الثورة فى بارى ، ميلو ، الذى ينتمى إلى أسرة لومباردية شريفة ، فعزم مع صهره داتو Datto ، على تحرير بلاده من ظلم الحكومة البيزنطية ، وعساكرها المأجورة من الروس والدانيين . والراجح أن ما يكنه كل من اللومبارديين والمسلمين ، من العداء والكراهية للبيزنطيين ؛ أدى إلى حدوث تعاون بينهما فى قتال البيزنطيين ، فهاجم اللومبارديون بقيادة ميلو ، مقر حكم البيزنطيين فى بارى واستولوا على قلعة Biletto على حين أن المسلمين هاجموا مونتى بيلوزو Montepeloso ، وترانى Trani[٣] .

وفى تلك الأثناء ، كان الإمبراطور البيزنطى باسيل يواصل القتال ضد البلغار ، فاسترد ما استولوا عليه من الحصون والمواقع حول سالونيك . فاستطاع بذلك أن يسترد ما فقده من الأراضى منذ سنوات عديدة فى شبه جزيرة البلقان[٤] .

ولم يسع الإمبراطور باسيل إلا أن يعين على قطبانية بارى ، باسيل أرجيروس قائد ثغر ساموس ، وأمده بجيش ضخم ليقمع هذه الثورة فى مهدها . وجعل كونتيليون Contoleon قائد ثغر كيفالونيا نائباً عن أرجيروس . فهبط القائدان إلى الأراضى الإيطالية فى مارس ١٠١٠ . والواضح أن جانباً كبيراً من الأملاك البيزنطية صار فى أيدى الثوار[٥] .

على أن الزعيمين اللومبارديين الثائرين : ميلو وداتو . لم يلبثا أن اصطدما بقطبان قوى . ففى أبريل سنة ١٠١٠ ، ألقى باسيل أرجيروس الحصار على

---

(١) I bid ; p. 369.

(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 540.

(٣) Ibid : p. 542. Camb. Med. Hist. V. p. 186.

(٤) Gay : op. cit. p. 370.

(٥) Schlumberger : op. Cit. II. p. 544. Gay : op. cit. p. 370.
Ibid : p. 545. Camb. Med. Hist. V. p. 168.

بارى التى احتلها ميلو ، فضيق عليها الخناق من جميع الجهات ، واستمر الحصار شهرين تداعت أثناءهما مقاومة الثوار ، وخشى ميلو أن يسلمه الخونة من قومه الذين استنجدوا بالإمبراطور باسيل . فاستطاع ميلو وداتو ، أن يفلتا من الحصار ، وأن يلتجئا إلى كابوا ، حيث بذل لهما الحماية الأمير باندولف الثانى[١] .

ولم يكف ميلو عن التماس الحلفاء فى الفترة الواقعة بين ١٠١١ ، ١٠١٧ للانتقام من البيزنطيين . ومن هؤلاء الحلفاء البابا بنيدكت الثامن ، المشهور بالحزم والإدارة النشيطة والنزوع للقتال ، إذ أجاز داتو ، وأنزله بحصن منيع ، أقامه حنا أمير جائيتا على جبل جاريجلياتو ، ويعتبر قاعدة صالحة للأعمال الحربية[٢] . وأبدى البابا الاستعداد لأن يمد ميلو بطائفة من المحاربين ، ينتمون لقوم ، سوف يكون لهم شأن كبير فى إيطاليا وهم النرمنديون[٣] .

---

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 546.

(٢) Gay : op. cit. p. 404. Camb. Med. Hist. V. p. 168.

(٣) Ibid : p. 404. Schlumberger : op. cit. II. p. 546.

من الروايات السائدة عن بدء قدوم النرمان إلى إيطاليا ، أن ميلو اتفق مع جماعة من الفرسان النرمان للإغارة على أبوليا ، ومهاجمة البيزنطيين . وتم اللقاء الأول عند مشهد القديس ميخائيل على جبل جارجلياتو ، بعد عودتهم من الحج فى بيت المقدس ، فوعدوه بالمساعدة . ولم يلبثوا أن جاءوا فى أعداد وفيرة لمساعدة ميلو فى أبوليا . وتشير رواية أخرى إلى أن هؤلاء النرمان إنما فروا من سخط رتشرد دوق نرمنديا . بعد اتهام أحدهم بقتل أحد أتباع رتشرد ، فقدموا إلى إيطاليا سعياً وراء الغنيمة والشهرة . واتصلوا بالبابا بنيدكت الثامن أوائل سنة ١٠١٦ ، فنصحهم بأن ينحازوا إلى أمراء اللومبارد فى أبوليا لقتال البيزنطيين ، كيما يوقف النفوذ البيزنطى بالإمارة البابوية . فانتصر ميلو وحلفاؤه على البيزنطيين بقيادة القطبان تورنيكيوس كونتيليون سنة ١٠١٧ ، واستولوا على كل ما فى أبوليا من الحصون الواقعة بين نهر Fortfoue وتراقى . ولما توالت انتصارات النرمان فى إيطاليا ، هرع إلى تلك البلاد عدد كبير منهم ، ولم يجدوا معارضة عند رتشرد أمير نرمنديا ، لما اشتهروا به من إثارة القلاقل فجاءت منهم جماعة كبيره إلى جنوب إيطاليا سنة ١٠١٩ .

انظر :
Schlumberger : op. cit. II. pp. 562—566.
Gay : op. cit. pp. 408—410.
Camb. Med. Hist. V. pp. 168—169.

فتألف جيش ضخم من اللومبارديين والنرمان لمهاجمة عساكر قطبان بارى . وأنزلوا بالبيزنطيين هزائم كبيرة فى سنتى ١٠١٦ ، ١٠١٧ فى زمن القطبانين باسيل أرجيروس وتورنيكيوس كونتوليون ، واحتل الغزاة كل ما يقع فى أبوليا من الحصون بين نهر Frtfore وترانى(١) . وترتب على هذه الانتصارات أن قدم إلى إيطاليا أعداد كبيرة من النرمان طلبا للمال والمجد . ولم يعارض رتشرد دوق نرمنديا فى ذلك ، لما يثيره له الأتباع من القلاقل(٢) .

أدرك الإمبراطور باسيل أنه لابد من قمع ثورة ميلو والنرمان ، حتى لاتضيع الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا ، فجهز حملة ضخمة . جعل على رأسها القطبان الجديد باسيل بوياناس (١٠٨١ — ١٠٨٢) الذى اشتهر بالشجاعة والبسالة . فهبط بهذا الجيش إلى الأراضى الإيطالية سنة ١٠١٨ . ونجح بوياناس فى أن يستميل إلى جانبه أثينولف رئيس دير مونتى كاسينو ، وباندولف الرابع أمير كابوا ، وشقيق رئيس الدير . فكان باندولف أول من انحاز إلى بوياناس من الأمراء اللومبارديين(٣) .

دارت المعركة الحاسمة فى أكتوبر سنة ١٠١٨ ، بين القوات البيزنطية وقوات ميلو ، عند كان Cannes ، على الشاطىء الأيمن لنهر الأوفانتو . وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت بالجيش البيزنطى . فإنه أحرز نصراً باهراً بفضل كثرة عدد العساكر من البيزنطيين والجند المأجورة من الروس والدانيين والورنك ، ولما اشتهر به بوياناس من المهارة الحربية والدراية بالفنون العسكرية . ولما تبين لميلو أنه لم يعد فى وسعه أن يواصل القتال . هرب إلى بلاد أبوليا ثم لجأ إلى ألمانيا فأجاره الإمبراطور هنرى الثانى غير أنه لم يلبث أن مات فى بامبرج سنة ١٠٢٠(٤) .

---

(١) Schlumberger : op. cit. II. p. 567.
(٢) Schlumberger : op. cit. II. p. 569.
(٣) Ibid : p. 570.
(٤) Schlumberger : op. cit II. p. 571.
Gay : op. cit. p. 410.

وتعتبر وفاة ميلو ضربة شديدة موجهة إلى النرمان بإيطاليا ، إذ لقى عدد كبير منهم مصرعه ، ودخل جماعة منهم فى خدمة اللومبارديين فى كابوا وسالرنو ، بينما لجأ فريق منهم إلى دير مونتى كاسينو ، وانحازت طائفة إلى داتو صهر ميلو(١) .

ترتب على انتصار القطبان بوياناس فى كان ، وفرار ميلو ثم وفاته ، وتفرق شمل النرمان ، أن تهيأت الفرصة للبيزنطيين ، كيما يستردوا نفوذهم ومجدهم . فما كادت تمضى بضعة شهور ، حتى استعاد الإمبراطور البيزنطى باسيل سلطاته فى سائر الجهات ، وعاد إلى أبوليا الهدوء والسلام ، وتقرر مصادرة أملاك المتمردين وتوزيعها على كبار الملاك وعلى الأديرة اللاتينية التى تخضع لنفوذ بيزنطة ، وحاز دير مونتى كاسينو شطراً كبيراً من هذه الأراضى ، وبذلك اطمأن القطبان إليه واجتذبه إلى جانبه(٢) .

واهتم القطبان (حاكم ثغور إيطاليا) باتخاذ التدابير اللازمة للدفاع عن أبوليا البيزنطية ، فشيد حصوناً عديدة فى السهل الشمالى ، الذى يقع بين نهر الفورتفور ، ونهر الأوفانتو ، الذى تعرض باستمرار للهجمات والغارات ، وبذلك أوصد الطريق فى وجه اللومبارد والجرمان ، ومنعت الحاميات البيزنطية المرابطة على امتداد الحدود ، الحجاج من القدوم إلى جاريجليانو . ولم يتيسر للأشخاص القادمين من غالة وشمال إيطاليا ، أن يبحروا من موانى الأدرياتى قاصدين بيت المقدس(٣) . وشيد القطبان مدينة ترويا Troi ، على الطريق الممتد من بنيفنتو إلى سيبوليسو . فتحكمت فى كل السهل الشمالى(٤) .

وبفضل ما حدث من استمالة أميركابوا وأخيه رئيس ديرمونتى كاسينو ،

---

(١) Ibid : p. 411.
(٢) Idid : p. 414.
(٣) Gay : op. cit. p. 415.
(٤) Ibid : p. 416.

استولت العساكر البيزنطية على الحصن المنيع الذى لجأ إليه داتو ، صهر ميلو ، فوقع داتو فى الأسر ، وجرى حمله إلى بارى ، حيث لقى مصرعه غريقاً بالبحر أثناء إنفاذه إلى القسطنطينية ، سنة ١٠٢١[١] .

وبينما كانت الجيوش النرماندية تتقدم فى أبوليا ، واشتدت حاجة الثائرين اللومبارديين ، ميلو وداتو إلى المساعدة ، لم يترددا فى الاستنجاد بالمسلمين فى صقلية ضد البيزنطيين ، على أنه لم يرد من النصوص ما يشير إلى حدوث اتفاق بين ميلو والزعماء المسلمين فى صقلية . ونظراً لما أصاب قوة الأمراء المسلمين بصقلية من الضعف ، حوالى سنة ١٠١٩ بعد وقوع فتن داخلية فى بلرم ، فالراجح أن المسلمين الذين هاجموا ساحل كامبانيا ، حوالى ذلك التاريخ ، إنما جاءوا من أفريقية[٢] .

أما أبوليا فلم تتعرض لهجوم إسلامى إلا فى سنة ١٠٢٠ ، حسبما ورد فى حوليات بارى . ذلك أن أحد الزعماء المسلمين بصقلية واسمه الأكحل هبط بجيش إلى ساحل كالابريا ، للاستيلاء على بزيجنانو Bisignano ، بوادى كراتى Crati ، ومضى فى زحفه حتى أسوار مدينة بارى ، ثم توجه للاستيلاء على مدينة بالاجيانو Palagiano المنيعة ، الواقعة إلى الشمال الغربى من تارنت[٣] .

لم يكف المسلمون بصقلية عن توجيه حملاتهم لمهاجمة أملاك البيزنطيين فى

---

(١) Ibid : p. 418. Schlumberger : op. eit. II . p. 573.

(٢) Gay : op. cit. p. 417.

(٣) المعروف أنه حدث فى شهر مايو سنة ١٠١٩ ، أن قام أقل بلرم بطرد الأمير جعفر ابن ثقة الدولة يوسف ، بعد أن ظل عشرين سنة أميراً على صقلية ، وبعد أن أنزل الهزيمة سنة ١٠١٨ بأخيه على ، الذى تمرد عليه . فلجأ جعفر إلى مصر . وتولى الحكم فى بلرم أخوه أحمد المعروف بالأكحل ، الذى لقبه الخليفة الحاكم الفاطمى تأييد الدولة ، فأعاد الهدوء والسلام إلى صقلية واستهل من جديد القتال ضد البيزنطيين فى جنوب إيطاليا . فتولى قيادة الحملة المتوجهة إلى جنوب إيطاليا ، وهى الحملة التى قصدت الاستيلاء على بزيجنانو .

Schlumberger : op. cit. II. p. 579.

Gay : op. cit. p. 417.

آمارى : المكتبة الصقلية (نقلا عن ابن الأثير) — ج ٢ ص ٢٧٤ ، ٣٧٩ .

جنوب إيطاليا ، إذ دأب الأمير الأكحل على أن يجمع المقاتلة ، ويبث سراياه فى بلاد الكفر ، فكانوا يحرقون ويغنمون ، ويسبون ويخربون البلاد[١] .

على أن ما أحرزه باسيل الثانى من انتصارات فى شبه جزيرة البلقان ، أسهم إلى حد كبير فى توطيد سلطان بيزنطة فى الجنوب الشرقى من إيطاليا . إذ أضحى الأدرياتى بحيرة بيزنطية ، فخضع أمراء الكروات ، وجعلت البندقية سفنها فى خدمة بيزنطة . وبذل قطبان بارى جهداً كبيراً فى حماية المصالح البيزنطية فى بحر الأدرياتى . ففى سنة ١٠٢٤ ، هبط إلى الساحل الايليرى ، شمال دورازو ، فى طائفة من العساكر ، وحمل إلى بارى عدداً كبيراً من الأسرى منهم زوجة أحد أمراء الكروات وابنه ، فاتخذ منهما رهائن[٢] .

ولما سحق باسيل الثانى البلغار ، وفرض السيادة البيزنطية على كل الإقليم الواقع فى غرب مقدونيا حتى شاطئ ايلليريا ، عزم على أن يواصل القتال ضد المسلمين فى صقلية ، بعد أن توقف زمنا طويلا . فوجه سنة ١٠٢٥ إلى صقلية جيشا ضخما مؤلفا من قوات روسية ووندالية وتركية وبلغارية ، بقيادة أورستس Orestes . فنزل بإيطاليا وانحاز إلى القوات المحلية التى يقودها القطبان بويانس ، فاسترد القطبان مدينة ريو ، وعمر أسوارها . ثم نزل بمسينى على شاطئ صقلية ، فحلت بالجيوش البيزنطية هزيمة ساحقة ، برغم ما جاء من أمداد من بلاد اليونان ومقدونيا . وفى هذه الأثناء مات باسيل الثانى ، وخلفه على الحكم أخوه قنسطنطين الثامن ، فتقرر استدعاء أورسطس إلى القسطنطينية[٣] .

---

(١) آمارى : المكتبة الصقلية (نقلا عن ابن الأثير) ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) Gay : op. cit. p. 428.

(٣) Gay : op. cit. pp. 428—429.

Schlumberger : op. cit. II. pp. 599,516.

ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٥ .

آمارى : المكتبة الصقلية ج ٢ ، ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

وما حدث من هزيمة أورسطس ، وعزل بويانس عن قطبانية بارى سنة ١٠٢٨ ، أدى إلى تجدد غارات مسلمى صقلية على سواحل إيطاليا ، منذ بداية عهد الإمبراطور رومانوس أرجيروس (١٠٢٨ — ١٠٣٤) . فاستولى الأكحل أمير صقلية على حصن أوبيانو Obbiano =

واستطاع بويانس ، قطبان بارى ، أن يعيد سلطان باسيل الثانى على الجهات الممتدة من ترويا كابيتانتى Capitante ، إلى أطراف الإمارات البابوية ، فازداد سخط البابا بنيدكت الثامن والإمبراطور الألمانى هنرى الثانى .

وعلى الرغم من الحملة التى قادها الإمبراطوار الألمانى للانتقام من رئيس دير مونتى كاسينو وأمير كابوا ، فإنه لم يستطع اقتحام ترويا سنة ١٠٢٢ ، واكتفى هنرى الثانى باقامة كونتية موالية له فى كومينو على تخوم كامبانيا . على أن أمير أبوليا استطاع أن يسترد فى سنة ١٠٢٨ كابوا ، وذلك بفضل مساعدة القوات التى جعلها تحت تصرفه قطبان بارى ، وبذلك توطدت سلطة البيزنطين هذه الجهات ؛ كابوا ونابولى ، وسالرنو ، وما بذله الأباطرة الألمان من جهود لمناوأة البيزنطين ، ضاعت سدى[1] .

وتحسنت العلاقات بين بيزنطة والإمبراطور الألمانى كنراد والبابا الجديد حنا التاسع عشر ، إذ تقرر الاعتراف بحقوق مطران بارى وامتداد نفوذه الروحى إلى سبوليتو شمالا ، وموبوبولى Monopoli جنوبا ، والأوفانتو غربا ، فامتد سلطانه إلى الجهات المتاخمة لإمارتى بنيڤنتو وسالرنو[2] .

= (شرق تارنت) ، سنة ١٠٢٩ ، وتعرض بوتوس أرجيروس **Pothos Argyros** قطبان بارى ، للهزيمة سنة ١٠٢٩ عند أسوار المدينة على يد جيش من قبل الأكحل . ثم تلى ذلك أن استولت القوات الإسلامية سنة ١٠٣١ على مدينة كاسانو **Cassano** ، بشمال كالابريا . وجاءت سنة ١٠٣٢ ، قوات بيزنطية من آسيا الصغرى لمواصلة القتال ضد المسلمين . ولم تتعرض أبوليا وكالابريا ، بعد سنة ١٠٣٣ ، لغارات جديدة من قبل المسلمين بصقلية . ومن الواضح أن المسلمين بصقلية التزموا خطة الدفاع .

وما تعرضت له البلاد البيزنطية من أخطار من قبل المسلمين فى البحر المتوسط ، إنما جاءت من قبل المسلمين بشمال أفريقية . فى سنة ١٠٢٦ (زمن قنسطنطين الثامن) خرج من موانى تونس أسطول إسلامى ضخم ، وقصد جزائر بحر الأرخبيل ، ونهبها وخربها . غير أن قائد ثغر ساموس ، وقائد ثغر خيوس ، ثغر جزائر الأرخبيل ، شنا بأسطولها هجوماً على السفن الإسلامية ، فتشتت شمل هذه السفن ، وتعرض أيضاً أسطول إسلامى من أفريقة ، أغار على ساحل إيلليريا وكورنو ، للهزيمة سنة ١٠٣٢ وبذلك صار للأسطول البيزنطى السيادة على بحر أيونيان ، وأضحى فى وسع الإمبراطور البيزنطى أن يدخل فى مفاوضات مع المسلمين بصقلية من أجل الهدنة .

انظر **Gay : op. cit. pp. 433—434.**

Schlumberger : op. cit. III. pp. 19, 51, 128.

(١) **Gay : op. cit. pp. 418 — 428. Schlumberger III. pp. 50 — 51.**

(٢) **Ibid : p. 428.**

الفصل الثانى عشر

الحكومة المدنية

(زوال الأسرة المقدونية)

(١٠٢٥ — ١٠٥٧)

تعتبر وفاة الإمبراطور باسيل الثانى ١٠٢٥ : نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى . ففى الفترة التى تلت وفاة باسيل ، والتى تداعت فيها الإمبراطورية ، ارتكنت بيزنطة فى سياستها الخارجية ، على ما نالته من هيبة ومكانة فى العصر السابق . أما من ناحية السياسة الداخلية ، فإن الفرصة سنحت لكل القوى التى تعمل على التفكك . إذ أن بيزنطة أحرزت فى العصور الثلاثة الأخيرة ، من الانتصارات ، وقامت بأعمال ، جعلها تبدو قوة لا تقهر ؛ ثم استهل عصر ساد فيه من الهدوء النسبى ، ما لم تعرفه الإمبراطورية البيزنطية من قبل . على أنه لسوء الحظ لم يحر الإفادة من فترة الهدوء ، فى المحافظة على أملاك الدولة وتدعيمها ، إنما ترتب عليها انهيار النظام السياسى الذى قام منذ زمن الإمبراطور هرقل ، واستمر حتى نهاية عهد باسيل الثانى[1] .

ذلك أن الأباطرة الذين خلفوا باسيل الثانى على الحكم ، بلغوا من الضعف ، أنهم لم يستطيعوا مواصلة النضال ضد الزعماء الإقطاعيين . وأصاب الإقطاعات العسكرية من التداعى ، ما كاد يؤدى إلى الانهيار التام ، فتحطم بذلك ما للإمبراطورية البيزنطية من نظم دفاعية ، وما للحكومة من نظام للضرائب[2] .

تعرض التركيب الاقتصادى والاجتماعى للإمبراطورية ، لتغيير أساسى ؛ إذ أن السلطة الإمبراطورية فى بيزنطة ، لم تتوقف فحسب عن النضال ، لكبح

---

(١) **Ostrogorowski : p. 283**

(٢) **Ibid : p. 283.**

واستطاع بويانس ، قطبان بارى ، أن يعيد سلطان باسيل الثانى على الجهات الممتدة من ترويا كابيتانتى **Capitante** ، إلى أطراف الإمارات البابوية ، فازداد سخط البابا بنيدكت الثامن والإمبراطور الألمانى هنرى الثانى .

وعلى الرغم من الحملة التى قادها الإمبراطوار الألمانى للانتقام من رئيس دير مونتى كاسينو وأمير كابوا ، فإنه لم يستطع اقتحام ترويا سنة ١٠٢٢ ، واكتفى هنرى الثانى باقامة كونتية موالية له فى كومينو على تخوم كامبانيا . على أن أمير أبوليا استطاع أن يسترد فى سنة ١٠٢٨ كابوا ، وذلك بفضل مساعدة القوات التى جعلها تحت تصرفه قطبان بارى ، وبذلك توطدت سلطة البيزنطين هذه الجهات ؛ كابوا ونابولى ، وسالرنو ، وما بذله الأباطرة الألمان من جهود لمناوأة البيزنطين ، ضاعت سدى[١] .

وتحسنت العلاقات بين بيزنطة والإمبراطور الألمانى كنراد والبابا الجديد حنا التاسع عشر ، إذ تقرر الاعتراف بحقوق مطران بارى وامتداد نفوذه الروحى إلى سبوليتو شمالا ، وموبوبولى **Monopoli** جنوبا ، والأوفانتو غربا ، فامتد سلطانه إلى الجهات المتاخمة لإمارتى بنيفنتو وسالرنو[٢] .

= (شرق تارنت) ، سنة ١٠٢٩ ، وتعرض بوتوس أرجيروس **Pothos Argyros** قطبان بارى ، للهزيمة سنة ١٠٢٩ عند أسوار المدينة على يد جيش من قبل الأكحل . ثم تلى ذلك أن استولت القوات الإسلامية سنة ١٠٣١ على مدينة كاسانو **Cassano** ، بشمال كالابريا . وجاءت سنة ١٠٣٢ ، قوات بيزنطية من آسيا الصغرى لمواصلة القتال ضد المسلمين . ولم تتعرض أبوليا وكالابريا ، بعد سنة ١٠٣٣ ، لغارات جديدة من قبل المسلمين بصقلية . ومن الواضح أن المسلمين بصقلية التزموا خطة الدفاع .

وما تعرضت له البلاد البيزنطية من أخطار من قبل المسلمين فى البحر المتوسط ، إنما جاءت من قبل المسلمين بشمال أفريقية . فى سنة ١٠٢٦ (زمن قنسطنطين الثامن) خرج من موانى تونس أسطول إسلامى ضخم ، وقصد جزائر بحر الأرخبيل ، ونهبها وخربها . غير أن قائد ثغر ساموس ، وقائد ثغر خيوس ، ثغر جزائر الأرخبيل ، شنا بأسطولها هجوماً على السفن الإسلامية ، فتشتت شمل هذه السفن ، وتعرض أيضاً أسطول إسلامى من أفريقة ، أغار على ساحل إيلليريا وكورنو ، للهزيمة سنة ١٠٣٢ وبذلك صار للأسطول البيزنطى السيادة على بحر أيونيان ، وأضحى فى وسع الإمبراطور البيزنطى أن يدخل فى مفاوضات مع المسلمين بصقلية من أجل الهدنة .

انظر

Gay : op. cit. pp. 483—434.
Schlumberger : op. cit. III. pp. 19, 51, 128.

(١) **Gay : op. cit. pp. 418 — 428. Schlumberger III. pp. 50 — 51.**

(٢) **Ibid : p. 428.**

الفصل الثانى عشر

الحكومة المدنية

(زوال الأسرة المقدونية)

(١٠٢٥ — ١٠٥٧)

تعتبر وفاة الإمبراطور باسيل الثانى ١٠٢٥ ؛ نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى . ففى الفترة التى تلت وفاة باسيل ، والتى تداعت فيها الإمبراطورية ، ارتكنت بيزنطة فى سياستها الخارجية ، على ما نالته من هيبة ومكانة فى العصر السابق . أما من ناحية السياسة الداخلية ، فإن الفرصة سنحت لكل القوى التى تعمل على التفكك . إذ أن بيزنطة أحرزت فى العصور الثلاثة الأخيرة ، من الانتصارات ، وقامت بأعمال ، جعلها تبدو قوة لا تقهر ؛ ثم استهل عصر ، ساد فيه من الهدوء النسبى ، ما لم تعرفه الإمبراطورية البيزنطية من قبل . على أنه لسوء الحظ لم يجر الإفادة من فترة الهدوء ، فى المحافظة على أملاك الدولة وتدعيمها ، إنما ترتب عليها انهيار النظام السياسى الذى قام منذ زمن الإمبراطور هرقل ، واستمر حتى نهاية عهد باسيل الثانى[١] .

ذلك أن الأباطرة الذين خلفوا باسيل الثانى على الحكم ، بلغوا من الضعف ، أنهم لم يستطيعوا مواصلة النضال ضد الزعماء الإقطاعيين . وأصاب الإقطاعات العسكرية من التداعى ، ما كاد يؤدى إلى الانهيار التام ، فتحطم بذلك ما للإمبراطورية البيزنطية من نظم دفاعية ، وما للحكومة من نظام للضرائب[٢] .

تعرض التركيب الاقتصادى والاجتماعى للإمبراطورية ، لتغيير أساسى ؛ إذ أن السلطة الإمبراطورية فى بيزنطة ، لم تتوقف فحسب عن النضال ، لكبح

---

(١) **Ostrogorowski : p. 283**

(٢) **Ibid : p. 283.**

جماح الأرستقراطية الإقطاعية ، بل أضحت داتها أداة فى يد هذه الطبقة القوية ، التى حازت الفوز آخر الأمر . غير أن مشكلة جديدة لم تلبث أن ظهرت ، وتتمثل فى أى الفريقين من هذه الطبقة ، ينبغى أن يتولى الحكم : الأرستقراطية المدنية ، أو الأرستقراطية العسكرية[١] ؟

يبدو تاريخ بيزنطة أثناء السنوات التى تلت وفاة باسيل الثانى ، أنه ليس سوى ما اقترن بمؤامرات البلاط من الفوضى والاضطراب . غير أن أهمية هذه المرحلة من التاريخ ، ترجع فى الواقع ، إلى ما وقع أثناءها من الصراع بين القوتين المتنافستين على الحكم : الأرستقراطية المدنية بالعاصمة ، والأرستقراطية العسكرية بالأقاليم . وعلى الرغم من أن الأرستقراطية العسكرية تعتبر أقوى الحزبين فإنها فقدت مكانتها على يد باسيل الثانى ، وبذلك ظفر بالحكم الأرستقراطية المدنية بالعاصمة ، وحافظت هذه الفئة من الأرستقراطية على تفوقها وسيادتها سنوات . ولم تكن مؤامرات البلاط ، التى لم تنقطع ، سوى المظهر الخارجى لحكمهم . وما حدث من تطور فى هذه الفترة تمثل فى النهضة الفكرية فى العاصمة ، وفى انهيار القوة الحربية للإمبراطورية[٢] .

قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٢٨)

هو شقيق باسيل الثانى وخليفته على الحكم ، ظل قسيما له فى الحكم نحو نصف قرن ، غير أن ما اشتهر به من الخمول والميل إلى اللهو ، والانغماس فى المباذل ، ولعب القمار ، والتعلق بمشاهدة السباق ، كل ذلك جعله شخصا مهملا ، إلى جانب أخيه ، باسيل الثانى القوى . فلما تولى قسطنطين الحكم ، وقد تقدم به العمر ، كان إمبراطوراً اسما لا فعلا ، نظراً لافتقاره إلى الحرص على تحمل المسئولية وتقديرها[٣] . ولذا طرد معظم الموظفين الذين استخدمهم باسيل الثانى ، وجعل الإدارة فى أيدى طائفة جديدة من الموظفين ، اختارهم من بين رفاقه فى اللهو والمتعة ، من العتقاء والطواشية والأجانب . ومنذئذ

---

(١) Ibid : p. 283.

(٢) Ostrogorowski : p. 284.

(٣) Ibid : p. 98.

صارت كل شئون الحكم فى أيدى موظفى البلاط ، الذين ظلوا محافظين على مكانتهم وأهميتهم حتى نهاية القرن الحادى عشر . ومن الطبيعى أن يصب موظفو البلاط غضبهم وسخطهم على زعماء الأسرات الأرستقراطية ، وقادة الجيش ، لتخوفهم من أطاعهم ونفوذهم ، فحرصوا على إبعادهم عن مناصب الحكومة[١] .

وحرص وزراء قسطنطين الثامن على أن يتخذوا سياسة مخالفة لسياسة باسيل الثانى العسكرية . فإذا تعرضت أملاك الدولة لخطر من أخطار ، حاولت السلطة المركزية أن تدفع الإتاوة للمغيرين ، ولا تلتحم معهم فى قتال ، حتى لا يتهيأ للقادة العسكريين الفرصة ، لأن تزداد مكانتهم ويذيع صيتهم[٢] . والمعروف أن معظم القادة العسكريين إنما ينتمون إلى طبقة النبلاء بآسيا الصغرى ، وازداد نفوذهم وسلطانهم بفضل اشتراكهم فى الحروب ضد المسلمين ، فتعرضوا بذلك لكراهية رجال البلاط . ولم يحملهم على الصبر على هذه الكراهية ، سوى تعلق الرأى العام بما للأسرة المقدونية من حقوق شرعية[٣] .

وعلى الرغم مما اشتهر به الإمبراطور باسيل الثانى ، من البخل والشح ، حتى صار مضرب الأمثال ، فإنه فى سبيل الرفق بالتعساء ، درج على أن يأمر الجباة ، بألا يتشددوا فى تحصيل الضريبة السنوية ، فى وقت معين ، بل قرر إمهالهم ولذا حدث عند وفاة باسيل ، أن سائر أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، لم تؤد ما هو مقرر عليها من الضريبة الإضافية منذ سنتين . فما كاد يرتقى العرش ، قسطنطين حتى لم يكتف بالمبادرة إلى تحصيل المتأخرات الكثيرة التى لم يدفعها السكان ، بل اشتد طوال سنوات حكمه ، فى تحصيل الضريبة كاملة . وتحتم على جميع السكان ، الأغنياء والفقراء ، برغم سوء الأحوال الجوية ، وبسبب الجفاف المستمر ، أن يؤدوا أثناء السنوات الثلاث التى حكمها قسطنطين ، ما ينبغى أن يؤدوه عن خمس سنوات . وما تحصل من المال ، أنفقه قسطنطين على مباذله ، ولم يفد منه أحد[٤] .

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 318.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 319.

(٣) Ibid. p. 319.

(٤) Schlumberger : L'Epopée. III. p. 22.

الأخطار الخارجية :

١ — البلغار

حدث منذ السنوات الأولى من حكم قنسطنطين الثامن ، أن قام البجناك بهجوم مفاجئ على الشاطئ الجنوبى لنهر الدانوب ، فنفذوا إلى الأراضى البلغارية ، وقتلوا عدداً كبيراً من الناس ، ووقع فى أيديهم من الأسرى خلق كثير ، منهم كثيرون من القادة العسكريين . وأقر الإمبراطور ، قنسطنطين ديوجين فى منصبه ، إذ جعله دوقا على بلغاريا ، ومنحه سلطات لا حد لها ، فضيق الخناق على البجناك ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وألزمهم باجتياز الدانوب ، والخلود إلى السكينة[١] .

٢ — المسلمون :

وفى سنة ١٠٢٦ (٤١٧ هـ) ، تعرضت جزر بحر الأرخبيل لهجمات أسطول إسلامى ضخم ، خرج من موانى تونس ، فأنزل بهذه الجزر الخراب ، وتحدى الحاميات البيزنطية المرابطة بها ، غير أن قادة ثغور جزيرة ساموس ، وجزيرة خيوس وجزائر بحر الأرخبيل ، لم يلبثوا أن ردوا هذا الهجوم ، واستولوا على ١٢ سفينة عربية بكل معداتها[٢] .

أما العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية ، زمن قنسطنطين ، فإن من الدليل على تحسنها ، ما ورد فى المقريزى فى حوادث سنة ٤١٨ (١٠٢٧ م) ، من خبر عقد معاهدة بين الإمبراطور قنسطنطين والخليفة الظاهر الفاطمى ، وتقرر فيها ذكر اسم الظاهر فى الخطبة بجميع المساجد الواقعة فى بلاد إمبراطوريته[٢] . على أن هذا الحادث ليس غريباً ، فالمعروف أن الإمبراطور البيزنطى أمر بتجديد عمارة الجامع بالقسطنطينية وعين له مؤذناً . وبمقتضى هذه

(١) Ibid : p. 19.

(٢) Ibid : p. 20.

(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 23.

الاتفاقية وافق الخليفة الظاهر على إعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وهى التى أمر بتدميرها سنة ١٠٠٩ ، الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وأذن لمن أظهر الإسلام من النصارى فى أيام الحاكم ، أن يعود إلى النصرانية ، فرجع إليها كثير منهم[١] .

٣ — الكرج وأرمينيا :

وفى كل الممالك المسيحية المتاخمة لجبال القوقاز ، مثل بلاد الكرج وأرمينيا ، والتى يسود فيها النظام الإقطاعى ، لم ينتقل الحكم من ملك إلى آخر ، دون أن تحدث فتن عنيفة . على أن ما حدث سنة ١٠٢٧ ، كان بالغ الخطورة . إذ أن أسقف بانا Bana وجماعة من قومه ، نفذوا إلى أرض الإمبراطورية البيزنطية ، فاستولى بعضهم على قلاع ، بينما لم يحصل الآخرون على شىء ، فأعلنوا الثورة على بقراط ، واتصلوا بالإمبراطور قنسطنطين ، فسير إليهم قائده نيقولا البراكسيمومنس ، فخرب بلادهم وأحرقها ، وقتل عدداً كبيراً من سكانها ، واعتصم الباقون بالجبال والمواضع المنيعة التى لم تستطع الجيوش أن تبلغها . فخرج إليه جماعة من رؤسائهم برسالة من الملكة ابنة سنحاريب وولدها بقراط الذى خلف أباه على الحكم بالتنصل مما جرى والاعتذار فيه ، وإظهار الولاء لقنسطنطين . فاستقر الحال على ما سبق الاتفاق عليه زمن الإمبراطور باسيل[٢] .

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . نشر جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى — القاهرة . سنة ١٩٤٨ ص ٢٧٥ .

Schlumberger : op. cit. III. p. 23.
Camb. Med. Hist. V. p. 256.

المعروف أن أمر هذه الهدنة ، يرجع إلى سنة ١٠٢٣ ، حين عهدت ست الملك والدة الخليفة الظاهر والقيمة عليه ، إلى نقفور ، بطريرك بيت المقدس ، بأن يحمل إلى الإمبراطور باسيل الثانى ، النوايا السلمية عند الخليفة الفاطمى ، بما أظهره من التسامح مع المسيحيين فى بلاده ، وباستعداده لإعادة بناء الكنائس فى الجهات الخاضعة له ، وأشارت ست الملك ، إلى أنه متى تم توقيع المعاهدة ، نشطت العلاقات التجارية بين الدولتين . غير أن وفاة ست الملك أدت إلى توقف المفاوضات . انظر : (Wiet : L'Egypte Arabe. p. 220)

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٠ .

Schlumberger : op. cit. III. pp. 33—34.

وازداد مركز أرمينيا حرجاً وشدة ، نظراً لما تعرضت له من غارات مستمرة من قبل الأتراك السلاجقة ، وما حل بها من مجاعة بلغت من الشدة ، أن لجأ الفلاحون إلى بيع نسائهم وأطفالهم ، وما دأب عليه من مهاجمتها ، المسلمون المجاورون لها ، من الترك أو من جيوش الأسرات العربية المستقلة ، وكذا العساكر البيزنطية على الطرف الجنوبي[١] .

٤ — إيطاليا :

وبفضل جهود القطبان باسيل يويانس ، ظلت أملاك بيزنطة في إيطاليا سليمة . على أن وفاة الإمبراطور باسيل ، أوقفت نشاط الحملة البيزنطية التي وجهها قبيل وفاته إلى صقلية ، إذ حدث عند قدوم تلك الحملة ، أن المعتز باديس الزيري ، الذي يحكم بشمال أفريقية ، بذل المساعدة لأمير صقلية الجديد ، الأكحل ، بعد أن أعلن الجهاد في سائر أملاكه ، فأرسل إلى حليفه ، الأكحل ، أسطولا ضخماً مؤلفاً من ٤٠٠ سفينة غير أنه تعرض ، في يناير سنة ١٠٢٦ ، للتدمير الذي كاد يكون شاملا ، وذلك بالقرب من جزيرة بانتيلاريا Pantellaria (قوصره) .

على أن ما حدث بعد وفاة باسيل الثاني ، من ارتداد القوات البيزنطية ، وهلاك عدد كبير من العساكر ، بسبب تفشي مرض الدوسنطاريا ، أدى إلى أن تفقد هذه القوات البيزنطية ، كل ما استولت عليه من البلاد في صقلية ، فلم يبق في يدها إلا مسيني ، وعاد القطبان بويانس بقواته إلى الأراضي الإيطالية سنة ١٠٢٦ . أما القائد الثاني للحملة ، وهو الطواشي أورستس Orestes فحصره المسلمون في مسيني ، ومعه عساكره المأجورة من الورنك وغيرهم ، ولم يجد نفعاً ، ما جاءه من أمداد جديدة من بلاد اليونان ومقدونيا[٢] ، فتقرر استدعاؤه إلى القسطنطينية[٣] وحل مكان القطبان

(١) Ibid : pp. 36—37.

(٢) Gay : op. cit. p. 428.
Schlumberger : op. cit. III. p. 38.
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٤٥
آماري : المكتبة الصقلية ، جـ ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٣) Gay : op. cit. p. 429.

بويانس بإيطاليا شخص آخر اسمه خريستوفروس ، وذلك قبيل وفاة الإمبراطور قنسطنطين الثامن سنة ١٠٢٨ ، والمعروف أن بويانس حكم ثغور إيطاليا نحو عشرة سنوات ، وأنه وطد سلطان باسيل الثاني في أبوليا وفي الإمارات اللومباردية ، ولم يكن لما اتخذه الإمبراطور الألماني ، هنري الثاني ، من تدابير في تلك الجهات شيء من الأهمية[١] .

وفي مستهل سنة ١٠٢٨ ، قدمت إلى القسطنطينية سفارة من قبل الإمبراطور كنراد الثاني ، تحمل في الظاهر اقتراحاً يقضي بزواج ابن كنراد ، الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره ، من ابنة قنسطنطين ، التي ناهزت الخمسين من عمرها . والواقع أن الغرض من هذه السفارة ، هو أن تقوم بمحاولة لعقد محالفة بين الشرق والغرب ، قد تؤدي إلى وحدة الإمبراطورية الرومانية ، نظراً لأن البيت المقدوني ، ليس له ذرية من الذكور .

غير أن السفارة فشلت ، لاستحالة الاستجابة إلى طلبها ، ولوفاة أحد السفيرين الألمانيين ، فضلا عن الإمبراطور قنسطنطين ذاته[٢] .

على أن أهم مشكلة واجهت الإمبراطور قنسطنطين الثامن ، بعد أن تقدم به العمر ، كانت تسوية أمر وراثة العرش ، لأنه لم ينجب أبناء ، إذ كان له ثلاث بنات ، الكبيرة منهن إيدوكسيا التي شوه الجدري وجهها ، أضحت راهبة . أما الأميرتان الأخريان زوي (إيريني) ، وتيودورا ، فإنهما على الرغم من تجاوزهما سن الشباب ، قدر لهما أن تقوما ، باعتبارهما من أفراد البيت المقدوني ، بأدوار هامة في التاريخ البيزنطي أثناء السنوات التالية[٣] . ومن الأمور التي تلفت النظر أن قنسطنطين لم يحاول ، إلا قبيل وفاته ، أن يزوج إحدى هاتين البنتين ، ويلتمس لها زوجاً صالحاً ، نظراً لأنه ظل أثناء حكمه منكباً على اللهو والعبث والفجور والقمار[٤] .

(١) Gay : op. cit. p. 429.
Schlumberger : op. cit. III. p. 38.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 97.

(٣) Ostrogorowski : p. 284.

(٤) Diehl et Marçais : Histoire du Moyen Age, p. 532

وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة ما يمنع نساء الأسرة المقدونية من اعتلاء العرش ، فإنه لا يخلو من الفائدة أن يجرى اختيار زوج صالح لإحداهن[١] وهي زوى التى تعتبر أجمل أخواتها وأكثرهن ميلا للدعابة والمرح . وقرر قنسطنطين ، بعد أن أحس بدنو أجله ، أن يزوجها من دالاسينوس ، ويجعله خليفة له على الإمبراطورية . ونظراً لما اشتهر به دالاسينوس من قوة النفوذ ، لأنه قائد ثغر الأرمنياق فى آسيا الصغرى ، لم يجد هذا الاقتراح قبولا عند الوزراء ، لحرصهم على الاحتفاظ بسلطانهم زمن الإمبراطور المقبل . على أن قائد الشرطة بالعاصمة ، القسطنطينية ، أيد بكل ما لديه من قوة ، مرشحاً آخر يتزوج من الأميرة البيزنطية وهو البطريق رومانوس أرجيروس ، الذى ينتمى أيضاً إلى أسرة شريفة ، تعتبر فى مقدمة الأسرات بالإمبراطورية البيزنطية ، ويمت بصلة القرابة إلى الإمبراطور ، ويعتبر من كبار الموظفين[٢]. كان رومانوس وقتذاك يلى وظيفة والى المدينة (ابرخس القسطنطينية) الذى يعتبر خليفة الملك فى النظر فى أمور المدينـــة ، وهو بذلك خير ممثل للأرستقراطية المدنية بالعاصمة[٣] .

لم تكن زوى وقتذاك ، سنة ١٠٢٨ ، صغيرة السن ، إذ أنها تجاوزت الخمسين من عمرها ، ومع ذلك لا زالت حافظة لجمالها وأنوثتها . ولم تكن زوى مفرطة فى طول القامة ، اشتهرت بعينيها الواسعتين ، وحاجبيها الكثيفين ، وبأنفها المدبب ، وشعرها الأصهب ، وبشرتها البضة . ولم يكن فى مظهرها ما يدل على تقدمها فى العمر ، اذ بلغ من اكتمال تناسق أعضاء جسمها ما جعلها تبدو لمن لم يكن له سابق معرفة بسنوات عمرها ، فتاة صغيرة السن ، فلا زالت بشرتها ناعمة لا أثر فيها للتغضن والتجاعيد[٤]. وما يلفت النظر ، ويثير العجب ، أن

(١) Ibid : p. 532.
(٢) Schlumberger : op. cit. III. p. 56.
(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥١ . Ostrogorowski : p. 284.
(٤) Psellus : Chronograpgia p. 115.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 533.

زوى لم تكترث بالاحتفالات الكبيرة ، ولا تهتم بالملابس الرسمية . على أنه ليس معروفا ما إذا كانت زوى جرت على ذلك فى مستهل حياتها ، ومن المحقق أنها فى شيخوختها فقدت كل رغبة فى الأناقة ، ووجهت كل اهتمامها إلى استنباط أنواع جديدة من العطور[١] .

لم تكن زوى كبيرة الهمة ، كلما تقدم بها العمر ، إذ فقدت جانبا كبيراً من الاتزان والوقار . كانت محدودة الذكاء ، شديدة الجهل بالأمور العامة . ولا شك أن أحكامها تأثرت إلى حد كبير بما ساد البلاط من الإسراف . وما اشتهرت به زوى من السخاء والإسراف ، يعتبر السبب الأول لما ساد من الفساد ، وما أصاب ثروة الإمبراطورية من الانهيار[٢] .

والواقع أن زوى ، باعتبارها حفيدة تيوفانو ورومانوس الثانى ، الذى مات وهو صغير السن ، ولم يستمر طويلا فى الحكم ، وابنة قنسطنطين الثامن الذى انصرف إلى اللهو والمجون ، ورثت من صفات القلق والاضطراب ، ما جعل حياتها تنزع إلى المغامرة . ونظراً لأن حياتها الزوجية لم تعمر طويلا ، فإنها كانت دائما تنشد العزاء والسلوى[٣] ، فتعاقب على الزواج منها رومانوس ارجيروس (١٠٢٨ — ١٠٣٤) وميخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٤ — ١٠٤١) ، وقنسطنطين التاسع مونوماكوس (١٠٤١ — ١٠٤٢) . وجعلت زوى السلطة العليا فى أيدى هؤلاء الأباطرة ، غير أنه جرى الصدام بينها وبين أحد هؤلاء الأزواج ، نشطت المؤمرات ، ووقعت الفتن ، واضطربت العاصمة ، ولذا خضعت الدولة البيزنطية نحو ثلاثين سنة (انتهت فى سنة ١٠٥٧) لحكومة تولى أمرها نساء وملوك ضعاف ، مستهترون . وكان ذلك إيذانا بوقوع أزمة جديدة استمرت نحو نصف قرن ، كادت تؤدى إلى خراب الدولة البيزنطية[٤] .

(١) Psellus : op. cit. 6 : 64. 66 p. 137.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 533.
(٢) Psellus : op. cit. 6 : 5 p. 115.
(٣) Diehl & Marçais : op. cit p 534.
(٤) Ibid : p. 533.

كان الإمبراطور قنسطنطين الثامن شديد الحرص ، قبيل وفاته ، على إتمام زواج زوى من رومانوس أرجيروس على الرغم من أن ثمة من الأسباب ما يحول دون ذلك ، منها أن رومانوس كان متزوجا ، ومنها أن بين العروسين من صلات القرابة ما يمنع زواجها . غير أن الإمبراطور أرغم رومانوس على أن يطلق زوجته ، فلجأت إلى الدير حيث ماتت سنة ١٠٣٢ . وعندئذ جعله قيصراً ، أى قسيما فى الحكم ووريثاً للإمبراطور . ولم يعترض البطريرك على هذا الزواج ، لما يعود منه بالنفع على الإمبراطورية ، ويحول دون وقوع أزمة سياسية[١] . وأنفذ الإمبراطور قنسطنطين الكتب إلى جميع أهل مملكته بما حدث من زواج ابنته « زوى » برومانوس فى ١٢ نوفمبر سنة ١٠٢٨ ، وتفويضه الملك إليهما بعده القرابة الجامعة لهما[٢] .

ولم يمض على زواج رومانوس ثلاثة أيام ، حتى توفى قنسطنطين ، فاعتلى رومانوس العرش ، وصار يعرف باسم رومانوس الثالث أرجيروس .

نظام الحكم :

زوى ورومانوس الثالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤) :

كان رومانوس يناهز وقتذاك الستين من عمره ، ومع ذلك لازال يحتفظ بوسامته وحسن طلعته . عاش بالقسطنطينية واحداً من كبار النبلاء ، شديد التعلق بزوجته ، منصرفا إلى أعمال البر والتقوى ، لم ينل من الثقافة إلا قدر ما يفيده فى الحياة ، ولم يكن مجرداً من القدرة والكفاية ، غير أنه كان شديد الغرور متغطرساً . وفى أثناء حكمه الذى استمر ست سنوات ، حاول أن يجعل حكمه صالحا ، وتطلع إلى أن يقيم أسرة حاكمة فى القسطنطينية ، فأراد أن يتخذ لنفسه أنموذجا من الأباطرة السابقين ، فتارة كان ماركوس أوريليان مثله

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 98.
Schlumberger : op. cit. III. p. 59.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥١ .

الأعلى ، ولذا أحب أن يدخل فى مناقشات فلسفية كالتى اشتهر بها أوريليان ، وتارة اتخذ جستنيان نموذجا له ، فنزع إلى القيام بحملات ضخمة كالتى قام بها جستنيان . ثم صار مثله الأعلى تراجان أو هادريان ، اللذين أصبحا مصدر إلهامه ووحيه ، فتخيل نفسه قائداً بارعا ، يستطيع أن يقهر خصومه فى الشرق والغرب ، فلم يرده إلى صوابه إلا ما حل به من هزيمة ساحقة فى الشام ، وترتب على غروره ، والاعتداد بكفايته الحربية ، والحرص على إحراز المجد ، أن حلت بالقسطنطينية أسوأ الكوارث وأشدها خطراً[١] .

ومن أهم خصائص حكم رومانوس أرجيروس الذى لم يتجاوز ست سنوات ، ما حدث من التخلى نهائيا عن سياسة باسيل الثانى . فالمعروف أن باسيل الثانى جعل سنة ٩٩٦ « الأقوياء » مسئولين عن تأدية الضريبة الإضافية المفروضة على أملاك الفلاحين التى تعرضت للإهمال والخراب[٢] . وهذه الضريبة المعروفة باسم allelengyon ، ومعناها الضمان المتبادل ، ليست إلا استمراراً لما كان معروفا فى العصر الرومانى المتأخر من ضريبة epibole ، إذ فرضت على الفلاحين أعباء ونفقات باهظة ، وهذا هو السر فى أن الحيازة الجماعية فى القرية ، كانت عبئا ثقيلا ، فكان الفلاح يؤثر دائما أن ينفرد بملكيته[٣] . ولو استمر هذا القانون زمنا طويلا ، كان لابد أن يؤدى إلى خراب كبار الملاك « الأقوياء » الحائزين للضياع عن طريق الشراء أو الهبة[٤] . غير أن هذه الضريبة لم يجر تنفيذها إلا فترة قصيرة . إذ أن رومانوس الثالث أرجيروس

(١) Camb. Med. Hist. IV. pp. 98—99
Ostrogorowski : op. cit. pp. 284—285.
Psellus : op. cii. pp. 39—40.

(٢) Ostrogorowski : op. eit. p. 285.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 349.
Ostrogorowski : "Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages". Camb. Econ. Hist. I. pp. 202 - 203.

(٤) Ibid : p. 203.

لم يلبث أن ألغى هذه الضريبة ، لحرصه على أن يوفر الرخاء للأقوياء ، ولشدة رغبته فى أن يلتمس وسيلة لاسترضاء كبار رجال الدين ، وكبار ملاك الأراضى[١] . ذلك أن الفلاحين لم يكن فى وسعهم أن يؤدوا الضريبة ، ولم يكن « الأقوياء » يرغبون فى الوفاء بها ، يضاف إلى ذلك أن رومانوس الثالث الذى ينتمى إلى طبقة الأرستقراطية ، لم يجد مقاومة من طبقة الملاك الأغنياء . على أن القوانين السابقة التى تقضى بمنع الأقوياء من امتلاك أراضى الفلاحين أو أملاك الجند ، لم يجر إلغاؤها من الناحية الرسمية ، واعتبرها القضاة سارية المفعول من الناحية القانونية[٢] . فالواضح أن المرسومات العديدة التى صدرت لحماية المالك الصغير ، توقفت فجأة بوفاة باسيل الثانى . على أن ما حدث الآن ، زمن رومانوس ، من موقف الحكومة السلبى ، يدل على أنه توافر لكبار الملاك من الأسانيد مايجيز لهم التوسع فى امتلاك الأراضى كيفما شاءوا . ويتبين من ذلك أن « الأقوياء » هم الذين انتصروا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، إذ تحطم الآن الحاجز الذى حاولت الحكومة المركزية ، منذ زمن رومانوس الأول ، حتى زمن باسيل الثانى ، أن تقيمه لمناهضة الأعيان ، والحد من نزعتهم لامتلاك الأراضى ، وترتب على ذلك أن اختفت الملكيات الصغيرة الحرة ، وابتلع كبار الملاك أراضى الفلاحين والجند[٣] وعاش صغار الملاك بعد انتزاع أراضيهم عالة على كبارهم . وبذلك انهارت الأسس التى أقامت عليها بيزنطة نهضتها منذ القرن السابع ، وتداعت القوة العسكرية ، وتضاءلت الموارد[٤] .

---

(١) Vasiliev : op. cit. 349.
الواقع أن قنسطنطين الثامن طلب إلى رومانوس قبيل وفاته أن يلغى هذه الضريبة . وإلى ذلك يشير يحيى بن سعيد ص ٢٤٩ ، أن قنسطنطين « أسقط عن أهل الروم المطالبات ، وما يستخرج منهم زائداً عن الارتفاع ، وما يخرب من الضياع الملكية التى تجاور كل قوم منهم ، إلى أن تعود عمارتها » .

(٢) **Ostrogorowski : op. cit p. 286.**

(٣) **Ibid : p. 287.**

(٤) **Ostrogorowski : op. cit. p. 286.**

والواقع أنه ليس ثمة ما يدعو إلى اعتبار الحكام فى هذه المرحلة مسئولين عن هذا التغير السياسى ، لأنه كان نتيجة لعوامل اقتصادية واجتماعية ، ليس من اليسير التغلب عليها . ولذا لم يؤد التخلص من رومانوس أرجيروس إلى تغيير فى الموقف من الناحية العملية ، على الرغم من أن هذا التغيير كان من عمل حزب ينتمى إلى طبقة بالغة الاختلاف من الناحية الاجتماعية ، وهى المعروفة بالأرستقراطية المدنية[١] .

وقع شقاق بين الإمبراطور رومانوس والإمبراطورة زوى ، استمر سنوات عديدة . ذلك أن رومانوس ما كاد يتولى العرش ، حتى تضاءل تعلقه بالإمبراطورة العجوز ، فأهملها ، بعد أن تبين له ألا أمل لها فى إنجاب طفل[٢] ، وضن عليها بما تبغيه من المال ، فأصبحت تعيش فى حدود ضيقة ، وعلى موارد محدودة[٣] . غير أن هذه الإمبراطورة كانت شديدة الرغبة فى الحياة ، فأرادت أن تشبع هذه الرغبة ، فلم تلبث زوى أن وقع نظرها على شاب اسمه ميخائيل ، ابن فلاح من بافلاجونيا ، قدم به إلى القصر الإمبراطورى ، أخوه الطواشى حنا صاحب النفوذ الكبير فى القصر[٤] .

كان ميخائيل شاباً وسيما ، جديراً بأن يكون زوجاً لإمبراطورة ، فصارت تطارحه الغرام . وذاع خبر العشيقين فى أرجاء القصر الإمبراطورى ، غير أن زوى لم تحفل بذلك ، وأشارت إلى أحد الطواشية بالبلاط ، وأمرته بأن يلازم ميخائيل ، لأنه سوف يكون فى القريب العاجل إمبراطوراً ؛ ولم يسع الإمبراطورة[٥] إلا أن تتخلص من رومانوس ، فجرى دس السم له فى

---

(١) **Ibid : p. 287.**

(٢) **Psellus : op. cit. III. 5. p. 41.**

(٣) **Ibid : III 5. p, 41,**

(٤) **Diehl & Marçais : op. cit. p. 534.**
Ostrogorowski : op. cit. p, 286.

(٥) **Diehl & Marçais : op. cit. p. 534.**
Psellus : op. cit. III. 19. 20.

الطعام . فسرى فى جسمه ، حتى تداعت صحته ، ثم تلى ذلك اغتيال رومانوس فى ١٢ أبريل سنة ١٠٣٤ ، وفى الليلة التالية تمت المناداة بميخائيل إمبراطوراً ، فتزوج زوى ، فكأنها صارت فى فترة قصيرة أرملة ثم زوجة لإمبراطور جديد(١) .

زوى وميخائيل الرابع (١٠٣٤ —١٠٤١) :

تولى العرش ، إلى جانب زوجته الإمبراطورة زوى ، ميخائيل البافلاجونى أو الصيرفى ، نسبة إلى موطنه ، بافلاجونيا ، أو إلى مهنته ، إذ كان يمارس الصيرفة ، وجرى اتهامه بتزييف النقود(٢) .

وكان ميخائيل ، حتى هذه اللحظة التى تولى فيها الحكم ، يجعل كل ميوله ونظراته تفيض بالحب للإمبراطورة زوى . غير أنه لم يمض إلا زمن قصير ، حتى تغير كل شىء ، فما بذلته من حب ، وما غمرته به من فضل وعطف ، لم يلق منه إلا النكران الوضيع . ولما تحدث بسيللوس عن هذه الوقعة أشار أنه « لا يستطيع أن يقر ميخائيل على هذا الجحود أو يلومه عليه ، فعلى الرغم من أننى لا أرضى بهذه الكراهية لولية نعمته ، ولا أحب ما اتخذه من سلوك نحوها ، فإنه لا يسعنى إلا أن أقره على تخوفه من هذه السيدة ، حتى لا يتعرض لما أصاب رومانوس من كارثة »(٣) .

لم يلبث ميخائيل أن أساء معاملة زوى ، إذ ساورته الشكوك حول أغراضها ، فأخذ يقيد حريتها ، فلا يأذن لأحد أن يحظى بمقابلتها ، أو يقترب منها ، ما لم يحصل على إذن من قائد الحرس ، بعد أن يقف منه على شخصيته ، وأصله ، وغرضه ، فصارت تقضى وقتها فى دور الحريم . ولم يسعها إلا أن

---

(١) Diehl & Marçais : op. cit. p. 534.

(٢) Schlumberger : L'Epopée, III. p. 165.
Camb. Med. Hist. IV. p. 101.

(٣) Diehl & Morçais : op. cit. p. 534.
Psellus : op. cit. IV. 6. p. 59.

تستسلم لهذه القيود والأحوال ، ووطنت نفسها على أن تعيش وسط هؤلاء الأشخاص ، وهذه الأحوال(١) .

وما يلفت النظر ، أنه ما كاد يعتلى العرش ، هذا الرجل ميخائيل ، الساذج الجاهل الأمى ، الذى لم يكن له حق فى الحكم ، والذى تعرض لنوبات من الصرع أودت به آخر الأمر ، حتى دل على أنه حاكم صالح ، شديد الاهتمام بالمصلحة العامة ، بالغ الحرص على المحافظة على الإمبراطورية والدفاع عنها ، شجاع مقدام ، إذا تعرضت للخطر الخارجى(٢) . ويشير بسيللوس إلى سلوك الإمبراطور ، « لو طرحت جانبا هذه الجريمة التى ارتكبها ضد رومانوس ، وبرأته من تهمة الزنا مع زوى ، وما جرى اتهامه بأنه ساق أناساً مشهورين إلى المنفى ، لمجرد الاشتباه فى أمرهم ، وجرى التغاضى عن أسرته الوضيعة ، التى يعتبر ، قبل كل شىء مسئولا عنها ، فلا يسع الإنسان إلا أن يجعله فى مقدمة الأباطرة الرومان فى كل العصور(٣) » .

وأثبت ميخائيل شدة ورعه وتقواه ، بأنه أخذ يدرك فظاعة الجريمة التى ارتكبها ، وصار يظهر الندم ، ويلتمس التوبة . فلم يعد يصادق إلا الرهبان ، ودأب على عمل الخير ، والتكفير عن ذنوبه وخطاياه . واتسمت حياته بالزهد والتنسك ؛ وأنفق أموال الدولة فى عمارة الحوانق والبيع ، ودور للفقراء Ptochotropheion ، وملجأ للساقطات(٤) .

والواقع أنه على الرغم من وضاعة أصل ميخائيل ، فإنه حينما ارتقى العرش ، لم يعوزه الاتزان ، ولم يتغلب عليه السلطان ، فلم يتغير شىء من طباعه ، فكأنما أعد من قبل للاضطلاع بهذا العمل ، فتناوله بسجيته وطبيعته ،

---

(١) Psellus : op. cit. IV. 61. p. 64.
Schlumberger : op. cit. III. p. 172.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 102.

(٣) Ibid : P. 102.
Psellus : op. cit. IV. 7. p. 59.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 102.
Schlumberger : op. cit. III. pp. 176—177.

فعند اعتلائه العرش ، تصرف كأنه إمبراطور ، جرت المناداة به منذ سنوات . لم يغير فيما استقر من العادات والتقاليد ، ولم يبطل شيئاً من القوانين القائمة ، ولم يصدر من القوانين ما يتعارض مع التى أصدرها سلفه ، ولم يطرد أحداً من رجال السناتو ، وهذا هو ما يجرى عادة عند استهلال زمن كل إمبراطور من الأباطرة[١] .

أما أولئك الذين كانوا أصدقاءه قبل أن يتولى العرش ، أو سبق أن بذل لهم وعوداً ، فإنه لم ينقلهم إلى الوظائف العليا مباشرة ، فاستخدمهم أول الأمر فى الوظائف الصغيرة ، حتى إذا ثبتت صلاحيتهم ، وحسن تدريبهم وإعدادهم ، انتقلوا إلى الوظائف بالغة الأهمية[٢] . وما حدث من إيثار الأصدقاء والأنصار ، واحتلالهم لكراسى السناتو ، فإنما يرجع كل ذلك إلى إخوة الإمبراطور ميخائيل . فلولا هؤلاء الإخوة الذين اطمأن إليهم الإمبراطور ، برغم شرورهم وسوء طبعهم ، ما كان لأحد من الملوك المشهورين أن يضارعه ويجاريه[٣] .

فما كاد ميخائيل يرتقى العرش ، حتى استقر بالبلاط كل أفراد أسرته ، وشغلوا الوظائف العالية للإمبراطورية . فصار أكبر إخوته الطواشى حنا ، المعروف باسم أوفانوتروفوس Ophanotrophos ، أى متولى الصدقات على الفقراء ، كبيراً للوزراء ، وصار نقيطا Nicetas قائداً لحامية أنطاكية ، واتخذ لقب دوق ، وكان يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . وتعين قنسطنطين قائداً للقوات الإمبراطورية فى الشرق (دمستق Domestic of the Oriental Scholae . أما جورج فجعله ميخائيل وحنا من كبار رجال البلاط ، پرونوڤيستيروس Protovestiarios[٤] . ولم تكن هذه الأسرة

(١) Psellus : op. cit. IV. 10. p. 60.

(٢) Ibid ; p. 60.

(٣) Ibid : p. 60.

Camb. Ned. Hist. IV, p. 102.

(٤) Camp. Med. Hisi. IV. p. 103.

Schlumberger : op. cit. III. pp. 184—185.

مقبولة من الناس ، لما اشتهرت به من الفساد والانحلال والجهل ، وحاول ميخائيل مرات عديدة ، أن يكبح جماح هذه الأسرة ، بما يوجه لأفرادها من الإنذار والتهديد باستعمال العنف ، غير أن كل ذلك لم يجد نفعاً ، وذلك بسبب تدخل أخيه الأكبر الطواشى حنا ، الذى كان حريصاً على مصلحة الأسرة[١] .

وعلى الرغم مما اشتهر به حنا من الفساد وإدمان الخمر ، فإنه كان بارعاً فى إدارة الحكومة ، ومع أن خبرته فى سائر فروع الحكومة كانت كبيرة ، فالواقع أن مهارته وبراعته أكثر ما تجلت ، فى إدارة المالية العامة . ولم يحمل لأحد ضغناً أو حقداً ، غير أنه يسووه ويثيره كل من يحاول أن يحط من قدره وأهميته . فيرتعد الناس حينما يصوب لهم نظراته الحادة ، ويخشون جانبه . ولذا يعتبر على حد تعبير بسيللوس ، سياجاً وحاجزاً مانعاً للإمبراطور ، لأنه لم يتوان عن إمعان النظر والملاحظة ليلا ونهاراً ولم يفارقه الحماس لتأدية الواجب ، حتى إذا انصرف إلى لهوه ، أو حضر وليمة من الولائم ، أو اشترك فى احتفال أو موكب[٢] .

وامتد نشاط حنا الذى لا ينفد ، حتى شمل كل الشئون الخارجيـــة للإمبراطورية ، فتوجهت الجيوش البيزنطية للنضال فى سبيل سيادة الإمبراطورية وسلامتها فى آسيا الصغرى ، وأيبريا (بلاد الكرج) ، وأرمينيا ، وإيطاليا وصقلية ، وبلغاريا . ومع ذلك فإن الحاجة كانت ماسة إلى رجال من طراز آخر ، كيما يعود للقسطنطينية سابق هيبتها ومجدها ، وفى الجملة ازداد تداعى قوة الإمبراطورية منذ زمن ميخائيل[٣] .

(١) Psellus : op. cit. IV. II. p. 61.

كان لحنا أربعة إخوة ، منهم اثنان أكبر منه عمراً ، وطواشيان مثله : وهما جورج وقنسطنطين ، ولا يقلان عنه مهارة وخبرة ، أما الاثنان الآخران اللذان يصغرانه فهما نيقيطا وميخائيل ، وكانا من الصيارفة ، والواقع أنهما كانا يزيفان النقود .

انظر : Schlumberger : op. cit. III. p. 150.

(٢) Psellua : op. cit. IV. 12. p. 62.

Camb. Med. Hist. IV. p. 103.

(٣) Ibid : p. 103.

أما الأمور الداخلية ، فأدارها ودبرها حنا فى مهارة وبراعة ، وبرغم ما فرضه من أعباء مالية جديدة ، وما اتبعه من أساليب القهر والعنت فى انتزاع الضرائب[١] . وباعتباره رجلا نبت من الطبقات الفقيرة ، وارتفع شأنه بفضل نشاطه وجهوده ، دافع حنا عن النظام البيروقراطى المركزى ، المعروف من قبل ، دون التحيز لطبقة اجتماعية معينة . غير أن هذا النظام أساء إلى الأرستقراطية الإقطاعية والعسكرية بآسيا الصغرى ، ولذا لقيت حكومة حنا التأييد من الأرستقراطية المدنية بالعاصمة . ولم يحاول البافلاجونيون أن يبعثوا سياسة الأباطرة المقدونيين[٢] . ونظراً لحرصه على أن يقيم أسرة بافلاجونية لتتولى الحكم ، ولما هو معروف من أنه ينتمى إلى أسرة وضيعة ، أمعن فى إذلال وحبس ومصادرة أملاك أولئك الذين حامت حولهم الشبهات ، أمثال قنسطنطين دالاسيتوس ، وعمل من جهة أخرى على أن تفرط أسرته فى الثراء . وتحطم الناس بما عانوه من الضرائب الباهظة ، وصارت الحاجة ماسة إلى المال ، من أجل الحرب ، ولصدقات الإمبراطور التى تزايدت وتضاعفت كلما اشتد به المرض ، ومن أجل أقارب الإمبراطور[٣] . والواقع أن جشع هذه الأسرة ، وما دأبت عليه من السلب والنهب ، يعتبر السبب الأساسى ، لما تعرضوا له من كراهية شديدة ، لم تلبث أن أدت إلى التخلص من فئة الطواشية[٤] .

على أن حنا ظن أنه بنجوة من الهجوم ، وأراد أن يوطد سلطانه ، بأن يسيطر على الأمور الدينية والسياسية معاً ، وذلك بأن يحمل البطريرك الكسيوس على التخلى عن منصبه ، على أن يحل حنا مكانه فى البطريركية ،

---

(١) Ostrogorwski : p. 287.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 287.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. op. cit. p. 287.

(٤) Ibid : op. IV. p. 103.

غير أن هذا التدبير أفسده الكسيوس وانصرف عنه حنا ، نظراً لما يترتب عليه من ارتباك وتعقيد[١] .

وبينما يسير الطواشى حنا فى الحكم على هذا النحو ، اشتدت نوبات الصرع بالإمبراطور ، فضلا عن معاناته مرض الاستسقاء ، فلم يحظ باهتمامه إلا بذل الصدقات ، وأعمال البر . وقضى وقته فى سالونيك ، عند ضريح القديس ديمتريوس ، وفى الأوقات التى يزاوله المرض فيها ، يوجه اهتمامه إلى الأمور الحربية ، فكفل سلامة أطراف الدولة ، بما بذله من الرشـــوة ، أو بالدبلوماسية ، أو بما يجريه كل سنة من استعراضات حربية[٢] .

على أن الوزير الطواشى حنا ازداد قلقه ، حينما انهارت الحالة الصحية عند الإمبراطور ، فخشى على مصيره ، ومصير أسرته ، وأدرك ما سوف يصادفه من متاعب عقب وفاة الإمبراطور . ولذا عزم ، أثناء سنة ١٠٤١ ، على أن يتخذ إجراء حاسماً ، ونظراً لأنه هو وإخوته من الطواشية ، ليس فى وسعهم أن يخلدوا اسمهم ، ألح على ميخائيل أن يتخذ قسيما له فى الحكم (قيصراً) ، شاباً فى مقتبل العمر ، وهو ابن أختهم مارى ، واسمه ميخائيل . وأكثر من ذلك وعلى الرغم من المعاملة السيئة التى لقيتها الإمبراطورة زوى ، على أيدى هذين الأخوين ، اقترح الأخوان على زوى أن تتخذه ولداً ، فلم تمانع فى ذلك وجرت الاحتفالات بالقسطنطينية ، وتمت المناداة بميخائيل الخامس ، المعروف باسم قلافاتس Calaphates ، قيصراً واتخاذه ولداً للزوجين ميخائيل وزوى[٣] .

وفى وسط هذه الأحوال ، فى سنة ١٠٤٠ ، وردت الأنباء بنشوب ثورة فى بلغاريا . ويرجع سبب هذه الثورة ، إلى ما درجت عليه الحكومة من

---

(١) Ibid : cit. IV. p. 103.

(٢) Psellus : op. cit. IV. 19. pp. 65—66.
Camb. Med. Hist. IV. p. 104.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 104.
Psellus : op. cit. IV. 22, 23, 24, pp. 68—69.

سياسة مالية صارمة ؛ إذ أن الإمبراطور باسيل الثانى أجاز للصقالبة من قبل أن يدفعوا ضرائبهم عيناً ، فحتّم عليه الوزير حنا أن يدفعوها نقداً . يضاف إلى ذلك أن ما حدث من تعيين أحد رجال الدين اليونانيين رئيساً للأساقفة فى أوكريدا ، أثار غضب الصقالبة ، فانتشرت الثورة فى الجانب الأكبر من بلاد البلقان الصقلبية ، وتسربت إلى المناطق الواقعة إلى شمال بلاد اليونان[1] .

ولما اشتهر به ميخائيل من قوة الإرادة ، تحامل على نفسه ، وتولى قيادة الجيش وزحف على بلغاريا . فاشتد النضال ، وبدأ أول الأمر كأن الإمبراطورية ، سوف يحل بها أسوأ الكوارث ، غير أن النصر كان آخر الأمر حليف ميخائيل ، فقمع الفتنة . غير أن هذه النفحة من النشاط ، أدت إلى دماره ، ومع ذلك شهد احتفالات النصر فى العاصمة ، ونجحت حكومته فى إحباط مؤامرة ، يعتبر من محركيها كريولاريوس ، الذى صار بطريركا فيما بعد . ثم حلت النهاية ، ففى ١٠ ديسمبر سنة ١٠٤٠ ، غادر ميخائيل البلاط الإمبراطورى ، دون أن يخطر زوى ، واتخذ طريقه إلى دير أرجيرى Holy Argyri ، الذى عمره ، فخلع الملابس الملكية ، وارتدى مسوح الرهبان ، ولم يلبث أن قضى نحبه فى نفس اليوم[2] .

زوى و ميخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢)

وما وضعه حنا أورفانوتروفس من خطة لحث زوى على أن تتبنى ابن أخته ميخائيل ، وقصد من وراء ذلك إقامة أسرة بافلاجونية ، لم يكتب لها النجاح ، بل إنها دمرت هذه الأسرة البافلاجونية . لم يحظ هذا الشاب بما حازه أخواله من الصفات الطيبة ، إنما شاركهم فى عيوبهم ونقائصهم ، وأبوه ستيفن لم يكن إلا عاملا ، يتولى بالميناء تنظيف السفن ، ومن ذلك اتخذ لقب Calphates . ولما

(١) Camb. Med. Hist. IV, p. 104.
Ostragoroswkl : op. cit. pp. 287—288

(٢) Camb. Med. Hist IV. p. 104.
Ostrogorowski : op. cit. p. 288.

أخذ الحظ يبسم لميخائيل بسبب علاقاته ، تقرر تعيينه قائداً للحرس الإمبراطورى ، بينما صار أبوه قائداً للأسطول ، اشتهر بما جره على البحرية البيزنطية من هزائم وكوارث فى صقلية . وبفضل ما يشغله الطواشى حنا أورفانوتروفس من وظائف بالبلاط البيزنطى ، سعى لابن أخته ميخائيل حتى صار قيصراً ، وريثا بالتبنى للعرش . غير أن سوء حظ الجانبين ، أن كان ميخائيل شابا تافها حقيراً ، فاسداً ، فظا غليظ القلب ، شديد النفاق ، ناكراً للمعروف ، برغم دهائه ومهارته . على أن العلاقات بين ميخائيل وأخواله لم تلبث أن ساءت ، غير أن خطط البافلاجونيين والحرص على الإبقاء على أسرتهم ، تطلب إرغام زوى على أن ترضى بتتويج ميخائيل والمناداة به إمبراطوراً[1] .

حرص ميخائيل أول الأمر على أن يبدو خادما مطيعا للإمبراطورة زوى ، وتلميذاً طيعا لخاله . فأنعم بالتشاريف والألقاب على النبلاء ، ووزع الصدقات على الفقراء . غير أن هذا السلوك لم يستمر طويلا ، إذ نشبت منازعات حادة بينه وبين أخواله ، إذ تعاون ميخائيل مع خاله قنسطنطين ، على التآمر ضد الطواشى حنا الوزير ، لما يحملانه له من الكراهية . فأول إجراء اتخذه الإمبراطور ميخائيل ، أنه رفع قنسطنطين إلى رتبة النبلاء ، ثم تلى ذلك التماس الفرصة للتخلص من الطواشى حنا الوزير . فاغتنم فرصة ما وقع بينهما من نقاش حاد ، انسحب على إثره الطواشى حنا غاضبا إلى ضياعه ، فتقرر فجأة إبعاده إلى دير مونوباتاى Monobatae ، الذى يقع على مسافة بعيدة . فكان هذا أول ضحية لميخائيل ، أما الضحية الثانية ، فترتب عليها أن فقد عرشه ، وأضاع حياته[2] .

ولما تم إبعاد الطواشى حنا الوزير ، ولم يأسف أحد لفراقه . وحرص

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 105.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 105.
Ostrogorowski : pp. 288—289.

ميخائيل على أن يفيد من السلطة التى آلت إليه . ويشير المؤرخ بسيللوس إلى أن هذا المحدَث الوضيع ، انطوى على كراهية شديدة للطبقة الأرستقراطية ، ولكل من يتوسم فيهم علامات الشرف . فلم يعد فى وسع أحد من الناس أن يعيش مطمئن البال ، أو يشعر بالأمن والسلام فيما حازه من ثروة وألقاب ، فلم يحظ برضى الإمبراطور وصحبته سوى حثالة القوم . ومع ذلك فهو أطلق سراح القائد جورج مانياكس ، ورد عليه وظائفه وتشاريفه ، بعد أن تم اعتقاله فى العصر السابق ، وفعل مثل ذلك مع قنسطنطين دالاسينوس ، أعظم نبلاء عصره ، وهو الذى تسبب فى ثراء قنسطنطين ليخوديس lichudes ، الذى سيصير بطريركا وسياسياً نابها[1] . ويكمل هذه الصورة مؤرخ بيزنطى آخر ، ميخائيل اتاليانس Michael Attaliates ، الذى أشار إلى « أن ميخائيل بذل الألقاب والرتب لعدد كبير من المواطنين النابهين ، وأثبت حماسه الكبير لحفظ الأمن ، واتخاذ إدارة سليمة لتحقيق العدالة »[2] .

والواقع أن أكبر خطأ ارتكبه ميخائيل ، ما حدث من مهاجمته للإمبراطورة زوى ، فمنذ بداية حكمه أمر بأن تلتزم دارها بالقصر ، ولا تقرب قاعة المجلس ، ولا يصل إلى يدها شىء من مال الدولة ، ووضعها تحت رقابة شديدة . ولما اعتقد أن مركزه أضحى وطيداً بالقسطنطينية ، أقدم بتحريض خاله قنسطنطين ، على طردها نهائيا من القصر ، وذلك فى ١٢ أبريل ١٠٤٢[3] . وبعد محاكمة صورية ، تقرر نفيها إلى دير Prinkipo ، بعد أن تم حلق شعرها . وصدرت الأوامر أيضا إلى البطريرك الكسيوس ، بأن ينسحب إلى الدير[4] .

وكيما يجعل عمله مشروعا ، أمر ميخائيل الخامس ، فى ١٩ أبريل بأن يتلى

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 106.

(٢) Schlumberger : L'Epopée Byzantine, III, p. 383.
Camb. Med. Hist. IV. p. 106.

(٣) Psellus : op cit. V. 17. p. 94.
Camb. Med. Hist. IV. p. 106.

(٤) Psellus : op. cit. V. 21. p. 96.
Camb. Med. Hist. IV. p. 106.

أمام السناتو ، وعلى الجمهور المحتشد ، رسالة شرح فيها ما يبرر سلوكه ، واتهم فيها الإمبراطورة والبطريرك ، بالتآمر ضده ، وتدبير أمر اغتياله ، واطمأن إلى أن رسالته سوف تلقى الترحيب والقبول ، غير أنه كان فى ذلك واهما ومخدوعا[1] .

والواضح أن زوى ، على الرغم من أنها لم تكن ذات أهمية كبيرة عند الإمبراطور ، لازالت تعتبر وريثة الأسرة المقدونية المجيدة ، والإمبراطورة الشرعية . فحدث صبيحة يوم الاثنين أى غداة ذيوع خبر عزلها ، أن اشتد ثائرة الناس فى أنحاء المدينة ، ويشير المؤرخ بسيللوس إلى اشتداد استياء الناس ، ذكوراً وإناثا ، وعلى اختلاف أعمارهم ومهنهم ، ولم يلبثوا أن تحدثوا علنا عما يساورهم من القلق والخوف على الإمبراطورة ، ولما ذاع فى أنحاء الدولة أمر الوضع الجديد ، خيم الأسى والحزن على القسطنطينية . ثم أصبحت هذه الكارثة حديث الطبقات الحاكمة ورجال الدين ، بل أسرة الإمبراطور ، ورجال البلاط ، وأرباب الحرف ، ورجال الحرس . وامتد هذا السخط إلى النساء ، فأخذن يبكين فى عنف ما أصاب الإمبراطورة من مصير سيئ . وأخذن يتساءلن : أين مستقرها ، تلك التى انفردت بالجمال والنية السليمة ، تلك التى تعتبر رأس الأسرة الإمبراطورية ، والوريثة الشرعية للإمبراطورية ، والتى كان أبوها إمبراطوراً ، وجدها من قبله إمبراطوراً ، بل كان والد جدها إمبراطوراً أيضاً ؟ كيف جرؤ هذا الرجل الوضيع الأصل ، أن يرفع يده فى وجه امرأة لها هذا النسب ؟[2] .

على أنه ما كادت الجماهير تعلم بنبأ نفى الإمبراطورة ، حتى انفجرت ساخطة على الإمبراطور . وكاد حاكم المدينة أن يلقى مصرعه أثناء تلاوته قرار عزل الإمبراطورة[3] . ويشير المؤرخ ابن الأثير إلى أن البطريرك ، بفضل

---

(١) Diehl & Marçais : op cit., p. 535.
Psellus : op . cit. V. 23. p. 97.

(٢) Psellus : op. cit. V. 26. p. 99.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 106.

ما بذله من أموال للعساكر ، من الروس والبلغار لاغتياله ، استطاع أن يعود إلى القسطنطينية ، وأمر بأن تقرع الأجراس بالمدينة . وحدث ذلك فى ظهر يوم الاثنين ١٩ أبريل سنة ١٠٤٢ ، أى فى الوقت الذى استعرت فيه الثورة ، واشتدت حرارتها حول القصر(١) . فأخذ الناس يهتفون « لانريد قلفه Calfat إمبراطوراً ، إنما نريد الملكة الشرعية ، أمنا زوى » . وتولى إلقاء الحجارة . وهرعت الجماهير إلى القصر الإمبراطورى(٢) .

ويروى بسيللوس الذى كان وقتذاك من كتاب ديوان الرسائل ، أنه بينما كان يملى بعض الرسائل الهامة ، جاءه نبأ مسير الجماهير لمهاجمة القصر ، فأسرع إلى ركوب حصانه ، وصار يطوف بالمدينة ، ليقف على ما يجرى بها من الأحداث . ويصف بسيللوس ما شهده ؛ إذ غلب على الناس الحماس الشديد ، وأسرعوا الخطى ، وتظاهروا بقوة قبضاتهم ، وتطاير الشرر من عيونهم ، وبرزت عضلات أجسادهم أكثر قوة وبأسا . ولما لم يكن بوسع أحد أن ينصحهم بالتزام الهدوء ، والإخلاد إلى السكينة ، بدأت المعركة(٣) .

وبناء على نصيحة البطريق قنسطنطين ، خال الإمبراطور ، والذى نهض لمساعدته ، أدرك الإمبراطور أنه لابد من الاستجابة لرغبات الشعب . فأصدر الأوامر بالتماس الإمبراطورة العجوز ، وحملها إلى القصر ، بعد أن انتزع منها وعداً بأن تعود إلى الدير ، بعد أن تهدأ العاصفة . ثم أطلت زوى على الجماهير الثائرة ، وظن الإمبراطور وأنصاره ، أن ثائرة الناس سوف تهدأ حينما يشهدون الإمبراطورة ، بعد عودتها من المنفى ، وأنها سوف تتولى سلطتها . غير أن الثوار لم يحفلوا بذلك ، فأولئك الذين لم يعرفوها ، كانوا أشد الناس

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣٤٢ .
Camb. Med. Hist. IV. p. 106.
(٢) Diehl & Marcaies : op. cit. P. 536.
(٣) Psellus : op. cit. V. 28. p. 100.
Diehl & Marcais : op. cit. p. 536.

سخطا وغضبا ، لما اتخذه الإمبراطور من تدابير ؛ فوجهوا إليه الشتائم والإهانات ، وقذفوه بالحجارة ، وتعطشوا للانتقام(١) .

ووقع فى تلك اللحظة حادث بالغ الأهمية . فالمعروف أنه كان لزوى شقيقة تصغرها فى العمر . هى تيودورا ، شاركت زوى العرش عند وفاة أبيهما . ولما انتزع السلطة منها رومانوس الثالث وميخائيل الرابع ، لزمت الدير . ولما لم يستطع الثوار الوصول إلى زوى ، نظراً لشدة مراقبة الإمبراطور لها ، اندفعت الجماهير إلى الدير الذى تنزل به تيودورا ، فانتزعوها من الدير ، وحملوها إلى كنيسة القديسة صوفية ، فنادى الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، بها إمبراطورة ، ولم يحفلوا بالطاغية ميخائيل . ثم توجهوا إلى القصر الإمبراطورى فاقتحموه ، ونهبوا خزائنه ، فلاذ الإمبراطور وقنسطنطين بالفرار ، واستقلا سفينة حملتهما إلى دير ستوديون . غير أن الجماهير اندفعت نحو الإمبراطور ، وعزمت على أن تقطعه إرباً ، وشاركتهم فى ذلك تيودورا ، بينما كانت زوى تميل إلى العفو والرحمة(٢) .

اتخذ ميخائيل وقنسطنطين من مذبح الكنيسة ملاذاً لهما ، ولم يلبث الإمبراطور أن ترهب ، فلبس رداء الرهبان ، وحلق شعر رأسه ، غير أن ذلك لم يكن ، على حد رأى بسيللوس ، إلا بداية لأعنف مأساة(٣) .

فما كاد الليل يرخى ستوره ، ليلة ٢١ إبريل سنة ١٠٤٢ ، حتى قدم إلى الدير ، حاكم المدينة ، يحمل أمراً من تيودورا بنقل الإمبراطور وخاله قنسطنطين إلى موضع آخر . ولما طلب إليهما أن يغادرا الكنيسة ، رفضا أمره ، وتشبثا بملاذهما فى الدير ، بعد أن شعرا أنهما سوف يلقيان حتفهما إذا خرجا

(١) Diehl & Marçais : op. cit., p. 537.
Psellus : op. cit. V. 32, 33, pp. 101—102.
(٢) Diehl & Marçais : op, cit. pp. 537—539.
Psellus : op. cit. V. 36, 37, 38. pp. 102—103,
Camb. Med. Hist. IV. pp. 106—107.
(٣) Psellus : op. cit. V. 43. p. 105.

من الدير . فلم يسع حاكم المدينة إلا أن يستعين بالجماهير فى إلقاء القبض عليهما ، فاقتحموا الدير ، وصاروا يطاردونهما إلى خارج الكنيسة(١) .

أصدرت تيودورا الأمر بتكحيل (سمل) عيونهما . وبينما تقبل قنسطنطين فى شجاعة ما حدث من تكحيله اشتد فزع ميخائيل ، غير أن ذلك لم يغنه شيئاً ، وتم تكحيله بين سخرية الناس وهزئهم(٢) . وانسحب ميخائيل إلى دير السيمون Elsimon ، بينما لم يعرف مصير البطريق قنسطنطين . وانتهت الثورة فى ٢١ إبريل سنة ١٠٤٢(٣) .

تيودورا وزوى (أبريل – يونية سنة ١٠٤٢) :

ولما انهار حكم الإمبراطور ميخائيل ، أضحت الشقيقتان ، تيودورا وزوى ، تواجهان إحداهما الأخرى ، ولكل منهما أنصار يشدون أزرها . كانت زوى أكبر الأختين ، وظن كثير من الناس ، أنها تدخر من القدرة والكفاية فى الاضطلاع بأمور الإمبراطورية ، ما لم يتوافر لدى تيودورا التى لم تغادر الدير إلا منذ زمن وجيز . فتوافر عند زوى من المبررات ما يجعلها تطالب بالنصيب الأكبر من الحكم والسلطان . أما تيودورا ، فامتازت على أختها بأنها أصغر سناً منها ، وأنها لم يسبق لها أن تزوجت مرتين مثلما فعلت زوى . فلذا تستطيع أن تكون ، دون أن تتعرض مثلما تعرضت زوى ، للتجريح ، حاكماً كفئاً . وكيفما كان الأمر ، فلا بد من أن تشترك فى الحكم . لا سيما بعد أن حطمت استبداد الطاغية ميخائيل ، وارتضت زوى أن تشاركها أختها الحكم(٤) .

---

(١) Psellus : op. cit. V. 44. p. 106.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 106.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 538.
Psellus : op. cit. V. 48. 50. pp. 107—108.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 107.
Psellus : op. cit. V. 5. p. 108.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 108.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 539.

على أن الحكومة التى صارت بأيدى سيدتين عجوزتين ، لقيت التأييد من الجماهير ، نظراً لما استندت إليه تيودورا ، بصفة خاصة من تأييد الكنيسة ، ولأن حقهما الشرعى فى الحكم يعتبر أمراً مسلماً به عند جميع الرعايا . فلم يحدث تغيير فى إدارة الدولة ، أو فى هيئة الموظفين الذين يشغلون المناصب العليا ، فيما عدا ما تعلق منها بأسرة ميخائيل الخامس وأتباعها ، الذين تقرر حرمانهم من الوظائف التى كانوا يشغلونها . فتولت الأختان رئاسة المجالس ، التى اختص بإدارتها كبار الوزراء ، وبسطتا أيديهما فى الإغداق على الناس ، الأكابر منهم والأصاغر ، بالأموال والعطايا ، والتشاريف . وصدرت قوانين لمنع التلاعب فى الوظائف القضائية ، فجرت مراعاة المصلحة العامة فى شغل الوظائف . وعاد مانباكس إلى إيطاليا ، ليتولى القيادة العليا للقوات البيزنطية فى الغرب(١) .

ومع ذلك لم تستمر هذه الحكومة طويلا . إذ أن الإمبراطورتين ، زوى وتيودورا ، بلغ الاختلاف بينهما فى الطباع والسلوك ، وفى المشاعر القلبية ، وبلغتا من كبر السن ، والضعف ، أنهما لم تستطيعا أن تؤديا عملا مثمراً ، يستطيع أن يبقى زمناً طويلا . يضاف إلى ذلك ، ما وقع من التناحر بين الأحزاب المحيطة بهما(٢) . فصارت الحاجة ماسة إلى أن يكون على رأس الدولة رجل يسهر على مالية البلاد ، ويحول دون تبديدها ، على النحو الذى دأبت عليه زوى ، ويولى الجيش من الاهتمام ما يرد به أطماع الأعداء الذين أرادوا الإفادة من ضعف الدولة البيزنطية(٣) .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ، تقرر تدبير خطط لزواج الإمبراطورتين أو إحداهما ، ولما اشتهرت به تيودورا ، من النفور من الزواج ، تقدم رجال

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 289.
Camb. Med. Hist. IV. p. 108.

(٢) Ibid : p. 108. Ostrogorowski : p. 289.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 108.

البلاط إلى زوى ، يعرضون عليها هذا الأمر . وعلى الرغم من أن زوى ، بلغت وقتذاك الرابعة والستين من عمرها ، فإنها ازدادت لهفة ، لأن تتزوج للمرة الثالثة ، فوقع اختيارها ، فى ١٠ يونية ١٠٤٢ على السناتور قنسطنطين مونوماكوس Monomachus ، الذى اتخذ التاج فى اليوم التالى(١) .

زوى ، تيودورا ، قنسطنطين مونوماكوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥) :

عاش الإمبراطور الجديد حياة صاخبة ، حتى تولى الحكم . وينتمى قنسطنطين إلى أسرة من أعرق الأسرات البيزنطية . ولما ماتت زوجته الأولى ، تزوج من ابنة أخت رومانوس أرجيروس ، فحاز بذلك مكانة اجتماعية بالغة الأهمية ، فصار من الأرستقراطية المدنية بالعاصمة . ولما لقيه من الحظوة فى البلاط ، توثقت العلاقة بينه وبين زوى ، غير أن ظهور الأسرة البافلاجونية حطمت ما كان يتطلع إليه من الآمال فى المستقبل ، فنفاه إلى متيلين Mitylene ، الطواشى حنا أورفانوتروفس . وسمع فى منفاه بنبأ اختياره زوجاً للإمبراطورة زوى ، فعاد إلى القسطنطينية ، كما يحتفل بعقد الزواج ، الذى يؤدى إلى أن يتربع على عرش الإمبراطورية(٢) .

فلم يكن قنسطنطين رجلا حديث النعمة ، بل إنه اشتهر بالذكاء الحاد ، والثقافة الواسعة ، فضلا عن وسامته ، والميل إلى الأبهة والعظمة ، وإلى المباذل والفجور . وترددت الإشارة إلى أن حكومة النساء ، إنما تلاها حكومة دعاة البطالة والمرح والسرور ، ومع ذلك كانت خيراً من حكومة البافلاجونيين(٣) .

ولما دأب عليه قنسطنطين من حياة المرح والسرور ، أراد أن يستمتع

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 289.
Camb. Med. Hist. IV. p. 108.
Diehl & Marcais : op. cit. p. 539—540.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 109.
(٣) Ibid : p. 109.

بمنصبه الجديد إلى أقصى حد ؛ فلم يفرض قيوداً على الإمبراطورتين العجوزتين ، اللتين يشاركهما الحكم ، واقتسموا سوياً أموال الخزانة العامة ، وكلما تقدمت زوى فى السن أمعنت فى التسامح ، فلم تتحرك لما كان يبديه قنسطنطين صراحة من الهيام بعشيقته سكليرينا الحسناء(١) . وتعلق أيضاً بأميرة من اللان Alans ، غير أنه بلغ من شدة التعلق بسكليرينا ، أنها لحقت به فى منفاه فى ليسبوس . فلما صارت له السلطة العليا ، حرص قنسطنطين على أن يستدعيها لتكون بجانبه ، فأفرد لها فى البلاط ، بموافقة زوى ، دارا خاصة ، ومنحها لقب الشريفة أو العظيمة Sebaste (Augusta) . وبمقتضى هذا اللقب ، صارت تشهد كل ما يجرى بالبلاط من حفلات ، إلى جانب الإمبراطورتين(٢) . ومن الأمور التى تلفت النظر ، أن قنسطنطين حرص على أن يكتسب ود الإمبراطورة تيودورا أيضاً ، فكأن الحكومة أخذ يسيرها ويوجهها أربعة أشخاص ؛ استنزفوا أموال الدولة . غير أن الجمهور رأى الفضيحة تجاوزت الحدود ، وأن الإمبراطورتين تعرضتا للخطر . فوقعت ثورة فى ٦ مارس سنة ١٠٤٤ كادت تودى بسلطة الإمبراطور ، لولا تدخل زوى وتيودورا(٣) ؛ فتقرر اتخاذ تدابير حاسمة ، منها طرد الأجانب ، من اليهود والمسلمين والأرمن ، من القسطنطينية . وعلى الرغم من هذا القمع الشديد ، فإن الثورة كانت لا بد أن تندلع فى عنف وشدة من جديد لولا أن ماتت فى الوقت المناسب ، سكليرينا ، عقب ثورة سنة ١٠٤٤(٤) . ولما ماتت سكليرينا ، انتقل لقبها ونفوذها إلى أميرة آلانية حسناء(٥) .

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 289.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 109.
Ostrogorowski : op. cit. p. 289.
(٣) Camb. Me[illegible] st. IV. p, 109.
Ostrogorowski : op. cit. p. 289.
(٤) Camb.Med. Hist. IV. P. 109.
(٥) Ostrogorowski : op. cit. p. 289.

ومع أن البلاط والعاصمة زخراً بحياة الترف والمرح ، فإن قنسطنطين والإمبراطورتين ، حرصوا على أن يحيطوا أنفسهم بنخبة من الرجال ، الذين اشتهروا بكفايتهم فى تسيير الأمور العامة . فمنذ بداية حكمه ، صار يستجيب لنصائح ميخائيل كريولاريوس Cerularius ، فلما أصبح كريولاريوس سنة ١٠٤٣ ، بطريركاً ، تولى الوزارة مكانه قنسطنطين ليخوديس Constantine Lichudes ، من الفئة المثقفة بالإمبراطورية التى تمثل الأرستقراطية المدنية بالعاصمة ؛ ومنها جرى اختيار الموثقين والكتاب ورجال القانون وسائر الموظفين ، أمثال رجل القانون حنا اكسيفيلينوس John xiphilinus ، والفيلسوف الشهير ميخائيل بسيللوس psellus[1] .

ويعتبر بسيللوس أنموذجاً خالصاً لعصره ، لما له من نفوذ قوى فى التطور الثقافى ، ولما كان له من دور سياسى فى هذه الحقبة من التاريخ . ولما ضعف سلطان ليخوديس ورفاقه أواخر حكم قنسطنطين مونوماكوس ، استبد الأسى والحزن بميخائيل بسيللوس ، فلجأ إلى الدير مع صديقه أكسيفيلينوس ، على أن حياته ارتبطت بأمور الدنيا ، إذ شغف بالعلم ، وحلل الميول البشرية ، وأفاد من علمه فى تحقيق الأغراض السياسية[2] ، ولم يضارعه أحد فى الكتابة والخطابة ، التى اتخذها أداة للإقناع . وأفاد بسيللوس من هذه الصفات فى الناحية السياسية ، على أنه طالما أساء استخدامها فى صورة عرضته للتقريع واللوم الشديد . وما اشتهر به بسيللوس من قوة فكرية كانت موضع المدح والثناء ، فأحاط بكل ما اشتهر به العالم القديم من الحكمة والأدب . ولم تختف الدراسات الأدبية القديمة نهائياً من بيزنطة ، غير أن علاقة بسيللوس بثقافة بلاد اليونان القديمة كانت أمراً مختلفاً ، إذ استند إلى العلم الخالص المباشر ، فلم يكتف بدراسة الأفلاطونية الحديثة ، بل حرص على أن يدرس أفلاطون

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 290.
Camb. Med. Hist. IV. p. 110.
(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 290.

ويجعله معروفاً ، ولذا يعتبر بسيللوس أعظم فيلسوف بيزنطى ، وأول عالم إنسانى كبير[1] .

وتألفت الهيئة المثقفة التى استند إليها الإمبراطور ، من بسيللوس وأستاذه حنا موروبوس Mauropous وليخوديس . وعمل هؤلاء على أن يتخذوا من الوسائل ما يلزم لإصلاح التعليم وترقيته . ففى سنة ١٠٤٥ ، قام بالقسطنطينية جامعة ، شملت كليتى الفلسفة والقانون ، واعتمد منهج كلية الفلسفة على مجموعتين : المجموعة الثلاثية Trivium ، والمجموعة الرباعية Quadrivium .

وانطوت الأولى على النحو والخطابة والجدل ، أما المجموعة الثانية فسجلت الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . وتعتبر الفلسفة فى قمة الدراسة ، لأنها آخر ما وصل إليه العلم فى التركيب . وتولى بسيللوس رئاسة هذه الكلية ، واتخذ لقب كبير الفلاسفة . أما رئيس كلية القانون ، فكان حنا اكسيفيلينوس ، الذى اشتهر باسم « راعى القانون » . وبهذه الوسيلة تم إنشاء مركز جديد لترقية العلم اليونانى والقانون الرومانى ، وكلاهما مدين لبزنطة بالبقاء والتطور . وحققت الجامعة الجديدة غرضاً عملياً كبير الأهمية ، فأمدت الدولة بقضاة مؤهلين ، وموظفين مدنيين[2] .

وفى أثناء القرنين الماضيين ، ظلت هيئة الإمبراطورية محافظة على سموها ، فلم يكن للسناتو إلا دور ثانوى . أما الآن (القرن الحادى عشر) ، فإن الطبقة الحاكمة تألفت من كبار الموظفين بالعاصمة ، الذين يحملون عادة لقب سناتور . ولم تعد للسناتو مكانة شرفية فحسب ، وكما وطدت الأرستقراطية بالعاصمة مركزها ، بأن جعلت نفسها دعامة وسنداً للحكومة ، كثر عدد الذين يحملون لقب سناتور ، فانفسح المجال أمام جانب كبير من سكان القسطنطينية ، كيما يدخلوا فى طبقة السناتورين . وبهذه الوسيلة اتسعت قاعدة النظام الإدارى ،

(١) Ostrogorowski : op. cit. P. 290.
(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 291.

واهتمت عناصر جديدة بالمحافظة على سيادة السناتو[١] .

على أن تفوق نفوذ كبار الموظفين الإداريين بالعاصمة ، لايدل على ماكان للسلطة المركزية من سلطان وقوة ، إزاء السادة الإقطاعيين ؛ فالضياع المدنية والكنسية ، حازت من الامتيازات ما أعفى أربابها من الضرائب والالتزامات العامة كلها أو بعضها . وبفضل الحصول على براءة شاملة ، استطاعت طبقة الملاك ، أن تفلت من الإشراف الإدارى الذى تمارسه السلطة الإدارية ، ولم يكن لموظفى الإمبراطور الحق فى أن يتدخلوا فى أمر هذا النوع من الأراضى المعفاة من الضرائب[٢] ؛

وحدث وقتذاك أن ظهر النظام المعروف باسم البرونويا Pronoia ، وجوهر هذا النظام ، أنه تقرر مكافأة فئة من البيزنطيين البارزين على ما أدوه من الخدمات ، بأن جرى منحهم أراضى ، يتولون إدارتها والتصرف فيها ، إلى جانب ما يتحصل من خراج من الضيعة المعفاة من الضرائب[٣] . على أن حيازة البرونويا تختلف عن الحيازة العادية للأراضى ، فى أن مدة حيازتها لا تتجاوز حياة حائزها ، ولذا لا يجوز التصرف فيها ، بالتنازل أو الميراث[٤] .

وجرت العادة أيضاً فى الأزمنة المتقدمة ، بأن تحصل الكنائس والأديرة على هذه البراءة ، وفى القرن العاشر الميلادى ، تسلمت الأديرة الخراج المتحصل من ضرائب بعض الجهات . وما حصل عليه فى الزمن المبكر للدولة البيزنطية ، الملاك المدنيون من حقوق الإعفاء من الضرائب ، لم يستمر أثناء عصرها المتوسط ، فلما ظهر من جديد فى القرن الحادى عشر ، كان ذلك دليلا على ضعف السلطة المركزية[٥] .

(١) Ibid : p. 291.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 291.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 292.

(٤) Ibid : P. 292.

(٥) Ostrogorowski : op. cit. p. 292.

واشتد فرض القيود على السلطة العليا ، وعلى كل ما يتعلق بالإدارة المدنية . فتجردت الحكومة المركزية من أهم وظائفها ، وهى جمع الضرائب ، بأن جعلته التزاماً فى بعض الجهات . وبهذه الوسيلة اطمأنت الخزانة إلى الحصول على مبلغ من المال ، خاضع للزيادة والعجز . لأن الملتزمين تعاهدوا بأن يؤدوا للدولة مبلغاً معيناً من المال ، على أن يكونوا أحراراً فى إدارة الضياع التى استأجروها ، فأمعنوا فى ابتزاز أموال السكان ، على الرغم من أن ذلك لم يكن فى صالح الحكومة ، فكأن أرباب الإقطاعات Pronoais ، والملتزمين أقاموا نظامهم الإدارى ، على نسق نظام الحكومة ، فعاش معه جنباً إلى جنب ، وتحمل السكان من أعباء الضرائب الثقيلة الوطأة ، ما جعلهم لا يؤدون للحكومة إلا قدراً ضئيلا منها[١] .

الجيش :

كان الجيش أشد الفئات إحساساً وتأثراً بتفكك النظام الإدارى . فالحكومة المدنية بلغ من شدة كراهيتها للحزب العسكرى ، أنها أخذت تخفض القوات المسلحة . ولحرصها على استنباط موارد جديدة للخراج ، عمدت إلى أن يتحول الجند الفلاحون إلى دافعى ضرائب . وكأنما لم يكف أن كثيراً من الإقطاعات الحربية صار حوزة كبار الأعيان ، بل إن كثيراً ممن تبقى من الجند الفلاحين ، جرى إغراؤهم بالإعفاء من الخدمة العسكرية ، مقابل تأدية مبلغ من المال يتم الاتفاق عليه[٢] .

وبانهيار الإقطاعات العسكرية ، أخذت الثغور تفقد طابعها العسكرى ، وتحددت سلطة قائد الثغر الاستراتيجوس ، وارتفع شأن البرايتور Praetor ، الذى صار له من الأهمية ، ما جعله ممثلا للسلطة المدنية . وما حدث من تدمير

(١) Ibid : P. 293.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 293.
Diehl & Marcais op. cit. p. 544.

نظام الثغور ، ليس إلا دليلا على تفكك نظام الحكومة ، الذى قامت عليه عظمة بيزنطة فى القرون السالفة(١) .

وما حدث من اضطراد تضاؤل عدد الجنود الوطنيين ، أدى إلى كثرة عدد الجند المرتزقة ، فأشبه ذلك بما حدث فى الأزمنة السابقة على زمن هرقل . غير أنه حل مكان القوط ، فى الخدمة العسكرية عند بيزنطة النرمان والروس . فالمحارب الروسى ، والمحارب السكنديناوى ، كالبطل الأسطورى هارالد ، قاتلا فى صقلية تحت لواء مانياكس . وأضحى الورنك يؤلفون فعلا الحرس الإمبراطورى ، على الرغم من أنهم لم يعودوا يجندون من روسيا ، مثلما حدث زمن باسيل الثانى ، غير أنه منذ السبعينات بالقرن الحادى عشر ، بلغ من كثرة استخدام الإنجليز ، أن حل مكان الحرس الورنكى الروسى ، فرقة إنجليزية ورنكية . أما الحرس النرمندى ، فحل مكان الكتائب القديمة التى تألف منها الحرس البيزنطى ، التى أخذت تختفى(٢) .

ثورة جورج مانياكس سنة ١٠٤٣م :

ما كاد قنسطنطين مونوماكوس ، يتولى العرش سنة ١٠٤٣ ، حتى اندلعت ثورة حربية . كان جورج مانياكس ، من أنبه قادة الجيش البيزنطى . ففى زمن رومانوس الثالث ، استولى على الرها سنة ١٠٣١ ، ونقل إلى القسطنطينية ما احتفظت به من الآثار الدينية المقدسة ، ومن أشهرها الرسالة التى وجهها السيد المسيح إلى الأبجر ملك الرها(٣) . ثم قام فى سنة ١٠٣٨ ، بمحاولة لاسترداد صقلية من يد المسلمين ، وكان بصحبة الأمير السكنديناوى ، هارالد هاردرادا ، الذى خدم بالحرس الإمبراطورى فى بيزنطة . وأحرز مانياكس انتصارات ، فاستولى على سيراكوز ، بعد معركة رمطة سنة ١٠٤٠ . وكاد يستولى على بالرم ، لولا أن فاجأه الإمبراطور بالعزل . ثم عاد إلى إيطاليا

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 293.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 293.

(٣) Diehl & Marcais : op. cit. p. 545.

سنة ١٠٤٢ ، لتوطيد الأمن والسلام بها ، والقضاء على ما يثيره من الفتن ، اللومبارديون والنرمان . ولما تولى مونوماكوس العرش سنة ١٠٤٢ ، أحس بما يدبر ضده فى البلاط من مؤامرات ، وشعر بما يتعرض له من خطر العزل ؛ فعزم على إعلان الثورة(١) . إذ أن رومانوس سكليروس ، شقيق سكليرينا ، تولى أرفع المناصب بفضل مونوماكوس . ولما يكنه من عداوة شديدة نحو مانياكس ، ألح على الإمبراطور قنسطنطين مونوماكوس ، أن يستدعى مانياكس . وفى أثناء ذلك ، أنزل سكليروس الخراب بممتلكات مانياكس ، وأساء معاملة زوجته . ولما اشتهر به مانياكس من سرعة الإثارة ، وشدة التبرم بهذه الأعمال ، رفع لواء الثورة ، يسانده فى ذلك عساكره ، فلقى مصرعه القائد الذى بعث به الإمبراطور ليحل مكانه . ثم قرر الزحف على القسطنطينية ، وتنصيب نفسه إمبراطوراً ، فأبحر فى فبراير سنة ١٠٤٣ ، وهبط إلى دورازو ، ومنها تقدم إلى سالونيك ، وكان يأمل فى أن ينحاز إليه الصربيون ، الذين أنزلوا الهزيمة بجيش بيزنطى ، ثم التقى عند أوسترافو Ostravo ، فى مقدونيا العليا ، بالقوات البيزنطية ، وتراءى له كأن النصر حليفه ، لولا أن أصابه سهم طائش ، أودى به ، وبذلك نجت الإمبراطورية(٢) .

ثورة تورنيكيوس سنة ١٠٤٧م :

ما كاد يمضى على هذه الثورة أربع سنوات ، حتى وقعت فتنة أخرى سنة ١٠٤٧ ، كان بطلها قائداً آخر اسمه ليو تورنيكيوس Thornikios . وامتازت هذه المحاولة بصفتها المقدونية الأصل . فبالإضافة إلى ما يكنه الجيش من كراهية لرجال الإدارة المدنية ، المناهضين لقادة الجيش ، أعلنت

(١) Diehl & Marcais : op. cit. p. 548.
Ostrogorowski : op. cit. p. 294.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 110.
Diehl & Marcais : op. cit. p. 545.
Ostrogorowski : op. cit. p. 294

الأقاليم معارضتها للحكومة المركزية بالقسطنطينية(١). والواضح أن الإمبراطور قنسطنطين لم يحفل بالدفاع عن الإمبراطورية ، فأغفل أمر الجيش ، وتزايد استنفاد مالية الخزانة . واشتد تذمر الناس ، لاسيما بعد أن حاقت بالدولة الأخطار من الشرق والغرب. ونشبت الثورة فى أدرنه ، بين القادة العسكريين الذين طردهم قنسطنطين من الخدمة ، أو أغفل ترقيتهم ، وكان تورنيكيوس موضع محبة الناس وتقديرهم ، فتولى قيادة هؤلاء المتذمرين(٢) . وينتمى تورنيكيوس إلى أسرة بقراط الأرمنية ، التى كان منها ملوك أرمينيا ، وهو ابن عم الإمبراطور ، وتعلق بحب شقيقته ، فاشتدت كراهيته له ، فأخرجه من العاصمة ، وولاه حكومة بعض الثغور ، ثم أرغمه على أن يلزم الدير ، وأعلن تمرده ، وتولى قيادة الحركة التى سادت فى الجيش منذ مدة طويلة ، فاجتمع المتآمرون فى أدرنة ونادوا بقائدهم تورنيكيوس إمبراطوراً ، ثم توجهوا إلى القسطنطينية على رأس جيش من مقدونيا(٣) . وعندئذ نشط الإمبراطور قنسطنطين فى إمداد حامية العاصمة ، التى تبلغ نحو ألف مقاتل ، بالسلاح ، وأصدر الأوامر باستدعاء القوات الإمبراطورية من أرمينيا(٤) . ولو أن تورنيكيوس ، الذى بلغ أسوار القسطنطينية ، بذل أدنى جهد ، لكان بوسعه أن يظفر بالإمبراطورية ، غير أنه أقام تحت أسوار المدينة ، دون أن يؤدى عملا ، أو يباشر قتالا ، لما كان يأمله من أن سكان المدينة سوف ينادون به إمبراطوراً ، دون إراقة دماء . وفى تلك الأثناء ، دأب قنسطنطين على العمل والنشاط ، فوزع الأموال على عساكر عدوه ، فجذب بذلك إلى جانبه كثيراً من القادة والرجال ، وصار فى وسعه أن ينتظر قدوم الجيش من

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 294.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 110.
Ostrogorowski : op. cit. p. 294.
Diehl & Marcais : op. cit p. 546.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 111.
(٤) Ibid : p. 111.

الشرق ، والكتائب البلغارية التى طلبها . ولما وصل الجيش من أرمينيا فى ديسمبر سنة ١٠٤٧ ، ووثق الإمبراطور من النصر ، لم يشأ أن يريق الدماء ، وإنما قهر الجيش المعادى بما لجأ إليه من الرشوة ، وبما بذله من الوعود ، فضلا عن نفاد الأقوات عند جيش تورنيكيوس فتخلى عنه العساكر ، ووقع آخر الأمر فى الأسر ، تورنيكيوس ومساعده فاتاتزس Vatatzes ، وتقرر سمل عيونهما فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٠٤٧ ، ثم قضيا نحبهما بعد زمن قصير(١) .

الانشقاق الدينى :

وقبيل نهاية حكم قنسطنطين التاسع ، وقع الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وهو حادث بالغ الأهمية ، والواقع أن الأحداث السابقة ، جعلت الانشقاق النهائى بين كنيستى روما والقسطنطينية أمراً قريب الحدوث . إذ اتخذ الشرق والغرب فى تطورهما طريقين مختلفين ، وظل العالم المسيحى قروناً عديدة ، يمزق وحدته الاختلاف السياسى والثقافى ، فبدا كأن كل شىء يعارض فى الاحتفاظ بكنيسة عالمية واحدة(٢) .

وما حدث من النزاع الدينى حول زواج الإمبراطور ليو السادس للمرة الرابعة ، أدى إلى وقوع الشقاق مع روما ، لما بذله البابا وبطاركة الشرق من مساعدة وتأييد للإمبراطور البيزنطى ، وترتب على ذلك ، عزل ميستيكوس عن البطريركية ، وتنصيب ايثيميوس Euthymius مكانه ، فوقع الانشقاق فى الكنيسة اليونانية(٣) . غير أنه لم يلبث أن ظهر حزبان بين رجال الدين البيزنطيين ، اتخذ أحدهما جانب ميستيكوس فى معارضة زواج

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 111.
Diehl & Marcais : op. cit, p. 546.
Psellus : op. cit, VI, 120 — 122. pp. 162 — 164.
(٢) Ostrogorowski : op. cit. pp. 295 — 296.
Runciman : The Eastern Schism. p. 34.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 257.

الإمبراطور البيزنطى للمرة الرابعة ، وأنكر تعيين البطريرك الجديد . أما الحزب الآخر ، وهو أقلية ، فوافق على قرارات المجلس الذى انعقد بالقسطنطينية ، وأقر زواج الإمبراطور ليو ، وامتد هذا النزاع إلى الأقاليم ، فلم يسع ليو السادس أن استدعى سنة ٩١٢ ميستيكوس من منفاه ، وأعاده إلى منصبه[١] .

وفى سبيل إعادة الهدوء والسكينة للديانة الإمبراطورية ، حاول ميستيكوس أن يعيد العلاقات الودية مع روما ، بعد انقطاعها بسبب موافقة البابا على زواج ليو السادس[٢] ، فوجه إلى البابا أنستاسيوس ، مذكرة ، شهر فيها بالإمبراطور ليو السادس ، وأنكر ضعف البطريرك سرجيوس الثالث ، الذى ضلل به مندوبوه . ولما توفى الكسندر سنة ٩١٢ ، صار البطريرك ، صاحب السلطة المطلقة سنوات عديدة ، غير أن زوى نجحت سنة ٩١٣ فى عزله عن البطريركية ، ولكنها لم تستطع أن تعيد ايثيميوس إلى منصب البطريركية[٣] .

ثم صدر سنة ٩٢٠ قرار من مجمع القسطنطينية ، يعتبر الزواج للمرة الرابعة باطلا ، لمخالفته قرارات الكنيسة ، ولأنه ليس مقبولا فى العالم المسيحى ، ولم يرد فى هذا القرار إشارة إلى ليو السادس . ثم هدأ النزاع الدينى بسبب ما استولى على نفوس الناس من الخوف من الحرب مع بلغاريا ، وثورة رومانوس ليكابيتوس[٤] ، ثم عادت العلاقات الودية بين روما والقسطنطينية ، واستجابت كنيسة روما لآراء ميستيكوس ، وفى سنة ٩٢٥

---

(١) Vasiliev : op. cit. pp. 333—334.
Camb. Med. Hist. IV. p. 257.

(٢) Camb. Med. Hist., IV. p. 257.
Vasiliev : op. cit. p. 334.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 257.

(٤) Ibid : p. 257.
Vasiliev : op. cit. p. 334.

صار للإمبراطور ليكابيتوس السيطرة التامة على الكنيسة[١] .

ثم بلغت حركة الحجاج ذروتها فى القرن العاشر الميلادى ، فباستيلاء البيزنطيين على جزيرة كريت سنة ٩٦١ ، صار شرق البحر المتوسط مأموناً للسفن البيزنطية المسيحية . ولما سقطت أنطاكية سنة ٩٦٩ فى يد البيزنطيين ، أضحت بيزنطة تسيطر على شمال سوريا ، بينما خضع جنوب الشام وفلسطين لحكم الفاطميين الذين اشتهروا ، باستثناء الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، بالتسامح الدينى والمودة والصداقة ، والحرص على الإفادة من المزايا المالية التى تعود عليهم ، من التجار والزائرين المسيحيين ، واستقر بالبلاد الشرقية جاليات من التجار الإيطاليين[٢] . وما حدث من تأليف الحرس الإمبراطورى من الورنك ، وثق علاقة بيزنطة بالغرب ، فازداد عدد القادمين من الحجاج من الغرب ، لزيارة مشاهد ومعالم الأراضى المقدسة ، وتوقف كثير منهم بالقسطنطينية لزيارة معالمها وما احتوته من المقدسات الدينية . وترتب على إعادة فتح البلقان فى القرن الحادى عشر الميلادى ، أن تهيأ للحجاج طريق برى معتدل النفقات . فلم يعد الحاج القادم عن طريق كرواتيا و المجر ، يجتاز سوى حدين يفصلان بين وسط أوربا وفلسطين ، وأضحت أنطاكية وبيت المقدس وثيقة الصلة بالغرب ، وتجددت علاقة الإسكندرية بالمسيحيين فى الغرب ، بعد أن انقطعت فترة طويلة[٣] .

ثم أصدر الإمبراطور نقفور فوقاس سنة ٩٦٤ ، مرسوماً يقضى بمنع إنشاء أديرة جديدة ، نظراً لما غلب على الأديرة من الجشع وحب المال ، واقتناء الضياع والبساتين ، ومخالفة ذلك لتعالم الرسل وآباء الكنيسة ، ونهى أيضاً عن بذل المنح ووقف الأراضى للإنفاق منها على الأديرة والمستشفيات والدور والأساقفة[٤] .

---

(١) Ibid: p. 335. Camb. Med. Hist. IV. p. 249.

(٢) Runciman : The Eastern Schism. p. 35.

(٣) Ibid : p. 85.
Camb. Med. Hist. IV. p. 249.

(٤) Vasiliev op. cit. p. 336.

أثار هذا القانون سخط السكان لما اشتهروا به من التدين والتقوى ، فأمر باسيل الثانى بإلغائه ، واعتبره اعتداء ، لا على الكنائس والمستشفيات فحسب ، بل إنه أثار غضب الله ، وأعاد ما أصدره باسيل الأول وليو السادس من قوانين الأديرة . ومن الأسباب التى حملت باسيل الثانى على إلغاء قانون نقفور ، أنه جلب على الإمبراطورية غضب الله ، فأشرفت على التداعى والانهيار فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، بسبب ما تعرضت له من مشاكل داخلية وخارجية(١) .

على أن نقفور فوقاس اتخذ خطوة هامة فى توطيد النظام الكنسى البيزنطى ، فى الممتلكات البيزنطية بجنوب إيطاليا ، أى فى أبوليا وكالابريا ، حيث ازداد النفوذ البابوى ، فى النصف الثانى من القرن العاشر ، لا سيما بعد تتويج الملك الألمانى أوتو الأول ، إمبراطوراً ، ونمو سلطان اللومبارديين فى الأطراف الجنوبية من إيطاليا(٢) . أمر نقفور فوقاس ، عن طريق البطريرك ، بمنع الشعائر اللاتينية فى أبوليا وكالابريا ، على أن يجرى مكانها طقوس الكنيسة اليونانية ، وأدى هذا الإجراء إلى التباعد بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية . ففى السنوات الأخيرة من حكم نقفور ، صار البابا يخاطب الإمبراطور ، على أنه « إمبراطور اليونانيين » ، بينما انتقل إلى أوتو الألمانى لقب « إمبراطور الرومان » ، الذى يعتبر اللقب الرسمى للملوك البيزنطيين . ومن الملحوظ أيضاً أن محاولة نقفور اعتبار الجنود الذين يسقطون فى القتال ضد الكفار شهداء ، صادفت معارضة شديدة عند البطريرك والأساقفة ، فتخلى الإمبراطور نهائياً عن هذه المحاولة(٣) .

أصبحت البابوية وقتذاك أداة فى يد القوى التى تنافست على حكم إيطاليا ، كالجرمان (الألمان) واللومبارديين والبيزنطيين ، وكادت تفقد ما لها من سلطة أدبية ، ولم يعد فى وسع رهبان ستوديون أن يركنوا إلى البابوية(٤) .

---

(١) Ibid: p. 336.

(٢) Ibid: p. 336.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 336.
Camb. Med. Hist. IV. p. 261.

(٤) Camb. Med Hist. IV. p. 259.

وكلما ازداد ضعف البابوية ، ارتفع شأن بطريرك القسطنطينية . ولا شك أن هذه الرفعة ترجع إلى ما اتخذته الأسرة المقدونية من سياسة التوسع ، إذ أن نمو سلطة بطريركية القسطنطينية ، لم يسهم فيه فحسب انتصارات نقفور فوقاس ، وحنا زمسكيس ، وباسيل الثانى ، بل يرجع أيضاً إلى نجاح البعثات التبشيرية فى بلاد الصقالبة ، لاسيما تحول الروس إلى المسيحية ، وتنظيم الكنيسة الروسية على يد رجال الدين اليونانيين ، وخضوعها لبطريركية القسطنطينية . يضاف إلى ذلك ما حدث من خضوع كنيسة بلغاريا ، بعد انهزامها على يد باسيل الثانى سنة ١٠١٨ ، لبطريرك القسطنطينية ، وتوثيق روابط الاتحاد بين الكنيستين اليونانية والأرمنية . وفى مستهل القرن الحادى عشر ، انتقل من يد الفرنجة إلى أيدى الأباطرة البيزنطيين ، أمر حماية الأماكن المقدسة والسكان المسيحيين فى فلسطين(١) .

وبينما اجتاح كنيسة روما الشقاق والسيمونية ومحاباة الأقارب ، ارتفع شأن بطريركية القسطنطينية باعتبارها الزعيمة الروحية فى الشرق . وعلى الرغم من أن البطاركة كانوا أول الأمر رهباناً ، بل إن بعضهم جاء من دير ستوديون ، فإنهم درجوا على احتقار البابوية ، وحرصوا على أن يستقلوا فعلاً عن روما(٢) .

لم يحفل البيت المقدونى بالإبقاء على العلاقات الودية مع روما ، بعد رسوخ نفوذ بيزنطة الدينى عند الروس والصقالبة ، فاختفى منذ زمن البطريرك سرجيوس (٩٩٩ — ١٠١٩) اسم الباب من الدبتيخن (محفوظات الكنيسة) . ثم جرت محاولة للتوفيق بين الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٠٢٤ ، على أساس اقتسام السلطة بينهما ، فتعترف روما بكنيسة القسطنطينية ، ككنيسة عالمية (مسكونية) ، فى نطاق مجالها(٣) ، على أن هذه المحاولة للوصول إلى اتفاق ،

---

(١) Bréhier : L'Eglise et L'Orient au moyen âge.
Les Croissades, pp. 38—39.
Camb. Med. Hist. IV. p. 259.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 259.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 297.

طغت عليها الروح الجديدة لحركة الإصلاح فى الغرب . أما تحديد مناطق النفوذ فإنه نجم عن انشقاق عنيف بين الكنيستين[١] .

فالمعروف أن الحركة الجديدة ، وهى المعروفة بالحركة الكلونية التى اعتنقها رجال الإكليروس فى غرب أوربا ، نمت وتطورت ، تحت حماية ورعاية البابا مباشرة . وكانت هذه الحركة ترمى إلى إصلاح الكنيسة ، وإلى رفع روحها المعنوية ، وتوطيد نظامها ، والقضاء على الصفات والتقاليد والعادات الدنيوية التى تغلغلت فى حياة الكنيسة (مثل السيمونية وزواج القسس والتقليد العلمانى) . فأينما توجه المدافعون عن هذه الحركة ، جعلوا الحياة الروحية تعتمد مباشرة على البابا[٢] .

اشتد اهتمام البيزنطيين بهذه الحركة التى نفذت إلى جنوب إيطاليا . ففى سنة ١٠٢٤ ، كتب البطريرك يوستاثيوس Eustathius ، يسانده الإمبراطور باسيل الثانى ، إلى البابا حنا التاسع عشر ، أن حان الوقت لإجراء التسوية النهائية للعلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية ، واقترح صيغة لهذه التسوية نصها « بناء على موافقة أسقف كنيسة روما ، يصبر لكنيسة القسطنطينية فى دائرة نفوذها ، من صفة العالمية (المسكونية) ، ما لكنيسة روما فى العالم » ، والواضح أن البطريرك قصد الاعتراف باستقلال كنيسته ، واعترف بما لكنيسة روما من الصدارة ، فتبقى المحكمة الصالحة ، التى يصح الرجوع إليها فى التحكيم ، والاستئناس برأيها[٣] .

الواقع أن البطريرك كان يرمى من وراء ذلك ، إلى أن يبسط سلطانه على الكنائس الواقعة فى الممتلكات البيزنطية بجنوب إيطاليا ، حيث ظهرت بوادر الاضطراب . ولما كانت الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك فى أوج قوتها ، بينما هوت البابوية إلى الحضيض ، ظن البطريرك أن اقتراحه سوف يصادف

(١) Ibid : p 297.
(٢) Vasiliev : op. cit. p. 338.
(٣) Runciman. op. cit. p. 36.

قبولا ، والواقع أن البابا حنا التاسع عشر وافق عليه . فبادر الكلونيون إلى إعلان احتجاجهم ، وإظهار سخطهم لما أقدم عليه البابا . فكتب رئيس دير St. Benignus فى ديجون ، يعنف البابا ، لافتقاره إلى الحزم والقوة فى إدارة الكنيسة العالمية ، ويذكره بأن إرث القديس بطرس (البابوية) ليس قابلا للتقسيم ، على حين أن الإمبراطورية يصح أن يقسمها حكام عديدون . فسحب البابا موافقته ، وترتب على ذلك ، أن انقطع ذكر اسمه فى دبتيخن القسطنطينية ، ولم يرد فى قرار مجمع الأساقفة سنة ١٠٢٥[١] . ومع ذلك ظلت الكنائس اللاتينية بالقسطنطينية مفتوحة ، يؤمها الورنك والحجاج اللاتين ، وقام على جبل آتوس دير لاتينى للأمالفيين[٢] ، كما اعترف البابا بالسيادة الكنسية لبيزنطة على كنيسة بارى وما يتبعها من الأسقفيات[٣] . ومع ذلك ساد الفتور بين البابا والبطريرك ، وأخذ الموقف فى التوتر ، ولم تلبث الأحداث السياسية أن زادت الموقف إثارة وحدة[٤] .

المعروف أن كان للإمبراطورية البيزنطية ، من الناحية الإسمية ، السيادة على كل إيطاليا ، جنوب خط وهمى يمتد من تراشينا Terracina على البحر التيرانى ، إلى تيرمولى Termoli على بحر الأدرياتى . وفى داخل هذه الرقعة من الأرض ، تقع إمارتان لومبارديتان ، سالرنو وكابوا — بنيفنتو ، ولم يحفل أميراهما بأن ينتميا لأحد من السيدين ، بيزنطة أو الإمبراطورية الغربية وبهذه المنطقة أيضاً ثلاث مدن تجارية مستقلة : جائيتا ، ونابولى ، وأمالفى ؛ لم يلتزم منها بواجب التبعية نحو السيد الأعلى (بيزنطة) ، إلا أمالفى ، نظراً لما يعود عليها ، مقابل ذلك ، من امتيازات تجارية . يضاف إلى ذلك إقليمان يخضعان مباشرة للحكم البيزنطى ، وهما كالابريا ، التى يسود فيها العنصر

(١) Runciman : op. cit. pp. 36—37.
Camb. Med. Hiat. IV. p. 262.
(٢) Runciman : p. 37.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 263. Gay : op. cit. p. 427.
(٤) Runciman : p. 37.

اليونانى ، وأبوليا (لانجوبارديا) حيث غلبت الصفة اليونانية على بعض المدن مثل بارى حاضرة أبوليا ، بينما ساد العنصر اللومباردى واللغة اللاتينية فى الريف[1] .

لم يحاول بطريرك القسطنطينية أن يفرض سيادته على الإمارات اللاتينية ، على الرغم من وجود الكنائس اليونانية فى نابولى وأمالفى . أما أبوليا فكان لها شأن آخر مختلف ، إذ قام بها جنباً إلى جنب ، كنائس لاتينية وكنائس يونانية . وبينما تطلع اليونانيون إلى القسطنطينية يلتمسون النصح والإرشاد ، لم يسع اللاتين إلا أن يتوجهوا نحو روما القريبة من بلادهم[2] .

لم يترتب على ثورة ميلوسنة ١٠٢٠ فى أبوليا ضد بيزنطة ، إلا بقاء النرمان الذين ساندوه ، فى إيطاليا ، وكثر قدومهم من شمال فرنسا . ومنذ سنة ١٠٤٠ ، شرعت أسرة هوتفيل النرمندية Hauteville ، فى اتخاذ خطة منظمة للاستيلاء على كل جنوب إيطاليا ، وانتزاعه من البيزنطيين واللومبارديين . على أن الإمبراطور الألمانى هنرى الثالث كان حريصاً على إصلاح كنيسة روما ، فعهد سنة ١٠٤٨ بالبابوية ، إلى ليو التاسع ، وترك له حرية التصرف ، بينما انصرف إلى تسوية المشاكل فى ألمانيا[3] والمعروف أن ليو التاسع حرص على أن يمتد الإصلاح إلى الكنيسة ، وأن تكون للبابوية السيادة العالمية[4] .

وما تعرضت له أملاك البيزنطيين والبابا فى إيطاليا من خطر النرمان ، أدى إلى التقارب بين الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين التاسع ، والبابا ليو التاسع ، غير أن بطريرك القسطنطينية ، حرص على مقاومة فكرة التحالف بينهما[5] .

(١) Runciman : op. cit. p. 37.
(٢) Ibid : p. 38.
(٣) Runciman : op cit p. 38.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 264
(٥) Runciman : op. cit. p. 39.

على أنه حدث فى الوقت الذى تولى فيه ليو التاسع البابوية ، والذى اشتهر بإحياء السلطة البابوية ، أن شغل كرسى البطريركية بالقسطنطينية ، رجل لا يقل صلابة عن ليو التاسع ، وهو ميخائيل كريولاريوس ، الذى خلف الكسيوس على البطريركية سنة ١٠٤٣ . وهو ينتمى إلى أسرة من النبلاء ، شغل أفرادها وظائف حكومية ، واستقرت منذ زمن طويل بالقسطنطينية . ونظراً لما تقرر له أن يشمل وظائف مدنية كبيرة ، مثلما فعل أسلافه ، نال هو وأخوه ، حظاً كبيراً من التعليم . غير أنه حدث ، سنة ١٠٤٠ ، أن جرى اتهامه بتدبير مؤامرة ضد الإمبراطور ميخائيل الرابع ، والطواشى حنا أورفانوتروفس Orphantrophus ، فتقرر اعتقاله مع أخيه ، وحبسهما فى جزائر الأمراء . ولما لم يستطع أخوه أن يعانى مرارة الحبس والاعتقال ، أقدم على الانتحار ، فاشتد حزن كريولاريوس عليه ، واتخذ طريق الرهبنة أثناء مقامه بالمنفى ، ومن ثم تحددت آماله وأطماعه ، فصارت قاصرة على الترقى فى سلك الكنيسة[1] . ثم قدم بعد سنة ١٠٤١ إلى القسطنطينية ، بناء على دعوة الإمبراطور قنسطنطين التاسع ، فحباه بعطفه ، وجعله مستشاراً له . ثم لم يلبث كريولاريوس أن صار فى سنة ١٠٤٣ بطريركاً .

ويصور كريولاريوس ، معاصروه ، لا سيما المؤرخ بسيللوس ، على أنه شخص متين الخلق ، شديد الطموح ، حريص على أن يكون له نصيب كبير فى إدارة الكنيسة ، والحكومة أيضاً . ولما اتصف به كريولاريوس من الصلابة ؛ لم يغفر لحنا أورفانوتروفس سوء معاملته ، فأمر بسمل عينيه سنة ١٠٤٣[2] .

كتب عنه بسيللوس ، يكفى أن يتحدث البطريرك ، حتى يضطرب الناس ، ويكفى أن يعبس ويكفهر وجهه ، حتى يرتعد الناس ، ولما اشتهر به من شدة التمسك بمشروعاته ، ولما عرف عنه من الإمعان فى الكراهية ، وأنه لا ينسى أو يغفر ذنباً من الذنوب ، أحب السيطرة والزعامة ، وأنكر عليه بسيللوس

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 297.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 265.

« ميله للسلطان والقوة والرغبة فى التسلط على الجميع ، ودعواه فى أن فى استطاعته أن يثير السماء وأوليمب ، إذا تقطب وجهه أو عبس واكفهر » . وأصر كريولاريوس على أن يكون نداً وسوياً للإمبراطور ذاته ، فى كل السلطات العامة ؛ من الناحية السياسية ، مثلما كان شأنه فى الناحية الدينية . ولاعتزازه بنفسه ، لم يرض بصدارة كنيسة روما ، فاغتنم أول فرصة كيما يستأنف النضال ضدها ، بعد أن جرّت مهادنتها منذ القرن التاسع من الأذى والضرر ، فإذا لم تسنح الفرصة ، فلا بد أن يعمل على إتاحتها بكل ما لديه من وسائل[1] .

ومنذ أن تولى كريولاريوس البطريركية ، اتخذ نحو الإمبراطور البيزنطى سياسة لم يألفها من البطاركة من قبل ، إذ لم يعتبر نفسه من سائر الناس المستذلين الضعفاء ، بل إن له من السلطة والنفوذ ما للإمبراطور ذاته ، فشعر الإمبراطور قنسطنطين ، فيما يبدو ، بالخوف منه . ومن الدليل على ذلك أن الإمبراطور لم يقدم على الزواج من جاريته اللانية ، بعد وفاة الإمبراطورة زوى ، برغم حبه العميق لها[2] ؛ يضاف إلى ذلك أن كريولاريوس نال من محبة سكان القسطنطينية ، ما جعله يفوق الإمبراطور فى التأثير عليهم[3] .

هذا هو الرجل ، الذى شاءت المقادير أن يواجه البابا ليو التاسع ، الذى اشتهر بالحرص على إصلاح الكنيسة ، وعلى أن تكون لها السيادة العالمية . فإذا التقى هذان الرجلان فلا بد أن ينشب بينهما النضال[4] . على أنه لابد أن ندرك أن كريولاريوس كان يدرى بما وقع من الأحداث الأخيرة فى روما ،

---

(١) Diehl & Marçais : op. cit. p. 549.
Brehier op. cit. p. 75.
Psellus : Accusation de l'Archevé que devant le Synod, 63. Revue des Etudes. Grecques XVII. 1904. (Extrait L. Bréhier Un discours inédit de Psellus. Paris. 1904. p. 74.)
Camb. Med. Hist. IV. p. 265.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 265.
(٣) Runciman : op. cit. p. 40.
(٤) Camb. Med. Hist IV. p. 266.

واستخلص منها ما كان لإمبراطور الغرب من سلطة فى تعيين وعزل البابوات ، وما ترتب على ذلك من الاستخفاف بالبابوية . يضاف إلى ذلك أنه يكن الكراهية لأرجيروس اللومباردى ، الذى دخل فى خدمة الإمبراطورية البيزنطية وتولى قيادة جيوشها فى إيطاليا ، وذلك نظراً لما كان له من تأثير على الإمبراطور قنسطنطين التاسع ، ولمكانة أسرته بين اللومبارديين ، ولما اتصف به كريولاريوس من تفكير سليم ، كان حريصاً على أن يدخل فى بطريركيته أمر توحيد الشعائر والطقوس[1] ؛

تهيأت الفرصة لوقوع الانشقاق بين كنيستى روما وبيزنطة ، حينما التقت فى جنوب إيطاليا ، هاتان القوتان (البطريرك والبابا) . فالمغامرون من النرمان الذين بادروا إلى تأييد ثورة اللومبارديين ضد الإمبراطورية البيزنطية ، لم يتوانوا عن العمل لمصلحتهم الخاصة . فعاثوا فساداً فى إقليم أبوليا الخصيب ، ولحرص البابا ليو التاسع ، على أن يضع حداً لهذا التخريب ، بعد أن فشل فى الالتجاء إلى الأسلحة الروحية ، حشد جماعات من العساكر لمهاجمة النرمان ؛ ولما كانت مصالح البابا فى هذه الجهات تتفق مع مصالح الحكومة البيزنطية ، تقرر فى أواخر سنة ١٠٥١ ، عقد محالفة عسكرية بين البابا وبين أرجيروس اللومباردى ، قائد القوات البيزنطية فى جنوب إيطاليا[2] .

انعقد هذا التحالف على غير هوى البطريرك كريولاريوس ، الذى كان حريصاً على توطيد سيادة القسطنطينية فى جنوب إيطاليا ، وخشى أن يلجأ البابا ليو التاسع ، إلى إعادة سلطة روما وسيطرتها على أسقفيات أبوليا ؛ ففى تلك السنة أيضاً ، ١٠٥١ ، قام سكان بنيفنتو بطرد أميرهم ، والتمسوا سيادة البابا ورعايته ، فبعث إليهم بمندوبين عنه ، هما الكاردينال همبرت Humbert ، وبطريرك جرادو Grado[3] . واشتهر همبرت بسعة اطلاعه ، وسلامة

---

(١) Runciman : op. cit. p. 40.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 266.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 266.

عقيدته ، وحدة مزاجه ، وشدة صلابته ، فضلا عن كراهيته لليونانيين (البيزنطيين)[1] ؛ فأضحى التصادم مؤكدا بين ميخائيل كريولاريوس وهمبرت ، لما عرف عن كل منهما بالاستخفاف ، والعناد ، واللجاجة فى الخصومة[2] .

نشبت المناظرة بين كريولاريوس وهمبرت ، على الرغم من إرادة الإمبراطور البيزنطى ، قنسطنطين التاسع ، ودون اكتراث لما للموقف السياسى من أغراض ملحة ، وجرت فى جنوب إيطاليا ، التى تصادم بها دائماً مصالح الكنيستين الشرقية والغربية ، بل على التحديد ، حيث صار التفاهم بين روما والقسطنطينية بالغ الأهمية ، بسبب غارات النرمان . غير أنه متى خضع للنقاش والجدل أمور العقيدة والمذهب ، صار الأمل فى الاتفاق بعيد الوقوع[3] .

ظهرت من جديد المسائل القديمة التى أقلقت عقول الناس منذ أيام فوتيوس ، مثلما حدث فى الغرب ، من تعاليم الانبثاق المزدوج للروح القدس ، وصيام السبت ، ومنع زواج القسس ، واستخدام الخبز غير المخمور فى العشاء الربانى فى الكنيسة الرومانية ، والخبز المخمور فى الكنيسة البيزنطية[4] .

ويتضح من الرسائل المتبادلة بين البطريرك والبابا ، أن أرجيروس غادر إيطاليا سنة ١٠٤٦ ، وقدم إلى القسطنطينية ، حيث مكث بها حتى سنة ١٠٥١ ، فلقى استقبالا حافلا من الإمبراطور ؛ وكان من أعضاء مجلسه الخاص ، حينما نشبت ثورة ليو تورنيكوس سنة ١٠٤٧ . وحدث وقتذاك شجار بينه وبين البطريرك ، بسبب النزاع على الشعائر الدينية ، لاسيما ما يتعلق منها باستخدام

---

(١) Runciman : op. cit. p. 44.
Ostrogorowski : op. cit. p. 297.
(٢) Ibid : p. 297.
(٣) Ibid : p. 297.
(٤) Camb. Med. Hist IV. p. 266.
Runciman : op. cit. p. 41.
Ostrogorowski : op. cit. p. 297.

الخبز غير المختمر فى العشاء الربانى[1] .

ويرجع السبب المباشر للجدال والنزاع ، إلى ما كان من الاختلاف بين الإقليمين الإيطاليين اللذين يخضعان مباشرة للحكم البيزنطى ، وهما كالابريا ، حيث ساد فيها العنصر اليونانى ، واصطبغت بالصبغة اليونانية ، أما أبوليا « لانجوباردیا Langopardia » ، فإن الصفة اليونانية غلبت فى بعض المدن مثل بارى ، بينما ساد العنصر اللومباردى واللغة اللاتينية فى الريف[2] . لم يحاول بطريرك القسطنطينية أن يفرض سيادته على الإمارات اللاتينية ، على الرغم من أنه قام فى بعضها ، مثل نابلى وأمالفى ، كنائس يونانية ، وفى أبوليا قامت الكنائس اللاتينية إلى جانب الكنائس اليونانية[3] . ولما قدم أرجيروس إلى القسطنطينية ، أخطر الإمبراطور قنسطنطين التاسع بأحوال جنوب إيطاليا ، ونصح بعقد معاهدة مع البابا ليو التاسع ، ودافع عن سياسة الوفاق والوئام ، والتزم سبيل الحكمة والتعقل نحو الشعائر اللاتينية السائدة فى أبوليا[4] . وعاد أرجيروس إلى إيطاليا سنة ١٠٥١ ، يحمل تفويضاً من الإمبراطور البيزنطى ، بعقد محالفة مع البابا ليو التاسع ، غير أنه حينما أوشك التحالف أن يثمر أخذ كريولاريوس يعلن العداء والكراهية ضد روما ، والواضح أنه اتخذ سياسة مخالفة لسياسة الإمبراطور البيزنطى[5] .

جعل كريولاريوس الاختلاف فى الشعائر الدينية المكانة الأولى ، لأنها أيسر فهماً عند العامة . وساند البطريرك البيزنطى (كريولاريوس) ، الكنائس الأرثوذكسية فى الشرق وبلاد الصقالبة[6] . ولما اكتشف أن النرمان ، بموافقة

---

(١) Runciman : op. cit. p. 41.
Camb. Med. Hist. IV. p. 267.
Camb. Med. Hist. IV. p. 266.
(٢) Runciman : op. cit. p. 37.
(٣) Ibid : p. 38.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 266.
(٥) Ibid : p. 267.
(٦) Ostrogorowski op. cit. p. 297.

البابا ، منعوا ممارسة الشعائر اليونانية فى البلاد الخاضعة لهم ، وأن المجامع الإصلاحية (الكلونية) فى إيطاليا ، أنكرت الالتزام بالطقوس اليونانية ، أمر البطريرك البيزنطى ، بأن تسير الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية وفقاً للشعائر اليونانية . ولما لم تستجب له ، أمر فى نهاية سنة ١٠٥٢ بإغلاقها[١] .
وطلب البطريرك ، إلى ليو رئيس أساقفة أوكريد ورئيس الكنيسة البلغارية ، أن يكتب رسالة إلى حنا أسقف ترانى فى أبوليا ونائب البطريرك بإيطاليا ، يطلب إليه حمل هذه الرسالة إلى البابا وسائر أساقفة الفرنج . وتضمنت هذه الرسالة هجوماً عنيفاً ضد استخدام الخبز الفطير فى القداس ، وإنكار عادة صيام السبت ، وأكل لحم الدابة المخنوقة ، وعدم زواج القسس الذى يعتبر مخالفاً للتقاليد الكنسية[٢] . وهذه الاتهامات ، وما تخللها من إهانات عنيفة ، كانت كفيلة بإثارة مصلحى الغرب ، وداعية إلى اشتداد الخصومة والنضال[٣] .

وبدخول كريولاريوس فى النضال ، تعرض التحالف بين البابا والإمبراطور البيزنطى ، لضربة قاصمة ، إذ أنه قبل أن تجتمع سوياً عساكر المتحالفين ، أنزل النرمان بأرجيروس هزيمة ساحقة فى فبراير سنة ١٠٥٣ ، فغادر أبوليا ، وتوجه صوب الشمال ، وتعرض البابا ليو وجيشه أيضاً لكارثة خطيرة ، فى يونية ١٠٥٣ ، فوقع أسيراً ، فى Civitate ، وتقرر نقله إلى بنيفنتو ، ولم يجد أرجيروس ، سوى حنا أسقف ترانى ، كيما ينفذه إلى القسطنطينية لطلب المساعدة ضد النرمان[٤] .
ومن الطبيعى أن تؤدى هذه الأحداث إلى المراسلات بين البابا والبطريرك . وقدم مندوبون من قبل البابا إلى القسطنطينية ، غير أنه وقع اختلاف فى

(١) Runciman : op. cit. p. 41.
(٢) Ibid: p. 42.
Camb. Med. Hist. IV, p. 267.
(٣) Bregier : Là Schisme Orientale pp. 94—96.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 268.
Runciman : op. cit. p. 42.

ترتيب الأحداث . فوفقا لبعض المصادر ، كتب البطريرك كريولاريوس إلى البابا ، قبل أن يصله منه الرد على رسالة رئيس أساقفة أوكريد ، أى قبل نهاية سنة ١٠٥٣ ، رسالة تنطوى على لهجة ودية ، أظهر فيها حماسة للوحدة بين الكنيستين ، واقترح إقامة تحالف ضد النرمان ، ولم ترد إشارة إلى الطقوس والشعائر التى دار النزاع حولها ، غير أنه خاطب البابا على أنه « أخ » لا « الأب » ، وهو اللقب الذى درج البطاركة على استخدامه للدلالة على اعترافهم بسيادة البابا[١] . ووصل إلى البابا فى الوقت ذاته رسالة باسم الإمبراطور البيزنطى يدافع فيها بإخلاص عن قيام تحالف سياسى وثيق[٢] .
على أن كريولاريوس لم يتلق الرسالتين التى وجههما إليه البابا ، إلا بعد أن أرسل كتابه الذى ضمنه نيته وقصده نحو المصالحة والتوفيق . إذ أن البابا طلب إلى كاتبه ، الكاردينال همبرت ، أن يكتب رسالتين : الأولى يجرى توجيهها إلى كريولاريوس بالقسطنطينية ، وليو فى أوكريدا . واحتوت على بحث تحليلى عن سيادة المقر الرسولى فى روما ، وأشارت إلى منحة قنسطنطين ، التى جعلت فى يدى أسقف روما السلطتين الروحية والزمنية[٣] . وأنكر على البطريركما لجأ إليه من اتخاذ لقب « المسكونى » ، وأثار الشكوك فى صحة انتخاب البطريرك من الناحية القانونية ، واتهمه بانتهاك الحقوق التى حصلت عليها كنيستا الإسكندرية وأنطاكية ، وأشار إلى شدته فى مهاجمة التقاليد اللاتينية ، ولاسيما استخدام الخبز الفطير (غير المخمور) ، وختم خطابه بأنه يأمل فى أن يجد مندوبوه الذين يرسلهم إلى القسطنطينية أن البطريرك قد ثاب إلى رشده .
أما الرسالة الثانية فوجهها إلى الإمبراطور ، يشكو فيها سلوك البطريرك ، ويحذر الإمبراطور بأنه إذا لم يتوقف البطريرك عن مهاجمته ، فلا بد من اتخاذ إجراءات انتقامية . وطلب إليه أن يقدم للمندوبين كل مساعدة[٤] .

(١) Camb. Med. Hist. VI p. 268.
Runciman : op. cit. p. 43.
(٢) Ibid : p. 43.
(٣) Ibid : p. 42. Vasiliev : op cit. p. 338.
(٤) Runciman : op. cit. p. 44.
Brehier : op. cit. pp. 97—109.

على أنه ليس من المحتمل أن يجرى الوفاق بين كل من البطريرك والبابا لشدة صلابتهما وطموح كربولاريوس ، وحرص البابا على إخضاعه . أرسل البابا ثلاثة مندوبين إلى القسطنطينية اختارهم من كبار مستشاريه ، وهم الكاردينال همبرت ، وفردريك اللوريني مستشار كنيسة روما ، وبطرس أسقف أمالفى . واجتمعوا بأرجيروس فى أبوليا قبل رحيلهم ، ونصحهم أرجيروس ألا يتصلوا إلا بالإمبراطور . والمعروف أن الكاردينال همبرت لم يقل غطرسة عن كربولاريوس . كما أساءت هذه النصيحة إلى القضية ، لأن كربولاريوس كان أشد بأساً من الإمبراطور وأكثر منه قبولا عند الناس(١) .

وصل مندوبو البابا إلى القسطنطينية حوالى نهاية أبريل سنة ١٠٥٤ ، فاستقبلهم الإمبراطور استقبالا حافلا ، ثم قاموا بزيارة البطريرك ، فلم يحمد لهم سلوكهم ، إذ ساءه ألا يركعوا له وفقاً للتقاليد البيزنطية ، وحرصهم على أن تكون لهم التقدمة على المطارنة البيزنطيين(٢) .

واعتقد هؤلاء المندوبون ، أنهم لم يقدموا إلى القسطنطينية للمفاوضة ، إنما جاءوا على أنهم محكمون كبار ، وقضاة مكلفون بتسوية مشكلة وشيكة الوقوع . فصاروا يجادلون خصومهم فى صلابة وعنف ، فيما تعرضوا له من الإهانة ، ونجحوا فى أن يحملوا نكيتاس ستيثاتوس Stethatos من رهبان ستوديون ، على أن يتخلى عن رأيه فيما يتعلق بنظرية الانبثاق المزدوج double procession التى يدين بها اللاتين ، وذلك فى يونية سنة ١٠٥٤(٣) .
ورفض كربولاريوس أن يمضى فى المفاوضة مع المندوبين ، على الرغم من تأييد الإمبراطور البيزنطى لهم . وفى ١٥ يوليه سنة ١٠٥٤ ، أقيم قداس فى كنيسة القديسة صوفية ، شهده عدد كبير من الناس ، ثم دخل سفراء البابا ،

(١) Vasiliev : op. cit. p. 338.
Runciman : op. cit. p. 45.
Camb. Med. Hist. IV. P. 269.
(٢) Ibid : p. 269.
(٣) Diehl & Marçais : op. cit. p. 550.

وشقوا لهم طريقاً بين الجميع وتقدموا إلى المذبح ، وأخذوا يحرضون الجمهور على مناوأة البطريرك ، ثم وضعوا على المذبح قرار الحرمان ضد البطريرك وأنصاره . ولا شك أن هذا التصرف الشائن كان من أكبر العوامل التى أدت إلى الشقاق بين روما والقسطنطينية(١) . وفى هذا القرار الذى أمر البطريرك بترجمته إلى اليونانية ، أشار المندوبون إلى أنهم كشفوا فى البطريرك نزعات هرطقية ، ولما لم يكن فى وسعهم أن يخضعوا لهم البطريرك ، ولم يجرءوا على اتخاذ خطوات لعزله ، لجأوا إلى الرأى العام ، على أن هذا الانتصار لم يستمر طويلا . ونظراً لما حازه كربولاريوس من رضى الناس ومحبتهم له ، لم تلبث أن نشبت ثورة فى شوارع العاصمة . فلم يلبث الإمبراطور أن أرسل إلى البطريرك يسترضيه ، ويبرر سلوكه إزاء مندوبى البابا باعتبارهم سفراء ، وأطلق للبطريرك حرية التصرف ، فأمر كربولاريوس بعقد مجمع بالقسطنطينية فى يوليه ١٠٥٤ ، شهده ممثلو الكنائس اليونانية ، وتقرر فيه « قطع المندوبين البابويين ، وكل من يتصل بهم من الناس الذين قدموا إلى القسطنطينية ، كأنهم الرعد أو العاصفة أو المجاعة ، أو الوحوش الضارية كيما يحطموا الحق والصدق(٢) » ثم تقرر إحراق القرار الذى سبق أن أعلنه مندوبو البابا بحرمان البطريرك ، ولم يحتفظوا منه إلا بنسخة واحدة بمحفوظات بطريركية القسطنطينية(٣) .

وعلى هذا النحو وقع الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، والواضح أن بطاركة بيت المقدس وأنطاكية والإسكندرية ، ظلوا على ولائهم للأرثوذكسية ، وساندوا بطريرك القسطنطينية(٤) . وهذا الانشقاق دل على أن فى وسع البطريرك أن يواجه البابا مثلما يواجه الإمبراطور ، ويعتبر مصدر

(١) Ibid : p. 551.
(٣) Vasiliev : op. cit. p. 338.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. P. 272.
(٤) Vsailiev : op. cit. p. 339.

خطر على الإمبراطورية المتداعية(١) . وازدادت سلطة البطريرك فى بلاد الصقالبة والبطريركات فى الشرق(٢). غير أن هذا الانقسام يعتبر من الضربات العنيفة التى حطمت الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية . فمن المحقق أنه دمر كل احتمال لما يصح أن يجرى مستقبلا من تفاهم بين الإمبراطورية البيزنطية والغرب ، نظراً لأن الإمبراطورية البيزنطية فى حاجة ماسة إلى مساعدة الغرب ، ولا سيما بعد أن أخذ السلاجقة يهددون أملاك البيزنطيين فى الشرق(٣) . ويشير المؤرخ Bréhier « إلى أن هذا الانشقاق هو الذى مهد الطريق لسقوط الإمبراطورية البيزنطية ، بعد أن فشلت الجهود المبذولة فى سبيل الوفاق بين إمبراطورية القسطنطينية والغرب »(٤) . وترتب على هذا الانشقاق أيضاً ما حصل من ضياع جنوب إيطاليا ، فلم يعد فى وسع البابوية أن تركن إلى الإمبراطور البيزنطى ، بل اتفق مع النرمان سنة ١٠٥٩(٥) ، البابا نقولا الثانى ، فتقرر الاعتراف بالزعيم النرمانى جويسكارد ، أميراً على أبوليا وكالابريا والإمارات اللومباردية ، على أن يعترف بسيادة البابا ، وأنه إنما يتولى حكم هذه الإمارات من قبل البابا(٦) .

على أن هذا الانشقاق لم يحس به مباشرة إلا رجال الدين والحكومة . أما جمهور الناس ، فإنهم استقبلوا هذا الانشقاق بالهدوء ، بل أكثر من ذلك ، ظلوا زمناً غير قصير لا يدركون التفرقة بين تعاليم كنيسة القسطنطينية وتعاليم كنيسة روما . ومن الدليل على ذلك أنه فى الوقت الذى يقر فيه مطارنة الروس وجهة النظر البيزنطية ، لم يكن لدى سائر الروس ما يجعلهم يناوئون

---

(١) Bréhier : op. cit. p. 235.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 551.
(٢) Vasiliev : op. cit. p. 339.
(٣) Ibid : p. 339.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 237.
(٥) Ibid : p. 273.
(٦) Runciman : op. cit. p. 57.

الكنيسة اللاتينية ، بل إن الأمير الروسى لجأ فى القرن الحادى عشر إلى البابوية لمساندته ضد مغتصب الحكم(١) .

تيودورا (١٠٥٥ - ١٠٥٦) :

مات الإمبراطور قنسطنطين التاسع مونوماكوس ، فى ١١ يناير سنة ١٠٥٥ ، فتولت تيودورا من جديد مقاليد الحكم . وتعتبر تيودورا آخر من بقى من سلالة البيت المقدونى ، إذ انقرض هذا البيت بوفاتها فى سبتمبر سنة ١٠٥٦ . والواقع أن مصير أكبر البيوت الحاكمة فى بيزنطة ، البيت المقدونى ، ليثير الدهشة والغرابة . صادفت تيودورا فى مستهل قيامها بالحكم عقبات شديدة ، عند توطيد ملكها ، ولو لم تقم ببعض الأعمال الجليلة . لما سمع أحد بوفاتها(٢) .

والواقع أن تيودورا ، التى ساندت كريولاريوس وحزبه ، تدين باعتلائها العرش إلى هذا الحزب المعروف بالتآمر . ولعل البطريرك كان يرمى من وراء هذا التأييد للإمبراطورة ، إلى أنه كان يترقب الفرصة الملائمة كيما يثب إلى العرش(٣) . ولم يستمر حكم تيودورا أكثر من ثمانى عشرة شهرا ، ومع ذلك ، فإن الإمبراطورة قاومت كريولاريوس ، وأحبطت كل محاولاته لفرض السيطرة عليها ، بل أكثر من ذلك ، أنكرت أعماله ، وأظهرت فضائحه وشهرت به(٤) . وطردت طائفة من كبار القادة العسكريين ، ومنهم برينيوس Bryenius وكومنينوس Comnenus وأضحت السلطة بيد طواشية القصر(٥) ، وبذلك ظهرت صلابة الإمبراطورة ، وأنه لابد من إطاعة

---

(١) Vasiliev : op. cit. p. 339.
Leib ; Rome, Kiev et Byzante a la fin du XIe, siècle pp. 18—19, 51, 70.
Camb Med Hist. IV. p. 272.
(٢) Ostrogorowski : p. 298.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. pp. 115—116.
(٤) Ibid : p. 116.
Psellus : Chronographia VI. 17, p. 204.
(٥) Camb. Med. Hist. IV. p. 116.

أوامرها . وحاولت تيودورا بكل ما يبذله لها الطواشية من مساعدة ، أن توطد سلطانها ، وتكبح جماح الحزب العسكرى ، الذى عزلت اثنين من كبار زعمائه . وعهدت بتصريف أمور الدولة ، إلى أحد رجال الكنيسة ، وهو ليو باراسبونديلوس Leo Paraspondylus ، الذى اشتهر بالجدارة والكفاية والاستقامة والذكاء ، غير أنه نزع إلى الاستبداد والدكتاتورية . حتى كرهه الناس . وزاد فى فتور تعلق البيزنطيين بالإمبراطورة ، ما اشتهرت به تيودورا من الشح والتقتير ، وما قام به البطريرك كريولاريوس من تدبير المؤامرات[١] . واشتدت ثائرة طواشية البلاط ، حينما أصاب الإمبراطورة المرض ، الذى أودى بها . فبادر ليو باراسبونديلوس إلى دعوة المجلس للانعقاد ، حول فراش الإمبراطورة التى تحتضر ، كيما يجرى اختيار خلف لها على العرش ، فتقرر أن يتولى الحكم ، ميخائيل ستراتيوتيكوس Stratioticus ، وهو بطريق ، متقدم فى العمر ، أمضى حياته فى المعسكرات ، ثم تقاعد ، وكان سهل الانقياد ، فخضع بذلك لسيطرة الحزب المدنى حزب البلاط ، يضاف إلى ذلك أن ما كان له من سلطة على الجيش ، يصح أن يفيد منها هذا الحزب . فتوجه إمبراطورا ، البطريرك كريولاريوس ، عقب وفاة تيودورا مباشرة[٢] . ويعتبر توليه العرش انتصاراً للحزب المدنى ، فازداد شأن السناتوريين ، ونالوا الألقاب وحازوا الهدايا والمنح ، على حين تضاءل شأن العسكريين[٣] .

ثورة سنة ١٠٥٧ :

لم يحكم ميخائيل السادس سوى سنة واحدة (١٠٥٦ — ١٠٥٧) . والواقع أن الأباطرة المتأخرين ، أدركوا أن سلطانهم لن يكون وطيدا ما لم يرض عنهم الحزب المدنى . ولذا حرصوا على اكتساب رضاهم ، واجتلاب

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 116.
(٢) Ibid : p. 116.
(٣) Ostrogorowski : p. 298.

محبتهم وعطفهم ، فأغدقوا عليهم المنح والامتيازات ، ورفعوهم إلى أعلا الوظائف كيما يضمنوا تأييدهم[١] . والمعروف أن سلطة الإمبراطور إنما تستند إلى ثلاثة عوامل : الشعب والسناتو ، والجيش . غير أن الإمبراطور ميخائيل السادس خصّ الحزب المدنى بكل التشاريف والمنح ، واشتد التنافس بين هؤلاء المدنيين ، من أجل الحصول على أعلا الوظائف ، فأثار سخاؤه وبذله الاضطراب والفوضى[٢] .

ولما سمع رجال الجيش بما جرى عليه الإمبراطور من بذل الهبات ، ومنح التشاريف والألقاب ، وترقيتهم إلى الوظائف العليا ، قدموا إلى بيزنطة (القسطنطينية) كيما ينالوا نصيبهم من سخاء الإمبراطور[٣] . أشار بسيللوس إلى أن أبرز قادة الجند فى هذه الحركة ، هما إسحاق كومنين[٤] ، وكاتاكالون كيكاومنيوس Cecaumenus دوق أنطاكية[٥] ، ولم يذكر برينيوس[٦] .

(١) Psellus : Chronographia VII. I. p. 209.
(٢) Ibid : p. 210.
Ostrogorowski : p. 298.
(٣) Ibid : p. 298.
Psellus : p. 210.
(٤) المعروف أن أسرة كومنين جاءت أصلا من كومن Comne بالقرب من أدرنة ، وملكت ضياعاً شاسعة فى منطقة قسطمون Castamon ، بآسيا الصغرى . وهذه الأسرة حكمت الدولة البيزنطية ، منذ أواخر القرن الحادى عشر ، نحو قرن من الزمان . وكان والد إسحاق ، مانويل ايروتيكوس Eroticus ، من أشهر الولاة ، زمن باسيل الثانى . تزوج من ابنة ملك بلغاريا ، وأنجب منها ، ولدين وابنة . ولى إسحاق وأخوه وظيفتين من أعلا الوظائف . انظر Psellus : Chronographia, p. 303.
(٥) أمر الإمبراطور ميخائيل بعزله ، وتعيين ابن أخيه دوقاً على أنطاكية .
Psellus : p. 303.
(٦) كان برينيوس يتولى قيادة الجيش المقدونى ، فى قبادوقيا ، وقد عهد إليه الإمبراطور بقتال الترك السلاجقة . على أنه اشتد سخطه ، حين رفض الإمبراطور أن يعيد إليه ، أملاكه التى انتزعتها منه الإمبراطورة تيودورا ، وجرى اتهامه بالخيانة ، وأمر الإمبراطور بسمل عينيه . ومن القادة أيضاً ، قنسطنطين وحنا دوكاس ، وميخائيل الطربازى Michael Burtzes.
أنظر Camb. Med. Hist. IV. p. 230.
Psellus : pp. 303—304.

على أن أشد ما ساء هؤلاء القادة ، ما اتخذه الإمبراطور ومستشاروه من موقف العداء للجيش ، وما وجهه الإمبراطور إلى هؤلاء القادة من التقريع والتأنيب ، حينما حظوا بمقابلته يوم عيد القيامة سنة ١٠٥٧، للمطالبة بنصيبهم من التشاريف والألقاب والترقيات . وصب غضبه وسخطه على دوق أنطاكية . ولما حاول زملاؤه أن يتدخلوا للدفاع عنه ومساندته ، أمرهم الإمبراطور بالتزام الهدوء والسكون ، وصرفهم من حضرته . وإذ اشتدت ثائرة هؤلاء القادة ، وازداد سخطهم ، بادروا إلى الاتفاق على ما ينبغى أن يتخذوه من الخطوات(١) ، ولا سيما بعد أن أدركوا ألا سبيل لحمل الإمبراطور على تغيير سياسته ، بما أصاب مساعيهم السلمية من الفشل(٢) . وعندئذ قرر هؤلاء القادة أن يلجأوا إلى العنف لتحقيق مطالبهم ، وأن يعملوا على الإطاحة بالإمبراطور(٣) . ومنذئذ ، التمسوا لهم قائداً ، جديرا بأن يتولى حكم الإمبراطورية(٤) .

وأدرك بسيللوس شعور هؤلاء القادة الذين أخذوا يثورون على الإمبراطور ، فأشار إلى أن العسكريين كانوا من قبل يطمعون فى أن يخضعوا لأنفسهم كل الإمبراطورية الرومانية ، وأن يكونوا بخدمة إمبراطور عسكرى ، وأن يحطموا ما جرى من تولية المدنيين عرش الإمبراطورية ، غير أنهم أبقوا ذلك فى حيز الكتمان . ولم يدر بخلدهم أن إسحاق كومنين ، يطمع فى الوصول إلى العرش . على أن الموقف تغير الآن تمام التغيير(٥) ، إذ شهدوا إسحاق يتزعم حزب الثورة ، ويتخذ القرارات الكفيلة بنجاحها(٦) .

---

(١) Diehl & Marçais : op. cit. p. 552

(٢) طلبوا إلى ليو بارابونديلوس ، المستشار الأول للإمبراطور أن يتدخل لإجراء تسوية سلمية لمطالبهم ، غير أن الإمبراطور ، لم يستجب لوساطته .
(Camb. Med. Hist. IV. p. 320).

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 320.

(٤) Psellus : op. cit. p. 211.

(٥) Psellus : op. cit. p. 212.

(٦) Ibid : p. 212.

والواضح أن هؤلاء القادة وزعيمهم إسحاق كومنين ، لقوا مساعدة كبيرة من البطريرك كريولاريوس ، فالمعروف أن تيودورا حرصت على أن تبعد البطريرك وتمنعه من التدخل فى شئون الدولة ، وسار الإمبراطور ميخائيل السادس على هذه الخطة . ولذا اغتنم فرصة ثورة هؤلاء القادة ، وبذل لهم كل ما فى وسعه من مساعدة ، فأجاز لهم أن يجتمعوا بكنيسة القديسة صوفية ، واستمع إلى آرائهم ، ووقف على خططهم ، وعرف نواياهم ، بأنهم سوف ينصبون إمبراطورا من بينهم(١) . فوقع اختيارهم على إسحاق كومنين ، لا فحسب لأنه يفوق سائر رفاقه فى أنه ينتمى إلى أسرة أرستقراطية عريقة النسب ، بل أيضاً لما اشتهر به من سمة السلطان ، ورجاحة العقل ومتانة الخلق(٢) . وما كادت تتم التدابير النهائية ، حتى غادر المتآمرون القسطنطينية ، وعبروا إلى آسيا الصغرى . وعجل سير الأحداث ، ما حل بأحد رفاقهم ، برينيوس ، من محنة بأن جرى سمل عينيه ، بعد عزله من القيادة فى قبادوقيا . وإذ خشى المتآمرون افتضاح خطتهم ، بادروا بالانحياز مع عساكرهم إلى جانب إسحاق كومنين الذى لجأ إلى أملاكه فى باڤلاجونيا . وجرت المناداة بإسحاق كومنين إمبراطورا ، فى ٨ يونيه سنة ١٠٥٧ ، فى سهل جوناريا Gunaria ، واشتد ساعد إسحاق كومنين بمن هرع إليه من قوات كاتاكلون دوق أنطاكية(٣) . وعندئذ زحف إسحاق بكل هذه القوات نحو البوسفور ، فاستولى على نيقية ، دون أن يصادف مقاومة ، وبذلك دان له جميع الشطر الشرقى من الإمبراطورية . وما ساد جنده من النظام والسلوك الطيب ، جذب إليه أنصارا عديدين . وعلى الرغم من أن الجند قاموا بحركة تمرد ، فإنهم لم يتصرفوا على أنهم ثائرون ، إذ أن ما حدث من المناداة بإمبراطور جديد ، لم يعتبر اغتصابا للملك ، بل مجرد إقامة حكومة

---

(١) Diehl & Marçais : p. 552.

(٢) Psellus ; op. cit. p. 211.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 320.

إمبراطورية سليمة ترتكن على تأييد الجيش ، بدلا من العناصر المدنية بالعاصمة[١] .

حاول الإمبراطور ميخائيل السادس أن يسحق حركة المتمردين ، فحشد كل ما لديه من القوات فى الشطر الأوربى للإمبراطورية ، وأنفذها إلى آسيا الصغرى بقيادة تيودور ، وهرون البلغارى . غير أن القوات الإمبراطورية تعرضت لهزيمة ساحقة بالقرب من نيقية ، فاستبد الخوف والذعر بالإمبراطور ، وانتزع من أعضاء السناتو ، وعمدا حملهم على كتابته ، بألا يعترفوا بإسحاق كومنين إمبراطورا ، ومع ذلك ، فإنه شرع فى مفاوضة إسحاق كومنين[٢] .

أورد بسيللوس تفاصيل ما جرى من المفاوضات بين الإمبراطور ميخائيل السادس وبين إسحاق كومنين ، وأسهب فى شرح أدوارها ، نظرا لاشتراكه فى وفد المفاوضات من قبل الجانب البيزنطى . ومن المحقق أن ميخائيل السادس تعرض منذ البداية للخيانة ، إذ أن السفراء البيزنطيين ، الذين وصلوا فى ٢٤ أغسطس ، إلى نيقوميديا ، مقر قيادة إسحاق كومنين ، كانوا مكلفين بأن يعرضوا عليه لقب قيصر ، وأن يعدوه بأنه سوف يخلف الإمبراطور على العرش[٣] . ولتضليل خصمه ، وكيما يهيء لأنصاره بالقسطنطينية الفرصة ، للقيام بما هو موكول لهم من عمل ، حرص إسحاق كومنين على أن يطول أمد المفاوضات ، ثم تظاهر بقبوله ما عرضه ميخائيل من مقترحات ، وعاد السفراء ليرفعوا إليه تقريرا عن بعثتهم[٤] . واتصل السفراء بأنصار إسحاق كومنين فى القسطنطينية ، ومن أشهرهم البطريرك كريولاريوس وجماعة من

(١) Camb. Med. Hist. 321.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 552.
(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 321.
Psellus : op. cit. p. 215.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 321. Ostrogorowski : p. 299.
Psellus : op. cit. p. 217.
(٤) Ibid : p. 224.

الشخصيات الكبيرة[١] . على أن المؤامرة اكتمل تنظيمها ، حين حاول بسيللوس وزميلاه أن يعرضوا مقترحات جديدة من قبل الإمبراطور ، إذ أن بسيللوس نصح الإمبراطور بأن يسعى لأن يكتسب تأييد البطريرك كريولاريوس ، وحذره من أنه إذا لم ينحاز إلى جانبه ، انضم كريولاريوس إلى الثائرين[٢] . وهذا ما حدث فعلا ، ففى ٣٠ أغسطس ، اندلعت فى القسطنطينية ثورة خطيرة ، إذ أنكر زعماء الفتنة سلوك ميخائيل السادس ، الذى جعلهم يحنثون فى إيمانهم ، بعد أن أرغمهم على أن يقسموا بألا يعترفوا بإسحاق كومنين ، بما لجأ إليه من المفاوضة مع إسحاق كومنين . فطلبوا إلى البطريرك ، كريولاريوس ، الذى يعطف فعلا على حركتهم ، أن يسترد لهم من الإمبراطور ميخائيل ، ما سبق أن انتزعه منهم من أيمان بذلوها له[٣] . ولم يلبث البطريرك أن ظهر للناس الذين احتشدوا أمام كنيسة القديسة صوفية ، وأخذ يهاجم فى عنف الإمبراطور ميخائيل السادس ، ويهتف باسم إسحاق كومنين ، فأقر هذه المظاهرات واتخذ جانب الثورة[٤] . وفى ساعات قليلة ، سيطرت هذه الجموع على العاصمة ، فأرسل كريولاريوس إلى الإمبراطور سفارة تعرض عليه رغبة الجماهير ، وتطلب إليه التخلى عن العرش[٥] ، وأمره بأن يقص شعره ، ويتخذ رداء الراهب ، فلم يبد مقاومة ، وصدع بالأمر . وفى أول سبتمبر سنة ١٠٥٧ ، دخل إسحاق كومنين العاصمة ، فتوجه البطريرك إمبراطورا[٦] .

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 321.
(٢) Psellus : op. cit. p. 213.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 321.
(٤) Diehl & Marçais : op. cit. p. 553.
Brehier : op. cit. p. 262.
Ostrogorowski : p. 299.
(٥) Camb. Med. Hist. IV. p. 321.
(٦) Diehl & Marçais : op. cit. p. 553.
Brehier : op. cit. pp. 263—266.

كان ذلك انتصارا للجيش على الحزب المدنى ، وأدرك هذا الانتصار منذ اللقاء الأول بين الإمبراطور الجديد ، إسحاق كومنين ومجلس السناتو ، إذ أظهر أعضاء السناتو الخضوع التام . وجه إليهم الإمبراطور حديثاً قصيرا ، يتضمن جوهر ما يريد أن يعرضه من الأفكار ، على أن يستخلصوا منه الأمور التى لم يذكرها ، ومن إشاراته والتزامه الصمت ، والاكتفاء بتحريك شفتيه ويديه ، استشعر رجال السناتو منه العزم وقوة الإرادة ، وأحسوا بهيبته ، واشتد بهم الجزع والخوف منه[١] .

كل ذلك يدل على ما لحق الحزب المدنى (البيروقراطى) من هزيمة ، ويشير فى وضوح إلى ابتداء عصر جديد[٢] .

السياسة الخارجية :

بيزنطة والمسلمون :

المعروف أن حملات نقفور فوقاس وحنا زمسكيس ، أمدت أطراف الإمبراطورية البيزنطية إلى ما بعد دمشق جنوباً ، ونظرا لانصراف باسيل الثانى إلى قتال البلغار ، لم يقم إلا بحملة خاطفة على تلك الجهات النائية[٣] . على أن المسلمين ، دأبوا منذ زمن قنسطنطين الثامن ، على مهاجمة المدن الواقعة على الأطراف الشرقية ، فقصدوا سنة ١٠٢٩ (٤٢٠هـ) ديار بكر ونهبوها[٤] ، واحتلوا بعض المواقع الأمامية البيزنطية ، وتجددت غارات أمير حلب على أنطاكية[٥] .

---

(١) Diehl & Marçais : op. cit. p, 553.
Brehier : op. cit, p, 266.
(٢) Diehl & Marçais : op. cit. p. 553.
(٣) Schlumberger : L'Epopée III, p. 70.
(٤) ابن الأثير : الكامل ﺣ ٩ ، ص ٢٧٦ .
(٥) Schlumberger : L'Epopée III, p. 71.

ونازع الفاطميين فى الشام ، أمراء العرب ، إذ تم التحالف بين حسان بن المفرج بن الجراح أمير بنى طى ، وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسنان ابن عليان أمير الكلبيين ، وذلك أواخر أيام الحاكم بأمر الله ، وأوائل زمن الظاهر ، بأن يضعوا أيديهم على جميع أعمال الشام وحلب ، ويقتسموا البلاد بينهم ، فيكون من حلب إلى عانة لصالح ، ومن الرملة (فلسطين) إلى مصر لحسان ، ودمشق وتوابعها لسنان[١] . فاستولى حسان على مدينة الرملة سنة ١٠٢٤ (٤١٥هـ) ، بينما سقطت حلب فى يد صالح بن مرداس فى تلك السنة أيضاً[٢] . وملك صالح أيضاً حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار فى ناحية طرابلس ، فضلا عن الرحبة ومنبج وبالس ورفنية[٣] ، وأقام صالح بحلب ست سنوات[٤] . وإذ اشتد فساد ابن الجراح فى الشام ، وأفاد من النزاع الذى ساد فى الخلافة الفاطمية ، عقب وفاة الخليفة الحاكم ، تقرر ، بعد استقرار الأمر للخليفة الظاهر ، إنفاذ حملة إلى الشام بقيادة أنوشتكين الدزبرى ، سنة ١٠٢٩ (٤٢٠ هـ) لقتال ابن الجراح ، الذى استنجد بحليفه صالح بن مرداس أمير حلب ، فدارت المعركة بين الفريقين عند الأقحوانة بالقرب من طبرية ، على نهر الأردن . فلقى صالح مصرعه ؛ وهرب حسن ابن الجراح ولجأ إلى الأراضى البيزنطية ، واسترد الفاطميون بعض المواضع ، مثل بعلبك ، وحمص ، وصيدا ، ورفنية وحصن ابن عكار[٥] .

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٤ .
ابن الأثير : الكامل : ﺣ ٩ ، ص ١٦٢ .
(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٤ .
ابن الأثير : الكامل : ﺣ ٩ ، ص ١٩٢ .
(٣) يحيى ابن سعيد : التاريخ ص ٢٤٨ .
ابن الأثير : الكامل ﺣ ٩ ، ص ١٩٢ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ﺣ ٩ ، ص ١٩٢ .
(٥) Schlumberger : L'Epopée II. p. 607, III. p. 71.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٣ .
ابن الأثير : الكامل ﺣ ٩ ص ٢٧٧ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٧٣ .

واغتنم الفرصة دوق (قطبان) أنطاكية ، وهو ميخائيل المعروف بالأسبنديلس Spondyle ، وعزم على الخروج لقتال أميرى حلب ، نصر وثمال ، ولدى صالح بن مرداس ، دون أن يتلقى أمرا من الإمبراطور رومانوس الثالث ، فهاجم حصن قيبار ، من أعمال حلب ، غير أنه تعرض فى اكتوبر سنة ١٠٢٩ (٤٢٠هـ) ، إلى هزيمة ساحقة . وعلى الرغم من انعقاد الصلح بين أمير حلب وقطبان أنطاكية ، فإن الإمبراطور البيزنطى قرر القيام بحملة لمهاجمة حلب سنة ١٠٣٠ (٤٢١ هـ) لا سيما بعد أن اشتدت الغارات على أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، منذ أن استولى أمير طرابلس أنوشتكين على قلعة المنيقة ، الواقعة على الطريق الممتد من أنطاكية إلى حلب [١] .

أعد رومانوس حملة ضخمة ، وقرر أن يتولى بنفسه توجيه العمليات الحربية ، وأول ما فعله رومانوس ، أنه عزل سبونديل ، دوق أنطاكية عن ولايته . وأعد سنة ١٠٣٠ ، بأنطاكية حملة جهزها بما يحتاج إليه حصار الحصون من الآلات والأدوات ، وجعل عليها البطريق قنسطنطين كارانتينوس Karanthenos زوج أخته ، الذى صار دوقا لأنطاكية ، ووجهه لقتال أمير حلب ، حتى يلحق به . وأوصاه بألا يشتبك معه فى معركة حاسمة ، إنما يتولى حراسة الدروب ، ويمنع غارات المسلمين على أملاك الدولة البيزنطية [٢] .

لم يتخذ رومانوس طريقه إلا بعد شهور ، وأورد بسيللوس وصفا مسهبا لهذه المغامرة ، التى لم يكن لها سبب جوهرى ، سوى حرص الإمبراطور على أن يذيع صيته ، ويشتهر اسمه ، بإحراز النصر فى الشرق ، مثلما ذاع اسم نقفور وزمسكيس وباسيل [٣] . ولذا حشد لهذه الحملة من العساكر ما لم يحشد

---

(١) Schlumberger : L'Epopée III. p. 71.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ ، ٢٥٧ — ٢٥٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. pp. 73—74.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ .

(٣) Psellus : op. cit. p. 41.
Schlumberger : L'Epopée III. pp. 73—74.

فى الحملات السابقة ، وجعلهم ابن الأثير ثلاثين ألف مقاتل [١] ، منهم عدد كبير ، لا خبرة لهم بالحروب . ولا دراية لهم بالقتال ، اتخذهم التماسا للكثرة [٢] . واشترك فى هذه الحملة عساكر من الروس والأرمن والبلغار ، والبجناك والكرج والخزر [٣] . وحاول كبار القادة أن يثنوا الإمبراطور عن عزمه ، لتخوفهم من نتائج الهجوم ، غير أن جماعة من أجلّ عسكره « قربوا إليه أخذه لحلب ، وصغروا فى نفسه حال العرب ، فاغتر بكلامهم ، وصدق مقالهم ، لموافقته لهواه ، وصرف سمعه عن سماع مشورة المتنصحين له بخلافه ، وأغفل ما اقتضته السياسة من التحفظ والتيقظ والاستظهار فى كل باب بما يقتضيه الصواب » [٤] .

أبدى المسلمون بحلب اهتماماً كبيراً بالحرب . وأول شىء فعلوه ، أنهم بعثوا إلى الإمبراطور يخطرونه أنهم ليسوا راغبين فى القتال ، ولا زالوا متمسكين بشروط الهدنة التى انعقدت ، واعترف أمير حلب ، نصر ، بالمعاهدة المعقودة بين أمراء حلب وأباطرة الدولة البيزنطية ، وعرض أن يحمل « من القطيعة ما كان يحمله أولاد سيف الدولة إلى باسيل [٥] » على أنهم حينما أدركوا عزم الإمبراطور على المضى فى القتال ، وطنوا أنفسهم على مواجهة الإمبراطور وحربه . ولم يحفل الإمبراطور بسفارة أمير حلب ، وأصر على السير فى مغامرته [٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٢٨٦ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ .

(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 74.
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٤٠ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ .
Psellus : op. cit. pp. 41—42.

(٥) Schlumberger : L'Epopée III. p. 75.
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ص ٢٣٩ .

(٦) Schlumberger : L'Epopée III. p. 75.
Psellus : op. cit. p, 43.

ثم غادر رومانوس أنطاكية قاصداً حلب ، وقد استولى على عسكره المرض ، لشدة الحر ، ونزل بجيوشه على تُبُّل من بلاد أعزاز . فى الشمال الشرقى من حلب ، فى موضع قريب من الجبل ، لاماء فيه . وضرب حول عسكرة خندقا عظيما ، تولى حراسته الرجالة ، بينما نزل العرب مواضع تغزر بها المياه[١] .

حرص رومانوس على أن يشن هجوماً كبيراً على مواضع المسلمين ، فأرسل قوة حربية بقيادة ليو خيروسفاكتس Chirosphaktes ، إلى حصن أعزاز لمشاهدته وكشف مواقع العرب ، الذين كانوا يترقبون قدوم قوات العدو ، التى تعرضت لحرارة الشمس الشديدة ، فضلت الطريق ، وفاجأهم بالهجوم عدد كبير من المسلمين ، فانهارت بذلك الخطط الحربية ، واضطرب الجند البيزنطى ، وهلك منهم عدد كبير قبل أن يبادروا للحرب ، ووقع قائدهم أسيراً فى يد الحلبيين[٢] . واندفع العرب فى جرأة وبسالة ، يحاولون تطويق معسكر الإمبراطور ، ويقطعون عنه الماء والمؤن . حتى يهلكوا جوعا ، ولم ينجح البطريق قنسطنطين دلاسينوس ، فى رد هؤلاء المغيرين ، بل استبد الرعب بالبيزنطيين ، وتحطمت روحهم المعنوية ، وولوا الأدبار[٣] . وأسر المسلمون عددا كبيرا من البيزنطيين ، أغسطس ١٠٣٠ (شعبان ٤٣١ هـ) . ومن هرب منهم طاردوهم . « فداروا بالعسكر ، وضعفت نفوس من فيه ، باستظهار العرب عليهم ، وبهزيمة أصحابهم . وضيق العرب على من يريد الخروج من المعسكر ، وناوشوا من فى أطرافه من الرجالة وحملوا عليهم ، واجتازوا الخندق ، وهجموا على السوق الذى بالمعسكر ونهبوه . وتخاذل الروم عن دفعهم وحربهم ، فتأكد طمع العرب فيهم ، يضاف إلى ذلك

(١) Schlumberger : L'Epopée III. p. 75
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٥ .

(٢) Schlumberger : L'Épopée, III. p. 79.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٥ .

(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 80.

استضرارهم بقلة الماء . وتحقق الملك (رومانوس) حينئذ أن الوقت غير مناسب للغزاة فعوّل على الرحيل »[١] ولم يتوقف الفرسان الحلبيون عن مهاجمة مؤخرة الجيش البيزنطى عند ارتداده إلى أنطاكية ، وتحول هذا الارتداد إلى هزيمة شاملة ، ووقع فى أيدى العرب غنائم وفيرة ، من الأسلحة والأموال والثياب فضلا عن سرادق الإمبراطور المصنوع من الحرير[٢] .

أما الإمبراطور فإنه هام على وجهه ، حتى رآه بعض رجاله الذين تصادف اجتيازهم به أثناء فرارهم ، فعرفوه من لون خفه[٣] . فالتفوا حوله . وذاع الخبر بأن الإمبراطور لازال حيا ، فالتف حوله عدد كبير من رجاله . وأهم من ذلك كله أن أحد العساكر حمل إلى الإمبراطور أيقونة أم الإله Theometer ، التى درج الأباطرة على أن يحملوها معهم أثناء حملاتهم ، واتخذوها هاديا ودليلا للجيش ، ولم تقع هذه الأيقونة فى يد العرب[٤] . واسترد الإمبراطور شجاعته ، بفضل هذه الأيقونة التى أنقذته من هلاك محقق فيما يزعمون ، فدعا الجند الهاربين إلى القدوم عليه ، واجتمع بقادته ، وتقرر الرجوع إلى بيزنطة[٥] .

ولما غادر الإمبراطور البيزنطى سوريا ، خلف على قيادة الجيش الدمستق الطواشى الابروطوستيار ، سيمون ، وطلب إليه وإلى نيقيا Nicetas قطبان أنطاكية ، أن يستردا حصن قلعة المنيقة ، فحاصراها فى أوائل خريف

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. p. 83.
Psellus : op. cit. p. 43.

(٣) يشير ابن الأثير ، إلى أن الإمبراطور لبس خفاً أسود ، حتى لا يعرفه العرب ، على حين أن الأباطرة البيزنطيين درجوا على أن يلبسوا الخف الأحمر (انظر : ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٢٨٦) .

(٤) Psellus : op. cit. p. 44.

(٥) Psellus : op. cit. p. 45.
Schlumberger : L'Epopée III. p. 87.

سنة ١٠٣٠ ، غير أنه حلت بهما هزيمة ساحقة ، عجلت بعودتهما إلى أنطاكية[١].

وحرص الإمبراطور البيزنطى على أن يؤلب أمراء الشام على الخلافة الفاطمية ، فشجع أمير طرابلس على الخروج على طاعة الخليفة الفاطمى الظاهر ، نظراً لأهمية طرابلس ، لأنها تفتح لبيزنطة الموانى الشامية[٢]. وتجددت المعاهدة مع أمير طرابلس ، فتعاهد بأن يدفع جزية سنوية للإمبراطور البيزنطى ، وبفضل مساعى أمير طرابلس تم افتداء قائد القوات البيزنطية Choirosphakte ، الذى وقع فى أسر القوات الحلبية عند أعزاز .

وأحرز أنوشتكين الدزبرى قائد الجيوش الفاطمية فى الشام ، انتصاراً باهراً على جموع العرب الكلبيين والطائيين ، سنة ١٠٣٠ عند بصرى . « فاحتوى المغاربة (الفاطميون) على ما كان لحسان بن مفرج الطائى من الإقطاع والأعمال ، وجعلوها لعرب آخرين ، تقووا بهم على حربه »[٣] . أرسل الإمبراطور البيزنطى إلى زعيمى طى وكلب ، من آل جراح ، وآل رافع ، يطلب الانتقال والنزول بالأراضى البيزنطية من عمل أنطاكية . واستدعى إلى القسطنطينية علاقا بن حسان ، فدخل إليه فى جماعة من أصحابه ، فأحسن إليهم ، وأنعم عليهم إنعاما جزيلا ، وجعل علاقا بطريقاً وأعاده إلى أبيه[٤].

وحاول أنوشتكين مهاجمة آل جراح وآل رافع فى مواضعهم الجديدة ، بعد أن توقع أن يسانده أمراء حلب من الكلابيين ، غير أنه فشل فى ذلك ، لأن نصر بن صالح أمير حلب ، استصلح آل جراح وآل رافع ، حذرا من مكيدة يدبرها الدزبرى للاستيلاء على حلب ، ولوح بالاستعانة بالبيزنطيين إذا تعرض لهجوم من قبل الدزبرى ، فلم يسع أنوشتكين الدزبرى ، إلا الرجوع إلى دمشق سنة ١٠٣١ (٤٢٣ هـ)[٥] .

---

(١) Ibd p. 91.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ .

(٢) Schlumberger : L'Epopée III, p. 91.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦١ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وبعد أن تم لبيزنطة الاستيلاء على حصن المنيقة وقلعة ارجيروس بن حلب وأنطاكية ، توسط نقيطا قطبان أنطاكية فى تسوية النزاع بين نصر بن صالح أمير حلب والإمبراطور البيزنطى ، بعد أن أقر نصر « ما كان أبوه عليه ، وغيره ممن ملك حلب ، مع من تقدمه من أسلافه ، الملكين باسيل وقسطنطين » . وتعاهد ببذل الخدمة له والاشتراك بقواته فى كل حملة ينفذها إلى الشام ، واعترف بالتبعية له ، وأنه يسير « تحت طاعته وإجابته فيما يعول عليه فيه من خدمة »[١] . فتقرر عقد هدنة دائمة وإجراء صلح ، وبمقتضاه يتكفل نصر بن صالح أن يحمل إلى الإمبراطور فى كل سنة « خمسمائة ألف درهم ، صرف ستين درهما بمثقال ذهب ، حسب صرف الوقت بحلب ، ويحمل المال فى نجمين من السنة »[٢] . وأرسل رومانوس إلى حلب سنة ١٠٣١ (٤٢٢ هـ) الابروطو بستيار تيوفيلاكت Theophylact ، فتبادل مع أمير حلب التوقيع على المعاهدة[٣] ، وبعث أمير حلب بمال الهدنة إلى الإمبراطور ، فضلا عن الهدايا والتحف . ومنها شعر القديس مار يوحنا المعمدان ، فحسن وقع ذلك عند الإمبراطور[٤] .

على أن الحرب لم تتوقف على الأطراف السورية ، إذ حدث قبل نهاية سنة ١٠٣١ ، (ذو القعدة ٤٢٢ هـ) أن جورج مانياكس ، الذى صار حاكما على المدن الواقعة على أطراف نهر الفرات ، واتخذ سموساط مقراً له ، قرر أن يوجه الهجوم إلى أقرب المدن الإسلامية إليه ، وأكثرها ثروة ، وهى مدينة الرها . فما حدث من النزاع بين أميرى الرها ، شبل من قبيلة كلاب ، الذى

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٧ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .
Schlumberger : L'Epopée III, p. 107.

(٣) Ibid : p. 107.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٩ .
Schlumberger : L'Epopée III. p. 107.

يدين بالولاء إلى ناصر الدولة بن مروان أمير ميافارقين وديار بكر ، وبين الأمير عطير من زعماء بنى نمير ، وما ترتب عليه من اغتيال عطير ، واشتداد الخصومة بين العرب (نمير) والكرد (بميافارقين) ، أدى إلى أن يستعين بمانياكس القائد سليمان بن الكرجى ، الذى وجهه أمير ميافارقين للاستيلاء على الرها . وعرض على مانياكس أن يسلم له الرها ، مقابل أن يحصل على لقب من الإمبراطور ، وحكومة إقليم من الأقاليم البيزنطية ، فوعده مانياكس بذلك . وسار سليمان إلى رومانوس بالقسطنطينية ، واستصحب معه الكتاب الوارد من أبجر ملك الرها إلى السيد المسيح والرد عليه[1] . ونهض لمساعدة الرها أمراء وعساكر من سائر البلاد الإسلامية ، من حران ، وحلب ، ودمشق ، وحمص ومنبج ، والموصل ، وبغداد ، والجزيرة والعراق . ومع ذلك احتفظ مانياكس بالرها ، بفضل ما قدم إليه من أمداد من سموساط ، ودأب على الإغارة على حران وسروج وشمال الشام[2] . وقبل شبيب بن وثاب النميرى تسوية النزاع مع الإمبراطورية البيزنطية على أن يدفع الجزية لبيزنطة وذلك سنة ١٠٣٢ (٤٢٣ هـ)[3] .

وتردد بين أنوشتكين الدزبرى ، قائد الجيوش الفاطمية بالشام ، الذى اتخذ دمشق مقرا له ، وبين نقيطا قطبان أنطاكية ، مكاتبات ومراسلات فى عقد الهدنة بين الظاهر الخليفة الفاطمى ، وبين رومانوس الإمبراطور البيزنطى ، حتى ينصرف إلى تسوية الأمور فى الشام ، بعد أن ساد به من الاضطراب ما زعزع سلطة الفاطميين به ورحبت بيزنطة بالدعوة إلى الهدنة ، بعد أن تعرضت أراضيها لهجات العرب ، ولما أصاب الإمبراطورية وقتذاك من

(١) Schlumberger L'Epopée III, pp. 110—111.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٣ — ٢٦٥ .

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. p. 116.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
Schlumberger : L'Epopée III. p. 116.

التداعى . وتم الاتفاق على أن يجتمع ممثلو الجانبين بأنطرطوس على الحدود الفاطمية البيزنطية[1] ؛

على أن ما حدث من استيلاء القطبان نقيطا على حصن نيكسرائيل سنة ١٠٣١ — ١٠٣٢ (٤٢٣ هـ) فى إقليم جبال الأنصارية ، دفع الخليفة إلى الجهاد ضد البيزنطيين فنودى فى الناس بمصر ، وفى سائر بلاد الشام « بالنفير إلى الغزو ، بسجلات من الظاهر الفاطمى ، قرئت فى جميع بلاده ، وكوتب جميع من فى ديار مصر وديار بكر ، وديار ربيعة ، بالحض على الجهاد ، امتعاضا لما جرى من أخذ الروم (البيزنطيين) الرها ، وسبيهم رفنية ، وما أتوه على غيرها ، لتتفق الكلمة على قصدهم »[2] . وأبدى القائد البيزنطى الاستعداد للمفاوضة من أجل السلام ، إذا أراد القائد الفاطمى ذلك . فإن رغب فى ذلك ، يتقدم فى تسيير الرسولين الواردين من الظاهر إلى الملك (رومانوس) ، ليطلعوا الإمبراطور على شروط الصلح[3] . فاشترط الإمبراطور لعقد الصلح أن يقبل الفاطميون ثلاثة شروط أساسية .

الأول — أن يعمر الملك (الإمبراطور) كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ويجددها من ماله . وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التى فى بلاد الظاهر ، وأن تتولى الحكومة البيزنطية اختيار بطريرك بيت المقدس .

الثانى — أن لا يتعرض الظاهر لحلب ، ولا يقوم هو ، ولا أحد من ذوى طاعته ، بقتالها ، ولا التعرض لها بمكروه . وأن يتركها تؤدى للإمبراطور البيزنطى ، ما هو مقرر عليها من جزية سنوية .

الثالث — تتعاهد الحكومة الفاطمية بألا تمد يد المساعدة لأمير صقلية ،

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 221.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٩ .
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 221.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٦٩ .

أثناء نشوب القتال بينه وبين البيزنطيين ، فلا ينجده ولا يقويه ، حتى يستمر السلام بينهم فى المستقبل[١] .

وهذا الشرط الأخير كشف عن غارة بحرية قام بها المسلمون من صقلية وتونس ، سنة ١٠٢٧ (٤١٨ هـ) هاجمت جزائر الأرخبيل ونهبتها . فأراد الإمبراطور البيزنطى ، أن يتهيأ له من القوة ما ينتقم بها من مسلمى صقلية دون أن يعترضه الأسطول الفاطمى[٢] .

وتعاهد الإمبراطور رومانوس الثالث ، مقابل ذلك إطلاق الأسرى ، المسلمين المأخوذين فى أيامه بحكم الحرب ، عوض بناء كنيسة القيامة . وطلب أيضاً إلى الظاهر أن يعيد حسان بن الجراح إلى ملكه وإقطاعاته ، على نحو ما كانت عليه زمن الحاكم بأمر الله ، « ويشرط عليه حسن الطاعة ، ولزوم الطرائق الحميدة »[٣] .

وعرض الإمبراطور أيضاً على الظاهر الفاطمى ، أن يدفع إليه حصن شيزر ، إذ هو بين أملاك المسلمين وأراضيهم ، ويعطيه الظاهر حصن أفامية ، عوضاً عنه ، إذ هو قريب من بلاد الروم ومجاور لحصونهم ، إذا رغب فى ذلك[٤] .

فقبل الظاهر ما شرطه الإمبراطور من بناء كنيسة القيامة ، ومن اختيار البطريرك ، ومن تجديد النصارى بقية الكنائس ، سوى ما صار منها مسجدا ، وذلك مقابل إطلاق سراح الأسرى المأخوذين زمن رومانوس[٥] . وأقر أيضاً

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧٠ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 222.

(٣) والمعروف أن حسان بن الجراح ، جرى الاحتفال باستقباله فى القسطنطينية ، بعد أن هزمه الدزبرى فى طبرية ، وذلك لأن الإمبراطور قدّر موقف والد حسان ، من دعوته إلى عمارة كنيسة القيامة بعد تدميرها زمن الحاكم . انظر يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 222.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 222.

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ . Wiet : L'E'gypte Arabe, p. 222.

ما اشترطه الإمبراطور البيزنطى من الامتناع عن بذل المساعدة لصاحب صقلية ، ولغيره ممن يحارب الدولة البيزنطية ، ويعبث فى بلادها ، إذا وافق رومانوس عن أن يفعل معه مثله[١] .

ولم يجب الظاهر إلى الشرط المتعلق بحلب ، وأعلن أنها من ثغور المسلمين ، ولا ينبغى أن تكون فى حوزة البيزنطيين[٢] ، وطلب إغفال ذكرها فيما تعقد عليه الهدنة ، ولم ير قبول حسان بن الجراح ، ولم يرغب فى أخذ شيزر ، والتعويض عنها بأفامية[٣] .

ولم يذعن رومانوس إلى الرجوع عما اشترطه فى أمر حلب ؛ وأصر على ألا تعقد إلا على هذا الشرط . وترددت المكاتبة بين الجهتين فى هذا المعنى فى أيام رومانوس ، وزمن ميخائيل ، بعد ثلاث سنوات ونصف ، حتى استقر الأمر أخيرا[٤] . ففى مستهل حكم ميخائيل البافلاجونى سنة ١٠٣٣ ، جرى استئناف المفاوضات . وللضغط على البلاط البيزنطى ، لجأ الظاهر الفاطمى سنة ١٠٣٣ — ١٠٣٤ ، إلى أن يستخدم ما انتزعه من الكنائس من المواد ، فى عمارة سور أقامه حول بيت المقدس[٥] . يضاف إلى ذلك ما حدث سنة ١٠٣٣ من استيلاء الجيش الفاطمى على طرابلس ، وعجز دوق أنطاكية عن بذل المساعدة لها ، وما جرى من فشل الحملة البحرية التى وجهها الإمبراطور بقيادة البروطوسباتير تكنياس Tekneas ، لمهاجمة الإسكندرية وإنزال الخراب بالدلتا[٦] .

والراجح أيضاً أن أمير حلب ، طرد سنة ١٠٣٥ (٤٢٦ هـ) ، مندوب

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ .

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧١ .

(٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٧٢ .

(٦) Wiet : L'Egypte Arabe p. 223. Schlumberger : L'Epopée, III, p. 131.

الإمبراطور البيزنطى فى حلب ، وأنزل الهزيمة بالقوات التى بعث بها دوق أنطاكية ، قنسطنطين ، لتوطيد النفوذ البيزنطى بها[١] .

ثم حدث سنة ١٠٣٨ ، زمن الخليفة المستنصر ، أن تم إبرام الهدنة ، والراجح أن البيزنطيين تخلوا عن الشرط المتعلق بحلب . ومع ذلك فإن العساكر الفاطمية شنت فى تلك السنة هجوماً عنيفاً على حلب . وفى مقابل إطلاق سراح خمسة آلاف من أسرى المسلمين ، جاز للإمبراطور أن يقوم بعمارة كنيسة القيامة ، فأرسل من قبله المهندسين إلى بيت المقدس ، وأنفق فى عمارة الكنيسة أموالا طائلة . وهذه الكنيسة وصفها بعدمضى عشر سنوات ، أى سنة ١٠٤٨ ، الرحالة الفارسى ناصرى خسرو[٢] .

وترتب على المفاوضات ، أن توقفت العداوات فترة من الزمن ، وبذلك تهيأت الفرصة للدزبرى ، أن يستولى على مدينة حلب سنة ١٠٣٨ (٤٣٩ هـ) ، وبفضل هذا القائد الحازم النشيط ، استرد الفاطميون كل بلاد الشام[٣] .

وتقرر أيضاً سنة ١٠٣٥ ، زمن الإمبراطور ميخائيل البافلاجونى ، نقل مانياكس من الرها إلى فاسبوركان ، وحل مكانه ليو ليبيندرينوس Lependrinos ، الذى كان يحكم أعالى ميديا وفاسبوركان . ولم يكن لهذا القرار من سبب ، سوى مناوأة مانياكس القائد النابه ، الذى أخذ نجمه فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٩ ، ص ٣٠٢ .
Schlumberger : L'Epopée, III, pp. 188—189.

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 223.
Schlumberger : L'Epopée, III, p. 203.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٧٥ .

(٣) ولما توفى الدزبرى سنة ١٠٤٠ (٤٣١) ، استرد حلب معز الدولة المرداسى ، الذى تنازل عنها إلى مكين الدولة ، باسم الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ١٠٥٧ (٤٤٩) . انظر :
Schlumberger : L'Epopée, III, p 204.
ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ص ٨٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٣١٣ .

الارتفاع ، على الرغم من أن السلاجقة بدأوا يتوغلون فى تلك الجهات ، وتكرر هجومهم على أطراف الدولة البيزنطية[١] .

ولما علم وثاب النميرى صاحب حران ، وابن عطير من زعماء النميريين ، بخروج مانياكس من الرها ، عزما على مهاجمة الرها بكل ما لديهما من قوات ، واستمدا ناصر الدولة بن مروان ، أمير ميافارقين وديار بكر ، وتوجهوا جميعاً إلى الرها ، فحصروها وقطعوا المؤن عنها ، ثم اقتحموها ، وغنموا ما فيها ، وأكثروا القتل ، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى[٢] . ولم تجد نفعاً محاولة بيزنطة استنقاذ الرها بما وجهته من حملة مؤلفة من بيزنطيين وعرب بقيادة حسان بن الجراح[٣] .

على أنه حدث سنة ١٠٣٨ (٤٢٩ هـ) ، أن تقرر الصلح بين ابن وثاب النميرى صاحب حران وبين البيزنطيين ، وسلم إليهم ربض الرها ، الذى سبق أن استولى عليه فأعاد البيزنطيون عمارة الرها وتحصينها[٤] . ولعل ما جرى من هجوم السلاجقة على أرمينيا ، وإمعانهم فى التنكيل بالعرب والكرد ، وتحولهم إلى مهاجمة ابن وثاب فى حران ، كل ذلك دفع ابن وثاب إلى التنازل عن الرها إلى البيزنطيين كيما يأمن جانبهم[٥] .

وما حدث من النزاع بين أبى الهيجاء حاكم أوقسطلان قلعة بوكوى ، المتاخمة للأرمن ، وبين خاله ، الذى التمس المساعدة من البيزنطيين ، بعد أن وعدهم بالتنازل عن بركوى مقابل الحصول على لقب بطريق وبعض التشاريف ، أدى سنة ١٠٢٣ (٤٢٥ هـ) إلى استيلاء القائد البيزنطى البطريق كريسيليوس Chryselios على القلعة . وفشلت جهود المسلمين ، بعد تسوية

---

(١) Schlumberger : L'Epopée, III, pp. 118, 193.

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٩ ، ص ٣٠٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ح ٩ ، ص ٣٠٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ح ٩ ، ص ٣١٣ .
Schlumberger : L'Epeepee, III, p. 196.

(٥) Ibid : p. 197, note 1.

النزاع بين أبى الهيجاء وخاله بمساعى الخليفة ببغداد ، فى استرداد بركوى ، بل إن الإمبراطور البيزنطى أرسل من الأمداد ما يكفى لتوطيد سلطانه بها ، ورد العرب عنها ، ولقى أبو الهيجاء مصرعه فى القتال(١) .

ولم يقتصر النزاع بين البيزنطيين والمسلمين على الأطراف الشرقية ، بل امتد إلى حوض البحر المتوسط . فالواضح أن حراسة البحار ، لم تعد قوية بعد وفاة الإمبراطور باسيل الثانى ١٠٢٥ ، فأخذت الأساطيل الإسلامية ، منذ زمن رومانوس أرجيروس ، تهاجم شواطئ الإمبراطورية البيزنطية وإيطاليا وإيلليريا ، وجزائر بحر الأرخبيل ، فتثير الرعب فى نفوس الأهلين ، وتقوم بنهب البلاد وتخريبها(٢) .

وفى مستهل حكم ميخائيل الرابع ، أضحى بحر الأرخبيل ، فيما يبدو ، مسرحاً للنشاط البحرى الإسلامى ، وعجز الأسطول البيزنطى المرابط بجزر الدوديكانيز ، عن مقاومة البحرية الإسلامية . ومن أشهر ما قام به الأسطول الإسلامى من أعمال ، ما حدث سنة ١٠٣٤ (٤٢٦ هـ) من الإغارة على المدينة الساحلية ميرا Myra ، المعروفة قديما باسم Lycia ، والواقعة بثغر كيبريوت(٣) .

والمعروف أن ميرا لم تستمد فحسب شهرتها من موقعها البحرى ، بل أيضا من كنيسة القديس نيقولا ، التى تضم رفاة هذا القديس ، والتى سرقها فيما بعد تجار البندقية ونقلوها إلى بارى . وتردد على هذا الموضع المرضى والمؤمنون والحجاج التماسا لبركات القديس نيقولا ، وزخرت هذه الكنيسة بما أغدقه عليها الأتقياء منذ زمن بعيد ، من المنح والعطايا ؛ فأضحت ثروتها من الشهرة ما جذب إليها القرصان وجعلها هدفا لهجماتهم ، فاستولى عليها سنة ١٠٣٤ الأسطول الإسلامى(٤) .

---

(١) Ibid : pp. 133—134.
ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .
(٢) Schlumberger : L'Epopée, III, p. 190.
(٣) Ibid : p. 188.
(٤) Schlumberger : L'Epopée, III, p. 191.

وحدث أيضا سنة ١٠٣٥ ، أن عاد قراصنة أفريقية (تونس) وصقلية ، لنهب شواطئ جزر الأرخبيل ، وشواطئ ثغرى التراقيسيان ، وثغرى ساموس وكيبريوت ، أى كل الساحل الممتد من إفيسوس إلى ميرا . غير أن المغيرين تعرضوا لهزيمة ساحقة ووقع منهم فى الأسر خمسمائة ، تقرر إرسالهم إلى القسطنطينية ، فجرى بيع جماعة منهم ، ولقى آخرون العذاب والنكال(١) .

ودار ، عقب هذا الحادث ، معركة بحرية جديدة ، نشبت بين هؤلاء المغيرين من صقلية وأفريقية ، وبين قائد ثغر كيبريوت ، قنسطنطين ، فأحرز البيزنطيون النصر ، وارتبط بهذا الحادث الإشارة إلى هرالد هاردرادا السكنديناوى ، الذى سبق أن التحق بخدمة الإمبراطورة زوى ، ثم تقرر تعيينه قائداً للحرس الإمبراطورى من الورنك ، وتوجه للقتال فى بحر الأرخبيل(٢) .

بلاد الكرج وأرمينيا :

لم يستمر الإمبراطور رومانوس طويلا فى بذل حمايته للملكة مريم وولدها بقراط الرابع القربلاط ، ولم يكفل الأمن والطمأنينة لمملكة أرمينيا المجاورة . وسبق الإشارة إلى أن رومانوس اجتاز هذه البلاد ، أثناء مسيره إلى الشام بحملته الأولى ، فهاجم الرهبان الأرمن ، ونفى البطريرك ابن عبدون وأساقفته ، وتدخل فى شئون جورجيا الداخلية ، بأن شجع أحد الأمراء على الثورة على بقراط ، مقابل الحصول على قلعة Anacophia بأطراف القوقاز(٣) .

أما أرمينيا ، فالمعروف أن حنا سمباد وأخاه آشوت الباسل ، تنازعا حكومة تلك البلاد ، التى مزقتها المنازعات الإقطاعية ، والتى تعرضت دائماً لغزو السلاجقة والبيزنطيين(٤) . ثم جرى الاتفاق على أن يحكم حنا سمباد ، آنى

---

(١) Ibid : p. 192.
(٢) Schlumberger : L'Epopée III, pp. 192—193.
(٣) Schlumberger : L'Epspée III, p. 139.
(٤) Ibid : p. 141.
Streck : Armenia (En. Is.) I, p. 439.
Camb. Med. Hist. IV, pp. 163—164.

وتوابعها ، بينما يحكم آشوط ما يجاور من أرمينيا فارس وجورجيا ، فإذا مات أحدهما ، خضع نصيبه لمن عاش منهما . وذلك بمساعى الجاثليق بطرس Pedros ، وجرجس Giorgi ملك الكرج[1] .

ولما أدرك سنحاريب Senekherim أنه ليس بوسعه أن يقاوم السلاجقة ، الذين أغاروا منذ زمن طغرل بك على هذه الجهات ، تنازل عن بلاده إلى الإمبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢١ ، مقابل الحصول على سيواس[2] . وفى سنة ١٠٢٣ ، قدم باسيل إلى جورجيا لقمع ثورة تورط فى الاشتراك فيها حنا سمباد ، وإذ خشى غضب الإمبراطور باسيل وحنقه ، نقض المعاهدة المبرمة بينه وبين أخيه ، ووعد كتابه ، بحضور الجاثليق بطرس ، بأن تكون آنى بعد وفاته لباسيل .

غير أن الإمبراطور قنسطنطين الثامن ، الذى خلف باسيل على الحكم ، أعطى هذه الوثيقة ، لأحد القسس (Kirakos)، ليردها إلى سمباد ، غير أن هذا القسيس احتفظ بها ، وباعها مقابل مبلغ كبير من المال إلى الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ١٠٣٤[3] .

لما مات حنا سمباد ، أنفذ الإمبراطور ميخائيل سفارة تطالب بآنى وتوابعها ؛ وواتاه وقتذاك الحظ الطيب ، إذ تنازع آنى حزبان ، يتزعم الأول القائد العام للقوات الحربية ، بهرام بهلڤونى Vahram Pahlavuni ، الذى أراد أن يتوج جاجك ، الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، ليحل مكان خاله حنا سمباد . أما الحزب الآخر فأراد أن ينصب على العرش سركيس ، واتحدت كلمة الحزبين على مناوأة دعاوى بيزنطة . وتعرضت الجيوش البيزنطية ، الواحد بعد الآخر ، للهزيمة ، وأشد ما لحق البيزنطيين من هزيمة ، تلك التى أنزلها بهم بهرام عند محاولتهم حصار آنى ، إذ لقى مصرعه منهم

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 163.

(٢) Ibid : p. 164.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 164.

نحو عشرين ألفاً فضلا عن الجرحى . وبفضل هذا الانتصار تم تتويج جاجك الثانى (١٠٤٢ — ١٠٤٦) الذى استرد قلعة آنى من سركيس ، وألقى به فى السجن[1] . واستطاع جاجك ، بعد أن أمن مؤقتاً من التدخل البيزنطى والخيانة من الأرمن ، أن يدفع خطر السلاجقة الذين أغاروا على بلاده ، وأن يعيد الأمن إلى نصابه . غير أنه ما كاد يعفو عن فست سركيس ويتخذه صديقاً له ، حتى أوقع الفتنة بينه وبين سائر الأمراء الأرمن ، وأن يحرض الإمبراطور قنسطنطين مونوماكوس على قتاله[2] .

وسار مونوماكوس فى سياسته مع أرمينيا على نهج الإمبراطور ميخائيل ، فحينما فشلت المفاوضات ، التى كان يرمى من ورائها الاستحواذ على آنى ، أنفذ الجيش للاستيلاء عليها ، غير أن جاجك قهر البيزنطيين ، وأرغمهم على الانسحاب ، المرة بعد الأخرى ، غير أن قنسطنطين مونوماكوس لم يفقد الأمل ، فإذا لم يوفق فى الحرب والمفاوضات ، فلعله ينجح بالخديعة والحيلة . فاتبع نصيحة فيست سركيس ، بأن طلب إلى جاجك القدوم إلى القسطنطينية ، لإبرام معاهدة بالصلح الدائم ، وأقسم بالصليب والأناجيل فى حضور وفد جاجك ، بأنه سوف يلتزم عهده . وعلى الرغم من أن جاجك لم يكن راغباً فى التوجه إلى القسطنطينية . ولم يكن حزب بهرام راضياً عن هذه الدعوة ، فإنه استمع إلى نصيحة ڤيست سركيس السيئة ، وخرج من أرمينيا كيما يلقى دماره . ولم يلبث الإمبراطور أن طلب آنى من جاجك ، ولما يمض على قدومه إلى القسطنطينية إلا أيام قليلة ، فلما رفض الاستجابة إليه ، أمر باعتقاله فى جزيرة بالبوسفور : وفاز مونوماكوس آخر الأمر بمدينة آنى بفضل ما أجراه من مساومة مع الجاثليق بطرس فى إحراز مفاتيح المدينة[3] . ولم يسع جاجك إلا أن يتنازل عن العرش ، وحصل مقابل ذلك

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 165.

(٢) Ibid : p. 165.

(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 165.

على مدينة بزو Bizou فى قبادوقيا ، حيث تزوج من أسرة ملك سيواس ، وعاش ما تبقى من حياته شريدا حتى لقى مصرعه سنة ١٠٧٩ على يد بعض اليونانيين(١) .

ولما استولى البيزنطيون على آنى ، ارتكبوا أشنع الأمور ، فتعرض أمراء الأرمن للنفى والقتل ، وأحلوا الحاميات اليونانية مكان العساكر الأرمنية ، وعملوا على تدمير البلاد وخرابها(٢) .

على أن البيزنطيين لم يجعلوا للترك وزنا وحسابا . ولما علم طغرل بما أصاب أرمينيا من الضعف ، عاد إلى مهاجمتها ، وأنزل بها الخراب والدمار سنوات عديدة(٣) . فاستباح مدينة سمباتبرد المنيعة Smbataberd ونكل بسكانها . ولقى نفس المصير سنة ١٠٤٩ ، مدينة أردزن التجارية Ardzen شمال غرب ارزروم ، وعزم البيزنطيون آخر الأمر على أن يوقفوا ما ينزله طغرل ببلادهم من خطوب . على أن الترك بقيـــادة ابراهيم اينال أحرزوا انتصارا باهراً على القائد كومنين ، الذى تولى قيادة الجيوش البيزنطية وجيوش ملك جورجيا الذى انحاز إلى البيزنطيين ؛ وترتب على هذا الانتصار أن غزا طغرل كل أرمينيا ماعدا آنى ، التى استولى عليها عنوة ألب أرسلان السلجوقى سنة ١٠٦٤ . فدمر قصورها ومعابدها وقتل الألوف من أهلها . وامتدت فتوح ألب أرسلان حتى بلغت أرمينيا الصغرى(٤) .

البلغار :

ومنذ سنة ١٠٣٣ ، اجتاز البجناك نهر الدانوب وأخذوا يعيثون فساداً

---

(١) Ibid : p. 166.

(٢) Ibid : p. 166.

(٣) Ibid : p. 166.

(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 167.

Grousset : Histoire de L'Armenie, pp. 588—589.

فى أراضى بلغاريا وتراقيا(١) ؛ فأضحوا خطراً شديداً على مصير الإمبراطورية البيزنطية(٢) .

والواقع أن البجناك كانوا منذ زمن طويل معروفين عند البيزنطيين ، إذ نزلوا ، فى القرن التاسع الميلادى ، بالجهات الواقعة شمال نهر الدانوب . وبسطوا سلطانهم على الأراضى الممتدة من الدانوب الأدنى ، إلى الدنيبر ، بل ربما تجاوزت هذا النهر ، ومن المحقق أن تعينت الحدود التى تفصل بين أملاكهم وبين المملكة البلغارية ، على حين أن أطرافهم الشرقية لم تكن ثابتة ، نظراً لتعرضهم لضغط قبائل بدوية من الشرق ، لا سيما الغز والكومان والمعروف أن قبائل البجناك والغز والكومان ، تنتمى إلى أصل تركى ، وبذلك تربطها صلة قرابة مع الأتراك السلاجقة الذين أخذوا يهددون الأملاك البيزنطية فى آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر ، ولعل لهذه الصلة بين هذه القبائل أهمية كبيرة فيما حدث فيما بعد من تطورات تاريخية(٣) .

ويعتبر الأباطرة البيزنطيون ، البجناك أهم الشعوب التى تجاورهم من جهة الشمال ، لأنهم كانوا عاملا هاما فى ضبط التوازن بين الإمبراطورية البيزنطية من جهة ، وبين الروس والمجريين والبلغار(٤) . ومن وصايا

---

(١) Schlumberger : L'Epopée, III, p. 202.

(٢) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 342.

(٣) Vasiliev : History of the Byzantine, Empire, p. 324.

(٤) Ibid : p. 324.

الواقع أنه ظهر على الأطراف البيزنطية ، حوالى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . أعداء جدد اشتهروا بنزعتهم الحربية ، والميل إلى الإغارة والنهب . ولم يكن قدوم هؤلاء الأقوام الجـــدد ، ليؤثر فحسب ، فى الوضع العام للإمـــبراطورية ، بل كان لزاماً على الإمبراطورية أيضاً أن تغير سياستها ، كيما تواجه الأحوال الجديدة . فى الشرق حل مكان العرب ، الترك الســـلاجقة ، وفى الشمال ، هبط أقوام من البرارى ، من البجناك والغز Uses والكومان ، واتخـــذوا مكان البلغـــار والروس ، بينما جاء من الغرب النرمان . ووقع على القسطنطينية سنة ١٠٤٣ ، آخر هجوم روسى ، ومنذ منتصف القرن الحادى عشر ولسنوات عديدة مقبلة ، لم تعد روسيا ، هى العامل المباشر فى السياسة البيزنطية ، نظراً لتقدم قبائل البرارى ، واتجاه الإمبراطورية الروسية صوب الشمال والشرق .

(انظر Ostrogorowski : p. 294—295.)

الامبراطور قنسطنطين بورفيروجنيتوس لابنه ، أن يحرص على أن يجعل علاقاته مع البجناك من الود والمسالمة ، حتى لا تتعرض الإمبراطورية لهجمات الروس والبلغار[١] . والواضح أيضا أن البجناك قاموا بالوساطة فى توطيد العلاقات التجارية بين المناطق البيزنطية بالقرم ، وبين روسيا والخزر وسائر البلاد المجاورة ، بنقل المتاجر بينهما ، فكان للبجناك فى القرن العاشر الميلادى أهمية كبيرة من الناحيتين السياسية والاقتصادية[٢] .

ولما خضع جميع بلغاريا لبيزنطة زمن باسيل الثانى ، أضحى البجناك يجاورون الإمبراطورية البيزنطية مباشرة . على أن هؤلاء الجيران بلغوا من القوة وكثرة العدد والميل إلى الاعتداء ، ما جعل الإمبراطورية عاجزة عن مقاومة هجومهم على أطراف الدولة ، حينما تعرضوا (البجناك) لضغط الكومان . ويشير تيوفيلاكت أسقف بلغاريا ، وهو من كتاب الكنيسة فى القرن الحادى عشر ، إلى غارات البجناك ، الذين أطلق عليهم السيزيين ، فيشبه غزوهم ، بأنه « خاطف كالبرق ، وأن ارتدادهم ثقيل وخفيف فى آن واحد ، إذ يعودون فى خفة بالغة ، مثقلين بالغنائم . وأخطر ما اتصفوا به ، وأعنفه ، أنهم يفوقون فى العدد أسراب النمل زمن الربيع فلا يستطيع أحد أن يحصى عددهم بالألوف أو عشرات الألوف ، لأنه لا حصر لعددهم »[٣] .

ومع ذلك لم يكن لدى الامبراطورية البيزنطية ، حتى منتصف القرن الحادى عشر ، ما يدعوها أن تخشى البجناك ، فلم يشتد خطرهم إلا حينما اجتازوا الدانوب فى منتصف ذلك القرن[٤] .

---

(١) Constantine Porphyrogenitus : De Administrando Imperio, pp. 51—55.

(٢) Vaeiliev : The Byzantine Empire, p. 325.
Camb. Med. Hist. IV. p. 199.

(٣) Vasiliev : op. cit p. 325.

(٤) Ibid : p. 325.

ويصف مؤلف روسى زحف البجناك فى الأراضى البيزنطية فيشير إلى أن « هذا الحادث ، الذى لم يسترع اهتمام الكتب التاريخية الحديثة ، ينطوى على دلالة بالغة الأهمية فى تاريخ الإنسانية . إذ أن ما ترتب عليه من النتائج ، لا يضارعه فى الأهمية إلا ما نجم عن اجتياز القوط الغربيين للدانوب من بدء هجرات الشعوب الجرمانية »[١] .

فعلى الرغم من الحملات التى سيرتها بيزنطة لتأديبهم ، فردتهم على أعقابهم ، فإنهم أعادوا الكرة سنة ١٠٣٦ ؛ ولم يكترثوا بهيبة الإمبراطورية البيزنطية ومكانتها ، بل إنهم أغاروا ثلاث مرات على سكان الثغور البيزنطية بأوروبا ، وذبحوا من صادفهم فى طريقهم من الأشخاص دون مراعاة للسن والجنس[٢] .

ثم جعل الإمبراطور قنسطنطين مونوماكوس للبجناك بعض المناطق البلغارية ، ليتخذوا منها مساكن لهم ، وبذل لهم ثلاثة حصون على شاطئ نهر الدانوب ، فأضحى من واجب البجناك النازلين بهذه الجهات ، أن يدافعوا عن أطراف الإمبراطورية ، وأن يحموها من هجمات أقاربهم الذين لا زالوا يقيمون على الشاطئ الآخر من نهر الدانوب ، وأن يدفعوا عنها أيضاً غارات أمراء الروس[٣] .

غير أن البجناك النازلين على الشواطىء الشمالية لنهر الدانوب ، دأبوا على المضى فى زحفهم نحو الجنوب . ففى مستهل زحفهم وإغاراتهم ، اجتازوا الدانوب فى أعداد ضخمة (بلغت ، فى بعض المراجع ، ٩٨٠ ألف نفس) ، ومضوا فى تقدمهم حتى وصلوا إلى أدرنة ، بينما بلغت كتائب منهم العاصمة (القسطنطينية) . على أن عساكر الإمبراطور البيزنطى ، قنسطنطين

---

(١) Ibid : p. 325.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. p. 202.

(٣) Vasiliev : op. cit. p. 325.

مونوماكوس كان لايزال بوسعها أن ترد هذه الجموع وتقاومها وتكيل لها الضربات ، وتنزل بها الهزائم[١] .

علىٰ أنه فى أواخر عهد قنسطنطين مونوماكوس ، ازدادت الصعوبة فى مقاومة زحف البجناك ، فما أعده الإمبراطور البيزنطى ، فى أواخر حكمه من حملة حربية لرد البجناك ، لم ينجم عنها سوى إبادة الجيش البيزنطى . «ففى ليلة استحر فيها القتل ، أجهز المتبربرون ، على الكتائب البيزنطية المنهزمة ، التى استسلمت للقتل ، ولم تبد مقاومة ، فلم ينج منها إلا عدد قليل ، تمكن من الوصول إلى أدرنة ، فبدد البيزنطيون بذلك ثمرة ما أحرزوه من قبل من انتصارات باهرة[٢] .

هذه الهزيمة الشاملة ، جعلت من المستحيل على الإمبراطورية البيزنطية ، أن تقدم مرة أخرى على قتال البجناك ، وتحتم على الإمبراطور البيزنطى ، أن يصالح البجناك ، مقابل ثمن باهظ . فما غمرهم به من المنح والعطايا ، جعلهم يبذلون الوعد بأن يعيشوا فى سلام وهدوء فى الأقاليم الواقعة شمال البلقان . فكان البجناك أخطر عدو واجهته الإمبراطورية البيزنطية فى الشمال ، لا سيما فى السنوات الأخيرة من زمن مونوماكوس[٣] .

إيطاليا :

سبق الإشارة إلى ما حدث من تضاؤل نفوذ بيزنطة فى جنوب إيطاليا ، منذ رحيل القبطان بويانس ، فارتفع بذلك شأن باندولف أمير كابوا ، الذى دان له جنوب إيطاليا ، ولم يلق معارضة إلا من أميرى بنيفنتو وسالرنو . فاستعان جوايمار ، أمير سالرنو ، بالنرمان فى إيطاليا ، فانحاز إليه ، فئة

(١) Vasiliev : op. cit. p. 326.

(٢) Ibid : p. 326.

Vasiliev Works: i, p. 24.

(٣) Vasiliev ; op. cit. p. 326.

من النرمان كانوا بخدمة أمير كابوا ، ومنهم وليم دروجون Drogon ، أحد أبناء تانكرد هوتفيل ، الذى صار لهم فيما بعد شأن كبير فى الاستيلاء على إيطاليا[١] وتحالف مع أمير سالرنو أيضاً ، أمير نابولى . أما أمير كابوا ، باندولف فأمد سلطانه إلى جائيتا وأمالفى ، ومونتى كاسينو ، وانحاز إليه كونتات مارسيز ، وسورا ، وأربينو ، وسورنت ، وبذا تعادلت القوتان عند أمير كابوا وأمير سالرنو . ولم تتدخل بيزنطة إلى جانب أحد الفريقين ، نظر لانصرافها وقتذاك إلى قتال الحزب الوطنى الذى أعلن تمرده عليها بأملاكها الإيطالية فضلا عن استعدادها لغزو صقلية ، وانتزاعها من يد المسلمين[٢] .

وحدث وقتذاك أن تدخلت مرة أخرى ، قوة أجنبية أدت إلى تفوق جوايمار ، أمير سالرنو ، وإلى سحق وتدمير باندولف أمير كابوا . وليست هذه القوة سوى الإمبراطورية الألمانية ، إذ نهض الإمبراطور كنراد الثانى ، لقتال باندولف لاعتدائه على أملاك ديرمونتى كاسينو ، وأساء معاملة رئيس الدير . ثم توجه كنراد مباشرة إلى جنوب إيطاليا سنة ١٠٣٨ ، ودارت مفاوضات بينه وبين أمير سالرنو ، لمناوأة باندولف أمير كابوا ، وتقرر بعد مهاجمة باندولف فى قلعته وعزله ونفيـــه ، تنصيب أمير سالرنو على كابوا[٣] ، ولم يلبث أمير سالرنو أن صارت له أيضاً السيطرة على كونتية اڤيرسا النرمانية Aversa ، وأعلن النرمان ولاءهم وخضوعهم للإمبراطور الألمانى ، فأقر زعيمهم راينولف على كونتية اڤيرسا وتوابعها[٤] .

والواضح أن كنراد حرص على ألا يشتبك فى القتال ضد البيزنطيين ، فأحرز بذلك صداقتهم . وبذلك أصبح يحافظ على المصالح الألمانية فى إيطاليا ،

(١) Schlumberger : L'Epopée III, p. 218.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III, p. 219.

(٣) Ibid : p. 219.

Camb. Med. Hist. V. p. 170.

(٤) Schlumberger : L'Epopée III, p. 220.

Camb. Med. Hist. V. p. 170.

أمير لومباردى ، (أمير سالرنو) ، ومحارب نورمانى ، (راينولف) ، وراهب باقارى (ريخر Richer رئيس ديرمونتى كاسينو . وترتب على ذلك ، أن انضاف إلى سالرنو ، كونتية سورنت ، وأمالفى . ولجأ باندولف إلى الإمبراطور ميخائيل فى بيزنطة ، يلتمس منه المساعدة فلم ينجح فى مسعاه ، بل تقرر نفيه ، حيث بقى سنوات ، عاد بعدها إلى إيطاليا سنة ١٠٤١ (١) .

وفقد البيزنطيون ، فى جنوب إيطاليا ، ماكان لهم من سيطرة على الأمراء اللومبارديين ، لما صادفهم من متاعب ، وما حدث من فوضى واضطراب ، أثارها السكان الأصليون (الوطنيون) . فالمعروف أن القطبان بويانس ، جرى استدعاؤه إلى القسطنطينية ، بعد عودته مباشرة من حملة مسينى سنة ١٠٢٧ . وكان لزاما على يونوس أرجيروس ، الذى خلفه فى منصب القطبانية ، أن يناهض الحزب المعادى للبيزنطيين ، الذى ازداد قوة ، واشتد نشاطه ، بعد استدعاء بويانس (٢) .

يضاف إلى ذلك ماحدث من تجدد غارات المسلمين من صقلية على جنوب إيطاليا سنة ١٠٣٢ (٤٢٤ هـ) ، إذ تقرر فى تلك السنة إنفاذ البروطوسباتير ، ميخائيل ، على رأس جيش كثيف ، مستمد من الثغور الأوربية والأسيوية ، لمساعدة القطبان والطواشى أورستس ، قائد حملة صقلية المنكودة الحظ ،

(١) Schlumberger : L'Epopée III, p. 223.

يعتبر إنشاء إمارة افيرسا النرمندية سنة ١٠٢٩ ، بالقرب من نابلى ، من أهم مراحل تاريخ النرمان بإيطاليا إذ كانت خاتمة مرحلة ، امتدت من سنة ١٠١٦ إلى سنة ١٠٣٠ ، حدث أثناءها أن طلائع هؤلاء المغامرين الشجعان (النرمان) ، الذين قدموا إلى إيطاليا ، ولم يكن لهم بها مدينة أو إمارة ، أن دخلوا فى خدمة الأمراء اللومبارديين فى سالرنو وكابوا ، ودير مونتى كاسينو ، وكذا فى خدمة البيزنطيين . وعلى الرغم من أن النرمان خدموا بعد سنة ١٠٣٠ ، أمراء آخرين ، فإنهم كانوا يقاتلون من أجل مصلحتهم ، ولم يتوانوا أن يكونوا أسوياء لهؤلاء الأمراء ، ثم لم يلبثوا أن صاروا سادة لأولئك الذين كانوا يدينون لهم بالولاء والتبعية .

انظر : Schlumberger : L'Epopée III. p. 144.

Heskius : The Normans in European History, pp. 200--202.

Camb. Med. Hist. V. pp. 169—170.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. p. 147.

والتى استولت على مسينى ، فأنزل المسلمون الهزيمة بالقطبان بونوس ، أرجيروس الذى لقى مصرعه أثناء القتال فى مسينى . أما بارى عاصمة الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا ، فإنها شهدت مظاهرة عنيفة ، قام بها الحزب الوطنى المعارض للسياسة البيزنطية ، وذلك بتحريض بيزانطيوس رئيس أساقفة بارى (١) .

وقدم القطبان الجديد ، البروطوسباتير قسطنطين أوبوس Opos ، بأسطول يقوده الطواشى حنا ، فدخل إلى بارى ، وأعاد السلطة البيزنطية ، وعين سنة ١٠٣٥ رئيسا جديداً لأساقفة بارى ، اختاره من الأساقفة المشايعين لبيزنطة ، بعد أن توفى وقتذاك بيزانطيوس (٢) .

على أن كبار الموظفين البيزنطيين بإيطاليا ، وجهوا اهتمامهم وقتذاك ، بما يقع من الأحداث فى جزيرة صقلية ، وأخذوا يفكرون فى الاستيلاء على تلك الجزيرة بقوات بيزنطية ، فلجأوا إلى اتخاذ سياسة الإيقاع بين الأمراء اللومبارديين ، دون أن يشتركوا فعلا فيما ينشب بينهم من قتال ، وأمعنوا فى ابتزاز الأموال (٣) .

ومن الطبيعى أن تنتهز الفرصة ، حكومة الطواشى حنا ، زمن ميخائيل الرابع ، للاستيلاء على جزيرة صقلية . وحانت الفرصة سنة ١٠٣٥ ، إذ اندلع فى الجزيرة من الحروب الداخلية ، ما جعل الأحزاب المتنازعة ، تطلب من بيزنطة التدخل فى أمور صقلية . على أن أسباب هذه الحروب الداخلية فى صقلية ليست معروفة ، غير أنه يصح أن يعتبر من أسباب هذه الحروب ، ما تأصل من العداء ، منذ زمن بعيد ، بين أهل صقلية وأهل أفريقية ، أى بين السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام ، بعد فتح المسلمين للجزيرة ، وسلالة الأسرات العربية التى استقرت فى صقلية منذ

(١) Schlumberger : L'Epopée III, p. 148.

(٢) Ibid : p. 149.

(٣) Ibid : P. 149.

سنوات عديدة ، وحازت أملاكا كثيرة ، وبين المهاجرين من البربر ، الذين قدموا حديثاً فى أعداد كبيرة إلى الجزيرة ، من شمال أفريقية ، ولم يمتزجوا بسائر السكان(١) .

كان يحكم الجزيرة وقتذاك الأمير أبو جعفر أحمد الأكحل ، الذى ولى الحكم منذ سنة ١٠١٩ ، بعد ثورة دامية قام بها أهل بلرم ، الذين أرغموا أخاه جعفر على التنازل عن الحكم ، ومغادرة البلاد(٢) . فواصل الأكحل إنفاذ الحملات للإغارة على المدن البيزنطية فى لانجوبارديا وكالابريا . ولم تفلح محاولة الإمبراطور البيزنطى ، سنة ١٠٢٥ لرد هذه الهجمات ، وتحرج مركز بيزنطة فى هذه الجهات ، ولا سيما أن الحزب الوطنى بجنوب إيطاليا أعلن وقتذاك العصيان والتمرد على بيزنطة(٣) .

على أن الأمير الأكحل كان يبغض العنصر الأفريقى ، فلما نشب ضده سنة ١٠٣٥ ثورة قام بها أهل صقلية ، بزعامة أخيه أبى حفص ، لم يسعه مساعدة البيزنطيين والتحالف معهم . فى ربيع تلك السنة (١٠٣٥) ، أرسل إليه الطواشى حنا مبعوثا ليعقد معه أول الأمر هدنة ، ثم أنفذ إليه رسولا بارعاً فى الدبلوماسية ، اسمه جورج بروباتاس Probatas ، فلقى عند وصوله إلى بلرم فى مايو سنة ١٠٣٥ ، استقبالا حافلا ، ونجح فى سفارته . فتقرر أن يصطحب معه ابن الأكحل ليكون رهينة بالقسطنطينية ، وضمانا لصداقة الأكحل وحسن نيته إزاء البيزنطيين ؛ وحصل الأكحل على لقب ماجسطرس ، ووعدت بيزنطة بأن تبعث إليه بعساكر لتشترك فى قتال أخيه ، الذى تزعم الثائرين فى صقلية(٤) .

(١) Schlumberger : L'Epopée III. p. 224.
(٢) Ibid : p. 224.
(٣) Schlumberger : L'Epopée III, p. 224.
(٤) Ibid : p. 226.
آمارى : الكنيسة الصقلية ح ٢ ، ص ٤٤٤ – ٤٤٦ .

وحرص أبو حفص زعيم الثوار ، على أن يسعى لمصالحته ، فالتجأ إلى جهة أخرى ، يلتمس منها العون والمساعدة ؛ ولم تكن هذه الجهة سوى تونس والقيروان حيث كان يحكم وقتذاك ، المعز بن باديس ، من الزيريين ، وقد استقل بشمال أفريقية ونزع السيادة الفاطمية(١) . فقدم إلى المعز فى نهاية سنة ١٠٣٥ ، مبعوثون من صقلية من قبل أبى حفص ، فقالوا « نريد أن نكون لك رعية ، فإذا لم تقبل ، صرنا رعية للروم والمسيحيين(٢) » . أحرزت هذه السفارة نجاحاً كبيراً ، إذ احتفل المعز باستقبالهم ، ودعا إلى الجهاد فى سائر بلاده ، فأرسل إلى الأمير أبى حفص ستة آلاف مقاتل ، نصفهم من الرجالة ، ونصفهم من الفرسان، وجهزهم بما احتاجوا إليه من الأسلحة ، وولى ابنه عبد الله قيادتهم(٣) .

اشترط المعز بن باديس أن يكون أمير صقلية من أتباعه . ولما تعرض الأكحل للهزيمة على يد هؤلاء العساكر القادمين من أفريقية ، اجتاز مضيق مسينى ، ولجأ إلى القطبان البيزنطى ، قنسطنطين أوبوس ، الذى تولى رياسة الثغور البيزنطية بإيطاليا ، منذ مايو سنة ١٠٣٤(٤) . فلم يسع القطبان قنسطنطين إلا أن يحشد سنة ١٠٣٧ ، ما لديه من العساكر البيزنطية ، ويجتاز بهم إلى صقلية(٥) . وعلى الرغم من إشارة المصادر البيزنطية ، إلى ما أنزله القطبان من الهزيمة بالعساكر الأفريقية ، بقيادة عبد الله بن باديس ، فإن القطبان قنسطنطين لم يستطع المضى فى عملياته الحربية ، لما صادفه من مقاومة شديدة مستمرة ، بسبب تفوق القوات الأفريقية فى العدد(٦) . والراجح أن الاتفاق بين الجانبين تم فى صقلية ، فغادر القطبان الجزيرة إلى إيطاليا ، وكل

(١) Schlumberger : L'Epopée III, p. 226.
(٢) آمارى : المكتبة الصقلية ح ٢ ، ص ٣٦٨ .
(٣) Schlumberger : L'Epopée III, p. 226.
(٤) Ibid : p. 226.
(٥) Schlumberger : L'Epopée III, p. 227.
(٦) Ibid : p. 227.

ما ترتب على هذه الحملة من نتائج ، هو أن البيزنطيين حملوا معهم إلى إيطاليا نحو ١٥ ألف من الأسرى المسيحيين الذين كانوا فى حوزة المسلمين بصقلية ، فضلا عن أن كثيراً من المسيحيين من سكان صقلية ، انتقلوا إلى إيطاليا . يضاف إلى ذلك أن السيادة فى صقلية صارت إلى عبد الله بن المعز بن باديس وأتباعه وأنصاره ، بينما لقى الأكحل مصرعه على يد شيعته فى بلرم(١) .

ولم يحفل الطواشى حنا المتحكم فى حكومة الدولة البيزنطية بما بذله من العهود للأكحل ، وعزم على أن يفيد من المنازعات المحتدمة بين المسلمين فى صقلية ، فجهزحملة ضخمة لمهاجمة صقلية وإخضاعها لبيزنطة . وبذل الطواشى حنا والإمبراطور ميخائيل الرابع كل الجهود فى تجهيز هذه الحملة وإعدادها ، فجعلا قيادتها لأكفأ قائد بيزنطى ، وهو جورج مانياكس ، الذى اشتهر بحروبه ضد المسلمين فى الشرق(٢) .

وتألفت الحملة من خيرة العساكر ، إذ كان بها فرق من ثغر الأرمنياق بقيادة كاتاكالون كيكاومينوس Katakalon kekaumenos ، وفرق من الروس الورنك بقيادة هارالد هاردرادا ، ابن سيجور — سور ، ابن شقيق ملك النرويج أولاف الثانى(٣) .

هذا الجيش البيزنطى ، الذى يقوده مانياكس ، كان يسانده أسطول قوى بقيادة البطريق ستيفانوس ، صهر الإمبراطور ميخائيل ، ولم يكن قائداً كفئاً . وانضم إلى هؤلاء ، البطريق ميخائيل الأسفنديلس Michael Doceanus دوق وقطبان الثغور البيزنطية بإيطاليا ، وهو الذى سبق أن كان دوقاً لأنطاكية(٤) . واتخذ الأسفنديلس من أساليب العنف والشدة ما يكفل

---

(١) Ibid : pp. 227—228.
آمارى : المكتبة الصقلية ح ٢ ، ص ٤٤٤ — ٤٨٤ .

(٢) Schlumberger : L'Epopée III, p. 227.

(٣) Ibid : p. 228.
Camb. Med. Hist. V. p. 170.

(٤) Schlumberger : L'Epopée III. p. 227.
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ .

له حشد قوات كبيرة ، وجمع أموالا ضخمة ، برسم الحملة الموجهة إلى صقلية ، فاشتد تذمر السكان فى أبوليا وكالابريا ، وتحرج مركز البيزنطيين بها(١) .

وتلقى هذا القائد أيضاً مساعدة كبيرة من النرمان ، إذ أن جوايمار أمير سالرنو أرسل إليه ، بناء على طلب الإمبراطور البيزنطى ، كتيبة مؤلفة من ثلثمائة مقاتل ، من أشهر رجالها ، ولدا تانكرد هوتفيل ، وليم المعروف باسم ذى الذراع الحديدى ، ودروجون ، اللذان قدما حديثاً (١٠٣٦) من نرمنديا(٢) . واستجاب جوايمار لطلب القطبان ، لأن ما حدث من القلق والاضطراب بين النرمان ، ولاسيما أولئك الذين لم يظفروا بمثل ما ناله راينولف ، أمير افيرسا ، من الإقطاعات ، سبب لأمير سالرنو ، جوايمار ، القلق والكدر . يضاف إلى ذلك أن جوايمار ، ارتاح لانحياز هؤلاء النرمان إلى مانياكس ، لما اشتهر به من خبرة فى قتال المسلمين ، فوعدهم بأن يبذل لهم عطاء وافراً إذا اشتركوا فى الحملة البيزنطية الموجهة ضد صقلية ، وعندئذ ساروا بقيادة ولدى تانكرد هوتفيل ، إلى ريو ، حيث انضموا إلى قوات مانياكس(٣) .

وانضم إلى هؤلاء المحاربين النرمان أيضاً ، قائد لومباردى الأصل ، اسمه أردوين Ardouin ، كان من أتباع رئيس أساقفة ميلان . ونظرا لدرايته وخبرته بطرق البلاد ومسالكها ، اتخذوه دليلا لهم أثناء المسير إلى صقلية(٤) ؛ إذ كان حاكماً على ناحية ميلفى melfi ، ولما ساء مركز البيزنطيين فى أبوليا ، واشتد تذمر الناس لما لجأت إليه بيزنطة من استخدام العنف فى جمع الأموال

---

(١) Camb. Med. Hist. V. pp. 170—171.

(٢) Haskins : The Normans in the European History p. 201.
Schlumberger : L'Epopee III, p. 234.

(٣) Schlumberger : L'Epopée III, pp. 234—235.

(٤) Ibid : p. 235.
Camb. Med. Hist. V. pp. 170—171.

والرجال ، واغتنم اللومبارديون هذه الفرصة فخرجوا على طاعة بيزنطة ، لم يسع أردوين إلا أن ينحاز إلى قوات راينولف النرمانى [١] .

اكتمل فى منتصف سنة ١٠٣٨ ، إعداد هذه الحملة الضخمة ، بعد أن استغرق تجهيزها سنتين. وتولى قيادة هذه الحملة مانياكس ، فغادرت ريو ، واجتازت مضيق فارو ، ونزلت بصقلية ، ثم زحفت على مسينى . واستطاع مانياكس ، بفضل مساعدة النرمان والسكان الوطنيين ، أن يستولى على مسينى. وواصل البيزنطيون الزحف ، فأخضع مانياكس فى نهاية سنة ١٠٣٨ ، ثلاث عشرة مدينة ، على امتداد الساحل الشرقى للجزيرة ، الذى يعتبر من أخصب الجهات وأكثرها سكاناً [٢] .

وفى مستهل سنة ١٠٤٠ ، بلغ مانياكس وعساكره ، سيراكوز ، فشرع فى حصارها ، واشتد القتال بين المسلمين والبيزنطيين . وتجلت بطولة المسلمين فى الدفاع عن المدينة ، فنسوا ماكان بينهم من منازعات ، واستبسلوا فى القتال ، وأفادوا من مناعة أسوار المدينة فى شدة المقاومة . فطال أمد الحصار. واغتنم الأمير عبد الله بن المعز بن باديس هذه الفرصة ، فحشد من أقاليم الجزيرة ، ومن أفريقية ، جيشاً ضخماً يزيد على ستين ألف مقاتل ، وهاجم مؤخرة الجيش البيزنطى ، وأرغمه على رفع الحصار عن سيراكوز [٣]. وتحول مانياكس لقتال عبد الله، بالقرب من اتنا Etna واشتدت الحرب بين الجيوش الإسلامية ، وبين الجيوش البيزنطية ؛ التى تألفت من يونانيين ، وروس وسكنديناويين ، ونرمان من إيطاليا ، وعساكر من الثغور البيزنطية بإيطاليا . على أن ما حدث من استدعاء مانياكس إلى القسطنطينية ؛ للتخوف من أطماعه ، فضلاعن شدة المسلمين فى القتال ، هيأ للمسلمين بصقلية ، الفرصة

(١) Camb. Med. Hist. p. 171.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. p. 236.
Gay : L'Italie Meridionale. pp. 436—437.

(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 236.

لاسترداد ما استولى عليه البيزنطيون من البلاد . فلم يبق بأيديهم سوى مسينى [١] ، التى تولى الدفاع عنها قائد ثغر الأرمنياق ، غير أنه لم يلبث أن أذعن فاستسلم للأمير صمصام الدولة ، أخى الأكحل ، فعادت باستسلامه سنة ١٠٤١ ، الجزيرة بأكملها إلى حوزة المسلمين [٢] .

وماكاد يعود النرمان والبيزنطيون إلى الأراضى الإيطالية ، حتى أخذت قواعد بيزنطة بها ، مثل كالابريا ولانجوبارديا ، تتداعى الواحدة بعد الأخرى [٣] ، ذلك أن اللومبارديين ، اغتنموا فرصة تناقص القوات البيزنطية بهذه الجهات ، لأن جانباً كبيراً منها اشترك فى الحملة الموجهة إلى صقلية ، فمضوا فى إثارة الفتن ، وتزايد اغتيال الموظفين البيزنطيين ، وحرض أرجيروس ، ابن ميلو ، قومه على الثورة ضد بيزنطة [٤] . وبفضل مساعدة النرمان ، أحرز الثائرون اللومبارديون انتصارات عديدة على القوات البيزنطية سنة ١٠٤١ [٥] .

وترتب على هذه الهزائم ، أن ازداد ضعف القوات البيزنطية ، وتحتم على القطبان البيزنطى ، فى بارى ، أن يطلب أمداداً جديدة ، ومن تبقى من القوات البيزنطية فى صقلية ، اجتاز المضيق مرة أخرى إلى الأراضى الإيطالية ، غير أن الإمبراطور ماكاد يسمع بأنباء الهزائم التى لحقت الجيوش البيزنطية بجنوب إيطاليا ، حتى أمر بعزل قطبان بارى ، ميخائيل الأسفنديلس Hicheal Doceanus ، وأقام مكانه بويانس ، ابن القطبان بويانس الذى سبق أن قهر ميلو ، وصحب معه إلى إيطاليا عساكر من الورنك . وانحاز إلى

(١) Ibid : p. 242.
Vasiliev : The Byzantine Empire. p. 326.
Gay : L'Italie Meridionale, pp. 451—252.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III. p. 242.

(٣) Ibid : p. 242.

(٤) Camb. Med. Hist. V. p. 171.

(٥) Ibid : p. 171.
Gay : L'Italie Meridionale, pp. 456—457.

جيشه شطر كبير من العساكر الذين كانوا تحت قيادة مانياكس فى صقلية ، وجنود من ثغر مقدونيا ، وجماعات من البيالصة ، فضلا عن العساكر الذين أمدته بهم مدن أبوليا ، وتلقى النرمان أيضاً أمداداً جديدة ، وما أحرزوه من انتصارات ، جذب إليهم أعداداً كبيرة من العساكر ، ومن المغامرين ، الذين قدموا من كامبانيا ، ومن الإمارات اللومباردية ، ومن شمال إيطاليا[1]. على أن البيزنطيين ، برغم ما أحرزوه أول الأمر من انتصار ، تعرضوا لهزيمة ساحقة سنة ١٠٤١ ، ووقع القطبان فى الأسر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة[2] .

صار للنرمان السيادة على ميلفى Melfi ومنطقة التلال أو السهول ، الممتدة إلى غربى أبوليا ، ولم يعد لبيزنطة السيطرة ، فيما عدا كابيتاناتو ، وأوترانت إلا على المنطقة الساحلية من أبوليا . على حين أن بعض المدن الساحلية الكبيرة، اعتبرت نفسها مستقلة ، فعقدت المعاهدات مع النرمان ، أملا فى أن يحترموا سلامة أراضيها . بينما جرى سكان بارى وجيوفينازو Giovenazzo ومونوبولى Monopoli ، على أن يؤدوا الجزية مثلما فعلت مدن كالابريا ، إلى المسلمين بصقلية[3] . ولم يسع الموظفون البيزنطيون فى إيطاليا ، إلا أن يعتصموا ، بداخل المدن والمواضع التى لازالت بحوزتهم[4] .

ولم يكن للحكومة فى بيزنطة وقتذاك من القوة ما يكفل لها الدفاع عن ممتلكاتها الإيطاليـــة ، إذ مات الإمبراطور ميخائيل الرابع فى ديسمبر سنة ١٠٤١ ، وخلفه على العرش ابن أخيه ، ميخائيل الخامس ، غير أنه حدث من الاضطرابات والفتن الداخلية ما أدى إلى ثورة عنيفة ، أطاحت بميخائيل الخامس ، واشترك فى الحكم الأختان تيودورا وزوى ، وتزوجت

(١) Gay : L'Italie Meridionale, p. 458.
(٢) Ibid : p. 458.
(٣) Gay : L'Italie Meridionale, p. 459.
(٤) Ibid : p. 460.

زوى من قنسطنطين مونوماكوس ، فتوج إمبراطوراً سنة ١٠٤٢[1] . على أن زوى وميخائيل الخامس ، لم يغفلا أمر إيطاليا ، برغم هذه الاضطرابات ، فأمرا باستدعاء القطبان سينوديانوس Sinodianos ، وقررا أن يبعثا قطبانا إلى إيطاليا ، جورج مانياكس ، الذى سبق أن قاد الحملة البيزنطية فى صقلية ، وتقرر منذ سنتين عزله ونفيه[2] .

هبط مانياكس إلى تارنت فى ابريل سنة ١٠٤٢ ، على رأس جيش جديد ، فانحاز إلى عساكر الثغور جند من الأنجاز ، غير أن النرمان اغتنموا فرصة اضطراب السلطة البيزنطية ، فحصنوا مواقعهم ، وحرصوا بمهارتهم الدبلوماسية ، على أن يوثقوا الصلة بين مدن أبوليا . ونظراً لما جرى من شجار بينهم وبين أمير بنيفنتو ، دارت بينهم وبين سكان بارى مفاوضات ، واعترفوا بالتبعية لأرجيروس . وفى فبراير سنة ١٠٤٢ ، تم الاتفاق النهائى ، وبمقتضاه تقرر الاعتراف بأرجيروس أميرا على إيطاليا ، واعتبار الكونتات النرمان أتباعا له[3] .

على أن قدوم مانياكس إلى جنوب إيطاليا ، آفسد ما دبره من الخطط كل من النرمان وأرجيروس . إذ انضم إلى جانب أرجيروس ، ما جاءه من النرمان من ميلفى وأفيرسا ، وازداد مركزه قوة بما حدث من الوفاق بينه وبين أمير سالرنو ، واحتشدت القوات المؤيدة له لمهاجمة البيزنطيين الذين عسكروا تحت أسوار تارنت . ولما لم يكن فى وسع القوات النرمانية أن تحصر مدينة بالغة التحصين ، تارنت ، لم تلبث أن انسحبت وتوجهت صوب الشمال[4] .

وظلت مدينة ترانى Trani ، الواقعة على بحر الأدرياتى ، والتى تلى بارى

(١) Ibid : p. 460.
(٢) Gay : L'Italie Meridionale. p. 460.
(٣) Ibid : p. 460.
(٤) Gay : L'Italie Meridionale. p. 461.

فى الأهمية ، على ولائها لبيزنطة ، فلم تستجب لأرجيروس ، والراجح أن عدداً كبيراً من كبار الموظفين البيزنطيين لجأوا إليها ، على حين أن جيوفانتزى ، تعرضت للحصار والنهب من قبل أرجيروس وعساكره ، ولم تلبث أن سقطت فى أيديهم سنة ١٠٤٢[١] .

وفى تلك الأثناء ، رد مانياكس ، النرمان الذين حاولوا اعتراض طريقه ، وصب القطبان مانياكس غضبه الشديد ، وانتقامه العنيف على سكان مدينة ماتيرا ، لما لجأوا إليه من عقد معاهدات مع العدو ، ومضى القطبان فى التنكيل بسكان البلاد ، ابتداء من ماتيرا حتى ساحل بحر الأدرياتى ، فصار بغيضاً ومكروها عند سكان كل هذا الإقليم[٢] .

ثم جاء من الأنباء من القسطنطينية ما جعله يعلن الثورة والتمرد ، وينادى به عساكره إمبراطوراً[٣] . إذ وقف على ما حدث بالقسطنطينية من اعتلاء قنسطنطين مونوماكوس العرش ، وما حبى به عدوه اللدود رومانوس سكليروس من حظوة وعطف ، نظراً لأن أخته كانت عشيقة الإمبراطور . وكان رومانوس من كبار الملاك بآسيا الصغرى ، وتلاصق ضياعه أملاك مانياكس ، وطالما وقع الشجار بين الرجلين . ولما تولى العرش مونوماكوس ، أفاد سكليروس من حظوته عند الإمبراطور ، فاستولى على ضياع مانياكس ، وأدرك مانياكس ما يتهدده من العزل والتشهير ، مثلما حدث من قبل ، فأعلن الثورة ، وجرت المناداة به إمبراطوراً[٤] ، وتحتم على الإمبراطور البيزنطى أن يستعين بأرجيروس والنرمان ضد مانياكس ، فاستجابوا له ، ورفعوا الحصار عن ترانى ، وأبدوا الاستعداد لخدمة مونوماكس ، بينما

---

(١) Ibid : p. 461.

(٢) Ibid : p. 462.

(٣) Gay : L'Italie Meridionale, p. 142.

(٤) Ibid : p. 463.

Psellus : Chronographia, pp. 144—145.

انصرف سكان أبوليا عن مساندة مانياكس ، لما لجأ إليه من استخدام الشدة فى قمعهم وانحازوا إلى جانب أرجيروس[١] .

على أن كثيراً من الزعماء النرمان انسحبوا إلى ميلفى ، بعد أن تحول أرجيروس إلى جانب البيزنطيين ، واختاروا أمير سالرنو زعيما لهم[٢] ، بينما وقع اختيارهم على وليم بن تانكرد هوتفيل ، بطل حصار مسينى ، ليكون كونتا عليهم[٣] . وفى نفس الوقت ، تقرر أن يقتسم كونتات النرمان ، كل الأراضى التى كانوا يهدفون إلى الاستيلاء عليها ، وواصل النرمان ، بقيادة وليم ، العمل على إخضاع الأقاليم البيزنطية بإيطاليا ، ومنذئذ لم تنقطع حروبهم ضد البيزنطيين ، وأخذوا يتوغلون ، سنة بعد أخرى صوب الجنوب[٤] .

وفى أثناء تلك الفترة ، ظل جوايمار ، أمير سالرنو ، حليفاً للنرمان ، غير أن سلطته عليهم لم تكن مطلقة ، إذ أنه لم ينجح سنة ١٠٤٥ ، عند وفاة راينولف كونت أفيرسا ، فى أن يفرض مرشحه لزعامة النرمان ، بل اعترف على

---

(١) Gay : op. cit. p. 464.

تعرض مانياكس ، فى أوترانتو ، للحصار براً وبحراً من قبل القوات البيزنطية التى بعث بها الإمبراطور البيزنطى لقتاله ، وقوات أرجيروس والنرمان ، غير أنه استطاع أن يفلت مع عساكره من هذا الحصار ، وأن يهبط فى دورازو ، ويواصل السير حتى بلغ أطراف مقدونيا ، ودارت معركة بالقرب من سالونيك ، تعرض أثناءها مانياكس لسهم خاطئ ، أدى إلى مصرعه سنة ١٠٤٣ . وانحاز من كان معه من النرمان المغامرين ، إلى الجيش البيزنطى ، فأضحوا نواة القوة النرمندية التى تألفت فى بيزنطـــة ، والتى ازداد عددها بمن كان يقدم إلى القسطنطينية من المغامرين النرمان من إيطاليا . وشغل جماعة من النرمان بعض الوظائف الرئيسية فى البلاط البيزنطى ، بل إن أحدهم ، وهو روسل دى بايللويل Roussel de Bailleul تطلع ، بعد سنوات ، إلى أن يتولى عرش القسطنطينية .

انظر : Camb. Med. Hist. V. p. 171

Gay : op. cit. p. 467.

(٢) Gay : L'Italie Meridionale, pp. 464—465.

Camb. Med. Hist. V. p. 171.

(٣) HasKins : The Normans in European History, p. 201.

(٤) Camb. Med. Hist. V. p. 171.

كره منه ، براينولف الثانى . وحوالى ذلك الوقت ، مات وليم المعروف بالذراع الحديدية ، وجرى الاعتراف بزعامة دروجو ، على نرمان أبوليا ، سنة ١٠٤٦[1] .

على أن وضع النرمان لم يتأثر بقدوم الإمبراطور هنرى الثالث ، سنة ١٠٤٧ ، أما جوايمار ، فقد ساء حظه ، بما حدث من انتزاع كابوا من يده ، وإعادتها إلى باندولف الثالث . وتعتبر السنوات التى تلت قدوم هنرى الثالث ، أحفل مرحلة بنشاط النرمان وفتوحهم . وعلى الرغم من أنه لم نقف على تفاصيل ماجرى من الأحداث ، فإن سكان جنوب إيطاليا ، تعرضوا أثناء هذه السنوات لمغامرات روبرت جويسكارد ، من أبناء تانكرد هوتفيل ، وقد وصل حديثاً إلى إيطاليا ، والراجح أنه قدم سنة ١٠٤٦[2] . ولما لم يلق مساعدة من إخوته ، دخل فى خدمة بارونات عديدين منهم باندولف أمير كابوا ، ثم انتقل إلى خدمة دروجو ، فعهد إليه بالإستيلاء على أفقر جزء بالبلاد ، كالابريا ، حيث لا يصيب منه إلا ثمرة ضئيلة . وأقام روبرت أول الأمر فى سربيلا Seripla بوادى كراتى Crati ، ثم تحول إلى سان ماركو San Marco[3] ، فعاش بهذا الموضع قاطع طريق ، ينهب من السكان ما لديهم من الماشية والأغنام ، ويمسك بالناس من التجار والمسافرين ، فلا يطلق سراحهم إلا بعد أن يفتدوا أنفسهم[4] . ولم يحجم عن استخدام العنف ، ولم يحترم الشيوخ أو النساء أو الأطفال ، ولم يفلت من هجماته ، فى بعض الأحوال الكنيسة أو الدير[5] .

---

(١) Ibid : p. 172.

(٢) HasKins : op. cit. p. 201.
Camb. Med. Hist. V. p. 172.
HasKins : op. cit. p. 201.

(٣) Camb. Med. Hist. V. p. 172.

(٤) HasKins : op. cit. p. 200.

(٥) Camb. Med. Hist. V. p. 172.

على أن روبرت لم يكن مجرد لص ، أو قاطع طريق ، فإن ما اشتهر به من الدهاء والمكر ، وسعة الحيلة ، أكسبه منذ زمن متقدم اسم جويسكارد ، ومعناه « الحذر اليقظ » . ووصفته أنّة كومنين « بأن ما اشتهر به من طول القامة ، ولمعان العينين ، والقوة المتدفقة ، لا يعدله سوى شدة الطموح ، والرغبة فى التسلط والسيطرة ، والبراعة فى التنظيم ، والإرادة الصلبة»[1] . وذاع صيت روبرت فى الجسارة والإقدام ، فالتمس مساعدة جيرارد ، سيد بوانالبرجو Buonalbergo الذى انحاز إليه ، وصحبته فارس ، ومنذئذ بدأ طالع روبرت فى البزوغ ، وأخذ « يلتهم » الأرض[2] .

على أن حياة سائر النرمان لم تختلف فى شيء عن حياة جويسكارد ، ولذا نستطيع أن نتصور ما حل بسكان جنوب إيطاليا من نكد الطالع ، كلما مضى النرمان فى زحفهم وتقدمهم . ولم يلبث هؤلاء السكان أن جأروا بشكواهم ، وارتفع صياحهم لما عانوه من البؤس والشقاء على أيدى هؤلاء المستبدين ، فبلغت هذه الصيحات أسماع البابا ليو التاسع[3] . وإذ تأثر البابا بشكاوى أولئك الذين تعرضوا لظلم النرمان ، عزم على أن يتدخل فى الأمر . على أن زياراته الأولى لجنوب إيطاليا سنة ١٠٤٩ ، لم تسفر عن شيء ، وعندئذ التمس المساعدة من الإمبراطور هنرى الثالث . وعند عودة ليو التاسع من ألمانيا ، استقبل سفارة من قبل سكان بنيفنتو ، تولت تسليم البلاد له سنة ١٠٥١ حتى لا تقع فى أيدى النرمان . ومنذئذ ، ازداد اهتمام البابا ليو التاسع بجنوب إيطاليا[4] . والمعروف أن حركة إحياء الكنيسة وإصلاحها ، ازدادت نشاطاً فى منتصف القرن الحادى عشر على أيدى البابوات الألمان ، وبلغت

---

(١) HasKins : op. cit. p. 200.
Camb. Med. Hist. V. p. 172.

(٢) Ibid : p. 172.

(٣) Camb. Med. Hist. V. p. 172.
Gay : op. cit. p. 481.

(٤) Camb. Med. Hist. V. p. 173.

الذروة فى زمن بابوية جريجورى السابع . كان لهذه الحركة مظهران : الأول القضاء على العيوب الناجمة عن السيمونية وزواج القسس ، والتى زاد من اشتدادها وعنفها ، ماحدث من نزاع بين الأساقفة اليونانيين والأساقفة اللاتين ، أما المظهر الثانى فهو حرص البابوية على أن تمد سلطانها ونفوذها الزمنى فى شبه الجزيرة الإيطالية[١] . وفى كلتا الناحيتين تعرضت المصالح البابوية فيما يبدو للتهديد والخطر بسبب تقدم النرمان وفتوحهم ، ولذا لانعجب لما حدث من تدخل البابا ليو التاسع فى بنيفنتو ، فى الأمور الكنسية ، باعتباره مدافعاً عن سكان البلاد الذين التمسوا منه المساعدة ، بأن جعلوا بلادهم تحت حمايته[٢] .

وفى هذه الأحوال ، جرى تدبير مؤامرة للتخلص فى يوم واحد من كل النرمان . على أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، إنما لقى مصرعه من النرمان ، دروجو ، وستون من رفاقه ، وذلك سنة ١٠٥١ . وكان لوفاة دروجو أهمية بالغة ، نظراً لما اشتهر به من القدرة على حفظ الأمن فى البلاد الخاضعة له ، ولأنه لم يعد من الزعماء المغامرين قاطعى الطرق ، ولم يخلفه من الزعماء ما يصح للبابا أن يفاوضه ، فظل النرمان فترة من الزمن ، دون زعيم ، فنشبت الفوضى بينهم[٣] .

وقرر البابا ليو التاسع أن يحشد جيشاً لقتال النرمان ، فانحاز إليه النبلاء ، ما عدا جوايمار الخامس أمير سالرنو ، الذى أبى أن يقاتل حلفاءه النرمان . ولم يتغير الموقف بعد مصرعه سنة ١٠٥٢ ، إذ ظل ابنه جيزولف ، حليفاً للنرمان ، بينما أعد البابا ليوالتاسع جيشاً ، ألفه من عساكر من ألمانيا وإيطاليا ، وتم الاتفاق بينه وبين أرجيروس ، الذى عينه الإمبراطور البيزنطى ،

---

(١) HasKins : The Normans in the European History, p. 203.

(٢) Ibid : p. 208.

(٣) Camb. Med. Hist. V. p. 173.

مونوماكوس ، ماجسطرا ودوقا على الثغور البيزنطية فى إيطاليا ، والتى قاعدتها بارى[١] . وحصل أرجيروس من الإمبراطور البيزنطى ، من المال والخلع مايرشو به النرمان ، ويغريهم باجتياز البحر ، والاستعانة بهم فى قتال المسلمين فى الشرق[٢] . ولم يرسل مونوماكوس ، فيما يبدو ، إلى أبوليا قوات جديدة ، بل طلب إلى أرجيروس أن يلتمس من الوسائل ما يكفل له النجاح . فإذا لم تصب مقترحاته شيئاً من النجاح ، لجأ إلى إثارة الشقاق بين الزعماء النرمان ، أو يحشد ضدهم قوات مأجورة من إيطاليا[٣] . وقدم أرجيروس إلى بارى فى سنة ١٠٥١ ، فبعث بسفارة إلى البابا ليو التاسع ، يعرض عليه القيام بعمل مشترك ضد النرمان[٤] . ودارت المعركة الفاصلة ، عند Civitate ، على شاطىء نهر الفورتورى Fortore ، فحلت به هزيمة ساحقة ، ووقع البابا نفسه أسيرا فى يد النرمان (يونيه ١٠٥٣) ، وركع المنتصرون أمام أسيرهم العظيم ، غير أنهم لم يطلقوا سراحه ، إلا بعد أن وافق على إجابة كل طلباتهم[٥] . والمعروف أنه حدث أثناء اعتقال البابا ، فى بنيفنتو ، (يونيه ١٠٥٣ — مارس ١٠٥٤) ، أن تبادل البابا ليو التاسع مع الإمبراطور البيزنطى ، قنسطنطين مونوماكوس ، وبطريرك القسطنطينية كريولاريوس ، الرسائل ، لإجراء تحالف ، ضد العدو المشترك ، النرمان ، غير أنه اقترن بهذه المسألة السياسية وقتذاك مسألة دينية ،

---

(١) Ibid : p 173.
HasKins : op. cit p. 203.
Gay : op. cit. pp. 470—471.

اختفى لقب قطبان ، ولا نعلم ما إذا كان ثمت اختلاف بين وظيفة القطبان التى كان يتولاها قادة بيزنطيون ، وبين وظيفة الدوق التى تولاها ابن أحد اللومبارديين .

(انظر Gay : op. cit. p 485.)

(٢) Gay : op. cit. p. 485,

(٣) Ibid : p. 485.

(٤) Ibid : p. 485.

(٥) Camb. Med Hist. V. p. 173.
Gay : op. cit. pp. 489—490.
Haskins : op. cit. p. 203.

اهتم بها البابا ، وتتمثل فيما أقدم عليه البطريرك كريولاريوس من مناوأة كنيسة روما ، التى أدت إلى ما سبق الإشارة إليه من الانقسام الدينى [1] .

وتلي وفاة البابا ليو التاسع ، أبريل سنة ١٠٥٤ ، فترة طويلة ساد فيها القلق والاضطراب . إذ أن ريتشارد ، كونت افيرسا النرمانى ، وابن أخ رينولف الأول ، بسط ممتلكاته على حساب أمير سالرنو ، ودوق جائيتا ، وكونتات أكوينو . وواصل النرمان الزحف جنوباً ، فوصلوا إلى اوترانتو وليتشى ، بينما استولى جويسكارد على جاليبولى Gallipoli ، وعاث فساداً فى أراضى تارانتو . وفى كالابريا عقد جويسكارد اتفاقا مع كوسنته Cosenza . وتريجنانو ، ومارتيراتو ، وهاجم أيضاً إمارة سالرنو ؛ بينما استولى أخوه وليم ، الذى عينه همفرى هوتفيل كونتا على برينكيباتو Principato ، على الأراضى التى سبق منحها له من أراضى إمارة سالرنو . وفى سنة ١٠٥٧ ، مات همفرى ، وتقرر استدعاء جويسكارد ، ليكون خليفة له على الحكم [2] . ولم يلبث أن استولى على أملاك ولدى أخيه ، ومضى فى زحفه جنوبا ، فهدد ريو ، ثم أقام فى إقليم مونتيليونى Monteleone بالقرب من بيفونا ، أخاه روجر ، الذى قدم حديثاً إلى إيطاليا يلتمس الرزق . وكان لزاما على روبرت جويسكارد أن يعود ، لأن نبلاء النرمان فى أبوليا رفضوا الاعتراف بزعامته . على أن الكونت الجديد لقن ، بالقوة ، أتباعه المتمردين درساً بأن أضحى لهم كونتا ، يعرف كيف يهاب الناس سلطته ويحترمونها [3] .

وفى كل هذه المنازعات المتقدمه ، ساند روبرت جويسكارد ، أخوه روجر ، الذى ساعده أيضاً فيما قام به من محاولة فاشلة للاستيلاء على ريو ،

---

(١) Gay : op. cit. p. 491.

(٢) Camb. Med. Hist V. p. 174.

(٣) Gay : op. cit. p. 505.
HasKins : op. cit. p. 202.
Camb. Med. Hist. V. p. 173.

فى شتاء سنة ١٠٥٨ ، وفى أثناء هذه السنة ، وقع الشجار بين الأخوين ، وتحالف روجر مع وليم صاحب Principate . واستقر روجر فى سكاليا Scalea ، وعاش على النهب واللصوصية ، وتعرضت ممتلكات أخيه لغاراته ، وعانت من ذلك مالم تعانه بلاد أخرى [1] . وتعرضت كالابريا ١٠٥٨ لمجاعة خطيرة ، وليس ذلك يدعو إلى الدهشة أو العجب ، نظراً لما أصاب المحصولات من تخريب وتدمير يكاد يكون منتظما ، ولمضى النرمان فى القتال ، وإصرارهم على الحروب . ونجم عن البؤس والشقاء العام ، حدوث فتن وثورات ، وحاول سكان كالابريا الإفادة من النزاع الذى نشب بين الأخوين ، كيما يمتنعوا تأدية الخدمة العسكرية ، ويرفضوا تأدية ما هو مقرر عليهم من الجزية ، بل إنهم قاوموا النرمان فعلا ، وأجهزوا على الحامية النرمانية المرابطة فى نيكاسترو Nicastro . وأدرك روبرت جويسكارد أنه متى انتشرت الثورة ، فسوف يخسر كالابريا ، ولذا قرر أن يتفاوض مع أخيه روجر . فبذل له نصف كالابريا ، سواء كان ذلك الشطر فى حوزته ، أو سوف يؤول إليه . وبمقتضى هذا الاتفاق ، يصير إلى روجر الأراضى الممتدة من Intefoli وسكويلاس Squiltace ، إلى ريو . وفى نفس الوقت ،

---

(١) Ibid : p. 174.

الواقع أن زحف النرمان فى أبوليا وكالابريا ، لم يوقفه ما حدث من مقاومة محلية أو جهود السكان الأصليين المتفرقة ، أما امتناع الحكومة البيزنطية فى إيطاليا وحلفائها عن وقف هذا التقدم ، فيرجع إلى أسباب خارجية . منها ما كان يقترن باعتلاء إمبراطور جديد للعرش البيزنطى من اضطرابات وقلاقل فى الوظائف الإدارية الكبرى والقيادة الحربية ، ومنها ما كان ينشب من ثورات حربية ، تؤدى إلى المناداة بأحد القادة إمبراطوراً . يضاف إلى ذلك ، ما جرى من توغل السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وما ترتب عليه من انتقال الفرق البيزنطية ، زمن قنسطنطين مونوماكوس إلى الشرق ، واغتنم البجناك الفرصة ، فواصلوا الإغارة على تراقيا . فإذا كان لبيزنطة سياسة فى إيطاليا والغرب ؛ فإنها تجرى بوسيلتين : التحالف مع الإمبراطورية الألمانية والبابوية ، وإفساد زعماء النرمان . على أن وفاة الإمبراطور الألمانى ، هنرى الثالث ، سنة ١٠٥٦ أحبطت مشروعات التحالف مع بيزنطة والمقر البابوى .

(انظر Gay : op. cit. pp. 506—510.)

قرر أمير سالرنو أن يجرى اتفاقا مع جويسكارد . وعندئذ لم يسع جويسكارد إلا أن يطلق زوجته أوبيريا Auberea التى أنجب منها بوهمند ، ويتزوج من شقيقة أمير سالرنو(١) .

وتعتبر سنة ١٠٥٩ بالغة الأهمية فى تاريخ النرمان بإيطاليا ، إذ تم فيها الوفاق بين البابوية والنرمان . ويرجع هذا الوفاق إلى ما حدث من تطور فى سياسة البابوية ؛ فالمعروف أن النضال ضد النرمان كان من أهم نصوص البرنامج الذى سعى إلى تحقيقه الحزب الذى ينادى بالإصلاح فى الكنيسة ويرأسه هيلدبراند ؛ ولتحقيق هذا الهدف الذى يصبو إليه دعاة الإصلاح ، لجأ إلى التماس المساعدة الخارجية ، البابوات الذين جاءوا من بعد البابا ليو التاسع ، فيكتور الثانى ، وستيفن التاسع ، ثم جريجورى السابع مستقبلا فالتمس فيكتور المساعدة من الإمبراطور الألمانى ، ولجأ ستيفن إلى أخيه جودفرى دوق اللورين ، وكان يحرص على أن يتوجه إمبراطوراً لولا أن دهمه الموت . على أن حزب الأرستقراطية الرومانية، الذى يناهض الإصلاح ، أحرز النصر ، ونصب بنيدكت العاشر بابا ، بينما أيد هيلدبراند انتخاب نيقولا الثانى . ولم يلبث أن أضحى نيقولا الثانى بابا ، بموافقة الإمبراطورة أجنس Agnes . على أن هذا الانتخاب المزدوج ، من قبل الأرستقراطية والإمبراطورية ، حرم حزب الإصلاح من كل ما أحرزه من مكاسب ، وأضحت البابوية تتأرجح فى سياستها بين أرستقراطية روما ، والإمبراطورية الألمانية ، ولم تنتصر على الأرستقراطية إلا بارتكانها على الإمبراطورية ، وبذلك توطدت شرعية البابا فى منصبه باعتراف البلاط الإمبراطورى(٢) وللمضى فى إصلاح الكنيسة ، لابد للبابوية أن تكون مستقلة عن كل من الإمبراطور ، وبعيدة عن سيادة أرستقراطية روما . على أن البابا أقدم على

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 147.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 174.

اتخاذ خطوة بالغة الخطورة ؛ إذ أدرك بنفاذ بصيرته ، التغيير الذى أخذ فى الظهور فى سائر إمارات جنوب إيطاليا ، والتمس مساعدة القوة الوحيدة بإيطاليا ، التى تستطيع أن تسانده ، وهذه القوة تتمثل فى النرمان(١) .

ومع ذلك فإن فكرة هذا التحالف الذى أدى إلى نتائج كبيرة الأهمية ، لم تخطر بادىء الأمر على بال هيلدبراند ، وكل ما فى الأمر أن البابا احتاج إلى عساكر لمقاومة أنصار البابا بنيدكت العاشر ، والراجح أنه طلب ، بناء على اقتراح ديزيديريوس Desiderius رئيس دير مونتى كاسينو ، إلى ريتشارد أمير آفرسا النرمانى ، الذى صار حاكما على كابوا ، أن يمده بالجند . والواضح أن ريتشارد صار موطن احترام وتقدير الناس ، وأضحى له من القوة ما يجعله رئيس دولة أو إمارة ، لا مجرد زعيم لصوص وقطاع الطرق . ومن حق البابا نيقولا الثانى أن يهنأ لما أصابه من توفيق فى مفاوضاته الأولى مع النرمان ، الذين ساندوه فى إعادة الأمن إلى نصابه(٢) . ولما أصدر البابا نيقولا الثانى ، سنة ١٠٥٩(٣) ، القرار الذى ينظم عملية انتخاب البابا ، التمس حليفاً ، نظراً لأن ما اقترحه البابا نيقولا الثانى من إجراءات لاختيار البابا ، سوف تثير حتما السخط والغضب فى بلاد الإمبراطور الألمانى ، ولذا قرر الاستنجاد بالنرمان . وجرى ، فى أغسطس سنة ١٠٥٩ ، فى ميلفى ، اللقاء بين البابا والزعيمين النرمانيين : ريتشارد كونت كابوا ، وروبرت جويسكارد دوق أبوليا وكالابريا . والواقع أن النرمان حاولوا أن يحصلوا من البابا ليو التاسع ، على الاعتراف بما أنشأوه من إمارات ، فتحقق لهم ذلك على يد البابا نيقولا الثانى(٤) . تلقى البابا يمين الولاء من روبرت

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 174.
Gay : op. cit. pp. 515—516.

(٢) Camb. Med. Hist. V. p. 175.

(٣) انظر نص هذا القرار فى :
Thatcher : A Source Book for Medieval History, p. 162.
Ziada, Selected, Documents of Medieval History, pp. 22—23.

(٤) Camd. Med. Hist.V, P. 175.

جويسكارد ومن ريتشارد كونت كابوا ترجيحاً ، إذ أنه منح ريتشارد تقليداً بإمارة كابوا ، وبذل لروبرت تقليداً بدوقية أبوليا ، وكالابريا ، وصقلية . لم يصل إلينا وثيقة عن اليمين التى بذلها ريتشارد ، أما اليمين التى أقسمها روبرت جويسكارد ، فوصل إلينا نصها[١] ، وتتضمن أن جويسكارد تعهد بأن يؤدى للبابا جزية سنوية ، وأن يكون مخلصاً ، مستقبلا ، لكل من البابا والكنيسة . ووعد بأن يكون حليفاً « للكنيسة الرومانية المقدسة » ، كما تحافظ على حقوق القديس بطرس وممتلكاته ، ووعد أيضاً بأن يساعد البابا على الإبقاء على كرسى روما الرسولى وأن يحترم أراضى القديس بطرس . وعند انتخاب البابا ، التزم بأن يراعى أن انتخاب البابا ورسامته تجرى وفقاً لما يليق بالقديس بطرس من الشرف ، بما يطلبه منه الكرادلة والإكليروس الرومانى فضلا عن العلمانيين[٢] .

الواضح أن البابا لم يحفل بدعاوى الإمبراطورية الجرمانية ، ولم يكترث بالحقوق الفعلية للإمبراطورية البيزنطية فى جنوب إيطاليا . فإمارة كابوا التى كانت من قبل من توابع الإمبراطورية الألمانية ، انتقلت إلى ريتشارد كونت أفيرسا ، الذى صار فى مستهل بابوية الإسكندر الثانى من أعداء البلاط الألمانى . أما سيادة الثغور البيزنطية ، فتحولت ، لأول مرة ، إلى روبرت جويسكارد ، والمعروف أن أرجيروس اللومباردى ، بعد أن تم الوفاق بينه وبين الإمبراطور البيزنطى ، اتخذ لقب « دوق إيطاليا وكالابريا وصقلية » الذى أقره الإمبراطور البيزنطى[٣] ، على أن أرجيروس غادر إيطاليا سنة ١٠٥٩ . وكيفما كان الأمر ، فإن ما صادف بيزنطة وقتذاك من مشاكل ، صرفها

(١) انظر النص فى Ziada : op. cit. pp. 37—38.
Thatcher : op. cit. pp. 124—125.
(٢) Camb. Med. Hist. V. p. 575.
Gay : op. cit. pp. 518—519.
(٣) Gay : op. cit. p. 518

عن الاهتمام بأمور إيطاليا . وسنحت الفرصة لروبرت جويسكارد ، فما اتخذه من لقب « دوق أبوليا وكالابريا وصقلية » إنما يدل دلالة واضحة على ما كان له من السيادة على سائر الزعماء النرمان ، وبذا بارك البابا ، بنفوذه ، ما بذله روبرت جويسكارد من جهد ، لأن يجعل تحت سيطرته كل فتوح النرمان فى الأملاك البيزنطية[١] .

على أنه يصح أن نتساءل بأى حق يمنح البابا تقليداً بأراضى لم تكن فى يوم من الأيام ملكاً لأسلافه ؟ الواقع أن ما جرى استخدامه من عبارات ومصطلحات ، بهذه الوثيقة ، يدل على أن البابا نيقولا الثانى استند فى عمله من ناحية إلى ما يعرف بمنحة شرلمان ، التى قضت ببذل دوقية بنفينتو إلى كنيسة روما ، وارتكن من ناحية أخرى ، فيما يتعلق بصقلية ، إلى النظرية التى شرحها بعدئذ البابا ايربان الثانى ، بأن كل الجزائر ، إنما تدخل فى نطاق أملاك القديس بطرس بمقتضى منحة قنسطنطين[٢] .

وكان لزاماً على روبرت جويسكارد ، بعد الاعتراف به فى ميلفى أنه الدوق الشرعى لإمارة أبوليا ، أن يدافع عن نفسه فى السنوات التالية ، ضد سائر الزعماء النرمان ، الذين رفضوا أول الأمر أن يعترفوا بسيادة أحد أسويائهم[٣] ، وما صادفه هذا الزعيم من مقاومة ، سببت له متاعب جسيمة ، وأفادت فى عودة البيزنطيين إلى جنوب إيطاليا[٤] .

(١) Gay : op. cit. pp. 518—519.
(٢) Camb. Med. Hist. V. p. 175.
(٣) Camb. Med. Hist. V. p. 175.
(٤) Ibid : p. 175.

الفصل الثالث عشر

الانهيار السياسى

١٠٥٧ – ١٠٨١

الحكومة :

دخلت الإمبراطورية البيزنطية ، عقب وفاة باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ ، فى فترة سادها اضطراب ، وشهدت فيها تغييرات مستمرة فيمن تولى العرش من الأباطرة ، وأدركت أنها مقبلة على مرحلة انهيار عام . انقرض البيت المقدونى سنة ١٠٥٦ بوفاة الإمبراطورة تيودورا ، شقيقة الإمبراطورة زوى ، واستهل عصر جديد من الاضطرابات ، استمر حتى سنة ١٠٨١ ، حينما تولى عرش بيزنطة الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، مؤسس بيت كومنين[١] .

وهذه الحقبة من التاريخ البيزنطى ، التى اشتهرت بكثرة من توالى على العرش من أباطرة ضعاف ، تعتبر من أهم فترات التاريخ البيزنطى ، نظراً لأنه حدث أثناء هذه السنوات ، أن تطورت الأحوال فى الإمبراطورية حتى أدت آخر الأمر إلى قيام الحركة الصليبية فى الغرب .

ومن خصائص هذه الفترة أيضاً ، ما نشب من نضال بين الحزب العسكرى ، وطبقة النبلاء من كبار الملاك (لا سيما تلك التى تقيم بآسيا الصغرى) ، وبين الحكومة المركزية البيروقراطية . هذا النضال ، الذى وقع بين الأقاليم وبين الحكومة المركزية ، انتهى بانتصار الجيش وكبار الملاك ، الذى يعتبر انتصاراً للأقاليم على العاصمة ، وتزعم ألكسيوس كومنين الفريق الذى أحرز النصر[٢] .

---

(١) **Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 351.**

(٢) **Vasiliev : op. cit. pp. 351—352.**

يضاف إلى هذه الخصائص ، أن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت للضغط على جميع الأطراف ، من قبل النرمان فى الغرب ، والبجناك والغز فى الشمال ، والأتراك السلاجقة فى الشرق . وترتب على ضعف الإمبراطورية وعجزها عن مقاومة أعدائها فى الخارج ، أن جرى اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضيها ، فتضاءلت مساحتها[١] .

والواضح أن كل أباطرة هذه الحقبة كانوا يرجعون إلى أصل يونانى . ففى سنة ١٠٥٦ ، اشتد ضغط حزب البلاط على الإمبراطورة تيودورا ، كيما تختار من يلى الحكم بعدها ، فوقع اختيارها على البطريق العجوز ، ميخائيل السادس ستراتيوتيكوس . فلما ماتت تيودورا تولى العرش ميخائيل السادس ، ولم تتجاوز مدة حكمه سنة واحدة ، تألف أثناءها حزب لمقاومته ، برئاسة الجيش المرابط فى آسيا الصغرى الذى نادى بالقائد إسحاق كومنين إمبراطورا ، وهو ينتمى إلى أسرة أرستقراطية تملك ضياعاً شاسعة ، واشتهر إسحاق بحروبه ضد الأتراك السلاجقة الذين أغاروا على آسيا الصغرى : وتعتبر تولية إسحاق كومنين الحكم ، أول انتصار أحرزه الحزب العسكرى على الحكومة المركزية ، أثناء فترة الاضطراب والانهيار السياسى[٢] .

كان إسحاق كومنين أول إمبراطور من رجال الجيش ، منذ وفاة الإمبراطور باسيل الثانى . جاء إسحاق إلى العرش صادق النية ، وقد أعد مشروعات كبيرة للإصلاح ، إذ أنه أراد أولا أن يستأصل ما علق من الفساد بالبلاد ، ثم يعيد تنظيم الحكومة التى لم تجر ، على حد قول بسيللوس ، على قاعدة ثابتة ، أو نظام مستقر[٣] . ووهب أعماله حماساً بالغاً ، فما من شىء على

---

(١) **Ibid : p. 355.**

(٢) **Vasiliev : op. cit. p. 352.**

(٣) **Psellus : op. cit. P. 238.**

Diehl & Marçais : op. cit. p. 554.

سطح الأرض يعترض طريقه ، فلم يخش ما يخبئه له المستقبل من مفاجئات ، ولم يحفل بكراهية الرعاع ، ولم يكن ليحد من أطاعه عامل من العوامل(١) ؛ ولو أنه نظم عمله ، وضبط أفعاله ، لما ضارعه أحد ممن سبقه من الأمراء(٢) ، غير أن حرصه على التسرع فى تحقيق أهدافه ، وعلى ألا يتخذ سبيل الاتزان والتعقل فى أعماله ، كل ذلك دمر ما اشتهر به من خلق نبيل ، وحال دون بلوغ غايته(٣) .

ما كاد يتولى إسحاق كومنين العرش ،حتى حاول أن يقيم حكماً عسكريا ، يقابل ما جرى قبل عهده من قيام حكومة مدنية . والمعروف أن إسحاق ينتمى إلى الأرستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى(٤) . ومن الدليل على حرص الإمبراطور على أن يظهر فى وضوح ، الطابع الذى عزم على أن تتصف به حكومته ، ماكان من رسمه على أحد وجهى النقد ، يقبض بيده على سيف مصلت ، على حين أن الأباطرة السابقين ، درجوا على أن يحملوا اللواء الإمبراطورى Labarum ، كما جعل حكمه على الناس قائما على خبرته بهم وتجربته لهم ،لاعلى أساس تزلفهم وتملقهم له(٥)، على أن إسحاق كومنين واجه من العقبات ما لم يستطع التغلب عليها ، بل أدت إلى مصادمات بينه وبين الحزب المدنى من جهة ، والكنيسة من جهة أخرى . فحينما تولى الحكم أدرك ما يفتقده الجيش من نظام، وأحس بأن الخزانة خاوية ، وأن أعداء الدولة فى الخارج تكاثروا عليها ، وازداد نشاطهم(٦) . فعكف إسحاق على العمل ،

(١) Psellus : op. cit. p. 239.

(٢) Psellus : op. cit. p. 239.

(٣) Psellus : op. cit. p. 289.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 554.

(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 299.
Camb. Med. Hist. IV. p. 348.

(٥) Camb. Med. Hist. IV. p. 322.

(٦) Baldwin : Crusades, I. p. 198.

وتعاهد الأمر بنفسه ، وهو ما لم يفعله إمبراطور منذ زمن ميخائيل الرابع . اعتبر إسحاق أن إعادة تنظيم الجيش هوأهم المسائل ، ويحتاج إلى اهتمام خاص، غير أن هذا التنظيم لا بد له من المال . وكيما يتحصل إسحاق على المال ، التزم بمراعاة التقشف ، واهتم بجباية الضرائب ، وألغى منح الأراضى التى جعلها الأباطرة السابقون لأفراد معينين ، وصادر ممتلكات الأديرة . وصادفت هذه الإجراءات استحسانا وقبولا عند فريق من الناس ، بينما أثارت مقاومة العناصر القوية ، فوقع فى صدام عنيف مع البطريرك القوى ميخائيل كريولاريوس(١).

البطريرك كريولاريوس :

الواقع أن ازدياد قوة الكنيسة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ترجع أساسا إلى شخصية البطريرك كريولاريوس ونفوذه . فلم يكن حرصه على الاستقلال بكنيسة القسطنطينية عن روما ، إلاجانبا من سياسته ، ولا يقل عن ذلك أهمية عنده ، ما تطلع إليه من تعديل العلاقات بين الكنيسة والحكومة فى القسطنطينية ذاتها(٢) .

والمعروف أن البطريرك ميخائيل كريولاريوس ، قام بدور حاسم فى الثورة التى أدت إلى اعتـلاء إسحاق عرش الإمبراطورية البيزنطية . وتوقع البطريرك المكافأة والجزاء ، ولم يخب رجاؤه فى الإمبراطور . إذ جعل له الإمبراطور حق تعيين هيئة إدارة كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية ، بعد أن كان هذا الحق من امتيازات الإمبراطور ، وتعاهد الإمبراطور بألا يتدخل فى أمور الكنيسة ، ولم يعد لنوابه حق الإشراف على أملاك الكنيسة ومواردها ،

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 299
Baldwin : The Crusades, I. p. 198.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 300.

بل صار كل ذلك إلى يد البطريرك[1] . على أن هذا الإجراء دل أيضاً على
أن البطريرك الذى فاق الإمبراطور من الناحية الروحية ، ظفر أيضاً بالاستقلال
المدنى عن الإمبراطور فى إدارة الكنيسة . ولم يقنع كريولاريوس بما حصل
عليه من امتيازات ، بل راوده حلم توحيد السلطتين المدنية والروحية ،
وجمعهما فى قبضة يده ، ولا يتسنى له ذلك ، إلا بأن يصبح بطريركا وإمبراطوراً
معاً[2] . وكلما أدرك كريولاريوس ، أن منصبه ازداد شأناً ، سعى إلى التدخل
فى شئون الدولة ، ولم يعد يخفى مطامعه وأغراضه . واتخذ الخف الأحمر الذى
يعتبر من رسوم منصب الإمبراطور ، بل إنه تطاول على الإمبراطور ، فقال
« لقد رفعتك إلى كرسى العرش ، أيها الغر ، وسوف أهوى بك منه »[3] .
فإذا فكرنا فيما للبطريرك من نفوذ على الرعاع وسائر الناس ، تجلى لنا أهمية
هذا التهديد وخطورته ، وما يصح أن يؤدى إلى ثورة جديدة[4] . واستند
البطريرك ميخائيل كريولاريوس فى دعاويه ، على منحة قنسطنطين ، التى
أضحت لأول مرة عاملا حاسما فى تطور الأمور فى بيزنطة[5] . على أن
الإمبراطور إسحاق كومنين ، لم يكن الشخص الذى يرضى بالافتئات على حقوقه ،
أو يصبر طويلا على ما وجهه إليه كريولاريوس من تأنيب وتقريع[6] ، إذ ازداد
إصراراً على الثقة بنفسه ، واشتد اعتداده فى هيبة منصبه . وترتب على ذلك ، أن
وقع النضال الذى أدى إلى انهيار كل من البطريرك والإمبراطور . تقرر إلقاء
القبض على البطريرك ، على أن هذا الإجراء ليس من اليسير تنفيذه ، لما يستند
إليه كريولاريوس فى قوته ، على تأييد حزب قوى ، فضلا عن محبة الناس

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 300.
Camb. Med. Hist. IV, p. 823.
(٢) Ibid, p. 323.
(٣) Diehl & Marçais : op cit. p. 555.
(٤) Diehl & Marcais : op. cit. p. 555.
(٥) Ostrogorowski : op. cit. p. 300.
(٦) Camb. Med. Hist : IV. p. 823.

له[1] . ولذا لم يجرؤ أحد على أن يشهر عليه السلاح فى القسطنطينية ، ولم يستطع
جند الحرس إلقاء القبض عليه فى ٨ نوفمبر سنة ١٠٥٨ ، وحمله إلى المنفى ،
إلا حين غادر العاصمة لزيارة دير يقع خلف أسوار المدينة . ولم تستطع قوة بأن
تغريه بالتنازل عن حقوقه والإعفاء من منصبه ، تحتم على الإمبراطور أن يعقد
مجمعاً لصدور حكم العزل ، فاجتمع فى بلد صغير ، ووضع بسيللوس عريضة
الاتهام ، التى انطوت على خمس تهم : المروق عن الدين ، والاستبداد ،
والقتل ، وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة وتدنيسها ، وارتكاب الفاحشة ،
وكلها تكفى لعزله من منصبه[2] . على أن ميخائيل لم يكتب له أن يمثل أمام
القضاة ، لأنه مات ، وهو فى طريقه إلى انعقاد المجمع[3] .

وبموت كريولاريوس ، تخلص الإمبراطور من أشد خصومه مراساً
وقوة ، وعلى الرغم من كل ذلك ، ظلت محبة الناس لكريولاريوس بالغة
الحد ، حتى إن إسحاق كومنين لم يسعه إلا أن يظهر تقديره وحبه للبطريرك
المتوفى ، خوفاً من نشوب الثورة فى القسطنطينية . فبادر بالمسير إلى حيث قضى
نحبه ، فأخذ ينتحب أمام قبره ، ويلتمس العفو والصفح عما بدر منه ضده ،
وأمر بنقل جثمانه إلى القسطنطينية فى احتفال مهيب[4] . أما بسيللوس ، فإنه
انتظر حتى نهاية حكم إسحاق كومنين ، ثم ألقى تأبيناً مؤثراً فى البطريرك
الراحل ، وذلك أمام قنسطنطين دوكاس الذى خلف إسحاق على الحكم ،
والذى يمت إلى كريولاريوس بصلة المصاهرة ، بزواجه من ابنة أخت ذلك
البطريرك . وخلف كريولاريوس فى منصبه ، قنسطنطين ليخوديس

(١) Ibid : p. 323.
(٢) Ostrogorowski : op, cit. p. 300.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 555.
Camb. Med. Hist. IV. p. 323.
(٣) Ibid. : p. 823.
(٤) Ibid : p. 323.
Diehl & Marcais : op. cit. p. 555.

Leichudes سنة ١٠٥٩[1] ، بينما اتخذ بسيللوس منصب الوزير الأول[2] .

على أن انتصار إسحاق كومنين على كريولاريوس لم يؤد إلى نتائج هامة إذ لم يمض على وفاة البطريرك شهور قليلة ، حتى غدت سلطة الإمبراطور وقوته رهن الظروف والأحوال الحافلة دائماً بالأسرار[3] . والواقع أن المعارضة التى صادفها إسحاق كومنين ، لم تختف بوفاة كريولاريوس ، بل إن البطريرك المتوفى كان فى مماته أشد خطورة على إسحاق كومنين ، منه أثناء حياته . إذ اشتد سخط العامة ، حين جرى طرد كريولاريوس ، وازداد حدة بعد وفاته ، وبذلك لقى إسحاق كومنين الكراهية من كل من الأرستقراطية البيروقراطية ، والشعب ، والكنيسة ، وأخذت الأحوال تزداد سوءاً وخطورة ، فلم يستطع الإمبراطور معالجة أمور الدولة[4] . فمنذ سنتين ترتب على التحالف بين الكنيسة والقادة العسكريين ، سقوط الإمبراطور ميخائيل السادس ، ولم تلبث الكنيسة أن اتحدت مع زعماء الأرستقراطية المدنية للتخلص من إسحاق كومنين . وفى لحظة يأس ، انتاب إسحاق كومنين أثناء مرضه فى ديسمبر سنة ١٠٥٩ ، تخلى عن العرش ، بناء على نصيحة بسيللوس ، ولجأ إلى دير من أديرة ستوديون ، فارتدى مسوح الرهبان بعد أن عهد بالحكم من بعده إلى أحد رفاقه ، قنسطنطين دوكاس[5] .

ولى العرش قنسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) ، نتيجة التحالف بين الكنيسة والحزب المدنى ، الذى أسهم فى التخلص من حكم بيت

(١) Ibid : p. 555.
(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 301.
(٣) Camb. Med. Hist. IV. p. 324.
(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 301.
(٥) Ibid : p. 301.
Camb. Med. Hist. IV. p. 324.
Diehl & Marçais : op. cit. p. 556.
Psellus : op. cit. pp. 245—252.

كومنين . كان قنسطنطين من أصدقاء بسيللوس والبطريرك قنسطنطين ليخوديس ، وتزوج من ايدوسيا مكريمبوليتيسا Macrembolitissa ، ابنة أخت كريولاريوس . على أن خلع إسحاق كومنين وتولية قنسطنطين ، لم يكن إلا بتدبير بسيللوس ، الذى بادر بوضع الخف الأحمر فى قدمى الإمبراطور الجديد ، فى حضور أشهر ممثلى الحزب السناتورى[1] . وتحقق بذلك غرض بسيللوس ، إذ صار يسيطر على سياسة الإمبراطورية ، باعتباره مستشارا للإمبراطور ، ومؤدباً لابنه وولى عهده[2] . اشتد إعجاب الإمبراطور بالفيلسوف العالم ، والخطيب المفوه ، فصار لايطيق فراقه ، ويعتمد عليه فى كل ما يرجوه من نصيحة[3] .

وإذ قام بيت كومنين بتمثيل الأرستقراطية العسكرية بآسيا الصغرى ، فإن بيت دوكاس ، يمثل الأرستقراطية المدنية بالعاصمة . ولم يكن رد الفعل العسكرى الذى حدث زمن إسحاق كومنين سوى إجراء عابر ، وتحتم أن يتولى الحكم ، الحزب المدنى (البيروقراطى) وأن يوطد نفوذه[4] . ووفقاً لما ساد زمن قنسطنطين التاسع ، حاول الحزب المدنى البيروقراطى ، أن يزيد من سلطانه ، بأن جعل لأهل القسطنطينية الحق فى أن يلحقوا بالطبقة السناتورية ، فازداد بذلك عدد السناتورين حتى صاروا ، على حد قول أحد المعاصرين ، كأنهم فرقة من الجيش[5] ، وغلب على الإدارة الصفة المركزية . وأفاد قنسطنطين دوكاس من نظام جباية الضرائب ، بل أكثر من ذلك لجأ إلى بيع الوظائف فى الإدارات الرئيسية للمالية ، فأضحى من اليسير شراء امتياز جباية الخراج ، بل أهم إدارة تشرف على ماليه البلاد[6] .

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 301.
(٢) Ibid : P. 301.
(٣) Psellus : op. cit. pp. 249, 261.
(٤) Ostrogorowski : op. cit. p. 302.
(٥) Ostrogorowski : op. cit. p. 302.
(٦) Ibid. p. 302.

وعلى الرغم من أن قلسطنطين العاشر دوكاس ، ينتمى إلى أسرة اشتهرت بمن ظهر فيها من قادة وزعماء عسكريين ، فإنه كان يمقت حياة الجندية . وإذ ولى العرش بتأثير الحزب المدنى ، فإن هذا الوضع واقترانه بميله الخاص ، وهو العزوف عن الجندية ، أدى إلى أن تكون سياسته مخالفته لسياسة سلفه العسكرية . وفى أثناء حكمه اكتمل تفكك نظام الجيش، فتقرر إنقاص ما هو مقرر له من نفقات ، ونقل قادته من السجلات . وما اشتهر به قنسطنطين من السخاء فى بذل التشاريف والوظائف ، لم يمتد أثره إلى العساكر ، بل جعلها للموظفين المدنيين . وما كانت تنطوى عليه مهنة الجندية ، فى أيام بيزنطة المجيدة ، من الهيبة والشرف والمكانة ، لم يعد لها قيمة وأهمية ، إذ أن العساكر ، على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين ، « طرحوا جانبا أسلحتهم وأضحوا رجال قانون أو محلفين » ، غير أن الإمبراطورية لم تكن فى حاجة إلى رجال قانون أو محلفين[١] . ومن الدليل على الزراية بقادة الجيش والاستخفاف بهم ، ما حدث فى أحوال كثيرة ، من تعيين مدنيين فى قيادة الجيش[٢] . ومن قبيل احتقار العساكر ، ما حدث فى بعض المواضع على أطراف الإمبراطورية ، التى لم يكن بها قوة عسكرية كافية ، أنه حينما تعرضت للغزو ، تقرر إقامة الصلاة العامة ، والتمس الناس من الله وقوع المعجزات[٣] . وتبين أن شراء السلام من المتبربرين لأقل كلفة من إعداد العساكر لقتال هؤلاء المتبربرين ، وذلك هو النصر النهائى ، الذى أحرزه ، فيما يبدو ، الحزب المدنى[٤] . ولم يجد الأتراك السلاجقة فى آسيا

(١) Baldwin : The Crusades : p. 198.
Diehl & Marçois : op. cit. p. 557.

(٢) Ibid : p. 557.

(٣) Ibid : p. 557.

(٤) ibid : p. 557.

الصغرى ، والبجناك والغز فى شبه جزيرة البلقان، من يتعرض لهم أثناء سيرهم وزحفهم . والواقع أن قنسطنطين العاشر مضى فى إهماله أمر الجيش ، وأدرك هذه الحقيقة فئة من أقرب المستشارين إلى قلبه . وأعلن بسيللوس أن من أشد الأخطاء الجسيمة التى ارتكبها الإمبراطور ، أنه أغفل ما كان عليه الجيش البيزنطى من اضطراب فى نظامه ، فى وقت تعرضت فيه الإمبراطورية لضغط الأعداء من جميع الجهات[١] . ولعل السبب فى ذلك يرجع من جهة ، إلى الخوف من ازدياد نفوذ الحزب العسكرى بعد أن ظفر إسحاق كومنين بالعرش ، ومن جهة أخرى ، إلى الضيق المالى ، الذى فرض سياسة التوفير على الجيش ، بينما ازدادت نفقات الأداة الحكومية كلما كثر عدد الموظفين . وجرى الإكثار من بذل الهبات للكنيسة ، التماساً لرضاها وعطفها . وبذلك تضافرت المطامع السياسية للطبقة الحاكمة ، مع المشاكل المالية ، فى تقويض أسباب الدفاع عن الإمبراطورية[٢] .

وبوفاة قنسطنطين العاشر دوكاس فى مايو سنة ١٠٦٧ ، انتقل السلطان إلى أيدى زوجته ايدوسيا ، التى كان عليها أن تقوم بالوصاية على أبنائها الصغار ، ميخائيل وأندرونيكوس وقنسطنطين . والوقع أن الحكومة صار يسيرها بسيللوس والقيصر حنا دوكاس ، شقيق الإمبراطور الراحل . وفى تلك الأثناء ازدادت قوة المعارضة بما وقع من كوارث على أطراف البلاد واشتدت الحاجة إلى قيام حكومة عسكرية فلم يسع الإمبراطورة ايدوسيا إلا أن تتزوج من القائد رومانوس ديوجينس ، من زعماء قبادوقيا ، فجرت المناداة به إمبراطوراً فى يناير سنة ١٠٦٨[٣] .

(١) Baldwin : The Crusades, p. 199.

(٢) Ostrogorowski : op. cii. d. 302.
Camb. Mec. Hist. IV. p. 424.

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 304.

اشتهر رومانوس الرابع ديوجينس (١٠٦٨ — ١٠٧١) ، بأنه قائد مجرب باسل ، امتاز بالتفوق فى الحرب ضد البجناك ، فكان جديراً بما تمتع به من شهرة عظيمة فى الحزب العسكرى ، فبادر فوراً إلى ملاقاة السلاجقة ، غير أن التفكك بلغ أقصاه ، فلم تصادف محاولة الإمبراطور إنقاذ الموقف سوى الدمار ، بسبب ما دبره حزب بسيللوس من خطط خفية ماكرة . وبذل رومانوس جهداً كبيراً فى حشد جيش ، تألف معظمه من المأجورين ، من البجناك والغز والنرمان والفرنج . وعلى الرغم من كل ما صادفه الإمبراطور من المشاكل ، ظفرت حملتاه سنة ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ببعض النجاح ، غير أن الحملة الثالثة انتهت بهزيمة ساحقة . فى مدينة مانزيكرت بأرمينية ، بالقرب من بحيرة وان ، حل الدمار بالجيش البيزنطى بقيادة الإمبراطور البيزنطى ، والذى تفوق فى العدد على الجيوش السلجوقية بقيادة ألب أرسلان ، وذلك سنة ١٠٧١ (١٩ أغسطس) ، ووقع الإمبراطور أسيراً فى أيدى السلطان السلجوقى[1] .

وفى أثناء أسره ، عقد رومانوس ديوجينس معاهدة مع السلاجقة ، تقضى بإطلاق سراحه ، بشرط أن يدفع جزية سنوية ، ويبذل الفدية عن شخصه ، وأن يتعاهد بأن يطلق سراح الأسرى الترك ، وأن يقدم مساعدة عسكرية للسلاجقة عند طلبهم . وفى هذه الأثناء حدث بالقسطنطينية ، أن اشتدت المعارضة ، وأصرت على عزل رومانوس ، وولى العرش الإمبراطورة وابنها الأكبر ميخائيل دوكاس . غير أنه تقرر إنزال الإمبراطورة فى الدير ، فى أكتوبر ١٠٧١ ، وتولى الحكم منفرداً ، ميخائيل السابع ، تلميذ بسيللوس . ولما عاد رومانوس من أسره ، صادفته مقاومة عنيفة من الحزب الذى يسيطر على الحكومة ، فاندلعت الحرب الأهلية ، وأذعن رومانوس آخر الأمر ، بعد أن حرص على أن يؤدى

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 304.

ما تعاهد به من دفع الفدية ، فأداها بالنيابة عنه ثلاثة من المطارنة ، ومع ذلك جرى سمل عينيه ، ولم يلبث أن مات رومانوس ، متأثراً بجراحه سنة ١٠٧٢[1] .

الواقع أن هذه النهاية المحزنة هى التى حولت الهزيمة فى مانزيكرت إلى مأساة مريعة . لأن المعاهدة التى وقعها ألب أرسلان ، أفاد منها السلاجقة فى مواصلة غزو بيزنطة ومحاولة الاستيلاء عليها[2] . وترتب على كارثة مانزيكرت ، أن تهيأت الفرصة للحزب المدنى ، أن يسيطر على الحكومة ، وأن يجعل فى الحكم ميخائيل السابع ، أكبر أبناء قنسطنطين العاشر ، دوكاس . وقد نشأ الإمبراطور الجديد وتربى على أرفع المستويات الأدبية المعروفة وقتذاك ، إذ كان من تلاميذ بسيللوس ، فزاد اهتمامه بالخطابة والفلسفة والشعر ، وحرصه على إدارة الحكومة . ويعتبر عهده بداية التفكك التام للحكومة ، إذ اندلعت الفتن والثورات فى كل مكان . ففى الأقاليم الأوربية ، نادى بنفســه إمبراطوراً نقفور بريينيوس Nicephorus Bryennius حاكم دورازو ، بعد أن جرى تهديده بالعزل . على حين أن أعيان آسيا الصغرى وسادتها ، نصبوا نقفور بوتانياتس Botaniates ، الذى عزل ميخائيل السابع ، وتولى عساكره بقيادة ألكسيوس كومنين ، إنزال الهزيمة بجيش بريينيوس ، ولم يلبث ألكسيوس أن طرد بوتانياتس من الحكم ، وفى نفس الوقت أعلن العصيان فى آسيا الصغرى نقفور مليسينس ، ولم يستقر الأمن إلا بعد انتصار ألكسيوس كومنين سنة ١٠٨١ ، غير أن هذه الحروب الداخلية ، هيأت للسلاجقة الفرصة أن يوطدوا سلطانهم فى آسيا الصغرى[3] .

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 305.

(٢) Ibid : P. 305.

(٣) Baldwin : The Crusades, p. 199.
Camb. Med. Hist. IV, pp. 326–328.

الواقع أنه خلال الفترة الممتدة من سنة ١٠٤٢ ، منذ أن تولى قنسطنطين مونوماكوس الحكم ، حتى سنة ١٠٨١ حين أصبح ألكسيوس إمبراطوراً ، دأب الأباطرة ، باستثناء إسحاق كومنين ورومانوس الرابع ديوجينس ، على إضعاف قوة الجيش . ولم يكن الهدف من هذه السياسة ، سوى إضعاف قوة وسلطان كبار القادة العسكريين ، غير أن هذا الهدف لم يتحقق ، بل إن الجهود التى بذلت فى سبيل ذلك ، أدت إلى أن تنغمس الإمبراطورية فى حروب داخلية متصلة . غير أن ما هو أخطر من ذلك ، ما تعرض له العساكر النظاميون من أحوال بالغة السوء ، وهؤلاء العساكر هم الذين منحتهم الحكومة إقطاعيات صغيرة من الأراضى مقابل الإفادة من خدماتهم ، وهم الذين قاموا بدور كبير فيما جرى فى القرن العاشر من انتصارات كبيرة[1] . وصف المؤرخ البيزنطى Skylitzes الجيش الذى قاده رومانوس فى إحدى حملاته ضد السلاجقة ، « بأن الجيش تألف من عساكر من المقدونيين والبلغار والقبادقيين والفرنج والورنك ، فضلا عن المتبربرين الذين يصح أن يصادفوهم . واحتشد أيضا من العساكر أولئك الذين نزلوا فى فريجيا (ثغر الناطليق) وما نشاهده فيهم (أى عساكر الناطليق) ، يعتبر من الأمور التى لا يمكن تصديقها ، فقادة الروم المشهورون ، الذين أخضعوا كل الشرق والغرب ، أضحوا الآن فئة قليلة العدد ، أضعفها وأذلها الفقر وسوء المعاملة ، افتقروا إلى الأسلحة ، والسيوف ، والرماح ، والحراب ، واحتاجوا أيضاً إلى الفرسان وسائر المعدات اللازمة ، لأن الإمبراطور لم يخرج القتال منذ زمن طويل ، ولهذا السبب ، لم يكن لهم أهمية أو قيمة ، فانخفضت أجورهم ، وقلت النفقات التى تجرى عليهم »[2] . ونظراً لما أصاب العساكر

(١) Baldwin : The Crusades, p. 199.

(٢) Ibid : p. 200

النظاميون من التداعى والإهمال ، تضاءل شأنهم فى الجيش البيزنطى ، وتألف معظم الجيش البيزنطى فى القرن الحادى عشر من الجنود الأجانب المأجورة ، من الروس والترك واللان والإنجليز والنرمان والجرمان والبجناك والبلغار وغيرهم[1] . والواضح أن هؤلاء المأجورين إنما تتحكم فيهم أغراضهم ومصالحهم الخاصة لا مصالح الإمبراطورية ، وما جلبوه من الضرر فاق كل ما أدوه من خدمات[2] .

وأشد عناصر الجند المأجورة قلقا وإثارة للاضطراب ، هم النرمان ؛ إذ كان لقادتهم مكانة هامة فى الجيش ، بل إن منهم من حصل على أراضى مقابل الخدمة الحربية ، غير أن أقل إثارة كانت كفيلة بتحريضهم على الثورة والتمرد . وأشار المؤرخون البيزنطيون إلى ثلاثة من قادة النرمان ، اشتهروا بالتمرد ، والشدة فى القتال وسرعة الإثارة ، وهؤلاء الثلاثة كانوا هيرفيه Herve ، وروبرت كريسبين Crispin ، وروسيل بايلييل Bailleul ، فانسحب هرفيه من الجيش البيزنطى ولجأ إلى الترك سنة ١٠٥٧ ، وأعلن كريسبين تمرده سنة ١٠٦٨ ، ويعتبر بايلييل أكثر الثلاثة طموحاً ، وأشدهم عنفاً فى الغارات والنهب ، والراجح أنه دخل فى سنة ١٠٧٠ ، فى خدمة الدولة البيزنطية مع جماعة كبيرة من أتباعه ومواطنيه[3] . وقام بدور مزدوج فى معركة مانزيكرت ، وبعد سنتين ، أعلن صراحة الثورة ضد الحكومة البيزنطية ، وأراد أن يقوم بدور صانع الأباطرة . ولما حلت به الهزيمة ، انسحب إلى داخل

(١) Baldwin : The Crusades, p. 200.
Vasiliev, A. A. "The Opening Stages of the Anglo- Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century." Annales de L'Institut KondaKov IX, (1937) p. 39 ff.
Cawkins. R. M. : The Later History of the Varangian Guad - Journal of Roman Studies, XXXVII, (1947), 39 ff.

(٢) Baldwin : The Crusades, p. 200.

(٣) Ibid : pp· 200—201.

آسيا الصغرى ، حيث أراد أن يقيم لنفسه إمارة ، كأن يفعل مثلما فعله مواطنوه بإيطاليا . ولم يقع فى أيدى البيزنطيين إلا بالخيانة ، وكان ألكسيوس هو الذى دبر هذا الأمر ، وذلك أثناء خدمته زمن ميخائيل السابع (١) .

ومن العناصر الأخرى التى خدمت بالجيش البيزنطى ، إلى جانب النرمان ، الغز Uges ، وقد تخلوا عن مواقعهم فى معركة مانزيكرت ، وانحازوا إلى الترك السلاجقة ، فأسهموا بذلك فى هزيمة البيزنطيين . على أن أكثر العساكر الأجنبية فى الجيش البيزنطى إفادة من الأحوال المضطربة التى انغمرت فيها الإمبراطورية بعد مانزيكرت ، كان الترك السلاجقة ، الذين دخلوا فى خدمة بعض القادة البيزنطيين . إذ حاول رومانوس الرابع ديوجينس ، بعد إطلاق سراحه ، أن يستعين بالقوات التركية المساعدة فى استرداد عرشه ، وحذا حذوه معظم الأباطرة الذين خلفوه . فحينما أعلن روسيل بايليل تمرده ، استدعى ميخائيل السابع القوات التركية لقمعه . وحاول هذا الإمبراطور أيضاً ، أن يقمع ثورة نقفور بوتانياتس ، بالالتجاء إلى مساعدة المنصور وسليمان ، وهما أخوان يمتان بصلة القرابة إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقى . والواقع أن السلاجقة استطاعوا بفضل هذه القوات المساعدة ، التى تعمل بخدمة الدولة البيزنطية ، أن يوطدوا سلطانهم فى غرب آسيا الصغرى . واتفق منصور وسليمان أن ينهضا لمساعدة ميخائيل السابع ، غير أنهما فى الوقت ذاته لم يلبثا أن انحازا إلى بوتانياتس ، بعد أن وعدهما بالأموال المجزية . فأنزلهما بوتانياتس فى نيقية ، فاستقرا بها ، وجعلا من نفسيهما أميرين بهذه الجهات . وبهذه الوسيلة فقدت بيزنطة ، نيقية ، ومدن غلطية Galatia ، وفريجيا . واستند نقفورمليسينس فى تمرده على بوتانياتس ، بالمأجورين الترك . ففتحت مدن غلطية وفريجيا أبوابها له ، فشحنها بالجند الترك ، ولما لم يصل نقفور

(١) Baldwin : The Crusades, p. 201.
Camb. Med. Hist. IV. p. 327.

مليسينس إلى العرش ، تولى أمر هذه المدن القوات التركية المرابطة بها . وباستخدام البيزنطيين للترك على أنهم عساكر مأجورة ، جعلوا منهم سادة على غرب آسيا الصغرى فى الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٨ و ١٠٨١ (١) .

على أن تداعى العساكر النظامية ، أدى إلى نتائج هامة فيما يتعلق بالبناء الاجتماعى للإمبراطورية . فالمعروف أن إنشاء الإقطاعات الحربية فى القرنين السابع والثامن ، أسهم إلى حد كبير فى نمو طبقة صغار الملاك من الفلاحين . وبينما يرث الابن الأكبر للعسكرى الوارد اسمه بجريدة الجيش ، ما بحوزة أبيه من الأرض ، مقابل الالتزام بالخدمة العسكرية ، كانت بقية أفراد الأسرة أحراراً ، يقومون بإصلاح وزراعة ما كان خالياً من الأراضى ، وبذلك انضموا إلى مجموع الملاك من الفلاحين الأحرار . غير أن انحطاط وانهيار العساكر الواردين بجريدة الجيش ، أضعف العنصر الحر فى البناء الزراعى للإمبراطورية ، وأسهم فى تداعى صغار الملاك من الفلاحين (٢) . ومع ذلك فإن السبب الأساسى لتداعى الفلاحة الحرة فى بيزنطة ، إنما يرجع إلى نهم الطبقة الأرستقراطية وميلها إلى السيطرة ، فاستخدمت ثروتها ومكانتها الرسمية ، كيما تلتهم ما فى يد الفلاحين من حيازات (أراضى) . فانهيار الفلاحة الحرة ، ونمو الضياع الكبيرة ، يعتبر من أهم خصائص تاريخ بيزنطة الاجتماعى فى القرنين العاشر والحادى عشر (٣) .

أدرك الأباطرة الكبار فى القرن العاشر ، خطورة ما كان لهذا التطور من دلالة سياسية واجتماعية ، وحاولوا عرقلته (٤) . وحرص كل من الأباطرة

(١) Baldwin : The Grusades, I. p. 201.

(٢) Ostrogorowski : Agrarian Conditioos in the Byzantine Empire in the Middle Ahes—Cambridge Economic Histroy, I. p. 196.

(٣) Baldwin : The Crusades I. p. 202.

(٤) Charanis : On the Social Structure of the Later Roman Empire, Byzantin XVII (1944—1945) p. 52. note 51. : Economic Factors in the Decline of the Byzantine Empire, Journal of Economic History, XIII (1953). P. 412 ff.

الكبار ، ابتداء من رومانوس ليكابينوس حتى باسيل الثانى ، باستثناء حنا زمسكيس ، على أن يصدر قرارات لهذا الغرض . وأشار رومانوس ليكابينوس ، فى أحد متجدداته (الصادر سنة ٩٣٤) ، إلى « أننا لم نتخذ هذه الإجراءات بدافع الكراهية والحقد على الأغنياء ، بل من أجل حماية الضعفاء ، وسلامة الإمبراطورية ، إذ أن امتداد سلطة الأقوياء ، سوف يؤدى إلى ضياع الصالح العام . فإذا لم يستطع القانون الحالى أن يوقف هذه السلطة ، فإن الكثرة النازلة بالأرض هى التى تسد الحاجات العامة ، والتى تؤدى الضرائب ، وتمد الجيش بالعساكر ، فكل شىء يهوى ، إذا تناقص عدد النازلين بالأرض » . وأشد ما جرى اتخاذه من إجراءات لحماية الفلاحة الحرة ، هو ذلك التدبير الذى اتخذه باسيل الثانى فيما يتعلق بالضريبة المعروفة باسم ضريبة الضمان ، allelengyon[1] . غير أنه بوفاة باسيل الثانى ، ضاع عبثاً كل مجهود بذل لوقف نمو الضياع الكبيرة . وما أصدره باسيل من قانون الضمان المتبادل ، وما اتخذه من إجراءات ، تقرر بعد وفاته بطلانها أولم يعمل بها ، وبذلك تحدد نهائياً مصير الفلاحة . وما أنشبته فى القرن الحادى عشر الحكومة المركزية ، من نضال ضد الزعماء العسكريين ، لم يكن الغرض منه حماية الفلاحة الحرة . والواقع أن الحكومة بما بذلته لأنصارها من منح ، أسهمت فى ازدياد نمو الضياع الكبيرة . ومنذئذ أضحت الضياع الكبيرة ، تؤلف المظهر السائد للاقتصاد البيزنطى ، ويقوم بالعمل فى هذه الضياع فلاحون مستأجرون ، اشتهروا فى المصادر البيزنطية باسم Paroikoi ، وهم عبارة عن أناس أحرار ، غير أنهم ارتبطوا بالتزامات معينة ، وبأعمال سخرة ، عرقلت تحركهم وانتقالهم . على أنه لازال ثمة بقية من الملاك الفلاحين ، غير أنه لم يكن من اليسير تمييزهم عن الفلاحين المستأجرين Paroikoi . وإلى جانب ما يؤديه هؤلاء الفلاحون من أعمال للسيد ، كان لم

(١) Baldwin : The Crusades I. p. 202.

مساحات من الأراضى ، يؤدون عنها إيجاراً ، ويقومون بالتزامات متنوعة ، ولا يطردون منها ، بعد انقضاء سنوات معلومة . وهذه الأراضى تنتقل من الأب إلى الابن[1] .

وتعتبر الفلاحة الحرة ، كما صرح الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، العامل الأساسى فى قوة الإمبراطورية . وتقوم هذه الطبقة بزراعة الأرض ، وتسد الحاجات العامة ، فتؤدى الضرائب ، وتمد الجيش بالعساكر . على أن عامل القوة لم يلبث أن دمره وقوضه ، ما حدث من تناقص فى أملاك الفلاحين الأحرار ، وتزايد الضياع الكبيرة . والمعروف أن كل الأراضى فى بيزنطة تخضع من الناحية النظرية للضريبة ، غير أنه لم يكن من اليسير ، باستمرار ، جباية الضرائب من كبار الزعماء ، الذين حازوا ، بفضل نفوذهم فى الإدارة ، إعفاءات هامة . اشتدت الحاجة إلى المال طوال القرن الحادى عشر ، وذلك يرجع من جهة إلى ما اشتهر به بعض الأباطرة من التبذير والإسراف ، ومن جهة أخرى إلى تناقص الدخول ، بسبب منح إعفاءات عديدة ، والفشل فى جباية الضرائب المقررة . ومن الأشياء التى تعرض بسببها إسحاق كومنين للتأنيب ، وكراهية الناس له ، التجاؤه إلى إلغاء ما بذله أسلافه من الحقوق والمنح ، وحرصه على جباية الضرائب . على أنه إذا استطاع كبار الزعماء العسكريين أن يفلتوا من دفع الضرائب ، فإن الفلاحين الذين يؤلفون السواد الأعظم من السكان ، والذين أضحوا وقتذاك مستأجرين ، لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا . فكان لزاماً عليهم أن يتحملوا ما جرى من تزايد أعباء الضرائب ، فضلا عن الأنواع المختلفة من السخرة ، ولم يعد لرخاء الدولة وسعادتهم معنى عندهم[2] . ولم يبد الفلاحون

(١) Baldwin : The Crusades, I. p. 203.

(٢) Baldwiu : The Crusades, I. p. 203.

بداخل آسيا الصغرى مقاومة للترك عند غزوهم للبلاد . أما الطبقة العسكرية التى يصح أن تبذل المقاومة الفعلية ، فدمرها نمو الضياع الكبيرة ، والنضال الذى نشب بين الحزب المدنى (البيروقراطى) والحزب العسكرى ، فى القرن الحادى عشر . ولم يتوافر لدى العساكر الإرادة أو العدة للقتال ، بعد أن جرى إغفالهم ، وتعرضوا للفقر . وأسهم فى تجزئة الإمبراطورية وتفككها المأجورون الذين حلوا مكانهم[1] .

فما حدث من نمو الضياع الكبيرة ، وما تلى ذلك من تداعى الفلاحة ، إنما نجم من تطور نظام الإقطاع البيزنطى . إذ قام هذا النظام الإقطاعى ، على النظم التى تطورت فى القرن الحادى عشر ، وهذه النظم هى المعروفة بأسماء البرونويا Pronoia ، Charistikion ، exkousseia[2] .

فالبرونويا pronoia ، عبارة عن قطعة أرض تغل خراجا ، تبذلها الحكومة لأحد الأشخاص ، مقابل ما يؤديه من خدمة ، كانت عادة خدمة حربية غير أنها ليست دائماً كذلك ، وظهر هذا الإجراء فى منتصف القرن الحادى عشر . وتألفت المنحة عادة من الأرض ، غير أنه يصح أن تكون نهراً أو مصيدة أسماك ، واشتهر صاحبها باسم pronoiarios ، واختلفت المنحة فى حجمها ، فتراوحت بين قطعة أرض كبيرة المساحة ، أو قرية واحدة ، أو ضيعة تكفى أسرة لتعيش عليها . وتبذل المنحة لفترة معينة ، تبلغ عادة ، لا دائماً ، مدى حياة حائزها . ولا يجوز انتقالها إلى ورثة حائزها ، وللخزانة الإمبراطورية أن تستردها متى شاءت . ويخدم صاحب البرونويا فى الجيش على أنه ضابط ، وأن يقدم عند الدعوة للمسير للقتال من العساكر عدداً يتوقف كثرة وقلة على مساحة إقطاعه . ولم تكن البرونويا ، فى

(١) Baldwin : The Crusades, I. p. 204.

(٢) Ibid : p. 204

مستهل أمرها منحة تبذل أساساً من أجل الخدمة الحربية ، غير أنها ارتبطت بالخدمة العسكرية زمن ألكسيوس كومنين ، ومن تلاه من الأباطرة . على أن التوسع فى استخدامها أسهم إلى حد كبير ، لا فحسب فى نمو الضياع الكبيرة ، بل أيضا فى تطور النظام الإقطاعى ؛ وبذلك أضعف الإدارة المركزية[1] .

أما ما يعرف باسم Charistikion ، فإنه ليس إلا تطوراً ارتبط بإدارة ممتلكات الأديرة . فالواضح أن الكنائس والأديرة فى بيزنطة حازت أملاكاً شاسعة ، حتى بلغت فى نهاية القرن السابع الميلادى ، على حد رأى مؤرخ ثقة ، نحو ثلث أراضى الإمبراطورية المستغلة . وصادر الأباطرة اللاأيقونيون فى القرن الثامن الميلادى جانباً كبيراً من هذه الأراضى ، غير أنه لما انهزمت اللاأيقونية ، أخذت هذه الأراضى تتجمع من جديد عند الكنائس والأديرة . وما بذله أباطرة القرن العاشر ، ولا سيما نقفور فوقاس ، من جهود لمنع نمو هذه الأراضى وتزايدها ، لم تصادف نجاحاً . وحوالى منتصف القرن الحادى عشر كانت أملاك الأديرة لا تقل شأناً عن أملاك الإمبراطور[2] .

وما ترددت فيه الإمبراطورية البيزنطية من مشاكل مالية ، فى القرن الحادى عشر الميلادى ، دفع الإمبراطور إسحاق كومنين إلى أن يفكر فى مصادرة ممتلكات الأديرة ، إذ أن إسحاق كومنين اهتم أساساً بتدبير الأموال اللازمة لتجديد القوة الحربية فى الإمبراطورية ، غير أنه كان يأمل

(١) Ostrogorowski : Pour L'Histoire de la Feodalité Byzantine, Brurssels 1954. pp. 13—16.

Baldwin : The Crusades, I. p. 204.

(٢) Baldwin : The Crusades, I. pp. 204—205.

Charanis : The Monastic Properties and the State in the Byzantine Empire. Dumbarton OaKs Papers, IV. (1948) pp. 65—91.

فى الوقت ذاته بأن هذا الإجراء سوف يساعد أيضاً فى تحسين أحوال الفلاحين ويشير المؤرخ أتالياتس Attaliates ، إلى أن هذا التدبير يصح أن يفيد فى ناحيتين : (١) إذ أنه يحرر الفلاحين ويخلصهم من الأعباء الثقيلة ، لأن الرهبان بفضل استنادهم إلى ضياعهم الشاسعة الوافرة الثروة ، أرادوا أن يرغموا الفلاحين ، على أن يتخلوا عن الأراضى التى فى بحورهم . (٢) استطاعت الخزانة العامة ، التى جرى إرغامها بطرق مختلفة على أن تنفق كل مواردها ، أن تحصل على مساعدات لا تخلو من أهمية ، دون أن تلحق ضرراً بالآخرين[١] . غير أن هذا الإجراء أدى إلى كراهية إسحاق ، ويعتبر من العوامل التى أدت إلى تنازله عن العرش . وتخلى الأباطرة الذين خلفوه فى الحكم ، عن سياسة المصادرة المباشرة ، غير أنهم فى الوقت ذاته ، لم يكفوا عن الإفادة من أملاك الأديرة . على أنهم لم يستخدموا هذه الممتلكات فى إصلاح مالية الإمبراطورية ، بل أفادوا منها فى مكافأة أصدقائهم والمقربين إليهم ، ولتحقيق ذلك لجأوا إلى استغلال نظام بيزنطى قديم ، وهو المعروف باسم Charistikion ، لايختلف عن النظام المعروف فى الغرب باسم إقطاع الاستغلال beneficium[٢] .

وما هو معروف باسم Charistikion ، عبارة عن منحة تألفت من دير أو أكثر من دير ، بما يتبعها من أملاك ، والأديرة الممنوحة بهذه الصورة تظل أديرة ، ولا تفقد حقها فى ممتلكاتها ، غير أن إدارتها تخضع لتوجيه الأشخاص الذين جرى بذل الأديرة لهم . ويتعاهد هؤلاء الأشخاص بأن يؤدوا للرهبان ما يساعدهم فى حياتهم ، ويقوموا بالمحافظة على مبانى الأديرة ، ثم يخصون أنفسهم بما تبقى من الموارد[٣] .

(١) Baldwin : The Crusades, I. p. 205.
Charanis : The Monastic Properties. p. 68.
(٢) Baldwin : The Crusades, I, p. 205.
(٣) Ibid : p. 206.

وهذا الإجراء كان فيما يبدو معروفاً منذ القرن الخامس الميلادى ، وابتدعه رجال الكنيسة أنفسهم ، للتحايل على قوانين الكنيسة ، التى لا تجيز انتقال أملاك الأديرة . وأفاد الأباطرة اللاأيقونيون من هذا الإجراء، واستغلوه إلى حد كبير فيما بذلوه من جهود لإضعاف الديرية ، غير أنه لم يلبث أن بطل استخدامه بعد هزيمة اللاأيقونية ، وظهر من جديد فى القرن العاشر الميلادى وبلغ انتشاره الذروة فى القرن الحادى عشر . والمعروف أن هذا الإجراء كان يقصد به أصلا الأديرة التى تعرضت للتداعى والانهيار، وكان الغرض من استخدامه إصلاح الأديرة وتحسين أحوالها . غير أن الأديرة الوفيرة الثروة ، لم يلبث أن شملها هذا الإجراء ، ولم يجر ذلك لصالحها أو لصيانتها ، بل لمصلحة الذين حظوا بها . هذا ما حدث فى القرن الحادى عشر ، إذ أن كثيراً من هذه الأديرة التى بذلت فى القرن الحادى عشر إنما منحها رجال الكنيسة ، غير أن جانباً غير قليل منها ، منحه الأباطرة أيضاً ، فبذلوها لأصدقائهم والمقربين لهم . وبهذه الوسيلة ، ضمنوا تأييد هؤلاء الأفراد الذين منحوهم هذه الأملاك ، غير أنهم فى الوقت ذاته ، زادوا فى طبقة أرستقراطية الملاك المزارعين ، التى بلغت من الثراء والسلطان ما هدد بتقويض الحكومة المركزية وأصبح الحائز لأراضى الدير يعرف باسم Charistikarios ، وتبقى الأرض فى حوزته طوال حياته[١] .

وعلى الرغم من أن أملاك الأديرة وسائر الملكيات الكبيرة ، تخضع من الناحية النظرية للضرائب وسائر الالتزامات ، فالواقع أن الحائزين لها ، حصلوا على إعفاءات كثيرة . وهذه الإعفاءات ، صار بذلها فى منحة خاصة ، اشتهرت فى الوثائق البيزنطية باسم exkousseia[٢] .

(١) Baldwin : The Crusades I. p. 206.
(٢) Baldwin : The Crusades I, p. 206.

ومع أنه لم يعرف التاريخ الذى يرجع إليه نظام الإعفاء ، فإنه كان قائماً فعلا فى القرن الحادى عشر[١] . ولا شك أن المصطلح ذاته ليس إلا صيغة يونانية للفظة اللاتينية excusatio (excusare) ، وباعتباره نظاماً أو إجراء ، تضمن الإعفاء من الضرائب ومن أنواع السخرة المختلفة ، والاستقلال عن الإدارة القضائية ، فى حدود معينة . هذه المنح المتعلقة بالإعفاءات إنما تبذلها الحكومة للأديرة والضياع الكبيرة . ويرجع معظم الوثائق المتعلقة بنظام الإعفاءات exksusseia ، إلى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر ، وفى ذلك دليل على أن هذا النظام تبلور أثناء هذه الفترة . وبذا أصبح فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر إجراء ثابتا ، يقضى ببذل الإعفاءات ولا سيما من الضرائب ، فى وقت اشتدت فيه حاجة الخزانة إلى كل ما تسيطر عليه من موارد[٢] .

وعلى الرغم من اتساع أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، وما لها من قوة ظاهرية ، فالواقع أن الإمبراطورية بعد وفاة باسيل الثانى ، فى القرن الحادى عشر ، لم تكن سليمة البنيان . فما أصاب الفلاحة من انهيار ، حرمها من دعامة قوية تستند إليها ، وما نشب من النضال بين الحزبين المدنى والعسكرى بدّد جهودها وطاقاتها ، وأتم انهيار أقوى ما لديها من قوة عسكرية . والتفتت السعاكر المأجورة إلى مصالحهم الخاصة ، وما أنزلوه بالبلاد من الضرر يفوق نفعهم .. يضاف أن شيوع نظام الاقطاع ، ونمو الضياع والاعفاءات ، تعتبر البذور التى أدت إلى تفكك وتجزئة الدولة[٣] .

---

(١) Charanis : The Monastic Properties and the State. pp. 65—67.

(٢) Baldwin : The Crusades, I. P. 206.

Ostrogorowski : Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages. Cambridge Economic History I. pp. 212—215.

(٣) Baldwin : The Crusades, I. p. 207.

الأخطار الخارجية :

أحرزت القوات البيزنطية ، البرية والبحرية ، انتصارات باهرة ، فى العشرين سنة التالية لوفاة باسيل ، فردت الأعداء فى الشرق ، والشمال . والغرب ، وحافظت على حدود الإمبراطورية ، بل إن هذه الحدود اتسعت فى بعض الجهات . على أن أعداء أقوياء ظهروا على امتداد أطراف الدولة البيزنطية ، ولم تكن غاراتهم أول الأمر عنيفة ،ولم تلبث أن ازدادت عنفا ، وأضحت أكثر دواما وأشد تخريباً ، حتى حطمت آخر الأمر ماكان للإمبراطورية من قوة سياسية وحربية . وأهم هؤلاء المغيرين ، الأتراك السلاجقة ، والنرمان ، والبجناك[١] .

الأتراك السلاجقة :

عرفت الدولة البيزنطية الترك منذ زمن طويل . إذ أن مشروعا لقيام تحالف بين البيزنطيين والترك ، كان معروفا فى الشطر الثانى من القرن السادس[٢] . وخدم الترك فى بيزنطة ، على أنهم جند مأجورون ، والتحقوا أيضاً بالحرس الإمبراطورى ، وكان منهم أعداد كبيرة فى صفوف الجيوش ، المرابطة على الأطراف الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، وهم الذين استولوا سنة ٨٣٨ على عمورية واستباحوها[٣] . على أن هذه العلاقات والمنازعات مع الترك ، لم يكن لها نتيجة وأثر على الإمبراطورية حتى القرن الحادى عشر ، إذ تغيرت الأحوال بظهور الترك السلاجقة على الأطراف الشرقية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر[٤] .

---

(١) Baldwin : The Cruoades, I, p. 181.

(٢) Vasiliev : The Byzantine Emdire, p. 354.

(٣) Ibid : p. 354.

(٤) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 354.

Baldwin : The Crueades, I, pp. 139—137.

ومن أهم الجماعات التركية النازلة على الأطراف الإسلامية ، والتى تحولت إلى الإسلام فى النصف الثانى من القرن العاشر ، جماعة اتخذت لها زعيما اسمه سلجوق ، من الأعوز . هذه الجماعة استأجرها فى نهاية القرن العاشر ، السامانيون لمساندتهم ضد القرخانيين ، ثم استقروا فى القرن الحادى عشر فى إقليم ما وراء النهر ، فى البلاد الإسلامية ، حيث حازوا مراعى لقطعانهم ، وأخذوا بأسباب الحياة الإسلامية وإدارتها ؛ وتوثقت علاقاتهم بالأمراء المسلمين ، ثم انتقلوا إلى خراسان ، ومنها إلى غرب إيران[1] .

وتطلع زعماء السلاجقة إلى إقامة دولة ، وإلى أن يفيدوا من التركمان ، والواقع أن الخليفة العباسى منذ أول الأمر اعترف بسلطتهم ، على أنهم موالى أمير المؤمنين ، فأقر سلطانهم على رجالهم ، وجعل لهم الحق فى أن يمدوا هذا السلطان ، فازدادت بذلك سيطرتهم على رجالهم ، ولما أضحى هؤلاء الزعماء فى مرتبة أمراء الأقاليم ، دخلوا بذلك فى نطاق التنظيم الإسلامى[2] . ولما استقر سلطانهم فى خراسان سنة ١٠٤٠ ، أدركوا ما تعرض له الخليفة من ظلم البويهيين ، ونهض طغرل بك لمساعدة الخليفة . فلم يجد عناء فى الاستيلاء على الرى ، وهمدان ، واعترف بسلطانه طبرستان ، وأصفهان سنة ١٠٣٤[3] .

على أنه تعقد مركز طغرل والتركمان الذين يأتمرون بأمره ، إذ أن التقاء الطرق الإيرانية فى اتجاه أذربيجان ، أدى إلى أن يجتمعوا من جديد ، يضاف إلى ذلك أن اقترابهم من حدود الكرج ، والحدود الأرمنية البيزنطيـــة ، والقوقاز ، هيأ لهم الفرصة لأن يوصلوا حركة الجهاد ، التى سبق أن قاموا بها فى الشرق . على أن ذلك لم يلحق الضرر بطغرل ، إذ أنه صار بوسعه ، بأقل النفقات أن يُغطى جناح جيشه الشمالى ، وأن يتطلع إلى فتوح أخرى[4] .

(١) Ibid : pp. 139—140.

(٢) Baldwin : The Crusades I, p. 141.

(٣) Ibid : p. 143.

(٤) Ibid : d. 143.

ومع ذلك فإن حرص طغرل على أن يجعل التركمان دائماً تحت تصرفه يوجههم فى حملاته المختلفة ، التى لم تعد تغريهم نظراً لأنه منعهم من النهب ، وحرم عليهم اصطحاب أسراتهم إلى ما يتخذونه من مواطن ثابتة ، يضاف إلى ذلك ما كان طغرل يخشاه من أن يجبر التركمان ، الخارجين على طاعته . فيصح لأحدهم بذلك أن يقيم إمارة ؛ كل ذلك حتم على طغول أن يمضى مع التركمان ، كما يوجههم ، ويفيد منهم فى الجهاد ضد الكفار[1] .

وعلى هذا النحو يصح أن ندرك التوازن الثابت بين اتجاهين كبيرين : التوسع صوب الشمال الغربى ، وتوطيد السلطان فى داخل إيران . وبدأ التوسع بأن نفذ التركمان إلى الجهات الشمالية الغربية من إيران لفرض الاعتراف بالسيادة البيزنطية ، فضلا عن توجيه غارات التركمان ضد الكرج ، والأرمن والبيزنطيين ، بما تسلكه من الطرق التقليدية للغزو[2] .

لم تتعرض الإمبراطورية البيزنطية ذاتها لغارات خطيرة من قبل السلاجقة إلا منذ زمن قنسطنطين التاسع مونوماكوس[3] . فمنذ عهد هذا الإمبراطور ، بدأ التهديد الفعلى من قبل السلاجقة ، الذى انتهى باستيلائهم على الجانب الأكبر من آسيا الصغرى . فى زمن قنسطنطين التاسع حدثت غارتان كبيرتان من قبل السلاجقة على الأراضى البيزنطية ، وقعت الغارة الأولى سنة ١٠٤٨ ، بقيادة إبراهيم ينال أخ السلطان طغرل ؛ وقاد الغارة الثانية سنة ١٠٥٤ ، السلطان

(١) Ealdwir, The Crusades I, p. 144.

(٢) Ibid : p. 144.

(٣) الواقع أن الأرمن فى فاسبوركان ، كانوا أول من أحس بضغط تحرك الترك السلاجقة نحو آسيا الصغرى . وتشير الروايات أن ملك فاسبوركان حينما أحس بعجزه عن دفع الضغط والخطر على مملكته ، تنازل عنها سنة ١٢٠١ ، للبيزنطيين مقابل الحصول على ضياع كبيرة وأملاك كثيرة فى قبادوقيا ، فضلا عن حكومة ذلك الإقليم .

انظر : Baldwin : The Crusades, I, pp. 189—190.

Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 553.

طغرل نفسه . وفى كلتا المرتين ، تهيأت الأحوال للمغيرين ، إذ أن الأقاليم الشرقية تجردت من الشطر الأكبر من قواتها سنة ١٠٤٨ ، نظراً لاستدعائها لقمع ثورة ليوتورنيكوس ، التى نشبت سنة ١٠٤٧ فى أدرنة ، بينما جرى استخدامها سنة ١٠٥٤ لوقف زحف البجناك[1] .

أغار إبراهيم ينال على إقليم أيبيريا (الأبخاز) ، وطرابزون ، غير أن الكارثة الكبيرة حلت بأرزن الروم ، المعروفة بتجارتها وثرائهاوكثرة سكانها ، إذ أصابها التدمير والخراب ، وهلك جانب كبير من سكانها ، وأنفذ المسلمون من الدواب والبغال والغنائم ، ما لا يقع عليـه الإحصاء[2] . وتردد الولاة البيزنطيون على قاسبوركان وأيبيريا (الأبخاز) ، أول الأمر ، فيما يتخذونه من إجراء ضد المغيرين ، غير أنه لما انحاز إليهم أمير الأبخاز ، ليباريتس Liparites ، الذى يعتبر من أتباع الإمبراطور البيزنطى ، نهضوا لقتال إبراهيم ، فاشتدت الحرب بين الفريقين ، وأحرز المسلمون النصر ، ووقع فى أسرهم « جماعة كثيرة من بطارقتهم ، وممن أسر ، قاريط (ليباريتس) ملك الأبخاز »[3] . وبعد أن دارت المفاوضات بين الإمبراطور البيزنطى والسلطان السلجوقى ، طغرل ، تقرر إطلاق سراح ليباريتس[4] . على أن غارات السلاجقة لم تنقطع ، وفى سنة ١٠٥٤ ، قاد السلطان طغرل بنفسه حملة حربية إلى الأراضى البيزنطية ونهبت عساكره الأقاليم الواقعة بين بحيرة وان ، وأرزن الروم ، والجبال التى فى ظاهر طرابزون . وحصروا مانزيكرت ، غير أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها . ثم انسحب السلطان ، بعد أن ترك وراءه جماعة من المغامرين ،

(١) Baldwin : The Crusades, I, P. 190.

(٢) Ibid : p 190.

ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٣٧٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ، ص ٣٧٢ .

(٤) Grousset : Histoire de L'Armenie, pp. 588—589.

Ibid : p. 590.

واصلت النهب والغارة ، وازداد نشاطها زمن الإمبراطور ميخائيل السادس (١٠٥٦ — ١٠٥٧)[1] .

وما وقع من الغارات على أيدى إبراهيم ينال وطغرلبك ، تعتبر بداية سلسلة من الغارات ، التى إزداد شنها ، والتى أضحت مستمرة . ففى سنة ١٠٥٧ ، حينما تقرر سحب العساكر من البلاد الأرمنية ، لمساندة إسحاق كومنين فى ثورته ضد ميخائيل السادس ، تعرض للنهب والتخريب ، من قبل الترك ، الأقاليم الواقعة عند ملتقى فرعى نهر الفرات . غير أن الترك السلاجقة أخذوا يذرعون البلاد طولا وعرضا ، زمن قنسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) . ففى سنة ١٠٥٩ ، حصر الترك السلاجقة مدينة سيواس ، ولم يلبثوا أن اقتحموها ، فأجروا بها مذبحة مريعة ، وامتلأت أيديهم بالغنائم من الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، والمنسوجات الموشاة بالقصب ، ثم بعد أن أشعلوا فيها النيران ، انسحبوا منها[2] . ولما تولى ألب أرسلان الحكم سنة ١٠٦٣ ، بعد وفاة عمه طغرلبك ، قام بحملة كبيرة فى بلاد القوقاز (أذربيجان) ، وقد وطد العزم على قتال البيزنطيين وغزوهم ، فلما كان بمرند Marand ، انحاز إليه أمير من أمراء التركمان ، اسمه طغتكين ، « ومعه من عشيرته خلق كثير قد ألفوا الجهاد ، وعرفوا تلك البلاد ، وحثه على قصد بلادهم ، وضمن له سلوك الطريق المستقيم إليها »[3] ، فاجتازوا نهر الرس Araxe . ولـما فرغ من جمع العساكر والسفن ، سار إلى بلاد الكرج ، وجعل مكانه فى عسكره ، ولده ملكشاه ، ووزيره نظام الملك ،

(١) Baldwin : The Crusades, I, p. 190.

Grousset : Histoire de L'Armenie, pp. 596—597.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤١ .

(٢) Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 609.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ، ص ٢٥ .

Grousset : op. cit. P. 610.

فهاجما حصونا بيزنطية عديدة على الأطراف منها سرمارى Sourmari ، ومدينة مريم نشين Marmachen[1] . بينما كان ألب أرسلان يهاجم جنوب بلاد الكرج ، ويثير فيها الرعب وينزل بها الخراب والدمار[2] . مضى المسلمون إلى قتال آنى ، فحصرتها العساكر الإسلامية والمعروف أن البيزنطين ، بعد أن استولوا عليها ، طردوا منها العساكر الأرمنية ، وأحلوا مكانهم حامية مؤلفة من الجند المأجورة . واشتد التضييق على آنى ، ولم يلبث العساكر أن نفذوا إليها من ثغرة نقبوها فى السور ، فقتلوا من أهلها ما لا يحصى . ورتب فيها ألب أرسلان . « أميراً فى عسكر جرار ، وعاد عنها ، وقد راسله ملك الكرج فى الهدنة ، فصالحه على أداء الجزية كل سنة ، فقبل ذلك »[3] .

ومنذ سنة ١٠٦٥ ، التزمت كل من أنطاكية والرها خطة الدفاع ، لمنع غارة السلاجقة . وفى سنة ١٠٦٧ ، تعرضت قيصرية فى قبادوقيا للخراب والدمار ، وحوالى ذلك الوقت ، أوغل ساموق فى غاراته ، حتى بلغ جلاتيا وفريجيا ، ولم يبذل الإمبراطور البيزنطى جهداً كبيراً لمقاومة هذه الغارات[4] .

وخلف قنسطنطين العاشر دوكاس على العرش البيزنطى ، رومانوس الرابع ديوجنيس Diogenes ، بعد أن تزوج من ايدوسيا أرملة قنسطنطين ، وذلك لازدياد قوة المعارضة ، بعد أن تعرضت البلاد لأخطار السلاجقة ، فأضحت الحاجة ماسة لإقامة حكومة عسكرية قوية[5] .

---

(١) Ibid : p. 612.
ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٢٦ .
Grousset : op. cit. p. 612.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٦ — ٢٨ .

(٤) Grousset : op. cit. pp. 613—615.
Baldwin : The Crusades, I, p. 191.

(٥) Ostrogorowski : op. cit. p. 303.
Ibid : p. 304.

والمعروف أن رومانوس كان من سادة قبادوقيا ، واشتهر بأنه قائد باسل مجرب ، امتاز بالتفوق والكفاية فى الحرب التى خاضها ضد البجناك ، فاستحق عن جدارة ما حازه من شهرة كبيرة فى الحزب العسكرى[1] .

اعتلى العرش فى يناير سنة ١٠٦٨ ، ولم يلبث أن توجه لقتال السلاجقة . وبذل رومانوس جهداً كبيراً فى حشد جيشه ، الذى تألف معظمه من المأجورين من البجناك والغز والنرمان والفرنجة ، غير أن هذا الجيش افتقر إلى العدة والسلاح ، وإلى النظام . فما أحرزه من انتصار فى سنتى ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ لم يكن حاسما ، فكل ماقام به بجيشه ، أنه اعترض طريق جماعة من الترك نهبت نيكسار Neocaesares وأرغمها على أن تتخلى عن الغنائم التى ظفرت بها ، وفى سنة ١٠٦٨ استولى على أرتاح القريبة من أنطاكية ، ثم نزل على مدينة منبج ، فى الشمال الشرقى من حلب ، « وقتل أهلها ، وهزم محمود بن صالح بن مرداس ، وبنى كلاب ، وابن حسان الطائى ، ومن معهما من جموع العرب »[2] ، وبذلك كفل الأمن للمواصلات بين الرها وأنطاكية[3] ، بعد أن انعقد الصلح فى نهاية سنة ١٠٦٨ بين حاكم أنطاكية وأمير حلب[4] .

وبينما يجرى القتال فى سوريا ، أوغلت غارة سلجوقية جديدة فى آسيا الصغرى ، حتى بلغت عمورية ، فنهبتها . ولم يسع رومانوس بعد عودته إلى القسطنطينية من حروب الشام ، إلا أن ينهض لرد السلاجقة . على أنه أنزل الهزيمة أولا بالقائد النرمانى ، كريسبين Crispin ، الذى أعلن التمرد ، هو وعساكره . ثم مضى لإخراج الترك الذين غمروا الأقاليم الواقعة حول

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 304.
Camb. Med. Hist. IV, p. 325.

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٤٠ .

(٣) Baldwine : The Crusades, I, p. 191.

(٤) Camb. Med. Hist. V. p. 261.

قيصرية فى قبادوقيا . فترك شطراً من جنده بالقرب من ملطية ، مع فيلاريت Philaretus ، القائد الأرمنى ، وطلب إليه أن يعترض سبيل الترك ، بينما تقدم رومانوس إلى الأقاليم الأرمنية ، كيما يستوثق من أسباب دفاعها . غير أن الهزيمة لحقت بفيلاريت ، وانسابت الجماعات التركية فى آسيا الصغرى فنهبت قونية . ولما سمع رومانوس بما أصاب قونية ، وما تعرضت له من النهب ، رجع ليوقف توغل المغيرين ، غير أنه لم يكن بوسعه أو بوسع قادته أن يهزموا السلاجقة ، فعاد رومانوس إلى القسطنطينية سنة ١٠٧٠ ، ليعد حملة ضخمة لقتال السلاجقة ، عهد بقيادتها إلى مانويل كومنين[١] . ولم يكن حظ هذه الحملة بأحسن حالا من الحملة السابقة ، فاندحر مانويل عند سيواس ، ووقع أسيراً ، وأمعن السلاجقة فى التوغل فى آسيا الصغرى[٢] . وفى تلك الأثناء كان ألب أرسلان يعد حملة ضد الفاطميين . وما حدث سنة ١٠٧٠ من قيام أحد القادة الترك ، واسمه صندق ، بالإغارة على أراضى حلب وحماة وحمص ورفانية ، التى تعتبر أول هجوم من قبل الأتراك على الشام ، حمل محمود ابن نصر أمير حلب ، على أن يلتمس حماية السلطان ألب أرسلان ، وعلى أن ينتقل من الانتماء إلى الفاطميين ، إلى الولاء للعباسيين ، وجعل الخطبة للخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان[٣] .

على أن ألب أرسلان طلب إلى محمود بن نصر أمير حلب ، أن يشتبك فى الحرب ضد أنطاكية وأمراء الفاطميين بالشام ؛ ولما رفض محمود أول

(١) Baldwin : The Crusades, I. p. 191.

Grousset : op. cit. pp. 623—624.

(٢) Baldwin : The Crusades, P. 192.

Grousset : op. cit. p. 624.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٠١ — ١٠٢ حاشية ١ . (رواية سبط بن الجوزى)

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٤٢ .

Camb. Med. Hist. V. p. 261.

الأمر الاستجابة إلى أمر السلطان السلجوقى ، وأغار ألب أرسلان على الشام فى ربيع سنة ١٠٧١ (٤٦٤ هـ) ، وبعد ثلاثة شهور دارت أثناءها المفاوضات بين الفريقين ، وتعرضت حلب للحصار ، أذعن أمير حلب ، واعتبر نفسه من أتباع السلطان السلجوقى[١] . وتجهز ألب أرسلان للمضى فى سيره جنوباً ، لولا أنه تلقى من الأنباء ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينس ، أفاد من توغله فى الزحف ، فأعد جيشه لمهاجمة مؤخرة جيش ألب أرسلان . عندئذ لجأ ألب أرسلان إلى تغيير تحركاته ، فكرّ راجعاً ، واجتاز الفرات ، وكان عبوره شبه الهارب[٢] . على أنه لم يلبث أن حشد عساكره لملاقاة الإمبراطور البيزنطى ، عند مانزيكرت فى أرمينيا ، فى صيف سنة ١٠٧١[٣] .

تعتبر معركة مانزيكرت ، أقصى ما بذله البيزنطيون من جهد ، لوقف غارات السلاجقة ، وتقدر المصادر العربية عدد الجيش الذى قاده رومانوس ديوجنيس بنحو ٣٠٠ ألف مقاتل ، وتصف ماتجهز به هذا الجيش من الأسلحة وأدوات الحصار[٤] ؛ والواضح أن ثمة مغالاة فى هذا التقدير ، ومع ذلك فلاشك أن هذه الحملة فاقت فى العدد ، الحملات التى سبق أن قادها رومانوس ديوجنيس فى آسيا الصغرى ، على الرغم من أنها لم تختلف عنها فى الروح المعنوية والتجهيز والتماسك . تألفت هذه الحملة من عناصر مختلفة من اليونانيين ، والصقالبة ، واللان والغز والورنك والنرمان والبجناك والأرمن والكرج . فمن هذه الفئات ، ما ساد بينها من العداء والكراهية كالذى وقع بين اليونانيين

(١) Ibid : p. 261.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٩ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠١ .

(٣) Baldwin : The Crusades, I. p. 148.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٤٤ .

والأرمن ، ومن هذه العناصر ، كالغز ، ماكان هواها مع السلاجقة ، لانتمائها للعنصر التركى . ومع ذلك فإن القوة العددية للجيش تضاءلت عند حدوث الاشتباك الحاسم فى مانزيكرت ، ذلك أن النرمان بقيادة روسل بايلييل Roussel of Bailleul ، وكتيبة من الجيش بقيادة يوسف تارخانيوتس Tarkhaniotes الكرجى ، جرى إرسالهم للاستيلاء على أخلاط ، على بحيرة وان ، بينما توجهت قوات أخرى للحصول على المؤن اللازمة للجيش من مواضع مختلفة . وتقرر استدعاء هذه القوات ، كيما يصير الجيش البيزنطى قوة متماسكة ، غير أنها لم تصل . يضاف إلى ذلك ما وقع من تخلى الغز أثناء القتال ، عن مواضعهم ، وترتب على ذلك أن عوامل الشك والخيانة نفذت إلى المعسكر البيزنطى[1] .

وقعت المعركة الفاصلة فى ١٦ أغسطس سنة ١٠٧١ بالقرب من مانزيكرت ، وتعرض الجيش البيزنطى لهزيمة ساحقة ، ووقع الإمبراطور البيزنطى أسيراً ، ولم يبق بعد مانزيكرت من القوات ما يمنع توغل الترك فى آسيا الصغرى واستقرارهم بها[2] .

لقى الإمبراطور فى أسره معاملة طيبة ، وتقرر إطلاق سراحه بعد ثمانى أيام وجرى الاتفاق على أن يبذل الإمبراطور البيزنطى عن نفسه فدية كبيرة ، وأن يؤدى جزية سنوية ، وأن تعقد هدنة بين الجانبين ، وأن يتم بينهما تبادل الأسرى[3] ، وأن يرسل إليه عساكر الروم متى طلبها[4] . ثم بعث ألب أرسلان فى صحبته حاجبين ومائة غلام ، رافقوه إلى القسطنطينية[5] .

---

(١) Baldwin The Crusades, I. p. 192.
Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 628.

(٢) Baldwin : The Crusades, I. p. 193.

(٣) Baldwin : The Crusades, I. p. 193.

(٤) ابن الأثير : الكامل حـ ١٩ ، ص ٤٤ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠٤ .

ومن النتائج الأخرى لمعركة مانزيكرت ، أن الاتفاق تم بين رومانوس ديوجنيس وألب أرسلان ، على الإبقاء على الوضع الراهن فيما يتعلق بالممتلكات ، فيظل فى أيدى الترك السلاجقة آنى ، وفارس ، وقاسبوركان ومانزيكرت (منازجرد) على حين تحتفظ الإمبراطورية البيزنطية بأقاليم الأطراف لا سيما أرزن الروم Theodosiopolis[1] . على أن السلطات البيزنطية فى القسطنطينية قررت عزل رومانوس عن العرش ، وجعلت مكانه ميخائيل السابع ابن قنسطنطين العاشر دوكاس ، فاندلعت الحروب الأهلية . واستنجد رومانوس بالترك السلاجقة ، غير أن الهزيمة لحقت به ، وتقرر إلقاء القبض عليه وسمل عينيه[2] . وما أصاب القوة الحربية البيزنطية من الدمار ، هيأ الفرصة للتركمان كيما ينسابوا فى جوف آسيا الصغرى ، ويستقروا بأراضيها . ونظراً لما يكنه الأرمن وسكان قبادوقيا من الكراهية لبيزنطة لأسباب مالية ودينية ، لم يركنوا إلى الدولة البيزنطية فى الدفاع عنهم ، وصاروا يدبرون أمرهم مع السلاجقة . يضاف إلى ذلك أن بعض الحاميات العسكرية منهم ، المرابطة على الأطراف ، أقاموا علاقات ودية مع جيرانهم من المسلمين ، فى أزمنة الهدوء والسلام ، وامتزجوا بالتركمان فى بعض الأحوال ، ويصح أن تنحاز هذه الجماعات تارة إلى القوات المغيرة . وتعرض نظام الدفاع البيزنطى للاضطراب والتداعى ، بما لجأت إليه حكومة القسطنطينية من إضافة أرمينيا وأورفه (الرها) إلى أملاكها ، فامتدت بذلك أطراف أملاكها إلى ما بعد المنطقة التى تجهزت واكتملت استعداداتها . ولما لم تثق فى رعاياها من الأرمن ، وسكان الأطراف ، أحلت مكانهم عساكر مأجورة ، بغيضة عند السكان ، واتسعت بذلك رقعة البلاد التى اشتدت فيها الكراهية للبيزنطيين[3] .

---

(١) Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 929.

(٢) Baldwin : The Crusades, I. p. 193.

(٣) Baldwin : The Crusades, I p. 149.

وتلى معركة مانزيكرت ، ما كان من استئصال ما تبقى من آثار الإدارة البيزنطية من الطرق الرئيسية فى أرمينيا وقبادوقيا . فكيف يتسنى لبيزنطة أن تجبى الضرائب فى أراضى مستوية استقربها البدو ، وتخلى عنها من تبقى من الفلاحين ؟ واستسلمت المدن خوفاً مما يصيبها من المجاعة ، ومع ذلك فإن التركمان أذنوا لهذه المدن أن تحكم نفسها بنفسها ، بعد أن فقدت كل اتصال ببيزنطة[1] . ويعتبر الأتراك السلاجقة أكثر العناصر الحربية الأجنبية إفادة من الأحوال المضطربة التى سادت الإمبراطورية البيزنطية بعد معركة مانزيكرت. فالمعروف أن رومانوس الرابع ديوجنيس حاول أن يستعيد عرشه ، بعد إطلاقه من أسر ألب أرسلان ، بمساعدة القوات التركية ، وسار على نهجه معظم الأباطرة الذين جاءوا من بعده . فلما أعلن روسل بايليل العصيان ، استعان ميخائيل السابع بالقوات التركية لقمعه . وحاول هذا الإمبراطور أيضاً أن يقضى على ثورة نقفور بوتانياتس Botaniates ، بالإفادة من أتباع الأخوين منصور وسليمان ، من أقارب السلطان ألب أرسلان[2] . والواقع أن ما جرى من استخدام العساكر التركية ، هيأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة فى غرب آسيا الصغرى . على أن سليمان ومنصورلم يلبثا أن تخليا عن ميخائيل السابع ، ودخلا فى خدمة بوتانياتس فأنزلهما بمدينة نيقية ، التى دانت لسلطانهما ،

---

(١) Baldwin : The Crusades I. pp. 149—150.

(٢) وهما ولدا قطلمش ، الذى انسحب مع جماعة من التركمان ، فالتجأوا إلى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين . وخرج الأخوان على طاعة ألب أرسلان ، والتمسا لهما ملاذاً فى آسيا الصغرى . ومنذ سنة ١٠٧٥ ، تدخلا فى أمور الشام على أنهما من حلفاء الفاطميين ضد السلاجقة . وأذن الإمبراطور ألكسيوس لسليمان ، الذى استقر فى نيقية ، أن يتولى بالنيابة عن بيزنطة إدارة قليقية وأنطاكية وملطية . وبفضل امتلاكه قونية ، صار يسيطر على أهم طريقين يجتازان آسيا الصغرى من الشرق إلى الغرب ، وأضحى مصدر خطر على ملك شاه السلجوقى . نظراً لمجاورته أملاك السلاجقة فى الشام والجزيرة .

انظر : Baldwin : op. cit. I. pp. 150—151.

وبذلك فقدت الإمبراطورية مدينة نيقية . وعلى هذا النحو أيضاً استولى السلاجقة على مدن جالاتيا وفريجيا ، فحينما ثار نقفور ميليسينوس على الإمبراطور بوتانياتس ، سانده فى ذلك القوات التركية . فلما خضعت له مدن جالاتيا وفريجيا ، شحنها بالعساكر التركية ، ولما لم يصل نقفور إلى العرش ، صارت الحاميات التركية هى التى تسيطر على هذه المدن[1] .

وعلى الرغم من أن هؤلاء التركمان يعتبرون مسئولين عن البيزنطيين ، لدى القادة الذين أدخلوهم فى خدمة الدولة ، فإنهم كانوا شبه مستقلين ؛ وما دأبوا عليه من نهب البلاد براً وبحراً ، جعلهم خطراً كبيراً على بيزنطة ذاتها ، وعلى السلطان ، الذى أفلتوا من يده[2] . وسبق الإشارة إلى ولدى قتلمش اللذين استقرا بأتباعها من التركمان فى آسيا الصغرى ، فأقاموا دولة السلاجقة بآسيا الصغرى منذ سنة ١٠٧٤ ، واستمرت حتى سنة ١٣٠٢[3] . ومنذ سنة ١٠٧٥ انغمسوا فى أحوال الشام باعتبارهم حلفاء للفاطميين ضد أحد أنصار السلاجقة . ففى جبال طوروس ، خضع لسلطات فيلاريت الأرمنى ، سكان قليقية وسائر الجهات الممتدة من أنطاكية إلى الرها وملطية[4] . وأصاب بلاد الشام من الانقسام والتفكك السياسى ما لم تشهده منذ زمن طويل . فعلى الرغم من أن حلب إمارة مستقلة ، فإن الحرب الداخلية اندلعت بها ، وتعرضت أطرافها لغارات البدو العرب. ولم يحفل سكان جبل الأنصارية بمصير السهول المجاورة. أما دمشق والمدن الساحلية ، من طرابلس وما يليها جنوباً ، فأخذت تبتعد وتنفصل عن مصر ، التى أوشكت الثورة أن تندلع بها ، وتولى حكم هذه الجهات ، أمراء اشتد بينهم النزاع والتخاصم . وترتب على معركة مانزيكرت ،

---

(١) Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 629.
Baldwin : The Crusades I. p. 201.

(٢) Ibid : p. 150.

(٣) Grousset : Histoire de L'Armenie, p. 629.

(٤) Baldwin : The Crusades I. p. 150.

أن الأرمن صاروا يسعون إلى الاتفاق مع الترك ، وفقد البيزنطيون بذلك مصدراً كانوا يستمدون منه عساكرهم[1] .

ويعتبر هارون بن خان أول من هبط إلى الشام من الأتراك السلاجقة ، فحوالى نهاية سنة ١٠٦٤ ، انحاز مع ألف من أتباعه إلى جانب عطية بن صالح ، ضد محمود بن صالح الذى نازعه حكم حلب ، سنة ١٠٦٤ (٤٥٦ هـ)[2] . غير أن عطية بن صالح وأهل حلب ، لم يلبثوا أن هاجموا ابن خان وأتباعه ، فنهبوهم وقتلوا منهم جماعة وحازوا خيولهم وسلاحهم . وعندئذ انحاز بمن تبقى معه من أتباعه ، إلى محمود ، وبذلوا له المساعدة ، حتى أحرز النصر على عمه عطية فى معركة دابق سنة ١٠٦٥ (٤٥٧ هـ)[3] . فأقطع محمود ، بعد أن استقر له حكم حلب ، هرون بن خان ، معرة النعمان ، فنزل بها مع أتباعه من الترك والديلم والكرد[4] .

وفى صيف سنة ١٠٦٧ (٤٦٠ هـ) أغار على أنطاكية أحد الزعماء من الأتراك السلاجقة ، واسمه أفشين ، يقود نحو ألف من الترك فنهبوا جهات أنطاكية ووقع فى أيديهم غنائم وفيرة ، « فكانت الجارية تباع بدينارين ، والصبى بتطبيقه نعال للخيل[5] » . وفى السنة التالية حاصر أفشين أنطاكية ، ثم غادرها بعد أن أخذ من أصحابها مائة ألف دينار فضلاً عن مقادير كبيرة من الديباج والآلات[6] . ونشب القتال بين حلب وأنطاكية ، واستولى هرون

---

(١) Camb. Med. Hist. V, p. 260.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ١ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

Camb. Med. Hist. V. p. 260.

(٤) Ibid : p. 261.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، حـ ٢ ص ١١ — ١٢ .

(٦) ابن العديم : زباة الحلب حـ ٢ ، ص ١٢ .

ابن خان على أرتاح سنة ١٠٦٨ ، بعد حصار استمر خمسة شهور[1]. وفى السنة التالية ١٠٦٩ (٤٦١ هـ) خرج جيش بيزنطى بقيادة الإمبراطور رومانوس ديوجنيس ، فاسترد أرتاح واستولى على منبج ، ولم يلبث دوق أنطاكية الأرمنى ، كاشاتور Kachatur أن عقد الصلح مع محمود أمير حلب[2] .

ونفذ إلى الشام سنة ١٠٧٠ (٤٦٢ هـ) جيش تركى بقيادة صندق التركى ، فنهبوا جهات حلب وحماة وحمص ورفانية . ولقى أهل الشام من عسكره شدة عظيمة ، وهو أول فساد ونهب ، جرى بالشام من الأتراك[3]. فتقرر أن يلتمس محمود صاحب حلب ، الحماية من السلطان ألب أرسلان ، وأن يخطب للقائم الخليفة العباسى ببغداد ، وبعده للسلطان ألب أرسلان سنة ١٠٧٠[4] .

وطلب السلطان ألب أرسلان إلى محمود أمير حلب ، أن يخرج لقتال البيزنطيين فى أنطاكية ، وأن يحارب الأمراء الفاطميين[5] . ولما رفض محمود أول الأمر الاستجابة لأمر السلطان ألب أرسلان ، أغار السلاجقة على الشام ، فى ربيع سنة ١٠٧١ ، وظلت المفاوضات دائرة فترة شهرين بين أمير حلب والسلطان السلجوقى ، وتعرضت حلب للحصار مدة شهر ، فأذعن محمود آخر الأمر ، واعترف بتبعيته وانتمائه إلى السلطان السلجوقى . وامتدح المؤرخون ما التزمه جيش ألب أرسلان من النظام ، « فلم يتعرض أحد من العساكر

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ص ١٢ — ١٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ١٥ .

Camb. Med. Hist. V. p. 261.

(٣) Ibid : p. 261.

ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ١٦ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ص ١٦ — ١٨ .

(٥) Camb. Med. Hist. V. p. 173.

ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٢٢ — ٢٣ .

لمال أحد ، ولا سبيت حرمة ، ولا قاتل حصناً ، ولم يأخذ عسكره العظيم ، عليقة تبن من فلاح إلا بثمنه »[١] ، ولم يصب حلب شيء من النهب والخراب[٢] .

على أن محموداً أمير حلب لم يظهر الرغبة الصادقة فى أن يفى بما عاهد السلطان عليه ، أثناء ما تبقى من فترة إمارته (حتى يناير ١٠٧٤) . وكان ولداه ، نصر وسابق ، هما آخر من ولى حكم حلب من المرداسيين (١٠٧٤ — ١٠٨٠) . وجاء إلى الشام جماعة جديدة من الترك ، فاستولى على رفانية سنة ١٠٧٥ (٤٦٨ هـ) ، جوالى بن أبق ، الذى أغار على أراضى حلب ، غير أنه تعرض لهزيمة ساحقة أنزلها به أحمد شاه، أحد القادة الترك ، الذى خدم عند نصر بن محمود أمير حلب ثم عند أخيه سابق[٣] وما حدث من اغتيال نصر أمير حلب سنة ١٠٧٥ (٤٦٨ هـ) ، وتولية سابق إمارة حلب ، إنما يفسر ما كان للترك من نفوذ وسلطان على أمور حلب الداخلية[٤] . ولقى سابق معارضة شديدة من قبل أخويه ، وثاب وشبيب ، وعامة بنى كلاب ، فاستعان سابق بأحمد شاه وابن دملاج من قادة الترك ، فتحالفوا وخرجوا لقتال وثاب وبنى كلاب ، فأنزلوا بهم الهزيمة سنة ١٠٧٦ (٤٦٨ هـ) وحصلوا على غنائم وفيرة[٥] .

ومن أهم أمراء السلاجقة فى شمال الشام وقتذاك ، أفشين ، وصندق ومحمد بن دملاج ، وفى صيف سنة ١٠٧٧ ، تلقوا الأوامر من ملك شاه

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) Camb. Med. Hist. V. P. 261.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٤٧ .

Camb. Med. Hist. V. p. 261.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٤٩ ، ٥٣ . Ibid : p. 261

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(١٠٧٢ — ١٠٩٢) الذى ولى السلطنة السلجوقية بعد ألب أرسلان ، بأن يجتمعوا ويخضعوا لقيادة أخيه تاج الدولة تتش . وفى ربيع سنة ١٠٧٨ (٤٧١ هـ) قام تتش بهجوم كبير على حلب ، وتألف جيشه من عساكر الترك وبنى كلاب ، ومن عساكر بعث بهم شرف الدولة مسلم بن عقيل أمير الموصل (١٠٦١ — ١٠٨٥) . واستمر الحصار أربعة شهور ، غير أنه لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ، ويرجع فشله إلى ما حدث من انقلاب مسلم بن عقيل على الترك بعد أن كان حليفاً لهم[١] . وفى سنة ١٠٧٩ ، واصل تتش حروبه فى الشام ، وأحرز قدراً من النجاح ، فدان له بعض المواضع والحصون ، أمثال منبج ، وبزاعة[٢] ، ثم سار جنوباً ، فاستولى على دمشق ، وتسلمها من أتسز بن أبق التركى[٣] ، بعد أن انتزعها من يد الفاطميين سنة ٤٦٧ هـ[٤] .

أما أول إشارة إلى قدوم الأتراك السلاجقة إلى فلسطين ، فإنها ترجع إلى سنة ١٠٧٠ (٤٦٢ هـ)[٥] . ذلك أن سلطة ناصر الدولة ، والى مصر ، لم تتجاوز وقتذاك جنوب فلسطين ، وتولى حكم عكا وصيدا ، بدر الجمالى الأرمنى ، الذى قام بدور كبير فى شئون الشام منذ سنة ١٠٦٨ واستقل بعض الأمراء بحكم دمشق وصور وطرابلس ، ولم يكن لأحد سلطان على القبائل العربية النازلة بالأطراف الجنوبية والشرقية . ولما جرى اغتيال ناصر الدولة ، (مايو سنة ١٠٧٣)، استنجد الخليفة الفاطمى المستنصر ببدر الجمالى، كما يقضى

---

(١) Camb. Med. Hist. V. p. 262.

اشتهر مسلم بن عقيل بالتشيع ، وبموالاة فيلاريت أمير أنطاكية من قبل بيزنطة ، وبمناهضة الترك ، بل أنه حرص على الاتصال بالفاطميين فى مصر لتحقيق سياسته .

انظر Baldwin : The Crusades, I. p. 152.

ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٥٥ — ٥٦ ، ٦١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٦٢ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٦٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٦٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٤٠ .

على تسلط العبيد الترك فى مصر . ففى فبراير سنة ١٠٧٤ ، دخل إلى مصر على رأس جيش من الشام ، فأعاد الأمن والسلام إلى نصابه بالبلاد ، وصارت له الكلمة العليا فى مصر مدة عشرين سنة (١٠٧٤ — ١٠٩٤)[1] .

وأسهم كثير من القادة الترك فى فتح جنوب الشام ، غير أنهم جميعاً فيما يبدو كانوا يدينون بالطاعة لأتسيز بن أبق . وأول ما استولى عليه أتسيز من المواضع ، كان عمان ، من الحصون العربية فى البلقاء ، وذلك سنة ١٠٧١[2] . ثم صارت له السيادة على جنوب فلسطين ، بما فى ذلك الرملة وبيت المقدس[3] ، وظل أتسيز سنوات يتخذ من دمشق هدفاً لإغاراته ، فينهب بلادها وأراضيها لا سيما زمن ظهور المحصولات ، ووقوع الفتنة بين ولاة دمشق من قبل الفاطميين وسكانها ، ثم أذعنت له سنة ١٠٧٦ (ذى القعدة ٤٦٧ هـ) ، وأمر بالخطبة فيها للخليفة المقتدى بأمر الله العباسى[4] . وفرض أتسيز الجزية على المدن الساحلية ، حتى تأمن غاراته . وفى سنة ١٠٧٥ استولى على رفانية ، وسلمها إلى أخيه جوالى[5] . ثم تجاسر أتسيز ، فتوجه إلى غزو مصر ، غير أنه حلت به الهزيمة بالقرب من القاهرة فى يناير سنة ١٠٧٧ (٤٦٩ هـ) ، فرجع مدحوراً إلى بلاد الشام[6] . وترتب على هذه المغامرة الفاشلة أن سعى بدر الجمالى إلى استرداد فلسطين ودمشق ، غير أن أتسيز خشى ما قد يؤدى إليه القتال الذى أنشبه من النتائج ، فالتمس المساعدة من تتش ، فاستولى تتش على دمشق وأمر بقتل أتسيز سنة ١٠٧٩ (٤٧١ هـ)[7] . انسحب بدر الجمالى بقواته من

---

(١) Camb. Med. Hist. V. p. 292.
(٢) Ibid : p. 262.
(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٦٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٦٨ .
(٥) Camb. Med. Hist. V. p. .262
(٦) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٧٠ — ٧١ .
(٧) Camb. Med. Hist. V. p. 263.

فلسطين ، ودان لتتش أمراء المدن الساحلية . ولما استقرت له الأمور فى دمشق ، سار تتش بمعظم قواته إلى شمال الشام . ثم خرج من عسكره أفشين التركى ، ومعه أكثر العسكر ، وتوجه شمالا فنهب ضياعاً فى أعمال بعلبك ، وحين رجع أفشين من الشام ، ولم يبق فى أعمال حلب ضيعة مسكونة من المعرة إلى حلب ، توجه إلى بلد أنطاكية ، فخرب ما قدر عليه ، ونهب وسبى ما وجده ، وحمل إليه من أنطاكية مال ، وتوجه إلى الشرق بعد أن امتلأت أيديه وأيدى رجاله بالنهب والغنيمة[1] . وترتب على هذه الغارات والهجات ، أن استسلمت حلب سنة ١٠٨٠ (٤٧٢ هـ) ، إلى شرف الدولة مسلم بن عقيل أمير الموصل ، وانسحب سابق إلى الرحبة التى صارت إقطاعاً له . فأضحى يتنازع حلب ، تتش وشرف الدولة مسلم[2] ، وبذلك زالت دولة آل مرداس بحلب[3] .

والواقع أنه لم يحدث قتال بين المتنافسين ، إذ أن مسلماً استطاع فى أثناء سنتين أو ثلاثة ، أن يوطد مركزه فى شمال الشام وأعالى الجزيرة ، وأن يظل على اتصال مستمر مع بدر الجمالى ، وحاول أن يجعل أنطاكية تؤدى له الجزية ، بدلا من السلطان السلجوقى[4] . وفى أثناء ذلك كان تتش متغيباً عن الشام ، اشتبك فى قتال مع أخيه ملك شاه . فلما عاد إلى الشام ، استولى على أنطرطوس وبعض القلاع المجاورة ، وانتزعها من يد البيزنطيين سنة ١٠٨٣ ، وفشلت محاولة مسلم للاستيلاء على دمشق سنة ١٠٨٣ (٤٧٦ هـ) ، لأن بدر الجمالى لم يبذل له ما سبق أن وعده من المساعدة ، ولأن ما نشب فى حران من فتنة جعلته

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب : حـ ٢ ، ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) Camb. Med. Hist. V. p. 263.
Ibid : p. 263.
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٧٠
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٧٠ .
ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ، ص ٧٤ .
(٤) Camb. Med. Hist. V. p. 268.
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢ ، ص ٧٨ — ٨١ .

ينصرف عن دمشق[١]. وفى السنة التالية (٤٧٧ هـ) اشتبك فى القتال ضد ملك شاه فى الجزيرة. وفى نهاية تلك السنة، تدخل فى أمور الشام سليمان بن قطلمش أحد أمراء السلاجقة، كان يحكم الجانب الأكبر من آسيا الصغرى. فأذعنت له أنطاكية، فى ديسمبر ١٠٨٤، ودار القتال بينه وبين مسلم فى السنة التالية (يونيه ١٠٨٥م/٤٧٨ هـ) بالقرب من حلب[٢]. على أن هذه الأحداث غيرت كل الموقف فى الشام، فانسحب بدر الجمالى من سوريا بعد أن قام بغزوها، واشتد التنافس بين سليمان بن قتلمش وتتش على امتلاك حلب، فانهزم سليمان ولقى مصرعه، فى يونيه ١٠٨٦ (صفر ٤٧٩ هـ). وما كاد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢، ص ٨١ — ٨٣.
ابن الأثير : الكامل حـ ١٠، ص ٧٨.
Camb. Med. Hist. V. p. 363.

(٢) الواقع أن سليمان بن قتلمش ملك أنطاكية بالأمان، ليقيها من القتـــل والسبى، وكان يحكمها من قبل البيزنطيين فيلاريتوس Philaretus (الفردوس، الفيلاردوس)، وهو أرمنى الأصل، كانت أملاكه تقع على الفرات، ثم جرى استدعاؤه ليتولى حكم أنطاكية. حرص على قيام علاقات ودية بينه وبين الترك، غير أن رعاياه المسيحيين كانوا يكرهونه نظراً لانه أساء معاملتهم، فاغتنموا فرصـــة غيابة، وكاتبوا سليمان بن قتلمش يستدعونه كيما يسلموا له أنطاكية، فأسرع بالقدوم إلى أنطاكية، سنة ١٠٨٤ (٤٧٧ هـ)، فاستولى عليها، من غير قتال. على أن مسلم بن عقيل أنكر هذا التغيير، لا سيما أن سليمان بن قتلمش رفض أن يحمل له ما كانت تؤديه من الجزية له منذ سنتين، ولملك شاه من قبل. فكتب مسلم إليه، «يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوفه معصية السلطان، فأجابه أما طاعة السلطان فهى شعارى ودثارى والخطبة له، والسكة فى بلادى. وقد كاتبته بما فتح الله على يدى بسعادته، من هذا البلد وأعمال الكفار. وأما المال الذى كان يحمله صاحب أنطاكية قبلى فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن، ولا أحمل شيئا» — فأغار كل من الرجلين على بلد الآخر، ثم دار القتـــال بينهما بالقرب من أنطاكية ٤٧٨ هـ (١٠٨٥)، ولقى مسلم بن عقيل مصرعه بعدئذ، فتوجه سليمان بن قتلمش لحصار حلب، غير أنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها، فرحل عنها.

انظر : ابن الأثير : الكامل حـ ١٠، ص ٩٠ — ٦١.
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢، ص ٨٧ — ٩٦.
Camb. Med. Hist. V. p. 263.

تتش يستقر بحلب، حتى أقبل ملك شاه فوصل إلى حلب ١٠٨٦ (شعبان ٤٧٩ هـ)، فتسلم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشام، واستولى على الرها أثناء قدومه إلى حلب، وكانت بيد البيزنطيين[١]. وسلم ملك شاه حلب، إلى قسيم الدولة أقسنقر، والد عماد الدين زنكى، فعمرها وأحسن السيرة فيها[٢]، ثم توجه السلطان ملك شاه إلى أنطاكية فتسلمها من وزير سليمان بن قتلمش، ورتب بها يغى سيان فى عسكر[٣]، وجعل لأخيه تتش ملك دمشق وجنوب الشام[٤]. أما خلف بن ملاعب أمير حمص، وعلى بن عمار أمير طرابلس، فبقيا على تحالفهما مع الفاطميين، على نحو ما كان قائماً زمن مسلم. وفى سنة ١٠٨٩ (٤٨٢ هـ) خضع لبدر الجمالى، عكا، وصور وصيدا وجبيل، كما يحميها من خطر السلاجقة[٥]. غير أنه حدث فى السنة التالية ١٠٩٠، أن اتحد أمراء الترك وتغلبوا على خلف بن ملاعب، وبذلك خضع لسيطرة السلاجقة كل شمال الشام حتى طرابلس[٦].

النرمنديون وجنوب إيطاليا وصقلية :

كان لزاماً على روبرت جويسكارد، بعد أن تم الاعتراف به دوقاً على أبوليا، أن يحمى نفسه، فى السنوات التالية، من مناوأة سائر الزعماء النرمان الذين رفضوا الاعتراف به سيدا عليهم. وما صادفه الدوق الجديد من مقاومة، سببت لهم متاعب بالغة الخطورة، وأفادت البيزنطيين فى أن هيأت

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢، ص ٩٩ — ١٠١، ١٠٦.
ابن الأثير : الكامل حـ ١٠، ص ٩٦ — ٩٧.
Camb. Med. Hist. V. p. 263.

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٩٨.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢، ص ١٠١.

(٤) Camb. Med. Hist. V. p. 263.

(٥) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠، ص ١١٦ — ١١٧.

(٦) Camb. Med. Hist. V. p. 263.
ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٢، ص ١٠٦ — ١٠٧.

لهم الفرصة لاستعادة ممتلكاتهم بجنوب إيطاليا . استولى جويسكارد سنة ١٠٦٠ على تارانتو ، وبرنديزى وريو ، فانتزعها من البيزنطيين ، وماكادت ريو تسقط فى يد ، وبرت ، حتى صارت صقلية شديدة الإغراء لروبرت وأخيه روجر ، غير أن الأحداث فى إيطاليا احتجزت روبرت فى أبوليا[1] . فما حدث من مشاحنات بين الأخوين روبرت وروجر ، هيأ لأهل كالابريا الفرصة للخروج على طاعة النرمان ، يضاف إلى ذلك أن بعض البلاد اغتنمت فرصة ابتعاد الزعماء النرمان ، فأعلنت التمرد والثورة ، كما أن مندوبى بعض مدن كالابريا ، توجهوا إلى أمالفى وروما ، يلتمسون حلفاء لمقاومة النرمان[2] .

ولتوطيد سلطانه ، أقام دوق كالابريا جاليات عسكرية فى مواضع مختلفة ، فاستخدم بذلك نفس الأساليب التى اتبعها القادة البيزنطيون فى حملاتهم بآسيا . فأحل فى مواضع طوائف من الأسرى ، ولجأ أحياناً إلى أن ينقل سكان مدينة بأسرها ، بعد تدميرها إلى مدينة أخرى . فحينما أقام النرمان حصن سكريبلا Scribla فى وادى كراتى Crati ، ويعتبر من أقدم الحصون التى شيدوها ، جعلوا حاميته من أسرى صقلية[3] .

على أنه ينبغى ألا ننسى أن النرمان احتلوا سنة ١٠٦١ ، مدينة مسينى وكل الجزء الساحلى من صقلية الذى يواجه الطرف الجنوبى لكلابريا . فأفادوا من الانقسام الذى دب بين المسلمين ، وتحالفوا مع أبى الثمنة أمير قطانية Catane الذى يناصب أمير بلرم العداء . ونظراً لأن المسيحيين يؤلفون شطراً كبيراً من سكان الجزء الشرقى من صقلية ، لقى النرمان شيئاً من الترحيب .

---

(١) Camb. Med. Hist. V. p. 175.

Gay : op. cit. pp. 522—523.

ومنذئذ صار أهل كالابريا يطلقون على روبرت دوق كالابريا ، بينما لم يكن روجر إلا كونتاً فقط . انظر (Gay : op. cit. p. 523)

(٢) Gay : op. cit. p. 524.

(٣) Gay : op. cit. p. 524.

وما أحرزه النرمان من انتصارات فى صقلية ، أسهم فى إخضاع جنوب كالابريا[1] .

---

(١) Ibid : p. 525.

يعتبر عزل الصمصام عن حكم جزيرة صقلية سنة ١٠٥٣ (٤٤٤ هـ) ، خاتمة حكم الكلبيين بالجزيرة ، فاضطربت أحوال البلاد ، وانفردت كل طائفة بجهتها ، فتولى أمر مازر ، وطرابنه Trapani ، القائد عبد الله ، واستبد بمدينة قطانية ابن المكلابى ١٠٤٠ (٤٣١ هـ) ، وملك ابن الثمنة سرقوسه (سيراكوز) وانتزع قطانية ، وحكم ابن الحواس فى جرجنت Girgenti وقصريانه Castrogiovanni — ثم نشب القتال بين ابن الثمنة وابن الحواس بتصريانه ، فانهزم ابن الثمنة ، وسار إلى مدينة مليطو Mileto ، التى اتخذها روجر ، الأخ الأصغر لروبرت جويسكارد ، مقراً له ، وترتب استيلاء النرمان بفضل مساعدة ابن الثمنة ، على مسينى سنة ١٠٦١ ، أن اتخذوها قاعدة لهم لمواصلة القتال ضد قصريانه وجرجنت من أملاك ابن الحواس ، غير أن هجماتهم باءت بالفشل ، وبوفاة حليفهم ابن الثمنة سنة ١٠٦٢ ، تراجع النرمان إلى مسينى . وتوقفت أعمالهم الحربية فى صقلية فترة من الزمن بسبب ما وقع من الشجار بين روبرت وأخيه روجر ، لأن روبرت لم يشأ أن يبذل لأخيه شيئاً من الأراضى ، وكادت الحرب تقع بين الأخوين غير أن الخوف من وقوع فتنة فى كالابريا ، حمل روبرت جويسكارد على أن يتفق مع أخيه ، على أن كل ما يقع بها من المدن والمعاقل ، يخضع لنوع من الحكم الثنائى . وتفرغ الأخوان بعدئذ للمضى فى فتح خزيرة صقلية ، فأنزلا فى سنة ١٠٦٨ ، الهزيمة بقوات أيوب ابن تميم الزيرى ، الذى استنجد به المسلمون فى صقلية ، فاستولى على جوجنت من ابن الحواس ، الذى لم يلبث أن لقى مصرعه . ولما حلت الهزيمة بأيوب ، ووقع النزاع بين أهل جرجنت وبين عسكره ، لم يسعه إلا العودة إلى شمال أفريقية . فاضطربت أحوال المسلمين بصقلية . وبعد أن استولى جويسكارد على بارى من يد البيزفطيين سنة ١٠٧١ ، أدرك أنه لا بد من إنشاء قوة بحرية ، للإفادة منها فى إتمام فتح صقلية ، فلما تحقق له ذلك ، استولى على قطانية ، وحصر بلرم ، التى سقطت فى أيدى النرمان فى يناير سنة ١٠٧٢ ، ولم تلبث مازر أن استسلمت لهم . فأضحى فى أيديهم مازر ، ومسينى ، وقطانية ، وبلرم ، وبذلك طوقوا ممتلكات أميرى سيراكوز وقصريانة بالشمال . على أن ما حدث من تمرد أتباع جويسكارد فى أبوليا . وما كان من الخصومة مع البابا اسكندر الثانى ثم البابا جريجورى السابع ، بسبب حرص البابا على وقف توسع النرمان ، وإدراكه ما يترتب على ذلك من خطورة على البابوية ، فأصدر سنة ١٠٧٨ قراراً بأن يحرم من الكنيسة «أولئك النرمان الذين هاجموا أملاك البابوية ، دوقية سبوليتو ، وأولئك الذين حاصروا بنيفنتو وعاثوا فساداً فى كمبانيا » . وحرم البابا على كل أسقف وقسيس ، أن يسمحوا للنرمان بأن يؤدوا الطقوس الدينية . وعلى الرغم من أن هذا القرار أدى إلى ازدياد الشقاق بين =

سياسة إسحاق كومنين وقسطنطين دوكاس :

لا نعلم ما إذا كان قائد الثغر البيزنطى الذى غادر سنة ١٠٦٠ ، سكيلا Scilla ، بعد سقوط ريو فى يد روبرت جويسكارد ، إلى القسطنطينية ، يعتبر آخر قادة ثغر كالابريا ، وأن بيزنطة لم ترسل منذ سنة ١٠٦٠ ، جيوشاً إلى سواحل كالابريا ، وأنها تخلت عن استرداد الثغور البيزنطية فى إيطاليا ، الواقع أنه احتشد فى سهلى أبوليا وبلاد أوترانتو من جيوش لمقاومة الغزاة النرمان . وليس لذلك من تفسير سوى أن ما وقع بالعاصمة البيزنطية من أحداث حتى سنة ١٠٥٧ ، حين تولى العرش إسحاق كومنين ، شلّ حركة الحكومة المركزية فى أملاكها بإيطاليا . ونظراً لانصراف الإمبراطور الجديد إلى توطيد سلطته ، وإلى التخلص من الوصاية التى حاول البطريرك فرضها على الإمبراطور ، وإلى المضى فى الإصلاحات اللازمة للإمبراطورية ، لم يقم إسحاق كومنين منذ أن تولى الحكم بما كان ينتظر أن يقوم به من دور حربى يتفق مع ماضيه[1] . وكان لزاماً عليه أن يتولى الدفاع عن أطراف الإمبراطورية التى تعرضت للأخطار الخارجية ، فيتولى قيادة الحملة الموجهة لقتال البجناك والمجريين . غير أن ما صادفه من مقاومة شديدة من قبل الأرستقراطية المدنية

= الأمراء النرمان ، فإن روبرت استطاع أن يقمع الفتنة سنة ١٠٨٠ . على أن البابا جريجورى السابع سعى إلى الاتفاق مع جويسكارد خوفاً من أن ينحاز إلى الإمبراطور هنرى الرابع الذى حرمه البابا من الكنيسة ، وبمقتضى هذا الاتفاق سنة ١٠٨٠ اعترف البابا بفتوح جويسكارد .

انفرد روجر بحكم صقلية بعد وفاة روبرت سنة ١٠٨٥ ، على أن فتح صقليه لم يكتمل إلا سنة ١٠٨٨ بسقوط سيراكوز ، ومنه ١٠٩١ بسقوط نوتو ، واستسلام جزيرة مالطة .

انظر :

Camb. Med. Hist. V, pp. 175—184.

Baldwin : The Crusades I, pp. 61—66.

Curtis : Roger of Sicly, pp. 62—84.

آمارى : المكتبة الصقلية ج ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٩ .

(١) Gay : op. cit. p. 225.

حمله على التخلى عن العرش فى ديسمبر ١٠٥٩ ، وجعل السلطة فى يد وزيره ، قنسطنطين دوكاس ، الذى لم يكن سوى أداة فى أيدى خصومه[1] .

لم تتهيأ الفرصة للإمبراطور إسحاق كومنين بأن يؤدى عملا هاماً فى إيطاليا ، ففى اللحظة التى ذاع فيها نبأ اعتزاله الحكم ، استولى النرمان على برنديزى ، وتارنت ، وأورية ثم ريو . غير أن الإمبراطور الجديد ، قنسطنطين دوكاس أنفذ إلى إيطاليا جيشاً ضخماً ، استطاع البيزنطيون به سنة ١٠٦٠ أن يستردوا تارنت ، وبرنديزى ، وأورية ، وأوترانت ، وأوغلوا فى زحفهم صوب الشمال حتى بلغوا ميلفى . والواقع أن السرفى هذا الانتصار يرجع إلى أن روبرت جويسكارد ، كان وقتذاك يقاتل فى صقلية ، وما كاد يعود من صقلية حتى استأنف القتال ضد البيزنطين ، فأرغمهم على رفع الحصار عن ميلفى ، ولم يلبث أن استعاد فى سنة ١٠٦٢ برنديزى وأورية ، ووقع فى أسره قائد الجيش البيزنطى ، والتزم القطبانان اللذان تعاقبا على حكم بارى ، سنة ١٠٦١ ، وسنة ١٠٦٢ ، باتخاذ خطة الدفاع[2] . وتعرض الإمبراطور قنسطنطين دوكاس للنقد الشديد لانصرافه عن الأمور الحربية ، فأسهم بذلك فيما حل بالإمبراطورية من كوارث . والواقع أن الأرستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى ، لم تلق من الخصوم من هو أشد صلابة وأكثر عتاداً من قنسطنطين دوكاس . اتهمه خصومه بأنه لم يحفل إلا بأن تمتلىء الخزانة بالأموال ، وأن يزيد فى مقادير الضرائب ، وأنه كان يحقر من شأن قادة الجيش[3] .

على أن الإمبراطور لم يحفل بالدفاع عن أطراف الإمبراطورية ، ولم يقبل أن تسهم الدولة فى توفير الأموال اللازمة للحروب الجديدة ، بل إنه حرص على أن يتجنب توجيه حملات حربية ، وسعى إلى المحافظة على نفوذه فى البلاد

---

(١) Ibid : p. 525.

(٢) Gay : op. cit. pp. 525—526.

(٣) Gay : op. cit. pp. 526—527.

المجاورة ، بما يبذله من الهدايا ، أو بما يعقده من معاهدات مع الأمراء المجاورين . فإذا كان هذا القول ينطبق على ما كان من علاقات بين بيزنطة والأتراك فى آسيا الصغرى ، والبجناك فى أوربا ، فإنه لا يتفق مع سياسة قنسطنطين دوكاس فى إيطاليا . وفى ذلك نلحظ اتجاهين مختلفين ، الأول تمثله الأرستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى ، التى تحرص على تركيز الجهود الحربية لمقاومة الأتراك بآسيا الصغرى ؛ دون الاهتمام بأمر إيطاليا . أما الاتجاه الآخر ، الذى جرى عليه الإمبراطور قنسطنطين دوكاس ، على الأقل فى السنوات الأولى من حكمه ، فيقضى بأن يسلك الإمبراطور طريق الموادعة مع الترك ، كيما يتفرغ لإعادة السلطان البيزنطى فى الثغور الإيطالية[1] .

ولم يفقد الإمبراطور البيزنطى الأمل فى أن يحصل على حلفاء من داخل إيطاليا ذاتها ، يعرضون استعدادهم للقتال ضد النرمان . ففى مستهل حكمه ، بعث بالهدايا القيمة والمقدسات الدينية إلى إمبراطور ألمانيا ، كيما يجتذبه إلى جانبه فى النضال ضد النرمان . وتهيأت فى سنة ١٠٦٢ ، الفرصة للإمبراطور البيزنطى ليوثق علاقته بالبلاط الألمانى ، وليحمله على التدخل فى الشئون الإيطالية[2] ، ذلك أنه حينما مات البابا نقولا الثانى سنة ١٠٦١ ، نشب نزاع شديد على كرسى البابوية ، بين كادالوس Cadalus أسقف بارما ومرشح البلاط الألمانى وشطر كبير من نبلاء روما ، ويعاونه بينزو Benzo أسقف بيدمونت ، وبانتاليونى Pantaleon من كبار تجار أمالفى ، الذى ذاع صيته فى البلاط البيزنطى ؛ وبين أسقف لوكا ، مرشح هيلد براند ، وحزب الإصلاح بالكنيسة ، ويستند إلى تأييد أمير كابوا النرمانى[3] . وجرى انتخاب كادالوس بابا ، واتخذ اسم هونوريوس الثانى ، غير أنه لقى المقاومة الشديدة من حزب الإصلاح ، الذى اختار أسقف لوكا بابا باسم اسكندر الثانى[4] .

(١) Ibid : p. 527.
(٢) Gay : op. cit. p. 528.
(٣) Ibid : p. 528.
(٤) Camb. Med. Hist. IV. p. 597.

ويعتبر بينزو نصير كادالوس ، والتاجر الأمالفى ، أول من فكرا فى إحياء التقليد القديم الذى يقضى بالتحالف بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الغربية ، وذلك لمناهضة النرمان حماة البابا اسكندر الثانى[1] .

وأعلن الإمبراطور البيزنطى استعداده لأن يبذل للإمبراطور الألمانى من الأموال ما يجعله يحشد جيشاً كبيرا ، يسهم مع جيش بيزنطة فى تحرير المسيحيين من النرمان والترك والسلاجقة[2]. غير أن الإمبراطور الألمانى ، هنرى الرابع ، لم يستجب لهذه المساعى ، بل إنه أقر بفضل مساعى هيلدبراند ، بابوية اسكندر الثانى ، فلم يسع كادالوس إلا الفرار من قلعة سان إنجيلو التى اعتصم بها . والتجأ سنة ١٠٦٤ إلى مانتوا ، ومنذئذ لم يعد لدعواه فى البابوية اعتبار أو أهمية[3] . وبذا فشلت محاولات الإمبراطور قنسطنطين دوكاس الدبلوماسية ، وضاعت الفرصة لتأليف حلف فى إيطاليا لمناوأة النرمان ، ولم يكن لديه إلا وسيلة واحدة لوقف تقدم دوق أبوليا وكالابريا ، وذلك بأن يشجع المدن على المضى فى مقاومتها ، والإيقاع بين الزعماء النرمان ، والإفادة من سخطهم وحقدهم على روبرت جويسكارد ، وحرصهم على الخروج على طاعته[4] . ففى سنة ١٠٦٤ ، دارت مفاوضات بين ممثل للإمبراطور البيزنطى فى دورازو ، وبين بعض النبلاء النرمان ، أمثال جفرى كونفرسانو ، وروبرت مونتيسكا جليوسو Montescaglioso ، وأبيلارد ، وأمياس جيوفيناتسو ، وجوسلين . فأعلنوا الثورة ضد روبرت جويسكارد ، ولم يخمد هذه الثورة إلا بعد أربع سنوات ، لقى فيها روبرت العناء وصادف العقبات العديدة ، غير أنه قهر

(١) Gay : op. cit. p. 528.
(٢) Gay : op. cit. pp. 529—530.
(٣) Ibid : d. 531.
Camb. Med. Hist. IV. p. 597.
Gay : op. cit. p. 530.
(٤) Camb. Med. Hist. V. pp. 175—176.

خصومه الواحد بعد الآخر ، واستولى على أملاكهم[١] . ولم يتوافر عند دوق دورازو من العساكر مايساند هؤلاء المتمردين ، وانحازت جماعات كثيرة من النرمان إلى جانب روبرت جويسكارد ، فانقض على خصومه ، وأنزل بهم الهزائم[٢] . على أن الحرب ظلت مستمرة ، وجاءت الأمداد من العاصمة ، واستردت برنديزى وتارنت ، ورابطت سنة ١٠٦٧ حامية قوية فى برنديزى بقيادة نقفور كارانتينوس ، قامت بهجمات عديدة على النرمان الذين أخذوا يعيثون فسادا فى الجهات المجاورة[٣] .

أدرك روبرت جويسكارد أنه لن يتم له فتح جزيرة صقلية ، إلا بعد قمع الفتنة فى أبوليا ، واكتمال خضوع الزعماء النرمان له ، والاطمئنان إلى منع ورود مساعدة لهم من بيزنطة ؛ ولذا كرس روبرت جويسكارد ، كل اهتمامه فى السنوات التالية إلى أن ينتزع من البيزنطيين ما تبقى لهم من أملاك[٤] .

وبعد أن جلب السفن من كالابريا ، شرع روبرت جويسكارد فى حصر بارى ، فى أغسطس سنة ١٠٦٨ . كان الوضع العام للإمبراطورية البيزنطية وقتذاك من الحرج ما يحول دون إرسال حملة إلى إيطاليا . فحينما مات الإمبراطور قنسطنطين دوكاس ١٠٦٧ ، كان الأتراك السلاجقة قد احتلوا الشطر الأكبر من آسيا الصغرى . وإذ حرصت أرملة قنسطنطين أن تهب الإمبراطـورية حاكماً كفئا قديرا على إنقاذها ، قررت أن تتزوج فى سنة ١٠٦٧ ، القائد رومانوس ديوجنيس الذى اشتهر ببسالته الرائعة والمواهب الحربية النادرة . وفى الوقت الذى شرع فيه رومانوس يقاتل العرب فى الشام ، شرع روبرت جويسكارد فى حصار بارى . وبعث سكان المدينـــة إلى

---

(١) Camb. Med. Hist. V. p. 176.
Gay : op. cit. pp. 533—534.

(٢) Ibid : p. 535.

(٣) Ibid : p. 535.

(٤) Camb : Med. Hist. V. p. 176.

القسطنطينية ، يطلبون إرسال جيش لنجدتهم ، ولم تجد نفعا محاولات جويسكارد للمفاوضة معهم ، فنشبت وقائع حربية عديدة تحت أسوار المدينة[١] .

وكيما يحكم النرمان حصر المدينة ، بارى ، من جهة البحر ، سدوا مدخل الميناء بالحجارة والصخور . على أن أسطولا بيزنطياً يحمل النجدة ، لم يلبث أن وصل إلى بارى ، ولما تلقى السكان الأمداد والمؤن ، تجهزوا لمواصلة المقاومة ، فامتدت الحرب إلى برنديزى أيضا . على أن برنديزى أذعنت بعد أن وجه إليها جويسكارد كل جهوده ، لما لجأت إليه حامية برنديزى من قتل الأسرى النرمان الذين وقعوا فى أيديهم فى بعض الهجمات ، وفى تلك الأثناء تلقى سكان بارى المؤن التى حملها إليهم من القسطنطينية أسطول تجارى[٢] .

ونهض لمساعدة جويسكارد فى حصر بارى ، أخوه روجر ، الذى قدم بأسطول من كالابريا ، فأنزل الهزيمة بأسطول بيزنطى ، تولى قيادته جوسلين أحـــد الزعماء النرمان ، الذين تمردوا على جويسكارد ، ولجأوا إلى القسطنطينية ، فدخل فى خدمة الإمبراطور البيزنطى . ولما اشتد الحصار على المدينة ، وقلت الأقوات ، وتعرض السكان لخطر المجاعة ، عزموا على الاستسلام ، فاعترفوا بروبرت جويسكارد دوقاً لهم ، وأقسموا يمين الولاء[٣] ، وذلك فى إبريل سنة ١٠٧١[٤] . وبذل جويسكارد لأهل بارى شروطاً اتسمت بالتسامح ، تدل على أنه لم يفرق فى المعاملة بين سكان بارى من البيزنطيين ، وسكان أبوليا الخاضعين له ، فأطلق سراح من كان معتقلا من الموظفين ، وأبقى على حياة قائد الأسطول البيزنطى[٥] .

---

(١) Gay : op· op. cit. p. 536.

(١) Gay: op. cit. p. 537.

(٢) Ibid : p. 538.

(٣) Camb : Med, Hist. V. p. 176.

(٤) Gay : op. cit. p. 538.

وأعاد إلى الأرستقراطية المحلية ما استولى عليه من أراضيهم وضياعهم ، وجنَّب بارى ما تتعرض له ، من قبل البارونات النرمان النازلين بالمدن المجاورة لها ، من المظالم والاعتداءات . والواقع أن أكثر ما سعى إليه روبرت جويسكارد ، وحرص عليه ، هو أن ينال من سكان بارى من التأييد والمساعدة ، ما يكفل له المضى فى حملته الكبيرة التى أزمع القيام بها فى صقلية . ولذا بدلا من أن يفرض عليهم ضرائب ثقيلة للإنفاق منها على الحرب ، طلب إليهم أن يسهموا فى حروبه ضد المسلمين بجزيرة صقلية ، بما يمدون به العساكر والسفن . وبذا أفاد سقوط بارى بما انحاز إلى جيش روبرت جويسكارد من قوات جديدة ، اشتركت فى حصر بلرم التى سقطت فى أيدى جويسكارد فى يناير سنة ١٠٧٢[١] .

ومن النتائج الأخرى الهامة لسقوط بارى ، أن زال فعلا ما كان لبيزنطة من نفوذ وسلطان فى إيطاليا ، وأن أضحى فى يد روبرت جويسكارد موضع بالغ المناعة فى قلب أبوليا[٢] ، يستطيع منه أن يفرض سلطانه على سائر أتباعه ، وأن يرث ما كان لإمبراطور بيزنطة فى هذا الثغر من مكانه وهيبة[٣] . يضاف إلى ذلك ما تبين للنرمان من أهمية القوة البحرية فى الاستيلاء على المدن البحرية ، فأصبحت كل من بارى وبلرم ، قاعدة تخرج منها الحملات للاستيلاء على المدن الساحلية أمثال أمالفى وسالرنو ، فأذعنت هاتان المدينتان آخر الأمر لدوق أبوليا ، بعد أن سيطر على البحر التيرانى باستيلائه على كالابريا وصقلية[٤]

اشتد قلق البابوية زمن إسكندر الثانى ، وجريجورى السابع ، لما حدث

(١) Gay : op. cit. p. 538.
Camb : Med. Hist. V. p. 183.
(٢) Ibid : p. 176.
(٣) Gay : op. cit . p. 538.
(٤) Gay : op. cit. p. 539

من توسع النرمان ، وامتداد سلطانهم إلى الشمال إلى إقليم Abruzzi ، فأصبحوا خطراً يهدد أملاك البابوية ، ولم تجن البابوية ثمرة المعاهدة ، التى سبق عقدها مع النرمان فى ميلفى . ولم يسع البابا جريجورى السابع إلا أن يؤلب زعماء النرمان ، أحدهم ضد الآخر . وترتب على هذه الحروب العنيفة أن بلغت الفوضى فى جنوب إيطاليا ذروتها ، وأن تدمير النرمان أضحى الشرط الأول اللازم لتحقيق كل الخطط التى وضعها البابا جريجورى السابع لبذل المساعدة إلى الإمبراطورية البيزنطية ، التى تعرضت لخطر السلاجقة[١] . وفى مارس سنة ١٠٧٤ أصدر البابا قرار الحرمان ضد جويسكارد وأنصاره ، ولم يلبث الصلح أن تم بين جويسكارد وريتشارد أمير كابوا النرمانى ، وآذن ذلك بتوحيد كلمة النرمان وجهودهم . ولم تجد نفعاً ما بذله رئيس دير مونتى كاسينو من الوساطة بين البابا وبين الزعماء النرمان[٢] .

ولم يكترث بالبابا كل من جويسكارد ورتشارد ، فحشدا قواتهما وحصرا سالرنو ونابولى ، وأنفذا إلى الأملاك البابوية حملات أحرزت انتصارات باهرة . وفى اللحظة التى انتصر فيها البابا جريجورى السابع على الإمبراطور هنرى الرابع ، وأرغمه على أن يقدم إليه ذليلا فى كانوسا ، استولى جويسكارد سنة ١٠٧٧ على سالرنو ، التى يعتبر أميرها جيزولف آخر من تبقى من حلفاء البابا فى جنوب إيطاليا ، وفى ديسمبر سنة ١٠٧٧ ، قام جويسكارد بحصار بنيفنتو . ولا بد أن هذا الهجوم الموجه إلى الأملاك البابوية ، أثار غضب البابا ، ولا سيما بعد أن ازداد توفيقاً وحظاً منذ أن صدر ضده قرار الحرمان . وفى مجمع روما المنعقد فى مارس سنة ١٠٧٨ ، أعلن البابا أنه يقطع من الكنيسة « أولئك النرمان ، الذين هاجموا أراضى القديس بطرس (البابوية) — إقليم فيرمو ودوقية سبولينو — وأولئك الذين حصروا بنيفنتو ، واجترأوا على تخريب

(١) Camb. Med. Hist. V. pp. 169—170.
(٢) Camb. Med. Hist. V. p. 179.

كمبانيا ، وماريتيما ، وسابينا » . ومنع كل أسقف وقسيس من أن يسمحو للنرمان بتأدية الطقوس الدينية(١) .

وأدّى قرار الحرمان إلى وقوع الشقاق بين النرمان ، فامتنع أتباع جويسكارد عن أن يبذلوا له من الضرائب ، وما درجوا عليه عند زواج ابنة الأمير ؛ وبفضل جهود أمير كابوا والبابا ، امتدت حركة العصيان إلى معظم أتباع جويسكارد(٢) .

غير أن جويسكارد استطاع أن يقهر خصومه ، الواحد بعد الآخر ، ويستولى على مدنهم . وفر كثير من النبلاء المتمردين إلى بلاد اليونان حتى لا يتعرضوا لما يستحقونه من العقاب ، ولما فرغ جويسكارد من قمع هذه الفتنة ، ازداد قوة . وفى تلك الأثناء ، سنة ١٠٨٠ ، أصدر البابا قرار الحرمان ضد الإمبراطور هنرى الرابع ، واعترف بمنافسه رودلف إمبراطورا(٣) . على أن البابا جريجورى السابع عزم على أن يجرى مفاوضات مع جويسكارد ، دوق أبوليا ، حتى لا يتحالف مع هنرى الرابع . وتولى الوساطة بين البابا ودوق أبوليا ، رئيس دير مونتى كاسينو وانتهت باتفاقية شبرانو Ceprano ، يونيه ١٠٨٠ ، وبمقتضاها أقسم جويسكارد يمين الإخلاص للبابا ، وحلف بأن يكون رجل (تابع) البابا . ووعد الدوق بأنه سوف يساند البابا فى الدفاع عن البابوية . والواقع أن الدوق النرمانى هو الذى انتصر ، فأرغم البابا على الاعتراف بكل البلاد التى فتحها(٤) .

على أن أطماع جويسكارد لم تقف عند هذا الحد ، إذ تطلع بعد أن دان له جنوب إيطاليا ، إلى تحقيق ما كان يصبو إليه من اعتلاء عرش الإمبراطورية

---

(١) Camb. Med. Hist. V. pp. 179—180.

(٢) Ibid : p. 180.

(٣) Ibid : p. 180.

(٤) Camb. Med. Hist. V, pp. 180—181.

البيزنطية . أراد دوق أبوليا من جهة ، أن ينزل العقاب بالإمبراطور البيزنطى لما بذله من المساعدة للنرمان الثائرين ، ووقع هذا النرمانى أيضاً ، من جهة أخرى ، تحت تأثير بيزنطة والعالم البيزنطى ، الذى لمسه فى الغرب . والواقع أن جويسكارد بلغ من ارتفاع الشأن فى إيطاليا ، حتى تراءى كأنه الوارث الشرعى للأباطرة ، الذين حاكاهم فى زيهم وقلد خاتمهم . يضاف إلى ذلك أنه ما كان ليتصور أن تعترض فتح بيزنطة عقبات ، على حين أن فارسين من سائر النرمان ، وهما روبرت كريسبين Crispin وروسيل دى بايلييل ، اللذان كانا بخدمة أمير كابوا ، وأمير أبوليا ، كادا يعتليان عرش بيزنطة(١) . على أن جويسكارد أحس منذ زمن طويل بما يجذبه إلى القسطنطينية ، ولم يجهل الأباطرة من جانبهم ما كان لجارهم من قوة ، فسعوا إلى التحالف معه(٢) . واستهل هذه السياسة ، الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجنيس ، الذى اقترح أن يتزوج أحد أبنائه من ابنة جويسكارد ، على أن هذا العرض ، الذى حدث إما قبيل حصار بارى أو أثناءه ، لم يلق إلا الرفض من جانب جويسكارد(٣) .

على أن سياسة ديوجنيس لم تلبث أن تجددت زمن ميخائيل السابع ، ونظراً لما كان ميخائيل السابع ، يأمله فى أن يستخدم النرمان لوقف تقدم السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وأن يحمى فى الوقت ذاته الإمبراطورية من الهجمات الأخرى من قبل جويسكارد ، تخلى نهائياً عن دعاويه فيما كان للإمبراطورية البيزنطية من أملاك بجنوب إيطاليا . وسعى إلى صداقة الزعيم النرمانى . ولا زال باقياً الرسالتان اللتان تضمنتا طلب ميخائيل السابع بإجراء تحالف مع جويسكارد ، والرسالة الأولى مؤرخة على الأرجح إما فى آخر سنة ١٠٧١ أو أوائل سنة ١٠٧٢ ؛ أما الرسالة الثانية فيرجع تاريخها إما إلى سنة ١٠٧٢ ،

---

(١) Camb. Med. Hist. V. p. 181.

(٢) Ibid : p. 181.

(٣) Baldwiu : The Crusades, I, p. p. 187.

أوسنة ١٧٠٣ ، بينما حمل قرار جويسكارد التاريخ ، أغسطس سنة ١٠٧٤[١].

وموضوع الرسالتين عبارة عن اقتراح بأن يتزوج قنسطنطين أخ الإمبراطور من ابنة جويسكارد ، مقابل توكيد التحالف والصداقة بينهما ، وبذل المساعدة لبيزنطة فى كل الأمور ، والنهوض لمساعدة البيزنطيين فى قتال أعداء الإمبراطورية . غير أن جويسكارد رفض هذا العرض[٢] .

وقام البلاط البيزنطى بمحاولة جديدة سنة ١٠٧٤ ، فاقترح الإمبراطور ، أن يكون أساس ما ينشده من تحالف ، أن يتزوج ابنه من ابنة جويسكارد فقبل الأمير النرمانى ، هذا العرض . وتضمن الاتفاق أن يتزوج قنسطنطين ابن الإمبراطور من ابنة جويسكارد التى اتخذت فيما بعد اسم هلينا . وبمقتضى هذا الاتفاق حصل الغروسان على لقبين إمبراطوريين ، وحاز جويسكارد لقب شريف nobilissimus ، وجاز له أن يطلق على أحد أبنائه قربلاط ، وجعل الإمبراطور له ثمانى ألقاب يبذلها لمن يشاء من أتباعه . وبعض هذه الألقاب تفيد حاملها بما يحصل عليه من رواتب . ووافق جويسكارد على ألا ينتهك حرمة أملاك الإمبراطورية ، بل يدفع عنها أعداءها . وهذا الاتفاق عبارة عن تحالف هجومى دفاعى ، ولم يرد به إشارة إلى الترك ، غير أن الغرض منه ، فيما يرويه بعض المؤرخين ، أن يكون فى وسع الإمبراطور بفضل مساعدة النرمان أن يطرد الترك من آسيا الصغرى[٣] .

الواقع أن جويسكارد عقد هذا التحالف مع الإمبراطور البيزنطى فى وقت ساءت فيه علاقاته مع البابوية ، والراجح أنه لم يقدم على هذا الإجراء إلا ليمنع وقوع اتفاق بين بيزنطة والبابوية . لأن السلطات البيزنطية أخذت تفاوض البابا ، أثناء اتصالها بروبرت جويسكارد . والملحوظ أن هذه المفاوضات مع

(١) Baldwin : The Crusedes, I, p. 187.

(٢) Ibid : p. 188.

(٣) Baldwin : The Crusades, I. p. 188.

البابوية توقفت ، بعد أن تم عقد التحالف مع جويسكارد . على أن البيزنطيين لم يجنوا شيئاً من وراء هذا الاتفاق ، لما اتصف به جويسكارد من شدة الطموح ، فلم يمض إلا زمن قصير حتى ركز اهتمامه للحصول على التاج الإمبراطورى . فلما تم عزل الإمبراطور ميخائيل عن العرش سنة ١٠٧٨ ، تراءى له أن الفرصة سنحت لتحقيق غرضه ، فاستخدم المعاهدة التى عقدها مع ميخائيل تكأة وعذراً لتبرير عمله[١] . وفى تلك الأثناء تمت تسوية منازعاته مع البابوية ، وأقر البابا جريجورى السابع ، بعد أن اشتد غيظه لفشل المفاوضات مع بيزنطة ، ما اتخذه جويسكارد من خطط هجومية ضد الإمبراطورية البيزنطية . ففى ٢٥ يوليه سنة ١٠٨٠ ، كتب البابا جريجورى السابع إلى أساقفة أبوليا وكالابريا ، يطالب إليهم أن يبذلوا كل ما فى وسعهم من مساعدة لجويسكارد ، فى الحملة التى يوشك أن يقوم بها ضد بيزنطة ، وفى الوقت الذى تأهب فيه جويسكارد للمضى لغزو الإمبراطورية البيزنطية ،

(١) Baldwin : The Crausades I, p. 188.

تزعزت سيطرة بيزنطة فى آسيا الصغرى ، عقب معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ ، بل كادت تفقد سلامتها ، وترتب على الأخطار التى واجهت الإمبراطورية أن فكر الإمبراطور فى أن يدعو لمساعدته جيوشاً كبيرة من الغرب ورأى أن الاتحاد الدينى يعتبر خير وسيلة لحث البابا على أن ينتصر لقضيته عند الشعوب . واستهل هذه السياسة سنة ١٠٧٣ ، الإمبراطور ميخائيل السابع ، وجرى تبادل المراسلات بين الإمبراطور البيزنطى وبين البابا جريجورى السابع ، ترتب عليها أن أصدر البابا فى مارس سنة ١٠٧٤ ، رسالة وجهها إلى جميع المؤمنين يشير فيها إلى ما تعرضت له الدولة البيزنطية من هجمات الترك ، ويحثهم على النهوض لمساعدة المسيحيين فى الشرق ، وفى رسالة وجهها إلى الإمبراطور هنرى الرابع فى ديسمبر سنة ١٠٧٤ ، يشير إلى استعداده للمسير على رأس جيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل ، لتحرير الشرق والقبر المقدس ، فضلا عن إعادة الكنائس الشرقية إلى الوحدة المسيحية . غير أن الأحوال والظروف حالت دون تحقيق هذه الخطة ، بسبب ما وقع من النضال بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع ، وما حدث من إقصاء الإمبراطور ميخائيل السابع عن العرش . وأصدر البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٤ رسالة يدعو فيها إلى حرب صليبية .

انظر :

Camb. Med. Hist. IV. p. 598.

Thatcher : op. cit. p. 512.

بعد أن باركه البابا ، تولى عرش بيزنطة سنة ١٠٨١ الكسيوس كومنين . على أن مصير الإمبراطورية البيزنطية توقف على نتيجة النزاع بينهما(١) .

البلقان :

المعروف أن أملاك الإمبراطورية فى البلقان تعرضت لغارات عدو لا يقل فى ضراوته وخطورته عن السلاجقة الذين نفذوا إلى آسيا الصغرى ، وهذا العدو تمثله قبائل تركية أيضاً تتمثل فى البجناك والغز .

والبجناك عبارة عن شعب بدوى كثير العدد ، كان يذرع فى عرباته التى لا تحصى ، السهول الواقعة بين مصبى نهر الدنيبر ونهر الدانوب ، وقام بالإغارة على بلغاريا ، وعلى ثغر تراقيا الفسيح(٢) . وهذه الشعوب التى تنتمى إلى أصل أسيوى ، انقسمت إلى ثلاث عشرة قبيلة ، اتخذت كل منها اسم أحد أجدادها(٣) . والواقع أن غارات البجناك على الأملاك البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان ، لم تنقطع منذ أن تولى قسطنطين الثامن الحكم سنة ١٠٢٥ ، حتى نهاية القرن الحادى عشر ، وذلك بعد أن تم انضمام بلغاريا إلى أملاك الإمبراطورية ، وبعد أن اشتد عليهم ضغط الكومان (القبجاق)(٤) . ولم يرتدوا عن أملاك الإمبراطورية فى بلغاريا ، زمن قسطنطين الثامن ، إلا بعد أن أنزلوا بها أضراراً جسيمة ، وقتلوا كثيراً من السكان ، منهم جماعة من كبار الموظفين ، فضلا عن عدد كبير من الأسرى ، الذين تم افتداؤهم

(١) Baldwin : The Crusades I, pp. 188—189.
Camb. Med. Hist. IV, p. 329.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III, p. 566.
جرت الغارة الأولى زمن قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٧ ، وحدثت الغارة الثانية سنة ١٠٣٢ .
انظر Schlumberger : L'Epopée III. pp. 18, 201.

(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 566.

(٤) Baldwin : The Crasades I, p. 182.

زمن رومانوس الثالث أرجيروس . وعاد البجناك مرة أخرى سنة ١٠٣٢ ، زمن ميخائيل الرابع ، إلى الإغارة على بلغاريا ، ومنذئذ توالت غاراتهم التى نجم عنها الخراب والدمار فى جهات كثيرة من شبه جزيرة البلقان ، ووقوع كثير من الأسرى فى أيديهم(١) .

على أن زمن الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس (١٠٤٢—١٠٥٤) شهد أعظم غارة للبجناك على أملاك الإمبراطورية . فما حدث من الشجار بين اثنين من زعماء البجناك يعتبر أول سلسلة الحوادث التى أدت إلى ما أنزله البجناك من التخريب فى البلقان زمن قسطنطين التاسع(٢) .

وتفصيل ذلك ، أن البجناك كان يحكمهم رجل ينتمى إلى أصل شريف ، واسمه تيراخ Tirakh ، بينما تولى قيادتهم العسكرية ، رجل وضيع النسب اسمه كيجين Kegen ، ارتقى إلى هذا المنصب بفضل ما اشتهر به من المواهب والصفات التى تؤهله لذلك ، غير أن شهرته التى ذاعت بين أفراد قبيلته أزعجت تيراخ وأقلقت باله ، فدبر أمر التخلص منه(٣) . ولما علم كيجين بما دبره له تيراخ من مؤامرة ، لم يسعه إلا الهروب والالتجاء إلى بطائح ومستنقعات نهر الدنيبر ، واستطاع من ملجأه وملاذه أن يجتذب إليه قبيلتين من القبائل التى يتألف من مجموعها البجناك . وبلغ من الجراءة والجسارة ، أنه أنشب الحرب ضد تيراخ الذى يخضع له معظم البجناك ، فحلت به الهزيمة . فلجأ إلى الفرار ، وبعد مغامرات ، استقر به المقام فى جزيرة صغيرة تقع بالقرب من مصب نهر الدانوب ، وصحبه إلى هذا الموضع نحو عشرين ألف من أتباعه . وعندئذ التمس من الإمبراطور البيزنطى أن يأذن له بالنزول فى الأراضى

(١) Baldwin : The Crusades I, p. 182.

(٢) Ibid : p. 183.

(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 567.
Baldwin : The Crusades I, p. 183.

البيزنطية ، والدخول فى خدمة الإمبراطور . فرحب به الإمبراطور فى القسطنطينية واستقبله بمظاهر التكريم والتشريف ، ومنحه لقب بطريق . وفى مقابل ذلك اعتنق كيجين المسيحية ، ووعد بأن يسلك طريقه أتباعه . فاستقر هؤلاء الأتباع على امتداد نهر الدانوب ، وبذل لهم الإمبراطور الأراضى ، على أن يلتزموا الدفاع عن الحدود ، ويردوا عنها غارات أقوامهم الذين ينزلون على الضفة الأخرى لنهر الدانواب[١] .

على أن كيجين ما كاد يطمئن على مقامه بالشاطئ الجنوبى لنهر الدانوب ، حتى شرع فى الانتقام من تيراخ ، فدأب على أن يجتاز النهر ، على رأس جماعة من أتباعه ، تبلغ أحياناً الألف ، وأحياناً الألفين ، فلم يهادن أقاربه ، ولم يترك لهم فرصة يخلدون فيها للراحة ، فصار ينقض عليهم ، وينزل بهم الأضرار ، فيقتل من يصادفه منهم ، ويحمل نساءهم وأطفالهم فيبيعهم رقيقاً لليونانيين[٢] . وإذ ضاق تيراخ ذرعاً بهذه الهجمات العنيفة ، أنفذ إلى الإمبراطور رسلا ، يعنفونه لما بذله من المأوى والملاذ[٣] ، « فإذا كان الإمبراطور جعل لهم مأوى ، فلا أقل من أن يمنعهم من اجتياز الدانوب ، حتى يكفوا عن النهب واللصوصية فى بلاد قوم يعتبرون أصدقاء للإمبراطور » . وهدد بحرب لا هوادة فيها ، إذا لم يستجب الإمبراطور لمطالبه[٤] . وغضب الإمبراطور لما بدر من تيراخ من وقاحة ، فصرف رسله دون أن يبعث معهم برد ، وطلب إلى واليه الذى يضبط شاطئ الدانوب ، وإلى كيجين ، بتشديد مراقبة النهر ، وإخطاره عند محاولة البجناك عبور النهر ، كيما يبادر بإرسال عساكر لنجدتهما لرد المعتدين : وفى الوقت ذاته أرسل أسطولا بحرياً مؤلفاً

---

(١) Baldwin : The Crusades I, p. 183.
Schlumberger : L'Epopée III. pp. 567 –568.

(٢) Ibid : d. 568.

(٣) Ibid : p. 568.

(٤) Ibid : p. 568.

من مائة سفينة ليراقب من جهة البحر الأسود ، ما يجرى على نهر الدانوب ، وليمنع كل محاولة لاجتيازه[١] .

اشتد غيظ تيراخ لما لحق رسله من إهانة ، وعزم على أن يغير على أملاك الإمبراطورية ، فاجتاز الدانوب ، فى ديسمبر سنة ١٠٤٨ ، وقد تجمدت مياه النهر ، وصحبه جيش كثيف ، بلغ عدده على حد تقدير المؤرخ البيزنطى نحو ٨٠٠ ألف مقاتل ، ومن الطبيعى أن هذا التقدير جرت المبالغة فيه ، فأنزل هذا الجيش الخراب والدمار والرعب والقتل فى كل مكان[٢] .

ارتاع الإمبراطور لفداحة الخطر ، فأصدر الأوامر إلى دوق أدرنه ، الماجسطرس قنسطنطين أريانيتس **Arianites** ، بأن يحشد عساكر ثغرى تراقيا ومقدونيا ، وطلب إلى باسيل حاكم بلغاريا أن يجمع العساكر المرابطة فى هذا الإقليم ، وأن تنحاز هذه القوات إلى عساكر كل من ميخائيل الموكل بالإشراف على الدانوب ، وعساكر كيجين . فلما اجتمعت كل هذه القوات ، تولى كيجين توجيه العمليات الحربية ، نظرا لخبرته بطباع البجناك وصفاتهم . فاكتفى أول الأمر بالإمعان فى إثارتهم والتحرش بهم ، دون أن يجرى معهم معركة حاسمة . فلما اجتاز البجناك الدانوب بجموعهم وحشودهم ألفوا أنفسهم فى إقليم يزخر بالخيرات من الماشية والحبوب ، فأسرفوا فى الطعام والشراب ، ولم تلبث الدوسنطاريا أن تفشت فيهم ، وازدادت أحوالهم سوءاً بما كان من شدة البرد ، فهلك عدد كبير من هذه الجموع . ومن عاش منهم لم يقو على حمل السلاح ، وعندئذ عزم كيجين على أن يقضى بالسلاح على من بقى من البجناك بعد الوباء وسوء الأحوال الجوية : فلم يسع تيراخ إلا الإذعان والاستسلام[٣] . وتوسل كيجين إلى القادة البيزنطيين بأن يجهزوا على قادة

---

(١) Schlumbeger : L'Epopée III. p. 569
(٢) Baldwin : The Crusades I, p. 183.
Schlumberger : L'Epopée III. p. 569.
(٣) Schlumberger : L'Epopée III. p. 570.
Baldwin : The Crusades, I. p. 188.

البجناك وأسراهم حتى يتقوا شرهم . غير أن القادة البيزنطيين رأوا أن هذا الإجراء يشين اسم الروم(١) . واستقر الرأى على توزيع هؤلاء البائسين على حملات ومواضع بمناطق مهجورة فى بلغاريا ، وعلى أن يلتزموا بدفع الجزية ؛ وبذلك تكسب الإمبراطورية رعايا جددا ، ويجرى أيضاً استصلاح أراضى جديدة ، يضاف إلى ذلك أن توافر للإمبراطورية عساكر مهرة ، يصح توجيههم إلى قتال الترك وسائر المتبربرين(٢) . ولما تأصل عند كيجين من الكراهية للبجناك ، أمر بقتل أو بيع كل من وقع فى أيدى أتباعه منهم أثناء القتال ، ثم توجه إلى موطنه الأول عبر الدانوب . أما بقايا البجناك فتقرر إنزالهم فى منطقتى سرديكا (صوفية) ونيسوس Naissus (نيش) يفلحون الأرض ، ويؤدى الضرائب . ويخدمون فى الجيش . وقدم على الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية ، تيراخ وأربعون من كبار زعماء البجناك ؛ فأحسن استقبالهم ، وحملهم على التنصير ، وغمرهم بالهدايا والتشاريف ، فأخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، حتى أضحوا كأنهم رهائن سياسية فى البلاط البيزنطى(٣) .

وفى تلك الأثناء ، تعرضت الأطراف الشرقية فى آسيا الصغرى لغارة جديدة من قبل الترك السلاجقة ، إذ أن إبراهيم ينال هاجم بفرسانه وقتذاك ، إقليم فاسبوركان . وعندئذ جرى التفكير فى الإفادة من هؤلاء البجناك فى قتال الترك السلاجقة(٤) ، فتقرر حشد جيش مؤلف من خمسة عشر ألف جندى من البجناك ، وتوجيهه بقيادة أربعة من زعمائهم ، لمواجهة السلاجقة فى آسيا الصغرى . وكان إقليم إيبريا (بلاد الكرج) ، هو الجهة التى يقصدونها ، غير أنهم لم يلبثوا أن أعلنوا الثورة ، قبل أن يفرغوا من اجتياز بثينيا ، فعادوا

(١) Schlumberger : L'Epopée III, p. 571.

(٢) Ibid : p. 571.

(٣) Ibid : p. 571.

(٤) Baldwin : The Crausades I, p. 188.
Schlumberger : L'Epopée III, p. 571.
Baldwin : The Crasades I, p. 184.

أدراجهم ، وعبروا البوسفور من جديد ، ومضوا إلى إقليم صوفية ، وحرضوا إخوانهم النازلين به على التمرد والثورة . ولم يلبث أن انحاز إليهم أولئك البجناك النازلون حول نيش ، واتجهوا جميعا نحو نهر الدانوب ، حيث استقروا فى مواضع منيعة ، ثم أخذوا يغيرون على بلاد تراقيا من أملاك الإمبراطورية(١) .

ولمواجهة هذا الخطر الجديد . لجأ الإمبراطور إلى كيجين ، فطلب إليه أن يقدم بأتباعه إلى القسطنطينية . غير أنه بينما كان كيجين وعساكره يعسكرون أمام العاصمة (القسطنطينية) ، وينتظرون أوامر الإمبراطور ، جرت محاولة فاشلة لاغتيال كيجين ، وكان المتآمرون من البجناك ، ولما تم استجوابهم فى حضرة الإمبراطور ، أعلنوا أن كيجين رسم الخطة على أن يلحق بالعصاة المتمردين(٢) . فتقرر إلقاء القبض على كيجين ، وما كاد خبر اعتقاله يبلغ أتباعه حتى بادروا إلى الانحياز إلى المتمردين وعندئذ أطلق الإمبراطور سراح تيراخ الذى أقسم بأنه سوف يلزم العصاة بالطاعة والولاء . غير أنه ما كاد تيراخ يفوز الحرية ، حتى أنكر يمينه ، وتزعم حركة العصيان والتمرد . وفى نفس الوقت حلت الهزيمة بالجيوش البيزنطية المرابطة فى الأقاليم الغربية ، وذلك بالقرب من أدرنه سنة ١٠٤٩(٣) . واستدعى الإمبراطور كل ما يستطيع أن يسحبه من الجيوش البيزنطية فى آسيا ، بعد توقيع الهدنة مع طغرل بك ، وأنفذ هذه القوات بقيادة نقفور ، ويساعده كاتا كالون النرمانى ، وهيرفيه Herve الفرنجى ، لقتال البجناك الذين تولى قيادتهم تيراخ بنفسه ، فنزلت بالجيوش البيزنطية هزيمة ساحقة سنة ١٠٥٠ ، فأضحت شبه جزيرة البلقان من الدانوب حتى أدرنه تحت رحمة البجناك(٤) .

(١) Ibid : p. 184.
Schlumberger : L'Epopée III, pp. 571—574.

(٢) Baldwin : The Crussdes, I, p. 184.

(٣) Schlumberger : L,Epopée III, pp, 577—578.
Baldwiu : The Crnsades I, p. 184.

(٤) Ibid : p. 184,
Schhlumherger : L'Epopée III, pp. 578—582.

على أن الإمبراطور البيزنطى مونوماكوس ، لم يتوقف عن الاستعداد لقتال البجناك مرة أخرى سنة ١٠٥٠ ، فاغتنم فرصة انصراف طغرل بك إلى القتال وقتذاك فى جهات أخرى بعيدة عن أطراف الدولة البيزنطية ، فتهيأ بذلك له الفرصة كيما يحشد خيرة عساكره فى الشرق والغرب ، لمواجهة البجناك[١] . ودارت المعركة الفاصلة بالقرب من أدرنة ، فى يونية سنة ١٠٥٠ ، ولم يكن حظ البيزنطيين بأحسن مما كان فى المرات السابقة ، إذ تعرضوا للهزيمة الساحقة ، ولقى بعض قادتهم مصرعه[٢] وأخذ البجناك يواصلون النهب والتخريب ، دون أن يتطرق إليهم الخوف[٣] .

وحاول الإمبراطور مونوماكوس أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية فى إخضاع البجناك ، فبعث إليهم بالزعيم كيجين ، بعد أن أطلق سراحه ، وإذ جعل كيجين خطته بأن يثير الخلاف والنزاع بين البجناك ، وبذا يجرى إخضاعهم ، فإنه لم يلبث أن لقى مصرعه على أيديهم[٤] .

على أن الإمبراطور أعد جيشاً آخر ، وجعل قيادته لنقفور بريينوس Bryennius فأنزل الهزيمة بالبجناك فى ثلاثة مواقع ، اثنتان منها بالقرب من أدرنة ، والواقعة الثالثة بالقرب من خاريوبوليس Chariopolis . وهذه الهزائم زادت فى حذر البجناك ويقظتهم ، غير أنها لم توقف غاراتهم ، التى استمرت ، سنتى ١٠٥١ ، ١٠٥٢ . وفى سنة ١٠٥٣ بذل الإمبراطور أقصى مجهود لقتال البجناك ، غير أن جيشه الذى حاول أن يطردهم من بريسلاف Preslav فى بلغاريا ، تعرض لهزيمة كبيرة[٥] .

---

(١) chlumberger : L'Epopée III, pp. 582

(٢) SIbid : pp. 583—586.

(٣) Baldwin : The Crusades, I, p. 184.

(٤) Ibid : p. 184.

Schlumberger : L'Epopée III, p. 588.

(٤) Baldwin : The Crusades I, pp. 184—185.

Schlumberger : L'Epopée pp. 589—594.

على الرغم من كل هذه الهزائم ، أقسم الإمبراطور بأن ينتقم لما لحق بجيوشه من الخسائر ، فشرع فى تجهيز جيش آخر ، وحشد القوات غير النظامية ، واستدعى إلى القسطنطينية فئات جديدة من الجند المرتزقة من النرمان والروس[١] . وأحس البجناك من جانبهم بما أصابهم من الإرهاق الشديد ، لما التزموا به من حياة الحذر والخوف المستمر ، ولمداومتهم القتال ، فضلا عما لحقهم من خسائر فى الحروب المستمرة . يضاف إلى ذلك أنهم علموا بأن الإمبراطور يعد حملة جديدة لقتالهم ، كل ذلك دعاهم إلى أن يلتمسوا من الإمبراطور الهدنة . فاستجاب لطلبهم . فتقرر أن تكون الهدنة لمدة ثلاثين سنة ، يكف البجناك أثناءها عن الإغارة على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا ، والراجح أن هذه الهدنة تم توقيعها فى القسطنطينية فى نهاية سنة ١٠٥٣ ، أى قبيل وفاة مونوماكوس ، والراجح أن الإمبراطور أجاز لهم أن يبقوا بمنازلهم فى بلغاريا ، بعد أن يتعهدوا بأن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة[٢] .

على أن البجناك لم يلتزموا السلام ، وعلى الرغم من أن قنسطنطين التاسع لم يصادف متاعب مع البجناك ، وليس ثمة ما يدل على أنهم واصلوا غاراتهم زمن تيودورا وميخائيل السادس ، فإنهم على حد تعبير أحد المؤرخين « خرجوا من أوكارهم التى اختبأوا بها » ، وانحازوا إلى المجريين فى الهجوم الذى شنوه على الإمبراطورية . وعندئذ توجه لقتالهم الإمبراطور إسحاق الأول كومنين : غير أنه حينما بلغ صوفيه ، استقبل سفارة من قبل المجريين تلتمس منه الصلح فاستجاب ، وعقد الصلح مع المجريين ، فتفرغ بذلك لقتال البجناك . على أن زعماء البجناك ، باستثناء واحد منهم ، اسمه سيلت Selte ، طلبوا إليه عقد الصلح فأقرطلبهم ، ثم التفت لقتال سيلت فأنزل به الهزيمة ، ودمر معقله ، ولم ينج سيلت إلا بالفرار إلى مستنقعات الدانوب

---

(١) Ibid : p. 594.

(٢) Schlumberger : L'Epopée III, pp. 594—595.

Baldwin : The Crausades I, p. 185.

ولم يلبث إسحاق كومنين ، عقب عودته إلى القسطنطينية أن حل به المرض فتخلى عن العرش(١) .

وواصل البجناك الغارة والنهب ، زمن قنسطنطين العاشر دوكاس ، وامتد نشاطهم حتى بلغ صوفيه ، فانهزموا أمام قوات رومانوس ديوجنيس الذى تولى بعدئذ عرش الإمبراطورية(٢) . على أن هجمات الغز Uzes وغاراتهم كانت أشد عمقاً وتدميراً من غارات البجناك . والغز قبيلة من القبائل التركية ، أكثر أصالة وأشد نبلا من البجناك(٣) . وتربطها بهم صلة بعيدة . اجتاز الغز الدانوب سنة ١٠٦٥ ، فدحروا الحاميات البيزنطية ، التى واجهتهم ، وأسروا من قادة هـذه الحاميات ، باسيل أبوكابيس Apokapes ونقفور بوتانياتس Botaniates ، وكانت هجرتهم شاملة . وتشير الروايات التاريخية إلى أن القوة الضاربة من هذه الجموع بلغت وحدها نحو ستمائة ألف مقاتل . فلما نفذ الغز إلى أراضى الإمبراطورية ، انقسموا إلى جماعات ، امتدت هجرة جماعة منها إلى سالونيك ، بل إلى بلاد اليونان ذاتها . فدمروا وقتلوا كل ما يصادفهم ، ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم . وبلغت غاراتهم مزيداً من الخطورة والعنف ، وطغى عددهم فى الإمبراطورية . واستبد بالسكان اليأس من النجاة والأمن . حتى أخذوا يفكرون فى الهجرة . وفى تلك الأثناء ، تباطأ الإمبراطور فى اتخاذ الإجراءات لمقاومة الغز ، برغم ما غلب عليه من الضيق والعناء . لأنه أحس بأن هؤلاء المتبربرين كانوا من القوة والبأس ، ما يجعل مقاومتهم ضئيلة الأهمية . فحاول أول الأمر أن يجتذب إليه زعماء المتبربرين ، بما بذله لهم من الهدايا والملطفات ، ثم غادر العاصمة آخر الأمر ، وقد زعم بأنه خرج لملاقاة العدو . على أنه حدث وقتذاك أن تحطم أساس غزو الغز ،

(١) Baldwin : The Crusades I, p. 185.
(٢) Ibid : p. 185.
(٣) Ibid : p. 185.

إذ تفشى فى صفوفهم الوباء والمجاعة ، واستبد بهم البرد القارس ، فهلك عدد كبير منهم ، ولما تحركوا صوب الشمال ، انقض عليهم البلغار والبجناك ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وأذعن للسلطات البيزنطية جماعات من الغز ، فأنزلوهم بمقدونيا كيما يفلحوا الأرض . ويمدوا الجيش بالعساكر(١) . ونال كبار هؤلاء النازلين بمقدونيا ، التشاريف والألقاب والوظائف . وما أصاب المتبربرين من كارثة يرجع فى نظر البيزنطيين إلى تدخل العناية الإلهية(٢) .

ثم تعرضت الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى ، سنة ١٠٧٣ ، زمن ميخائيل السابع ، لغارة شديدة من قبل البجناك والغز ، فبناء على نصيحة* الوزير نقفورتيز Nicephoritzes ، لم يؤد الإمبراطور ميخائيل ما هو مقرر من المرتبات للحاميات المرابطة فى المدن المنيعة الواقعة على نهر الدانوب ، فاضطرب العساكر ونزعوا إلى التمرد ، وهرعوا إلى الحاكم البيزنطى للإقليم ، واسمه نيستور Nestor ، فاغتنم الفرصة وأعلن الثورة على الإمبراطور . على أن نيستور حصل أيضاً على مساعدات من قبل البجناك والغز ، عبر الدانوب ، وتوجه بقواته إلى العاصمة رأساً ، وطلب عزل الوزير نقفورتيز ، غير أن حركته لم تلبث أن تداعت ، وانهارت ، وتخلى عنه البجناك ، فعادوا إلى مواطنهم وراء الدانوب بعد أن نهبوا البلاد التى اجتازوها(٣) .

وفى أثناء النضال الذى احتدم من أجل الوصول إلى العرش ، بعد عزل الإمبراطور ميخائيل السابع ، انصرف البجناك والغز إلى نهب البلاد والأراضى وتخريبها . وانحاز جماعة من البجناك إلى جيش الثائر باسيليا كيوس Basiliacius ، وعاث البجناك والغز فساداً فى جهات أدرنة ، أثناء نشوب الحرب بين المتنافسين على العرش . وانعقد الصلح بين نقفور بوتانياتس ، وبين البجناك والغز ، غير أن خطر البجناك وتهديدهم استمر

(١) Baldwin : The Crusades I, p. 186.
(٢) Baldwin : The Crusades I, p. 186.
(٣) Ibid : p. 186.

قائماً ، وظل يعتبر من أهم المشاكل التى كان لزاما على الإمبراطور المقبل ، ألكسيوس كومنين ، أن يواجهها(١) .

وما أقر به الكروات لباسيل الثانى من الاعتراف بالسيادة البيزنطية ، لم يستمر زمنا طويلا ، وأمدوا أطراف مملكتهم ، من سنة ١٠٧٥ تولى مندوبو البابا جريجورى السابع تتويج ديمتريوس زفونيمير Zvonimer . كما أفادت دالماشيا من الفوضى السائدة فى توطيد استقلالها ، بينما بادرت مدينة راجوزا إلى التحالف مع روبرت جويسكارد . وحاولت الصرب التخلص من السيادة البيزنطية . ونجم عن ثورة سنة ١٠٧١ التى نشبت بها ، أن غدا الحكم البيزنطى بها قلقا مضطربا ، بينما اشتدت العداوة بين الوطنيين واليونانيين فى بلغاريا ، التى لم يستكمل البيزنطيون إخضاعها ، ووجد النرمان بها عونا وتأييداً عند محاولتهم غزو الإمبراطورية البيزنطية(٢) .

وترتب على سياسة بيزنطة الخارجية فى هذه المرحلة ، أن أطرافها ارتدت إلى الوراء ، إذ فقدت بيزنطة ، جنوب إيطاليا ، والشطر الأكبر من آسيا الصغرى ، وفقدت أيضاً ما اشتهرت به فى القرن العاشر الميلادى من قدرتها على معالجة الشعوب بما يؤدى إلى تماسكها وقوتها(٣) . إذ أن رعايا بيزنطة من الأرمن والصربيين والبلغار أخذوا ينفصلون عنها ، ويناصبونها العداوة والكراهية(٤) .

ولم يقتصر الأمر على ما تعرضت له الإمبراطورية من الأخطار الخارجية ، وما ترتب على ذلك من انحسار أطرافها ، بل إن سياسة الحكومة فى الداخل أصابها الفشل الذريع . إذ حاولت أن تحطم الطبقة الأرستقراطية ،

---

(١) Baldwin : The Crusades, I, pp. 186—187.

(٢) Camb. Med. Hist. IV. p. 325.

Ostrogorowski : op. cit. p. 306.

(٣) Diehl et Marcais : op. cit. p. 563.

(٤) Ibid : p. 564.

فالمعروف أن الإمبراطور ميخائيل السابع انقاد لوزيره نقفورتيز ، الذى قبض على زمام الحكم واشتد فى تسيير أمور الحكومة ، فجعل تجارة القمح احتكاراً حكومياً ، ومنع التجارة الحرة فى القمح ، وفرض العقوبة الشديدة على من يمارسها . غير أن تداعى الحكومة المركزية ، أضعف سيطرتها على هذه التجارة ، مثلما جرى من تغاضيها عن الحظر الذى فرضته على بيع أراضى الفلاحين(١) . ومع ذلك فإن ما قام به نقفورتيز من جراءات لم تؤد إلا إلى ازدياد الكراهية ، إذ تحمل سكان المدن الخسارة اعتبارهم مستهلكين ، لأن الاحتكار لم يؤد إلى توفير المواد الغذائية ، ل كان الغرض منه سد الحاجات المالية برفع سعر الخبز ، الذى يتبعه لارتفاع العام فى الأسعار ، وارتفاع أجرة العامل ؛ فتعرض بذلك لثورات سكان القسطنطينية ، وهوى نقفورتيز ضحية لتجربته(٢) .

أما الوضع المالى والاقتصادى فى بيزنطة ، فازداد حدة ، إذ تحتم على دار الضرب أن تسك نقوداً جديدة ، اختلط فيها الذهب بالمعادن الخسيسة . فأدى ذلك إلى ازدياد انخفاض قيمة النوميزما البيزنطية ، التى ظلت أكثر من خمسمائة سنة تحتفظ بقيمتها ، وبذلك فقدت ما كان لها من شهرة عالمية فى الثبات والاستقرار(٣) .

وما اتخذته الحكومة الإمبراطورية فى هذه الفترة من سياسة إزاء الجيش ، من حيث الحط من قيمته ، وإنقاص عدد وحداته ، والإفادة من المأجورين ، كل ذلك ولد فى العساكر وقادتهم الكراهية والبغضاء للحكومة ، وزاد فى هذه المرارة ما تعرضت له الإمبراطورية من هزائم

---

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 307.

(٢) Ibie : p. 307

(٣) Ostrogorowski : op. cit. p. 309.

فى سائر المعارك الحربية(١) . وما حدث من صراع ونضال بين الحزب العسكرى والحزب المدنى ، أسهم فيما نشب من الفوضى الدائمة فى الدولة . إذ صار الجيش مستعداً للثورة والتمرد فى كل زمن ومكان فتكاثرت حركات التمرد . ومما هو جدير بالذكر أن كان بطل إحدى هذه الثورات ، فى هذه الفترة ، روسيل بابليل قائد النرمان المأجورين ، ولم تستطع الحكومة البيزنطية أن تلقى القبض عليه إلا بمساعدة الترك السلاجقة ، ثم أطلق سراحه كيما يفيد من تجربته ألكسيوس كومنين أثناء نضاله مع المتنافسين على عرش بيزنطة(٢) .

وظهر فى وقت واحد ، من بين الأرستقراطية العسكرية البيزنطية ، مطالبان بالحكم ، أحدهما فى آسيا الصغرى ، والآخر فى البلقان . ذلك أن دوق دورازو ، وهو نقفور برنيبوس ، الذى أخمد ثورة الصقالبة سنة ١٠٧٢ ، يعتبر أكبر ممثل للحزب العسكرى بالأملاك البيزنطية الأوربية ، وفى نوفمبر سنة ١٠٧٧ ، دخل أدرنة مسقط رأسه ، وأعلن نفسه إمبراطوراً وأرسل جيشاً إلى القسطنطينية . ويعتبر نقفور بوتانياتس ، قائد ثغر الناطليق خير ممثل للحزب العسكرى فى آسيا الصغرى ، ويزعم أنه ينحدر من أسرة فوقاس . وفى نوفمبر سنة ١٠٧٨ أعلن نفسه إمبراطوراً ، وزحف نحو القسطنطينية بعد أن تحقق من مساعدة سليمان بن قتلمش له . والواقع أن آسيا الصغرى ، لا زالت حتى فى هذه الأزمنة الطافحة بالفوضى ، تحافظ على تفوقها على الأملاك البيزنطية الأوربية ، إذ أن المقاومة فى القسطنطينية جعلت كل آمالها فى حركة آسيا الصغرى ، فما كاد بوتانياتس يدخل بقواته نيقية فى مارس سنة ١٠٧٨ ، حتى اندلعت الثورة فى العاصمة ، ولقيت التأييد من الكنيسة ، فتخلى ميخائيل السابع على العرش ولجأ إلى أحد

(١) Diehl et Marçais : op. cit. p. 564.

(٢) Ostrogorowski : op. cit. p. 307.

الأديرة . وجرت المناداة بنقفور بوتانياتس إمبراطورا وتوجه البطريرك(١) .

على أن الإمبراطور الجديد لم يستطع أن ينقذ الموقف ، ولم يكن عهده القصير (١٠٧٨ — ١٠٨١) سوى المرحلة الأخيرة من التفكك الذى تعرضت له الإمبراطورية . إذ لم يلبث أن نشب النضال الشديد بين القادة العسكريين للوصول إلى السلطة العليا ، وظفر بذلك آخر الأمر ، أقدرهم وأكفأهم ، وهو الفتى ألكسيوس كومنين سنة ١٠٨١ .

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 308.

ملحق « ١ »

عن أباطرة الدولة البيزنطية حتى سنة ١٠٨١

دقلديانوس	٢٨٤ — ٣٠٥

أسرة قنسطنطين

قنسطنطين الأول ، الكبير	٣٢٣ — ٣٣٧
قنسطنطيوس	٣٣٧ — ٣٦١ — انفرد بالحكم بعد ٣٥١
جوليان (يوليان) المرتد	٣٦١ — ٣٦٣
جوڤيان (يوڤيان)	٣٦٣ — ٣٦٤
ڤالنز	٣٦٤ — ٣٧٨

أسرة ثيودوسيوس

ثيودوسيوس الأول ، الكبير	٣٧٩ — ٣٩٥ — انفرد بالحكم بعد ٣٩٢
أركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨
ثيودوسيوس الثانى	٤٠٨ — ٤٥٠ — وصاية أنتيميوس ٤٠٨ — ٤١٤
مارقيان	٤٥٠ — ٤٥٧

أسرة ليو

ليو الأول	٤٧٥ — ٤٧٤
ليو الثانى	٤٧٤
زينون	٤٧٤ — ٤٩١ — اغتصب الحكم ٤٧٥ — ٤٧٦
أناستاسيوس الأول	٤٩١ — ٥١٨

أسرة جستنيان

جستين الأول	٥١٨ — ٥٢٧
جستنيان الأول	٥٢٧ — ٥٦٥
جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨ — وصاية صوفية ٥٧٣ — ٥٧٤ ، وصاية تيباريوس ٥٧٤ — ٥٧٨
تيباريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوكاس	٦٠٢ — ٦١٠

أسرة هرقل

هرقل الأول	٦١٠ — ٦٤١
— قنسطنطين الثالث	٦١٣ — ٦٤١
هراقليوناس	٦٣٨ — ٦٤١
قنسطنطين الثالث	٦٤١
هراقليوناس	٦٤١ — وصاية مارتينا ٦٤١
قنسطانز الثانى	٦٤١ — ٦٦٨
— قنسطنطين الرابع	٦٥٩ — ٦٦٨
— هرقل	٦٥٩ — ٦٨١
— تيباريوس	٦٥٩ — ٦٨١
قنسطنطين الرابع — الملتحى	٦٦٨ — ٦٨٥
جستنيان الثانى (الأجدع)	٦٨٥ — ٦٩٥

ليونتيوس	٦٩٥ — ٦٩٨	
تيباريوس الثالث ، اسبيمار	٦٩٨ — ٧٠٥	
جستنيان الثانى (المجدوع الأنف)	٧٠٥ — ٧١١	
— تيباريوس	٧٠٦ — ٧١١	
ميليبيكوس ، باردانس	٧١١ — ٧١٣	
أناستاسيوس الثانى ، أرتيميوس	٧١٣ — ٧١٥	
ثيودسيوس الثالث	٧١٥ — ٧١٧	

الأسرة الأيزورية

ليو الثالث ، الأيزورى	٧١٧ — ٧٤٠	
— قنسطنطين الخامس	٧٢٠ — ٧٤٠	
قنسطنطين الخامس	٧٤٠ — ٧٧٥	
— ليو الرابع	٧٥٠ — ٧٧٥	
ليو الرابع ، الخزرى	٧٧٥ — ٧٨٠	
— قنسطنطين السادس	٧٧٦ — ٧٨٠	
قنسطنطين السادس	٧٨٠ — ٧٩٧	— وصاية ايرين ٧٨٠ — ٧٩٠ ، ٧٩٢ — ٧٩٧
ايرين	٧٩٧ — ٨٠٢	
نقفور الأول	٨٠٢ — ٨١١	
ستاوراكيوس	٨١١	
ميخائيل الأول ، رانجابيه	٨١١ — ٨١٣	

ليو الخامس ، الأرمنى	٨١٣ — ٨٢٠	

الأسرة العمورية

ميخائيل الثانى ، العمورى	٨٢٠ — ٨٢٩	
— ثيوفيلوس	٨٢١ — ٨٢٩	
ثيوفيلوس	٨٢٩ — ٨٤٢	
ميخائيل الثالث : السكير	٨٤٢ — ٨٦٧	وصاية تيودورا ٨٤٢ — ٨٥٦ وصاية بارداس ٨٦٢ — ٨٦٦
— باسيل الأول	٨٦٦ — ٨٦٧	

الأسرة المقدونية

باسيل الأول ، المقدونى	٨٦٧ — ٨٨٦	
— قنسطنطين	٨٦٩ — ٨٨٠	
— ليو السادس	٨٧٠ — ٨٨٦	
— إسكندر	٨٧١ — ٩١٢	
ليو السادس ، الفيلسوف	٨٨٦ — ٩١٢	
— قنسطنطين السابع	٩١١ — ٩١٣	
إسكندر	٩١٢ — ٩١٣	
— قنسطنطين السابع ، بورفيروجنيتوس	٩١٣ — ٩١٩	مجلس الوصاية ٩١٣ وصاية زوى ٩١٣ — ٩١٩
رومانوس الأول ، ليكابينوس	٩١٩ — ٩٤٤	
— قنسطنطين السابع	٩١٩ — ٩٤٤	

– كريستوفر ليكابينوس	٩٢١ – ٩٣١
– ستيفن ليكابينوس	٩٢٤ – ٩٤٥
– قنسطنطين ليكابينوس	٩٢٤ – ٩٤٥
قنسطنطين السابع ، بورفيروجنيتوس	٩٤٤ – ٩٥٩
– رومانوس الثانى	حوالى ٩٥٠ – ٩٥٩
رومانوس الثانى	٩٥٩ – ٩٦٣
– باسيل الثانى	٩٦٠ – ٩٦٣
– قنسطنطين الثامن	٩٦١ – ١٠٢٥
باسيل الثانى ، جزار البلغار	٩٦٣ – وصاية تيوفانو ٩٦٣
نقفور الثانى ، فوقاس	٩٦٣ – ٩٦٩
– باسيل الثانى	٩٦٣ – ٩٧٦
حنا الأول زمسكيس	٩٦٩ – ٩٧٦
باسيل الثانى ، جزار البلغار	٩٧٦ – ٩٠٢٥
قنسطنطين الثامن	١٠٢٥ – ١٠٢٨
رومانوس الثالث ، أرجيروس	١٠٢٨ – ١٠٣٤
ميخائيل الرابع ، البافلاجونى	١٠٣٤ – ١٠٤١
ميخائيل الخامس ، قلفات	١٠٤١ – ١٠٤٢
زوى ، تيودورا بورفيرجنيتوس	١٠٤٢
قنسطنطين التاسع ، مونوماكوس	١٠٤٢ – ١٠٥٥
تيودورا بورفيروجنيتوس	١٠٥٥ – ١٠٥٦
ميخائيل السادس ، ستراتيوتيكوس	١٠٥٦ – ١٠٥٧
إسحاق الأول ، كومنين	١٠٥٧ – ١٠٥٩

أسرة دوكاس

قنسطنطين العاشر ، دوكاس	١٠٥٩ – ١٠٦٧
– ميخائيل السابع	١٠٦٠ – ١٠٦٧
ميخائيل السابع	١٠٦٧ – ١٠٦٨
رومانوس الرابع ، ديوجنيس	١٠٦٨ – ١٠٧١
– ميخائيل السابع	١٠٦٨ – ١٠٧١
ميخائيل السابع	١٠٧١ – ١٠٧٨
نقفور الثالث ، بوتانياتس	١٠٧٨ – ١٠٨١

ملحق «٢»

عن بطارقة القسطنطينية

٣٢٤ — ١٠٨١

Alexander I	٣١٤ — ٣٣٧	إسكندر الأول
Paul I	٣٣٧ — ٣٣٩	بولس الأول
Eusebius	٣٣٩ — ٣٤١	يوسيبيوس
Paul I	٣٤١ — ٣٤٢	بولس الأول
Mecedonius	٣٤٢ — ٣٤٦	مقدُونيوس الأول
Paul I	٣٤٦ — ٣٥١	بولس الأول
Macedonius I	٣٥١ — ٣٦٠	مقدُونيوس الأول
Eudocius	٣٦٠ — ٣٧٠	ايدوكسيوس
Demophilus	٣٧٠ — ٣٨٠	ديموفيلوس
Evargrius	٣٧٠	ايفارجريوس
Gregorius	٣٧٩ — ٣٨١	جريجورى الأول نازايانوس
Maximus	٣٨٠	مكسيموس الأول
Nectarius	٣٨١ — ٣٩٧	نيكتاريوس
Jean Chrysotomus	٣٩٨ — ٤٠٤	يوحنا فم الذهب
Arsacius	٤٠٤ — ٤٠٥	أرساكيوس
Atticus	٤٠٦ — ٤٢٥	أتيكوس
Sissinius	٤٢٦ — ٤٢٧	سيسينيوس

Nestoirus	٤٢٨ — ٤٣١	نسطوريوس
Meximianius	٤٣١ — ٤٣٤	مكسيميانوس
Proclus	٤٣٤ — ٤٤٦	بروكلوس
Flavianus	٤٤٦ — ٤٤٩	فلافيانوس
Anatolius	٤٤٩ — ٤٥٨	أناطوليوس
Gennadius	٤٥٨ — ٤٧١	حنًا ديوس
Acacius	٤٧١ — ٤٨٩	اكاكيوس
Fravitas	٤٨٩ — ٤٩٠	فرافيتاس
Euphemius	٤٩٠ — ٤٩٦	ايفيميوس
Macedonius II	٤٩٦ — ٥١١	مقدُونيوس الثانى
Timotheus	٥١١ — ٥١٨	تيموثيوس
John II	٥١٨ — ٥٢٠	يوحنا الثانى
Epiphanius	٥٢٠ — ٥٣٥	ايبفانيوس
Anthimius	٥٣٥ — ٥٣٦	انثيميوس الأول
Menas	٥٣٦ — ٥٥٢	ميناس
Eutychuis	٥٥٢ — ٥٦٥	يوتيخيوس
John III	٥٦٥ — ٥٧٧	يوحنا الثالث
Eutychius	٥٧٧ — ٥٨٢	يوتيخيوس
John IV	٥٨٢ — ٥٩٥	يوحنا الرابع (الصائم)
Cyriacus	٥٩٥ — ٦٠٦	كيرياكوس
Thomas I	٦٠٧ — ٦١٠	توماس الأول
Sergius I	٦١٠ — ٦٣٨	سرجيوس الأول

Pyrrhus	٦٤١ — ٦٣٨	بيّروس
Paul II	٦٥٤ — ٦٤١	بولس الثانى
Pyrrhus	٦٥٥	بيروس
Peter	٦٦٦ — ٦٥٥	بطرس
Thomas II	٦٦٩ — ٦٦٧	توماس الثانى
Jahn V	٦٧٥ — ٦٦٩	يوحنا الخامس
Constantin I	٦٧٧ — ٦٧٥	قنسطنطين الأول
Theodours I	٦٧٩ — ٦٧٧	تيودوروس الأول
Georges I	٦٨٦ — ٦٧٩	جورج الأول
Theodorus I	٦٨٧ — ٦٨٦	تيودوروس الأول
Paul III	٦٩٤ — ٦٨٨	بولس الثالث
Callinicus	٧٠٥ — ٦٩٤	كالينكوس
Cyrus	٧١٢ — ٧٠٥	كيروس
John VI	٧١٥ — ٧١٢	يوحنا السادس
Germanus I	٧٢٩ — ٧١٥	جرمانوس الأول
Anastasius	٧٥٢ — ٧٢٩	أنستاسيوس
Constantin II	٧٦٥ — ٧٥٣	قنسطنطين الثانى
Nicetas I	٧٨٠ — ٧٦٥	نكيتاس الأول
Paul IV	٧٨٤ — ٧٨٠	بولص الرابع
Tarasius	٨٠٦ — ٧٨٤	تاراسيوس
Nicepharus I	٨١٥ — ٨٠٦	نقفور الأول
Theodotus	٨٢١ — ٨١٥	تيودوتوس

Antonius I	٨٣٢ — ٨٢١	أنطونيوس الأول
John VII	٨٤٣ — ٨٣٢	يوحنا السابع
Methodius	٨٤٧ — ٨٤٣	ميتوديوس الأول
Ignatius	٨٥٨ — ٨٤٧	اجناتيوس
Photius	٨٦٧ — ٨٥٨	فوتيوس
Ignatius	٨٧٧ — ٨٦٧	اجناتيوس
Photius	٨٨٦ — ٨٧٧	نوتيوس
Stephen I	٨٩٣ — ٨٨٦	ستيفن الأول
Antónius II	٩٠١ — ٨٩٣	نطونيوس الثانى
Nicholas I	٩٠٧ — ٩٠١	قولا الأول
Euthymius	٩١٢ — ٩٠٨	يتيميوس
Nicholas I	٩٢٥ — ٩١٢	قولا الأول
Stephen II	٩٢٨ — ٩٢٥	ستيفن الثانى
Tryphon	٩٣١ — ٩٢٨	ريفون
Theophylactus	٩٥٦ — ٩٣٣	يوفيلاكتوس
Polyeuctus	٩٧٠ — ٩٥٦	بوليكتيوس
Basilius I	٩٧٤ — ٩٧٠	باسيل الأول
Antonius III	٩٧٩ — ٩٧٤	انطونيوس الثالث
Nicholas II	٩٩١ — ٩٧٩	نقولا الثانى
Sissinius II	٩٩٨ — ٩٩١	سيسينيوس الثانى
Sergius II	١٠١٩ — ١٠٠٠	سرجيوس الثانى
Eustathius	١٠٢٥ — ١٠١٩	استاثيوس

Alexius Studite	١٠٢٥ — ١٠٤٣	ألكسيوس الاستديوتى
Michael Cerularius	١٠٤٣ — ١٠٥٨	ميخائيل كريولاريوس
Constantin III Lichoudes	١٠٥٩ — ١٠٦٣	قنسطنطين الثالث ليخويدس
John VIII Xiphilin	١٠٦٣ — ١٠٧٥	يوحنا الثامن زفلين
Cosmas I	١٠٧٥ — ١٠٨١	كوزماس الأول
Eustrathius	١٨٠١ — ١٠٨٤	استراتيوس
Nicholas III Grammatikus	١٠٨٤ — ١١١١	نقولا الثالث النحوى
John IX Hieromnemn	١١١١ — ١١٣٤	يوحنا التاسع
Leo Stypiotes	١١٣٤ — ١١٤٣	ليو
Miçhael II Curcuas	١١٤٣ — ١١٤٦	ميخائيل الثانى
Cosmas II Alticus	١١٤٦ — ١١٤٦	كوزماس الثانى

ملحـــق «٣»

عن بابوات رومه

٣٢٤ — ١٠٨١ م

Sylvester I	٣١٤ — ٣٣٥	سيلفستر الأول
Marcus	٣٣٦	مرقس
Julius I	٣٣٧ — ٣٥٢	يوليوس الأول
Liberius	٣٥٢ — ٣٦٦	ليبريوس
Damassus I	٣٦٦ — ٣٨٤	دماسوس الأول
Siricius	٣٨٤ — ٣٩٩	سيريكيوس
Anastasius I	٣٩٩ — ٤٠١	أنستاسيوس الأول
Innocent I	٤٠١ — ٤١٧	إنوسنت الأول
Zosimus	٤١٧ — ٤١٨	زوسيموس
Boniface I	٤١٨ — ٤٢٢	بونيفاس الأول
Celestin I	٤٢٢ — ٤٣٢	سلستين الأول
Sextus III	٤٣٢ — ٤٤٠	سكستوس الثالث
Leo I	٤٤٠ — ٤٦١	ليو الأول — الكبير
Hilarius	٤٦١ — ٤٦٨	هيلاريوس
Simplicus	٤٦٨ — ٤٨٣	سيمبليكوس
Felix III	٤٨٣ — ٤٩٢	فيلكس الثالث
Gelasius I	٤٩٢ — ٤٩٦	جيلاسيوس الأول

Anastasius II	٤٩٦ — ٤٩٨	أنستاسيوس الثانى
Symmachus	٤٩٨ — ٥١٤	سياكوس
Hormisdas	٥١٤ — ٥٢٣	هورميداس
John I	٥٢٣ — ٥٢٦	يوحنا الأول
Felix IV	٥٢٦ — ٥٣٠	فيلكس الرابع
Boniface II	٥٣٠ — ٥٣٢	بونيفاس الثانى
John II	٥٣٢ — ٥٣٥	يوحنا الثانى
Agapetus I	٥٣٥ — ٥٣٦	أجابيتوس الأول
Silverius	٥٣٦ — ٥٣٧	سيلفيريوس
Vigilius	٥٣٧ — ٥٥٥	فيجيليوس
Pelagius I	٥٥٥ — ٥٦١	بيلاجيوس الأول
John III	٥٦١ — ٥٧٤	يوحنا الثالث
Benedict I	٥٧٤ — ٥٧٩	بنيدكت الأول
Pelagiuis II	٥٧٩ — ٥٩٠	بيلاجيوس الثانى
Gregory I	٥٩٠ — ٦٠٤	جريجورى الأول الكبير
Sabinianus	٦٠٤ — ٦٠٦	سابنيان
Boniface III	٦٠٧	بونيفاس الثالث
Boniface IV	٦٠٨ — ٦١٥	بونيفاس الرابع
Deusdedit	٦١٥ — ٦١٨	ديوسديديت
Boniface V	٦١٩ — ٦٢٥	بونيفاس الخامس
Honorius I	٦٢٥ — ٦٣٨	هونوريوس الأول
Severinus	٦٤٠	سفيرينوس
John IV	٦٤٠ — ٦٤٢	يوحنا الرابع

Theodorus I	٦٤٢ — ٦٤٩	تيودور الأول
Martin I	٦٤٩ — ٦٥٣	مارتن الأول
Eugenius I	٦٥٤ — ٦٥٧	يوجين الأول
Vitalinus	٦٥٧ — ٦٧٢	ڤيتاليان
Adeodatus	٦٧٢ — ٦٧٦	أديوداتوس
Donus	٦٧٦ — ٦٧٨	دونوس
Agatho	٦٧٨ — ٦٨١	أجاتو
Leo II	٦٨٢ — ٦٨٣	ليو الثانى
Benedict II	٦٨٤ — ٦٨٥	بنيدكت الثانى
John V	٦٨٥ — ٦٨٦	يوحنا الخامس
Conon	٦٨٦ — ٦٨٧	كونون
Sergius	٦٨٧ — ٧٠١	سرجيوس
John VI	٧٠١ — ٧٠٥	يوحنا السادس
John VII	٧٠٥ — ٧٠٧	يوحنا السابع
Sisinnius	٧٠٨	سيسينيوس الأول
Constantin	٧٠٨ — ٧١٥	قنسطنطين
Gregory II	٧١٥ — ٧٣١	جريجورى الثانى
Gregory III	٧٣١ — ٧٤١	جريجورى الثالث
Zacharia	٧٤١ — ٧٥٢	زكريا
Stephen II	٧٥٢ — ٧٥٧	استيفن الثانى
Paul I	٧٥٧ — ٧٦٧	بولص الأول
Stephen III	٧٦٨ — ٧٧٢	استيفن الثالث
Hadrian I	٧٧٢ — ٧٩٥	هادريان الأول

ليو الثالث	٧٩٥ — ٨١٦	Leo III
استيفن الرابع	٨١٦ — ٢٨١٧	Stephen IV
باسكال الأول	٨١٧ — ٨٢٤	Pascal I
يوجين الثانى	٨٢٤ — ٨٢٨	Eugene II
ڤالنتين	٨٢٧	Valentinus
جريجورى الرابع	٨٢٧ — ٨٤٤	Gregory IV
سرجيوس الثانى	٨٤٤ — ٨٤٧	Sergius II
ليو الرابع	٨٤٧ — ٨٥٥	Leo IV
بنيدكت الثالث	٨٥٥ — ٨٥٨	Benedict III
نقولا الأول	٨٥٨ — ٨٦٧	Nicholas I
هادريان الثانى	٨٦٨ — ٨٧٢	Hadrian II
يوحنا الثامن	٨٧٢ — ٨٨٢	John VIII
مارينوس الأول	٨٨٢ — ٨٨٤	Marinus I
هادريان الثالث	٨٨٤ — ٨٨٥	Hadrian III
استيفن الخامس	٨٨٥ — ٨٩١	Stephen V
فورموزوس	٨٩١ — ٨٩٦	Formosus
بونيفاس السادس	٨٩٦	Boniface VI
استيفن السادس	٨٩٦ — ٨٩٧	Stephen VI
تيودور الثانى	٨٩٧	Theodore II
يوحنا التاسع	٨٩٨ — ٩٠٠	John IX
بنيدكت الرابع	٩٠٠ — ٩٠٣	Benedict IV
ليو الخامس	٩٠٣	Leo V
سرجيوس الثالث	٩٠٤ — ٩١١	Sergius III

أنستاسيوس الثالث	٩١١ — ٩١٣	Anastasius III
لاندو	٩١٣ — ٩١٤	Lando
يوحنا العاشر	٩١٤ — ٩٢٨	John X
ليو السادس	٩٢٨	Leo VI
استيفن السابع	٩٢٨ — ٩٣١	Stephen VII
يوحنا الحادى عشر	٩٣١ — ٩٣٥	John XI
ليو السابع	٩٣٦ — ٩٣٩	Leo VII
استيفن الثامن	٩٣٩ — ٩٤٢	Stephen VIII
مارينوس الثانى	٩٤٢ — ٩٤٦	Marinus II
أجابيتوس الثانى	٩٤٦ — ٩٥٥	Agapetus II
يوحنا الثانى عشر	٩٥٥ — ٩٦٤	John XII
ليو الثامن	٩٦٤ — ٩٦٥	Leo VIII
بنيدكت الخامس	٩٦٦	Benedict V
يوحنا الثالث عشر	٩٦٥ — ٩٧٢	John XIII
بنيدكت السادس	٩٧٣ — ٩٧٤	Benedict VI
بنيدكت السابع	٩٧٤ — ٩٨٣	Benedict VII
يوحنا الرابع عشر	٩٨٣ — ٩٨٤	John XIV
يوحنا الخامس عشر	٩٨٥ — ٩٩٦	John XV
جريجورى الخامس	٩٩٦ — ٩٩٩	Gregory V
سيلفستر الثانى	٩٩٩ — ١٠٠٣	Sylvester II
يوحنا السابع عشر	١٠٠٣	John XVII
يوحنا الثامن عشر	١٠٠٤ — ١٠٠٩	John XVIII
سرجيوس الرابع	١٠٠٩ — ١٠١٢	Sergius IV

Benedict VIII	١٠٢٤ — ١١٠٢	بنيدكت الثامن
John XIX	١٠٣٢ — ١٠٢٤	يوحنا التاسع عشر
Benedict IX	١٠٤٥ — ١٠٣٢	بنيدكت التاسع
Sylvester III	١٠٤٥	سيلفستر الثالث
Gregory VI	١٠٤٦ — ١٠٤٥	جريجورى السادس
Clement II	١٠٤٧ — ١٠٤٦	كلمنت الثانى
Damassus II	١٠٤٨	داماسوس الثانى
Leo IX	١٠٥٤ — ١٠٤٩	ليو التاسع
Victor II	١٠٥٧ — ١٠٥٥	فيكتور الثانى
Stephen IX	١٠٥٨ — ١٠٥٧	استيفن التاسع
Nicholas II	١٠٦١ — ١٠٥٩	نقولا الثانى
Alexander II	١٠٧٣ — ١٠٦١	إسكندر الثانى
Gregory VII	١٠٨٥ — ١٠٧٣	جريجورى السابع

ملحق « ٤ »

عن الأكاسرة الساسانيين

٦٥١ — ٢٢٦

Ardashir I	٢٤١ — ٢٢٦	أردشير الأول
Shāpūr I	٢٧٢ — ٢٤١	شابور الأول
Harmizd I	٢٧٣ — ٢٧٢	هورمزد الأول
Bahram I	٢٧٦ — ٢٧٣	بهرام الأول
Bahram II	٢٩٣ — ٢٧٦	بهرام الثانى
Bahram III	٢٩٣	بهرام الثالث
Narssai	٣٠٣ — ٢٩٢	نرسه
Hormizd II	٣١٠ — ٣٠٣	هورمزد الثانى
Shapur II	٣٧٩ — ٣١٠	شابور الثانى ذو الأكتاف
Ardashir II	٣٨٣ — ٣٧٩	أردشير الثانى
Shapur III	٣٨٨ — ٣٨٣	شابور الثالث
Bahram IV	٣٩٩ — ٣٨٨	بهرام الرابع
Yazdigird I	٤٢٠ — ٣٩٩	يزدجرد الأول
Bahram V Ghar	٤٣٨ — ٤٢٠	بهرام الخامس جور
Yazdigird II	٤٥٧ — ٤٣٨	يزدجرد الثانى
Harmizd III	٤٥٩ — ٤٥٧	هوَرمزد الثالث
Firūz	٤٨٤ — ٤٥٩	فيروز

بلاش	٤٨٤ — ٤٨٨	Balash
قباذ الأول	٤٨٨ — ٥٣١	Kawadh
كسرى الأول أنوشروان	٥٣١ — ٥٧٩	Khusraw I
هورمزد الرابع	٥٧٩ — ٥٩٠	Harmizd IV
كسرى الثانى	٥٩٠ — ٦٢٨	Khusraw II
قباذ الثانى	٦٢٨	Kawadh II
أردشير الثالث وهورمزد الخامس	٦٢٨ — ٦٣٢	Ardashir III — Harmizd V
يزدجرد الثالث	٦٣٢ — ٦٥١	Yazdigird III

ملحق «٥»

عن الخلفاء والأمراء المسلمين

(ا) الخلفاء الراشدون

٦٣٢ — ٦٦٠

أبو بكر	٦٣٢ — ٦٣٤م	١١ — ١٣ هـ
عمر	٦٣٤ — ٦٤٤	١٣ — ٢٣
عثمان	٦٤٤ — ٦٥٦	٢٣ — ٣٥
على	٦٥٦ — ٦٦٠	٣٥ — ٤١

(ب) الخلفاء الأمويون

٦٦٠ — ٧٥٠

معاوية	٦٦١ — ٦٨٠	٤١ — ٦٠
يزيد	٦٨٠ — ٦٨٢	٦٠ — ٦٣
معاوية الثانى	٦٨٣	٦٣ — ٦٤
مروان	٦٨٣ — ٦٨٥	٦٤ — ٦٥
عبد الملك	٦٨٥ — ٧٠٥	٦٥ — ٨٦
الوليد بن عبد الملك	٧٠٥ — ٧١٥	٨٦ — ٩٦
سليمان بن عبد الملك	٧١٥ — ٧١٧	٩٦ — ٩٩
عمر بن عبد العزيز	٧١٧ — ٧٢٠	٩٩ — ١٠١
يزيد بن عبد الملك	٧٢٠ — ٧٢٤	١٠١ — ١٠٥
هشام بن عبد الملك	٧٢٤ — ٧٤٣	١٠٥ — ١٢٥
الوليد بن يزيد	٧٤٣ — ٧٤٤	١٢٥ — ١٢٦

يزيد ٧٤٤ ١٢٦

إبراهيم ٧٤٤ ١٢٦ – ١٢٧

مروان الثانى بن محمد ٧٤٤ – ٧٥٠ ١٢٧ – ١٣٢ هـ

(حـ) الخلفاء العباسيون

٧٥٠ – ١٠٨١

السفاح ٧٥٠ – ٧٥٤ ١٣٢ – ١٣٦

المنصور ٧٥٤ – ٧٧٥ ١٣٦ – ١٥٨

المهدى ٧٧٥ – ٧٨٥ ١٥٨ – ١٦٩

الهادى ٧٨٥ – ٧٨٦ ١٦٩ – ١٧٠

الرشيد ٧٨٦ – ٨٠٩ ١٧٠ – ١٩٣

الأمين ٨٠٩ – ٨١٣ ١٩٣ – ١٩٨

المأمون ٨١٣ – ٨٣٣ ١٩٨ – ٢١٨

المعتصم ٨٣٣ – ٨٤٢ ٢١٨ – ٢٢٧

الواثق ٨٤٢ – ٨٤٧ ٢٢٧ – ٢٣٢

المتوكل ٨٤٧ – ٨٦١ ٢٣٢ – ٢٤٧

المنتصر ٨٦١ – ٨٦٢ ٢٤٧ – ٢٤٨

المستعين ٨٦٢ – ٨٦٦ ٢٤٨ – ٢٥٢

المعتز ٨٦٦ – ٨٦٩ ٢٥٢ – ٢٥٥

المهتدى ٨٦٩ – ٨٧٠ ٢٥٥ – ٢٥٦

المعتمد ٨٧٠ – ٨٩٢ ٢٥٦ – ٢٧٩

المعتضد ٩٩٢ – ٩٠٢ ٢٧٩ – ٢٨٩

المكتفى ٩٠٢ – ٩٠٨ ٥٨٩ – ٢٩٥

المقتدر ٩٠٨ – ٩٣٢ ٢٩٥ – ٣٢٠

القاهر ٩٣٢ – ٩٣٤ ٣٢٠ – ٣٢٢

الراضى ٩٣٤ – ٩٤٠ ٣٢٢ – ٣٢٩

المتقى ٩٤٠ – ٩٤٤ ٣٢٩ – ٣٣٣

المستكفى ٩٤٤ – ٩٤٦ ٣٣٣ – ٣٣٤

المطيع ٩٤٦ – ٩٧٤ ٣٣٤ – ٣٦٣

الطائع ٩٧٤ – ٩٩١ ٣٦٣ – ٣٨١

القادر ٩٩١ – ١٠٣١ ٣٨١ – ٤٢٢

القائم ١٠٣١ – ١٠٧٥ ٤٢٢ – ٤٦٧

المقتدى ١٠٧٥ – ١٠٩٤ ٤٦٧ – ٤٨٧

(د) الطولونيون

أحمد بن طولون ٨٦٨ – ٨٨٤ ٢٥٤ – ٢٧٠

خمارويه ٨٨٤ – ٨٩٥ ٢٧٠ – ٢٨٢

أبو العساكر جيش ٨٩٥ – ٨٩٦ ٢٨٢ – ٢٨٣

أبو موسى هرون ٨٩٦ – ٩٠٤ ٢٨٣ – ٢٩٢

أبو المناقب شيبان ٩٠٤ – ٩٠٥ ٢٩٢

(هـ) الإخشيديون

محمد الإخشيد ابن طغج ٩٣٥ – ٩٤٥ ٣٢٣ – ٣٣٤

أبو القاسم ابن الإخشيد ٩٤٥ – ٩٦٠ ٣٣٤ – ٤٣٩

أبو الحسن على بن الإخشيد ٩٦٠ – ٩٦٦ ٣٤٩ – ٣٥٥

أبو المسك كافور ٩٦٦ – ٩٦٨ ٣٥٥ – ٣٥٧

أبو الفوارس أحمد بن على ٩٦٨ – ٩٦٩ ٣٥٧ – ٣٥٨

(و) الفاطميون

المهدى (عبيد الله)	٩٠٩ — ٢٣٤	٢٩٧ — ٣٢٢
القائم	٢٣٤ — ٩٤٥	٣٢٢ — ٣٣٤
المنصور	٩٤٥ — ٩٥٢	٣٣٤ — ٣٤١
المعز	٩٥٢ — ٩٧٥	٣٤١ — ٣٦٥
العزيز	٩٧٥ — ٩٩٦	٣٦٥ — ٣٨٦
الحاكم	٩٩٦ — ١٠٢٠	٣٨٦ — ٤١١
الظاهر	١٠٢٠ — ١٠٣٥	٤١١ — ٤٢٧
المستنصر	١٠٣٥ — ١٠٩٤	٤٢٧ — ٤٨٧

(ز) الحمدانيون

سيف الدولة	٩٤٤ — ٩٦٧	٣٣٣ — ٣٥٦
سعد الدولة	٩٦٧ — ٩٩١	٣٥٦ — ٣٨١
سعيد الدولة	٩٩١ — ١٠٠١	٣٨١ — ٣٩٢
أبو الحسن على أبو المعالى شريف	١٠٠١ — ١٠٠٣	٣٩٢ — ٩٣٤

المصادر والمراجع

1. Alföldi, A. : The Conversion of Constantine and Pagan Rome. Oxford 1948.
2. Allen, W. E. D. : A History of the Georgian People. London 1932.
3. Amari M. : Storia dei musulmani di Sicilia. Vols. I-III. Florence 1854-72 Ed. Nallino Vols. I-III Catania 1933-1937.
4. Amélineau, E. : "La Conquête de L'Egypte par les Arabes", Revue Historique XIX (1915).
5. Ashburner, W. : "The Farmer's Law". Journal of Hellenic Studies. XXX (1910).
   — : The Rhodian Sea Law. Oxford 1909.
6. Bach, E. : "Les Lois agraires byzantines du Xe siècle". Classica et Mediaevalia. V (1942).
7. Baldwin : The Crusades. Vol. I. Philadelphia 1955.
8. Bânescu, N : Un Probléme d'histoire mediévale : Création et caractère du Second Empire Bulgare. Bucharest 1943.
9. Baraclough : The Medieval Empire. London 1950.
10. Barker : Social and Political Thought in Byzantium. Oxford. 1957.
11. Baynes, N.H. : The Byzantine Empire. London 1926.
   — : Byzantini Studies. London 1955.
   — : Constantine the Great and the Christian Church. (Proceedings of the British Academy XV). London 1929.
12. Baynes and Moss (Ed.) : Byzantium. Oxford 1948.
13. Becker, C. : " The Fxpansion of the Saracens. The East ; The Cambridge Medieval History II (1913).
14. Bell, H.I. : "The Decay of a Civilization". Journal of Egyptian Archaeology X (1924).
   — : Egypt from Alexander the Great to the arab Conquest-Oxford 1948.

— : "An Epoch in the Agrarian History of Egypt." Recueil d'études égyptologiques dediées à la mémoire de Jean-François Champollion. Paris 1922.

— : "The Byzantine Servile State in Egypt". Journal of Egyptian Archaeology. IV (1917).

15. Blake, R.P. : "The Monetary Reforms of Anastasins I' and its Economic Implications". Studies in the History of Culture, the Disciplines of the Humanities. Wisconsin 1942.

— : Note sur l'activité littéraire de Nicephore 1e patriarch de Constantinople", Byzantion XIV (1939).

16. Blanchet, A. : "Les dernières monnaies d'or des empreurs de Byzance". Revue numismatique IV. 4 (1910).

17. Boak, A.E.R. : Byzantine Imperialism in Egypt". The American Historical Review XXXIV (1928).

18. Bon, A. : Le Péloponèse byzantin jusq'en 1204. Paris 1951.

19. Brâtinau, G.I. : Etudes byzantines d'histoire économique et sociale. Paris 1938.

20. Bréhier, L. : L'Eglise et L'Orient au moyen âge. Les Croisades. Paris 1928.

— : The Greek Church. The Cambridge Medieval History IV.

— : La Querelle des images VIII IX siècles. Paris 1904.

— : La Schisme orientale du XIe siècle. Paris 1899.

— : Le monde byzantine 3 vols. Paris 1947-1950.

— : L'Origine des titres impériaux à Byzance. Byzantinische Zeitschrift 15 (1906).

— : Attempts at Reunion of the Greek and Latin Churches. The Cambridge Medieval History Vol. IV.

— : "La Transformation de L'empire byzantine sous les Heraclides" Journal des Savants N.S. XV (1917).

21 Brooks, E. W. : "The Emperor Zenon and the Isaurians" The English Historical Review (1893).

— : "Arabic Lists of the Byzantine Themes." Journal of Hellenic Studies XXI (1901).

— : "The Brothers of the Emperor Constantine IV". The English Historical Review 30 (1915).

— : "The Campaign of 716-718 from Arabic Sources." Journal of Hellenic Studies XIX (1899).

— : "The Arab Occupation of Crete". The English Historical Review XXVIII (1913).

— : "Byzantines and Arabs in the Time of the Early Abbasids." English Historical Review XV (1900).

— : The Eastern Provinces from Arcadius to Anastasius. The Cambridge Medieval Histoly I.

— : Who was Constantine Pogonatus ? Byzantinische Zeitschrift XVII (1908).

22 Bury, J. B. : A History of the Later Roman Empire. 2 vols. London 1923.

— : A History of the Eastern Roman Empire. London 1912.

— : The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London 1911.

— : "The Notitia Dignitatum". Journal of the Roman Studies X (1920).

— : Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnénos." The English Historical Review IV (1889).

— : Selected Essays. ed. Temperley. Cambridge 1930.

— : "The Treatise De Administrando Imperio". Byzantinische Zeitschorift XV (1906).

— : History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene. 2 vols. London 1899.

23 Butler, A. : The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902.

24. Cahen, C. : La Syrie du Nord a l'époque des Croisades. Paris. 1940.

— : La premiére pénétration turque en Asie Mineure· Byzantion XVIII (1948).

— : La Campagne de Mantzikert d'après les sources musulmanes. Byzantion IX (1934).

25. Canard, M. : Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie. T. I. Paris. 1953.

— : " Les Expeditions des Arabes contre Constantinople Journal Asiatique CCVIII (1926).

— : "La Guerre Sainte dans le monde islamique et le monde chretien". Revue Africaine LXXIX (1936).

26 Chabot, J. : Chronique de Michel Le Syrien. Paris 1899-1910.

27 Chalandon, F. : Les Comnénes. : Etude sur l'empire byzantin au XIe et au XIIe siècles. 2 vols. Paris 1900-1912.

— : "The Earlier Comneni" The Cambridge Medieval History IV.

28. Charanis, P. : Church and State in the Later Roman Empire. Madison, Wisconsin 1930.

— : The Slavic Element in Byzantine Asia Minor. Byzantion 18 (1948).

— : On the Social Structure of the Later Roman Empire. Byzantion XVII (1944-1945).

— : Economic Factors in the Decline of the Byzantine Empire. Journal of Economic History XIII (1953).

— : The Monastic Properties and the state in the Byzantine Empire. Dumbarton Oaks Papers. IV (1948).

29. Cheronis N. D. : "Chemical Warfare in the Middle Ages" Journal of Chemical Education. XIV 8 (1937).

30 Christensen, A. S. : Iran sous Les Sassanides. Copenhagne 1944.

31. Chronicle of John, bishop of Nikiou. Trans. from the Ethiopian by Zotenberg. Paris 1883. English Translation by Charles. London 1916.

32. Coleman, C. B., Constantine the Great and Christinity New York 1914.

33. Collinet, P., : "Byzantine Legislation from the Death of Justinian (565) to 1453." Cambridge Medieval History IV.

— : Etudes historiques sur le droit de Justinien. Vol. I Paris 1912.

— : Histoire de l'Ecole de droit de Beyrouth. Paris 1925.

34. Constantinus Porphyrogenitus : De Administrando Imperio. Ed. Moravscic, and trans. by Jenkins. Budapest 1949.

35. Coulanges, F. : Histoire des Institutions politiques de l'ancienne France. 6 vols. Paris 1888-1891.

36. Cross, F. L. : The Oxford Distionary of the Christian Church, Oxford 1957.

37. Cross, S.H., The Russian Primary Chronicle. Cambridge 1930.

38. Curtis, E. : Roger of Sicily and the Normans in lower Italy 1016-1154, New York 1912.

39. Dalton, O.M. : Byzantine Art and Archaeology. Oxford 1911.

— : East Christian Art. Oxford 1925.

40. Dawkins, R.M. : "The Later History of the Varangian Guard," Journal of Roman Studies XXXVII (1947).

41. Declareuil, T. : Rome et l'organisation du droit. Paris 1924. (L'evolution de l'humanité Ed. Berr).

42. Devreesse : Le Patriarcat d'Antioche depuis la pai de l'église jusqu'a la conquête arabe. Paris 1945.

43. Dictionnaire de théologie catholique Ed. Vacant, Magenot and Amann. 15 vols, Paris 1931. (cont.).

44. Diehl, Charles : L'Afrique Byzantine. Paris 1896.

— : Etudes Byzantines, Paris 1905.

— : Figures byzantines 2e sèrie. Paris. 1906-1908.

— : Justinien et la civilisation byzantine au VIe siècle. Paris 1901.

— : Leo III and the Isaurian Dynasty. Cambridge Medieval History IV.

— : "L'Origine du régime des thèmes dans l'empire byzantin. Etudes Byzantines. Paris 1905.

— : Manuel d'art byzantin Paris 1910.

— : et Marçais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris 1936.

— : "Le Senat et le peuple byzantin aux VII et VIII siècles. Byzantion I (1954).

— : Histoire de L'Empire Byzantin. Paris 1930.

45. Diehl : Etude sur l'administration byzantine dans L'Exarchat de Ravenne. Paris 1907.

— : "La Société byzantine à l'époque des Comnenes". Revue Historique du sudest européen VI (1929).

46. Dozy : Recherches sur la littérature d'Espagne au moyen âge. Leiden 1881.

47 : Dudden. F. : Gregory the Great. London 1905.

48. Dunlop : The History of the Jewish Khazars. Princeton 1954.

49. Dvornik, F. : The Making of Central and Eastern Europe. London 1949.

— : The Photian Schism. Cambridge 1948.

— : Les Slaves, Byzance et Rome au IXe siècle. Paris 1926.

50. Engreen : Pope John VIII and the Arabs. Speculum XX (1945).

51. Enselin : The Reforms of Diocletian. Cambridge Ancient History. Vol. XII.

52. Eutychius of Alexandria. Annales. Ed. Cheikho, Carra de Vaux and Zayyat. Beirut and Paris 1906-1912.

53. Every. G. : The Byzantine Patriarchate. (451-1904). London 1948.

54. Finlay. G. ; History of the Byzantine Empire, from DCXIV to MLVII. Ed. Tozer Oxford 1877.

— : A History of Greece. Ed. Tozer. Oxford 1877.

55. Freshfield E. (Ed.) : A Manual of Eastern Roman Law. The Procheiron Nomos published by the Emperor Basil I. Cambridge 1928

— : A Manual of Roman Law. the Ecloga. Cambridge 1926.

— : Roman Low in the Later Roman Empire. Byzantine Guilds. Cambridge 1938.

56. Gibbon. Edward : The Autobiographies of Edward Gibbon Ed. Murray London 1896.

57. Gibbon : The History of the Decline and the Fall of the Roman Empire.

58. Gasquet, A. : L'Empire Byzantion et la monarchie franque. Paris 1888.

59, Gaudefroy-Demombyries : La Syrie á l'Epoque des Mamlouks. Paris 1922.

60. Gay, I. : L'Italie meridionale et l'empire byzantin. 867-1071. Paris 1904.

— : Les Popes du XIe siècle et la chretienté. Paris 1926.

61. Goubert : Byzance avant l'Islam. Paris 1954.

62. Gregoire, H, : Le peuple de Constantinople ou les Bleus et les Vèrts. Comptes rendus de l'Academia des inscriptions et Belles Lettres 1946.

— : Un Edict de L'Empereur Justinien II daté de Septembre 688. Byzantion 17 (1944, 1945).

63. Grousset, R. : Histoire de l'Armenie. Paris 1947.

64 Grumel : L'annexation de l'Illyricum oriental, de la Sicilie et de la Calabrie au Patriarcat de Constantinople. (Recherches des Sciences Réligieuses (1951-1952)

65. Gwatkin, H. M. : Studies on Arianism. Cambridge 1900.

66. Guerard, L. : "Les Lettres de Gregoire II à Leon l'Isaurien" . Mélanges d'archaeologie et d'histoire X (1890).

67. Halphen, L. : Barbarès, des grandes invasions aux conquêtes turques de XI siècle. Paris 1926.

— : "La conquête de la mediterrancée par les Européens au XIe et au XIIe siécles". Mélanges d'histoire offerts à H. Pirenne. Brussels and Paris 1926.

68. Haskins, C. H. : The Normans in European History. New York 1959.

69. Hegel, G.W.F. : Vorlesungen über die Philosophie der Geschichte Trans. Sibree London 1890.

70. Herewy (Harewy) Aboul Hassan El : Indications sur les lieux de Pélérinage. Trans. Schefer C. Archives de l'Orient Latin. Paris 1881.

71. Heyd, W : Histoire du commerce du Levant au moyen age 2 vols. Leipzig 1885. Reprint 1923.

72. Higgins, M.J. : "International Relations at the Close of the Sixth Century". The Catholic Historical Review XXVII (1941).

— : The Persian War of the Emperor Maurice I. Washington 1939.

73. Hill, G.H. : A History of Cyprus. 3 vols Cambridge 1948.

74. Holmes, W.G. : The Age of Justinian and Theodora 2 vols London 1912.

75. Honigmann, E. : The Original Lists of the Members of the Council of Nicaea, the Robber synond, and the Council of Chalcedon. Byzantion XVI (1944).

76. Hussey J. : "Michael Pséllus". Speculum X (1935).

— : "The Byzantine Empire in the Eleventh Century. Different Interpretations" Transactions of the Royal Historical Society ser. 4, XXXII (1950).

— : Church and Learning in the Byzantine Empire. 867-1185. London 1937.

77. Huttmann, M.A. : The Establishment of Christianity and the Proscription of Paganism. New York 1914.

78. Iorga N : "Les Origines de l'iconoclasme". Bulletin de la section historique de l'Academie roumaine XI (1924).

79 Janin R. : Constantinople Byzantine, Paris 1950.

80. Janssens, Y. : Les Bleus et les Verts sous Maurice. Phocas et Heraclius Byzantion III (1936).

81. John of Ephesus : Ecclesiastical History. Tr. Payn-Smith. Oxford 1860.

82. Jones, A H.M. : The Greek City from Alexander to Justinian Oxford 1940.

— : Constantine and the Conversion of Europe. London 1948.

83. Joranson, E. : "The Alleged Frankish Protectorate in Palestine". The American Historical Review XXXII (1927).

— : "The Great German Pilgrimage of 1064-1065". The Crusades and Other Historical Essays. Presented to Dana C. Munro. New York 1928.

— : The Problem of Spurious Letter of Emperor Alexis to the Count of Flanders". American Historical Review LV, 4 (1950).

84. Jugie, M. : "Michael Psellus". Dictionnaire de Théologie Catholoque XIII (1936).

— : Le Schisme byzantin. Paris 1941.

— : "Le Schisme de Michel Cerulaire". Echo d'Orient XXXVI (1937).

85. Justinian : Corpus juris civilis. Institutiones. Trans. Abdy and Walker, Cambridge 1876.

— : Constitutiones. Ed. Zacharia von Lingenthal. Leipzig 1884-1891.

— : Edicta. Ed. Zacharia von Lingenthal. Leipzig 1884-1885.

— : Digest. Trans-Monro, C. H. Cambridge 1940.

— : Institutiones und Digesta. Ed. Krueger and Mommsen. Berlin 1889.

— : Sodex Ed. Krueger. Berlin 1892.

— : Novellae Ed. Kroll. Berlin 1928.

86. Kadlec, C. : The Empire and its Northern Neighbours. The Cambridge Medieval History IV.

87. Kantarowiez E. : "Feudalism in Byzantine Empire". Feudalism in History Ed. Coulborn-Princeton 1956.

88. Kidd, B. J. : A History of the Church to A. D. 461. 3 vols. Oxford 1922.

89. Kleinclausz, A : L'Empire Carolingien. Paris 1902.

— : Charlemagne. Paris 1934.

— : "La Legende du protectorat de Charlemagne sur la Terre Sainte." Syria VII (1926).

90. Krumbacher, K. : Geschichte der byzantinischen Litteratur von Justinian bis zum ende des oströmischen reiches 527 - 1453) Munich 1891, 1897.

91. Kurtz E. : "Georgios Bardnes". Byzantinische Zeitschrift XV (1906).

92. Labourt, J. : Le Christianisme dans l'empire perse sous la dynastie Sassanide. 2nd Ed. Paris 1904.

93. Ladner, G.B. : "Origin and Significance of the Byzantine Iconoclastic Controversy". Medieval Studies II (1940).

94. Lathoud, D. : "La Consecration et la dédicace de Constantinople" Echos d'Orient XXIII (1924).

95. Laurent, J. : L'Armenie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886. Paris 1919.

— : Byzance et les Turcs Seljouoides dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081. Paris 1913-1914.

— : "Byzance et l'Origine du Sultanat de Roum". Mélanges Charles Diehl. Etudes sur l'histoire et l'art de Byzance. Paris 1930.

96. Lebon, J. : Le monophysisme severien. Louvin 1909.

97. Leclerq, H. : L'Afrique Chretienne. Paris 1904.

— : "Culte et querelles des images". Dictionnaire d'archeologie chrétienne et du liturgie.

98. Leib, Bernard : "Les Idées et les faits à Byzance au XIe Siècle. Orientalia Christiana Periodica I (1935).

— : Rome, Kiev et Byzance à la fin du XIe siècle, Paris 1924.

99. Lemerle, P. : Invasions et émigrations dans les Balkans depuis le fin de l'époque romaine jusqu'au VIIIe siècle. Revue Historique 211 (1956).

100. Lewis, A.R. : Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D., 500-1100. Princetion 1954.

101. Le Livre du préfet. English Translation. Boak. A.E.A. The Journal of Economic and Business History I (1929).

102. Loewe, H. M. : "The Seljuks". The Cambridge Medieval History IV.

103. Lombard A. : Etudes d'histoire byzantine. Constantine V, empereur des Romains (740-775). Paris 1902.

104. Lapez, R.S. : "Byzantine Law in the Eleventh Century and its reception by the Germans and the Arabs, Byzantion XVI (1944).

— : "Le probleme des relations Anglo-byzantines du septième au dixième siècle". Byzantion XVIII (1948).

— : "Silk Industry in the Byzantine Empire". Speculum XX (1945).

105. Lot F. : La Fin du Monde antique et le début du moyen âge. Paris 1927.

106. Macdonald, D.B. : The Earlier History of the Arabian Nights. Journal of the Royal Asiatic Society (1924).

107. Macri C.M. : L'Organization de l'économie urbaine dans Byzance sous la dynastie de Macédoine 867 -1057. Paris 1925.

108. Mann, H.K : The Lives of the Popes in the Early Middle Ages. London 1925.

109. Marçais : La question des images dans l'art musulman. Byzantion 7 (1932).

110. Marisq : Notes sur les Slaves dans le Péloponnèse et en Bithynie. Byzantion (1952).

111. Martin, E J. : A History of the Iconoclastic Controversy. London 1930.

112. Masbero J. : Histoire des patriarches d'Alexandrie. Paris 1923.

113, Maurice, J. : Constantin le Grand. L'Origine de la civilisation chrétienne. Paris 1925.

114 Mitard : Le Pouvoir impérial au temps de Leon VI Le Sage. Mélanges Diehl I (1930).

115. Montesquieu : Considerations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence. Trans J. Baker. New York 1882.

116. Mullinger, Bass : Albigenses. (Encyclopedia of Ethics and Religion).

117. Neumann C, : "La situation mondiale de l'empire byzantin avant les croissades. Revue de l'Orient Latin X (1905).

118. Nicolas Mysticus : Epistulae Ed. Migne (Patrologia Graeca CXI). Paris 1863.

119. Norden W. : Das Papstum and Byzanz. Berlin 1903.

120 O'Conner, John B. : "John Damascene" Catholic Cyclopedia VIII (1910).

121. Oman C. : A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols London 1924.

— : The Byzantine Empire.

122. Ostrogorowski G. : History of the Byzantine State. Trans. Joan Hussey. Oxford 1956.

— : Pour l'Histoire de la Feodalité Byzantine. Brussels. 1954.

— : Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages. Cambridg Economic History Vol I (1941)

— : Les débuts de la querelle des Images. Melanges Charles Diehl.

123. Paparrigopoulo : Histoire de la civilisation Hellenique. Paris 1878.

124. Piganiol, A. : L'Empereur Constantin Le Grand. Paris 1932.

— : L'Empire Chrétien 325-395. Paris 1947.

125. Procopius : De bello vandalico. English Translation by : Dewing.

— : De Bello Persico.

126. Psellus, Michael : Chronographia. Trans Sewter.

— : Accusation de l'Archevéque devant le Synod 63. Revue des Etudes Grecques XVII (1904). Extrait L. Bréhier, un discours inédit de Psellus. Paris 1904.

127. Rambaud, A. : L'Empire grec au dixième siècle. Constantin Porphyrogenète. Paris 1870.

— : Etudes sur l'histoire byzantine. Paris 1912.

128. Ramsay, W.M. : The Attempts of the Arabs to conquer Asia Minor (641-694 A.D.) Bulletin de la section historique de l'Academie roumaine XI (1924).

— : Historical Geography of Asia Minor. London 1890.

— : "The War of Moslem and Christian for the Fossesion of Asia Minor". Contemporary Review XC. (1906).

129. Reverdy, G. : "Les Relations de Childebert II et de Byzance. Revue historique CXIV (1913).

130. Runciman S. Byzantine Civilisation. London 1933.

— : Charlemagne and Palestine. The English Historical Review L (1935).

— : The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign. Cambridge 1929.

— : A History of the First Bulgarian Fmpire. London 1930.

— : The Medieval Manichée. Cambridge 1955.

— : Byzantium and the Slavs. (Byzantium. ed. Baynes. Oxford. 1948.

— : The Eastern Schism. Oxford 1956.

131. Schlumberger, G. : Un Empereur byzantin au dixième siècle. Nicephore Phocas. Paris 1890.

— : L'Epopée byzantine à la fin du dixième siècle. 3 vols. Paris 1896-1905.

132 Serruys, M.D. : "Les Actes du Concile Iconclaste de l'an 815". Mélanges d'archeologie et d'histoire XXIII. (1903).

133. Setton, K.M. : The Bulgars in the Balkans and the Occupation of Corinth in the Seventh Century. Speculum 25 (1950).

134. Shepard, A. M. : The Byzantine Reconquest of Crete A. D. 966. Annapolis 1944.

135. Starr : The Jews in the Byzantine Empire.

136. Stöckle, A. : Spätromische und byzantinische Zünfte. Leipzig 1911.

137. Tafel. G. L. F. & Thomas : Urkunden zur ältern Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig. Vienna 1856-1857.

138. Theophanes : Chronographia ed. Boor. 2 vols. Leipzig. 1883-1885.

139. Thatcher : A Source Book for Medieval History. New York 1905.

140. Vasiliev, A. : The Byzantine Empire. Madison 1952.

— : Byzantium and the Arabs. Trans into French. Gregoire, Canard and others : Byzance et les Arabes Vols I, II, 2 Brussels 1935-1950.

— : "An Edict of the Emperor Justinian II. September 688" , Speculum XVIII (1943).

— : "The Second Russian Attack on Constantinople. in 860-61. Cambridge. Mass 1946.

— : Justin the First. Cambridge Mass 1950.

— : "Justin the First and Abyssinia" .. Byzantinische Zeitschrift XXXIII (1933).

141. Vogt, A. : Basile 1er empereur de Byzance (867-886) et la civilisation byzantine à la fin du IXe siècle. Paris 1908.

— : "La Jeunesse de Leon VI le Sage". Revue historique CL XXIV (1934).

142. Wiet, G. : L'Egypte Arabe. (Histoire de la Nation Egyptienne IV). Paris 1937.

143. Wittek, P. : "Deux Chapitres de l'histoire des Turcs de Roum". Byzantion XI (1936).

144. Wolff, R. L. : "The Second Bulgarian Empire". Speculum XXIV (1949).

145. Zenghelis, C. : "Le Feu grégeois". Byzantion VII (1932).

146. Ziada, M. : Select Documents of Medieval History. Cairo 1959.